

الرحلة الناصرية الكبرى

تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري

(ت: 1239هـ/1823م)

دراسة وتحقيق

د. المهدي الغالي



1434هـ / 2013م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية


الرحلة الناصرية الكبرى

الرحلة الناصرية الكبرى

تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري

(ت: 1239هـ/1823م)

دراسة وتحقيق

د. المهدي الغالي

الجزء الأول

1434هـ/ 2013م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الرحلة الناصرية الكبرى
الجزء الأول

المؤلف : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الإيداع القانوني: 2013MO2093
ردمك: 978-9954-601-22-8
الطبعة الأولى: 2013

الطباعة والاخراج الفني:

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
الهاتف : 83 75 20 37 05 - الفاكس : 89 75 20 37 05
البريد الإلكتروني : editionbouregreg@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

تعد **الرحلة الناصرية الكبرى** لمحمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239/1823) «من أهم ما وضعه المغاربة في هذا الفن الذي برزوا فيه»[1]. وهي تصنف ضمن كتب الرحلات الحجازية[2]، التي تعتبر عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي، وتندرج ضمن «منطق إسلامي دعا ويدعو المؤمن دوما إلى إعداد نفسه وروحه للرحلة الكبرى، وذلك عن طريق رحلات صغرى، من ضمنها أداء فريضة الحج»[3].

فإذا كانت الرحلة الحجازية تتم تلبية لنداء ديني، وتسهم في تكوين الحاج روحيا وعلميا، وتمكن -على مستوى الرمز- من الالتفاف والتضامن، وتجسد القوة[4]، فإنها تنفرد كذلك، بإفادات مهمة نتجت عن المشاهدة والاحتكاك. وقد يصل الأمر بصاحبها إلى تسجيل أهم ما يتعلق بها في تقرير، يصير وثيقة تاريخية وجغرافية تزخر بالعديد من النصوص المفيدة والمواضيع والمعارف المتنوعة، التي لا يمكن للمشتغل بحقول العلوم الإنسانية أن يتجاهلها أو يستغني عنها؛ خاصة وأن الرحالة قد اعتاد على وصف مختلف الأمصار والأشخاص والأحداث التي تصادفه أثناء سفره، خلافا للكتابة التاريخية التقليدية التي تختار مسبقا عناصر موضوعها.

---

1 - عبد الرحمان الفاسي : **منتخبات من نوادر المخطوطات**، الخزانة الملكية، الرباط، 1398/ 1978، ص 153.

2 - وصفت بذلك لأن أصلها الرغبة في أداء فريضة الحج، عبر التوجه إلى منطقة الحجاز.

3 - عبد المجيد القدوري : "صور عن أوربا من خلال ثلاث رحلات مغربية وبعض المراسلات الرسمية"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، عدد 15 سنة 1990، ص 45.

4 - لاحظ إلياس كونتي بأن الإسلام قد ركز على التفاف المسلمين والذي كان يتم على الأقل يوم الجمعة وفي موسم الحج وفي الجهاد.

E Conetti :*Masse et puissance* Paris,Gallimard, 1960 , P 150- 152.

وتعتبر الرحلة الحجازية أهم الرحلات التي يستفيد منها المسافر كل هذه الفوائد: الحج والعلم ومعرفة الطرق والمشاهد المتنوعة[1]. فلا غرو أن تكون نصوصها منجما لا ينضب، من حيث المعطيات الإخبارية والبيوغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والذهنية[2].

وقد اشتهر هذا النوع من التأليف لدى المغاربة منذ وصول الإسلام إلى الشمال الإفريقي، إذ تنطلق الرحلات من المغرب إلى المشرق، قبل مدة معلومة من حلول موسم الحج، لقضاء الفريضة وتحصيل العلم. وكان لها دائما «دورها الهام في الاتصال بين أهل المغرب وإخوانهم في البلاد الإسلامية بالمشرق، الأمر الذي رسخت معه روابط اللغة والدين حتى بعد أن تبددت الوحدة السياسية»[3].

ونظرا لأهمية الرحلة الحجازية، فقد كان يتم اختيار قادة الركب - سواء من الحكام أو الجهة المنظمة - غالبا من العلماء أو أقطاب الصوفية. ومن بين الطوائف التي تصدر شيوخها لتنظيم ركب حاج خاص بهم، منذ 1070 /1659-1660، الطائفة الناصرية[4] التي ينتمي إليها محمد بن عبد السلام الناصري، صاحب الرحلة التي بين أيدينا. ونعتبر هذه الرحلة تتويجا لرحلات الناصريين إلى المشرق، خاصة وأنها الأخيرة من نوعها.

استهل محمد بن عبد السلام الناصري تدوين رحلته قائلا: «وبعد، فإني قاصد، بعد استخارة الحق سبحانه، إلى تقييد ما عنّ لي في سفري للحرمين الشريفين من وصف المراحل والبلدان والمياه، وذكر من لقيته من الفضلاء، وما أجبت به عن سؤال بعض النبلاء، وبيان ما زرته من الأحياء والأموات،

1 - محمد مكامان : **الرحلات المغربية في القرنين 17 و18م**، رسالة مرقونة بمكتبة كلية الآداب بالرباط، 1986، 1/ 4.

2- عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة (منسقان) **السفر في العالم العربي والإسلامي، التواصل والحداثة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2003، "تقديم" ص 11.

3 - حسين محمد فهيم : "أدب الرحلات"، **عالم المعرفة**، عدد 138 يونيو 1989، ص199.

4 - أحمد عمالك :"إسهام الزاوية الناصرية في ربط الصلات بين بلدان الشمال الإفريقي خلال القرنين 11و12هـ/17و18م"، **مجلة دار النيابة**، عدد22، السنة 1989، ص 18.

وغير ذلك من الحوادث والنوادر والأخبار، متكلا في بيان ذلك على الواحد الأحد الغفار. والباعث على ذلك، وإن كنت لا من أولئك ولا ممن يليق أن يسلك تلك المسالك، خدمة العلم الشريف والتعرض لنفحات الجناب النبوي المنيف».

ونجد رحلة الناصري زاخرة بالمعلومات والاستطرادات الكثيرة حول المناطق والمجتمعات التي مر بها في طريقه، الشيء الذي جعلها تسهم في جمع المعرفة والمحافظة عليها، خاصة وأن النقول والإجازات التي استوعبتها وردت منسوبة إلى أصحابها. هذا، فضلا عن تراجم العديد من العلماء وأخبار التصوف والمتصوفة، وذكر ما انتشر من البدع وقلة العلم بالمشرق العربي ومغربه. وتعد هذه الرحلة أيضا من أهم وأغنى الرحلات الحجازية في الغرب الإسلامي، حيث امتازت عن غيرها بتحيين المعلومات التاريخية، وتدقيق الأماكن التي مر بها صاحبها. وتبقى نصوص الإجازات التي استوعبتها الرحلة أكثر تعبيرا عن التواصل بين المغرب والمشرق الإسلاميين.

لقد أراد الشيخ ابن عبد السلام الناصري لرحلته أن تكون، كما وصفها، «ديوان علم وسمر»، «فاستوجبت أن تدعى نادرة الزمان وأعجوبة العصر والأوان. وما هي في المثل إلا ككتاب المستطرف، أخذ من كل علم بطرف، طالما جنت من الفروع أطيب الأزهار، واقتبست من الكتاب والسنة أنقى الأنوار، مع ما شحنت به من الأخبار المعجبة، والحكايات المستعذبة المطربة، وفي طي ذلك علوم عجيبة، ونكت من اللطائف غريبة، تنفعل لها نفس اللبيب، وتحن للإصاخة إليها جبلة الأريب. أفرغت في قوالب مختلفة من أنواع البيان، وتجلت في حلل حيكت على ألوان. فطورا تفتك بعقبها في عسكرها المعقول، وتارة تجري بفلكها لجج المنقول، وحينا تتعاطى الآداب، وأحيانا تغترف من السنة والكتاب، وفي ضمن ذلك تشهد لمن حررها بأنه حاز قصب السبق وأحرزها.

1. ترجمة المؤلف[1]

حياته :

ينتمي محمد بن عبد السلام الناصري، صاحب الرحلة، إلى الزاوية الناصرية. وهي من أهم الزوايا التي اضطلعت بدور كبير من أجل صيانة الثقافة الإسلامية والمحافظة عليها، رغم تزامن تأسيسها مع الاضطرابات التي عرفها المغرب إبان أفول الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية. وقد وفرت هذه الزاوية الشروط اللازمة للإقبال على الزيارة والعلم، منذ تأسيسها على يد الشيخ محمد بن ناصر[2].

---

1 – ترجم له كثيرون: أحمد بن خالد الناصري: **طلعة المشتري في النسب الجعفري**، نشر المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم سلا، مطبعة سيرار، الدار البيضاء، د. ت، 2/ 162 – 166 ؛ عبد السلام ابن سودة : **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، الجزء الأول 1960، والجزء الثاني 1965، 1/ 56– 57 ؛ محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيال، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424/ 2003، 1/ 546 رقم 1534 ؛ **إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع**، لعبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 1 السنة 1417/ 1997، 1/ 133 ؛ عباس بن إبراهيم المراكشي : **الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام** المطبعة الملكية بالرباط 1974 –1983. ، 5/ 189 – 194 و6/ 192 – 217 ؛ عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، دار الغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الثانية، 1402 / 1982، في جزءين، باعتناء إحسان عباس، 2/ 843 – 848 ؛ عمر كحالة، **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 10/ 170؛ إدريس القيطوني **معجم المطبوعات المغربية**، تقديم عبد الله كنون، مطابع سلا، 1988، ص 346 ؛ محمد الأخضر، **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075– 1311/ 1694–1964)**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1397/1977. ، 368 – 377 ؛ محمد داود، **تاريخ تطوان**، المطبعة المهدية، تطوان، 1964، 3/ 87؛ محمد الفاسي، **دعوة الحق** عدد 4 سنة 1959 ص 23 – 24 ؛ **الأدب المغربي** لعبد الله كنون 1/ 308؛ عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، 4/ 145 – 170 محمد حجي، **موسوعة أعلام المغرب**، دار الغرب الاسلامي، 1417 / 1996، 7/ 2516؛ **معلمة المغرب**، 22/ 7394 ؛ المنوني، **المصادر**. . . 33– 34 و 51–50؛ االزركلي، **الأعلام** 6/ 206؛ أحمد الأمين العمراني، **الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي**، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1417/ 1996، 1/ 417– 418 و 2/284 – 304. .

2 – حول تأسيس الزاوية الناصرية أنظر: أحمد عمالك : **جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 1427/ 2006، 1/ 75– 110.

فصاحب الرحلة هو محمد بن عبد السلام بن محمد الكبير بن الشيخ مَحمد بن ناصر الدرعي التامكروتي، «آخر كبار شيوخ الزاوية الناصرية والطريقة الشاذلية»[1]. ولد بتامكروت سنة 1145/ 1732 [2]، وتلقى تعليمه الأول بمقر الزاوية الناصرية، مستفيدا من مشايخها وخزانتها[3] التي ضمت أمهات الكتب، وما يحتاجه طالب العلم من شروح ومختصرات وحواش. حفظ القرآن الكريم، وهو ابن تسع سنين، على يد عمه شيخ الجماعة أبي يعقوب يوسف بن محمد الكبير[4]، «فورث سره»[5].

انتقل إلى فاس التي ذكر أنه نزل بها في سنوات السبعين[1170/ 1757]، فأخذ بها عن مشاهير شيوخها، أمثال الشيخ محمد بن قاسم جسوس، والشيخ إدريس العراقي، والشيخ محمد التاودي ابن سودة، كما رحل إلى المشرق مرتين لأداء فريضة الحج. الرحلة الأولى كانت سنة 1196/ 1782، كتب على إثرها مصنفا ضخما عرف بـ«الرحلة الناصرية الكبرى»، موضوع تحقيقنا. أما الرحلة الثانية، فكانت سنة 1211/ 1796، وكتب على إثرها هي أيضا مصنفا عرف بالرحلة الصغرى.

وتبرز المصادر الكثيرة والمتنوعة، التي تناولت شخصية محمد بن عبد السلام الناصري، المكانة الهامة التي حظي بها. قال في حقه عبد القادر

1 - الأخضر، **الحياة**. . .، 368.

2 - الجيشتيمي عبد الرحمان، **الحضيكيون**، تقديم وتحقيق المجلس العلمي المحلي لترودانت، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، 1432/ 2010، ص 124 هامش 4. وهو المصدر الوحيد من مصادر ترجمة الناصري الذي وقفنا فيه على إشارة لتاريخ ولادته.

3 - راجع حول أهمية هذه الخزانة: المنوني **دليل**. . . ؛ حركات، إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1408/ 1987 ص. 308؛ المنوني: "حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار"، **دعوة الحق** عدد2 و 3 السنة 1973م؛ **دور الكتب في الماضي والحاضر**، منشورات الخزانة الحسنية، 2005م، ص 73؛ أحمد شوقي بنبين: **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية، 2003م؛ عبد الحي الكتاني: **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب**، تحقيق أحمد شوقي بنبين و عبد القادر سعود، منشورات الخزانة الحسنية، 2004م.

Latifa Benjelloun : *Les bibliothéques au Maroc* , Edition G-P ,Maisonneuve et Larose , 1990.

4 - ترجم له: عمالك، **جوانب**. . .، 140 -145؛ الناصري، **طلعة**. . .، 2/ 143 - 145.

5 - **م. س**.

الكوهن بأنه «خاتمة الحفاظ بالديار المغربية»[1]، ووصفه عبد الحي الكتاني بحافظ صقعه، مقرا بأنه «لم يكن في تلاميذ العراقي أشهر منه، وأكبر سعة وكثرة رواية وعلو إسناد وطول بحث وتنقيب»[2]. بل، اعتبره «نادرة المغرب وأعلم علماء البيت الناصري بالفقه والحديث، وأوسعهم رواية، وأجسرهم قلما، وأعلاهم إسنادا»[3]. وقال أحمد بن موسى العروسي في حقه: «الفاضل اللوذعي النحرير الكامل مجمع الفضائل»[4].

أما أحمد بن خالد الناصري فقال عنه في طلعة المشتري: «كان علامة أديبا فقيها محدثا حافظا فاضلا، لم يأت بعد الشيخين[5] في آل ناصر من هو أعلم منه»[6]، في حين اعتبره الباحث محمد الأخضر من «أكبر الفقهاء والأدباء» في عصره[7]. أما حمد الجاسر فقد اعتبره مجتهدا «في عصر طغى فيه الجمود الفكري وانتشرت البدع والخرافات. ومن قرأ مؤلفاته عجب من سعة اطلاعه على أمهات كتب الحديث والتفسير، فضلا عن كتب علماء مذهبه من المالكية، ولهذا كان يجنح في بعض آرائه إلى الاجتهاد وعدم التقيد بنصوص المذهب»[8]. وقد كانت له منزلة عالية عند السلطان مولاي سليمان، «يكلفه الناس الدخول على السلطان فيسعفهم على كبر سنه، فيأتي من درعة إلى مراكش وسوس في قضاء حوائج المسلمين... »[9] و«فكان إذا حج أرسل معه – مولاي سليمان- أموالا جزيلة بقصد تفريقها على علماء مصر والحرمين الشريفين وأشرافهما»[10].

1 – الكتاني، **فهرس**...، 2/ 820 ؛ المراكشي **الإعلام**...، 6/ 192.

2 – الكتاني، **فهرس**...، 2/ 847.

3 – م. س، 2/ 843

4 – م م و م م، رقم 88 ج، ص118.

5 – المراد بالشيخين: الشيخ مَحمد بناصر وابنه أحمد.

6 – الناصري، **طلعة**...، 2/162.

7 – الأخضر، **الحياة**...، 368.

8 – حمد الجاسر، **ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي**، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الثانية 1403/ 1983، ص 36.

9 – الجشتيمي، **الحضيكيون**، ص 124.

10– الناصري، **طلعة**...، 2/ 162.

يقول في **الرحلة الصغرى**: « ولما اطمأنت بنا الدار واستقر بنا القرار وسمع أمير مكة أن سلطان المغرب مولانا سليمان نصره الله بعث بصدقة تفرق على يدي، بعث إلي بعض خواصه في أبهة يقول لي: إني لا أحسن التفرقة، وأهل مكة أعرف بشعابها، وهو الذي يعرف المستحق من غيره. فأجبته – وكان ذلك ليلا – إني غير مأمور بالدفع إليك، فعند ذلك بعثت في الحين للشرفاء والعلماء والمؤذنين والفراشين وسدنة الكعبة ففرقتها، معتمدا على مكتوب الإمام بخطه معينا لكل فريق ما يأخذ، فاتصل كل بما عين له في الكتاب... مشهدا على ذلك علماء المذاهب الأربعة، فما أصبحت وبيدي مما عين لهم دانق، فقضى أهل مكة العجب من رد أمر أميرهم، فكفانا الله شره»[1].

عرف عن محمد بن عبد السلام الناصري شغفه بالكتب، فهو « رحالة لا يبالي بالتعب»، يقول: «ولقد كنت في وجهتي للحرمين مرتين، ولا حرمنا الله من العود، أبحث كل البحث عن الكتب بالحرمين ومصر وطرابلس وتونس... »[2]. فكان يتردد على أسواقها، بحثا عن أنفس الكتب. ويدل على ذلك عشرات المخطوطات التي وقف عليها أو اشتراها أو استنسخها أو وصفها أو ذكرها في هذه الرحلة، لدرجة أنه خصص فصلا للحديث عن الكتب التي شاهدها بمكة، عنونه بـ«فصل في ذكر ما شاهدت بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته إلا نادرا في خصوص خزانتنا»[3]. وكان كلما وقف على كتاب إلا ودعا الله أن يمن على خزانة تامكروت بمثله، فقد قال لما وقف على نسخة كاملة من تقييد أبي الحسن الصغير على تهذيب البرادعي للمدونة: «وليس في الخزانة الناصرية من تقييد الشيخ أبي الحسن هذا إلا جزآن، نسأل الله تعالى أن يكمله لنا، فنعم الكتاب»[4].

---

1 – الناصري، **الرحلة الصغرى**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 121. ص 121– 122.

2 – محمد بن عبد السلام الناصري، **المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا**، دراسة وتحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 1424/ 2002، 147.

3 – انظر الصفحة 567.

4 – انظر الصفحة 204.

لقد كان اهتمامه بالكتب كبيرا وحرصه على اقتنائها شديدا، بل اعتبر عدم العناية بها من البدع التي أحدثت بالزاوية الناصرية. قال في البدعة الخامسة والأربعين من كتاب المزايا: «ومما أحدِث بها تضييع خزانة الكتب بها، بتركهم معاهدتها كل سنة مرة... والآن أهمل ذلك فنشأ عنه ضياع الكتب، وجهلها حتى إن طلب منهم الآن كتاب لا يعرفون أهو في خزانتهم أم لا، وسير بها إلى الآفاق... ونحو ما وقع هنا وقع في خزانة القرويين بفاس. أدركنا بعض الضبط والحزم فيها، ثم تفرقت في أيدي الطلبة شذر مدر، وأعرض من ولي النظارة عن تعاهدها فأفضت إلى البيع لا سيما زمن الوباء إلى الآن. فيا أسفي عليها فهي بها من أمهات الدواوين القديمة في كل فن... ومثل هذا وقع في خزائن كتب مراكش التي بالمواسين، وابن يوسف، وباب دكالة، بل وبزاوية أبي العباس السبتي. لقد بحثنا عنها، ودخلنا بعضها فلم نجد بها ما يشفي الغليل ولا ما يبرئ العليل، إلا بعض المجلدات المتداولة، نسأل الله السلامة والعافية من بلية قلة العلم وذهاب أهله، وفُشُوّ الجهل وغلبة أهله»[1].

تتلمذ محمد بن عبد السلام الناصري على كثير من شيوخ المغرب، أمثال: والده عبد السلام بن محمد الكبير بن الشيخ مَحمد بناصر، وعمه أبي يعقوب يوسف بن محمد الكبير بن الشيخ مَحمد بناصر، وأبي العباس أحمد بن علي سبط الشيخ ابن ناصر، ومحمد بن أبي القاسم السجلماسي الرباطي، ومحمد بن أحمد الحضيكي، وأحمد بن محمد الورزازي التطواني، ومحمد التاودي ابن سودة المري القرشي الأندلسي، علامة وإمام المغرب في عصره، وأبي العباس أحمد بن عبد الجليل الشرايبي، وعبد الرحمان بن إدريس المنجرة إمام زاوية المولى إدريس... إلخ.

ومن شيوخه المشارقة، الحافظ محمد مرتضى بن محمد الحسيني العلوي الزبيدي العراقي، ومحمد بن محمد الجوهري الخالدي الشافعي، وأبو داود سليمان الجمل المصري الشافعي الخلوتي محشي الجلالين، وأحمد بن محمد الدردير

1 - الناصري، **المزايا...**، ص 144- 147.

المالكي المصري، ومحمد بن محمد بن عبد الله المغربي المالكي، وعلي بن محمد الشرواني، محمد بن خالد بن أبي بكر الجعفري... وآخرين كثر.

وتتلمذ على يديه، ابنه أبو عبد الله محمد المدني بن عبد السلام الناصري الدرعي، ومحمد بن محمد التهامي الرباطي، ومحمد بن علي السوسي، وأحمد بن علوي باحسن الشهير بجمل الليل، ومحمد بن قدور الزرهوني، وأبو الحسن علي التودغي، ومحمد بن عبد السلام البيجري المكناسي، والقاضي العربي بن الهاشمي العزوزي الزرهوني الفاسي، وأحمد بن علي الدمنهوري، وعلي بن عبد البر الونائي، وعبد الحليم الفيومي الضرير المصري... إلخ.

خلف محمد بن عبد السلام الناصري سبعة أبناء -مات أربعة منهم في حياة أبيهم- هم أحمد الحبيب، ومحمد المدني، والتهامي، والتهامي (آخر)، والمكي، وإسماعيل. وتوفي هو نفسه ليلة السبت ثاني عشر صفر سنة 1239 [18/ أكتوبر1823]، مخلفا تراثا علميا واسعا.

مؤلفاته:

في مقدمة مؤلفات محمد بن عبد السلام الناصري، تأتي **«الرحلة الناصرية الكبرى»** -موضوع تحقيقنا- وهي أشمل مؤلفاته وأوسعها.

- **الرحلة الناصرية الصغرى**: وصف فيها مسيره لقضاء فريضة الحج للمرة الثانية سنة 1211[3/ نونبر1796]، كما ضمنها عددا من أجوبته الفقهية عن النوازل التي سئل عنها في رحلته.

من مخطوطاتها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 121 آخرها: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتمحى الذنوب والسيئات... نجز تبييض هذه الرحلة المباركة في الثاني من ذي القعدة على يد مؤلفها محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن محمد بن ناصر ختم الله له بالإيمان وأناله مقام الإحسان آمين آمين. ووافق تمام الختم في 29 من شهر الله المعظم رمضان عام 1213 والحمد لله رب العالمين»[1].

1 - الناصري: **الرحلة الصغرى** ص 217.

- **المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا** : تحدث فيه عن البدع التي أحدثت بالزاوية الناصرية وعددها ستون، مخالفة لما جرت عليه الأمور أيام شيوخ الزاوية الثقات الأوائل الذين ما حادوا عن نهج السلف الصالح. ويشتمل في نفس الوقت على انتقاد شيخ الزاوية ابن عمه أبي الحسن علي بن يوسف. وهو مطبوع، من مخطوطاته : رقم 12013 و4297 بالخزانة الحسنية ورقم 3548 د بالمكتبة الوطنية بالرباط.

- **شرح الأربعين حديثا في ترك الظلم** : شرحها بطلب من جامعها محمد الجوهري لما لقيه في رحلته للمشرق. أوله : نحمدك يا من خضعت له أعناق الجبابرة، وعنت له وجوه الأكاسرة....

آخره : بخط شارحه الإمام القدوة محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فرغ من تأليفه يوم السبت 3 جمادى الأولى سنة 1200[/4 مارس1786]. من مخطوطاته : نسخة رقم 137 ق ضمن مجموع (ص1- 109) بالخزانة الوطنية بالرباط.

- **قطع الوتين من المارق في الدين أو الصارم البتار فيمن أفتى ببيع الأحرار**، فرغ منه منتصف شعبان 1208[/17 مارس1794]، أجاب به من استفسره في جواز بيع الإنسان أولاده في زمن المجاعة التي حلت بالمغرب سنة 1208/ 1793 ورد فيه على من أفتى بجواز ذلك. قال في مقدمته: «... أما بعد فإنك أيدك الله بتوفيقه، وأذاقنا وإياك حلاوة الحق وتحقيقه سألت: هل يجوز للإنسان بيع أولاده في هذه المسغبة لحاجة فادحة لحقته ولحقت أولاده، وأن بعض من ينتمي للعلم وليس من أهله، أفتى العامة بذلك، فارتكبوه فتداولت الأملاك الأحرار، وسير بهم إلى الآفاق، وانتقل اسم الحرية عنهم... وقد جرت عادة السلف رضي الله عنهم في الأجوبة بنعم أولا، ولكن والزمان زمان، والرجال رجال، وأما اليوم فيجب البسط في الجواب لأهل الدعوى

والعناد، والجهل والفساد». من مخطوطاته بالخزانة الوطنية بالرباط : نسخة رقم 1079 د ضمن مجموع (107ب– 115أ).

– **المستصفى في حلية السكر المصفى**، بين فيه حكم شرب السكر، وتاريخ صنعه، وحكم طعام الكفار. كما رد فيه على من ذهب إلى تحريم السكر المستورد من بلاد غير إسلامية. فرغ من تأليفه سنة 1229 [/1814–13]. من مخطوطاته : نسختان بمكتبة عبد الله كنون بطنجة رقم 10104 و10116.

– **الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس** (التنكيس: قراءة القرآن على غير ترتيب المصحف صاعد من أسفل إلى أعلى). من مخطوطاته : نسخة رقم 2210 د ضمن مجموع من ص 136– 148 و رقم 123ج من ص 435– 443 بالخزانة الوطنية بالرباط ورقم 5923 بالخزانة الحسنية بالرباط.

– **مناقب الأولياء**، مخطوط بالخزانة الوطنية رقم 137 ق. ومصنفات أخرى. ينضاف إلى كل هذا مجموعة من التقاييد والإجازات، وتضم إجازاته لتلاميذه وإجازات شيوخه المشارقة والمغاربة، وبعض من رسائله، وحتى أشعاره. وأغلب أثاره ما تزال مخطوطة، محفوظة بالخزانة الحسنية أو المكتبة الوطنية بالرباط، تحتاج إلى من يحققها ويضعها بين أيدي القراء.

2. أهمية الرحلة

يتبين أن محمدًا بنَ عبد السلام الناصري، في رحلته هاته، قد احترم منذ المقدمة قواعد التصور المنهجي للتأليف، حيث حدد موضوعه ودوافعه، وصاغ مقدمته صياغة بليغة تتوافق وما طرقه في المتن. وأفصح أيضا أن الكتاب أراده أن يكون «ديوان علم وسمر»[1]، لأن وجود الأمرين «أدعى لنشاط الناظر:

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال»[2].

فجاءت الاستطرادات التي تشيع في مختلف فصول الكتاب لتفي بهذا الغرض، إذ يعمد المؤلف إلى التطرق إلى كل ما يلاحظه أو يعيشه خلال الرحلة، مع الحرص على التفاصيل، سواء في الوقوف على المراحل أو الأماكن، أو ما يعترض الحجاج. بل يستطرد في شرح الأحداث والوقائع ودواعيها مع الإتيان بالأدلة والنقول. ونجد في الرحلة أيضا، أجوبته عن العديد من القضايا التي طرحت عليه، وكذلك إجازات شيوخه وسنده في التصوف، أو الطرق التي تلقاها. إن كل هذا قد جعل الرحلة تخرج في حجم كبير، غني بالمعارف والطرائف، بأسلوب يجعلك ترحل مع المؤلف لتجوب معه مختلف مراحل الرحلة دون أن تشعر بالملل أو الضياع.

فهو يتحدث عن أمر فينصرف عنه لآخر ولا يلبث أن يعود إليه مع التنبيه إلى ذلك بقوله «رجوع». فهو يوضح أن الموضوع الأول هو محور الحديث، فإذا كان أحد شيوخه فهو يترجمه ويذكر علاقته به، ومناقبه وكراماته وأخباره وسنده وبعضا من كلامه ومروياته وأشعاره، وإذا كان مكانا فهو يحدد موقعه وما قيل فيه، شارحا ومصححا، لا يمر مرورا عابرا بالمكان الذي يحل به في طريقه إلى الحج أو في رجوعه منه. فهو كما يعود إلى المصادر يسأل ويبحث

1 - انظر الصفحة : 751.

2 - انظر الصفحة: 683 .

ويتثبت، ويقارن ويرجح، تسعفه في ذلك ذاكرته القوية، فيتذكر ما قرأه في كتب التاريخ والفقه والحديث وغيرها، وما سمعه من شيوخه.

فرحلة ابن عبد السلام الناصري تجيبنا عن العديد من الأسئلة من قبيل: أهداف وغايات الرحلات الحجازية؟ كيف كان المغاربة ينظمون ركابهم؟ من كان يخرج للحج؟ ما هي أهم المحطات التي ينزلون بها والأهوالِ التي اعترضتهم؟ وما طبيعة التأثيرات المتبادلة مع سكان المناطق التي كانوا يقصدونها في حلهم وترحالهم؟ وكيف كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية والمذهبية والعلمية بالمغرب والمشرق الإسلاميين يومئذ؟

لم يكتف الناصري بنقل ما قيل من خطأ وصواب وتكراره على عادة أكثر من تقدمه من المؤلفين، وإنما يعرض الوقائع وينتقدها بكيفية موضوعية ومنطقية، ويصحح الخطأ ويحين المعطيات «والقصد الوقوف على الحقيقة» كما قال[1]. فهو ملاحظ مدقق، وناقد خبير، يستدرك على العديد من أمهات الكتب والمصادر (مثل **سيرة ابن اسحاق والمسالك والممالك والروض المعطار**...) وعلى الرحالة الذين سبقوه (كالعبدري والعياشي والتجاني وغيرهم).

وحتى نتمكن من الوقوف على هذه القيمة التي تميزت بها رحلة ابن عبد السلام عن سابقاتها نشير إلى بعض الفقرات، على سبيل المثال لا الحصر:

جاء في الرحلة: «وقول ابن إسحاق: غزوة الأبواء وهي ودان يقتضي أنهما اسم لموضع واحد؛ وليس كذلك، فقد سألت سكان هذه البلدة من الأعراب فقالوا: هما موضعان. وفي **القاموس**: «والأبواء موضع قرب ودان»[2].

وفي انتقاده للعبدري أثناء حديثه عن طرابلس قال الناصري: «ولو تتبعنا ما وقفنا عليه من مدح» طرابلس وأهلها لخرجنا بذلك عن المقصود ولا التفات لقول الإمام العبدري في رحلته: «ثم وصلنا إلى مدينة طرابلسِ، وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عروس، أقفرتْ ظاهرا وباطنا... بل هي أَقْفَرُ من جوف حمار»، وأهلها «سواسية كأسنان الحمار»

1 - انظر الصفحة: 536.

2 - انظر الصفحة: 465.

كأنّهمْ مِن ضيقِ أفهامِهمْ لَمْ يَخْرُجُوا بَعْدُ إلَى العَالَمِ

فسبحان من خلقهم، وأهل تونس طرفي نقيض، أولئك في الأوج، وأولاء في الحضيض.

وقد علمت مدح طرابلس وأهلها وغاية ما يجاب به عن العبدري. . . [1].

ثم قال بعد ذكر ذم العبدري لمصر وأهلها : «جريا على عادته، عفا الله تعالى عنه، في ذم البلاد وأهلها، وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها، فليته مدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذم، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان ! وما رأيناه مدح بلدة ولا ساكنها إلا مدينة تونس، ولو أمكنه أن يقول في الحرمين هجوا لقال. وما ذاك إلا أن الرجل من سكان الجبال، لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم. . . وكفى في مدح مصر ما قدمناه، وفي معرفة من بها من الفضلاء ما أسلفنا، سيما ونحن في حدود الثاني عشر من المئين، والعبدري قد حج أواخر القرن السابع، والعلماء والحفاظ والزهاد متوافرون، ولو لم يكن إذ ذاك بمصر إلا الحافظ الدمياطي وابن دقيق العيد اللذين اجتمع بهما وأخذ عنهما، وتلاهم من جاء من بعدهم من الذهبي والمزي والبرزالي وابن كثير والسبكيين لكفى. كيف وبها إذ ذاك من علماء فرق المذاهب الأربعة ما لا يكاد يضبطه حصر. . . وإنما البلدة – كما قدمناه – كبيرة القطر، وساكنها يضاهي عديد الرمل والقطر، وشأن ما هو من البلاد على تلك الحال، أن يحتوي أولي الرعونات، والرعاع من النساء والرجال، فينبغي له أن يحكم على كل بما يناسبه، ويترك حظ النفس وراءه، ولا يحكم على الفضلاء بما هو من دأب عامة الجفلاء، ونسأل الله السلامة من كل بلاء»[2].

وعن المدينة المنورة قال :«المدينة اليوم، على ساكنها الصلاة والسلام، مدينة متوسطة مليحة ظاهرة الأنوار، موضوعة في فضاء مستو من الأرض على واد به غابة كثيرة من نخل متفرق، أرضها سبخة، البقيع شرقيها،

1 – انظر الصفحة: 330.

2 – انظر الصفحة: 839

وأُحُد شمالها، وقُباء إلى الجنوب أقرب، خلافا لقول العبدري أنها في جهة الشرق»[1].

* **نقد أبي سالم العياشي :**

قال الناصري بعد نقل قول العياشي في وصف بسكرة : «وفي قوله: ما رأيت شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب المعاش، فيه نظر ظاهر. فبالمغرب بل وبالمشرق ما هو أحسن منها وأحصن وأجمع لأسباب المعاش من أمهات المدن، كمراكش، وفاس، . . . فلو قال: ما رأيت بإفريقية أحسن إلخ، لكان قريبا على ما فيه. وأين أنت من قسنطينة، وتونس، وطرابلس، . . . ولكن حبك الشيء يعمي ويصم. والعذر له أن بسكرة أول ما يلقاه في سفره للحرمين على بعض ما وصف، فقال فيها ذلك، والخطب سهل »[2].

وبعد وصف الناصري لأجذابية قال :" وأجذابية هي جيم وذال معجمة، هكذا في غير ما ديوان ممن ترجمها حتى صاحب **القاموس** وهو الذي عليه الجادة من الناس، حاضرهم وباديهم، عرب وعجم. ووقع في **رحلة** أبي سالم: «الجابية»[3] بجيم بعدها ألف بإسقاط الذال، وعليه النادر من الناس، ولم يسمها أحد من أهل التاريخ بذلك وإنما الجابية بالشام كما في **القاموس**. وفي **الروض المعطار** و**مسالك** البكري: «الجابية بالشام. . . . فالجابية غير أجذابية بلا نزاع، والوهم سرى لأبي سالم من تعبير بعض الحجاج عن أجذابية بالجابية أو الجوابي، والله أعلم»[4].

---

1 – انظر الصفحة : 585.

2 – انظر الصفحة 225.

3 – أبو سالم العياشي، **الرحلة العياشية** (ماء الموائد)، نشرها محمد حجي (مصورة بالأفسيط) دار المغرب، الرباط 1977، في جزئين. ،1/ 104. والجابية : قرية من أعمال دمشق. انظر : ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار الفكر، بيروت د ت. ، ج2/ 91.

4 – انظر الصفحة : 376.

*** نقد عبد المجيد الزبادي :**

«قال شيخ شيوخنا سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي في **رحلته**، وقد وقفت عليها بخطه في سفري هذا: «وسميت تلك الأعلام بالنواظر، لأن الناظور في اللغة هو الحارس، فكأنها تحرس من التلف الماشي عن الطريق». قلت: وفي **القاموس** ما يشهد له في مادة نظر بالظاء المعجمة، إذ قال: والمناظر أشراف الأرض». ولو قالوا: رؤوس النواطر، بالطاء المسقوطة، لكان أظهر في معنى الحراسة لقول **القاموس**: والناطر والناطور، حافظ النخل والكرم. «على أنه لا مانع من أن يقال المعنى هذه رؤوس النواظر أي المنظور إليها، فأسند النظر إليها مجازا ومبالغة على حد ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي راض صاحبها»[1].

*** نقد التجاني :**

بعد خروجه من توزر ومروره بسبخة عظيمة، ينقل الناصري عن رحلة التجاني قوله: «هي من الغرائب التي أغفلها المؤرخون، وأهمل وصفها الإخباريون...» فيعقب الناصري: «وقوله أغفلها المؤرخون كلا بل لم يغفلوها فهذا هو البكري منهم، وقد علمت ما قال فيها»[2].

*** نقد البكري :**

«ففي **مسالك** الإمام البكري: «أن الينبع أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الإياب». وكأنه يعني في عرف سكان الحجاز خاصة»[3].

قال البكري: «أجدابية مدينة كبيرة في صحراء...«وأجذابية هي جيم وذال معجمة، هكذا في غير ما ديوان...»[4].

---

1 – انظر الصفحة : 414.

2 – انظر الصفحة : 270.

3 – انظر الصفحة : 438.

4 – انظر الصفحة : 376.

*** نقد محمد بن عبد المنعم الحميري :**

ففي **الروض المعطار** وإن لم يكن معه تحقيق في أخبار الأقطار، وإنما يتلقاه من غيره، ولم يجد في الأمصار، ما نصه: «رضوى جبل ضخم من جبل تهامة وهو من ينبع على يوم»[1].

قال في **الروض المعطار**: «الدهناء رمال في طريق اليمامة إلى مكة لا يعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، وهي على أربعة أميال من هجر، ويقال في المثل : أوسع من الدهناء».

وفي **القاموس**: «الدهناء، الفلاة». ثم قال: «وموضع أمام ينبع والنسبة دهني ودهناوي». وانظر ما قال مع وصف صاحب **الروض**، ولعله يصف موضعا آخر اسمه الدهناء غير هذا الموضع، وذلك أن اليمامة كما في **القاموس**: «بلاد كثيرة النخيل وبها تنبأ مسيلمة الكذاب، وهي دون المدينة في وسط الشرق عن مكة على ست عشرة مرحلة من البصرة».[2]

وفي **الروض المعطار** «نَعْمان: بفتح أوله، وادي عرفة دونها إلى مِنى، وهو كثير الأرك، قال الشاعر: (من الطويل)

تَضَوّعَ مِسْكًا بَطْنُ نَعْمانَ إذْ مَشَتْ   بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ

فأنظره، مع **القاموس**، فظاهره أن نعْمان وراء عرفة لناحية الطائف عكس ما في **الروض**. إلا أن يقال ورأى من الأضداد على حد: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي أمامهم»[3].

مصادر الرحلة :

اعتمد محمد ين عبد السلام الناصري، في تدوين رحلته، إلى جانب تجربته الشخصية ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار والاتصال بالعلماء مباشرة للرواية عنهم، على مصادر كثيرة ومتنوعة منها ما طبع لاحقا، ومنها

1 – انظر الصفحة : 445

2 – انظر الصفحة : 449.

3 – انظر الصفحة : 483.

ما لا يزال مخطوطا أو مفقودا. نذكر منها: كتب التفسير **كتفسير** ابن كثير، وتفسير الثعالبي **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، وتفسير القرطبي **جامع أحكام القرآن**، وتفسير الزمخشري **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، وتفسير أبي حيان **البحر المحيط...** إلخ، وكتب الحديث: **صحيح مسلم**، و**صحيح البخاري**، و**صحيح ابن حبان**، و**سنن الترمذي**، و**سنن النسائي**، و**سنن أبو داود**، و**سنن ابن ماجة**، و**المستدرك على الصحيحين** للحاكم، و**مشارق الأنوار** للقاضي عياض... وغيرها، وكتب السيرة: **سيرة ابن إسحاق**، و**سيرة ابن هشام**، و**الروض الأنف** للسهيلي، و**الشمائل المحمدية** للترمذي، و**تهذيب الخصائص النبوية الكبرى**، و**أنباء الأذكياء بحياة الأنبياء** للسيوطي، و**البداية والنهاية** لابن كثير، و **حلية الأولياء** لأبي نعيم.

واعتمد المؤلف أيضا على كتب الرحلات: **رحلة العبدري**، **ورحلة** عبد المجيد الزبادي **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**، **ورحلة** البلوي **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، **ورحلة** الصفدي ويسميها رسالة الصفدي **حقيقة المجاز إلى الحجاز**، ورحلة ابن بطوطة **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، **ونسمة الأس في حجة سيدنا أبي العباس** لأحمد بن عبد القادر الفاسي، **ونزهة المشتاق في اختراق الأفاق** للإدريسي، وكتاب **الرحلة في طلب الحديث** لأبي بكر أحمد بن علي البغدادي، **ورحلة** ابن رشيد **ملء العيبة**، **والرحلة التجانية**، **والرحلة العياشية ماء الموائد**، **ورحلة أحمد بن ناصر**.

وينضاف إلى هذا كتب الطبقات: **طبقات** ابن سعد، طبقات الشافعية الكبرى **للسبكي** وعدد من المصادر التاريخية والجغرافية الأخرى، **كالروض المعطار** للحميري، **وخطط** المقريزي **المواعظ** و**الإعتبار**، و**المسالك والممالك** للبكري، و**حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** للسيوطي، **وأخبار مكة** للأزرقي **وأخبار مكة** للفاكهي، و**شفاء الغرام** للفاسي، و**الأعلام** للقرطبي، **وتحصيل المرام في تاريخ البلد الحرام** لمحمد بن عبد الرحمان الفاسي.

ولم يفته أيضا اعتماد المعاجم، **كالقاموس المحيط** للفيروزآبادي، **ومعجم ما استعجم** للبكري، وزوائد **معجم** الطبراني الأصغر والأوسط، وكذا **كتب الفقه** والأصول: **مختصر خليل** للشيخ خليل، ومختصر **ابن عرفة**، ومختصر **ابن جماعة التونسي**، **وإحياء علوم الدين والمستصفى من علم الأصول** للغزالي، **وكنز الدقائق في فروع الحنفية** للشيخ عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي، **ومواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل** للحطاب، **وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** للقاضي عياض، **واللآلئ الصغرى والحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والنحو والإعراب وسائر الفنون** السيوطي، **وغاية الأحكام** للطبري، **وفتاوي** ابن حجر، **والموجز في الفروع** لأبي الحسن علي بن حسين الجوزي، **والمعيار** للونشريسي، ونوازل **ابن هلال**، ونوازل **البرزلي**، ونوازل الشفشاوني، ونوازل عبد القادر الفاسي، **ومناسك** ابن فرحون، **والأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية** للشيخ مَحمد بن ناصر.

وعلاوة على هذا، اعتمد أيضا على كتب التصوف والأدب، **كالحكم العطائية لابن عطاء الله**، **والرسالة القشيرية** لعبد الكريم القشيري، **والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية** للشيخ زروق، **ومعراج السلوك إلى ملك الملوك وسراج المريدين** لابن العربي القاضي، **والبيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل** لابن رشد، **ونفح الطيب** للمقري، وعلى عدد من الدواوين والمجموعات الشعرية: **متن الهمزية**، **والبردة** للإمام البوصيري، **ونظم العمل** لعبد الرحمان الفاسي، **وسفر السعادة** لمحمد الشيرازي، **ولامية الزقاق**. كما أن الكتاب يضم مجموعة من الأشعار – بلغ عددها أكثر من ألفين ومائتي بيت– تفيد في دراسة الحياة الثقافية في عصر المؤلف.

3. مسار الرحلة

وحتى يسهل على القارئ تتبع خطوات الشيخ محمد بن عبد السلام بن ناصر طوال رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم عودته إلى بلده تامكروت، ارتأينا في هذه المقدمة أن نسرد بشكل مجمل مختلف المراحل والمنازل التي مر بها.

لقد انطلقت الرحلة من مقر الزاوية الناصرية بتامكروت، يوم الخميس ثالث جمادى الثانية سنة 1196 [/16ماي 1782]، بعد صلاة الظهر. وفي هذا يقول الشيخ: «ولما صلينا الظهر يوم الخميس ثالث جمادى الثانية سنة ست وتسعين -بتقديم المثناة- ومائة وألف، خرجنا من الزاوية الناصرية في جماعة من فضلائها وطائفة من علمائها والجم الغفير من رعاعها، ومن انضاف إلى ذلك من جيرانها ومريد الحج من سكانها»[1]. وفي موكب الوداع يجيب المؤلف على العديد من القضايا الفقهية، ثم يعود لسرد مراحل الرحلة بقوله: رجوع وانعطاف. ثم ارتحلنا بعدما ارتفع النهار فنزلنا أُفْزُ بعدما غرب الشفق، على غير ماء؛ وكل ما به من المياه بضنين أي قليل جدا، ثم منه قبل طلوع الفجر لسجلماسة بعد عصر الثلاثاء الثامن جمادى الثانية.

خرج الشيخ من سجلماسة صبيحة يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الثانية في اتجاه القنادسة فأبي سمغون حيث التقى بالشيخ أحمد التجاني[2]، القادم «من تلمسان مرغما من بعض أمراء الترك بها»[3]، وهنا يذكر لنا أهوال هذه المرحلة من قساوة المناخ، وشقاوة الأعراب وقطاع الطرق. ثم سار الركب شرقا إلى المغرب الأوسط حتى وصل بسكرة، موفى الثلاثين من رجب. وأقام بها إلى الثالث من شعبان. بعد ذلك، يصف مسيرته

1 - انظر الصفحة: 102.

2 - أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية بالمغرب، دفين فاس سنة 1239 / 1814. انظر ترجمته في: **طبقات الشاذلية الكبرى**، (المسمى بجامع الكرامات العلية في **طبقات** السادة الشاذلية) للكوهن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى سنة 1422/2001، ص 154 - 155، ابن سودة، **دليل**...، 1/184 - 203؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 542.

3 - انظر الصفحة: 194

تباعا إلى مدينة القيروان، فتوزر التي أقام بها يومين، فقابس التي قال في حقها: «وما أدراك ما قابس، مدينة من بلاد إفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل، وتعد من البلاد الجريدية، وبينها وبين طرابلس ثمان مراحل»[1]، يعاني خلالها الحجاج من خطر الأعراب الذين «يقبضون على الناس ويبيعونهم للنصارى»، ثم إلى طرابلس التي أقام بها سبعة أيام، ليغادرها صبيحة الأحد الأول من رمضان. ومنها إلى مفازة برقة، إلى أن وصل إلى القاهرة صبيحة الرابع والعشرين من شوال، لينضم بعد ليلتين إلى الركب المصري. يقول الشيخ: «فما بِتنا بها إلا ليلتين حتى آذن المصري بالرحيل، فصاحبته تاركا ركبنا السجلماسي[2] في قضاء أوطاره»[3]. وقد اقتصر على زيارة الأزهر والمشهد الحسيني، ولم يتيسر له لقاء أحد، عكس ما حدث له في الإياب.

وبعد أن وصف موكب المحمل، وحفل الخروج بكسوة الكعبة، ارتحل من البركة ضحوة الثامن والعشرين، فسار في اتجاه مدينة القلزم (السويس)، وهو ينبه لذلك بقوله: «ولا ذكر اليوم لمدينة القُلْزُم في هذا المكان، وإنما الموجود المعروف عند العام والخاص الآن وهو المطروق: مدينة سويس»[4]، فسيناء، حتى وصل العقبة. ثم سار - واصفا البلاد والأمكنة والأودية وما قيل فيها- إلى مكة التي دخلها بفرحة تكاد تطير منها القلوب، في ضحى السادس من ذي الحجة 1196 هـ (موافق 12 نونبر 1782م)، موضحا سبب ذلك، قائلا: «كيف ونحن بحرم جعله الله تعالى، مكفرا لما سلف من الذنوب، ماحيا للأوزار والخطايا منة منه سبحانه. فله الحمد بدء وعودا ما طلعت شمس ولها غروب.

1 - انظر الصفحة :275.

2 - لم يتوجه محمد بن عبد السلام الناصري بوصوله سجلماسة بركب خاص به، مستقل عن الركب السجلماسي بل رافقه حتى مصر لينضم إلى الركب المصري. حول ركب الحج الناصري راجع: عمالك، **جوانب** 1/ 163- 198 ؛ عبد الرحمن المودن، **البوادي المغربية قبل الإستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995، ص 115- 132.

3 - انظر الصفحة :397 .

4 - انظر الصفحة : 408.

بلدة أقسم بها الحق سبحانه وتعالى في كتابه في موضعين، فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. وما على الأرض بقعة سواها يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي فيها. موضع شُرع تقبيله واستلامه، وقبلة كل ناسك وإمام، فسبحان من جعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وجذب إليه من القلوب فانعطفت بحذافيرها إليه».

ويستمر الناصري في الحديث عن الكعبة والحجر الأسود والطواف والسعي، وقضائه لمناسك الحج، وحضوره ضحوة السابع خطبة المناسك بالمسجد الحرام، واصفا الخطيب بأنه حنفي «له ببعض أبعاض جزئيات العلم إلمام». وفي الثامن، وهو يوم التروية، يقول: «خرجنا قبيل الزوال إلى مِنى موافقة رفقا بنا بعد أن طفنا بالبيت سبعا، وإلا فالسنة الخروج بقدر ما يدرك الظهر بمِنى في آخر وقتها المختار، فصلينا الظهر بمسجد الخيف، ولم نبت بها إذ لم نجد أمنا، ولما تعذر منذ أزمان من عادة الشامي والمصري سيما ومنه كان الرفيق والمغنى، على أنه لا هدي على تاركه إلا على سبيل الورع، وقيل بوجوبه وهو شاذ في المذهب، قاله الحطاب. وهذه السنة - أعني المبيت بمنى هذه الليلة - قد أميتت منذ أزمان، وقد ذكره كثير من المرتحلين كابن رشيد والعبدري ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركان، ولا يبيت بها اليوم، ولا يحيي هذه السنة إلا المغاربة إن كانوا أقوياء على الدفاع عن أنفسهم، وإلا اقتفوا أثر غيرهم»[1].

وبعد أن يصف بقية المناسك يورد خاتمة تشتمل على المحتاج إليه من أخبار مكة والبيت والمسجد وما حواه، وما في داخلها أو في خارجها من المشاهد، فيورد أسماء مكة وحدودها، وينقل عن **شفاء الغرام** للفاسي، و**الأعلام** للقرطبي وغيرهما. ولم تفته أيضا الإشارة إلى الأوضاع السياسية لمكة في عهده، قائلا: «وعمالتها اليوم من خارج جدة والطائف وممر الظهران، وما كان بالقرب منها هو الذي في إيالة أميرها، وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا. وأعراب الحجاز اليوم غالبهم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من

1 - انظر الصفحة: 508.

ولي الحرمين. وأمير مكة هو الحاكم غالبا على أهل المدينة المنورة. وفي سنتنا هذه وقعت نائرة بينه وبينهم حتى توجه إليهم في جيش فحاربهم وأخلى قلعة المدينة، ووقع فيها نهب وهتك حرمة، ومع ذلك لم ينقادوا له، ولا أقاموا له وزنا. وحجة الأمير عليهم أنهم يتحزبون عليه بمن والاهم من الأعراب، فنكثوا بيعته بعد أن دخلوا فيها، ثم إن الله تعالى ندب السلطان عبد الحميد العثماني[1] إلى ذلك، فأخمد الفتنة بينهم، وبعث ابن أمير الركب الشامي حاكما على المدينة، فعند ذلك تخلى عنهم أمير مكة»[2].

وإضافة إلى حديثه عن المسجد الحرام وعمارته وأبوابه ومساحة الكعبة، خصص الناصري فصولا لذكر المسالك خارج مكة، والأماكن التي تقصد للزيارة والتبرك داخلها وخارجها، وذكر من لقيه بمكة من الفضلاء وأخذ عنه من النبلاء، وما شاهده بمكة من الكتب. ولم يفته أن يستنكر ما وصلت إليه مكة من خلوها من العلم والعلماء، معلقا بالقول: «اعلم، وفقنا الله تعالى وإياك، أن مكة اليوم ليس بها من يُرجع إليه في المعضلات! ولا من يصلح للتمثل بين يديه. وأما المالكية، فلم أرَ بعد البحث إلا المجاورين منهم، وأولاهم بالتقديم الشيخ أبو زيد المذكور قبل، وله ممارسة بالعربية واللغة والقراءة وغيرها... وأما الحنفية فهم كالشافعية، فلهم اليد الطولى في الحرمين الشريفين من طلبة وغيرهم، ومنهم الأئمة القضاة والمفتون. ولم ألقَ إذ ذاك – بعد البحث– من يصلح الأخذ عنه»، واصفا خطيب الحرمين بقلة العلم. وأما الحنابلة «فما أضعف مذهبهم في مصر والحرمين! وأكثرهم اليوم بالشام وفيما وراء النهر، وغالبهم–على ما يحكى– أهل عقائد فاسدة فيما بين رافضي وغيره. ولم ألقَ بمكة منهم إلا إمام مقامهم، وهو الشيخ علي، فهو يدعي معرفة فقه ابن حنبل، ويفتي في مذهبه من غير منازع له».

---

1 – السلطان عبد الحميد الأول حكم ما بين 1773– 1789. انظر: عبد الرحيم بنحادة، **العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1429/ 2008، ص 322.

2 – انظر الصفحة : 516.

ولم يقتصر أمر تدهور العلم على مكة وحدها، بل شمل حتى المدينة المنورة، التي قال عنها الشيخ: «وأما الآن فليس للمالكي ولا للحنبلي إمامة في سائر الصلوات الخمس، إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، جريا على عادتهم في الحرمين، حرصا على أكل الوقف، فيتوارثون ذلك عن آبائهم حتى أفضى بهم ذلك إلى إمامة من ليس بذلك في العلم والدين، بل ومما تولاها بذلك حدث الأسنان».

إذا التَحَقَ الأسَافِلُ بالأعَالي فَقَدْ وَجَبَتْ مُنادَمَةُ المَنَايَا [1].

كما قال عن مصر[2]: «والرميلة كالأزبكية محالّ للفرجة، وأنواع الشعوذة، . . . فترى الشابات الحسان من فواجر النسوان يشطحن في دوائر الرجال ويغنين، وكل ذلك وسيلة للدرهم والدينار، والعلماء متوافرون في البلد، ولا منهم من رأيناه ينكر هذه المناكر، ولعلهم فقدوا شرط تغيير المنكر»[3].

ولم يرجع الناصري هذا التدهور إلى الحكم العثماني. فالظاهرة أصبحت تنخر كيان المجتمع الإسلامي شرقا وغربا كما قال: «ضعف بالمشرق والمغرب الاشتغال بفن الحديث، حتى صار أهله كالشعرة البيضاء في الجلد الأسود. وما رأينا اليوم بمصر ولا بالحرمين من يتعاطى حق التعاطي من المالكية ولا من الشافعية». فالرحلة لم تتضمن ما يفيد التنقيص من آل عثمان أو الاعتزاز باستقلال المغرب عن نفوذهم، رغم انتقاده لسلوك بعض أمراء الترك فإنه يثني عليهم فيما بذلوه في استتباب الأمن[4].

---

1 – انظر الصفحة : 597.

2 – بعد سبع سنوات يشير الناصري، في رحلته الثانية، إلى تعرض مصر للغزو الفرنسي (حملة نابليون 1799م) بقوله: " لما وصلت هذا المحل – رابغ – في تبييض هذه الرحلة المباركة بدرعة وذلك أواخر السنة الثالثة (1213/ 1799)، تواتر لدينا أن الإفرنج الفرنسيس استولوا على مصر وإيالتها.". **الرحلة الصغرى**، ص 106 – 107.

3 – انظر الصفحة : 838.

4 – انظر الصفحة : 270

وفي ضحوة الإثنين السادس والعشرين من ذي الحجة غادر مكة ضمن الركب المصري إلى المدينة المنورة التي وصلها يوم السبت الثامن من محرم عام 1197[/14 شتنبر1782]، واصفا المسجد النبوي ومراحل بنائه والروضة الشريفة ومقبرة البقيع. وفي يوم الثلاثاء الحادي عشر من المحرم خرج من المدينة المنورة، في اتجاه مصر وهو يعدد المنازل والمخاطر التي واجهته صحبة الركب المصري، الذي لم يستطع الرجوع من الطريق الذي اعتاد الحجاج سلوكه في تلك الأعوام.

ومن الأزلم إلى سلمى ثم للمويلح، فعيون القصب، فالشرفة، فظهر الحمار، فبندر العقبة، ثم منه لبئر الصعاليك، ثم منه للنخيل. يقول: «وسوقنا به أهل غزة من أهل الشام أيضا على عادتهم، وبه مات أناس وبهائم بالبرد، وآخرون بالمرض، ثم منه للتيه، ثم لعجرود، وبه تلقى أهل مصر للركب بكل المحتاج، فحصل رخاء عظيم لم نرَ مثله في الحجاز ذهابا وإيابا. ومن هنا يأتي المكاسون من مصر لعد أحمال الحجاج، فيكتبون في دفتر ما لكل واحد من الأحمال، ثم إذا وصلوا إلى مصر أدوا الخراج. وقد رأيت في سنتنا هذه نصرانيا من الإفرنج يحسن العربية والكتابة بها والحساب، وهو الذي تولى عد ذلك على المسلمين، قطع الله تعالى دابر هؤلاء الظلمة الفجرة، وحسم مادة هذه العادة المذمومة. ولقد كابد الناس معهم على هذا العطاء مشقة عظيمة حتى فتشوا الأحمال، والمحيط من ورائهم الكبير المتعال لا إله غيره»[1].

وفي ضحوة الخميس الثامن عشر من صفر، دخل القاهرة «ذات العجائب والغرائب الباهرة» وأقام بها «ما نيف على شهرين». فزار القرافتين: الكبرى والصغرى مرارا، واصفا ما بهما من قبور الأئمة والعلماء، ليستفيض في الحديث عن العلماء الذين لقيهم ويترجمهم، ويذكر علاقته بهم، ومناقبهم وكراماتهم وأخبارهم وسندهم وبعضا من كلامهم ومروياتهم وأشعارهم وإجازاتهم له، وسنده في التصوف، والتعريف بالطرق التي تلقاها خاصة الطريقة النقشبندية والخلوتية[2].

1 - انظر الصفحة : 838.

2 - انظر الصفحات : 677 وما بعدها.

ويمتع المؤلف القارئ، وهو يطلعه على العديد من العلماء وعلى الحوار الذي كان بينه وبين شيوخه، والعديد من الطلبة حول قضايا في الفقه واللغة والتفسير - إلى جانب أجوبته على العديد من الأسئلة التي ألقيت عليه في ذهابه وإيابه - وهي جديرة بالاهتمام. نذكرمنها على سبيل المثال ما حكاه، قائلا: «راودني الشيخ (سليمان العجيلي) ذات يوم لشرب القهوة على عادتهم وقد أخذ كأسا منها بيده، فقلت: لا أعرفها وليست بأرض قومي فأجدني أعافها[1]، فقال: أمحرمة أو مكروهة؟ فقلت: في معلومكم (أي في علمكم) ما قيل فيها نثرا ونظما. فقال بعض تلامذته، وكان فطنا، واسمه الشيخ مصطفى، مداعبا بل ومناظرا على عادته فيما بيني وبينه: وأما الدخان؟ فقلت: الدخان محرم، هذا الذي اتفق عليه أهل البصائر من أهل الباطن والظاهر، ولم يتكلم فيه بالحلية إلا أهل الهوى شربا أو شما. فقال: دعوى من غير دليل. فكلما أقمت دليلا للحرمة إلا وبحث فيه. فقلت: لا أقبل البحث فيها مع من يستعملها - لكثرتها بمصر - فقال الشيخ: أنا على التحريم كشيخي الشيخ علي الصغيري. فوفقني الله تعالى إلى دليل انقطعوا به وسلموا بالحرمة، ولم أكن رأيته ولا سمعت به بعد مطالعتي عدة تآليف ممن حرمها أو أباحها أو أوقف فيها، فقلت: الدخان نبات تكون على أصل الطهارة، فإن حرقت أوراقها وصارت رمادا أيجوز أكله؟ فقال الشيخ: المحروق لا يجوز أكله. فقلت: الدخان إذا تكيف في السقوف والجدران هل يجوز أكله؟ فقالوا كلهم: لا يجوز أكله. فقلت: وهذا النبات الخبيث إذا دخل دخانه للبطن يتجسد فيه، والدخان نفسه جسد، فقال الشيخ مصطفى: لا نسلم أنه يتجسد ولا أنه جسد. فقلت: يلزمكم إن لم يكن

1 - تراجع المؤلف عن موقفه الرافض لشرب القهوة بل قال فيها شعرا، قال: " كثيرا ما تقدم لي في سفري هذا القهوة، جريا على عادة المشارقة، فامتنع من شربها لمرارتها، ولأني لم ألفها ولا هي في أرض قومي فأجدني أعافها مع ما يزعمون فيها من المنافع. وفي هذه الليلة قدمها لي بعض المحبين من أهل فاس لما اعتراني وخم وكسل آخر الليل من السهر، ومزجها بسكر فناولني منها كأسا، فكان ما في من الوخم بعد شربها كأمس الذاهب، وعقبني من النشاط ما لم أعهد من نفسي.
فقلت ارتجالا : (مجزوء الرجز)

شَرِبْتُ بِنَجْدٍ قَهْوَةً ... بِسُكَّرٍ مَزَجُوهْ
فَصَحَّ أَنَّهَا تَقِي ... مِنْ وَخَمٍ عَهِدُوهْ
أَكْرِمْ بِهِ مِنْ شَرَابٍ ... لَوْلاَ أَنَّهُ أَحْدَثُوهْ

انظر الصفحة : 443.

جسدا أن يكون سبيله سبيل الهوى والريح فلا يفطر به الصائم. فقالوا: بل يفطر به الصائم. فقلت: أقر الخصم، فارتفع النزاع فثبتت الحرمة. فقال الشيخ عند ذاك، سمعه كل من في المجلس من الفضلاء مغاربة ومشارقة: إنك لفقيه. فقلت: لا والله يا سيدي، ولا تراب نعال الفقهاء، وإنما الأمر كما قيل: خلت الديار فسدت غير مُسَوّدِ[1]».

وفي ترجمته للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الدردير العدوي المالكي الخلوتي، قال: «وقد ورد ذات يوم علينا ونحن بدرسه ببيته بين العشائين رجل يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ الآية[2]، وعن ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[3]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[4]، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات التي تُعنى بخلق الإنسان في أحسن صورة. فأجابه الشيخ بما حضره في الآية، فالتفت إلي قائلا: هذا من معانى قول الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[6]. يعني أن خلق هذا العالم لا يمكن أن يكون أحسن من هذه الصفة التي هو مخلوق عليها. فخضت معه في الآية، وفي مقالة الإمام الغزالي وقلت: إن كان المراد بالإنسان آدم بالخصوص أو هو وحواء عليهما السلام أو هما وسائر الأنبياء والبعض من غيرهم فلا إشكال، وإن أريد الجنس أو العموم فلا شك أن نجد في الآدميين من تكره العين النظر إليه لبشاعة خلقته، ولربما تستحسن العين بعض الحيوانات كالظباء والمها، وبعض الطيور على بعض الآدميين... فقال: سلمنا»[7]. ثم يختم هذه المرحلة بذكر ما تتشوف إليه النفس من المُهم من أخبار مصر والقاهرة والنيل والأهرام ونحو ذلك.

---

1 - انظر الصفحة: 725.

2 - التين: 4.

3 - غافر: 64؛ التغابن: 3.

4 - الإسراء: 70.

5 - الرحمان: 2.

6 - ينظر: عبد الرؤوف المناوي، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، دار النشر، مكتبة التجارية الكبرى، 2/ 224.

7 - انظر الصفحة: 722 وما بعدها

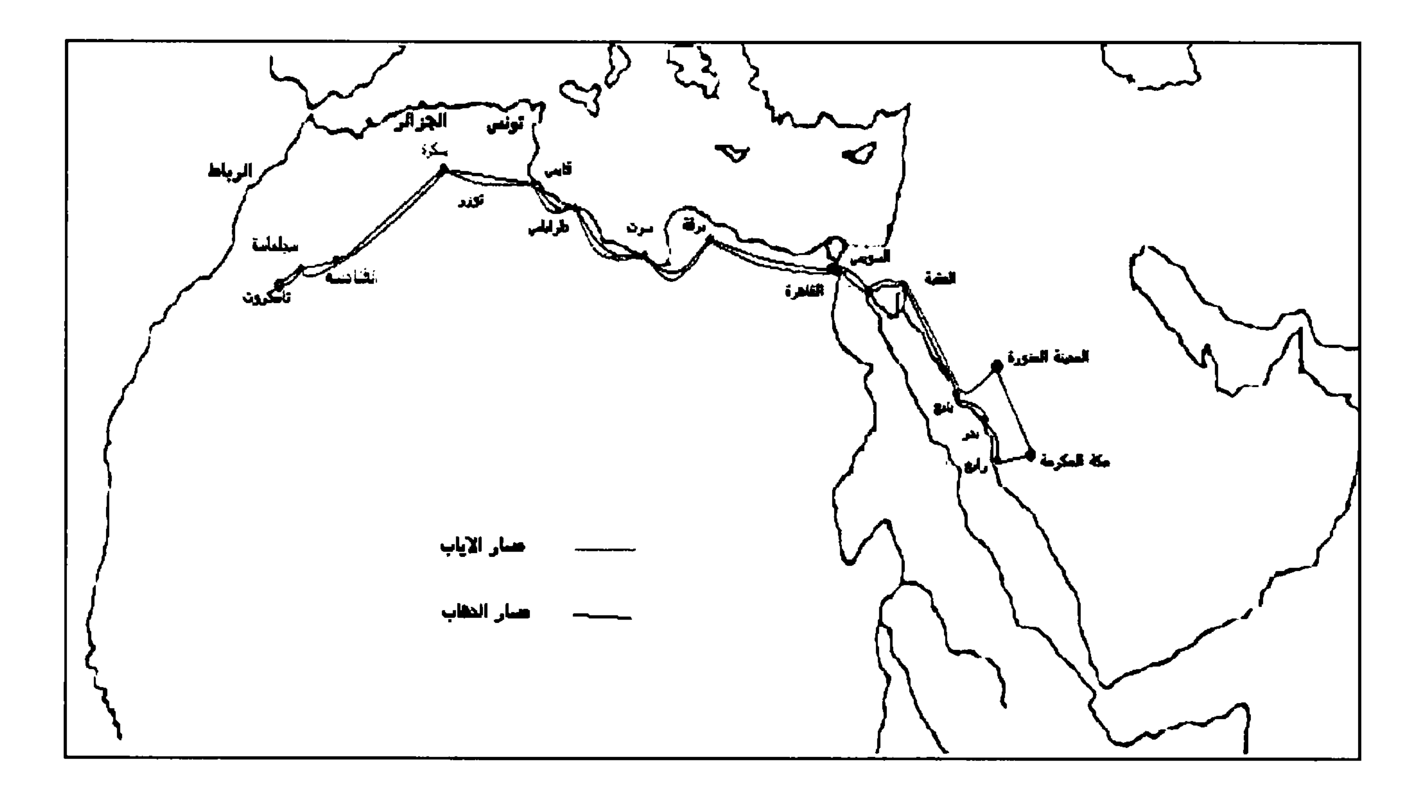
وفي ضحى الاثنين الموفى عشرين من ربيع الثاني سنة 1197 [/24 مارس1783] ودع مصر صحبة الركب السجلماسي في اتجاه طرابلس، مذكرا بمسائل علمية وقع السؤال عنها فيما بين مصر وطرابلس في رجعته هذه. والجواب عنها - كجميع أجوبته طوال الرحلة - جدير بالاهتمام.

وفي ضحى الأربعاء التاسع عشر من جمادى الثانية دخل طرابلس. وفي الثالث من رجب، وقد وافق أيضا ضحى الأربعاء، غادرها في اتجاه قابس التي وصلها يوم الأربعاء العاشر من الشهر نفسه. ومنها إلى توزر التي نزلها في الرابع عشر من رجب ووجدها، كما قال، «غالية الأسعار». وفي الواحد والعشرين من رجب، وصل إلى بسكرة، مذكرا «أن أكثر بلاد الله تعالى سرقة واختلاسا بلاد الجريد، خصوصا بسكرة»؛ ومنها إلى سجلماسة التي غادرها في اتجاه بلده. ويصف ذلك بقوله: ثم ارتحلنا نؤم بلادنا في ظهر الأربعاء السابع من رمضان، نقطع مراحلنا السالفة، نتقدم مرة ونتأخر أخرى عنها حتى خيمنا بعد العشاءين على نحو فرسخين من البلد... ثم لما صلينا الصبح ارتحلنا. فما تجاوزنا مكان نزولنا حتى صب عليه من الأهل والأقارب وغيرهم من أهل البلد وجيرانه أمواجا، وجاؤوا متراسلين أفواجا تمدها أفواج، مظهرين من الفرح والسرور، وإخلاء البنادق ما تقررت به العادة في غابر الدهور، مهنئين متبركين داعين متضرعين، قائلين بلسان الحال ما أخرسوا عنه بلسان المقال: (من المتقارب)

هَنِيئاً لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الهُدَى وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا
فَإِنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ لِمَنْ حَلَّ طِيبَةَ أَوْ زَارَهَا

بعد عودة محمد بن عبد السلام الناصري من رحلته الحجية التي دامت ستة عشر شهرا، شرع في تدوينها. وقد كملت، كما يقول، «في التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ومائة وألف [/9 أبريل1785] على يد جامعها العبد الفقير المقر بالعجز والتقصير، المفتقر إلى رحمة مولاه الغني القدير، محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي المقدادي كان الله له ولوالديه ولأشياخه ولكافة المسلمين».

مسار الرحلة الناصرية



4. منهجية التحقيق والنسخ المعتمدة

لتحقيق نص «الرحلة الناصرية الكبرى» وضبطه، اتبعنا المنهجية الآتية:

- جمع النسخ وترتيبها وفق أهميتها وأقدميتها أوسلامتها من الأخطاء والتحريف والخروم والنقص، مع إعطائها رموزا اعتمدنا عليها في التحقيق والمقابلة.
- مقابلة النسخ التي وقفنا عليها للتأكد من سلامة النص وصحته وضبطه كما وضعه مؤلفه قدر الإمكان، واختيار النسخة الأسلم واعتمادها في التحقيق، بعد تعذر اعتماد نسخة المؤلف بشكل كامل لاسيما وأن جل صفحاتها قد تلاشت نتيجة ما لحقها من الرطوبة.
- الوقوف على التصحيف والتحريف والسقط والوهم مما وقع فيه النساخ، بالإضافة إلى الكلمات أو الجمل التي عاثت فيها الرطوبة، مع إثبات الفوارق الموجودة بين النسخ في الحاشية، حتى يتسنى للقارئ الوقوف عليها.
- توثيق النص بالرجوع إلى المظان التي اعتمدها المؤلف ما أمكن، مع ما عانيناه من صعوبة في تتبع جميع المصادر التي نقل عنها.
- الالتزام بقواعد التنقيط المعمول بها.
- الحرص على تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبحور الشعر. وقد رسم النساخ كثيرا من الأبيات الشعرية برسم النثر في أغلب النسخ مما زاد من اضطراب الشعر، وصعوبة قراءته.
- التعريف بالأعلام البشرية والجغرافية باستثناء المشهور منها.
- وضع فهارس عامة للكتاب.

لقد اعتمدنا في تحقيق «الرحلة الناصرية الكبرى» لمحمد بن عبد السلام الناصري على خمس نسخ.

الأولى : نسخة الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 5658، وعدد صفحاتها 456 من الحجم الكبير، مقياس 30/21 سم، مسطرتها ما بين 26 و28 س، كتبت بخط المؤلف[1] – لا بأس به ملون– بها تعقيبة[2] وتقاييد وطرر وأثر رطوبة وخروم كثيرة – جل أوراقها محروق –، اعتمدتها إلى جانب النسخة «ح» كأصل. أولها :«بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على سيد النبيين إمام المرسلين، وعلى آله الطيبين. . . ».

وآخرها : «كملت في التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ومائة وألف على يد جامعها العبد الفقير المقر بالعجز والتقصير، المفتقر إلى رحمة مولاه الغني القدير، محمد بن عبد السلام عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي المقدادي كان الله له ولوالديه ولأشياخه ولكافة المسلمين». رمزت لها بحرف «م».

الثانية : نسخة الخزانة الحسنية تحت رقم 6904، وعدد صفحاتها 630 من الحجم المتوسط، نسخة تامة، كتبت بخط مغربي قديم ملون، مقياس 18/ 21 سم، مسطرة 27 س. بها تعقيبة وطرر، اعتمدتها – إلى جانب النسخة الأولى– في التحقيق لاشتمالها على تاريخ النسخ واسم الناسخ، ولمطابقتها لنسخة المؤلف إذ نسخت على مبيضة المؤلف وفي حياته – بعد سنة من تأليفها– حيث وقع الفراغ من نسخها عام 1200[/1786] على يد محمد بن عبد الله الدمناتي القضوي. يقول في آخرها : «الحمد لله وحده، يقول مقيده محمد بن عبد الله الدمناتي القضوي غفر الله ذنبه وستر بمحض فضله حوبه، وفي أواسط رمضان المعظم عام 1200 [/1786] أوقفني الفقيه النزيه السميدع الوجيه الإمام الكبير والطود الشهير أبو العباس محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر أسدل

---

1 – المنوني، **المصادر**. . .، 2/ 50 ؛ كما اعتبرها عبد الرحمان الفاسي من نوادر المخطوطات، انظر: **منتخبات**. . .، ص 153.

2– التعقيبة أو ما يسمى عند المغاربة الرقاص أو الوصلة : طريقة وجدت لمساعدة المختصين في صناعة المخطوط كالمسفرين والمجلدين وغيرهم لترتيب المؤلفات.

الله عليه سرابيل رحمته، وخيره بضروب نعمته، على هذه الرحلة المباركة المكتوبة». رمزت لها بحرف «ح».

الثالثة : نسخة خاصة قدمت ضمن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات دورة 2009، عدد صفحاتها 512 من الحجم المتوسط، كتبت بخط مغربي - 25 صفحة الأولى على ورق حديث - مقياسها 20/16، مسطرة 24- 26 س، بها تقاييد وطرر، وأثر الرطوبة. عارية عن اسم الناسخ. أولها: «بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، يقول عبيد الله تعالى محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد الكبير بن الشيخ أبي عبد الله مَحمد بن ناصرالدرعي الناصري، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين...».

آخرها: «قوبلت على حسب الاستطاعة من مؤلفها في الرابع من جمادى الأولى سنة مائتين وألف، وكتب محمد بن عبد السلام الناصري كان الله له آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه وأتباعه وأتباعهم إلى يوم الدين». رمزت لها بحرف «خ».

الرابعة : نسخة الخزانة الوطنية تحت رقم 2327 د، وعدد صفحاتها 438 من الحجم المتوسط، كتبت بخط مغربي معتاد، على ورق حديث، وهي نسخة غير تامة، لحقها بتر في أولها وفي الجزء الخاص بمرحلة الإياب. أولها: «ومنها، قال ابن المعلي، قال النووي: يستحب للحاج أن لا يشرك أحدا في زاد ولا راحلة، فإن المشاركة تمنع من التصرف في وجوه الخير».

وآخرها عنوان فصل : «ذكر خروجنا من المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام». رمزت لها بحرف «د».

الخامسة: نسخة الخزانة الوطنية رقم 2651 د، مصورة على الورق وعلى الميكروفيلم تصويرا رديئا - على ما يظهر- من النسخة «خ»، عارية عن اسم الناسخ. عدد أوراقها 513، مقياسها 29/20 سم، مسطرتها 26/24 س، مبتورة الأول تبدأ عند: «﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا﴾ الزخرف الآية 13، اللهم إنا نسألك في سفرنا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى...». وجاء في

آخرها: «قوبلت حسب الاستطاعة من مؤلفها في الرابع من جمادى الأولى سنة مائتين وألف، وكتب محمد بن عبد السلام الناصري، كان الله له آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه وأتباعه وأتباعهم إلى يوم الدين». رمزت لها بحرف «ج».

الرموز المعتمدة

﴿﴾: حصر الآيات القرآنية.

«» : حصر الأحاديث النبوية والنقول. أما أسماء الكتب فتم وضعها بالخط البارز.

( ): حصر بحور الشعر.

** : بداية صفحات النسخة «ح» حيث تعذر علينا إعتماد صفحات نسخة المؤلف. (كتبنا رقم الصفحة بين العلامتين).

[ ] : حصر ماسقط من النسخ المعتمدة.

[/] : ما أضفناه مقابلا للتاريخ الهجري أو الميلادي .

م خ ح: مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط.

م م وم م : مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية.

م. س: مصدر/ مرجع سابق.

ن. م : نفس المصدر/ المرجع.

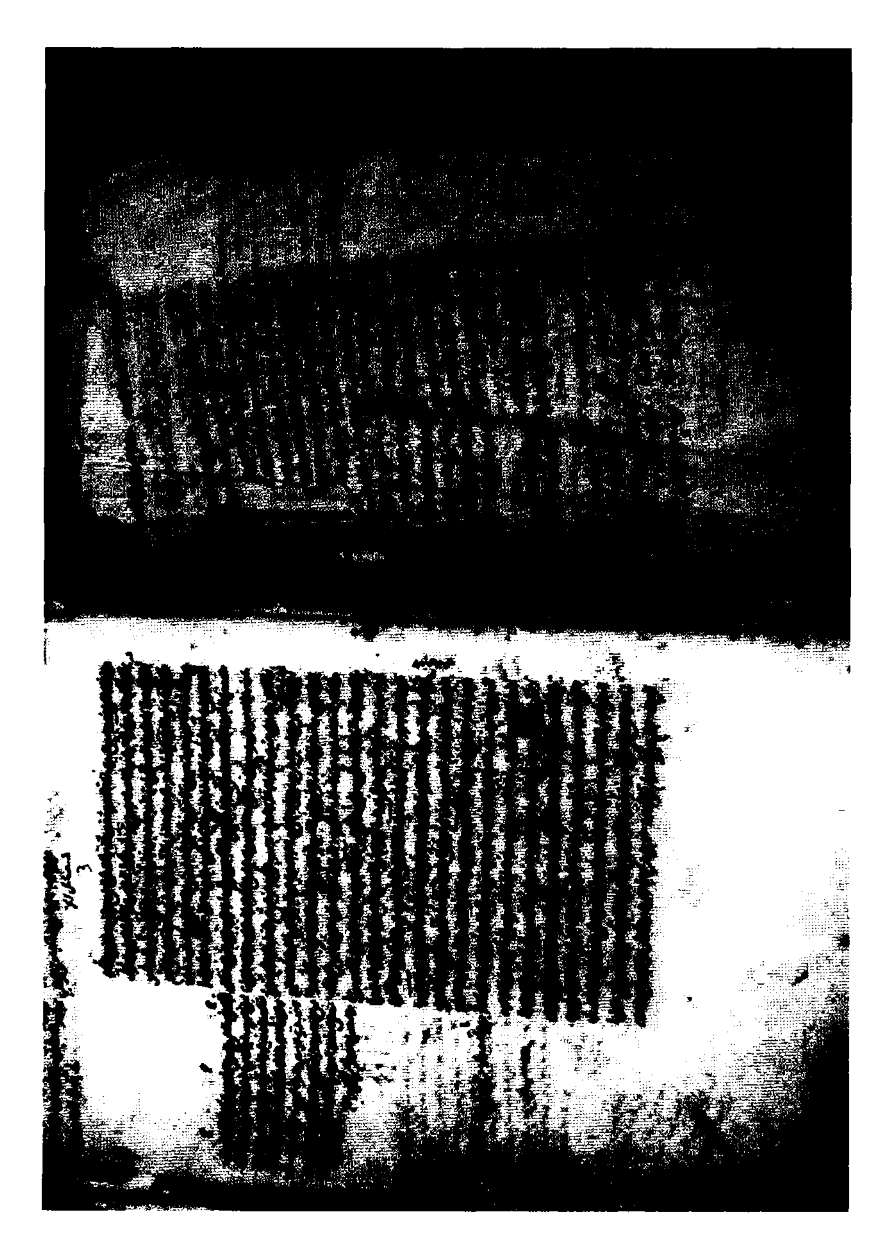
م: نسخة الخزانة الحسنية بالرباط رقم 5658.

ج : نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم 2651 د.

ح : نسخة الخزانة الحسنية بالرباط رقم 6904.

خ : نسخة خاصة.

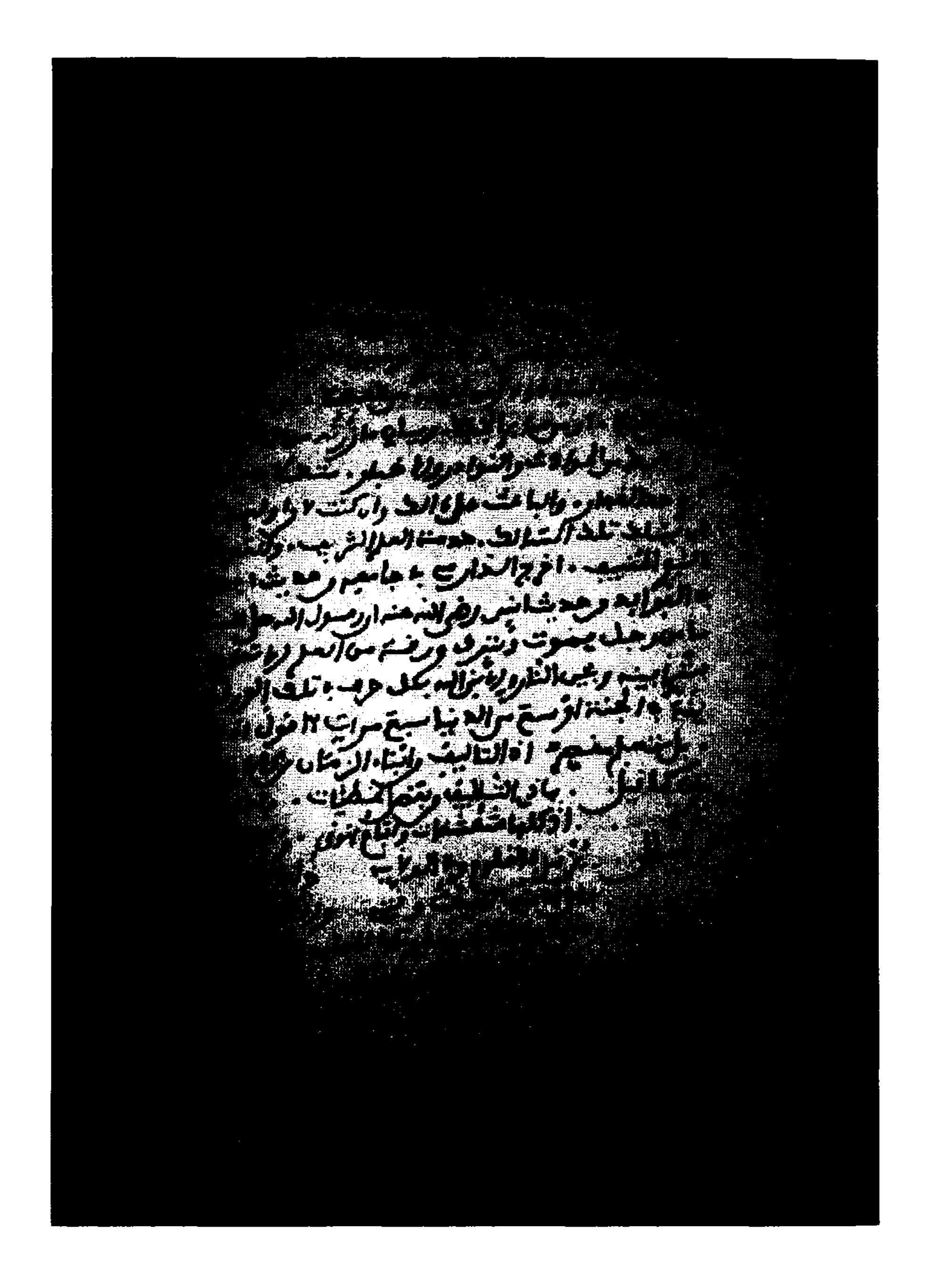
د: نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم 2327 د.



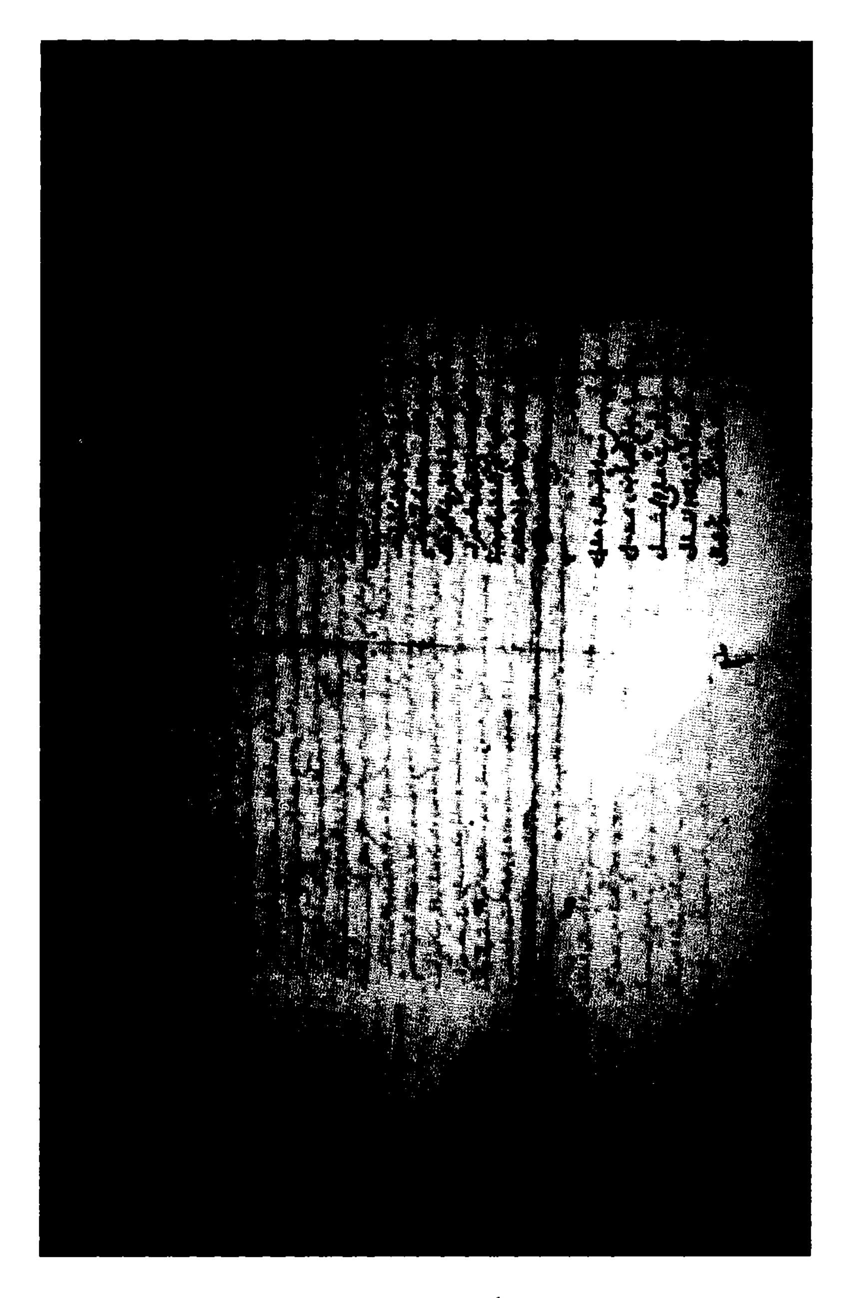
الورقة الأولى من نسخة «م»



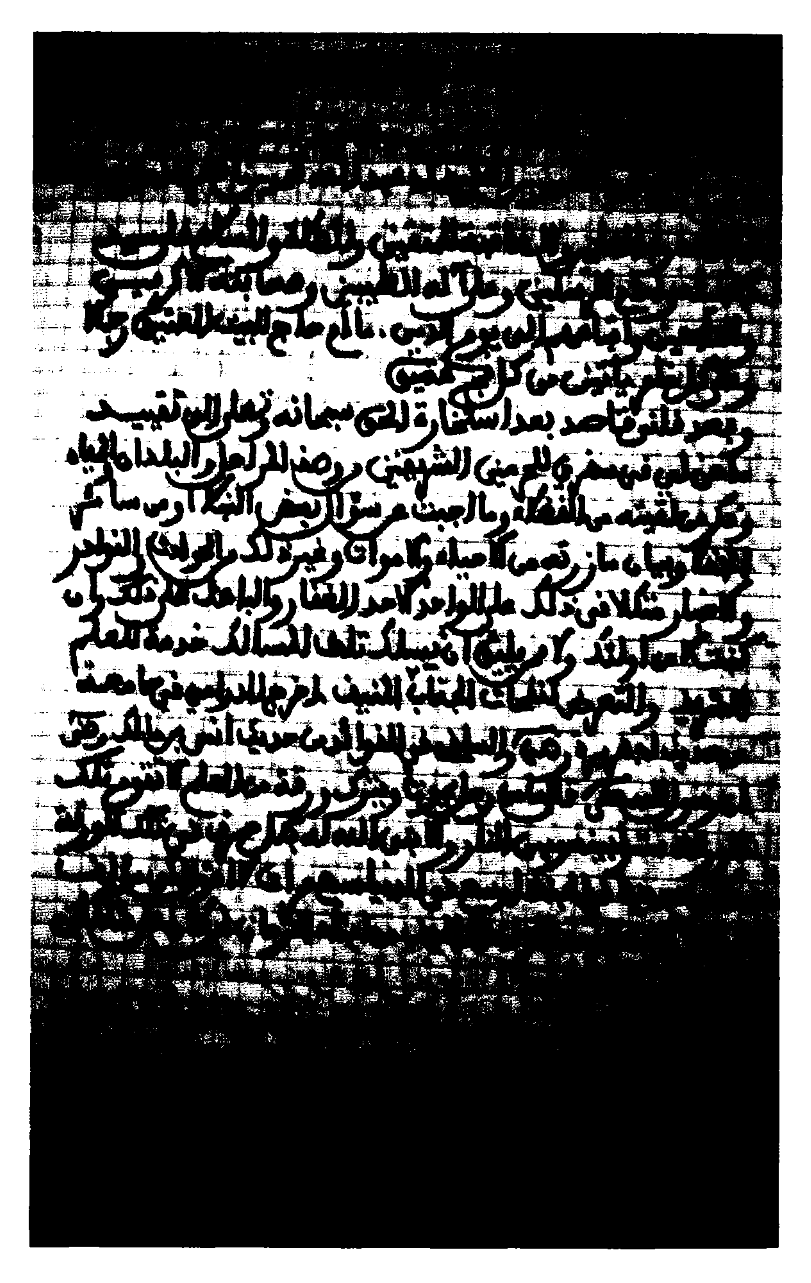
الصفحة الأخيرة من النسخة «م»



الصفحة الأولى من النسخة «ح»



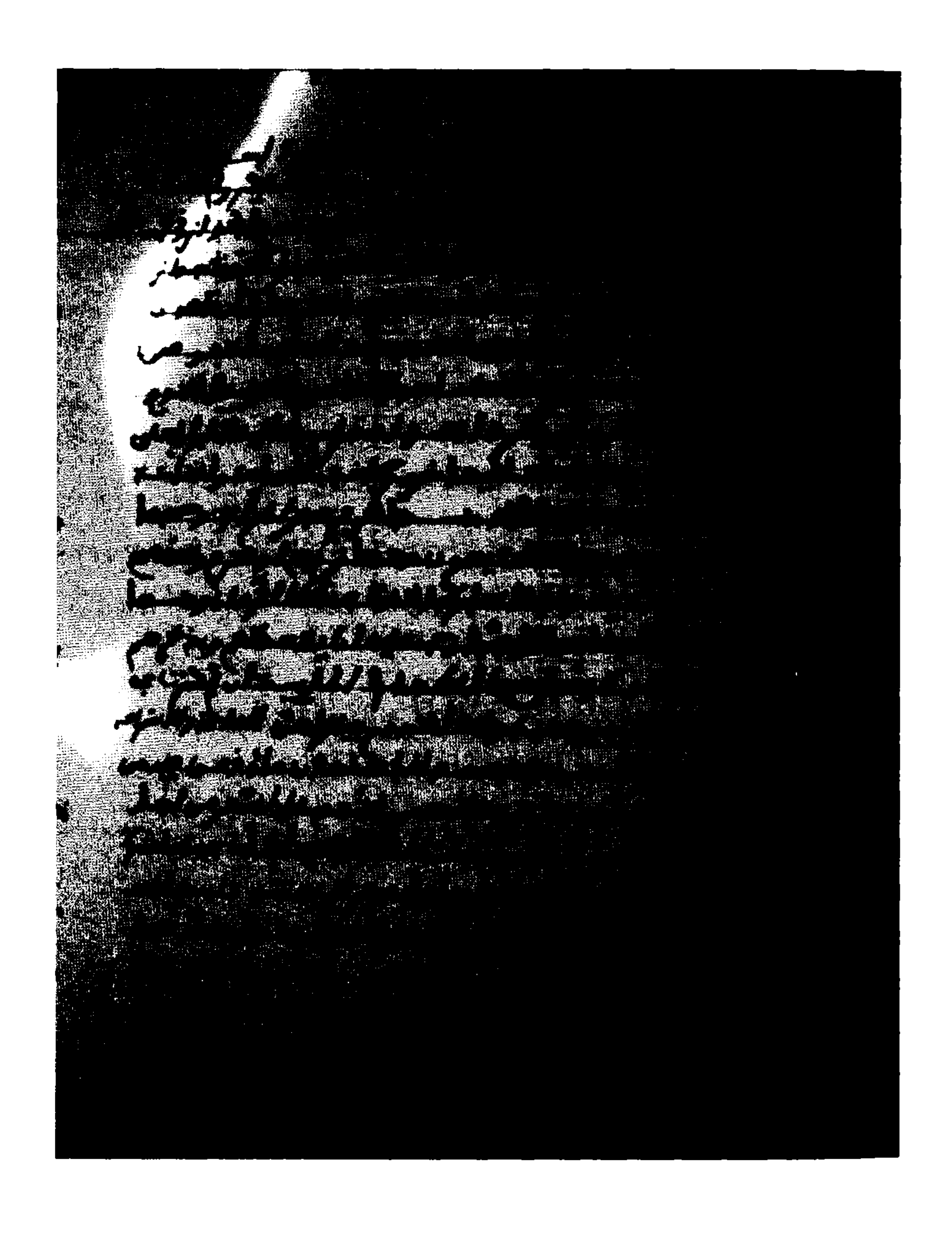
الورقة الأخيرة من نسخة «ح»



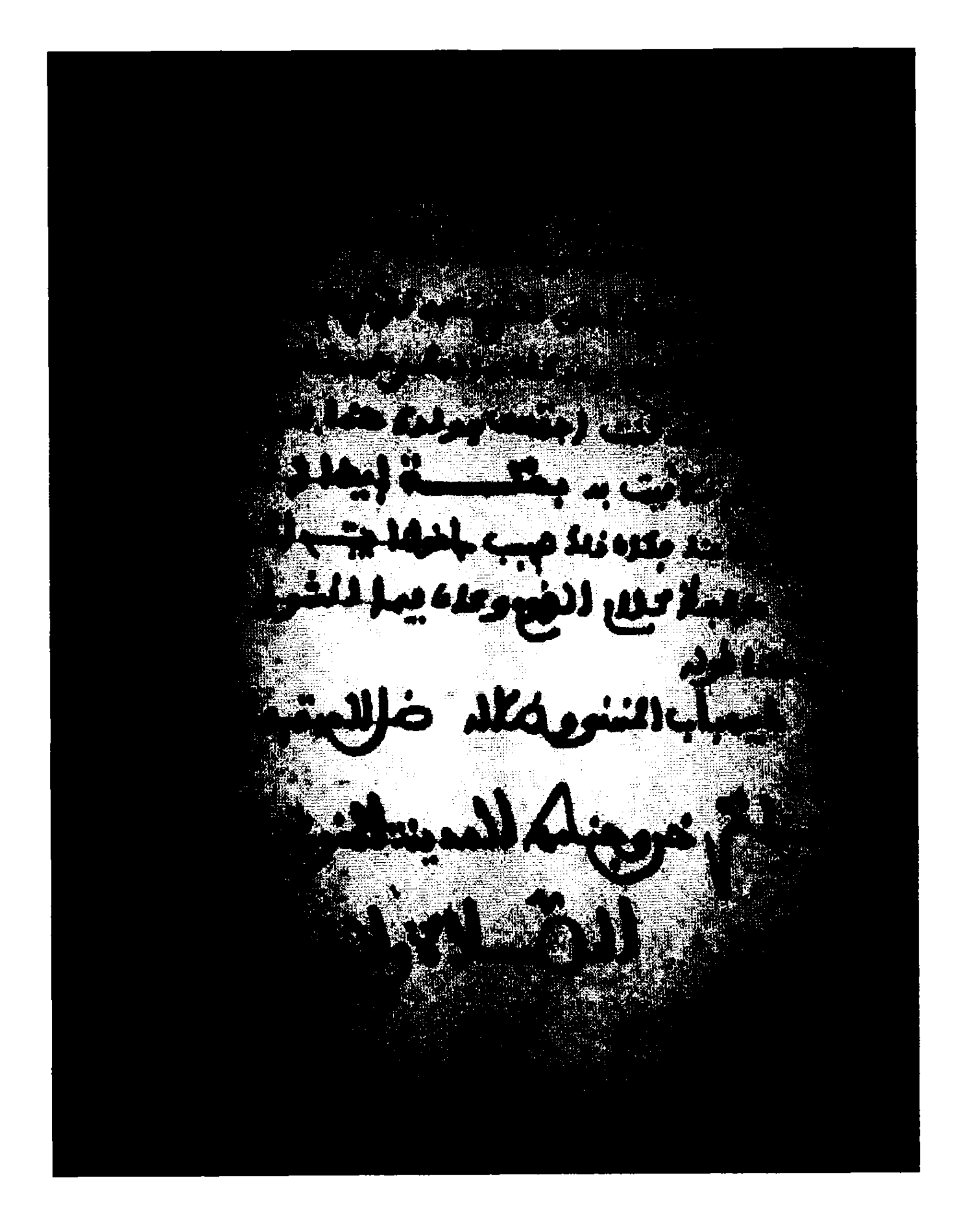
الصفحة الأولى من نسخة «خ»



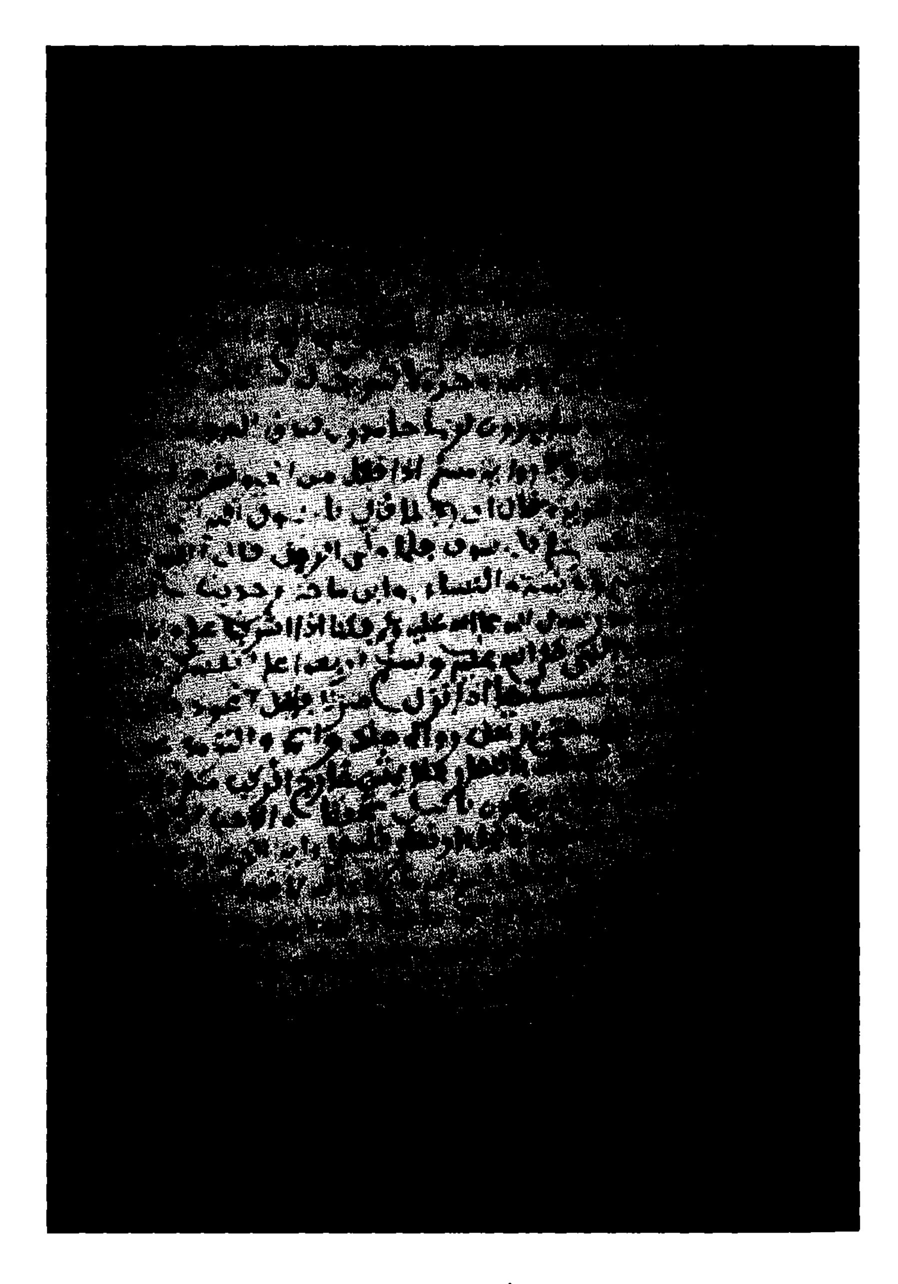
الورقة الأخيرة من نسخة «خ»



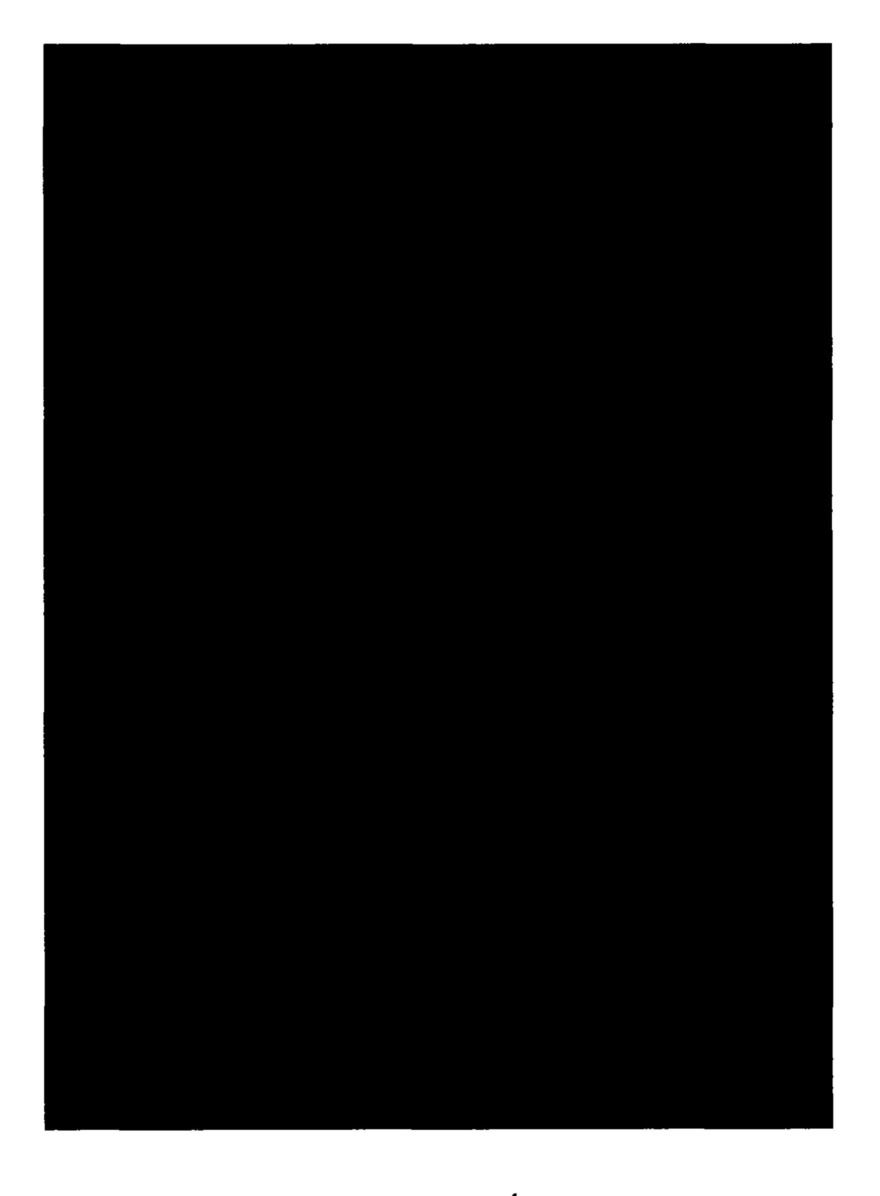
الصفحة الأولى من النسخة «د»



الصفحة الأخيرة من النسخة «د»



الصفحة الأولى من النسخة «ج»



الصفحة الأخيرة من النسخة «ج»

النص المحقق

الرحلة الناصرية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم*1*

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على سيد النبيين إمام المرسلين، وعلى آله الطيبين، وصحابته الأكرمين، والتابعين وأتباعهم إلى يوم الدين، ما أمّ حجاج البيت العتيق ﴿رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[1].

وبعد، فإني قاصد بعد استخارة الحق سبحانه إلى تقييد ما عنّ لي في سفري للحرمين الشريفين من وصف المراحل و البلدان و المياه، وذكر من لقيته من الفضلاء، وما أجبت به عن سؤال بعض النبلاء، أو من سائر الجَفلاء، وبيان ما زرته من الأحياء والأموات، وغير ذلك من الحوادث والنوادر والأخبار، متكلا في بيان ذلك على الواحد الأحد الغفار. والباعث على ذلك، وإن كنت لا من أولئك ولا ممن يليق أن يسلك تلك المسالك، خدمة للعلم الشريف والتعرض لنفحات الجناب النبوي المنيف.

أخرج الدارمي[2] في **جامعه**[3] من[4] حديث أبي هريرة، والسِّلفي في **الفوائد** من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ما من رجل يموت ويترك ورقة من العلم إلا تقوم تلك الورقة سترا بينه وبين النار، وإلا بنى الله له بكل حرف في تلك الورقة مكتوب مدينة في الجنة أوسع من الدنيا سبع مرات [5]. لا أقول إني مؤلف أو محرر بل متعلم مقصر[6]، إذ التأليف من أبناء الزمان ممَن

---

1 – الحج :25.

2 – في خ "الدرامي".

3 – **جامع الجوامع ومودع البدائع** لحمد بن عبد الرحمان الدارمي.

4 – في خ "عن"

5 –الحديث بهذا اللفظ لم أقف عليه إلا في **الفردوس بمأثور الخطاب** لأبي شجاعة شيرويه، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1406 هـ، 4/ 22.

6 – في خ " مقتصر".

كان على شاكلتي من الأقران كما قيل [1]: (من البسيط)

هَذِي[2] التآليفُ مِنْ بَعْضِ الْخَطِيئَاتِ فَاشْهَدْ عَلَيَّ وأشْهِدْ كُلَّ مَنْ يَأْتِي
إذْ كُلهَا شَقْشَقَات وَاتِّبَاعُ هَوَى وَفَخْفَخَاتٌ وعُجْبٌ بِالوُرَيقَاتِ

وقال: (من الوافر)

يُزْهِدُ في الْعُلُوم وَفي الْوِلايَةِ خُرافَاتٌ لَهَا مِنْ غَيْرِ غَايَةِ
فَإنْ أَبْدَيْتُهَا ضَيَّعتُ وَقْتِي وَإلاّ كُنْتُ مَفْقُودَ الْهِدَايَةِ

ولكن لما حركني الشوق نحو تلك المعاهد، لم يكن بد من تقييد ما شوهد بتلك المشاهد: (من المتقارب)

دَعِينِي أَرِد مَاءَ الْمَفَاوِزِ لاَجِئاً إلَى حَيْثُ مَاءُ الكِرَامِ مَعِينُ
دَعِينِي أكثِّرْ حَاسِدِيك بِرِحْلَةٍ إلَى بَلَدٍ فِيهَا الرَّسُولُ دَفِينُ

2 وينبغي أن أقدم بين يدي المقصود مقدمة تشتمل على بعض أبعاض فضائل الحج والزيارة، ترغيبا للسامعين، وتنشيطا للمقيمين والظاعنين، وعلى نتفة من آداب السفر لينال صاحبه بذلك من الله تعالى أزكى الوطر ويكون على بصيرة فيما هو بصدده حتى لا يذر. و خاتمة تشتمل على المهم من الأثاث التي يستعين بها على قطع المفاوز والفلوات. (من الطويل)

فَدُونَك رِحْلَةً سَمَتْ بِلَطَائِفَ [فَهِيَ الرَّوْضةُ الغَنَّا بِكُلِّ المَعَارِفِ
فَوَاظِبْ عَلَيْهَا واقْتَطِفْ مِنْ أَزْهَارِهَا وَتَفَضَّلْ بِالدُّعَاءِ لِوَاصِفِ][3]

نسأل الله تعالى أن يجعلها من الأعمال التي لا تنقطع بالموت، ولا تعقب صاحبها حسرة الفوت.

---

1 –البيتان نسبهما العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي لعبد الله بن إبراهيم المرغتي الطائفي الحسني الشاذلي. انظر: المراكشي، **الإعلام**. . . ، 6/197.

2 – ساقطة من خ.

3 – ساقط من ح.

فصل في فضائل الحج

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الآية[1]. قال ابن المسيب: ليشهدوا منافع الآخرة، وقال مجاهد: منافع الدنيا و الآخرة[2]، وابن العربي[3] فيه أربعة أقوال: الأول المناسك، الثاني المغفرة، الثالث التجارة، الرابع وهو الصحيح ذلك كله. وقال ابن مسعود والحسن وسعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[4] أنه طريق مكة، والمعنى أصدهم عن الحج. وفي **الصحيحين** عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟ فقال[5]: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[6]. ابن عبد البر عن جابر سئل رسول الله ﷺ: «[ما الحج المبرور أو][7] ما بر الحج؟. قال: إطعام الطعام، وحسن الصحبة»[8]. وقيل الذي لا رياء فيه ولا سمعة ولا رفث ولا فسوق، وكانت النفقة فيه من المال الطيب هـ[9]. وحكى المروى عن شمر بن حوشب

---

1 –الحج : 25.

2 –ينظر **تفسير ابن كثير**، دار الفكر، سنة 1401 هـ ، 3/ 217.

3 – محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي، أبو بكر المعروف بابن العربي المعافري، فقيه ومحدث، ولي قضاء إشبيلة، له رحلة مشرقية أخذ فيها عن الغزالي، توفي سنة 543 هـ. انظر ترجم له : ابن العماد، **شذرات الذهب**، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، 4/ 141 ؛ مخلوف، **شجرة**. . . ، 1/ 199 – 201 رقم 444.

4 –الأعراف: 15.

5 – في خ "قال".

6 –الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الحج باب فضل الحج المبرور، تحقيق مصطفى ديب البغا دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة 1407/1987. رقم الحديث 1447، 2/553 ؛ و مسلم في **صحيحه**، كتاب الحج باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1374/ 1955، رقم 83، 1/88 .

7 – ساقط من ح.

8 – الحديث أخرجه الطبري في **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسني، دار الحرمين، القاهرة، 1415 هـ، 6/362 .

9 – ينظر **الاستذكار الجامع لفقهاء الأمصار** ليوسف بن عبد البر القرطبي، دار الكتب العلمية، 4/ 104.

أنه: «هو الذي لا يخالطه شيء من المآثم»[1]. ابن عبد البر بسنده[2]. قال رجل للحسن، يا أبا سعيد: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة. وقيل المبرور المتقبل. قيل ومن علامات المقبول: أن يرجع خيرا مما كان أولا، بأن لا يعود للمعاصي. وقيل المبرور الذي لا تعقبه معصية. ابن العربي، قال: فقهاؤنا: الحج المبرور الذي لم يُعْصَ الله في أثنائه أو في أثناء أدائه. وقال الفقهاء: هو الذي لم يعص الله بعده هـ. قلت : وما نسبه ابن العربي للفقهاء هو الذي رجحه الإمام النووي[3] ويدل له حديث: «من حج ولم يرفث إلخ»[4] وسيأتي. وقال القرطبي[5] : «الأقوال في تفسيره متقاربة لمعنى، وحاصلها أنه الحج الذي وفيت أحكامه، ووقع موقعا لما طلب من المكلف على الوجه الأكمل»[6]، هـ.

قلت: والخلاف لفظي سببه أن لفظ المبرور مشترك يطلق *3* بإزاء معان منها: البر الذي هو فعل الجميل، ومنه بر الوالدين، و به فسره النبي ﷺ، حسبما تقدم آنفا عن جابر. ويطلق بمعنى الطاعة، ويكون البر بمعنى الصدق، ومنه برت يمينك، فيكون المعنى على هذا: الحج الصادق الخالص لله تعالى ونحو ذلك. وفي **الصحيحين** أيضا عن أبي هريرة مرفوعا: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنبه، وفي رواية رجع من ذنبه كيوم ولدته أمه»[7]. الرفث يطلق على الجماع و التعريض به، وعلى الفحش في القول، وهو المراد هنا. والجمهور على أن المراد به في الآية:

---

1 – الحديث أخرجه النووي في : **شرح النووي على صحيح مسلم**، دار إحياء الثرات العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1392، 74/2.

2 – في خ " في سنده".

3 – ينظر **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، لمحمد عبد الرحمان المباركفوري باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، دار الكتب العلمية بيروت، 454/3.

4 –ينظر : **مسند ابن الجعد** لعلي بن جعد الجوهري تحقيق عامر أحمد حيدر مؤسسة نادر، بيروت، 261/1، 1990/1410.

5 –محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين من أهل قرطبة توفي سنة 671 هجرية. ترجم له: الزركلي، **الأعلام**. . . ، 322/5.

6 – ينظر **تحفة الأحوذي** باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، 454/3.

7 –**صحيح البخاري**، كتاب الحج باب قول الله تعالى فلا رفث، رقم الحديث 1723، ج 645/2. **صحيح مسلم**، كتاب الحج باب في فضل الحج والعمرة، رقم الحديث 1350.

الجماع. وفي الحديث ما هو أعم[1] من ذلك، وإليه نحا القرطبي، ويدل له الحديث الصحيح: «فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث»[2]. والفسوق الخروج عن الطاعة بأي وجه، سبا كان أو غيره. وفي ابن حجر عن الطيبي[3] ما حاصله: لم يذكر في[4] الحديث الجدال كما ذكر في الآية، إما من باب الاكتفاء أو لدخوله في الرفث والفسق، ولأن المذموم منه لا يخرج عن واحد منهما.

قال مالك: الجدال هنا أن يختلف الناس أيهم أصاب موقف إبراهيم الخليل ﷺ، كما كانوا في الجاهلية، فالمعنى على هذا التأويل لا جدال في مواضعه. وظاهر الحديث: غفران الذنوب صغيرها وكبيرها[5] حتى التبعات[6]، ابن حجر[7]. وهو من أقوى الشواهد لحديث عباس بن مرداس المصرح بذلك، وله شواهد من حديث ابن عمر كما في **تفسير** القرطبي وزروق، وعليه فيكون من خصائص الحج. وفي **الصحيحين** عن أبي هريرة مرفوعا: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[8]. أي لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، ولا بد أن يبلغ به إدخاله الجنة، قاله النووي[9]. ابن التين[10] «إلى» المعنى هـ.

---

1 – في خ "أهم".

2 – **صحيح البخاري**، كتاب الصوم باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم 1805، ج673/2.

3 – الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي، إمام وعلامة، صنف شرح **الكشاف**، توفي سنة 743 هـ. ترجم له السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1979 م، 1/ 522.

4 – ساقطة من خ.

5 – في خ " كبيرها وصغيرها".

6 – في خ "التباعات".

7 – ينظر: **الإصابة في تمييز الصحابة** لابن حجر، تحقيق علي محمد البجاوي دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1412/1992. رقم 7486، 635/5.

8 – **صحيح البخاري**، باب كتاب العلم باب وجوب العمرة، رقم 1683، 629/2؛ **صحيح مسلم**، كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة رقم 1349.

9 – ينظر **شرح النووي على صحيح مسلم** للنووي، كتاب البيوع، دار احياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى 1392 هـ، 222/7.

10 – عبد الواحد ابن التين، توفي سنة ٦١١هـ، مؤلف **المنجد الفصيح في شرح البخاري**.

قلت: و لا مانع من جعلها للغاية، بمعنى أن الله تعالى تفضل على من تكررت منه العمرة بمغفرة ما اقترفه من أول عمرة إلى آخر عمرة، ابن عبد البر. وهو خاص بالصغائر، وغلط من عمم ذلك في الكبائر من أهل عصرنا، هـ. وقال الإمام ابن مرزوق المعتقد السني: أن الكبائر لا تمحوها إلا التوبة أو فضل من الله تعالى. هكذا نص أئمتنا المتكلمين قاطبة رضوان الله عليهم، كالباجي وابن عبد البر، وابن العربي وعياض وابن بطال[1]، وخلائق يطول عدهم هـ. وإلى التعميم ذهب الإمام أبوبكربن العربي وابن بزيزة [2] و الطيبي مستدلين بحديث الصحيح «لو أن نهرا بباب أحدكم» الحديث[3]. وبحديث الباب، وبحديث مباهات الملائكة عليهم السلام بالحاج. فإن الملائكة عليهم السلام مطهرون ولا يباهى المطهر مطلقا إلا بمطهر مطلقا إلى غير ذلك*4* من الأدلة. الحاصل الجمهور على التخصيص بالصغائر وقد حجروا في ذلك واسعا. الحديث: «أن رحمتي سبقت غضبي» [4]، والمحققون على التعميم، والنفس إليه أميل، وأدلته كثيرة تأتي بعد هذا، والله ربنا أعلم.

وقال الأبِّـي[5] في شرح مسلم : والجاري على مذهب الأشعرية، وبه

---

1 - بو عبد الله محمد بن بطال بن مهدي التميمي، فقيه ومحدث، رحل إلى الشرق وأخذ عن أعلام منهم عبد الملك بن جلاب. توفي سنة 366 هـ/976 م ترجم له : ابراهيم بن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دار الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، السنة 1417 /1996، 409 - 410 ؛ مخلوف، **شجرة**. . .، رقم 275، 1/ 147.

2 -عبد العزيز بن إبراهيم فقيه وصوفي، ولد سنة 606 هـ وتوفي 662 هـ من تآليفه : **تفسير القرآن**، **شرح الأحكام الصغرى**، **الاسعاد في شرح الارشاد** أنظر : كحالة، **معجم المؤلفين**، 155/2.

3 -أخرجه البخاري في **صحيحه** كتاب الطلاق باب الصلوات الخمس كفارة رقم 505، ج197/1. نص الحديث: عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قول: أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ما تقول ذلك يبقي من درنه قالوا لا يبقي من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا " ومسلم في **صحيحه**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، رقم 667، 462/1.

4 - **صحيح البخاري**كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء رقم6986 ؛ **سنن ابن ماجة** كتاب الطلاق باب لا طلاق قبل النكاح تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر بيروت رقم، 189 1/ 67.

5 - محمد بن خلف بن عمر الأبي الوشتاتي، نسبة لقبيلة وشتاتة، نشأ بتونس ودرس بها، فقيه أخذ عن ابن عرفة وهو من أكابر أصحابه. قال ابن عرفة : كيف أنام وأصبح بين أسدين الأبي بفهمه وعقله والبرزلي بحفظه ونقله. له شرح نبيل على **صحيح مسلم** سماه إكمال الإكمال. تولى قضاء الجزيرة سنة 808 هـ وتوفي سنة 828 /1424. ترجم له مخلوف، **شجرة**. . .، 351/1 رقم 902؛ محمد الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة، بيروت، 2/ 169.

قالت المرجئة في أنه تجوز مغفرة الكبائر دون توبة صحة تكفير الحج لها هـ. وقد فصل السراج البلقيني أحوال الإنسان بالنسبة لما صدر منه من كبير وصغير، فقال: ليخص به خمسة، أحدها أن لا يصدر شيء منه البتة. فهذا يعاض برفع الدرجات، ثانيها يأتي بصغير بلا إصرار، فهذا يكفر عنه جزما، ثالثها مثله، لكن مع الإصرار، فلا يكفر. إذا قلنا إن الإصرار على الصغائر كبيرة، رابعها أن يأتي بكبيرة واحدة وصغائر، خامسها أن يأتي بكبائر وصغائر. فهذا فيه نظر، يحتمل إذا لم يجتنب الكبائر ألا تكفر الكبائر بل تكفر الصغائر ويحتمل ألا يكفر شيء أصلا، والثاني أرجح لأن مفهوم المخالفة إذا لم تتعين جهته لا يعمل به، فهنا لا يكفر شيء منها لاختلاط الكبائر والصغائر أو لتمحض الكبائر، أو تكفر الصغائر، فلم تتعين جهة لمفهوم المخالفة لدورانه بين الفضيلتين، فلا يعمل به هـ. وروى النسائي عن ابن مسعود وابن عباس وابن ماجة عن عمر، والترمذي والبغوي عن ابن مسعود بسند قال فيه حسن صحيح غريب أنه ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة جزاء إلا الجنة»[1]. ومعنى المتابعة بين الحج والعمرة ما قاله الطيبي: إذا حججتم فاعتمروا وإذا اعتمرتم فحجوا.

قلت: وليس المراد ظاهره من أنهما لا ينفيان ما ذكر إلا بشرط متابعة أحدهما للآخر من غير فصل. قال الطيبي: وإزالة الفقر كزيادة الصدقة في المال. وروى الشيخان عن ابن عباس مرفوعا: «عمرة في رمضان تعدل حجة»[2]. وقد صح مثله عن جابر وأم معقل كما في أبي داود- ولا يشكل قولها- وقد قال هذا رسول الله ﷺ لي، فما أدري ألي خاصة أو للناس عامة[3]. لأن الظاهر كما قال ابن حجر العموم. والمراد أنه ﷺ أعلمها أن العمرة في

1 - **السنن الكبرى** للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري دار الكتب العلمية، بيروت، 1991/1411، كتاب الحج باب فضل العمرة رقم 3610، 322/2

2 - **صحيح البخاري**، كتاب الحج باب فضل عمرة في رمضان رقم 1690، 631/2 ؛ **صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان. رقم 1256، 917/2

3 - ينظر **البيان والتعريب في أسباب ورود الحديث الشريف**، لابن إبراهيم بن محمد الحسني، تحقيق سعد الدين الكاتب، دار الكتاب العربي بيروت 1401، ج111/2

رمضان تعدل الحجة في الثواب لا أنها تقوم مقامها في إسقاط الفرض، للإجماع على أن الاعتمار لا يجزئ عن حج الفرض. ونقل الترمذي عن إسحاق بن راهويه أنه نظير ما جاء: «أن الإخلاص تعدل ثلث القرآن»[1]. وقال ابن العربي: أدركتِ العمرة منزلة الحج بانضمام رمضان إليها، [وقال][2] ابن الجوزي: وفيه أن ثواب العمل يزيد زيادة بشرف الوقت كما يزيد بحضور القلب[3].

قلت:*5* ونظيره حديث وقوف الجمعة يعدل سبعين حجة. رُوي ذلك مرفوعا على ما به من الوهم. وروى النسائي عن أبي هريرة مرفوعا: «وفد الله ثلاثة: الغازي والحاج والمعتمر»[4]. وله عنه مرفوعا: «جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة الحج والعمرة»[5]. وله عن عائشة مرفوعا: «قلت: يارسول الله ألا نخرج فنجاهد معك فإني لا أرى عملا في القرآن أفضل من الجهاد؟ قال: لا ولكن أحسن الجهاد وأجمله حج مبرور»[6]. قال في **فتح الباري**: «اختلف في ضبط «لكن» فالأكثر بضم الكاف خطاب للنسوة. قال القابسي: وهو الذي تميل إليه نفسي. وفي رواية بكسر الكاف وزيادة ألف قبلها بلفظ الاستدراك، وسماه جهادا لما فيه من مجاهدة النفس»[7].

وروى مسلم عن عمرو بن العاص قال: «لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط. قال: فقبضت

---

1 - ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 604/3.

2 - الزيادة من **فتح الباري**، 604/3.

3 - نفس المصدر.

4 - النسائي، **السنن الكبرى**، كتاب الحج باب فضل الحج رقم 3604، 321/2، وفي كتاب الجهاد، رقم 4329، 12/3.

5 - النسائي، **السنن الصغرى (المجتبى)** للنسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب الطبعة الثانية 1986/1406، كتاب مناسك الحج، باب فضل الحج رقم 2626، 113/5

6 - **م.س**، رقم 2628، 114/5.

7 - ابن حجر، **فتح...**، رقم 1448، 382/3.

يدي فقال: مالك ياعمرو؟ قال، قلت: أشترط. قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله»[1].

وأخرج الدارقطني عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من مات في هذا الوجه من حاج أو معتمر لم يُعرض ولم يُحاسب وقيل له أدخل الجنة»[2]. وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت، ما أتاه عبد سأل الله دنيا إلا أعطاه منها، ولا آخرة إلا اذخر له منها». وأخرج ابن حبان في **صحيحه** عن النبي ﷺ، قال: «إذا قُضِيَ آخر طواف بالبيت خرج صاحبه من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[3]. وروي مرفوعا عن ابن عباس: «دعوة الحاج لا ترد حتى يرجع»[4]. وروى عن جابر مرفوعا: «من جاء هذا البيت حاجا فطاف به أسبوعا، ثم أتى مقام إبراهيم فصلى عنده ركعتين ثم أتى زمزم[5] فشرب من مائها أخرجه الله تعالى من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وعنه مرفوعا: «أربعة حق على الله تعالى عونهم: الغازي والمتزوج والمكاتب والحاج». وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه[6] عن جده مرفوعا: «الحجاج وفد الله إن سألوا أعطوا وإن أنفقوا أخلف عليهم، والذي نفس أبي القاسم

---

1 – **صحيح مسلم**، كتاب الطلاق، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، رقم 121، 112/1.

2 – **سنن الدار قطني** لعلي أبو الحسن الدار قطني، كتاب الحج، باب وضوء رسول الله، ﷺ تحقيق عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت 1386/1966. رقم 278، 297/2.

3 – **صحيح ابن حبان** لمحمد بن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، 1993م رقم 1887، 207/5

4 – الحديث في **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، لعلاء الدين علي المتقي، تحقيق محمود عمر الدمياطي. دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1414/1998، 1 رقم، 3304 43/2

5 – زمزم : بئرمعروفة بمكة، وهي مشتقة من زمزوم و زمزام وزمازم أي كثير. انظر : محمد بن منظور **لسان العرب المحيط**، دار صادر بيروت، ، 2/275 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** نقلها إلى اللغة العربية محمد ثابت وآخرون، مادة "إبراهيم" ؛أبو عبيد البكري، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403/ 1982، 2/700 – 701 .

6 – في خ "عبد الله".

بيده[1] ما أهل مهل ولا كبر مكبر على شرف إلا هلل بتهليله وتكبيره حتى يبلغ منقطع التراب»[2]. وعنه ﷺ أنه قال: «يستجاب للحاج من حين يدخل مكة إلى أن يرجع إلى أهله وفضل أربعين يوما». وعنه ﷺ أنه قال: «إذا لقيت الحاج فصافحه وسلم عليه ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فانه مغفور له» رواه الإمام أحمد[3]. وعن أبي سعيد الخدري مرفوعا: *6* «أن عبدا صححت له جسمه ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم». رواه بن أبي شيبة وابن حبان في **صحيحه**[4].

قال العلماء: وهو محمول على الاستحباب[5] في التأكيد في هذه المدة. وروى العقيلي من حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا، قالوا[6] : وما شأن الحج يا رسول الله؟ قال: يقعد عُربانها على أذناب شعابها فلا يصل إلى الحج أحد»[7]. وذكر ابن جماعة[8] عن عبد الرزاق مرفوعا: «حجوا تستغنوا»[9]. وروي عن النضر بن شميل عن عطاء بن أبي رباح، بلغنا عن عثمان وأبي ذر رضي الله عنهما أنهما قالا: «من حج

1 – في خ " والذي نفسي بيده أو نفس أبي القاسم بيده "

2 – ينظر الحديث في **الفوائد** لمحمد الرازي، تحقيق محمود عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشاد الرياض، الطبعة الأولى، 1412 رقم 1595، 230/2.

3 – **مسند أحمد بن حنبل**، مؤسسة قرطبة، مصر. رقم 5371، 62/2 و رقم 6112، 128/2.

4 – **صحيح ابن حبان** رقم 3703، 16/9.

5 – في خ" الإستجابة".

6 – ساقطة من خ.

7 – الحديث في **ضعفاء العقيلي** لأبي جعفر محمد العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1404 هـ، رقم 1693، 135/4.

8 – أبو عمر عبد العزيز ابن قاضي القضاة برد الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني، ولد بدمشق سنة 694هـ/1294م، تولى القضاء بمصر سنة 739هـ. توفي بمكة سنة 767هـ/1366م. من مؤلفاته: هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك، المناسك الصغرى، **مختصر في السيرة** النبوية. ترجم له السيوطي، **طبقات الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1403، 1/ 536.

9 –أبو بكر عبد الرزاق، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق حبيب الرحمان الأعظمي، المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1403 هـ، رقم 8819، 11/5.

استأنف[1] العمل». وفي **الموطأ** عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان أنه سمعه يذكر أن رجلا مر على أبي ذر بالربْذةِ وأن أبا ذر سأله أين تريد؟ فقال: أردت الحج، هل نزعك غيره، قال: لا، قال: فاستأنف[2] العمل»[3]. وروى عن أبي موسى أنه قال: «الحاج يشفع في أربعمائة من أهل بيته ويبارك له في أربعين بعيرا من أمهات البعير الذي حمله، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[4]. وروى عبد الرزاق أن رجلا قال لأبي موسى : يا أبا موسى: «إني[5] كنت أعالج الحج وقد ضعفت وكبرت فهل من شيء يعدل الحج[6]؟ قال: فهل تستطيع أن تعتق سبعين رقبة من ولد إسماعيل، فأما الحل والرحيل فلا أعلم له عدلا»[7]. وقال سعيد بن جبير: «ما أتى هذا البيت طالب حاجة من دنيا ولا آخرة إلا رجع بحاجته»[8].

وحكى القاضي أبو الفضل عياض في **الشفا** عن بعض شيوخ المغرب من المالكية «أن قوما أتوه فأعلموه أن كنانة قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار، فلم تعمل فيه وبقي أبيض البدن فقال: لعله حج ثلاث حجج؟ فقالوا نعم، فقال حُدثْتُ أن من حج حجةً أدى [الله][9] فرضه ومن حج ثانية داين ربه، ومن حج ثالثة[10] حرم الله شعره وبَشَرَهُ على النار»[11]. قال ابن فرحون في

1 – في خ "استناف"

2 – بياض في خ.

3 –مالك بن أنس، **موطأ مالك**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الترات العربي، مصر، رقم 952، 1/412.

4 – ينظر: السيوطي، **الدر المنثور**، دار الفكر، بيروت 1993، 507/1.

5 – في خ " مالي".

6 – في خ " كالحج".

7 – **مصنف عبد الرزاق**، رقم 8807، 7/5.

8 – ينظر **الدر المنثور** 510/1.

9 – الكلمة غير موجودة في **الشفا** ولعلها زائدة لأن المعنى يستقيم بدونها.

10 –في **الشفا** " ثلاث حجج ".

11 – أبو الفضل عياض: **كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى**، اعتنى به وراجعه هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2001/1422، ص 282.

مناسكه: قال أبوعبد الله بن الحاج[1] : وذكر عبد الرزاق عن ابن مجاهد عن ابن عمر[2] أن رسول الله ﷺ، قال لرجل من الأنصار: «سل حاجتك وإن شئت أخبرتك؟ قال الأنصاري: فذلك أعجب إلي، قال ﷺ: فإنك جئت تسأل عن خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام وتقول ماذا لي فيه، وجئت تسأل عن وقوفك بعرفة وتقول ماذا لي فيه، وعن رمي الجمار وتقول ماذا لي فيه، وعن طوافك بالبيت وتقول ماذا لي فيه، وعن حلق شعر[3] رأسك، وتقول ماذا لي فيه. قال: أي والذي *7* بعثك بالحق، فقال ﷺ: أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام فإن لك بكل وطأة تطأها راحلتك حسنة، وتمحى عنك بها سيئة، وأما طوافك - يعني الإفاضة - فإنك تطوف ولا ذنب عليك، ويأتيك ملك حتى يضع يده بين كتفيك فيقول: اعمل لما بقي فقد غفر لك ما مضى، وأما طوافك بين الصفا والمروة فكعتق سبعين رقبة. وأما وقوفك بعرفة، فإن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا، يباهي بهم الملائكة، فيقول: هؤلاء عبيدي جاؤوني شعثا غبرا من كل فج عميق يرجون رحمتي، ويخافون عذابي ولم يروني فكيف لو رأوني، فلو كان عليك مثل رمل عالج، أو مثل أيام الدنيا، أو مثل قطر السماء ذنوبا غسلها الله عليك. وأما رميك الجمار، فإنه مدخر لك، وأما حلقك شعر رأسك، فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة، فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك»[4].

قلت: نسبه الطبراني في **أحكامه** لابن حبان في كتابه **التقاسيم والأنواع**، قال: وأخرج عنه الحافظ أبو الفرج في كتابه: **مثير العزم الساكن إلى أشرف**

1- أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج العبدري الفاسي الأصل، المعروف بابن الحاج، عالم مشهور بالزهد، عنه أخذ الشيخ خليل وغيره، ألف كتاب **المدخل** مطبوع. ترجم له: مخلوف، **شجرة**...، 1/ 313 رقم 800 ؛ ابن فرحون، **الديباج**...، 413 - 414 ؛ابن حجر، **الدرر الكامنة في أعين المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت، 4/237 ؛ الحجوي، **الفكر**...، 2/ 281.

2 - في خ " أبي عمارة".

3 - ساقطة من ح.

4 - أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية، 1404/1983 رقم 13566، 2/425

الأماكن[1]، أن النبي ﷺ قال للأنصاري[2]: «لك بكل خطوة تخطوها راحلتك حسنة وتحط بها عنك خطيئة ويرفع لك بها درجة». وأخرجه بكامله سعيد بن منصور في **سننه** وأبو الوليد الأزرقي في كتاب **مكة**[3] من حديث أنس ﷺ بتغيير بعض اللفظ وتقديم وتأخير مع زيادة. ورواه العبدري في **رحلته**[4] بسنده إلى أنس مرفوعا أيضا. وفي **الموطأ** عن إبراهيم بن عبد الله بن أبي عبلة[5] عن طلحة بن عبد الله بن كريز[6] أن رسول الله ﷺ قال: «ما رئي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذلك إلا لما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يوم بدر. قيل وما رأى يوم بدر؟ قال أما أنه رأى جبريل يزع[7] الملائكة»[8]. هذا حديث مرسل، وأدحر معناه أبعد وأذل. قال تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[9]، أي مبعدا من رحمة الله تعالى. ويَزع بفتح الياء والزاي والعين المهملة أي يصُف الملائكة للقتال، ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض في الصف. وأخرج الدار قطني عن عائشة مرفوعا: [«من مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة»[10]. وروى مسلم وغيره مرفوعا][11] : «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من[12] يوم عرفة، وأنه ليدنو ثم

---

1 – في خ "مثير العزم الساكن إلى أشرف المساكن"

2 – في خ "لأنصاري".

3 – **أخبار مكة** للأزرقي، تحقيق رشيد الصالح ملس، دار الأندلس للنشر، بيروت، 1996/1416، 6/2.

4 – **رحلة العبدري**، ص 314-312.

5 – في خ " علبه".

6 – في خ "كيران".

7 – في خ"ينزع".

8 – الحديث أخرجه مالك في **الموطأ**، رقم 944، 1/ 422.

9 – الإسراء: 39.

10 – **سنن الدارقطني**، كتاب الحج باب وضوء رسول الله، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، 1966/1386، رقم 193، 278/2.

11 – ساقط من ح.

12 – ساقطة من خ.

يباهي بهم *8* الملائكة فيقول[1]: ماذا أراد هؤلاء؟»[2]. وأخرج ابن ماجة في **سننه** عن عمر بن الخطاب أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: «يا أخي أشركنا في شيء من دعائك، ولا تنسانا»[3]. وذكر عبد الحق[4] في **مناسكه** عن ابن المبارك من حديث أنس بن مالك قال: وقف رسول الله ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تغرب فقال: «يا بلال أنصت إلي[5] الناس، فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ، فأنصت الناس فقال: معاشر الناس أتاني جبريل آنفا فأقرأني من ربي السلام، وقال أن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر وضمن عنهم التبعات. فقام عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله لنا خاصة، فقال هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة، فقال عمر: كثر خير الله وطاب»[6]. روى ابن جُريح عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «المغفرة تنزل مع الحركة الأولى، فإذا كانت الوقفة العظمى فعند ذلك يضع إبليس التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور فتجتمع إليه شياطينه فيقولون مالك؟ فيقول: قوم فتنتهم منذ ستين وسبعين سنة غفر لهم في طرفة عين»[7]، ابن فرحون. قال أبو محمد عبد الحق الأزدي في **مناسكه**، وذكر وهب بن منبه عن ابن عباس في حديث طويل «أنا الله ذو بكة سكانها خيرتي وجيراني، وعمارها وزوارها وفدي وضيفاني في كنفي، وافدين علي في ذمتي وجواري، أعمره بأهل السماء وأهل الأرض يأتونه أفواجا شعثا وغبرا، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ

---

1 - في خ "يقولون".

2 - أخرجه مسلم في **صحيحه** كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم 1348..

3 - أخرجه الإمام أحمد في **مسنده** رقم 5229، 59/2.

4 - عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي من أهل صقلية، صاحب كتاب النكت، توفي بالإسكندرية سنة 466 هـ. ترجم له: ابن فرحون، **الديباج**...، 275 ؛مخلوف، **شجرة**...، 116.

5 - في خ "لي".

6 -وقفت على الحديث بهذا اللفظ في **الدر المنثور**، 553/1.

7 - وقفت على الحديث في **التمهيد لما في موطأ من المعاني والأسانيد** لابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي و محمد عبد الكبير البكري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب سنة 1387 هـ، 121/1.

فَجٍّ عَمِيقٍ[1]، يعجون بالتكبير والتلبية عجيجا، ويرجون بالدعاء رجيجا، و ينتحبون بالبكاء نحيبا. من اعتمره لا يريد غيره فقد زارني، ووفد علي، ومن نزل بي فحق علي أن أتحفه بكرامتي، وحق على الكريم أن يكرم ضيفه ووفده وأن يسعف كلا بحاجته»[2]. وأخرج الأزرقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر زائرا، كان مضمونا على الله إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده رده بأجر وغنيمة» [3]. وعنه مرفوعا: «من مات بمكة أو في طريق مكة بعث من الآمنين»[4]. وعن سلمان مرفوعا: «من مات في أحد[5] الحرمين وجبت له شفاعتي وكان يوم القيامة *9* من الآمنين»[6].

وقال بعض السلف: كنا نحدث أن من ختم له بإحدى ثلاث، إما قال: وجبت له الجنة، وإما قال: برئ من النار، من صام شهر رمضان فإذا انقضى الشهر مات، ومن خرج حاجا فإذا رجع من حجه مات، ومن خرج معتمرا فإذا رجع من عمرته مات. وقال رسول الله ﷺ في الرجل الذي أوقعته راحلته فمات وهو محرم أنه «يبعث يوم القيامة ملبيا». أخرجه البخاري وغيره[7]. وأسند جعفر بن محمد الصادق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة»[8]. وقالﷺ: «حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها»[9]. وفي حديث مسند من طريق أهل البيت عنه ﷺ أنه قال: «ينزل على هذا البيت كل يوم مائة وعشرون رحمة،

---

1 – الحج : 25.

2 – الأزرقي : **أخبار مكة**، 47/1.

3 – **م. س** : 3/2.

4 – **ن. م** : 387/1.

5 – في خ "حد".

6 – الحديث أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، رقم 11475، 240/6.

7 – **صحيح البخاري**، كتاب الجنائز باب الحنوط للميت، رقم 1207، 1/ 426 .

8 – ينظر الحديث في **المغني عن حمل الأسفار** لأبي الفضل العراقي وقد علق عليه بقوله : "لم أجد له أصلا". تحقيق أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرباط، الطبعة الأولى 1415 هـ، رقم 763، 193/1.

9 – المصدر السابق رقم 765، 194/1

ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[1]. وفي الخبر: «استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أول شيء تجدونه في صحفكم يوم القيامة، وأغبط عمل تجدونه»[2]. ولهذا يستحب الطواف ابتداء في غير حج ولا عمرة. وفي الخبر: «من طاف أسبوعا حافيا كان له كعتق رقبة، ومن طاف أسبوعا في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه»[3]. ويقال: إن الله تعالى إذا غفر ذنبا لعبد غفر لكل من أصاب مثله في ذلك الموقف. وقال السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم الجمعة غفر لكل أهل عرفة. وقال النبي ﷺ: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»[4]. وروى ابن عبد البر بسنده إلى عمر بن الخطاب قال: «لو يعلم الركب ما ينقلبون به من الفضل بعد المغفرة لا تكلوا[5]، ولكن ليستأنفوا العمل»، ابن عبد البر[6]. وإذا كان هذا فليستأنف العمل[7] كل من حج مبرورا. قال: «فطوبى لمن وفق بعد ذلك للعمل الصالح. وروي عن سفيان الثوري[8] أنه قال: «أخسر الناس صفقة من ظن أن[9] الله تعالى لا يغفر لأهل الموقف». وروى مرفوعا: «أن الله تعالى قد وعد هذا البيت أن

---

1 – الحديث أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، رقم11475، 195/11، بإسناد حسن.

2 – الحديث أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر " استمتعوا من هذا الحديث.." وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين. انظر: أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د. ت. 1/ 240 هامش 8.

3 – لم أقف على الحديث بهذا اللفظ، وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر " من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق ريقبة" لفظ الترمذي وحسنه.

4 – أخرجه البيهقي في **سننه الكبرى**، كتاب الحج، باب الدعاء للحاج ودعاء الحاج، 261/5؛ ومحمد الحاكم في، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادرعقا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1411 /1990. وقال صحيح على شرط مسام، رقم 1612، 609/1.

5 – في **الإستذكار**. " يكلفوا ".

6 – ابن عبد البر: **الإستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار**، رقم 921، 409/4.

7 – في خ "فليتسابق للعمل".

8 – سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع، الثوري، أبو عبد الله الكوفي، كان إماما في علم الحديث وغيره، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده، وكان من الأئمة المجتهدين. توفي سنة 161 هـ/778 م. ترجم له يوسف النبهان، **جامع كرامات الأولياء**، المكتبة الثقافية، لبنان، سنة 1408/ 1988، ج/98؛ أحمد البغدادي، **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.، 9/151 – 174؛ الزركلي، **الأعلام**...، 3/ 105.

9 – ساقطة من خ.

يحجه في كل سنة مائة ألف، فإن نقصوا كملهم الله بالملائكة. وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها، يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها»[1].

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ﷺ: «ذكر بعض المكاشفين من المقربين أن إبليس لعنه الله عليهظهر له في صورة شيخ بعرفة، فإذا هو نحل الجسم مصفر اللون، باكي العين[2]، مقصوف الظهر- أي مكسوره- فقال له: ما الذي أبكى عينك[3] *10*؟ قال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزنني ذلك. قال: فما الذي أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل في سبيل الله عز وجل، ولو كانت في سبيلي كان أحب إلي، قال: فما الذي غير لونك؟ قال[4]: تعاون الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلي، قال: فما الذي قصف ظهرك؟ قال: قول العبد أسألك حسن الخاتمة، أقول: يا ويلتي متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن»[5]. وعن علي بن الموفق قال: «لما تمت لي ستون حجة خرجت من الطواف وجلست بإزاء الميزاب، وجعلت أفكر لا أدري أي شيء حالي عند الله تعالى. وقد كثر ترددي إلى هذا المكان فغلبتني عيناي فكأن قائلا يقول لي[6]: يا علي أتدعو إلى بيتك إلا من تحبه، فانتبهت وقد سري عني»[7]. وعنه أيضا ﷺ قال: «حججت سنة فلما كانت

---

1 - وقفت على هذا الحديث بهذا اللفظ عند علي الهروي، **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع** (الموضوعات الصغرى)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1390 هـ، رقم 50، 63/1. ورد الحديث كذلك في **إحياء علوم الدين**: 1/ 241 وفي تخريج الحديث الهامش رقم 3 "لم أجد له أصل".

2 - في ح "العينين". وهو خطأ.

3 - في خ "عيناك".

4 - ساقطة من خ.

5 - الغزالي، **إحياء**...، 1/ 240.

6 - ساقط من ح.

7 - ينظر: **صفوة الصفوة** لعبد الرحمان بن علي أبو الفرج، تحقيق محمود فاخوري و محمد رواس قلعة جي، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية 1979/1399 هـ، 387/2.

ليلة عرفة نمت بمسجد الخيف[1] فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه: يا عبد الله، فقال الآخر: لبيك يا عبد الله، قال: أتدري كم حج بيت ربنا في هذه السنة؟ قال: لا أدري، قال: حج بيت ربنا ستمائة ألف، أفتدري كم قبل منهم؟ قال: لا، قال: قبل منهم ستة أنفس. قال: ثم ارتفعا في الهواء فغابا عني فانتبهت فزعا واغتممت غما شديدا، وأهمني أمري فقلت: إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا فيهم؟ فلما أفضت من عرفة نمت عند المشعر الحرام وجعلت أفكر في كثرة الخلق وقلة من قبل منهم؛ فغلبني النوم فإذا الشخصان قد نزلا على هيئتهما، فنادى أحدهما صاحبه ثم قال: أتدري ماذا حكم ربنا عز وجل في هذه الليلة؟ قال: لا أدري، قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف، فانتبهت وبي من السرور ما يجل عن الوصف. وعنه أيضا أنه قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لم يقبل حجه، قال: فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي: يا علي أتتسخى علي وأنا خلقت السخاء والأسخياء، وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين، قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته. وروى عنه أنه حج عن النبي ﷺ حججا، قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال: يا ابن الموفق حججت عني؟ فقلت: نعم، قال: ولبيت عني؟ فقلت: نعم، قال: فإني أكافئك بها يوم القيامة *11* آخذ بيدك في الموقف وأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب»[2].

وقال مجاهد وغيره: «إذا قدم الحجاج مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقا»[3]. وكان من

---

1 - مسجد الخيف ويسمى مسجد علي، قيل أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أول من بناه، وهو موضع منزل النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في حجة الوداع. انظر: الناصري، **الرحلة**، 239 - 240؛ الكتاني، **سلوة**...، 50/1 وفيه بأنه بمنى.

2 - أنظر القصة عند الغزالي، **إحياء علوم الدين** (مع تقديم وتأخير)، 1/ 241؛ وأبو الفرج، **صفوة**...، 387/2.

3 - وقفت على الحديث عند ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز**، 471/1.

سنة السلف أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألونهم الدعاء لهم، ويبادرون بذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام [1].

وقد انتهى بنا الغرض في ذكر فضائل الحج، ولو تتبعناه لخرجنا إلى خلاف ما نحن بصدده، ولنختمها بشيء من الأخبار فيما جاء من الوعيد على تركه لمن وجب عليه:

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾الآية [2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾[3] إلخ في قوة، «ومن لم يحج» تغليظا على التارك، وكذا ذكر الاستغناء فهو مما يدل على المقت، وكذا قوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾[4] لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة.

وقال ابن عطية[5] في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي من لم يحج وهو يقدر عليه[6]. وقيل معناه: من لزمه فرض الحج فأنكره، فإن الله غني عن حجه. وقال ابن عباس: «من كفر من قال: الحج ليس بفرض». وقيل: معناه من اعتقد أنه لا أجر له في سعيه وحجه، ولا إثم عليه في تأخيره، قاله مجاهد. وسأل رجل من أهل هذيل النبي ﷺ فقال: يا نبي الله من تركه كفر؟ فقال: من تركه لا يخاف عقوبة، ومن حج لا يرجو ثوابه، فهو ذلك»[7] أي كفر. وقال السدي: «من كفر معناه: من وجد ما يحج به ثم لم يحج فهو كافر. ويروى عن عمر أنه قال: «لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون كل رجل لم يحج وهو واجد، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين»[8]. ونحو

---

1 – الغزالي، **إحياء**. . .، 1/ 241.

2 – آل عمران :97.

3 – نفس الآية.

4 –نفسه الآية : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

5 – عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي صاحب كتاب المحرر الوجيز، توفي سنة 546 هـ/51 – 1152 م. انظر : **كشف الظنون**، 2/ 1613 ؛ الكتاني، **فهرس**. . .، 2/ 862 – 863.

6 – ابن عطية، **المحرز**. . .، 471/1

7 –ينظر : محمد بن جرير الطبري **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، دار الفكر، بيروت 1405، 20/4.

8 – ينظر: ابن كثير، **تفسير القرآن**، دار الفكر، 387/1

هذا عن عمر في كتاب ابن حبيب[1]. قال فيه: «لو أني أعلم أن لي فيكم بقاء لضربت لكل ضرورة أجلا، فإن حج إلى ذلك الأجل و إلا ضربت الجزية في ماله كما أضربها في مال اليهود والنصارى». وقال عمر: «من اتصل وفره ثلاث سنين ثم مات ولم يحج لم أصل عليه». وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «من لم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا»[2]. وعن علي مرفوعا: «من ملك زادا أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا»[3]. وذلك لأن الله تعالى يقول في بيت الله الحرام: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية[4].

قلت: والآية والآثار السالفة فيمن استحل ذلك عامة، وهي قد خرجت مخرج الزجر والوعيد. وسئل سحنون[5] عمن قدر على الحج فلم يحج. *12* فقال: إن كان لا يقدر لقلة مال وضعف بدن[6]، فلا شيء عليه، وإن طال زمانه واتصل وفره فلا تجوز شهادته. قيل له: أفلا يعذر من بالأندلس لمشقة البحر والبعد؟ قال: أفلا يرحل إلى موضع لا يكون بينه وبين الحج بحر؟ فلا عذر له إن كان بالأندلس.

---

1 - هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان، كان حافظا للفقه على مذهب مالك، توفي سنة 238 هـ، ترجم له: ابن فرحون، **الديباج**...، 252-253، ابن قنفد، **الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، منشورات المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 171.

2 - أخرجه البيهقي في **سننه**، رقم 8443، 334/4.

3 - ينظر: **تفسير** الطبري، 16/4.

4 - آل عمران: 97.

5 - عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني، قاض، فقيه، انتهت إليه رياسة العلم بالمغرب. ولد سنة 160هـ/777م بالقيروان، ولي القضاء بها سنة 234 هـ إلى أن توفي سنة 240 هـ. انظر ترجم له: ابن فرحون، **الديباج**...، ص 160؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 103-105 رقم 124؛ أبو بكر عبد الله المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم**، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1951م، 1/ 294

6 - في ح "بال".

فصل في فضائل الزيارة

اعلم أن زيارة قبر نبينا ﷺ من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، ومن السنة المؤكدة الماحقة للسيئات، قال الله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى ﴿رَّحِيمًا﴾[1]. وفي أبي داود عن أنس رضي الله عليه قال: «لما خرج رسول الله ﷺ من مكة أظلم منها كل شيء، ولما دخل المدينة أضاء منها كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «فيها قبري وبها بيتي وحق على كل مسلم زيارتها»[2]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من أحد من أمتي له سعة ولم يزرني فليس له عذر»[3]. قال الطبري في **غاية الأحكام**: أخرجه أبو محمد القاسم بن أبي الحافظ أبي الحسن علي بن عسكر في كتابه **فضائل المدينة**، وعنه أن النبي ﷺ قال: «من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشاهدا يوم القيامة»[4] أخرجه ابن الجوزي صاحب **مثير العزم**. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»، أخرجه الدار قطني[5] وأبو بكر البزار وسعيد بن منصور[6]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[7]، زاد غيره في رواية أخرى: «ومن تمكن من زيارتي فلم يزرني فقد جفاني»[8]، وليس من حقه علينا ذلك. وروي: «من وجد سعة ولم يفد إلي فقد جفاني»[9]، أخرجه الدار قطني وأبو بكر البزار. و«من جاءني زائرا لم تنتزعه حاجة

---

1 - النساء: 63﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

2 - لم أقف عليه.

3 - وقفت على الحديث عند العراقي، **المغني**، رقم 818، 208/1.

4 - الحديث في **الدر المنثور**، 569/1.

5 - **سنن الدار قطني**، كتاب الحج باب المواقيت رقم 192، 278/2.

6 - ينظر **الدر المنثور**، 569/1.

7 - **سنن الدار قطني**، كتاب الحج باب المواقيت رقم 194، 278/2.

8 - وقفت على الحديث عند العراقي، **المغني** رقم 818، 207/1 (ذكره ابن الجوزي في **الموضوعات**).

9 - م. س.

إلا زيارتي كان حقا على الله أن اكون له شفيعا يوم القيامة». أخرجه الدار قطني و الخُلَعي. وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يسلم علي [من أمتي][1] إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»[2]. ولا يشكل هذا الحديث مع ما ثبت أن الأنبياء أحياء في قبورهم من أجل أن ظاهره مفارقة الروح لهم في بعض الأوقات. وحاصل ما ذكره الحافظ السيوطي في تأليفه، **أنباء الأذكياء بحياة الأنبياء**، في هذا الحديث خمسة عشرة وجها أقواها أن قوله : رد الله علي، جملة حالية *13*بتقدير على القاعدة المقررة في النحو:﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[3]، وحتى في الحديث ليست للتعليل بالعاطفة بمعنى الواوَ؛ فصار تقدير الحديث: ما من أحد يسلم علي إلا قد رد الله علي روحي قبل ذلك وأرد عليه. فجملة رد ليست بمعنى الحال أو الاستقبال حتى يرد الإشكال، والله أعلم.

وعن أنس مرفوعا: «من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة»[4]. وفيما ذكرنا كفاية. وأما آداب الزيارة فكثيرة أفردها الناس بالتأليف فسنتعرض لها إن شاء الله في محلها.

---

1 - لم ترد في الحديث.

2 - أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، 527/2.

3 - النساء: 90.

4 - وقفت على الحديث في : **الدر المنثور**، 569/1 ؛ و **كنز العمال**، رقم 42584، 274/15.

فصل في بعض آداب السفر

وهي كثيرة ولنقتصر على المهم منها بعد تقديم نية خالصة خالية من المقاصد الدنيوية:

منها الاستغفار، كان رسول الله ﷺ إذا أهمه أمر من سفر أو غيره صلى ركعتين من غير الفريضة. ويستحب أن يقرأ في الأولى الكافرون وفي الثانية الإخلاص، فإذا سلم صلى على النبي ﷺ ثم يقول: «اللهم أني أستخيرك» إلخ ما في الحديث الصحيح المخرج في **الصحيحين** وغيرهما[1].

ومنها، بيان ما يجوز صرفه من المال في الحج، قال العلماء: ويجب على مريد الحج أن يحرص على أن تكون نفقته حلالا لا شبهة فيها، فان الله تعالى لا يقبل إلا طيبا. قال ابن عطاء: إنما أوتي على كثير من الناس في عدم قبول عبادتهم وعدم استجابة دعائهم لعدم تصفية أموالهم عن الحرام والشبهات. وقال المالكية والجمهور: إن حج بمال مغصوب ضمنه وأجزاه حجه.

1 - ولفظ الحديث :" حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الْمَوَالِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ يَقُولُ إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ "الحديث أخرجه البخاري دون مسلم ولهذا كان على المؤلف أن يقول في الصحيح بدل الصحيحين. **صحيح البخاري**، كتاب الكسوف أبواب التطوع، رقم 1109، 391/1 . كما أخرجه أبي داود في **سننه**، باب في الإستخارة رقم 1538، 89/2 ؛ الترمذي في **سننه**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب ما جاء في صلاة الإستخارة رقم 480، 345/2.

قاله خليل[1] : «وصح بالحرام وعصى»[2]، خلافا لأحمد بن حنبل، وعلى مذهبه يأتي البيتان المشهوران :(من البسيط)

إذًا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ دَنَسٌ[3] فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجّتِ العِيرُ[4]
لاَ يَقْبَلُ الله إلاّ كُلّ طَيّبَةٍ مَا كُلّ مَنْ[5] حَجّ بَيْتَ اللهِ مَبْرُورُ

وعلى الإجزاء، فهل يقبل خلاف والمعتمد القبول، لأن مذهب أهل السنة والجماعة أن السيئة لا تحبط الحسنات، قال ابن وضاح[6] : يستحب لمن حج بمال فيه شبهة أن ينفقه في سفره، وما يريد من حوائجه، ويتحرى أطيب ما يجد فينفقه من حين يحرم بالحج فيما يأكل ويلبس من ثياب إحرامه ونحوه إلى التحلل. وقال الغزالي: «فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف لما هو مضطر إليه من تناول ما ليس بطيب، فعساه سبحانه ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهيته»[7].

ومنها، تحري يوم الخروج، أخرج الشيخان وأبو داود عن كعب بن مالك قال: «لقلما كان *14* رسول الله ﷺ يخرج في سفر إلا يوم الخميس»[8]. روى أبو داود في الجهاد، والترمذي في البيوع، وقال حديث حسن، عن صخر بن وداعة الغامدي أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لأمتي في

1 - خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المصري المعروف بالشيخ خليل، من أكبر علماء المذهب المالكي المتأخرين، له شرح على **مختصر** ابن الحاجب الفرعي، و**مختصر** للمذهب المالكي مشهور. اختلفت مصادر ترجمته في تاريخ وفاته ما بين 769 هـ و776 هـ انظر ترجمته ومصادرها في **شجرة النور**، 1/ 321 - 322.

2 -خليل بن إسحاق المالكي **مختصرالعلامة خليل**، اعتنى به وراجعه عبد السلام الشتيوي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1424/ 2003، ص 62.

3 - في ح "سحت".

4 - القائل : مروان بن محمد أبو الشمقمق (ت 200 هـ).

5 - ساقطة من ح .

6 - أبو عبد الله محمد بن وضاح بن يزيد القرطبي، فقيه ومحدث، ولد سنة 199 هـ، وتوفي سنة 286 هـ. ترجم له مخلوف، **شجرة**. . . ،1/ 113 - 114 ؛ ابن فرحون، **الديباج**. . . ، 338 - 339.

7 - الغزالي، **إحياء**. . . ، 482/1.

8 - أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد والسير باب من أراد غزوة فورى بغيرها ومن أحب الخروج يوم الخميس، رقم 2789، 1078/3.

بكورها. وكان إذا بعث سرية أو جيشا بعثهم من أول النهار. وكان صخر تاجرا، فكان يبعث تجارته أول النهار، فأثرى أي كثر ماله»[1]. وروى الترمذي عن ابن عباس قال: «بعث[2] النبي ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة فغدا أصحابه، وقال: أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم، فلما صلى مع رسول الله ﷺ رءاه فقال له: من منعك أن تغدو مع أصحابك؟ فقال: أردت أن أصلي معك ثم ألحقهم، فقال: لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما لحقت فضل غزوتهم»[3].

قلت: ولا دليل فيه على استحباب السفر يوم الجمعة، لداعية الضرورة لمبادرة العدو بالغزو. والسفر عندنا معشر المالكية بعد فجر يوم الجمعة مكروه، وقيل بالإباحة. حكاه ابن حبيب في **الواضحة** [4] عن مالك. وبعد الزوال في بلدة فيها الجمعة حرام إلا أن يخشى بذهاب رفقته على نفسه أو ماله، وإلا أن يتحقق إدراك الجمعة في غيرها من البلاد في طريقه؛ وهذا كله في حق من تلزمه الجمعة وأما غيره فليس السفر في حقه بمكروه قبل الزوال ولا بمحرم بعده. وروى الشيخان عن كعب بن مالك أنه ﷺ خرج في غزوة تبوك[5] يوم الخميس»[6]. وهذا إن تيسر السفر في الخميس فهو أولى، وإلا فالسبت والاثنين، مع استحباب التبكير[7] أيضا حسبما ورد في الأثر بذلك.

---

1 - **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد باب في الإبتكار في السفر رقم 2605، 35/3؛ **سنن الترمذي** كتاب البيوع باب باب ما جاء في التبكير بالتجارة رقم 1133.

2 - سقط من ح.

3 -**سنن الترمذي** كتاب أبواب الطهارة، باب ما جاء في السفر يوم الجمعة، رقم 527، 405/2.

4 - **الواضحة في إعراب القرآن** لعبد المالك بن حبيب المالكي القرطبي. انظر: **كشف الظنون**، 1996/2.

5 - غزوة تبوك: آخر غزوات النبي ﷺ، كما ذكر ابن إسحاق، وتبوك نصف الطريق المدينة إلى دمشق، وهي غزوة العسرة والفاضحة لافتضاح المنافقين فيها، وكانت يوم الخميس في رجب سنة تسع للهجرة. انظر: عبد المالك بن هشام، **السيرة النبوية**، تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1419/ 1998، 4/ 125؛. **تاريخ الخميس**، 1/ 122 - 123.

6 - **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير باب من أراد غزوة فورى بغيرها وأحب الخروج يوم الخميس رقم 2790.

7 - في ح "التكبير"

ومنها، ما يفعله عند إرادة الخروج للحج من منزله، قال ابن فرحون: قال ابن جماعة في **مناسكه** عن بعض العلماء: يستحب أن يتصدق بشيء عند سفره وأن يصل رحمه ما أمكن. قال النووي: وإذا أراد الخروج للحج من منزله صلى ركعتين، لما روى أن رسول الله ﷺ قال: «ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفرا». رواه الطبراني[1]. وقال بعض الشافعية: يستحب أن يقرأ في الأولى الكافرون، وفي الثانية الإخلاص. قال النووي : يستحب أن يقرأ بعد سلامه آية الكرسي، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾[2]، للآثارالواردة فيهما عن بعض السلف. ومن الآثار أن من قرأ آية الكرسيّ قبل خروجه من منزله لم يصبه شيء يكرهه حتى يرجع. واستحب بعضهم أن يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ[3] إِلَى مَعَادٍ﴾[4]، فإذا فرغ من هذه القراءة *15* يستحب أن يدعو بإخلاص ونية؛ ومن أحسن ما يقول: اللهم بك أستعين وعليك أتوكل، اللهم ذلل صعوبة أمري، وسهل علي مشقة سفري، وارزقني من الخير أكثر ما أطلب، واصرف عني كل شر، رب اشرح لي صدري ونور قلبي، اللهم إني أستحفظك واستودعك نفسي وديني وأهلي وأقاربي، وكل ما أنعمت به علي وعليهم من آخرة ودنيا، واحفظنا أجمعين من كل سوء يا كريم. ويفتتح دعاءه ويختمه بالتحميد لله والصلاة على رسول الله ﷺ. وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر قال: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من الضِّبنَة[5] في السفر والكآبة

---

1 - ينظر الحديث في : **الوابل الصيب من الكلم الطيب** لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن سعيد الزرعي (ت 751 هـ) تحقيق محمد عبد الحمان عوض، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى 1405/1985؛ 179/1.

2 - قريش: 1.

3 - في ح " لراده " وهو تصحيف.

4 - القصص 85.

5 - في ح " الصنيعة " وهو تصحيف. والضِّبنَةُ، ما تحت يَدك من مال وعيالٍ تهتم به ومن تلزمك نفقته سُمُّوا ضُبْنَةً لأنهم في ضبنَ من يَعُولهم تَعَوَّذَ بالله من الضُّبْنَة كثرة العيال والجَشَم في مَظنَّة الحاجة وهو السفر وقيل تَعوَّذ من صُحْبة من لا غَناء فيه ولا كفاية من الرِّفاق إنما هو كَلّ وعيال على من يُرافقه وضِبْنَة الرجل خاصته وبطانتُه وعياله وكذلك الضَّبِنة بفتح الضاد وكسر الباء والضَّبَنُ الوَكسُ. انظر : **لسان العرب** مادة "ضبن "، 13/287. ولعلها أيضاً تصحيف ل"الضيعة"، وهو المقصود، من الضياع والتيه.

في المنقلب، اللهم اطوِ لنا الأرض وهون علينا السفر»[1]. وعن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «من أراد السفر فليقل لمن يخلف: أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه»[2] رواه ابن السني. وعن أنس بن مالك قال: «لم يرد رسول الله ﷺ سفرا إلا قال حين ينهض من جلوسه: «اللهم بك انتشرت وإليك توجهت وبك اعتصمت، أنت ثقتي ورجائي، اللهم اكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير حيث ما توجهت»[3]. فإذا خرج من منزله وودع أهله فليقل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك، وهو ما روته أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ، كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك من أن نَذِل أو نُذل أو نظلم أو نظلم أو نجهل أو يُجْهَل علينا» رواه أصحاب السنن الأربعة[4]. وما رواه أنس بن مالك ﷺ مرفوعا: «إذا خرج الرجل من بيته يقول: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله. قال: يقال حينئذ هديت وكفيت ووقيت، فيتنحى عنه[5] الشيطان. قال: فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي» رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وابن ماجة[6].

وما رواه أبو هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزله يقول: «بسم الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، التكلان على الله». رواه الحاكم[7].

1 – **مسند الإمام أحمد**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1993، رقم 2315، 335/1.

2 – ينظر الزرعي، **الوابل**. . . ، 179/1.

3 – أخرجه البيهقي في **سننه الكبرى**، كتاب الحج باب الدعاء إذا سافر، رقم 10087، 250/5.

4 – أخرجه البيهقي في **سننه الكبرى** كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم 9915، 26/6 ؛ **السنن الكبرى للنسائي**، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم 9915، 6/ 26 ؛ **سنن الترمذي**، باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم 3349 ؛ **سنن ابن ماجة** كتاب الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، رقم 3834.

5 –في ح " له ".

6 – **صحيح ابن حبان** كتاب الرقائق باب الأذكار، 3/ 104 ؛ **السنن الكبرى للنسائي** كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الظلال رقم2971، 4/ 465 ؛ **سنن البيهقي** كتاب الحج، باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم 10089، 5/251 ؛ **سنن أبي داود** كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته ؛ **سنن ابن ماجة** كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته رقم 3836.

7 –**المستدرك على الصحيحين** لمحمد بن عبد الله الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عقا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1411 هـ رقم 1908، 700/1.

ثم يقصد أقاربه وأصدقاءه[1] فيودعهم ويستحل منهم ويسألهم الدعاء. قال النووي: «فقد روي أن الله تعالى جاعل لهم في الدعاء خيرا». *16* وينبغي لقرابة المسافر وأصدقائه أن يشيعوه، وكذلك إن كان المسافر رجلا عالما أو من الصالحين أن يشيَّع عند خروجه بالمشي معه والدعاء له، ويدل له ما ثبت في الصدر الأول من تشييع أهل المدينة الحاج إلى ثنية الوداع، ومن أجله سميت بذلك، وقيل لأن النبي ﷺ ودع فيها بعض المسلمين. قال عياض في **المدارك**: «ولما انصرف عيسى بن دينار من عند ابن القاسم شيعه ثلاثة فراسخ وهو تسعة أميال»[2]. وصفة الموادعة على ما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان، أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول للرجل إذا أراد السفر: «أدن مني أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا، فيقول: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم أعمالك» [3]. وأخرج ابن السني عن ابن عمر أنه ﷺ ودع غلاما فقال له: «زودك الله التقوى ووجهك للخير وكفاك الهم»[4]. ويستحب أن يقال للمسافر إذا ولى: «اللهم اطو له البعيد وهون عليه السفر» رواه أبو هريرة[5].

ومنها، أن لا يعين أعداء الله الفجرة من الأعراب خصوصا أهل الجريد والحجاز بتسليم ما هو شبيه بالمكس[6] والجزية من مال أو كسوة ولو نعلا، فإن تسليم ذلك إليهم إعانة على الظلم، وتيسير لأسبابه عليهم، فهو كالإعانة بالنفس؛ فليتلطف في حيلة تقود إلى الخلاص بنحو إظهار قوة وشجاعة. فلقد شاهدت في ذلك العجب، فكم من مرة يطلبون ذلك ونمتنع فيتحزبون،

---

1 – في ح "أصدقاؤه".

2 – القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة **الحياة**، بيروت، 1384/1965.

3 – **صحيح ابن حبان** كتاب الصلاة، باب المسافر رقم 2693، 4/ 10 ؛ **سنن النسائي الكبرى**، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول الشاخص رقم 10347، 10348، 10349، 10350، 6/ 131 ؛ **وسنن أبي داود** أول كتاب الجهاد، باب في الدعاء عند الوداع رقم 2600، 3/ 34.

4 – الحديث في **كنز العمال**، رقم 17486، 299/6.

5 –أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم 8367، 331/2.

6 – المكس : مكس الشيء مكسا : نقص والمكس الضريبة ، والمكاس الذي يأخذ الضريبة.

وينصرنا الله تعالى عليهم ببركة رسول الله ﷺ. فقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن من تعرض للركب النبوي بسوء خذله الله، ودمره وضرب عليه الذلة والمسكنة. ولقد قال بعض العلماء بالرجوع من الطريق، قال: وهو أفضل من إعانة الظلمة فإن هذه بدعة أحدثت، وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة، وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية. ولا معنى لقول القائل: أن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فإن لو قعد في بيته أو رجع من الطريق لم تؤخذ منه، بل ربما يظهر أسباب التردد فتكثر مطالبته كفعل أعراب الحجاز مع خصوص أهل مصر، وربما تعرضوا بذلك لبعض المغاربة فيمتنعون منهم بما ذكرنا بخلاف أهل مصر، فلهم معهم في ذلك عادة ذميمة يأتي إن شاء الله تعالى التنبيه عليها في محلها. *17* واستظهر ابن رشد[1] من المالكية، أن الحج لا يسقط بأخذ ظالم ما قل إذا كان لا ينكث، والشرط اليوم مفقود فمهما وجدوا فرصة في الحاج أخذوه، إلا أن تمالؤهم غالبا لا يقع على أهل مصر إلا مع قطع العطاء من أصله.

ومنها، استحباب طلب الرفقة وتأميرهم على أنفسهم واحدا يطيعونه، والأولى أن يكون فقيها حازما عارفا بأبواب السفر وضرورياته. روى البخاري و الترمذي عن ابن عمر مرفوعا: «لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكبا بليل وحده»[2]. ولا يخفى ما في هذه العبارة من الإيماء إلى كثرة ضرر الانفراد، وأن ذلك لكثرته فوق أن يتبين بالعبارة والضرر دنيوي وديني : كحرمانه من الصلاة في الجماعة، وعدم من يعينه في حوائجه، ولأنه ربما مرض في الطريق فلا يجد من يتولى تمريضه، أو يموت فلا يجد من يتولى أمره، وحمل تركته لأهله. وروى مالك في **الموطأ** عن سعيد بن المسيب مرسلا، أن رسول الله ﷺ قال: «الشيطان يهم

---

1 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، قاضي الجماعة بقرطبة، كان فقيها مقدما عارفا للفتوى على مذهب مالك. ولد سنة 455 هـ توفي سنة 520/ 1126. ترجم له: ابن فرحون، **الديباج**. . . ، 378- 379 مخلوف، **شجرة**. . . ، 1/ 190 رقم 413.

2 -**صحيح البخاري**، كتاب الجهاد باب السير وحده، رقم 2836 ؛ **سنن الترمذي**، كتاب الجهاد، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده رقم 4، 1673/ 206.

بالواحد وبالاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم»[1]. وفيه لأبي داود والترمذي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان والثلاثة ركب»[2]. وروى أبو داود عن أبي سعيد الخذري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[3]. زاد في روايته عن أبي هريرة قال: نافع. فقلت لأبي سلمة: فأنت أميرنا[4]. وروى أبو داود و الترمذي في الجهاد، وقال فيه حسن. ورواه الحاكم في **المستدرك** عن ابن عباس مرفوعا: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف؛ ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة»[5].

قال الغزالي: «الذي ينقدح أن فائدة التخصيص بالأربعة أن المسافر لا يخلو عن رحل يحتاج إلى حفظ، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها، فلو كانوا ثلاثة لكان التردد في الحاجة للواحد فيتردد في السفر بلا رفيق، فلا يخلو عن ضيق القلب لفقدان الرفيق، ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرحل وحده، فلا يخلو عن الخطر، ولا عن ضيق القلب، فما دون الأربعة لا يفي بالمقصود وما زاد عليها زيادة بعد الحاجة، ومن يستغنى عنه لا تصرف الهمة إليه فخير الرفاق والخاصة أربعة»[6] .

*18*وكون «الصحابة» في حديث ابن عباس يراد به الخلفاء الأربعة غير ظاهر وإن قاله غير واحد من الحنفية. وقوله وخير السرايا إلخ قال ابن رسلان: الظاهر أنه ليس المراد التحديد، ألا ترى إلى خير السرايا أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، وأصحاب طالوت حين عبروا النهر، وما جاوز

1- **الموطأ**، كتاب الاستئذان باب ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء، رقم 1765، 2/ 978.

2- **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب في الرجل يسافر وحده، رقم 2607، 36 /3.

3- م. **س**، رقم 2608، 36 /3.

4- **ن**. م، رقم 2609، 36 /3.

5- الحاكم، **المستدرك**. . .، رقم 1621، 611 /1.

6- الغزالي، **إحياء**. . .، 1/ 261.

معه إلا مؤمن. فلعله خير السرايا ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة. قال شارح **رياض الصالحين** للنووي وهو ابن علان: فيه بعد، لأن المراد به بيان أحسن مراتب عدد السرية، وأقل من هذا العدد لا يجري بمجراه. وقوله زيادة على الحاجة، وفضل ما ذكر لأمر خارجي لا ينافي التحديد في الحديث. قال: وخصت الأربعة آلاف نظير الأربعة في الآحاد، ولعله لما ذكر آنفا فيما قبله من الأجزاء به دون ما دونه ابن فرحون.

وينبغي أن ينظر في الرفيق فيجتهد في اختيار من لابد له منه وليكن يصلي، ومن الغالب عليه اجتناب المنكرات ولو كان بزيادة أجرة، ابن الحاج عن ابن المواز[1]. ولابأس أن يحج ومعه النصراني يخدمه، وقد يكري الحاج مع النصراني للرخص وحسن الصحبة. قال: وعلى هذا فلا يكره الكراء من أهل البدع واستخدامهم وإن كان يؤدى إلى مخالطتهم إذا كان له بهم رفق أكثر من غيرهم، وينبغي أن يعتمد مع رفقائه بسط الوجه، وحسن الخلق، والإيثار بما لا يضره فقده، وحمل ما يصدر إليه منهم من أمر يؤلم أو تقصير في حقه، فبذلك ينشرح له صدره ويطيب له سفره. وذكر ابن رشد في **البيان**[2]: «أن عمر بن الخطاب كان يخدم أصحابه في سفر الحج، ويدور بإبلهم وهم نيام، وذلك من كرم طبعه ﷺ». وورد في إعانة الرفيق أحاديث منها ما في الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، و «كل معروف صدقة»[3] وأشباههما. وروى أبو داود عن جابر: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي – أي يسوق الضعيف – ويردفه ويدعو له [4] »[5].

1 – محمد بن إبراهيم الإسكندري المعروف بابن الموار، مالكي تفقه بابن الماجشون، ألف الكتاب الكبير المعروف بالموازية وهي من أجل الكتب التي ألفها المالكيون، توفية بدمشق سنة 269 هـ أو 281 هـ/894م. ترجم له مخلوف، **شجرة**. . .، رقم 116، 1/102؛ ابن فرحون، **الديباج**. . .، 331–332.

2 –**البيان والتحصيل والتوجه والتعديل**، ابن رشد، دار الغرب الإسلامية، بيروت، طبع سنة 1988.

3 – أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم 5675، 2241/3.

4 –في كل النسخ "لهم" واعتمدنا ما ورد في "ح"..

5 – الحديث أخرجه أبو داود في **سننه**، أول كتاب الجهاد باب في لزوم الساقة، رقم 2639، 44/3.

ومنها، الركوب على القتب، على الزاملة، وليجتنب المحمل إلا لعذر، كعدم الثبوت والتماسك للكبير. وفيه معنيان، أحدهما: التخفيف عن البعير فإن المحمل يؤذيه. الثاني: اجتناب زي المترفين المتكبرين؛ وما أكثر هذا الصنيع في أهل المشرق. فقد حج الرسول *19* ﷺ على راحلة، وكان تحته رحل[1] رث، وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وفي رواية قيمتها أربعة دراهم، وقال: «اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة». رواه البخاري وغيره[2]. وطاف ﷺ على الراحلة في بعض المرار، لحكمة وهي نظر الناس إلى هديه وشمائله، وقال: «خذوا عني مناسككم»[3].

قيل: وهذه المحامل أحدثها الحجاج، وكان العلماء يكرهونها في وقته، فروى سفيان الثوري عن أبيه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحجاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل فما رأيت في جميعهم إلا محملين. وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول: «الحاج قليل والركب كثير، ثم نظر إلى مسكين رث الهيئة، تحته جوالق فقال: نعم هذا من الحاج»[4].

ومنها، أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة، ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب من المتكبرين والمترفين، ويخرج من حزب الضعفاء والمساكين، وخصوصا الصالحين. فقد أمر رسول الله ﷺ بالشعث والاختفاء[5]، ونهى عن التنعم والرفاهية[6]. وفي حديث فضالة بن عبيد: «أنما الحاج الشعث التفل»[7]، يقول تعالى: «انظروا إلى زوار بيتي جاءوني

---

1 – الرحل: هو ما يوضع فوق البعير ويقعد الراكب عليه.

2 –الحديث أخرجه الترمذي في **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**، حققه وعلق عليه سيد بن عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الثانية، 1414/ 1993، 275/1.

3 – الحديث في **فتح الباري**: 3/ 577. كما أخرجه النسائي.

4 – ينظر: الغزالي، **إحياء**. . .، 1 /263.

5 – أخرجه البغوي والطبراني. ينظر: م. س، 1/ 264 هامش 1.

6 – حديث فضالة بن عبيد. ينظر ن. م، 1/ 263 هامش 2.

7 – الشعث التفل: الشعث: متفرق الشعر، والتفل: الذي قد ترك استعمال الطيب. والحديث في **كنز العمال**، 5/5 و245.

شعثا غبرا من كل فج عميق»[1]. وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: «اخلولقوا واخشوشنوا». أي البسوا الخلق[2] واستعملوا الخشونة في الأشياء. وقد قيل: زين الحجيج أهل اليمن، لإنهم على هيئة التواضع والتضعيف وسيرة السلف. وينبغي أن يجتنب الحمرة في[3] زيه على الخصوص، والشهرة على العموم. فقد روى أنه ﷺ كان في سفر فنزل أصحابه منزلا [فسرحت الإبل، فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال ﷺ: «أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم»[4]. قالوا: فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل][5].

ومنها، السير والنزول في منازل السفر والمبيت والنوم في السفر، واستحباب السرى والرفق بالآدمي[6] والدواب ومراعاة مصلحتها، وأمر من قصر في حقها، وجواز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك.

روى مسلم وأبوداود والترمذي عن أبي سعيد، قال: «بينما نحن في سفر إذا رجل على راحلة، له مال فجعل يصرف بصره يمينا *20* وشمالا، فقال رسول الله ﷺ: من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له. فذكر من أصناف المال ما ذكره حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل»[7].

وروي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال، فليضم الرجل إليه الرجل والرجلين، قال: وما لأحدنا فضل ظهر، فضممت إلي اثنين نتعقب الكل على بعير». وفي رواية أبي داود أن رسول الله ﷺ أراد الغزو فقال: «يا معشر المهاجرين

1 - ينظر الحديث في **كنز العمال** رقم 11833، 5/ 6 و **المغني** للعراقي: رقم 840، 1/ 215.
2 - ساقط من خ.
3 - بياض في خ.
4 - وقفت على الحديث عند العراقي، **المغني**...، رقم 841، 1/ 215.
5 - بياض في خ.
6 - ساقطة من خ.
7 - **صحيح مسلم**، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال رقم 1728؛ **سنن ابي داود**، كتاب الزكاة، باب في حقوق المال رقم 1663؛ 2/ 125.

والأنصار إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عشيرة فليضم الرجل إليه الرجلين أوالثلاثة، وما لأحدنا ظهر جمله إلا عقبة كعقبة أحدهم. قال جابر: فضممت إلي اثنين أو ثلاثة مالي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي»[1]. وأخرج أبو داود عن نافع أن ابن عمر، كان يردف مولاة له يقال لها صفية تسافر معه إلى مكة»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم[3] في الخصب فأعطوا الإبل حظها- يعني دعوها ساعة فساعة ترعى- وإذا سافرتم في السنة فأسرعوا عليها السير وبادروا، يعني حتى تصلوا القصد قبل أن يذهب مخها من ضنك[4] السير، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق فإنها طرق الدواب، ومأوى الهوام بالليل». رواه مسلم وأبوا داود والترمذي[5].

وروى مسلم والترمذي في **الشمائل**، عن الحارث بن النعمان عن أبي قتادة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فعرس[6] بليل اضطجع على يمينه، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه»[7]. قال النووي: قال العلماء: إنما نصب ذراعه ليلا يستغرق في النوم فتفوته صلاة الصبح أو يؤخرها عن أول الوقت.

---

1 - أخرجه أبو داود في **سننه**، أول كتاب الجهاد، باب الرجل يتحمل بمال غيره يغزو، رقم 2534، 3/ 18/؛ والإمام أحمد في **مسنده**، رقم 14906، 3/ 358.

2 - ينظر **سنن أبي داود** أول كتاب المناسك، باب في المرأة تحج بغير محرم، رقم 1728 2/ 141. **وسنن البيهقي الكبرى**، كتاب الحج، باب المرأة يلزمها الحج بو جود السبيل إليه وكانت مع ثقة من النساء في طريق مؤهولة آمنة رقم 9912، 5/ 226.

3 - في خ "أسفرتم".

4 - في خ "هتك".

5 - **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب مراعاة مصلحة الدواب في السير والنهي عن التعريس في الطريق، رقم1926، 3/ 1251؛ **سنن ابي داود**، أول كتاب الجهاد، باب في سرعة السير والنهي عن التعريس في الطريق رقم 2569؛ 3/ 28.

6 - التعريس: هو نزول القوم في السفر من آخر الليل يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم ينيخون وينامون نومة خفيفة، ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين. انظر: **لسان العرب** مادة "عرس".

7 - **صحيح مسلم**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها رقم 683، 1/ 476؛ الترمذي، **الشمائل**. . . ، رقم 261؛ 1/ 220.

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدلجة– يعني سير الليل– فإن الأرض تطوى بالليل»[1]. رواه أبو داود بإسناد حسن. وعن أبي ثعلبة الخشني قال: «كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا في الشعاب والأودية. قال رسول الله ﷺ: إن تفرقكم[2] في هذه الشعاب من الشيطان، فلم ينزلوا بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض»[3]، رواه أبو داود بإسناد حسن. وعن سهل بن عمر، وقيل: ابن الربيع بن عمرو الأنصاري، المعروف بابن الحَنْظَلِية *21* وكان من أهل بيعة الرضوان ﷺ قال: «مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق، ويروى قد لصق بالصاد بدل الحاء، فقال: اتقوا الله في هذه البهائم فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»، رواه أبو داود بإسناد صحيح [4].

وقال أبو الدرداء لبعير له عند الموت: «يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فاني لم أحملك فوق طاقتك»[5]. وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم، وأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف حايش، يعني حايش نخل» رواه مسلم[6]– هكذا– مختصرا. و زاد فيه أبو داود والحافظ أبو بكر أحمد بن غالب البرقاني – نسبة لقرية بخوارزم – باسناد مثل هذا بعد قوله: «حايش نخل، فدخل حايطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ جرجر– أي حن – و ذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ، فمسح سراته أي سنامه فبكى[7]، فقال: من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال: هذا لي يا رسول الله، قال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي

1 – **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب في الدلجة رقم 2571، 3/ 28.

2 –ساقطة من ح . .

3 – **سنن أبي داود**،أول كتاب الجهاد، باب ما يؤمر من انضمام العسكر وسعته رقم 2628، 3/41.

4 – **سنن أبي داود** أول كتاب الجهاد، باب ما يؤمربه من القيام على البهائم والدواب رقم 2548، 3/ 23.

5 – ينظر: **كنز العمال** كتاب الصحبة من قسم الأفعال رقم 25638، 9/ 83.

6 – **صحيح مسلم**، كتاب الحيض، باب ما يستتر به لقضاء الحاجة رقم 342، 1/ 268.

7 –في **سنن أبي داود** " فمسح ذفراه فسكت ".

ملكك الله إياها، فإنه يشكو إلي أنك تجيعه وتدئبه»[1]. أي تشق عليه في العمل. وعن أنس قال: «كنا إذا نزلنا منزلا لا نسبح حتى نحل الرحال»، يعني تقديما لإراحة الدواب. رواه أبو داود[2]، وهو على شرط مسلم، ابن فرحون. وينبغي له إذا كان قادرا على المشي أن يريح الدابة بما لا يضره من المشي.

قال ابن جماعة: ويجب ذلك في الدابة المستأجرة، حيث جرت به العادة، إلا إذا كانت مطيقة ورضي به المالك. وعن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى الفجر في السفر مشى قليلا وناقته تنقاد[3].» رواه البيهقي[4].

قال الغزالي: «وفي المشي صدقتان، إحداهما: ترويح الدابة. وقد قال ﷺ : «في كل ذي كبد رطبة أجر»[5]. والأخرى إدخال السرور على مالكها. قال: وفيه أيضا إراحة للراكب وصحة للبدن»[6] ورياضة. وفي ذلك آثار عن السلف، وقال ابن المعلى، قالوا: ويحرم عليه أن يحمل دابته فوق طاقتها وأن يجوعها في غير ضرورة. قال سحنون: وكان عمر بن الخطاب إذا رأى دابة مثقلة خفف عنها مخافة أن يسأله الله تعالى عما تقلده منها. ويكره ضرب الدابة في الوجه لنهيه ﷺ عن ذلك[7]. وأما في غير الوجه، فقال ابن المعلى: مباح لأنها لا تتأدب بالكلام. وقد أجازوا ركوبها بالمهاميز. وقد حرك النبي ﷺ بعيره بالمحجن لكن برفق، لا كما يفعله أرباب القلوب القاسية من المبالغة في ضربها فإن ذلك تعذيب *22* لها وهو حرام لنهيه ﷺ عن تعذيب الحيوان.

---

1 – **سنن أبي داود** أول كتاب الجهاد، باب ما يؤمر من القيام من الدواب والبهائم، رقم 2549، 3/ 23. تدئبه = تتبعه.

2 – **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب في نزول المنازل، رقم 2551، 3/ 24.

3 – في **سنن البيهقي** " تقاد".

4 – **سنن البيهقي الكبرى**، كتاب الحج، باب النزول للرواح رقم 10118، 5/ 255.

5 – **صحيح البخاري**، كتاب مساقاة الشرب، باب فضل سقي الماء رقم 5223، 2/ 833.

6 – الغزالي، **إحياء...**، 1/ 263.

7– انظر **صحيح مسلم**، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان ووسمه فيه رقم 2116، 3/ 1673

ومنها، اتخاذ الأجراس، فلا ينبغي للمسافر اتخاذها ولا تعليقها على دابته فانه مكروه، فإن وقع ذلك من الرفقة ولم يقدر على إزالته فلينكره بقلبه أو لسانه على حسب استطاعته ويبرأ إلى الله تعالى من ذلك. وأخرج مسلم وأبوداود والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس»[1]. وفي رواية أنه ﷺ قال: «الجرس من مزمار الشيطان»[2]. وفي رواية أبي ذر مرفوعا: «الملائكة لا تصحب رفقة فيها جلد نمر»[3].

ومنها، النوم قال النووي: يجتنب النوم على الدابة لأنه يثقل بالنوم. قال ابن المعلى: ويحمل كلامه على كثرة النوم فإن في **صحيح مسلم** أن النبي ﷺ نام على راحلته. وكان أهل الورع لا ينامون عليها إلا غفوة من قعود، وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل. قال ﷺ: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي»[4].

فائدتان: الأولى، قال النووي: روينا في كتاب ابن السني أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فالينادِ ثلاثا: ياعباد الله احبسوا فان الله عز وجل[حاضر] سيحبسها»[5]. وذكر أنه جربها هو وغيره، فوجدوا أثر ذلك على الفور.

---

1 – **صحيح مسلم**، كتاب اللباس والزينة، باب كراهة الكلب والجرس في السفر رقم 2113، 3/ 1672. **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب تعليق الأجراس رقم 2554 و 2555، 3/ 25.

2 – أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم 8769، 2/4366 وأبي داود في سننه، أول كتاب الجهاد، باب تعليق الأجراس رقم 2556، 3/ 25.

3 – أخرجه أبو داود، عن أبي هريرة في كتاب اللباس، باب في جلود النمور والسباع رقم 4130، 4/ 68.

4 – ينظر العراقي، **المغني**...، رقم 842، 1/ 215.

5 – ينظر الزرعي، **الوابل**...، 1/ 185.

الثانية: قال النووي عن بعضهم: أنه ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول في أذنها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ إلى ﴿يُرْجَعُونَ﴾[1]، إلا وقفت بإذن الله عز وجل»[2].

ومنها، أنه ينبغي له أن يجتنب المخاطرة ومزاحمة الناس في الطريق وعند ورود الماء جهده، وليصن لسانه من الشتم والغيبة ولعن الدواب وجميع الألفاظ القبيحة، ولا يوبخ سائلا بل يواسيه بما تيسر خصوصا بالماء في أوقات العطش، أو يرده بالحسن من القول، وليلحظ في مخالطته للناس قوله صلى الله عليه وسلم: «من حج هذا البيت فلم يرفث»[3].

ومنها، ما يقول إذا ركب الدابة؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا﴾ الآية[4]. فإذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على ظهرها قال: ﴿اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾إلى ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾[5]. ثم ليقول: الحمد لله ثلاث مرات؛ ثم يقول: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، لحديث علي ﷺ*23* - ثم تكبر ثلاث مرات، ثم في ذلك - عن النبي ﷺ رواه أبو داود والترمذي[6]. وعن ابن عمر عنه ﷺ أنه كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا﴾الآية[7]، «اللهم إنا نسألك في سفرنا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم سهل علينا سفرنا هذا واطوِ لنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل.

---

1 - آل عمران: 82. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

2 - الزرعي، **الوابل**. . .، 1/ 184.

3 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج باب قوله تعالى فلا رفث رقم 1723، 2/ 645.

4 - الزخرف: 11 - 12.

5 - الزخرف: 12 - 13. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾

6 - الترمذي، **الشمائل**. . .، 1/ 191.

7 - الزخرف 12. (بداية النسخة ج)

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون». رواه مسلم[1]. وفي رواية له: «وكآبة المنقلب وسوء المنظر». وإن كان في سفينة قال عند ركوبها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ إلى ﴿يُشْرِكُونَ﴾[3]. رواه ابن السني. ويقول أيضا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا﴾ الآية[4]، حتى في السفينة لقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ الآية[5]. فهي صريحة في استعمالها فيهما.

ومنها، تكبيره إذا صعد الثنايا وتسبيحه إذا هبط واديا ونحوه. ونهى عن المبالغة في رفع الصوت بالتكبير ونحوه، فعن جابر ﷺ قال: «إذا صعدنا الثنية كبرنا وإذا نزلنا سبحنا»؛ رواه البخاري[6]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبروا وإذا هبطوا سبحوا». رواه أبوا داود بإسناد صحيح[7]. وعنه قال: «كان النبي ﷺ إذا قفل من الحج والعمرة كلما أوفى على ثنية أو فدْفد كبر ثلاثا ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» أخرجه الشيخان[8]. وفي رواية مسلم: «إذا قفل من الجيوش والسرايا أو الحج والعمرة أَوْفَى»[9] أي ارتفع. وعن أبي هريرة قال: «أن رجلا قال: يا رسول الله ﷺ،

---

1 – **صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم 1342، 2/ 980.

2 – هود: 41.

3 – الزمر: 64. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

4 – الزخرف: 12.

5 – الزخرف: 11.

6 – **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب التسبيح إذا هبط واديا. ولفظه: عن جابر عن عبد الله رضي الله عنهما قال: " كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا" رقم 2831، 3/ 1091.

7 – **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا سافر، رقم 2598، 3/ 33.

8 – **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب التكبير إذا علا شرفا رقم 2833، 3/ 1091؛ **صحيح مسلم**، كتاب الحج باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، رقم 1343، 2/ 980.

9 – **صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، رقم 1343، 2/ 980.

إني أريد أن أسافر فأوصني، قال: عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف. فلما ولى الرجل، قال: اللهم اطو له البعد وهون عليه السفر». رواه الترمذي وحسنه، والنسائي وابن ماجة، من حديث أبي هريرة[1]. وعن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا أشرفنا *24* على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: أرْبعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا» أخرجه الشيخان[2].

ومنها، إذا نزل منزلا فليقل: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل». رواه مالك وأحمد و الترمذي عن خولة بنت حكيم مرفوعا[3].

ومنها الحراسة، يحتاط بالنهار ولا يمشي خارج الركب منفردا، إذ ربما يغتال أو ينقطع حسبما شوهد ذلك في الكثير من الحجاج، ويكون بالليل متحفظا، والأحب أن يتناوب الرفيقان في الحراسة، فإن قصده عدو أو سبع بالليل والنهار فليقرأ آية الكرسي، و﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾، والإخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله وما شاء الله لا قوة إلا بالله، حسبي الله، توكلت على الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخيرات إلا الله، ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، حسبي الله وكفى، وسمع الله لمن دعى، ليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ إلى ﴿عَزِيزٌ﴾[4] تحصنت بالله العظيم، واستعنت بالحي الذي لا يموت. اللهم احرسنا بعينك التي لاتنام واكنفنا بكنفك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا تهلكنا وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهم اعطف علينا قلوب عبادك برأفة ورحمة، فإنك أرحم الراحمين.

---

1 – **سنن النسائي** الكبرى، باب ما يقول الشاخص، رقم 10340، 6/ 130.

2 – **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب ما يكره مع رفع الصوت في التكبير، رقم 2830، 3/ 1091.

3 – **موطأ مالك** رقم 1763، 2/ 978. مسند الإمام أحمد، رقم 27351، 6/ 409.

4 – المجادلة: 20. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ومنها، «إذا نزل منزلا أو أراد أن يرتحل، ينبغي له أن يودعه بركعتين». أخرجه الحاكم وصححه[1].

ومنها، إذا أقبل الليل فليقل ما ورد في سنن أبي داود وغيره عن ابن عمر مرفوعا: «يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما خلق فيك ومن شر ما يدب عليك من إنس وجان وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»[2]. قال الخطابي: «ساكن البلد الجن الذين هم سكان الأرض، والبلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان، وإن لم يكن فيه بناء ومنازل، ويحتمل أن المراد بالوالد إبليس وما ولد الشياطين، والأسود الشخص وكل شخص يسمى أسود».

ومنها، إذا أراد دخول قرية فليقل ما رواه النسائي مرفوعا: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن والأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها»[3]. قال النووي: روينا من كتاب ابن السني عن عائشة أن رسول الله ﷺ *25* إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال: «اللهم إني أسألك من خير هذه وخير ما جمعت فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما جمعت فيها، اللهم ارزقنا حياتها وأعذنا من وبائها وحببنا إلى أهلها وحبب صالح أهلها إلينا»[4].

***[5] ومنها، قال ابن المعلى، قال النووي: يستحب للحاج أن لا يشرك[6] أحدا في زاد ولا راحلة، فإن المشاركة تمنع من التصرف في وجوه الخير. ولم أقف فيها على نص، غير أني سمعت من أثق به ينقل عن بعض

1 – الحديث أخرجه أبو يعلى الموصلي في **مسنده** عن أنس بن مالك بلفظ: " كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلا لم يرتحل منه حتى يودعه بركعتين " رقم 4315 7/ 288. لم نقف عليه عند الحاكم.

2 – **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا نزل منزلا رقم 2603، 3/ 34؛ **سنن النسائي** الكبرى، كتاب الإستعاذة، باب الإستعاذة رقم 7862، 4/ 443

3 – **سنن النسائي**، كتاب إجلاء أهل الكتاب، باب الدعاء عند رؤية القرية التي يريد دخولها رقم 8827، 5/ 256.

4 – أخرجه الطبراني في الدعاء كتاب الدعاء رقم 836، 1/ 264.

5 – *** بداية النسخة " د" م م و م م، رقم 2327 د. (وهي مبتورة 25 صفحة في البداية).

6 – في د" يشارك".

المتأخرين عدم الجواز. وذكر ابن جماعة التونسي في **مختصره** أنه يوخذ من كتاب الأضحية من **المدونة** جواز المخارجة، وهو أن يخرج كل واحد من الجماعة ما يخرجه الآخر بشرط أن تكون أنفسهم طيبة. قال: وبالجملة فلا ينبغي الإقدام عليه لأن طيب النفوس شرط في الجواز وذلك متعذر لاختلاف أحوال الناس. ولذلك قال النووي: لو أذن له شريكه في التصرف لم يوثر ذلك في استمرار رضاه. قال ابن المعلى: فإن احتاج إلى المشاركة، أو دعت إليها ضرورة أخذ بالسماحة والقناعة والرضى بدون حقد، تورعا وتفضلا.

ومنها، تحريم سفر المرأة وحدها لما ثبت في **الصحيحين** وغيرهما إلا أن يكون معها زوج أو محرم[1]. ولا مفهوم لليوم والليلة في الحديث وإنما العبرة بالخلوة في مطلق الزمان.

ومنها، أنه إن صاحب امرأة أو خادما أو عبدا وجب عليه أن يلاحظهم، ويذكرهم في أوقات الصلوات ولا يغفل عن الطهارة المائية إن تيسرت في حقهم، ويعلمهم دينهم، ويرفق بذوات الخدور، ينزلهن[2] للحاجة والإستراحة في سترة مرة أو مرتين، وليقدمهن[3] على نفسه. وقد شاهدنا ما وقعن فيه من الضرر والضيق حتى حدثنا عن بعضهم بالندم على السفر من أجل ذلك عياذا بالله.

ومنها، مراعاة الصلوات[4] في الجماعة، ومباشرة الأذان لكل صلاة، فقد شاهدناهم أول سفرهم يعتنون بذلك، فلما طال السفر نبذوه رأسا سيما في الأوقات النهارية ولو صدقوا في معاملة الحق سبحانه لداوموا على عملهم.

ومنها، مراعاة النوافل والأذكار ليلا ونهارا ولا يغتر تاركها بأن النبي ﷺ كان في غالب أسفاره لا يزيد على الخمس والشفع والوتر، لأنه

---

1 - الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الكسوف، باب في كم يقصر الصلاة، رقم 1036، 1/ 368، وباب بيت مسجد المقدس رقم 1139، 1/ 400، و مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج و غيره، رقم 1338، 2/ 975.

2 - في د " فينزلهن ".

3 - في د " ليقسهن ".

4 - في د "الصلاة ".

في مقام التشريع *26* والرفق بالأمة. ولا على قولهم يرخص للمريض والمسافر في ترك الأوراد إذ ذاك مع الضرورة، وفي حق الخدمة ونحوهم. وأما راكب الجمال والبغال يأكل كثيرا ويشرب كثيرا وينام كثيرا فلا ينبغي له إلا المجاهدة في العبادة من نوافل وأذكار سيما في سير الأسفار.

ومنها، استحباب الدعاء في السفر، روى أبو داود والترمذي وحسنه عن أبي هريرة مرفوعا: «ثلاث دعوات مستجابات»[1]، فذكر منها دعوة المسافر. وروى أبوداود والنسائي بإسناد صحيح عن أبي موسى كان ﷺ إذا خاف قوما قال: « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم «[2].

ومنها، استحباب تعجيل الرجوع إلى الأهل. روى مالك والشيخان وأحمد وابن ماجة عن أبي هريرة مرفوعا: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله»[3].

ومنها، استحباب القدوم نهارا وكراهته ليلا، رواه الشيخان عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا طال أحدكم فلا يطرق أهله ليلا»[4]. وفي رواية

---

1 – الحديث اخرجه أبو داود في سننه، باب فاتحة الكتاب، باب الدعاء بظهر الغيب ولفظه : عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم " رقم 1536، 2/ 89 ؛ **سنن الترمذي** كتاب الدعوات، باب ما ذكر في دعوة المسافر.

2 – **سنن النسائي** الكبرى، كتاب السير، باب الدعاء إذا خاف قوما رقم 8631، 5/ 188. و أبو داود في سننه، باب فاتحة الكتاب، باب الدعاء إذا خاف قوما رقم 1537، 2/ 89. .

3 - الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب وجوب العمرة وفضلها، باب السفر قطعة من العذاب رقم7102، 1/639 وفي كتاب الإيمان، باب السرعة في السير رقم8393، 2/ 1093 ؛ و**مسلم في صحيحه**، كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب رقم 1927، 3/ 1526؛ ومالك في الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من العمل في السفر رقم 1768. والأمام أحمد في المسند رقم 7224، 2/ 236.

4 – الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب مواقيت الصلاة، باب لا يطرق أهله ليلا رقم 4946، 5/ 2008.

لهما أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا»[1]. وعن [2] أنس قال: «كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله إذا آب من السفر ليلا، وكان يأتيهم غدوة أو عشية»[3]، زاد في رواية «لِيَلا يُتخونهم أو يطلب عثراتهم»[4]. قال عبد الرحمان بن مهدي عن سفيان لا أدري هذا في الحديث أم لا، يعني أن سقطت يُتخونهم أو يطلب عثراتهم. وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جئت من سفر فلا تدخل حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة وعليك بالتكبير». رواه الشيخان وأبوداود والترمذي بألفاظ مختلفة[5]. وأخرج الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ نهاهم أن يطرقوا النساء ليلا، فطرق رجلان بعد نهي رسول الله ﷺ فوجد كل واحد منهما مع امرأته رجلا[6].

ومنها، ما يقول إذا رجع وإذا رأى بلدته، عن أنس ﷺ: أقبلنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بظاهر المدينة قال: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون» رواه مسلم [7].

ومنها، استحباب القادم ابتداء بالمسجد الذي في جواره قبل دخوله منزله و صلاته فيه، روى الشيخان عن كعب بن مالك في حديثه الطويل

1 – م. س، باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة رقم 1707، 2/ 638، و مسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب كراهية الطروق وهو الدخول ليلا لمن ورد من السفر رقم 1928، 3/ 1528.

2 –ساقطة من ح .

3 – أخرجه البخاري في صحيحه باب وجوب العمرة وفضلها، باب الدخول بالعشي رقم 1706، 2/ 638 ؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة باب كراهية الطروق وهو الدخول ليلا لمن ورد من سفر ولفظه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان لا يطرق أهله ليلا وكان يلأتيهم غدوة وعشية " رقم 1928، 3/ 1527.

4 – الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الطروق وهو الدخول ليلا لمن ورد من سفر، ولفظه عن جابر قال : " نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم ويطلب عثراتهم " رقم1928، 3/ 1528 .

5 – الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب طلب الولد رقم 4948، مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الطروق وهو الدخول ليلا لمن ورد من سفر رقم 1928؛ **سنن أبي داود**، أول كتاب الجهاد، باب في الطروق رقم 3، 2778/ 90 .

6 – الحديث أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، رقم 11626، 11/ 245.

7 – الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره رقم 1345، 2/ 980.

«أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين»[1]. وأخرج أبو داود: «عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ، حين أقبل من حجته دخل المدينة فأناخ على باب مسجده ثم دخله فركع فيه ركعتين *27* ثم انصرف إلى بيته»[2]. قال نافع: فكان ابن عمر يصنع ذلك[3].

ومنها، الدخول ضحى، وروى أبوداود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم بات بالمعرس[4] حتى يغتدي[5].

ومنها، ما جاء في سفر البحر، أخرج أبوداود عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا»[6]. وروى مالك عن مطرف بن عبد الله بن الشخير: «لابأس بالتجارة في البحر». وما ذكره الله عز وجل في القرآن إلا بحق، ثم تلا: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ وِلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾[7].

ومنها، ما جاء في تلقي المسافرين، ففي البخاري عن السايب بن يزيد قال: «ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع»[8]، زاد في

---

1 - الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه** كتاب باب الصلاة إذا قدم من سفر رقم 2921، 3/ 1122؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفرأول قدومه رقم 716، 1/ 496.

2 - الحديث اخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب الجهاد باب في الصلاة عند القدوم من السفر رقم 2782، 3/ 91.

3 - **م. س.**

4 - المُعَرسُ : مسجد ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة كان رسول الله ﷺ يعرس فيه ثم يرتحل لغزاة أوغيرها.

والتعريس : نومة المسافر بعد ادلاجه من الليل فإذا كان وقت السحر أناخ ونام نومة خفيفة ثم يثور مع انفجار الصبح لوجهته. أنظر : الحموي، **معجم...**، 5/ 155.

5 - لم أقف على الحديث في **سنن أبي داود**.

6 - الحديث أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب الجهاد، باب في ركوب البحر في الغزو رقم 2489، 3/ 6.

7 - فاطر: 12.

8 - **صحيح البخاري**، باب كتابة الإمام الناس، باب استقبال الغزاة رقم 2917.

رواية، مقدمه من غزوة تبوك. وفي رواية، قال: «أذكر أني خرجت مع الصبيان»، وفي أخرى «الغلمان نتلقى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من تبوك»[1]. وفي رواية الترمذي: «لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقونه إلى ثنية الوداع، فخرجت مع الناس وأنا غلام»[2]. وأخرج أبوداود الرواية الثانية[3]. وأخرج الترمذي أيضا عن عائشة قالت: «قدم زيد بن حارثة ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتى زيد فقرع الباب، فقام إليه رسول الله ﷺ عريانا يجر ثوبه والله ما رأيته عريانا قبلها ولا بعدها واعتنقه وقبله»[4]. وأخرج أبوداود: «عن الشعبي أنه ﷺ تلقى جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقبله ما بين عينيه»[5].

---

1 - **صحيح ابن حبان** كتاب السير، باب ذكر الإباحة للصبيان تلقي الغزاة عند قفولهم من غزواتهم رقم 4792، 11/ 113.

2 - الحديث أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** باب استقبال الغزاة رقم 18368، 9/ 175 وأبو داود في سننه، باب ما جاء في تلقي الغائب رقم 1640.

3 - الحديث أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب الجهاد، باب في التلقي رقم 2779، 3/ 90.

4 - الحديث أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في المعانقة والقبلة رقم 2656. والنووي في رياض الصالحين، دار الفكر، رقم 891، 1/ 180. ؛ فتح البارئ، 11/ 52.

5 - الحديث أخرجه أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) في المراسيل، كتاب الطهارة باب ما جاء في الاستئذان تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1408، رقم 491 1/ 337 - 338 مؤسسة الرسالة / 2/ 441.

خاتمة في ذكر ما يحتاج إليه مريد الحج من الزاد والأثاث

أول ما يتزوده المرء تقوى الله تعالى، ومراقبته في سائر الحركات والسكنات واللحظات بعد إخلاص التوبة من كل ذنب، ورد المظالم وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع، ويستصحب من الحلال الطيب من خالص الإبريز أو اللجين[1]، أو من كليهما[2] ما يكفيه ذهابا وإيابا من غير إقتار على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد. ويتخذ أسرع المراكب سيرا، وينتخب أجمل المطايا ظهرا بشراء أو كراء، وليظهر لربها كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير. قال رجل لابن المبارك: *28* احمل هذا الكتاب معك لتوصله فقال: حتى أستأمر الجمال فإني قد اكتريته. فانظر كيف تورع عن استصحاب كتاب لا وزن له وهو في طريق الحزم في الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا.

ويتعاهد مركوبه بنفسه، في علفه وشربه ولا يتكل في ذلك على خادمه أو شريكه أو مقاطعه أو ولده، وليجعل ديدنه تعاهد الحافر، وليجود تسميره إن احتاج، ولا يتساهل ولا في مسمار واحد. ولا يغفل عن تقديم نحو تبن أو شيح أو حلفاء أو نحوه، ولا عن زيادة علف له آخر الليل، فهو مما يستعين به طول النهار إن لم يجد مرعى، إلا أن فيه بلية وضرر في بعض الأوقات، وذلك حيث يقع المرور أول النهار على ماء ويحتاج إلى الشرب لفقده بالعشي ولعدم ما يحمله عليه، فبنفس ما يشرب أول النهار تسهل بطنه فيبقى جوفه فارغا فينشأ عنه الضرر، هذا إن كان بغلا. وإن كان جملا فليتق الله تعالى بالرعي والتوسط في المشي، والتقليل من الماء على ما جرت به عادة الإبل عند

1 –اللجين : الفضة . انظر: **القاموس المحيط**، 1/ 1587 ؛ و **لسان العرب**، 13/ 379.

2 – في ح "كلاهما".

أهلها. ويبحث عن الطريق والبلاد التي استقبلها، فإن كانت رخيصة قلل من حمل الزاد، وإلا أكثر منه إن كانت له طاقة على الحمل، وإلا حمل المقدور واشترى ما يحتاجه بعد، فهو أرفق له وأسهل.

ويستعد للفصول لباسا متعددا حتى الخفاف سيما فصل الشتاء، فكم من هالك ببرد الحجاز وحره، ويتخذ خباءً على قدر الحاجة في كل زمان، سيما إن كانت له زوجة أو سرية، وصوانا في زمن الحر، ومفرشا وفراشا ووسادة وشمعا وفانوسا وآلة طبخ من قدر[1] وكسكاس[2] وطنجرة وطاوة لفرن أو لتسخين ما جف من سمن وخليع أو بيض، فرب وقت لا يسع الإنسان فيها غير ذلك، وما يتصل بذلك من قدوم الحر، ومشعل وزند[3] وحجر وقفّال ومغرفة وسطل وقصعة[4] وبَطة[5] الإدام من شحم وسمن وخل، سيما في فصل الصيف لمن هو صفراوي الطبع، ويتخذ سفرة وصحن الأكل، وقربا وثيقة الخرز مصحوبة بتباريجها، ومحقنا ودلوا وحبالا ورَكْوَة[6] وإناء للشرب كطاسة[7] لا تفارق الخارج، ويتخذ سويقا[8] ملتوتا بسمن وعسل، فنعم ما يتغدى *29*الإنسان به عند الحاجة. وكاغدا ودواة وأقلاما متعددة، ومقراضا ومشطا وموسى ومرآة وكحلا ومخياطا وإبرة وخيوطا وإشفاء ولقاطا ومنكاشا[9] للشوك وعطرا قليلا، فرب بلدة لا يقع شراء الأمور التافهة من فاكهة وتبن وخضر إلا به. وفراش الصلاة من حصير صغير وهيدورة[10]،

1 – قدر والجمع قدور والإقدار الطبخ. وهي من الأواني المستعملة للطبخ. انظر: **لسان العرب**، 5/ 80.

2 – وعاء يطبخ فيه الطعام بالبخار.

3 – زند ج أزند: العود الأعلى الذي تقدح به النار، والأسفل هو الزندة. **المعجم العربي الأساسي**، تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، 1991، 587.

4 – قصعة ج قِصاع: وعء كبير يتخذ للأكل وكان يتخذ من الخشب غالبا. م. س، 991.

5 – الزجاجة. (والقرعة باللسان المغربي الدارج).

6 – ركوة ج ركوات: دلو صغير أو إناء صغير يشرب فيه الماء. **المعجم العربي**، ص 549

7 – يقصد إناء مستدير من نحاس أو نحوه للشرب.

8 – السويق: طعام يصنع من دقيق الحنطة. م.س، ص 655.

9 – منكاش: أداة ينكش بها. نكش الشيء: أخرج ما فيه. ن.م، 1230.

10 – هيدورة: رقعة من جلد الأنعام يتم دبغها وتستعمل للصلاة أو للجلوس.

ومناسك الحج، وكتب قليلة للمطالعة، فنعم الرفيق والسمير هي إن وجدت الطاقة على الحمل خصوصا **دلائل الخيرات**[1] وشبهه، وإلا فتطول الطريق بصاحبها حتى يستثقل أخف الأشياء مما هو من ضرورات السفر، ويتخذ سبحة وزئبقا وحناء يطلي بهما جسده لضرورة قمل فإنهما ينفيانه لحينه، لكن إن غسل البدن أو طال الزمان يرجع له القمل بأكثر وأضر مما كان، فيتعاهد الإنسان نفسه بهما في كل أسبوع مرة أو أكثر بعد الاغتسال.

ويتخذ آلة حرب وبارودا ورصاصا، وقيما صدوقا أمينا مع خدامه يكفيه شغل الرحيل والنزول والدواب وأمور الطبخ، إن كانت له طاقة على الاستقلال وإلا عقد الشركة مع خير رفيق، وهو كالعنقاء يُذكر سرمدا ولا يلقى، وإن ابتلي الإنسان به فليجهد نفسه على الصبر وتحمل الأذى، وليأكل وليشرب وليتصدق بالمعروف. وأفضل من ذلك كله القطيعة ففيها راحة النفس سيما من البداوة والفلاحين أهل الفحش والخنا[2] إن وجدت والغدر[3]، ولتكن مع ذي بر ودين ومروءة. وأحسن الناس لها أهل فاس سيما المجاورون بمصر. هذا في الذهاب. وأما في الإياب حيث يفرغ ما بأيديهم في شراء السلع فإنهم يقتطعون أموال الناس، ويضيقون عليهم في المأكل والمشرب وعلف الدواب. وليحذر من مصاحبة سلع التجارة فإنها فتنة في الدين، وربما كسدت أو خسر فيها صاحبها فيكون متحملا للأثقال بلا فائدة، وتمنعه من النوم، وتحمله على السهر ومخالطة الأسافل من الناس، حتى يكون الهم مجردا لله تعالى، والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله وتعظيم شعائره. وقد روى في

1 – عنوانه الكامل: **دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار** للشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان بن أبي بكر الجزولي السملالي الشريف الحسني المتوفى 869 هـ أو 870 هـ. ألف في مناقبه الشيخ محمد المهدي بن أحمد الفاسي كتابا سماه: " ممتع الأسماع في التعريف بالشيخ الجزولي وما له من الأتباع ". انظر: إدريس القيطوني، **معجم المطبوعات المغربية**، مطابع سلا، سنة 1986، ص 76 – 77؛ محمد الفاسي، **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع**، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1414/ 1994، ص 16 – 31؛ مخلوف، **شجرة...**، 1/ 380 – 381 رقم 997.

2 – الخَنا: من قبيح الكلام خَنا في مَنْطقه يَخْنُو خَناً مقصور والخَنا الفُحْش. انظر: **لسان العرب** مادة "خنا" 14/ 244.

3 – ساقطة من د.

خبر من طريق أهل البيت: «اذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزاهة، وأغنياؤهم *30* للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقراؤهم للسمعة»[1]. وما ورد في السنة والكتاب من جواز ذلك فيحتمله على ما يدخل على صاحبه ضررا في دينه.

فائدة: ينبغي للمسافر أن يحمل معه طين بلده فيجعل منه في ماء ورد[2] شيئا فإنه يصلحه، والبصل يدفع ضرر الماء على الإطلاق وخصوصا بالخل فإنه أحسن بعسر البول أو بوجع [3] البطن من ضرر المياه، واختلافها تناول السمن والسكر. ومما يمنع هيجان العطش: البقل[4] والكُمَّثرَى[5] أو إمساك قطعة الفضة في الفم، وكذا الزجاج والبلور والصدف وأملس الحصيات، وإن أضر به العطش حتى خيف الموت، ثم ورد الماء فليحذر الإمعان والنظر فيه، وكثرة الشرب دفعة، ففيه الهلاك، وليتدرج من المضمضة إلى جرعات ثم إلى الري.

وأقبح البلاد في المياه وأكثرها اختلافا بلاد الجريد[6] لما احتوت عليه من كثرة السباخ، ويليها في ذلك الحجاز مع زيادة صعوبة الهواء. وأما برقة[7]

1 - وقفت على الحديث عند البرهان، **كنز العمال**، رقم 12363، 5/ 52 و العراقي، **المغني**...، رقم 830 1، 213/. "وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تتصل بالحج". انظر: الغزالي، إحياء...، 1/ 262.

2 - في د "ورده".

3 - في د و ج "بموجع".

4 - بقل ج بقول وأبقال نبات عشبي يتغدى الإنسان به أو بجزء منه كالخس والخيار. **المعجم العربي**، ص 168.

5 - الكمثرى: شجر مثمر من الفصيلة الوردية له أصناف كثيرة وهو نوع من الفواكه يسمى الإجاص. انظر مادة "كمثر" **لسان العرب**.

6 - بلاد الجريد: ويدعى شط الجريد، سلسلة من الواحات، تقع وسط جنوب بلاد تونس، ويطلق هذا الاسم بالأخص على واحات أربع وهي توزر ونفطة والوديان والحمة، وتكتنف بلاد الجريد جبال وتلال رملية، سميت بهذا الاسم لكثرة نخيلها وكان يشبه الناصريون توزر بدرعة بسبب ذلك. انظر: الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1403/ 1983، 2/ 142؛ دائرة المعارف الإسلامية 6/ 353.

7 - برقة: مدينة ليبية قديمة بين الإسكندرية وإفريقية بينها وبين البحر ستة أميال. انظر الحميري، **الروض**...، ص 91؛ الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 388؛ العبدري، **رحلة**، ص 203.

فغالب مياهها تصلح عليها الأبدان والدواب لعذوبتها وطيب هواء أرضها لولا أنها بعيدة المياه في الغب، فأقل ما يحمله الإنسان فيها ماء يومين إلى يوم ونصف، وأكثر ما يحمله ماء سبع مراحل وهي مسافة السروال، والتكلان في ذلك على الكبير المتعال. والمياه ربما وصفها مرتحل بغير ما يصفها به غيره لما لا يخفى من أنها تقل وتكثر بحسب الفصل فتتغير أحوالها لذلك، وكل يصف بحسب ما شاهد، كما أن المراحل [لا ضبط لها، كل ركب وما قدر له في النزول والارتحال و تبكير الخروج من الموطن و تأخيره، فيعتريها عدم الضبط لذلك، عدا المراحل][1] الحجازية فهي مضبوطة غالبا، سيما عند المصريين والشاميين الذين اعتادوا السير بالساعات والادراج والرقائق حتى لو تخلفوا عن الخروج بيومين أو ثلاثة أوشك أن يفوتهم الوقوف، وربنا المسؤول في بلوغ المأمول.

---

1 - ساقط من ح. وما أثبتناه من"م" ود.

ذكر خروجنا من مسقط الرأس مستعيذين بالله تعالى من كل بأس، مستمطرين منه العون والإمداد، طالبين منه الإرشاد والإسعاد

ولما صلينا الظهر يوم الخميس ثالث جمادى الثانية سنة ست وتسعين – بتقديم المثناة – ومائة وألف[1]، خرجنا من الزاوية الناصرية *31* في جماعة من فضلائها وطائفة من علمائها والجم الغفير من رعاعها، ومن انضاف إلى ذلك من جيرانها ومريد الحج من سكانها بعد موادعة عمود خيارها، ومن انضاف إليه من صلحائها وأعيانها، جاعلين المسجد الخلوتي آخر العهد بها، تاركين الأهل والأولاد في كفالة من لا تضيع لديه الودائع بعد موادعتهم وجريان مدامعهم، فلم يغن إذ ذاك حزن ذائع: (من المتقارب)

وَلَمَّا بَـــرَزْنَا لِـتَــوْدِيعِهِـــــمْ ... بَكَــوْا لُــؤْلُـؤاً وَبكَيْنَا عَقِيقَـــا[2]

أَدَارُوا عـلَيْنَا كُؤُوسَ الفِــرَاقِ ... فَهَيْهَاتَ مِنْ سُكْـرِهَا أَنْ نُفِيقَـــا

تَوَلَّـــوْا فَأَتْبَعـْتُهُـــمْ أَدْمُـــعِي ... فَصَاحُوا الغَرِيقَ فَصِحْتُ الحَرِيقَا

فبرزنا يتقدمنا عم والدنا[3] الشيخ الإمام أبو المحاسن والمفاخر سيدنا أبو يعقوب يوسف بن محمد بن محمد بن ناصر[4]، فلما انتهينا لمصلى أبي العباس

1 – موافق 18 ماي 1782 م.

2 – القائل ابن السمعاني عبد الله بن محمد بن غالب ابو محمد الجيلي. انظر: أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، د ت.، 3/ 209.

3 –في ح "والدي".

4 –يوسف بن محمد الكبير بن محمد بناصر ولد سنة 1114/ 1703 تولى مشيخة الزاوية الناصرية حوالي أربعين سنة (1157هـ– 1197 هـ). وقد عرفت الزاوية الناصرية في عهده اتساعا كبيرا رسخت خلالها أقدام الطائفة الناصرية في مختلف مدن المغرب وبواديه حتى تلقن وردها أغلب شرائح المجتمع من الحاكم إلى المحكوم بل أن شهرة الشيخ يوسف الناصري طبقت الآفاق فقد شوهد وهو يلقن ورد الناصريين بمكة المكرمة ويولي بعض النقباء ويعزل البعض الآخر، مما يدل على بعد صيت هذه الطائفة آن ذاك. أنظر: عماك، **جوانب...**، 1/ 140 – 145، الناصري، **طلعة...**، نقلا عن سليمان الحوات في **الروضة** المقصودة، 2/ 130 – 133 ؛ ابن سودة: **اتحاف...**، 1/ 55. سليمان الحوات، **ثمرة أنسي في التعريف بنفسي**، م م و م م، رقم 689 ك، 25 ؛ الخليفتي، **الدرة**، 182 – 184.

- Bodin: **La Zaouia...**, P 276. Drague : **Esquisse...**,P 191.

بن ناصر[1]، جلس يودع الحجاج واحدا فواحدا في مكان مدت فيه يد الضراعة إلى الله تعالى، فلا ترى مقيما ولا ظاعنا إلا ودمعه على خده يتلألأ: (من الطويل)

فُؤَادِي لَهُ يَوْمَ الرَّحِيلِ تَلَهُّفُ وَرُوحِي لَهَا نَحْوَ الْحَبِيبِ تَشَوُّفُ[2]

وَعَيْنِي لَهَا أَيّ اطِّلاَعٍ إِلَى الْحِمَى لِذَاكَ تَرَى مِنْهَا الْمَدَامِعُ تَذْرُفُ

وَشَوْقِي مُزْدَادٌ وَصَبْرِي ذَاهِبٌ وَحُزْنِي ذَايِعٌ وَوُجْدِي مُتْلَفُ[3]

ثم لما لم يبق من الحجاج سواي، استودع كل منا الله تعالى وأوصانا واستوصانا، فركبنا متوجهين في جماعة من أقاربنا وكل ودع على حسب طاقته فرجع، وسرنا فبتنا على غير ماء بعد مجاوزة كدية الجلابين بينها وبين الثنية بعد غروب الشمس، ثم منها بعد صلاة الصبح فنزلنا ماء أعبّاس، قبيل الظهر وهو مع عذوبته قليل يتبرضه الناس تبرضا، يحفر فيظهر شيئا فشيئا. وقد وقع الركب[4] في عطش من أجل الحر الشديد وعدم التأهب، فما وصل

1 – أحمد بن مَحمد بن ناصر، ولد سنة 1057 /1647، تربى في أحضان أسرة اشتهرت بالعلم والتصوف، وقد اشتهر بالعلم والصلاح وقول الحق، ويعد المنظم الحقيقي الطريقة الناصرية التي أسسها والده الشيخ مَحمد بناصر، وقد أدى تعليمه وسفره المبكر والمتكرر إلى المشرق إلى تكوينه تكوينا متعدد المشارب. تولى أمور الزاوية الناصرية بعد والده سالكا نهج أبيه في الحرص على المثابرة على التعليم واستقطاب العلماء وشراء واستنساخ الكتب، توفي سنة 1129هـ/1717 م. ترجم له كثيرون. انظر: الناصري، **الروض**...، 198 – 303، الدرر، 111 – 157؛ الخليفتي، **الدرة**...، معظم الكتاب؛ أبو الفرج، **صفوة**...، 221؛ الكتاني، نشر، 3/ 234 – 235؛ الإكليل...، 186؛ الحضيكي، **طبقات**...، 1/ 71 – 74؛ الناصري، **طلعة**...، 2/ 58 – 59، الإستقصا...، 7/ 111 – 113؛ الكتاني، **سلوة**...، 1/ 264؛ القيطوني، **معجم**...، 1/ 872؛ المراكشي، **الإعلام**...، 2/ 359؛ الكتاني، **فهرس**...، 2/ 677؛ بروفانصال، مؤخو...، 206؛ عمالك، **جوانب**...، 1 /115 – 128؛

2– القائل: ابن السمعاني عبد الله بن محمد بن غالب ابو محمد الجبلي. انظر: ابن خلكان، وفيات...، 3/ 209.

3 – الأبيات لعبد المجيد الزبادي، **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**، تقديم وتحقيق اليونسي رشيد، رسالة مرقونة بمكتبة كلية الآداب الرباط، 1415/ 1995، 2/ 286.

4 – الركب: اجتماع قافلة الحجاج المغاربة القاصدين مكة للحج. ويرجع تاريخ تأسيس الركب المغربي إلى أواسط العهد الموحدي على يد الشيخ محمد صالح بن ينصار الدكالي الماجري (دفين آسفي المتوفى سنة 631 هـ) خاصة بعد انتشار الفتاوي القائلة بسقوط الحج عن أهل الغرب الإسلامي لخطورة الطريق، فالحج ركن من أركان الإسلام، فلابد من التفكير الجدي في تسهيل أدائه، وجعل الوصول إلى الحرمين الشريفين أكثر أمنا. وقد ساهم هذا التنظيم في إبطال تلك الفتاوي=

العشاء[1] حتى ملأ الناس قربهم وسقوا واستقوا، وبالقرب منه عْشيش وماؤه قليل بل ربما غار في بعض الأزمان عكس ما يقربه من الكريمة فماؤها عذب كثير. ثم منه بعد صلاة الصبح ومررنا على مدشر بني يَزُّ- فخد من بني عطا[2] - وماؤه كثير، إلا أنه يتمثل لشاربه أن فيه حموضة [ولذلك سمته العامة[3] الحميضات][4]، إذ هو جار على معدن الجير ومنه ينقل ترابه إلى درعة وما ولاها، إلا أنه رديء المعدن لا ينصع في الكتابة *32*، فاكتسب الماء منه رائحة المداد وطعمه. وبتنا بعد صلاة العصر بأم الجرّانْ وماؤها مع كثرته ليس بذاك مع ما عليه المكان من السرقة والإختلاس، فليحذر من ترك الحراسة فيه ليلا أو نهارا؛ وهبت علينا به رياح عاصفة قلعت الأخبية فاجتثت من أصلها، وخرقت بعضها. ثم منها بعد الغداة للزّنانية وماؤها عذب فرات إلى الغاية، بارد إلى النهاية، يحفر نحو ذراع فيظهر وكأن الأمطار تجتمع في الوادي من مكان بعيد فيبقى في الأرض دليله أن به حلاوة ماء المطر ولون

= وفي ارتفاع عدد الحجاج حيث وصل عدد الركبان خمس وهي : الركب السجلماسي، الركب الفاسي، الركب المراكشي، الركب الشنكيطي، الركب البحري. انظر : محمد المنوني : **من حديث الركب المغربي**، معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، تطوان 1953 ؛ عبد القادر العافية، **رحلة الحج ولقاء الشيوخ**، التجيبي نموذجا، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الأولى سنة 1428/ 2006، ص 13 – 19. فيما يخص الركب الناصري انظر: عمالك، **جوانب**. . .، 1/ 163 – 197.

1 – في د "العشي".

2 – أيت عطا: قبائل أمازيغية من صنهاجة، تشكلت في القرن 16م، تنتسب إلى دادا عطا الرجل الذي عمل على تجميع القبائل الصنهاجية الصحراوية في تكتل قبلي، فألقت إليه بزمام أمرها، واتخذت اسمه رمزا لهذه الإتحادية القوية. كانت ترتاد مجالا يمتد من تافلالت إلى درعة، ومن سفوح الأطلس الكبير الأوسط والشرقي، إلى تخوم الصحراء. وتعتبر كتلة صاغرو المركز لهذا المجال الشاسع. انظر: عمالك، **جوانب**. . .، 1 /70 – 71 ؛ أحمد البوزيدي : **التاريخ الاجتماعي لدرعة** (مطلع القرن 17م ومطلع القرن20م) دار آفاق، 1994 ص 103–118.

- G. spillmann : *les Ait Atta du sahara et la pacificatio du hut Draa,Rabat,1936 p 31- 36.*

3 – العامة : السواد الأعظم من الناس وأحيانا يطلق على الجهال، ويقابل مدلول كلمة العامة كلمة الخاصة أي النخبة أو العلماء " أهل الحل والعقد ". انظر : ابن منظور، **لسان**،7/ 25 ؛ دائرة المعارف الإسلامية في مادة عامة وخاصة.

4 – ساقط من خ و د.

الغدير دائما، ومع ذلك لا يقل صيفا ولا شتاء ولو في زمان المَحْل، وما هو إلا نيل أو قريب منه. وهذا المكان يصاحبه الخصب والرياح، ومن أجلها صادف أحد من الركب خباء فهاجت فيه علينا ريح أشد وأضم من ريح الليلة قبلها، ملأت العيون والآذان والأزودة والقدور رمالا حتى لا يكاد الرجل يفتح عينيه، وفرقت الدواب شذر مدر[1] حتى جاءت الألطاف من ذي القضاء والقدر.

ثم لما صلينا الصبح اجتمع الرأي على المكث به لمصلحة الدواب وتعمير القرب للمفازة بعدها إلى أن يرتفع النهار، فشرعنا في قراءة الحزب جماعة على العادة المألوفة، فسجدت سجدة الفراق قبل الإسفار بكثير ولم يتابعني عليها أحد ولا من حضرنا من المتفقهة من المالكية، مثل حاشر بن زيد ومتابعيه، فلما فرغنا – قبل الإسفار – أنكرت عليهم عدم السجود، فأجاب المتفقهُ بأن العمل على تركه. فقلت: لا عبرة بالعمل إذا جرى عن مطلق الناس ممن لا يعذر به، وفي **المختصر**: «وجنازةً وسجودَ تلاوةٍ قبل إسْفَارٍ واصْفِرَارٍ»[2]. وقد أدركنا من يعتد به من أهل الخير والصلاح بالزاوية الناصرية[3] من أصحاب أبي العباس ابن ناصر من يسجدها بعد العصر إلى الاصفرار، وبعد الصبح إلى الإسفار خلافا لما هم عليه اليوم تبعا لمن يبتدئ بالحزب. ولقد حضرناه مرارا فسجدنا ولم يفعل هو ولا من تبعه، ولا حجة له إلا عدم العلم، وفقنا الله وإياه لطاعته. وكذا رأينا من يعتد به من علماء فاس يسجدها، فأين العمل على أن في **الموطأ** ما نصه، قال مالك: «لا ينبغي لأحد أن[4] يقرأ من سجود القرآن شيئا بعد صلاة الصبح ولا بعد العصر، وذلك أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح *33* حتى تطلع الشمس وعن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس والسجدة من الصلاة فلا ينبغي لأحد أن يقرأ السجدة [5]

1 – يقال: ذهبت شِدَرَ مِدَرَ وشَذَرَ مَذَرَ وبِذَرَ وبَذَر: إذا تفرَّقت، اللسان.

2 – خليل، **مختصر**...، 24.

3 – ساقطة من ح ود.

4 – غير وارد في **الموطأ**.

5 – في **الموطأ** "سجدة".

في تينك [1] الساعتين»[2]. قال الباجي[3]: منعها أي كرهها في **الموطأ** قياسا على صلاة النوافل. وقال ابن حبيب بالجواز في الصبح فقط، فتحصل ثلاثة أقوال: قال في **الجواهر**: وهل يصلى على الجنائز ويسجد للتلاوة بعد صلاة الصبح وقبل الإسفار أو بعد صلاة العصر، وقبل الاصفرار ثلاثة مذاهب: المنع وهو مذهب **الموطأ**، والجواز وهو في الكتاب، وتخصيص الجواز بما بعد الصبح دون ما بعد العصر، وهو رأي ابن حبيب. ولا يجوز فعلها في وقت الإسفار والاصفرار ونحوه في **المقدمات**، إلا أنه نسب الثالث للأخوين مطرف[4] وابن الماجشون[5]. وقال في **الشامل**: وفيما بين إسفار وفجر أو إصفرار وصلاة، حصر ثلاثة أقوال: **للمدونة والموطأ** ولابن حبيب، ثالثها الجواز في الصبح فقط. الحاصل إن تقرر العمل بمن يعتد به كان جاريا في **الموطأ** والمعتمد خلافه، ثم إن الكلام أنجز في المسألة والحديث شجون، حتى قال بعض المتفقهة المذكور: قد كنت ذات يوم أصلي فلما قلت: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، زدت حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فاعترضني بعض الناس ممن ينتمي للعلم وقال: الدعاء بعد الركوع مكروه، قال: فقلت [6] له: لا أعلم من قال بالكراهية كيف وهو في **صحيح البخاري** - يعني في «باب

---

1 - في ح " تلك " وهو خطأ.

2 - مالك، الموطأ، كتاب وقت الصلاة، باب ما جاء في سجود القرآن، 1/207.

3 - أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي المالكي (403 - 474/ 1012 - 1081). انظر ترجمته ومصادرها في مقدمة تحقيق كتابه : **التعديل والتجريح لمن خرج عند البخاري في الجامع الصحيح**، دراسة وتحقيق أحمد لبزار، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الجزء الأول.

4 - مطرف بن عبد الله بن سليمان بن يسار الهلالي، فقيه، روى عن مالك وبه تفقه، توفي سنة 220 هـ. ترجم له: مخلوف، **شجرة**. . .، 1/ 86 رقم 59 ؛ ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى سنة 1325 هـ، 10/ 175.

5 - ابن الماجشون : عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون التيمي، فقيه مالكي من الفصحاء، مفتي المدينة، روى عن الإمام مالك وبه تفقه، أخذ عنه ابن حبيب وسحنون، توفي على الأشهر سنة 212 هـ. انظر : ابن خلكان، **وفيات**. . .، 3/ 166 ؛ مخلوف، **شجرة**. . .، 1/ 85 رقم 56 ؛ ابن فرحون، **الديباج**. . .، 251 - 252 ؛ الذهبي، **ميزان الاعتدال**، تحقيق محمد علي البجاوي، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة سنة 1963، 2/ 150.

6 - ساقطة من ح .

ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع»[1] من حديث رفاعة [2]، وترك النبي ﷺ الإنكار عليه في الذكر مؤذن بعدم الكراهة، بل ربما دل على الاستحباب. فقلت: وأنا أيضا الذي في علمي الكراهية ولكن لا أستحضر لها الآن دليلا، ثم بعد المراجعة وجدت في الحطاب[3] ما نصه: «ذكر التلمساني في شرح الجلاب[4]، أن الدعاء بعد الفاتحة، وقيل السورة صباحا، ليس بمكروه، وهو كذلك في أثناء السورة في النافلة وكذا بعد السورة، وقبل الركوع وكذلك بعد الرفع من الركوع، ولعله أخذه من كلام صاحب **الطراز**»[5].

وفي الجلاب ما نصه: ولا باس بالدعاء في سائر أركان الصلاة في القيام و الجلوس والسجود وسوى الركوع فإنه يكره الدعاء فيه، هـ. [وهو أظهر في الجواز بل ربما يكون نصا فيه. و في **النوادر** ما نصه: و له أن يدعو في قيامه والصلاة وفي السجود والجلوس وإنما يكره في الركوع][6] ابن عرفة[7] *34*. و فيها : ولا يدعو في ركوعه، ولا بعد إحرامه قبل القراءة ولا قبل

1 – **صحيح البخاري**، كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع، 1/ 274.

2 –ولفظه : " عن رفاعة بن رافع الزرقي قال كنا يوما نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده، قال رجل من ورائه: حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه. فلما انصرف قال: من المتكلم؟ قال: انا. قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا. **صحيح البخاري**، كتاب صفة الصلاة، باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد، رقم 766، 1/ 275.

3 –إشارة لكتاب **مواهب** الجليل في شرح **مختصر** الشيخ خليل، وصاحبه هو محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن حسن الرعيني المغربي الأصل المكي المولد، شهر بالحطاب، ولد سنة 902 هـ توفي سنة 954 هـ، ترجم له: أحمد بابا التنبكتي، **نيل** الابتهاج بتطريز **الديباج**، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989م ص 592 – 594 ؛ ابن القاضي، درة الحجال بأسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، 2/188 – 189 ؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 389 – 390 رقم 1023.

4 – عبيد الله بن الحسن بن الجلاب، أبو القاسم فقيه أصولي من أهل العراق، له كتاب في مسائل الخلاف وكتاب التفريع في المذهب. توفي سنة 378/ 988. ترجم له : عمر كحالة، **معجم** المؤلفين، بيروت، الطبعة الأولى، 6، 1993/ 238 – 239 ؛ مخلوف، **شجرة**...، رقم 243، 1/ 137.

5 – الحطاب، **مواهب** الجليل في شرح **مختصر** الشيخ خليل، باب فرع إخفاء التشهد، تحقيق أحمد جاد، القاهرة، 1429/ 2008، 3/ 276. 4/ 177.

6 –ساقط من ح.

7 – محمد بن محمد بن عرفة بن حماد الورغيمي، فقيه مالكي، ولد بتونس سنة 716/ 1316، وتوفي سنة 803/ 1401 . ترجم له: مخلوف، **شجرة**...، 1/ 326 – 327 ؛التنبكتي، **نيل**...، 463.

التشهد، **الطراز**. ولا في قيامه قبل قراءته ولا في الفاتحة، فظاهر الشيخ وعبد الحق أيضا الجواز. وجزم به أحمد الزرقاني في حواشيه وتبعه الأجهوريون وقدروه كأنه المذهب. والأصل في الجواز عدم الكراهية، والفيصل في المسألة قول **التوضيح** ونصه: يكره الدعاء في خمس مواضع باتفاق، أولها: في أثناء الفاتحة، ذكرها صاحب **البيان والتغريب**. ثانيها: بعد الفاتحة وقبل السورة، ذكره بعضهم. ثالثها: في أثناء السورة، ذكره ابن عطاء **الله**. رابعها: بعد الجلوس وقبل التشهد، ذكره عبد الحق[1] في **نكته**[2] وابن يونس وصاحب **البيان**، وخامسها: بعد سلام الإمام وقيل سلام المأموم، ذكره ابن الطلاع.

واختلف في أربعة مواضع بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة والمشهور الكراهة. وحكى المازَري عن أبي مصعب جوازه بعد التشهد الأول. وذكره الباجي فيه قولين والظاهر الكراهية، وبين السجدتين، والصحيح الجواز، وما عدا هذه المواضع فيجوز فيها الدعاء اتفاقا هـ. فانظر قوله وما عدا فهو نص في عدم كراهية الدعاء بعد الرفع من الركوع اتفاقا، وكأن المسألة غير منصوصة في مذهب مالك حتى جعل ابن التلمساني يأخذ جوازها من الطراز، والجواز هو الحق إن شاء الله.

وفي **نوازل** البرزلي[3] : وسئل عن مأموم قال خلف إمامه: اللهم ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، هل تصح صلاته لأن من الناس من أفسد صلاته؟ فأجاب صلاته صحيحة. وفي **الصحيح**: «فضل هذا الذكر». ونقله ابن بشير في **التنبيه** عن ابن شعبان وهو الصحيح. وأخذ منه ابن عبد البر أن الجهر بالذكر لا يفسد الصلاة خلافا لبعض أصحابنا المتأخرين. وفي

---

1 – عبد الحق بن محمد بن محمد بن هارون السهمي الصقلي، فقيه وحافظ، تفقه بشيوخ القيروان، توفي بالإسكندرية سنة 466 /1073. ترجم له : مخلوف، **شجرة**...، رقم 360، 1/ 173 ؛ ابن فرحون، **الديباج**...، ص 275.

2 – عنوانه الكامل : **النكت والفروق لمسائل المدونة**.

3 –النوازل لأبي القاسم بن أحمد بن محمد البلوي القيرواني المعروف بالبرزلي توفي سنة 844 هـ. ترجم له الرصاع، **فهرسة**، تحقيق محمد عنابي، تونس سنة 1967، ص 73 – 160 ؛ التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس **بالديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، مطبعة فضالة، المغرب، السنة 1420/ 2000، 2/ 15 – 16 ؛ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين (ذكر أن وفاة البرزلي سنة 833هـ/1429)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1994، 1/ 87 – 88.

صحيح مسلم حديث عبد الله بن أبي أوفى وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس بعد قوله: «حمدا كثيرا طيبا مباركا ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، زاد في حديث ابن أبي أوفى، اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ»[1]. وفي حديث الأخرين أهل الثناء والمجد[2]. ومن ثم اختار النووي خلاف مذهب مالك والشافعي من جواز تطويل الركن *35* القصير بالذكر لهذا الحديث، قال: والجواب عنه صعب. وقال ابن دقيق العيد : «الحديث يدل على أن الاعتدال ركن طويل، ولا ينبغي العدول عنه لدليل ضعيف وهو قولهم لم يُسَنّ فيه تكرير التسبيحات كالركوع والسجود» [3]، قال: «ووجه ضَعفه ظاهر على أنه قيل[4] في مقابلة النص فهو فاسد»[5].

قلت: وكأنه يعرض بالإمام الشافعي، إذ قال في **الأم** في ترجمة كيف القيام من الركوع: «ولو أطال القيام بذكر الله أو يدعو أو ساهيا وهو لا ينوي القنوت كرهت له ذلك ولا إعادة عليه»[6]. وبما استظهره ابن رشد من المالكية في قوله بالسجود في التطويل بمحل لم يشرع [فيه أمل من رفع من ركوع، وجلوس بين السجدتين و مستوفر من قيام الركعة الأولى و الثانية فهو في الحطاب][7] [به أن سلم له أن الرفع من الركوع لم يشر][8]. وأنت إذا اعتبرت كلام ابن رشد هذا واستظهاره لاحت لك الكراهية حتى في مذهب مالك لاستلزام الذكر المذكور التطويل. ومعلوم أن هذا العمد يسجد له فيكره

1 - **صحيح مسلم**، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع رقم 476، 1/ 346.

2 - ينظر **صحيح مسلم**، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع رقم 477 و 478، 1/ 347.

3 - ينظر **نيل** الأوطار للشوكاني، كتاب الناسخ والمنسوخ، باب الجلسة بين السجدتين، دار الجيل، بيروت، 1973، 2/ 292.

4 - في م. **س**، " قياس".

5 - ن. م، 2/ 292.

6 - محمد الشافعي، الأم، باب كيف القيام من الركوع، دار النشر دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية 1393، 1/ 130.

7 - ساقط من ح.

8 - ساقط من د.

فعله اللهم إلا أن يقل محل السجود إذا طول متفكرا لشك حصل عنده فيما يتعلق بصلاته، وأما إذا طول متفكرا في شيء من غير صلاته أو ذاكرا كما هو الموضوع فلا سجود بل لا كراهية وهو الحق إن شاء الله. وفي ابن عبد الصادق الطرابلسي على قول ابن رشد وقول: ربنا ولك الحمد ما نصه: «وكره مالك أن يزيد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه» هـ. فانظره مع ما قدرناه، لعل القائل بالكراهية منه أخذه و قد علمت ما فيه، والذي يدل أن فيه الأخذ بالحديث وترك السجود، والله ربنا أعلم وأحكم.

رجوع وانعطاف، ثم ارتحلنا بعدما ارتفع النهار فنزلنا أُفْزُ بعد ما غرب الشفق على غير ماء وكل ما به من المياه بضنين أي قليل جدا، ثم منه قبل طلوع الفجر لسجلماسة[1] بعد عصر الثلاثاء الثامن جمادى الثانية بعد أن هبت علينا، ونحن بواد غريس بها، ريح عاصفة ما رأيت في عمري مثلها حتى فرقت الركب، فضلت طائفة منه عن الطريق لكثرة ما جاءت به من الغبار والرمل على عادة البلدة – من كثرة الغبار بها – سيما في وقت انقطاع

---

1 – سجلماسة : تنطق بكسر السين والجيم وسكون اللام، وهي بالجنوب الشرقي من المغرب على نهر وادي "زيز" بالمنطقة المعروفة بتافيلالت. يؤرخ أغلب المؤرخين لاختطاط مدينة سجلماسة بسنة 140/ 758، إلا أنها لم تظهر كمدينة تجارية تربط بين حوض المتوسط والسودّان إلا في القرن 8 هـ واستمرت أهميتها الإقتصادية والسياسية إلى القرن 16 م حيث لم تعد إلا أطلال كما يقول الحسن الوزان. وبعد هذا التاريخ صار إطلاق " سجلماسة " حتى على القرى المجاورة لأطلال المدينة التي تعرف عند سكان المنطقة "المدينة العامرة " القريبة من مدينة الريصاني ؛ أما قصبة سجلماسة، حيث ضريح مولاي علي الشريف، فتقع بجوار مدينة الريصاني الحالية. ومن المشهور أن مؤسسي سجلماسة هم بنو مدرار الخوارج، إلا أن أبي محلي السجلماسي ذكر في تقييده في التعريف بمدينة سجلماسة أنها من تأسيس العرب الفاتحين عام 40 هـ، ثم وسعها بنو مدرار فكانت عاصمة لتلك المملكة الخارجية إلى أن استولى عليها الفاطميون ملوك القيروان. أنظر: البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، مطبعة إفريقيا والشرق، باريس، 1965 ص 138 ؛ الوزان : **وصف إفريقيا**، 2/ 120 ؛ لسان الدين بن الخطيب، **أعمال الإعلام**، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964 3/ 138 ؛ كول ماك: **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة**، ترجمة محمد الحمداوي، دار الثقافة، البيضاء 1396/ 1975 ص 9 ؛ إسماعيل محمود، **الخوارج في بلاد المغرب**، دار الثقافة، 1976 ص 117 ؛ حجي، **الحركة**. . . ، 2/ 519 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** مادة " سجلماسة " 11/ 298 وما بعدها ؛ ابن محلي : **تقييد في التعريف بسجلماسة**، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 264 ؛ حركات، **السياسة**. . . ، ص391- 392. Hesperis : Vol 21/1984 p19-25

الماء عنها كهذا[1] الزمان. تتمة الطريق من درعة [2] لسجلماسة قطعة من الحجاز من قلة الماء وشده الخوف، كانت قبل هذا مقر بني محمد من الأعراب*36* والآن استولى عليهم وعلى غيرهم بنو عطا، فانتقم الله تعالى بظالم من ظالم حتى يأخذ الجميع. والطريق من الزاوية الناصرية إلى المنهل العباسي في نهاية الحروشة خصوصا الثنية[3] وما والاها وما عدا ذلك لسجلماسة لا باس به، وربما هبت بها زمن المصيف سموم حارة كالتي تهب بالحجاز، وبرقة في بعض الأحيان، وقد قطعناها في أوان الحر، وعمتنا ودوابنا الألطاف الإلهية، وانخرقت لنا في هذه السنة المباركة العوائد الزمانية، فما وقفت الدواب في موضع منها إلا وأخذت كفايتها من أجل ما غمر من الخصب فله تعالى عود وبدء.

1 - في د "هكذا".

2 - درعة : منطقة تحدها مرتفعات الأطلس الكبير شمالا وإقليم تافيلالت شرقا، وسوس الأقصى غربا، وهو واد ينساب مع رمال الصحراء جنوبا، تجري شمال هذه المنطقة عدة أنهار نابعة من الأطلس الكبير تصب في وادي درعة - أطول أنهار المغرب - وتمتد على طول درعة الوسطى ست واحات، من العالية إلى السافلة : مزكيطة، تنزولين، ترناتة، فزواطة، لكتاوة والمحاميد. وتنطق درعة بالدال المهملة كما في القاموس، وتخفف أحيانا وتنطق درا، والمنتسب إليها درعي ودراوي. ويذكر مؤرخو المنطقة أن الأصل ذرعة بالذال **المعجمة** لأنها ذرعت بالذراع لتحديد الخراج المضروب عليها. جاء في الدرر المرصعة: " أن الشيخ أحمد البوسعيدي (قاضي تنزولين بدرعة) كان يقول ذرعة **بالمعجمة** لكن الشيخ أبا عبد الله بن ناصر عقب عليه بقوله : أنما هذا القياس والمعروف أنه بالمهملة وقد ذكره القاموس بالمهملة. انظر : محمد المكي الناصري، الرياحين الوردية في **الرحلة** المراكشية، م م و م م، رقم 1864 د، الصفحة 81-80، الدرر...، 10 ؛ حجي **الحركة**...، 2/ 529 ؛ الفيروزبادي، القاموس 1/ 923 ؛ معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، 1421/ 2000، عدد12، ص 3992 - 4004؛ المنوني، "حضارة وادي درعة..." ص 130 ؛ حركات، السياسة...، ص 390 - 391.

3 - ثنية سجلماسة أو ثنية الرمل، توجد في الشمال الشرقي لتامكروت بحوالى 15 كلم.

ذكر دخولنا سجلماسة ومدة إقامتنا بها وما زرنا بها أو لقينا من الأخيار، وما استفدناه أواسْتُفِيد منا من مسائل علمية غزار

حططنا الرحال بِتَبُغْصمتْ[1] بعد مشورة أمير الركب مولانا علي بن محمد الحسني العلوي البوعامي، لكونها توسطت البلد مع القرب من السوق، ووجود مرعى الإبل؛ وسقيها مع ما هو البلد عليه من بعض الأمان بالنسبة لغيرها مما عسى يطرق من سارق أو محارب، فبالغ أهلها كأعيان طلبة السفالات في إجزال القِرى لحجاج أم القُرى[2] خصوصا هذا العبد الفقير، فجزاهم الله خيرا وأحسن منا ومنهم العاقبة في الأخرى. وأقمنا بها إلى السادس والعشرين لاشتغال حجاجها بدرس زروعهم وقضاء أوطارهم، و وجدنا الركب السوسي قد سبقنا بأيام فنزل السيفة، وأحسنوا إليهم إلى الغاية وضاق النطاق على الجميع بعد ترددهم وتقدمهم إلى الأمير في ذلك المرة بعد المرة وهو من كمال ثباته، شكر الله تعالى سعيه، يعدهم ويمنيهم حتى كادوا أن يفترقوا فيذهبوا بلا أمير أو يرجعوا، ثم لما وقع الإذن من باري الكل خضعوا وأوضعوا.

وسجلماسة أشهر من أن يعرف بها، إلا أن البكري في **مسالكه** لما ترجمها ذكر أمورا ينبغي التنبيه عليها، قال: «مدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة (140 هـ)، وهي سهلية، أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة، وفيها ديار رفيعة ومبان سرية، ولها بساتين كثيرة، *37* وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسعُ بن منصور، ولها اثنا عشر بابا، ثمانية منها حديد. وهم يلزمون النقاب، وهي على نهرين، عنصرهما من

1 -"تَبُغْصَمتْ" أوتابوعصامت: قرية بإقليم الراشدية، جنوبي الريصاني.

2- في خ ود "القرا" وأم القرى: مكة.

موضع يقال له أكلف[1]، تمده[2] عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين، يسلك شرقيها وغربيها، وجامعها متقن البناء، وحماماتها رديئة البناء، وماؤها زعاق[3]، وكذا جميع ما ينبط من الماء بها، وشرب زروعهم من النهر في حياض الأعمال كحياض البساتين. وهي كثيرة النخل و الأعناب وجميع الفواكه، وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب إلا في الظل، ويعرفونه بالظلي، و ما أصابته الشمس منه يزبب، وهي صحراوية لا يعرف في غربيها ولا شرقيها عمران، وليس بها ذباب ولايجذم من أهلها أحد، وإذا دخلها أحد بجذام توقفت عنه علته، وأهلها يسمنون الكلاب ويأكلونها كما يصنع أهل مدينة قفصة[4]، وقسطيلية[5]، يعني توزر، ويأكلون الزرع إذا خرج شطأه، وهو عندهم مستطرف، والمجذومون[6] عندهم هم الكنافون، والبناؤون [عندهم يهود][7] لا يتجاوزون هذه الصناعة[8] »[9].

«ويزرع أهلها سنة، ويحصدون[10] من تلك الزريعة ثلاثة أعوام، لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد[11]، وأرضهم مشققة فيقع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان العام الثاني حرثوا[12] بلا

1 – في **المسالك**، "أجلف" 2/ 33.

2 – في **الإعلام** "به". 6/ 197.

3 – زعاق : مر لا يطاق شربه، والزعاق من الطعام الكثير الملح. **المعجم العربي**، ص 577.

4 – قفصة : مدينة قديمة في البلاد الجريدية بناها الرومان، افتتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بينها وبين القيروان ثلاثة أيام، أنظر: الحميري، **الروض**. . .، 477 – 478 ؛ البكري، **المسالك**، 2/ 223؛ الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 382 ؛ الوزان، **وصف إفريقيا** : 2/ 143.

5 – قسطيلية : أسم لعمل البلاد الجريدية، وهي بلاد واسعة مدينتها العظمى توزر. انظر :الحميري، **الروض**. . ، 480 ؛ البكري ،البكري، **المسالك**. . .، 2/ 186.

6 – في **المسالك**، "المخدرون".

7 –ساقط من ج وح ود، وما أثبتناه من "م" و**الإعلام** 6/ 198 و **المسالك**، .

8 – ساقطة من د.

9 – البكري، **المسالك**. . .، 2/ 332 – 333.

10 – فيم. **س**، "يحصد"، والصواب ما أثبتنا.

11 –مكررة في ح.

12 –في د "حرث".

بذر وكذلك الثالث. وقمحهم رقيق صيني»[1]. ويعمل بها ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من عشرين مثقالا [2] وغالب[3] ما وصف غير موجود اليوم حسبما شوهد.

وزرنا خلال مدة الإقامة أعيان البلد مولانا الغازي، المرة بعد الأخرى، وكذا شيخه أبا الحسن علي بن عبد الله، ومولانا الحسن الشريف، ومولانا علي الشريف، وسائر من معه في مقبرته، وفي ساحته مما يدعى لديهم البقيع الصغير، من كثرة ما قبر به من ساداتنا الشرفاء، نفعنا الله بهم وبأسلافهم، وحشرنا تحت لواء جدهم مولانا محمد ﷺ.

وزرنا مولانا أبا زكرياء، والإمام مولانا عبد الله الدقاق، والإمام ابن هلال صاحب **النوازل**، والإمام الحبيب اللمطي، وتلميذه أبا العباس أحمد بن عبد العزيز*38* الهلالي، وأبا الحسن علي بن أبي زينة، ورجال جَاوَزْ، وسائر من في مقبرتهم على عادة أسلافنا في زيارتهم، وكان من أفضل من لقيته من الأكابر بها الشيخ المسن البركة، الطائع لربه في السكون والحركة، سيبويه زمانه، وفريد عصره في أوانه، ملين القلب القاسي أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد التنغراسي[4]، ذهبت إليه بقصد التبرك والأخذ والزيارة، فرأيت رجلا هينا لينا خيرا عليه رونق الخير والصلاح والهداية والفلاح، ينيف في السن على الثمانين فقام وقعد لملاقاتنا، وهش وبش لرؤيتنا، حدثني أنه ولد سنة ثلاث عشرة، وسأله بعض الطلبة من حجاج درعة عن قول النحاة من صور الإلغاء [الجائز المرجح على العمل][5] زيدٌ

---

1 - البكري، **المسالك**. . .، 2/ 336 - 337.

2 -المثقال : الدينار الذهبي = عشر دراهم (عملة فضية) - المثقال = عشر أوقيات أي درهم = أوقية هذه الأخيرة تساوي أربع موزونات وبالتالي المثقال = 40 موزونة، إلا أن هذه القيمة لم تبق ثابتة، بل تغيرت خلال المراحل التاريخية الاقتصادية. انظر :القادري، **التقاط**. . .، 157 هامش 2 ؛ حجي، **الحركة**. . .، 1/ 315 - 316.

3 - ساقط من د.

4 - ولد سنة 1113 هـ. انظر :المراكشي، **الإعلام**. . .، 6/ 198.

5 -ساقط من ح وخ و د، وما أثبتناه من "م".

قائم ظننت أي إلغاءها هنا مع أن ظننت متسلط في المعنى على ما قبله، فأجابه بقوله: الإلغاء عندهم ترك العمل لفظا ومحلا لغير موجب، والكلام محتوعلى جملتين خبريتين لم تعمل الثانية في لفظ الأولى ولا في محلها مع ما في الثانية من رائحة الاستئناف؛ [فقال له عند ذلك السائل: وأي فائدة لهذا الاستئناف؟][1] فلم تفدنا الجملة الثانية غير ما أفادته الأولى، فسكت الشيخ متأملا.

فقلت: فائدته رفع ما قد يتوهم من الأولى من تحقيق القيام إذ الأصل الحقيقة، فأقرني على ذلك، ولما أنجز الكلام للرياء في الأعمال قال: ينفع في دفعها - قال[ه] عرفة[2] - وفي غيرها من سائر الأسواء: «أعوذ بكلمات الله التامات»، الحديث[3]. ولذكر شراح **الخلاصة** لابن مالك[4] وثنائه على المرادي منهم، أنشد لغيره معرضا بأولوية ابن هشام بذلك: (من الوافر)

تَصَدَّى لِلْخُلَاصَةِ إِذْ نَحَاهَا	بِتَوْضِيحٍ وتَسْهِيلٍ مَفَادِ
فَإِنْ تُرِدْ الوُصُولَ إِلَى مُنَاهَا	فَخُذْهُ فَإِنَّهُ فَوْقَ المُرَادِ

والشطر الأخير فيه تورية[5] بمراد الشيخ.

والحق أن الجمع والتحرير وكثرة الإطلاع مع المرادي أكثر منه مع ابن هشام، يشهد بذلك أن من بعده عيال عليه، والأعراب بالباب، ولكن النفس تميل إلى الاختصار سيما مع محاداة المتن ومجاراته، والتنقير عليه من غير اعتذار، وللناس فيما يعشقون مذاهب وأنظار. وأنشدنا لغيره أيضا في ذلك: (مجزوء البسيط)

---

1 -ساقط من ج.

2 -ساقط من د.

3 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره: رقم 2708 ورقم 2789.

4 - العلامة جمال الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله الطائي المعروف بابن مالك النحوي المتوفي سنة 672 هـ، له: الألفية في النحو وسماها الخلاصة وله عليها شروح و شروحها كثيرة، انظر: **كشف الظنون**، 1/ 151.

5 - تدل التورية في علم البديع على اللفظ المفرد الذي له معنيان، معنى قريب ظاهر غير مراد، ومعنى بعيد خفي وهو المراد.

يَا بنَ هِشَامٍ حَوَيْتَ عِلْمًا يَحْتَاجُ كُلُّ الوَرَى إِلَيْهِ
39 جَاوَزْتَ فِي النَّحْوِ وَالمَعَانِي عَمْرَو بْنَ عُثْمَانَ سِيبَوَيْهِ

وسألته الله إجازة من شيوخه فقال: لا، ولا من واحد منهم، جريا على عادة المغاربة من الاعتناء بالدراية دون الرواية عكس المشارقة اليوم. وعن الأوراد والأذكار، هل أخذها عن بعض الشيوخ فقال: لا إنما جمعت أورادا نبوية من الصحيحين فالتزمتها[1]. فقلت: وعلى ذلك أدركنا من يعتد به من شيوخنا الفاسيين، كشيخ الجماعة سيدي محمد بن قاسم جسوس[2]، ومولانا عبد الرحمان بن إدريس المقري، ومولانا الحافظ إدريس بن محمد العراقي[3]، وكأنهم لما رأوا شيوخ التربية قد انقطعوا منذ أزمنة ودهور، وأرباب الخصوصية استغنوا بالخمول عن الظهور. والمسألة من باب العلم بالأحاديث النبوية افتقروا فيها للسند فاعتمدوا فيها ما صح لديهم بأسانيدهم العالية تاركين متربطة الزمان، وما هم عليه من الشهرة بمحبة الدنيا والإقبال على أهلها معرضين عن الآخرة[4] وذويها، وإذا كانوا بهذه المثابة فأنى لهم بالتلقين وسياسة الخلق، وجمعهم على الله تعالى، وما هي إلا حبالة نصبوها وذنوبا اقترفوها، وأكل للدنيا بالدين، وانهماك في شهوات زينها[5] لهم اللعين. ثم حضنا وسائر من معنا من الحجاج على ملازمة قراءة آية الكرسي

1 – في ج وخ "فلتزمتها".

2 – محمد بن قاسم جسوس، أبو عبد الله، حج ودخل مصر وأخذ عن علي الصعيدي العدوي. توفي سنة 1182 /1769، دفن بزاوية الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي من حومة القلقليين بفاس. ترجم له: الحوات، **الروضة**...، 1 /307 – 312؛ القادري، نشر...، 4/ 188 – 192.

3 – أبو العلاء إدريس بن محمد بن إدريس بن حمدون بن عبد الرحمان العراقي الحسني الفاسي، شهر هو وأسرته بالنسبة إلى العراق، لقدوم سلفه منهم، سلطان المحدثين في عصره. ولد بفاس 1120 /1183، وتوفي سنة 1705 /1769. ترجم له: م الكتاني، **سلوة**...، 1 /141 – 143 ؛ ع الكتاني، **فهرس**...، 2/ 818 – 825 ؛ العمراني، **الحركة**...، 1 /478 – 492 (هناك مصادر ترجمته).

4 –في ح "آخر".

5 – ساقطة من ح وج .

لما ورد فيها، ثم [دعا لنا][1] وودعنا الله تعالى منشدا لغيره. (من الوافر)

أُوَدِّعُكُمْ وَأُودِعُكُمْ جَنَانِي وَأَسْكُبُ أَدْمُعًا[2] مِثْلَ الجُمَانِ[3]

فَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لاَ خِيَارَ مَعَ الزمَانِ

وممن لقيته، الشيخ المسن البركة الأستاذ أبو القاسم بن الشيخ الحبيب، ومن مستفاداتي منه أن سبب ارتفاع إدريس عليه السلام إلى السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة أو الجنة ثم أذيق الموت أو حي[؟] على الخلاف، هو أنه مر بأرض قفرا حارة، فاشتد عليه الحر فأشفق على الملائكة الموكلين بها، فدعا الله تعالى أن يبردها لهم ففعل، وكان ذلك سبب رفعه. فقلت: في صحة هذه الحكاية نظر. فقد تقرر أن الملائكة الموكلين بالنار لا تضرهم، فالموكلون بالشمس والريح والمطر ونحوها كذلك، على أني راجعت نحو الخمسة عشر من المفسرين و غيرهم من الإخباريين فلم أجد واحدا منهم أومأ لهذه الحكاية، فالله أعلم بصحتها، ومن أين تلقفها هذا الرجل؟.

ومن أمثل الطلبة بهذه البلدة الفقيه النحرير المفتي أبو القاسم محمد بن عبد المالك التجمعتي، اجتمعت به *40*، فوجدته له اعتناء بالنوازل الفقهية مع ما هو عليه من الإنصاف وصدق اللهجة وكمال المودة، ولما جرى بيننا في المذاكرة ذكر ابن الفخار، أنشدته أبياتا له علقت بحفظي، كان تلميذه أبو العباس السبتي يستحسن، حتى لما حضرته الوفاةُ، سماعها وهي:(من الكامل)

عَقَدْتُ عَلَيْكَ مَكْمَنَاتُ ضَمَائِرِي عَقْدَ الرَّجَاءِ فَأَلْزَمْتُكَ حُقُوقَا

إِنَّ الزَّمَانَ عَدَا عَلَيَّ فَزَادَنِي عِلْمًا بِأَنَّكَ مَالِكِي تَحْقِيقَا

مَا نَابَنِي ضَيْمٌ بِوَجْهِ إِسَاءَتِي إِلاَّ عَبَرْتُ بِهِ إِلَيْكَ طَرِيقَا

امْضِ الْقَضَاءَ عَلَى الرِّضَى مِنِّي بِهِ إِنِّي وَجَدْتُكَ بِالعِبَادِ رَفِيقَا

1 – ساقط من ح.

2 – في **ملء العيبة**: "وأنثر عبرتي".

3 – القائل: ابن رشيد. أنظر: الزبادي، ملء العيبة...، 5/ 276.

فأنشدت: (من الرجز)

عَقَدْتُ بِتَاءٍ سَاكِنَةٍ مُسْنِدًا إِلَى الْفَاعِلِ الظَّاهِرِ هُوَ مُكَمَّنَاتُ

وَعِنْدَ الرَّجَاءِ بِالنَّصْبِ مَعْمُولَهُ

فَأَنْكَرَهُ عَلَيَّ أَشَدَّ الإِنْكَارِ وَقَالَ: عَقَدْتُ بتاء مضمومة مسندا للمتكلم ومكمنات معموله، فقلت: ويضيع على هذا ما بعده، وهو عقد الرجاء مع زيادة الإخلال بالوزن. فلم يزد على أن قال: هو مصدر، فقلت: سلمنا مصدريته على كلا التقديرين، ولولا فساد الوزن لصح ما قلت على معنى التشبيه، والمراد عقدت عليك يا مولاي مُكمناتِ الضمائر، كما أن رجائي معقودٌ عليك، أي لا يتجاوزانك[1] إلى غيرك، وفيه بعد لا يخفى. فقال: لا نسلم جواز إسناد العقد إلى المكمّنات لأن العاقد هو صاحبها، لا هي، فقلت: بسم الله، إنما هو إسناد مجازي من باب: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[2]، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[3] وأنبت الربيعَ البقلَ. فقال: وما المحوج إلى المجاز؟ فقلت: البلاغة في الكلام، نعم يبحث في الجملة الأخيرة من البيت وهي قوله: فألزمتك حقوقا، إذ لا يجب على الله تعالى شيء، إذ هو الفاعل المختار سبحانه لا مكره له، ويجاب بأن القائل سُني، فليُلْتَمَسُ لها أحسن المخارج، وكم من مثلها في كلام أئمة السنة والجماعة، ويدل لإرادة المعنى المطابق للعقيدة ما بعدها من الأبيات، فيكون المراد باللزوم الطلب، وبالحقوق الأمر أو يقال: فألزمتك حقوقا تفضلت بها فأوجبتها على نفسك ومن هذا المعنى: «إن لله عبادا لو أقسموا على الله لأبرهم»[4]. ثم أنشد قائلا ابن الفخار[5] : (من المقتضب)

---

1 – في د "يتجاوزان".

2 – الحاقة :20.

3 – الزلزلة: 2.

4 – وقفت على الحديث عند البرهان، **كنز العمال** الكتاب الثالث من حروف الهمزة في الأخلاق رقم 5954، 3/ 67 ؛العراقي، المغني. . .، كتاب المحبة والشوق والرضا رقم 4189، 2/ 1155.

5 –ابن الفخار : أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار القرطبي المالكي، ولد سنة نيف وأربعين وثلاثمائة هجرية، كان رأسا في الفقه مقدما في الزهد موصوفا بالحفظ توفي في ربيع الأول سنة تسع عشرة وأربعمائة (419 هـ). انظر: محمد الذهبي، **سيرة أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1413، 17/ 372-373.

هَذَا صَاحِبُ النَّظْمِ مُغْنِي الصِّبْيَـانِ وَلَيْسَ شَيْخُ أَبِي العَبّاسِ إلا فِي القِرَاءةِ

فقلت: الذي عندي أنه ابن الفخار الفقيه، فقال: لا، الفقيه منهما معاصر لابن*41* عتاب وابن ملك الفقيهين، فقلت: أما إذا كان معاصرا لهذين الإمامين فهو من أهل القرن الخامس كلاهما، وأبو العباس من أهل السادس فلا يبعد أن يدركه، إذ ليس بينهما من الزمان كثير، فقد ذكر غير واحد أن ابن الفخار توفي سنة تسعة عشر وأربعمائة، وابن عتاب ولد سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وتوفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة[1].

قال: ولنا ممن ينسب هذه النسبة ثالث من أهل القرن التاسع، وأوفقني عليه في **نفح الطيب**[2]. وسألني عن مسائل منها من كان يصلي بالمسمع وانقطع عنه الحكم ؟ قال: وقعت زمن شيخنا أبي العباس الهلالي فلم يجد لها نصا، فقلت: سبحان الله علق ببالي للمتأخرين فيها ترددا و قد كنت لفقته فيما سبق بقولي:

وَمَنْ يُصَلِّي بِإمَامٍ وانْقَطَعَ سَمَاعُهُ فيه تَرَدّدٌ وَقَعْ (من الرجز)
يُتِمُّهَا يَقْطَعُهَا قَوْلاَنِ لِلْحُكْمِ بِهِ ذَاكَ مُبَيَّنَانُ (من البسيط)

غيره: (من الطويل)

إِذَا انْقَطَعَ الإسْمَاعُ عَنْكَ فَتَمِّمَنْ صَلاَتَكَ أَوْ اقْطَعْ خِلاَفٌ تَقَرَّرَا
وَ شَيْخُنَا الْعَبَّاسُ مَالَ إلَى الْقَطْعِ وَغَيْرُهُ لِلإتْمَامِ مَالَ فَحَرَّرَا

وقد أحضرت دواوين إذ ذاك فبحثنا عنها في مضانها فلم نجدها، وربما يتخرج الخلاف منها على مسألة من ظن أن الإمام سلم فقام يقضي، ثم تبين خلافه. وفيها كما في نوازل البرزلي ثلاثة أقوال مشهورة: «أنه يرجع و يلغي

1 – الصواب مع التجمعتي، فالشيخ لم يولد إلا بعد موت ابن الفخار الفقيه بنحو مئة سنة وست سنين، إذ ولادته كانت سنة 524 هـ. انظر: المراكشي، **الإعلام**. . . ،6/ 199 .

2 – في الطرة : هذا الذي بنفح الطيب هو الإمام ابن الفخار النحوي، وهو غير أبي عبد الله الفخار دفين تطوان شيخ أبي العباس، وهو مختبر الصبيان بالطيور كما في الإبريز، وهناك ابن الفخار الرابع، ترجم له في **التشوف** وهو ابن كامل، دفين باب الدباغ.

ما فعله في صف الإمام، وتصح صلاته مع أن معه ضرب من التفريط، ومع ذلك جرى فيها ما ذكر، و مسألتنا لا تفريط فيها فيترجح أيضا فيها صحة الصلاة.

ثم وجدت بعد ذلك في جواب شيخ شيوخنا أبي العباس الرسموكي المراكشي بخط تلميذه أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأبريزي ما نصه: «وينبغي للمسمع أن يجعل صوت تكبيره لجلوس التشهد ين مخالفا لصوت باقي تكبيراته، لأن من عرف حاله في النطق بالتكبيرات إذا أسمع نطقه لتكبيره علم أنه جلس وقام، وإذا اشتبه على المقتفي أن إمامه جلس للتشهد أو قام لركعة جلس مخافة أن يسبقه في نفس الأمر إلى ركن، فإذا سمع بعد ذلك تكبيره قام لركعته فإن سمع تحميده علم بذلك أنه ارتفع به من ركوع، فيكون كمن زوحم عن ركوع فأتي به غير الأولى فيلحقه في السجود، وإن انقطع عنه الصوت بالكلية بقي [في محله الذي لا يضر][1] فيه الطول منتظرا لسماعه إذا سمعه عمل على ما فهم منه، فإن فهم منه أنه قد فعل ركوعا أو سجودا كان كمن زوحم عنه، وإن فهم عنه أنه فعل عنه ركعة كاملة أخرها حتى يسلم الإمام فيأتي بتمام، وإن لم يدر ما صلى مع الإمام ولا ما فاته معه بنى بعد سلام الإمام على اليقين، وصلى ما شك فيه وسجد بعد السلام لاحتمال كون42** ما صلاه بعد مفارقة الإمام زائدا، وإن انتظر سماعه حتى أيس منه، أو مضى منه مقدار ما يصلي فيه بقية الصلاة، فلم يسمع شيئا أتم صلاته فذا، ولا يقطعها لأنه دخلها بوجه جائز، ولم يطرأ عليه ولا على إمامه ما يقطع الصلاة، وإن تعدد من انقطع عليهم السماع فلهم الاستخلاف إذ يجوز الاستخلاف في هذه المسألة.

أفتى العالم الوالي الشهير سيدي عبد الله بن يعقوب السملالي قياسا على ذوي سفن متقاربة اقتدوا بإمام واحد، ثم فرقتهم الريح، وما أفتى به ظاهر، لأن جواز اقتداء ذوي سفن بإمام واحد أخف من جواز اقتداء

---

1 –ساقط من ح.

أهل البر بإمام واحد، لإن الريح تفرق السفن غالبا قبل إكمال الصلاة، لكن اعتبر في السفن الأصل الذي هو السلامة من الضرار، فكل واحد من المقيس والمقيس عليه قد اقتدى بإمام على وجه جائز، ثم حصل مانع من سماعه فإذا جاز الاستخلاف لأهل السفن فإنه يجوز لأهل الأرض من باب أولى، والله أعلم هـ. وشاهد النازلة هو قوله: وإن انتظر سماعه حتى أيس إلخ، وإنما نقلته على طوله لما انطوى عليه من الفوائد [أي من المسائل التي سئل عنها هناك من قبل أي الناس][1].

ومنها، من أوصى لأولاد أولاده بأصل، ثم تزايد أجرهم فأخذ الغلة كلها ثم مات، فهل توقف الغلة إلى أن ينزاد غيره أم تصرف لبني الصلب؟ فأجبت بأن فيها خلافا، ففي **المدونة:** «وما أثمر الجنان بعد موت الموصى قبل النظر في الثلث فإن الثمرة للموصى له، هذا قول ابن القاسم[2] »[3]. وقيل للورثة وقيل بالتفصيل فإن كان الموصى به معينا فالخلاف وإن كان[4] فشائع، ثم عين له أصل أو اشترى بالعين أصل فالغلة للموصى له اتفاقا، والمسألة في الوصايا من **المعيار**، وفي **جامع** ابن يونس أيضا وابن عرفة، وهي مما يندرج تحت قول الشيخ ميارة[5] في **تذييل المنهاج** (من البسيط)

فِي غلّـةِ قبْـل الـوِلادَةِ اختلـفْ   لـوَارِثٍ أوْقفهَـا لِمَـنْ وَصَـفْ

---

1 – ساقط من ح و خ.

2 – عبد الرحمان بن القاسم العتقي المصري، تتلمذ على الإمام مالك عشرين سنة، فهو أعلم الناس بأقواله ولد سنة 128 هـ أو 133 هـ و توفي بمصر سنة 191/806. ترجم له: ابن فرحون، **الديباج**...، 238-239؛ مخلوف، **شجرة**...، رقم 69، 1/ 88؛ أبو الفرج، **صفوة**...، 4/ 6-5.

3 – مالك، **المدونة الكبرى**، كتاب الوصايا، دار صادر، بيروت، 15/ 65.

4 – ساقطة من د.

5 – محمد بن أحمد ميارة الفاسي، فقيه اشتهر بنباهته أخذ عن ابن عاشير، توفي سنة 1072هـ/1661 م. ترجم له في :الإفراني، **صفوة**...، 140؛ القادري، **نشر**، 2/ 120؛ الكتاني، **سلوة**...، 1/ 167؛ مخلوف، **شجرة**...، 447 رقم 1218.

فقال: وما الراجح الذي تجب به الفتوى؟ فقلت: لم يحضرني، ويشبه أن يكون الوقف ضرره أخف ولأنه غرض الموصى. ولقائل أن يقول: الولد لا يملك إلا بعد وضعه وتحقق الحياة فيه، فنقول لم نوقفها له على معنى أنه ملكها وهو في العدم أو حمل بحيث إذا لم يستهل صارخا تورث عنه ونحو ذلك، بل على معنى أنه إن استهل أخذها تنفيذا لغرض الموصي. *43* وقد يقال أيضا يمكن أن لا يوجد عقب فيكون في توقيف الغلة عن الموجود من أبناء الصلب ضرر يجاب بأن هذا نادر والأحكام منوطة بالغالب، ولا يقال من شرط وقف الغلة القبول من الموصى له وهو معدوم لا يتصور منه القبول وإن قاله الناظم تبعا لما في **المعيار**، لأن نقول غايته أنه غائب والحاكم وكيل الغائب فينظر له. ثم أوقفني بعد على اختصار[1] **نوازل** البرزلي للشيخ أبي سعيد البجائي، في نحو عشرين [كراسا من الكبير][2]. وفيها الراجح عدم الوقف فانظره، وكأنه تبع تشهير ابن أبي الدنيا وهو غير ما في **المدونة** كما علمت. قال المكناسي في **مجالسه**: ومذهب **المدونة** هو المشهور. فالحمد لله على الموافقة. وبمذهب **المدونة** أفتى ابن علوان، نعم جرى عمل فاس بقول ابن أبي الدنيا كما في **نوازل** الشفشاوني عن الإمام سيدي العربي بردلة.

ومنها، من أوصى بربع لعقبه الغير الموجود، وأوصى مع ذلك بوقف الغلة له إلى أن يوجد، فهل يعمل بوصيته بالوقف تنفيذا لغرضه ولأن الثلث له يفعل فيه ما شاء، ولأن لفظ الموصى والمحبس يتبع الجائز معه كألفاظ الشارع أولا، وتدفع للموجود من أبناء الصلب حتى يوجد العقب معاملة للموصى بنقيض قصده؟ فأجبت بتنفيذ الوصية بالوقف لما ذكر، ولا ينبغي أن يختلف فيه لما حققناه في النازلة قبلها، فعارضني بوجود الخلاف وأوقفني عليه من غير ترجيح، وبقي النزاع فيه. وزعم أن الشيخين عيسى السجلماسي، وأبا العباس السملالي اختلفا فيه، فرجح الأول الوقف والثاني عدمه وعليه السائل.

1 – ساقطة من ح.

2 – ساقط من ح.

ومنها، من اشترى أرضا بزرعها الأخضر، فلما حصده ووضعه بالأندر[1] ولاّها بزرعها المذكور لشخص آخر بمثل ما اشتراها به أو أقل أو أكثر، فهل العقدة الثانية بحجة أم لا؟ فأجبت أن التولية بمثل الثمن إن جرينا على أنها بيع كما إذا وقعت بأقل أو بأكثر، فلا شك أنهما جزافا جمعا في عقدة واحدة واحدهما لم يجيء على الأصل، إذ الأصل في الأرض أن تباع جزافا، وفي الحب أن يباع كيلا، فيبيع في النازلة جزافا تبعا لثمن الأرض من غير تعيين ما ينوبه، والحكم إن شاء الله تعالى الجواز. قال ابن عرفة وابن رشد في الجزاف ثلاثة أقوال: « أَشْهَبَ[2] و أَصْبَغَ[3] جائز ولو كان الجزاف على الكيل، وقال ابن حبيب: *44*لا يجوز ولو كان على غير الكيل، وقال ابن القاسم: الجواز إن كان على غير الكيل، والمنع إن كان عليه وهو المشهور». وإلى المشهور أشار أبو المودة بقوله: ويجوز جزافان. زاد عبد الباقي الزرقاني[4]: «صفقة واحدة سواء كان أصلها البيع جزافا أو كيلا أو أحدهما كيلا، والآخر جزافا، حب وأرض لأنهما في معنى الجزاف الواحد حيث تناول الرخصة لها»[5]، هـ.

---

1 –الأندر: البيدر أو كدس القمح ج أنادر. انظر: الفيروزأبادي، القاموس: 1/ 618.

2 –أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري المصري، أبو عمرو فقيه ورع، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي بعد موت ابن القاسم، ولد سنة 140 هـ وتوفي بمصر بعد الشافعي بثمانية عشر يوما سنة 204/ 819. ترجم له: الشيرازي، **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، سنة 1970، ص 150؛ مخلوف، **شجرة...**، 1/ 89.

3 –أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري، فقيه ومحدث، تفقه به ابن المواز وابن حبيب وغيرهم، قال ابن الماجشون في حقه: ما أخرجت مصر مثل أصبغ. من تأليفه: كتاب الأصول وتفسير حديث الموطأ وكتاب آداب الصين وكتاب المزارعة وكتاب آداب القضاء وكتاب الرد على أهل الأهواء. ولد بعد سنة 150 هـ وتوفي بمصر سنة 225 هـ، ترجم له: ابن فرحون، **الديباج...**، 158 – 159؛ مخلوف، **شجرة...**، 1/ 99، رقم 102.

4 – عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن محمد بن علوان الزرقاني فقيه من علماء المالكية أخذ عن الأجهوري واللقاني والشبراملسي، ولد بمصر سنة 1020/ 1612، تصدر لتدريس الفقه المالكي بالأزهر إلى أن توفي بالقاهر سنة 1099/ 87 – 1688. له مؤلفات منها: شرح على **المختصر**. ترجم له: القادري، نشر...، 2/ 355؛ محمد المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، طبعة مصر، 1284/ 1867، 2/ 287؛ مخلوف، **شجرة...**، 1/ 441، رقم 1197؛ الحضيكي، **طبقات...**، 2/ 420؛ سركسي، **معجم...**، 2/566؛ الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، سنة[1384/] 1، 1965/ 169.

5 – ينظر: الدردير، الشرح الكبير، 3/ 23.

وهذا كله إذا كان الزرع مدروسا أو في سنبله قتا أو جعل فرشة أو فرشتين أو رد السنبل كلها لصوب واحد، لأنه في هذه الأحوال يحزر ويرى سنبلُهُ ويعرف قدره، فيجوز بيعه جزافا وحده أو مع أرض كما قدرنا، وأما المنفوش والمدروس المخلوط بتبنه، فهذان لا يجوز بيعهما جزافا منفردين، ولا مع غيرهما لفقد الرؤية المشترطة في الجزاف[1]، هذا نقل الجلاب عن المذهب.

ومنها قول **التحفة**: (من الرجز)

وَالخَلْعُ بِالإِنْفَاقِ مَحْدُودُ الأَجَلِ بَعْدَ الرّضَاعِ بِجَوَازِهِ العَمَلُ

هل لقوله محدود الأجل مفهوم؟ فأجبت بأنه لا مفهوم له إذ غايته أنه خلعٌ بما فيه غررٌ وهو جائزعلى المشهور، وهو قول المخزومي، وبه العمل قديما وحديثا وعليه بنى الموثقون وثائقهم، وعليه الكافة وإن كان خلاف مذهب ابن القاسم في **المدونة**، وإن لم تحد بأجل معلوم كان منتهاها البلوغ إذ لا نفقة على الوالد بعد بلوغه، أي الولد صحيحا فأباه قائلا[2] : إعرابهم له حالا والحال قيد في عاملها يعين أن له مفهوما يخالف حكمه حكم المنطوق. فقلت: لا يلزمنا إعرابه حالا لصحة جعله صفة بالجر، وهي قد تكون بيانا للواقع ونحو ذلك، على أن الحال من شرطه أن يكون نكرة، ومحدود الأجل معرفة بالإضافة، ويجاب بأن الإضافة اسم الفاعلين والمفعولين، والصفات المشبهات بها لا تفيد تعريفا بل تخفيفا، فصح إعرابه حالا.

ثم بعد افتراقي معه وقفت على أجوبة قليلة لأبي العباس السملالي، ولعل السائل أخذه منها أو من درسه إذ هو من تلامذته، ثم نسي ذلك بعد أن علق بذهنه، وفيها وقد سئل عن المسألة ما نصه: مفهوم الحال فيه معتبر غير معطل فإنه إن لم يكن محدودا لم يجز بجوازه العمل لكن التحديد يكون تارة بالسنين وتارة *45* ببلوغ الصبى، وتارة بسقوط الفرض عن الأب. ويعتبر

1 – ينظر:محمد الدسوقي، **حاشية الدسوقي على شرح الكبير**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417/1996، 4/ 288-289.

2 –بياض في ح.

في انتهاء كل ما يعتبر المفهوم إلا بعدم حرمان العمل به، فيقتضي أن الخلع بالإنفاق الغير المحدود الأجل باطل لم يجر به العمل، وغايته خلع بما فيه غرر فيصح الخلع ويلزم الإنفاق إلى بلوغ الصبى، فتأمله منصفا.

ومنها قول الخطيب: من يطع الله ورسوله فقد رشد واهتدى، أهو بكسر الشين أو بفتحها؟ فأجبت بصحة الوجهين في **القاموس**: «رشد كنصر وفرح رشدا ورشدا و رشادا اهتدى[1] »[2]، هـ. ويظهر من تقديم الفتح أنه الأولى، والخطباء اليوم فيما رأينا متمالئون على الكسر.

وسئل بمحضري عمن هلك عن زوج وشقيقة وأخ وأخت لأب؟ فأجاب: الفريضة أنصافا بين الأخت الشقيقة والزوج ولا شيء للذين للأب، ثم ناقضه لحينه من نفسه لنفسه، وقال: يعال للأخت للأب بالسدس تكملة للثلثين عملا بظاهر قول أبي المودة، وللثانية مع الأولى السدس، وبقوله: وعصب بلا أخ يساويها، وبقوله إلا أنه إنما يعصب الأخ أخته.

فقلت: الصواب عين ما أجبت به أولا لأن قوله الثانية إلخ، محله مع عدم عاصب في درجتها إذ بذلك تصير ذات فرض وبأنها عاصبة بأخيها، والعاصب يأخذ المال إذا انفرد أو ما بقي بعد الفرض أو يسقط إذا استغرق أهل التركة تركتهم. ومن قواعد أهل الفرائض أن العصاب لا يعال له إلا في ما شذ من المسائل فتحفظ ولا يقاس عليها ولأنا لا نجد ذكرا و أنثى في درجة واحدة يدليان بقرابة واحدة، يفرض للأنثى ويحجب الذكر هذا خُلْف. وبأن النازلة بعينها نزلت بنا بدرعة فقط، فيها بعض طلبتها، فوقع منا الرد عليه بقول **التوضيح**؛ والأخت للأب لا يكون لها مع الأخ للأب السدس، ويقول التلمساني: (من الرجز)

وَهَكَــذَا الأُخْــوَةُ كُلُّهُنَّــهْ إِخْــوَتُــهُــنَّ يُعَصِّبْنَهُنَّــهْ

---

1 - بياض في ح.

2 - القاموس: 1/ 360. والرشد الإستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، والرشيد في صفات الله تعالى الهادي إلى سواء الصراط.

قال شارحه العصنود معناه أن الأنثى ترث بالفرض إذا لم يكن معها ذكر وإلا عصبها، على أن النازلة بعينها في **نوازل** ابن هلال ونصه: «وأما من تركت زوجا وشقيقة وأخا وأختا لأب فالمال بين الزوج والشقيقة *46*أنصافا، ولا شيء للأخ ولا للأخت للأب لأن أخاها عصبها، إذ لا فرض لها معه إذ لم يفضل لهما شيء يرثانه بالتعصيب. ولولا وجود أخيها لعيل لها «هـ. فرجع وثبت على جوابه الأول بعد أن كان حرباوي الجواب فيها. وسئل أيضا بمحضري عن قسمة القاضي هل تسقط شفعة الغائب؟ فأجاب السائل بالسقوط، وقال: سواء تقدم البيع على القسمة أو تأخر.

فقلت: إن تقدم بيع الشخص في غيبة ثم رفع المشتري للحاكم أمره الشركة ضرر، فقسم بينه وبين الغائب بعد ثبوت موجباته، بهذا إذا قدم الغائب وجب له الأخذ بالشفْعة لثبوتها له قبل القسمة، وأما إن صدرت القسمة من الحاكم في غيبة الشريك، ثم باع الحاضر نصيبه، ثم قدم الغائب يروم الأخذ بالشفعة فمسلم في هذه أنه لا شفعة له لأن القسمة وقعت موقعها. وإلى الصورة الأولى أشار أبو المودة بقوله في الشفعة: إما لغيبة شفيعه فقاسم وكيله أو قاض عنه، وإلى الثانية أشار في القسمة بقوله: كقاض عن غائب هكذا أوضحه الشيخ[1] ميارة في حواشيه **التقاط الدرر على المختصر**. والمسألة مبسوطة في **تبصرة** اللخمي[2]، **ونكث عبد الحق على المدونة**، **وطرر** ابن عات[3]، **ومختصر** ابن عرفة و **الأبّي على مسلم** وغيرهم. وأنشدنا صاحب الترجمة لغيره وقت الوداع: (من الطويل)

أَلا إِنَّ هَذَا الدَّهْـــرَ يَـوْمٌ وَلَيْلَـــةٌ   يَكِرَّانِ مِـنْ سَبْتٍ عَلَيْـكَ[4] إِلَى سَبْتٍ

---

1 – ساقطة من خ.

2 – اللخمي:أبو الحسن علي بن محمد الربعي اشتهر باللخمي، فقيه مالكي قيرواني الأصل سكن صفاقص وتوفي بها سنة 478هـ. له تعليق على **المدونة** سماه التبصرة. ترجم له: القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، طبعة وزارة الأوقاف، المغرب، 8/ 109 ؛ ابن فرحون، **الديباج**. . .، 298 ؛ مخلوف، **شجرة**. . .، 1/ 173، رقم 362.

3 – ابن عات هو الشيخ الإمام الحافظ الزاهد أبو عمر أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي، الشاطبي، ولد سنة 542 هـ وتوفي سنة 609 هـ. ترجم له: المحبي، **سير**. . .، 22/ 13–14 ؛ الذهبي، **تذكرة**. . .، رقم 1118، 4/ 1389 ؛ السيوطي، **طبقات**. . .، 1/ 491.

4 – ساقطة من ح وما أثبتناه من خ و م.

فَقُلْ لِلذيذِ[1] العَيْشِ لابُدَّ مِـــنْ بِـــلا وَقُلْ لاجْتِمَاعِ الشَّمْـلِ لا بُدَّ مِنْ شَتِّ

وممن اجتمعنا به الفاضل أبو عبد الله محمد بن يوسف الغنجاوي ، وكان والله محبا خيرا دينا ، ذهب بنا باتجاه بيته ، وأحسن نزُلنا ، وبالغ في إكرامنا ، وتولى بنفسه خدمتنا ، وسأل عن معنى قول الجلال السيوطي أول **تفسيره** في قوله تعالى: «﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[2] والمخادعة هنا من واحد «كعاقبْتُ اللصَّ» وذِكْرُ الله فيها تجنيسٌ وفي بعض النسخ تحسينٌ»[3]. فأجبت بأن ذكر اسم الجلالة بعد ﴿يخادعون﴾ إظهار له في مقام الضمير لتقدمه في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾[4] تسجيلا على الكفار، وذكر الله فيها تحسين للفظ وطلبا للمشاكلة *47* بإجرائه على اللفظ الأول. وهذا جواب ما قيل المشاكلة تكون بين اثنين ، والله تعالى يجل أن يشاركهم في الخداع فما وجه قوله[5] : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ ومعناه على هذا يعملون عمل المخادع[6] من حيث الصورة لا من حيث المعنى ، ويدل له قراءة عاصم وأبي عامر وحمزة والكسائي وما يخدعون على الأصل ، وكان الجلال قصد بقوله: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ﴾[7] إلخ ما قصده الكثير من المفسرين في ردهم على الزمخشري قوله في اسم الجلالة أنه مقحم[8]. وقد أطال الشيخ أبو حيان وابن السمين وغيرهما في الرد عليه في ذلك ، والله أعلم.

---

1 - في **أزهار الرياض** "لجديد".

2 - البقرة: 8.

3 - تفسير الجلالين للإمامين جلال الدين عبد الرحمان السيوطي و جلال الدين محمد أحمد المحلي، دار القرآن الكريم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 2007 م ، 1/ 3.

4 - البقرة : 7.

5 - ساقطة من د.

6 - في د " الخداع ".

7 - الأحزاب: 21.

8 - محمد الزمخشري ، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي ، 1406/ 1986، 6/ 473.

وعبارة السيوطي في تفسيره المسمى: «**قطف الأزهار**» - ولم يكمل- ما نصه: «وذكر الله فيها تشريف وتحسين لجانب المؤمنين»[1].

وأنشدني صاحب الترجمة للزمخشري في شيخه أبي[2] مضر: (من الطويل)

وَقَائِلَةٍ مَا هَذه الـــدّرَرُ التّــي تَسَاقَطُ مِنْ عَيْنَيْكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ[3]
فَقُلْتُ هُوَ الدّرّ الّذي قَدْ حَشَى بِــهِ أبُــو مُضَرٍ أذْني فَسَالَ[4] من العَيْــن

وله كمال اعتناء بحفظ شعر شيخه أبي العباس الهلالي، وهو مع ذلك حسن النغمة والصوت.

فكان مما أنشدني له في شيخه أبي العباس أحمد [الحبيب اللمطي][5]: (مجزوء الرجز)

يَــا وَاحِــدَ الدّنيــا وَيَــا بَحْـرًا طَمَا جُـودًا وَفَــاضْ
إنّــي اعْتَــرَيْــتُ ذرَاكُــمْ[6] صِفْــرَ المـزَادَةِ والوِفَــاضْ
فَكِلَيْهمَــا أَفْــعَــمَ كَمَــا عَنْكُـمْ تَـوَاتَــرَ واسْتَفَـاضْ
مَــنْ زَوَّدَتْــهُ يَــمِينُكُــمْ لا يَشْتَكِـي عِـوَضَ النِّفَـاضْ
أَوْ أَسَلمْتُمُــوهُ إلَــى العُــلاَ مَا أَنْ يعُــودَ إلَـى الخِفَـاضْ
فَجَزَاكُــمْ اللــهُ الرِّضَــى وَحبَاكُــمْ البِـــرَّ المُفَــاضْ
وَتَحِيَّتِــي لِمَقَــامِكُــمْ مَــا طَــافَ عَبْــدٌ أَوْ أَفَــاضْ

فأنشد: ذَراكم بفتح الذال، فقلت: لعله بالضم؛ ولم يحضرني إذ ذاك ولا **القاموس**، ثم راجعته بعد، وفيه «وذروة الشيء بالكسر والضم أعلاه،

---

1 - السيوطي، **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، تحقيق ودراسة أحمد محمد الحمادين، إدارة الشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، 1414/ 1994، 1/ 187.

2 - في د "أبا".

3 - نسبهما كذلك الحميري في **الروض**...، للزمخشري، ص 293.

4 - في **الروض**، "تساقط" ص 293.

5 - ساقط من حوج.

6 - في د "ذرركم" وفي ح "ذكراكم".

وتذريتها علوتها وذريته تذريته مدحته»[1]. والمعنى الذي قصده الشاعر- والله أعلم- أنه اعتراه، أي طلب معروفه، ومدحه صفر المزادة أي الراوية. قال في **القاموس**: «ولا تكون إلا من جلدين تفأم بثالث لتتسع جمع مزاد ومزايد»[2]. والوفاض ككتاب، قال في **القاموس**: «الجلدة توضع تحت الرحى والمكان *48* يمسك الماء»[3]، والوفضة خريطة الراعي لزاده. وأفعم معناه: عمر، ومنه سبيل مفعم أي مملوء. وفي **القاموس**: «فعُم الإناء ككرُم فعامة، وفعومة امتلأ، وأفعم الإناء ملأه، وأفعوعم امتلأ»[4]. وفاض، وعوض بالضم مقطوعا عن الإضافة كقط والنفاض[5] عدم الزاد. في **القاموس**: نفض القوم، ذهب زادهم، وأشال معناه رفع[6]. ومنه قول **القاموس**: أشالت[7] الناقة ذنبها رفعته[8]، وقوله: ما طاف عبد أو أفاض، الأولى أن الإفاضة ها هنا بمعنى الرجوع، ومنه ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[9]، كأنه يقول: وتحيتي لمقامكم ما طاف عبد بالبيت أو أفاض أي رجع من عرفة للمزدلفة ومنها لمِنَى. أو هو من عطف الخاص على العام، و نكتته أن الإفاضة لما كانت ركنا[10] لا تنجبر بدم خصها بالذكر حتى كأن الطواف محصور فيها، ونظيره: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾[11] ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[12]؛ وهذه الأبيات التزم الناظم فيها مالا يلزم، وهي من أعذب شعره، وإنما تعرضت لبعض معانيها

---

1 - **القاموس المحيط**: مادة "ذرت".

2 - م.س: 1/ 365.

3 - ن. م، 1/ 847.

4 - ن. م، 1/ 1478.

5 - في القاموس "النفاد"، 1/ 412.

6 - في م.س "نفد القوم فني زادهم"، 1/ 412.

7 - في ن.م "شالت".

8 - ن.م مادة "شالت".

9 - البقرة :198.

10 - ساقطة من ح ود.

11 - البقرة: 97

12 - الرحمان: 67.

لأني تذاكرتها مع المنشد، وأنشدني للشيخ المذكور أيضا: (من الوافر)

وَقَائلَـةٍ مَتَى اعْـتَرَاكَ مَشِـيبٌ ... وَعِنْدَكَ غُصْنٌ لِلشَّبَابِ رَطِيبُ
فَقُلْـتُ لَهَا رَوْمَ العُـلاَ كَانَ دَيْدَني ... وَرَومُ العُـلاَ قَبْلَ المَشِيبِ يُشِيـبُ
فَـلاَ تُنْكِرِي مَا لاَحَ مِنِّـي فَإنَّمَـا ... يَفْتَحُ نُورُ الغُصْنِ وَهُوَ قَشِـيبُ
عَلَـى أَنَّ شِيـبَ المَرْءِ فِيـهِ وَقَارُهُ ... وَهَلْ مُنْكَرٌ وَصْفِ الوَقَارِ لَبِـيبُ

فقلت: للشعراء في الشيب كلام طويل مدحا وذما.

يحكى أن سندا صاحب **الطراز** ريىء في المنام، فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال: أحضرني بين يديه، وقال للملائكة: اذهبوا به إلى النار، ثم قال ردوه، ثم سأله وهو تعالى أعلم عن قوله في الشيب، فقال: قلت في ذلك: (من الطويل)

وَزَائِـرَةٍ لِلشَّيبِ حَلَّتْ بِعَـارِضِـي[1] ... فَبَادَرْتُهَا[2] بِالنَّتْفِ خَوْفًا مِنَ الحَتْفِ[3]
فَقَالَتْ عَلَى ضَعْفِي اسْتَطَلْتَ وَوَحْدَتِي[4] ... رُوَيْدَكَ لِلجَيْشِ الذِي جاء مِنْ خَلْفِ

فبذلك غفر له، وقال للملائكة: اذهبوا به إلى الجنة.

ومن أحسن ما قيل في الخضاب: (من الخفيف)

مَا خَضَبْتُ المَشِيـبَ كَرْهًا لِشَـيْءٍ ... لاَ وَلا رَغْبَةَ الشَّبِيبَةِ قَصْـدِي
غَيْرَ أَنِّي خَشِيـتُ يُطْلَبُ مِنِّـي ... عَقْلُ شَيْخٍ وَلَيسَ يُوجَـدُ عِنْـدِي

49 وقال الآخر[5]: (من البسيط)

---

1 - في ح "بمفرقي".

2 - في **جريدة القصر** "فعاجلتها".

3 - القائل أبو الحسن بن عبد الله الطرابلسي انظر: العماد الأصفهاني، **خريدة القصر و جريدة العصر**، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، مصر د.ت، 1/ 129.

4 - في ج وخ "استطل ووحدتي".

5 - ساقط من ح.

قَالَتْ أَرَاكَ خَضَبْتَ الشّيبَ قُلْتُ لَهَا سَتَرْتُهُ عَنْكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَـرِي[1]

فَقَهْقَهَتْ ثُمَّ قَالَتْ مِنْ تَعَجُّبِهَا تَكَاثَرَ الغِشّ حَتَى صَارَ فِي الشَّعَـرِ

وأنشد أيضا صاحب الترجمة لشيخه المذكور لما توجه لزيارة الشيخ أبـي يعزى، وقد نزل عن فرسه ومشى راجلا، وقد بقي بينه وبين ضريحه فرسخ[2] فقيل له في ذلك فأنشأ يقول: (من الرجز)

وَقَائِلٌ هَـلا رَكِبْت فَقَـدْ أَتْعَبْتَنَا وَقَـدْ تَـسَنَّى الرَّكْـبُ

فَقُلْتُ مُحْتَـاجٌ إِنَّي سَاعِيًـا مُسْتَنْجِـدًا مَا لَـهُ وَالرّكُـوبُ

يَسْعَى عَلَى الأَقْـدَامِ كَـيْ يَسْتَقِي مِنْ عَذْبِ ذَا البَحْرُ بِأَعْظَـمِ كُوبُ

أَبَا يَعْـزَا القُطْبَ مَـنْ دَأْبُـهُ الجُودُ وَمَا عَنْهُ لَه مِـنْ نُكُـوبُ

إِنْ تَأْتِـهِ فِي دَفْعِ أَمْـرٍ دَهَـا يَلْقَهُ بِالتَّفْرِيـجِ غَيْـرَ هَيُـوبُ

وأنشد له لما اشترى غطاء للشيخ أبي وكيل بمصر وأمر المواشي أن ينقش فيه ففعل: (من البسيط)

يَا نَاظِرًا سَـرِّحْ سُرُوحَ النَّاظِـرِ فِي رَائِـقِ الزَّهْرِ[3] الأَرِيجِ النَّاضِـرِ

فِي حُلَّةٍ قَدْ أَصْبَحَتْ تَزْهُو عَلَـى العُلاَ مِنْ كُـلِّ زَهْـرٍ زَاهِـرِ

قَـدْ أُحْكِمَتْ نَقْشًا وَذَاتًا فَسَمَـتْ عَلَى الـرَّوْضِ المُـجَدَّدِ العَـاطِرِ

لِمَ لاَ وَقَدْ جُعِلَتْ[4] ضَـرِيـحَ مَـنْ حَـازَ المَفَاخِرَ دُونَ كُـلِّ المَفَاخِـرِ[5]

ذَاكَ [الوَلِي أَبُو وَكِيلٍ][6] المُرْتَـضـى المُنْتَـمِـي لِلْهَـاشِمِي الطَّاهِـرِ

صَلَّى اللهُ[7] عَلَيْهِ وَآلِهِ رَبّ العُـلاَ أَزْكَى صَـلاَةٍ مَـعَ سَلاَمٍ وَافِـرِ

---

1 – البيتان في **المستطرف في كل فن مستظرف**، محمد الأبشيهي، طبعة جديدة منقحة بإشراف المكتب العالمي للبحوث، دار مكتبة **الحياة** للطباعة والنشر، 1412/ 1992، 2/ 7.

2 – فرسخ ج فراسخ: مقياس للطول يقدر بثلاثة أميال، **المعجم العربي**، 926.

3 – ساقطة من د.

4 – في د "سترت".

5 – في د " والبحر الزاخر ".

6 – ساقط من ح.

7 – ساقطة من د.

وَاللهُ يَنْفَحُ مَنْ تَوَلَّى صُنْعَهَـــــا وَالْمُشْتَرِي مِنْ جُـــودِهِ الْمُتَكَاثِـــرِ

وأنشد له في مدح شيخ شيوخنا أبي العباس أحمد بن مبارك السجلماسي أصلا الفاسي دارا:

(من البسيط)

قُلْ للَّذي مِنْ نَدَاهُ كُنْتُ أَغْتَـرِفُ وَلا أَزَالُ لَهُ بِالفَضْـلِ أَعْتَـرِفُ
إِنَّ قَضِيَّةَ وُدِّي فِيكَ صَا دِقَـــةٌ مَا سُورُهَا الْمُوجَبُ الكُلِّيّ يَنْحَرِفُ
إِنْ يَنْصَرِفْ عَنْ وِدَادِكُمْ أَخُو مِقَةٍ فَإِنَّ أحمد لَيْسَ عَـوْضُ يَنْصَـرِفُ
لَمْ تَمْتَنِعْ بِتَلِيدِ الْمَجْـدِ تُحْـــرِزُهُ حَتَى ضَمِمْتَ لَهُ مَا أَنْتَ مُطْـرَفُ
لِلَّهِ دَرّكَ يَانَجْلَ الْمُبَارَكِ مِـــنْ بَحْرٍ غَدَا كُلُّ حَبْرٍ مِنْهُ يَغْتَـــرِفُ

وأنشد له يخاطب بعض علمـاء طرابلس[1] في رحلته للحرمين الشريفين لما مر بهم: (من البسيط)

أَخِـي إِنِّي مُسَائِلٌ عَـــنْ غَرِيـبٍ مُعْضِـلٍ فَأَجِبْ بِغَيْـــرِ تَـــوَانِ
50* مَا طَعَامُ يَحْتَاجُ لِلذَّبْحِ قَطْـعًا وَهُــوَ لَيْسَ مِـنْ جُمْلَـةِ الحَيَـوَانِ

فأجابه: (من الخفيف)

هُـــوَ تَمْـرٌ بِأَرْضِ بَلْقَاءَ غَـــرْبٍ دُمْتَ فِـــي رِفْعَـــةٍ وَعِـــزِّ مَكَـانِ
هَــلْ زَكَاة به دَرَاهِـــمِ وَقْـــتٍ أَمْ زَكَـــاةٌ مِـــنْ صِنْفِـــهِ يَا مَانِ

فأجابه: (من الخفيف)

هِيَ مِـنْ صِنْفِهِ لأَجْـلِ جَفَـــافٍ بَعْـــدَ ذَبْحِـــهِ يَـا فَرِيدَ الزَّمَـــانِ

---

1 – طرابلس أو طرابلس الغرب، تمييزا لها عن طرابلس الشام، مدينة من مدن ليبيا، تقع غرب البلاد على ساحل البحر المتوسط، كانت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ملتقى أركاب الحجاج. انظر: عبد المومن البغدادي: **مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع**. الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية 1373 /1954، 1/ 91، 2 / 882؛ الحميري، **الروض**...، 389؛ الوزان، **وصف إفريقيا**: 2/ 97.

فأجابه: (من الخفيف)

إنّ هَذَا الجَـوَابَ أَثْلَجَ صَـــدْرِي   وَهُــوَ فَصْـلٌ مُوَافِــقٌ لِلْعِيَّـان

وأنشد له يخاطب نخلــة وقد رآها غريبة من بين أنواع الأشجار بفاس: (من البسيط)

يَا نَخْلَةُ هَاجَتِ الأَشْجَارُ فِي خَلَدِي   وَغَادَرَتْنِي بِلاَ حَجْـرٍ وَلاَ جَلَـدِ

أَذكَرْتنِي أَخَوَاتُكِ اللَّوَاتِي لَــدَى[1]   رَبْعِ الأَحِبَّةِ فِي بَحْـبُوَحة البَلَــدِ

وأنشـدني أبياتـا للأديب أبي عبد الله محمد بن محسـن البوكيلي في أبي العباسـ السملالي منها قصيدة تنيف على المائة محتوية على حكم ومواعظ قال فيها: (من الرجز)

اقْـتَرَبَ الْوَقْتُ وَغَابَ الهِــلاَلُ   وَاسْوَدَّتِ الدّنْيَا وَجَارَ الضَّـــلاَلُ

وَضَاقَتِ الأَرْضُ عَلَــى رَحْبِـهَا   وانْضَامَ الشَّمْلُ وبَانَ اخْتِـــلاَلُ

وَأَصْبَحَتْ أنْهَارُ أَقْطَـــارِهَــــا   يَابِسَــةً وَمَـا بِهِـــنَّ ابْتِـــلاَلُ[2]

وَالأُفُقُ غَشَــاهُ جَنَاحُ الدُّجَــــى   كَأَنَّمَا الأَيَامُ عُــــدْنَ لَيَــــال

حَتَّــى تَوَهَّمْنَــا لِمَـا نَابَنَــــــا   أَنْ قَامَتِ الـــدّنْيَا وَحَانَ الفِصَـالُ

إلى أن قال:

وَكَيْـفَ لاَ وَقَدْ مَضَــى ذَاهِبــًا   شَيْخُ الشّيُوخ الكَامِلِ ابنُ هِــلال

قَدْ سَــارَ وَهُوَ عَلَــمٌ شَامِـــــخٌ   يَا عَجَبًا كَيْـفَ تَسِــيرُ الجِبَــالُ

وقد وردت علينا بهذا البلد أسئلة كثيرة منوعة، صدرت من مطلق الطلبة وبعض العوام، وها نحن نسردها وأجوبتها تكملة للفائدة:

منها، قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، ما موجب نصب ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وجزم

1 - في د " لذا ".

2 - في ح " التلال ".

3 - المنافقون: 10.

﴿وَأَكُنْ﴾ في قراءة جمهور السبعة؟ فأجبت بأن ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ منصوبا في جواب الرغبة والتمني، ﴿وَأَكُنْ﴾ بالجزم معطوفا على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لأنه على معنى «إن أَخَّرْتَنِي»[1] ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ لأن موضع الفاء مع الفعل جزم، قاله الزمخشري [2] تبعا لأبي علي الفارسي وهو التحقيق.

قال أبو حيان في **البحر** : «وأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فغير هذا، وهو أنه مجزوم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع لهما لأن الشرط ليس بظاهر وإنما يعطف على الموضع، حيث يظهر *51* الشرط كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾[3] من قرأ بالجزم عطف على موضع لأن لو وقع هناك فعل كان مجزوما»[4] هـ.

والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثره، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود.

ومنها، ما المراد بالأبوين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ إلى ﴿ءَامِنِينَ﴾[5]؟ فأجبت بأن للمفسرين فيه قولين: الأول أنه أباه[6] وأمه، وعليه فقيل: كانت أمه باقية حية إلى ذلك الوقت، قاله الحسن وابن إسحاق. وقيل ماتت، إلا أن الله تعالى أحياها ونشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقا لرؤيا يوسف في قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[7]. الثاني أن المراد أبوه وخالته، لأن أمه ماتت بالنفاس بأخيه

1 - في تفسير البحر المحيط "إن تؤخرني"

2 - الزمخشري، **الكشاف**. . .، 4/ 544.

3 - الأعراف: 186.

4- أبو حيان، **تفسير البحر المحيط**، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، و علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: زكرياء عبد المجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422/ 2001، 4/ 431.

5 - يوسف: 99.

6 - في ج وخ "أبيه".

7 - يوسف: 4.

بنيامين، وقيل: بنيامين بالعبرية ابن الوجع، ولما هلكت أمه تزوج والده بخالته فسماها الله تعالى بأحد الأبوين لأن الخالة تسمى أما لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب. ومنه قوله تعالى: ﴿ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[1] زاد أبو حيان[2] في **البحر**[3]. وقيل جدته أو أمه حكاه الزهراوي[4]، واستظهر القول الأول وظاهر القرنامي وأبي السعود تشهير الثاني لتصديرهما به، وحكاية الأول فقيل واقتصر عليه البيضاوي.

ومنها، ما كيفية الجمع بين قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[5]، وما يوافقها من أحاديث الصحيح مع ما وقع في **الصحيح** من رواية الزّهري عن أنس عن أبي ذر: « فرج سقف بيتي وأنا بمكة»[6]، فذكره وما أخرج الوافي بأسانيده أنه أسري به من شعب أبي طالب. وفي حديث أم هانيء عند الطبراني: «أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل فقال: إن جبريل أتاني «[7]، فأجبت بما في ابن حجر: «أنه نام في بيت أم هانيء، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد فكان به مضطجعا وبه أثر نعاس، ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد فأركبه البراق»هـ[8]. وما أجاب به جمع من*52* المفسرين من أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لإحاطته أظْهَرُ، فيكون من مجاز الحدف من باب ﴿وَاسْأَلِ

---

1 - البقرة: 132.

2 - أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي أشهر علماء النحو في عصره، توفي سنة 745 هـ. ترجم له: السيوطي، **بغية**...، 1/ 280.

3 - قال أبو حيان: فلفظ الأب قد يطلق على العم، كما قالوا أبناء يعقوب له: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق سموا إسماعيل أباً مع أنه كان عماً له. انظر: **تفسير البحر**...، 1/ 573 – 574.

4 - ينظر قوله في م.س، 5/ 341.

5 - الإسراء: 1.

6 - **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، باب ذكر ادريس عليه السلام، رقم 3164.

7 - الطبري، **المعجم الكبير**، رقم 1059، 24/ 432.

8 - ابن حجر، فتح...، 7/ 204.

الْقَرْيَةَ﴾[1]، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[2]، ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[3] هذا إن لم يتعدد الإسرآء بالذات، فيحتاج إلى بيان البقعة التي وقّع ذلك فيها وإن قبل بالتعدد فلا إشكال، والله تعالى أعلم.

ومنها، ما معنى الكتابة المضافة إلى الله في حديث البخاري وغيره: «لما قضى الله الخلق كتب، في كتابه، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي»[4]. وعن معناها في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[5]، ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾[6]؟ وعن معنى الوجه في آيات ﴿ثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[7]، ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾[8]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[9]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[10]؟ فأجبت بأن الكتابة المسندة للحق سبحانه وتعالى في القرآن والحديث مستحيل إرادة ظاهرها من الحقيقة، وإنما المراد في الحديث أنه قال: للقلم أكتب في اللوح المحفوظ يجري بما هو كائن كما في حديث عبادة بن الصامت في **البخاري** نفسه، قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون المراد بالكتابة القضاء[11]، فهو كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾[12]»[13].

---

1 – يوسف: 82.

2 – البقرة :92.

3 – طه: 96.

4 – **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، رقم 6986.

5 – المجادلة: 20.

6 – الحشر: 3.

7 – البقرة : 114.

8 – البقرة :271

9 – القصص: 88

10 – الرحمان: 25.

11 – **في فتح الباري** : " ويحتمل أن يكون المراد بالكتابة اللفظ الذي قضاه، كتاب بدء الخلق، رقم 3022، 6/ 291.

12 – المجادلة :21.

13 – ابن حجر، **فتح**...، كتاب بدء الخلق، رقم 3022، 6/ 291.

قلت: ومنه ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي قضاه وقدره في سابق علمه سبحانه، والعندية عنديَّةُ تشريفٍ، والوجه في كلام العرب له معان، منها: الرضى ومنه: ﴿ثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي رضاه، وقيل معناه في الآية الأولى الجهة التي وجهنا إليها. ومنها الذات، ومنه ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وذكر الوجه جريا على ما يفهمه المخاطبون من أن الأشرف في الذات هو الوجه. قال في **الفتح** في «باب قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ في هذه الآية. والحديث يعني أعوذ بوجهك، دليل على أن لله وجها وهو من صفات ذاته وليس بجارحة، ولا كالوجه التي نشاهدها من المخلوقات كما نقول أنه عالم ولا نقول أنه كالعلماء الذين نشاهدهم»[1]. ثم نقل والحمد لله على الموافقة جميع ما ذكرنا ثم نقل عن الراغب من إطلاق الوجه على الذات قولهم: كرم الله وجهه. قال: «وقيل أن لفظ الوجه صفة والمعنى*53* ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وكذا ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾. وقيل المراد بالوجه القصد أي ويبقى ما أريد له وجهه»[2]. ثم نقل «عن الكرماني من معانيه: الوجود، أو الوجه الذي لا كالوجوه أو التفويض، وقال البيهقي: تكرر ذكر الوجه في القرآن والسنة الصحيحة، وهو في بعضها صفة ذات كقوله: إلا رداء الكبرياء على وجهه، وهو في **صحيح البخاري** عن أبي موسى، وفي بعضها بمعنى من أجل كقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[3]، وفي بعضها بمعنى الرضى يريدون وجهه: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾[4]، وليس المراد الجارحة جزما»هـ[5]. هذا مذهب الخلف ومذهب السلف التفويض، وهي قاعدة في كل متشابه من رواية أو حديث الخلف يؤولون، والسلف يفوضون، ويردون العلم إلى الله تعالى.

---

1 - **فتح الباري**، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ رقم 6970، 13/ 388 - 389.

2 - م س، رقم 6971، 13/ 388 - 389.

3 - الإنسان: 9.

4 - الليل: 20.

5 - **فتح الباري** كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ رقم 6971، 1/ 388 - 389.

ومنها، ما المراد بيوسف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] ؟ ومن فرعون المذكور معه؟ فأجبت بأن للمفسرين في ذلك خلافا، فقيل: يوسف بن يعقوب وفرعونه هو فرعون موسى، واستظهره أبو حيان في **البحر** قال: «وروى أشهب عن مالك أن فرعون عمَّر أربعمائة سنة وأربعين سنة. وقيل المراد يوسف بن إبراهيم، يوسف[2] بن يعقوب، وأن فرعونه غير فرعون موسى»[3].

ومنها، ما إعراب: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[4] في قراءة نافع وغيره؟ فأجبت بأن ﴿ذِكْرُ﴾ خبر مبتدأ مضمر أن هذا ﴿ذِكْرُ﴾ أو مبتدأ وخبره محذوف فيما يتلى عليكم ﴿ذِكْرُ﴾ وقيل ﴿ذِكْرُ﴾ خبر لقوله: ﴿كهيعص﴾[5] وهو مبتدأ، قاله الفراء[6]، واستبعده أبو حيان في **البحر** بأن الخبر هو المبتدأ في المعنى وليس في الحروف المقطعة ذكر الرحمة، ولا في ذكر الرحمة معناها[7]. وقال أبو البقاء: ﴿ذِكْرُ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول والتقدير هذا أن ذكر ربك رحمته عبده، وقيل هو مضاف إلى العبد على طريق[8] الاتساع والمعنى هذا أن ذكر رحمة ربك فعلى الأول ينصب عبده برحمة، وعلى الثاني بذكرهـ. وزكرياء بدل من عبده، أو عطف بيان.

ومنها، ما معنى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[9] ؟ وما إعرابها؟ فأجبت بأن ظاهر ما ينبغي إطلاع

---

1 - غافر: 34.

2 - ساقطة من ج وح وخ ود والزيادة من **تفسير البحر**.

3 - أبو حيان، **تفسير البحر**، 7/ 445..

4 - مريم : 1.

5 - مريم :1.

6- في د" العبراني "وهو تصحيف.

7 - أبو حيان، **تفسير البحر**، وفيه : «﴿ذِكْرُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا المتلو من هذا القرآن ﴿ذِكْرُ﴾. وقيل ﴿ذِكْرُ﴾ خبر لقوله ﴿كهيعص﴾وهو مبتدأ ذكره الفرّاء. قيل : وفيه بُعد لأن الخبر هو المبتدأ في المعنى وليس في الحروف المقطعة ذكر الرحمة، ولا في ذكر الرحمة معناها». 6/ 163.

8 - ساقطة من ح .

9 - النمل: 67.

المخلوق على الغيب وبه استوت غايته كما في الصحيح من قولها: «من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد أعظم على الله *54* الفرية»[1]، ولا شك أن هذا الظاهر غير مراد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2]. وكما في الصحيح «لا أعلم إلا ما علمني ربي»[3]، وعليهما فالمعنى في آية النحل: ﴿لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾[4] إن أحب الاطلاع عليه إلا أن أطلعه الله[5] عليه حقيقة كما يقع للرسول والملك ووارثهما من الأولياء، أو ظنا كما يقع للساحر والمنجم والكاهن، هذا إن أريد بالغيب في الآية غير[6] قيام الساعة، وإن أريد به فيها وقت[7] قيام الساعة [بدليل: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[8] فلا إشكال لأن علم الساعة][9] انفرد به الحق سبحانه لقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾[10]، ولحديث الصحيحين: «خمس لا يعلمهن إلا اللهثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾الآية[11] «[12]. هذا إن بينا على أن مفاتيح الغيب لم يعلمها أحد وإن بينا على أنه ﷺ يمت حتى أعلمه الله تعالى إياها. وأما الإعراب فالتحقيق أن: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ يراد به كل موجود ليكون الإستثناء متصلا، ويصح إذ ذاك في اسم الجلالة الرفع على البدلية أو

---

1 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب في ذكر سدرة المنتهى رقم177، 1/ 159.

2 - الجن: 26 - 27.

3 - لم أقف عليه.

4 - النحل: 67. ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

5 - ساقطة من ج.

6 - ساقط من د.

7 - ساقط من د.

8 - النحل: 67.

9 - ساقط من ح.

10 - الأحزاب: 63.

11 - لقمان: 33.

12 - صحيح البخاري، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم 50، 1/ 27؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم 10، 1/ 40.

يدل﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ في حق الله تعالى كما يؤول قوله ﴿أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[1] وحديث السوداء، وشبه ذلك؛ وجعل اسم الجلالة مرفوعا بدلا ممن، إنما يأتي على مذهب بني تميم، والقرآن نزل بلغة أهل الحجاز.

ومنها، ما وجه استدلال المالكية على لزوم العبادة من صلاة ونحوها بالشروع من آية القتال، وهي قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم[2]﴾[3] فأجبت بأن استدلالهم فيها ضعيف جدا، بل لا وجه له صحيح، والتحقيق أن المعنى لا تبطلوا أعمالكم بالكفر بعد الإيمان، لقوله قبل في الكفار والمنافقين ويحبط أعمالهم[4]، فكأنه يقول يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا أعمالكم مثل هؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم بكفرهم وصدهم غيرهم عن سبيل الله تعالى، ومناقشتهم الرسول كما في ابن عطية وغيره.

ومنها، ما المراد بالمعية في آية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[5] في نظيراتها من الآيات والأحاديث أبالعلم أم بالذات؟ فأجبت بأن المسألة طويلة الذيل مفروغ منها *55*، فمن مصيب ومن مخطأ، فإن أولناها بالعلم لزم إفراقه عن الذات ولا يعقل، أو بالذات لزم عليه المحدور من الحلول، فالأول التفويض جريا على شريعة السلف، فهي أسلم وأقل خطأ[6]، وإن كان لا بد من التأويل فتأول بأنه معنى بالذات على كيفية تليق به سبحانه، كما لشيخ شيوخنا أبي العباس بن مبارك السجلماسي في إزالة اللبس عن المسائل الخمس، وفي المذهب والإبريز له أيضا. وأما قول ابن عطية ومن تبعه كابن جزي: أجمع العلماء على تأويل الآية بالعلم، ففيه مجال للنظر بل لا يسلم الإجماع، ولله ذر القائل في قوله: أعط المعية حقها، والزم لها حسن الأدب، واعلم بأنك

---

1 – الملك: 17.

2 – في ح ود "أعمالكم" وهو تصحيف.

3 – البقرة :263.

4 – إشار للآية 17 من سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

5 – الحديد: 4.

6 – ساقطة من د.

عبده في كل حال وهو رب الحال، المحل ضيق والبضاعة مزجاة[1]، وإنما يسأل عن هذا وشبهه أهله ولسنا منهم.

ومنها، ما المراد: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾[2] في قضية موسى والخضر عليهما السلام؟ فأجبت بأن المراد به مجمع بحر فارس وبحر الروم بالمشرق، والقول بأن مجمعهما عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والخارج منه، وهو بحر الأندلس غير ظاهر، بل لا يصح، وإن صدر به ابن جزي كأنه المعتمد، إذ ما دخل نبي الأندلس، بل ولا إفريقية على الصحيح. ويأتي الكلام على خالد بن سنان دفين الزاب[3] من بلاد الجريد في محله إن شاء الله.

ومنها، لفظ الملأ هل يطلق على الواحد ؟ فأجبت بأن له معان منها الجماعة: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[4].

ومنها، الأشراف وذوي الرأي ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾[5]، ولا يعد إطلاقه على الواحد الذي جمعت فيه خصال الخير كإطلاق الأمة على الواحد: ﴿إِنَّ إِبراهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[6]، والطائفة عليه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[7] إذ لا يصدق باقتتال الاثنين.

ومنها، من سدل يديه في الركوع بأن لم يقرب راحتيه فيه من ركبتيه، وإنما وقع منه مجرد الإنحناء هل تبطل الصلاة؟ فأجبت بأن في المسألة قولين: والمعتمد كما لابن يونس وأبي الحسن والبرزلي وغيرهم الصحة.

---

1 – في د " مجزاة".

2 – الكهف: 59.

3 – الزاب : من عمل افريقية في سمت بلاد الجريد من مدنها المسيلة وبسكرة وتهودة وبين الزاب والقيروان عشر مراحل. انظر: الحميري، **الروض**...، 281 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، 3/ 124 ؛ مجهول، **الاستبصار**...، 171.

4 – القصص: 19.

5 – الأعراف: 59.

6 – النحل: 120.

7 – الحجرات: 9.

وقال الزغمي بالبطلان، و قول **المتن**[1] : «وركوع تَقْرُبُ راحتاه[2] فيه من ركبتيه»[3]، صفة كمال لا وجوب، والله أعلم. يدل له قول **المتن** بعذر: «وَضْعُ يَدَيْه*56* عَلَى رُكْبَتَيهِ بِرُكُوعِهِ»[4]. قال الزرقاني أخذا من كلام الحطاب، والله الموفق.

ومنها، رجل يأتي من بلدة يصلي بأهل بلدة أخرى إماما للجمعة هل تصح جمعتهم؟ فأجبت بالتفصيل، فإن كان داخل الفرسخ «فقال: [يوسف][5] بن عمر في **شرح الرسالة** في أهل قرية توفرت فيهم شروط الجمعة إلا من يحسن الخطبة فيأتي من يصلي بهم خارج القرية وداخل ستة أميال، إن الفقيه أبا إبراهيم يمنعه، وجرت الفتيا في زمننا بجوازه»[6] هـ، وإن كان خارج ماذكر فحكمه كالمسافر على ما أفتى ابن علاق وابن عمر[7] وغيرهما، وهو المشهور، وإن بنينا على قول أشهب وسحنون القائلين بأنه لا يشترط في الإمام أن يكون مقيما لأنه إذا حضرها وجبت عليه وصار من أهلها، صحت جمعتهم أيضا سيما إذا كان الإمام من أهل الفضل والدين، وقد صدر ذلك من شيخنا أبي الحسن علي بن ناصر[8]، هو بمن يقتدى به في العلم والصلاح، فقد خرجنا صحبته لزيارة صالحي ترناتة[9] بواد درعة، فلما زرنا أبا الحسن علي بن يوسف التسركاتي، وكان اليوم يوم جمعة ووجبت الصلاة، وبيننا وبين

---

1 – المقصود به : **مختصر الشيخ خليل**.

2 – في ح "راحته" و د "واحاتاه" والتصحيح من **مختصر خليل**.

3 – خليل، **مختصر**...، 28.

4 – م. س: 29.

5 – ساقطة من ح ود .

6 – ينظر القول عند الحطاب، **مواهب**...، باب فائدة لم سميت الجمعة الجمعة، 5/195.

7 – في د "ابن عمر وابن علاق".

8 – هو أبو الحسن علي بن يوسف بن محمد الكبير بن مَحمد بناصر، ولد سنة 1145/ 1733، تولى أمر الزاوية الناصري بعد وفاة والده . توفي سنة 1235/ 1819. ترجم له الناصري، **طلعة**...، 2/ 132 و145 و153 ؛ عمالك، **جوانب**...، 1/ 145 – 148.

9 – ترناتة : واحة من واحات درعة الست، و تمتد من فم أزلاك إلى جبل زاكورة تمتد على مساحة 30 كلم عرض 250 – 5700 م.

مقرنا مسيرة يوم، طلب أهل تسركات[1] منه الصلاة إماما بهم تبركا، فأجابهم رحمه الله تعالى.

ومنها، هل يصلى على فراش الضيف من غير سؤال أهله عن طهارته؟ فأجبت بحمله على الطهارة، وهي الأصل سيما إن كان الآتي به يصلي ويحترز للدين، وإلا فإن كان لا مبالاة له كأهل البوادي، وبعض أهل الحاضرة لا سيما القطائف تقع فيها النجاسات، وهي معدة للنوم مع الزوجات ولم يعهد غسلها، فتحمل على النجاسة ويبسط عليها ثوب طاهر، وأصل المسألة في **النوادر**، ونقلها الحطاب.

ومنها، ما يفعله المقيمون من بعث[2] الرسائل مع الحجاج للنبي ﷺ، تلقى بالحجرة النبوية، وفيها السلام عليه وسؤال حاجة أو شكاية، ونحو ذلك، هل ذلك جائز أم لا؟ وهل لهم في ذلك سند؟ فأجبت بجريان العمل به قديما وحديثا، ففي **شرح المفيدة** لمؤلفه الفقيه أبي عبد الله محمد بن عمر السجلماسي شارح **القاصمية** ما نصه: قال بعض الأئمة في رقعة أرسل بها إليه صلى الله عليه وسلم: *57* (من الوافر)

إِلَيْكَ أَفِرّ مِنْ زَلَلِي وَذَنْبِي ... فَأَنْتَ إِذَا لَقَيْتُ اللهَ حَسْبِي

وَزَوْرَةُ قَبْرِكَ المَحْجُوجُ[3] ... مُنَايَ وَبُغْيَتِي إِنْ شَاءَ رَبِّي

فَإِنْ أُحْرَمْ زِيَارَتَهُ بِجِسْمِي[4] ... فَلَمْ أُحْرَمْ زِيَارَتَهُ بِقَلْبِي

إِلَيْكَ غَدَتْ رَسُولَ اللهِ مِنِّي ... تَحِيَّةَ مُؤْمِنٍ وَهَوًى لِحُبِّي. هـ

قلت: وإذا كانت الرسائل على نحو هذا فلا بأس بها، وأما اليوم فقد يكتبها من لا يحسن الأدب بل ومن لا يعرف المرفوع من المنصوب، على أنهم يطلبون فيها الدنيا، و[هم]عن طلب الآخرة وما كان لها غافلون[5]، فينبغي

1 – تسركات: قصر من قصور وادي درعة بواحة ترناتة يبعد عن مركز زاكورة 7 كلمترات وعن تامكروت 27 كلم.

2 – في د "بعد"

3 – في د "الحجاج قدما".

4 – بياض في د.

5 – ساقطة من د.

ترك ذلك وتبليغ السلام وطلبك كفاية هموم الدارين، والشكاية[1] على لسان الغير أولى، فعارضني السائل بأن خلفاءه ﷺ كاتبوا في حياته ولم يعده أحد سوء أدب، فأجبته بأن أولئك فصحاء بلغاء يحسنون الأدب، مع ما دعت إليه ضرورة الكتب كإخبار بمصالح[2] الأمة ونحوها. والأنبياء أحياء في قبورهم، فالتبليغ باللسان أولى من طرح الرسائل بالروضة الشريفة، وقد شاهدنا سدنتها يجمعون ما ألقي بها من الرسائل ويخرجونها، ولولا ذلك لكانت الحجرة تعجز عن حملها لكثرتها، ثم لا أدري ما يفعلون بها بعد. فإن كان المآل الحرق أم[3] التمزيق فالأولى الترك، والله أعلم.

ومنها، ما الحكم في إخوة تركهم والدهم على مائدة واحدة، يدعي أحدهم بعد المفاصلة أو قبلها أنه اشترى لنفسه ويظهر رسوما بذلك؟ فأجبت بأن المسألة ذات فتاوى متناقضة للمتأخرين، والذي به الفتوى ما في **المعيار** عن الفقيه راشد سيدي يحيى السراج و التازغدري والمقري وغيرهم[4]، ونحوه للشيخ عبد الباقي الزرقاني عن ابن وهبان أن القول قوله في شراء الأملاك لنفسه بماله الخاص به، إن ثبت كونه له قبل الشراء، غير أنه يحلف أنه لم يدفع في ذلك من المال المشترك شيئا، وإذا لم يكن لهم من المال إلا ماهما مشتركان فيه فلا اختصاص لأحدهما بشيء، فجميع مشتريه بينهم على حسب شركتهما، ويدخل في ذلك الصبي المميز، إن وقع منه ما يدل على الرضى بالشركة من قول وفعل، إلا أنه يخير بعد رشده في إمضاء الشركة، أو أخذ حظه من المال الذي وقع به الشراء*58*. وأما من لا يميز أصلا، ففي **نوازل الشفشاوني** عن سيدي أحمد بن عبد الوهاب الظاهر أنه لا حق له لمشتر[5]، وإنما له واجبه أصلا دفع من الثمن إذ لم يقع منه إذن في تحريك واجبه من

1 – ساقطة من د.

2 – في د " من مصالح ".

3 – في د "و".

4 – أحمد الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب** عن فتاوى أهل افريقيا والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي و أحمد الشرقاوي و إقبال ومحمد العرائشي، نشر وزارة الأوقاف المغربية، طبعة دار الغرب الإسلامي، سنة 1401 /1981، 6/ 361 – 363.

5 – في د "مشتري".

المال بوجه ولا بحال، اللهم إلا أن يكون المشتري أدخله معه في شرائه فإنه يخير في قبول ذلك أو أخذ واجبه من الثمن.

ومنها، من أوصى بتنزيل بعض بني بنيه منزلة ابنه ولم يمت حتى أوصى بثلث متخلفه لجميع بني بنيه، هل يعد الموصى راجعا بالثانية عن الأولى أو لا؟ وعليه فهل يكون للموصى له أولا ما أوصى له به ويزيد ما ينوبه مع إخوته وبني عمه من الأعقاب، أو إنما يكون له الأكثر مما أوصى له به أولا، ومن ما ينوب مع الأعقاب؟ فأجبت بأن المنزل لو لم يكن إلا هو لأخذ وصيته، وهو أنه يقدر زائدا، فلو كان من أبناء الصلب ثلاثة أخذ هو الربع مثلا أو أربعة أخذ الخمس وهكذا عملا بقول خليل: «لا أجعلوهُ وارثاً، أو ألحقوهُ بِهِ فَزَائِدٌ»[1]، إذ لا فرق بين ما ذكره المصنف وبين الإنزال. وصرح به الأجهوريون وأبو علي بن رحال[2] وأحال فيها على اللخمي، بل نقل نصه وحكى عليها الاتفاق، وأنه يقدر زائدا أو نحوه في ابن عرفة وحيث أوصى بعد ذلك بجميع الثلث لسائر العقب وهو منهم فإن قامت قرينة على الرجوع كما إذا قيل له: أعطيت البعض تركت البعض. وفي الحديث: «اتقوا الله، اعدلوا بين أولادكم»[3]، ونحو ذلك من القرائن فلا شك أنه يعد راجعا عن الأولى فتبطل، ويأخذ ما نابه بين أولاد الأولاد، وإن لم تقم قرينة على ذلك فالوصيتان صحيحتان. ويبقى النظر هل يأخذ بالتنزيل وبما بعده من الوصية بالثلث وإنما له ولأكثر منها لا غير. ففي **التهذيب**: «ومن أوصى بشيء بعينه من دار أو عبد أو ثوب أو دابة لرجل ثم أوصى به لرجل آخر، فهو بينهما، وكذلك لو أوصى لرجل بثلث، ثم أوصى لرجل آخر بجميع ماله لم يعد رجوعا، وكان الثلث بينهما على

1 - خليل، **مختصر**...، 227.

2 - أبو علي الحسن بن رحال فقيه مالكي من مؤلفاته: **اختصار شرح الشيخ الأجهوري على مختصر خليل ويتيمة العقدين في منافع البدين والإرفاق في مسائل الاستحقاق وغير ذلك**. توفي سنة 1140 /1727. ترجم له: عبد السلام بن سودة، **دليل** مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1960م، 1/ 189 - 190؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 482 - 483؛ الأخضر، **الحياة**...، 205 - 207؛ القادري، **نشر**...، 3/294 - 295.

3 - **صحيح البخاري** كتاب الهبة وفضلها، باب الإشهاد في الهبة رقم 2447، 2/ 914.

أربعة أسهم[1] »[2]، ولو قال العبد الذي أوصيت به لزيد هو وصية لعمرو فذلك رجوع، وقد قال الرجراجي في **المنهاج**: «وأما إن أوصى بذلك لشخصين مثل أن يوصي بثلث ماله *59* لزيد وبشيء بعينه ثم أوصى به لعمرو، فإن كان في الثانية دليل على نقض الأولى، مثل أن يقول العبد الذي أوصيت به لزيد هو لعمرو بلا خلاف إلا اشتركا فيه» هـ. ونحوه لابن الحاجب[3] وخليل قائلا: «كما يوصي به لزيد ثم به لعمرو»[4]، ابن المواز كان ذلك في كتاب أو كتابين إلا أن يقوم دليل على رجوعه.

قال أبو علي بن رحال: ولا فرق بين أن يكون الموصى به أولا هو الموصى به آخره، أو يكون الثاني شاملا للأول، كقوله أعطوا لزيد ثلث مالي، ثم قال: أعطوا لعمرو جميع مالي، لأن جميع المال فيه الثلث وزيادة، ولا فرق في الشركة بين أن تكون على السواء أولا، وإذا ثبت هذا بقول المصنف كما يوصى به لزيد ثم به لعمرو شيء أنكر النكرات، فيدخل في ذلك الإيصاء لمعينا[؟] ويحدف كثلث ويدخل المنافع.

فتحصل أن الثانية مع القرينة في النازلة رجوع، وإلا فلا، وأما المنزل فلا يأخذ إلا الأكثر مما ينوبه في التنزيل أو في الثلث، إذ هو الذي يقع منه إخراج الجميع إن لم يجز الورثة كما يقول **المتن**: «وإن أوصى بوصية بعد أخرى. فالوصيتان كَنَوْعَيْنِ، ودراهِمَ، وسبائك، وذهب، وفضةٍ، وإلا فأكثرهما، وإن تقدمَ»[5]، فالشاهد للنازلة هو قوله، »وإلا ً فأكثرهما». وأبين من قول ابن الحاجب: ولو أوصى لواحد بوصية بعد آخري من صنف واحد، وإحداهما أكثر فأكثر الوصيتين، قال في **التوضيح**: وذكر الباجي في

---

1 – في د "أقسام"..

2 – تهذيب **المدونة** رقم 3794، 2/ 397.

3 – عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الرويني، أبو عمرو المعروف بابن الحاجب المالكي المصري، فقيه مالكي، برع في العربية والقراءات، صاحب **المختصر الفرعي والمختصر الأصلي** وغيرهما ولد سنة 570 هـ. توفي سنة 646 هـ. ترحم له : ابن فرحون، **الديباج**...، 289؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 241، رقم 561 ؛ السيوطي، **بغية**...، 2/ 134

4 – خليل، **مختصر**...، وفيه " كإيصائه بشيء لزيد ثم لعمرو "، ص 225.

5 – م. س.

المتساويتين قولين، أحدهما أن له الوصيتين، الثاني له أحدهما، وبطل الآخر أو الثاني هو المشهور، ونسب الباجي الأول لذلك وأصحابه، وانتقد عليه ابن زرقون[1]. قال أبوعلي بن رحال: والحق مع ابن زرقون، وتبعه ابن عرفة والتوضيح، وعليه اقتصرالمصنف وصاحب الكافي و المعونة وابن فتوح في الوثائق المجموعة ونصه: وإذا أوصى لرجل بعدة دنانير ثم أوصى له في ذلك الوصية بعينها بعدة دنانير فإنه يؤخذ له بالأكثر، فإن اعتدلتا أخذت الواحدة وبطلت الأخرى، هـ. قال أبو علي: وأطلق المصري ليشمل ما إذا كان الإيصاء المذكور بغير كتاب أو بكتاب واحد وبكتابين أهو كذلك*60* ودخل في هذا الإيصاء له بثلث ماله ثم بثلثي ماله أيضا وعكسه لأنهما لا يختلفان إلا بالعدد، وفي كلام الباجي: إلا ثلاث كالدنانير التعرف بعينها، ومثله في كلام الرجراجي في **المنهاج**، والله ربنا أعلم.

ومنها، دعوى الضمان هل توجب يمينا ؟ فأجبت بما حضرني في الوقت من أنها دعوى تبرع، وهي لا توجب يمينا عملا بقول **التحفة**: (من الرجز)

وَلِلْيَمِـــينِ أَيُّمَـــا أَعْمَـــالْ   فِيمَا يَكُونُ مِـنْ دَعَاوَى المَـــالِ
إِلاَّ بِـمَـا عُدَّ مِـــنَ التَّبَـــرُعِ   مَا لَمْ يَكُنْ بِـهِ الحَالُ عِنْدَ المُدَّعِي

وبأنه يشكل عليه ما به الشيخ ميارة على التحفة من قوله: إنما يعني الكفلة بالمال دعوى بمال محضر، فيقتضي توجه اليمين للقاعدة المقررة في المذهب أن اليمين تتوجه بمجرد الدعوى في المال، أو ما يؤول إليه. ثم وجدت النازلة بعينها في باب الضمان عن ابن سلمون ونصها: من ادعى على رجل أنه تحمل له بدين عن آخر وأنكر المدعى عليه، فإن كان ادعى أنه تحمل ذلك في أصل الصفقة فله أن يحلفه، وإن لم يدع أنه تحمل له في أصل الصفقة فإنه من باب دعوى المعروف، وفيه اختلاف. ورأيت لبعض الشيوخ أن اليمين لا تعلن، إلا أن يثبت أصل الدين أو يقر به الحميل هـ.

---

1 – محمد بن سعيد الأنصاري أبو عبد الله، يعرف بابن زرقون الإشبيلي، كان فقيها وحافظا، تولى القضاء فحمدت سيرته وعرفت نزاهته، من تأليفه: الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار. ولد سنة 503 هـ، وتوفي سنة 586 /1190. ترجم له: مخلوف، **شجرة**. . .، 1/ 228 – 229 رقم 522؛ ابن فرحون، **الديباج**. . . .، 379 – 380.

وفي ابن عرفة، قيل التفويض من النكاح ما نصه : أصل المذهب في **المدونة** وغيرها توجه دعوى المعروف، ثم قال بعده المشهور توجه اليمين في نفي دعوى المعروف، هـ. وظاهر قول **المتن**، أواخر الضمان لا اختلافا أن القول للحميل، زاد الزرقاني بيمين. ابن يونس، لأن الطالب يدعي اشتغال ذمته فعليه البيان ولأن الحال معروف ولا يلزم من المعروف إلا ما أقر به معطيه فتحصل الخلاف في توجه اليمين في دعوى المعروف وأن المشهور توجهها. وما في **التحفة** وابن سلمون مقابل، ولعله جرى به عمل فاعتمد لديهم، وأن الكفالة المتطوع بها بعد العقد هي التي من باب المعروف. وأما المشترطة في صلبه فهي محض مال، وعليها يحمل كلام الشيخ ميارة، فيبقى النظر في دعوى رب الدين على المدين أنه باعه بضامن وبه دعوى المدين على غيره أنه ضمنه لرب الدين، فالأولى يظهر فيها *61*المعارضة، فتتوجه اليمين بخلاف الثانية؛ ففي أبي الحسن على **المدونة** عن أبي يوسف ما نصه: الكفالة هبة للذي عليه الدين الناشيء من أصل معارضة الذي له الدين، والله ربنا أعلم.

وفي **المختصر**: «وفي قدره، كَمَثْمُونِهِ أو قدر أجلٍ، أو رهن، أو حَمِيلٍ: حَلَفَا وفُسِخَ»[1]، يعني ما لم تفت السلعة وإلا مضى البيع بالثمن الذي وقع به البيع، ويحلف المدين أنه ما اشتراه بضامن فإن نكره لزمه، وكذا يلزمه الضامن إذا اشترى بغيره ثم حدث موجب طلبه من دين ونحوه حسبما تقرر ذلك في المذهب. والذي ينبغي أن يؤذن الله به هذا الزمان هو ما قاله ابن سلمون ونصه : وقد رأى اليمين بمجرد الدعوى جماعة من العلماء، وقال به بعض المالكية، وبه كان يفتي ابن لبابة، وبه جرت الأحكام عندنا قديما، وبه أدركنا من درج من القضاة يقضون، ومن سلف من فقهائنا، يعني وبه أفتى من استفتاني إلا أنه قد يلوح للحكم في النازلة وجه أحق بما يتضح عنده من دلائل وأحكامه وأسبابه، وبراءة المطلوب خبرة في النازلة

1 - خليل، **مختصر**. . .، 147.

وبعده عن المطلوب الذي طلب به تقدر[1] الشبهة والخلطة، فإذا كان ذلك[2] يعمل بحقه في إسقاط اليمين من غير هدى يكون له فيه أوجب يعلمه الله تعالى فلا حرج عليه، وأما ماجرى به الحكم وقياس القضاء فعلى ما ذكرته.

ومنها، من ادعى على غيره بدعوى فأنكره، ثم تصالحا على شيء أخذه منه، ثم طلب المدعى عليه من المدعي براءة عامة فأبرأه، ثم صدر منه إقرار بالحق المدعى فيه وأنه جحده إياه ظلما وعدوانا، فهل للطالب نقض الصلح من غير أن يمنعه من ذلك الإبراء الحاصل بعده؟ فأجبت بأن له نقضه، ولا يضره الإبراء الصادر منه بعده لأنه مغلوب عليه، ففي **المتن**: «فلو أقر بعده فله نقضه»[3]. وقال الشيخ عبد الباقي: «وظاهره ولو وقع الصلح بعد إبراء[4] عام. وعليه الناصر وشيخه برهان الدين اللقانيان فيقيد قوله الآتي: وإن أبرأ فلانا مما له قبله إلخ، إذا أبرأه من جميع الحق، وأما إن أبرأه مع الصلح على شيء ثم ظهر خلافه فلا يبرأ أي لأنه البراء على دوام صفة الصلح لا إبراء مطلق، فلما لم يتم وجعل الشرع له نقضه لم ينفعه إبراؤه، وبهذا سقط ما عسى يقال إذا أبراه من جميعه صح وبرئ فأولى من بعده. وجوابه: فاعلم من أنه أبرأه من بعضه معلق على نجاح[5] الصلح، وقال الشيخ أحمد*62*: ظاهر قوله فلو أقر بعده سواء ببراءة أم لا، والذي ينبغي أن يقال إن وقع الصلح بشرط البراءة فلا عبرة بها أي البراءة لأنها كالصلح، وإن وقع لا بشرط البراءة ثم وقعت فهي معتبرة وليس له كلام بعدها انتهى كلام الشيخ عبد الباقي.

قلت: لأن سلم الشق الثاني في كلام أحمد لأن الصلح وإن وقع بغير شرط البراءة فضمير المدعى عليه منطو عليها وقت الصلح، إذ لا معنى لطلبها بعده إلا ما تخيله وقته لأن الصلح وحده كاف في رد دعوى الطالب، فما

---

1 – في د "مع عن ذر".

2 – في ح "كذلك".

3 خليل، **مختصر**...، 158.

4 – في د "الإبراء"..

5 – في د "تمام".

طلب المطلوب البراءة بعد الصلح إلا لتخيله أنه سيقر يوما ما أو تظهر عليه مخائل الكذب، أو تقوم عليه بينة أو نحو ذلك، فاحتاط لرفع ذلك بالإبراء، فالواجب معاملته بنقيض قصده، فيغرم جميع ما أقر به.

ومنها، هل تعطى النسخة من أحكام قضاة الوقت للأعذار؟ فأجبت باضطراب فتاوي شيوخنا في ذلك، والذي للشيخ عبد الصادق الدكالي في **شرحه**: عدم الإعطاء، محتجا على ذلك بأدلة لا تقوم على ساق، والذي كاتبنا به شيخنا الإمام التاودي[1]، وشيخنا الإمام البناني الفاسيان الإعطاء مستدلين بكلام ابن رشد في أجوبته ونحوه في **المعيار** عن القوري[2] وغيره؛ ولأن المراد بالحاصل في كلام الأئمة هو المقلد، وبالعالم المجتهد فتنصلح أحكام الأول دون الثاني أخذا من كلام القزويني وابن عرفة وصاحب **المعيار** والأبِّي وابن مرزوق والسنوسي وغيرهم.

وقلت: ما استدلوا به من جواب ابن رشد لعياض من قوله لهم: قد نسخت التسجيل لقياسهم به عليهم ليس فيه دليل، ففي **نوازل** سيدي محمد العربي الفاسي نص ما أجاب به ابن رشد في أجوبته، وكتب عليه في طرته الشيخ العلامة أبو عبد الله بن أبي سعيد نزيل أصيلا من أهل أواسط المائة التاسعة ما نصه: إنما كان له أخذ نسخته [- يعني التسجيل- لأنه غير من حكم عليه، وأما من حكم عليه فيه فلا نسخة لصلاته][3] لا إعذار في حكم القاضي، ولا فيما وجهه القاضي في حيازة أو غيرها. وهو عين ما أجاب ابن عبد الصادق فانظره. والذي ينبغي أن يؤذن الله تعالى به اليوم إعطاء نسخة[4] من كل حكم صدر من قضاة الزمان، لما علم من قلة ديانتهم، وكثرة أطماعهم، واتباعهم

---

1 - أبو عبد الله محمد التاودي بن محمد الطالب بن سودة المري القريشي الأندلسي أصلا، الفاسي دارا ومنشأ، تتلمذ عليه المؤلف، ولد سنة 1111/ 1699، توفي سنة 1209/ 1794. ترجم له: الكتاني، **فهرس...**، 1/256 - 263؛ ع بن سودة **دليل...**، 2/ 465؛ بروفنصال، **مؤرخو...**، 238 - 239؛ مخلوف، **شجرة...**، 1/ 533 - 534؛ الناصري، **الاستقصا...**، 8/ 9؛ الأخضر، **الحياة...**، 322 - 328؛

2 - في د "القوم".

3 - ساقط من ح.

4 - في د " النسخة".

لأهوائهم *63*، فيفرغون الباطل في قالب الحق، والحق في قالب الباطل، فيعاملون بنقيض مقصودهم، هذا إن قام الخصم بطلب النسخة من الحكم يحدثان ضربه أو بعده بزمان طويل، وقد كان من لدن حكم عليه يطلبها ويدعي أنه حكم عليه بباطل، وأما إن سكت مدة طويلة ثم رام أخذ النسخة فلا يمكن منها تسليمه الحكم وإذعانه لمقتضاه، والله ربنا أعلم وأحكم.

ومنها، من نشزت من زوجها فادعت عليه بدعاوي من الضرر، وقطع إنفاق ونحوهما وأبت من الرجوع لبيته، فهل لا تسمع لها أي دعوى إلا بعد[1] رجوعها لبيته ؟ فأجبت بأنها لا تسمع لها دعوى حتى ترجع، لأن الأصل نشوزها لغير موجب أو لهوى نفس أو نحوه، مما هو من شأن النساء. ولم يحضرني إذ ذاك نص في النازلة غير ظواهر، ثم وجدت بعد ذلك في **النوازل** الشفشاونية بل **ونوازل** سيدي عبد القادر الفاسي أيضا نقلا عن الحطاب، عن أبي عمران ما نصه: «واستحسن في هذا الزمان أن يقال: إما أن ترجع لبيتك و تحاكمي[2] زوجك وتنصفيه، وإلا فلا نفقة لك، لتعذرالأحكام والإنصاف في هذا الوقت» إلخ [3].

وذكر الحطاب على قول **المتن** في النفقات «أو خرجت بلا إذن»[4] ومثله في **كبير** الخرشي.

ومنها، من حلف لزوجته بالثلاث فعلت فعلا ثم أبانها قبل الفعل، ثم ردها بعقد جديد للعصمة ففعلته ماذا يلزمه؟ فأجبت بلزوم الثلاث عملا بقول **المتن** : «فلو نكَحَها فَفَعَلَت [5] : حَنِثَ، إن بقي من العصمةِ المُعَلّق فيها شيء»[6]. لأن المعتبر حال النفود، وهو الفعل الذي وقع به الحنث، وزمن الحنث كانت زوجته، وإن طلقها في الفرض المذكور ثلاثا، ثم فعلت فلا حنث عليه، لانقطاع العصمة التي وقع التعليق فيها، ولو كان تعليقه بذات التكرار.

1 – ساقطة من د.

2 – في **مواهب الجليل** " تحاكمي ".

3 – الحطاب، **مواهب**. . . ، باب فرع على الزوج.

4 – خليل، **مختصر**. . . ، 125 ؛ الحطاب، **مواهب**. . . ، باب عقدت المرأة، 4/125.

5 – في **مختصر خليل** "ولو نكحها ففعلته ".

6 – م. س : 106.

وفي الحطاب ما نصه: «اعلم أن للمسألة[1] صورتين، الأولى: لا يمكن فيها تكرار الفعل قبل[2] أن يحلف لغريمه بطلاق زوجته ألبتة لَيَقْضِيَنَّهُ إلى أجل سماه، فيخالع[3] زوجته قبل الأجل، ثم يجامعها[4] بعد مضي الأجل، فلا حنث عليه. الثانية: يمكن فيها تكراره فلا يقع الحنث بما فعلته حال البينونة ويحنث بما فعلته بعدها كما لو حلف بطلاقها، أن لا تدخل دار فلان فأبانها ثم دخلت، ثم راجعها، فلا حنث عليه، فإن دخلت الدار ثانية بعد مراجعته حنث، فلو تزوجها*64* مرة أخرى[5] بعد الحنث، ثم دخلت لم يتكرر عليه الحنث»[6]، هـ.

قال بعض شيوخ شيوخنا قوله: «لم يتكرر عليه الحنث»؛ يعني إن لم يكن في لفظه ما يقتضي التكرار أو نواه، وإلا فيتكرر عليه حتى يقطع العصمة التي وقع فيها التعليق، لأنه إذا قطعها بالثبات فلا يحنث بعد ذلك كأن في لفظه ما يقتضي التكرار أم لا، انتهى، وهو ظاهر.

ومنها، الاستدعاء، هل هو عامل في غير المعاوضات من نكاح وطلاق وعطية وعتق ونحوها؟ فأجبت بأنه يعمل به فيما نقل البرزلي عن ابن سهل عن ابن زرب، من استدعى في عتق أو طلاق فقال: متى عقدت لعبدي فلان عتقا فإني إنما أعتقته خوفا على إكراه على بيعه من حيث لا أستطيع أن أمتنع، وإنما أفعله وأنا غير ملتزم لعتقه، فإن أعتقه بعد الاستدعاء لم يلزمه عتقه. وكذلك إن قال: إن طلقت امرأتي فلانة فإنما أفعله خوفا أن تؤخذ عني من جهة السلطان بأشياء أطلبُ بها، وأنا غير ملتزم لطلاقها، ثم طلقها بعد ذلك لم يلزمه الطلاق. ومثل ذلك في الحبس، وإن استدعى في العتق أنه متى عقد لمملوكه عتقا بتلا أو مؤجلا، فإنه إنما يفعله لتخلقه عليه مسترضيا له مستجليا لإقامته، فيفسخ العتق

---

1 – في مواهب الجليل"للمسألتين".

2 – م. س، " فيما لا يمكن تكراره مثل ".

3 – ن. م، "يصالح".

4 – ن. م، " يراجعها".

5 – ن. م، " ثانية".

6 – ن. م، فصل في اركان الطلاق، 4/ 50. مطبعة السعادة. مصر.

بهذا الاستدعاء، وإن لم يعرف الشهود التخلق الذي ذكره، ولا شهود الاستدعاء ذلك في المسائل السابقة. ولا يجوز الاستدعاء في البيوع إلا إن عرف الشهود الإكراه والإخافة والتوقع، لأنه حق للمبتاع، وقد أخذ البائع فيه ثمنا، هـ.

وإليه أشار الشيخ ميارة بقوله ﷺ: (من البسيط)

وفِي الاسْتِدْعَاءِ يَصِحّ إنْ عَلِمَ الإكْرَاهُ عِلماً مُتّضِحُ
وَفِي التّبرّعَاتِ الإشهَادُ كَفا مِنْ قبْلِ فعْلِهِ لِمَا قدْ وَصَفَا

ثم ذكر البرزلي أن النازلة وقعت به لما أراد الرحيل من القيروان إلى تونس، فامتنعت زوجته من الرحيل معه إلى أن يجعل بيدها طلاق من يتزوجه عليها، فأشهد شيخه أبا محمد التيبي وأبا عبد الله الفاسي أن ما يكتب لها من جميع وجوه التمليكات أو الطلاق أو غير ذلك، فإنه غير ملزم ولم يعلما ذلك إلا من قوله. ثم انتقل إلى تونس فكتب ابن عرفة تحت الاستدعاء بعد أن أخذت المرأة بشرطها، أن الاستدعاء المذكور عامل حسبما نص عليه المتقدمون والمتأخرون، ثم تزوج وأخرجت المرأة ما بيدها فأبطله من له الفتوى*65* والقضاء، وكان شهود الاستدعاء هم شهود التمليك وكذلك ينبغي. وأما الهبة قال فيها ابن سلمون ما نصه: لو وهب هبة وكان قد استدعى فيها قبل ذلك نفعه استدعاؤه إذ هو متبرع، واختلف في يمين الواهب. ونزلت بإشبيلية فأخذ القاضي يقول: من لم ير اليمين وكذلك الطلاق، ولابن الفخار: لا ينفع الاستدعاء في الطلاق هـ.

وفي باب الحبس من مختصر الإمام ابن عرفة لما تكلم على الخلاف في الاستدعاء في التبرع، هل لا بد من معرفة السبب ما نصه: وللتحرر من هذا الخلاف يكتب في الاصطلاحات وأسقط عند الاستدعاء، ومن الكتّاب من يزيد ما تكرر وتناهى، ولا معنى له، لأن الاستدعاء هو أن يشهد قبل الصلح سرا أنه إنما يصالح لوجه كذا، وأنه غير ملزم ؛ والصلح والاستدعاء في أن يشهد أنه لا يلزمه الصلح، وأنه متى صالح وأشهد على نفسه في كتاب الصلح أنه أسقط عنه الاستدعاء في السر[1] فإنه غير ملزم ذلك، ولا يسقط عنه القيام به

1 - ساقطة من ح .

فلا يتصور في ذلك منزلة ثالثة، وهذا الاستدعاء في السر إنما ينفع عند من رآه نافعا فيما خرج على غير عوض، وما خرج عن عوض لا ينفع فيه إنفاق؛ انتهى. يعني إلا إن عرف شهود[1] الإكراه.

وقد تكلم ابن عرفة في المسألة[2] في باب الصلح بأشبه من هذا، وابن هلال في **الدر و التفسير في الدعاوي**، فعليك بهما، والله الموفق.

ومنها، وصي باع ربعا[3] على محجوره ثم اشترى آخر باسم نفسه متطوعا للبائع بالإقالة المطلقة إن أتاه بالثمن، ثم لما جاءه به ادعى أنه إنما اشترى للمحجور، لا لنفسه رغبة في المشترى، وأنكر البائع مستظهرا بشهادة عدلين أن الشراء إنما وقع باسم نفسه، وطال نزاعهما حتى رشد المحجور، وقد مات الوصي في زمن النزاع، فاستظهر اليتيم بخط الوصي المذكور أنه إنما اشترى الملك المذكور للمحجور، وبماله الذي وقع به بيع أصله، فهل للموصى بيع ربع المحجور عليه، فهل له الاعذار بعد بلوغه رشيدا؟ وهل يُصدق في قوله: اشترى للمحجور بثمن ما باع به أصله بعد إشهاده على نفسه أنه اشترى لنفسه؟ فأجبت بأن في بيع الوصي ربع اليتيم قولين : المشهور الذي به العمل البيع بموجباته، خليل: «وهو[4] كالأب، أو إلا الرَّبْعَ فَبِبَيَانِ السَّبَبِ؟ خلاف»[5]، ثم قال: «وإنما يباع عقاره لحاجة»[6] إلخ. وعليه فله الإعذار*66* والنظر بعد البلوغ والرشد أي أنه يمكن من الاعذار فيما فعله الموصى على كلا القولين لإحداث الأوصياء في أموال اليتامى ما لا يخفى. ولم يحضرني الاستدلال إذ ذاك على هذا بنص إلا ما قالوا في الابن: يبيع عنه أبوه في صغره، ثم يقوم بعد البلوغ والرشد فله النظر في ذلك. قال في **التحفة**: (من الرجز)

---

1 - في د "الشهود".

2 - في د "في باب الصلح في هذه المسألة".

3 - في د "باع ربوعا".

4 - في **مختصر خليل** "وهَلْ".

5 - خليل، **مختصر**...، 157.

6 - م. س.

وَحَيْثُ لارد ابْنِه ما يَفْعَلُ وَمَسْألةُ الوَصِيِّ أخْرَى

والله أعلم.

وأما الإقالة فلا إخالها إلا لازمة لأنه، وإن زعم أنه اشترى له بماله ولم يعرف ذلك إلا من قوله، فما له عليه إلا الثمن، وفحوى السؤال أن الوصي إنما اشترى لنفسه فلما رأى الغبطة في المبيع أراد بقاءه لنفسه وعارضة الإقالة للمتطوع بها للمشتري فادعى أنه اشترى له بماله، وهب أنه صادق في الشراء له بماله، فقد تطوع للمبتاع بالإقالة، وتطوعه بها عنه لازم له، إلا أنه يعذر له بعد البلوغ والرشد، فإن كان في التطوع المذكور صلاح وسداد مضى، وإلا رجع له ملكه.

ومنها، من اشترى دابة من رجل أعلمه بأنها أخذت من مالكها بنهب أو غصب ثم استحقت من يد المشتري، فهل يرجع على البائع بالثمن؟ فأجبت: بعدم الرجوع. قاله ابن هارون في **اختصار المتيطية**، ونسبه لابن القاسم، وعلله بأن المشتري عرض ماله للتلف، وتعمد إهلاكه لأن من أخذ حراما وأعطى حلالا وهو عالم به كأنه وهب حلالا لصاحبه هبة مقبوضة لا سبيل إلى ردها، ووجب عليه رد الحرام إلى مالكه إن عرف وإلا تصدق به. قال: ومن كتاب **الدلائل والأضداد** لأبي عمران الفاسي ما نصه: «قال محمد بن ناصر: من باع شيئا حراما بشيء حلال كان ما أخذه بالحرام حلالا لا حراما، وكان الحرام حراما بيد من أخذه» هـ. فظاهر ابن هارون أن قول ابن القاسم بعدم الرجوع هو المشهور، وهو خلاف ما في الشيخ عبد الباقي على قول **المتن** في الاستحقاق «كعلمه صحة ملك بائعه »[1] ونصه: «وأما عكس كلام **المتن** وهو أنه إذا علم عدم صحة ملك بائعه المشهور[2] أن له الرجوع بثمنه حيث استحق من يده لأنه إنما قصد المعارضة لعلمه أن البائع لا يملكه، ولم يراع علم المشتري لسبق علم البائع وطلبه بالبيع وما قابله إلا عدم الرجوع. قال القرياني: ويعد كأنه وهبه الثمن، هـ».

1- ن.م، 174.

2 - ساقطة من ج.

ومنها، امرأة قطع والدها رحمها واشتاقت لرؤيته فاتفقت مع الزوج على أن *67* يكاتب أباها بطلاقها تحيلا على مجيء الأب لرؤية ابنته وصلة رحمها من غير قصد لإيقاع الطلاق فعلا، أيلزم الطلاق؟ فأجبت بأن الزوج إن كتب أو أمر من يكتب غير عازم ولا متلفظ بصريح طلاق وجاء مستفتيا صدق ودين، وإلا لزمه، ولم يحضرني نص. وفي **نوازل** البرزلي ما يدل لذلك. ونصه في النوادر: ومن اعتذر في شيء سئل فيه بأنه حلف بطلاق أو عتق ولم يحلف، فلا شيء عليه في الفتيا قال، وفي مسائل الرماح إذا قال الإنسان: حلفت في شيء ولم يكن حلف، ولا نوى بقلبه وإنما هو كاذب، فلا شيء عليه، وإن أسرته البينة لزمه حكم اليمين. قال: وسئل عمن قال لامرأته : أنا أبعث إلى أبيك يمشي بك أو قال لرجل: يا فلان امش بها إلى أبيها، ولم يرد بقوله أنها طالق، فلا شيء عليه، وهي باقية في عصمته هـ. و لا نص في النازلة، والله تعالى أعلم.

ومنها، من اشترى أرضا يجزىء ما يخرج منها، وبنينا على المشهور من منع كرائها بالجزاء، وقلنا الواجب كراء المثل، ولم يطلع على ذلك زرعت وفات الإبان، والبلاد لم يعهد بها الكراء المثل بدينار ولا درهم فما كيفية التوصل إليه؟ فأجبت بأنه إن لم يعهد فيها الكراء بالدينار ولا بالدرهم ولا بالعروض، فإنها تقوم بالجرد على تقدير جواره، ولزمت قيمة ما نابه من الزرع. ففي الحطاب مانصه: «وذكر الشيخ أبو محمد بن عيسى بن مسكين وغيره من قضاة أصحابنا بافريقية، حكموا بأن تعطى له قيمة الجزء الذي يقع له من ثلث، أو ربع دراهم لأنه لايعرف لها بالمغرب قيمة كراء بالعين، ولم يعتبر قيمة كرائها يوم العقد، لأنه لا كراء على المكتري في الأرض إذا لم يصب فيها شيئا. ابن عرفة عن المُتَيْطِيّ. قال بعض الموثقين: أرض الأندلس عندي بخلاف ذلك الكراء فيها معروف فيجب أن يقضى فيها بكراء المثل.

قلت: وكذا الأمر عندنا في أرض تونس، وفي قولهم: ينظر إلى ما يقع له من ذلك الجزء ثلث، أو ربع درهم، نظرا لأن ظاهر البناء على ما دخلا عليه من الجزء، وهو عقد فاسد فيجب إلغاء ما دخلا عليه وينظر إلى قيمتها

بالجزء أن لو جاز فيها، ثم ينظر إلى قيمة ذلك الجزء هـ. وما قاله ظاهر لا شك فيه، ولا يعدل عنه» انتهى كلام الحطاب[1]. وأقره ابن عمر في **شرح المفيدة**.

ومنها، ما صورة المسألة الملقبة عند الفرضيين بعقرب تحت طوبة؟ *68*، فأجبت بأن منها زوج وأم وأخت لأم، أقرت الأخت ببنت للميت فالإنكار من ستة و الإقرار من اثني عشر، أقرت الأخت أنها لا شيء لها وإن للبنت النصف وهو ستة وللعاصب[2] واحد، فتقسم[3] نصيب الأخت وهو واحد على سبعة ببيانها، فتضرب الستة في السبعة باثنين وأربعين من له شيء من ستة أخذه مضروبا في سبعة، ومن له شيء من سبعة أخذه مضروبا في واحد، وسميت المسألة بذلك للغفلة عن العاصب أي[4] كما أقرت به الأخت للعصبة، هكذا قررها الحوفي وابن عرفة والتلمساني قائلا: (من الرجز)

وَقَـدْ يَجُـزْ غَيْرُهَـا الإقْــرَار ... فَيَقَـعُ الحَصَـاصُ لا إنْكَــارُ
وَذاكَ فِي قَضِيَّـةٍ مَشْهُــورَةٍ ... تُعْـرَفُ بالعَقْرَبِ تَحْـتَ طُوبَـة

قال الشيخ السنوسي في **شرحه للحوفي**: ولله ذر من سمى المسألة بذلك فما أظرفه هـ.

قلت: وهي من مسائل التباين المندرجة تحت قول **المتن**: «والثاني كشقيقتين[5] وعاصب، أقرت واحدة بشقيقة أو بشقيق»[6].

ومنها، الذكاة من تحت الودجين بعد أن ابتدأ الذبح من المقدم فقطع الحلقوم أم لم يقطعه أم لم يبتدئه من المقدم، وإنما بدأ به من تحت الودجين فقطع الجميع، فهل الذكاة كاملة في هذه الوجوه؟ فأجبت بأنها ميتة إذ هي

---

1 – الحطاب، **مواهب...**، باب فرع الاستئجار، 4/116.

2 – في د "العاصبة".

3 – ساقطة من د.

4 – ساقطة من د.

5 – في ح ود "كشقتين" والتصحيح من **مختصر خليل**.

6 – خليل، **مختصر...**، 231.

تذكية من المؤخرة عملا بقول المواق عن ابن يوسف عن سحنون: لو قطع الحلقوم ثم لم يساعده السكين في مرها على الودجين إذ ليست بحادة فقلبها وقطع بها الأوداج من داخل فلا تؤكل، هـ، ابن عرفة. انظر لو كانت حادة، والأحوط لا تؤكل. ثم ذكر بعد ذلك ما يفيد الأكل في مسألة سحنون، وضعفه الأجهوري. وفي **صغير التتائي** ما نصه: من المقدم لا من القفا ولا من صفحتي العنق لأنه نخع قبل تمام الذكاة، ويدخل فيه ما لوأدخل السكين من خلف الودجين والحلقوم، هـ، ابن عاشر[1]، قوله: ويدخل فيه أي في المذبوح من القفا. زاد الزرقاني، زاد التادلي: لا تؤكل على المذهب ونحوه لجمع. و قال ناظم مقدمة ابن رشد: (من الرجز)

وَالقَطْـعُ مِنْ فَوْقِ العُـرُوقِ بَتّـهْ وإنْ يَكُـنْ مِنْ تَحْتِـهَـا فَمَيّتـةُ

وما به حجج، وتبعه عليه الخرشي في **كبيره** والشبرختي من جواز الأكل في الثالثة، وهي التي تقدمت آنفا في التتائي[2]، قال: ليس فيها نخع، وأدخلها في **المتن** *69* بقوله: «من المقدم»[3]، ولو حكما فلا يعول عليه، والحق في النازلة مع الشيخ عبد الباقي.

قلت: ولا يقال أن في الحطاب ما يدل للأجهوري من قوله: «وأما من أراد أن يذبح في الحلقوم فأخطأ فانحرف فإنها تؤكل[4]، هـ. قال الباجي: يريد أنه قطع الحلقوم والودجين قبل النخاع، انتهى كما بينه الباجي.

ومنها، هل يجوز تصيير الأصل في المسلم فيه إذا كان غيرطعام؟ فأجبت بأن ظاهر قول ابن شاس وابن الحاجب، وأن يكون المقتضى مما يجوز أن يسلم فيه رأس المال وتبعها في **المختصر** في قوله: «وأن يسلم فيه

1 - ابن عاشر : عبد الواحد بن أحمد بن عاشر، اشتهر بانتاجه الفكري خاصة في علوم القرآن والتفسير، كما تميز اسلوبه التعليمي بالدقة والرغبة في البحث. توفي سنة 1040/ 1631. ترجم له: حجي، **الحركة**. . . ، 2/ 367

2 - محمد بن إبراهيم التتائي قضاء القضاةبمصر. توفي سنة 942هـ/1535م . ترجم له : مخلوف، **شجرة**. . . ، 1/ 393، رقم 1033.

3 - خليل، **مختصر**. . . ، 72.

4 - الحطاب، **مواهب**. . . ، تحقيق أحمد جاد، القاهرة، الطبعة 1، 1429/ 2008، 3/ 276.

رأس المال»[1] المنع، ففي سير الخرشي ما نصه: يفيد - يعني **المتن** المذكور- أن من أسلم في عرض أو نقض أن لا يجوز له أن يأخذ فيه دارا أو أرضا أو نحوها مما لا يسلم فيه وهو حسن، هـ. وفي الأجهوري وتبعه الزرقاني خلافه، وعبارة الثاني المراد أن يكون المأخوذ مما يجوز سلم رأس المال فيه، ولا يمنع سلمه بخصوص رأس المال بل لأنه لا يصلح فيه، كان رأس المال عرضا أو عينا أو غيرهما. وأفصح أبو علي بن رحال عن الجواز في المسألة تفقها من غير استناد لنص، وربما يشهد له قول ابن عرفة ونصه: واقتضاء غير حبس ما أسلم فيه ضبط ابن محرز جوازه بصحة بيعه قبل قبضه فيمنع وهو طعام، وبصحة بيعه بالمقتضى فيمنع رأس المال ذهب والمقتضى عن غير الطعام فضة والعكس، انتهى. فانظر قوله وبصحة إلخ، فإنه عبر بالبيع منكبا عبارة ابن شاس وابن الحاجب[2]، ولا شك أنه يجوز بيع العرض مثلا المجهول رأس المال، فالأصل المأخوذ عنه المصير فيه، ويشهد له أيضا ما في كتب الأحكام من الوثائق المجموعة وابن سلمون وغيرهما، ونص المتيطي في ذلك وتصييرالأصول وغيرها في الديون من ناحية البيع إلا أن ذلك مفتقر إلى انجاز التقابض في حين الصفقة هـ. ونظر في قوله من ناحية البيوع فهذا ظاهر في الجواز، والله أعلم. على أن في **التوضيح** وابن عرفة و**الشامل** قولا مخرجا للمازري بجوازالسلم في العقارابتداء فينبغي ملاحظته في نازلة التصيير المذكور. والمسألة اليوم قد عمت بها البلوى، فالعمل على الجواز مع ملاحظة هذا القول، وإن كان محرما أولى، والله أعلم.

70 ومنها، من استسلف من غيره مالا بدين الثلث، فامتنع من أجل الربا و قال له: خذ هذه السلعة بثلاثين إلى أجل معلوم، وهي الآن تساوي عشرين أيجوزالبيع؟ فأجبت بالجواز مع الكراهة عملا بقول **المتن**: «وَكُرِهَ خُذْ بِمَائَةٍ مَا بِثَمَانِينَ»[3]، وظاهر النقل أنه لا فرق بين أن يكونا أو أحدهما من

---

1 - خليل، **مختصر**. . .، 150.

2 - في د "حاجب".

3 - خليل، **مختصر**. . .، 138.

أهل العينة أم لا، قال حلولو: وإن وقع مضى، ولذلك قال مالك: «لا أبلغ في الفسخ»[1].

ومنها، من أنزل أجنبيا منزلة ابنه فمات من غير عقب وله عصبة لم يجيزوا، فهل تبطل الوصية أو للمنزل الثلث؟ فأجبت بأنه إن كان له ولد وقت التنزيل أو حدث له بعد ذلك ثم هلك قبل موت الأب ثم هلك الأب بعده، فالوصية صحيحة في القسمين، وإن لم يكن له ولد إذ ذاك حتى مات بطلت الوصية لصيرورته[2] متلاعبا، ابن عرفة. وسمع عيسى ابن القاسم من قال لفلان: مثل نصيب أحد ولدي ولا ولد له وطلب الولد ثم مات ولا ولد له فلا شيء للموصى له؛ واحتج بقول مالك: من قال: اكتبوا ما بقي من ثلثي لفلان[3] حتى أنظر لمن أوصي، فمات قبل أن يوصي بشيء غير ذلك لا شيء للموصى له ببقية الثلث؛ وما احتج به خالف فيه أشهب، ورأى له الثلث كله. وفي سماع محمد بن خالد قول لأشهب في بعض الروايات: أن له ثلث الثلث مكان ثلث المال فقيل: هو غلط وتصحيف. وقيل: هو ثالث وعلى هذا أحمله ابن حارث وهو بعيد لا وجه له، وقيل له: نصف الثلث كان له وجه لأنه يقول: لي الثلث كله، ويقول الورثة: لا شيء لك، فيقسم بينهما هـ.

واقتصر حلولو على الأول ونسبه لابن القاسم، ومثله في الحطاب غير معزو لأحد، وعقبه بقوله فتأمل. واقتصر عليه الخرشي والزرقاني كأنه المذهب. ونص الأول: فإن مات ولم يخلف أحدا بطلت وصيته كمن قال: من غنمي، ولا غنم له. وكذلك إن لم يمت، وأيس من وجود الولد هـ.

وفي الثاني: وشرط الابن كونه موجودا[4] معينا فلا قيام مانع. ثم نقل أيضا ابن عرفة عن سماع عيسى: من مات وقد قال لفلان: جزء من مال أو سهم منه أو نصيب ولم يكن له وارث، فسهم من ستة لأنه أدنى ما تقوم منه سهم الفرائض. وقال أشهب: له سهم *71* من ثمانية، لأن أقل سهم

1 – مالك، **المدونة**. . .، 4/ 186.

2 – ساقطة من ح .

3 – انظر: **المدونة** : 5/ 50.

4 – في ج وخ "موجود".

فرضه الله تعالى الثمن فإن كان أصل المسألة من ستة وهي تعود إلى عشرة فسهم من عشرة، ابن رشد، الأظهر قول أشهب. وقال أصبغ ومحمد: له سهم وأحد مما انقسمت عليه فريضته، كثر ذلك السهم عليه أو قل، ابن عبد الحكم؛ وهو أحب إلي، وعليه جماعة من أصحاب مالك. وقيل يعطى سهما من سهام الفريضة، ما لم يزد على الثلث، فيرده الورثة إلى الثلث، أو ينقص من السدس فلا ينقص من السدس، ولم يتعقبه ابن زرقون، وظاهر ابن رشد أن الخلاف إذا لم يكن له وارث، وظاهر الباجي أن الخلاف مطلق ولو ترك ورثة هـ.

فإن قيل ما جلبتموه من النصوص ليست نصا في غير النازلة لأنها – أي النازلة – من باب قول الموصى كما لابن عرفة عن اللخمي: ألحقوه بفلان أو اجعلوه وارثا وهو في هذه المسائل يقدر زائدا على المشهور، والأنقال السالفة إنما هي في الوصية بمثل نصيب الإبن أو بجزء أوسهم أو نصيب من المال، والأحكام مختلفة يجاب بأن الأحكام وإن اختلفت في مقدار ما يجب للموصى به فحكمها حيث هلك الموصي ولا وارث له، وهو ما تقرر آنفا، يبقى النظر في الإستدلال بنص على الشق الأول من شقي الجواب، فليطلب[1].

ومنها، جرت عادة قبائل المغرب اليوم من أخذ الإنسان بجريرة غيره، فترى الرجل يتعرض لآخر أو لرفقته فيأخذ مالهم في مقابلة من لهم على قريبهم أو بلادهم أو مجاورهم، وتشعب هذا الأمر وصار عرفا بين القبائل حتى اعتقدوا أنهم على هدى فيما يصنعون، هل له أصل في السنة؟ وهل يعمل به الآن أم لا ؟ فأجبت: باشتهار المسألة عند المحدثين وأرباب النوازل والأحكام، ففي **اختصار المتيطية** لابن هارون ما حاصله: إذا كان الرجل ابن أو أخ قريب وخشي أن يؤخذ بجريرة من السلطان وذهب من التبرؤ كتبت في ذلك أشهد إلخ الوثيقة فذكرها وقال، قال ابن العطاء: وما بالناس حاجة إلى هذه الوثيقة لولا المحدثات التي من بقايا الجاهلية لأن أحدا لا يوخذ بجريرة غيره. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

1 – في ج وخ "فليتطلب".

2 – الأنعام: 166.

ابن الفخار: هذه الوثيقة لا تفيد شيئا لأن الحاكم إذا لم يراع كتاب *72* الله، ولا وقف عند أمره ونهيه، فكيف يعمل بمقتضى هذه الوثيقة. وقال ابن النهمي: الآية كافية أن لا يؤاخذ أحد بجريرة غيره، ولكن قد يأتي من يجهله أو يخالفه. فإذا كتبت هذه الوثيقة انتفع بها عاقدها. وقال مالك في المستخرجة عن يحيى بن سعيد : إن امرأة خرجت إلى بعض المواضع فاعترضها رجل فراودها على نفسها فامتنعت ورمته بحجارة فشجته، ثم صاحت[1] فأتت مروان[2] بن الحكم، وكان شديدا في الحدود، فذكرت ذلك له فسألها عن اسمه فلم تعرفه، فقال: تعرفينه؟ قالت: نعم، فأدخلها بيتا، فأمر أن يؤتى بالناس، فعرضهم عليها رجلا رجلا، وهي[3] تقول لا حتى أوتى به مشجوجا، فقالت: هو هذا، فحبسه، فأتاه أبوه وكلمه، فأراد مروان أن يأخذه بجريرته فقال: (من الكامل المرفل)

جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ يُعْدِي الصّحَاحَ مُبَارِكُ الجُرْبِ
وَلَرُبّ مَأْخُوذٍ بِذَنْبِ خَلِيلِه[4] وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذّنْبِ

فاحتج الأب بالآية فقال: لا والله لا تخرج حتى تنفذ ألف دينار، فقال أبوه: هي علي، فأمر به مروان، فأخرج فقال لمالك: أترى هذا من القضاء؟ فقال: لا ولكنه على غلظة مروان. ولقد كان يؤتى بالرجل قبل المرأة فتنزع ثنيته. فإن قلت في **صحيح مسلم** أنه ﷺ أخذ رجلا بجريرة حلفائه، فالجواب عنه أن المازري قال: أجيب عنه أنهم عوهدوا على ذلك أو أنهم [كفار لا عهد لهم، فهم على الإباحة. وفي الكلام حذف، ومعناه أخذناك لنفادي بك من بحلفائك أو أنهم][5] كانوا يؤاخذون غيرهم بذلك، فواخذهم ﷺ، مقابلة لفعلهم، هـ.

---

1 – في د "فصحت".

2 – ساقطة من د.

3 – ساقطة من د و ج.

4 – **في الوساطة** "عشيرة".

5 – ساقط من ح.

فحاصله أن ما يقع بين الناس اليوم هو الذي عليه أهل الجاهلية، ولم يقرره ﷺ في الإسلام، بدليل حديث الترمذي في **الشمائل** لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي رِمْثة: ابنك هذا؟ قال: نعم، اشهدْ به، قال: لايجني عليك ولاتجني عليه»[1]، أي لا يُواخذ كل منكما بجريرة الآخر، ردا لما عليه أهل الجاهلية، و هذا هو التحقيق في معنى الحديث. وحديث مسلم لا دليل فيه لما قرره المازري، ولأنه حكم على كافر فلا يقاس المسلم عليه، ثم لا تنخرط النازلة في سلك قول عمر بن عبد العزيز، وروى حديثا:«تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»[2]، لأن محله *73* فيما له أصل ضعيف المدرك من كتاب وسنة أو قول مجتهد، ولو فتحنا باب الأخذ بالجريرة لاتّسَع الخرق على الراقع؛ وكم شاهدنا من أفعال القبائل في ذلك من أمور ما لها من دافع ولا رافع، حتى انسدت الطرقات عن أصحاب الضرورات من أرباب النفقات، والشكوى في ذلك لعالم الخفيات سبحانه. [إذا علمت هذا ظهر لك أن ما لابن فرحون وغيره من قوله: قرر العلماء أن ماجرت به عادة الظلمة بأخذ القريب بجناية قريبه ليس من الظلم مخالف للمشهور حائد عن الصواب، اللهم إن ظهرت به مصلحة وتقرر به عمل لمن يعتد به، فينتفي ويتقى به ذلك الحق سبحانه][3].

ومنها، إعطاء الزكاة لمن له عقار ونخيل ونحوها لا تكفيه غلتها في السنة هل يجوز؟ فأجبت بالجواز لقول الفقهاء: تعطى لمن له دار وخادم وفرس، لا فضل في ثمنها عن حاجة، أو له فضلٌ لا يكفيه في عامه ولو زاد الفاضل عن نصاب.

ومنها، إعطاء الرجل الزكاة لمطلقته باينا له منها ولد التزم جده لأمه نفقته سنة في مقابلة خلع أمه من أبيه المذكور، هل هو جائز؟ فأجبت بجواز الإعطاء لها ولو نشأ عن ذلك أكل ولده منها، لأن ذلك بعد دخول الزكاة في

---

1 – الترمذي، **الشمائل**...، 60.

2 – ينظر الحديث في **الأحكام في أصول الأحكام لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي**، وفيه أن عمر بن عبد العزيز قال: "يحدث للناس أحكام بمقدار ما أحدثوا من الفجور". دار الحديث، 6/ 264.

3 – ساقط من د وفي طرة خ .

ملك أمه، ولولا هذا المعنى لجاز للأب المذكور أن يرفعها لولده المذكور لقول **المتن**: «وعَدم كِفَايَةً بقليلٍ أو إنْفَاقٍ»[1] لأنه لم يعدم من ينفق عليه. وقد طرح بذلك شروح **المتن**، ففي الزرقاني، ولو بالالتزام أو بمقتضى الحال، قال: ويفهم من هذا أن من لزمت نفقته لا يعطى ولو لم يجرها عليه لأنه قادر على أخذها بالحكم، وينبغي أن يستثني من هذا ما لو كان الموصى لا تمكنه الدعوى عليه أو يتعذر الحكم عليه. وفي البرزلي ما يفيد خلافه، واستظهر الحطاب: «أن من له من ينفق عليه، وله ضروريات شرعية لا يقوم بها يعطى له منها ما يسر به، فيبقى النظر في المطلقة نفسها، فإذا هو أعطاها من الزكاة بقصد تطييب خاطرها واستمالتها إلى المراجعة، أو لتحفظ ولده في حضانتها مثلا أو لرفع ما عسى يتطرق إليه من سنان الأسنة أنه لا يراعي ولده ونحو ذلك، فلربما يقال أنه صوَّن بالزكاة ماله فلا تجزيه كما للبرزلي *74* في **نوازله**، في مسألة كافل يتيمة تخدمه هو يطعمها ويكسوها وأراد إعطاءها من الزكاة، فانظره.

وقد وقفت على جواب لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي في شبه المسألة ونصه: من له ولد لا تجب نفقته عليه شرعا لكنه ينفق عليه ولا يقدر أن يقطع عنه نفقته لما يلحقه فيها من ذم الناس له بقطعها، أو من تألم قلبه باضطرار ولده لطلب العلم واضطراره إلى الكسوة، هل يجوز لأبيه أن يعطيه من الزكاة مع أنه إن لم يعطه من الزكاة فلا بد أن يعطيه من ماله ولا يقدر أن يقطع عنه رفقه؟ فلا يجوز له ذلك لأنه صوَّن بالزكاة ماله. ففي **المعيار** لأبي الطيب القيرواني أثناء جواب له ما نصه: ومن لا تلزمه نفقته وليس في عياله يجوز إعطاؤهم. وأظن أني وقفت على المسألة في **اختصار نوازل** البرزلي للونشريسي، والله أعلم.

ومنها، قسمة القرعة في المثليات، هل المشهور المنع وما علته، وهل تجوز قسمة العراجين؟ فأجبت بأن المشهور منع قسمة القرعة في المثليات مكيلا، أو موزونات، وهو قول ابن رشد؛ وبه أفتى الشيبي قال في **التحفة** مشبها له بالمنع: (من الرجز)

1- خليل، **مختصر**...، 54

كَذاكَ فِي اختِلافِ الأَجْناسِ وَفِي مَكِيلٍ أو مَوزونٍ المَنْـعُ اقتفِـي

ومحله إذا ترك الكيل والوزن واقترعوا وإلا جازت. وعلل ابن عرفة المنع بأن ما تساوى في الجنس والجودة والقدر لا يحتاج إلى سهم كالدينار، انتهى، فتأمله. وحكى عن ابن رشد أيضا أنها تمنع في المكيل دون الموزون، لأن الكيل لا يعدم ولو بالحفنة وإنما يعدم الموازين، انتهى، فانظره. وللباجي أنها تكون في المثليات مكيلا أو موزونا، وبه أفتى ابن عرفة واستظهره صاحب المعيار وهو إن شاء الله التحقيق لعدم ظهور علة المنع.

وأما قسمة العراجين بالقرعة بعد التعديل والتقويم فلا يشك عاقل في منعها وبغيرها، وظهر الفضل في إحدى الجهتين فالأظهر الجوازلخروجها من باب البيع إلى المعروف، كما قالوا في قول **المتن**: «لَبَنٍ في ضُرُوع، إلاَّ لِفَضْلٍ بَيِّن»[1]. وانظره مع مفهوم قول **المتن**: «وجاز إن كَثُرَ أحدهما في غير رِبَوِيٍّ»[2] هـ.

ومنها، من اشترى سلعة ونصف *75* دينار بعشرين درهما، وصرفُ الدينار عشرون هل يجوز؟ فأجبت بالجواز لقول **المتن**: «وبيع وصرف[3]، إلا أن يكون الجميع دينارا، أو يجتمعا فيه»[4]؛ إذ لا فرق بين كون الجميع دينارا، كأن يشتري شاة وخمسة دراهم بدينار، وصرف دينار لمسألة السائل، فتأمله.

ومنها، يتيمة مهملة بالغة أراد شقيقها السفر وقال لجده للأم إن هي فلانة أرادت التزوج في غيبتي ووكلتني فأنت وكيلي فزوجها، أترون هذه الوكالة عاملة؟ فأجبت بأنها تزوج نفسها بإذن الحاكم من افتقار لحضورالغائب، ولا لإذن وكيله لأن وكالته غير صحيحة، إذ الوكالة لم تصدر من اليتيمة لأخيها قبل غيبته حتى تصح منه هو الوكالة، فاعتل السائل بأن القضاة أصحاب رشى

1 – خليل، **مختصر**...، 177

2 – م. س : 136.

3 – أي : وحرم الجمع بين بيع وصرف إلخ.

4 – خليل، **مختصر**...، 133.

وهوى نفس، فمهما رُفِعَ أمْرُ هذا النكاح لهم إلا ويأخذون من اليتيمة مثل صداقها أو أكثر. فقلت: جماعة المسلمين كافية فتوكل من يعقد عليها، ويستحب أن يسند للقريب أو وكيله.

ومنها، امرأة قالت لأخرى: إني أبدلت صاعا من قمح بصاعين من شعير، فقال لها من حضر من الرجال: إن ذلك غير جائز في الشريعة؟ فأجابته بقولها ما هي بشريعة، هل تعد بمقالتها مرتدة توجب عليها أحكام الردة من بينونتها من زوجها ونحو ذلك؟ فأجبت بأن هذا اللفظ ليس بصريح في الردة ولا بظاهر فيها إذ مرادها ما اقتضاه نظرها من اختلاف الطعام والرغبة والثمن، ومرادها بقولها ما هي بشريعة قول الرجل من أنها جنس واحد يحرم التفاضل، فاستغربت ذلك. فقالت ما قالت، لا أنها قصدت شريعة النبي ﷺ بمعنى أنه وإن قاله فليس بشريعة كما توهم بعض الأغبياء، أو ما استنبطه المجتهدون سيما والرجل والمرأة كلاهما من جهلة العامة لا شعور لهما بمذهب مالك ولا بمذهب عبد الحميد. نعم لو قال لها ذلك عالم فأجابته بما ذكر لكان الظاهراستحقاقها للأدب. وفتوى بعض المفتين بالردة لا وجه له، والله أعلم.

ومنها، من كان ينهى زوجته من الخروج لديار الجيران فتأبى عليه فحلف لها بقوله: عليه الحرام لا خرجت أبدا إلا أن قاله له رأسه، يعني إلا أن يبدو له، ثم خرجت، وجاء الزوج مستفتيا زاعما *76* أنها إنما خرجت بعد إذنه؟ فأجبت بتصديقه في الفتوى دون القضاء، وعورضت بما في **المتن** من قوله: «بخلاف: إلا أن يبدو لي في المعلق عليه فقط»[1]. وبقوله: وبلا علم إذنه في: لا تخرجي إلا بإذني؟ فأجبت عن الأولى بأنه شاهد لجوابي، إذ معناه أن من قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار أو إن لم أدخل الدارإلا أن يبدو لي فينفعه، ولا شيء عليه إن صرف الإرادة إلى الفعل المعلق عليه فقط، وهو الدخول، لأنه جعل الأمر موقوفا على الإرادة[2] في المستقبل. فإن شاء جعل دخول الدار سببا لوقوع الطلاق، وإن شاء لم يجعله سببا لوقوعه، لأن

1 – م.س :109
2 – ساقطة من ح .

كل سبب موكول إلى إرادة المكلف لا يكون سببا إلا بتصميمه وجزمه على جعله سببا، واحترز بالمعلق عليه من المعلق نفسه وهو الطلاق. فإذا صرف الإرادة إليه فلا ينفعه لأنه لا اختيار له فيه فينجز. والنازلة من هذا الوادي، لقول الحالف بالحرام لا خرجت إلا إن قاله لي رأسي من باب: إلا أن يبدو لي، فيدين إذا جاء مستفتيا بل التحقيق أنه يصدق حتى في القضاء لقيام القرينة الظاهرة على صرف الاستثناء للمعلق عليه وهو الخروج لا للمعلق وهو الطلاق، وإن قامت ببينة على أنها إنما خرجت بعد أن قال له رأسه- أي بعد أن بدا له – أو أذن لها فلا إشكال، والله أعلم.

وعن الثانية بأن معناها حلف لا تخرج إلا بإذنه، فأذن لها ولم تعلم فدخلت بعد الإذن وقبل علمها به، فيحنث لأن قصد الزوج أن لا تعصيه بخروجها بغير إذنه. ونقل أبو الحسن عن مالك أنه لا يحنث[1] في هذه، وسبب الخلاف هل الباء في بإذني بمعنى بعد، فلا يحنث، أو هي سببية فيحنث. وبينها وبين النازلة بون بعيد، كما بين الضب والنون، والله الموفق.

ومنها، ما صيد ببندق الرصاص بنية الذكاة هل يؤكل؟ فأجبت بأن المشهورالذي تقتضيه قواعد المذهب ونصوصه عدم الأكل لقول **المتن**: «بسلاح محدد»[2]. هذا الذي اعتمده الإمام ابن عاشر والسراج وغيرهما من المتأخرين لحدوث الرمي بالبنادق و البارود، وذلك في أواخر القرن الثامن، والذي جرى به عمل فاس، الجواز. قال ناظم **العمل**[3] وهو الشيخ أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي[4]، رحمه الله تعالى ورضي عنه *77*: (من الرجز)

---

1 – مالك، **المدونة**...، 3/ 136.

2 – خليل، **مختصر**...، 73.

3 – العمل الفاسي لعبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي م خ ح، رقم 5457.

4 – عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، من علماء فاس، كان سيوطي زمانه، ولد سنة 1040 هـ وتوفي سنة 1096 هـ /1684م له تآليف منها : نظم العمل الفاسي، وأزهار البستان في مناقب الشيخ عبد الرحمان، والقطف الداني في البيان والمعاني . ترجم له : القادري، **نشر**...، 2/ 325 – 329؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 456 رقم 1248 ؛الإفراني، **صفوة**...، 201 ؛ الكتاني، **فهرس**...، 2/ 735.

وَمَا يَنْدَقّ الرّصَاصُ صَيْدًا جَوَازُ أَكْلِهِ قَدْ اسْتُفِيدَا
أَفْتَى بِهِ وَالِدُنَا الأَوَّاهُ وانْعِقَادُ الإِجْمَاعِ عَنْ فَتْوَاهُ

لطيفة : جرت عادة أهل هذا البلد بتأخير صلاة الجمعة جدا، سيما بِتَبُكرْت بلدة الإمام الغازي، فبنفس فراغهم من الجمعة يؤذن المؤذن للعصر، وكادت تعم البلوى بهذه البلاد الصحراوية، بل وبجبال دَرن وببعض مساجد مراكش بنحو هذا التأخير، والذي في **الصحيحين** وغيرهما وهو السنة، تقديمها عند الزوال، لقول أنس: «ما كنا نقيل ولا نتغذى إلا بعد الجمعة»[1]، فينبغي للمستبرئ لدينه أن يتحرى تقديمها إن أمكنه؛ سيما على القول بأن وقتها كالظهر، لها مختار وضروري، إذ يعد إذ ذاك مصليا لها في الضروري أوما يقاربه.

ولقد حدثني بعض الطلبة ممن ينتمي للعلم والدين أن أهل بلدة سجلماسة يؤخرون هذا التأخير فنهاهم فلم ينتهوا، واعتلوا بأنهم وجدوا آباءهم على ذلك؛ فلا يتركون عادة اعتادها أسلافهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وجعل هو يتكلف الصلاة في بعض المداشر ممن يوقعها أواخر الوقت المختار، فجزاه الله عن نفسه خيرا. وهم مع ذلك يُسرّون الخطبة الثانية كأهل فاس، ومن نحا نحوهم حتى لا يكاد من يلي الخطيب يسمعه وهي بدعة لا أصل لها[2]، ولقد أنكرتها على بعضهم فاعتل بأنها لما لم تحتو على مواعظ كالأولى، أسرها مع ما يعتري الإنسان من التعب من الجهر بالأولى فيقصد إلى الاستراحة في الثانية فيسرِّها.

فقلت: الثانية وإن لم تقصد بها الموعظة ففيها الصلاة على النبي ﷺ والرضا عن الخلفاء ونحو ذلك، وهو من أهم المهمات، فالواجب رفع الصوت فيها كالأولى بقدر ما يحصل به الإسماع، إذ سماع الخطبة واجب

1 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب قول الله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ : رقم 897، 1/ 318؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الجمعة حين تزول الشمس، رقم 859، 2/ 588. وفيهما عن سهل بن سعد.

2 - ساقطة من ح ود.

لا فرق فيه بين الأولى والثانية، على أني شاهدتهم يسرونها حتى إن وصلوا لذكر الأمير ونصرته رفعوا أصواتهم بذلك، وفيه من[1] الهجنة وسوء الأدب، والعمل للمخلوق ما لا يخفى. فالسنة الإسماع في كلتي[2] الخطبتين بقدر سماع من بالمسجد. ففي **حواشي ابن عاشر على التتائي** ما نصه: انظر من أين أخذ فقهاء فاس التفريق بين الأولى والثانية *78* في كيفية الجهر بها حتى إن بعضهم ربما أسر بها هـ، ونحوه، لتلميذه ميارة في **التقاط الدرر على المختصر**.

غـــرائـــب:

الأولى: حدثني الثقة من بعض الطلبة أن رجلا هاهنا قتل غيره عمدا عدوانا، فهرب لضريح الإمام الغازي رحمه الله تعالى ورضي عنه، فاتفق بعض أولياء المقتول على قتله بالضريح، فجاؤوا نحوه. فلما وصلوا بابه سمعوا تلاوة الجاني به، وكان حافظا[3] للقرآن، فدخل عليه واحد منهم ليفتك به، فلم يجده، فخرج تجاه أصحابه خارج الروضة فأخبرهم، فعادوا لسماعه وهو يتلو بالضريح تحقيقا، فعمد نحوه أحدهم أيضا، غير الأول ليفتك به، فلم يجده. فعند ذلك اختلف أمرهم. فمن رجع عن القتل لما شاهد، ولو أسلم الجاني نفسه سلم ونجا، ومن بقي مصمما على القتل نزلت به مصيبة شغلته عما أراد. فآل أمر الجاني إلى أن عفوا عنه، وكل ذلك من بركة هذا الإمام الجليل، ونقطة من بحره، وتصديقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «هم القوم لا يشقى جليسهم»[4].

الثانية: حدثني الثقة من الطلبة وقد جرى ذكر العين، وأنه[5] ﷺ قال فيها:

---

1 – ساقطة من د.

2 – في ج "كلتا".

3 – في د "حفيظا".

4 – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم 2689، 4/ 2069.

5 – في د "أنهم" تصحيف.

«العين حق»[1]، أن رجلا هاهنا بِتَنَغْرَاسْ مر ببئر لرجل[2] ذات نضح[3]، فنظر إليها شزرا فانهارت لحينها، فلما جاء رب البئر سأل عن المار بها فقيل له: فلان، فقال: لأقتصن منه فذهب لحينه لبئر المار فنظر إليها فانهارت لحينها.

الثالثة: وحدثت من ثقة آخر أيضا أن رجالا بجَاوَزْ جلسوا على قارعة الطريق فمر بهم خشاش من النمل الكبير، وهو حامل لريشة كبيرة، وهي لا تجر في الأرض، فقال أحد الجالسين: انظروا إلى هذه النملة تقدر على الرواح لكذا المفازة – ذكر ها من مفاوز طريق الحجاز- فانقلب الخشاش لحينه بطنا لظهر بمرأى من الجالسين، فقام إليه بعضهم فإذا هو ميت.

الرابعة: حدث آخر أن شخصا مر بطائر بنخلة وله هدير، فوقف وقال له يخاطبه: مالك، فسقط لحينه ميتا.

الخامسة: يحكى أن امرأة هذه الأيام طلقها زوجها البتة؛ فلم يجد سبيلا إلى تحليلها، ثم أن المرأة وهي ذات مال عريض بعثت من غير مواطات مع الزوج *79* المطلق لفقير من طلبة المدرسة تعرض بتزويجه لها، فعد ذلك من المحال. فلما اشتدت في ذلك أجابها، وعقد عليها وبنى بها كما يجب شرعا، ثم نشزت منه كل النشوز تريد بذلك الرجوع إلى الأول فامتنع الثاني من الطلاق، فترافعا للحاكم ودعت المرأة للنفقة، فأثبت الفقير أنها عالمة بفقره بل بطوافه على الأبواب، فحكم الحاكم بسؤاله، وفرض النفقة فيما يحصل له من السؤال، فلم ترض المرأة، فعاملها الحق سبحانه بنقيض قصدها، فقبض زوجها الأول فورثها الثاني.

خاتمة:

وقفت بهذه البلدة على **اختصار نوازل** الفقيه أبي عبد الله بن الحاج، ولم أكن رأيت الأصل فيما سلف من عمري، ولا هو بالخزانة الناصرية، وقد

---

1 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب العين حق، رقم 5408، 5/ 2167، ولفظ: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال " العين حق" ونهى عن الوشم.

2 – في د و ج "رجل".

3 – في خ "ناضج".

اشتدت رغبتي وطلبي له، فلم أقف إلا على هذا الاختصار، وهو لأبي زيد عبد الرحمان بن زيد بن الخطيب أبي القاسم بن شعيب، نحو تسع كراريس من الكبير إلى النهاية في التحرير، محتوٍ على غرائب من الأحكام والنوازل مطروزا بأبحاث، مبدؤه بالطهارة وغيرِها من القواعد وما ينضاف إليها من الأحكام، وختم بمسائل مفردة وأحاديث ومسائل من التفسيرواللغة ومسائل جامعة في مظان شتى.

قال في أوله: «لما استنسخت كتاب **نوازل** الفقيه الإمام قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج رحمه الله رغبة في الاستفادة منه، ونظرت فيه فألفيته عذب المناهل جم المسائل مفيدا للمسؤول والسائل جاريا في نص أحكامه على طريق السنة، وما اختاره الصدور الأوائل. ولم يكن سبق أحد فيما أعلمه إلى تبويبه وتقريب مسائله للطالب وترتيبه، عمدت مستعينا بالله تعالى إلى أن أجمع فريده، وأقرب للطالب المستفيد بعيده، فأضم كل مسألة إلى شكلها، وكل نازلة فيه إلى مثلها، وأرتبه ترتيبا، وأبوبه على حساب المصنفات تبويبا، وأجعل كل باب منه فصولا معربة عن فوائده ومقربة على من يؤمل الانتفاع بفوائده». إلى أن قال: «ونقلت مسائله على حسبها من غير زيادة فيها ولا نقص، إلا ما تكرر من المسائل، الحرف بالحرف، فإني أقتصر في ذلك على واحدة وربما وقع في نسختي منها *80* مسائل فيها بياض لم يكتب عليه شيء، ومسائل فيها بعض إشكال وخلل نقلتها على حالها، فعسى الله أن يمن بأصل صحيح تصلح منه تلك المواضع، إلا ما يغلب الظن بإصلاحه، فإني أصلحه عليه خارج المتن. وسميته **تقريب المنهاج لفوائد نوازل ابن الحاج**» هـ. وأما الأصل فقد طال بحثنا عنه، فلم نره، فهو عزيز الوجود حتى في الزمن السالف بدليل كلام مختصره وفي **نوازل** الكوار[؟] منه، وليست في عهدة تصحيفه غريب.

قال ثابت: فرض الأرض كراؤها بالعين والفرض، خلاف العرض[1]، ومنه الحديث أن يزيد بن عبد الملك[2] كتب إلى أهل مصر أن أمير المومنين قد

1 – في د "الفرض".

2 – يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولد سنة 71 هـ، وولي الحكم بعد عمر بن عبد العزيز=

زادكم في أعطياتكم عشرة عشرة فلا أعلمن ما باعها رجل بعرض[1] ولا فرض فإن ذلك لا يصح. وسئل سعد بن أبي وقاص عن الأرض البيضاء يؤاجرها صاحبها بالذهب والفضة، قال: ذلك فرض الأرض، ثم رمز بالعين هكذا «ع»، ولعله عياض. قال: رأيت بخط الشيخ أبي عبد الله بن عتاب ﷺ على ظهر كتاب **الوصايا** الأول من مدونته أنشده عبد للمستهل[2] بن الكميت[3]: (من الطويل)

يَعُدّونَ لي مَالا[4] فَهُمْ يَحْسُدُونَنِي ... وَذُو المَالِ قَدْ يُغْرَى بِهِ كُلّ مُعْدَمِ
وَلَوْ حَسَبُوا مَالي طَرِيفِي وَتَالِدِي ... وَفَرْضِي وَعَرْضِي[5] لَمْ يَكُنْ نِصْفُ دِرْهَمِ

ووقفت بالبلدة أيضا على **نوازل** منسوبة لأبي عبد الله محمد العربي الفاسي، منها ما أجاب به هو. ومنها جواب الغير فجمع هو الجميع، وهي نوازل محررة إلى الغاية، صغيرة الحجم إلى النهاية في كراريس، وفيها البيع على الحكاية جائز، وبه العمل. قال: ومثاله [ك]أن تقول مات فلان وترك فلانا وفلانا وفلانة، ثم ماتت فلانة المذكورة وخلفت زوجها فلانا وابنها منه فلان، فباع فلان نصيبه من فلان، فذلك جائز، والصلح مثل البيع. نقل لنا ذلك المفتي شيخ علي بن هارون. والمسألة في ابن سلمون وغيره.

ومنها، هل يجوز أخذ أموال المفسدين للزرع ومثله إذا جعل أرباب الزرع درهما لكل بهيمة تفسد الزرع، قاله البرزلي. وليس هو من باب الإجارة، وإنما هو من باب النكال والزجر بالعقوبة، في المال، الجائزة في صدر الإسلام. وقد أخبرنا السيد الفقيه الحافظ سيدي موسى بن عقدة أن الولي

= بعهد من أخيه سليمان، توفي سنة 105 هـ. انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1408/ 1988، 197 – 198.

1 – في د "بفرض".

2 – في خ "المشتمل".

3 – المستهل بن الكميت بن زيد الشاعر الأسديس الكوفي. راجع **معجم الشعراء** للمرزبادي: 867.

4 – ساقطة من ح.

5 – في **معجم الشعراء** "وقرضي وفرضي".

الصالح سيدي عبد الله بن أحمد المدفون خارج مكناسة الزيتون[1]، سار بركب الحج والتزموا *81* التزاما يأخذونه ممن اغتاب منهم أحدا فجمعوا من ذلك أموالا وافرة[2]، وكان ذلك في عصر الامام ابن عرفة، فسألوه فأفتاهم بأكله، وكان سيدي ابوعمران المذكور يفتي بإباحة ذلك للردع والزجر عن الفساد، ربما قالوا قولٌ قاله أبو القاسم بن خجّو.

ومنها، الحيازة في التصيير عشرة أيام، وقيل عشرون وقيل ثلاثون، وبه الفتوى والعمل. ونظمه في **العمل الفاسي**، مقتصرا على ما به العمل. ومراده، والله أعلم، أن الشيء المصيّر إذا رجع ليد ربه بعد هذه المدة فحصل مانع الحوز، من موت أو فلس[؟] وهو في يده، فلا يبطل بذلك التصيير، والله أعلم.

ومنها، من أخذ شيئا على وصف يظن أنه فيه، وليس هو فيه كبعض الطلبة المدرسين وبعض الفقراء فإنه يُسْترْجَعُ منهم جميع ما أخذوا. ويحكى من هذا المعنى ما روى عن الشيخ أبي يعزى[3] عن التادلي شارح **المدونة** و**الرسالة** أنه أعطاه والده مالا يستعين به على طلب العلم، فلم يحصل له شيء، فأراد والده الرجوع عليه بما أعطاه، فتداعيا إلى صالح وقتهم وأظنه[4] الشيخ أبا يعزى فدعا للتادلي، وقال له: اللهم فهمه **المدونة** كما فهمتها لمؤلفها، فكان من فهمها للتادلي ما كان حتى كانت **المدونة** تصحح من فهمه، انظر ابن مرزوق[5] في شرح المحل المذكور، وانظر **أجوبة ابن رشد**، وانظر في رسم

---

1 – مكناسة الزيتون بكسر الميم، كما جزم ياقوت الحموي في **معجم البلدان**. ولم تكن إضافتها للزيتون مقارنة لنشأتها وإنما حدثت بعد ذلك عند إنشاء الزيتون بها وإنما صارت تضاف إليه وقتئذ للتحرز عن مكناسة القبيلة الحالية أحواز تازة التي بينها وبين فاس. انظر: ابن زيدان، **اتحاف** أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، سنة 1348 – 1352 / 1930 – 1933، 1/ 20 وما بعدها؛ الحميري، **الروض**. . .، 544؛ الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 181.

2 – في د "مالا وافرا".

3 – ساقطة من خ.

4 – في د "وضنه".

5 – محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق (الحفيد)، انتفع باسرته التي تصدرت العلم في تلمسان، وخاصة عمه وجده الخطيب ابن مرزوق، كما سمع من أكبر شيوخ عصره. انظر: أحمد البلوي، ثبت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1403/ 1983، ص 293 – 294.

سلعة سماها من سماع ابن القاسم من اشترى جارية فتصدق بها، ثم ظهرت أنها حرة فرد البائع الثمن بأنه يكون للمتصدق أو ورثته لا للمتصدق عليه. ومنها في **سراج المريدين** لابن العربي القاضي : إذا حكم برأيه وصادف الصواب فهو في النار لجسارته على الأحكام الشرعية بغير علم.

ومنها، بيع الحلي مزايدة، منعه ابن عرفة قال: على المعروف في الصرف بخيار. ولابن أبي زيد أول مسألة من ترجمة المناجزة في الصرف ما يقتضي الجواز، وبهذا كان ابن سراج رحمه الله يفتي وهو مقتضى ما لابن جماعة إذا كان المبيع مصوغا من تمام البيع قبض البائع الدلالة والفائد القباب، يعني وكان البيع ينفذ بحيث يكون صرفا تجب فيه المناجزة، فإن ما يلزم البائع من دلالة أوغيرها هي من جملة الثمن، وشرط قبض البائع لها وذلك مقصود وهو من الدقائق لأن ذلك إحالة.

ومنها، مما فتح به على الشيخ البلالى: اللهم لك الحمد بكل شيء تحب أن تحمد به على كل شيء تحب أن تحمد *82* عليه، اللهم لك الشكر بكل شيء تحب أن تشكر به على كل شيء تحب أن تشكر عليه، حمدا وشكرا دائمين بدوامك، عدد ما علمت وزينة ما علمت وملء ما علمت ومداد كلماتك، وأضعاف أضعاف ذلك، اللهم لك الحمد ولك الشكر بذلك على ذلك. قال شيخنا الفقيه الصوفي سيدي محمد بن علي التجيبي رحمه الله، ومن خطه نقلت: يقال في كل يوم مائة مرة فإن في ذكره أمانا من البلاء ومن جميع الفتن والأهوال.

ومما وقفت عليه أيضا بالبلد تقاييد قليلة منسوبة لأبي زيد عبد الرحمان ابن محمد العارف الفاسي منها لغيره: (من الرجز)

شَرْطُ الذي يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفْتَى	وَيُقْتَدَى بِفِعْلِهِ إِنْ أَفْتَى
دِينٌ قَوِيمٌ وَتَقِيٌّ مُشْتَهِرُ	وَفِقْهٌ ذِهْنٌ هَذَّبَتْهُ الفِكَرُ

ومنها لأبي العباس بن العريف دفين مراكش رحمه الله تعالى ورضي عنه : (من البسيط)

بشْرَى لَهُمْ قَصَدُوا الحَبيبَ واسْتَبَقَوْا ... مَعَاهِدَ المُصْطَفَى وَالشّوْقُ قَدْ لاَحَا
سَارَ الرّكَابُ وَسُوءُ الحَظّ أَقْعَدَني ... وَلَمْ أَجِدْ لِبُلُوغ القَصْد مفْتَاحَا
هَبّتْ رِيَاحُهُمْ طَابَتْ نُفُوسُهُمْ ... وَحَازُوا كُلّ المُنَى وَالعَقْلُ قَدْ فَاحَا
أَسَائرِينَ إِلَى المُخْتَار مِنْ مُضَر ... سِرْتُمْ جُسُومًا وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا
إِنّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَعَنْ قَدر ... وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذرٍ كَمَنْ رَاحَا

وكنا نعتقد أن الأبيات للقاضي عياض حتى رأيناها منسوبة لمن ذكر.

وأنشد الشيخ زروق رحمه الله: (من البسيط)

هَذَا التّصَوّفُ عِلْمٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ ... إِلاّ ذَكِيّ الحِجَا بِالعِلْمِ مَوْصُوفُ

وأنشد لغيره في أولاد المرابطين المتربطين :(من البسيط)

يَفْتَخِرُونَ بِأَجْدَادٍ لَهُمْ سَلَفُوا ... نِعَمْ الْجُدُودُ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا خَلّفُوا

وأنشد لغيره (من المقتضب)

دَع المَحْمُولَ والمَوْضُوعَ ... وَالايجَابَ والسّلْبَا
وَخُذْ في الزّادِ للأُخْرَى ... وطَهّرْ يَا أخِي القَلْبَا[1]

وأنشد لابن وفا[2] رحمه الله تعالى :(من السريع)

يَأَيّهَا النّاسِي لأذْكَارِنَا ... مَاذا لناسينا مِنْ الخَيْر فَاتَ
اذْكُرْ بِقَلْبِكَ وَلاَ تَغْفُلَنّ ... فَكُلّ غَافِلٍ عَنْ الذّكْرِ مَاتَ

وأنشد لأبي العباس السبتي رحمه الله تعالى: (من الكامل)

إِنّي أَمِنْتُ طَوَارق الحَدَثَان ... لَمّا تَعَلّقَ بِالاله جَنَانِ
83 وَحَصَّلْتُ فِي الفِرْدَوْسِ نِعْمَتَهُ الّتِي ... كَانَتْ مَثُوبَةَ أَوْثَبِي وَجِنَانِ

---

1 - في د "القلوب".

2 - علي بن محمد بن وفا أبو الحسن القريشي الإسكندري الأصل المصري الشاذلي المالكي، ويعرف بابن وفا، ولد سنة 759 /1358 بالقاهرة، وتوفي سنة 807 /1404. ترجم له: محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، 1335 34-1935، 6/ 21 - 22 ؛ كحالة، **معجم المؤلفين**، 7/ 231 - 232.

فَلِذَاكَ[1] أَوْرَثَنِـــي مُغِيـبَ سِــرِّهِ   فَالعِلْمُ عِلْمِي وَالبَـــيَانُ بَيَــــانِ

ومنها عن الحاتمي: الرجل متحرك ما لم يفتح عليه[2]، فإذا فتح عليه سكن. قال: وقد وقع التنبيه على ذلك بقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[3]. وقال: إن لله عبادا يتحكمون عليه فيما يخطر لهم فيجيبهم إلى ذلك، وذلك لمعرفتهم به حين أحضر لهم ذلك فهو المتحكم غيبا وهم المتحكمون عينا.

ووقفت أيضا فيها على ثلاثين سؤالا وجوابا وردت من مكة شرفها الله تعالى على ولي الدين العراقي[4] بمصر سماها **الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية**، منها الحديث الذي ارتحل فيه جابر ﷺ مسيرة شهر أي حديث هو؟ وهل هو واحد أو أكثر؟ فأجاب: روينا في كتاب **الجامع** لأبي بكر الخطيب البغدادي: «عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: بلغني عن رجل حديثٌ عن رسول الله ﷺ لم أسمعه فابْتعت بعيرا فشددت عليه رحلي وسرت شهرا حتى أتيت الشام[5] فأتيت عبد الله بن أُنَيْس فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فأتاه، فقال: جابر بن عبد الله فأتاني فقال لي: جابر بن عبد الله، فقلت له: نعم فرجع فأخبره، فقام يطأ ثوبه حتى لقيني فاعتنقني، فاعتنقته فقلت: حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، لم أسمعه، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله العباد، أو قال الناسَ، عراة غُرْلا بهْمًا. فقلت: ما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد، كما يسمعه من قرب أنا الملكُ أنا الدّيان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة ولا من أهل النار عنده مظلمة لأخيه يقوم

---

1 – في د "فداك".

2 – ساقطة من د .

3 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد و السير، باب فضل الجهاد والسير، رقم 2631، . ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، وبيان معنى لا هجرة بعد الفتح، رقم 1864.

4 – الحافظ والي الدين أبي زرعة، أحمد بن عبد الرحيم العراقي الشافعي، المتوفى بالقاهرة سنة 820 هـ، انظر : حاجي، **كشف**. . . ، 1/ 12.

5 – في المستدرك على الصحيح "مصر". رقم 3638، 2/ 475.

حتى أقصه منه حتى اللطمة، قلنا وإنما نأتي الله تعالى عراة غرلا بهما، قال: بالحسنات والسيئات»[1]، هـ.

قلت: هذه الرواية نسبها الحافظ ابن حجر في **الفتح**[2] أيضا للبخاري في الأدب المفرد، وأحمد وأبي يعلى في مسنديهما[3] من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال، وله طريق آخر أخرجه الطبراني في **مسند الشاميين**[4]، وتمام في **فوائده** من طريق الحجاج بن دينارعن ابن المنكدرعن جابر قال: بلغني عن النبي ﷺ حديث في القصاص، وكان صاحبه بمصر فاشتريت بعيرا، فسرت *84* حتى وردت مصر، فقصدت إلى باب الرجل فذكر نحوه وإسناده صالح. وله طريق ثالثة أخرجها الخطيب في **الرحلة**[5] من طريق أبي الجارود العنسي؛ فذكر الحديث نحوه.

قلت: وفي كتاب المظالم من **صحيح البخاري**، «ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس، سمعت النبي ﷺ يقول: يحشر الله العباد فيناديهم بصوت»، الحديث...[6]. فظاهر جواب الإمام العراقي أن التصريح بالقضية ليس في البخاري، وإنما فيه الاشارة إليها في باب الخروج في طلب العلم، من كتاب العلم وليس كذلك لما علمت. وقد تقرر في المصطلح أن الحديث إذا ذكر في **الصحيحين** أو أحدهما لا ينسب لغيرهما ويتركان، وإنما ينسب لغيرهما على سبيل التبع، زاد ابن حجر: «وهم ابن بطال فزعم أن الحديث الذي رحل فيه جابرإلى عبد الله بن أنيس هو حديث السترعلى

---

1 – وقفت على الحديث عند محمد الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت سنة 1411هـ، 2/475.

2 – ابن حجر، **فتح**...، 1/174.

3 – **مسند الأمام أحمد** رقم 3، 16085/ 495؛ مسند أبي يعلى لأحمد بن علي بن المثنى، تحقيق حسين سليم أسد دار المأمون للتراث، دمشق الطبعة الأولى، 1404/ 1984 رقم 2578، 4/ 452.

4 – **مسند الشاميين** لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1405 /1984، رقم 561، 1/ 104.

5 – كتاب **الرحلة** في طلب الحديث لأبي بكر أحمد بن على البغدادي، توفي سنة 463 هـ.

6 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له..﴾. رقم 561، 1/ 104.

المسلم وهو انتقال من حديث إلى حديث فإن الرجل في حديث «الستر» هو أبو أيوب الأنصاري رحل فيه إلى عقبة بن عامر الجهني. أخرجه أحمد والطبري، وقد وقعت الرحلة في نحو ذلك لغير من ذكر». انظر ابن حجر في **الفتح**[1] و**حسن المحاضرة** للحافظ السيوطي في ترجمة السائب بن خلاد بن سُويد الأنصاري[2]، فقد ذكر أنه رحل من المدينة إلى مصر لعقبة بن عامر في حديث: «من ستر مسلما ستره الله»[3]. ثم ركب راحلته فرجع للمدينة ولم يأت به سواه.

ومنها، بعض الأوراد والوظائف التي ذكرها الأشياخ، ولا يوجد لها دليل من الأحاديث الصحيحة مثل المسبحات العشر، هل الأولى الإقدام عليها أم غيره؟ فأجاب: إتباع الوارد من الأحاديث الصحيحة أولى من الإقدام على ما في غيرها، بل ما ورد في الأحاديث الضعيفة إذا لم يصل إلى الوضع يقدم على ما في غيرها أيضا، مع أن تلك الأوراد التي ليست في الأحاديث لا منع منها إذا لم تناف[4] شريعة مقررة إلا أن ما في الأحاديث أولى.

ومنها، أن الإمام الشافعي ﵁ لم يخرج واحد من الشيخين حديثه في الصحيح مع جلالته فلأي معنى؟ فأجاب: أن الشيخين لم يسمعا منه، أما مسلم فلم يدركه أصلا، وأما البخاري فأدركه ولكن لم يلقه وكان صغيرا مع أنهما أدركا من أقدم منه وأعلى رواية، فلو أخرجا حديثه لأخرجاه بواسطة بينهما وبينه، مع أن تلك الأحاديث قد سمعها ممن هو في درجته، فروايتهما عن غيره أعلى *85* بدرجة، والعلو أمر مقصود عند المحدثين. وإنما لم يُعل إسناد الشافعي رحمه الله جدا لعلة تعميره بتأخر جماعة يساوونه في الإسناد بعده، وأعلى ما عند الشافعي روايته عن مالك، وآخر الروايات عن مالك من الثقات أحمد بن إسماعيل مات سنة تسع وخمسين ومائتين بعد الشافعي بنحو خمس وخمسين سنة.

1 – ابن حجر، فتح...، 7/ 496.

2 – جلال الدين السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1997، 1/ 177.

3 – أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم 17000، 4/ 104.

4 – في د "تنافي".

قلت: في **البخاري** في «باب تفسير العرايا، وقال ابن إدريس: العرية لا تكون إلا [بالكيل][1] من التمر يدا بيد [و]لا تكون في الجزاف»[2]. وفي جمع من شروحه جزم الجيزي في **التهذيب**، وابن التين: أن ابن إدريس هذا هو الإمام الشافعي. وقيل هو عبد الله بن إدريس الأودي، ورجحه القابسي، وتردد ابن بطال ثم السبكي في **شرح المهذب** ومثل هذا الخلاف وقع للشروح في كتاب الزكاة من البخاري، قال ابن السبكي[3] في **الطبقات الكبرى**:«لم يرو البخاري في **صحيحه** عن الشافعي وإنما ذكره مرتين، مرة في الزكاة، ومرة في البيوع»[4].

قلت: وأما الإمام أبو حنيفة فلم يخرجها له في صحيحهما أيضا، وإنما ذكر البخاري في **صحيحه** النعمان مرتين؛ وقد تردد أيضا الشراح هل هو أبو حنيفة أو غيره، فليحرر ذلك. وأما الإمام أحمد بن حنبل فليس له في **صحيح** البخاري رواية إلا في موضعين، أحدهما في باب ما يحل من النساء، وما يحرم من كتاب الرضاع. قال فيه: «وقال لنا أحمد بن حنبل»[5]. الثاني أخرج عنه في آخر المغازي حديثا واحدا بواسطة[6].

قال الحافظ ابن حجر: «وكأنه لم يكثر عنه لأنه في رحلته القديمة لقي كثيرا من مشايخ أحمد فاستغنى بهم. وفي رحلته الأخيرة كان أحمد قد قطع التحديث، فكان لا يحدث إلا نادرا فمن ثم أكثر البخاري عن علي بن المديني دون أحمد»[7]، هـ.

1 – ساقطة في النسخة والزيادة من **صحيح البخاري**.

2 – صحيح البجاري كتاب البيوع، باب تفسير العرايا، 2/ 764.

3 – عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تاج الدين، مؤرخ، فقيه، تولى القضاء في الشام بعد أن انتقل إليها من مصر، توفي بالطاعون سنة 771 هـ. من مؤلفاته: **طبقات** الشافعية الكبرى، جمع الجوامع، والأشباه والنظائر. ترجم له: ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1966، 2/ 425.

4 – عبد الوهاب السبكي، **طبقات** الشافعية الكبرى، المطبعة الحسنية بمصر، الطبعة الأولى، 1324/ 1906، 2/ 157.

5 – **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب ما يحل من النساء وما يحرم.

6 – باب كم غزا رسول الله ﷺ.

7 – ابن حجر، فتح...، 9/ 154.

ذكر خروجنا من سجلماسة حفظها الله من كل آفة

ولما كانت صبيحة يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الثانية، ارتحلنا آمين منزل الركب من الماجن ذي الأرضين الواسعة، فوجدنا حجاج أهل سوس قد سبقوا مخيمين بغابة سيدي المشهور، ولي هناك بساحة الغرفة مذكور، فخيمنا بإزائهم موافقة لهم، ورفقا بهم وتتميما لغرض حجاج أهل الغرفة، فما صليت المغرب حتى جاء الأمير ومن معه من بقية حجاج البلدة فاطمأنت إذ ذاك القلوب، ووثقت من خالفها بنيل المرغوب، واجتمع *86* من جموع الحاج ومن أنضاف له من أخلاط الناس ما تعجز عنه الأقلام في ساعة القرطاس، وبات الناس ليلتهم يسبحون في أودية الفرح والسرور، ويلهجون بسُعدى وبما تقلدته من در النحور، حامدين الله تعالى على ما أولاهم، شاكرين فضل ما أعطاهم. فلما صليت الصبح وأسفرعن وجهه النهار، نودي بالرحيل البدارالبدار، فعند ذاك ينشد حال من اطمأنت به الدار وقر به القرار: (من الكامل)

لَمّا عَلِمْتُ بِأَنّ القَوْمَ قَدْ رَحَلُوا ... وَرَاهِبُ الدّيرِ بالنّاقُوسِ مُشْتَغِلُ[1]
شَبكْتُ عَشْرِي عَلَى رَأسِي وَقُلْتُ لَهُ ... يَا رَاهِبَ الدّيرِ هَلْ مَرّتْ بِكَ الإبِلُ
فَحَنّ لي وَبَكَى وَرَقّ لي وَشَكَى ... وَقَالَ لي يَا فَتَى ضَاقَتْ بِكَ الحِيَلُ
أمّا الخِيَامُ الّتِي قد جِئْتَ تَطْلُبُهَا ... بالأمْسِ كَانُوا هُنَا وَاليَوْمَ قَدْ رَحَلوا
يَا رَاحِلِينَ مهلا قِفُوا أُوَدّعُكُمْ ... فِيكُمْ رَجَائِي وَلَكِنْ خَانَنِي الأمَلُ

فودع الناس أهاليهم، ووكلوا أمورهم لبارئهم. فارتحلنا قاصدين قصدنا، مارين بماء المداكيك وعونات[2] الغربال حتى خيمنا بتلغمَت، ويغلب على الظن أن المناهل الثلاثة، تجتمع بها سيول الأمطار، فمن أجله يحفر نحو ذراع فيظهر الماء به عذوبة المطر ولونه خصوصا الأخير مع ما هو المحل

1 –الأبيات في: **المستطرف** للأبشيهي، 2/19.

2 – في د"عوينة".

عليه من حطب ومرعى للإبل، إلا أن به أفاعي كثيرة توجد على الماء، فلقد شاهدت من قتل به أربعا، ونادى مناد الركب بالليل بحمل الماء والحطب والكلأ لمسافة الحماد، التي لولا معونة الله تعالى ما قطعها حاضر ولا باد.

تنبيه: جرت عادة حجاج سجلماسة ومن انضاف إليهم بصبغ أيديهم وأرجلهم بالحناء حتى تسود بذلك الأيدي والأرجل جدا، ولقد شاهدنا من ذلك العجب حتى رأيت شريفا من أهل البيت ينيف سنه فيما حدثني به على التسعين مع ما هو عليه من الدين والصلاح، مخضوب الأيدي والأرجل، فقضيت من ذلك العجب، وسألت غير واحد منهم عن ذلك فاعتل بالشريف، وآخر بأنها عادة أهل البلد، وآخر بأن القصد بها دفع ما عسى يتطرق للأيدي والأرجل من الشقوق ونحوها بسبب مناولة الدواب ونحوها من حمل الأثقال، ومناولة الحطب والكلأ وغير ذلك. ولا إخال الحامل على ذلك إلا مجرد اقتفاء العادة والشريف، وقد سئل *87* الحافظ السيوطي هل يجوز اختضاب الأيدي والأرجل من الرجال من غير ضرورة، وهل ورد في ذلك شيء من السنة؟ فأجاب حسبما في **الحاوي للفتاوي** أنه جائز للضرورة، وصرح النووي بسنيته في **شرح المهذب**، لما ورد من الأحاديث الصحيحة منها: «أن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[1].

ومنها، لما أُتِيَ بأبي قحافة يوم الفتح ورأسه ولحيته كالثَّغَامَةِ[2]، فقال رسول الله ﷺ: «غيروا هذا واجتنبوا السواد»[3]، وأما لغير ضرورة فحرام إلا لحاجة، ودليله الحديث الوارد في النهي عن تزعفر الرجل[4]. قال النووي:

---

1 – جلال الدين السيوطي، **الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والنحو والإعراب وسائر الفنون**، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1407/ 1977، 1/ 74.

2 – قال ابن الأثير في **النهاية**: الثغامة هو نبت أبيض الزهر والثمر يشبه به الشيب. وقيل هي شجرة تبيض كأنها الثلج. انظر: السيوطي، الحاوي، 1/ 74 هامش 2.

3 – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد. ولفظه عن جابر: "أتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد" رقم 2102.

4 – راجع **فتح الباري** كتاب اللباس، قوله باب النهي عن التزعفر للرجل رقم 5508، 10 /304.

«علة النهي اللون لا الرائحة، والحناء كالزعفران»[1]. وفي الحديث أنه ﷺ أتى بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء، فقال: ما بال هذا؟ فقيل: «يا رسول الله يتشبه بالنساء فأمر به فنفي إلى النقيع»[2]. وفي **نوازل ابن هلال:** وأما الاختضاب بالحناء للرجال فرأيت لأبي الفضل في **المدارك** عن بعض الأئمة أنه كان يخضب رجليه ويديه، ولم أر ذلك لغيره. وفي **المدونة** من حديث أبي أيوب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: الحناء والتعطر والسواك والنكاح»[3].

وأقول الذي تقتضيه القواعد الفقهية أن الرجل إن فعله في يديه ورجليه للتزين كالنساء فهو كالكحل ونحوه، وإن فعله للتداوي فلا بأس به كالكحل أيضا، وكذلك لم يقصد به التزين، وإنما وقع له ذلك اتفاقا كما إذا أراد أن يخضب رأسه لحر أو نحوه؛ ولم يجد من يخضبه له على ما ينبغي له ويريد هو أن يباشر ذلك محافظة على الطهارة وسقوط الحناء مثلا على ثيابه، وتناول ذلك بيده فصبغت اليد من غير قصد، وإلا فلا، هـ.

رجوع، ثم ارتحلنا بعد طلوع الفجر، وما اشتد النهار حتى علونا الحماد في رياح عاصفة، فكان كما قيل أراض واسعة، ومواطن من العمران شاسعة، لا يهم المرء فيها إلا نفسه، ولا يكون بغير راحلته أو عصاه أنسه. أرض لا يجول في فضائها إلا عواصف الريح، ولا يجترئ على قطعها إلا ذو خف أو جناح. أرض حرشة وعرة، يغني عن وصفها ما لها من الشهرة، لا خصب فيها ولا فلا[4]، ولا ماء إلا ما في القرب وإلا فلا، ولا يرى في وجهها إلا الصّلاع[5]، وليس للإبل إلى غيره اطلاع. وسرنا سيرا خفيفا إلى أن تعدينا

1 – ينظر: السوطي، **الحاوي**...، 1/ 74.

2 – أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الحدود، باب ما جاء في نفي المخنثين رقم 16467، 8/ 224.

3 – وقفت على الحديث عند عبد العظيم المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار االكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417، رقم 2942، 3/ 27. لم أقف عليه في **المدونة**.

4 – الفل: الأرض لا نبات فيها.

5 – الصلاع: صلاع الشمس حرها. انظر: **لسان العرب**، مادة "صلع".

عش الغراب غير بعيد، *88* فحططنا الرحال، وما منا من أحد إلا وجمله بين يديه عتيد، ثم ارتحلنا بعد الفجر ولم ترتفع الشمس قدر رمح حتى شرعنا في نزول العقبة، وهي أصعب وأطول من الأولى بغير ما درجة، فلقيت الإبل بها شدة، وهلك منها بسببها عدة، وبلغت القلوب من أربابها الحناجر، فكادوا أن يتشاوروا لولا لطف بارئهم سبحانه ذي المقادير، فلم ينفصلوا عنها حتى وجب الزوال فزال العناء من فضل الله ذي النوال، فبتنا قبيل العصر بواد وَلْدِيسَنْ، وبه مياه مختلفة والمحفور في غابة الصفصاف أعذب وأبرد مع كثرته، وغيره أضر على البطون لجريانه على جبس معد، ثم منه بعد الفجر، فنزلنا ضحى بضاية العمود، ذات العذب الفرات والكلأ والحطب المعهود، رفقا بالإبل وما حل بها، وانتهاز الفرصة اللهم من غنم كثيرة نزلتها من جانبها، [وسمي المكان بذلك لربوة به منصوب عليها عود من خشب هنالك][1]. ثم منها بعد الفجر، فمررنا بعد أن تعالى النهار بالحُميدة، تصغيرا للحماد وتشبيها لها به، فذكرنا بعض ما لقينا به فقلت فيها ارتجالا: (من المجتث)

بِنْتُ الْحَمَادِ تَجَلَّتْ	وَوَعَدَتْ بِوِصَالِ
فَخِلْتُهَا ذَاتَ حُسْنٍ	يَسْلُو بِهَا قَلْبُ سَالِ
وَاذْكَرَتْنِي هُمُومًا	لَمْ تَجْرِ قَطُّ لِبَالِ
لا حَمَلَتْ فِي فِجَاجٍ	يَحَارُ فِيهَا مَقَالِ

فمررنا بواد الصفصاف، وغالب ما يحفر به ليس بذلك عدا موضع به قل من يعرفه فماؤه عذب، ثم بتنا بواد كير القريب ماؤه من الأجاج، فوجدناه قريب العهد بالسيلان [وهو كما قيل واد أفيح ملبس بالأشجار، قليل الأشجار، كثير المرعى، غليظ المسعى، تجتمع إليه السيول من المسافات البعيدة، ولا تصل إلا بعد أيام عديدة، وابتداؤه من ناحية بلدة أيت عياش، وعليه قرى ومزارع، ويمتد كذلك إلى ناحية الصحراء، والعمارة متصلة في جوانبه إلى أن يصل إلى أطراف الحماد الكبير الذي بينه وبين سجلماسة، فمن هناك تنقطع العمارة إلى أن يصل إلى قرى وادي الساورة، فتتصل

1 – ساقط من د وفي طرة ج وخ.

قراه كذلك نحوا من عشرة أيام إلى قريب من توات، فينعطف يمينا في رمال كثيرة، وهو أطول أودية المغرب مسافة، وأقلها فائدة وأكثرها مخافة][1].
ثم منه بعد الفجر، فوصلنا القنادسة ضحى يوم الخميس الأول من رجب، وتعرف *89* في القديم بالعوينة، ولعل تسميتها بالقنادسة، محدثة، تسمية لها باسم من نزلها، بعد أن تلقانا سكانها من المرابطين بني الشيخ ابن أبي زيان مظهرين الفرح والسرور، مشاة وركبانا، كهولا وشيوخا وصبيانا، فتسابقوا وأخلوا بنادقهم، ونزل الركب على العادة بساحة ديارهم وبالغوا في القِرى، ووجدنا جماعة وافرة منهم ومن أنضاف إليهم متأهبين للحج فأقمنا يومين. وفي الثالث ارتحلنا والبلدة منقطعة في صحراء من الأرض، بها عيون قليلة الماء جدا مع كونها غير عذبة إلا أن البدن يصلح عليها كالدواب، يزعم ذلك أهلها، وبها نخل قليل، والبلد عامر تصلى فيها الجمعة، إلا أنه فارغ من العلم. وبه سئلت عن رجل مع زوجته من الحجاج عقد مع آخر قطعة يحملها إلى الحرمين بثلاثمائة مثقال ذهبا، وكان ذلك مبدأه بسجلماسة فلما كانوا بقرب الحماد، وكانت مفازة موحشة معطشة والرجل شيخ فانٍ، نزل عن جمله لقضاء حاجته، فذهب الجمالون بجمله آخذين الثلاثمائة وتركوه. وما علم بذلك أحد حتى إلى الليل، فاكترى رجلين من بني عطا بمثقالين يبلغانه إلى الركب. فلما وصلوه وجدوه بيد رجلين من عرب ذوي منيع. وقد كانوا واسوه بماء وطعام حاملين له على دابة لهم، فامتنعوا من تمكينه من بني عطا حتى أوصلوه للركب، وهو بالقنادسة، فتنازعوا في من يستحق الأجر؟ وهل هو على آخذ الدراهم أم على معطيها؟ فأجبت بأن ذوي منيع الآتين به إن قصدوا وجه الله تعالى، وما وجب عليهم من الموالاة وحفظ النفس، فلا أجرة لهم، إلا إن عقدها الرجل على نفسه، فإنها تجب لهم عليه، ويتبع بها الجمالين الذين تعمدوا تركه. كما أنهم يغرمون الأجرة التي استأجر بها، وأخذ الثلاثمائة بني عطا بأنهم استحقوها بذهابهم إلى الموقع المشترط عليهم فيها. وقد بالغوا في أخذه من أيدي ذوي منيع، فمنعوهم بعد أن يسقط منها كراه مثل تلك المفازة لأنه على آخذ الثلاثمائة حيث قيم عنه

1 - ساقط من د.

بالواجب، ولأن تعطيل المنفعة كاستيفائها، ولا يقال أن الأجر يثبت بتبعيض العمل، كما في حد ابن عرفة للإجارة، فليس لبني عطا الكراء بتمامه وإنما لهم بحساب ذلك*90*، لرجوع دابتهم بلا حمل لأنا نقول معنى قولهم أن الأجر يتبعض بتبعيض[1] العمل. إن الإنسان إذا استؤجر على أن يخدم في كذا من طلوع الشمس لغروبها، أو اكتريت دابة لحمل قدر[2] معين، فحملت بعضه وبقي بعضه بلا حمل أن الأجر في الأول والكراء في الثاني يتبعض بتبعيض العمل، لأن الأجر في الأولى والمكري في الثانية هوالذي قصر عما شرط عليه، فعومل بنقيض قصده، فتبعض الأجر والكراء كذلك بخلاف مسألتنا. فلم يقع من بني عطا التقصير عما شرط عليهم، بل بلغوا الموضع المشترط، وجدوا في أخذ الرجل من أيدي ذوي منيع، فامتنعوا من تمكينه منهم، فما بقي إلا أخذ بني عطا بجميع الكراء من الجمالين لتعديهم وتفريطهم. هذا إن كان الكراء على الإتيان بالرجل مضمونا في ذمة بني عطا. وكذا إن كان به دابة لهم منيعة فذهبت ورجعت من غير أن يركبها أحد إلا مضطرا، ويحمل عليها كذلك. وإلا كان للجمالين كراؤها لتملكهم منفعتها بالكراء، يأخذونه ممن استعملها.

وسئلت أيضا عن قراءة القرآن على الدابة فهل هو جائز أو مكروه؟ وعن قول بعض طلبة الركب فيه بالمنع، وأنه يضر بها، وأنه يوجب فسخ كرائها إن امتنع المكتري من قطعها؟ فأجبت بأن الجماهير على عدم الكراهة، وعلى القول بما درج بعض السلف. والمنع لا أعرف من قال به، ولا وجه له، ولا القول بفسخ الكراء لأن ذلك يضر بالدابة، ودليل الجواز من القرآن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[3]. ومن السنة حديث عبد الله بن مغفل رضي الله

---

1 - ساقطة من ح .

2 - في د "تحمل لقدر".

3 - الزخرف: 11 - 13.

عنه قال: «رأيت النبي ﷺ علي ناقته يوم الفتح وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] فقرأ ورجع»[2].

فإن قلت ليس في الآية والحديث دلالة التكثير من التلاوة على الدابة الذي هو محط النزاع وغاية ما فيها جواز القليل الذي من معنى الذكر والتعوذ ونحو ذلك، وذلك لا ينافي كراهية التكثير المضر بالدابة بدليل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[3]، وبدليل قول عائشة رضي الله عنها *91*: «إنه لينزل عليه وإن رأسه على فخذي وإن كادت لترض». فالجواب: أن البخاري بوب على المسألة فقال: باب القراءة على الدابة، واستدل عليها بحديث عبد الله بن مغفل المذكور[4]. قال ابن حجر: «وكأنه أشار إلى الرد على من كره ذلك. وقد نقله ابن أبي داود عن بعض السلف. وقال ابن بطال: إنما أراد بهذه الترجمة أن في القراءة على الدابة سنة موجودة، وأصل هذه السنة قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ الآية[5]، هـ[6]. وقال أيضا بعد هذا في باب الترجيع ما نصه: «قال الشيخ ابن أبي جمرة، وفي الحديث ملازمته ﷺ للعبادة لأن حالة ركوبه الناقة وهو يسير، لم يترك العبادة بالتلاوة»[7]، هـ.

ولا يلزم من ثقل الوحي به حال نزوله على النبي ﷺ حصول مثل ذلك للقارىء من أمته، حتى يقال تتضرر الدابة به إذ لم يحصل من الراكب إلا مجرد التلاوة، لا الوحي لانقطاعه، نعم السكينة تتنزل لسماع القرآن،

1 - الفتح: 1 - 2.

2 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب الترجيع ولفظه: عن عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي الله ﷺ يقرأ وهو على ناقته أو جمله وهي تسير به وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة لينة يقرأ وهو يرجع " رقم 4760.

3 - المزمل: 4.

4 - **صحيح البخاري** كتاب فضائل القرآن، باب القراءة على الدابة ولفظه: عن عبد الله بن مغفل قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يقرأ على راحلته سورة الفتح " .رقم 4747، 4/ 1921.

5 - الزخرف: 12.

6 - **فتح الباري** قوله باب القراءة على الدابة، 9/ 38.

7 - م. س، باب الترجيع، 9/ 92.

ولا تتضرر الدابة بها ضررا يوجب الثقل الذي تخيله القائل، وإنما يحصل لها بذلك طرب وسرور، ولربما يحصل منها بذلك بعض نفور، بدليل حديث البخاري عن أسيد بن حضيرفي الفرس التي جالت لما قرأ البقرة فسكت فسكنت، فقال النبي ﷺ: «تلك السكينة تتنزل لسماع القرآن»[1].

رجوع وانعطاف، ثم ارتحلنا من القنادسة تاركين قرى بشار ذات اليمين، فبتنا بقربها بمدشر وَكْد قبل الظهر، وماؤه في الصفاء لجين، وفي العذوبة حلو [بدون مين]؛ وبه سوقنا أعراب ذوي منيع. وبه سئلت عمن حلف بحرم زوجته إن لم تسق الماء أيكون كافرا ماذا يلزم الحالف؟ فأجبت أن الحالف عاص في يمينه، فإن سقت الماء انحلت عنه يمينه، وتلزمه التوبة والاستغفار، وإلا فإن ضرب للسقي أجلا ولو بالعرف ومضى زمانه ولم تفعل حرمت عليه، بمقتضى يمينه ما لم يبادر بالردة – عياذا بالله – فتطلق عليه طلقة بائنة عملا بقول **المتن**: «لا رِدّتِهِ فَبَائِنَةٌ، وَلَوْ لِدَيْنِ زَوْجَتِهِ»[2].

ثم منه، تاركين عن يميننا كدتي التوميات، فمررنا بالزويرك وماؤه عذب قليل، ووقعنا على غدير تحت جبل عنتر، فوردنا الجميع وحملنا ما فيه كفاية، ثم بتنا بعد العصر*92* بالسّهب الغَفُولي على غير ماء، ثم منه مررنا بدار دخيسة[3]، ووجدنا بها غديرا، فبتنا[؟] قبل الظهر بأبي يعلى وماؤه كثيرعذب، وتعرض لنا أولاد جرير، حلفاء حميان، بالولاول والخيل والبارود، وبالغوا في ضيافة الحجاج. وقد كانوا لما سمعوا بمرور الحاج بهم اجتمعوا لذلك – تقبل الله منهم– وأوسعوا الركب بالغنم والتمر وما يحتاجه من الإبل، فتبايع الناس واشتروا وربحوا. ثم منه، فمررنا بعين أم إلياس وبها نخل وماء ليس به بأس، وبها تلقانا أحبتنا من أهل فكيك بقضهم وقضيضهم ملاقاة حسنة، ولهم محبة تامة في الركب النبوي، وصنع عجيب

1 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف ولفظه: عن البراء بن عازب قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت بالقرآن" رقم 4724، 4/ 1914. الشطن: الحبل الطويل.

2 – خليل، **مختصر**...، 93.

3 – في الأصل:"دحنيشة"، ولا معنى له، والصواب ما أثبتنا.

في إخراج البارود، فكان سعيا محمودا ويوما مشهودا. وخيمنا قبل الظهر بإزاء مصلى الشيخ الجد أبي عبد الله بن ناصر، وأقمنا بالبلدة يومين على عادة الركب؛ تجتمع حميان وغيرهم من الأعراب فيقوم معهم ومع أهل البلد سوق عظيم به سائر ما يحتاجه الحاج، من كسوة وإبل وسمن وغير ذلك. وأوسعوا الركب ضيافة، تقبل الله منهم.

وزرنا في خلال هذه المدة ضريح الإمام العالم العلامة الشريف الإدريسي سيدي عبد الجبار اقتداء بسلفنا، وبالغ بنوه في ضيافتنا تقبل الله منهم، وأوقفونا على تفسيره من أربعة عشر[1] جزءً من الكبير. قال في أوله: إنه اختصر القرطبي، ووجدناه يزيد عليه زيادة مستحسنة، وفوائد مستغربة، يطرزها بعبارته الرائقة، ويوشيها بجواهره المزخرفة، معينا بالأنقال مولعا بالأشكال، وعلى نظم **مختصر أبي المودة** خليل لابن ابنه أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار، وهو نظم سلس عذب[2]، قال في أوله: (من السريع)

يَقُــولُ بَاسِطاً كَــفّ افْتِقَــارِ   قَاســمُ نَجــلُ عَبْــدِ الجَبّــارِ
الله أسْتعِـينُ فِي نَظْــمِ جَلِيــلِ   مُخْتَصَـرِ الشّيْـخِ المُحَقِّــقِ خليل

إلى أن قال:

وَمَــا رَأَيْنَــا عَالِـمًـا تَصَــدّا   لِنَظْــمِ مَنْضُــورِ أَبِــي المَــوَدّا

وقال في آخره:

سَمّيْتُـهُ نَظْـمَ اللّيَـالي الحِسَــانِ   مُخْتَصرًا حَوِي الفَتَـاوِي لِلْبَيَانِ
مُتَبّـعُ اللّفْــظِ بِــلاَ تَحْرِيــفِ   قَـدْرَ اسْتطَاعَـة وَلا تَطْفِيــفِ
نَحَــا بِــهِ مَنْحًــى لَطِيفَـا رَائقـَـا   كَسَاهُ بِالخَوْفِ كَثِـيرًا مُونِــقَا
*93*يُهْتَــدَى إِلَيْــهِ بِالدلِيــلِ   مِــنْ نَقْلِ مَا صَحّ مِنَ الفَهْمِ الجَلِيلِ

---

1 – في د "أربع عشرة".

2 – سماه: نظم اللآلي الحسان. انظر: المراكشي، **الإعلام**...، 6/ 201.

وقوله وما رأينا إلخ، لايلزم من نفى الرؤية نفي العلم، فقد نظمه ابن المترجم وهو بالزاوية الناصرية، ولا أدري أسبق أبا القاسم أم تأخر عنه.

وكانت لهذا الإمام ولبنيه من بعده خزانة كتب عظيمة، احتوت على دواوين غريبة ثم تلاعبت بها أيدي الحدثان، وسير الدهور والأزمان، فتفرقت شدر مدر، حتى لم يبق منها حتى الأثر. وهذه البلدة كثيرة الأشجار، طيبة الثمار، عذبة الأنهار؛ لولا معها سخونة صيفا وشتاء، عدا بعض الآبار. وهي مرسى مخزن الأعراب، منقطعة من العمران، قاعدة تجار سجلماسة وتوات وتلمسان[1]. وأهلها اليوم عجم، أهل فتن وحروب، ولهم في اللدد والخصومات في الأحكام مزيد تشعب وأنواع، وضروب الغدر شيمتهم، والفتك عريكتهم، لا ترى الرجل إلا متسلحا طالحا كان أو متصلحا، فكانوا كما قال أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار يرثي الفقيه القاضي عبد الحق الزكوني، لما فتكوا به وسط الدار، ولم يراقبوا[في ذلك] الواحد القهار: (من الطويل)

تَغَيَّرَتِ البِلادُ واحْلَوْلَكَ الليْـــــلُ ... وَشَبَّ ضُرَامُ الشَّرِّ وانْهَمَرَ السَّيْـلُ
وَآنَ الرَّحِيلُ مِنْ بِلادٍ تَأَمَّـــــــرَ ... بِهَا المُفْسِدُونَ واسْتَمَرّ بِهَا الهَـوْلُ
سَلامُ عَلَيْهَا لا تَجَاوَرُ جيـــــرَةً ... مِنَ الجُورِ عندَهُمُ إِذَا عَتَبُوا القَتْـلُ
فَلا فَتْكَـةً إلا وَتُنْسِيكَ فَتْكَـــــةُ ... وَلا فِتْنَةً إلا وَيَدْخُلُهَـا الغُــــــولُ
وَلا صُلْحٌ إلا أَثَـرَهُ أَلْفَ غَـــدْرٍ[2] ... وَلا قَوْلَ إلا غَيْرَهُ القَوْلُ والفِعْـلُ
لَتَسْكُنْ أَرْضـاً لَيْسَ يَنْهَى سَفِيهُهَـا ... وَلا يُتَّقَى بِهَا قِصَاصٌ وَلا عَقْــلُ
وَلا يَأْمَنُ الأَخْيَارَ شَرّ شِرَارِهَــا ... عَلَى خُطَى يَبْقَى بِهَا مَنْ لَهُ الفَضْـلُ
فَتَكْتُمْ بِعَبْدِ الحَقّ لا دَرّ دَرُّكُـــمْ ... عَلَى قَوْلِهِ لِلْحَقّ وَهُوَ لَهُ أَهْــــلُ
نُهِينَا عَــنْ الرُّهْبَانِ مِنْ غَيْرِ دِينِنَـا ... فَكَيْفَ بِأَهْلِ الفَضْلِ جَاءَكُمْ الوَيْــلُ

---

1 - تلمسان: صيغة جمع للكلمة البربرية تلمس ومعناها نبع أو بئر، وهي مدينة مشهورة بالجزائر في شمالها الغربي. راجع: الوزان، **وصف إفريقيا**، 2/ 17؛ أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أنحاء المعمور برا وبحرا، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، 1387/ 1967، 145؛ دائرة المعارف الاسلامية، 5/ 452 وما بعدها.

2 - في د " مقدرة ".

فَإنْ يَشْكُكُمْ خَلْقٌ إلَى الخَلْقِ مِثْلُكُمْ فَإنَّا شَكَوْنَاكُمْ لِمَنْ مَا لَهُ مِثْـــــلُ

فلا ترى في الأجنة والمداشرإلا الأبراج كأنها منارات، يتسور[1] إليها بالأدراج حتى سألت بعضهم عنه فقال: منار يؤذن لنا به الشيطان، فقلت مداعبا: أتسمعونه؟ فقال: والله يسمعه[ما بين لامتها] حتى النساء والولدان، لا يفارقه الحارس في سائر الفصول والأزمان، ديدنهم فيما بينهم غصب *94* البلاد، أراح الله منهم العباد.

والبلد ليس بها داع ولا مجيب، وغالب من بها من الأملاك حبس على غريب؛ جرى عرفهم الفاسد ببيعه في غير مهر، وبأن لا تعطى غلته فيه مدى الدهر، وبعدم إعمال الحيازة في الغلة ألا يراعى لديهم تجريح، ولا تزكية في أمور قدروها وأحكام انتحلوها، نبذوا فيها الشريعة وراءهم، وعوضوها بغيرما رأوا من آرائهم.

وسئلت بها عمن له أرض يملك رقبتها، فنقل نخيلا محبسا إليها، وغرسه فيها، ثم هلك من غيرأن يبين أنه قصد بذلك تحبيسها، هل يسري الحبس للأرض، وما حكم الفُسلان المغروس فيها؟ فأجبت بعدم السريان، بل ربما يقال إن النخيل هي التي تتبع الأرض، فيكون الجميع ملكا يورث من مالكه لتصريح ابن هلال في **نوازله** بأن الفسلان غلة. ونصه: «سمعت عن شيخنا القوري أنه أفتى أهل بلدنا بجواز بيع فُسلان الحبس؛ قال: ولا يعد عندي لأن المؤدى غلات؛ وغلات الحبس تباع، لكن إذا لم يضرغلها بالنخلة، قال: وينبغي عندي مهما وُجد للمسجد نخل تغرس فيه ومن يقوم بذلك لا تباع وتغرس للمسجد فهو أولى»، هـ.

فإذا كان المؤدي في النازلة مملوكا للمحبس عليه إذ هو غلة جائز له قلعه وغرسه في أرضه المملوكة له ولا تكون بذلك حبسا بلا نزاع، نعم إن كانت النخيل المقلوعة من الحبس المغروسة في الأرض المنقولة إليها لقيام ذلك مقام قرينة دالة على إرادة تحبيس الجميع وليس كذلك، فقلع النخل المحبس قائم

1 – في ح "يتصور".

مقام هدم الوقف. وفي **المتن** على ضعف، بل على أحد قولين مشهورين كما لأبي علي بن رحال: ومن هدم وقفا فعليه إعادته، فإذا تأتى عودها لمحلها من الحبس وترجع كما كانت فلا إشكال، وإلا لزمته قيمتها كغيرها من المتلفات توضع في حبس مثله، فيكون المقلوع مملوكا غرس في أرض مملوكة. هذا الذي حضرني في الوقت من غير نص قاطع في النازلة سوى ما ذكر، فاستظهر السائل بجواب يحمل فيها لمفتي فاس سيدي أويس، وتصحيح شيخنا القاضي أبو خريص بأن الأرض حبس، معتلين بأن غرس النخيل المحبسة فيها دليل على تحبيسها، ولم يستظهرا على ذلك بنص؛ وربما *95*يؤخذ من قول **المتن**: «وإن بنى محبس عليه[فمات][1] ولم يبين فهو وقف»[2].

الشاهد لما أجبنا به من عدم سريان الحبس للأرض لأن معناه أن المحبس عليه بنى أو غرس في أرض الحبس، ونازلتنا إنما غرس في أرض مملوكة له، فكيف يقال بسريان الحبس لها مع عدم نص من الغارس ولا قرينة تدل لذلك. وما ذلك والله أعلم إلا لغفلة جرت من المحبسين، من عدم إمعان النظر في السؤال ونحو ذلك، والله أعلم.

رجوع، ثم ارتحلنا ضحوة، فمررنا بالعرجا: واد ليس به ماء، ثم ببئر ابن حسون وماؤه صالح وربما غارفي الصيف، ووردنا غدرانا كثيرة من الأمطار، وبتنا بعد أن جاوزنا واد دَرْمَل موضع مشرف على الوادي في بطحاء من الأرض، يقال له الحاج ميمون. والوادي المذكور وجدناه قد سال بالأمطار وفيما دون الجادة من عيون عذبة متفجرة، غير جارية على وجه الأرض. يحكى أن بغلة سقطت ببعضها ولم يظهر لها أثر، وآثار عامرة سالفة مندثرة، والوادي ذوطرفاء من كثرة المياه ومرعى للإبل.

ثم منه في نعمة شاملة، نخوض مياه الأمطار تارة ونغادرها أخرى، فمررنا بأبي رزق: ماء عذب جار عليه نخيل، ومقبرة للأعراب، وآثار عمارة سالفة مندثرة، ثم على آبارالفتح وهي قريبة القعر كثيرة الماء مع

---

1 - الزيادة من **مختصر خليل**.

2 - خليل، **مختصر**...، 191.

عذوبة، وبموازاتها افترق الركب؛ فذهبت طائفة أخرى ذات اليمين على عقبة أم القرار الفوقانية الغربية، فلاقت الإبل منها شدة لحروشها وكثرة عظم صخورها، وضيقها، وذهبت الأخرى على الطريق النافذ السهل وأنا معها، فمررنا على بئر يقال له بلياطة ولابأس [ب]مائها، فلما استوى الفريقان باتا بساحة أم القرار، وأهلها - كأم القرار الشرقية- أصلهم من فكيك يتكلمون بالعجمية وغيرها، إلا أن أهل الشرقية لابأس بهم. وأهل الغربية أهل سرقة واختلاسات، وبلادها ذات نخيل وفواكه ومياه، ما أكبر بصلهم وألذ خوخهم.

تـنـبـيـه : وقع في **الرحلة الناصرية** في هذا المحل شبه سبق قلم من أجل أنه مر- كنحن - على الطريق النافد على يمين بلياطة، وسماه خنق أم القرار[1]، ليس هو لما علمت ولأن سالك طريقنا هذا يترك أم القرار الغربية ذات اليمين في خنقها، والخطب سهل.

ثم منها فمررنا على واد حجاج *96* ووجدناه سائلا بالأمطار، وبأعلاه مما يلي الظهر مياه عذبة عكس التي خضناها، إلا أنها كما قيل تصلح بالدواب، ثم على واد الصم وبه ماء عذب وقصب كثير واشتهر عند الحجاج بواد القصب، فهبت علينا به رياح عاصفة ورعد وأمطار غزيرة، فعقل من عقل إبله خشية الزلق. فسرنا غير بعيد فبتنا الرصفا الحمراء، وماؤها غير جار، يحفر فيظهر وهو عذب، وربما غار به بعض الأحيان، وبها تعرض لنا الأحبة أولاد سيدي أبي نوة صاحب أبي العباس بن ناصر، منهم الطالب المسن، آخذ العهد الناصري، سيدي العربي بن محمد والسيد محمد بن ناصر والسيد محمد بن سعيد والسيد محمد بن عبد الله، وقاموا ب[ال]ضيافة، من شعير ودقيق ولحم، تقبل الله منهم وجبر كسرهم وشكر سعيهم وأصلح ظاهرهم وباطنهم.

وبلدتهم بأعلى واد القصب يقال لها تُيوت، بلدة ذات أشجار وعنب وتين ورمان وخوخ وبعض نخيل، ومياه دافقة عذبة، وأرض حرث على الساقية، وجدهم سيدي منصور، مدفون بنواحي توات بموضع يعرف

1 - أحمد الناصري، الرحلة، ص 34.

بتجطون من بلاد كَرارة، يزعمون أنه أخ مولاي عبد الله الغزواني[1] دفين مراكش، تونر عنه كرامات. وسألوا عمن عليه دين وهو غائب بتازة والطريق مخوفة بل منقطعة وله عقار حاضر ولا قاضي بالبلدة، هل تنزل جماعة المسلمين منزلته؟ فأجبت بأن جماعة المسلمين العدول يقومون مقام القاضي في عدمه، فيباع عقاره بعد تبوت موجبات البيع، ويقضى دينه حسبما نص عليه غير واحد من أرباب النوازل والأحكام.

رجوع، ثم ارتحلنا فمررنا على مغدر الغنجاء، يزعمون أن به كهفا عظيما به كنوز تأتيه الطلبة من الأقطار خصوصا أهل سوس، على عادتهم في تتبع ذلك، ثم على الحجار الطوال، ثم على منهل برصيط وهو عذب لا يغور، وعن يساره عن غير بعد بئر أبي الغيران من أطيب مياه الدنيا، ثم على خنق المداديك، وبه عين لابأس بمائها، وعن يساره عين ماء عذبة به نخيل. فنزلنا اصفرارا بقرية أبي سمغون، تسمية لها باسم نازلها من الأولياء، وهما بلدتان في كل منهما الجمعة، والكبيرة منهما فيها أبو سمغون، زرناه في مسجد صغير، قبر في بعض زواياه خارج البلد، قريب منه. وما في **الرحلة** *97***الناصرية**، من أنه وسط البلد[2]، لعله قصد بالبلد ما يشمل القرية وما حولها من الأجنة، والله أعلم. وبها ناس ينتسبون إليه، والبلدة ذات عنب حسن تضرب به الأمثال في هذه البلاد، وغيره من الأشجار قليل، وبها عيون عذبة باردة يفضل عن أجنتها الماء، حتى في الصيف مع برودتها، فقد اتخذنا برانيسنا مع ما هو الفصل عليه من شدة الحر؛ وأهلها ضعفاء فقراء تنهبهم أعراب حميان وغيرهم، ويأخذون منهم العطاء ويخزنونه لديهم، وأضافنا منهم بنو مفتاح، تجديدا للعهد الذي بين أسلافنا وأسلافهم.

وأقمنا بالبلد يوما، وإن لم تكن دار إقامة للحجاج لما حل بالإبل في هذه الرحلة الأخيرة من حروشة الطريق، والصعود والهبوط حتى هلكت منها طائفة، وبإزاء البلدة صخورعظام، تزعم العامة في خرافاتها أن أهل

1 – في ح "الغزوان".

2 – الناصري، **الرحلة**، 35.

البلد نزل بهم ولي فقصروا من حقه، فرماهم بها الجبل الموالي للقبلة. وقامت بين الركب وبين أهل البلد وأعراب حميان سوق عظيمة حتى بقي[1] السمن والغنم بغير مشتر. وبالبلد رجل اسمه محمد بن زيان من أولاد سيدي الشيخ دفين الأبيض، من ذرية سيدي سليمان أبو سماحة دفين فكيك، اعتزل عن الناس في خلوة يزار فيها، وله صيت، ظهر عليه من الخلوة آثارها، ولاحت عليه أنوارها، معرضا عن الدنيا بحذافيرها، زرناه بالنية فأكرمنا ودعا لنا. وأولاد سيدي الشيخ المذكور بهذه البلدة الشرقية لهم صيت، ولجدهم من البنين ثمانية عشر، وتفرع من كل قبيلة عظيمة منهم أهل البادية والحضر، لا يخلون-غالبا - من قتال وحروب بينهم، ولهم عند العامة مع ذلك منزلة وحظوة، يحترمونهم ويوقرونهم.

تنبيه: ورد علينا ها هنا - أي بأبي سمغون- رجل ينتمي للعلم والصلاح، من شرفاء عين ماضي اسمه سيدي أحمد التجاني[2]. رفض سكنى بلده بعد تطليق زوجته[3] وانقطاعه للجولان شرقا وغربا، وقدومه الآن كان من تلمسان مرغما من بعض أمراء الترك بها، زعم أنه أخذ عن الشيخ السمان المدني وأجازه، وأخذ العهد على الشيخ محمود الكردي المصري، وتذاكرنا معه مسائل حتى أنجرى الكلام لعدم تحسين الظن بمتربطة[4] الزمان، فأنشد لغيره: (من المتقارب)

إِذَا لَمْ يَكُـنْ إلا الأسِنَّـةَ مَرْكَبًـا   فَمَـا يَمْنَـعُ الإنْسَـانَ إلا رُكُوبُهَـا

98 ومن تشديده، لما حضرت صلاة العصر، فرام أتباعه من أهل البلد الصلاة خلفه، فمنعهم معتلا بأنه لم ينوِ إقامة تقطع حكم السفر، معتمدا على

1 - ساقطة من د.

2 - أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية بالمغرب، دفين فاس سنة 1239 / 1814. انظر ترجمته في: **طبقات** الشاذلية الكبرى، (المسمى بجامع الكرامات العلية في **طبقات** السادة الشاذلية) للكوهن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى سنة 1422/ 2001، ص 154 - 155، ابن سودة، **دليل**...، 1 /184 - 203؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 542.

3 - في **الإعلام** "زوجه".

4 - أي بأدعياء الصلاح، مشتق من مرابط وهو في عرف متأخري المغاربة الولي الصالح. والقصد هنا التحقير أو الاستخفاف. انظر: المراكشي، **الإعلام**، 6/ 201 هامش 1.

كراهية اقتداء المقيم بالمسافر. فقلت: فضل الجماعة يجبرها، وهو أولى بالمراعاة كما قالوا، وانجرَّ الكلام للتأسف على قلة تعاطي العلم، وتدريسه وذهاب أهله، فقال: يحرم التدريس في هذا الزمان لفقد شرطه من الامتثال، وتطهير الباطن كالظاهر وتحسين النية. فقلت: لا والله لا يحرم، بل هو في هذا الزمان الذي عمت به سحائب الجهل أوجب، فاعتل بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، وبأحاديث في ظاهر معناها، وبقوله: (من المتقارب)

وهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا[2]

وقال: لا علم إلا علم الحقيقة[3].

فقلت: بعد تبحر الإنسان في علم الشريعة وإلا فقد قال مالك: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق»[4]. ثم وقفت على المسألة بعينها في أول **ذخيرة الإمام القرافي**، قائلا: اضطربت فيها فتاوى العلماء، فمنهم من يقول: لو اعتبرنا هذا

---

1 -البقرة : 43.

2 - جاء في طرة من النسخة "ح"البيت لعبد الله بن المبارك ﷺ. ورقة 98.

3 - علم الحقيقة أو علم الباطن : هو العلم اللدني عند المتصوفة، أي العلم الذي يأتي من لدن الله سبحانه، وهو يبتدئ من الباطن، أي أن الإرادة والرغبة في اكتسابه نابعة من باطن الفرد، يهبه الله لمن يشاء ولا ينبني على أية أدلة ظاهرة. وقال بعض العارفين : علم الظاهر محكوم وعلم الباطن حاكم. وكان بعض العارفين بعلم الظاهر إذا أشكل عليهم العلم في مسألة لاختلاف الأدلة سألوا أهل العلم بالله لأنهم أقرب إلى التوفيق وأبعد عن الهوى، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يختليان إلى معروف الكرخي، ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما كانا يحسنانه. أما علم الشريعة أو الظاهر : يدل على مختلف أنواع العلوم النقلية والعقلية بأصولها وفروعها، ويستشهد فيه بنصوص ظاهرة، ويتم اكتسابه بواسطة التعلم، والتحقق، والسماع، والمطالعة وغير ذلك. انظر : عبد القادر بن الحسين المشهور بابن مغيزل، الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء بسيد الدنيا والآخرة، م م و م م، رقم 1321 ك، ص 5 – 6 ؛ التفتزاني، مدخل في التصوف االإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974 ص 7 – 10؛ ابن السائح، **بغية المستفيد لشرح منية المريد**، مطبعة جريدة الإسكندرية، ص 13 – 14؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة "تصوف"، 5/280.

4 -«من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق» نسبها زروق الفاسي للإمام مالك. انظر : قواعد التصوف، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، السنة 1998ص 4. القاعدة (4).

لانحبست[1] مادة التعليم والقراءة[2]، فينقطع الشرع، ويفسد النظام فيؤدي ذلك إلى إطفاء نور الحق وإضلال الخلق حتى يطبق الأرض الكفر.

ومعلوم أن هذه المفاسد أعظم من الربا الذي قد يقع وقد لا يقع، فإنا وإن قطعنا بوقوعه في الجملة. لكن لا نعلم حال كل أحد على انفراده، فإن الله تعالى متولي السرائر، فما استوى الأمران ولا وقوعهما، ولأن العلم قربة محققة، وهذه المعاصي أمور عارضة. والأصل عدمها في كل شخص معين. ومنهم من يقول، بل يعتبر ذلك، ولا يجوز التعليم إلا لمن تغلب على الظن سلامته من هذه المعاصي، طرد القاعدة: إلحاق الوسائل بالمقاصد. وأما قول الأولين اعتبار ذلك يؤدي إلى انقطاع الشرع وتطبيق الكفر، فأجاب عنه الغزالي: «لا نسلم أنه يلزم من تحريم العلم انقطاع الشرع لأن الطباع مجبولة على الرآسة، ولاسيما بإلغاء العلوم ومناصب النبوة، واستمتاع الخلق كما لم يلزم من عدم إيجاب النظر في المعجزة عدم النظر فيها، بل ناب الطبع مناب الشرع في النظر، فإن الطباع مجبولة على رؤية المستغربات والتفكرة فيها، وكذلك لم يلزم من تحريم الربا وغيرها*99* من المحرمات عدمها»هـ.

ثم انتقل قائلا: أيهما أعلم وأحظى منزلة من الله موسى أم الخضر[3] عليه السلام؟ فقلت: موسى للإجماع على نبوته ورسالته بخلاف الخضر، ولاصطفائه بالكلام، وبأن ما اختص به الخضر من العلوم الباطنة مزايا، وهي لا تقتضي الأفضلية.

رجوع، ثم ارتحلنا تاركين طريق الشلالات وعين مصباح ذات

---

1 – في **الإعلام** " لانحسمت".

2 – نفسه "الإقراء".

3 – الخضر : عبد من عباد الله الصالحين وهو على الأرجح صاحب موسى الذي ورد ذكره في سورة الكهف الآية 64 – 65 .اختلف في اسمه ونبوته وولايته وعمره ومعاصرته للنبيﷺ، وموته، ونوع العلم الذي علمه الله إياه. انظر : الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، دارالقاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت، 7/188؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى 1351/ 1932، 1/ 325 – 332 ؛ ابن الثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، سنة 1965، 1/ 160 ؛أحمد العزفي، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد توفيق، مكتبة خدمة الكتابة، 1989، ص 81 ؛ ابن حجر، **الإصابة**. . . ، 2/ 286 – 314.

اليسار، مارين على واد الخنافيس وماؤه عذب طيب، وبه تأخر بعض الحجاج، فسلب من ثيابه وآلة حربه، و ما معه من البضاعة، وضل جمل بما عليه من حمل، فيه بضاعة وافرة، فلم يجده ربه إلى العشي من غير أن يظهر خبر لجميع ما حمل، وكان هذا كله من بعض ظلمة صعالكة الركب لخلو البلد من الأعراب.

ومررنا بعد العصر على حي من حميان يقال لهم أولاد زياد، فسوقوا الركب بالمحتاج من سمن وغنم وإبل رخيصة. وقامت نائرة بينهم وبين الركب، فتناهب الفريقان، ثم غشيتهم الألطاف الإلهية، فردت المظالم من كلا الجهتين، وبتنا على ماء عذب يقال له الدّويسْ. وربما غار، بقربه غدران مطر، استغنى الركب بها عنه، وهبت علينا به رياح عاصفة في رمال لم تبق خباء إلا وقلعته، ولا زادا إلا ودخلته، ولا عينا إلا وأوغرتها، ولا أذنا إلا وأصمتها، ولا نارا إلا وأطفأتها.

ثم ارتحلنا فمررنا بواد زْبَى ويقال ارباوات بالجمع، وبه عيون ماء لابأس بها، وعليه بلدتان صغيرتان، بهما عيون وآبار عذبة يسكنها أولاد سيدي الشيخ مع من انضاف إليهم من أولاد زياد من حميان، أحدهما يدعى قصر الريح، يحكون في خرافاتهم أن سيدي الشيخ لما ابتدأ بناءه جاءه بعض الأعراب فقالوا له: ما تفعل؟ فقال: أريد أن أبني مكانا لأولادي يستريحون فيه، فسمي قصر الريح لذلك. ولئن صح ما قيل فالصواب تسميته بقصر الراحة أو الاستراحة.

وسرنا جادين نخوض مياه الأمطار حتى بتنا في بطحاء من الأرض ذات مرعى على غير ماء تدعى المْوِتَغْ، فنزل علينا به مطر أمسكت الأرض منه في قعان الكفاية، وهذا آخر بلاد حميان وأول بلاد الأغواط، وهي قبيلة وافرة أعظم من حميان ولها شوكة عظيمة. كانوا في الزمان السالف يتعرضون للحجاج بالنهب والسرقات فتابوا فيما يحكى على يد الشيخ أبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي.

وبهذا المنزل سألني بعض *100* طلبة قسطينة[1] ممن صاحبنا من سجلماسة للحج، وهو سيدي محمد بن عمار الفحصي، به عرف، عن قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[2] فإن التعبير بالبطلان يقتضي أن الصدقة إذا انعقدت وقبلت يبطل ثوابها ما يحدث بعد ذلك من المن فيها، وإن لم ينعقد ضمير المتصدق عليه قبلُ؛ ومذهب أهل السنة أن الحسنات لا تبطلها السيآت؟ فأجبت بما حضرني، وأن المراد بالآية لاتقرنوا صدقاتكم بالمن والأذى فيبطل أجرها، لأن الله لا يقبل عملا فيه رياء أصلا، وأن صاحبه من أوذى، فانظر هل المراد أنه لا يقبله البتة، أو لا يقبله قبولا تاما بإن يكون ناقص الثواب، والتعبير في الآية بالإبطال يقتضي أن المراد بطلان الثواب من أصله، والله أعلم.

وعن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾[3] ما معنى الأمر في الآية؟ فأجبت بأن الأمر فيها معناه القضاء والقدر، أو المراد أمرنا أهلها بطاعة فلم يمتثلوا وعصوا فحق عليهم القول يعني العذاب.

ثم ارتحلنا مارين بالكراكد، واد به ماء عذب لا ينقطع صيفا ولا شتاء، عليه للأغواط دُوَيْرات[4] وبعض أشجار عنب، وكرم ومزرعة قليلة، ونساؤهم - عياذا بالله - سوقوا الركب باديات مزينات[5]. وبالعين الطيبة عن يسار الجادة وبها تسمى، وماؤها ليس بذاك؛ ثم بجبل الملح، يسمى الجبل الأخضر؛ فبتنا على غير ماء بالوادي الأحمر قرب الغاسول، إلا ما حفر به فلم يغن شيئا.

1- قسطينة : مدينة قديمة تعرف بسرتا، أعاد بناءها الإمبراطور قسطنطين (أول القرن الرابع الميلادي) وسميت باسمه. وقد خففها الاستعمال العربي بحذف ياء وطاء، فصارت قسطينة، وبذلك تميزت عن القسطنطينية. انظر : أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، سنة 1350 هـ، ص:232 ؛ العبدري، **رحلة**، 93 - 94. ويرسمها البعض:"قسمطينة".

2- البقرة: 263.

3 - الإسراء: 16.

4 - في د "دورات".

5 - في د "بادية مزنية".

ثم منه، فمررنا غدوة بالغاسول: قرية جامعة عامرة على تل على شفير الوادي ولابأس بمائه، وبه أجنة أكثر أشجارهم كرم وخوخ ومزرعة قليلة، وبوادي مُلالْ، وماؤه قليل مالح، وعليه عمارة داثرة، ثم لما انتصف النهار أوكاد تعرض لنا بالتسويق أولاد أبي رزق- فخذ من الأغواط - فأجبناهم وسرنا معهم إلى المخيلي وهو آخر بلادهم، فبتنا به، وأوسعوا الركب بكل محتاج، لا سيما الإبل، على رخصها وجودتها. وهذا المكان هو مجتمع الركبين الفاسي والسجلماسي، وبه عين عذبة كثيرة الماء عليها كروم [وقد كان به دشرعامرللأغواط، فتعرضوا للركب السجلماسي][1] بالحرابة والنهبة، وأميرهم إذ ذاك السيد حمزة الحفياني فقاتلهم وخرب ديارهم، فبقيت الآن مخربة عبرة للمعتبرين.

لطيفة : يقال المخيلي باللام وزيادة الياء، ويقال المخيل مصغرا. أما الأول فبها *101* سماه أبو سالم العياشي[2]، وعليه الجادة اليوم من الخلاء، وأما الثانية فبها سماه أبو العباس ابن ناصر في **رحلته**[3]، وعليه الأغواط اليوم وغيرهم من الأعراب، وكأنهم كرهوا التسمية الأولى، فأبدلوها تفاؤلا كما يقال للّديغ: سليم، وأما الثالثة فهي التي يقول الحجاج اليوم، ولا وجه لها، إذ ليس بالمكان ولا نخلة واحدة، اللهم إلا إن كان واندثر، وبقربه بنحو فرسخ المزارة المسماة بميسرة، وهي كما قيل: خلاء من الأرض لا عمارة عنده في أعلى الوادي عند مضيقه، وهو مكان تفد عليه الأولياء والسياح من كل بلد، وقلما يخلو من منقطع للعبادة. ذهبت إليه مع بعض المحبين من طلبة الأغواط فزرته بالنية، وبه مسجد بني بالحجارة، وبإزائه يطبخ الطعام، وفيه آلات الطبخ، يأتيه الناس من كل فج بصدقات وحلوة، يهبط إليه بأدراج منسوبة لسيدي

---

1 - ساقط من د.

2 - العياشي، **ماء الموائد، ليبيا وطرابلس وبرقة**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، محمد عبد الهادي شعيرة، محمود حسن عطية السعران، نبيل حسن محمد، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1996، ص 182.

3 - الناصري، **الرحلة**، 37.

الشيخ، وعن قرب منها أخرى تنسب للإمام الجيلاني[1]، وبه مقبرة عظيمة، وهو لذلك مكان معظم عند الخاص والعام، تلوح به الأنوار، إلا أن العامة اعتقدت فيه اعتقادات، وأحدثت فيه منكرات، وزورت فيه تزويرات لا تقوم على ساق، ولا لها فصل من أصل. [ومن هذا الجبل الأخضر بدكالة المغرب].

ومنها، طوافهم بمسجده سبعا كالكعبة، بل يزعمون في خرافاتهم أن الكعبة إذا خربت في آخر الزمان ينتقل الحج إليه، حتى حدثني بعض طلبة الأغواط أنه رأى في ذلك تأليفا مشروحا، وإن صح ما زعمه، فما هي إلا أساطير الأولين، يرويها الأخيرون عن الأولين.

ومنها، أن بهذا المسجد طاقة قبلية عن يمين المحراب على مايقرب من قامة، يزعمون أن من قدرعلى الدخول من خارج لداخل كان ذلك علامة على سعادته، ومن لا فلا.

ومنها، أن بقربه كركورا مكونا من الصخور، يزعمون أن النبي ﷺ جلس عليه.

ومنها، أن بقربه موضعا يقال له صلاح الرحمة بدلا، في زعمهم، عن مقام إبراهيم، ومن دخله أيضا كان آمنا.

ومنها، أن عبد الله بن جعفر وعلي بن أبي طالب قاتلا الروم بهذا المكان، قالوا: ومعه الملائكة والصحابة، وعينوا قبرين مشهورين هناك لصحابيين، ومشهدين على باب المسجد للكين، قالوا: أحدهما اسمه شالو والآخر شكور.

---

1 – الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بالجيلاني أو الكيلاني، صاحب الطريقة الصوفية القادرية المنتشرة في بلدان العالم الإسلامي، له عدة مصنفات في التصوف. توفي ببغداد سنة 560/ 65 – 1166. انظر ترجم له: : مخلوف، **شجرة...**، رقم 545، 1/ 236 – 237 ؛الذهبي، **شذرات الذهب**، 4/189 ؛ يوسف بن تغرى، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة وصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 5/ 371؛ القادري، **نشر...**، 1/ 311 ؛عبد الوهاب الشعراني، **الطبقات الكبرى**، مطبعة مصر، 1/ 180؛ إسماعيل البغدادي، **هدية العارفين وأسماء المؤلفين و آثار المصنفين**، مطبعة وكالة المعارف، إسطنبول، 1995م، 1/ 596.

ومنها، أسفل من المسجد سدرة يزعمون أن الصحابة ربطوا بها خيلهم.

ومنها، أن بمنعطف الجبل عن غير بعد من المسجد*102* عينا شربتُ من مائها العذب البارد، يزعمون أن أصل مادتها من زمزم.

ومنها، أن بأسفل الجبل بميل، أو ما يزيد عليه، حجرا يقرب من البياض مخروق في وسطه، وعلى طرفه مدور به صخور وحجارة وحصى وغير ذلك من آثار زيارة العامة لها، يزعمون أن جعفرا أو عليا تبع كافرا هرب منه فدخلها وضربها أحدهما بسيفه، فقصمها كما هي الآن، حتى وصلت الضربة للكافر فهلك.

الحاصل كلما تعتقده العامة في هذا المكان، غير الزيارة ووجود الأولياء، باطل لا أصل له. ويا عجبا من الشيخ أبي سالم العياشي، ذكر المكان ووصفه بأنه مجمع الأولياء، ومحل الزيارة، ولم يذكر شيئا من هذه الخرافات، ولا نبه على بطلانها، ولعله سكت عنها لظهور فسادها لكل من معه ضربا من التمييز، أو حدثت بعده، وربنا أعلم.

وفي **الرحلة الناصرية**: «أهل عين ماضي ينكرون زيارة ميسرة، محتجين بأن الرحال لا تشد إلا إلى ثلاثة مساجد، وهذا ليس منها؛ وتكلمنا معهم، ولا معتمد لهم في ذلك سوى ما ذكر» هـ[1].

قلت والحق معهم، فالأولى اليوم هجرانه لا بالقلب، سيما لمن يقتدى به، وكيف لا وقد علمت معتقد العامة فيه، ولعلم طلبة عين ماضي بمعتقدات العامة فيه هجروا هم الزيارة له، وجعلوا يُحذرون الناس منها، حسما لمادة ذلك، وهم أعرف ببلادهم – أهل مكة أعرف بشعابها– على أن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة، كزيارة الأولياء ونحوها، اختلف العلماء فيها بالجواز وغيره، ومحل الخلاف ما لم تبن عليه مفسدة دينية، وإلا حرمت بلا نزاع.

رجوع، ثم ارتحلنا من المخيلي، فما تعالى النهار حتى تاه الركب، فافترق فرقتين فكنت ممن وقع في شواهق جبال ومضائق وغيضات، فكم من

1 – الناصري، **الرحلة**، 38.

عقبة تدرَّعنا، وشعبة توسطنا، وكم من جمل وقع لوجهه، أوصاحب له قد حار في أمره، فما زالت الشمس حتى ظهرت بغالة الفريق الآخر يحثون عنا ظانين أننا غير تائهين فإذا بهم وقعوا فيما وقعنا، فاجتمعنا إذ ذاك فعلونا جبلا، فلاحت لنا أعلام واد شهبور هناك، فنزلنا بعد الاصفرار، وما تلاحق أعجاز الركب إلا بعد غروب الشفق. والمحل محل سرقة واختلاس، فماج الناس بعضهم في بعض، واختلطت الدواب، وبات الناس ليلتهم ينشدون الضوال من الإبل والبغال، ونادى منادي على الركب بالمُقام إلى الزوال، لتأخذ الإبل بُلغتها، إذ لم تأخذ البارحة منها *103* حظها. وهذا الوادي ذو مياه مختلفة، وفيه العذب الفرات، كثيرأشجارالطرفا الملتفة، سكنه أعراب بني طيفور يزعمون أنهم من ذرية أبي زيد البسطامي، وليس كما زعموا وإنما جاءت تسمية جدهم على تسمية أبي يزيد لأن قبة طيفور جدهم بهذا المكان، وأبو زيد البسطامي لم يسلك هذه البلاد؛ وقد وقع في **الرحلة الناصرية**[1] ما ظاهره خلاف هذا فحرره. وبهذا الوادي معدن ملح، وسوقنا أهله بالمحتاج وتناهبوا مع الحجاج، فكثر في ذلك اللجاج، وما تناصفوا إلا في الرجوع على اعوجاج.

يحكى أن الركب الفاسي وأميرهم الفلّوسي جاء بعض ذوي الأموال منهم عربي من بني طيفور، فقال له: احرُسوا أنفسكم بالليل، فقال الفاسي: من جاءنا قتلته، فقال الأعرابي: لا تقدروا، فواعده على الإتيان لسرقته بالليل، فعند ذاك بات الفاسي يحرس، فجاء السارق على حين غفلة، فأخذ سطلة من نحاس، فذهب حتى كان خارج الركب فناداه إني سرقتك، فقال: وما سرقت؟ قال: سطلة، فقال الفاسي- وهو يحتال أن يضربه ببندقية من رصاص- انقرها إن صدقت، فلما نقرها ضربه على الحس فقتله، فاجتمع رأي الفاسيين على أن أخذوه ورموه في فرن الخبز، تعمية على أهله إذ لم يشعروا به إذ ذاك فذهبوا، فلما رجعوا تصالحوا معهم على شيء قليل من الكتان أخذوه فأبرؤوهم.

وبهذا المنزل سئلت عن شركاء في زاد على عادة، رفقاء الركب النبوي، ثم بدا لهم الافتراق، فافترقوا وبقي كثير من خباء ونحوه على رؤوسهم،

1 – م. س، 526.

فأراد المنفرد منهم قيمة نصيبه من الخباء أو بيعه في الحين ويأخذ ما نابه، فأبى ذلك عليه بقية الشركاء معتلين أنهم غير قادرين على حمله وبكساده بالبادية، فما الحكم؟ فأجبت بأن الخباء كالخف والنعل والمصراع لا يقبل القسمة إلا بفساد، فيجبرون على البيع من غيرهم إن أبوا هم شراءه، فإن كسد البيع بالبادية وبالركب أيضا أجبروا على الصبر للحاضرة التي يتأتى فيها البيع، وأجرة الحمل على جميعهم، والله أعلم بالصواب، هذا الذي حضرني في الجواب.

ثم ارتحلنا فبتنا البسابس جمع بسبس بمكان كثر فيه نباته، تاركين تجْرُن عن يمين الطريق غير بعيد، قرية تسكنها المتربطة أولاد سيدي محمد بن يوسف، كلهم طلبة قرآن وفيهم من تمسك بالعلم. ثم منه فمررنا على مدشر خال عن يسار الطريق *104* بناه أعراب هذه البلاد أولاد يعقوب، وبه عين يقال لها الطريفيَّة، وربما غارت زمن الصيف، ولم نجد بها ولا قطرة ماء، ووقع الناس في عطش، ثم وقفنا على غدران مطر فشربنا وحمدنا الله تعالى. ووصلنا عين ماضي قرب الزوال، وما حط أواخرُ الركب حتى قيل هذا هو الركب السجلماسي المُغَرِّب قد ظهر، فاجتمعنا به فأخبرنا عما استقبلناه من الطريق، فخيم قربنا وبالصبح غرب وشرقنا.

وهذه البلدة عامرة بأهلها، وغالبهم شرفاء من أهل البيت من قبيلة بالظهرا تعرف بالتِّجَاجنة، يحفظون القرآن، وتقدم في أسلافهم العلم، وأما اليوم فالعلم قد ذهب أهِله، ولم يبق إلا اسمه، فقد دخلت البلد وسبحت سبحة الضحى بمسجدهم، وأضافنا آخذ العهد الناصري منهم وهو سيدي عبد القادر بن الشيخ أحمد بن يحيى بن أبي عامر، تقبل الله منه، وجاءنا المسن فقيه البلد سيدي محمد بن زيان، فمنه يستمدون وعليه يعتمدون، وله بعض ممارسة بألفاظ **مختصر خليل**، أوقفني على التقييد الكبير لأبي الحسن الصغير على **المدونة** في ستة أجزاء ضخام من الكبير حبُسا، بدأه بمقدمة في **فضل العلم**، يرمز بالضاد لعياض، وبالشين لابن رشد، والخاء للخمي، والميم لابن يونس، والعين والقاف لعبد الحق، وربما استغنى بالقاف وحدها له،

والشيخ عبد الله لمؤلفه المُنْلي. ووجدت فيه ما نصه: «واختلف في الدّغفل وهو ايَرْن على قولين، فقال ابن القاسم: تخرج منه، يعني الزكاة، ومنع ذلك أبو محمد بن أبي زيد»، هـ.

وليس في الخزانة الناصرية من تقييد الشيخ أبي الحسن هذا إلا جزآن، نسأل الله تعالى أن يكمله لنا، فنعم الكتاب والله. ولهم، سيما عند أبناء الدهصاء منهم، كتب كثيرة متداولة. ولما جرى ذكر **التوضيح** على ابن الحاجب، قال ابن أبي زيان المذكور: «أشياخنا يقولون انظر **التوضيح** تستريح». ثم ودعنا الله تعالى وقرأ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[1] إلى ﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[2]، ثلاثاً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[3] إلى ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[4] ثلاثا.

وبلدتهم هذه حصينة، مبنية كلها بالحجارة، دارت بها الأجنة والحدائق، وفتحوا لها الأبواب من داخل البلد ومن خارج، وهي مشتملة على فواكه، وما أكثر لديهم التفاح، تسقى الأجنة كلها من عين واحدة خارجة من سفح جبل بقربهم، عذبة باردة، يزعمون أنه يورث الشقوق في الأيدي والأرجل *105* في زمن الشتاء؛ ولازالوا يشكون ظلم أولاد يعقوب الساكنين في غابة الجبل في التعدي على مائهم هذا، فربما قطعوه عنهم في بعض الأحيان ظلما وعدوانا.

ونساء عين ماضي لايغتسلن من جنابة ولا من حيض أو نفاس[5]، يزعمن أن الاغتسال بمائهم يعقمهن[6] فتركن ذلك لذلك. فقلت لمن حدثني بذلك: ما هي إلا عقوبة من الله تعالى لهن على ترك الواجبات.

---

1 – آل عمران: 171.

2 – نفس السورة: 174.

3 – الفتح: 1.

4 – نفس السورة: 3.

5 – جاء في **رحلة** أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي " أنهم لا يغتسلون من الجنابة أصلا " م م و م م، رقم، 88ج، ص 164.

6 – في **الرحلة الصغرى** للمؤلف " يزعمن أن الاغتسال يضر بهم" م خ ح، رقم 121، ص 43.

وأما الحجاب فما رأينا في هذه البلاد مثلهن في تركه، ترى الرجل وزوجته وابنته يُسوقون الركب، باديات مزينات مع ما وسمن به من الحسن البديع، ولا يتولى البيع والشراء غالبا لديهم إلا النساء، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! وأعظم من ذلك اعتيادهم للطهارة الترابية من غيرعذر، حتى من وُسِمَ بالفقه منهم تراه يضرب الأرض عند كل صلاة، اتكلوا في ذلك على زعمهم أن ماءهم يضر بالبصر، ولقد والله توضأنا منه مرارا، وما رأينا منه من ضرر، فإن كان ذلك يحدث بكثرة الاستعمال أو في فصل دون آخر، وتحقق الضرر وتعذر الوضوء بغيره من مياه الآبار، فلا شك أن ذلك يبيح الانتقال للتيمم.

ورباعهم و ديارهم ومياههم كلها حبس على الذكور دون الإناث، ومن ساكنهم من غيرهم فبالإرفاق أو الكراء، هكذا حدّث بذلك البعض منهم. وزرنا مقبرتهم، وفيها سيدي أحمد بن الدهصاء، وغيره ممن سمّى ابن ناصر في **الرحلة**[1]، وانقطع العلم في نسل الجميع، وإنا لله وإنا إليه راجعون على ذهاب العلم وأهله.

ثم ارتحلنا منكبين تجُموت عن يسارنا لما بها وبطريقها من الدِّرْيَاس، نبت يضر بالإبل، فوقعنا على غدران مطر ومرعى، فسار الركب وبقيت البغالة، ثم لما انتصف النهار أو كاد سرنا مسرعين ولأثرالركب متبعين، فلم تنشب أن غاب عنا الأثر فلاح لنا ركبان على ربوة ظنناهم من الركب، فيمناهم فإذا هم خيل الأعراب من قبيلة الأرباع وقع بينهم وبين ركبنا ما وقع، جاءوه مظهرين إرادة التسويق فمنعوهم و ظنوها حربا، فجردوا واحدا من الأعراب وأخذوا فرسه. فذهبنا معهم نحو الركب فرد الأمير لهم متاعهم، فبتنا وإياهم بواد أمْزٍ، وماؤه لابأس به، فلما تفرقت الإبل في بطن الواد للمرعى، أخذوا بعض إبل الركب فهربوا بها، وكبيرهم يقال له الشاوي بالركب فقبض وسلسل وقيد حتى ردوا ما أخذوا.

106 ثم ارتحلنا منه آمّين الأغواط، وخيمنا في مخيم الركب قبل الزوال، بعدأن خرج أهل المدينة لملاقاة الركب على عادتهم، وأظهروا الفرح

1 - الناصري، **الرحلة**، 37.

والسرور؛ وبلدتهم كبيرة على كدية ذات مساجد تصلى فيها الجمعة، جامعة مشتملة على ما يناهز ألف رام، ولها كأهل عين ماضي قوة ومنعة رامتها الأتراك فلم يقدروا إلا أنهم يدارونهم، وهي ذات أشجار منوعة يسكنون على واد أمْزِ ويقل ماؤهم في الصيف. وهذا الوادي هو الذي وصل إلى الزاب، يرد هناك[1] بواد أجد، والبلد[2] واسعة ذات حرث على الماء والمطر، دارت بها الرمال، لا تفارقها عواصف الريح. شاع لديهم أن الريح ذهبت بقرية قرب قريتهم ولم يدر أين ذهبت بها ولا بأهلها ولم يبق لها إلا أثر، وكان ذلك بدعوة ولي مشهور لديهم الآن واسمه سيدي يانس، وبعضهم يقول يونس بن متى، النبي المشهور صلوات الله وسلامه عليه، ولا يصح شيء من ذلك. وأيا ما كان، فقد زرناه خارج البلد في قبة بالنية، نفعنا الله به، آمين.

وليس بالبلد داع ولا مجيب إلا ما كان من المسن البركة سيدي إسماعيل ابن عبد الرحمان الفكيكي الأصل الأغواطي الدار، زرناه بداره أخبرنا أنه ولد سنة ثمان، وأخذ عن الشيخ المسناوي والوجاري وأبي علي بن رحال وابن عبد السلام البناني وأبي العباس أحمد بن مبارك اللمطي، وله ممارسة في الفنون العقلية، رقيق القلب سائل الدمع، وأجازنا إجازة عامة بشرطها المعتبر حسبما أجازه شيوخه المذكورون، ودعا لنا الله تعالى.

تنبيه: تعرض للركب هنا بعض من قبيلة ابن امزاب بقصد التسويق جاؤوا ببغال وعبيد وإماء، وهم جيل من الناس[3] يسكنون القرى، يتكلمون باللسانين العربي والعجمي، على مسافة ثلاث مراحل من هنا وأربع من وَارَكْلاِ، وهم فيما يحكى من ذرية عبد الرحمان بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ﷺ. ولهم شوكة ومنعة بهذه البلاد، اختصوا بتولية الحرف بالجزائر، وفيهم المتعاطي للعلم، وغالبهم إباضية[4] خوارج، ينكرون رؤية الله تعالى في

1 - في د "يعرف".

2 - في د "البلاد".

3 - ساقطة من د.

4 الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله. وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضي كان رفيقا له في جميع أحواله وأقواله، قال: إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين، حرام قتلهم في السر غيلة إلا بعد نصب القتال. =

الآخرة، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم بها، مُحلين الربا في البيوع، غير رافعي أيديهم مع تكبيرة[1] الإحرام، جامعين في طهارتهم بين الماء والتراب، معتقدين أن الصوم في السفر غير مجزئ، معبرين عن السني بالمالكي *107* معتقدين أن من فاتته صلاة في جماعة فلعن السني جبر له ذلك فضل الجماعة، متخذين يوم موت علي بن أبي طالب من السنة عيدًا، قائلين بتخليد من قتل مسلما متعمدا، قائلين بطهارة بول البغال وأرواثها ونحوها، وبنجاسة أرواث النعم وأبوالها، وأن من ألقى نملة تحت قدر في نار حرم أكل ما في داخلها، وأن الحج يسقط فرضه بالاستنابة، والسارق إن كان[2] منهم ينفونه، وإن كان من الأعراب يقتلونه. وهم مع ذلك دعاة إلى دينهم، باذلين في[3] ذلك الأموال.

حدثني بجميع ذلك الثقات من أهل هذا البلد، وحدثني به أيضا رجل حاج منهم يدعونه المالكي، آخذ العهد الناصري، يشتكي إذايتهم، ويروم الانتقال عنهم، قطع الله دابرهم، وشتت شملهم ومرادهم. ثم كما حدثني به أيضا الرجل الصالح سيدي محمد الحفياني الواركلي الأصل، اجتمعت به هاهنا، وكان والله خيرا دينا ذا خلق حسن وهدى مستحسن؛ وزادني أن بمدينة واركْلا روافض لهم حرمة معلومة بها، ومسجد مخصوص، وربما قاتلهم أهل السنة من سكان واركْلا، ولقد صدق في ذلك، فقد ذكر أبو سالم في **رحلته** شيئا من ذلك[4].

رجوع، ثم ارتحلنا يوم العَنْصرة[5] تاركين العسافية يمينا غيربعيد، وماؤها ليس بذاك، مارين على واد أبي الجوّاد ويقال له الفج، وواد الحوت لوجوده به، وماؤه كثير، عذب، عليه دشر قديم مندثر؛ وبتنا بواد النتلاَ

=انظر : الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1395/ 1992، 1/ 134.

1 – في د "تكثيرة".

2 – ساقطة من ح و ج.

3 – في د "على".

4– العياشي، **الرحلة** : 1/ 46 – 47

5 – يوافق 24 يونيو من السنة الفلاحية.

وماؤه جار وليس بذلك، ثم منه مررنا[1] بواد الحُميضة وماؤه عذب جار، عليه غابة الطرفا وبعض حرث [وعليه قرية دَمّتْ دُويرات بأصل جبل عن يمينك وأنت مشرف، وبعض حرث][2] ونخلات وبعض الأشجار، ولازال أهلها على عادتهم القديمة من نهب الحاج، وبعدها بعيون سلمانة، عذبة باردة إلى النهاية، ثم بتنا بالحواجب، وبها عدة من عيون سَنْجاف، والبرج وعيون السلطان، وماء البرج أحسنها؛ والمحل محل سرقة فليُتحَفظ منه، فقد سرق به لركبنا عدة إبل بالليل، وتبع ربّها أثرَها، فوقع بنو سعد عليه فجرحوه حتى أشرف على الهلاك.

ثم ارتحلنا مارين، بعدما انتصف النهار، بأودية القيروان وبها بئرعذبة قليلة الماء، تاركين قرية على رأس الجبل عامرة عن يسارك وأنت مشرق، وسوقنا أهلها بالمحتاج، ثم بتنا بعبد المجيد وماؤه جار لاباس به، وبه قبور الأعراب، وسطها رجل صالح اسمه سيدي شارف المجيد *108* يسمى هذا المكان باسمه، فقال الناس: عبد المجيد. وعن يسار القبور مكان منخفض تجتمع فيه [سيول] الأمطارلايفارقه ماء المطر غالبا حتى زمن المصيف، وجدناه ذهابا وإيابا ممتلئا، فتأهب الناس لهذه المفازة، مفازة سيدنا خالد التياهة المعطشة الحرشة، ذات السموم الحارة والباردة، بملء القرب وتنعيل الإبل والبغال، والتوكل على الكبير المتعال.

ثم ارتحلنا فبتنا على غير ماء، بعدما تعدينا التوْميات بمكان يدعى المضاف[3]، والتوميات: كديتان متقابلتان في فلات، قيل وهذا المحل فيما اشتهر بين الحجاج هو النصف فيما بين فاس وطرابلس. ثم لايخلو من سرقة وحرابة، فقد ذهب جماعة من الحجاج يتقدمهم عربي، يطلبون ماء غادرته الأمطار على زعمه، فأوقعهم في جبال وشعاب وأعراب، فلما فهموا أنها منه مكيدة أخذوه وقيدوه حتى ردهم بلا ماء[4] للركب، وخرج آخر من الركب

---

1 – في د "فمررنا".

2 – ساقط من ح.

3 في "ح": البضاف، بالباء بدل الميم.

4 – ساقطة من د.

يطلب فرسا له خارجه، فوقع عليه جماعة من الأعراب فسلبوه وأخذوا بضاعته وجرحوه، ورد الله تعالى عليه فرسه.

ثم ارتحلنا، وما تعالى النهار حتى اشتد العطش بالركب، فتداركتهم الألطاف الإلهية أواخر النهار، فوقعوا على غدران كثيرة من الأمطار بواد أمْزِ ويقال له أجْدِ. وجدوا في السير فما لحق أوائل الركب وادي سيدنا خالد إلا بعد المغرب، ولا أواخره إلا بعد العشاء. وبهذا الوادي ماء ونخيل، وهو راكد، وكلأ وخضر، وهو أول البلاد الجريدية في عرف الناس اليوم، وعند أهل التاريخ أن هذه أول بلاد الزاب وتوزر[1] ونواحيها هي بلاد الجريد، وفي هذه المفازة تاه الشريف المسن البركة، الطائع لربه في السكون والحركة، مولانا عمر بن علي بن الشريف العلوي القاطن بسجلماسة من بني المؤذن، وأقمنا عليه يومين ولم نر له خبرا، ثم لما عقبنا الركب الفاسي جاء ببغلته، ولم تصلنا إلا ونحن واقفون بعرفة. وحكوا أن بعض الأعراب وقعوا عليه في فلات وهو يقرأ **دلائل الخيرات** يعالج الموت من شدة ما نزل به من العطش، فجاءوا به لقرية واد سيدنا خالد، فمات بها ودفن بمقبرة سيدنا خالد، وضاع له ما يزيد على ثمانمائة مثقال ذهبا كانت معه في خروجه رحمه الله تعالى.

لطيفة: شاع عند الحجاج وأعراب هذه البلاد أن هذه *109* المفازة المتقدمة لايسلكها ركب إلا ويضيع فيها حيا: آدميا أو غيره. ويقولون: هذه المفازة لا بد أن تأخذ شاتها، والأمر إليه سبحانه فلا تأثير لشيء من الكائنات، وإن تقررت هذه العادة كما زعموا، فعندها لا بها، هذه عقيدة أهل السنة؛ ومن أمثالهم في ذلك قولهم: عبد المجيد يقطع البالي والجديد.

رجوع، وأعراب هذا الوادي، آل بوعَكّاز، أشد الأعراب على الحجاج حرابة وسرقة واختلاسا. وزرنا ضريح سيدنا خالد بن سنان في قبة صغيرة يُسْلَكُ لها مَسلك ضيق جدا، وبازائه مسجد مليح ومدرسة صغيرة خالية من الطلبة في الوقت، وصومعة وخلوة، ينزل لها بأدراج منسوبة للإمام الجيلاني.

1 - توزر: قاعدة بلاد الجريد، كثيرة التمر، انظر: الحميري، **الروض**...، 144 - 145؛ البكري، **المسالك**...، 2/ 225.

ومن الخرافات أن بساحة هذا الضريح عينا بل بئرا قليلة الماء رديئته، يزعمون أن أصل مائها من زمزم. وقال الشيخ أبو سالم العياشي في **رحلته**، إن سيدي عبد الرحمان الأخضري هو الذي أظهرالقبرالذي في بلاد الزاب المنسوب لولي الله خالد بن سنان عليه السلام، قال: «وهذا القبر الآن، من المزارات الشهيرة في تلك البلاد، تقصده الأركاب للزيارة من نواحي إفريقية كلها. واشتهر أمره عند الخاص والعام، والبدو والحضر، تو ترعنه كرامات، وقد أشكل أمره علي. وسألت عنه من يُظن به علم، فلم أجد عند أحد ما يشفي، ولا رأيت خبره في تواريخ ولا تقييد؛ وغاية ما سمعت من بعضهم: أن سيدي عبد الرحمان الأخضري شاهد النور صاعدا من تلك البقعة إلى السماء ثلاث ليال أو نحوها، وأخبر أنه قبر نبي الله خالد، فإن كان اطلع على ذلك من كشفه، فيسلم له، فإنه أهل لذلك. وكم رأينا وسمعنا في بلاد المشرق من مشاهد متعددة من قبور الأنبياء والأولياء، ما أظهرها إلا أهل الكشف الصادق فتزار بحسن النية، وجميل الاعتقاد، وحسن الظن بقائل ذلك، حتى إن المشهد المنسوب لكليم الله موسى عليه السلام بالأرض المقدسة إنما أظهره بعض أهل الكشف، بعد الستمائة أو قريب من ذلك، وهو الآن من المزارات العظيمة الشهيرة. وقد ذكر بعض الناس أن قبر خالد بن سنان هذا مذكور في بعض التفاسير المنقولة عن الإمام ابن عرفة وأنه في هذا المكان. وبحثت عليه فلم أقف عليه، ويبعد عنه كل البعد أن يكون خالد بن سنان العبسي، مدفونا في هذا*110* المكان، فإن الأخبار المنقولة في شأنه، المذكورة في كتب أهل السير تأبى ذلك. وقد ورد في بعض الأحاديث أنه نبي من العرب، بعث بين عيسى عليه السلام ونبينا ﷺ، وأنه بأرض الحجاز، وأنه مات بها، وأنه أوصى بنيه أن ينبشوه بعد حول فيخبرهم بأخبار ما أرادوه، وغير ذلك من الأخبار المنقولة عنه. فإذا ثبت ذلك فما أبعد الحجاز من الزاب. وقد ورد في بعض الآثار أنهم لم يدفنوه وأنهم حملوه على ناقة فذهبت به، فإن صح ذلك ربما يتوهم أنها بلغت به إلى هذا المكان ودفن به[1]، وهو خرق عادة أيضا. وأقرب ما يحمل عليه أمر هذا المشهد - إن صح أن به قبر نبي - ما قال لي شيخنا السجستاني وقد سألته عنه لما مررنا به سنة ستين وألف، فقال لي: لم أر

1 - ذكر العياشي أن قوم خالد لم يدفنوه، بل حملوه على ناقة حتى وصلت به إلى هذا المكان. أنظر: **الرحلة**، 2/414.

خبره منصوصا. وأقرب ما يكون أنه أحد رسل عيسى، عليه السلام، الثلاثة المذكورين في قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ الآية[1]. فقد ذكر بعض المفسرين أن أحَدهم اسمه خالد، وأنه نبي أصحاب الرس؛ وقد ذكر بعضهم أن بلاد الزاب هي بلاد أصحاب الرس، فإن صح هذا قبر نبي اسمه خالد فهو هذا، والله أعلم[2].

وذكر في **الاستبصار** عن إسحاق بن عبد الملك بن الماجشون[3] أنه لم يدخل إفريقة نبي قط. وأول من دخلها بالايمان حواريو[4] عيسى عليه السلام، وهذا يقوي ما ذكره شيخنا المذكور ذلك. قال: وقد ذكر في **الاستبصار** أيضا» عن الثقات، عن عبد الرحمان بن زياد بن أنْعَم[5] قال: كنت وأنا غلام مع عمي بقرطاجنة[6] نمشي[7] في آثارها، ونتعجب[8] بعجائبها، فإذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية: أنا عبد الله بن الأوس[9] رسول[10] رسول الله صالح. وفي رواية بعضهم أنا معتب، بُعِثتُ إلى أهل هذه القرية[11] أدعوهم إلى الله، أتيتهم ضحى[12]، فقتلوني ظلما فحسيبهم الله»[13].

1 – يس : 12.

2 – العياشي، **الرحلة**، 2/ 414

3 – في **المسالك**، "الملشوني". 2/ 219.

4 – في د "حواري".

5 – عبد الرحمان بن زياد ابن أنعم، كان قاضي قضاة إفريقية على عهد المنصور العباسي. انظر: كتاب **الاستبصار** في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة، وبلاد الغرب، لكاتب مراكشي مجهول من كتاب القرن 6 /12، طبع بالمغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1958، 124 هامش 3؛ البكري، **المسالك**...، 2/ 219 هامش 1.

6 – قرطاجنة : مدينة بإفريقية بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا، وقرطاجنة من المدن المشهورة انظر وصفها عند: الحميري، **الروض**...، 462 – 465؛ البكري، **المسالك**...، 2 /216 – 217؛ الحموي، **معجم** البلدان، 4/ 367؛ الوزان، **وصف إفريقيا**، 2/ 98 – 99.

7 – في **الاستبصار** "نتأمل".

8 – م. س: "نعتبر".

9 – غير موجودة في **الاستبصار**. وفي **المسالك**، " الأواس".

10 – م. س.

11 – في **الاستبصار** "بعثني الله إلى أهل تلك القرية".

12 – غير موجودة في **الاستبصار**.

13 – **الاستبصار**...، 124 – 125.

وقرطاجنة هذه، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا ووصف فيها غرائب، هـ.

قلت: ووقفت على **رحلة** شيخ شيوخنا الولي الصالح سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي بخطه وفيها ما نصه: «لم أقف على من عرف بخالد بن سنان الذي في الجريد، ولا أعلم في الأنبياء من اسمه خالد إلا خالد بن سنان، وغاية ما وقفت عليه في شأنه ما وجدته بخط شيخنا وشيخ شيوخنا، العلامة المحقق المسن البركة أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بن بردلة[1] رحمه الله ونفعنا ببركته ونصه *111* : خالد بن سنان عليه السلام، خرجت نار عظيمة من مغارة بعدن- حيث كان- فأهلكت الزرع والضرع، فالتجأ إليه قومه، فأخذ يضربها بعصاه حتى رجعت للمغارة التي خرجت منها»[2]. «في حكاية وجاءت ابنته إلى النبي ﷺ فألقى لها بردائه وأجلسها عليه، وقال: «مرحبا بابنة نبي أضاعه قومه» [3] «[4].

وفي **شرح القسطلاني للبخاري** على حديث: «أنا أولى الناس بابن مريم[5]، والأنبياء أولاد معلات[؟] ليس بيني وبينه نبي. من كتاب الأنبياء في باب: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا

---

1 – محمد العربي بن أحمد بوردلة الفاسي، إمام وفقيه وقاضي بفاس، أخذ عن الشيخ عبد القادر الفاسي وأجازه، له أجوبة ورسائل مفيدة، مولده سنة 1042 هـ وتوفي سنة 1133هـ. ترجم له: القادري، نشر...، 3/ 247؛ مخلوف، **شجرة**...، رقم 1320 1/ 480؛ 2/ 338؛ ابن سودة، **دليل**...، 1/ 42 ن الناصري، **الاستقصا**...، 7/ 113.

2 – عبد المجيد الزبادي، **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**، تقديم وتحقيق اليونسي رشيد، رسالة مرقونة بمكتبة كلية الآداب الرباط 1995، القسم 2/ 18.

3 – في البداية والنهاية لابن كثير: عن سعيد بن جبير عن بن عباس قال: جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال: بنت نبي ضيعه قومه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار قال: ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال: ذالك نبي ضيعه قومه. وثقه وقابل مخطوطاته، الشيخ علي محمد معوض وعادلأحمد عبد الموجود، وضع حواشيه أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415 /1994، 2/ 167 – 168. انظر كذلك: **أخبار المدينة لعمر بن شبة النميري**، تحقيق علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417 /1996، رقم 797، 1/242؛ **المستدرك على الصحيحين**، 2/ 655؛ **كنز العمال**، 12/ 149.

4 – الزبادي، **بلوغ**...، 2/ 19.

5 – في **فتح الباري** "بعيسى بن مريم"، 6/ 489.

﴿شَرْقِيًّا﴾[1] ما نصه: لا يقال أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس، كانوا من أتباع عيسى وأن جرجيس[2] وخالد بن سنان كانا بعد عيسى، لأن هذا الحديث الصحيح يضعف ذلك»[3]، هـ.

وفي **البداية والنهاية** للحافظ عماد الدين بن كثير: «أن خالد بن سنان كان في زمن الفترة»[4]. قال: «وقد زعم بعضهم أنه كان نبيا. قال: والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج بها، والأشبه أنه كان رجلا صالحا، له أحوال وكرامات، فإنه إن كان في زمن الفترة [فقد ثبت][5] في البخاري مرفوعا: «لا نبي بيني وبين عيسى بن مريم»[6] وإن كان قبلهما، فلا يمكن أن يكون نبيا، لأن الله تعالى قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[7] وقد قال غير واحد من العلماء أن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبيا في العرب إلا محمدا ﷺ» [8]. وبهذا يرد ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له شعيب بن مهوم، غيرشعيب صاحب مدين، ويرد أيضا ما ذكرمن بعث حنظلة بن صفوان إلى العرب، فكذبوهما، فسلط الله عليهم بخت نصر[9]، فنال منهم من القتل والسبي نحوما نال من بني اسرائيل، وذلك في زمن معد بن عدنان. والظاهرأن هؤلاء كانوا قوما صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم، هـ.

---

1 – مريم 15.

2 – في ح " جريس وفي د " جرسيس " وما أثبتناه من "م" و**فتح الباري**.

3 – ابن حجر، فتح...، 6/ 489.

4 – ابن كثير، البداية، باب ذكر جماعة مشهورين كانوا في الجاهلية، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى، 1415/ 1994، 2/ 167.

5 – ساقطة من النسخ المعتمدة وما أثبتناه من البداية والنهاية 2/ 269.

6 – **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء باب واذكر في الكتاب مريم؛ و **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام.

7 – السجدة : 2.

8 – ابن كثير، **البداية**...، باب ذكر جماعة مشهورين كانوا في الجاهلية، دار الكتب العلمية بيروت، 2/ 168.

9 – يقصد الملك البابلي المشهور، نبوخت نصر، الذي قام بتحطيم بيت المقدس في القرن السادس، قبل الميلاد.

وأوقفني بعض طلبة زاوية سيدنا خالد، وهوآخذ العهد الناصري، وهو سيد ي محمد بن حرز الله على قصيدة للإمام الأخضري يصرح فيها بنبوة خالد المذكور، وأنه دفين هذا المكان ونصها:(من البسيط)

سرْ يَـا خَلِيلِي إلى رسم شُغفْتُ بـه ... طُوبَى لزائر ذَاكَ الرَّسْم والطَّلَـلِ

إذَا وَصَلْتَ قفْ فَابْكِ الْبُكَاءَ بـه ... وَطُفْ كَمثْلِ طَوَافِ الصَّب بالمَهَلِ

سَلِّم أَصَاحِي عَلَى مَنْ حَلَّ بِتُرْبَـة ... أَزْكَى سَلَام بهِ تَنْجُو منَ الوَحَـلِ

112 جَلَّتْ مَشَاهِدُهُ شَاعَتْ فضائلُـه ... مَا خَابَ زائرهٌ في الصُّبْحِ والأُصُلِ

يُلْفِي الجَواهرَ من يغْشُو مناكِبَـهُ ... يُعْطَى الكَرَامَةَ مَنْ يَأْتِيه ذَا وَجَـلِ

وَالقَلْبُ منِّي بِهَذَا الرَّسْم مُعْتَكُـفُ ... والشَيْحُ منِّي خلاَلَ النَّاسِ لَمْ يَـزَلِ

وَلَسْتُ أَمْلكُ منْ صَبْرٍ وَمنْ جَلَـدٍ ... فَاحْملْ سَلاَمي لذَلكَ الرَّسْم والطلَلِ

وَقُلْ لَهُ قَدْ ثَوَى عَبْدٌ بِحبكُـمُ ... هَذي تَحيَّتُهُ مَوْصُوفَةُ المَثَـلِ

إنْ قُلْتَ أَي أَرُومة الرَّسْمَ وَالطَّلَلَ ... أَقُولُ أُنْبِيكَ بالأَخْبَارِ إنْ تَسَـلِ

هَذَا مَقَامُ عَلَيْه النّاسُ قَدْ غفَلُـوا ... إذْ حَـلّ[1] بَيْنَ بلاَد السّوء فامْتَثِـلِ

هَذَا مَقَامُ رَفيعُ الشَّأْنِ قَـدْ شَهِدَتْ ... به الدَّلائلُ هذا الأَمْرُ في جَلَـلُ[2]

هَذَا مَقَامُ لهُ حظّ به عَـجَـب ... أَخْفَاهُ غُرْبَتُهُ هَذَا المَقَامُ عَـلِ

هَذَا نَبِيٌّ بلاَد الغَرْبِ حَلَّ بهَـا ... وَمَالَهُ ببلاَد[3] الغَرْب منْ مَثَـلِ

هَذَا نَبِيٌّ بِلاَد الغَرْب مَسْكَنُـهُ ... شَرَّ البقَاع بهَا قَدْ حَـلَّ في حلَـلُ

هَذَا نَبِيٌّ كَرِيمٌ في الأَنَام ثَـوَى ... بَيْنَ البَوَادي أَسيرُ النَّاسِ في المَلَـلِ

يَا رَبَّ غُصْنَ بَدِيعُ الْحُسْنِ مُبْتَهِجُ ... مُزَخْرَفُ ببقَاعِ السّوءِ مُكْتَمِـلُ

إنّ النبوة قَدْ لاَحَتْ شَوَاهدُهَـا ... كَيْفَ المَحَالَةُ وَالأَنْوارُ لَمْ تَـزَلِ

في خَالد بْنِ سنَانَ البَدْرُ سَيِّدُنَـا ... أَخُصُّهُ بسَلاَم رَائـقٍ حَافـلِ

لله مَا خَابَ مَنْ عزٍّ وَمنْ شَـرَفٍ ... نَالَ الرّسَالَةَ يَا نَاهيكَ بالرُّسُـلِ

أَنْوَارُهُ سَطَعَتْ فَوْقَ الرّبَى وَبَدَتْ ... علَى الْفَيَافي وَفَوْقَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

---

1 - في ج وخ "خلوا".

2 - سقط البيت من ح.

3 - في د "في بلاد".

فَاحْلُلْ بِسَاحَتِه تُبْصِرْ عَجَائِبَهُ ... وَكُنْ أَخِي أَدِيبًا فَالْمَقَامُ عَلِ
أَكْرِمْ زَائِرَهُ تَحْظَى بِحُرْمَتِه ... مَا حَالُ حُرْمَةِ مَنْ قَدْ لاَذَ بِالرُّسُلِ
حَاشَا الاِلَهُ يَرُدُّ الْمُسْتَغِيثَ بِهِ ... خَصَّ النَّبِيئِينَ بِالاِكْرَامِ وَالنُّزُلِ
حَاشَا النُّبُوَّةُ أَنْ يَخِيبَ زَائِرُهَا ... إِنَّ النُّبُوَّةَ بَيْتُ الْمَجْدِ وَالْبَذْلِ
إِنَّ النَّبِيئِينَ يَوْمَ الْفَصْلِ قَدْ جَلَسُوا ... عَلَى مَنَابِرَ فَوْقَ الْبُسْطِ فِي حُلَلِ
إِنَّ النَّبِيئِينَ رَبُّ الْعَرْشِ فَضَّلَهُمْ ... فَهُمْ مُلُوكُ الْوَرَى يَوْمَ الْمَعَادِ قُلِ
إِنَّ النُّبُوَّةَ لاَ تَخْفَى عَجَائِبُهَا ... وَأَمْرُهَا كَضِيَاءِ الشَّمْسِ فِي الْمَثَلِ
هَذَا مَقَامٌ لَدَى الْمَوْلَى لَهُ عِظَمٌ ... فِيهِ النُّبُوَّةُ ذَاتُ الْقُدْسِ وَالنِّحَلِ
وَإِنَّمَا غَضَّهُ قَوْمٌ لَهُ ثَبَتُوا ... وَالْقُرْبُ يَحْتَقِرُ الاِجْلاَلَ بِالْمَهَلِ
أَبَا الْبَقَاءِ لَقَدْ جَلَّتْ مَنَاصِبُكُمْ ... وَالْعَبْدُ يَخْشَى جِبَالَ الوِزْرِ مِن ثِقَلِ
وَكَيْفَ يَخْشَى لَظَى مَنْ يَسْتَغِيثُ بِكُمْ ... إِذْ لَمْ أَنَالَ الَهُ الْعَرْشِ بِالرُّسُلِ
113 يَاسَيِّدِي إِنَّ هَذَا العَبْدَ مُعْتَصِمٌ ... بِحُبِّكُمْ وَأَتَى يَشْكُو مِنَ الزَّلَلِ
عَسَى عَبدكُم[1] يحْظَى بِقُرْبِكُمْ ... وَيَهْتَدِي لِطَرِيقِ الْخَيْرِ وَالسُّبُلِ
وَأَنْتَ يَاسَيِّدِي مَنْ جَاءَ زَائِرُكُمْ ... يَنْجُو مِنَ الْهَمِّ وَالأَهْوَالِ وَالْوَجَلِ
إِنَّ النَّبِيئِينَ عِنْدَ اللهِ فِي عِظَمٍ ... مَن اسْتَغَاثَ بِهِمْ يَنْجُو مِنَ الْوَحَلِ
وَهَا أَنَا ذَا كَثِيرُ الْوِزْرِ مُسْتَنِدٌ ... لِجَاهِكُمْ فَعَسَى مَوْلاَيَ يَغْفِرُ لِي
عَلَيْكُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَتْبَعُهَا ... أَزْكَى تَحِيَّتِهِ فِي الصُّبْحِ وَالأُصُلِ
لاَ سِيَّمَا خَيْرَ مَنْ جَلَّتْ مَحَاسِنُهُ ... مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الأَمْلاَكِ وَالرُّسُلِ
صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهُ الْعَرْشِ مَا طَلَعَتْ ... شَمْسٌ وَمَا غَرَبَتْ ثُمَّ السَّلاَمُ يَلِي
وَالآلُ وَالصَّحْبُ وَالصِّدِّيقُ ثُمَّ أَبِي ... حَفْصٍ وَمُمْحِ الدُّجَا ثُمَّ الاِمَامُ عَلِي
مَا غَرَّدَ الطَّيْرُ فِي أَقْفَاصِهِ أَسَفًا ... وَمَا أَقَامَ بِكَاءَ الصَّبُّ فِي الطَّلَلِ
وَمَا أَقَامَ حَمَامُ الْمَجْدِ مُطْرِبًا ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ طُولَ الدَّهْرِ وَالدُّوَلِ

وممن اجتمعت به بهذه البلدة الشريف الفقيه سيدي الخضر بن محمد ابن عطية، له محبة تامة بالشيخ ابن ناصر، آخذا عهده، تخرج بتونس، وله

1 – في ج وخ " عبيدكم".

إجازة من شيوخه، وتذاكرنا معه مسائل علمية. وممن جاءنا بهذا المنزل، وله محبة في أسلافنا، الشيخ أحمد أمير تِكرت بنواحي واركْلا على خمس مراحل من هنا، وهو في جيله ذو عدة ومنعة وثروة؛ ثم إن دوائر الزمان دارت عليه فقام عليه، بعد أن تولى مملكة بلاده هو ووالده ما يقرب من ثلاثين سنة، بعض بني أبيه اسمه عبد القادر، باذلا للترك من سكان الجزائر مائة ألف ريال، فولي مكانه فخرج إذ ذاك الأول يستنصر قبائل الزاب والأتراك، باذلا ضعف ما بذل ابن عمه، وهم يمدون ابن عمه بالكور والجيوش، فلما أيس أحمد من ذلك، وضاقت به الأرض بما رحبت، وخاف على نفسه، استحرم بالركب النبوي فدخله مع كل من لاذ به إلى أن يصل الإيالة التونسية، فكان من أمره أن وصل توزر، واستوطنها لما بها من رباع، وستره الله تعالى من الأعراب والأتراك بعد أن خيف استئصالهم للركب النبوي بسببه، هـ.

رجوع، ثم ارتحلنا والأعراب من ورائنا تنتهز فرصة منا، فكلما وقعوا على شخص أو جمل قام الضجيج فيسمعهم خيل الركب فترد ما أخذوا، حتى مررنا بقرية أولاد جلال، وهي من أعظم قرى الزاب، محتوية *114* على مساجد ستة، ذات النخيل وغيرها من أنواع الأشجار، وتسقى كلها بالآبار، وماؤها عذب وسكانها فيما قيل يزيدون على اثني عشر مائة رجل، ولهم مع ذلك قوة ومنعة لايؤدون للأعراب إتاوة، ويسمون كل من لايؤدي ذلك لهم مجاهدا، وسكان المدرسة مجاهدا والتلميذ المتعلم للعلم كندوزا. ولهم كمال المحبة في الشيخ ابن ناصر، تعرض لي فقيههم في الوقت سيدي عبد الباقي بن محمد بن الحاج مع ابن عمه السيد أحمد بن ناصر وولده السيد يوسف في جماعتهم فأدخلوني[1] البلد، فسبحت في مسجدهم الأعظم، ودخلت مدرستهم، وأروني خزانة كتبهم، ووقعت فيها على **أنس المنقطعين**[2] للمعافي بن إسماعيل: كتاب محتوعلى ثلاثمائة حديث مرفوعة،

1 – في د "فأدخلها".

2 – أنس المنقطعين في الموعظة لأبي محمد معافا ابن إسماعيل الشيباني الموصلي، المتوفى سنة 630 هـ، حاجي، **كشف**. . .، 1/ 178.

وحكايات تتضمن من الأخبار دُررها، ومن الحكم غررها، ومن الحكايا[1] أنضرها، ومن الأشعار مُتخيّرها. وننقل منه تبركا الحديث الأول: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلق الله جنة عدن، قال لها: تكلمي؟ فقالت: لا إله إلا الله، فقال لها ثانيا: تكلمي؟ فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المومنونَ﴾[2]. فقال لها ثالثا: تكلمي؟ فقالت: حُرِمت على كل بخيل[3] ومرائي».

الحكاية الأولى: روى الكلابادي عن وهب بن منبه ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فإذا سار أهل الإيمان إليها ليدخلوها قال البوابون: وعزة الله عز وجل جلاله لا يدخلها أحد قبل العلماء الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة المحبين لربهم المطهرين من رذائل الأخلاق».

شعر: (من البسيط)

لاَتَقْطَعَنّ عَادَةَالإِحْسَانِ عنْ أَحَـــد ... مَادُمْتَ تَقْـــدرُ فَالأيّامُ كـــرّاتْ
وَاشْكُر صَنِيعة فَضْلِ الله إِذْ جُعِلتْ ... إِلَيْكَ لاَ لَكَ عِنْدَ النّـــاسِ حَاجَاتْ

لـطـيـفـة: ذكرتني هذه الأبيات ما أنشده ولد الإمام الشيخ إسماعيل المقري، صاحب عنوان الشرف لما قطع عنه النفقة في قضية جرت بينهما وهو: (من الرجز)

وَلاَ تَقْطَعَـــنّ عَـــادَةَ بِـــرّ وَلاَ ... تَجْعَلْ عِقَـابَ المَـرْءِ في رِزْقِــهُ
وَاعْـفُ عَـنِ الذّنْب فَـإِنّ الّـذِي ... نَرْجُـوهُ عَفْوَ الله عَـــنْ خَلْقِــه
وَإِنْ بَـدَا مِـنْ صَاحِـبٍ زَلّـــة ... فَاسْتُرْهُ بِلاَغَضَـاء وَاستَبِقْــهُ
فَإِنْ قُدّرَ الذّنْـــبُ مِـنْ مِسْطَحٍ[4] ... يَحُــطُّ قَـدْرَ النّجْـمِ مِـنْ أُفْقِـه
وَقَدْ بَـدَا مِنْهُ الّـذِي قَـــدْ بَــدَا ... وَعُوتِـبَ الصّدِيقُ فِي حَقِّـــه

فأجابه الوالد بقوله: (من السريع)

1 – في د "الخطاب".

2 – المومنون: 1.

3 – وقفت على الحديث عند الطبراني، **المعجم الكبير**، 12/ 147 . .

4 – فيه تضمين لقضية الإفك المذكورة في سورة النور، والمعروفة في **السيرة البنبوية**.

قَـدْ يمْنَـعُ المُضْطَـرّ مِـنْ مَيْتَـةٍ إذَا عَصَـى بالسّـرِّ في طَرْفِـهِ
لأنّـهُ يقْـوَى علَـى تَوْبَـةٍ تُوجِـبُ إيصَـالاً إلَى رِزْقِـهِ
لَـوْ لَمْ يَتُـبْ مِسْطَح مِـنْ ذَنْبِـهِ مَا عُوتِـبَ الصّدِيـقُ فِـي حَقِّـهِ

115 رجوع، ووقفت بها أيضا على شرح الشيخ أبي الحسن علي الحجازي على **الحكم العطائية** وهو شرح لطيف مختصر في نحو عشر كراريس رباعية سماها **الأنفاس الزكية في شرح الحكم العطائية**، وعلى شرح القصيدة المشهورة في الطريقة التي مطلعها: (من البسيط)

مَنْ ذَاقَ طَعْمَ شَرَابِ القَوْمِ يُدَرِيهِ وَمَـنْ دَرَاهُ غَدَا بِالرّوحِ يَشْرِيـهِ

وهو حسن ولم يسم الشارح نفسه[1].

وادخلوني ديارهم وبالغوا في الإكرام طاقتهم، ثم ركب سيدي عبد الباقي في فوارس من الطلبة حتى أوصلوني للركب على نحو ثلاثة[2] فراسخ من البلد، فوجدناه قد افتتن من أجلنا ظنا أنا قد وقع بنا فرس إذ لم يتقدم لهم شعور بدخولنا للبلد المذكور، ولما وقفنا للوداع قال لي بعض تلامذة سيدي عبد الباقي: لو بِتّ لدينا يوما أو يومين لما قام الركب بواد سيدنا خالد في طلب الشريف مولاي عمر. فأنشد في جوابه لشيخه المذكور لغيره تأسفا: (من البسيط)

نَفَـدَت مَقَادِيـرُ الالـهِ وَحُكْمِـهِ فَرّغ فُـؤادَكَ مِنْ لَعَـلّ وَمِنْ لَـوِ

فسرنا مارين على مكان بطرف واد أجْدِ يعمل فيه البارود، ثم ببنيان قديم بحجارة منحوتة عن يسارالطريق ينسب للنصارى، فبتنا اصفرارا بخلوة الشيخ أبي زيد عبد الرحمان الأخضري صاحب **السلم المُرَونَق**[3]،

1 – شارحها ابن علان.

2 – في ج وخ "ثلاث".

3 – كتاب السلم المرونق لعبد الرحمان بن محمد الأخضري الجزائري (ت 983 هـ/1575 م) في علم المنطق. انظر : **القاموس الإسلامي** : موسوعة للتعريف بمصطلحات الفكر الإسلامي ومعالم الحضارة الإسلامية، من وضع أحمد عطية الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1383 /1963، 1/ 48.

وشرحه و**المنظومة** في السلوك، وأخرى في **فن المعاني والبيان**[1]، وأخرى في **فن التوقيت**، و**المقدمة في الفقه**، وبيتهم بيت علم وصلاح. ووجدنا بهذه الخلوة رجلا ينتمي إليه، وبها بئرعذبة قليلة الماء، ودار ومنزل تبيت به الأضياف. وأما قبره رضي الله عنه ففي داخل النخل عن يسارك وأنت مشرق في موضع يعرف بمنطيوس وهي من المدن القديمة بل من أول مدن الزاب حسبما يأتي الكلام عليها في ترجمة بسكرة، ومنعنا من زيارته - مع شدة قربه - الخوف من متلصصة الأعراب.

ثم ارتحلنا تاركين الزاب الغربي عن يسارنا غير بعيد، وهو قرى كثيرة متصلة ذات أشجارومياه منوعة، وقلما يسلم الركب من إذاية أهلها بسرقة واختلاس وحرابة، مارين على واد ذي رمل رديء الماء، ثم على عين أوْمَاش، لاقت الإبل من رمل الأول ودهس الثاني شدة. والعين المذكورة مادتها من جبل يسارالطريق، كثيرة*116* الماء مع بعض عذوبة تجري لبلدة عن يمين الطريق وأنت مشرق، ذات أشجار، فسرنا حتى نزلنا قبيل الزوال خارج بسكرة بينها وبين فلياش.

---

1 - منظومة الأخضري: الجوهرة المكنون في الثلاثة فنون: المعاني والبيان والبديع، لعبد الرحمان بن سيدي محمد الصغير الجزائري، المشهور بالأخضري، فرغ من نظمها سنة 950هـ. طبعت على الحجر بمصر. أنظر: سركسيس، **معجم**...، 1/ 406 - 407.

ذكر دخولنا بسكرة النخيل[1]

وذلك في الموفى ثلاثين[2] من رجب، وأقمنا بها على مريد الحج من أهلها إلى الثالث من شعبان؛ فوجدناها رخيصة الأسعار، لولا أنها مجمع الفجار من الأعراب الذين لا يقر بهم القرار، وقامت للركب بها سوق في سائر ما يحتاجه. وهي أكثر بلاد الله سرقة واختلاسا، فقد سرق لرجل من أصحابنا نهارا كسكاس على القدر بما فيه من الطعام جهارا، ونودي عليه بالصياح والجري خلفه فلم يقدرعليه، وآخر سرق له خباء كبيروأحمال وغير ذلك. يبدلون[؟] أموال الناس ليلا ونهارا بدل الثعالب، فترى الرجل من الأعراب يأتي الحاج في صورة أنه يريد شراء ثوب أو نحوه فإذا تمكن منه هرب به، ثم لا يقدرعليه، ولا حكومة لحكام البلد من الترك عليهم.

ولما اطمأنت بنا الدار، ورد علينا المحبون والطلبة من أهل البلد منهم سيدي بركات بن محمد، من ذرية أبي محمد صالح، وذهب صحبتنا حاجا، وذهب بنا إلى زاويته، وأطعمنا، وله محبة في الغرباء خصوصا صعالكة الركب، ولأسلافه عليهم وقف من الطعام يؤديه لهم كلما مروا به. وأخبرني كغيره أن بالجبل المسمى حَمْرخد بحوز بسكرة قبيلة يقال لها أولاد داود من قبيلة الثواب- برابر- لايعقدون النكاح، يبدلون النساء على زيادة يأخذها أحد المتبادلين ويقولون: اشر تربح. والعقوبة بالمال في نحو سرقة معز مثلا أكثر وأعظم من العقوبة على نحو زنى أو غصب وغير ذلك من أحكامهم

---

1 - بسكرة النخل : واحة وبلدة جنوبي الجزائر في إقليم قسنطينة، تمتد على طول وادي بسكرة وهي اهم واحة من واحات زيبان (جمع زاب)، وكانت بسكرة القديمة تتألف من عدة قرى، كثيرة النخل والزيتون وتعرف ببسكرة النخل. وتظهر مكانتها الاقتصادية من وصف أبي سالم العياشي في رحلته، وأحمد بن ناصر كذلك. وقد شيدت مدينة بسكرة الحديثة على الواحة. انظر: البغدادي، مراصد الاطلاع، 1/ 197؛ العياشي، **الرحلة**، 1/ 59. دائرة المعارف الاسلامية، مادة "بسكرة"، 3/636 ؛ الزياني: الترجمانة...، 149 ؛ الحميري، **الروض**...، 113 - 114 ؛ البكري، **المسالك**...، 2 /229 - 231 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 422 ؛ الوزان، **وصف**...، 2/ 139؛ القاموس 1/ 447.

2 - في خ "الموفى ثلاثين".

وعوائدهم الفاسدة. ومنهم صهره الفقيه سيدي مصطفى بن محمد بن رمضان التركي الأصل، أكرمنا وقضى حوائجنا، وسئل عمن خالع زوجته على ما لها عليه وزيادة [عدة] أربعين دينارا، مشهدا على نفسه أنها لا تبين منه إلا بآخر دينار من الأربعين، ثم أشهد بموطن آخر أنه نجز طلاقها في صحته ثم مات قبل أن تؤدي الأربعين، أترثه أم لا؟ فأجبت بعدم الميراث لانقطاع العصمة. *117* فقال: أوَلا تأخذ بشرطها إذ مقصودها أنها لا تبين حتى ترفع ما عليها؟ فقلت: الطلاق بيده لا بيدها. وعن قول الشيخ ابن ناصر في **الأجوبة**[1]: يزرع اليوم وأزرع غدا جائز خلاف كل يوم، وأكيل غدا فذلك غير جائز[2] ما الفرق وما العلة؟ فأجبت بأن الذي في النسخ الصحيحة: هل يجوز أن يخرج أحد المشتكين النذر في اليوم ويخرجه الآخر بذلك الكيل، أو لا بد من خلط ما أخرجاه من البدر؟ فأجاب: إخراج هذا بدره في اليوم، والآخر مثله في الغد لا بأس، بخلاف الطعام بين المشتكين، لا يجوز أخذ هذا شيئا في اليوم، والآخر مثله في الغد، ومؤدى العبارتين واحد، ومحصل الجواب: أن الأولى لا يبيع فيها، والثانية قسمة وهي بيع، وفيها بيع الطعام بمثله نسيئة. فقال: نعم وعليه حملته. ولكن نازعني[3] بعض الطلبة من المصامدة طالبا النص، فقلت: النص العام هو قول الفقهاء: القسمة بيع؛ وفي **المتن**: «وجاز البيع قبل القبض إلا مطلقَ طعامِ المُعَاوَضَةِ»[4].

ومنهم القاضي سيدي عبد القادر بن الحاج، آخذ العهد الناصري، وكان من المحبين يشكو ظلم الترك له، قال: وأخذوا منه ظلما ما يزيد على خمس وعشرين ألف ريال، وشيعنا على مرحلتين إلى قرب الزرائب وأنشدنا، وقد جرى ذكر الذنوب والتضرع في غفرانها لعالم الغيوب:

---

1 – مَحمد بن ناصر، الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية، جمعها تلميذه محمد أبو القاسم الصنهاجي (توفي سنة 1103هـ)، منها م و م م، رقم 1111د و م خ ح، رقم: 646، 1018، كما طبعت على الحجر سنة 1319/ 1901.

2 – لم أقف عليه في **الأجوبة**.

3 – في د "نزعني".

4 – خليل، **مختصر**...، 144.

(مخلع البسيط)

أَهْلُ الذّنُـــوبِ تَجَمّـعُـوا نَبْكِي[1] جَمِيـعَ مُصَابِـنَـا
قُومُـوا بِنَـا فِي حَيَاتِكُـمْ نَغْــدُو إِلَــى أَحْبَابِـنَـا

ومنهم إمام الجامع الأعظم، سيدي محمد بن الزروق، آخذ العهد الناصري، من خَنْقَة سيدي ناجي المشهور بهذه البلاد، ومن أولاده سيدي عبد الحفيظ صاحب الشيخ أبي العباس ابن ناصر.

ومنهم مفتي البلد في الوقت، أبي عبد الله محمد الهادي بن أحمد بن سليمان المصمودي الأصل، قرأ بقفصة، وأجازه علماؤها، كالشيخ التاودي لما مربه حاجا، يحفظ كثيرا على عادة أهل البادية، تراه يسرد فصولا من **الشفا** لعياض، وقصائد وحكايات ومواعظ عن ظهر قلب. وأنشدني لغيره لما طلب مني بعض الحجاج أن أقيد له بعض مناسك الحج، ورآني أشغل من ذات النحيين: (من المتقارب)

وَلّما الْتَقَيْنَـا عَلَى زَمْــزَم وَنَحْـنُ نَطُوفُ الإفَاضَــةَ
بَكَيْـتُ فَقَالَتْ عَلا مَ البُكَـاءُ فَقُلْتُ لعَهْد أَخَافُ انْتفَاضَةَ
فَقَالَتْ تَكلَتْكَ مِنْ عَاشِــقٍ تُشَمِّــرُ ذَيْلَكَ قَبْلَ المَخَاضَـةِ

118 وحدثني أن الإمام الرفاعي هذه بلدته وبها قبره، وحدثني عن نفسه أنه مهما اشتغل بحفظ **المقصورة الدريدية** إلا ويمرض، فكان يتشاءم ولو بإنشاد الغيرله بيتا منها. فقلت: ذكر نحوه في **العقد**[2] لابن عبد ربه[3]، وابن خاقان[4]، وأنهما مشؤومان ولا أدري ما السبب. وقد علق ببالي في بعض المجالس أن سبب ذلك عدم التعرض لمثل نعل المصطفى صلى الله عليه وسلم، فاكتسب الكتابان ذلك من ذلك فحرره. وأخبرني أنه مات بالوباء

1 – في ح ود "نبكوا".

2 – في د "في العقد نحوه".

3 – أحمد بن محمد أبي عمر المعروف بابن عبد ربه القرطبي المتوفى سنة 328 هـ، صاحب العقد الفريد. انظر :حاجي، **كشف**...، 2/ 1149.

4 – في د "خالقان "؟.

بالمسجد الأعظم من البلد سنة خمس وخمسين ومائة وألف اثنا عشر ومائة رجل، قال: وفي السنة المذكورة مات بها في ثلاثة أيام خمسة عشر مائة ألف نفس، فكان ذلك سبب خلائها إلى الآن. فقلت: البلاد اعتراها الخلاء قبل زمان أبي سالم العياشي، كما في **رحلته**[1]، ولم تُعهد بعد ذلك بها ولا عشر معشار هذه العمارة، اللهم إلا إن كان المراد بالعدد المذكور من مات بسائر بلاد الزاب سهلا ووعرا، فممكن.

ومنهم الشريف الأرضى الحاج علي الزروق، وتولى قضاء حوائجنا، وبالغ في إكرامنا، والطالب سيدي محمد بن أحمد بن أبي القاسم بن كثر، والطالب المرابط سيدي عبد السلام بن أحمد بدربلة، ولد الشيخ سيدي لحسن بن أبي القاسم بن أم هانيء، واشتريت منه بغلة بسبعين ريالا بسكراويا، وآخذ العهد الناصري سيدي أحمد بن محمد بن مخلوف، من مدشر بني مخلوف بين بسكرة وقُسَنْطينة[2]، وأبوه وهو رجل صالح عالم. ودخلت المسجد الأعظم بالبلد، وقد جدد بنيانه عامل قسنطينة في الوقت، إذ هوالحاكم على هذا البلد من ناحية أميرالجزائر، لأنه كان اندثر وجعل اسطواناته حجارة واقفة كأنها رخام عددها اثنان وسبعون، وصفوفه عشرة متسعة، وبه منبرقديم من عود، و يليه شرقيه محراب عظيم، قدرالمسجد أو أكثر، وفي وسطه بئرعذبة، وبه خزانة كتب، دخلناها فلم نجد بها ورقة، وصومعة غريبة متسعة، أدراجها مائة وثلاثة وعشرون، وبه قبة التدريس، ولا ترى بها من جليس؛ احتف الخلاء بالمسجد من كل جانب، وكأنه فيما سلف وسط المدينة القديمة، وأما الآن فقرب ما يليه من العمران قلعة صغيرة كانت فيما قبل للأمير واضع البلد، وهي *119* الآن مسكن الترك الذين يأتون من الجزائر، وهم ثمانون يتعاقبون أربعون بها، وأربعون بالقلعة التي بنوها على رأس مياه البلد، ترى من الصومعة. وسئلت عن صحة الجمعة بهذا المسجد وهو على هذه الكيفية من

1 – العياشي، **الرحلة**، 2/ 411 – 412.

2 – قسنطينة: مدينة كبيرة من مشاهير بلاد إفريقية، بناها الرومان. انظر: الحميري، **الروض**...، 480 – 481؛ الوزان، **وصف**...، 2/ 55 – 56؛ العبدري، **رحلة**، 93 – 94؛ **الاستبصار**...، 165 – 166.

عدم اتصال البنيان به، إذ العمارة الموجودة اليوم مع تفرقها خارجة من المدينة القديمة التي هذا المسجد وسطها؟ فأجبت: إن جعلنا الاتصال، أوما في حكمه شرطا ابتداء ودواما، فلا تصح جمعة، بل تعاد جمعة صحيحة إن أمكن؛ وإلا أعيدت ظهرا، وإن جعلناه شرطا في ابتدائها فقط صحت. والمسألة منصوصة، وفي شروح **المتن** الإشارة إليها.

وزرنا ممن بالبلد من الصالحين الأموات، أبا الفضل تلميذ[1] أبي الفضل النحوي، وأبا الفضل السبكي، وسيدي علي الأوداشي، وسيدي محمد بن بوعلي، وسيدي الرماني، وسيدي الطاهر، قيل: وهو بالزاب الغربي ولا يصح، وابن جبارة الحافظ الذي ذكره صاحب **القاموس**[2]، وسيدي علي الدليمي وسيدي الحسن. وأما أبو الفضل النحوي صاحب **المنفرجة**[3]، فقيل دفن ببلدة بينها وبين بسكرة يومان، وقيل هو بتوزر، وهو الصحيح. وقيل إن الذي بتوزر خلوته، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

وبالجملة فهذه المدينة كما قال الشيخ أبو سالم: «من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة، مع توفر أسباب العمران فيها. قد جمعت بين التل والصحراء، ذات نخيل كثير، وزرع كثيف، وزيتون ناعم، وكتان جيد، وماء عذب جار، ورحى كثيرة تطحن بالماء، ومزارع حناء، وغير ذلك من الفواكه والخضر والبقول، وكثرة اللحم والسمن في أسواقها». من كثرة ما أختلف بها من الأعراب والبربر، أهل الجبال مصامدة وغيرهم. قال أبو سالم: «ما رأيت شرقا وغربا أحسن منها، ولا أحصن، ولا أجمع لأسباب المعاش، إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر العرب، فيستولي عليها هؤلاء تارة، وهؤلاء أخرى، إلى أن بنى الترك حصنا حصينا على رأس العين التي يأتي

---

1 - في د "التلميذ".

2 - ينظر: **القاموس المحيط**، 1/ 447. وفيه " بسكرة بالمغرب وتعرف ببسكرة النخيل وبها الحافظ علي بن جبارة أبو القاسم الهذيلي البشيري ".

3 - القصيدة المنفرجة أو المسماة " بالفرج بعد الشدة " أولها : اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج اختلف في ناظمها فقيل: لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري المعروف بابن النحوي المتوفى سنة 513 هـ، وقيل للشيخ يحيى بن عطار القرشي. انظر : السبكي، **طبقات**. . . ، 8/ 31؛ حاجي، **كشف**. . . ، 2/ 1346.

الماء منها إلى بسكرة، فتملكوا البلد وأضروا بأهلها، وأجحفوا بهم في الخراج، ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكينهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله. فاجتمعت عليها غارات العرب من خارج، وظلم الأتراك من داخل، وقد أشرفت على الخراب، وقاربت أن تكون يبابا[1]، *120* لولا ما تأثل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس في سكناها»، هـ[2]. وفي قوله: ما رأيت شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن، ولا أجمع لأسباب المعاش، [فيه نظر ظاهر، فبالمغرب بل وبالمشرق ما هو أحسن منها وأحصن وأجمع لأسباب المعاش][3] من أمهات المدن، كمراكش، وفاس، ومكناسة الزيتون، وغيرها من بعض الثغور، كآسفي، ورباط[4] الفتح، وأزمور. وأين أنت من نيل مصر وصعيدها وما بها من أضعاف البركات، كما بدمشق والشام، والعراق وغيرهما؟ فلا ترى ببسكرة من أسباب المعاش ما بها، إلا أنها فضلت ما ذكر بأنواع ثمار النخيل الجيد، ونخيل مصر ومراكش على الضد من ذلك. فلو قال: ما رأيت بإفريقية أحسن إلخ، لكان قريبا على ما فيه. وأين أنت من قسنطينة، وتونس، وطرابلس، وما بها من أسباب المعاش والحسن والتحصن؟ ولكن حبك الشيء يعمي ويصم. والعذر له أن بسكرة أول ما يلقاه في سفره للحرمين على بعض ما وصف، فقال فيها ذلك، والخطب سهل. وقال البكري في **مسالكه** ونحوه في **الاستبصار في عجائب[5] الأمصار[6]** واللفظ الأول ما نصه: «وبسكرة كورة فيها مدن كثيرة، قاعدتها بسكرة، وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار، وهي مدينة مسورة[7] عليها خندق. وبها جامع ومساجد وحمامات كثيرة، وحواليها بساتين كثيرة، وفيها غابة كبيرة مقدار ستة أميال،

---

1 – اليباب : الخراب.

2 – العياشي، **الرحلة**، 1/ 411 – 412.

3 – ساقط من ح.

4 – في د "الرباط".

5 – في ح "أخبار" وهو خطأ.

6 – **الاستبصار...**، ص 173 – 174.

7 – في الأصل "مصور"، والصواب ما أثبتنا من البكري، **المسالك...**، 2/ 230.

فيها أجناس الثمار[1] منها جنس يعرف بالكسبا[2] أو [هو] الصيحاني يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس يعرف بالباري[3] أبيض أملس، كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه، والتحظير عليه وبعث ما هنالك منه إليه، وأجناس كثيرة يطول ذكرها، لا يعدل بها.

وحول بسكرة أرباض خارجة عن الخندق المذكور. وببسكرة علم كثير، وأهلها على مذاهب أهل المدينة[4]، ولها من الأبواب: باب المقبرة، وباب الحمام، وباب ثالث يسكنه المولدون، وحولها محل قبائل البربر. وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة، منها في الجامع بئر لا تنزف[5]، وداخل المدينة جنات[6] يدخل اليها الماء من النهر، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل، ومنه كان عبيد الله الشيعي[7] وبنوه يستعملون في أطعمتهم. وتعرف ببسكرة النخيل. قال أحمد بن محمد المروزي:

(من الرجز)

ثُمّ أَتَى بِسْكِرةَ النّخِيــلِ قَدْ اغْتَدَى فِي زِيّهِ الجَمِيلِ[8]

ومن مدنها مدينة جمونة، ومدينة طولقة، ومدينة مليلى، ومدينة بنطيوس: وهي أقدمها، وهي من البنيان الأول. ومن قرى *121* بسكرة قرية تسمى مَلَشون منها: أبو عبد الله المَلَشوني، وابنه إسحاق: عالمان يُحْمَلُ عنهما العلم، سمع منهما أبو عبد الملك[9] بن ميمون، ومقاتل وغيرهما»[10].

1 – م. س "التمور".

2 – في د "الطيب". وهو خطأ.

3 – في **الروض**...، "الباوي": ص 114.

4 – أي مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

5 – لاتنزف: لاتجف وتمنع.

6 – في **المسالك**...، "جنان".

7 – أبي محمد عبيد الله الملقب بالمهدي مؤسس الدولة العبيدية في المغرب الأوسط بالقيروان، ثم استولى على مصر. توفي سنة 260 هـ.

8 – ينظر: البغدادي، مراصد الإطلاع، 1/97.

9 – في **المسالك**، "أبو عبد الله".

10 – م.س، 2/229 – 231.

ومن مدن الزاب: طُبْنَة[1]، قال في **الروض المعطار**: «من أعظم بلاد الزاب، بينها وبين المسيلة مرحلتان، وهي حسنة كثيرة المياه والبساتين، وهي مما افتتح موسى بن نصير، فبلغ سبيها عشرين ألف رأس، ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها. ومنها أبو مروان عبد الملك بن زيادة[2] أنه كانت له رحلتان إلى المشرق، وأخذ العلم عن جماعة من أهل مصر ومكة والقيروان، وأخذ بالأندلس عن جماعة منهم القنازعي»[3]. وشرب بسكرة من بئر كبير الحجم في جوفها ينحدر من جبل أوراس[4].

أخبرنا محمد بن عمر بن أنس قال: أخبرني قاسم بن عبد العزيز أن في الطريق إلى بسكرة جبلا يعرف بزنير، وقيل زنقير، في وسطه كهف[5] فيه رجل قتيل، يقدر أنه مات منذ زمان لم يغيره مر الدهور، ولا تقادم الأزمان، تنبض جراحه دما، لايشك أحد أنه قتيل يومين. وتخبر الكافة عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل [كذا عرفوه منُذ كانوا][6]؛ وقد نقله أهل تلك النواحي ودفنوه بأقبيتهم ليتبركوا به، ثم لم يلبثوا أن وجدوه في الكهف على حالته، وحدث بذلك ثقات أهل تلك الناحية، والله فعال لما يشاء. وقال محمد بن يوسف في كتابه: إن هذا القتيل في شق جبل بشرقي عين أوْبَان[7]، وهذه العين بين مدينة قرطاجنة ومدينة سبيبة، وذكر أنه يظهر كما ذبح يومه، وأنه هناك من قبل فتح إفريقية، ولم يدروا من دفنه، فالله أعلم بأمره هـ[8]. ولازالت هذه البلدة يأوي إليها الأولياء والصالحون وأهل الأحوال، فقد ذكروا لنا أن بها رجلا اسمه سيدي عمرو بن عريش، من واد ريغ من بلاد

---

1 – طبنة : أعظم بلاد الزاب، انظر : **الاستبصار**. . .، 172 ؛ البكري، **المسالك**. . .، 2/ 228.

2 – عبد الملك بن زيادة الله الطبني توفي سنة 457 . ترجم له ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهر 1942، 2/ 52.

3 – الحميري، **الروض**. . .، 387.

4 – نفسه :114.

5 – في د "كهفا".

6 – ساقط من د.

7 – في **الروض**. . .، عين أوبار ؛ وفي **المسالك**. . .، عين أربان.

8 – ينظر: **الاستبصار**. . .، 173

تكرت، فذهبنا إليه بقصد الزيارة فإذا هو أسود طاعن في السن لابس لقميص كتان، فلما أشرفنا عليه في مكانه أخذ من بعض الجالسين عصى فناول بها الداخلين، وكنت ممن أصابني ضربه وقال وهو في سكره: أخرجوا عني حتى يعفو الله عني. فطلبنا الدعاء فدعا لنا وخرجنا؛ وقيل لنا إن هذه حاله في هذه البلدة منذ ثلاثين سنة وما تغير عنها، وتوتر عنه كرامات كثيرة ومقامات سنية رفيعة، نفعنا الله به.

*122*ذكر خروجنا من بسكرة النخيل

وفي الثاني من شعبان بعد أن حلت النافلة، ارتحلنا مارين بواد بسكرة، يعرف من أسفله بواد أم هان[؟]، ماؤه مالح لجريانه على سبخة، وبزاوية سيدي عقبة بن نافع رضي الله عنه، وهي قرية كبيرة في بسيط من الأرض تحت جبل أوراس، جامعة لأنواع الأشجار إلا العنب فهو قليل لديهم كبسكرة، وماؤها عذب إلا أنه يقل جدا زمن المصيف، وبها مزرعة كثيرة، وعمارة وافرة وسوق.

وعقبة هذا هو عقبة بن نافع الفهري التابعى القرشي، ولد في زمن النبي ﷺ ولذلك عده بعضهم من الصحابة، ولاه معاوية بن أبي سفيان ﷺ على إفريقية، ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها واختط القيروان، وكان موضعها غيضة فنادى الوحوش والهوام التي بها قائلا: إنا أصحاب رسول الله، ﷺ أردنا أن نبني مدينة هنا ونحرق هذه الغيضة فاخرجوا، فخرج كل من بها، واختلف أصحابه في القبلة، فجعلوا يهتدون بالنجوم. فرأى في المنام قائلا يقول له: «خذ اللواء بيدك إذا أصبحت فإنك تسمع تكبيرا ولا يسمعه غيرك، فاتبعه فحيث انقطع التكبير فارْكِز الراية فإنه موضع القبلة». ثم عزل معاوية عقبة عن عمل إفريقية[1] سنة إحدى وخمسين وولى مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية، فنزل مسلمة مصر واستعمل على إفريقية مولى له يسمى: دينارا ويكنى: أبا المهاجر، فكره أن ينزل بلدة اختطها عقبة، فمضى خلفه بميلين -فيما يلي تونس- فاختط مدينة سماها البربر اتكيِرَوان[2]. فأخذ الناس في عمارتها وإخلاء القيروان. فدعا عقبة أن يمكنه الله تعالى منه - وكان مجاب الدعوة- فرجع إلى المشرق، فدخل على معاوية، وعاتبه في ذلك بقوله: «افتتحت البلاد، وأتاني غلام الأنصار فأساء

---

1 - إفريقية : حد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 228.

2 - **في تاريخ مدينة دمشق** "ابت كروان" .

عشرتي». فاعتذر إليه معاوية، ووعده بالرجوع إلى عمله. وتراخى الأمر إلى أن توفي معاوية سنة ستين أو إحدى وستين[1] وولي ابنه يزيد[2]، فولى عقبة إفريقية، وعزل مسلمة بن مخلد وأبقاه واليا على مصر، فخرج عقبة إلى إفريقية سنة اثنين وستين، فقبض أبا المهاجر وأوثقه في الحديد وأمر بتخريب مدينته والرجوع إلى القيروان، وخلف *123* فيها زهير بن قيس البلوي[3].

باع عقبة بعد ذلك نفسه في غزو النصارى، مدينة بعد مدينة، من بلد إفريقية حتى وصل إلى الزاب، فسأل عن أعظم مدائنهم قدرا؟ فقيل له: مدينة أدنة[4]، وفيها الملك[5]، فجمع ملوك الزاب، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم وذهب عزهم من الزاب، وذلوا آخر الدهر. ثم سار إلى تاهرت وطنجة وفاس وسوس ودرعة، وفتح الجميع ودانوا له، ثم نزل إلى البلاد الصحراوية، بلاد لمتونة، وسبى منهم سبيا لم يدخل المشرق أغلى منه، وفر الناس أمامه، لا يدانيه أحد، ولا يعارضه، حتى بلغ البحر الأعظم المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه وجعل يقول: وعليكم السلام، فقال له أصحابه: على من تسلم يا ولى الله؟ فقال: على قوم يونس، ولولا البحر لأرأيتكم إياهم. ثم قال: اللهم إنك تعلم أني إنما أطلب السبب الذي طلبه عبدك ووليك ذو القرنين من أن لا يعبد في الأرض إلا أنت.

ثم رجع لإفريقية، فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كسيلة[6] البرنسي، وكان ممن أسلم على يد أبي المهاجر، وعرّف أبو المهاجر عقبة بحال كسيلة، فاستخف به عقبة، وأوتي عقبة بغنم، فأمر كسيلة أن يسلخ مع السلاخين، فقال له كسيلة: أصلح الله الأمير، هؤلاء فتيان يكفون ذلك. فقال له عقبة: قم. فقام

---

1 - قال جلال الدين السيوطي: " مات معاوية في رجب سنة ستين "، تاريخ الخلفاء، 158.

2 - ينظر ترجمته في تاريخ الخلفاء، 164 - 168.

3 - ينظر: علي بن هبة الله، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر بيروت، [1384/]1965، 4/ 532 - 534.

4 - أدنة: مدينة بأرض الزاب بإفريقية بينها وبين طبنة مرحلتان، أنظر: البكري، **المسالك**، 2/328؛ وفي الحميري، **الروض**. . .، أذنة بالذال **المعجمة**، 20.

5 - في د "المالك ".

6 - كسيلة بن يلزم الأزدي. انظر ابن هبة، تاريخ مدينة دمشق، 4/ 535.

مغضبا، فكان كلما جعل يده في الشاة مسح لحيته، وجعل العرب يهزؤون به، فقال واحد من العرب: إن البربري يتوعدكم. فعاتب أبو المهاجر عقبة وقال: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن الفزازي، وتأت أنت إلى رجل جبار في دار قومه، ومكان عزه، وهو قريب عهد بالشرك، فتهينه وتذله، فتهاون عقبة بكلامه. فلما راسلت الروم كسيلة، أمكنته الفرصة فانتهزها. فقال أبو المهاجر لعقبة: عاجله قبل أن يجتمع إليه أمره، فزحف إليه عقبة فتنحى أمامه، فقال له قومه: لم تتنح[1] عنه وهو في خمسة آلاف، ونحن في خمسين ألفا؟ فقال: الرجل افترق عنه عسكره وليس عنده من يمده- وكان هذا في نواحي تلمسان- فلما سار عقبة يريد إفريقية زحف إليه البربر *124* وكان أكثر المسلمين بالقيروان مع زهير ابن قيس، فوافى كسيلة عقبة بمقربة من تهودا[2] فنزل وركع ركعتين، فقال لأبي المهاجر بعد اطلاقه: الحق بالمسلمين فقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فقال أبو الهاجر: وأنا معك.

فكسركل واحد منهما جفن سيفه، وكسر المسلمون أجفان سيوفهم، وأمرهم أن ينزلوا ولا يركب منهم أحد. فقاتل المسلمون قتالا شديدا حتى بلغ منهم الجهد، وكثرت فيهم الجراحات، وتكاثرعليهم العدو، وقتل عقبة وأبو المهاجر ومن معهما من المسلمين، ولم يفلت منهم أحد، وذلك تحت جبل أوراس حيث عقبة اليوم مقبور، وأسر محمد بن أوس الأنصاري، ويزيد بن خلف القيسي، ونفر معهما ففداهما صاحب قفصة، وبعث بهم إلى زهير بن قيس بالقيروان. ثم ظهر لزهير الانصراف إلى مصر، فقال له بعض أصحابه: أهزيمة؟ فعزم على القتال، فزحف إليه كسيلة بالجموع حتى خرج مع من

---

1 – في د "تتنحى".

2 – تهودة : من بلاد الزاب بالقرب من بسكرة، انظر : الحميري، **الروض**...، 142 ؛ **الاستبصار**...، 174. وهي بالذال ال**معجمة في** البكري، **المسالك**...، 2/255 وفيه بالذال **المعجمة**.

معه من المسلمين إلى برقة، وبقي بها مرابطا إلى أن توفي يزيد بن معاوية[1] في الرابع والستين، وبويع ابنه معاوية الأصغر، ثم هلك بعد شهرين وعشرة أيام من بيعته، واستخلف مروان بن الحكم، وتوفي سنة خمس وستين، وولى بعده ابنه عبد الملك، فبعث لزهير بن قيس يأخذ بثأر عقبة ويخلص إفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة، فأمره عبد الملك، فدخل بجيوش عظيمة، فهزم الله تعالى كسيلة ومن معه، وقتل كسيلة بمَمْسَ. وقاتل البربر، ورجع للقيروان فرأى بها ملكا عظيما، وكره الإقامة بها وقال: إنما خرجت للجهاد، وأخاف أن تملكني الدنيا فأهلك، ولست أرضى بها ولا بملكها ورغد عيشها. وكان من العباد ورؤساء الزهاد[2]، فرجع إلى المشرق، فلما انتهى إلى برقة، وكان الروم حين سمعوا برحيله منها إلى إفريقية، خرجوا إليها بمراكب، فأغاروا وأخذوا النساء، وقتلوا ونهبوا، ووافق ذلك خروج زهير من إفريقية، فأخبر بذلك، فأمر العسكر بالمسيرعلى الطريق، وسار هو على الساحل طمعا أن يدرك سبي المسلمين؛ فأشرف على الروم، وهم في خلق عظيم، فلم يقدرعلى الرجوع، واستغاث به الأسرى[3]، والروم يدخلونهم المراكب، فأمر أصحابه بالنزول، فنزلوا وقصدوا *125*الروم، واقتحموا القتال حتى عانق بعضهم بعضا، وكثرت النصارى، فقتل زهير ومن معه، وأخذ الروم جميع السبي، فارتحلوا إلى القسطنطينية.

---

1 – اليزيد بن معاوية بن ابي سفيان الاموي، ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالماطرون عام 25/ 645 ونشا بدمشق. وولي الخلافة بعد وفاة ابيه سنة 60 هـ. وأبى البيعة له عبد الله الزبيري والحسين ابن علي، فانصرف الاول الى مكة والثاني الى الكوفة، وفي أيامه كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن علي سنة 61 هـ في وقعة كربلاء. وخلع أهل المدينة طاعته سنة 63هـ فارسل اليهم مسلم بن عقبة المري وأمره أن يستبيحها ثلاثة أيام وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة وقتل فيها كثيرا من الصحابة وأبناءهم. توفي عام 64 /683 دامت خلافته ثلاث سنوات. راجع : محمد الطبري، تاريخ الامم والملوك، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر بيروت، 7/ 15؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1970، 3/ 262.

2 – ساقطة من ح .

3 – في ج وخ "الأسارى".

فلما بلغ عبد الملك أمره، ولى حسان بن النعمان الغساني[1] - وكان بمصر- أمر إفريقية، فدخل بجيش لم يدخلها قط مثله، وذلك في سنة تسع وتسعين، فسار حتى بلغ القيروان، وقاتل أعظم ملوك إفريقية بقرطاجنة، فارتحل أهلها في المراكب للأندلس، وصقلية، ثم تحصن بقرطاجنة أهل بواديها، فقاتلهم حسان وهدمها، وكسر القناة التي كان يأتيهم الماء منها. ثم قاتل غيرهم من النصارى حتى انهزموا، وهرب البربر إلى إقليم برقة، ثم قيل لحسان ليس بإفريقية أعظم من كاهنة بجبل أوراس، كل النصارى والبربر في طاعتها، فزحف إليها في جيشه، وقتلت من العرب خلقا كثيرا، وأسرت من أصحاب حسان ثلاثين رجلا، منهم خالد بن يزيد العبسي، واتبعت الكاهنة حسان حتى خرج من عمل قابس[2] وأسلم افريقية، وكتب إلى عبد الملك يخبره بما لقيه المسلمون، فوافاه كتابه يأمره بالمقام حيث أدركه الجواب، فأدركه وهو بعمل برقة، فأقام هناك خمسة أعوام بموضع يعرف بقصور حسان وله نسبت، يمر بها الحاج، وهي فيما بين سرت[3] ومصراتة[4]، حسبما يأتي إن شاء الله تعالى في محله.

ثم لم يجد عبد الملك مثل حسان، فأمده بجيش عظيم ومال وسلاح، فكانت الكاهنة أطلقت أصحابه الذين أسرتهم، إلا خالد بن زيد، وقالت له: إني أريد أن أرضعك مع ولدي هاذين، فقال خالد: كيف وقد ذهب منك الرضاع؟ فقالت: إنا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا صنعناه؛ ثم عمدت إلى

---

1 - حسان بن النعمان : حسان بن النعمان ابن المنذر الغساني، ولى المغرب، وجهه معاوية سنة سبع وخمسين، وكانت له غزوات بعد مقتل الكاهنة. توفي سنة 80هـ. ترجم له: الذهبي، سيرة. . .، 120/4.

2 - قابس : مدينة تونسية على ساحل البحر بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية، بناها الرومان في داخل الخليج. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 289/4؛ الوزان، وصف. . .، 2/ 91؛ البكري، **المسالك**. . .، 189/2.

3 - سُرْت : مدينة ليبية على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب، بينها وبين طرابلس مئتا ميل وثلاثون ميلا وبينها وبين البحر ميلان. انظر **معجم البلدان** : 3/ 206 ؛ الحميري، **الروض**. . .، 312. البكري، **المسالك**. . .، 2/ 177 - 178.

4 - مصراتة : مدينة من مدن طرابلس الكبيرة، ذات أهمية تجارية في القديم، تقع شرقي مدينة طرابلس على نحو 100ميل . انظر وصف. . .، 2/ 111.

دقيق الشعير فلثته بزيت، ثم جعلته على ثدييها ثم أمرت ولديها أن يأكلا منه مع خالد، فأكلوا فقالت لهم: أنتم إخوة من الرضاع . ثم أن حسان وثق بعدم رجوع خالد عن الإسلام، فبعث إليه كتابا مع رسول في زي سائل، فعلم خالد أنه رسول، فاعتذر له، وقال: تعود في غير هذا الوقت، فلما انقضى المجلس، أتاه وأخذ الكتاب، فقرأه وكتب في ظهره أن البربر متفرقون، لا نظام لهم ولا رأي، فاطْوِ المراحل وجد في السير، فإن الأمر لله، ولن يسلمك *126* الله. وجعل الكتاب في خبز، ومضى الرسول؛ فلم تلبث الكاهنة بعد ذهابه إلى أن خرجت ناشرة شعرها، تضرب صدرها، وتقول: ويلكم ذهب ملككم فيما يؤكل. فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون الرسول، فستره الله عز وجل؛ فلما وصل إلى حسان، أخرج الكتاب من الخبزة قد احترق، فقال حسان: ارجع، فقال له: إني أخاف من المرأة الكاهنة، فكتب له كتابا وجعله في نقرة نقرت في قربوس[1] سرْجه وغطاه بالشمع. فمضى الرسول حتى أتى خالدا، فرفع إليه الكتاب، وعرّفه أن الأول أحرقته النار، فرد جوابه وأعاده في قربوس سرجه ومضى، فخرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول: ذهب ملككم في نبات، وأراه بين لوحين[2].

وكانت الكاهنة ملكت إفريقية خمس سنين، ولما رأت إبطاء العرب قالت للبربر: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة والشجر، وإنما نطلب منها المزارع والمراعي، ولا نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، ويقل طمعهم منها. فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الزيتون والشجر، ويهدمون الحصون. فحكى بعض المؤرخين عن عبد الرحمان بن زياد بن أنْعَم[3]، أنه قال: كانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا وقرى متصلة عامرة، وأخربت جميع ذلك. قال الشيخ محمد بن

1 – القربوس : حنو السرج، وجمعه قرابيس، انظر، **لسان العرب** لابن منظور دار صادر الطبعة الأولى، مادة قربس 6/ 172.

2 – في د "حين" وهو تصحيف.

3 – عبد الرحمان بن زياد بن أنعَم المعارفي الإفريقي، أبو خالد، ولد ببرقة سنة 75هـ، نشأ بها وولى قضاء القيروان، رحل إلى بغداد وعظ المنصور وانتقد بعض أفعاله، عاد إلى القيروان وتوفي بها سنة 161هـ. ترجم له : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت : 10 /214.

علي شارح الشقراطيسية[1] : سمعت من يقول : إنه كان بإفريقية في القديم مائة ألف جفن من بين قصر ومدينة، وإن ملكها كان إذا أراد الغزو بعث إلى كل جفن، فيأتيه منه فارس ودينار، فتجتمع له مائة ألف فارس ومائة ألف دينار ولا ينقص من بلاده شيء، والله أعلم بصحة ذلك.

ومن تأمل أثر المدن والقصور الخربة بإفريقية وتداني بعضها من بعض، رأى من ذلك ما يقضي العجب، ويستدل به على كثرة عمرانها في السالف، وكذلك الشعارى[؟] التي بها. إذا تأمل أشجارها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبئ أنها مغروسة لا نبات؛ ويقال إن ما فيها الآن من أشجار البطم[2] إنما كان فستقا فاستحال إلى الصغر، وإلى طعم آخر، لطول ما أتى عليه من السنين؛ ولا شك أن من أكل البطم أخضرا، وجد طعمه كطعم الفستق *127* . قال: فلما بلغ كتاب خالد إلى حسان خرج بالجيوش فلقي في طريقه ثلاثمائة من النصارى يستغيثون من الكاهنة، فيما نزل بهم من الخراب، ووصل إلى قابس، فدانوا بأوامره عليهم، وقاطعهم على مال معلوم، وأهدى له ملوك قفصة وقسطيلة[3] – يعني توزر– ونفزاوة، فسره ذلك. وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبل أوراس تريده في خلق عظيم، وأخبرت ابنيها أنها مقتولة، وأنها رأت في النوم كأن رأسها يركض به فارسان إلى ناحية المشرق، وأنها رأته بين يدي ملك العرب الذي بعث بهذا الرجل. فقال لها خالد: إذا كان هكذا فارحلي بنا وتخلي لهم عن البلاد، وأشارعليها أولادها بمثل ذلك، فقالت: كيف أفر وأنا ملكة، والملوك لا تفر وأورث قومي عارا، فقالوا لها: إنما تخافين على قومك، فقالت: إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحدا، فقالوا لها: فما نحن صانعون؟ فقالت: أما أنت يا خالد فمدرك ملكا

1 – الشقراطسية : قصيدة الشقراطيسية في السير، لامية لعبد الله بن يحيى بن علي بن زكرياء الشقراطيسي، نسبة إلى قلعة من قفصة وهو من أبناء توزر أخذ العلوم بالقيروان، وقد أنشد هذه القصيدة بالمدينة تجاه قبر الرسول ﷺ. توفي سنة 466هـ/1073م. انظر: حاجي، **كشف**...، 2/1339، مخلوف، **شجرة**...، 1/ 173، رقم 361.

2 – البطم : شجر الحبة الخضراء واحدته بطمة، انظر: **لسان العرب**، مادة "بطم" 12/ 51.

3 – قسطيلة : اسم لعمال البلاد الجريدية، وهي بلاد واسعة، من مدنها : توزر والحمة وتقيوس، أهمها توزر. انظر: الحميري، **الروض**...، 480؛ **الاستبصار**...، 159 – 160 ؛الركري، البكري، **المسالك**...، 2/ 225.

عظيما عند الملك أعظم، وأما أولادي فسيدركون سلطانا عند هذا الرجل ويعقد لهم على البربر. ثم أمرتهم أن يركبوا ويستأمنوا إليه، وتوجهوا إلى حسان، فأعلمه خالد بقولها، وأنها مقتولة، وأمرحسان إذ ذاك بحفظ ولديها، وأمّر خالدا على عامة الخيل، ثم خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول: انظروا ما دهاهم، انظروا لأنفسكم، فإني مقتولة. واقتحمت الحرب، و اشتد[1] القتال في الفريقين، حتى ظن الناس أنه الفناء، ثم انهزمت الكاهنة وتبعها حسان حتى قتلها، وقطع رأسها عند بئر تعرف ببئر الكاهنة، وولى حسان الأكبرمن أولادها على جماعة من البربر، ثم إن البربر استأمنوا إلى حسان، فلم يقبل إلا أن يعطوا من قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين في سبيل الله عز وجل بإفريقية، يقتلون الكفرة من الروم والبربر. وانصرف حسان إلى القيروان ودّانت له إفريقية ومن بها، وكتب الخراج على من بها من النصارى ومن على دينهم من البربر، وأقام بإفريقية لاينازعه بشر إلى أن عزل عنها ووليها موسى بن نصير.

رجوع وانعطاف، ثم دخلنا البلد لزيارة سيدي عقبة، وهو في وسط البلد في زاوية *128* من مؤخرة مسجده عليه قبة صغيرة مفروشة بزرابي، وعليه دربوز وغطاء منوع، وعند رأسه خزانة كتب متداولة قليلة، ووقفت بها على جزء أظنه من **أحكام** عبد الحق، بخط أندلسي. وكتب على شباك مشرف على القبر بخط كوفي فيما أظن: هذا قبرعقبة بن نافع نفع الله به وبقربه مئذنة[2] وهي في غاية الإتقان، وهي إلى النصف من مئذنة[3] بسكرة، وعدد أدراجها إحدى وستون؛ واختبرنا – ونحن بأعلاها – مايذكر في سالف الأزمان من أن من تمسك ما بأعلاها من العمود محركا له وقال: أقسمت عليك أيتها المئذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت، فتهتز ! فلم يظهر لنا شيء من ذلك. وكان معنا من سكان البلد المحب سيدي محمد بن عيسى بن الموفق، فأخذ بطاقة من طاقات المئذنة، وحركها فاهتزت بنا كلها تحقيقا، شاهد ذلك كل من حضر حتى كأنها زلزلة عظيمة.

---

1 – ساقطة من ح وخ ود.

2 – في ج وخ و د "المأذنة".

3 – في د "المأذنة".

وفي **الرحلة الناصرية**: «أن جماعة من الفقهاء اهتزت لهم أيضا»[1]. هذا أمر غير مستنكر شرعا وعادة وعقلا؛ ففي **رحلة** الامام أبي عبد الله بن بطوطة[2] نحو هذه القضية قائلا: «وفي مسجد البصرة سبع صوامع، إحداها التي تتحرك[3] عند ذكر علي بن أبي طالب، ﷺ، حسبما شاهدت ذلك، لما أخذ بعض أهل البصرة بعمود هناك قائلا: بحق أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب إلا ما تحركت[4] فتحركت! فصحت مثله: بحق أبي بكر الصديق إلا ما تحركت، فتحركت»[5]. وهذا قليل في جانب الأولياء، فما بالك بالصحابة والتابعين والخلفاء الراشدين، وأنكر الشيخ أبو سالم ذلك قائلا: «إنما الاهتزاز المذكورمن إتقان البناء وفرط طوله، فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز وذلك يقع في كل بناء[6].

قلت: لم تتوسط في الطول فضلا عن أن تكون مفرطة في الطول، ويبعد كل البعد أن يعاد بناؤها فيما بين زمان الشيخ أبي سالم وزماننا، بل البناء الذي أدركه، هو الذي أدركنا، لا في المنار ولا في المسجد لما لاح عليهما من أثر القدم والبلا. وإذا ثبت ذلك فلا يبعد أن ينخرط هذا في سلك ما يراه بعض الناس ببدر ويسمعه، من الطبل بجبل مشهور *129* هناك حسبما يأتي الكلام عليه في محله إن شاء الله تعالى.

وبقرب المئذنة خلوة تنسب لصالح اسمه محمد العابد، مات بالبقيع[7]،

1- كالقاضي أحمد بن إبراهيم المراكشي، والفقيه عبد الله بن إبراهيم السنلالي ومحمد بن عبد العزيز الرسموكي. انظر: الناصري، **الرحلة**، 60

2 - في ج وخ "باطوطا".

3- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، وفيها "تتحرك بزعمهم". شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1407 - 1987، 203.

4- في **تحفة النظار** "تحركي".

5 - **م. س،** 203.

6- العياشي، **الرحلة**، 2/411.

7 - بقيع الغرقد بالغين المعجمة، البقيع الموضع المتسع من الأرض الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سمي بقيع الغرقد والغرقد كبار العوسج. وقد كان في بقيع الغرقد غرقد ثم ذهب الشجر وبقي الاسم وهو مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/473؛ القاضي عياض، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح**=

دخلناها وزرنا بالنية؛ ومسجد سيدنا عقبة هذا صغير متقن، محتو على أربعة صفوف متسعة، وأسطوانات كأسطوانات مسجد بسكرة، إلا أن هذا أتقن منه صنعة، وتقام فيه الجمعة. ثم ذهبنا لزيارة سيدي عسكر وهو من التابعين من أصحابه- فيما قيل- وضريحه قريب من سيدنا عقبة في مسجد صغير، ينزل لقبره بأدراج. وزرنا أيضا خارج البلد وداخل الأجنة، بعض أصحابه يكنى أبا دينار، في بيت صغير وسط الأجنة. وقد صاحبني في ذلك كله، محبنا قاضي بسكرة سيدي عبد القادر- المتقدم الذكر- ولما عجز عن زيارة الأخير، جلس في الطريق ينتظرني، وأنشدني البيتين المعلومين في التفسير لما أضر به الحر في المسير: (مخلع البسيط)

جِسْمِي عَلَى البَرْدِ لَيْسَ يَقْوَى ... وَلاَ عَلَى أَيْسَرِ الحَــــرَارَة

فَكَيْفَ يَقْوَى عَلَــى جَحِيـمٍ ... وَقُودُهَا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَة[1]

ومن أهل محبتنا بهذه البلدة، سيدي أحمد بن امبارك بن عجوبة المصمودي، وسيدي إبراهيم بن قدير، ووالده وسيدي محمد بن حمزة بن عمنا الشيخ أبي يعقوب رضاعا، لما قفل من الحرمين، ويدعى الآن بابن يوسف، صار عليه علما بالغلبة، وأخوه سيدي محمد المدعو الفرحي- بالحاء المهلة - وبالغوا في إكرامنا خصوصا الأخيرين، وأدخلونا بيوتهم، وزودونا بالميسور من تمر وعلف، تقبل الله منهم، وأصلح منا ومنهم الظاهر والباطن. ولم نبت بهذه البلدة المباركة، وإنما دخلنا للزيارة والركب جاد، فخرجنا في أثره مستقبلين أراضي واسعة سبخة ترى فيها البعرة تظن شجرة، من شدة وسعها وكثرة سرابها، تاركين ذات السيار تحت جبل أوراس غير بعيد من سيدي عقبة، تهودة: بلدة ذات نخيل وزرع، وبها رجل صالح اسمه سيدي عبد الله الغريب.

= الثلاثة وهي :الموطأ، البخاري، ومسلم، المكتبة العتيقة، دار التراث، 1/ 115 ؛ محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، سنة 1399[/79 – 1980]، 1/ 146 ؛ لسان العرب، 3 /325؛ القاموس، 1/ 388.

1 – استعارة من الآية ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة، 24.

قال في **الروض المعطار**: «تهودة: من بلاد الزاب، بالقرب من بسكرة، هي مدينة أولية بنيانها بالحجر الجليل وعليها سورعظيم، ولها ربض، ويدور بجميعها خندق، ولها نهر كبير ينصب إليها من جبل أوراس، فإذا كان بينهم وبين أحد حرب وخافوا النزول عليهم *130* أجروا ماء ذلك النهر في الخندق المحيط ببلدهم فامتنعوا به وشربوا منه، وهي كثيرة البساتين والنخيل والزرع وجميع الثمار. وفي هذه المدينة حديث مشهور عن رسول الله ﷺ، رواه شهر بن حوشب، وأنه نهى عن سكنى هذه البقعة التي هي تهودة، وقال: «سوف يقتل فيها رجال من أمتي على الجهاد في سبيل الله تعالى، ثوابهم كثواب أهل بدر وأهل أحد، وأنهم ما بدلوا حتى ماتوا». وكان شهر بن حوشب يقول: واشوقاه إليهم. قال شهر: سألت جماعة من التابعين عن هذه العصابة التي ذكر رسول الله ﷺ، فقالوا: ذلك عقبة بن نافع، وأصحابه قتلهم البربر والنصارى بمدينة يقال لها تهودة؛ فمنها يحشرون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم، حتى يقفوا بين يدي الله عز وجل»[1]، هـ.

قلت: شهر بن حوشب، كان من الصالحين، والعمل على تضعيف حديث انفرد به. وبقربها بلدة تسمى قرطبة، وبها صالح اسمه أبو الطيب بن أحمد، وأخرى يقال لها: سريانة، وزاوية سيدي خليل، رجل صالح، مقبور بها. وسرنا فمررنا على واد سيدي عقبة، يقال له: ابراز، ويقال رؤوس العيون، وماؤه عذب، ثم بواد الخضرا، وبه حفر ماء قليل لا تغني شيئا؛ وبتنا بجنان السدر على غير ماء سوى المحمول، ثم منه فمررنا بواد المنصف، ولا ماء به إلا ما حفر، ولا يغني شيئا لملوحته، ثم على زريبة الوادي: قرية عامرة بظلمة، لا ينجو الركب من إذايتهم غالبا، وماء واديهم ليس بذلك، وأشجارهم قليلة، وإنما لهم حرث كثير؛ سوقوا الركب بسائر المحتاج حتى القطران، وما أكثره لديهم، يأتون به في قرب كثيرة موقورة، يشتريه الحجاج للإبل. وهذا أول موضع رأينا به الغنم المنسوبة لشعيب، عليه السلام، ذات الذنب الكبير المملو شحما، يكاد يعدل الربع من الشاة: ﴿صُنْعَ

---

1 - الحميري، **الروض**...، 142.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾[1]. وهذا النوع من الغنم هو الكثير، فيما استقبلناه من البلاد حتى برقة والحجاز. ثم وقعت بينهم وبين الركب نائرة حتى تضاربوا بالبنادق، فأصابت الحاج عبد السلام الفاسي البويري- قاطن الزاوية الناصرية- بندقة *131* في ذراعه، وحجر في حنكه، ثم عافاه الله بعد. وأخذ الحجاج من أهل القرية سلبا كثيرا، فرده عليهم أمير الركب.

وسرنا بعد حملنا الماء للمفازة بعدها، تاركين ذات اليسار تحت جبل أوراس أليانة وبادس، قرى ذات أشجار ومياه. قال في **الروض المعطار**: «وبادس[2] مدينة بينها وبين تهودة بالمغرب مرحلة، وبادس حصنان لهما جامع وأسواق وبسائط، ومزارع جليلة يزرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة. قال: وهي آخر بلاد الزاب»[3]، هـ.

قلت: والزاب اليوم في عرف أهله على قسمين: غربي، وهو الذي في غرب بسكرة؛ وشرقي، ما في شرقيها إلى بادس. قال في **الروض**: «الزاب على أطراف الصحراء به سميت البلاد الجريدية، وهو مثلها في حر هوائها وكثرة نخيلها، وهو مدن كثيرة وأقطار[4] واسعة وعمارة[5] متصلة، فيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة، وبينه وبين القيروان عشر مراحل. وهذا الزاب هو المذكور في قصيدة محمد بن هاني الأندلسي[6] التي مدح بها جعفر بن علي بن حمدون صاحب بلاد الزاب يقول فيها : (من الكامل)

قد طيّبَ الأفواهَ طِيبُ ثنائِـــــهِ	فَمِنَ أجـلِ ذا تجدُ الثغورَ عِذابـــا
آليت أصدُرُ عن ركابك[7] بعد مـا	جنت السماء ففتحـت أبْوابـــــا
وَرَأيتُ حَوْلِي وَفْـدَ كلِّ قبِيلـــةٍ	حتى توهّمتُ العِـراقَ الزّابـــا

1 – النمل: 99.

2 – عند البكري في **المسالك**، باديس : 2/ 257 ؛ **الاستبصار**، 160.

3 – الحميري، **الروض**. . .، 75.

4 – في **الروض** " أنظار".

5 – في **الروض** "عمائر".

6 – ديوان محمد ابن هانىء الأندلسي : 198.

7 – في د "ركابها". .

أرضٌ وطئتُ الدرّ من أصنافها[1]	والمسْكَ تراباً والرياضَ حُبابا
وسمِعْتُ فيها كلّ خُطبة فَيْصَل	حتى حَسِبْتُ مُلوكَها أعْرابا
ورأيتُ أجبُل أرضها مُنقادة	فحسِبْتُها مدّت إليك رقَابا
وسألتُ ما للدهرِ فيها أشْيَبا	فإذا به من هم[2] بأسكَ شابا"[3]

وعن قرب من الزريبة المذكورة غير بعيد، خنقة سيدي ناجي، وزاوية ابنه سيدي عبد الحفيظ، مريد الشيخ ابن ناصر ومحبه. ولازال أهل زاويته على ما حدثني به غير واحد منهم يقرؤون إثر الحزب **سيف النصر**[4] له صباحا ومساء، على عادة الزاوية الناصرية بدرعة.

وسرنا فمررنا بأم العز، ثم أم الخير: قريتين داثرتين أصابتهما[5] - على ما قيل - دعوة الحاج، لتضرره بمن سكنهما. وبتنا بزريبة حامد، قرية صغيرة جدا، بها بعض نخل وحرث، وعين قليلة الماء نسبة[6] لبانيها، وأهلها ضعفاء متضعفون *132*، عكس التي قبلها. أوسعوا الركب تبنا، ووجدوا الإبل في الحاجة، إذ لم تجد من بسكرة ما ترعاه، لأن غالب هذه البلاد سبخة لا تنبت، إلا ما كان من بعض أوديتها، ففيها النجم الكثير للبغال. وسوق الركب بهذا المنزل من تقدم من قرى جبل أوراس وغيرهم من الأعراب، ووجدنا به ساقية جارية بماء المطر، ثم تأهبنا بحمل الماء لمسافة غِسْران المعطشة، ويزعمون فيها أنها تأخذ شاتها كعبد المجيد[؟]. فارتحلنا وبتنا بمعدر

---

1 - في **الروض** :" رضراضا بها ".

2 - في **ديوان** ابن هاني "الهول" .

3 - الحميري، **الروض**. . .، 281 - 282.

4 - سيف النصر على كل ذي بغي ومكر للشيخ محمد بن ناصر. و هي قصيدة من ثمانية وخمسين بيتا شرحها الحسين بن شرحبيل ثلاثة شروح: كبير و متوسط و صغير. و شرحها محمد بن عبد السلام بناني الفاسي أيضا. يواظب على قراءتها الطلبة بعد فراغهم من قراءة الحزب. توسل بها محمد بن ناصر على من يضر بزاويته أو يعترض طريق المسلمين. ومطلعها :
يا ربنا الأعلى و يا وهاب سبحانك اللهم يا تواب
ينظر: م م و م م، رقم 1374 د (ضمن مجموع) ؛ الناصري، **طلعة**. . .، 1/ 32؛ الناصري، **الروض**. . .، 87.

5 - في د "أصابتها".

6 - ساقطة من د.

واد جارت بعد الزوال، ووجهنا به غدرانا من الأمطار، وكثرة النجم، قدر قامة الإنسان. ثم منه، فمررنا بواد الميتة، كثير الطرفا والمرعى، وبتنا بغسْران. قال ابن ناصر في **الرحلة** : «على وزن عِمْران»[1]. وقال الشريف أبَو العباس أحمد بن عبد القادر الفاسي في رحلته المسماة **نسمة الأس في حجة سيدنا أبي العباس**[2] - يعني مولى المخفية[3] الشهير بفاس- ما نصه: «غَيْسَرَان على وزن زَعْفران»[4]. وهو واد جار، عليه دشرة عامرة، وغلل وفواكه وماء ليس بذاك بل ممريض[؟] للبطون، وبقربه عين عليها حرث لابأس بمائها، على قلته. وبهذا البلد من الزراريب[؟] إلى هنا كانت من قبل تسكنها الظلمة الفجرة النمامشة، والشائبة، فأخذهم الله أخذا وبيلا، بدعوات الركب النبوي، يمر عليهم ذهابا وإيابا، إلا وتعرضوا له بالحرابة، فسلط الله عليهم بعض أمراء الترك، ومن انضاف إليهم من الأعراب، فأجلوهم لنواحي إفريقية من جهة تونس، والآن ينزلها أولاد بربر[؟]، وأولاد معافى، وأولاد أخيار، وأولاد سيدي الشيخ، ومع ذلك لا يخلو إلى الآن المحل من السرقة، والنهبة، وهو أول عمالة تونس[5].

ثم ارتحلنا، فمررنا بعد مزايلة الوادي بقليل على مدينة كبيرة سورها حجارة منحوتة، ولازال بها أبراج، وبعض أبوابها قائما ماثلا، يدعى الآن

1 - الناصري، **الرحلة**، 61.

2 - أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن معن الأندلسي، أخذ عن أبيه الذي اشتهر بالزاوية التي أسسها بالمخفية، توفي سنة 1120 هـ. ترجم له: الحضيكي، **طبقات**...، 1/ 77؛ القادري، نشر...، 3/ 182 - 191، **التقاط**...، 300؛ الكتاني، **سلوة**...، 2/ 292؛ الناصري، **الاستقصا**...، 7/ 110.

3 - يعني زاوية المخفية أسسها محمد بن عبد الله بن معن الأندلسي على ضفة واد الزيتون بأقصى حومة المخفية (حي بعدوة الأندلس بفاس)، وقد اختطها في حدود سنة 1048 هـ، وأعاد بنائها ابنه أحمد سنة 1104 هـ، وصنع بها المحراب ولم يكن بها قبل، وخزانة للكتب المحبسة عليها. انظر: علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، سنة 1991م، الملحق 104؛ القادري، نشر...، 3/191 - 192؛ محمد مزين، **فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 - 1637** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنساني، الرباط، سنة 1986، 1/ 249 - 277.

4 - **نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس** لأحمد بن عبد القادر الفاسي، م خ ح، رقم 8787، ص10.

5 - في خ "التونسي".

عند أهل البلاد: باب إفريقية، يزعمون أنها من مدن الروم القديمة، والله أعلم. وتركنا عن يسارنا في الجبل مياها منها تمَغز: واد يسيل بماء عذب جار لا يغور، عليه عمارة قليلة. ومنها الشبيكة، دشر عامر، ونخل وفواكه وخضر وماء كثير، و[ليس]بذلك يزعمون أنهم شرفاء، وجدهم *133* يسمى سيدي سلطان، موقرون لايؤدون خراجا[1] لأحد، وسوقونا بعد أن حططنا الرحال بقربهم بالمحتاج، ولم تظهر منهم في الركب امرأة خلاف ما عليه سائر البلاد الجريدية والزابية.

ثم ارتحلنا، فوقعنا في سبخة[2] عظيمة، وما تعديناها حتى قارب الزوال، وما في رحلة الشيخ أبي سالم العياشي، من أن مساحتها ميل[3]، فالأمر بخلافه، بل أكثر من فرسخين بكثير، ولعله قطعها في جهة غير التي قطعنا نحن، أو كانت في زمنه على ما قال، ثم زادت على ما علم من حال السباخ. وسرنا فمررنا بالحمّة، بالتشديد. وتعرف بحمّة البهاليل، وهي قرى مجموعة ذات نخيل كثير، ومياه وفواكه وخضر، من أعمال توزر وإحدى قواعدها، وبها عين حارة، عليها حمام ينسبونه للصالحين، يغتسل منه ذوو العاهات فيبرؤون؛ وأفضل ما بها من المياه العين المسمات بالطيبة.

ثم منها لتوزر، كجوهر، وبينهما تسعة أميال على ما قيل، وخيمنا بها في رمل حيث يخيم الركب، وهاجت علينا بها ريح منعت من دق الأخبية، ومن الطبخ ليلا، وتعرف هذه البلاد بقسطيلية، وهي الآن من إيالة تونس.

قال التجاني في رحلته: «وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي، وكذا أكثر بلاد الجريد، لأنهم في حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم، وفيها[4] قوم من العرب الذين سكنوها بعد الافتتاح،

---

1 - لعله يقصد بالخراج، الإتوات التي تفرض على المنطقة .

2 - السبخة :ج سباخ، أرض ذات ملح، لاتكاد تنبت، تسوخ فيها الأقدام، انظر : لسان العرب 3/ 24.

3 - العياشي، الرحلة :1/ 53.

4 - في رحلة التجاني"فيهم".

وفيهم[1] أيضا من البربر الذين دخلوها في القديم بعد خروجهم من فلسطين الشام وما والاها، وكان ملكهم جالوت، فلما قتله داود عليه السلام تفرّقوا، فتوجه أكثرهم إلى إفريقية وبلاد المغرب. وكانت إفريقية للروم، فأجلتهم البرابر عنها إلى جزر[2] البحر، كصقلية وغيرها. ثم تراجعت الروم إلى بلادها على صلح مع البربر، فآثرت[3] البربر سكنى الجبال والرمال وأطراف البلاد، وصارت الروم إلى البلاد حتى جاء الإسلام، ففرجميع من فيها إلا من أسلم أو أدّى الجزية، كأهل الجريد هؤلاء. وقد اشتهر عند أهل توزر ما اشتهر من بيع فضلاتهم، وهم يعيّرون بذلك كما يعير به أهل قابس، ويعير هؤلاء أيضا بأكل لحوم الكلاب، ولم أر[4] منهم إلا مُقرّا بأكلها، مستطيبا للحومها. وقديما هجيت بنو أسد *134* وفقعس وهذيل وغيرهم بذلك، قال الفرزدق:

(من الطويل)

إِذَا أَسَدِيّ جَاعَ يَوْمًا بِبَلْـدَةٍ وَكَانَ سَمِيناً كَلْبُهُ فَهُوَ آكِلُـهُ[5]

وقال مساور بن هند: (من الوافر)

إِذَا أَسَدِيَّةٌ وَلَـدَتْ غُلامـًا فَبَشِّرْهَا بِلَؤْمٍ في الغُـلامِ[6]
يُخَرِّسُهَا نِسَاءُ بَـنِي دُبَيْـرٍ بِأَخْبَثِ مَا يَكُونُ[7] مِنَ الطّعَامِ
تَرَى أَظْفَارَ أَعقَدَ مُلْقَيَـاتٍ بَرَا ثِنُهَا عَلَى وَضَمِ التَّمَـامِ

والخُرْس بالضم: طعام الولادة[8].

---

1 – في **رحلة التجاني** "فيها".

2 – في ج و خ ود "جزاير".

3 – في **رحلة التجاني** "اختارت"

4 – في د "أرى".

5 – ينظر البيت في **كتاب الحيوان للجاحظ**، تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار احياء التراث العربي، بيروت، .لبنان، 1/ 267

6 – نفسه.

7 – في **الحيوان** : " ما يجدن".

8 – ينظر: القاموس، 1/ 696.

وقال مساور بن هند: (من الطويل)

بَنو أَسَدٍ اَنْ تُحْمِلَ العَـام فَقْعَـسٌ فَهَذَا إِذَنْ دَهْرُ الكِـلابِ وعَامُهـَا[1]

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يذكر هذيلا، ويعيرهم بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس:

(من البسيط)

إنْ سَرّكَ الغَدْرُ صِرْفًا لا مِزَاجَ لَهُ فَأْتِ الرّجِيعَ وَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ
قَوْمُ تَوَاصَوْا بِأَكْلِ الجَارِ بَيْنَهُـمْ فَالكَلْبُ والشّاةُ والانْسَانُ سِيَـانِ[2]

وليس يوقف لوقت بناء توزر على تحقيق لتقادم العهد بذلك. وبعض المؤرخين يقول: إن بناءها كان بإثر الطوفان، زمن نوح صلى الله عليه وسلم. وكان افتتاحها صلحا، في أول الإسلام، على يد حسان بن النعمان، سنة تسع وسبعين، وذلك بعد عوده من برقة بالمدد الذي أمده عبد الملك[3]. ووقع في تاريخ ينسب إلى الإمام الحافظ أبي الطاهر السّلفي، أن إفتتاح توزر كان على يد عقبة بن نافع، وذلك غريب. وكانت ولاية عقبة على إفريقية سنة ست وأربعين، فإن صح ما ذكره أبو الطاهر، كان افتتاحها في زمن معاوية بن أبي سفيان، وعلى القول الأول في زمن عبد الملك بن مروان، ويحتمل أن يكون افتتحها أولا في زمن عقبة ثم انتقضت لما انتقضت إفريقية [فافتتحت][4] ثانيا في زمن حسان، وأما ما يدل على أنه افتتحها صلحا فبقاء مواضع كنائس النصارى بها خرابا إلى زماننا لم يتصرف فيها، وأن المسلمين بنوا بإزاء كل كنيسة منها مسجدا. والأشهر في ضبطها فتح التاء وبعض الناس يضبطها بالضم، ولا وجه له[5] "[6] هـ.

1 - الجاحظ، الحيوان، 1/ 267.

2 - ديوان حسان بن ثابت طبعة تونس، 102 ؛ الجاحظ، الحيوان، 1/ 268.

3 - عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو الوليد، ولد سنة 26هـ أحد ملوك بني أمية توفي سنة 86هـ. انظر : السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، 171 - 177.

4 - ساقطة من ح ود وج. الزيادة من **رحلة التجاني**

5 - في **رحلة التجاني** " لا وجه لذلك"

6 - عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، تونس - طرابلس، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب 158 - 163.

وبالروض المعطار: «تُوزر وهي قاعدة كور قسطيلية[1] من البلاد الجريدية» إلى أن قال: «وثمرها كثير يعم بلاد إفريقية، وبها الأترج الكبير[2] الطيب، والبقول بها موجودة متناهية في اللذة والجودة، وسعر طعامها غال في أكثر الأوقات، لأنه يجلب إليها، والحنطة والشعير بها قليلان». ثم قال*135* : «على طرف الصحراء، لا يُعلم ما وراءها، ولا قدر أحد قط على الدخول في الصحراء التي في قبلتها. ويقال إن بتلك الصحراء وادي رمل يجري مجرى المياه، وهذا مستفيض». قال: «وأهلها يبيعون زبل مراحيضهم، وهم يعيّرون بذلك، لأنهم لا يدخلون المراحيض بالماء لئلا[3] يفسد الزبل، فإذا دخل أحدهم المرحاض مشى إلى الساقية أو والوادي فاغتسل، ويمشي[4] عندهم دلال المراحيض بالزبل في الإناء فاذا كان جافا حرص عليه، وإلا زهد فيه. ويصنعون في جناتهم مراحيض على الطرق العامة لمضطر أو غريب ليس من أهلها، أما البلدي فلو أمسك ذلك يومين ما فعله[5] إلا في مرحاضه، وذلك لتدمين أرضهم لأنها في غاية الجفاف لقربها من الصحراء»[6]، هـ.

قلت: وهذا الشائع في البلدة الصحراوية الرقيقة التراب، أو ذات الرمل فإنها إذا لم تزبل لا يأت منها كبير نبات سيما إن كان فيها ماء جار كقابس وبلادنا درعة، فتلجئهم هذه الضرورة إلى بيع الزبل والتغالي فيه. وقال الإمام البكري في **مسالكه**: «فأما بلادُ قَسْطِيلية، فإن من مدنها تُوْزِر والحمّة ونفطة[7]. وتوزر: هي أمها، وهي مدينة كبيرة عليها سور مبني بالحجر

---

1 - في **الروض**، قصطيلة بالصاد : 144.

2 - نفسه : " كثير".

3 - في د "ليلا". تصحيف

4 - في خ و ج " يسمى ". تصحيف

5 - في **الروض**، "رماه".

6 - الحميري، **الروض**. . . ، 144 - 145.

7 - نفطة : من بلاد الجريد في إفريقية، منها إلى توزر **مرحلة**، وبينها وبين قفصة مرحلتين. انظر: الحميري، **الروض**. . . ، 578 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 296 ؛ العبدري، **رحلة**، 484 - 486.

والطوب، ولها جامع محكم البناء، وأسواق كثيرة، وحولها أرباض واسعة. وهي مدينة حصينة، لها أربعة أبواب، كثيرة النخل والبساتين والثمار، إلا أن قصب السكر والموز[1] لا يصلحان بها. حولها سواد عظيم من النخل، وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا، شُرْبُها من ثلاثة أنهار، تخرج من رمال كالدرمك رقة وبياضا، يسمى ذلك الموضع بلسانهم: شرس. وإنما تقسم هذه الأنهار بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى: وادي الجمال، يكون قعر النهر نحو مائتي ذراع [ويخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا وأزيد][2]، ثم ينقسم كل نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستة جداول، ويتشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثرة، ثم في قنوات مبنية بالصخر[3]على قسمة عادلة،[4] لا يزيد بعضها على بعض شيئا، كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر[؟]، يلزم كل من يسقى منها أربعة أقداس مثقال في العام. وقيل، يلزم من يسقي نهارا أربعة أقداس المثقال في العام. *136* وبحساب ذلك في الأكثر والأقل، وهو أن يعمد الذي يكون له دولة السقيِ إلى قدسٍ في أسفله تقب بمقدار ما يسدها وَتَرُ النَدّافِ، فيملؤه بالماء ويعلقه ويسقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفد ماء القدس، ثم يملؤها ثانية، هكذا. وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدسا. ولا يُعْلَم في بلدٍ مثل أُتْرُجّهَا جلالة وحلاوة، وبها الزنجبيل[5] والمخيطا والأفلح.

وجباية قسطيلية مائتا ألف دينار، وأهلها يستطيبون لحم الكلاب ويُسَمّنونها في بساتينهم ويطعمونها التمر، ويأكلونها. وأخبرني من أضافه[6] منهم رجل فأطعمه لحما، فاستحسنه فسأله عنه، فقال له: لحم جَرْوٍ مُسَمّنْ.

---

1 – في البكري، المسالك، : "اللوز".

2 – ما بين المعقوفتين ليس في، المسالك، .

3 – في المسالك، "الحجر".

4 – في م. س، "عدل".

5 – ن.م، "التّرُنْجِين ".

6 – ن. م، "ضاف ".

ولا يعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان، إلا الفناء. إنما هي رمال وأرض[1] سَوّاَخَة، وهم يخبرون أن قوما منهم أرادوا معرفة ما وراء بلادهم، فأخذوا الأزواد وذهبوا في تلك الرمال، ولم يروا آخر[2] العمران، وهلك أكثرهم في تلك الرمال»[3]، هـ.

قلت: وبقي عليه من مدن قسطيلية: الودّان ويقال تقيوس إذ بها مدينته، بالتاء لا بالدال، كما تنطق به عامة أهل تلك البلاد، وذكرها محمد بن علي بن شباط شارح **الشقراطيسية**، والتجاني في **رحلته**[4]. وسيأتي الكلام عليها، إذ عليها يمر الحاج ذهابا وإيابا، والمدينة التي وصفها وجامعها مندثر الآن إلا بعض ديار تعرف عند عامة أهل البلد اليوم ببلاد الحضر.

وتوزرالقديمة دخلناها، وزرنا من بها من الأولياء والعلماء، منهم الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله الشقرطسي المتوفى سنة أربع وستين وأربعمائة، وشارح نظمه المعهود محمد بن علي شباط، وخلوة منسوبة لأبي الفضل ابن النحوي، صاحب **المنفرجة**. ويزعم بعض الناس ان بها قبره، وبعضهم يقول، تلميذ صاحب المنفرجة. يحكى عنه أنه مرض فبعث له بعض أصدقائه لحم ثنى وفراريج - يعنيالديكة - وكتب له ما نصه : (من البسيط)

إنّ الثّنَــى لَيُثْنَى كُــلّ عَافِيّـــةٍ وَاسْمُ الفَرَارِيجِ مُشْتَقٌ مِنَ الفَرجِ

تـنـبـيـه : في طبقات ابن السبكي اختلف في ناظم **المنفرجة**، فقيل: «الشيخ العارف*137*أبو عبد الله القرشي الأندلسي[5]، وقيل لأبي الفضل يوسف بن محمد النحوي التوزري. قال وذلك أن بعض المتغلبين عدا على أمواله وأخذها، فبلغه ذلك وكان بغير مدينته توزر، فأنشدها فرأى ذلك الرجل في نومه تلك الليلة رجلا في يده حربة، وقال له: إن لم ترد على فلان

---

1 - في **المسالك**، : "أرَضُون".

2 - في م. **س** : "أثر".

3 - البكري، **المسالك**. . . ، 2/225 - 226.

4 - التجاني، **رحلة**، 159.

5 - يحيى بن العطار القريشي. انظر: حاجي، **كشف**. . . ، 2/136.

أمواله[1]، قتلتك بهذه الحربة، فاستيقظ مذعورا وأعاد عليه أمواله. وهي مشتملة [على اسم الله الأعظم، وكان الوالد إذا أصابته أزمة ينشدها»][2]، هـ.

توفي في العشرة الثانية من المائة السادسة، وسيدي علي بن عمران تلميذ أبي علي النفطي وأبو مروان عبد الملك بن الكردبوس][3] تلميذ أبي الحسن التبريزي، ومؤلف كتاب **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، وأبو زكرياء يحيى بن علي الشقراطيسي نسبة لقرية بهذا القطر وهو كما في شرح **الشقراطيسية**، تلميذ أبي الحسن القابسي. روى عنه كتابا في الرد على بعض أهل الأهواء وله شعر، ومن شعره مرثيته للإمام ابن أبي[4] زيد قائلا: (من البسيط)

خَطْبٌ أَلَمَّ فَعَمَّ السّهْلَ وَالْجَبَلا ... وَحَادِثٌ حَلَّ يُنْسِي الحَادِثَ الْجَلَلاَ

نَاعٍ نَعَى ابْنَ أبي زَيدٍ فَقُلْتُ لَهُ ... أَشَمْسُنَا كُسِفَتْ أَمْ بَدْرُنَا أَفَلاَ

أَمْ مَادَتِ الأَرْضُ أَمْ رَاجَ بِسَاكِنِهَا ... أَمِ الْحِمَامُ بِعَبْدِ اللهِ قَدْ نَزَلاَ

رَزِيَّةٌ عَظُمَتْ أَهْوَالُهَا أَفَلاَ ... أَبْكِي وَهَلْ سَلْوَةٌ وَالْبَدْرُ قَدْ أَفَلاَ

كُلُّ الْبَسِيطَةِ بَسَطَ الْحزنِ قَدْ بَسَطَتْ ... وَقَبْرُهُ لِسَنَى أَنْوَارِهِ ابْتَهَلاَ

وَكَيْفَ لاَ وَوَلِيُّ اللهِ حَلَّ بِهِ ... قُطْبُ الْمَشَايِخِ نُورُ الْوَرَى اكْتَمَلاَ

يَاعَيْنِي سِحّي دَمْعًا فَالدّمْعُ فَاضَ لَمّا ... أَصَابَنِي وَهَمًا سَخَا وَمُنْهَمِلاَ

وَلَوْ بِعَيْنِي نَهْرٌ سَالَ مُنْهَمِلاً ... لَعَادَ بَعْدَ سَبِيلِ سَيْلُهُ سَهَلاَ

لاَ تَعْجَبُوا لِشَجِى فِي تَوَلُّهِهِ ... بَلْ اعْجَبُوا لِخَلِي الْبَالِ كَيْفَ خَلاَ

ودخلنا المسجد الأعظم الذي أشار له البكري وهو كما قال: «متسع يقرب من جامع القرويين بفاس». بل قيل إنه بُني على قدره واندثر الآن، ولم يبق إلا المنار وبعض سوره وأبوابه، وهو متقن غاية، واختصر جهة من قبلته بعضُ الملوك نحو الربع، وبناه بنيانا جديدا، حاشا محرابه القديم فقد بقي على حاله، ورأيت منقوشا فيه ما نصه: نقشي هذه القبلة سنة سبعين وخمسمائة، رحم الله من دعا لصانعها بالمغفرة.

---

1 – في د "ماله".

2 – السبكي، **طبقات**...، 8/31.

3 – ساقط من د.

4 – ساقطة من ح ود.

وكان المسجد *138* من أصله بني مرارا لما لا يخفى أن البكري المتقدم آنفا أقدم وأقدم من هذا التاريخ، ولا زال هذا القدر منه اليوم تقام فيه الجمعة مع فقد اتصال البنيان به كجامع بسكرة.

قال التجاني في **رحلته**: «وعلى الماء أرحاء كثيرة، ومن العجب أن هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من الغثاء[1] وغيره، فإذا انتهى ذلك إلى المقسم افترق هناك أجزاء بالسويّة على عدد المسارب، فمضى كل قسم منها إلى مسرب منها، شاهدت ذلك عيانا، وكثيرا من أهلها يسكنون الغابة، في مبان ضخمة حسنة بخلاف مبان داخل البلد. ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر، وهو من أحسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هناك، يجتمع به القصارون فينشرون هناك من الثياب الملونة والأمتعة الموشيّة ما يعمّه على كبره، فيتخيل للناظر أنه روضة تفتحت أزهاره، وأطردت أنهاره. وليس بتوزر أحسن من هذا الموضع، وهو خارج عن غابتها، والغابة ملاصقة لسور المدينة فبذلك تمت حصانتها، وقد وصفها بعض شعرائها في قصيدة طويلة رتبها على حسب ما أخترت منها وهي: (من الكامل)

زُرْ تُوزُرًا إنْ شِئْتَ رؤْيَةَ جَنَّةٍ ... تَجْرِي بِهَا مِنْ تَحْتِكَ الأَنْهَارُ

نَهْرٌ عَلَى رَمْلٍ يَسِيرُ كَأَنَّهُ ... رِقَّةً تَمَاعُ عَلَى النُّضَارِ ثِمَارُ

أَبًّا وَفَاكِهَةً حَوَتْ وَحَدَائِقًا ... غُلْبًا تُغَرِّدُ فَوْقَهَا الأَطْيَارُ

جَنَّاتُهَا مِثْلَ الْجِنَانِ وَأَرْضُهَا ... مِسْكٌ وَنَشْرُ نَسِيمِهَا مِعْطَارُ

دَوْحٌ يَدِفُّ وَمَنْظَرٌ يُسْبِي النُّهَى ... وَبُرُودُ رَوْضٍ وَشْيُهَا الأَزْهَارُ

وَمَذانِبٌ مِثْلَ الْقَوَاضِبِ جُرِّدَتْ ... خَلَعَتْ عَلَيْهَا لَوْنَهَا الأَشْجَار

وَتَنَاثَرَتْ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ فَوْقَهَا ... أَنْوَارُهَا فَتَضَاعَفَتْ أَنْوَارُ

وإِذَا يَهُبُّ نَسِيمُهَا ذاعَتْ بِهِ ... مِنْ نَشْرِ أَزْهَارِهَا أَسْرَارُ

وَالنَّخْلُ مِثْلَ عَرَائِسَ مَجْلُوَّةٍ ... تُبْدِي بَدَائِعَ حُلِيِّهَا الأَطْوَارُ

وَإِذَا هَزَزْتَ بِجِذْعِهِنَّ تَسَاقَطَتْ ... رُطَبًا جَنِيًّا نَثْرُهُنَّ نِثَارُ

قُطْرٌ مِنَ الأَقْطَارِ أَشْرَقَ حُسْنُهُ ... فَكَأَنَّمَا اللَّيْلُ الْبَهِيمُ نَهَارُ

---

1 – **في رحلة التجاني**: "غثاء". ص157

كَمْ فِيهِ مِنْ مَعْنَى جَمَالٍ رَائِقٍ تَصْبُو لِرُؤْيَةِ حُسْنِهِ الأَبْصَارُ
كَمُلَتْ مَحَاسِنُهُ وَطَابَ حَدِيثُهُ فَبِذِكْرِهِ تَتَزَيَّنُ الأَسْمَارُ
يَا أَيُّهَا الثَّاوِي بِهِ مِنْ أَهْلِهِ أَوْ غَيْرِهِم لِمَنْ حَوَتْهُ الدَّارُ
لاَتَصْبُوَنَّ إِلَى سِوَاهُ فَإِنَّهُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا هُدًى وَمَنَارُ
139 هُوَ جَنَّةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ مَحْفُوفَةً بِمَكَارِهٍ هِيَ لِلْقُلُوبِ شِعَارُ
يَا جَنَّةً لَوْلاَ شَوَائِبُ صَحْفُوهَا تَمَّ النَّعِيمُ بِهَا وَعَزَّ الْجَارُ
أَيَّامُنَا مَصْقُولَةٌ أَطْرَافُهَا بِكَ وَاللَّيَالِي كُلُّهَا أَسْحَارُ»[1]

وأما الآبار ففيها العذب البارد وغيره، وأما الخراج اليوم فبأضعاف مضاعفة مما قال البكري، ولقد أضر بهم جور الولاة، حتى كاد الخراب يستوي عليها، بالنسبة لما سلف، لضعف أهلها بالجبايات الظلمية.

ونفطة: مدينة قريبة من توزر، لها واد مثل واديها، وسواد النخيل خراجها على نحو الثلثين من خراج توزر، وبينهما ثمانية عشر ميلا، واشتهرت في القديم بسكنى الصالحين لها، ولا زالوا. وبها قبر الشيخ أبو علي النفطي، يفد الناس إلى قبره للزيارة من سائر مدن إفريقية؛ ولم تتأت لنا زيارته، نفع الله تعالى به.

وفي **الروض المعطار**: «بينها وبين توزر مرحلة، ومدينتها مبنية بالصخر، عامرة، بها جامع ومساجد وحمّامات وتجارات ونخيل وغلات ومياه جارية، وجميع أهلها شيعة، وتسمى الكوفة الصغرى. وهي كثيرة الخصب، وأهلها ذوو يسار[2]، وهي بقايا الروم»[3].

وزرنا أيضا بالبلدة الامام اللخمي الكبير، جد صاحب **التبصرة** لأمه، في قبة صغيرة بإزائها مسجد صغير في زاوية صغيرة عامرة تسمى اليوم زاوية التوانة، وسكانها ينتسبون له، معظمون عند العامة، وكذا زرنا بتوزر

---

1 - التجاني، **رحلة**، 157.

2 - في الصل: "إيثار"، والتصحيح من **الروض**...

3 - الحميري، **الروض**...، 578.

الجديدة سيدي ميمون، وابن غلاب، وسيدي عبيد بن خضير، من أولاد سيدي عبيد الشارف، المقبور ببلدة تعرف بالجامع، بظهر النمامشة، قرب خنقة سيدي ناجي. وله ولذريته بهذه البلاد الإفريقية صيت، وذريته كثيرة الآن تبلغ آلافا محترمين عند الأمراء، وهم من أولاد أبي السبع سكان سوس الأقصى، ومن صلحائهم المقبورين بتوزرالجديدة، سيدي عبيد بن الذيب، وسيدي عبد العاطي، وسيدي علي الكموني، وسيدي أحمد بن عثمان بن أبي القاسم بن الشريط، وسيدي عبيد بن عبد المالك، زرنا الجميع بالنية.

وتوزر الجديدة اليوم مدينة كبيرة عامرة كل العمارة، محتوية على مساجد كبيرة، تقام في الأربع منها الجمعة، ومدارس وحمامات، دخلنا المساجد والمدارس تبركا، ومع ذلك فقد اندثر بها العلم، وقَلّتْ بها دواوينه؛ فمن الذين *140* اجتمعت به من طلبة البلد، وكان والله خيرا دينا، الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن منصور الجمني نسبة لبلده بنفزاوة[1]، على مرحلة ونصف من توزر، وكان من أحسن الناس خلقا، له ممارسة بالفقه والنحو، وله جميل الظن بالله وبعباده، أدخلنا بيته وبالغ في إكرامنا، وهش وبش، وأوقفنا على ما لديه من الكتب المتداولة وغيرها، ومنها **سلم السعادة**، نظم للشيخ عبد الصادق بن عيسى في طريق القوم، قال في أوله: (من الرجز)

سَمّيْتُهُ بِسُلّمِ السّعَادَةِ وَمَرْكَبُ الرّبْحِ لِمَنْ أَرَادَهُ

وفي آخره : (من البسيط)

أَبْيَاتُهُ هَذِهِ خُذْهَا وَاشْترِ بِهَا حَيَاتَكَ دَوْمًا يَا سَرِي
فَمُرّ إِلَى الخَيْرَاتِ سُلّمٌ جَلِيلٌ مَعَ أَنّ فِي تَارِيخِهَا شِفَا العَلِيلِ

أشار بالذال من هَذِهِ، وبالخاء والذال من خذهَا، وبالشين والتاء والراء من اشتر، وبالتاء من حياتك، وبالسين والراء من سرإلى أن عدد

---

1 – نفزاوة : تتكون من ثلاثة قصور، بينها وبين قابس ثلاث مراحل، وبينها وبين قفصة مرحلتان، ومنها تسير إلى قسطيلة . انظر: البكري، **المسالك**. . . ، 2 /224؛ الوزان، وصف. . . ، 2 /145؛ الحميري، **الروض**. . . ، 578.

أبيات هذا النظم بحساب الجمل[1] : أربعة آلاف وخمسمائة. وأشار بالشين والحاء والألف إلى تاريخه، وهو بحساب الجمل ألف واحدى وثمانون سنة[2]. ووقفت لديه أيضا على شرح أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي، نحو خمسة عشر كراسا من الرباعي لنظم الشيخ زروق المشهور في عيوب النفس الذي أوله: (من الرجز)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي قَدْ عَرَفَــا   مَعَائِبَ النَّفْسِ لأَرْبابَ الصَّفَا

وعلى **منظومة** الأخضري في التوقيت جامعة سماها: **السراج**[3]، قال في آخرها :

سَلْ كُلَّ نَاظِرِ هَذَا الـنظـم   أَنْ يَتَجَافَى عَنْ خُشُونَةِ الكَلاَمِ
فَإِنْ رَآهُ عَارِفاً فَاسْتَحْسِنْــهُ   فَالْعُذْرُ حَقٌّ لابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً

وعلى شرحها للشيخ سحنون بن عثمان، وعلى حواشي البطيوي على المكودي، على **الخلاصة** في نحو ثمانين[4] كراسا رباعيا، جامعة مانعة في بابها، وعلى **رحمة الأمة في اختلاف الأئمة**، وهو بالخزانة الناصرية، مستشكلا ما فيه عن مالك، من أن الماء الجاري لاينجس بالتغيير، قل أو كثر.

فقلت الذي رواه المدنيون عن مالك، كما في الحطاب، عن أول في رسم من سماع ابن القاسم، أن الماء قل أو كثر، لا تفسده النجاسة، إلا إن تغير وصف من أوصافه[5]. وفي الحديث على ضعف فيه: «خلق الله الماء

1 - يؤرخ بعض المؤلفين والشعراء "بحساب الجُمّل": بضم الجيم وتشديد الميم المفتوحة، وهو المستعمل في حساب عمليات المؤلفات في الفلك والتنجيم بالمشرق والمغرب، وفي عدد من المنظومات التاريخية والأدبية، وهذا الحساب يعتمد في التعداد هجائية السريانيين التي هي حروف" أبجد..."، على الترتيب المغربي التالي: أ = 1؛ ب = 2؛ ج = 3؛ د = 4؛ هـ = 5؛ و = 6؛ ز = 7؛ ح = 8؛ ط = 9 ؛ ي = 10 ؛ ك = 20 ؛ ل = 30 ؛ م = 40 ؛ ن = 50 ؛ ص = 60 ؛ ع = 70 ؛ ف = 80 ؛ ض = 90 ؛ ق = 100 ؛ ر = 200 ؛ س = 300 ؛ ت = 400 ح ث =500 ؛ خ = 600 ؛ ذ = 700 ظ = 800؛ غ = 900 ؛ ش = 1000. انظر: المنوني، **المصادر**...، 2/355.

2 - بحساب الجمل : ش ح أ = 1081 : ش 1000، ح = 8، أ = 1 .

3 - نظمها وهو ابن عشرين سنة. انظر : المراكشي، **الإعلام**...، 6/ 205.

4 - في **الإعلام** "ثلاثين".

5 - الحطاب، **مواهب**...، تحقيق أحمد جاد، القاهرة، 1429/ 2008، 1/ 82.

طهورا لا ينجسه إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه»، أخرجه ابن ماجة والبيهقي[1]. ومع ذلك فأجمع العلماء على العمل *141* بالاستثناء المذكور، حكاه البيهقي والنووي وغيرهما. والعمل ما نسب لمالك[2] قول رجوع عنه، فبحث فيه بأن قوله بعد، وهذا قول الشافعي في القديم يرده.

فقلت: نعم وإذا ثبت فهو قول شاذ، ولم يصحبه عمل عند أبي القاسم وغيره من المتأخرين، بدليل قول **المتن**: «لا بِمُتَغَيِّرٍ لونا أو طعما أو ريحا»[3]. فظاهره راكدا كان الماء أو جاريا قليلا أو كثيرا، فالمعتبر في سلب الطهورية إنما هو تغير أحد أوصاف الماء، قاله الحطاب[4]. أو يحمل على ما كان تغيره قداريا، فبحث فيه بأن التغير القداري لا فرق فيه بين الجاري والراكد.

وسأل أيضا كغيره من طلبة البلد، بعد أن طال بينهم نزاع عن مسألتين، الأولى: عن قول الشيخ ابن ناصر في بعض نسخ **الأجوبة**: من توعد شخصا بقتل فاصبح مفعولا به ما توعد به، وأنكر المتوعد أن يكون هو الفاعل، فإنه يؤخذ بذلك، لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ تَعْقِلُونَ﴾[5]. هذه الفتوى صحيحة جارية على قواعد مذهب مالك. فقلت الذي اقتضاه ذهني الفاتر عدم مطابقتها للقواعد. والمطابق، هو أن المتوعد إن كان متهما معلوما بفعل مثل هذه الموبقات، ضرب وسجن حتى يقر، فيؤاخذ بإقراره أولى، فيحلف ويسرح بعد طول السجن، على ما جرى به العمل. ففي **التحفة**: (من الرجز)

وَحَكَمُوا بِصِحَّةِ الإِقْرَارِ ... مِنْ ذَاعِرٍ يحْبسُ لاخْتِيَارِ

وإن لم يكن متهما ولا معلوما بفعل مثلها، لم يلزمه شيء، ولا يكون توعده ذلك لونا يوجب القصاص لأولياء المقتول، فيستحقون معها القتل؛ على

---

1 - سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحياض، رقم1، 521/ 174؛ سنن البيهقي الكبرى، باب نجاسة الماء الكثير إذا غيرته النجاسة، رقم 1، 1157/ 259.

2 - في ح "للملك".

3 - خليل، **مختصر**. . .، 13.

4 - الحطاب، **مواهب**. . .، 1/ 82. (تحقيق أحمد جاد. القاهرة).

5 - آل عمران، 118.

أني راجعت نسخة صحيحة اعتنى بتحريرها وتنقيحها شيخ شيوخنا أبو العباس أحمد الرسموكي، فلم أجد هذا السؤال، بل ولا جواب فيها[1]. قال في آخرها، لما تكلم عن[2] سبب تنقيحه لها، وكان فيها من التصحيف ما هو في الكتب غير معروف: أنها مشتملة على أسئلة واردة من عوام الطلبة، أو على ما نقل عن الشيخ بالمعنى من الأجوبة، وعلى بعض مسائل نقلها من بعض الكتب المرتب لها تلميذه الأبر الأورع الأعز سيدي محمد بن أبي القاسم الصنهاجي فلم يستكمل تفاصيلهاهـ. ولعل هذه الفتوى مما زاده مرتبها فليست من جواب الشيخ، والله أعلم.

الثانية: من دعى لقاض بسب وجرح[3] في القاضي لعداوة بينه وبينه *142*ثم قال خصمه: أنت مدعو للنبي أو الرسول فزاد في السب، أيكون ذلك في حقه ردة؟ وكيف إن ثبت العرف[4] في البلدان مرادهم بالنبي والرسول شريعته؟ وكيف إن قيل له في خلال ذلك ارتددتَّ؟ فقال: حاشا لله. فأجبت: إذا ثبت العرف بما ذكر، وأنه لم يقصد شريعة النبي ﷺ، من حيث هي شريعة؛ وإنما قصد خصوص ما يحكم به هذا القاضي، لما تقرر من أحواله، من الحكم بجور أو حدس وتخمين ونحو ذلك، كان شبهة تدرأ الحد عن القائل، والأدب لازم على كل حال، فاجتهاد الحاكم وإن لم يثبت عرف كان ردة يستتاب ثلاثا، وإلا قتل. والنازلة قامت فيها قرينتان دالتان على عدم الردة: العرف المذكور، والعداوة التي بين القبائل[كذا]، والقاضي سيما وقد أنكر لحينه أن يقصد ذلك على أن في **النوازل** الشفشاونية ما نصه: «سئل أبو القاسم بن خجو، ما حكم بعض العوام الذين صاروا يطعنون في الشرع ويقولون:

---

1 – بدوري لم أقف عليها في النسخ التي تصفحتها: م و م م، رقم 1111د؛ م خ ح، رقم: 646، 1018.

2 – في خ "على".

3 – في خ "جذع".

4 – العرف هو الصبر في **لسان العرب**. والأعراف هي قواعد، تتوصل إليها المجموعات البشرية، اعتمادا على الممارسات اليومية الموروثة، والمجال البيئي الذي تعيش فيه من أجل ضبط العلاقات فيما بينها. ولاحتواء وضبط الأعراف اعتمد العلماء قاعدة: "أن العادة حكم من أحكام الشريعة، ما لم تخالف السنة". انظر: **لسان العرب**، 9/ 239؛ حجي، **الحركة**...، 1/ 313.

هذا ما جاءتنا به شريعة، وإن جاءتنا به ولابد فهذه والله شريعة كثيرة[1]. فما حكم القائل لهذا الأمر العظيم، وطعنه في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وطريقته؟ فأجاب: من ذم الشريعة الكريمة تصريحا أو تلويحا يخاف عليه من الكفر، وينكل النكال الشديد بالسجن الطويل ونحوه، لأن من ذم الشريعة فقد ذم ملة الإسلام، وذم الشارع ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾الآية[2] هـ. فظاهره، بل صريحه، أن من ذم الشريعة ولم يقصد الآتي بها صلى الله عليه وسلم، فلا يعد ذلك في حقه ردة توجب استتابته. وأوقفني أيضا على حواشي شيخ شيوخنا، الشيخ علي الصعيدي الأزهري المالكي على شرح الشيخ زكرياء على **ألفية** الحافظ العراقي في المصطلح في خمسين كراسا رباعيا، وطلب مني أن أجيزه بما لدي بعد أن أوقفني على إجازات صدرت من بعض علماء إفريقية، أهل تونس وغيرهم له، وعلى إجازات بعض من مر به من علماء أهل فاس له، فأجبته إسعافا وأداء لبعض الحق المفترض، وإن كنت لست أهلا بذلك، ولا ممن يليق أن يسلك هذه المسالك.

وممن اجتمعت به، قاضي البلد سيدي محمد بن عبيد، وأخيه سيدي عبيد، وكانت لي به معرفة أيام غربتي بفاس، يجمعني وإياه درس شيخنا أبي عبد الله محمد بن الحسن البنا، وأوقفني على رحلة صغيرة حسنة غالبها سجع، للأديب *143* اللوذعي الشريف أبي العباس أحمد بن عبد القادر القادري[3]، ابن عم سيدي عبد السلام القادري الفاسي سماها: **نسمة الآس، في حجة سيدنا أبي العباس** - يعني الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله مولى المخفية، به شهر- وقد كان تتلمذ له وحج معه، وذكر فيها كراماته وما وقع له في سفره. ذكر في **رحلته** هذه «توزرت» بتاءين، كما تنطق به العامة، وليس كذلك فهي توزر، كجوهر، بتاء واحدة كما تقدم، أيضا «بالزبيان» كما تقول العامة مكان الزاب المتقدم الذكر. ومن إنشائه فيها: (من الرجز)

بِبَالِي وصلُ الْحُـبِّ لَيْسَ لَهَا مِثَل   وَكُلّ صَعيبِ الأَمْرِ مِنْ أَجْلِهَا سَهْلُ

1 - في خ "كبيرة".

2 - النور: 63.

3 - ساقطة من د.

تَوالَتْ لَنَا السراء مِنْ كُلّ جَانِـب وَحلّتْ بنَا النّعْمَاءَ وَانْتَظَمَ الشّمْـلُ
وَلَهُ رَاحُوا فَرَاحَتْ رَاحَتِي مِنْ را حَتي وَغَدَوْا فَأَصْبَحَ جلهُم لي رَاحا
فَتَحُوا عَلَى قَلْبِـي الهُمُومَ وَأَغْلَقُوا بَابَ السّرُورِ وَضَيّعُـوا الْمِفْتَـاحَ

ورأيت عليها تقريظا، لبعض الأدباء، لا ينبغي إهماله منه: (من الرجز)

أَشَذا النّسيم سـرّاً عَلَى الجُـلاّسِ أَوْ نَسْمَـةٌ أَهْدَيْتُهَا مِـنْ آسِ
لله نَظْمُكَ بَيْنَ أَسْجَاعٍ بَـدَا كَالدّرِ مَنْسُوخًا عَلَى الْقِرْطَـاسِ
حَرّكْـتَ شَوْقًا ظلّ بَـيْنَ جَوانِحِي يَرْمِي الْجِمَار مُصْعِدًا أَنْفَـاسِ
نَزهَـتْ فِي طَـرَفَي مَحَاسِنَ رِحْلَة لاَزَالَ مَدْحُـكَ سَائِرًا فِي الناسِ
وَإِلَيْكَها مِنْ ذِي وِدَادٍ صَـادِقٍ يَرْجُو دُعَاكَ لَهُ أَبَا العَبّـاسِ

وقال آخر: (من البسيط)

يَا نَسْمَةً مِنْ طِيـبِ فِي طِيـب لله نشرك عَاطِـرَ الأَنْفَـاسِ
إِنْ كَانَ آسُـكِ قَدْ شَفَـا مِنّي الحَشَا لا غَرْوَ إِنْ جَـاءَ الشّفَا مِـنْ آسِ

وقال آخر: (من البسيط)

يَا نَسْمَةً مِـنْ طِيب فِـي طِيـب لله أَنْـتِ رَقِـيقَـةُ الأَنْـفَـاسِ
إِنْ كُنْـتِ دَاوَيْتِ الْحَشَا لا غَـرْوَ أَنْ جَـاءَ الشّفَا لِمُهْجَةِ مِـنْ آسِ

وقال آخر: (من الخفيف)

نَسْمَةُ الآسِ مِـنْ رِيَاضِ الْمَعَالِي هَيّجَتْ لي مِن الْهَـوَى مَا أُقَـاسِ
زَادَنِي شَرَفـاً وَفَضْلاً وَفَخْـرًا كَـوْنُ مُنْشِئِهَا أَبا الْعَبّـاسِ

ومنهم سيدي خالد بن الحاج إبراهيم، وأوقفني على جزئي **تفسير المهداوي**[1] الذي ينقل عنه ابن عطية وغيره، وهو تفسير كبير حسن، وعلى شرح أبي العباس أحمد بن الخطيب القسمطيني على **منظومة** ابن

1 – في خ "تفسير جزئي المهداوي".

فرح الاشبيلي[1] في الألقاب التي مطلعها: (من الطويل)

غَرامِي صَحِيحٌ والرّجا فِيكَ مُعْضِلُ[2].

قال فيه: ولم أقف على شرح عليها، ولا أدري أشرحها أحد أم أنا السابق إليها؟ وعلى مرثية للشيخ أبي العباس الحوْضي في الشيخ السنوسي ونصها : (من البسيط)

مَا لِلْمَنَازِلِ أَقْفَرَتْ أَرْجَاؤُهَا ... وَالأَرْضُ رَجَّتْ حينَ خَابَ رَجَاؤُهَا

*144*وَأَتَى عَلَيْهَا النَّقْصُ منْ أَطْرَافِهَا ... وَتَرَاكَمَتْ وَتَعَاظَمَتْ أَرْزَاؤُهَا

رزْءٌ عَظِيمٌ خَطْبُهُ وَمُصِيبَة ... لَمْ نَدْرِ يَا لِلْقَوْمِ كَيْفَ عَزَاؤُهَا

فَقْدُ السَّنُوسِيِّ الإِمَامِ مُحَمَّدٍ ... وَهُوَ ابْنُ يُوسُفَ هدّ منْهُ عَلاَؤُهَا

قَدْ كَانَ بَحْرًا لِلْمَعَارِفِ زَاخِرًا ... شَهِدَتْ لَهُ بِمَقَامِهِ عُلَمَاؤُهَا

بَثُّ الْعُلُومَ مُبَيِّنًا أَسْرَارَهَا ... فَانْزَاحَ عَنْهَا حِينَ بُثَّ غِطَاؤُهَا

وَدَعَى إِلَى التَّوْحِيدِ دَعْوةَ مُخْلِص ... وَإِلَي الشَّرِيعَةِ فَاسْتَنَارَ ضِيَاؤُهَا

هَذَا الَّذِي وَرِثَ النَّبِيَّ فَأَصْبَحَتْ ... عِلَلُ الضَّلاَلِ بِهِ اسْتُفِيدَ دَوَاؤُهَا

هَذَا الَّذِي تَبِعَ النَّبِيَّ وَصَحْبَهُ ... فَانْجَابَ عَنْ سُبُلِ الْهُدَى ظَلْمَاؤُهَا

يَأَيَّتُهَا[3] النَّفْسُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي ... لِبَقَائِهَا الْمَحْمُودِ كَانَ فَنَاؤُهَا

يَا وِجْهَةَ الْعُلَمَاءِ يَا عَلَمًا بِهِ ... كُلُّ الْعُلُومِ بَدَتْ لَنَا أَنْحَاؤُهَا

يَا دُرَّةَ الزُّهَّادِ يَا غَوْثًا بِهِ ... يُرْجَى لأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ شِفَاؤُهَا

كَمْ جَاءَتِ الدُّنْيَا تَسُوقُ رِيَاسَةً ... يَبْغِي إِلَيْكَ تَقَرُّبًا أَبْنَاؤُهَا

فَأَبَيْتَ عَنْهَا مُعْرِضًا مُسْتَحْقِرًا لَمْ ... يَخْدَعْكَ جَمَالُهَا وَبَهَاؤُهَا

1- شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح - بالحاء المهملة - ابن أحمد بن محمد اللخمي، من كبار أئمة الحديث، قدم مصر سنة بضع وخمسين وستمائة، تتلمذ على يد الشيخ عز الدين بن عبد السلام. ولد سنة 625هـ وتوفي سنة 699هـ. انظر ترجم له: أحمدالمقري، **نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب**. . . تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408/ 1988، 2/ 528 - 529؛ السبكي، **طبقات**. . .، 5 /12؛ الحنبلي، **شذرات الذهب** في أخبار من ذهب، نشر القدسي، القاهرة، 1350، 5 /443.

2 - عجز البيت : وَحُزْنِي وَدَمْعِي مُطْلَقٌ وَمُسَلْسَلُ . انظر: المقري، **نفح**. . .، 2/ 530.

3 - في خ "أيها".

وَجَعَلْتَهَا نَحْوَ الْجِنَانِ مَطِيَّة وَسَبِيلَ ترْحَالٍ وَذَاكَ جَزَاؤُهَا
مِنْ للتَّآلِيفِ الَّتِي أَلَّفْتَهَا تُبْدِي بِهَا مَا اسْتَشْكَلَتْ قُرَّاؤُهَا
مَنْ لِلْعُلُومِ عَلَى اخْتِلاَفِ فُنُونِهَا تُبْدِي بِهَا نُكَتاً يَرُوقُ سَنَاؤُهَا
مَنْ لِلْقُلُوبِ إذَا صَدَتْ وَإِذَا قَسَتْ تَأْتِي مَوَاعِظُهُ فَيَذْهَبُ دَاؤُهَا
مَا ذَاكَ الأَمْرُ خَصَائِصُكَ الَّتِي أَعْطَاكَهَا رَبٌّ لَهُ إِعْطَاؤُهَا
مَاشِيتَ مِنْ كَرَمٍ وَمِنْ تَقْوَى وَمِنْ وَرَعٍ وَمِنْ شِيَمٍ نَأَى إِحْصَاؤُهَا
وَاسَيْتَ أَهْلَ الْعِلْمِ حَتَّى أَصْبَحُوا وَعَلَيْكَ مِنْ نَفَقَاتِهِمْ أَجْرَاؤُهَا
تُعْطِي وَتُوتِرُ مَنْ تَرَى ذَا حَاجَةٍ فَاعْتَادَ رِفْدَكَ دَائِماً فُقَرَاؤُهَا
تَلْقَاهُمْ مُتَبَسِّماً مُتَهَلِّلاً فِي وُجُوهِهِمْ بَاقٍ عَلَيْهَا مَاؤُهَا
أَخْلاَقُكَ التَّسْلِيمُ يَصْحَبُهُ الرِّضَى بِاللهِ مَنْثُورٌ عَلَيْكَ لِوَاؤُهَا
خُلُقٌ كَرِيمٌ لَمْ يُنَلْ بِعَطِيَّةٍ إِلاَّ مِنَ الْمَوْلَى يَنَالُ عَطَاؤُهَا
شَهِدَ الأَعَادِي كَالصَّدِيقِ فَأَنْشَدُوا وَمَلِيحَةٌ شَهِدَتْ لَهَا أَعْدَاؤُهَا
لَوْ كُنْتَ تُفْدَى بِالنُّفُوسِ كَرَاهَةً تُفْدِيكَ أَنْفُسُنَا وَقَلَّ فِدَاؤُهَا
لَكِنْ مَشِيئَةُ رَبِّنَا تَجْرِي كَمَا سَبَقَ الْقَضَاءُ فَلاَ يُرَدُّ قَضَاؤُهَا
لَهَفاً وَلَهَفاً دَائِماً لَوْ أَنَّهَا تَجْرِي وَمَا تُغْنِي وَكَيْفَ غَنَاؤُهَا
*145*إِنْ تَبْكِهِ عَيْنٌ فَمَا أَدَّتْ لَهُ حَقّاً وَلَوْ مَزَجَ الدُّمُوعَ دِمَاؤُهَا
أَوْ تَبْكِهِ أَبَداً تِلِمْسَانُ وَمَنْ فِي حَوْزِهَا وَرِجَالُهَا وَنِسَاؤُهَا
لَمْ يَقْدِرُوا مِقْدَارَهُ أَنَّى لَهُمْ وَلَقَدْ بَكَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا
فَلِمِثْلِهِ يَبْكِي الْوُجُودُ مُصِيبَةً عَظُمَتْ فَأَحْزَنَتِ الْوَرَى أَغْمَاؤُهَا
هَيْهَاتَ لِلدُّنْيَا تَجُودُ بِمِثْلِهِ مِنْ شَأْنِهَا لَمْ يَصِبْ قَطُّ أَنَاؤُهَا
وَجَبَ الْعَزَاءُ بِهِ لِكُلِّ مُوَحِّدٍ وَلِبَلْدَةٍ بِخَلاَهُ طَابَ ثَنَاؤُهَا
وَلأَهْلِ مَجْلِسِهِ خُصُوصاً أَنَّهُ شَمْسٌ نَأَتْ عَنْهُمْ وَغَابَ ضِيَاؤُهَا
وشموسنا [العلا نقر أنها][1] [نسم له أعماهمو][2] رؤساؤها

1 - كلمتان لم نستطع قراءتهما، فرسمنا ما قاربهما.

2 - ثلاث كلمات أبهمت علينا، فرسمنا ما قاربها.

ولأهله حق العزاء فبيوتهم	من بعده لا تنجلي ظَلْماؤها
لكِنْ مَنْ للشمْسِ المُنِيرَةِ أنْ تغبَ	بَدْرُ الدّجا خلف وفيه سناؤهَا
يَا قلْبِي صَبْرًا فمَا المَصَائِب كلهَا	إنْ تلقهَا بالصّبْر خَفَّ بلاؤهَا
يا رَبِّ قدِّسْ رُوحَهُ وَضرِيحَهُ	ومِنَ الجِنَانِ تحُفهُ نعْمَاؤهَا
وعَليْهِ مِنْ ربِّ الأنامِ تحِيّة	مَوْصُولَةً لا تنْقضِي آناؤها

وممن اجتمعت به وكانت معه نجابة، السيد الحاج عبد الرحمان بن أبي القطف، والشاب الأنجب سيدي محمد بن محمد بن منصور، أخبرني أنه ولد بتونس، وكان والده عالما يدرس بها، وله بنا كمال المحبة، فبالغ في الإكرام والإسداء والاقرا، كفاه الله هموم الدارين.

تنبيه : وقع هنا في **الرحلة الناصرية**: «أن جميع إيالة تونس في غاية ما يكون من الأمان من شن الغارات، خوفا من الولاة»[1].

قلت: لعل ذلك اتفق في زمانه، وأما اليوم فقد عز الأمان، وشنوا الغارة في كل مكان، وما إفريقية وأعرابها في زماننا إلا كما قال العبدري [عن عربانها][2] في **رحلته** قبلنا: «لا يسلكها إلا مخاطر، ولا تعدمُ من عُربانِها إيلامَ خاطر، قد استوى لديهم الصالح والطالح، واتّفق في مذاقتهم[3] لكفرهم كل عذب ومالح. اتخذوا أَخْذ الحاج خلقا ودينا، واعتقدوا إهلاكَهُ مِلّةً ودِيناً، فما لَه عندهم أحلى من مال اليتيم في الولي الفاجر اللئيم، ومن حديث إخوان الصفا، ومن الوعد على ثقة الوفاء، فلبسوا أسمال المعاوز، وألفوا خلال المفاوز[4]، فهم به أغنى عن الماء من ضب[5]، وأصبّ إلى صَبّ الفواقر على قفر المسافر *146* من صب، على كل عرقبٍ منهم عُقاب، يرقب الضيفان ليقريهم

1 - الناصري، **الرحلة**، 63.

2 - زيادة لا معنى لها.

3 - في **رحلة العبدري** : "مذاقهم".

4 - المفاوز: واحدها مفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها.

5 - في المثل : "لا أفعل حتى يرد الضب الماء، ولا يكون كذا حتى يحن الضب في إثر الإبل الصادرة، وهذا لا يكون لأن الضب لا يرد" . انظر:أحمد الميداني، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1407/ 1987، 2/ 226.

أمر عقاب، فما يمر بتلك المسالك سالك، ولا يخطر على تلك المعابر عابر، ولا يرد في تلك المناهل [ناهل][1] إلا انقضوا عليه انقضاض الصقور على البغاث[2]، وانكدروا[3]عليه بحيث لا يغاث من استغاث، فمزقوا أشلاءه تمزيق الدهر للأحرار، وعاثوا فيه عيث أويس[4] في ثَلّة[5]، وأسامة[6] في صوار[7]، لا أمن لهم في عوادي الدهر ربرب[8]، ولا عَذُبَ لهم من موارد الآمال مشرب، ولا رحل عنهم يوم حتى يستخلف عليهم نكبة، ولا وردت عليه ساعة إلا بتحفة عطبة[9]، حتى يصيروا عبرة للبادي والحاضر، و أحدوثة المقيم والمسافر، بحول الإله يسجد[10] الضب والنون[11]، وأمره بين الكاف والنون»[12]، هـ.

وهذا هو ابن بطوطة[13] في **رحلته**، وصف أعراب إفريقية ببعض ذلك، لما أغار على ركبهم أعراب ابن زيد بنواحي قابس، نعم هي أخف بالنسبة لما اكتنفها من إيالة الجزائر وطرابلس، قال: «وأما النهب والسرقة والاختلاس فاحفظ مالك، وما عليك من جميع الناس في جميع المواضع وخصوصا بتوزر فإنها أكثر بلاد الله سرقة وخطفا، يسرقون بالليل، ويخطفون بالنهار»[14].

قلت: هذا الفعل اليوم شاهدناه وأكثر منه ببسكرة. والبلدتان مطروقتان

---

1 – ساقطة من جميع النسخ، والزيادة من **رحلة العبدري**.

2 – البغاث: ما لا يصيد من الطير.

3 – انكدروا : انقضوا.

4 – الأوس : الذئب وتصغيره أويس .

5 – الثلة : جماعة الغنم. أو الكثير منها أو من الضأن. انظر : القاموس مادة "الثلة" وفي المثل : عاث فيهم عيث الذئاب يلتبسن بالغنم. انظر: الميداني، **مجمع الأمثال**، 2/ 39.

6 – أسامة : من أسماء الأسد.

7 – الصوار : القطيع من البقر. انظر: **لسان العرب**، 4/ 475.

8 – الربرب : القطيع من بقر الوحش. انظر: القاموس 1/ 13.

9 – العطب : الهلاك. والعطبة، قطنة أو خرقة محترقة. انظر : **لسان العرب**، 1/ 601.

10 – في **رحلة العبدري**، "الذي يسبحه".

11 – النون : الحوت.

12 – العبدري، **رحلة**، 196 – 197.

13 – في خ "باطوطا".

14 – لم أقف عليه في **رحلة ابن بطوطة** بهذه الصيغة .

مقصودتان، اجتمع بهما الجفلا من الأعراب عند نزول الحاج، فيقع ذلك وبالباب الأعراب، وإن وقع شيء من أهل الحاضرة فنادر، والنادر لا حكم له في الباب مثل السعات[؟] بتوزر، فما أكثرهم وألحهم، ذكورا وإناثا، كبارا وصغارا. فسألنا الثقة عن ذلك، فقال: إنما هم أعراب مائلون عن الصواب.

ذكر خروجنا من توزر حماها الله تعالى من سائر الشر

ولما حلت النافلة، ارتحلنا بعد أن أقمنا بها يومين، فمررنا بعد تسعة أميال على الوِدان، ويسمى تقيوس، بالتاء كما في **الروض المعطار**[1]، لا بالدال كما تقول العامة، وهي كما تقدم، إحدى قواعد قسطيلية، بلاد مشتملة على سواد نخيل وأشجار منوعة، ومياه مختلفة أحسنها الموالي لتوزر، وفي بلدة منها يقال لها أدقاش أولاد الحاج أحمد بن علي، وهم : الحاج عمر والحاج خليفة والحاج علي والحاج صالح والحاج إبراهيم والحاج بلقاسم، أناس لهم محبة تامة في الركب النبوي، يطعمونه كلما مر بهم، عادة *147* من أسلافهم، بل لهم في ذلك أحباس؛ أدخلونا دارهم في جماعة وافرة من الركب، فأطعمونا قصعة من كسكس ولحم، ما رأيت في عمري أعظم منها، وكأنها مُعدات لذلك، وأردفوها بفواكه من عنب وغيره، مارأيت طعاما أبرك منه، إذ دارت على القصعة جماعات كثيرة، فأكلوا حتى شبعوا، وبقيت عامرة بالطعام كما هي، ولا غرابة في ذلك، إذ لا يبعد أن تنالهم نفحة من نفحات رسول الله ﷺ، لمحبتهم لركبه. ويحذر الحجاج، خصوصا الصعالكة منهم، مما اعتادوه معهم ومع غيرهم من زوايا الحجاج من إساءة الأدب والخصومة في ذلك، وتكليف أرباب الزوايا بما لا يطاق، إذ فيهم من لا يقدر إلا على العصيد، بل ما لديهم إلا المحبس على خصوصه، فليتقوا الله وليجملوا في الطلب إن احتاجوا. وبالقرب منهم، زاوية المحب الضافي والزلال الصافي، سيدي مهذب آخذ العهد الناصري على عمنا الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد بن ناصر، وحج معه لما مر به، وهو من ذرية الولي الصالح سيدي عبد الله أبو رويس، وهو والله متمسك بدينه، فار بنفسه إلى الله متوكل عليه. بنى بقرب داره مدرسة للطلبة، يمونهم من عنده مع قلة ذات يده، ويخدم بنفسه وأولاده عليهم، ويظل لديهم يعلمهم. أدخلنا بيته ومدرسته، وبالغ في إكرامنا، تقبل الله منه. وزرنا والده ومن بقربه

1 - الحميري، **الروض**...، 139.

من سيدي بكَّار وسيدي العابد. ومررنا ببلدة يقال لها الزركان، وبزاوية الحجاج منسوبة للشيخ أبي محمد صالح، استولى عليها اليوم بعض الطلبة من أرباب الدولة، فلا ينال الحجاج منها شيء، وببلدة أخرى يقال لها أولاد ماجد، وبأخرى يقال لها أكوز، أصابتهم دعوة الركب المغربي: أخذوا له جملا فاجتمع الحجاج ودعوا عليهم[1]، فما مضى لهم نحو شهر حتى اجتاحهم عدوهم، فقتلهم وخرب ديارهم. وهذا الموضع غالبا لا تفارقه الفتنة، وبقربه يليه عن يسار الطريق، كهف في جبل ينسب لأصحاب الكهف، ذهبت إليه مع الأخ في الله تعالى سيدي مهذب المذكور، ولم يمكنني الدخول لضيقه. وبداخل النخل في موازاته آثار مدينة كبيرة مبنية بالحجارة المنحوتة، وهي من أكبر مدن هذه البلاد، ولا زالت بها صومعة كبيرة.

قال في **الروض المعطار**: «تقيوس في بلاد قسطيلية، وهي أربع مدن متقاربة عليها أسوار يكاد يكلم أهل بعضها بعضا لتقاربها، ولهم غابة[2] كثيرة من النخل *148* والزيتون وجميع الفواكه، وهي أكثر بلاد قسطيلية زيتونا وأكثر جباية، وفيها العيون الكثيرة العذبة والمياه السائحة. وبينها وبين الحمَّة عشرون ميلا[3] بها غلات الحناء والكمون والكرويا، وبها تمر حسن. وكان مخلد بن كيداد الخارج على بني عبيد الله الشيعي في بلاد المغرب ينزل تقيوس في أول أمره، ويعلم أطفالهم القراءة» هـ[4]. ولم يشر إلى الكهف، ثم نقل عن ابن عطية في الكلام على الرقيم أنهم بالشام، وقيل بالأندلس، وقيل بجبل من جبال الروم بجانوس[5] "هـ[6].

---

1 – في خ "لهم".

2 – في **الروض** "غابات".

3 – مطموسة في ج.

4 – الحميري، **الروض**. . .، 139 – 140.

5 – م. **س** "بخانوس" وفي د "بحانوس".

6 – ن. م: 271 – 272.

وشاع وذاع بهذه البلاد أنها مدينة تقيوس المعينة بقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾[1] ولا إخال شيئا من ذلك يصح. قال الشيخ أبو سالم العياشي في رحلته: «أخبرني بعض الأصحاب من أهل البلد ممن يعتقد طريق القوم، أن كثيرا من الصالحين يذكر أن أهل الكهف في هذا الغار». قال: «وذكر لي صاحبنا أحمد بن عبد الله عن سيدي محمد بن أبي القاسم الجُمني، أنه ذهب مع بعض الصالحين من أهل جُمنة إلى فم الكهف، ودخل فخرج ممتقعا لونه، وذكرأنه وجدهم هنالك ورأى منهم عجبا، ولم يُقْضَ لي الوصول إليه لضيق الوقت، ولم أرَ من المفسرين من ذكر أنهم في هذا المحل، بل ذكر بعضهم أنهم في الشام، وقيل بالعراق، وقيل بالأندلس، وذكر أماكن أخرى من المغرب»[2]، هـ.

قلت: لا شك أن من زعم أن هذه بلاد أهل الكهف سرى إليه الوهم، من جهة أن البلد تقيوس بالتاء فظنها بالدال، وقد قال المؤرخ المسعودي وغيره، إن أهل الكهف هربوا من مدينة دقيوس وهي في جبل من جبال الروم[3]، وعلى الفرض أن دقيوس هذا بالدال فقد تتفق الأسامي فلا يلزم من كون هذه أسمها دقيوس أن تكون هي مدينة أهل الكهف.

وفي **البداية والنهاية** للحافظ عماد الدين بن كثير: «واختلف[4] العلماء في محل الكهف فقال كثيرون: هو بأرض أيلة[5]، وقيل بأرض نِيْنَوَى[6]، وقيل بالبلقان وقيل ببلاد الروم وهوأشبه»[7]، هـ. فلم يحلانه بإفريقية المغرب، وسيأتي الكلام على نحو ذلك عند ذكر مدينة لبدة بطرابلس.

---

1 – الكهف 19.

2 – العياشي، **الرحلة**، 2/406.

3 – المسعودي، **التنبيه والإشراف**، مكتبة خياط، بيروت، 1965 (طبعة مصورة عن الطبعة الأوربية)، 133.

4 – في **البداية والنهاية** " وأما اختلاف "

5 – أيلة : قرية عدها البكري والعبدري من قرى مصر. انظر : العبدري، **رحلة**، 337 ؛ البكري، **المسالك**. . .، 2/ 145.

6 – نِينَوَى : قرية بالموصل بالعراق، وهي مقابلة للموصل بينها دجلة. انظر: **معجم** البلدان 5/339؛ الحميري، **الروض**. . .، 575 – 576.

7 – ابن كثير، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، 1977، 2/ 115.

رجوع، ثم مررنا بِسْدَاسْ، بلدة فيها زاوية الشيخ أبي هلال، قيل: وكان من الطيارة، زرناه لما وازيناه لتعذر الوقوف على ضريحه، وزاويته هذه أيضا بها أحباس على الحاج، ولا يخلو هذا المحل من سرقة واختلاس نهارا. فقد سرق لبعض*149*الحجاج، وهو نازل تحت ظل خرجه، وفيه على ما قيل، ما يزيد على أربعمائة دينار. ووقع الحجاج على رجل اتهموه بذلك، فضربوه وجرحوه حتى الموت، ولم يظهر للمسروق خبر، رد[ه] الله على صاحبه وعوضه من خزائنه ومواهبه.

وسرنا حتى أشرفنا على السبخة العظيمة التي لم يُر مثلُها في الدنيا طولا وعرضا، فتَدَرَّعْناهَا حتى وقعت بها جمال، وغاست إلى أكثر من الرُّكَب، وما نجت لأربابها إلا بجذبها بالحبال. ثم رجع بنا الدليل ذات اليسار على جبل الشارف، تاركين طريق نفزاوة ذات اليمين، المارة على قصر الرمال وواد نخلة، ونادى مناد بحمل الماء ثلاث مراحل إلى الحمة، إذ ليس بهذه الطريق إلا المياه الحارة المالحة المرة، مع قلتها إلا إن خرج طالبها كثيرا يسارا عن الطريق فيقع على العذب، فرجع من به طاقة إلى زاوية أبي هلال فحمل الماء.

قال البكري في **المسالك**: «وبمدينة نَفْزَاوة[1] عين تسمى بالبربرية: تَاوَرْغَا[2]، وهي عين كبيرة لا يُدْرَكُ لها قعر. ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب، ولها ستة أبواب، وبها جامع وحمام[3] وأسواق حافلة، وهي على نهر كثير النخل والثمار، وحواليها عيون كثيرة، بقبليّها مدينة أَوّلِيةٌ تعرف بالمدينة، عليها سور، وبها جامع وسوق، وحولها عيون وبساتين».[4]

لطيفة: نفزاوة اسم نقل إلى البلد من اسم القبيلة التي سكنت بها أول الدهر، وهم بنو نفزاو بن الأكبر ابن بربر بن قيس بن إلياس بن مضر بن

---

1 – بين مدينة نفزاوة وقابس ثلاث مراحل، وبينها وبين قفصة مرحلتان، ومنها تسير إلى بلاد قسطيلة. انظر: البكري، **المسالك**...، 2 /224؛ الوزان، **وصف إفريقيا**، 2 /145؛ الحميري، **الروض**...، 578.

2 – في **المسالك**، "تاورغى".

3 – ليست في **المسالك**.

4 – البكري، **المسالك**...، 2 /224.

نزار، من ولد نفزا و، هو جالوت، واسمه ضريس بن الأصغر بن نفزاو، وهو الذي قتله داود.

وعن نفزاوة تفرعت زناتة كلها، وهم في الأصل عرب، وإنما تبربروا لمجاورتهم البربر من المصامدة ومخالطتهم لهم، وقد أختلف ضبط الشيوخ في لفظ نفزاوة بفتح النون أوكسرها. وهي الآن مداشر كثيرة متفرقة ذات نخيل ومياه، وأهلها يكثر فيهم الصالحون والعلماء. وكانت في القديم كما في **الروض المعطار**: «مدينة لها سور صخر عظيم وطوب، ولها ستة أبواب، وبها جامع وأسواق وحمام، وهي على نهر، كثيرة النخل والثمار، وحواليها عيون كثيرة، وبينها وبين قابس ثلاث مراحل، وبين القيروان ست مراحل»[1]. قال التجاني: «ومن غرائب بلادهم التي أختصت بها *150* شدة الريح العاصفة، واتصال ذلك غير مختص بفصل من فصول العام، وهم ينسبون ذلك إلى طلسم كان مدفونا بها، وأن بعضهم أخرجه وكسره، فكان ذلك سبب دوام الريح هنالك. قال: ويزعم أهل نفزاوة أن الريح إنما يشتد عصفها ببلدهم عند نزول الجيش عليها، ويعدون ذلك من أجل الرفق بهم، لأن الجيوش تسرع الارتحال عنهم بسبب ذلك»[2].

رجوع إلى الكلام على هذه السبخة التي تضل فيها الرجال، وتسيخ بها الجمال، صنع الواحد القهار، سيما زمن الأمطار. قال البكري في **المسالك**: «أرض سوّاخَةُ لا يهتدى إلى الطريق فيها إلا بخشب منصوبة. فإن ضل أحد يمينا أو شمالا غرق في أرض شبيهة بالصابون. وقد هلكت فيها العساكر والجماعات، ممن دخلها ولم يدر أمرها. وتسمى هذه الأرض بالسواخة»[3]. ويعز أن يجد الإنسان بها ما يستجمر به من حجر ونحوه، فينبغي لمن أراد دخولها أن يستعد[كذا] شيئا من ذلك. وفي **الروض**: «وقد هلكت فيها العساكر والجماعات في قديم الزمان، ممن دخلها، ولم يعرف أمرها، وكلها ملح.

---

1 – الحميري، **الروض**...، 578.، مع تقديم وتأخير

2 – التجاني، **رحلة**، 142 – 143.

3 – البكري، **المسالك**...، 2/ 224 – 225.

وفيها موضع بين نفطة والحمة تعرف بالسبع سباخ. وفي وسط طريق[1] المارة من توزر إلى نفزاوة جزيرة صغيرة فيها عين عذبة يشرب منها، وإذا دخل المسافر هذا الطريق في أيام الصيف، يكاد يهلك من حرارة الملح، ويرجع ما في الزقاق من الماء العذب ملحا، لا يقدر على شربه إلا أن يمزج بالسكر أو العسل. ولما هزم المنصور يعقوب ملك المغرب [علي بن إسحاق][2] على هذه السباخ فتبعه الموحدون سالكين سبيله حتى شارفوا توزر فألفوه قد توغل في صحرائها».[3]

وفي **رحلة التجاني**: «أنه غاص فيها ألف جمل فعادت الأرض كما كانت لما ند واحد منها فخرج عن الطريق وتبعه الباقي فلم يظهر لها أثر»[4]. قال: «هي من الغرائب التي أغفلها المؤرخون، وأهمل وصفها الإخباريون، فإنها أميال في أميال سطحا واحدا كاللجين المسبوك، أو الزمرد[5] المحبوك، يكاد ينفذه البصر لصفائه، وكأنما غدير جمد بمائه. قال: وآن وقت صلاة الصبح والناس يمشون فيها فصلوا منها على بساط من الكافور أو سطح من البلور. قال: ولما تمادى المشي في هذه السبخة إلى وسط النهار، وتوالى عليها *151* تكرار الحافر وتردد الآثار، انخرق منها نحو مائة ذراع فيما يقرب من البر، فكل من تأخر من الحمولة والأثقال ابتلعته، وساخت الجمال بأحمالها فما أخرجت إلا أشلاء بعد نحرها فهلك بذلك جملة من الزاملة وذهب أكثر الحمولة. وشاهدت الرجل يضع سافلة الرمح على الأرض ويعتمد عليه فينزل الرمح إلى عاليته ولو زاد دفعا لازداد نزولا، فإذا جذبه عادت الأرض إلى حالتها. ووجدنا كثيرا من تلك المعالم قد سقطت، وأبعدتها الريح عن مكانها، وتحت كثير منها عظام هنالك من الناس إلى جانب عمود، منها امرأة قد ضمت يديها على طفلة فماتتا معا، ويذكرون أنها غاضبت زوجها

---

1 - في **الروض** "الطريق".

2 - ساقط من ج وح وخ ود.

3 - الحميري، **الروض**...، 578.

4 - التجاني، **رحلة**، 154 - 155.

5 - م. **س**، "المرمر".

بنفزاوة وحلفت أن لا تبيت يومها ذلك إلا بتوزر، أوغاضبته بتوزر، وحلفت أن لاتبيت إلا بنفزاوة، وخرجت من حينها هي وابنتها فماتتا في طريقهما[1].

ومن العجب أن هذه السبخة لا يمكن أن يشرب بها ماء عذب، فإن الماء إذا استصحب فيها عاد بهوائها ملحا أجاجا على طبعها، وما أحسن من قال، وأنشدنيه لنفسه الفقيه الحكيم الفاضل أبو إبراهيم بن حسينة يصف هذه السّبخة وما لاقيناه في قطعها: (من الوافر)

قَطَعْنَا التَّكَامُرْتَ سُرًى وَسِرْنَا	صَبِيحَةَ يَوْمِنَا حَتَّى الزَّوَال
فَلاَ تَسْأَلْ بِمَا قَاسَيْتُ فِيهِ	مِنَ الأَهْوَال وَالْكُرَب الثِّقَال
عَنَاءً لَيْسَ يُشْبِهُهُ عَنَاءٌ	يَضِيقُ لَدَيْهِ مُتَّسَعُ الْمَقَال
وَلَيْلٌ لاَ تَسِيرُ بِهِ نُجُومٌ	كَأَنْ نَيطت إِلَى بَعْضِ الْجِبَال
وَ أَرْيَاحٌ تصَمّ الأُذْنُ مِنْهَا	تَهُبّ عَنِ الْيَمِين وَ عَنِ الشِّمَال
تَصُدّ عَنِ الطَّرِيق الْقَصْد قَصْدِي	وَتَضْرِبُ حَرَّ وَجْهِي بِالرِّمَال
وَلاَ اسْتِطَاعُ فَتْحَ الْعَيْنِ فِيهَا	لِبَعْضِ الأَمْرِ إِلاَّ بِاحْتِيَّال
وَأَجْهَدُ فِي دِفَاعِ النَّوْم عَنِّي	لِخَوْفِي مِنْ سُقُوط أَوْ ضَلاَل
وَمَازِلْنَا نُكَابِدُ فِي سُرَانَا	مَهَالِكَ لاَ تُقَابَلُ بِاحْتِيَال
إِلَى أَنْ لاَحَتِ الْغَابَات ظُهْرًا	بِظَاهِرِ تَوْزَرٍ مِثْلَ الْخَيَال
فَهَنَّأَ بَعْضُنَا بَعْضًا سُرُورًا	وَنِلْنَا رَاحَةً بَعْدَ الْكَلاَلِ»[2]

قوله في مساحتها أميال في أميال، بل الذي شاهدنا اليوم فراسخ في مثلها، بل امتد من مدينة نفطة وتوزر إلى الحمة[3] حمة قابس مسافة ثلاثة *152* أيام[4] أو ما يقرب[5] منها، إلا أنها اتسعت لنواحي توزر أكثر من نواحي

---

1 – في د "طريقها".

2 – التجاني، **رحلة**، 155 – 157.

3 – في ح وخ "الحامة"

4 – في د "أميال ".

5 – في ح "يقارب".

غيرها. وفي **الروض المعطار**، يقال: «أنها متصلة من بلاد غُدامس[1]، وبين غدامس وجبل نفوسة سبع مراحل». قال: «وتلك السباخ لا يعلم لها آخر»[2].

وقوله أغفلها المؤرخون، كلا، بل لم يغفلوها، فهذا هو البكري منهم وقد علمت ما قال فيها[3]. وقوله: إن الماء العذب لا يمكن أن يشرب فيها إلخ، المشاهدة تأبى ذلك، فقد حملنا ومشينا في طرفها فراسخ قليلة وما تغير عن حاله، اللهم إلا أن يقال: أن محل قوله على من طال مشيه أو مقامه أو بياته بها ونحو ذلك، والله أعلم بما هنالك.

رجوع، ثم سرنا بعد حمل الماء، فبتنا على غير ماء بالكبْريتي، مكان خصب، ثم ارتحلنا نتطلب طول نهارنا غدرانا لقرب العهد بالمطر، فما وقعنا عليها إلا وقد حان وقت العصر، فسقينا واستقينا، ولم يقع عليه الكثير من الركب، وأصابهم عطش شديد، وبنو سعد تطوف بنا طواف الحجيج بالبيت، وهم حي يقال لهم ابن زيد، و هم من أشد الأعراب على الحاج قديما وحديثا، فقد وقعوا بعدنا على الركب الفاسي، ونهبوه أتم النهب، ووقع بين الفريقين قتلى وجرحى، ثم إن الله تعالى قيض لهم في غيبتهم أمير تونس فأخذهم على فعلتهم وعاقبهم بالأموال، وأخذ منهم جميع ما نهبوا لأربابه، جزا الله تعالى خيرا أمراء الترك.

وسرنا حتى الليل، فخيمنا ببئر تقول لها الأعراب: المويلح، والحجيج: أبو غرارة، ومن أمثالهم: «إذا وصلت أبا غرارة فأخرج الدلو من الغرارة»، يشيرون أنه لم يبق أمامهم في طريقهم إلا الآبار، عدا ما شذ من الأماكن، وماء هذا البئر عذب لابأس به، إلا أنه ضنين لا يغني شيئا، فوقع عليه من الحجاج الازدحام حتى أريقت على ذلك الدماء، ولم يحصلوا في ذلك على روَاهم.

---

1 – غدامس :مدينة قديمة، بها كهوف كانت سجونا للملكة الكاهية بإفريقية بينها و بين جبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء و بين نفوسة وطرابلس ثلاثة أيام. انظر : الحميري، **الروض**...، 427؛ **الاستبصار**...، 145 – 146 ؛ البكري، **المسالك**...، 2/ 371

2 – الحميري، **الروض**...، 578.

3 – البكري، **المسالك**...، 2/224 – 225.

ثم ارتحلنا، فمررنا بآبار الذهانيات[؟]، و هي كثيرة الماء قريبته في وسط الجادة، إلا أنها لا تصلح إلا لضرورة شرب الدواب، لملوحة ما ئها ومرارته. ووقعنا على أراضي خصبة كثيرة النجم، أخذت الدواب منها الكفاية، وحل بالناس العطش حتى بلغت الشربة الواحدة لشخص واحد، ما يزيد على الثلاثة أواق دراهم، فرجع من رجع يساره اتجاه جبل الشارف، فوقعوا على آبار عذبة كثيرة المياه، وسقوا وحملوا، وبقي عامة الركب *153* بلا ماء، وكنت ممن انقضى له، فبتنا قرب الحمّة على نحو فرسخين، وتكلف من اشتد به العطش الذهاب إليها فسقوا، ورجعوا يأتون بالركب، وعاملني الله تعالى بقربة ماء من بعض الأحبة، فكفتني وسائر من معي، وغبت الدابة، وغالب الركب لم يوقد بنار من عدم الماء. ثم منه للحمة ضحوة، قرى ذات نخيل كثير وأشجار وفواكه وخضر وبطيخ عظيم، ما رأيت أعظم منه. وهذه البلدة كثيرة الصالحين الموتى، وبها زاوية الولي الصالح آخذ العهد من الشيخ أبي العباس ابن ناصر، وخليفته في إعطاء الأوراد بهذه البلاد، سيدي عبد الله المجذوب دفين القيروان، قال فيه في **رحلته**: «رجل صالح من أهل الخير والصلاح أصله من القيروان، واستوطن الحمّة، وظهرت بركته عليها وعلى أهلها، وكانوا قبل ذلك ضررا على الحجاج بالسرقة والنهب والخطف، والآن لا إذاية فيهم نفعتهم صحبة هذا السيد وجواره. وتقدم له الجذب والوجد وكان يمكث الثلاثة أيام أو الخمسة إلى السبعة نائما مغلوبا عليه، ممددا كالخشبة لا يأكل ولا يشرب ولا يصلي ولا يتحرك، وربما يمكث أيضا شهرا أو أربعين يوما لا يكتحل بنوم، ولا يجالس أحدا ولا يخالطه في مدة سياحته، ومن عادته أنه لا يأكل طعام أحد، وإذا خرج من داره أخذ له أصحابه ما يتقوت به، وهو على تلك الحالة إلى سنة عشر» يعني من هذا القرن. قال: «ولا أدري الآن أبقي على ذلك أم لا؟ وهو قليل الأكل، إنما كان يكتفي بالبُلغة، وصحب أولاد سيدي علي الرقيق، ثم سيدي علي الوحيشي الصفاقسي الأصل القيرواني الدار، ثم بعده كان مع ابن أخيه سيدي سعيد إلى أن توفي. وبالغ في ودنا وإكرامنا منذ عرفناه إلى أن لُقن الورد منا في رجعتنا هذه»[1]، هـ.

1 - الناصري، **الرحلة**، 501.

قلت: ولا زالت ذريته الآن محترمة عند العامة، باق فيهم الدين وقراءة القرآن والمحبة التامة في الشيخ ابن ناصر، اجتمعنا من أولاده بصاحب الزاوية سيدي أبي القاسم بن محمد بن عبد الله المجذوب، أدخلنا داره وهش وبش، وأجزل القِرى، كرفقائه سيدي محمد وسيدي حسين وسيدي أبي القاسم بن حسن العدواني، وإمام زاويتهم المذكورة، وبقيت في أولاده هؤلاء إمامتنا إلى الآن، والذي تولاها في الحال سيدي محمد المذكور. وبهذا البلد ساقية عظيمة عامرة بالماء، مع عذوبة تامة. *154* بل هو أفضل مياه البلد يبرد فيشرب[؟]. خرج أصلها من البلد، بنيت عليها في القديم مساجد وميضات، وبها حمام ينسب للصالحين، وجدنا به كثرة المرضى، ما أتاه ذو عاهة فاغتسل من مائه – يعني ماء الساقية المذكورة – إلا برأ، يزعم العامة أن الجن هو الذي يحميه الآن، بقاء على خدمة سليمان، ظنا منهم أنه بقيد الحياة، وهو كلام ساقط لا يلتفت لقائله، وإنما هذا الماء مادته خرجت من معدن الكبريت ـ حسبما حدثني به ثقة بالبلد ـ قال: وأنت إذا ذهبت إلى أصله، قبل انفصاله من مقره وجريانه وجدت به طعم الكبريت. ولو حفر عليه لظهر، والله أعلم. وقد دخلت بعض الميضاءات المبنية على الساقية المذكورة، فلم استطع النزول بمائها من شدة السخونة إلا بمشقة: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

قال التجاني في رحلته: «ومن أجل ذلك سمي البلد بالحمّة[2]، وتعرف بحمّة مطماطة، وبحمة قابس»[3]، تفريقا بينها وبين حمة توزر، المعروفة بحمة البهاليل، ولسخونة مائها سميت بذلك. والحمّة في اللغة: العين التي في مائها سخونة، وجاء في الحديث: «مثل العالم مثل الحمة»[4]، قال الهروي[5]

1 – النمل: 90.

2 – في ح ود "الحامة" وهو خطأ. فالحامة: خاصة الرجل من أهله وولده وذي قرابته، يقال هؤلاء حامته أي أقرباؤه. انظر: **لسان العرب**، 12/ 153.

3 – **ليست في رحلة تجاني.**

4 – ينظر الحديث عند ابن عبد البر، النهاية في غريب الحديث، 1/ 262

5 – القاسم بن سلام الهروي الأزدي، أو عبيد، من أهل هراة ولد بها سنة 157هـ/774م، ورحل إلى بغداد، من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، توفي سنة 224/ 838.

في **غريبه**[1] : الحمّة عين حارّة يستشفي بها المرضى. وذكر أبو عبيد في كتاب **الأمثال**: «إن من أمثالهم: العالم كالحمّة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء»[2]. ولم يزد أبو عبيد على هذا، وهو أثر وتمامه[3] : فبينما هم كذلك، إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم، وبقي قوم يتفكّنون بالنون أي يتندّمون، تفكن تفكنا، وقرأ أبو حازم: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّنُونَ﴾[4] وهومن هذا. والنسبة إلى الحمّة حمّى، وذكر أبو عبد الله محمد بن علي المصري، في **صلة السّمط** : «أنه سمع في ذلك حامّي وهو من شواذ النسب. قال: وهذه البلدة في أكثر أوقاتها سالمة من الوباء، فإذا وبئت استأصلت أهلها؛ وكانت في ذلك أشد من قابس*155*. قال: وكان عليها سور مرتفع، فرأيت مواضع منه تهدمت، ولم يشتغل أهلها برمها؛ فسألتهم عن ذلك فقالوا: نحن لا نعتمد على سور، وإنما سورنا سيوفنا، فذكرت قول الشاعر: (من الوافر)

إِذَا صَدَقَ الْحُسَامُ وَمُنْتَضِيهِ ... فَكُلّ قَرَارَةٍ حِصْنٌ حَصِينُ

ومَا لَيْثُ الْعَرِينِ بِذِي امْتِنَاعٍ ... إِذَا لَمْ يَحْمِهِ إِلاّ الْعَرِينُ

وبناءٌ داخل المدينة في غاية الارتفاع، وهم يتنافسون في ذلك، قال: ورأيت بقصبتها، وهو موضع سكنى الوالي، آثارا تدل على ضخامتها، غير أن الخراب استولى الآن على كثير منها، وبهذه القصبة قناة تتسرب إليها من خارجها في غاية القوة، وقد بني عليها بيت على شكل حمام، جاء في نهاية الظرف والحسن»[5]. وجميع مياه البلد مر.

وما رأينا اليوم في البلد سورا مرتفعا ولا بنيانا عاليا، بل بنيانهم أقصر بنيان رأيناه بهذه البلاد، إلا ما كان من القصبة المذكورة، فهي على ما وصف إلى الآن، وهي مسكن الوالي في الوقت. وقوله: وجميع مياه البلد مر، قوله

---

1 – **الغريب المصنف في غريب الحديث** للقاسم بن سلام الهروي.

2 – أبو عبيدة القاسم، الأمثال، باب الانتهاء إلى غاية العلم بالأمور وتضييع العلم، 304.

3 – بياض في ح.

4 – الواقعة: 68.

5 – التجاني، **رحلة**، 137.

عدا[1] الحار الشديد الحرارة منه، فهو عذب فرات بعد تبريده، ما رأينا فيه ضررا، ودليله المشاهدة وأخبار أهل البلد، وهم أعرف بمياههم من غيرهم.

وفي **الروض المعطار**: «حمة مطماطة مدينة في جهة قسطيلية، بمقربة من مدينة قابس، ماؤها شروب وبها نخل كثير، وأهلها موصوفون بالنجدة والشهامة. وعليها كانت الوقيعة لمنصور الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المومن، ملك المغرب على الموارقة[2] سنة ثلاث و ثمانين وخمسمائة، لأنه تحرك من مراكش إلى إفريقية لما بلغه فعل العرب والموارقة فيها، ولما كان على فرسخين من هذه الحمة وجه خيلا لمنازل الأعراب الذين مع الموارقة، فشنوا الغارة هناك مع الصباح، واكتسحوهم وساقوا أموالهم وقفلوا، وبلغ ذلك العرب فارفضت جموعهم وتضعضعت محلة الموارقة بسبب ذلك، وباشر الحرب بنفسه فاستؤصلت الموارقة من المعترك، وأفلت قراقش وابن غانية، وأتبعهم السيف إلى الليل. ثم توجه إلى قابس فاستسلم أهلها وفتحوا أبوابها، وأسلموا أصحاب قراقش وشيعته، وكان اتخذها حصنا، وشحنها بشيعته وأصحابه، وامتنعت شيعته بقصر العروسيين منها يومين، ثم نزلوا منها إليه من الأسوار، راغبين في الأمان، فبعث بهم في البحر إلى تونس، ووبخ أهل قابس على اتباع كل ناعق، ثم انحرف إلى توزر، فاعلنوا له بالطاعة»[3].

ثم ذكر قصائد شعراء زمانه في ذلك، فأنظرها فيه إن شئت[4].

رجوع، ولم أبت بالبلدة، *156* وإنما بقيت في طائفة من الحجاج لقضاء أوطار إلى نحو الظهيرة، فسرنا، فبتنا قرب الغروب خارج قابس، حيث يخيم الركب بقرب عين أزريق وهي من أطيب مياه البلد.

---

1 – في خ وج "عدا".

2 – يقصد بني غانية، أهل ميورقة الذين ظلوا على ولائهم للمرابطين. فكانت تلك الغزوة نهاية تدخلهم في إفريقية.

3 – الحميري، **الروض**...، 200 – 201.

4 – م.س : 201 – 202.

ذكر دخولنا لقابس

وما أدراك ما قابس، مدينة من بلاد إفريقية، بينها وبين القيروان أربع مراحل، وتعد من البلاد[1] الجريدية، وبينها وبين طرابلس ثمان مراحل، وهي كما قال التجاني: «بلد استوفى المحاسن[2] واستغرقها، واذكر بمنظره الأنضر، وورقه الأخضر، جنة واستبرقها، وقد أحدقت غابته من جميع جهاته، واستوت في جميع عرصاتها، وحق ما قيل: إن قابس جنة الدنيا، ودمشق الصغرى. وهي مدينة صحراوية بحرية، فالصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة أميال منها؛ فهي أحق بقول ابن عيينة: (من البسيط)

زُرْ وَادِي القَصْرِ نِعْمَ القَصْرُ وَالوَادِي ... وَحَبَّذَا أَهْلُهَا مِنْ حَاضِرٍ بَادِي

تُدْمَى قَرَاقِيرُهُ وَالْعِيسُ وَاقِفَةٌ ... وَالضَّبُّ وَالنُّوقُ وَالْمَلاَّحُ وَالْحَادِي[3]

ويقول الخليل بن أحمد[4]: (من المنسرح)

يَا جَنَّةً فَاقَتِ الْجِنَانَ فَمَا ... لُعلقُهَا قِيمَةٌ وَلاَ ثَمَنُ

هَا هِي حيتَانُهَا انْصِبابٌ بِهَا[5] ... فَهَذِه كُنَّةٌ وَذَا خَتَنُ

مِنْ سُفُنٍ كَالنَّعَامِ مُقْبِلَةٌ ... وَمِنْ نَعَامٍ كَأَنَّهَا سُفُنُ

قال: ويقال إنه لم يجتمع في مائدة صيد البر وصيد البحر، وأصناف التمر إلا في مائدة ساكن قابس» هـ[6].

---

1 - في د "بلاد".

2 - في ح "المجلس ".

3 - شاب هذا البيت تصحيف في ثلاث كلمات: ترمي بدل ترسي، وقواقيره، بدل قراقيره، والفلاح، بدل الملاح، التجاني: **رحلة**، ، ص، 86.

4 - الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، أبو عبد الرجمان ، من أئمة اللغة والأدب، واضع العروض، وهو أستاذ سيبويه، من تآليفه كتاب العين ولد بالبصرة سنة 100هـ/718م وتوفي بها سنة 175 هـ/791م. انظر : السيوطي، **بغية**. . .، 1/ 560

5 - رسم هذا الشطر محقق رحلة التجاني هكذا:"صاهر حيتانها الضباب بها"، **الرحلة**، ،ص، 87.

6 - التجاني، **رحلة**، 86 - 87.

وفيه نظر، وسيأتي مثل هذا الوصف في مصر، إن شاء الله، من أن به صيد البر والبحر عذبا وأجاجا وأصناف التمر، فإن قيل تمره ليس بذلك إنما به البلح الحسن والتمر مجلوب من سيوى وغيرها ؟ فالجواب: أن تمار قابس أيضا كسائر تمار سواحل البحر ليست بذلك، إذ بقدر ما تبعد النخيل من رياح البحر وتدخل في الصحراء تتحسن وتستطاب، وهذا هو[؟] طرابلس على هذا النعت الذي نعت به قابس. قال: «وعلى قابس سور من صخر جليل من بناء الأوائل، ولها أرباض واسعة وجل أسواقها في أرباضها، وقد دار بسوقها خندق متسع يجرون الماء إليه إذا خافوا من نزول عدو عليهم؛ فيكون أمنع شيء لها. ولها واد يسقي أجنتها ومزارعها، ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها، وأصل هذا الوادي من عين خَرّارة من جبل بين القبلة والمغرب منها، وأكثر أجنتها فيما بين*157* المدينة والبحر، وبتلك الجهة الساحة المعروفة بساحة عنبر»[1]. قال: «وأنشدني الفقيه البليغ الكاتب أبو الفضل محمد بن علي التجاني لنفسه يصف إحدى عشاياه بتلك الجهة في تلك الساحة، وما اقتضبه من الأمن والراحة»: (من الكامل)

اذْكرْ عَشيّاً[2] بسَاحَةِ عَنْبَرِ ... وَالبَحْرُ يُتْحِفُنَا بنَفْحَةِ[3] عَنْبَرِ
حَيْثُ النّخيلُ عَرَائِسُ بَسَطَ الحَيَا ... بسطًا لَهَا مِنْ أَخْضَرٍ وَمُعَصْفَرِ
وَالشَّمْسُ تَسْتَحْيِي وَتَسْترُ وَجْهَهَا ... عَنَّا بِستْرٍ لِلْعَرُوسِ مُحَبَّرِ
وَالنُّورُ بَيْنَ مُفَضَّضٍ وَمُذَهَّبٍ ... وَالنُّورُ بَيْنَ مُدَرْهَمٍ وَمُدَنَّرِ
وَالنَّهْرُ وَالْغُدرادرعٌ تَحَصُّناً ... إذْ صُفَّت الْغَابَاتُ صَفَّ مُعَسْكَرِ
وَالْبَحْرُ يَرْمُقُنَا بمُقْلَةِ أَزْرَقٍ ... وَالْبَرّ يَرْمُقُنَا بمُقْلَةِ أَعْفَرِ
في جَنَّةٍ لَوْ نلْتُ مِنْ خُلْدٍ بِهَا ... قَصْدِيَ بَلَغْتُ إِلَى النَّعِيمِ الأكْبَرِ
وَمَحَلّ أُنْسٍ قلْتُ بَيْنَ رِيَّاضِه ... برِيَّاضَةٍ قَادَتْ لأَبْهَى مَنْظَرِ
مِلْنَا بِمُنْعَرَجِ الْمُصَلَّى نَحْوَهُ ... حَذَرَ الرَّقِيبِ وَلَيْتَهُ لَمْ نَحْذَرِ

1 - م. س، 87 - 88.
2 - في **رحلة التجاني** "عشيتنا"، ص، 88..
3 - م. س، "بنكهة".

وَجَـرَا لَنَا فِيـــهِ حَـدِيثٌ كُلُّـــهُ لُطْفٌ حَضَرْنَا مِنْهُ أَطْيَبَ مَحْضَرِ
وَتُجْرِي أَحَادِيثَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا بِأَرَقَّ مِنْ مَسْرَى الصَّبَا الْمُتَعَطِّرِ
وَنَدِيــرُ كَاسَاتِ الْمَحَبَّـةِ بَيْنَنَـا فَنَمِيلُ مِنْهَا بِالْحَـلاَلِ الْمُسْكِـــرِ
حَتَّـــى إِذَا وَلَّـــى الْعَـــشِيّ وَآنَ أَنْ نَمْتَازَ عَنْ نَظَرِ الْمُـرَادِ الأَنْضَـرِ
قُمْنَا نَجُـرُّ مِـنَ الْعَفَـافِ سَوَابِغًـا لَمَّا نُغَيِّرُهَـــا بِصِبْغَـةِ مُنْكَـــرِ
وَنَــوُمُّ قَابِسَ جَنَّـةَ الدُّنْيَـا وَفِـي قَلْبِي لِوَشْكِ الْبَيْنِ حُرْقَةُ مِسْعَـرِ»[1]

وفي ذكر قابس يقول بعضهم :(من البسيط)

لَهْـفِي عَـلَى طِيبِ لَيَالٍ خَـلَتْ مِـنْ جَـانِـبِ الْبَطْحَاءِ مِنْ قَابِسَ
كَـانَ قَلْـبِي عَـلَى تِذْكَارِهَـا جَـذْوَةَ نَارٍ بِيَـــدَيْ قَابِـــسَ ، هـ.

وقال البكري في **المسالك** : «مدينة قابس مدينة جليلة مُسوّرة بالصخر الجليل، من بنيان الأول، ذات حصن حصين، وأرباض وأسواق وفنادق وجامع وحمامات كثيرة، وقد أحاط بجميعها خندق كبير، يجرون إليه الماء عند الحاجة، فيكون أمنع شيء. ولها ثلاثة أبواب قبليها وشرقها أرباضها[2]، ويسكنها [العرب] والأفارق[3]، وفيها جميع الثمار، والموز بها كثير»[4].

زاد في **الروض المعطار** : «وليس بإفريقية موز إلا فيها انتهى»[5]. ثم قال البكري : «وهي تمير القيروان بأصناف الفواكه، وبها شجر التوت الكثير، ويقوم من الشجرة الواحدة منها *158* من الحرير ما لا يقوم من خمسين شجرة[6] من غيرها، وحريرها أطيب الحرير وأرقه وليس في عمل إفريقية حرير إلا في قابس، واتصال ثمار بساتينها [7] مقدار أربعة أميال، ومياهها سائحة مطردة يسقى بها

1 – التجاني، **الرحلة**، 88 – 89 ؛ الحميري، **الروض**. . .، 450.
2 – في **المسالك**، "بشرقيها و قبليها أرباضها"، البكري: **المسالك**، م.س. 2/ 189.
3 – كذا في الأصل، م. س.
4 – البكري، **المسالك**. . .، 2/ 189.
5 – الحميري، **الروض**. . .، 450.
6 – في البكري، **المسالك**، "خمس شجرات".
7 – م. س : " و اتصال بساتين ثمارها".

جميع أشجارها، و أصل هذا الماء من عين خرّارة في جبل بين القبلة والغرب منها يصب في بحرها، وبها قصب السكر كثير.

وبقابس منار منيف، ويحدو الحادي عند قدومه من مصر إلى إفريقية فيقول: (من الرجز)

لاَ نَوْمَ لاَ نَوْمَ وَلاَ قَـرَارا حَتّـىأَرَىقَابِسَوَالْمَنَـارَا[1]

وساحل مدينة قابس مرسى[2] للسفن من كل مكان. وكانت ولايتها منذ دخل عبيد الله الشيعي إفريقية تتردد في بني لقمان الكناني[3]. قال الشاعر: (من السريع)

لَوْلاَ ابْنُ لُقْمَانَ حَلِيفُ النّدَى سُلَّ عَلَى قَابِسَ سَيْفُ الرّدَى[4]

و تجاورها جزيرة في البحر تعرف بجزيرة رازو[5] بينهما أكثر من يوم، عامرة آهلة، وكثيرا ما يمتنع أهلها على السلطان[6] وبين مدينة قابس والبحر ثلاثة أميال.

ومما يذكرون من معائبها[7] أن أكثر دورهم لا مذاهب لها[8]، وإنما يتبرزون في الأفنية ولا يكاد أحد منهم يفرغ من قضاء حاجته إلا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ما يكون منه لتدمين البساتين، وربما اجتمع على [ذلك النفر يتحاجون[9] فيه، وكذلك نساؤهم لا يرون عليهن في ذلك [10] حرجا إذا سترت][11] إحداهن وجهها[12] ولم يعلم من هي.

---

1 – بلا نسبة في **المسالك**، 2/189 وفي **رحلة التجاني**، 92

2 – في **المسالك**، " مرفأ".

3 – عند البكري:"الكتامي"، ولعله الصواب. م. س.

4 – بلا نسبة في. م.س، 2/ 190.

5 – في خ "زاروا".

6 – في **المسالك**، "السلاطين ".

7 – نقلا عن **رحلة التجاني**، 89.

8 – في **المسالك**، "فيها"

9 – م. س،"يتشاجرون".

10 – ن. م، " لا يرين في ذلك عليهن ".

11 – ساقط من د.

12 – ساقطة من د وج.

ويذكر أهل قابس أنها كانت أصح البلاد هواء حتى وجدوا بها طلسما ظنوا أن تحته مالا، فحفروا موضعه فأخرجوا منه تربة غبراء، فحدث عندهم الوباء من حينئذ بزعمهم. وأخبر أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبي- وكان كاتبا لمؤنس صاحب إفريقية - أنهم كانوا في ضيافة ابن وانّمو[1] الصنهاجي صاحب مدينة قابس، فأتاه جماعة من أهل البادية بطائر على قدر الحمامة، غريب اللون والصورة، ذكروا أنهم[2] لم يروه قبل ولا عهدوه، كان فيه من كل لون أجمله، أحمر المنقار طويله، فسأله ابن وانّموا من حضره من العرب والبربر وغيرهم، هل رآه أحد منهم، فلم يعرفه أحد ولا سماه. فأمر ابن وانّمو بقص جناحيه و أرسل في القصر، فلما جن الليل جُعل في القصر مشعل نار، فما هو إلا أن رآه ذلك الطائر فقصد نحوه[3]، وأراد الصعود إليه، فدفعه الخدام وجعل يلح في *159* التكرار على المشعل، فأخبر ابن وانّمو بذلك فقام، وقام من حضر[معه]؛ قال جعفر: وكنت فيمن حضر، فأمر ابن وانّموا بترك الطائر وشأنه، فصار في أعلى المشعل، وهو يتأجج نارا، واستوى في وسطه، وجعل يتعلى[4] كما يفعل سائر الطير في الشمس، [فزاد تأجج النار][5] فأمرابن وانّمو بزيادة الوقود في المشعل من حرق القطران وغير ذلك، فزاد تأجج النار، والطائر فيه على حالته، لا يكثرت ولا يبرح، ثم وثب من المشعل بعد حين يمشي لم يَرِبْه ريب. وأخبر قوم من أهل إفريقية أنهم سمعوا خبر هذا الطائر بمدينة قابس، والله أعلم بحقيقة ذلك» هـ[6].

قال التجاني: «وبشرقي قابس موضع يعرف بالمنارة، كان به منار مرتفع يظهر للآتي من المشرق، قبل وصوله إلى البلد بمسافة بعيدة، وقد سقط الآن ولم يبق له أثر. قال: وبداخل المدينة مسجدها الجامع، وهو متسع وله منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن، إلا أنه لصحة موضعه لا يخشى

1 - في خ ود "وانموا".

2 - في **المسالك**، "أنه".

3 - م. س "قصده"

4 - في د "يتعالى" وفي **المسالك**، "يتلقى"، م. س. ص. 190..

5 - زيادة من البكري، **المسالك**.

6 - البكري، **المسالك**...، 2/ 189 - 191.

من وقوعه، وبقرب هذا الجامع قصبة قابس، وليس ببلد إفريقية قصبة أضخم منها. وبها البناء[1] المشتهر المعروف بالعروسين، الذي لا يرى مثله ظرفا وحسنا. وقد استولى الخراب و قتنا هذا على القصبة وعليه. والعروسان من بناء بني جامع الهلاليين، الذين كان لهم أمر قابس، ينسبون بناءه لرشيد بن مدافع بن جامع، أحد من تملكها منهم، وقيل ابتدأها صنهاجة، فأتمها بنو جامع» هـ[2].

وفي **نزهة البستان في ذكر الأمصار والأزمان**: «ومرسى قابس في البحر ليس بشيء، لأنه لا يستر من ريح، وإنما ترسى القوارب بواديها، وهو نهر صغير ترسو به المراكب الصغار، وليس بكثير السعة». قلت: وهكذا حدثنا الثقات أن السفن الكبار لا تنزل مرساها لما ذكر.

وقال التجاني: «ومن رسالة لأبي المطرف بن عميرة في وصف قابس، وكان ولي قضاءها في أول مدة المستنصر، رحمه الله: بلد[3] غوْطِي البساتين، طوري الزيتون والتين، فأما النخل فجمع عظيم، وطلع هضيم، وقد قام المقام على دارها كما قام العروس والأمير، بناء يزدري إيوان كسرى لديه والخورنق والسدير، وسكك مأبورة، ونواعم في الخدور مقصورة، وأن بقعته لوارفة الظل، آمنة الحرم والحل، جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل. وبالجملة فهو تمام الغرابة مدهام الغابة، مستأثر بسيد من سادة الصحابة، ولا عيب بتربته إلا وخامة بهوائها، وحميات قلما يعرى من عُدَوائها. وفي*160* فصل من رسالة أخرى له، يصف شدة الوباء بها، وما يذكر من كثرة عقاربها: وهذه البلدة الآن في ظلال من شرخ الشباب، وأطلال من ثمرات[4] النخيل والأعناب، فهي بحال يقر بجمالها الأندلسي، ويحار بين خلالها الدبسي، ولا عيب فيها إلا هواء وخامته تخاف، وماء غير من خالصه الماء المضاف، ولبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار، سريعا إلى القطان والزوّار، كراها تنفيه، وسراها

1 – في **رحلة التجاني** "المبنى".

2 – التجاني، **رحلة**، 92 – 95.

3 – م. س، "ووجدته".

4 – في ح "ثمراتها" .

تخفيه، وصلحها لا يطمع أحد فيه، فقبحت شائلة الأذناب، شاملة العذاب، كامنة بارزة، هامزة لامزة، تطرق بالبلية، وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية، دبت عندنا ليلة إلى من كان يرمق دبيبها، وتحاول قبل أن تصيبه أن يصيبها، فأوقعت به لدغا في القدم، وإلقاء في أشد الألم، وبات وبتنا معه في ليلة أخي ذبيان، وتعالى الله ما أطول ما كانت، وأصعب ما كان.

ومن المكاره التي حفت به جنة قابس، ما يتعاهدها من الوباء، وينتاب أهلها من الأمراض. وسبب ذلك فيما ذكره أهله، كثرة شجرة الدفلى بها، فيكتسب الماء منها لدى جريه مرارة تضر ببدن ساكنيها[1] كثيرا، ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرة. وفي هذا البلد فساد و تغير، سببه كثرة عفوناتها، وليس في جميع مياهها ماء يأمن من ذلك، إلا العين المعروفة بعين الأمير، والأخرى المعروفة بعين سلام، فإن ماءهما سالم من الفساد، لعدم مروره على الدفلى، والأولى منهما منسوبة للأمير الأزدي المعروف بأبي الصغير. وأما الثانية، فالمشهور في أسمائها عين سلام بلام مخففة، والموجود في عقودهم القديمة عين سنام بالنون»[2] بدل اللام.

ومما أنشده بعضهم فيها: (من الوافر)

عَلَى عَـيْنِ السَّـامِ سَـلاَمُ صَبٍّ ... غَذَاهُ مَاؤُهَا العَـــذْبُ النُميـــرُ
تَـأَوَّدَ أَيْكُهَـا وَجَـرَتْ صَبَاهَــا ... وَشَمْلاَهَا كَمَا فَتَـــقَ الْعَبِيــــرُ
وأَبْـرَدَ مَــا يَكُـونُ الْجَــوّ فِيهَــا ... وَأَنْدَى حِـينَ يَحتَـدِمُ الْهجِيــــرُ
ومَا أَدْرِي أيجـرِي فَـــوْقَ دُرّ ... أَمْ ابْتَسَمَـتْ بِمَنْبَعِهَـا الثـُّغُـر[3].

وبالجملة فهي حاضرة هذا الإقليم وقطبه، فأنت ترى المادح أكثر من الذام؛ بل لم تذم إلا بما لم يكن به إلمام، خلافا لذاك العبدري الإمام، المولع بالتحقيرعلى البلاد والأنام، عدا تونس وأهلها، وخصوصا بلاد الحرمين، على ساكنها أزكى السلام، إذ قال: «ثم وصلنا إلى مدينة قابس،

---

1 – في د "سكانها".

2 – التجاني، **الرحلة**، 88 – 89.

3 – م.س، 117.

ذات المخبر الخبيث، والمُحيا *161* العابس. هواء وخيم، ولؤم طبع وخيم[1] وتضييع المصليات والمساجد، وقلة اعتناء بكل راكع وساجد، معانيهم إلى النجوم عالية، ومغانيهم[2] إلى أسفل التخوم هاوية، إلى عفونات تخبو لقُربها المصابيح، و تنحو بالنّحول كل وجه صبيح[3]، وتفسد الأذهان والألوان، وتضرم للمزاج المعتدل نار الحرب العوان[4]. تنصب عليه مجانيق الطوى[5]، فتقذفه بجلاميد الخوى[6]، وترميه بسهام الروائح المنكرة، على قسي الأهوية المُغَيّرة، بأكف الأبحرة المكدرة، فما تلبثُ أن تحط علاه، تبيح للأسقام حماه، تنساب[7] حواليه أنهار تشتعل بها في حشا الظمآن نار، ودارت بها غابة من نخيل، قد طُلْسِمَتْ[8] ثمرتها بكف بخيل، أتاها جبلة بن الأيْهم[9]، أو حل حماها إبراهيم بن أدهم[10]؛ لم تنل إلا برقية الدينار والدرهم، على أن الهواء العفن قد منعتها الجفوف فليس لها على الخزيز[11] والغثاء[12] شفوف، لأنه إذا أفْرِدتْ عن أشجارها القطوف، بدت العُفونةُ بها تطوف.

---

1 – الخِيمُ: الأصل أو الشيمة و الطبيعة و الخلق و السجية، يريد و سوء خيم.

2 – المغاني : المنازل التي كان بها أهلها.

3 – الوجه الصبيح : الوضيء.

4 – حرب عوان : أي الحرب المترددة.

5 – الطوى : الجوع ومنها رجل طيان لم يأكل شيئا. انظر : **القاموس**، 1 /1687.

6 – الخوى : خلو الجوف – البطن – من الطعام. انظر : **القاموس**، 1/ 1653.

7 – **في رحلة العبدري** "تنصب " وفي د "تنسب".

8 – طلسمت: و طلسمت، نقش عليها بكيفيات خاصة لرد الأذى.

9 – جبلة بن الأيهم بن جبلة الغساني: آخر ملوك الغساسنة ببلاد الشام. أسلم و ارتد و خرج إلى بلاد الروم، و لم يزل بالقسطنطينية عند هرقل حتى مات حوالي 20 هـ. انظر: ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، تحقيق، عبد المجيد الترحيني دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (الجزء الأول بتحقيق مفيد محمد قميحة) الطبع الأولى سنة 1404/ 1983، 1/ 310 – 315.

10 – إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، أبو إسحاق، زاهد مشهور، توفي سنة 162هـ/ 778م. ترجم له : الشعراني، **الطبقات**...، 1/ 59 ؛ ابن كثير، البداية...، 10/ 135 – 146؛ الحنبلي، **شذرات**...، 1/255 ؛أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405هـ، 8/ 55 ؛ يوسف النبهان، **جامع كرامات الأولياء**، المكتبة الثقافية، لبنان، سنة 1408 /1، 1988/ 385 – 388.

11 – الخزيز: العوسج الجاف جدا. انظر : **لسان العرب** 5 /345.

12 – الغثاء: الزبد و القدر. انظر : **لسان العرب** 1/ 50.

وأما العلم عندهم فقد ركدت ريحه، والجهل عندهم لا يؤسى جريحه، عام لا يتطرق إليه الخصوص، وظاهر جاء على وفق النصوص، وهذا حكم استفدته من العيان، ونتيجة الاختبار والامتحان، نعم بها أحد الصلحاء[1]، كالشعرة البيضاء في اللمة السوداء، يستمطر بهم المزن إذا لم يُسْبِلُ سَبَلُهُ[2]، والنادر لا حكم له.

وقد حضرت بجامعها شيخا يشار إليه، ويعتمد[3] في نوازل المسائل عليه، وحواليه جماعة من أعيانها، وأهل الخطط من سكانها، فقُرِى عليه في المرابحة من «التّلقين» باب استُبْهِمَ عليه فيه وجه الصواب، فخبطوا فيه خبط عشواء، و أتوا أثناءه بكل شوهاء[4]. فمما جرى لهم في مسألة الغلط في الثمن بالزيادة أو النقص، أن اعتبار القيمة فيها لتختبر صحة قول البائع أو المشتري، وهذا كلام لا يتحصل في الذهن، فضلا عن صحته أو فساده. وقالوا: إن القيمة لما اعتبرت بالثمن، كان المعتبر إذًا هو الثمن، ثم نقضوا هذا الهراء[5]، بأن القيمة يضرب عليها الربح؛ وقالوا: إن الثمن يعتبر دون ربح، وهذا هراء أشد من الأول، وما كفاهم ذلك حتى أخذوا في تحقيق ذلك من ألفاظ الكتاب، بتنزيلها على وجوه الإعراب، وبعد مجاراة ومماراة[6] ليست بقليلة، وقفتهم على ما أملوا من تلك القبائح، التي لم يَغْدُ بمثلها غادٍ ولا راح، واستبان لهم لما لاح في ليل [الأوراق وبعد ه مجارات][7] المضاحك، ولم أخلد بها ذكرا في كتاب، بل أطويها: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكِتَابِ﴾[8] "[9]، هـ.

1 - في **رحلة العبدري** "آحادالفضلاء".

2 - السبل : المطر. انظر: القاموس 1/ 1308.

3 - في **رحلة العبدري** "يعول".

4 - الشوهاء : العابسة و القبيحة. انظر: **لسان العرب**، 13/ 508 - 509.

5 - الهراء: المنطق الفاسد الذي لا نظام له. انظر : **القاموس** 1 /72.

6 - المماراة: المعارضة.

7 - في **رحلة العبدري** " لاح في ليل خبطهم نهار، أن بنيانهم كان على ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ (التوبة: 109) و لولا ما أتوقع من جدال الماحك لم أشن وجوه الاوراق بهذه المضاحك" ص : 183

8 - الأنبياء : 102.

9 - العبدري، **رحلة**، 180 - 183.

162 قلت: لم يفُهْ هذا الرجل في مدح البلد وأهلها ولا ببنت شفة، غير أنه قال بها أحد الصلحاء، والنادر لا حكم له، فإن عنى بذلك سيدنا أبا لبابة[1]، فهو في غضه مخطئا صوابه، أو غيره من صلحاء الأمة المحمدية، فكان الأولى له أن يحلى لسانه، ويطلق قلمه بأسجاعه البهية، في نشر أمداح ذوي الصفات العلية، والمناقب الزكية المرضية.

وأشار أبو المطرف بقوله - في رسالته السالفة - [مستأثر ب][2]سيد من سادات الصحابة، إلى ما شاع بهذه البلاد الإفريقية، أن قبر أبي لبابة بشر بن عبد المنذر، أو رفاعة بن عبد المنذر الأنصاري بقابِسَ، وهو ممن شهد بدرا و العقبة. وقيل أمّره، ﷺ على المدينة ولم يشهد بدرا، وأمره أيضا عليها في غزوة السويق. ومات في خلافة علي ﷺ وقبره الآن مشهور، بنى عليه حمود باي التونسي قبة صغيرة ومسجدا بإزائه، ومدرسة بناها حسنة، لا نظير لها فيما رأينا من بلاد إفريقية، وجعل لمن يسكنها من الغرباء مرتبا جاريا؛ زرناه والحمد لله. وقد ذكره ابن ناجي في **اختصار معالم الإيمان** قال: «تواتر أن قبره بقابس عند أهله، قال. وقال البرزلي: «تواتره دليل على صحة ذلك، ومن لم يذكره ممن ألف في أسماء الصحابة وأمكنة وفياتهم، كأنه لم يبلغه العلم به، والتواتر المذكور مقدم على ذلك، وكاف في إثبات أن ذلك قبره»، هـ.

قال التجاني: «لم أر أحدا من المؤرخين عد أبا لبابة فيمن دخل إفريقية من الصحابة، ولعله إن ثبت أن قبره هناك فهو ممن أغفل المؤرخون ذكره. ولعل قدومه إليها كان هجرانا لدار قومه، بسبب الذنب الذي أذنبه، فتاب الله عليه، فقال: «يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي، و أن أنخلع من مالي، فقال له رسول الله، ﷺ: يجزيك من ذلك الثلث»[3]. وذنبه تخلفه في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية المسجد، حتى تاب الله عليه، فحله

1 - أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري صحابي جليل، توفي في خلافة علي ﷺ. ترجم له ابن حجر، **الإصابة**...، 4/ 168؛ ابن عبد البر، **والاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى 1412، 4/ 167.

2 - إضافة من التجاني اقتضاها السياق، **الرحلة**، م. س. ص. 91.

3 - الحديث أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الايمان و النذور، باب فمن نذر أن يتصدق بماله، رقم 3319، 3/ 240.

ﷺ بيده الكريمة، أو فاطمة رضي الله عنها، في قول»[1]. وقالﷺ لما منع أن تباشر حله لمكان يمينه، أن لا يحله إلا هو، صلى الله عليه وسلم: «إنها بضعة مني». أو «إشارته إلى حلقه لبني قريظة حلفائه، أي أنه الذبح إن نزلتم على حكم سعد بن معاذ»[2] فنزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لَا تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]. ثم تاب الله عليه. وأنشد أبو المطرّف[4] بن عميرة، وقد انصرف من قبر أبي لبابة رضي الله تعالى عنه *163*: (من الكامل)

خَبرُ الأَحبّة مَا أَلـذ مَسَاقَـهُ ... وَجَنَى الْقَطيعَةَ مَا أَمَرَّ مَذَاقَهُ
وَهَوَى الْقُلُوبِ لَهَا عَلَيْهِ شَوَاهِدُ ... سَبَقَتْ بِنَاطِقِ حَالِهَا اسْتِنْطَاقَهُ
وَأَي[5] الْمَنَازِلَ إِن ذكرتَ عُهُودَهَا ... فتُهِيجُ مِنْ كَلَفٍ بِهَا أَشْوَاقَهُ
يَعْتَادُهُ مِنْهَا جَوَى بَيْنَ الْحَشَا ... وَالصَّدْرِ رَقْرَقَ دَمْعَهُ وَأَرَاقَهُ
وَ يَبِيتُ مِنْهَا كَالَّسلِيمِ وَمَا لَهُ ... رَاقٍ إِذَا مَدَّ الظَّلَامُ رِوَاقَهُ
حَمَلَ الْغَرَامَ وَمَا اسْتَقَلَّ بِحمْلِه ... قَبْلَ النَّوَى فَالآنَ كَيْفَ أَطَاقَهُ
وَ رَمَتْ بِهِ الأَقْدَارُ كُلَّ تَنُوفَةٍ ... لَمْ تَأْلُه لِجَمالِهَا إِغْرَاقَهُ
قَبْرٌ تَشَكيْنَا الفِرَاقَ لديه والـ ... أَشْهى لنا أَنْ لا نُسَامَ فِرَاقَهُ[6]
وَمَوَارِدُ حَمَلَتْ أَحِبَّةَ آجِنٍ ... يَلْقَى بِهَا طَعْمَ النَّوَى مَنْ ذَاقَهُ
خَفَقُ الْجَوَانِح دُونَهُ وَيَرِدّ مَنْ ... أَفْضَى إِلَيْهِ مَعَ الصّدَى إِخْفَاقَهُ
مَازِلْتُ أَقْطَعُهَا مَهَابًا لَمْ تَزَلْ ... بِالصّبْرِ حَتَّى مَزَّقَتْ أَخْلَاقَهُ

---

1 – ينظر: ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ في المعاني والأسانيد**، تحقيق مصطفى بن أحمد ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387، 20/ 83 **والاستيعاب...**، 4/ 1741؛ محمد الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (تفسير الطبري)، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، 11/ 12.

2 – ينظر ابن حجر، **فتح...**، 7/414.

3 – الأنفال: 27.

4 – ساقطة من د.

5 – في ح "أن".

6 – في د "قبر تشكينا الفراق به وإلا لتناها لنا من سام فراقه"

حَتَّى وَقَفْتُ وَمَا أفقتُ بِمَنْزِلِ | كَالظُّلْمِ في صَدْرِي أَرَى آفَاقَهُ
وَ قَبَسْتُ مِنْ شَوْقِي لِقَابس جذوَة | شَبَّتْ عَلَى قَلْبِي سِوَاهَا شَاقَهُ
مِنْ بَلْدَة فِي العَيْنِ أَظْلَمَ جَوّهَا | مَعْ أَنَّهَا مَا أَنْكَرَتْ إِشْرَاقَهُ
قَدْ كَانَ مَنْظَرُهَا يَرُوقُ بعَيْنِ مَنْ | يَشْكُو النَّوَى لَوْ أنْ شَيئا رَاقَهُ
لَكِنْ بِقَبْرِ أَبِي لُبَابَةَ لي هَوَى | مَا مِنْ هَوًى لِلنَّفْسِ إِلاَّ فَاقَهُ
أَمَلٌ بنَفسِي لَوْ ظَفِرَتْ بتَوْبَة | لجعلْتُ[1] إثْمِد نَاظِرِيَّ دَقَاقَهُ
وَ تمثَّلَ الْقَبْرُ الْكَرِيمُ بمُقْلَتِي | فَدَنَوْتُ منْهُ وَالْتَزَمْتُ عِنَاقَهُ
فوثَاقُ ذَنْبِي أَرْتَجِي لفكَاكِه | مَنْ فَكَّ خَيْرُ الْعَالَمِينَ وَثَاقَهُ
صَلَّى الإلَهَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ | وَأَنَالَهُ بِجِوَارِهِ اسْتِحْقَاقَهُ
وَعَلَى صَحَابَتِهِ وَعِتْرَتِهِ الَّتِي | لَزِمتْ رِضَاهُ وَاقْتَفَتْ أَخْلاَقَهُ
وَقَضَى لَنَا مَعَ بُطْئِنَا في سَيْرِنَا | يَوْمَ الْجَزَاءِ عَلَى الصِّرَاطِ لِحَاقَهُ

انتهى كلام التجاني ببعض تقديم وتأخير مع اختصار[2].

ومحصل الأمر، أن من المدينة القديمة التي تكلم عليها البكري فمن بعده اليوم خراب، ولازال الناس ينقلون منها الآجر والحجارة المنحوتة والتراب، فابتنى حولها مدينتان متقابلتان أعظمهما تسمى المنزل، لها مسجد[3] جامع عظيم معظم كل التعظيم، ويقابلها بغربها بجهة البحر حارة، ولها مسجد جامع أيضا، بين أهاليهما دائما الحروب، *164* وربما تقاتلوا بالبنادق على السطوح، لقرب إحداهما من الأخرى. وبالبلد غير ذلك من المداشر الصغار كزاوية هريش، ويقال: الهرشا، ثم بلدة أخرى تسمى أشين، وزاوية سيدي علي الفرجاني، ويجاورها في عمالتها مداشر كثيرة وعمارة وافرة على طريق الحاج والقيروان، ومنها تاجْرا وفيها كانت الوقيعة بين الشيخ المجاهد أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص وبين يحيى بن إسحاق. حكى أنه كان في محلة يحيى نحو ثمانية عشر ألف جمل حاملة، فسلم جميعها وفر، ولم يقتل من

1 – مطموسة في ج
2 – التجاني، رحلة، 89 – 92..
3 – في د "نزل".

جيش الموحدين إلا أربعة، ومات في عسكر يحيى نحو مائة ألف، سوى من قتل في المعركة من الفرسان، وكان ذلك في الثاني عشر من ربيع الأول من سنة اثنتين وستمائة.

ومنها، مطوبة ذات نخل وجنات ومياه جارية؛ بينها وبين قابس خمسة أميال، وبقابس سواد نخل وأشجار منوعة، وما أشد اعتناءهم بزراعة أنواع الذرة وكثرة الحناء. ومن هذه البلدة تجلب لسائر بلاد إفريقية، يعمل لديهم كأهل طرابلس، ومن والاهم شراب يسمى اللّقم، يعمدون إلى النخلة فيقصون جريدها، حتى الذي في وسطها حاشى الصف الأَسفل والذي يليه، ثم يكشفون عن أصل جُمارها[1] برفق ولين من كل جانب، فيجرحونه معلقين قبالته قلّة، ويغطون قلبها وجمارها بكلفة[2] حفظا من الشمس والريح، حتى يمضي من الزمان ما تعمرفيه القلة، فيزيلونها ويفرغونها، ثم يردونها، وهكذا مدة من أربعة أشهر أو نحوها. فمن النخيل ما يؤخذ منه ذلك، فيما بين اليوم والليلة قلتان كبيرتان فأكثر؛ وكأنها بقرة تحلب، فإن انقضى ماؤها، ردوا على جمارها ترابا، وغطوه حتى يظهر نباتها، كأنها مغروسة الآن. فمنها من يرجع أجود مما كان، ولا تلد إلا بعد سنتين. ومنها من يضعف عن حالته الأولى، ومنها الميت. وترى النخلة المفعول بها ذلك لا تخفى على من مارس ذلك، وإن مضى للفعل دهور، يميز ذلك بجريدها وضعفها ورقة محل الفعل بها، بعد أن صار خشبا، وما كان أسفل منه يبقى على غلظه. ولا يستعملون ذلك إلا بالنخل القديم، إذ به يكثر العصير. وأما الشباب منها فيقل منه ذلك، بل لا ينتج لهم فائدة؛ على أن الكبيرالهَرِم – فيما قيل– هوالذي يكون عصيره حلوا ناعما، وبه – على ما قيل– منافع من تبريد البدن، وإخراج ما فيه من الحرارة، إذ لا يستعملونه غالبا *165* إلا في زمن المصيف. ويقدم بهذه البلاد للضيف في القِرى كالقهوة عند معتاديها. وترى الرجل يبيع من نخلة واحدة ما ثمنه عشرون مثقالا فأكثر، ويكثر استعماله زمن الغلاء؛ قدِّم إلينا في الضيافة مرارا، فلم يوافق طبعنا، إذ ليس بأرضنا فتجدنا نعافه.

---

1 – الجُمّار كالجامور والجمارة قلب النخلة و شحمتها التي في قمة رأسه. انظر : **لسان العرب** ، 4/ 147.

2 – يعني قطعة من الثوب.

وأقمنا بالبلد يومين، ووجدناها غالية في فتنة بينهم على عادتهم، وافترقت أعراب بواديهم: ابن زيد والحُزْمُ وغيرهم، فتحزب مع كل فريق حلفاؤه منهم. فلما نزل الركب عقدوا مهادنة، فلم نر[1] سارقا ولا مختلسا ولا محاربا، ولولا خوف بعضهم من بعض لاشتد إضرارهم للركب. وقامت بين الفرق مع الركب سوق في المحتاج للكل.

ومن أغرب الفواكه: بطيخ قابس، فقد رأينا من عظمه ما خرج عن المعتاد، حدثنا الثقات بالبلد أنهم وزنوا في بطيخة ستين رطلا، وآخر وزن في أخرى قنطارا، ولست على وثوق بخبرهذا الأخير. وممن[2] اجتمعت به من فضلا ئها طلبة السادات الحمارنة، منهم مفتي البلد سيدي محمد البكري، وله ممارسة بالنوازل الفقهية[3]، وابن عمه مدرس مدرسة أبي لبابة، المحب الوافي والزلال الصافي، أبوزيد عبد الرحمان [يدعى المجذوب - وهش وبش للاقاتنا وأجزل قِرانا][4] وعمه سيدي محمد بن عبد الرحمان وابن عمه سيدي صالح بن أحمد، وهؤلاء كلهم من ذرية السادات الحمارنة يسكنون بزاوية أبي لبابة في طائفة من بني أبيهم، ومنهم الشاب الفاضل سيدي علي بن عبد الكريم المدعو الصالح، وهو من سكان المنزل بقابس، ذهب بنا لبيته وأجزل القِرى وأوسعنا فواكه، وصب علينا من رياحينه وأزهاره، وعاملنا بجميل أخلاقه وبدائع طرفه[5]، تقبل الله منه وغفر من أوزاره، تجديدا منهم للعهد الذي بين أبائهم وأسلافنا. وهم إلى الآن على المحبة لا يقومون ولا يقعدون إلا بذكر الشيخ أبي العباس ابن ناصر، طهر الله منهم الباطن والظاهر، ينتسبون للساقية الحمراء من سوس الأقصى. ولهم بهذا الساحل زوايا كثيرة، منها زُرَيق البراني، وحارَثْ وعَرَّامْ، وهو أصل زواياهم، وبها قبور أسلافهم معظمون عند الخاصة والعامة.

---

1 - ساقطة من د.

2 - ساقطة من د.

3 - ساقطة من د.

4 - ساقط من د وفي طرة خ.

5 - في خ "حرمته".

ومن الذين اجتمعت بهم [وكان ذلك منة من الله تعالى عليَّ قاضي البلد ومدرسها وشيخ الجماعة ومعلمها][1] الشيخ أبو بكر بن الحاج أحمد بن تامر أقنونو – به عرف– وهذا الرجل من أمثل من اجتمعت به في سفري هذا من لدن خرجت من الوطن، علما وصلاحا، مجبورا على خطة القضاء من ولاة الأمر صراحا، *166* له كمال الاعتناء بفن المعقول والكلام والأدب؛ بل قضى مما يتعاطى من العلوم معظم الأرب، لا يمل جليسه ولا يفتر سميره وأنيسه، وكان مما جرى بيني وبينه في المذاكرة قوله: من اشترى مِلكا من أخيه [في الإشاعة بينه وبين الورثة][2]، فلما تقابضا الثمن والمثمن، قامت بينة على المشتري أنه قال بعد انعقاد البيع ودفع الثمن: أن المِلك المذكور حبس من والده دِنية[؟]، وأشهد مع ذلك على نفسه ألا يرجع على البائع بما قبض من الثمن، هل يكون قوله هذا إقرارا على نفسه فيلزمه؟ وهل يسري إقراره لنصيب غيره من الورثة، أويكون في نصيبهم شاهدا؟ فقلت: إقراراه مقصور عليه لا يتعداه لغيره، عملا بقول ابن عرفة: «الإقرار خبر يوجب حكم صدقه على قائله فقط بلفظه أو لفظ نائبه»هـ.

وبقول القرافي في الفروق: الإقرار والدعوى والشهادة كلها إخبارات، والفرق بينها أن الإخبار إن كان يقتصر حكمه على قائله فهو الإقرار، وإن لم يقتصر فأما أن يكون للمنجز فيه نفع وهو الشهادة أو يكون وهو الدعوى»هـ. قال الحطاب: «قال السبكي في **نكته** في تفسير القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[3] يدل على تغاير الإقرار والشهادة هـ. وفيه خلاف ومذهب **المدونة**: أن الإقرار شهادة»[4]، هـ. والنازلة، يلزم المقر ما أقربه في خصوص نصيبه سواء جعلناه مقرا على نفسه أو شاهدا، فالخلاف في الإقرار هل هو مباين للشهادة أو مغاير لها، إنما يظهر أثره – والله أعلم– في نصيب غيره من شركائه من الورثة، فإن قلنا بتبيانها– وهو الظاهر– فيكون الإقرار

1 – ساقط من د.

2 – ساقط من د.

3 – البقرة 83.

4 – الحطاب، **مواهب**. . . ، 5/ 216. دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

مقصورا على نصيب المقر وإلاجرى[1] على قاعدة الإقرار الظني المشار إليها في مواضع من **المتن** في التخيير والتمليك: «وقُبِلَ إرادةُ الواحدةِ بعد قوله لم أرد طلاقا، والأصحُّ خلافُهُ»[2]. وفي الوكالة: «أو أنكر القبضَ، فقامت البينةُ، فشهدت بينة بالتّلَف: كالمِدْيَانِ»[3]، وفي الوديعة: «وبجَحْدها، ثُمّ في قبول بينةِ الرّدّ خلافٌ»[4]، وفي القضاء: «وإن أنكرمطلوب المعاملَةَ: فالبينةُ؛ بخلاف: لاحق لك علي»[5]؛ وفي العتق: «وإن شهد على شريكه بعتْق نصيبه: فنصيبُ الشاهدِ حرٌ، إن أيْسَرَ شريكُهُ، والأكثرُ على نفْيِه»[6]. وفي **التحفة**: (من الكامل)

وَمُنْكِــرٍ لِلْخَصْــمِ مَـا ادّعَــاهُ أَثْبَتُ بَعْـــدَ أَنّــهُ قَضَــاهُ
لَيْسَ عَلَى شُهُـودِهِ مِـنْ عَمَـلِ لِكَــوْنِهِ كَذّبَهُمُ فِــــي الْأَوّلِ

*167*وفي **لامية الزقاق**: (من الكامل)

[وَإلا فأثْبتْ مَا ادَّعَيْتَ أمــُدَّعٍ][7] مُضَمّنُ إقْـرَار كَتَصْريح انْجَـلاَ
بِرَبْـعٍ وَدَيْنٍ فِي الصّحِيحِ وَإنْ بَدَا بعِتْقٍ وَإقْـرَارٍ فَعَكْسٌ تَحَصّــلاَ
وَثَالِثُهَا فِي مُودَعٍ كَهُوَ فِي الـــذِي إلَى رَدّهِ يُلْجَــى وَفِي تَالفٍ فَــلاَ[8]

وذلك أن إقرار أحد الورثة بالحبس من والدهم، تظهر شيئين: عقد الحبس في نصيبه، والشهادة على شريكه بمثله. فيكون مقرا في نصيبه شاهدا في نصيب الغير، فإن تمت الشهادة صار الجميع حبسا. هذا الذي حضرنا في الوقت، فعارضني القاضي بقوله: جوابك هو الذي لاح لي في النازلة، ولكن في **تبصرة** ابن فرحون، أنه لا يقبل قوله في نصيبه، ولا في نصيب

1 – في ح "جرا".
2 – خليل، **مختصر**...، 111.
3 – م. س، 166.
4 – ن. م، 170.
5 –ن. م، 196.
6 – ن. م، 220.
7 – ساقط من ح ود.
8 – انظر: **لامية الزقاق**، م خ ح، رقم 4255 الورقة 4أ (المخطوط غير مرقم).

غيره، وعلله باتهامه بإسقاط القبول والحيازة، قال: وبه عارضني بعض الطلبة لما قلت: إنه مقر في نصيبه، شاهد في نصيب الغير. فقلت: يرجح ما في ابن فرحون بقول **المتن** أواخر العتق: «وإن شهدَ أحدُ الورثةِ، أو أَقَرّ أن أباه أعتق عبدا لم يَجُزْ، ولم يُقَوّمْ عليهِ»[1]. أي لم تجز شهادته ولا إقراره، كما في نص **المدونة**[2] ولا يقوم عليه، إذ ليس هو المعتق، وجميع العبيد رقيق زاد في **المدونة**، ولو ترى الميت عبدا أسود اقتسمهم الورثة، فوقع العبد في سهم المقر عتق عليه بالقضاء هـ[3].

والنازلة أيضا لو اقتسم الورثة[4] فناب أحدهم عقار، فباعَه من آخر فأقر المشتري بأنه حبس من أبيه مثلا لزمه، وكذا لو نابه في نصيب فأقر بذلك. ولقائل أن يقول: يحمل كلام ابن فرحون على ما إذا كان المقر من جملة المحبس عليهم على دعواه، وأما إذا كان المحبس عليه مسجدا أونخيلا، كما في النازلة، فلا ينبغي أن يختلف في أنه مقر في نصيبه، شاهد في نصيب غيره، إذ لا تهمة تلحقه حتى يقال: يتهم على إسقاط الحيازة، والله أعلم.

وبعد كتابي هذا وجدت في الدر النثيرعلى أسئلة أبي الحسن الصغير، للإمام ابن هلال ما نصه: «نص غير واحد من الموثقين أنه يجوز أن يشهد بعض الأعيان والأعقاب بتجريد حبس قد مات شهوده أو ذهب عَقدُهُ، وينفذ الحبس بإشهاده، ويلزم المُشهدَ وورثته التحبيسُ، وتسجل غلته في الوجوه التي ذكرها المشهِدُ، وكذا يجوزإقرار جميع الورثة به، ينفذ على حسب ما أقروا[5] به إلا أن ظهر كتاب الحبس، وفيه خلاف ما أقروا به؛ فينتقض الإقرار، ويعول على ما في الأصل، وإن شركهم أحد في الميراث لم ينفذ إقرارهم إلا في حصصهم فقط، ويكون نصيب المنكر مطلقا، وإنما عليه اليمين أنه لا يعرف ذلك، وليس له رد اليمين. وحكى الباجي في *168* وثائقه قولين بوجوب

1 – خليل، **مختصر**، 220.

2 – **المدونة**، 7/ 364.

3 – لم اقف عليه في **المدونة**.

4 – ساقطة من ج.

5 – في د "أقر".

اليمين عليه. وفي **نوازل** ابن الحاج: إذا أقر الرجل[1] في ملك بيده أنه حبس من قبل أبيه عليه وعلى عقبه فإن علم الملك فيها له أو لأبيه فلا ينتفع بالإشهاد حتى يحوزها ويخرجها من يده، لأنه يتهم أن يقصد إبطال الحيازة، ويجعل من عنده دون حيازة ليبقي يده عليها حتى يموت، وإن جهل ملكها له أو لأبيه فإشهاده بالتحبيس جائز حتى يظهر خلافه، مثل أن يظهر في كتاب التحبيس خلاف ما أقر به، فينتقض الإقرار، ويرجع إلى ما في كتاب التحبيس. انتهى كلام ابن هلال. ونقل في **المعيار** كلام ابن الحاج برمته، وفي **النوازل الشفشاونية** عن سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي نحوه وزاد.

قلت: الإقرار بالحبس إنما يمضي فيما جهل أصله، وأما ما علم ملكه للمقر فلا يثبت فيه الحبس بإقرار الحائز، إلا فيما لم يعرف ملكه للمقر، أما ما علم ملكه للمقر، فلا يلزم فيه الحبس بمجرد الإقرار، بل لا بد من الحوز، هـ. والحمد لله، ما أصلناه من أن محل[2] كلام ابن فرحون وابن الحاج وغيرهم، القائلين بإبطال الإقرار، مع ثبوت الملكية لمن أُدعِي له التحبيس محله[3]، حيث يظهر لتهمة إبطال الحيازة أثر[4] ما إذا لم يظهر ذلك في النازلة، فلا شك أن[5] نصيب المقر حبس، وهو نص ابن هلال أيضا. نعم يبقى النظر في نصيب غيره من المنكرين، فظاهر ابن هلال في قوله: ويكون نصيب المنكر مطلقا، وعليه اليمين إن المقر لا يكون شاهدا عليه، ويجب حمله على ما إذا لم تتم الشهادة لعقد التعدد؛ أو يقال: هذه الشهادة لا يمكن إتمامها، لافتقارها ليمين القضاء، إذ هي دعوى في مال ميت، فانظره.

وأنشدني القاضي المذكور لبعضهم، في العز بن عبد السلام، وقد جرى ذكره، وأنه لا ينعقد إجماع بدونه. (من الكامل)

---

1 – في د "أحد".

2 – ساقطة من د.

3 – ساقطة من د و ج.

4 – ساقطة من د.

5 – في د "له".

يَا دَهْرُ بِعْ رُتَبَ الْمَكَارِمَ وَالْعُـلاَ ... بَيْـعَ التَّبَـاتِ[1] رَبِـحُ أَوْ لَمْ تَـرْبِـحِ
قَدِّمْ وَأَخِّـرْ مَنْ تَشَاءُ مِنَ الْوَرَى ... مَاتَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ مِنْهُ تَسْتَحْيِـي

[قلت: والبيتان في **طبقات** ابن السبكي : (من الكامل)

يَا دَهْرُ بِعْ رُتَبَ الْمَعَالِي وَالْعُـلاَ ... بِهِ السَّمَاحُ رَبِحْتَ أَوْ لَمْ تَـرْبَـحِ[2]
قَدِّمْ وَأَخِّرْ مَنْ تَشَاءُ وَتَشْتَـهِـي ... مَاتَ الَّذِي قَدْ[3] كُنْتَ مِنْهُ تَسْتَحْيِـي

قال أتى بهم في أبيات بعضهم قاضي القضاة عبد الوهاب بن بنت الأعز هـ][4].

ومن المعنى، ما أنشده بعضهم لما مات المعتمد بن عباد: (من البسيط)

انْفُضْ يَدَيْكَ مِـنَ الدُّنْيَا وَسَاكِنِهَـا ... فَالأَرْضُ قَدْ أَقْفَرَتْ وَالنَّاسُ قَدْ مَاتُوا[5]

169 ولما جرى بيننا كلام في «لَوْ»[6] الامتناعية، وما جرى من كلام فيها [عند البيانيين، وخلاف سعد الدين التفتزاني للإمام ابن أبي عمرو بن الحاجب فيها][7] قال علماء تونس اليوم على نصرة ابن الحاجب حتى ألف بعضهم فيها تأليفا سماه: **سواد العين والحاجب في الانتصار لابن الحاجب**، وآخر: **غيرة المسكين في الانتصار لسعد الدين**، قال: ومن إنشاده فيه،

قوله: (من الطويل)

وَلَوْ أَنَّ لَوْ عَـذْرَاءُ فَـوْقَ مِنَصَّـةٍ ... مَا كُنْتَ مُنْتَظِرًا لِكَشْفِ خِمَارِهَـا
وَلَـوْ أَنَّهَـا بَيْنَ الْحَدَائِـقِ نَخْلَـةٌ ... قَصُرَتْ يَدِي عَنْ نَيْلِ بَعْضِ ثِمَارِهَا
وَهِيَ الَّتِي فِي الْغَايَةِ[8] الْقُصْـوَى وَلَـوْ ... رَكَضَـتْ جِيَادُ الْخَيْـلِ فِي مِضْمَارِهَا

---

1 – في ح "البتات".

2 – في **الطبقات**. . .، يا دهرُ بِعْ رُتَبَ المعالي بَعدَهُ *** بَيعَ السَّماحِ رَبِحْتَ أمْ لمْ تربَحِ.

3 – ساقطة من د و ج.

4 – ساقط من د و ج.

5 – البيت أورده المقري في **نفح الطيب**، 4/ 222

6 – ساقطة من د.

7 – ساقط من د.

8 – في د "غاية".

حَجَبَتْ حِجَا ابْنِ الْحَاجِبِ الْعَلَمِ الذي رَجَعَتْ إِلَيْهِ كِبَارُهَا بِكِبَارِهَا
وَإِذَا يَفُوقُ السّعْدَ نُورُ جَرِيدَةٍ خَفِيَتْ وَلَوْ بَرَزَتْ كَشَمْسِ نَهَارِهَا

ولما جرى ذكر **القاموس** و**الصحاح**، بالغ في مدح الثاني، فقلت: في الأول ما في الثاني وزيادة، مع كثير من التغيير[1]، فقال: الفضل للمتقدم، وإن قيل في الأخير: (من الرجز)

مَدمَدَّ بَحْرُ الدّينِ مِنْ أَنْفَاسِهِ مِنْ بَحْرِ بُكْرَتِهِ لَنَا الْقَامُوسُ
فَغَدَتْ صِحَاحُ الْجَوْهَرِيْ كَأَنَّهَا سِحْرُ الْمَدَائِنِ حَتّى القَامُوس[2]

والبيتان للأديب نور الدين علي بن محمد الشافعي المكي، أنشدهما لما قرأ **القاموس** على مؤلفه، قال: وأعرف للعارف الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الفاسي معارضتها، في مدح الجوهري، ولم أستحضرهما الآن.

وحكى لمعن بن عمر [؟] أن ثابتا البناني قال: «يارب إني أحب صلاة النافلة في الدنيا، فلا تحرمني منها في البرزخ»؛ قال: فيؤتى إليه في قبره وهو يصلي. ولما حكيت عن المناوي، في شرح **التحفة** أن الحافظ ابن حجر شرح البخاري شرحا كبيرا سماه: **هدي الساري إلى صحيح البخاري**، ولما أكمله أنفق في وليمته كذا وكذا دنانيير، وعجز الناس عن مطالعته، فاختصره وسماه: **فتح الباري** الموجود الآن بأيدي الفانية[3]. قال: هذه التسمية الثانية سبقه بها شيخه مجد الدين صاحب **القاموس**، إذ بها سمى شرحه على البخاري.

فقلت: إن ثبت فهو من توارد الخواطر. وبقي شرح المجد في تبييضه، لم يكتمل ولم يظهر حتى شرع ابن حجر في شرحه، ولا يظن به السرقة، إذ جلالته في العلوم وريادتها تأبى ذلك، على أن ما في ما حكاه المناوي نظرا، مع ما في أوائل شرح القسطلاني على البخاري، فليراجع.

وأخبر أن الحافظ السيوطي لما ادعى بمصر الاجتهاد المطلق، أنكر عليه علماء *170* عصره، منهم القسطلاني، شارح الصحيح، فانعزل منهم

1 - في خ "التقصير".
2 - البيت ساقط من د وفي طرة ج وخ.
3 - في ح "الكافة".

بخلوة على ساحل النيل، فذهب نحوه القسطلاني فدق الباب، فقال السيوطي: من هذا؟ فقال: فلان ابن فلان، جاءك متنصلا تائبا فاقبله، فقبله.

قلت: هذا ما يستدل به على جلالة القسطلاني وديانته. وأخبر أنه رأى بمدينة تونس **شرح ابن المرابط الدلائي، على التسهيل** في سفرين من الكبير، وأن باشا تونس- باي - بنى شرحه عليه الموجود اليوم، ودفعه بعد تبييضه لجماعة من علماء بلده، منهم الشيخ المكودي التونسي، رحمه الله تعالى، فنقحوه فعاد شرحا جليلا. قلت: وقد أخبرنا أن شرح ابن المرابط المذكور بالخزانة الناصرية في أوراق، إلا أننا لم نظفر به، بعد البحث التام، ولعله من الكتب التي سال بها الوادي. ووقفت عليه بثغر آزمور، بدكالة المغرب، في أربعة أسفار، وهو شرح جامع مانع، كثير الأبحاث والآداب، كثيرا ما يعتنى بالشواهد، مولع بالتنقير على من قبله من شروح[1] الكتاب، سيما الدماميني، حتى كأنه حاشية عليه. ولما لاحت لي نجابة الرجل وديانته، استجزته لي، ولشيخنا أبي العباس أحمد بن الحسن بن علي - سبط الشيخ ابن ناصر- أدام الله بقاءه وسدده وأعانه. ونص ما كتبه بخطه، ونحن على جناح طائر، من ربعه؛ بعد البسملة والحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ، يقول أبو بكر بن أحمد بن تامر، عرف [ب]قنون؛ نزيل منزل قابس وقت التاريخ، غفر الله له[2] جِده وهزله، وأصلح قوله وفعله، أنه قد سألني الإجازة السيد الفاضل والجهبذ الكامل والبحر الذي لا نهاية له ولا ساحل، الحَجْحَاج[3] الحِلاحل[4] سيدي محمد بن عبد السلام بن سيدي عبد الله بن محمد بن القطب الكبير والغوث الشهير سيدي مَحمد بن ناصر الدرعي، نفع الله تعالى الجميع به وبأمثاله آمين، وكما سأل أيضا أن أجيز معه سيدي أبي العباس أحمد بن الحسن بن علي، حفيد الشيخ ابن ناصر المذكور، فأقول: إني قد أجزت الشيخين المذكورين، فيما صح لي روايته بشرطه المعتبر عند أهله، داعيا لهما

1 - في د "شرح".

2 - ساقطة من د.

3 - في ح "المحجاج" وفي د "الحجاج".

4 - في د "حل".

بما دعا به لي مشايخي، نفع الله بهم العباد، في سائر البلاد، الحاضر والباد، حسبما أجازني به ذلك الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله السوسي نزيل تونس، رحمه الله، ونص إجازته: «يقول الفقير إلى الله تعالى، عبد الله بن محمد السوسي نزيل تونس- عام التاريخ الآتي- أنه قد سألني الإجازة: الأخوان الشقيقان[1] الفاضلان المتدينان، سيدي أبو بكر*171* وسيدي عمرو، ابنا المرحوم أحمد بن تامر أقنونو[2]، فيما قرآه علي في كل ما صحت لي روايته، مما هو في كتب إجازتي عن مشايخي، رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم، من مقروء ومسموع، وأصول وفروع، ومنقول ومعقول، ليحوز[ا] فضيلة الإسناد المتصل، المخصوص بهذه الأمة المشرفة، كما نص عليه الأئمة، ولولا ذلك لما صح لمثلي أن يجاز فضلا عن أن يجيز، لكن بالسبب المذكور تساهل الناس في الإجازة، لتبقى سلسلة الإسناد المتصلة. فقلت وبالله أستعين: قد أجزت الشيخين المذكورين في جميع مروياتي ومقروآتي ومسموعاتي، لما أنهما[3] أهل[4] لذلك، سلك الله بنا وبهم أحسن المسالك، وقد لزماني مدة مديدة في الفقه وغيره، مما أتعاطاه من تربية[؟] وغيرها؛ فأنست منهما التحصيل، أعاننا الله وإياهما على نشر العلم وبثه لأهله، وكفانا وإياهما شر أنفسنا وشر أعمالنا، وشر كل ذي شر، آمين.

وقد أخذت من العلوم ما قسم لي عن مشايخ أجلة، منهم أبو إسحاق سيدي إبراهيم بن عبد الله الجمني، وسيدي إبراهيم بن موسى الفيومي الأزهري، رحمهما الله تعالى آمين، ونفعنا بهما آمين، كلاهما عن الشيخين الجليلين: أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله الخرشي، والشيخ سيدي عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، بأسانيدهما[5] المعروفة. وممن أخذت عنه الشيخ سيدي منصور المنوفي الضرير الشافعي، رحمه الله تعالى، أجازه في مروياته،

1 - في ح "شقيقان".

2 - في ح "قنون".

3 - في خ "أنها".

4 - ساقطة من د.

5 - في د "باسانيدهم".

وختم على الإجازة التي أملاها بخاتمه، ومنهم الشيخ أبو العز اللخمي الشافعي القاهري، حضرت عنده جملة صالحة من **صحيح البخاري**، ودفع لي كراسا اشتمل على إجازاته، وكتب لي الإجازة بخطه وختمها بخاتمه، ومنهم الشيخ سيدي عبد الله بن سالم البصري المكي الشافعي، عام سبعة وعشرين ومائة وألف [أجازني في الكتب الستة، وغيرها من كتب التفاسير، وغير ذلك مما اشتمل عليه كتاب إجازاته عام سبعة وعشرين ومائة وألف][1] بمكة المشرفة.
و لنكتف من مشايخي بذكرهؤلاء؛ ولنسق سندي لصحيح الإمام البخاري، رحمه الله تعالى، تبركا به، فأقول وبالله أستعين: أجازني الشيخ عبد الله بن سالم المذكور، في جملة ما أجازني في صحيح الإمام البخاري الذي يرويه عن الشيخ محمد البابلي، عن الشيخ سالم محمد السنهوري، عن الشيخ محيي الدين محمد الغيطي، عن القاضي زكرياء الأنصاري، عن الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، صاحب **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، عن الأستاذ إبراهيم التنوخي، عن أبي *172* العباس أحمد بن أبي طالب الحجار، عن الحسين بن المبارك الزبيدي – بفتح الزاي – الحنبلي، عن أبي الوقت عبد الأول [التنجزي][2]، عن الداوودي، عن أبي محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، عن محمد بن يوسف بن مطر الفربري، عن أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجعفي – رحمه الله تعالى – وجميع المشايخ المذكورين، وأعاد علينا من بركاتهم آمين. قاله وكتبه مكررا اسمه، أبو بكر المذكور، بمنتصف شعبان من عام ستة وتسعين ومائة وألف، والله تعالى الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، هـ.

وأخو شيخنا القاضي المذكور، وهو سيدي عمرو، أسن من شيخنا أبي بكر، اجتمعت به، وهو رجل كثير الصمت والاعتزال عن الخلق، مشار إليه بالدين والصلاح، نفعنا الله تعالى بالجميع آمين.

وأنشدني شيخنا المذكور لنفسه، يخاطب شيخه السوسي المذكور لما أراد الانتقال من تونس لبلدته قابس: (من الكامل)

1 – ساقط من د.
2 – كذا بالأصل.

إنْ كَانَ تَرْحَالي وَجِدَّ رِكَابِي ... في السَّيْرِ حَثًّا[1] قَاصِد الأحْبَابِ
وَتَوَجُّهِي لأَمَاكِنَ فِيهَا ثَوَوْا ... وَمَعَاهِدَ فِيهَا عَهِدْتُ شَبَابِ[2]
وَمَنَازِلَ أَلِفْتُهَا زَمَنَ الصِّبَا ... تذْكَارُهَا عِنْدِي جَلاَ الأَوْصَابِ
اصْرًا[؟]لَنَا شَوْقاً إِلَيْهِ مُبْرِحٌ ... شَوْقَ الصَّدَى إِلَى زُلاَلِ شَرَابِ
لَكِنْ يُكَدِّرُ مَا صَفَا مِنْ وِرْدِه ... حَتَّى يَصِيرَ طَعْمُهُ كَالصَّابِ
تَرْكِي لإخْوَانٍ هُنَا أَلِفْتُهُمْ ... وَفِرَاقِ بَحْرِ الْعِلْمِ وَالآدَابِ
الْعَالِم الْعَلَمُ الْجَلِيلُ الْمُرْتَقَى ... غَايَاتِ سَبْقٍ لَمْ تُنَلْ بِطِلاَبِ
بَلْ هِيَ فَيْضٌ مِنْ نَدَى مَنْ خَصَّهُ ... بِجَمِيلِ أَخْلاَقٍ وَلِينِ جَنَابِ
وَبَسِيرَةٍ مَنْ رَامَ يَحْذُو حَذْوَهَا ... وَجَدَ السَّبِيلَ لَهَا أَشَقَّ طِلاَبِ
فَتَقَاعَسَتْ عَزَمَاتُهُ عَنْ نَيْلِهَا ... إِذْ لَمْ يَجِدْ سَبَبًا مِنَ الأَسْبَابِ
عَلَمُ الهُدَى السُّوسِيُّ عَبْدُ اللّه ... مَنْ ضَمَّ شَمْلَ الْعِلْمِ بَعْدَ ذَهَابِ
أَحْيَا رُسومًا مِنْهُ كَانَتْ قَدْ عَفَتْ ... وَخَفَتْ مَعَانِيهَا عَلَى الطُّلاَّبِ
وَتَسَتَّرَتْ وَأَبَتْ إِجَابَةَ خَاطِبٍ ... مَازَالَ عَنْهَا سَاتِرَ الْجِلْبَابِ
هُوَ الْوَجِيهُ وَمَنْ يُرِدْ نَيْلَ الْهُدَا ... وَطَرِيقَ رُشْدٍ جَاهِلاً لِلْبَابِ
يَقْصِدْ لِعَلْيَاهُ وَيُحْطِطْ رَحْلَهُ ... في أَمْنِ سَاحَاتٍ لَهُ وَرِحَابِ
وَأَنَا الَّذِي دَهْرِي[؟] زَمَانِي صَرفُ ... وَقَضَى عَلَيَّ بِنَقْلَةٍ وَذَهَابِ
وَأَرَاحَنِي عَنْ زُهُو رَوْضٍ[؟] عُلُومه ... وَنَأَيْتُ عَنْ طَوْدٍ رَفِيعِ جَنَابِ
173 لَكِنْ وَإِنْ شَطَّتْ بِنَا عَنْهُ النَّوا ... وَبَدَتْ دُمُوعِي هَاطِلاً كَسَحَابِ
فَلَهُ بِقَلْبِي مِنْ صَمِيمِ مَحَبَّةٍ ... مَا لَيْسَ دَعْوَى مُدَّعٍ كَذَّابِ
وَلَئِنْ نَسِيتُ فَلَسْتُ أَنْسَى سِرًّا ... أَرْجُوهُ غَوْثاً عِنْدَ كُلِّ مُصَابِ
مَنْ مِنْهُ وَافَتْنِي أَيَادِي جَمَّةٌ ... لاَ تُسْتَطَاعُ بِعِدَّةٍ وَحِسَابِ
فَلاَ شَكَرْتُهُ مَا حَيِيتُ وَإِنْ مِتُّ ... يَشْكُرْهُ عَظْمٌ لِي رَهِينُ تُرَابِ
يَا عُمْدَةَ السَّالِكِينَ وَقُدْوَةً ... لِلْعَالَمِينَ بِسُنَّةٍ وَكِتَابِ

---

1 – في د "حاشا".

2 – في د "عهد لشباب".

هَذاأَبُو بَكْر ببَابِكَ وَاقِفٌ مُسْتَسْلِمٌ وَمُقبِلُ الأَعْتَابِ
يَرْجُو رِضَامِنْكُمْ بِغَيْرِ عِدَّةٍ إنْ عَضَّهُ الدَّهْرُ الْخَؤُونُ بِنَابِ

قال : فأمر الشيخ ولده الأكبر سيدي محمدا السوسي – به لقب – أن يجيبني، فأجاب رحمه الله تعالى بما نصه لما اعترى والده مرضٌ بعينه فكُفّ بعدُ، انتهى (من الكامل)

يَامَنْ يُجَهِّزُ لِلرَّحِيلِ شئونَه عَنَّاوَقَدْرَامَ الرَّحِيلَ لِقَابِسِ
أَوْرَثتنَا حُزْنًا أَذَابَ قُلُوبَنَا إذْكُنْتَ نِعْمَ مُنَادِي[1] وَمُجَالِسِ
يَا نُورَ مَدْرَسَتِي وَشَمْسَ طُلاَّبِهَا لَمَّا رَحَلْتَ غَدَتْ كَلَيْلٍ عَابِسِ
كَانَتْ بِمِثْلِكَ مِثْلَ رَوْضٍ يَانِعٍ مَاأَنْ تُشَبَّهَ بِهِ الْوَرَى بِمُدَارِسِ
وَحَوَيْتَ عِلْمًانَافِعًا فَاقْصِدْ بِهِ نَفْعَ الطُّلاَّبِ لَدَى الْمَانِ الدَّارِسِ
وَرِضَى الرِّضَا عَبْدَالإِلَهِ هُوَ الْمُنَى قَدْ نِلْتَهُ فَبِذَاكَ فَلْيُتَنَافَسِ
لاَزَالَ عَوْنًا لِلَّذِي قَدْ أَمَّهُ عِنْدَالشَّدَائِدِ عُمْدَةٌ لِلْبَائِسِ
وَحَبَاهُ مَوْلاَهُ السَّلاَمَةَ وَالشِّفَا مِمَّا اعْتَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ بِاليَائِسِ

ومن جملة أحبتنا بقابس، الحاج عثمان والطالب الحاج عبد القادر ابن علي بن عبد الله الرقيقي، نسبة لزاوية بنفطة من أعمال سفاقس، وهو من ذرية الإمام الصالح سيدي بُعَكْزَيْن. وأنشدني قصيدة الإمام عبد الحق الإشبيلي لما سألته، هل أنت من سكان الحاضرة أم البادية؟ فقال: لا جعلني الله من أهل البادية: (من الطويل)

أُعَبِّرُ عَمّا كُنْتُ فِي السِّرِّ أَكْتُمُ فَإِنَّ لِسَانَ الْحَالِ عَنِّي يُتَرْجِمُ
بَدَوْتُ وَكُنْتُ قدمًا أعْرِفُ حَاضِرًا وَسُكْنَى الْبَوَادِي لاَ يَحِلُّ وَيحرمُ
تَكَلَّفْتُ سُكْنَاهَا وَكَانَ ضَرُورَةً وَفِي بَاطِنِي أمْر بِهِ اللهُ يعلَمُ[2]
ثَويتُ بِهَا مَا بين قَوْم بُيُوتُهُمْ كُهُوفٌ وَشِعَابٌ وَبَيْتٌ مُهَدَّمُ[3]

1 – ساقطة من د.
2 – البيت ساقط من ح.
3 – في خ "مروم".

حُفَاةٌ عُرَاةٌ لاَ يَحِلُّ جِوَارُهُمْ ... وَإِنْ تَخْبُرْهُمْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ مُسْلِمُ

حَقِيقٌ عَلَى مَنْ كَانَ مَثْوَاهُ بَيْنَهُمْ ... يُلاَمُ وَيُجْلَى فِي الْبِلاَدِ وَيُشْتَمُ

خِيَارُهُمْ الأَشْرَارُ مِنْهُمْ فَإِنْ يَكُنْ ... لِفِرْعَوْنَ كُفْرٌ هُمْ هُمْ مِنْهُ أَقْدَمُ

174 دُلِلتُ عَلَيْهِمْ خَيَّبَ اللهُ سَعْيَهُمْ ... فَلاَ عَالِمَ مِنْهُمْ وَلاَ مُتَعَلِّمُ

ذِئَابٌ كِلاَبٌ فِي جُلُودِ ثَعَالِبَ ... وَمَسْكَنُهُمْ كُلُّ حَرَامٍ وَمُعْدَمُ

رِيَاضَتُهُمْ لاَ تُسْتَطَاعُ وَإِنَّمَا ... يُحَرِّضُهُمْ سَوْطٌ وَسِجْنٌ وَمَغْرَمُ

زَنَادِقَةٌ فِي طَبْعِهِمْ وَبَهَائِمٌ ... وَإِنْ قُلْتَ كُفَّارٌ فَقَوْلُكَ أَقْوَمُ

طَوَاغِيتٌ وَالطُّغَاةُ فِيهِمْ قَدِيمَةٌ ... إِذَا مَا دُعُوا لِلْخَيْرِ عَنْ قَصْدِهِ عَمُوا

ظَنَنْتُ بِهِمْ ظَنًّا وَجَدْتُ خِلاَفَهُ ... فَلاَ عَالِمَ منهمْ عليه يُسَلِّمُ

كُسَالَى عَنِ التَّوْفِيقِ صُمٌّ عَنِ الْهُدَى ... وَهُمْ فِي ضَلاَلٍ غَافِلُونَ وَنُوَّمُ

لِبَاسُهُمُ الزُّنَّارُ وَالسُّحْتُ أَكْلُهُمْ ... صَبِيٌّ بِزُنَّارٍ وَشَيْخٌ مُسَلْهَمُ

مَسَاجِدُهُمْ لاَ تعمرُ بِصَلاَتِهِمْ ... وَيُعْجِبُهُمْ مِنْهَا الَّذِي يُتَهَدَّمُ

نَسُوا اللهَ فِي الدُّنْيَا فَأَعْمَى قُلُوبَهُمْ ... وَوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ يَجُورُ وَيَظْلِمُ

صَغَتْ لِنَوَاقِيسِ النَّصَارَى عُقُولُهُمْ ... وَمَهْمَا رَأَوْا أَهْلَ الصَّلِيبِ تَبَسَّمُوا

ضِيَافَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ لِقُدُومِهِمْ ... دَجَاجٌ وَبَيْضٌ وَالْمُدَامُ الْمُحَرَّمُ

عَوَائِدُهُمْ تَرْكُ الصَّلاَةِ وَعِنْدَهُمْ ... بِأَمْرِ النِّسَاءِ الْفَاجِرَاتِ تَهَمُّمُ

غَبَتْ[1] عَلَى طُولِ الزَّمَانِ بِأَمْرِهِمْ ... عَلَى الَّتِي مِنْهُمْ سَقِيمٌ وَأَسْقَمُ

فَقِيهُهُمْ مَا يَعْتَنُونَ بِأَمْرِهِ ... وَإِنْ جَاءَ زَفَّانٌ يُعَزُّ وَيُكْرَمُ

قَرِينُهُمْ الشَّيْطَانُ حَضَّهُمْ عَلَى ... رُكُوبِ الْمَعَاصِي فَهُوَ إِثْمٌ وَآثِمُ

شُيُوخُ الْقُرَى لاَ يُنْصِفُونَ إِمَامَهُمْ ... وَفِي أُجْرَةِ الشَّرْطِ يَجِدُّ وَيُحَتَّمُ

هُمُ الْغَافِلُونَ الظَّالِمُونَ نُفُوسَهُمْ ... فَمَا خُلِقَتْ إِلاَّ إِلَيْهِمْ جَهَنَّمُ

وَعَهْدُهُمْ غَدْرٌ وَوُدُّهُمْ قِلَى ... وَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا مُسِيءٌ وَمُظْلِمُ

لأَنْفُسِهِمْ لاَ يَمْلِكُونَ شَفَاعَةً ... فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا جَنَوْهُ وَأَظْلَمُ

يَقِينًا لَقَدْ حَقَّ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ ... وَلَكِنْ رَبَّ الْعَرْشِ يَعْفُو وَيُكْرِمُ

---

1 - في ح "غلبت".

فَهَذَا خِطَابِـي لِلأَئِمَّةِ بِالْقُـــرُى خِطَابٌ نَصِيحٌ وَالْمُوَفَّـــقُ يَفْهَـمُ

وحضرنا صلاة الجمعة بالمنزل، مؤخرين[1] الجمعة على العادة الذميمة إلى قرب العصر، [ف]خالف الخطيب السنة في تطويلها وتقصير الصلاة، وفي[2] الوقوف الزائد على ثلاث درج. ووافق اليوم النصف من شعبان فشحن الخطبة بالأحاديث الموضوعة، و مما يتلقف من الأساطير في النصف من شعبان، ويذكرون المعقبات جهرة على لسان واحد، وغيرها من الأذكار، على ما جرت به عادة أهل هذه الأقطار.

وأما أعراب بادية قابس*175* فهم في الغاية من العتو والفساد وقطع السبيل، بدد الله شملهم وقطع دابرهم، وجعل في تعداد من هلك من الطغاة أكابرهم وأصاغرهم، لا يرون حرمة لغريب ولا لبعيد أو قريب.

وقديما قال فيهم أبو عبد الله الحنفي اللبيب : (من الطويل)

خُلُوٌّ إلَى التَّرْحَالِ طَـالَ نُزُوعُهَا لَهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمَسِيرِ نَوْعُهَـــا
إلَى أَنْ أَحَلَتْنِي لِحِينِـي بِقَابِــسَ فَصَارَ مِنِّي ضَنْكُ الْحِجَازِ رُجُوعُهَا
أُعَايِنُ فِيهَا كُلَّ أَسْـودَ كَالِـــحٍ يَلومُ عَلَى الإِسْكَانِ مِنْهُ رَجِيعُهَـــا
بِمَجْلِسِ قَاضٍ يَدَّعِي عِلْمَ شَرِيعَـةٍ وَيَعْزُبُ عَنْهُ أَصْلُهَا وَفُرُوعُهَـــا
وَلَوْلاَ بَنُو الأَفْضَالِ مِنْ آلِ مُسْلِـمٍ فَإِنَّ لَهُمْ عِنْدِي يَدًا لاَ أُضِيعُهَـــا
سَلَكْتُ حُسَامَ النَّحْرِ فِيهِـمْ لأَنَّ لِـي بِهِ ضَرَبَاتٍ لاَ يَقِلُّ صُدُوعُهَـــا

وخصوصا الظلمة المحاربين المعروفين اليوم بابن يزيد. وقديما قال فيهم ابن بطوطة: «ثم خرجنا من قابس قاصدين طرابلس، وصحبنا[3] في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس من عربان بني يزيد[4]. وكان بالركب قوم رماة فهابهم العرب و تحامت مكانهم»[5]، هـ

1 – ساقط من د.

2 – ساقطة من د.

3 – في د "صبحنا".

4 – في **رحلة ابن بطوطة** "أو يزيدون".

5 –ابن بطوطة، **رحلة**، دار التراث، بيروت، 1388/ 1968، ص 15.

ذكر خروجنا من قابس آمين المَهَمَه العَابِسْ

ثم ارتحلنا بعدما حلت النافلة، وخرج في وداعنا جماعة من الطلبة، منهم سيدي عبد الرحمان المجذوب، وسيدي صالح بن أحمد، ورجعوا بعد أميال، فظللنا يوما نمشي في مداشر ذوات النخيل والمياه، غالبها للحمارنة منها زريق، وكتّانة، ومارثْ، وزاوية سيدي سلام أبو غرارة - به شهر - للباسه للغرارة زهدا على ما قيل. وزرناه كمن[1] بالصالحين من أسلاف الحمارنة بعَرّام، ولما تعديناه حططنا على واد الدوائر، وماؤه كثيرعذب، ومنه يحمل الماء لمرحلتين بعده، وهو آخر المياه الجارية، إلى النيل بمصر. وقول الشيخ ابن ناصر: «آخرها قابس»، لعل هذه البلدة من قابس، وعمالته وإياها قصد والله أعلم؛ على أنه سيأتي في عمالة طرابلس ماء مجهر جاري على طريق الحاج منها واد الرمل، ومنها واد المسير، ومنها لغام، وبرقة، أيها على طريق الجبل الأخضر نحو ذلك، فليراجع. وبه تبطل دعوى القائل إن آخر الماء الجاري ماء قابس، ولا يرى الجاري إلى النيل. ثم منه مررنا على ماء أمزضر[؟] حار مالح، ثم بمعطن سيدي مخلوف كذلك، ثم واد السعدان ثم واد السمار، وبه آبار ماؤها مر، تاركين طريق أبي غرارة يسار الناحية البحرية، وبه يقع التسوق غالبا *176* مع أهل جربة[2] لقربه من جزيرتهم. ومررنا أيضا بسبخة في عرضها أكثر من فرسخ وبها سئلت عن حديث: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، هل صح عن النبي ﷺ فيه شيء؟ فأجبت إذ ذاك بما علق بذهني من أنه حديث موضوع، ونازعني إذ ذاك بعض طلبة الركب في ذلك وزعم صحته، ولم يأت منا أحد بدليل. وبعد ذلك وجدت الحافظ السخاوي **في مقاصده** أطال في ذلك. ونصه على اختصار حديث: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، أخرجه الحاكم والطبراني[3] وأبو الشيخ[؟] وغيرهم،

---

1 - كذا في ح، وفي باقي النسخ"ومن"، ولا معنى لهما معا.

2 - جربة: جزيرة في بحر إفريقية (المتوسط) أقرب بلاد إليها قابس وطولها ستون ميلا من المغرب إلى المشرق. انظر: الحميري، **الروض**...، 158 - 159؛ الحموي، **معجم البلدان**، 2/118.

3 - **المعجم الكبير** للطبراني: ولفظه، " قال صلى الله عليه وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه" رقم 11061، 11/65.

كلهم من حديث أبي معاوية الضرير، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعا، بزيادة «فمن أتى العلم فليأت الباب»، ورواه الترمذي في **المناقب**، من جامعه وأبو نعيم[1] وغيرهما، من حديث علي مرفوعا بلفظ، دار بدل مدينة. قال الدارقطني عقبه: حديث مضطرب غير ثابت، وقال الترمذي: أنه منكر، وقال البخاري: ليس له وجه صحيح، وقال ابن معين، فيما حكاه الخطيب: كذب لا أصل له، وقال الحاكم عقب الرواية الأولى: صحيح الإسناد، وأورده ابن الجوزي من هذين الوجهين في **الموضوعات**[2]، ووافقه الذهبي على ذلك. وقال ابن دقيق العيد: هذا الحديث لم يثبتوه، وقيل: إنه باطل بتوقفه، وبه صرح العلائي قائلا: عندي فيه نظر. وأبو معاوية ثقة يحتج بافراده[؟] كابن عُيَينَة[3] وغيره، فمن حكم عليه بالوضع فقد أخطأ، وليس هو من الألفاظ المنكرة التي تأباها العقول بل هو كحديث: «أرحم أمتي أبو بكر»[4]، فليس هذا الحديث بكذب.

أخرج الديلمي بسند ضعيف عن ابن عمر مرفوعا: «علي بن أبي طالب باب حطة[5] فمن دخل فيه كان مؤمنا، ومن خرج منه كان كافرا»[6]. و من حديث أبي ذر رفعه: «علي باب علم ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي، حبه إيمان، وبغضه نفاق، والنظر إليه رأفة»[7]. ومن حديث ابن

---

1 – أبو نعيم، حلية الاولياء، 1 /61 و ما بعدها.

2 – عبد الرحمان بن الجوزي، **كتاب الموضوعات**، ضبط وتقديم وتحقيق عبد الرحمان محمد عثمان، الناشر محمد عبد المحسن، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1386/ 1966، 1/ 352 – 353.

3 – سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، ولد بالكوفة سنة 107 هت/725 م وتوفي بمكة سنة 196 هـ/811 م. ترجم له: ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1984، 4/ 117 – 122.

4 – وقفت على الحديث عند أبي يوسف السفوري، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق خليل المنصوري، دار الكتب العلمية، .بيروت، 1419 /1999، 1/ 257.

5 – حطة: قال تعالى ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، البقرة: 58. أي حط عنا أوزارنا. انظر: **كنز العمال** رقم 32910، 11/ 276.

6 – انظر: عبد الرحمان بن الجوزي، **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، .بيروت، الطبعة الأولى، 1403 هـ رقم 384، 1/ 241.

7 – م. س: 11 /282.

عباس رفعه: «أنا ميزان العلم، وعلي كفتاه، والحسن والحسين خيوطه»[1]. وأورده صاحب **الفردوس**[2]، وتبعه ابنه بلا إسناد. وعن ابن مسعود رفعه: «أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها، وعمر حيطانها، وعثمان سقفها، وعلي بابها»[3]. وعن أنس مرفوعا: «أنا مدينة العلم وعلي بابها ومعاوية حلقها»[4].

وبالجملة، فكلها ضعيفة، وألفاظها ركيكة، وأحسنها حديث ابن عباس، بل هو حسن. وقد روى أيضا الترمذي والنسائي وابن ماجة *177* وغيرهم من حديث حبشي بن جنادة مرفوعا: «علي مني وأنا من علي لا يؤدي عني إلا علي».[5] وليس هذا كله مما يقدح في إجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين من بعدهم على أن أفضل الصحابة، بعد النبي ﷺ، على الإطلاق أبو بكر، ثم عمر رضي الله عنهما، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: «كنا نقول ورسول الله ﷺ حق، أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر وعمر وعثمان، فيسمع ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره»[6]. بل ثبت عن علي نفسه أنه قال: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر ثم عمر»[7]. ثم رجل آخر. فقال ابنه محمد بن الحنفية: ثم أنت يا أبتي. فقال: ما أبوك إلا رجل من المسلمين[8]. رضي الله عنهم، وعن سائر الصحابة أجمعين، هـ.

---

1 - وقفت على الحديث عند إسماعيل العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406 هـ، 1/ 236.

2 - انظر: **الفردوس بمأثور الخطاب**، رقم 107، 1/ 44

3 - وقفت على الحديث عند ابن حجر، **لسان الميزان**، تحقيق دائرة المعرفة النظامية الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، 1406/ 1986، 1/ 422؛ الفردوس، رقم 105، 1/43.

4 - **الفردوس**، رقم 108، 1/ 44.

5 - **سنن النسائي**، كتاب المناقب رقم 8147، ج 5/ 45؛ سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها رقم 119، 1/ 44.

6 - وقفت على الحديث عند ابن عبد البر، **الاستيعاب...**، دار الجيل، 3/ 1116.

7 - وقفت على الحديث عند الطبراني، **المعجم الأوسط**، رقم 2586، دار النشر، الحرمين، 3/ 91.

8 - وقفت على الحديث عند محمد آبادي، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1995، رقم 618، 1/ 237، 12/ 248

وقال نحوه في **موضوعات**[1] ابن عراق و **اللآلئ الصغرى** للإمام السيوطي. وقال القليوبي في **البدور المنورة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة**: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». هذه الجملة حسنها الحافظ ابن حجر، هـ[2]. فظاهر السخاوي في قوله: وأحسنها حديث ابن عباس، بل هو حسن. إن تحسين الحديث لم يسبق إليه، كيف وهو تلميذ ابن حجر إنما التمرد منه فينبغي أن ينسبه له إن سمعه منه، أو وقف على تحسينه، وإلا كان من شبه توافق الخواطر، وذلك أنه لما اعتبر الحديث، وما احتف به من الشواهد حكم عليه بالحسن، وإن لم يره لأحد، والله أعلم.

وقد لخص الهيتمي في هذا الحديث، أن فيه أربعة آراء: صحيح، حسن، ضعيف، موضوع. وزيف القول[3] بالوضع بما لا طائل تحته. ثم قال: وأي استحالة في أنه ﷺ يقول مثل هذا في حق علي. ثم قال: واحتج بعض من لا تحقيق عنده على الشريعة[؟] بأن علي اسم فاعل من العلو أي عال بابها فلا ينال لكل أحد، وهو بالسفساف أشبه[4].

رجوع، وسرنا، فلما تعدينا السبخة بقليل، بتنا بموضع عرف بمزارع سيدي محمد بن علي الحمدوني، وبها سوقنا قبيلة ورتنة[؟]، الذي الإمام ابن عرفة منهم، وقبيلة ابن مريم، وبعض من أهل جربة، يأتون بكثرة الفواكه، والبرانس والثياب الرفيعة البالغة النهاية في الرقة والرطوبة. وجربة هذه كبيرة لا سور لها، في جزيرة كبيرة وسط البحر، مساحتها على ما قيل: ثمانية عشر ميلا، وكلها مزرعة وأشجارها متنوعة، وفيها ستة عشر مذهبا: مذاهب الأئمة الأربعة والقوي *178* منهم فيها مذهب مالك، والاثنا عشر الباقية كلهم أهل الأهواء: إباضية، ومعتزلية وغيرهم. ولهم في هذه الأزمان شوكة عظيمة لا يقيمون لأهل السنة وزنا، هكذا حدثني بعض

---

1 - ابن الجوزي، **الموضاعات**، 1 /350 – 352.

2 - انظر، **تهذيب التهذيب** لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى 1404هـ/1984م، 6/ 285. ؛ **لسان الميزان**، 2 /122.

3 - ساقطة من د.

4 - ينتاب هذا المقطع كثير من التصحيف.

الفقهاء. فمن لازم بزاوية سيدي إبراهيم الجُمني، بها سبع سنين، وهو الفقيه سيدي محمد بن مكرم الضرير الطرابلسي، وستأتي ترجمته بعد في الكلام على طرابلس، إن شاء الله تعالى.

قال الإمام البكري في **المسالك**: «وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة وفيها بساتين كثيرة وزيوت كثيرة، وأهلها مفسدون في البر والبحر وهم خوارج، وبينهم وبين البر الكبير مجاز. وقال حنش[1] بن عبد الله الصنعاني: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتحنا[2] قرية من قرى المغرب يقال لها جربة فقام فينا خطيبا فقال: «أيها الناس أني لا أقول لكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فينا[3] يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي زرع غيره بمائه[4]، يعني إتيان الحبالى من السبي»، هـ[5].

غـــريبـــة: شاع بهذه البلاد، بل ومصر وبغيرها، وحدثنا به العلماء الثقات، أن الشيخ أبا العباس أحمد بن مَحمد بناصر، رحمه الله تعالى ورضي عنه، لما ورد هذه النواحي في بعض حجاته الأربع[6]، وكان ممن ورد عليه جماعة من المحبين من أهل جربة، وفيهم رجل محترق في الظاهر بالمحبة[7]، فبالغ في خدمة الشيخ والإسداء إليه، فلما أراد أن يتوادع معه، وهو على

---

1 - في د "حنوش".

2 - في **المسالك**، "فافتتح".

3 - في ح "فيها". وهو تصحيف

4 - الحديث في **كنز العمال** رقم 9828 عن الطبراني عن رويفع بن ثابت ؛ **سنن أبي داود**، رقم 2158، 2/ 248 ؛ **الدر المنثور**، 6/ 632. وفيه "أن يسقي ماءه زرع غيره يعني إثيان الحبالى ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها"

5 - البكري، **المسالك**. . .، 2/ 191.

6 - الحجة الأولى: سنة ست وسبعين وألف (1076هـ) صحبة والده الشيخ مَحمد بناصر وعمره تسع عشرة سنة. الثانية سنة ست وتسعين وألف (1096 هـ) وعمره تسع وثلاثون سنة، الثالثة: سنة تسع ومائة وألف (1109 هـ) وعمره اثنتان وخمسون سنة، والرابعة: سنة عشرين ومائة وألف (1121هـ) وعمره ثلاث وستون سنة. انظر: الخليفتي، **الدرة**. . .، 20 ؛ الناصري، **الروض**. . .، 198 - 203.

7 - ساقطة من د.

فرس له، والشيخ على دابته، طلب منه أن يختلي به فينعزلا عن الركب ففعل، فأسر إليه: أبلغ مني النبي ﷺ؛ وأبلغ مني أبا بكر وعمر كذا من نوع السب، ذكره صراحة إظهارا لعقيدته من التوغل في التشيع، فلعنه الشيخ ورام الفتك به، فهرب على فرسه.

ثم لما حج الشيخ وكان بالمدينة المنورة أيام زيارته، رأى النبي ﷺ في المنام وحوله الشيخان: أبو بكر وعمر، فجيء بالرجل الجربي المذكور، فقال النبي ﷺ للشيخين: دونكما صاحبكما، فقاما فقتلاه بالفعل، فاستيقظ عند ذاك الشيخ أبو العباس. ثم لما رجع ووصل هذه البلاد سأل عن الرجل فأخبره أهل بلده أنه أصبح ذات ليلة مقتولا في فراشه، لا يدري أحد من قتله، فأخبرهم الشيخ بالرؤيا، فعجب الناس من ذلك، ولا غرابة في ذلك. *179* وفيها كرامة عظيمة للشيخين، بل وللرائي، ولعله لذلك لم يخلد هذه الحكاية في رحلته، والله أعلم بصحة ذلك.

عجيبة : الشيء بالشيء يذكر والحديث شجون، ذكر السمهودي في **تاريخ المدينة**، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام نظيرة هذه الحكاية قائلا: «وفي **الرياض النضرة** للمحب الطبري، عن هارون بن عمر عن أبيه عن صواب اللمطي، شيخ خدّام الحرم الشريف، قال: كان لي صاحب يجلس عند الأمير، ويأتيني من أخباره بما تمُسّ الحاجة إليه، فبينما أنا ذات يوم إذ جاءني فقال: أمرعظيم حدث اليوم، جاء قوم من أهل حلب، وبذلوا للأمير مالا عظيما ليمكنهم من إخراج أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأجابهم لذلك، فلم أنشب[1] أن جاءني رسول الأمير[2] يدعوني، فأجبته، فقال: يا صواب يدق عليك الليلة أقوام المسجد، فافتح لهم ومكنهم مما أرادوا ولا تتعرض لهم، فقلت: سمعا وطاعة، فلم أزل خلف الحجرة أبكي حتى صليت العشاء، وغلقت الأبواب، فلم أنشب أن دُق باب السلام، ففتحته فدخل أربعون رجلا، أعدهم واحدا بعد واحد، ومعهم المساحي والمكاتل والشموع وآلات الهدم والحفر. قال: وقصدوا الحجرة الشريفة، فوالله ما وصلوا المنبر حتى ابتلعت الأرض

1 - ساقطة من د.

2 - في د "مولانا رسول الله ﷺ". وهو تصحيف بين.

جميعهم، بجميع ما كان معهم. واستبطأ الأمير خبرهم، فدعاني وقال: يا صواب ألم يأتيك القوم؟ قلت: بلى، ولكن اتفق لهم كيت وكيت، قال: أنظر ما تقول! فقلت: هو ذلك، وقم وانظر هل ترى لهم أثرا؟ فقال: هذا موضع هذا الحديث، وإن ظهر منك كان بقطع رأسك.

قال الطبري: فحكيتها لمن أثق بحديثه، فقال: وأنا كنت حاضرا في بعض الأيام عند الشيخ أبي عبد الله القرطبي[1] بالمدينة، والشيخ شمس الدين صواب يحكي له هذه الحكاية؛ سمعتها من فيه [2]، هـ.

وقد ذكرها المرجاني[3] في **تاريخ المدينة** عن والده عن صواب، إلا أنه قال: فدخل خمسة عشر، أوقال: عشرون رجلا ما مشوا إلا خطوة أو خطوتين حتى ابتلعتهم الأرض»[4]

وأغرب من ذلك ما نقله ابن النجار في **تاريخ بغداد**: وهو «أن بعض الزنادقة أشار على الحاكم العبيدي - الملعون- صاحب مصر بنقل النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر إلى مصر، وقال: متى تمَّ لك ذلك شدَّ الناس رحالهم من أقطار الأرض إلى مصر، وكانت مَنقبَة لسكانها، فأجابه الحاكم إلى ذلك[5]، وبنى قبة سماها لذلك، ثم بعث أبا الفتوح لنبش الموضع الشريف، *180* فلما وصل إلى المدينة، وعلم أهلها بما جاء به أبو الفتوح، فلما حضر وقرأ قارىء في المجلس: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾الآية[6]، فماج الناس وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومن معه، وما

---

1 - محمد بن عمر بن يوسف، أبو عبد الله الندلسي القرطبي، المتوفى بالمدينة سنة 631 هـ. انظر: محمد السخاوي، **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة، 1376/ 1957، 2/ 557.

2 - أحمد الطبري، **الرياض النضرة**، تحقيق، عيسى عبد الله محمد صانع الحميري، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1996. 1/ 372 - 373.

3 - عبد الله بن عبد المالك المرجاني، المتوفى سنة 770 هـ. انظر: السخاوي، **التحفة**. . .، 2/ 56.

4 - علي السمهودي، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، تحيقيق وتقديم قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى، 1422/ 2001، 2/ 438 - 439 (بتصرف)

5 - في **وفاء الوفا** " فاجتهد الحاكم مدة في ذلك".

6 - التوبة: 12.

منعهم إلا أن البلاد كانت لهم. فلما رأى أبو الفتوح ذلك، قال : والله أحق أن يُخشى، وما تعرض للموضع، وحصل له من ضيق الصدر والخوف من الحاكم أمر عظيم؛ فما أنصرف النهار حتى أرسل الله تعالى ريحا كانت الأرض تتزلزل من قوتها حتى دحرجت الإبل بأقتابها، والخيل بسروجها، وهلك أكثرها وخلق من الناس، فانشرح صدر أبي الفتوح، وذهب روعه من الحاكم لقيام عذره»[1].

ومن ذلك ما جرى للملك العادل[2]: رأى النبي ﷺ في ليلة ثلاث مرات، وهو يشير إلى رجلين أشقرين ويقول: أنقدني من هذين. فتجهز ووصل المدينة، فلما ظفر بهما أقرا أنهما نصرانيان في زي المغاربة، بعثهما النصارى يتحيلون على نقل الجانب الشريف، وأنهما حفرا سردابا إلى الحجرة، فأحرقهما، ثم أمر برصاص كثير، وحفر خندقا إلى الماء حول الحجرة كلها وأذيب الرصاص ومليء به، وذلك في سنة سبع وخمسين وخمسمائة[3].

رجوع، ثم ارتحلنا فمررنا بعد حل النافلة على آبار السلطان، وماؤها ليس بذاك، ومع ذلك فقد تركها الركب ولم تغن شيئا، وتركنا عن يمينها غير بعيد النبش، وماؤه قليل لابأس به. ثم مررنا على كدية بها قبور الصالحين - فيما قيل- تدعى مصلى الشيخ الصيد، وعلى النحيل - بالحاء المهملة مصغرا- وبعده من غير بعد لأهدير، ثم بجمل، وبه بتنا؛ والجميع مياه مالحة في شدة المرارة، تتجرعها الدواب، ومن بلغ حد السياق[4] من الآدمي. وبهذا المنزل توفيت سرية[5] الأمير، رحمه الله تعالى، وتركت بُنَيَّةً صغيرة من نحو سنتين.

ثم ارتحلنا فمررنا بابن قردان، وبه آثار عمارة سالفة، وآبار كثيرة مالحة مرة، بنى به الأمير التونسي بنيانا شبه مدرسة، لتعمير الموضع، إذ هو قريب من منتهى إيالته، وبه حرث كثير على المطر، ثم إن الله تعالى لم يرد

1 - السمهودي، **وفاء الوفا**، 2/ 436 - 437.

2 - نور الدين محمود بن زُنكي. انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، 2 /434.

3 - **م. س**، 2 /434 - 435.

4 - السياق : الإشراف على الموت. انظر: **لسان العرب**.

5 - ساقطة من د.

بالموضع إلا الخلا[؟] فبقي الآن يبابا، وكأن هذه الأرضين من أجل مياهها أرض مغضوب عليها. وكيف لا وقد احتف بها الخوارج من ناحية العمالة التونسية ومن الجهة الطرابلسية. قال التجاني في **رحلته** لما رجع من*181* مسلاتة[1] مريضا، وقد كان توجه للحرمين مع مخدومه فلم يتيسر له، فرجع فوجد بهذا الموضع ركبا صغيرا من الحجاج مشرقين، هلكوا كلهم عطشا. نسأل الله السلامة والعافية، وما جاءهم ذلك – والله أعلم- إلا من ضرر هذه المياه والتفريط من حملها من عزّام وما بعده من واد الداس، وإلا لو تأهبوا لسلموا لولا انقضاء آجالهم، فهذا هو برقة يحمل فيه ماء سبع مراحل والغالب السلامة، ولعل هذه المجهلة هي التي قصد الإمام العبدري في **رحلته** بقوله لما خرج من قابس مشرقا: «ثم قطعنا برية المراحل الحُمر، وهي بيداء تغري بالرواحل الضمر، على أنها أقل البوادي[2] غررا، وأخفها مؤونة وضررا، ماؤها مورود، قلما يغب[3] الورود، ولكن معالمها دوارس، ومسالكها طوامس[4]. للرمال المنهالة والرياح الروامس[5]»،[6] هـ. قلت: وإن كان ماؤها موروداً فهو على ما وصفت، وهي الآن أكثر البوادي ضررا بعد تعدي[7] الإيالة التونسية.

رجوع، وسرنا فمررنا ببنيان قديم بالحجارة والجير يقال له وِزْدِرْ، وليس هو وِزْدَرْ المشهور أهله في القديم ببيع الحجاج للنصارى، وسيأتي الكلام عليه بعد، ويقابله في البحر قلعة صغيرة يقال لها البِبَان، بناها عامل تونس، فرقاً بينهم وبين الطرابلسي، ورفعا للنزاع فيما وقع بين العمالتين من

---

1 – مسلاتة : على شاطىءالبحر المتوسط بعيد بنحو 65 ميلا عن طرابلس. انظر: الوزان، **وصف إفريقيا**، 2/101.

2 – في **رحلة العبدري**، "البراري".

3 – الغب: أن تشرب يوما، و يوما لا، أي ورد يوم، و ظمأ آخر.

4 – الطوامس: جمع طامس، و طمس الطريق: درس و امحى أثره. انظر : **القاموس**، 1/ 715.

5 – الرياح الروامس: التي تنقل التراب من بعد إلى آخر و تثير التراب و تدفن الآثار. انظرك **القاموس**، 1/ 708.

6 – العبدري، **رحلة**، 183.

7 – ساقطة من د.

أن سفن الروم تمر بهذا الموضع كثيرا، وربما انكسرت أو احتاجت إلى الماء أو الملح فيريد كل الاستفراد بها، ولتكون ملجَأ لسفن المسلمين إن أمطرهم الروم أو أضرت بهم الريح، ورفعا للنزاع بين أعراب الفريقين في البلد من أجل تقارعهم عليها، وهي إلى الآن عامرة بأناس قليلين، يجري عليهم الخراج من بيت المال. ثم بتنا بعده غير بعيد على مجرى ماء بالمقطع على رأس السبخة التي ما مثل ملحها ملح في الكثرة والجودة، ثم منه وقد وقعنا عطش شديد، وجهد جهيد، وجرت البطون وكان منها ما يكون، مما حل من ذلك الماء، وكادت النفوس أن تفيض لولا لطف الله بارئ السماء، فمررنا ببرج الملح - بناه الطرابلسي وجعل عامله يهوديا، وهو في ذلك مسيء- ووجدنا في مرساه سفنا مرسات، وقوارب موقورات بالملح مجرات، يحملها بنو الأصفر، ويخذمها ضعفة الأعراب، كل بما قدر، فما من *182* أهل الركب أحد إلا وطلب منهم جرعة من ماء لسد رمقه، ولا منهم من أعطي قطرة، أو دل عليه، ولا في بئر مع عمقه؛ فأسرع الناس في السير، في مكان عادة الإبل فيه الشرد، لما يزعمونه في خرافاتهم من أنها تسمع فهيل[1] ناقة صالح، ولا لووا على مال ولا على ولد، حتى لاحت لنا قبة بهية عن يمين الجادة، غير بعيدة ولا خفية، يدعى المقبور بها سعيد بن صالح، تقيم الأعراب به موسما، تنتهك فيه الشريعة المحمدية حرمات بالذهاب بالمخدّرات باديات مزينات، خصوصا أهل الزوارات، ومن نحا نحوهم في الديانات، فوقعنا به على آبار قليلة عذبة، فسد البعض منها الرمق، فترادف عليها الأقوام حتى لم تبق بها قطرة، فشددنا السير للزورات الغربية المندثرة وبها آبار كثيرة عذبة معينة، فحططنا بها، وجبر الله منا القلوب المنكسرة. والمحل محل السرقات، وشن الشعراء من العراة من أعراب النوائل والشرقي من الزوارات. قال التجاني: «وأما الزوارات الغربية فتسمى الصغرى وتعرف ببلد المرابطين، وهي قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع، وماؤها في غاية العذوبة، استولى الآن عليها البحر، وما العامر منها إلا النادر. وبقربها - يعني لناحية برج الملح- وزْدِر، بكسر الواو وسكون الزاي وكسر الدال المهملة، قد انمحى

1 - كذا رسمناها: ما يشبه الفاء، بعدها هاء، بعدهما ياء فلام.

رسمه وبقي اسمه[1] وتخرب أكثر البنيان الذي يحف به، ولم يبق من أهله إلا ناس قليلون، وهذا الموضع المشهور أهله ببيع من يجتاز به من الحجاج وغيرهم للنصارى، ولم تزل الأركاب تحترز إذا مرت به خوفا من أهله، وخوفهم على سرقة الرحال، فإذا جاوزوه ولم يفقدوا أحدا منهم هنأ بعضهم بعضا بذلك. وكان هذا الفعل كثيرا فيهم، شائعا ذائعا فيما تقدم، وأما الآن فقد قل ذلك لقلة العابرين به.

ومن هذه القرى كان الابتداء بسلوك منازل البربر المتمسكين بمذهب الخوارج، المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم، وهذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التي بين طرابلس وقابس، خصوصا أهل الساحل منهم، فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يجتازهم من المسلمين إلى الروم، فتجد الناس لذلك يتحاشون الانفراد في قراهم، ويجتنبون أمراءهم وقراهم. وهم من بقايا الشرذمة الضالة التي قام بها أبو زيد مخلد بن كيداد في إفريقية، فإنه لما ظفر الله به وأراح منه البلاد والعباد، تفرقت أتباعه في *183* الأقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذا الموضع، وأخرى سكنت بجاية[2] وقسنطينة وما والاها إلى بُونَة[3]، ومالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد، فاستوطنت نفطة ونفزاوة وماوالاهما من البلاد. وكل خوارج غلاة في مذهبهم، مكفرون للعصاة على ما هو معروف من مذهب الخوارج، لا كمذهب المعتزلة من امتناعهم من إطلاق اسم الكفر على من واقع كبيرة ولم يتب منها، فإن المعتزلة لا تسميه كافرا ولا مؤمنا بل فاسقا مخلدا في جهنم، وكأنهم توسطوا بين مذهب أهل السنة والخوارج. والمتصلحون منهم لا يتماسحون بثيابهم ثياب أحد

---

1 - ساقط من د.

2 - بجاية : مدينة على ساحل البحر المتوسط بين إفريقية والمغرب (في الجزائر اليوم) بناها الرومان ودعوها صلداي، وجددها الناصر بن علناس بن حمدان بن زيري عام 468/1076 ودعاها الناصرة ثم سميت بجاية باسم قبيلة أمازيغية تقطن حولها وتسمى الناصرة أيضا. انظر : الوزان، **وصف**. . . ، 2/50 - 51 ؛ الحميري، **الروض**. . . ، 80 - 81؛ العبدري، **رحلة**، 82 - 83 ؛ **الاستبصار**. . . ، 128.

3 - بونة : مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط شرق قسنطينة، تعرف اليوم بعنابة. انظر : الوزا، **وصف**. . . ، 2/61 ؛ العبدري، **رحلة**، 104 ؛ **الاستبصار**. . . ، 127 ؛ البكري، **المسالك**. . . ، 2/223 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، 1/402.

فمن ليس على مذهبهم، ولا يؤاكلونه في آنية، وإن استسقى ابن سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجوا ماء البئر كله فنافوه، وثياب الجنب عندهم لا يقربها طاهر، وثياب الطاهر لا يقر بها جنب، وقد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أجنب غسل ثوبه الذي أجنب فيه فرفعه بعصى أو حجر ثم يلقيه[1] في البحر فيخضخضه بعصاه ساعة، ثم بعد ذلك يتناوله بيده. ويوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم أجنبوا أو لم يجنبوا، رجالا ونساء، ويتوضأون ثم يتيممون، وقد شاهدت هذا منهم كثيرا، ويشترطون في وضوئهم غسل الأيادي من الأكتاف، إلى غير ذلك من آرائهم الواهية. ورأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم، يكفرون العصاة، وأظهروا شيخا يعرف بعبد الرحمان[2] الرجم الزواري يعظمونه، اجتمعت به فرأيت شخصا مجتهدا في العبادة حسن السمت، إلا أنه في اعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله، وتوسمت في أحد ممن وصل معه الطلب، فتكلمت معه فوجدته مشاركا في العلم معتقدا مذهب الخوارج من إنكار المسح على الخفين، فقلت: تواترت به الأحاديث، فقال: أخبار آحاد لا يجب العمل بها، قال: وقد نص لنا سيدنا أبو زيد مخلد بن كيداد على طرح ما كان من الأحاديث يناقض أصلا من أصولنا، فلعنت النص ومن نصه. وهذا المذهب أيضا عليه الشيعة مستدلين بأن سيدنا[3] عليا لا يراه، وذلك غير صحيح، وربما تالى الغلاة منهم، فقالوا برئت من ولاية أمير المؤمنين ومسحت على خفي إن كان كذا وكذا، وقد كتب شاعر منهم سجنه الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان واليا على المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وهو في داخل السجن: (من البسيط)

أَشْكُو إِلَى اللهِ مَا لَقِيتُ ... مِنْ سُوءِ قَوْمٍ بِهِمْ بُلِيتُ
لاَ أَشْتُمُ[4] الصَّالِحِينَ جَهْرًا ... وَلاَ تَشَيَّعْتُ مَا بَقِيتُ[5]

---

1 – في د "رماه".

2 – ساقطة من د.

3 – ساقطة من ح .

4 – في خ "لا أبغض".

5 – في خ "ما حييت".

وَلاَ تَشَيّعْتُ مَا بَقِيتُ   وَلَوْ عَلَى جِيفَةِ وَطّيْتْ

184 وما روي عن مالك شاذ. وقوله في أحاديث المسح أنها خبر آحاد باطل، بل هي أحاديث متواترة تفيد القطع، نص عليه ابن الصلاح في علوم الحديث، و تبعه غير واحد من المتأخرين، ابن حجر[1] وشيخه الحافظ العراقي في **ألفيته في المصطلح**.

رجوع، ثم لما حلت النافلة شمر الركب الذيول، وتقدم من تقدم أمام الركب من البغالة والخيول، وتأخر عنه من تأخر من الرجالة، وما بأسيافهم من فلول، فلما وازينا الزوارة[2] الملعونة، والبلدة الباغية المخدولة المحيونة[كذا]، ذات النخل والأشجار والخضر والفواكه والمياه، وتسمى كُوطِي - بضم الكاف وكسر الطاء - وهي أضخم من الغربية، وهي أكبر الطامات، تعرض أهلها بذلك وبزيادة الزرع والسمن والدقيق والشياه بقصد التسويق ويأبى الله عنه إلا التعويق، وذلك أنه وقع صعالكة الركب في فواكههم المحمولة، فوقعوا هم في مؤخرة الجيش، قاصدين أن لا يدعوا به راحلة حمولة، فقامت النائرة بين الفريقين، حتى هلك من قُدِّرَ عليه الحين، فكانت الغلبة للركب قطعا، وهزم الله تعالى الأعداء، فتبددوا قطعا قطعا. ولولا من حضر من النوافل[3] فاصلا بين الفريقين، لكانت عبرة يرويها الأواخر عن الأوائل. وهذا دأب كل من مر بهم في سالف الأزمان: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[4]، وأعظم من البهتان.

وقديما قال فيهم العبدري، وهو في ذلك غير مفتر، ووصلنا «إلى

1 - ينظر: ابن حجر، **فتح الباري**: باب المسح على الخفين، 1/ 305.

2 - زوارة: بلدة ذات نخل و أشجار، أهلها من الخوارج، تقع على ساحل البحر، بينها و بين زواغة ستة أميال. و تبعد عن جربة شرقا مسافة 50 ميلا: انظر: التجاني، **رحلة**، 210؛ الوزان، **وصف**...، 2/ 96.

3 - كذا، ويبدو ألا معنى لها.

4 - آل عمران: 118.

قريتَيْ زوارة وزواغة[1]، ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزواغة، معتقداتهم شنيعة، وأعمال: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾[2]، ومذاهب سوء ردية، وضمائر شرّعمرمنهم كل طوية، إن استنام اليهم حاج لم يوقظْهُ إلا برد ماء التقديس، و دوي أصوات النّواقيس، أواستأمَنَ إليهم داج لم يَرُعْهُ إلا تلفيق المعاذير عن إساءة رعي الخنازير؛ لأنهم يبيعونها من النصارى بأبخس الثمن، ويعتقدون ذلك حقا تنتفى عنه الظنن، قطع الله دابرهم وخَضَدَ[3] أصاغرهم وأكابرهم، و لا أخلاهم من قارعة تجتاحهم قرعا وتسحتهم[4] أصلا وفرعا»هـ[5].

وفيهم يقول الفقيه أبو سعيد عبد السلام بن عثمان الطرابلسي، لما خرج في جماعة من العلماء والفضلاء في موادعة الشيخ أبي العباس ابن ناصر : (من الطويل)

لَقَدْ قَبَّحَ الله الـــتزَوَارَةَ كُلَّهَـــا ... وَأَلْبَسَهَا مِنْ ديـــن أَرْبَابِهَا شَيْنًا

وَحُــقَّ لِمَــنْ قَدْ جَــاوَرَ الْقُبْــحَ أَنْ ... يَـرَى قَبِيحًا خَبِيثًا لَيْسَ يَلْقَى لَــهُ دِينًا

*185*فَيَارَبِّ دَمِّــرْهَا دَمَــارًا مُؤَبَّــدًا ... وَلاَ تُبْقِــينَّ مِنْ كُلِّ آثَارِهَا عَيْنَـــا

وذيلهما أبوعلي الحسين بن محمد بن علي الشرحبيلي البوسعدي[6] بقوله:

---

1 – زواغة : من بلاد افريقيا، و سميت بزواغة قبيلة من البربر، ، انظر: الحميري، **الروض**. . . ، 290 ؛ الوزان، **وصف**. . . ، 2/ 96 .

2 – النور 39.

3 – خضد: كسر. انظر : **القاموس**، 1/ 357.

4 – سحت : استأصل. انظر : **القاموس**، 1 /196.

5 – العبدري، **رحلة**، 183 – 184.

6 – الحسين بن محمد بن علي شرحبيل البوسعيدي (ولد سنة 1079هـ وتوفي سنة 1142هـ) أحد تلامذة الشيخ أحمد بناصر ، كان مشاركا في جميع العلوم حج مع الشيخ وألتقى مع كثير من الفضلاء وشاركه في بعض اجازاته، وله شرح لطيف على **العقيدة السنوسية**، وله شرحان على **سيف النصر** ؛ وزوجه الشيخ بناصر باخته السيدة عاتكة بنت الشيخ مَحمد بن ناصر، وكان يكتب عن الشيخ بعض الأوقات واشتغل بتدريس العلم بالزاوية حتى توفي الشيخ. كانت له حظوة لدى الناصرين، فهو أحد أصحاب الشيخ أحمد بن ناصر ومرافقه، حتى شاع أن أحمد الخليفة عهد له بالخلافة من بعده، وعلى اثر وفاة الشيخ الناصري، انتقل الحسين الشرحبلي إلى زاوية أغلان، وتشير رسالة محمد بن إبراهيم بن محمد التاكوشتي الهشتوكي (أوردها المختار السوسي) إلى أسباب هذا الانتقال والتي لا تخرج عن الخلاف الذي حصل بينه وبين موسى بن محمد بن محمد بن ناصر، وإن كانت الرسالة ركزت على أن تهديد الشريف، خليفة مولاي إسماعيل على درعة، له بالعقاب بسبب رفضه الامتناع من قراءة **صحيح البخاري** في داره وتلقين الأوراد، =

(من الطويل)

وَدَمَّرْهُمْ تَدْمِيرَ عَـــادٍ وَأَلْبِسْـهُمْ[1] سَرَابِيـلَ خِزْيٍ كُلَّمَا انْتَحَلُوا عَيْنَـا

وَنَظِّمْهُمْ فِي سِلْكِ عُنُقٍ فَلاَ يُـرَى لَهُمْ عَقِبٌ إِلاَّ وَجَرَّعَـــهُ حَيْنَـــا

عَدَا السَّالِكِينَ مَنْهَجَ الْحَقِّ وَاقْتَفَوْا سَبِيلَ رَشَادٍ وَاقْتَنَوْا بَيْنَهُـمُ بَيْنَـا

وزاد الثاني تذييلا أبو الحسن علي النجار الطرابلسي شارح **المرشد** بقوله : (من الطويل)

وَأَخْرِجْهُمْ مِنْ أَرْضِنَا وَبِلاَدِنَـــا وَأَهْلِكْهُمُ حَتَّى يُقَالَ لَهُـمُ أَيْنَـــا

وَاخْزِهِمْ خَزْيًــا يَكُونُ بِجَمْعِهِـــمْ مُحِيطًــا وَلاَ وَفَّى لَهُمْ أَبَـدًا دِينَـا

وذيل الجميع الشيخ أبو العباس أحمد الهشتوكي[2] بقوله : (من الطويل)

وَزَادَ لأَهْلِهِ الْخَسَـــارَةَ وَالــرَّدَى وَأَظْلَمَ أَحْشَائِـــي وَرَانَهُـــمُ رَيْنَـا

سِوَى مِنْهُمْ مَنْ دَانَ من سُنَّـةَ النَّبِـي فَلاَ زَالَ فِي أَتْبَاعِهِ مُقَــرًّا عَيْنَـــا

= لكن نلمس من الرسالة أن الشريف حينما دعاه إليه، دعا الناصريين بدورهم بحضور القاضي عبد الكبير: "ثم بعث الشريف إلى المرابطين وجمعهم مع سيدي الحسين والقاضي سيدي عبد الكبير" ثم قال لسيدي الحسين هل عندك وصية؟ فقال: نعم، كانت، فقال له أخرجها واقرأها، فقال له ودرت (أي ضاعت) فقال له والله ما كانت... ثم قال لابد أن تكتب له أنك برئ من الزاوية والورد... وكتب لهم ذلك ". راجع : المختار السوسي **المعسول**، مطبعة النجار، الدار البيضاء، 1960 – 1963، 18 /242 ؛ الناصري، **الروض**...، 230 – 231. ترجم له: الناصري، الدرر..، رقم 27: 167 ـ 168؛ الخليفتي، **الدرة**...، رقم 30: 193-194؛ القادري، **التقاط**...، 354؛ الناصري، **طلعة**...، 2 /10 " وفيها توفي سنة 1143 هـ؛ **معلمة المغرب**، 4/ 1718.

1 – في ج "ألبسوا".

2 – أحمد بن محمد بن داود بن يعزى بن يوسف الجزولي التملي نسبا، الشهير بالهشتوكي، من أبرز رجالات العلم بسوس في عصره، ولد سنة 1057/1657، درس في الزاوية الدلائية وأخذ عن عبد القادر الفاسي وأبي سالم العياشي، انتقل إلى الزاوية الناصرية ولازم شيخها مَحمد بناصر الذي زوجه إحدى بناته، كما اشتغل بالتدريس بالزاوية. حج مرتين 1096 /1685 وعام 1119 /1707. توفي بالزاوية الناصرية سنة 1127 هـ/1714 م. ترجم له : الناصري، **الدرر**...، 24 ؛ ابن زيدان، **اتحاف**...، 5/ 443 ؛ ابن سودة، **دليل**...، 1/ 181؛ المختار السوسي، **سوس العالمة**، مؤسسة بنشر للطباعة والنشر، البيضاء، الطبعة الثانية، سنة 1984، ص 190.

رجوع، ولما انفصل الجمعان وتفاصل الفريقان، أزمعنا السير مع ما حل بالإبل من العيى وطول عهدها بالرعي، فَلاَ ترى إلا واقعا لوجهه، منخورا لجلده وشبهه، أو مبيعا بأبخس ثمن، أو باقيا اعتباطا من الوهن. وبنو سعد تلوح يمينا وشمالا لا تبغي بنا فرصة وضلالا، حتى مررنا ببئري مليته، فأمهما من اغتر بهما، يظنهما فلته فما نشبنا أن نزحنا ولا قطرة، فخيمنا وقد حان وقت العصر بساحة قصر العمالقة، ذي النخيل والأشجار الظاهرة البارقة، والمياه العذبة الدافقة، فما استقر القرار حتى أغار من أغار على بغال[1]، ثم لم يظهر لها عين ولا أخبار. فلما أشرق الفجر ارتحلنا نطأ بلاد زواغة ذات الأشجار والفواكه والخضر والآبار العذبة، مع ماهو عليه ساكنها من العقائد الزوَّاغه، وبلادهم الآن هي إحدى مدن طرابلس في القديم المسماة: صَبْرَة[2]، ولازال بعض أعلامها قائمة وسط المحجة، تضاهي في ضخامتها طرابلس ولبدة[3] غيرأنها لعبت بها أيدي الزمان فكادت أن تضمحل آثارها ورسومها وأخبارها، فصاح إذ ذاك بومها، وصار في أدراج الرياح هشيمها.

قال في **الروض المعطار**: «لما بلغ أهل صبرة محاصرة عمرو بن العاص ﷺ، مدينة طرابلس، وأنه لا طاقة لديهم، آمنوا، فلما ظفر عمرو بطرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم *186* بسرعة المسير، وصبحت خيله مدينة صبرة – وكانت هي المدينة العظمى– وهم غافلون، وقد فتحوا أبوابها لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى أصحاب عمرو ﷺ على ما فيها ورجعوا إلى عمرو. وبعد ذلك كتب إلى عمربن الخطاب ﷺ يستأذنه في دخول إفريقية، فجاءه كتاب عمر رضي الله عنه ينهاه عن دخول

---

1 – ساقطة من د.

2 – صبرة : مدينة متصلة بالقيروان، بناها إسماعيل المنصور الفاطمي(سنة 337/ 948) حين انتصر على على أبي زيد الخارجي، واستوطنها وسماها المنصورة. انظر : البكري، **المسالك**. . .، 2/ 198 ؛ **الاستبصار**. . .، 115 ؛ الحميري، **الروض**. . .، 354.

3 – لبدة : مدينة قديمة بناحية طرابلس وهي حصن مبني بالحجر والرخام. انظر : الحميري، **الروض**. . .، 508 ؛ الحموي، **معجم** البلدان، 5/ 10 ؛ البكري، **المسالك**. . .، 2 181 ؛ العبدري، **رحلة**، 483.

إفريقية بالجيش، وقال: «ليست إفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت»[1]، فرجع عمرو بن العاص ﷺ»، [2] هـ.

وسرنا فمازالت الشمس حتى خيمنا بالزاوية الغربية، ذات المياه العذبة، والأشجار البهية، والفواكه والخضر والنخيل آسية، والمزرعة الموضية، فما هو إلا أن حططنا الرحال، فتوجه نحو حدائقهم صعالكة الرحال، فاغتاظ إذ ذاك أهلها فترامو مع الحجاج بالبنادق والنصال، فمات من قضى نحبه، وجرح من بقي من أجله، فلحق صحبه، وتناهبا الفريقان حتى جردت بذلك النساء والولدان، ولم يبق بحدائقهم ما يرد البصر، من الفواكه والخضر، ظلما وعدوانا من الصعالكة ومن أنضاف لهم من الرعاع، وهم إذ ذاك لا يقدرون على الدفاع، فشمر عن ساق الجد الأمير، ومن أنضاف له من كل معين وظهير، فكانوا عونا لأهل البلد على الحجاج المحاربين البغاة، فانكفوا إذ ذاك عن فعلهم، ورد أولائك ما كان من نهبهم. فلما طلع الفجر وبان، وبدا الذئب من الإنسان، وأذنوا بالرحيل، فبادر أولئك بالثبور والعويل، فاجتمعت شرذمة منهم على أفراس متحزبين بمن أنضاف لهم من أعراب، وجيران من غوغاء الناس، فراموا الأخذ بالثأر وتبعونا على الآثار، فصدهم عنا الواحد القهار، فانقلبوا خائبين وعلى أعقابهم ناكصين.

فمررنا ببلاد المليتة[3]، ذات الأشجار والزيتون الطيب إلى الغاية، غيرأنها خالية في الوقت من الأنيس لما حل في البلد من الجلاء الناشىء من الأعراب والرئيس، جمع الله شملهم وسكن روعتهم ودمر أعداءهم، ثم على زاوية زنزور ذات الأشجار والفواكه والخضر والماء المشكور، والمدرسة الرائقة الفائقة، وبها صالح يعرف بالعريفي.

قال الشيخ أبو سالم: «أخبرني من أثق به أنه كان عند قبره زيتونة كان يجلس إليها في حياته، فجاء رجل بعد موته فجلس *187* في ذلك المحل وشرب فيه الدخان، وكان من أكابر البلد، فلما نام في الليل جاءه ووقف

1 – ينظر: **كنز العمال**، رقم 14234، 5/ 282.

2 – الحميري، **الروض**. . .، 354.

3 – في ج وج "المابة".

عليه، وضربه على رأسه وقال له: يا فلان مكان كنت أجلس فيه فجئت[1] إليه فنجسته؛ فأصبح الرجل أعمى. أخبرني بذلك من أخبره أنه عمي»، هـ.

وسرنا حتى خيمنا بكركاش[2]، وبه آثار عمارة ضخمة، وبعض أشجار الزيتون ومزارع ومياه عذبة، وبه من الصالحين القدماء سيدي حامد، مقبور على ساحل البحر، ومسجد سيدي علي الكركاشي[3]، ثم منه فتلقانا أهل طرابلس كبارا وصغارا، فدخلناها صحوة الثالث والعشرين من شعبان.

تنبيه : سئلت صبيحة هذا اليوم، قبل نزولنا، عن العبد يزوجه سيده من أمته، هل لابد من الصداق أو يجوز بغيره، إذ لكل ملك للسيد يجمع بينهما فلا صداق؟ والسائل من الحجاج، فأجبته بأنه إن لم يذكر بينهما صداق ربع دينار فأكثر ووقع من الشهرة، كما جرت به العادة في الأنكحة، صح النكاح ولزم المثل بعد الدخول، وكان في أحكامه كالتفويض، وإن دخلا على شرط إسقاطه أو جرت العادة عندهم بإسقاطه كان سفاحا. فقال السائل: هذه إماء عندي وعند ابن عمي هذا وكان ذا أبوية وإماء كثيرة، ولا منا من عقد بصداق، وإنما نجمع بينهما على طعام، ولم يطرق آذاننا ولا سمعنا أحدا من طلبتنا يذكر أنه لابد من الصداق، وإنما الصداق بين الأحرار، وكان إذ ذاك عبد من عبيدهم بازائنا فناداه: يا فلان زوجتك التي أعطاك سيدك فلان، هل عليك في نكاحها شيء من الصداق ولا ربع دينار؟ فقال: لا. فاستعظم السائل ما أجبته به، وكاد أن يعده محالا، فقلت: لا نعلم في المذاهب من ذكر غيره للآية والأحاديث المصرحة بلزوم الصداق، فلما استيقن أنهم في فعلهم على ضلال تاب ورجع قائلا: إن يردني الله تعالى للبلد أعقد لعبيدي النكاح على الصداق. ثم لما افترق معي واجتمع مع بني أبيه وكان لديهم طالب له ممارسة ببعض جزئيات العلم، وذكر لهم ما سألني عنه وما أجبته به وعلموا ما وقعوا فيه، لقنهم إذ ذاك طالبهم حجتهم، فراجعني السائل، وكان صادق

---

1 - ساقطة من ح.

2 - في د "كركارش".

3 - في خ وج "الكرناشي".

اللهجة، وقال : ذكرت ذلك لابني أبي بحضرة[1] الفقيه فلان - يعني الطالب المذكور- فقال: قولوا له نحن نملك الإماء للعبيد ليطؤوهم على معنى الملك لا على معنى التزويج حتى يفتقرلعقد صداق ، فقلت للسائل: أنشدك الذي بإذنه تقوم السماء *188* والأرض ، أعبدك يملك أمتك يطاها بالملك ، ويعرف العبد والأمة ذلك؟ فقال: لا ، لا نقول فيه إلا زوجا ولا فيها إلا زوجة وهما مقران بذلك ، ويقع الطلاق من الزوج للزوجة ، وتعتد من الطلاق والوفاة. فقلت: «الدين النصيحة»[2]، إنما هذا الذي أعتذر به طالبكم مجرد إعتذار وتحل لا يرد عنكم عقوبة الواحد القهار بعد أن علمتم الحكم ، وبأن لليله أفجار ، ولو تستر القائل بنكاح التفويض لربما يسلمه له ، ولا ذو الباع العريض ، غير أن العامة - خصوصا العبيد - لا يعرفونه ولا أحكامه ، ولو أجاب به وسلم لكان الواجب فيه صداق المثل ويتقرر بالوطء؛ فما هذه - عياذا بالله - إلا سحائب الجهل. نعم في مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله تعالى عنه ، أن النكاح يجوز على إسقاط الصداق ، ثم يتقرر المثل [بعد الدخول ، ففي **الكنز**[3] من فقههم ما نصه: «صح النكاح بلا ذكره- يعني المهر- لأنه][4]عقد انْضِمَام و ازْدِوَاجٍ فيَتِمّ بالزوجين؛ ثم المهر واجب شرعا إبَانَةً لشرف المَحَلّ فلا يُحْتَاجُ إلى ذكْرِه لصحته»[5]، ولذا لم ينقل عن أحد خلاف في صحته يرون ذكره وكذا يصح مع نفيه لما ذكرنا. قال العيني في **شرحه**: «خلافا لمالك - رحمه الله - ولا نعلم في الأمة[6] المحمدية من قال جواز النكاح بغير صداق ابتداء ودواما لا فيما بين الأحرار ، ولا فيما بين العبيد. وما حمل الفاعلين على ذلك إلا عدم تعاطي العلم وتوهم أن العبيد ملك فكيف يلزمهم صداق ، أو أن

---

1 - في د "الحضرة".

2 - الحديث أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب بيان أن الدين النصيحة رقم 55، 1/ 74. ولفظه : " أن النبي ﷺ قال : الدين النصيحة، قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ".

3 - **كنز الدقائق في فروع الحنفية** للشيخ عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسقي توفي سنة 710هـ. انظر: حاجي، **كشف**. . . ، 2/ 1515.

4 - ساقط من د.

5 - ينظر: محمد الزيلعي، **تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، ، باب المهر: 5 /389 - 392.

6 - في "الملة".

صداق هو حق للسيد فله اسقاطه، وما دروا أن الله تعالى من حكمته جعل ربع الدينار فأكثر فرقا بين النكاح والسفاح. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة».

خاتمة تشتمل على أجرة العلام والدليل والبراح والخفير، وهو ما يأخذ حافظ المارة من اللصوص: ففي الحطاب: «عن الشيخ أبي بكر بن الوليد: الخفارة[1] من وجه تشبه سائر النفقات اللازمة؛ لأن أخذها للجند جائز إذ لا يلزمهم الخروج معهم، فهي أجرة يصرفونها في الكُراع وفي السلاح، والزاد[2]، وهي من وجه تشبه الظلم؛ لأن أصل توظيفها خوف قاطع الطريق. وقال البرزلي: الحافظ للطريق ليس بظالم فيما يأخذه، وإنما هو أجير فوجب أن يؤتمن. ويحصل على أجرة الدليل وما يأخذه الجند من يحفظ الحاج[3] من اللصوص لا يسقط بها الحج»[4]. وفي الزرقاني: أجرة الدال على عدد الرؤوس دون الأمتعة *189* إذ من معه دواب ولو كثرت كالمجرد منها في الإنتفاع به، قال: والظاهر اعتبار عدد رؤوس التابعين والمتبوعين لا المتبوعين فقط وإذا جرى عرف بشيء عمل به لأنه كالشرط ، هـ. وهو الأوجه لأن منفعة هداية الطريق والدلائل على موارد الماء أهل الأحمال أو غيرهم، والإحتياج إلى هذين الغرضين على حد السواء، بخلاف أجرة[5] الخفير الذي يجير الركب من اللصوص، فليس خوف صاحب الأحمال الكثيرة كخوف غيره لأن المقصود بالإذاية في الغالب هو من له أحمال وسلع، والفقير قلما يُتعرض له سيما مع وجود غيره. قال الزرقاني: «وما يأخذه الجند على الرؤوس وقدر الأمتعة والدواب لاستواء الجميع في الحفظ من السارق وغيره».

---

1 – في مواهب الجليل "هي".

2 – ليست في مواهب الجليل.

3 – م س، "الحجاج".

4 – الحطاب، **مواهب**. . . ، باب تنبيهات إحرام الصبي بدون إذن، 2/ 496. مطبعة السعادة، مصر، 1328هـ.

5 – في د "إجارة".

قال الشيخ أبو سالم: «جرى البحث في الأزهر في أجرة دليل الركب، هل هي على الإبل؟ أو على الأحمال؟ أو على أصحابها؟ وهل يكون على المتبوع دون التابع؟ ولم يوجد نص، ويمكن استخراج حكمها من استئجار النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ﷺ- في قضية الهجرة- لابن أريقط الديلي، وكان مع أبي بكر غلامه عامر بن فهيرة، فهل كانت الأجرة على الإبل؟ أو على الرؤوس؟ وعلى الثاني، فهل أعطى أبو بكر عن غلامه أم لا؟ قال: ولم يحصل إذ ذاك ما يعتمد عليه. وأورد الشيخ علي الأجهوري هذه المسألة في شرحه على **المختصر**، وذكر فيها ما جرى من التوجيهات، وصير ذلك كله كأنه أقوال في المذهب، مع أنها لم يوجد فيها نص في المذهب. وكان هذا من جملة ما ينقم عليه في شرحه وهو جدير بذلك»[1]، هـ.

وفي **الرحلة الناصرية**: «انفصل رأى الأعيان من العلماء وأكابر الإخوان- يعني من أهل ركبه - على قسم بعض ذلك على الأموال المعدة للتنمية والبعض على الرؤوس استحسانا، وكان حظر لي قبل اجتماعهم ثم أن الله تعالى ألهمهم لذلك»[2].

1 - العياشي، **الرحلة**، 2/ 372- 373.

2 - الناصري، **الرحلة**، 462.

ذكر دخولنا طرابلس الغرب ذات البها والفخر[1] المطرب

ولما وصلنا حططنا الرحال ببيت من الظهْرا ترغيبا في القرب من سوق الزّراپية الحمراء، وفرارا من المكس المرتب من أولي الأمرعلى من نزل داخل الثغر قهرا، فتردد به علينا الطلبة وسائر أهل المحبة، ولما اطمأنت بنا الدار، واستقر بنا القرار، ووثبت إلينا أبداننا مما حل بها من حوب القفار، دخلنا البلد ومساجدها ومزاراتها، وجُلنا في منشيتها ذات القصور والمياه وأنواع الأشجار، فكانت كما أصّل الأولون *190* واقتفى نهجهم الآخرون.

قال البكري في **مسالكه**: «يذكر أن تفسير أطرابلس بالأعجمية الإغريقية: ثلاث مدن، وسماها اليونانيون طربليطة، وذلك بلغتهم أيضا ثلاث مدن: طر معناه ثلاث، وبليطة يعني مدينة. ويذكر أن أشفاروس[2] قيصر هو الذي بناها. و تسمى أيضا مدينة أطرابلس، مدينة إياس. وعلى أطرابلس سور صخري جليل البنيان، وهي على شاطىء البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة، وحمامات كثيرة فاضلة. وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود، وحوالها أقباط في زي البربر كلامهم بالقبطية[...] وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون. أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح[...] وهي كثيرة الثمار، يرفع منها الملح الكثير. وداخل مدينتها بئر يعرف ببئر أبي الكنود وهم يُعَيّرون به، ويحمق من شرب منه، فيقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام عليه: لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي الكنود. وأعذب آبارها بئر القبة. وذكر الليث بن سعد قال: غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيها، فحاصرها شهرا لا يقدر منهم على شيء، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم متصيدا

1 - كذا في الأصل.

2 - في **المسالك**، "أشفاروش".

في ستة[1] نفر فمضوا [على][2] غربي المدينة، فاشتد عليهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر- وكان البحر لا صقا [بسور][3] بالمدينة- ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور. وكانت سفن البحر شارعة في مرساها إلى بيوتهم. ففطن المدلجي وأصحابه، فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم، فلم يفلت الروم إلا بما خفّ لهم في مراكبهم، وغَنِم عمرُو ما كان في المدينة وذلك سنة ثلاث وعشرين. وسورها من ناحية البحر إنما بناه هرثمة بن أعين حين ولايته القيروان. وبهذه المدينة فحص يسمى سوفجين يصاب فيه في بعض السنين للعبة مائة حبة، وهم يقولون: فحص سوفجين يصيب سنة في سنين»،[4] هـ.

لطيفة : قد تقدم القول في بئر أبي الكنود، وبطنجة المغرب نظيرها، قال في **الروض المعطار**: «وبخارج طنجة عين ماء طيب يسمونه برقال، ويقال أنه يحدث الحمق لشاربه، فهم يعيرون بذلك فيقال لمن تهافت منهم: شربت *191* ماء برقال، لا جناح عليك. وقال الشاعر: (من الوافر)

بطَنْجَـةَ عَيْنُ مَـاءِ وَسْـطَ رَمْلٍ ... لَـذِيـذٌ مَـاؤُهُ كَالسَّلْسَبِيـلِ
خَفِيفٌ وَزْنُـهُ عَذْبٌ وَلَـكِـنْ ... يَطِيرُ بِشَارِبِيهِ أَلْـفَ مِيـلٍ»،[5] هـ.

ومن معنى هذا ما جرى على ألسنة أهل فاس ومن والاهم من قولهم: «شارب ماء سبو ينسى حسبو». مثلا يضربونه لمن ورد على فاس بقصد تعلم العلم أو التجارة، وشربه من مياه أوديتها لا يكاد يدندن الرجوع لبلده، فينشأ عن ذلك نسيان أهله وعدم كونهم منه على بال.

ومنه ماء واد دمنات المسمى بأمْهَاصَر، يضرب به المثل في الوقاحة والصلابة لأهلها، فيقال: شرب فلان من ماء أمْهَاصَر وغسل وجهه به[6]

1 – في **المسالك**، "سبعة".
2 – ساقط من **المسالك**، ص. 180.
3 – كذا في **المسالك**، ن. الصفحة، وهو زائد كما يفهم من الكلام بعده.
4 – البكري، **المسالك**. . .، وقد نقل بتصرف 2/178– 181.
5 – الحميري، **الروض**. . .، 396.
6 – ساقط من د.

يكنون بذلك عن صلابته ووقاحته، ومن هذا أن بالجحفة[1] عينا يقال لها عين جم، قل من شرب منها إلا حم، وهي متغيرة الطعم. قال ابن بطال بعد هذا: «ولم تزل الجحفة من يوم دعائه عليه السلام[2]، أكثر بلاد الله حمى، وأنه ليتوخى شرب الماء من عينها». وقال البكري أيضا لما تكلم على سرت من عمل برقة « أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة وأبرهم بغريب»[3]، هـ.

وقال الشيخ أبو سالم: «وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعائبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها، سهل طُروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكي الأوصاف، وجميل الانصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من أحد من أهلها لغوا إلا سلاما، ولو لمن استحق ملاما، سيما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في الإنفاق[4] عليهم وإنعامهم.

ولهذه المدينة بابان: باب إلى البر وباب إلى البحر، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر، بينه وبين البحر. وبها مراكب قل نظيرها، معدة للجهاد في البحر. قلما تسافر وترجع بغير غنيمة، وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة، لا

---

1 – الجُحْفَة: قرية بالحجاز على طريق المدينة بينها وبين مكة 76ميلا وهي ميقات أهل الشام ومصر إن لم يمروا على المدينة؛ فإن مروا على المدينة فميقاتهم ذو الحليفة. وكان اسمها مَهْيَعَة وسميت بالجحفة لأن السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام جحف أهلها في الأعوام. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/111؛ الحميري، **الروض**...، 156–157؛ البكري، **معجم**...، 1/367–368.. وفي الحديث: " مُهَلّ أهل المدينة ذو الحليفة ومهل أهل الشام مَهْيَعَةُ وهي الجحفة ومهل أهل نجد قرن " انظر **صحيح البخاري** كتاب الحج باب مهل أهل نجد رقم، 4552، 1/ 555.

2 – الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم حبب لنا المدينة كما حببت لنا مكة أو أشد وانقل حماها إلى الجحفة اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا ". رواه البخاري في **صحيحه** كتاب الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والأوجاع، رقم 6011، 5 /2343.

3 – البكري، **المسالك**...، 178.

4 – مطموسة في د.

من سفن الجهاد. فجزاهم الله خيرا، وأعانهم على ما والاهم من ذلك»[1]، هـ.

وبهذا البلد مزارات تهوي إليها الجهابذة ذوو العلا من الصفات[2]، *192* إذ هي من الثغور التي عليها المدار في سالف الدهور، غير أن غالبها اندرس، ومعظمها انطمس، لما تداولها من أخذ الكفرة لها، ففتحها أهل الإسلام فتحا بعد فتح. وفي الأخير الذي تولاه ضرغوت الجوي، وأمراد المسلات سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، فبقيت دار إسلام إلى الآن، أدامها الله عليه لما يأتي من الأزمان. ولقد أحسن في مدحها بعض المغاربة؛ فكانت جديرة والله بذلك غير كاذبة، قائلا :(من الخفيف)

يَا خَلِيلِيَّ إِنْ أَرَدْتَ السَّرَاحَا مِنْ　　شُجُونِ الأَسَى وَرُمْتَ انْشِرَاحَا

سَرِّحِ الطَّرْفَ فِي مَحَاسِنِ رَوْضٍ　　زَادَ نُورًا وَبَهْجَةً وَانفسَاحَا

بَلَدٌ يَمْلأُ الصُّدُورَ سُرُورًا　　وَيُنِيلُ الأَرْبَاحَ والأَفْرَاحَا

جَلَّ مَنْ صَاغَهَا[3] فَرِيدَةَ حُسْنٍ　　مَنْ رَآهَا بِرَاحَةِ الْقَلْبِ رَاحَا

إِنَّهَا فِي السَّلْوَى عَنْ كُلِّ غَمٍّ　　شَاغِلٌ لِلْحَشَى تَفُوقُ الرَّحَا

رَوْنَقٌ مُؤَنِّقٌ بِهَا وَبَهَاءٌ　　يُكْسِبَانِ الْقَرِيحَ فِيهَا ارْتِيَاحَا

جَمَعَتْ مَنْظَرَيْنِ بَرًّا وَبَحْرًا　　فَانْظُرِ الْمَوْجَ طَافِحًا وَالْبِطَاحَا

لِلشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ بِهَا سِرٌّ　　بَدِيعٌ عَشِيَّةً وَصَبَاحَا

وَهُمَا آيَتَانِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْ　　رَةِ لِلَّهِ تَشْهَدَانِ صُرَاحَا

لِسُدَّانِيهَا وَالسُّرَّاقِ هَدِيرٌ　　وَخَرِيرٌ وَالطَّيْرُ تَشْدُو صُدَاحَا

لَهُمَا فِي الْمَسَاقِ شَكْلٌ عَجِيبٌ　　يُمْتِعَانِ الأَبْصَارَ وَالأَرْوَاحَا

وَالْبَسَاتِينُ نَخْلُهَا بَاسِقَاتٌ　　يَكْمُلُ الْحُسْنُ حِينَ تَبْدُو صَلاحَا

وَالْعَنَاقِيدُ دُرْنَ حُمْرًا وَصُفْرًا　　كَالْيَوَاقِيتِ إِنْ جُعِلْنَ وِشَاحَا

وَصُنُوفُ الأَشْجَارِ فِيهَا صُنُوفُ　　التَّمْرِ كَالدُّرِّ حِينَ يَجْلُو الْمِلاحَا

لَوْ تَرَاهَا وَقَدْ تَمَلَّتْ بِأَلْوَانٍ　　مِنَ النُّورِ حِينَ تَبْدُو اسْتِفْتَاحَا

---

1 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 60.

2 - مطموسة في د.

3 - في د "صغاها".

فَتَرَى حُلَّةً يَلُوحُ سَنَاهَا ... وَشَذَاهَا الشَّهِيدُ كَالْمِسْك فَاحَا
طَالَ مَا كَانَ لِلْحَجِيج مناخًا ... وَلِزُوَّار طَيْبَةَ مُسْتَرَاحَا
وَهِيَ ثَغْرٌ مُبَارَكٌ وربَاطٌ ... مَنْ نَوَاهُ بِهَا غَزَا وَاسْتَرَاحَا
فِيهِمُ الْخِصَالُ فَاقَتْ وَرَاقَتْ ... وَأَضَاءَتْ مَسَاكِنًا وَبَرَاحَا
وَبِهَا حِلَّةٌ كِرَامُ السَّجَايَا ... هُمُ الْجُودُ عَادَةً وَاصْطِلاحَا
وَلَهُمْ فِي الْعُلُوم فَهْمٌ مُنِيرٌ ... إِنْ جَاءَ مُشْكِلٌ عَلَى الذِّهْنِ لاحَا
193 وَكَفَاهُمْ جَلالَةً حُبُّ أَهْلِ الْعِلْمِ ... مَهْمَا اسْتَبَانَ فَاضُوا سَمَاحَا
حُبُّهُمْ بَصْمَةٌ بِهِ يُحْفَظُ الدِّينُ ... وَيَبْقَى هِلالُهُ وَضَّاحَا
وَارِثُو الْوَحْيِ مبلغ الْحُكْمِ ... إِرْشَادًا وَمُتْعًا وَوَاجِبًا وَمُبَاحًا
شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَهُمْ وَلأَقْفَالِ ... الْمَعَانِي أَقَامَهُمْ مفْتَاحَا
وَعُدُو لا يُرْضِيهِمْ وَهُوَ مَعَهُمْ ... يَا لَهُ شَرَفًا بِهِ الذِّكْرُ بَاحَا
وبإيصائه العباد سَلُوهُمْ ... لاحَ فَضْلُهُمْ وَزَادَ اتِّضَاحَا
لَهُمُ الرُّوحُ وَالْمِيرَاثُ وَكُلُّ الْخَلْقِ ... صَارُوا الأَتْبَاعَ وَالأَشْبَاحَا
دَرَجَاتٌ بِرَفْعِهَا خَصَّهُمْ بَعْدَ ... الْعُلُوم وَزَادَهُمْ أَمْنَاحَا
وَبِذَا كَانَت الْمَلائِكُ مَهْمَا ... أَبْصَرُوا طَالِبِيهِ أَلْقَوْا جَنَاحَا
فِيهِمْ تَشْرُفُ الْبِلادُ وَأَهْلُ ... الْحُبِّ فِيهِمْ لِدِينِهِمْ إِصْلاحَا
يَا طَرَابُلُس زِدْ هَنِيئًا وَيُمْنًا ... وَأَمَانًا وَعِزَّةً وَفَلاحَا
وَانْتَهَى الْكُفْرُ بِالْجِهَادِ وَثَنًا ... فَتْحًا وَفَوْزًا وَرِفْعَةً وَفَلاحَا
وَلِقُدُوم الرَّكْبِ انْ أَتَاكَ غَدْرًا ... وَاخْدِمِيهِ إِذْ أَتَاكَ رَوَاحَا
حُرْمَةُ اللهِ وَالرَّسُول عَلَيْهِ ... مَنْ يُعَظِّمْهُ لا يَخَافُ اجْتِيَاحَا
رَحَمَاتُ الرَّحِيم تَغْشَى كَاهلا ... وَقُصُورًا وَالْفُحْصَ وَالأَدْوَاحَا
وَعَلَى الْمُصْطَفَى النَّبِيِّ صَلاةً ... مَا تَجَلَّتْ رِيَاضُ أَرْضٍ لِقَاحَا
وَعَلَى الآلِ وَالصَّحَابَةِ مَادَامَ ... نَشِيدُ الْمَدِيحِ يَهْدِي انْشِرَاحَا

ولبعض أدبائها في ذلك، أيام مقامه بمصر، واسمه أحمد بن عيسى رحمه الله تعالى: (من الطويل)

طَرَابُلُسَ الْغَرًّا ترَى مِنْ عَوْدَة ... إِلَيْكِ وَهَلْ يَدْنُو الَّذِي كَانَ قَدْ ذَهَبْ
سَقَى الْجَانِبَ الشَّرْقِيَ مِنْكِ سَحَابَةٌ ... وَلازَالَ فِيهَا مِنْ رِيَاضِ الصِّبَا مَهَبْ
بلادٌ لَهَا بِالْخُلْد شِبْهُ آيَةٍ ... وَمِنْهَا نَبَاتُ الزَّعْفَرَانِ كَذَا الْعِنَبْ
تَرَى سَرْحَهَا مِنْ فِضَّةٍ فَلْزَمْ ... بِهِ الضُّحَى أضْحَتْ بِعَرْصَتِهَا ذَهَبْ
وَفِي كُلِّ رَوْضٍ حَوْلَهَا حُلَّةٌ حَلَّتْ ... بِرَوِيَتِهَا خَضْرَاءُ مِنْ سُنْدُسِ الْقَصَبْ
وَفِيهَا نَخِيلٌ بَاسِقَاتٌ إِذَا الصَّبَا ... تَهُبُّ عَلَيْهَا أَسْقَطَتْ يَانِعَ الرُّطَبْ
وَفِيهَا مِنَ الأَشْجَارِ مَا جَلَّ وَصْفُتهُ ... بِأَوْرَاقِهَا الْوَرْقَاءِ غَنَّتْ مِنَ الرُّطَبْ
وَفِي ثَغْرِهَا صِفْرُ الرُّضَابِ وَعَيْنُهَا ... الَّتِي قُسِمَتْ مِنْ فِضَّةٍ آيَةُ الْعَجَبْ
فَيَا حَبَّذَا ثَغْرٌ لَهُ النَّصْرُ خَادِمٌ ... وَيَا حَبَّذَا عَيْنٌ بِهَا الْمَاءُ قَدْ عَذُبْ
امْثَلَ شَوْقًا شَكْلُهَا فِي الضَّمَائِرِ ... فَيَسْقُطُ دَمْعُ الشَّكْلِ مِنْ شِدَّةِ الْعَتَبْ
*194*بَدِيعَةُ حُسْنٍ زَادَهَا اللهُ بَهْجَةً ... وَأَمَّنَ أَهْلَهَا مِنَ الْخَوْفِ وَالشَّغَبْ
فَقَدْ أَعْجَبَتْ أَوْصَافُهَا كُلَّ مُغْرِبِ ... وَكُلَّ الَّذِي أَمْلَى وَكُلَّ الَّذِي كَتَبْ
وَلَكِنْ قُصَارَى مَطْلَبِ الْقَوْلِ أَنَّهَا ... تَفُوقُ بِلادَ الْغَرْبِ طُرًّا وَلا عَجَبْ

إلى أن قال:

وَكَيْفَ بِدَارٍ قَدْ حَوَتْ كُلَّ رِفْعَةٍ ... يَقُومُ لَهَا فِي الْعِلْمِ بَاعٌ وَفِي الأَدَبْ
فَيَا لَكِ مِنْ رَبْعٍ إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ ... أَهِيمُ كَمَا الثَّكَالَى أَوْ شَارِبِ الْجِبَبْ

ولو تتبعنا ما وقفنا عليه من مدح طرابلس وأهلها لخرجنا بذلك عن المقصود، ولا التفات لقول الإمام العبدري في **رحلته**: «ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس، وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عروس[1]، أقفرتْ ظاهرا وباطنا، وذمّها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقاصدها لَمَعَانُ البرق الخُلّب[2]، وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطب، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من

1 – في **رحلة العبدري** "عُرس".

2 – برق خلب: لا غيث فيه، وفي المثل: إنما هو كبرق الخلب، انظر: الميداني، **مجمع الأمثال**، دار الجيل بيروت. الطبعة الثانية: 1407/ 1987. 1/ 46.

عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر، وتفرقت عنها الفضائل تَفرّقَ الحجيج يوم النّفرِ[1]، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها خوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا، بل هي « أَقْفَرُ من جوف حمار»[2]، وأهلها « سواسية كأسنان الحمار»[3] ليس على ناشيء منهم فضل لذي شَيْبَةَ[4]، ولا لذي الفضل بينهم هَيْبَة، ترى أجساما حاضرة والعقول في عقد غيابات الغَيبة، وملابس يلبسها ليُلْبِسَ بها من ملابس العيوب العَيبة، إلى بُخل لو مازجَ ماءَ البحر جَمَد، أوخالطَ الهواء سكن في آذار وركد. وخُلْق يضيق به مُتّسع الفضاء، ونزقٍ يحق لهم في ذمهم كشف الغطاء. وأدهانٍ أربَتْ في الضيق على الخاتم، سواء لديها من حارب ومن سالم. (من السريع)

كأنّهمْ مِنْ بَعْدِ أفهامِهمْ　　　لَمْ يَخْرُجُوا بَعْدُ إِلَى العَالَمِ[5].

فسبحان من خلقهم، وأهل تونس طرفي نقيض، أولئك في الأوج، وأولاء في الحضيض. ولم أر بها ما يروق العيون، وسماعه أن يقوم بالدون، سوى جامعها ومدرستها، فإن لهما من حُسْنِ الصورة نصيبا، ومن إتقان الصنعة سهما مصيبا. وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة، لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة، فما يشب بها للعلم طفل، ولا يحج صرورة[6] : (من الطويل)

1 – النفر: التفرق. انظر: **القاموس**، 1/ 839.

2 – في المثل: أخلى من جوف حمار، و هو رجل عاد يقال له حمار بن مويلع، و جوفه واد خصيب، و فيه من كل الثمرات، فخرج بنوه يتصيدون، فاصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر وقال: لا أعبد من فعل هذا ببني، و دعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه، انظر: الميداني، **مجمع الأمثال**، 1/ 453.

3 – ينظر المثل في م. س، 2/ 100.

4 – لذي شيبة: إشارة إلى قول كُثَير بن عبد الرحمان بن الأسود، اشتهر بحبه بعزة بنت حميل، فعرف بها، كثير عزة (ولد بالمدينة توفي بالحجاز 105هـ):

سواء كأسنان الحمار فلا ترى　　　لذي شيبة منهم على ناشيء فضلا (من الطويل)

ينظر **مجمع الأمثال**، 2/ 100.؛ كثير عزة، ديوان، تحقيق د إحسان عباس، بيروت، 1390/ 1971، 384.

5 –البيت لإبراهيم بن محمد جعفر البصري بن لنْكك (ت 360هـ) و هو صاحب البيت المشهور:

نعيب زماننا و العيب فينا　　　و لو نطق الزمان إذا هجانا.

انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، دار صادر بيروت، 1392/ 1972، 6/ 114.

6 – صرورة وصروري وصرور: لم يحج قط. انظر: **لسان العرب**، 4/ 453.

وَمَا الحُسْنُ فِي وَجْهِ الفَتَى شَرَفٌ لَهُ إذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ والخَلائِــــقِ[1] "[2]

ثم ذكر أنه لم يلق بها من العلماء إلا الشيخ المسمى القاضي الخطيب أبي محمد عبد الله بن عبد السيد، وذكر ما جرى بينهما من البحث في الدرس، وأنه جلس مجلسه في التفسير، و**الموطأ**، وسأله عن مسائل *195* ما قام فيها ولا قعد[3]، يغض إذ ذاك من مرتبته وفي النجعة أبعد.

وقد علمت مدح طرابلس وأهلها وغاية ما يجاب به عن العبدري، أنه إثر بعض الفتوحات دخلها قبل أن يقوى ساعد أهل الإسلام بها، فكان لها إذ ذاك ما به وصفها، على أن الرجل قد يرد البلد على جناح طائر على ما علم من حال الركاب فلا يشتفي من خبرها. ثم وصف «قبة باب البحر من بناء الأوائل هي في غاية الإتقان، ونهاية الأحكام مبنية بصخور منحوتة في نهاية العظَم، منقوشة بأحسن النقش، مرصوفة بأعجب الرّصْفِ، مماثلةِ المقدارِ عُلويِّها وسُفليّها، ولا ملاط[4] بين الصخور من طين ولا غيره، ومن العجب ترتيب تلك الصخور ورصفها في الأساس، فضلا عن رفعها إلى السقف ورَصْفها هنالك مع إفراط عظمها، وفي مقعد القبة صخرة مستديرة منقوشة، يحار الناظر في حسن وضعها، وعلى القبة قبة أخرى عالية، ومبان مرتفعة، ورأيت للقبة السفلى بابا مسدودا، و عليه من خارجه صورة أسدين قد اكتنفاهُ مُصَوّرينِ من تلك الصخور في بدع صنعة، وأغربها، وهما متقابلتان[5] على الباب، وفي كل واحد منهما صورة لجام قد أمسك بعنانه شخص واقف وراءه، وقد منعه من به أشدّ المنع، ولعل ذلك كان لمعنى تعطل وجُهل سِرّهُ، والله أعلم.

والذي في بلاد إفريقية من عجائب البناء، وآثار الاعتناء أمر يضيق عنه الوصف»،[6] هـ.

---

1 – البيت للمتنبي في مدح سيف الدولة. انظر : **الديوان** 2/ 325.

2 – العبدري، **رحلة**، 184 – 186.

3 – م. **س**، 186 – 187.

4 – الملاط: الطين الذي يجعل بين ساقي البناء، و يملط بين الحائط. انظر : **القاموس**، 1 /373.

5 – في **رحلة العبدري** "متقابلان".

6 – العبدري، **رحلة**، 164 – 195.

وما ذكره البكري من مسجد الشعاب[1]، وعمارته وشهرته بالغة هو الذي قصد العبدري في **رحلته**، وقد دخلته في ناس من أهل البلد وطلبته، فرأينا جامعا فسيحا تهدمت أساطينه، ولم يبق من أنقاضها الحجر ولا طينة وإنما هو براح في وسطه جوابي مائل السور والأبواب كالروابي[2] ولربما يتسوره الحاضر والبادي، يقيمون به سُنة صلاة العيد غير أنه لا ينسب إلا للشعاب، والعلم في ذلك وفي غيره للملك الوهاب. وأما ما ذكره من المدرسة فلا يرفع أحد الآن إليها رأسه من اندراسها، وانطماس أعلامها. نعم بالبلد الآن مساجد كثيرة ذات الحسن والنظافة والمياه الرفيعة، غالبها تقام به الجمعة، والعتيق منها الذي لضرغوت قيل ولدي الناقة المجذعة، والمنسوب للباشا جنة مزخرفة محفوف، بيضاة مهفهفة، ومدرسة صغيرة مولفة غيرأن أئمتها مع نظافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم و التدريس، غافلين عن المنافسة *196* في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذرت، أو عادة عندهم قد تقررت، سوى فرد من الناس بدا في جنح ليلهم كالنبراس.

وقد مر بهذه البلدة بعض الأدباء من أرباب الدولة العلوية، في الأيام الإسماعيلية الماضوية، فاقتفى في وصفها العبدري، وهو في ذلك جاهل أو مفتر، إلا في إنكاره عدم التدريس، وهو فيه بريء، وإياه قصد والد قاضيها المالكي في الوقت، وهو سيدي أحمد بن عبد الدائم الأنصاري[3] بقوله:

(من الطويل)

أَرَى زَمَنًا قَدْ جَـاءَ يَقْتَنِصُ الْمَهَـا ... بلا جَارِحٍ وَالأَسْدُ في فَلَوَاتِهَـا

رَأى الْقَيْضَ مُبَيِّضًا بِمَزبلَة الْحِمَا ... فَقَالَ كَفَانِي أَنَّهُ مِـنْ صِفَاتِهَـا

أَتَى أَهْلَـهُ يَهْـجُ وَبَشَّرَ أَنَّـهُ ... بِربْقَةٍ مِنْ ظَبْيَاتِهَـا وَمَهَاتِهَـا

أَلا أَيُّهَا النَّحْرُ يَرْمه عَنْ مَذَمَّـةً ... فَمَا في الأَوَاني بَأنٍ مِنْ قَطَرَاتِهَـا

طَرَابُلُسُ لا تَقْبَلُ الذَّمَّ أَنَّهَـا ... لَهَا حَسَنَاتٌ جَاوَزَتْ سَيِّئَاتِهَـا

---

1 - البكري، **المسالك**...، 2/ 179.

2 - قال التجاني في **رحلته**: " وأثنى البكري على مسجد الشعاب وهو الآن خَرِبٌ "، ص 247.

3 - أحمد عبد الدائم الطرابلسي، شاعر، من رجال القرن الثاني عشر الهجري.

إذَا أَمَّهَا مَنْ قَدْ نَأَتْهُ بِــــــلادُهُ ... وَأَوْحَشَهُ ذُو أَمْرِهَا مِنْ حُمَاتِهَــا

تُطَاعِنُ[1] مِنْ نَفْسٍ وَمَالٍ وَعِشْرَةٍ ... وَيُضَحَّى بِعِزِّمَا ثَــوَى بِجِهَاتِهَــا[2]

فَكَمْ مِنْ دُيُورٍ أُخْرِبَتْ وَكَنَائِــسَ ... وَكَمْ مِنْ حُصُونٍ حُوصِرَتْ بِسَوءاتِهَا

وَكَمْ مِنْ بِلادٍ لِلصَّلِيــبِ مَرْكَــزٌ ... أَحَاطُوا بِهَا لَيْلًا وَأَفْنَوْا طُغَاتِهَــا

وَكَمْ مِنْ جِوَارٍ لِلْكَوَافِــرِ ضَيَّقَتْ ... عَلَى سُفُنِ الإِسْلامِ مِنْ نَفَحَاتِــهَــا

فَأَضْحَتْ بِمَرْسَاهَــا أَسِيرَةَ فُلْكِهَا ... وَعَسْكَرِهَا فِي جِيدِهَا مِنْ صِفَاتِهَـا

وَكَمْ مِنْ أُوَيْسِيٍّ بِهَا ذِي مَعَــارِفٍ ... وَكَمْ مِنْ جُنَيْدِيٍّ عَلَــى شَرَفَاتِهَــا

بِهَــا فُضَلاءُ مَا الْفَضِيــلُ يَفُوقُهُــمْ ... فَوَارِسُ أَنْجَادٌ وَهُمْ مِــنْ حُمَاتِهَــا

قَدِ اخْتَارَهَا الزَّرُّوقُ دَارًا وَمَوْطِنًا ... كَذَا ابْنُ سَعِيــدٍ مُقْتَــدٍ بِهُدَاتِهَــا

تَوَاتَرَتِ الأَقْطَابُ تَتْرَى بِأَرْضِهَا ... وَكَمْ سَيِّــدٍ رَامَ الْمَقَــامَ بِذَاتِهَــا

بِهَا عُلَمَــاءُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِــــمْ ... خُمُولٌ عَنِ الإِظْهَارِ فِــي خَلَوَاتِهَـا

وَلَمْ تَرَ غِشًّــا قَطُّ فِي جَمِيعِ أَهْلِهَــا ... وَلا قَسَمًا فِي بَيْعِهِمْ مِــنْ جُفَاتِهَــا

إِذَا حَانَ وَقْتُ لِلصَّــلاةِ رَأَيْتَهُــمْ ... سِرَاعًا وَخَلُّوا الرِّبْحَ فِي عَرَصَاتِهَا

بِهَا مَلِكٌ أَنْدَى مِنَ السُّحْــبِ رَاحَةً ... وَأَرْأَفُ بِالأَعْرَابِ مِــنْ وَالِدَاتِهَــا

لَهُ هِمَّةٌ تَدْعُو لِتَأْيِيــدِ سُنَّــــةٍ ... يَحْفَــظُ مَبَانِيهَا وَجَمْــعَ رُوَاتِهَــا

فَــلا تُبِحْ أَمًّا لِلثُّغُــورِ حَنُونَـــةً ... كَفَاهَــا مَدِيحًا عَدُّكُــمْ هَفَوَاتِهَــا

وَيَكْفِي أَهَالِيهَا مِــنَ الْمَدْحِ أَنَّهَـــا ... رِبَــاطٌ لِمَــنْ قَدْ قَــامَ فِــي حُجُرَاتِهَا

*197*وَصَلِّ وَسَلِّمْ يَا إِلَهِي عَلَى الَّذِي ... هَدَانَا بِنُورِ الْحَقِّ مِنْ ظُلُمَاتِهَــا

وَآلِهِ وَالأَصْحَابِ مَا قَالَ قَائِــلٌ ... حَذَارِ مخبث النَّفْسِ فِي شَهَوَاتِهَا[3]

وقد وقفت لهذه القصيدة على شرح لسيدي محمد بن عقيل بن أحمد بن عبد الرحمان بن غلبون الطرابلسي الدار، الدّرني أصالة، سماه: «**التذكار، فيمن ملك طرابلس أو كان بها من الأخيار**» مولعا فيه بما لا يناسب من

---

1 - في ح "تظاعن" بالظاء.

2 - في ح "ويضحى بعز إن أتى لجهاتها".

3 - لم أقف عليه في ديوانه.

الأخبار، مائلا في ذلك إلى الاختصار والاقتصار. قال على قوله: بها ملك أندى من السحب إلخ، هو يعني الملك أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى القرماني. وحُدثت أن هذا الشارح أفضى به الأمر إلى أن قتله هذا الملك لما كان إعانة للأعراب عليه، وقال على قوله: فلا تبح.

أما من حيث إنها أول ثغر فتح بالمغرب، فلا خلاف بين المؤرخين، قال: ومنها افتتحت ثغوره في الأصل، وعلى قوله حنونة، من حيث جمعها لأمور المعاش ما لم يجمعه غيرها، نخلا، وزيتونا، وتينا، وكرما، وحرثا، فلا يستولي على أهلها قحط بخلاف غيرها، هـ.

والحاصل مدح البلد وأهلها، وحسن أخلاقهم، وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها ملأ الخافقان[كذا]، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح، ومازالت الأشراف تهجى وتمدح. وقال أبو سالم: «ومع ذلك فالبلدة أكثر أحواله معروف بالغلاء، بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله، قد شاهد أهله بركة الحجاج والمجاهدين في أمر معاشهم؛ فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآيبين، ستة أو سبعة، ويصادف ذلك في كثير من الأحيان عسكر البحر للجهاد، ومع ذلك لا يزيد السعر على ما كان بل ربما نقص. إذا اجتمعت الركاب كثر الزحام على الأراحي، فيلاقي الحجاج مشقة، ولولا ما جُبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق، لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها، لصغرها وكثرة الواردين، سيما من لم تطل إقامته، ويجد كثيرا من لم يتقدم له حج، يشق عليه الخروج من طرابلس [أكثر من الخروج من بلده، وكذلك الخروج من مصر بالنسبة إلى ما قبله. وإبل طرابلس في غاية][1] الجودة، لتمرنها وخدمتها في سائر الحرف، مع طيب هواء البلد، ونقاء مرعاها، فيقل فيها الغش، وتندر أمراضها، ولذلك قيل في أمثال الحجاج «جمل طرابلسي وقربة مصرية»، لأن قرب هذه البلدة رديئة الدباغ، وماؤها خبيث المساغ، ومع ذلك لا تمسك من الماء إلا كما يمسك الماء الغرابيل، من اتكل عليها أوسعت عليه الري أول المسافة، وأوردته آخرها موارد التلف والمخافة»،[2] هـ.

1 - ساقط من د.

2 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 59 - 60.

قلت: فلقد والله كشف القناع، وما بعده من بيان *198* لمريد اطلاع، فكانت أحق بقول الشاعر: (من الطويل)

وَفِيَّ لِمَكْدُودِ الحَجِيجِ اسْتِرَاحَةٌ ... فهم يَردونَ الدَّهْرَ فَوْجًا عَلَى فَوْجِ
وَإني إلَى البَيْتِ العَتِيقِ كَسُلَّمٍ ... بِهِ يَرْتَقِي مَنْ فِي الحَضِيضِ إلَى الأَوْجِ

والقرب السودّانية أجود وأخف وأطيب دباغا، مع عزتها وقلة وجودها.

وبالبلد مزارات شهيرة وأخرى خفية[1] كثيرة. من الأولى، أبو محمد عبد الله الشعاب المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين، يذكر أن الخضر عليه السلام، كان يزوره ويحادثه في مسجده، وكان من الفضلاء الصلحاء ذوي الكرامات الباهرة، والمناقب الظاهرة، زرنا ضريحه شرقي المدينة بساحة الظهرا في بيت من مقبرة مشرفة على البحر، وكنت إذ ذاك مهتما بأمور السفر، وما استقبلته من المهامه والقفر. وكان من غريب الاتفاق أني بنفس ما دخلت الضريح وقع بصري على قرطاس أعلاه وفيه حفظكم الله بحفظه المكنون، ووقاكم من شر ما كان وما يكون، وجعلنا وإياكم من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فزال إذ ذاك عني ما بي من الهم والحزن؛ وقلت: كان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن، فظهر والحمد لله مصداق ذلك، ذهابا وإيابا من هنالك.

ومنها الشيخ الصالح أبو محمد عبد الوهاب القيسي، وقبره الآن داخل المدينة بين شرق وشمال، قريب من باب البحر في بيت صغير، وبإزائها نحو مسجد صغير، يدخل منه إلى الضريح، زرناه والحمد لله مرارا، وبه من الهيبة ما يكسب زائره إبهارا. ولأهل البلد بزيارته كمال الاعتناء؛ بل يعتقدون أنه[2] رب الثغر والفناء، وحقيق بذلك وبمزيد الفضل والثناء. يحكى أنه رأى النبي ﷺ نحو من أربعمائة مرة، يشاوره في أموره، وجميع ما عنّ له من شؤونه، ويشير عليه فيها بالصواب، حسبما دونت مرائيه في غير ما

---

1 – في خ "خفيفة".

2 – ساقطة من د.

كتاب. وكنت إذا حللت ضريحه أشم فيه رائحة المسك جزما المرة بعد المرة، كما شوهد ذلك بضريح الإمام الجزولي بمراكش، صاحب **دلائل الخيرات**، نفعنا الله بهما، وبأمثالهما في الحياة، وبعد الممات.

وأنشدني الجهبذ الهمام فيه، مصطفى المدعو المدرس على مذهب أبي حنيفة الإمام، القاطن بالبلد من الأعلام، للشيخ زروق، قال: حسبما وجد بخط جده سيدي أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، قال: وجدت بخط الإمام زروق في ولد ولد للقطب سيدي عبد الوهاب القيسي الطرابلسي ما نصه:

(من البسيط)*199*

يَــارَبِّ وَفِّقْ فَتى قَدْ دَانَ بِالكَــرَمِ ... وَأَتْمِــمْ لَهُ عَائِدًا مِنْ ظَاهِرِ النِّعَــمِ

وَافْتَــحْ لَهُ رَبَّنَا فِي قَصْــدِهِ أَبَــــدًا ... وَاجْعَلْ مَقَاصِدَهُ فِي أَرْفَعِ الْهِمَــمِ

وَانْظُــرْ لِحَالَتِهِ فِي ضُعْــفِ هِمَّتِهِ ... حَتَّى تَنَالَهُ الَّذِي يَرْجُوهُ مِنْ عِظَـمِ

وَالْطُــفْ بِهِ دَائِمًــا فِي كُلِّ نَازِلَــةِ ... وَاحْفَظْهُ يَارَبَّنَا مِنْ كُلِّ مَنْ يَلِسِـمِ

إِذْ قَدْ أَتَى قَاصِــدًا فَضْلاً وَمَكْرُمَةً ... بِنِيَّةٍ يَالَهَا مِنْ خَيْرِ مُلْتَــــــزَمِ

أَجِزْتَــهُ رَبَّنَا فَاغْفِــرْ مَــــــأْتَمَــهُ ... وَجَازِهِ فِي اللِّقَا بِالْفَضْــلِ وَالْكَرَمِ

أَعْنِي بِــهِ الْقَابِسِيَ نَجْــلَ الْوَلِيِّ لَهُ ... مَكَارِمُ قَدْ أَتَتْ تَتْرَا عَلَى الأُمَــمِ

وَتَــرِكَ حَالاً لَهُ فِي الْحِـينِ سَابِقَةً ... مِنْ بِدْعَةٍ أَوْ هَــوًى يَــوَدّ لِلْمُتَــزَمِ

وَرَبُّنَا يهْدِيهِ لِلْخَيْــرِ أَجْمَــعِــــهِ ... وَهْوَ الْكَرِيمِ الَّذِي يُرْجَى لِلْمُعْتَصِمِ[1]

يا حي يا قيوم، يا باسط، يا جواد، يا كريم، يا ذا الطول، يا وهاب، يا غني، يا فتاح، يا رزاق، وصلى الله على سيدنا ومولانا[محمد][2] وعلى آله وصحبه وسلم تسليما دائما أبدا كثيرا إلى يوم الحشر والقرار انتهى ما وجد بخط الشيخ زروق.

ومنها، ولي الله بلا نزاع وحامل راية أوليائه بلا دفاع، سيدي سالم المشاط، صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة، وقبره معظم عند

---

1 – في ح "لمعتصم".

2 – ساقطة من جميع النسخ.

الخاصة والعامة، زرناه مرارا، وغير ذلك من المشهورين، كسيدي يعقوب، وصاحب فتح المدينة، الفتح الأخير، سيدنا ضرغوت، وسيدي المصري في جنوب البلد، والإمام ابن مساهل، خارج البلد، ومن معه في مقبرته. وتزعم العامة اليوم من أهل البلد، أن بهذه المقبرة صحابيا اسمه المنيذر- مصغرا- وهو بها، زرناه بالنية؛ ولم أقف على من ذكر من المؤرخين أن بطرابلس قبر صحابي ولا بعد، إذ ما فتحها إلا سيدنا[1] عمرو بن العاص كما تقدم بنفسه، أو بعث إليها، وهي وإن لم يقع في فتحها قتال، [فيحتمل أن يموت بعض الصحابة في غيره، في ذلك العهد، ويدفن هنا، والله أعلم][2] بغيبه. على أن بالبلد قبور الشهداء والمجاهدين، ممن جاء بعد الصحابة رضي الله عنهم[3].

ومنها، سيدي محمد الصيد وابنه سيدي عبد الحفيظ[4]، ومقبرتهما في زاويتهما في مكان يسمى الهنشير[5]، على ستة أميال من المدينة، والصيد بلغة أهل طرابلس الأسد؛ سمي بذلك لقهره للجبابرة، ولعدم اجتراء أحد على معارضته. أخذ الطريقة عن أبي معزة التلمساني، وهو عن سيدي أبي عمرو المراكشي، ولذريته اليوم *200* كمال محبة في ذرية أبي عمرو، والسؤال عنهم. والصيد المذكور هو شيخ ابن مساهل، زرناه وتلقانا بنوه بالترحيب[6] والإكرام، توفي سنة خمسين وألف.

ومنها، العارف بالله سيدي محمد بن سعيد، المتوفى سنة إحدى وعشرين ومائة وألف، وقبره بزاويته بالعمروس، قرية شرقي المدينة بأطراف المنشية لناحية تاجورة[7]، يعمر بها يوم الجمعة سوق عظيم. أخذ هذا الشيخ الطريقة عن الشيخ الهبري، وكان أميا إذا تكلم في العلم سحر،

---

1 - ساقطة من ح.

2- ساقط من د.

3- ساقطة من ج.

4-في د "الحافظ". وفي **الإعلام** "الحفيظ". 6/207.

5-في د "الهنشر".

6- في **الإعلام**... "بالترحاب". 6/207.

7 - في **الرحلة الناصرية** لأحمد بن ناصر "تاجوراء" ص: ٨٨.

وله كرامات خارقات للعادات، ورسائل عجيبة في الطريق، منها ما حكاه في بعضها، قال: و في صباح الليلة التي كتبتها: طلبت من الله تعالى الإذن فيها، فكنت في معراج لا أعرفه من بعد، ولا رأيته في نص؛ وإذا بالكون العلوي كله قد سجد وانحط تحت السفلى كما ينحط الطير من الهوى إلى الأرض سجودا لله، وأنا روحي لم تسجد معه، فقلت: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[1]، وتأبى روحي السجود. وأخذت أتفكر في ذلك حتىَ تذكرت أن العارف يتجاوز مقام الطوع والكره لأنها من الرجا، والراجي والخائف لا يدخل حضرة الله التي هي مقام الحيرة ومقام المعرفة، ولا يكون له خوف ولا رجاء، إذ لا يخاف إلا من كانت له سيئات، ولا يرجو إلا من كانت له حسنات، نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، هـ.

ووقفت بزاويته يوم زيارته على رسائل محتوية على نفائس من كلام القوم، جرت بينه وبين الشيخ أبي العباس ابن ناصر، من كل منهما للآخر، بيد بعض أولاد الشيخ المذكور[2]، فضنّ بها وامتنع من تمكينها مني، زاعما أنه وقع منه يمين مغلظة في ذلك.

ومنها، الشيخ العالم العارف الزاهد الناسك الورع الصوام، أبو العباس أحمد بن جابر؛ وكان معاصرا لابن سعيد المذكور إلا أنه تأخر عنه بالوفاة، وكان متقشفا منقبضا عكس ابن سعيد.

ومنها، الشيخ المراغتي ولم يظهر إلا بعد وفاة ابن جابر، وله كالذي قبله ذرية موجودة.

ومن مزارات[3] طرابلس التي لم تعرف اليوم قبر أبي نزار الشيخ خطاب البرقي، والشيخ أبوعثمان سعيد بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب، كان قبل زمان ابن أبي زيد وفي زمانه. ولما رجع محرز بن مخلف من

---

1 -الرعد: 16.

2 - ساقطة من د.

3 - في خ "مزار".

الحج قيل له من رأيت في طريقك من الصلحاء، فقال: رأيت بطرابلس رجلا وامرأة: أبا حسان العثماني، وسمدونة، وكانت عجوزا صالحة *201* تسكن مسجد الشعاب، وكان خطاب البرقي يزورها، ويعتقد بركتها[1]، ويحكى أن سحنون بن سعيد لما رجع من الحج، قيل له: من رأيت من الصالحين؟ فقال: لقيت بطرابلس رجالا ما الفضيل وابن عياض بأفضل منهم.

ومنها، أبو الحسن علي ابن أحمد بن الخطيب الطرابلسي الفقيه الفرضي، وله تآليف، أقام أربعين سنة لم يضحك، ونحوا من خمسين سنة لم يحلف بالله يمينا، وقال له ابن أخيه عند ما أملى وصيته، أنسيت الكفارة؟ فقال: لولا أني في الموت ما أخبرتك، ما حلفت بالله تعالى منذ كذا وكذا، محقا ولا مبطلا، وما علمت أن علي يمينا أكفرها.

ومنها، الفقيه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله، الأجذابي اللواتي الطرابلسي، كان عالما بجميع العلوم، ذو التآليف، منها، **كفاية المتحفظ** و**رسالة[2] الحول**، تعرب عن أدب كثير، وحفظ غزير؛ سبب تأليفه لها أنه حضر يوما بطرابلس عند القاضي بها[3] أبي محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مانش الطرابلسي فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه، فرد عليه أبو إسحاق، فقال له: اسكت يا أحول، بما استدعيت ولا استفيت؛ فألف تلك الرسالة.

ومنها، كتاب في أنساب قريش، قال ابن مغيث: هو كتاب عجب لا كتاب نسب. ولم تكن له رحلة من طرابلس لغيرها، وقد سئل أنى لك هذا العلم، ولم ترحل؛ فقال: اكتسبته من بابي[4] هوارة وزناتة؛ وهما بابان من أبواب البلد، نسبا إلى من نزل بهما أول الزمان، يشير إلى أنه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يقدم على طرابلس، يدخل من هذين البابين، من المشرقين والمغربين.

1 - في د "بركة".
2 - ساقطة من د.
3 - ساقطة من د و ج.
4 - في د "باب".

ومن علماء طرابلس، الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الفرضي، اشتهر فضله وعلمه، وله تآليف، منها: **الكافي في الفرائض**. وقد لقي الشيخ ابن أبي زيد وقرأ عليه، ولقي بمكة أحمد بن زريق البغدادي، وروى عن ابن القاسم، وعاد لطرابلس ولم يزل بها إلى سنة ثلاثين وأربعمائة. فخرج منها بمحنة جرت عليه فتوجه لغافية، قرية من قرى مسلاتة، فسكن بها حتى توفي، وقبره الآن على الطريق بها؛ والناس إلى الآن يزورنه، ويذكرون أن كل رفقة استصحبت شيئا من تراب قبره، فإنها مؤمنة لا يتعدى عليها. وهو أول من أظهر السنة بطرابلس، لما كانت بإفريقية الواقعة المعروفة بوقعة الشارقة[1] سنة سبع وأربعمائة قتل فيها الشيعة وأتباعهم، وعلى يديه ﷺ قتل من قتل بطرابلس منهم، وهو أول من قطع*202* من الأذان «حي[2] على خيري العمل»، وأذن في ذلك اليوم آذان أهل السنة بنفسه، وقد قتل بنو عبيد من أسقط هذه اللفظة من أذانهم تعمدا، أو نسيانا، وأول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام، وقد كان رسمها أنمحى من إفريقية. قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله: لما[3] دخل بنو عبيد القيروان أرادوا أن يمنعوا الناس من هذه الصلاة، قال: وليس شيء أشد على بني عبيد منها، فقيل لهم: إنكم توغرون بهذا الفعل قلوب العامة، فإنهم يقولون: منعونا من الصلاة. فأمروا الأئمة أن يختموا كل ليلة ختمة كاملة، وأن لا ينقصوا شيئا منها، فصلى الناس أول ليلة بوفرهم، فلما كانت الليلة الثالثة نقصوا، ولم يزالوا ينقصون لثقل ما كلفوا به حتى خلت المساجد منهم كما أرادوا، وأسقط[وا] الناس القيام بهذه الصلاة. فكان أبو الحسن أول من أحياها بطرابلس، وقدم أبا مسلم موسى بن فرج فصلاها بالجامع الأعظم؛ ولم تكن إذ ذاك صليت به لأنه من بناء بني عبيد، وأول من أطلق للناس صلاة الضحى جهارا، ولم يكن أحد في مدة بني عبيد يصليها إلا مستخفيا بها، فإن ظهروا عليه قتلوه. ومر بعض عمالهم برجل بشاطئ البحر يصلي وقت الضحى وسأله عن صلاته، فذكر أنه كان

---

1 –في د " الساقة ".

2 –في خ " حتى".

3 –ساقطة من د.

جنبا فلما مر بالبحر نزل واغتسل، وقضى صلاة الصبح، فلم يقبل ذلك منه، وأمر به فالقي [به][1] في البحر إلى أن مات.

وبالجملة فهذه البلدة رفيعة[2]، في بحار الجمال والحسن عريقة، أعطيَ ساكنُها الشجاعةَ والنهاية في الحزم والبراعة، اشربت قلوب الكفرة منهم مهابة، ما أرادهم أحد بسوء إلا الله تعالى كالملح أذابه، أمطرالله عليهم سحائب الرحمة، ودمر أعداءهم من سائر الكفر والظلمة؛ تراهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يألون من إسدائهم وأكرامهم، تسمح أياديهم بالعطايا، وموائدهم بالهدايا. وزاد البلد حسنا ما بساحتها من المنشية ذات النخيل البهيج، والمناظر الرائقة، والفواكه الفائقة، يَكلُّ عنها نُطاق البيان، ولا يضبطها لسان ولا بنان؛ لا سيما الأترج الذي لا يوجد بغيره له منظار[3]، والليمون الذي يتخذ منه أنواع الأزهار، لتنظيف الثياب والأبدان، ولله ذر القائل في غابر الأزمان: (من الطويل)

إِذَا زَارِكَ الأَحْبابُ كُن ذَا لَطافَـــة وَأكـــرِمْ وقـاكَ اللهُ كـــلَّ مَخافَـة
*203*فإن ضاقت الأخلاقُ من ذي كثافةً فَقُمْقُمُ ماءِ الـــوَرْدِ حُسْنُ ظَرَافَـــةٍ

ولنعين من اجتمعنا به من فقهائها وسائر من لقيناه من فضلائها، منهم: قطب دائرتها وشمس جارية في فلكها الشاب العلامة الدراكة الفهامة، سليل الأولياء، ونخبة الأصفياء، سيدنا أبو عبد الله محمد العربي، لا زال مولاه عليه من فضله يُربي له المشاركة في العلوم مع مزيد الذهن الثاقب، والفهوم على مذهب الإمام مالك السالك فيه أحسن المسالك، رحل للحرمين، ولازم من بمصر من الأئمة فانقلب بعلم وافر بغيرمين. وكان مما أنشدني لابن دقيق العيد[4] : (من الوافر)

1 – زائدة في النسخ باستثناء ح.

2 –في د "أنيقة".

3– في ح"مناظر"ولعله هو الصواب، لولا ضرورة السجع التي جعلت المؤلف يحيد عنه.

4– محمد بن علي بن أبي العطاء المعروف بتقي الدين بن دقيق العيد، الفقيه الأصولي، تفقه على المذهبين المالكي والشافعي، له تآليف منها شرح العمدة في الأحكام وشرح قطعة من **مختصر** ابن الحاجب وله ديوان خطب، ولي قضاء الشافعي بمصر. مولده سنة 625 هـ وتوفي سنة=

لقَدْ كَثُرَتْ دُعَاةُ العِلْمِ حَتى ... لَقَدْ كَثرَ النَّهيقُ عَلى الصّهيلِ
فَمَا كُل الوقودِ كُنار موسى ... وَلاَ كُلُّ الفَواطِمِ كالبَتُولِ

وأتحفنا بعض الأحباء بفل وياسمين، وهو الأحب الجامع حسن الأخلاق، سيدي مصطفى بن محمد بن مقيل الأمين، حضرته فأنشدته ارتجالا في هديته: (من الرجز)

أَتْحَفَنَا بِالفُل وياسمينَ ... يَا دَوْحَةَ المَجْدِ مِنَ الأكْرَمِينَ
يَا قُرّةَ الْعَيْنَيْنِ يَا مُصْطَفَى ... نَجْلَ مَقِيلِ أَنْتَ ذُو نَسْبَتَيْنِ
لله مَا أَبْهَاكَ فِي بَلْوَة ... تزْهُو بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ نَسْمَتَيْنِ
اسْهَمَ أَخيا لُكَ فِي غَيْبَةٍ ... بِدَعْوَةٍ يَسْمُو كَمَا النَّيِّرَيْنِ

فسألت صاحب الترجمة «فُل» بالضم أم بالفتح، فقال: بالضم، وأنشد على ذلك للشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى: (من المتقارب)

دَخَلْتُ الْجُهْنَيَّة أُسْتَاذَنَا ... وَجَدْتُ بِهَا كّلَّ رُوحٍ وَفُلِ
تَعَاظَمَ قَدْر أَوْجِهَا لَمَّا ... تَضَاعَفَ فَوْرَ عَدِّه وَفُلِ

وأنشدني لغيره من أهل الزمان في والد سيدي مصطفى المذكور رحمه الله، وكان من المحبين في الذرية الناصرية، ومقدم التلقين بالبلد، توفي قبل وصولنا البلد بأشهر رحمه الله: (من المُجْتث)

قُلْنَا لَدَى بْنِ مَقِيلِ ... السَّيِّدِ النَّبِيهِ النَّبِيلِ
في رَوْضَة مِنْ عُلُومٍ ... مزَاجُهَا سَلْسَبِيلَ
يَا رَبَّنَا احْفَظ عُلاَهُ ... وَاخْتِمْ بِخَيْرِ جَمِيلَ

ولما خرج في طائفة لتوديعنا، وقد ضاق بعض أزقة[1] المنشية علينا لما غصت به من إبل الركب، فرجع بنا ذات اليمين، فقال[له بعض الصحب:

=702 هـ/1302 م. ترجم له: مخلوف، **شجرة...**، 1 /270 – 271 رقم 663 ؛ابن فرحون، **الديباج...**، 411 – 412؛ جعفر الأدفوي، **الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد**، المطبعة الجمالية، مصر 1332 /1914، 317– 338.

1 – ساقطة من د.

أنت اليوم الدليل؛ فقلت: إلى خير سبيل][1] وأنشدته ارتجالا، استدعاء لشعره إذ قيل إنه من ذي صدره: (من البسيط)

نِعْمَ الدَّلِيلُ أَنْتَ هُوَ بَلْ وَالسَّمِيرُ كُنْتَهُ
أَبْقَاكَ رَبُّ الْعُلاَ وَلَيْسَ إِلاَّ أَنْتَ هُوَ

204 فأجازني ارتجالا بقوله: (من الرجز)

مَا زَانَ دُرَّ نَحْرِهِ وَلاَحَ نُورَ فَجْرِهِ
إِلا ابْنُ عَبْدِ السَّلاَمِ الْفَذُّ لاَ مِنْ غَيْرِهِ

ومنهم الفقيه البركة الطائع لربه في السكون والحركة، الشيخ الضرير أبو عبد الله محمد بن مكرم المالكي، له المشاركة في العلم والإنصاف فيه، رحل لتونس وجربة وغيرهما فتخرج بتونس على الشيخ الغرياني، وبجربة على سيدي إبراهيم الجُمني الصغير، وله منهم إجازات، وأنشدني لغيره: (من الكامل)

احرصْ عَلى حِفْظِ القُلُوبِ منَ الأَذَى فَرُجُوعُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ يَعْسُرُ
إِنَّ القُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَ وُدُّهَا مِثْلَ الزّجَاجَةِ كَسْرُهَا لاَ يُجْبَرُ

ومنهم قاضي المالكية المسن البركة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، تردد إلينا مرارا، وزار معنا صلحاء البلد، وله كمال المحبة وجميل الاعتقاد.

ومنهم الأبر الجواد، أبو عبد الله محمد بن الحاج الكلاني المالكي، تردد في قضاء حوائجنا، وأوقفنا على سفر البيوع من شرح الخضيري الفزاني على **مختصر خليل**، وهو شرح لابأس به مبسوط سهل التناول، في أربعة أجزاء ضخام معتن فيه بجلب النقول، وليس بذلك بحثا، وهو القائل بنجاسة الزبد، كما في **رحلة** الشيخ أبي سالم.

ومنهم الدراكة الفهامة، الحاج عمورة بن علي الجذع - به عرف - تردد إلينا وأتحفنا **بمناسك** ابن فرحون، جزي خيرا ووقي ضيرا.

---

1 -ساقط من د.

ومنهم ذو الحالة المُرضية والمواهب الكونية[؟] سيدي مصطفى المدرس - به عرف - الأنصاري، خطب بجامع الترك خطبة تلين لها القلوب، وتجود لها العيون بما لديها وتؤوب، وهو[1] حنفي المذهب، سرى إليه ذلك من قبل كونه في حجر جده لأمه، وكان على ذلك المذهب.

ومنهم خطيب جامع الباشا في الوقت سيدي مصطفى بن أبي بكر الحنفي، كان والله على سمت. ومنهم المسن البركة الأبر سيدي أحمد بن مسعود الحنفي، وكان أخذ العهد الناصري من عمنا الشيخ أبي يعقوب، وكان والله محبا هينا لينا.

ومنهم المسن البركة سيدي علي بن عبد الرحمان عشو.

ومنهم الحاج الفاضل محمد بن عليش ذي الخلق والخلق المستحسن.

ومنهم الهمام أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن عبد الصادق[2] شارح **المرشد** وملقن العهد الناصري في زمانه، حدثني حفيده هذا أنه رأى أيام غربته بتونس **رحلة** لابن العربي المعافري المالكي في أسفار، وأوقفني على تآليف مبيضات لجده المذكور، منها شرحه على **المرشد المعين**، وعليه من تقريظ لأبي سعيد عبد السلام بن عثمان التاجوري بخطه ما نصه *205*: (من الرجز)

جَازاكَ فِي الدّارَيْنِ رَبٌّ خَالِـقٌ ... مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يَا ابْنَ عَبْدِ الصَّادِقْ

فَلَقدْ أجَـدْتَ القَـوْلَ فِيمَا رُمْتَـهُ ... مِنْ حُسْنِ سَبْكٍ فِي اخْتِصَارٍ رَائِقْ

مَا أَنْ رَأَيْنَا مِثْلَ مَـا أَبْـدَيْتَـهُ ... [فِي شَرْحِ مُرْشِدِنَا العَظِيمِ الفَائِقْ][3]

مَـنْ لا يَبْلُغَنَّ مِعْشَارَ مَا قدْ ضَمَّـهُ ... مَمْدُوحَ شَرْحِكَ صَامِتٌ أوْ نَاطِقْ

لَوْ شَامَهُ مَيَّارَةُ مَـعَ شَرْحِـهِ ... لأقَرَّ قطْعًا أنْ شَرْحَكَ فَائِـقْ

---

1 -ساقط من د.

2 - هذا ابن عبد الصادق الطرابلسي غير ابن عبد الصادق الدكالي الفرجي شارح المختصر الخليلي الذي أفتى في قضية إحداث المكس بفاس وسائر أقطار المغرب، وقد غلط صاحب الاستقصاء حيث جعله الطرابلسي، وهذا الغلط سلم منه الزياني والكنسوسي(اللذين) ما ذكر لفظ الطرابلسي. انظر: المراكشي، **الإعلام**. . . ، 207/6 هامش 1.

3 - ساقط من ح.

أَوْ قَـدْ رَآهُ عَاشِرٌ مِـنْ قَبْلِـــــهِ لأَشَارَ لأَبْنِه أنَّ هَـذا السَّابِــــقْ
إنْ كُنْتَ فِيمَا قَدْ تأَخَّـرَ عَهْـــدُهُ فلأَنَّكَ في بَحْـرِ العُلُومِ الفائِــــقْ
فَضْلٌ مِنَ الرّحْمَانِ فَاشْكُرْهُ عَلَى أَنْعَامه فَهُوَ الكرِيمُ الـــــرَّازِقْ
لازِلْـتَ مِقْداماً لِكُلِّ فضيلَـــــة لا يَلْحَقَنَّـكَ في الَمكارِمِ لاحِـــقْ
وَمُحِبكُمْ عَبْدُ السَّلامِ مُؤْمِــــلٌ منْكُمْ دُعاءً مِنْ فُؤادِ صَـــادِقْ
بِصَالِحِ حَـالٍ فِي الحَيَاةِ وَبَعْــدَهُ خَتْمٌ بِخَيْرٍ يَرْتَضِيـهِ الخَالِــــقْ

ومنهم من الحنفية أيضا: سيدي مصطفى بن الباشا يدعى: وَلْدْ شابْ رَاسُو، وكان ظريفا ذكيا ذاكرا.

ومنهم خاتم الوقت في أوانه، محط رجال أهل الدين والخيرفي زمانه، كاتب الجناب العلي الشأن، سراج مملكة آل قرمان، لازال في عز وأمان، بجاه المختار من مضر وعدنان، سيدنا مصطفى بن قاسم المصري خوجة – وبه عرف ـ الحنفي المذهب، وبه وصف، كان من سيرته الحميدة ومنارته المجيدة أنه ابتنى جامعا ومدرسة، وأوقف عليها كتبا جمة، وجعل بها مرتبا لمن يناولها من الطلبة، ومهما سمع بكتاب يراد للبيع إلا واشتراه، ويبعث حتى إلى مصر والحجاز وإفريقية وما والاها، ولا يسمع بتأليف من تآليف علماء الزمان، إلا واستنسخه ولو بأغلى الأثمان، تراه يكتب بيده أو يستأجرغيره من نساخ بلده. وكان مما استنسخه لنا طالبا أجره من خالقنا: ابن الشاط على فروق القرافي، والوانوغي على **المدونة**، وزروق على البخاري[1]، والشيخ عبد الغني النابلسي على إضاءة الدجنة في شرح عقائد أهل السنة للمقري، وحواشي الشيخ أبي البقاء الفاسي دارا[2]على شرح ميارة على **التحفة**، وتركته بعد مفارقة البلد رجوعا من الحرمين يستنسخ لنا من النكاح إلخ، من **تكميل التقييد** لابن غازي على **المدونة**، وحواشي أبي زيد عبد الرحمان العارف على البخاري، والأبي على فروق القرافي. فلما وصلنا البلاد، بعثها لنا مع الركب الفاسي، [تقبل الله منه، وأتحفني بزيادة شرح

1 –طبع بالقاهرة سنة 1975 في خمسة أجزاء.

2 – ساقطة من د.

الشيخ ابن زكري الفاسي][1] على **نصيحة** الشيخ زروق في سفرين، فجزاه الله عنا وعن سائر المسلمين خيرا، إذ عادته هذه مع كل من مر به مشرقا *206* أو مغربا دهرا، لا أخلى الله منه ومن أمثاله البلاد، ولا فقده أهل ذلك الناد، ورزقه من صلبه ذرية عاملة بعلمه إلى يوم التناد. أدخلنا بيته ومدرسته وبالغ في القِرى، وأراني كتبه، فكان ممن استغربته لديه **نوازل** ابن عظوم القيرواني في مجلدين، وأوقفنا على شرح أبي الحسن علي بن إبراهيم بن إدريس بن يعقوب الأنطاكي على **البردة** في عدة أجزاء ضخام، وعلى **بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان**، لكتاب الإنشاء بالحضرة التونسية، وترجمان أميرها، حسين باي بن علي، من أهل أواخر القرن الحادي عشر، في مجلدين من الكبير. قال: والكتاب مرتب، لقيه بالتركية فعربه، واسرد علماءهم إلى زمانه. وعلى **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** لمؤلفها محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن مصطفى الوزير لقب الأندلسي نسبا، المالكي مذهبا، الأشعري اعتقادا، الشاذلي لياذا[؟]، التونسي ميلادا، ألفه في سن الأربعين في قرننا هذا، في ثلاثة أسفار من الكبير، وهو كتاب جليل في بابه.

ومنهم سيدي مصطفى بن أحمد بن مقيل المذكور، وأنشدني، وقد أتى ببيتين عجيبين لغيره:

(من البسيط)

التِّينُ يُعْجِبُنِي مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ حَيْثُ ... اسْتَوى وَالنَّدَى[2] فِي غُصْنِهِ الْبَاهِي

موسِمُ الْخَدِّ قَدْ سَالَتْ مَدَامِعُهُ ... كَأَنَّهُ قَدْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

قلت في المعنى: (من الرجز)

أَهْلاً بِتِينٍ جَاءَنَا ... مُنَضَّدًا عَلَى طَبَقْ

فَبَعْضُهُ يَحْكِي الضُّحَى ... وَبَعْضُهُ يَحْكِي الْغَسَقْ

---

1 –ساقط من د.

2 – في ح "التوى"، وهو الأقرب إلى الصواب، ويؤكده سياق ما قبله.

وأنشدني، وقد ذكر والده وتأوه على فراقه، رحمه الله تعالى، آمين: (من الرجز)

الْمَوْتُ أَفْنَتْ مَا مَضَى وَالْمَوْتُ تَفْنِي مَا بَقِي
يَا مَنْ أَسَى فِيمَا مَضَى كُنْ مُحْسِنًا فِيمَا بَقِي
الله يَجْمَعُ فِي الثَّرَى بَيْنَ السَّعِيدِ وَالشَّقِي

وأنشدني أيضا: (من الطويل)

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَبْقَى سَعِيدًا مِنَ الوَرَى وَتَحْظَى بِهِ بَعْدَ النَّبِيِّ الأَكْرَمِ
فَلاَ تَبْكِ إِلاَّ عَلَى فَقْدِ عَالِمٍ يُبَالِغُ فِي التَّعْلِيمِ لِلْمُتَعَلِّمِ
وَفَقْدِ إِمَامٍ عَادِلٍ صَانَ مُلْكَهُ بِأَسْرَارِ نُورِ الْعِلْمِ لاَ بِالتَّحَكُّمِ
وَفَقْدِ وَلِيٍّ صَادِقِ الْوَعْدِ وَالْوَفِي مُطِيعٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الْمُعَظَّمِ
وَفَقْدِ شُجَاعٍ مُخْلِصٍ فِي جِهَادِهِ قَدْ انْتَشَرَتْ أَخْبَارُهُ بِالتَّقَدُّمِ
وَفَقْدِ سَخِيٍّ لاَ يَمَلُّ مِنَ[1] الْعَطَا يُفَرِّجُ هَمَّ الْعُسْرِ عَلَى كُلِّ مُعْدِمِ
فَهُمْ خَمْسَةٌ يُبْكَى عَلَيْهِمْ وَغَيْرُهِمْ إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ خَثْعَمِ

وأنشدني أيضا: (من الرمل)

مَنْ مَشَى مَشْيَةَ تِيهِ[2] وَنَسِيَّ مَا كَانَ فِيهِ
وَتَرَدَّى بِرِدَاءِ لَيْسَ مِنْ ثَوْبِ أَبِيهِ
سَوْفَ يَأْتِيهِ زَمَانٌ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ فِيهِ

ومنهم أخوه الأكبر أبو العباس سيدي أحمد، وتولى الفتوى على مذهب مالك بعد وفاة أبيه، وفقنا الله وإياه لطاعته *207*، وأضافنا وإخوته مرارا، وترددوا في قضاء حوائجنا ليلا ونهارا، وأرونا ما لديهم من الدفاتر. ومما استغربته لديهم **مختصر الحاج الجوهري** لمحمد بن أبي بكر الرازي، وزاد عليه زيادة وهذبه ونقحه في سفر، ومنها **لب الألباب فيما تضمنه أبواب الكتاب من الأركان والشروط والموانع والأسباب** لمحمد بن عبد الله بن راشد البكري

1 – في خ "عن".
2 – في د "تقية".

نسبا، القفصي بلدا، شارح ابن الحاجب في الفقه، والفائق له في سفرين. قال في أوله بعد أن ذكر أنه كان بمحروسة مصر لدى شيخه شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي صاحب **الفروق** وغيرها، ثم انتقل لبلده قفصة، فلم يجدها على ما عهد ما نصه: ولما حللت بها وجدت تلك البضاعة لا تعرف، وتلك الطريقة لا تؤلف، وإنما دأب أهلها نخل يؤبرونها، وغلة ينتظرونها، وأرض للزراعة يثيرونها؛ طالب العلم بينهم كالمصباح في الصباح، وكالقبيحة بين الصباح، والعجما بين الفصاح، وغيرُه الملحوظ في الغدو والرواح، الفائز بالمعلى عند إمالة[1] القداح، كالبدر يُرقب خفيا ويُترك عند الكمال والاتضاح.

ولله در القائل، وإن لم يأت في وصف بلد الفلاحة بطائل، بلد الفلاحة لوأتاها جدول- أعني المطية- لاغتدى حراثا، تصدى بها الأفهام بعد صقالتها، وترد ذكران العقول إناثا، إلى أن قال: وقد ابتليت[2] بها بمن يبغض العلم وأهله، ويقطع من اعتلى به حبله، وإن كان الحسد في الناس في القديم، لا يختص به بلد من إقليم. ألا ترى إلى قول القاضي أبي محمد في بغداد: الناس ناس، والزمان زمان، وبغداد دار لأهل المال واسعة، وللمفاليس دار الضنك والضيق، أصبحت حيرانا أخشى أزقتها، كأنني مصحف في بيت زنديق. قال: من شرب من الكأس الذي شربت، وامتحن[3] لما به امتحنت، رأى ما لقيت به، يعني في كتابه هذا من الغرائب، وعلم أن اشتغالي بالعلم من أعجب العجائب، ومن نظر بعين الحسد فمزاج عقله قد فسد[4]، ولا مبالاة إلا بذي العقل السليم ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[5]، هـ. وناهيك بهذا الرجل وبتأليفه خصوصا الفائق.

ومنهم أبو الحسن علي بن عمرو بن كوار المسلاتي، ومسكنه بقرب زاوية الصيد بالساحل، وسأل عما في المسبعات في قوله: اللهم افعل بي وبهم

1 - في ح "إجالة"، ولعلها أنسب.

2 - في د "بليت".

3 - في د "اصتحب".

4 - بياض في ح .

5 - الأحقاف : 10.

عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهله إلخ، هل هذا مطابق لآداب الدعاء المقرر؟

فقلت: المسبعات واردة، فإن *208* ثبت من نص الشارع، كان ذلك عين النص في الجواز، فعارضني بقول الشبرخيتي في **شرحه على الأربعين النووية**، ما نصه: من شرط الدعاء أن لا يعقبه بما هو شأنه تعالى، كاللهم افعل بي ما أنت أهله في الدنيا والآخرة. فأجبت، بعد التأمل، بأنه تكثير من الشروط قبله، شرط كمال، وهو لا يعارض الوارد في المسبعات، على فرض ثبوته حديثا، بحمله على التشريع وبيان الجواز، وذلك لا ينافي أن الأكمل خلافه، وللبحث فيه بحال.

ومنهم أبو الحسن علي المجريسي نسبة لبلدة من زنزور، القاطن في الوقت بتاجُورة. و سأل عن حديث «إذا أكلتم فافضلوا وإذا شربتم فاسأروا[1]»[2]، فأجبت بأني لا أعرفه، ولئن صح فمخصوص بقوم دون آخرين، أو بحالة دون أخرى، والله أعلم. ثم راجعت ابن عراق والقليوبي فلم أجده. نعم وجدت السخاوي أورده في **المقاصد** مبيضا بعده، وكأنه لم يجد له أصلا. وأنشدنا وقد بدا فيه التأسف على ذهاب العلم وأهله، وضعف طالبيه وكساد سوقه: (من الرجز)

شَيْئَانِ أَشْهَى مِنْ عُتَاقِ الْحُـمْـرِ[3] ... مِـنْ شُرْبِ الشَّـرَابِ الأَسْـوَدِ
وَأَجَلُّ مِـنْ رُتَبِ الْمُلُـوكِ عَلَيْهِمْ ... حُلَـلُ الْحَرِيـرِ الْمُطَرَّزِ بِالْعَسْجَـدِ
سُودُ الدَّفَاتِـرِ أَنْ أَكُونَ جَلِيسُهَـا ... طُولَ الزَّمَـانِ وَظِلُّ بَرْدِ الْمَسْجِدِ

---

1 – إذا شربتم فاسئروا أي أبقوا منه بقية، والأسم السؤر. ومنه حديث الفضل بن عباس " لا أثر بسؤرك أحدا " أي لا أتركه لأحد غيري ومنه الحديث " فما أسأروا من شيئا " ويستعمل بالطعام والشراب وغيرهما. انظر: **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت 606 هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، سنة 1399هـ، 2/ 327.

2 – ينظر الحديث في **كشف الخفاء** لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت 1162 هـ)، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1405 هـ، رقم 205، 1/ 85 – 86.

3 – في خ "شيئان أشهى من عنان الخرد".

ومنهم المسمى البركة أبو محمد عبد الله بن علي الطشاني التاجوري الأصل، الساكن بمنشية طرابلس، حدث أن بعض علماء المغرب لما ورد مصر وطلب منه عقد مجلس تدريس، وفهم من الطالبين الجدال والمعارضة، وطلبوا تدريس التفسير، فأجابهم متأهبا للابتداء من أول القرآن؛ فلما جلسوا واطمأن بهم المجلس، بدأ القارئ بقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[1]، فعند ذلك قرر الشيخ الآية بأحسن وجوه التقرير، وذكر خصالا كثيرة محمودة في الكلب؛ وختم بواحدة مذمومة، وهي أنه يكره الضيف، ويكفهر في وجهه، تعريضا بأهل مصر، فيما هم عليه من البخل والبغض.

قال: وقد قال فيهم القائل من قديم الزمان: (من البسيط)

لاَ تَرْكُنَنَّ لأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهُمْ ... سُحْبُ الْخِيَّانَةِ كُلَّ يَوْمٍ تَهْطِلُ

الْبُغْضُ فِيهِمْ لاَ يَزُولُ وَحُبُّهُمْ ... مِثْلُ التيمم بِالتَّوَهُّمِ يَبْطُلُ

قلت: وأظن أن صاحب هذه الحكاية الإمام ابن مرزوق. ولبعض التوزريين أيضا:

يَاأَهْلَ مِصْرَ رَأَيْتُ أَيْدِيَكُمْ ... مِنْ بَسْطِهَا لِلنَّوَالِ مُنْقَبِضَهْ

فَمُذْ فَقَدْتُ الْغِذَا بِأَرْضِكُمْ ... أَكَلْتُ كُتْبِي كَأَنَّنِي أَرَضَهْ

لطيفة: يضرب المثل في الدناءة والبخل *209* بأماكن أربعة في المغرب: جزيرة الأندلس، وخصوصا مالقة ومدينة سبتة[2]، وفاس، حتى قال القائل:(من الخفيف)

لاَ تَلُمْنِي عَلَى الدَّنَاءَةِ إِنِّي ... مَالْقِيٌّ وَقَدْ سَكَنْتُ الْجَزِيرَة

وَمَرَرْتُ بِسَبْتَةَ ذَاتَ يَوْمٍ ... وَشَرِبْتُ مَعَ الْفُوَيْسِيِّ[3] الْحَرِيرَة

1 - الكهف: 18.

2 - سبتة: مدينة في أقصى الشمال الغربي المغربي، احتلها البرتغال سنة 1415م ثم الأسبان سنة 1640م. انظر: حسن الفكيكي، **سبتة المغربية صفحات من الجهاد الوطني**، سلسلة المعرفة للجميع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.

3 - الفويسي تصغير الفاسي، المنسوب إلى فاس، والحريرة حساء معروف.

وهذا أمر غير مطرد في سائر أفراد الناس، وإلا فالناس معادن، ولا في سائر الأزمان والأماكن، لا يبقى على حالة، فشأنه الإدبار أو الإقبال، ويكفي في ذلك شواهد العيان والامتحان.

رجوع، وحدث صاحب الترجمة أن الشيخ أبا العباس أحمد بن محمد بن ناصر لما اجتمع بسيدي عبد السلام بن عثمان التاجوري، صاحب **تذييل المعيار** في سفرين، وشرح **المرشد**؛ قال له ارتجالا: (من البسيط)

مِـنْ أَيْنَ أقبلتَ يَا مَـنْ لاَ نَظِيرَ لَهُ   وَمَـنْ هُوَ الشّمْسُ والدّنْيَا لَهُ فَلَك

فأجابه ابن عثمان ارتجالا وقد أقبل من خلوة: (من البسيط)

مِنْ مَنْزِلٍ يَأْلَفُ الْعُبّادَ خَلْـوَتُهُ   وَفِيـهِ سِتْرٌ عَلَى الْفُتَّـاكِ إِنْ فَتَكُوا[1]

وفي هذه الحكاية نظرعلى هذا الوجه، ففي **المدارك** في ترجمة أبي بكر بن القوطية[2]، حكى أبو بكر بن هذيل قال: لقيت ابن القوطية بسفح جبل قرطبة، صادرا عن ضيعته، فسلمت عليه، وأنشدته على البديهة مداعبا: من أين إلخ، فتبسم وأجابني بديهة بقوله: من منزل تعجب الناسك إلخ، اللهم إلا أن يكون الشيخ ابن ناصر والتاجوري أنشدا حكاية واستسهالا لا إنشاء.

1 - البيت على منوال ما أجاب به ابن القوطية) ت 367 هـ (الشاعر يحيى بن هذيل، فقد زار هذا الأخير يوما ابن القوطية في ضيعة له بسفح جبل قرطبة كان منفردا فيها عن الناس، فألفاه خارجا منها، فلما رآه ابن القوطية استبشر به، فبادره يحيى بن هذيل على البديهة بقوله:

من أين أقبلت يا من لا شبيه له   ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فتبسم وأجابه مسرعا بقوله:

من منزل يعجب النساك خلوته   وفيه ستر على الفتاك إن فتكـوا

قال ابن هذيل: فما تمالكت أن قبلت يده إذ كان شيخي وأستاذي. وكان الشعر أقل صناعته لكثرة علومه وغرائبه.

انظر: ياقوت الحموي، **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق، حسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1993، 6/ 2593.

2 - ابن القوطية: محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاجم، المعروف بابن القوطية، الإشبيلي الأصل القرطبي، أبو بكر اللغوي الأديب الفقيه، كان في أول أمره ينظم الشعر بالغا في حد الإجادة، ثم ترك ذلك وأقبل على الزهد والانفراد. توفي سنة 367 هـ بقرطبة. انظر ترجم له: مخلوف، **شجرة**...، 1/ 147؛ الحموي، **معجم الأدباء**، 6/ 2592 - 2594.

ومنهم الشاب الفاضل سيدي أحمد أبو طفل- به عرف- يسكن بزاوية الصيد، أوقفني على **رحلة البلوي**[1] وغالبها شعر وأدبيات. وما من أحد من هؤلاء المذكورين إلا وبالغ في إكرامنا، تقبل الله منهم، وشكر سعيهم، وغفر ذنبهم، آمين.

ومن المنسوبين للصلاح بها ولم ألقه إلا بعد شروعي في الانتقال منها، سيدي عمرو بن صالح، أصله من الزاوية المنيرية الغربية، واستوطن من طرابلس المنشية، أقبلت عليه الأحوال، توتر عنه كرامات ومكاشفات، مع كونه طاعنا في السن؛ أوصانا بالصبر وخفض الجناح. قال: ولا ترون في سفركم هذا إن شاء الله إلا النجاح، فكان الأمر على ما وصف في الغداة والرواح. وأما المدعو بها بالشيخ عتيق البرقاوي، فله عريض الدعاوي، ما لا يسعه ديوان حاوي، من ادعاء القطبانية[2] جهارا، وأنه الحاكم على أولياء الله أينما حلوا صغارا وكبارا، وطالت دعواه، هذه أزيد من أربعين سنة، فمن مصدق ومن مكذب له، وربنا أعلم بالطريقة. اجتمعت به، فنهيته عن هذه الدعوى، فما أنصف في ذلك ولا أرعوى، وأنشدني من جملة أبيات: (من المتقارب)

وَأَمِّنَّـا مِنَ التَّلَـفِ فِي حَالِنَا وَغُفْرَانِ وِزْرٍ وَعَهْدٍ مُقِيمِ

210 وهو ملازم يأخذ الدنيا من بعض الناس ويدفع للآخرين، ولو تتبعنا ما بهذه البلدة من الأخبار[3] لخرجنا عما نحن بصدده من الاختصار.

تـنـبـيـه : سئلت بالبلد عن المحبوسة للثمن إذا أهلكت فمن مصيبها؟ فأجبت بأنه يفرق فيها بين ما يغاب عليه وما لا، فالأول[4] في ضمان البائع

1 - **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق** لخالد بن عيسى البلوي، حققه الحسن السائح، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، 1970.

2 - أي وصل أعلى مراتب الصوفية وهو القطب أو الغوث الذي هو "موضع نظر الله في كل زمان". انظر :علي الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق وتقديم إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ص 227.

3 - في ح "الأخيار".

4 - في د "فقال".

والثاني في ضمان المبتاع. ففي **المتن**: «وضُمِنَ بالعقد إلا المحبوسةَ للثمن أو للإشهاد، فَكَالرهْنِ»[1]، هذا قول ابن القاسم وهو المشهور. وعن المجنون إذا باع في حال جنونه، هل ينظر له السلطان ؟ فأجبت بأنه إذا طرأ عليه الجنون بعد البلوغ رشيدا عاقلا نظر له، وإلا فوليه؛ هذا الذي في مذهب مالك، وشحنت به دواوينه، ولا التفات لفتوى البعض بأنه كالسكران.

خاتمة : ليس في عمالة طرابلس، مع اتساعها، على طريق الساحل، ممر الحاج تمر جيد، ومع ذلك لا يخزن إلا بعد إزالة ما به من النوى؛ ويعبرون عنه بالمذبوح.

1 – خليل، **مختصر**، 143.

ذكر خروجنا من طرابلس أمنها الله

ولما قضينا من البلد الأوطار، بعد إقامتنا بها سبعة أيام سافرنا صبيحة الأحد الأول من رمضان مارين بتاجورة، ذات النخيل والأشجار، والفواكه والخضر والعذب من الآبار، وبها من فضلاء الأموات أحد الأخيار، بقصرغافق، وهو الآن قد صاح بومه، وبقي بعضه ماثلا يغتر به السابق واللاحق، فبتنا بعد الظهر بغربيات الأعشار، وماؤها قليل لابأس به. ثم منها، فمررنا بواد الرمل، وليس بذلك في الأنهار وبه من القصب والبردي غيضة، يأوي إليها الصيد، ويخزن بها الطير بيضه، مداه[1] من الجبل إلى البحر، لابد لكل مُشرق من جعل الجبل يُمنته، أو مُغرب يُسرته. قال التجاني: وفي أعاليه عند سفح الجبل قصر يعرف بصِبيَار - بكسر الصاد- وبقرب البحر، في أسفله بئر تعرف ببئرطُشّانة - بضم الطاء وتشديد الشين المعجمة- بإزاء قبر يعرف هذا الموضع به، فصار القبر اسما علما له. وهو لرجل من العرب، ثم من دباب، ثم من بني عيسى منهم، واسمه شهوان بن عيسى بن عامر بن جابر بن فائد بن رافع بن دباب، وكان ذا رئاسة في قومه، واشتهر بالكرم فلم يُذكر معه في وقته غيره، وفيه يقول شاعر العرب: (من الطويل)

حَمَى الأَرْضَ شَهْوَانُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَامِرٍ وَعِرْضُ الفَتَى إِنْ ضَيعَ المَجْدَ تَالِفُ

211 والأعراب إذا نزلوا هناك، ولم يكن لهم زاد، قاموا على قبره فنادوا: يا شهوان بن عيسى اقر أضيافك، فيذكرون أنهم لم يبيتوا قط دون عشاء، إما بصيد يتاح لهم، أو بضالة يلقونها، أو بغير ذلك.

وفي مثله يقول المؤرخون في عدي بن حاتم الطائي، قال الشاعر[2] يمدحه: (من الطويل)

1 - في خ "مبداه".

2 - في التجاني، الشاعر هو حدي بن حاتم، والممدوح هو حاتم طي المشهور، ص. 311. وفي **الروض** المعطار، الشاعر هو أبو بكر بن مجبر، الحميري، **الروض**...، 572. على أن البكري في مسالكه نسب البيتين لسالم بن زرارة الغطفاني، 1 /109، هامش 3، وقد نقل النسبة عن المسعودي في مروج الذهب.

أَبُوكَ أَبٌ سَفانَـةُ الخَيْرُ لَمْ يَـزَلْ   لَدُنْ شَبّ حَتى شَابَ في الخَيْرِ رَاغِبَا
قَرَى قَبْرُهُ الأَضْيَافَ إِذْ نَزَلُوا بِهِ   وَلَمْ يَقْرِ قَبْرٌ قَبْلَهُ الدهْرَ رَاكِبَـا

وحكى أبو عبيدة قال: «نزل أبو الخيبري[1] في نفر من قومه، بقبر حاتم فناداه: اقر أضيافك، فخرج حاتم من قبره حتى نحر راحلة أبي الخيبري وهو ينظر[2]، فقال من معه: قد والله قراك. ثم أكلوا فارتحلوا، فإذا راكب يقود بعيرا وهو يسأل عن أبي الخيبري حتى لقيه فقال له: أنا عَدِيّ بن حاتم وإن حاتما أتاني الليلة فذكر أنك استقريته[3]، وهو ينشد: (من المتقارب)

أَبَا الخَيْبَرِي وَأَنْـتَ امْـرُؤٌ   وَلُـؤْمُ العَشِـيرَةِ ظَلاّمُـهَـا[4]
أَتَيْـتَ بِصَحْبِكَ تَبْغِـي القِـرَى   لَـدَى حُفْـرَةٍ صَدَحَـتْ هَامُهَـا
أَتَبْغِي لِي الضَّيمِ عِنْدَ المَبِـيتِ   وَحَـوْلِـك[5] طَـيّ وَأَنْعَامُهَـا
وَإِنـا لَنُشْبِـعُ أَضْيَـافَـنَـا   وَنَأْتِـي المَطِـي فَنَعْتَامُهَـا[6]

وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك، فدونكه»[7]، هـ.

رجوع، ثم ارتحلنا[8] بعده بالقرب منه في رمال على واد المسيد، وهو واد أخصب وأعذب؛ بل بينه وبين الذي قبله بون بعيد، تجتمع إليه سيول جبال مسلاتة، ومن انضاف لهم من عيون اكْناطة، ثم[9] على تَوْرَغَتْ، وبها بئر تعرف بتبّالة سيدي عبد السلام بن عثمان التاجوري، عذبة كثيرة الماء،

---

1 – أحمد بن الجعفر الخيبري، فاضل كان حيا 376هـ/986 م من مؤلفاته: **كتاب المصابيح في ذكر ما نزل من القرآن في أهل البيت**. انظر: كحالة، **معجم المؤلفين**، 1/ 115

2 – في **المسالك**"... فنزلوا فناموا، فانتبه أبو الخيبري، مدعورا ينادي: وا راحلتاه. فقال له أصحابح: ما بالك، قال: خرج حاتم من قبره بالسيف، وأنا أنظر حتى نحر راحلتي...."، 1/ 109.

3 – اختصر ابن عبد السلام ما جاء في رحلة التجاني حتى أخل بالمعنى تماما. م. س. ن.

4 – في م. س، "ظلوم العشيرة شتامها".

5 في **رحلة** التجاني: وحولي.

6 – نعتامها: نأخذ أفضلها. البكري، **المسالك**، 1/ 109.

7 – التجاني، **رحلة**، 310 – 312.

8 – في ح: مررنا.

9 – ساقطة من د.

حفرت في قارعة الطريق لقلة مائها. قيل وبأسفل منها، مما يلي البحر، عين عذبة، ثم بتنا على غير ماء، بمكان يدعى إسْلسْلَ، وبهذا المنزل سوّقنا أهل مسلاتة، قال فيه العبدري: «قومٌ يبرون أهل الدين ويكرمون الحجاج، وهم على خير وصلاح»[1]. وناهيك بمن مدحه العبدري، وقد عُلِمَ لسانه في البدوي والحضري.

ولا زال هؤلاء القوم على العهد القديم لا يؤذون أحد ممن مر بهم من الحجاج، ولا من مر بهم، بل من هنا يحصل الأمن للحجاج، غالبا إلى مصر، عدا أعراب موسى بن غازي ببرقة، ففيهم الإذاية للحجاج. ومسلاتة قرى في جبل عن يمين الذاهب ذات أشجار، وزيتون ناعم لا يكاد يُرى مثله، وسوقنا أيضا *212* أعراب اكْناطة، وبهذا الموضع انتهت **رحلة التجاني** كما تقدم لأنه خرج حاجا فعرض له هنا عارض مرض، لافرجع.

وبهذه المراحل شجر العُشر -بضم ففتح- قال في **القاموس** لم يقتدح الناس في أجود منه، هـ[2]. وهو الذي يسمى الخُرْفُع -بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء- ويجنى منه مغافير، وهو صمغ حلو كريه الرائحة، يقال له سكر العُشَر. وفي الحديث «أَكَلْتَ مَغَافِيَر»[3]، وهو من هذا. ومن العُرفط[4] والرِمث[5] والتمام وهو أكثرها مغافر، وليس بأرض الأندلس، وهو بأرضنا كالحجاز قاله التجاني[6].

قلت: وما أكثر شجر العُشر ببلادنا درعة وسجلماسة وما والاهما، وهو الذي يدعى بالبربرية «الأكرنك» ويقال: لا يخرج من ثمارها من شبه القطر بالبربرية

---

1 - العبدري، **رحلة**، 483.

2 - الفيروز آبادي، **القاموس**، 873/1.

3 - أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الحيل، باب ما يكره من احتيال المرأة مع الزوج والضرائر وما نزل على الرسول صلى الله عليه في ذلك. رقم 6569 و5716، 6/ 2556؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الطلاق، باب وجوت الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، رقم 1474، 2/ 1101.

4 - العُرفط: بالضم شجر من العضاه الواحدة عرفطة. انظر: **القاموس**، 1 /874.

5 - الرِمث: بالكسر مرعى للإبل من الحمض وشجر يشبه الغضا. انظر: **القاموس**، 1/ 218.

6 - التجاني، **رحلة**، 313 - 314.

«ثرز»، وهي أجود من الكتان في فتيل السراج، وعامة الجهلة- خصوصا النساء- يزعمون أن الجن يسكنها، فتراهم إن أرادوا تناول ثمارها بسملوا، والقوا عليها ترابا ونحو ذلك من خرافاتهم، مثل زعمهم أن البلد إذا دخلها حطب أشجارها خلت، وجرت عادتهم بأنهم وإن كانوا في غاية الحاجة إلى الحطب لا يحرقون أعوادها في خرافات لا أصل لها، وكأن هذه الشجرة غير موجودة ببلاد الروم وإلا لما أهملوا استخراج صنعة غريبة في صوفها، والله أعلم.

ثم ارتحلنا من اسْلسْل فظللنا يوما نمشي في أرض ذات كدى وشعاب[1]، فمررنا ظهرا بآبار عذبة عليها مزرعة وبغربها نخل قليل وقبة لبعض الصالحين، وسرنا تاركين جبل النكازة عن يميننا، وهذا هو جبل درن المعروف بسوس وهو منتهى الجبال بهذه البلاد، ويسمى في كل موضع باسم خاص. قال أبو سالم: وقال صاحب تقديم البلدان: أنه يمتد من سوس الأقصى إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل. قلت: وكأنه جعل بلاد برقة كلها والجبل الأخضر منه، لأن أرض برقة مرتفعة عما يجاورها من بلاد فزان ونواحيها، والبحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة، وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل والظاهر ما ذكرناه أولا، وهو الذي اقتصر عليه غيره»[2]. ثم بتنا بموضع يقال له لقاطة بإزاء زاوية الولي الصالح سيدي محمد بن أبْحَ، بُعْصِدَ[3] لضيافة الحاج بها ولغيرها، ولا زالت ذريته الآن على هذه العادة، زرناه نفع الله به *213* وبساحة مدينة لبْدَة، وهي إحدى مدن طرابلس وقواعده كما تقدم.

قال البكري: «حصن لبدة، من بنيان[4] الأول بالصاروج والحجر حوله آثار عجيبة للأول وغرائب كثيرة، يسكن هذا الحصن قوم من العرب جملتهم نحو من ألف فارس وهم محاربون لجميع الأمم ممن يجاورهم من قبائل البربر، وهم أزيد من عشرين ألف فارس وراجل وظاهرون عليهم»[5].

---

1 - ساقطة من د.

2 - العياشي، **الرحلة**، 1/91 - 92.

3 - العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ.

4 - في **المسالك** "بناء".

5 -البكري، **المسالك**. . .، 2/181.

وقال العبدري: «ومدينة لبْدة فيها آثار قديمة وبنيان عجيب، وفيها من أساطين الرخام وألواحُه ما يعجز[1] عنه الوصف، وفيها صورةُ امرأةٍ بإزاء الطريق، ولا شَك أن البَلَدَ كانت دار مملكة [وهي الآن متهدمة دارسة ليس بها إلا عمارة قليلة»[2]، هـ.

وفي **الروض المعطار**:« لبدة مدينة][3] قديمة بناحية[4] طرابلس الغرب، كانت عظيمة الشأن مبنية بالرخام، وآثارها باقية حتى الآن تدل على أنها كانت دار مملكة عظمى وهي مشتملة على الخيرات وعلى بعد[5] من البحر، فتسلطت عليها العرب وعلى أرضها فغيرت ما كان بها من النعم، وأجلت أهلها إلى غيرها، ولم يبق بها إلا قصران[6] كبيران، وسكانها قوم من هوارة البربر، ولها على البحر الآن قصر كبير عامر فيه صناعات وسوق كبير عامر[7]، وبلبدة نخيل كثير وزيتون تخرج[8] زيته في وقته»[9]، هـ.

وجماع القول في هذه المدينة أنها قديمة أزلية بانيها الملك دقيوس، وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها روميّة. وقيل بانيها- كدمشق- النمرود وجلب إليها الماء من وادي كعام الآتي ذكره، في بناء متقن يحار الناظر فيه وأثره، وممر الماء باق فيه إلى الآن، وماؤه الآن قليل آجن[10]، يزعمون أنه كان عذبا أيام عمارة البلد، وتواتر عند أهلها أن الملوحة إذا بدت فيه فذلك من أمارات خرابها. فلما بدت فيه انتقلوا، وهي[11] مع كبرها وضخامة بنائها قد أكل البحر

1 - في **رحلة العبدري** "يقصر"ص 483.
2 - العبدري، **رحلة**، 483.
3 - ساقط من ح..
4 - ساقطة من د.
5 - في خ "قرب".
6 - في خ "مصران". وهو خطأ.
7 - في **الروض** "سوق عامرة".
8 - في م. **س** "يستخرجون".
9 - الحميري، **الروض**...، 508.
10 - ساقطة من ح.
11 - ساقطة من د.

كثيرا منها بحيث لا يشك أن الذاهب منها أكثر من الباقي من شكلها، وهو إلى الآن من أعجب العجب حارت فيه الأقلام في ساحة الطروس لمن كتب. مبان تطاولت على الجبال، وهياكل أربت على المنازل، والأطلال دبت إليها الجبال من الرمال، فما غطت ولا أصغر تلك المعالم الطوال، قد تلاشى الدهر وما تلاشت، ومرت بها الدهور والأزمان وما تزلزلت ولا تداعت، وهي وإن خلت فيما يظهر قبل الإسلام، فقد عادت لها السكنى بعده لذوي منعة كما في كلام ذلك البكري الإمام[1]؛ وأما الآن فما صاح بها إلا البوم ينعي من حل بها من أولئك *214* القوم. ومنها ينقل الرخام لطرابلس وإفريقية ومصر، ولا زال الكثير منه، ومن المنحوت من الصخر غائصا في الرمال، ولا ملك إلا للملك المتعال. وبها من الآبار والجوابي المتسعات، وغريب الصنعة من إدخال الماء الجاري في الجدران ما هو من: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] فائت وآت، وبقربها في جبل النكازة مكان عال مشرف يدعى الآن مركب علي بن أبي طالب، وغيره من الصحابة في غزوة لهم هنا، وما هي إلا خرافة، إذ علي رضي الله عنه لم يدخل المغرب ولا ورد به ولا خبر مغربا[3]. نعم فهذا الموضع كتب عليه رقم بغير العربية، بجانبه مسجد صغير مبني بالمنحوت من الحجر من عمل الأول على قبة عالية، شاع وذاع بهذه البلاد أنه غار أهل الكهف، وبه من القرائن ما يصحح هذه الدعوى، ومن أعظمها المدينة المذكورة، والعلم في ذلك لعالم السر والنجوى. صعدت إليه مع المحب أبي عمران موسى بن عبد السلام بن عثمان التاجوري، فقد صحبنا إلى هنا، وكان من الخلان، وقد علمت في أعمال توزرما تقدم من غار ومدينة بالودّان فليراجع ذلك.

رجوع، ثم سرنا لنقص آثار الركب بهذا الساحل ينسب لحامد في الأوائل ذي النخيل، والأشجار، والزيتون، والفواكه والخضر، والزرع، وبأنواع الذرى مشحون، كل ذلك يسقى بالآبار العذبة عدا الزراعة

---

1 – ينظر البكري، **المسالك**. . .، 181/2.

2 – النمل: 90.

3 – في خ "مغرب".

فبالأمطار. وسكانه ذوو دين ومحبة، لا تسمع من أهله إلا سلاما ومرحبا حتى لو خدعهم الحاج مما أنالوه نكبا، ولا زال يأوي إليه أهل الصلاح، والدين، والفلاح، والنجاح؛ فزرنا به ولي الله بلا نزاع سيدنا مفتاح، على شاطئ البحر، في بيت في مكان مرتفع علاه البها الوضاح بموضع مسنون بالأولياء مشحون، وبجانب ضريحه ملاصقا بجداره بئر باردة عذبة يتبرك من مائها، شربنا وتوضأنا منها. ثم دخلنا زاوية سيدي علي الفرجاني، وكان من العلماء العاملين، وقد اجتمع به الشيخ أبو العباس ابن ناصر بقابس وله بها زاوية مشهورة إلى الآن، وقبره هنا زرناه، ولأولاده خصوصا سيدي عمرو الموجود الآن كمال المحبة. وبعده دخلنا زاوية سيدي علي بن عبد الصادق شارح **المرشد**، وزرناه وتعرض لنا ولد ولده أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن عبد الصادق مع من معه من بني أبيه وجيرانه، فهشوا وبشوا وفرحوا بنا غاية، وأجزلوا القِرى *215* وأوسعوا فيه، تجديدا للعهد الذي بين أسلافهم وأسلافنا تقبل الله منهم، وأصلح لنا ولهم الظاهر والباطن، وكفانا وإياهم هموم الدارين، هـ.

لطيفة: وجدت في أول لوحة من ألواح الصبيان بمسجدهم: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1] وعلى باب مسجدهم مرقوما: يا من دخل ثم خرج، ما بعد الضيق إلا الفرج. وقد كنا طرق آذاننا أن الركاب السابقة أمامنا من طرابلس وإفريقية حلت بهم سموم حارة ببرقة، فهلك بها من هلك، فتفاءلت بذلك ولم أبال بما هنالك مع ما حل بالإبل من الوهن، فكادت أن تعجز عن حمل أقتابها، فضلا عن ركابها وأحمالها، لولا لطف الله بها وبأربابها. ثم ركب معنا أبو الحسن المذكور فقص آثار الركب، فمررنا بعين كعام الجارية للبلدة في عجائب من البنيان، جنى الدهر وما فني. قال الشيخ أبو سالم: «من رآه استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار، وعلم أن دهرا أفنى أولئك الأقوام، جدير بأن يستأصل شفة الأنام»[2]. وانظره مع قول ابن ناصر في **الرحلة**: «آخر الماء الجاري

---

1 – الانشقاق: 9.

2 – العياشي، **الرحلة**، 1/ 94.

قابس». نعم لم نر[1] في عمالة طرابلس مع اتساعها ماء جاريا إن هو إلا الآبار عدا واد الرمل وواد المسيد بعده، وعوينات كعام هذه. وسرنا حتى وصلنا زْليتنْ، بلاد ذات أشجار، ونخيل وفواكه ومياه عذبة، فزرنا ولي الله تعالى سيدي عبد السلام الأسمر من [أهل المائة][2] العاشرة ولا زالت ذريته إلى الآن على ما عُهد من حالهم من استعمال آلات السماع على حالة منكرة، وفقنا الله تعالى وإياهم إلى طاعته. وأم جدهم هذا عربية درعية، قال في قصيدة له من الملحون: (من الكامل)

رَانِ وَلْد سْلِيمْ وَأُمّ دَرْعِـيَّ   فِيقَدْرِي حَشَّادِدَمْعِ طُوفَان

و له كرامات، قال أبو سالم: «ولم تزل بلدته مأوى الصالحين، ووكرالعابدين من قديم الزمان. تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من[3] أكابر الأولياء[4]. قالوا: وهم ظاهرون فيها حتى الآن، وليست عليهم سمة متفقرة الوقت، بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم، إلا أنهم قائمون على منهج الشريعة. وكل من رام هذه البلدة بسوء يقصمه الله، ولا يدخلها أحد بزهو وتكبر إلا أذله الله تعالى»[5].

قلت: وكثير من البلاد يحكون فيها هذا المعنى، ففي ترجمة أبي إسحاق الشيرازي[6] من **طبقات** ابن السبكي: «أن بلدة بسطام لا تخلو من ولي الله»[7].

رجوع * 216*وبتنا بعد مجاوزة البلد بموضع يدعى الدّفِينَة، ومنه توادَعت مع أبي الحسن المذكور، ثم ارتحلنا في أراضي متسعة خالية من

1 - ساقط من د.

2 -الزيادة من **الرحلة العياشية** : 1/ 94

3 - ساقطة من د.

4 -في **الرحلة** "الصالحين".

5 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 94.

6 - إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي، أبو إسحاق الشيرازي، صاحب التنبيه والمهذب في الفقه والتبصرة في أصول الفقه. ويد بفيروزباد - بلدة بفارس - سنة 393 هـ ونشأ بها ثم دخل شيراز. توفي سنة 476 هـ. ترجم له : السبكي، **طبقات**. . . ، 3/ 88 - 99

7 - م. س، 3/ 91.

العمران، وبها الآبار العذبة العادية في سالف الأزمان، فخيمنا بالكُوشِ من مصراتة وهي قرى ظاهرة، ومناظرُ على ظهورها باهرة، ساكنها ذو محبة، وبها أشجار ونخيل وآبار ومياه عذبة. وبها وصلتنا رسائل الركب الفاسي، وأنه نزل بطرابلس بعدنا، فأقمنا بها يومين للتسويق، وقام بها سوق عظيم على التحقيق من سائر ما يحتاجه الحاج، خصوصا الزرابي والمطايا، وبها يستعان على قطع أم القفار والبرايا. ووقفت بها على مبيضة الشيخ زروق بخطه لشرح **الرسالة**، وكان والله عليها رونق وبَرُوق، ولعلها هي التي رأى الشيخ أبو العباس ابن ناصر حسبما في **رحلته**[1]، وزيادة متن **الرسالة** بخطه، والشرح المذكور الآن بيد الفقيه الصالح أبي العباس أحمد بن عامر ملقن العهد[2] على عمنا يوسف بن محمد بن ناصر بعد أن بالغ في القِرى، وذهب بنا نحو بيته في داخل البساتين والقُرى، وأنشدنا لغيره وقد أضر بنا سُعال مفرط: (من البسيط)

دَاوِ السّعَالَ إِذَا مَا رُمْتَ صُورَتَهُ ... فُلْفُلٌ ثُمَّ مُرّ ثُمَّ عَفْيُون

وَمَيْعَة[3] رَطْبَةٌ بَيْضَاءُ صَافِيَةٌ ... وَرُبّ سُوس نَقِيّ غَيْرَ مَغْفُون

وَقَدّرِ الْكُلَّ أَجْزَاءً مُسَاوِيَةً ... وَحَبّبْنَهَا كَمِثْلِ الحَصَى أَوْ دُون

وقال أيضا وهو لغيره: (من البسيط)

وَخَمْسَة تبْرِءُ السّعَالِ عَنْ عَجَلِ ... إِذَا سُحِقْنَ وَعُجِنّ بِالْعَسَلِ

أولها: الشونيز[4] والكرْويهْ، وحبة الحلاوة المرضية، ثم بياض البيض والزرنيخ الأصفر، مجرب صحيح.

وتلاه على صنيعه الشاب الفاضل أبو عبد الله محمد بن خليفة الحاج أرحوم والحاج محمد السعداني وسيدي عامر ابن عبد الله، تقبل الله منهم

1 – ينظر: **الرحلة الناصرية** لأحمد بن ناصر، 109.

2 – مطموسة في خ.

3 – مطموسة في خ.

4 – قد سميت في بلاد فارس القديمة شونياز وهي الحبة السوداء أو السانوج. انظر: **الحبة السوداء**، تأليف لجنة من الأطباء، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، بيروت، الطبعة الثانية، 2008، ص 6.

وشكر صنيعهم، تجديدا منهم للعهد وإبقاء للمحبة والمودة، وقد امتلأت قلوبهم مودة وجوانحهم محبة للذرية الناصرية، بل ولسائر الركاب[1] النبوية، فاكتسى البلد بهم وبأضرابهم أنوارا، وكيف لا و عمود خبائها و قطب دائرتها من الكبار، الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد زروق الفاسي[2] ملين القلب القاسي، سئل رضي الله عنه عن سكنى هذه البلدة، وهي مفتتح البلاد القفرة، فأجاب السائل بقوله: أما ما ذكرت من استيطاننا في هذه البلدة، فأمر خارج عن قياس *217* غير مصحوب بالجزم، ولا معقود بشيء نعلمه، بل اتفاقي ظهر وجوده فلزم موجوده، إلى ما يقضيه الحق سبحانه: (من الطويل)

وَمَـا أَنَـا بِالبَاغِـي سُلَيْمَـى بَدِيلَةً ... بِلَيْلَى وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَـامُ

قال ابن ناصر: «لعل فائدة استيطانه بها، استئناس الأركاب بزيارته، واستمدادهم من معونته، وتقويهم على ما هم بصدده من مطالعة حضرته، وقد شاع أن من مربقبره وأودع الله تعالى عنده نفسه وماله، لا يصيبه مكروه حتى يرجع. ويفعل الحجاج ذلك إذا مروا به في البر أو حاذوه في البحر فيجدون بركته. ولا بدع في ذلك، فإن أولياء الله على أبوابه وهو حفيظ لا تضيع ودائعه»[3]، هـ. وهو شهير من أن نعرف به، زرناه والحمد لله بخلوته ذات الحسن والبها، وبنيت مسجدا صغيرا، وقرأنا وظيفته بضريحه في جماعة من الحجاج، وأودعنا الله في أنفسنا وأموالنا. ويا عجبا من أمراء الترك، مع اعتنائهم بأضرحة الأولياء ومشاهير الأصفياء، لم يعنوا بالبنيان الرائق عليه، وإنما عليه في الوقت قبة صغيرة ليست بذلك، يجاورها مسجد صغير، وبه بئر وجابية حسنة تجتمع فيها مياه الأمطار، قد دارت به مقبرة

1 –ساقطة من د.

2 – أحمد بن محمد بن عيسى البرنيسي، بضم النون، الفاسي عرف بزروق إمام صوفي شاذلي متحمس لطريقه و قد دعا إليها كما قام بشرح أحزاب الإمام الشاذلي لتقريبها إلى عقول وقلوب أكبر عدد من الناس، ولد سنة 846، وتوفي سنة 899/1494 بطرابلس ودفن بمسراته من ليبيا. ترجم له: محمد بن عسكر : **دوحة...**، 48؛ أحمد بابا، **كفاية...**، 28، السخاوي، **الضوء...**، 1/ 222؛ أحمد بن القاضي، **جذوة الاقتباس لمن حل من الإعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1973، 1/ 128، ابن القاضي: **درة...**، 1 /90، الكتاني : **فهرس...**، 1/455، المراكشي، **الإعلام...**، 1/ 222؛ مخلوف، **شجرة...**، 267/ 268.

3 –الناصري، **الرحلة**، 108 – 109.

وديار تعرف بالزاوية، وتقام في وسطها الجمعة وعليها أحباس، وتأتيها من عمالة طرابلس وإفريقية والأعراب، خصوصا أعراب برقة، صدقات منسوبة للشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته.

رجوع، ثم ارتحلنا ومن بهذا الساحل زرنا [من سيدي علي بن شعيب وهو من أكابر أصحاب جدي أبي عبد الله بن ناصر وكان من الصالحين وبعده زرنا] [1] أبا شفيق في قبة مشرفة على البحر، ولم نجد من يهدينا للمزارة التي بقربه في مغارة على ساحل البحر. وهذا المكان تلوح به الأنوار، تكاد تغشى منها الأبصار إذ هو معبد الأخيار ومأوى الزهاد والأبرار، فلا ينبغي للمار به إهمال زيارته، بل يجد فيها ويستمطر الحق سبحانه، ويتعرض فيه لنفحاته. وسرنا جادين وللسباخ قاطعين حتى نزلنا الصريع وماؤه كثير[2] عذب بين سباخ وبحر بعد ما زالت الشمس من غير تخمين ولا حدس. ثم نادى مناد الركب بحمل ماء أربع مراحل إلى الزعفران، إذ ليس بها من المياه إلا الذي يصلح للدواب عند الضرورة له في بعض الأحيان، وبالعشي من هذا اليوم أرست سفينة في البحر للنصارى تجاه *218* هذا المكان، وكأنها تريد منه ما أردنا من الماء والحطب، ثم لم ندر من أمرها ما كان.

ثم منه فمررنا بالشّمَيْدَة - بالدال مصغرة- وماؤها قليل آجن، وبعده غير بعيد بالأصْليف فيما بين رمال وبحر وماؤها مالح بائن. وبين هذين لاحت لنا بلاد توَرْغَا، وهي بلدة منقطعة أول برقة، يستوطنها من الناس السمر الغوغاء، خراجهم للأتراك كل عام ثلاثمائة وصيف وخمسة آلاف ريال، وهي إلى الخراب أقرب العداوة المغرات بينهم على الأيام والليالي، وهي آخر ما يراه الحاج على أميال من العمران. مسكنهم في القديم في الأخصاص والكهوف والغيران، والآن بنوا كغيرهم من سائر البلدان بلدة ذات نخل كثير وماء غزير، منبعه من السباخ، ولا له بغير النخيل طباخ، يسع فيما قيل ألف ساقية، ولا لهم فيما قيل ظهر ولا ماشية. بلدة متسعة لا يطوف بها في اليوم الواحد إنسان إلا إن كان من الفرسان، ثمار نخيلهم

1 -ساقط من ح.

2 - ساقطة من د.

مذبوحة كغيره من سائر ثمار هذا الساحل الموصوفة، غير أن هذه دخلت قليلا في الصحراء فاكتسبت بذلك- كسكانها - صلابة وجودة ما، فسرقت الطباعُ الطباعَ قهرا. وسرنا حتى وصلنا المنشور فبتنا به في خصب مشكور، ثم منه للهايشة ذات السباخ الفاحشة، والبقاع الموحشة، والفيافي المستوحشة؛ وبها آثار القصور الدارسة، وبعض أبعاض نخيل ومعالم طامسة، آخر شجر يراه مشرِق وأول ما يراه المغرِب، وبها مياه مالحة وبآخرها واد من الملح في سبخة فسيحة، فبتنا بقرار الزيت. وما أحسن قول العبدري في هذه المراحل المتقدمة: «ثم جُبْنَا[1] البرية الردية، وذلك[2] معدن كل أذية، سِباخ[3] تدهش النواظر، وتُذْهِلُ[4] بِفَرط ما تهولُ[5] به[6] الخواطر، ومياه تحل قوى الأجسام وتثير كامنَ الأَسقام، وتنفذ كما تنفذ السهام. ما يعدوها من أفلَتَها إلا نِضْوا[7] لا يقل[8] من شدة النّحول عضوا»[9].

رجوع، ثم منه فأصبحنا على شرف حسان بن النعمان ليلة العاشر من رمضان، وكان عاملا لبني أمية على إفريقية، فلما انقضوا استوطن ثلاث سنين هذا المكان، و بنى به بنيانا، وحفر فيه جوابي، ثم كان من أمره ما كان. وفي هذا المكان بئر ماجُل *219* منقور في حجر، لا يقضي منهما المحتاج الوطر، اللهم إن كان المحل قريب عهد بالمطر، ثم أسرعنا السير حتى[10] النهاية، وما وصلنا سانية مطرا ومن النهار إلى الغاية، وهي بئر متسعة باردة الماء لا يزول للوحة مائها الظمأ، فسقى الناس بهائمهم واستغنوا بما فيها في الوقت،

---

1 – جاب البرية : قطعها سيرا واجتازها. انظر : **لسان العرب**، 1 /285.

2 – في **رحلة العبدري** " زَدّيكَ ".

3 –السباخ : جمع سبخة وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت. انظر : **لسان العرب**، 3/ 24.

4 –تُذهِلُ : تُنسِي.

5 – تهولُ : تُفزِعُ.

6 – ساقطة من **رحلة العبدري**.

7 – النِّضْوُ : البعير المهزول، انظر : **لسان العرب**، 11/ 721.

8 –لا يقل : لا يحمل.

9 –العبدري، **رحلة**، 200 – 201

10 – في خ "إلى".

وهي أول إيالة سُرْت، فبتنا بها وارتحلنا وما للفجرانفجار ولا ضوؤه قد بان، فخيمنا وسط النهار في الزعفران وماؤه[1] في الصفاء لِجينٍ وفي الحلاوة حلوا بغيربين، يحفر على شاطئ البحر فيظهر ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] بقدر: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[3] لا يتجرعه إنس ولا غيره ولو فيه حتفه وخرابه؛ ثم نادى منادي الركب بحمل الماء مسافة يومين تنقص قليلا إلى النعيم، فارتحلنا نطأ مدن سرت واحدة واحدة حتى مررنا بصومعة ماثلة عن الصوب غير حائدة.

لطيفة: قال البكري: «سرت مدينة كبيرة على شاطئ[4] البحر، عليها سور طوب وبها جامع وحمامات[5] وأسواق، [ولها ثلاثة أبواب: قبلي، وجوفي، وباب صغير إلى البحر ليس بها[6] أرباض، ولهم نخيل وبساتين[7] وآبار عذبة][8] وجنات[9] كثيرة، ذبائحهم الماعز ولحومها عذبة طيبة ليس بطريق مصر ما يؤكل أطيب من لحومها. وأهل سرت من أخس خلق الله خلقا، وأسوأهم معاملة لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وربما نزلت المراكب[10] بساحتهم موسوقة[11] بالزيت – وهم أحوج الناس إليه – فيعمدون إلى الزقاق الخاوية[12] فينفخونها ويوكونها ثم يصفونها

---

1 – في د "ماؤها"

2 – النمل ٩٠.

3 – فاطر:12.

4 – في **مسالك** "سيف".

5 – م. **س**" حمام ".

6 – ن. م "حولها ".

7 – قال العبدري في **رحلته** : " ولا وجود لشيء مما ذكر (البكري) إلا أن يكون مما غبر ودثر "، ص 201.

8 – ساقط من د.

9 – في **المسالك**، "جباب".

10 – في **المسالك**، "نزل المركب".

11 – م. **س** "موسقا".

12 – **ن**. م "الفارغة".

في حوانيتهم وأفنيتهم ليرى أهل المراكب[1] أن الزيت عندهم كثير بائر، فلو أقام أهل المراكب عندهم ما شاء الله ما باعوا منهم إلا على حكمهم.

وأهل سرت يعرفون بعبيد قُرْلة وهم يغضبون من ذلك المقال[2]. قال الشاعر يهجوهم: (من الوافر)

عَبِيدُ قر له سُـــوء[3] البَرَايَـــا مُعَامَلَــةً وَأَقْبَحُهُــمْ فِعَـــالاَ
فَلاَ رَحِمَ المهيمنُ أَهْلَ سُـــرْتٍ وَلاَ سَقَاهُــمْ عَذْبـــا زُلاَلاَ[4]

وقال آخر: (من السريع)

يـا سُرْتُ لا سُرّتْ بِـكِ الأَنْفُسُ لِسَـانُ مَدْحِـي فِيكُـمُ أَخْـرَسُ
أَلْبِسْتُـمُ القُبْـحَ فَـلا مَنْظَـــرٌ يَـروقُ مِنْكُـمْ، لا، ولاَ مَلْبَـسُ
بَخَسْتُمْ في كُلِّ أُكْرُومَـــةٍ وفي الخَنَـا واللـؤْمِ لم يَبْخَسُـوا[5]

ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا أعجمي ولا بربري ولا قبطي لا يعرفه غيرهم *220* وهم على خلاف أخلاق أهل طرابلس، فإن أهل طرابلس أحسن خلق الله معاملة وأجودهم معاشرة وأبرهم بغريب. ومن سُرْت إلى طرابلس عشر مراحل، ومن سرت إلى أجدابية عشر مراحل، ومن أجدابية إلى برقة ستّ مراحل»[6]، هـ. وقال العبدري: «وبعد طول التعني بهذا المَهْمَه المَرْت[7]، لاحت لنا قصيرات سُرْت، ولسان حالها يقول لنزيلها: أقريتُ وأقفرتَ، فإن عَدَلْتَ عَدَلْت، وإن كنت ما جُرتَ فقد جُرت: (من الطويل)

1 – في **المسالك**، "المركب".

2 – ليست في **المسالك**.

3 – في **المسالك**، "شر".

4 – البيتان بلا نسبة في **المسالك**. . .، 2/ 178 و **الروض المعطار**، 312.

5 – الأبيات بلا نسبة في **المسالك**، 2/ 178 و**معجم البلدان**، 3/207 و**رحلة العبدري** 202.. والبخس: النقص.

6 – البكري، **مسالك**. . .، 2/ 177 – 178.

7 – المَهْمَهُ جمع مهامه ويقال المهمه البلدة المقفرة. انظر: **لسان العرب** 13/ 542. و المَرْتُ: الأرض التي لا نبت فيها. انظر: **لسان العرب**، 2/ 89.

لي إِسْـمٌ ولكِنْ لا مُسَمـى وراءَهُ	فَلا تَغْتَرْ إِنْ كُنْتَ ذا فِطْنَةٍ باسْمِـي
فَكَمْ طَارَ في الآفاقِ صِيتُ مشْهّرُ	لمَـنْ مالَهُ في صالِحِ الفِعْلِ مِنْ قِسْمِ

وهذا الاسم يطلق على عدة قصور بينها مسافة، أولها- يعني لناحية مصر و المتقدم- يسمى الشَّبيكة، وهي أعمرها في هذا الوقت، وآخرها يسمى المَديّة[1]. وأكثر ما يُطْلَقُ اسم سُرْت عليها، وحكمها كلها حكمُ القِفار، فلما يعمُرها إلا الأعرابُ، ومن ليس به عبرة.

وقد ذكر البكري في **مسالكه** «أن سُرْت مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخل وبساتين»[2]. وذكر نحو ذلك في أجذابية[3] وبينهما نحو من عشر مراحل، ولا وجود لشيء مما ذكر إلا أن يكون لما غير ودثر، لكنه[4] سمعَ بوجود التمر بها، فظن بها نخلا، والتمر إليها مجلوب من بلاد أوجلة[5]، وهو جل عيشهم بها»[6]، هـ.

والصواب مع العبدري لحصول دليل المشاهدة له خلاف البكري، ولأنه لو كانت بها النخيل لبقي على العادة آثارها، وما ذكره عن عمارة الشَّبيكة لم يبق بها الآن إلا البوم ينوح في معالمها، والريح العاصفة في مدارجها، على أن هذه البرية اليوم من مصراتة إلى المنعل الآتي، لا ينزلها إلا أولاد سليمان في بعض الأحيان والأزمان، ورئيسهم الآن يدعى سيف النصر، هو في قومه ذو عزة ومنعة وقهر، يغيرون تارة على أعدائهم الجهما ومن انضاف لهم من عربان برقة البهما، وربما خافه أهل طرابلس وغيرهم، يزعمون

1 - المدية : مدينة بناها الأفاقة في تخوم نوميديا، كان الرومان يسمونها "لامبديا" باسم قبيلة لمدية الصنهاجية. تبعد عن العاصمة الجزائر ب 56 ميل . انظر: الوزان، **وصف**. . .، 2/ 41. وهامش 69.

2 - البكري، **المسالك**. . .، 2/ 177.

3 - أجذابية: مدينة كبيرة قديمة في حيز برتة تبعد أربعة أميال عن البجر. انظر: الحميري، **الروض**. . .، :11 - 12؛ البكري، **المسالك**. . .، 2/ 177.

4 - في **رحلة العبدري** "وأظنه". ص 201

5 - أوجلة : قال البكري في **مسالكه** : مدينة عامرة كثيرة النخل. وأوجلة اسم الناحية، واسم المدينة أرزاقية. 2/ 184؛ الوزان، **وصف**. . .، 2/ 109.

6 - العبدري، **رحلة**، 201 - 202.

أنه واقف على الحدود جزما، وأنى له بها وهو يعقد الغارة الشعوى على من والاه ظلما، وربما توجه في قومه اتجاه فزان، أراح الله منه ومن أضرابه العباد والبلدان، غير أن ضررهم بالركب النبوي نادر إلا أن صدرت فيهم فلتة من غادر. وكانت سُرْت هذه من أخصب البلاد، ذات زرع كثيرة، وعربانها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم وبقي بها ضعفاء مرابطون يدعون أولاد سيدي ناصر، *221* يطعمون الطعام لمن مر بهم، ومعهم طرف من الديانة، إلا أنهم أضر بهم جور الأعراب، فهم بين عرب سُرْت وعرب برقة، فقلما يسلم لهم وقت من غارة، أما من هؤلاء وإما من هؤلاء، ورئيسهم في زمان الشيخ أبي العباس ابن ناصر رجل مسن صالح اسمه سيدي خليفة، أخذ عهده وداومه للتلقين بهذه البلاد. ثم أن أولاد سليمان، بعد وفاة ابن ناصر أجلوهم عن ديارهم ظلما وعدوانا، فذهبوا اتجاه أعدائهم الجهما بين أجذابية وسلوم فسكنوا بينهم فعظموهم ووقروهم ولا زالوا هناك، وسيأتي ذكر من تلاقيت به منهم هناك إن شاء الله.

رجوع، وسرنا حتى مررنا بعد الظهر ببئر يقال لها تَلْكوما ماؤها مالح. ثم منه قبيل الفجر فأصبحنا على سبخة بطرف البحر تدعى المديق، وبها ملح وماء ليس بذلك، فلم تنشب أن لاحت أمامنا خيل كثيرة، وإبل تتبعها كذلك، فتخيلناها حربا، فإذا هي سلم تريد الغارة على أولاد سليمان، وأخبرونا برخص الأسعار بالجبل الأخضر وما والاه؛ فحططنا بعد الزوال بالنعيم، وماؤه عذب فرات، وبأرضه زهر السوسان، وعلى شاطئ البحر منه جبل من الصخر المنحوت مقيم تمد بصرك يمينا وشمالا ميالا في مثلها ولا ترى له حدا: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ[1]﴾[2]. ثم نودي بحمل الماء إلى المنعل مسافة خمسة أيام، وربما قطعت في أقل، وبها مياه كثيرة غالبها أجاج، ومنها المتجرع لضرورة المحتاج، وتسمى: مقطع الكبريت - تغليبا - و إلا فالمسمى به موضع واحد، وكان في أمره غريبا.

---

1 -في ح ود (إنه عزيز حكيم) وهو تصحيف بين.

2 - النمل 90.

وقول الشيخ ابن ناصر في **الرحلة**: أنها «مفازة قبيحة تهب فيها السموم»[1] غير ظاهر، إذ الطريق بها على الساحل غير داخلة في الصحراء كالسروال، فما رأينا بها صعوبة ولا قبحا ولا سموما إلا ما كان من قبيح مياهها.

ثم ارتحلنا فجرا[2] وتاه الركب في سبخة فما تعالى النهار حتى صوب صوبه، فمررنا بالأحمر ضحوة النهار، وما عرج أحد على مائه لاستغناء الناس عنه، وبه ملوحة اكتسبها من القرار، وأوردنا الدواب بعد الظهر بِبَنْشب ثم بِبَنْذب وهو أقرب إلى التجرع من الأول، ثم بتنا دَافَغْ *222* أمّ الكنْديل، ثم منها سحرا فمررنا بعد الزوال بمدينة اليهودية، وبها مياه صالحة في آبار وأحساء[3] ضنينة جِبْسية.

واليهودية هذه مدينة ذات عمارة كثيرة مندثرة، يزعمون أن ملكتها كانت يهودية لها جيش وخيل منتشرة[4]. وفي **الرحلة العياشية**: «في **الرسالة القشيرية**[5] عن بعض الفقهاء أنه قال: دخلت مدينة اليهودية بأرض المغرب إلخ. لعل تلك المدينة هي هذه»[6].

وفي **الرحلة الناصرية**: «وبرقة مسافة شهرين من الإسكندرية إلى إفريقية، وكانت متصلة العمارة لا تكاد تسير فيها بريدا[7] ليس فيه أثر البناء [8]، ورسوم عمارة داثرة. وقد جاء الإسلام وغالبها عامر، ثم لم تزل عمارتها تضعف من مرج الرعية، وظلم بعضهم بعضا إلى أن خرج أعراب[9] هلال

---

1 – الناصري، **الرحلة**، 120.

2 – في ج "سحرا".

3 – الأحساء: جمع حسي، وهو سهل من الأرض يجتمع فيه الماء. انظر: **لسان العرب**، مادة "حسا".

4 –الناصري، **الرحلة**، 465.

5 – عبد الكريم القيشري، **الرسالة القشيرية في علم التصوف**، تحقيق معروف زريق، وعلي عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الثانية، ص 293.

6 – العياشي، **الرحلة**، 1 /103.

7 –البريد: المسافة بين كل منزلتين من منازل الطريق، وقيل ما بين كل منزلين بريد. انظر: **لسان العرب**، 3 /86.

8 –في **الرحلة الناصرية**، "بناء".

9 –في د "الأعراب".

من مضر أواخر الرابعة وأوائل الخامسة، فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها، وخلت البلاد من يومئذ. والبقاء لله الواحد القهار»[1]، هـ. وسيأتي إن نشاء الله الخلاف في مسمى برقة ما هو.

رجوع، ثم بتنا اصفرارا بالكحيلة، وبقربها الحدادية، وكلتاهما بئر ذات حماة وعن غير بعد منها بئر الطّم وماؤها ليس بذلك، ومطرية وماؤه فيما زعم بعض من أورده عذب بارد، ثم ارتحلنا فبتنا اصفرارا مَعْبَازَ على غير ماء، ثم منها سحرا فمررنا ضحوة بمقطع الكبريت تاركين له عن يمين الطريق غير بعيد، سمي المكان بذلك لوجود معدنه فيه في أعلى سبخة في حفر يحمل منها كالطين إلى طرابلس والإسكندرية ومصر، ثم يصفى بعد ذلك بصنعة يعلمها أرباب ذلك، وكثيرا ما يحمله الجمالون من الأعراب لمصر وطرابلس أن أبلغوا الكراء ورجعوا، وربما تقدموا أمام الركب يحملوه. وجددنا السير وبتنا بعد المغرب بالمنعل - باللام - وبعضهم ينطق بدلها بالميم[2]، أحساء عذبة على شاطئ البحر بينها وبين السبخة جبال من رمال قلما يسلم من عدوان الأعراب؛ وضاع في هذه المفازة الأخيرة من الإبل بالعطش والضعف عدد كثير، ومن هنا نفارق البحر فلا نجتمع معه إلى التميمي وذلك نحو عشر مراحل.

تـنـبـيـه : أعراب برقة اليوم لا يطلقون برقة[3] إلا على المنعل [هذا إلى السروال يعبرون عن][4] المنعل إلى سلوك ببرقة البيضاء ومنه *223* السروال بالحجر وما سوى ذلك يسمونه بأسامي أخرى معلومة لديهم، هذا الذي تلقيته منهم.

وفي **الرحلة العياشية**: «وأرض برقة متقسمة في عرف أهلها على أقسام: أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى: سرت، ومن هنا

1 -الناصري، **الرحلة**، 121.

2 -في م. **س** "المنعم"121 - 122 .

3 -ساقطة من د.

4 -ساقط من د.

إلى قرب المنعل[1] يسمى: برقة البيضاء، ومن هنا إلى سلوك يسمى: برقة الحمراء، ومنه إلى التميمي يسمى: الجبل الأخضر، ومنه إلى العقبة الكبرى يسمى: البطنان، ومنها إلى الصغرى يسمى: بين الأعقاب، ومنها إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى»[2]. وكافة أهل المغرب والحجاج يطلقونه على ما بين مصراته[3] والإسكندرية.

وفي **الروض المعطار** إطلاقه على ما بين الإسكندرية والقيروان ونصه: «وبرقة أول منزلة[4] ينزلها القادم من ديار مصر إلى القيروان، ولها كور عامرة، وهي في بقعة فسيحة وأرضها حمراء» إلى أن قال: «وهي برية بحرية، وكان من غلاتها القطن الطيب، ولها ديار لدباغ الجلود البقرية، ويتجهز منها المراكب إلى الإسكندرية وأهل مصر بالصوف والعسل، ويخرج منها التربة المنسوبة إليها يتعالج الناس بها مع الزيت للجرب والحكة ولها رائحة كريهة كرائحة الكبريت»[5]، هـ.

وفي **الرحلة العبدرية** ما نصه: «وبرقة مدينة قديمة من بلاد[6] الروم، وكان اسمها عندهم أَنْطَابُولُسْ[7]، معناه ما قال البكري: «الإغريقية خمس مدن»[8]. وليس الآن هناك مدينة تسمى برقة - الآن عند الناس- ولا مدينة مذكورة إلا طُلَميثة، وهي قديمة، ولست أدري أهي برقة أم غيرها. وبرقة الآن عند الناس اسمُ أرضٍ لا إسم مدينة. والمغاربةُ يسمون بها ما رَدّتَ عين أقيان من غربي أجذابيةً إلى الإسكندرية، وذلك نحومن أربعين مرحلة. وأما عرب تلك الأرض فإني رأيتهم لا يسمون بها إلا مرد الحصوي شرقا

1 -في **رحلة العياشي** "المنعم".

2 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 110.

3 - مصراته : مدينة تقع شرقي مدينة طرابلس . انظر : **تاريخ طرابلس الغرب** لأبي عبد الله محمد، تحقيق الطاهر أحمد، القاهرة 1949، ص129، هامش 2.

4 -في **الروض**، "منبر".

5 -الحميري ، **الروض**. . . ، 91

6 - -في **رحلة العبدري** "بناء".

7 -م. س، "أَنْطَابُلُسْ ".

8 - البكري ، **المسالك**. . . ، 2/ 176.

إلى أرض بَرْنيق غربا، وهو حد الغابة، وما حاذاها من الساحل ومن القِبلة، ويسمون ما رد الحَصَوِي العقبة الكبيرة البطنان، ومنها إلى الإسكندرية لا يذكرون إلا العقبتين، وذلك مسيرة عشرة أيام»[1]، هـ. وفيه مخالفة لعرف زماننا ولما قاله أبو سالم، والقول الجامع فيها على الإطلاق قول العبدري وهو محل اتفاق: برقة «هي أم البراري والقفار، والموماة الموئة بالإقلال من وصال الأسفار، يَستعذِبُ عذابَها المُنْفَظّ[2] من الحجاج، كما استعذب الظَّمآن الوردَ *224* الأُجَاج، امتدت وطالت، واشتدت وهالَتْ، ولو أنشدت لقالت: (من الطويل)

أنَا الغُولُ غَالَتْ[3] مَنْ يَدورُ فَناءَها وَتَخْدَعُ بالأَلْطَافِ طَوْراً وبالـتَّبـرِ

فَإنْ أَكَلُوا بُرِّي شَرِبْتُ نُفوسَهُـمْ وَكَمْ بَيْنَ نَفْسِ المَرْءِ الغَدْرِ والبِـرّ

سكنها من الأعراب كل فظ غليظ، يُحْرِجُ بجفائه الأحنف[4] ويغيظ، حتى تكاد منه النفس تغيظ، لا جرم أنهم يقرون النزيل، ويوالون المنفض بالجميل، ولا معترض للحاج عندهم، وإن كان فهو قليل»[5].

واعلم أن اعتمادنا في تسمية مراحلنا السالفة والمياه السابقة على خبر الدليل، ولربما شحناه بخبر بعض الأعراب أن اجتمعنا به والعهدة عليهم لكونهم أهل البلد، ولست على وثوق في مراحل برقة إلا من اشتهر من أساميها، كسُرت وأجذابية والسروال ونحوها، وأما بلاد الجريد والحجاز فقد اشتهرت مراحلها ومياهها كلها أو غالبها على التحقيق.

---

1 - العبدري، **رحلة**، 205 - 206.

2 - المنفظ: المتفرق.

3 - غالت: أهلكت، . ويقال: الغضب غول الحلم أي يهلكه ويغتاله، انظر: **لسان العرب**، 11/ 507.
يطور: يقرب ويحوم. انظر: **لسان العرب**، 4/ 508.

4 - الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد العظماء الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، توفي سنة 82 هـ.
انظر ترجمته: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1968، 7/ 19؛ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1977، 2/ 499.

5 - العبدري، **رحلة**، 203 - 204.

ثم ارتحلنا من المنعل، بعد حمل ماء يومين ونصف إلى أجذابية[1]، فمررنا بسبخة عظيمة بها ملح كثير يظهر كشقاق الكتان عن يمين الذاهب، فبتنا عرقوب الوشكة، ثم منه فسقينا الدواب من الماء المحمول، ثم بتنا بجد أم الطم[2] [بها غرائب من آثار البناء والمدن، وخصوصا المنحوت تحت الأرض، يحار الناظر فيه إذا تأمله يجزم أنه آثار ملوك سالفة، وأمم دارسة، وأن هذه الأرض لم تكن فيها سلف صحراء كما هي عليه الآن. فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين][3]. ثم منه فمررنا بأحنو، وهي أغرب ما يرى بهذا الإقليم: بيت عظيم محتو على بيوت كثيرة منحوتة تحت الأرض، مرفعة من سائر الجهات، وفي وسطها دار ذات بيوت منحوتة مبنى فوقها ظاهر[4] على وجه الأرض شبه برج يحرس منه، والله أعلم.

وبداخل بيوتها دكاكين وتقاويس وأسطوانات وطاقات، وكل ذلك منحوت في الحجر الصلد، وكأن صاحب **الروض المعطار** هي التي قصد بقوله: «ويذكر أن في بعض جوانب برقة وآثارها القديمة دار منقورة في حجر صلد عليها باب من حجر صلد وذك من أغرب ما يكون في الدنيا لا تدخل الذرة بين العضادة والباب ولا ينفتح الباب إلا للداخل ولا يقدر أحد على الخروج منه إلا أن يدخل عليه آخر، وقيل[5] إنه كان منفتحا[6] لا قفل له ودخلها رجل ليراها فرأى دارا منقورة في حجر صلد، وفيها من عظام الناس كثير فهاله ذلك *225* فلما أراد الخروج وجد الباب [قد انغلق فلم يقدرعلى فتحه فأيقن بالهلكة حتى طلبه بعض أصحابه فجاء إلى ذلك الباب][7] فسمع صوته يستغيث ففتح الباب فخرج الرجل»[8]. وسيأتي بعد هذا بمرحلة دار أخرى على هذه الكيفية، وكم في برقة من هذا القبيل مما سنقف عليه.

1 –في د "أجدبية".

2 – ساقطة من ح .

3 – ساقط من د.

4 – في خ "ظاهرا"

5 – في الروض، "يقال".

6 –م. س "مفتحا"..

7 –ساقط من ح.

8 – الحميري، **الروض**. . .، 91.

ثم سرنا بعد الدار المذكورة بنحو فرسخين فوصلنا أجذابية ضحى، وبتنا بها ووجدنا بها غنما كثيرة للأعراب مع اشتداد الرغبة إلى اللحم، فمذ فارقنا مصراتة ما رأينا آدميا ولا غيره إلا أن يكون من جنس الطير أو الضبا غير أولئك أصحاب الغارة، فاشترى الناس ما فيه كفايتهم، وباتوا في رغد عيش وأهناه ليلتهم.

وأجذابية الآن مدينة كبيرة دارسة متوغلة في الصحراء، وليس بها قائم إلا الآبار القريبة الماء في عذوبة سيما المنسوبة للحاج، وكلها منقورة في الحجر الصلد، والمسجد بها فقد بقي محرابه وبعض من مناره وأسطواناته. يذكر أن الإمام سحنون لازم بها ثلاث سنين[1]، وبها مقبرة وفيها رجل صالح اسمه يونس من الفواخر، حي من أعراب برقة، ولا زال الناس من الحجاج والأعراب يزورنه، فزرناه بالنية. قال البكري: «أجذابية[2] مدينة كبيرة في صحراء أرضها صفراء[3] وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء، وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم بن عبيد الله، له صومعة مثمنة بديعة العمل، وبها عين ماء عذبة ولها بساتين لطاف ونخل يسير، وليس بها من الأشجار إلا الآراك، وبها حمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة، وأهلها ذو يسار وثروة وأكثرهم أنباط[4]، وبها نبذ من صرحاء لواتة، ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور[5] لها ثلاث قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا. وليس لمباني أجذابية سقوف خشب، إنما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها. وهي راخية الأسعار كثيرة الثمار[6] يأتيها من مدينة أوجْلة على أصناف»[7].

1 –ينظر: العياشي، **الرحلة** 1/ 104

2 – في **المسالك**، "أجدابية".

3 –م. **س** "صفا" .

4 – في **المسالك**، "أقباط". وفي **الروض** " أنباط" ص 12.

5 – في خ "الماجون" وهو خطأ.

6 – في **المسالك**، "التمر".

7 – البكري، **المسالك**. . . ، 2/177.

وقال في **الروض المعطار في أخبار الأقطار**: «أجذابية[1] مدينة من حيز برقة وهي آخر ديار لواتة وفي صحصاح من حجر مستو، وكان لها فيما سلف سور ولم يبق منه إلا قصران في الصحراء، والبحر منها على أربعة أميال ولا شيء حولها من النبات[2] وفيها يهود ومسلمون، ويضاف إليها خلق من البربر، وليس بها ماء جار إنما مياههم في المواجل والسواني التي يزرعون عليها الشعير وقليل الحنطة وضروبا من القطاني.

وممن ينسب إليها علي بن عبد الله الأجذابي أحد فقهاء*226* القيروان الجِلة، روى عن أبي الفضل محمد بن يحيى بن عباس، قال: كان حي من الجن يقال لهم بنو أسد يزجرون الطير فأرادوا أن يختبروا علم بني أسد من الإنس في زجر الطير فتمثلوا ثلاثة أشخاص وأتوا إلى بني أسد من الإنس فسلموا عليهم وقالوا: إنا قوم ذهبت لنا لقاح فابعثوا معنا من يزجرالطير لعلنا نجدها، فبعثوا صبيا صغيرا منهم فما مشى إلا يسيرا إذ نظر إلى عُقاب قد ضمت جناحا وفتحت جناحا، فرجع الصبي إلى قومه وهو يبكي ويقول للأشخاص الثلاثة: ضمت جناحا وفتحت جناحا، فحلف بالله صراحا، ما أنتم بإنس ولا تبغون لقاحا.

ومن المنسوبين إلى أجذابية[3] أيضا أبو إسحاق الأجذابي[4] الأديب الكبير صاحب **الكفاية**[5] و**شحذ القريحة والعروض.** وأجذابية مدينة كبيرة في الصحراء وأرضها صفا وآبارها منقورة في ذلك الصفا، طيبة الماء والهواء وبها عين ماء[6] غدقة[7] وبساتين ونخل يسير، وبها جامع حسن بناه الشيعي وله صومعة مثمنة بديعة العمل، وبها حمامات وفنادق كثيرة وأسواقها حافلة

---

1 – في **الروض**"أجدابية".

2– في د "النباتات".

3 – في **الروض** "أجدابية".

4 – م. **س** "الأجدابي".

5 – **كفاية المتحفظ في اللغة**. انظر : البغدادي، **مراصد الاطلاع**، 1/ 30.

6– في **الروض** "ثرة" ص 12.

7– في خ "غديقة"وفي د " عذبة" وهو خطأ.

مقصودة، وأهلها ذوو يسار، وأكثرهم أنباط وبها نبذ من لواتة، وليس لمبانيهاسقوف خشب إنما هي قباب[1] من طوب لكثرة الريح بها، كذا كانت أول الأمر ثم أتى عليها من الأمر ما قدمناه»[2].

تنبيه: وأجذابية[3] هي جيم وذال معجمة، هكذا في غير ما ديوان ممن ترجمها حتى صاحب **القاموس**[4] وهو الذي عليه الجادة من الناس حاضرهم وباديهم عرب وعجم. ووقع في **رحلة أبي سالم**: «الجابية»[5] بجيم بعدها ألف بإسقاط الذال، وعليه النادر[6] من الناس ولم يسمها أحد من أهل التاريخ بذلك وإنما الجابية بالشام كما في **القاموس**[7]. وفي **الروض المعطار** و**مسالك** البكري: «الجابية بالشام، وبها ضرب أيوب عليه السلام برجله الأرض فنبع عينان، فاغتسل من أحديهما وشرب من الأخرى، وبين العين والعين أربعون ذراعا، وبينهما وبين حلب ستة فراسيخ»[8]. فالجابية غير أجذابية بلا نزاع، والوهم سرى لأبي سالم من تعبير بعض الحجاج عن أجذابية بالجابية أو الجوابي، والله أعلم.

ولا وجود الآن لأثر شجر بها ولا نبات ولا لعين معينة جارية على وجه الأرض إلا أن يكون شيء زمانه قد فات. لا يأوي لها إلا الرعاة *227* أو غيرهم من سكان القفار والفلوات، وليست أجذابية من مدينة برقة المشهورة التي في القرون السالفة مذكورة، وإنماهي غيرها وبالفحص ظهر أمرها، ففي **مسالك** البكري وهو في النعث مقدام جريء ما نصه: «ومدينة

1 - في **الروض** "أقباء".

2 - الحميري، **الروض**...، 11 - 12. انظر كذلك البكري، **المسالك**...، 2/ 177.

3 - في **الاستبصار** "أجدابية" ص 144.

4 - ينظر **القاموس**، 1/ 84.

5 - العياشي، **الرحلة** 1/ 104. والجابية: قرية من أعمال دمشق. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 91.

6 - في ج وخ "النادر".

7 - انظر: **القاموس**: 1/ 83.

8 - الحميري، **الروض**...، 153؛ البكري، **المسالك**...، 1/ 64.

برقة في صخرة[1] حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنها والمتصرفين فيها. وعلى ستة أميال منها، مدينة الجبل، دائمة الرخاء[2] كثيرة الخير تصلح بها الماشية[3] وتنمو على مراعيها، وأكثر ذبائح أهل مصر منها ويحمل منها إلى مصر الصوف والقطران والعسل. ويعمل القطران بقرية من قراها يقال لها مقّة فوق جبل وعر لا يرقى إليه فارس على حال، وهي كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه، ويتصل بها شعْراء عظيمة[4] عريضة من شجر العرعار[5].

وبمدينة برقة قبر رويفع[6] صاحب النبي ﷺ. وحول مدينة برقة قبائل من لواتة ومن الأفاريق[7]. واسمها «برقة» بالرومية الإغريقية انطابلس: خمس مدن. وسار إليها عمرو بن العاص حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر ألفا يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من [أحبوا][8] من أبنائهم في جزيتهم.

قال الليث بن سعد: كتب عمرو بن العاص على لواتة في شرطه عليهم أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية، وسمع عمرو يقول على المنبر لأهل أنطابلس عهد يوفى به إليكم[9]. ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصارما بين برقة وزويلة للمسلمين. وفي الطريق من برقة إلى إفريقية واد مسوس فيه قباب خربة وجباب يقال إن عددها ثلاثمائة وستون، وبها بساتين، وفي هذا الوادي التربة التي يغلى منها العسل»[10].

---

1 - في **المسالك**، "صحراء". 2/ 176.

2 -في د "الخى".

3 -في د "لها المواشي" وفي **المسالك** "السائمة".

4 - ليست في **المسالك**.

5 - م. س "العرعر".

6 - رويفع بن ثابت الأنصاري صحابي جليل. انظر ترجم له: ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحاب**، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، سنة 1970م، 2/ 191.

7 - في **المسالك**، "الأفارق".

8 - الزيادة من **المسالك**، 2/ 176.

9 - ليست في **المسالك**.

10 - البكري، **المسالك**. . . ، 2/ 176. (مع تقديم وتأخير).

وفي **الروض المعطار**: «مدينة برقة بين الإسكندرية وإفريقية بينها وبين البحر ستة أميال وهي مرج أفيح وتربة حمراء، افتتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين، وفيها أموال[1] كثيرة ومن حمرة تربتها تحمر ثياب ساكنها والمتصرفين فيها، وعلى ستة أميال - منها قد بقيت منها[2]- جبل كثير الخصب والفواكه والمياه السائحة، وتصلح السائمة في نواحيها، وأكثر ذبائح أهل مصر والإسكندرية من *228* أغنامها لعظم خلقتها وكثرة شحمها ولذة لحمها»[3]هـ. فهذا كله يدل على أن مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه وغيرها غير أجذابية لأن أجذابية على خلاف ما وصفت به المدينة المذكورة والذي يدل عليه ما تقدم أنها بالقرب من الجبل الأخضر.

وفي **الرحلة العياشية** بعد جزمه أن مدينة أجذابية هي مدينة برقة[4] ما حاصله، وقيل أنها مدينة، بالجبل الأخضر في الجانب البحري، وقد أخبرنا سيدي عبد الرحمان بن غلبون أنه قد رآها وأن رسومها تدل على عمارة ناطقة[5]، وبها آثار دروس وأبراج ورخام كثير، وأن بها قبرا مشهورا يزار، ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبي. فقلت له: صحابي، فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت الأنصاري من الصحابة، توفي ببرقة وهو أمير عليها[6] من قبل مسلمة بن مخلد، وقتل أيضا ببرقة من الصحابة زهير بن قيس البلوي، ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قتل، وما ذاك إلا قبر أحدهما، فأنا شاهدت كثيرا من العامة يعتقدون في أبي بكر وعمر وغيرهم أنهم من الأنبياء ويظنون أن الصحبة والنبوة مترادفتان. وبنى بعض أمراء درنة[7] على هذا القبر ونحوه، فإن صح أنه قبر الصحابي المذكور فهي مدينة

---

1 - في **الروض** "آثار للأول".

2 - ليست في **الروض**.

3 - الحميري، **الروض**. . .، 91.

4 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 104 - 105.

5 - في خ "قوية".

6 - ينظر: الذهبي، **سيرة**. . .، 3/ 36.

7 - درنة: موضع بإفريقية قرب انطابلس ما بين باجة و طبرية. انظر: **الاستبصار**. . .، 161؛ البغدادي، **مراصد**. . .، 2/ 524؛ البكري، **المسالك**. . .، 2/ 237.

برقة لا أجذابية. والأمر في ذلك قريب، فإن بين المدينتين نحو من خمسة أيام، فكلاهما يصح أن يقال بينهما وبين مصر وإفريقية شهر إذ بذلك يعرفها الفقهاء، إلا أن التي في الجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بإزائها من المياه والأماكن الخصبة، والمزارع الكثيرة، والغياض الملتفة من أنواع الأشجار، بخلاف أجذابية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة، والله أعلم.

ووقع في **رحلة العبدري** ما نصه: «وطلميثة هي أرض برقة»[1]. وهذه المدينة ليست أجذابية، وفي **نزهة المشتاق في اختراق[2] الآفاق** مانصه: «فأما مدينة برقة فمدينة متوسطة المقدار ليست بكبيرة القطر، وتخرج منها التربة المنسوبة إليها فينتفع بها الناس ويتعالجون بها مع الزيت للجرب والحكة وداء الحية، وهي تربة غبراء، وإذا ألقيت في النارفاحت لها رائحة كرائحة الكبريت، وهي فظيعة الدخان كريهة الطعم. ومن برقة إلى مدينة أوجلة في البرية عشر مراحل بسير القوافل، وكذلك من برقة إلى أجذابية[3] ست مراحل، ومن برقة إلى الإسكندرية إحدى وعشرون مرحلة»[4]. وفي **حسن المحاضرات**[5] للسيوطي لما تكلم على حدود مصر أن مدينة برقة على ساحل البحر الرومي»[6].

لطيفة :*229* وفي برقة قصر برصيص الراهب - يعني العابد - المشار إليه في سورة الحشر، فقد ذكر ابن بطوطة[7] في **رحلته** أنه ببرقة[8] . ولم نجد نحن من يهدينا إليه.

---

1 - العبدري، **رحلة**، 205 - 206.

2 - في ح وخ "في ذكر الأمصار" وهو تصحيف.

3 - في **نزهة المشتاق** "أجدابية".

4 - محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر، سنة 1414/ 1994، 1/ 310- 311.

5 - الكتاب مشهور **بحسن المحاضرة**

6 - السيوطي، **حسن المحاضرة**،/27.

7 - في خ "باطوطة".

8 - ابن بطوطة، **رحلة**، دار التراث، بيروت، ص 15.

تـنـبـيـه : قد بقي اليوم مع أعراب برقة فصاحة أحسن من أعراب الحجاز سيما مع الصبيان والنساء والرعاة الذين لا خبرة لهم بلسان غيرهم إلا بنحو حاج كانوا منه على الحجاز، فقد سألت صبيا بأجذابية يسقي غنما له من بئر عادية، ممن أنت يا صبي؟ فقال[1] : من أحسن خدام الزروق، فقلت: وما شأن خدمتكم له؟ فقال بهذا اللفظ : «نجمع صدقة من اللحم والطعام ونقول هذا لك يازروق، فيأكله من أراده منا ومن غيرنا، فقلت: أفي غنمك ثني تبيعه؟ فقال بهذا اللفظ : «من الحول إلى الحول، الضأن ليس فيها[2] والمعز أعشار». ثم سألني كم بينكم وبين بلادكم ؟ فقلت: أربعة أشهر. فقال مستعظما بعدها: الشفاعة يا رسول الله، ومما ينخرط في هذا السلك أن الدليل للركب.

وكان من أعراب برقة نظر إلى برنوس له وقد تلاشى قائلا: إن باد باد يعرض بطلب غيره من بعض الحجاج. وقلت له ذات يوم: كيف أنت؟ فقال: على السلامة والعافية، بكسر التاء الأولى. وقلت لصبي راع لغنمه بأجذابية أيضا: أفي غنمك ثني ذكر من الضأن تبيعه؟ فقال بهذا اللفظ : «لا والله ليس فيها إلا النعاج. وقلت لآخر وهو يسقي غنما له من بئر بها: ماء البئرعذب؟ فقال بهذا اللفظ : «عفِن» بكسر الفاء. وقد سمعنا منهم أغرب من هذا، وسيأتي ما تلقيناه منهم في محله إن شاء الله. وفي **الرحلة للعبدري** نحو من هذا[3].

رجوع، ثم ارتحلنا تاركين طريق العبد - ويقال ابن غية - التي لا ماء بها، اثني عشرة مرحلة إلى أن غادرت الأمطار بها شيئا وإلا وقع الحاج السالك فيها في وحله، وطريق السروال التي تمر بالشبيكة، ويحمل فيها الماء سبعة أيام، سالكين طريق السلوكا ذات المياه والسوق مع أعراب ذوي الجفا من الأنام، فمررنا قبل الزوال ببئرين متجاورين تدعيان الكراين في طول كل منهما ما يقرب من مائة ذراع، أحدهما أقرب للتجرع من الآخر، والأعراب تسقي غنمها به بل بسقي مركوبها وتوضأ من كتب له. وسرنا فبتنا

1 - ساقطة من د.

2 - ساقطة من د.

3 - العبدري، **رحلة**، 206 - 207.

بعد مرورنا على بيت منقور كالأول إلا أن هذا قارب أن تنطمس أعلامه بموضع يدعى المركبات وبه بتنا، ثم منه فما اشتد النهار حتى تعرض لنا أعراب *230* الجهما ومن إنضاف إليهم من الجوازي والفرجان والأحسون وأولاد سيدي خليفة، يريدون إقامة السوق، فأجبناهم، وبتنا بموضع يدعى النواوير، وبها آبار لابأس بمائها، وقامت سوق عظيمة في سائرما يحتاجه الحاج في سفره، من إبل وشعير وسمن وغير ذلك. وكان ممن اجتمعنا به في هذا المنزل: سيدي أحمد بن الحاج عيسى بن سيدي خليفة المذكور، وقد كان مسكنهم بسُرت فرحلوا إلى هذه الأرضين كما تقدم، وله كمال المحبة كسائر بني أبيه، وهم الآن جماعة وافرة في الذرية الناصرية مع ما هو عليه من رونق الدين والصلاح وصدق اللهجة، ووجدته يحفظ **سيف النصر على كل ذي بغي ومكر**، لجدنا أبي عبد الله بن ناصر. وجاءنا بشعير كثير، وشاة، وبعض قمح، لزكاة الفطر، لما استقبلناه من عيد الفطر تقبل الله منه وشكر سعيه، وأخبرني أن جده المذكور، مقبور بمقبرة الشيخ زروق بمصراتة.
ثم بالغد ارتحلنا فنزلنا سلوكا بين الظهرين، وهذا الموضع به آثار مدينة سلفت واند رست ولم يبق بها إلا الآثار، والكثير من العذب من الآبار مع ما هي عليه من قلة الماء زمن المصيف[1]، وللري والسوق مع أعرابه، أقمنا به يومين من غير تطفيف والحذر كل الحذر من أفعالهم، فما رأينا في أقطار برقة من أمثالهم :الجفا طبعهم والغارة والغدر شيمتهم، غيرأنهم لا يعرفون كغيرهم من أعراب برقة السرقة الليلية، فلا يحتاج الحاج أن سدل الدجا ذيله إلى ثقيه مع ما هم عليه الآن من المكايسة في البيوع، يتبايعون بالدينار والدرهم وبغيرهما من العروض كغيرهم، تاركين عاداتهم القديمة ولهم عنها رجوع.
ومن هنا يظهر الجبل الأخضر الخصب والرخا والشجر، ومنه يسلك لمرسى ابن غازي، وهي من هذا المكان على يوم ونصف حقيق غير مجازي، ثم لما قضينا الأوطار، وحملنا ماء خمس مراحل، بل تقرب من سبع إلى التميمي، وهي مسافة السروال، سرنا متكلين على الفتاح الغفار. ثم لما أشرفنا على جبل صغير، تعرض لنا الفواخر وغيرهم من الأعراب ببيع مالديهم من الشعير،

1 – في د "الصيف".

فقلت لبعضهم أهذه الأرض هي السروال؟ فقال بهذا اللفظ : «إن ظهر ثم الظاهر- يعني الجبل المذكور- ولقيهم بساط أسمى فذاك هو السروال». فتعجبت من فصاحته وما أبداه من غريب لغته. فعلونا الظاهر، وسرنا بين كدى كلها مقسومة بمعالم كأنها كانت من قبل حدائق وجنات، وربنا العالم *231* فسرنا إلى نحو الثلث الأول من الليل، فنزلنا واد ابن كودّان، ثم منه فمررنا ضحوة بواد مسوس، تاركين عن يميننا قصرا دارسا، مضى لاندراسه زمان. ولعل هذا الوادي هو الذي قصد البكري بقوله في **مسالكه**: «وفي الطريق من برقة إلى إفريقية واد[1] مسوس فيه قباب خربة وجباب يقال أن عددها ثلاثمائة وستون»[2]. وبعد ثلث الليل بتنا بواد أمزرب، ثم منه فمررنا ضحوة بواد أسما لوس[3]، قيل وهو النصف بين طرابلس ومصر، وسرنا حتى غاب الشفق ففزعت الإبل، وقد بعد عنها الفانوس، فألقت ما على ظهرها وذهبت لمذهبها فلم تنشب أن قيدت بسلاسل خالقها، فمرج الناس بعضهم في بعض ورفعوا عنها، فلما انتصف[4] الليل أو كاد، حططنا فيما بين الحمامة والغفسة، فلما تفقد الناس أمتعتهم، وجد بعض أرباب الأموال ثمان مائة دينار سرقت لهم، ثم لما ارتحلنا بعد الغداة، أقر بها بعض الصعالكة بعد أن هُدد فردها لمالكها وما بها ظل ولابات. وتاه بهذه المرحلة أفراد من الناس فجمع الله بهم الشمل وما بهم من بأس. وسرنا في كلاءة الله وحفظه على ما مس الناس من العطش الشديد و الحر الهائل المديد، فمررنا بعد العصر بقصر مخلف ولسان حاله يخبرعلى ما تقدم به من العمارة بالخلق المنيف، ويومه يغرد على الأطلال، أين الذين أسلفوا هنا من الرجال، وأجروا إلى صهاريجه الماثلة ومآجنه القائمة سيولا من الجبال، فيا من حل به شمر عما بقي من قطع هذه المفاوز، إن كنت ممن اشتدت حاجتك إلى الماء وأنت عاجز، فالمحل محل معطشة ومهلكة إلا أن يتدارك الحق سبحانه وتعالى عبده بجميل لطفه في السكون والحركة. وسرنا حتى الثلث من الليل أو كاد فبتنا بعد تيهان

1 – في **المسالك**، "وادي ".

2 – البكري، **المسالك**. . .، 2/ 176.

3 – في **الرحلة الناصري** لأحمد بن ناصر، "سمالوس". ص 128.

4 – في د "انتصفت".

وجمع شمل في أنكاد بقرية أَبْرِبَرْ، ثم منها جادين والناس بعطشهم وجوعهم كادوا أن يكونوا للأحجار شادِّين، فلم نصل التميمي إلا بعد المغرب في عناء وجهد جهيد متعب، وهي أحساء في واد بينها وبين البحر ما يقرب من ميل، والعذب منها أقل من القليل مع ضرره بالبطون حتى يكون منها ما يكون، فلا تغتر ممن مدحه، وإن كان من أولئك الظلمة، إذ لعله أورده بقرب العهد بالمطر فقضى منه الوطر. وبه استهل لنا هلال شوال فأصبحنا يوم الثلاثاء منه في ارتحال حاملين ماء ثلاث مراحل *232* إلى دَمنة تزيد قليلا، متكلين في ذلك على من بيده مفاتيح الغيب والرحمة. وبهذا المنزل يتعرض للركب أهل درنة، لأنها منه لناحية الغرب على يوم ونصف مرحلة، فيأتون بما لديهم من الفواكه والخضر والميرة. وهي على ساحل البحر بها مرسى، إلا أن مرسى ابن غازي المتقدم الذكر أحسن منها، ومرسى درنة يصعب على من ركب البحر من الكفرة خصوصا في زمن هيجان البحر حسبما حدث بذلك الثقاة البررة، ومع ذلك تنزلها السفن الجائية من الإسكندرية، ومن طرابلس ومن بر الروم، سيما مدينة كندية، فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر لأنها في مقابلتها[1]. وهي مدينة مليحة ذات أشجار وعيون لم يدُر السور بها، والمعاش بها متيسر سهل كمرسى ابن غازي لجمعهما بين البادية والحاضرة. وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها الأندلس قرب الأربعين والألف، ولم يزالوا بها إلى أن نشأ الحرب بينهم وبين أمير طرابلس فأخرجهم منها صاغرين بعد قتال عظيم هلك به أشرافهم، وهي إلى الآن في طاعته كمرسى ابن غازي، وبينهما الجبل الأخضر مسيرة نحو عشرِ مراحل أخصب بلاد الله. وأعرابه اليوم- خرجوا عن طاعة الطرابلسي- أهل سرقة واختلاس وغارات.

رجوع، ثم ارتحلنا من التميمي فمررنا بعده على شاطئ البحر بعين الغزالة، وماؤها قليل اكتسب الملوحة من البحر فنال منه مناله. قيل: وليس ببرقة ماء جار غيرها، قلت: وتقدم عن البكري وغيره أن بأجذابية عينا

1 - العياشي، **الرحلة** 1/ 108 - 109.

جارية[1]، وعنه وعن غيره أن بالجبل الأخضر، بل وبدرنة عيونا جارية. وذكر العبدري: أن بالطريق التي مر بها عين أبي شمال[2]، ولم يوجد الآن شيء ممن ذكر إلا بدرنة والجبل الأخضر، وبالمشاهدة أن العين قد تغور فلا تبقى بها قطرة ولا أثر، وقد يخرج الله تعالى في المكان القفر ماء معينا لم يعهد به، كيف وهذه أزمان ودهور تبيد بها الأنهار والقصور، وتتغير فيها الجبال الرواسي، ويتناهى بمرها ذكر الجن والأناسي، سبحانه من ملك قادر، ورب جبار قاهر، خلق الكل للفنا إظهارا للربوبية وتحقيقا للعبودية. ثم بتنا عند البيت المنحوت عن يسار المار، تسميه العامة اليوم حبس فرعون، أفجر الفجار. دخلناه فكان كما وصفه الإمام العياشي، وأمره عند غالب من مر به من الحجاج أمر فاشي، وهو بيت منحوت*233* في الحجر الصلد «طوله عشرون ذراعا في مثلها، وبداخله بيت آخر نحو نصفه، وفيه غرف صغار كانت مخازن، وكل منقور في الحجر الصلد نقرا عجيبا مربعا كأحسن ما أنت راء من البيوت، وباب مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضا، فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها، وتدبرنا قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[3] "[4].

وقد ذكر العبدري هذا البيت وأجاد وصفه فقال: «ورأيت ما بين جَرسون ومراوة آكامًا غليظة، دائرة بديارٍ منحوتة منها في حجرٍ صلْدٍ من أبدع العمل وأغرب الإتقان، عجيبةً محكمة جدا، ودخلت منها واحدة بإزاء الطريق فوجدتُها على نعت دار مُتقنة، وعن يمين مدخلها حجرة عجيبة للطبخ، وعن يساره حجرة أخرى[5] للرَّحْضِ والتَّطهير[6]، وفي مقابلة الداخل بيت كبير مليح جدا، منقوش على أحسن صفة تكون عليها البيوتُ المبنية، وتلك الآكام كلها منحوتة ديارا على تلك الصفة»[7].

1 - البكري، **المسالك**. . .، 2/ 177.

2 - العبدري، **رحلة**، 481.

3 - الشعراء: 149.

4 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 109 - 110.

5 - **ليست في رحلة العبدري.**

6 - م. س "التطهر".

7 - العبدري، **رحلة**، 481 - 482.

قلت: وما ذكره من بيت الطبخ والرحض[1] والتطهير ساقط الآن وبقي مكانه آثار الهدم، وبهذا المكان أرض طيبة فسيحة ممتدة للحرث، بين كديتين كلها منقسمة بحدود، وآثار البناء متصل بأطرافها، وعن يمينها شعاب تنصب من الجبال فتجتمع سيول تقسم على المزارع في سالف الأزمان، والله أعلم.

رجوع، ثم ارتحلنا فخيمنا قبيل المغرب بمكان فسيح يسمى سبع شجرات، وبه جنان عن يمين الذاهب [به بقية أشجار رمان وعنب وبُطم[2]، وكم من مثل][3] هذا ببرقة من الأشجار[4] العادية يقع عليه الإنسان إن خرج عن الصوب يمينا أو شمالا، وبخصوص هذا الساحل منه كثيرا على مبان الأرض قد تقدمت فيها العمارة التامة، فآلت إلى الاندثار حسبما هو مسطر في كتب الأخبار.

ثم ارتحلنا فنزلنا محضيَة وما بالركب قربة مليئة، فمن أجله لم يوقد أحد نار، ولا تجرع أحدٍ بشربة ماء بنهار، اللهم إلا أن كان عن النادر أو من ذوي الوفر[5] الوافر. ثم منه فنزلنا الطرفاوي من أراضي دَفْنَة وماؤه في أحساء على شاطئ البحر في العذوبة مياه جَنَّة، سوقنا به أولاد علي من الأعراب بتمر مجلوب من سيوة وشعير ودقيق وجمال وغنم وسمن، كانت في شدة غلائها كالدواء، فعند ذلك قلت لعربي منهم: هل نجد أمامنا عند أهاليكم شعيرا للعلف؟ فقال الأعراب: ميَّارة من البُحيرا- يعني الإسكندرية - *234* قمحا وشعيرا ومن سوا تمرا. وساومت آخر منهمفي ثني ضأن، فلما تراضينا عن البيع، قلت أحلال أم حرام من غارة على عادتكم؟ فقال لي: والله ولد نعجتي. فتعجبت من فصاحتهم ومن براعة بلاغتهم، فنفس الله تعالى عنا ما لقيناه من العذاب بعد أن اشتدت الرغبة لذلك، فسبحان مسبب الأسباب. ثم منه بعد أن حملنا ماء يومين إلى المُقرّب فمازالت الشمس حتى وقعنا على

---

1 - مطموسة في ج.

2 - بطم: البطم شجرة الحبة الخضراء واحدته بطمة. انظر: **لسان العرب**، مادة "بطم"، 12/ 51.

3 - ساقط من د.

4 - ساقطة من د.

5 - ساقطة من د.

حي من أولئك من العرب جموعا متأهبين ولأعدائهم مترقبين، فلم ننشب أن وقعوا منا على الدليل، وهو من أعدائهم أولئك القبيل، ففزع الركب لأجله فزعه، وقال: لا نسلمه ولو استأصلتم الركب أجمعه، فعند ذلك أنابوا وإلى الله تابوا، وأوسعوا الركب تمرا وشعيرا وظهرًا ظهيرا. ثم بتنا بعد العصر بالمغاير بقرب قبر سيدي عزيز - قبر مرابط - تزوره هاهنا الأعراب، تعظمه كثيرا وتأتيه بكثير من الصدقات، ثم منه لظهر العقبة، ثم منه فهبطناها في حروشة أو بعض صعوبة وطول[1]، قاست الإبل به شدة، ثم حططنا بالمُقرّب ضحى بأحساء بين البحر ورمال بيض كأنه جبس قد أضحى ماؤها ليس بذلك إلا خصوص حفرة هنالك على أن المأخوذ أثر الحفر لابأس به، وغيره مالح يرمى به وكأنه يكتسب الملوحة من أرضه، فهي سبخة وملح جيد لا يستغنى عنه كل من بيت القدر طبخه، ثم وجدنا عليه الأعراب من أولاد علي، وأخبروا النصارى لهم بهذا الساحل موضع قريب من هذا المنهل، لابد أن يأتوه على سفنهم كل سنة يزورونه، يزعمون أن به قبرعيصُو وكل من تلاقوا معه من المسلمين بهذا الساحل، على نحو مسافة ونصف يوم، أخذوه فأسروه. قالوا: وهذه الأيام ذهبوا باثني عشر من الرعاة معهم امرأة، ولا أخالهم إلا صادقين؛ ولولا لطف من الله تعالى لعمروا هذا المهمه القفر، فينقطع بذلك لأهل المغرب الحج وزيارة القبر.

تنبيه : جرى في هذا المنزل بيني وبين الفقيه أبي عبد الله محمد الصنهاجي، وكان رفيقنا في ركبنا حاجا، نزاع في آل النبي ﷺ، في خصوص من لفاطمة من علي صلة ولادة إلى الآن، فزعم أنهم لا يعذبون في الآخرة أصلا ولايؤاخذون بتبعات كانت من قبل الحق أو من تبعات الخلق، وأن المطيع من عامة المؤمنين لا يدخل الجنة حتى يدخلها العاصي من أهل *235* البيت، وأن العاصي من الشرفاء أكرم عند الله من المطيع من عامة المؤمنين، ولم يقر إذ ذاك على المسألة دليلا، فقلت منكرا لذلك: لا يقدم على القول شيء مما ذكر إلا بنص شرعي، وأنهم كغيرهم من المؤمنين تحت مشيئة الحق سبحانه، إن شاء عذبهم فيخرجون من النار بالشفاعة، وإن شاء سامحهم

1 - ساقطة من د.

وأرضى أرباب تبعاتهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1]، ولقوله ﷺ: «يا فاطمة لا أغني عنك من الله شيئا»[2]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]. ولا فضل في الإسلام إلا ما فضله الله تعالى بالعلم والدين، ولأن المعصية يعظم عقابها بحسب الشخص كما يعظم ثوابها بحسبه لقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[4] إلى قول: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾[5] هذا الذي عليه المحققون. وفي **النصيحة**[6] للشيخ زروق الإشارة إلى أن صاحب هذه المقالة الشنعاء هو الإمام ابن العربي الحاتمي[7]، وفي شرحها لشيخ شيوخنا الإمام سيدي محمد بن عبد الرحمان بن زكري الفاسي، تقرير الرد على الحاتمي، ونقل في ذلك رسالة ألفها الإمام القصار في بطلان مقالته، فلله الحمد على الموافقة. وقد وقفت على جواب حافل لشيخ شيوخنا الإمام سيدي محمد العربي الفاسي رحمه الله في المسألة وأجاد فيه وقرر أدلة الفريقين.

رجوع، ثم ارتحلنا فنزلنا بأعلام القطف ثم منه لشمّاس وبه بنيان ضعيف شبه حوش، تأوي إليه أعراب أولاد علي وتخزن به، وبه مياه عذبة في آبار بين رمل وبحر، وبقدر طول مكثها في القِرب، تعتريها ملوحة كالذي قبله، وغرْبِيَه منهل آخر عن قرب يدعى فوارة وآخر يدعى أحساء إبراهيم،

---

1 - النساء: 47.

2 - أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ رقم 1، 206/ 192.

3 - الحجرات :13.

4 - ساقط من د.

5 - الأحزاب: 30 - 32.

6 - العنوان الكامل : **النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية** للشيخ زروق. طبع سنة 2001 بدار الكتب العلمية، بيروت.

7 - محمد بن علي بن العربي (محيي الدين)، فيلسوف، أصله من الأندلس، قام برحلة واسعة استقر بعدها في دمشق إلى أن توفي سنة 638 /1240، نوقشت آراؤه الفلسفية، ودرست مؤلفاته خاصة "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم". انظر: الشعراني، **الطبقات**...، 1 /163؛ الزركلي، **الأعلام**، الطبعة الثالثة، بيروت، 1389 /1969، 7/ 170.

وشرقيه منهل جَرْجُوب على أميال، وماؤه ليس ذاك معه ملوحة، وهو الذي يرده الركب غالبا. وسوّقنا هاهنا الأعراب بالمحتاج، ثم منه ضحوة ونزلنا أجلزينْ على غير ماء بعدما غرب الشفق نحو ساعة، ثم منه ونزلنا المستقية على غير ماء بين العشاءين، ثم منه فمررنا بقصبات المدار إحداهما عن اليمين والأخرى عن الشمال، ولازال بعض بنيان الكل ماثلا لم يتغير، مرالظهور والأزمان مع مزيد ضخامة، ونزلنا منهل المدار بعد العصر وبحوزه آثار عمارة دارسة، وبيوت منقورة، ومواقف فسيحة، وماؤه عذب زلال. ونودي بحمل ماء ثلاثة *236* أيام إلى الشمام، ثم منه بعد حل النافلة فصلينا الظهر بالعُقيبة، وهي سهلة قصيرة من غيرحروشة تامة، ونزلنا الطواحين على غير ماء، ويقال الطاحونة، بعد الشفق غربي رأس الحصان، وبه نزل علينا مطر وابل لم تمسك الأرض منه ولا قطرة لما بها من الرمل. قال في **الروض المعطار**: «الطاحونة بينها وبين الإسكندرية ستة وثمانون ميلا»[1].

ثم منه تاركين جْميمة يسارا على البحر، وماؤها كثير ليس بذاك، بل يضر بالبطون حسبما شاهدنا ذلك في الرجعة، وسرنا فنزلنا أفْجَدَ على غير ماء بعد غروب الشفق، ثم منه فلم ننزل الشمام إلا بعد الثلث الأول من الليل، وهو أحساء بين البحر وبين جبال من رمال، وماؤه قريب من الأجاج نتجرعه ولا نكاد نسيغه، ووقع الناس في كرب عظيم، ومات بهذه المراحل من الإبل عدد كبير. ولله ذر العبدري وصفه لها بقوله الشهير: «المَوماةُ المُضنيةُ المؤذية، أوحشُ المراحل على الراحل، أرض تستوحش منها - لنكارتها- القلوب، وينسى مع رؤيتها كل خطب ينوب، فقربها كرب من أعظم الكروب، ونوبتُها على المسافرمن نوائب الدهر وهي ضروب: (من الطويل)

وَلَوْلا حَبيبٌ حُبُّـهُ أضْرَمَ الحَشَـا يُصَرِّفُني شَوْقِـي إلَيْه كَمَـا يَشَـا
أَهِيـمُ بِهِ حَـيًّا وَمـيْتاً وَإنّنِــي لأُضْمرُ من حُبِّهِ أضافَ مافَشاتُرنُحُني
فــي ذِكْــرِهِ أَريحـــيَّةٌ كَمَا اهْتَزَّ غُصْـنٌ للنَّسيم إذَا نَشَـا
تَرَكْـتُ إليهِ دُونَ مَـنِ أحِبَّـةً تَصَـدَّعَ إذْفَـارَقْتُهُمْ مِنِّي الحَشَـا

1 - الحميري، **الروض**...، 380.

لَـمَا بِتُّ فِي أَكْنَافِـها لَيْلــــــةً وَلاَ خَشِيتُ هَجيراً لا فِحًا أنْ يُعطّشَا»[1]

ثم ارتحلنا تاركين طريق الإسكندرية على الساحل وبينها وبين هذا المنزل يوم ونصف من المراحل، فنزلنا بعدما غرب الشفق ضحوة بالسواقي، ثم منه قبيل الفجر في رمال وشدة حر وجهد وعطش، فنزلنا بعد انتصاف الليل عفونة بعد هلاك الجمال وشرذمة قليلة من البغال، وتيهان طائفة من الرجال، فما تعالى النهار حتى جمع الله الكل عدا فرد واحد على أحسن حال، و ماء هذا المنهل عذب زلال، يزعمون أنه رشح النيل في قول من قاله، وبه سوّقنا أعراب الإسكندرية من السلاملة، ومن انضاف لهم من الجوابيص المتربطة، وهم محترمون بهذه البرية. ثم *237* منه ضحوة ونزلنا بعد العصر بالقصر الدارس، كان بناه عامل مصر على معدن الملح، وبقربه عين عذبة قليلة الماء، وبالعدوة الأخرى من الوادي ديران مقرونان، ثم منه فمررنا بثالث الديور، وهو أكبرها وبجانبه يليه آثار ديور دارسة، وبإزائه عين راكضة قليلة الماء في عذوبة وبرودة في رمال، وأشرف علينا الرهبان وكلمونا بالعربية، وأدلوا للأعراب وصعالكة الركب من أعلى الدير خبزا وتمرا وزبيبا، ولم ينزل منهم إنسان، وفيهم كهول وشيوخ وشبان، حاشا الإناث من النسوان، وكلمنا حبر لهم فوجدته له معرفة بالتاريخ إذ قال: رفع عيسى إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وشهر، فقلت: كم للرهبان بهذا الوادي؟ فقال في زعمه: منذ بحيرة الراهب العادي. وهم الآن لا يأمنون من الأعراب لما تحيل عليهم بعض من لهم به من الأعراب صحبة، فغدرهم في جماعة لهم فأخذوا كلما وجدوا حتى سلبهم، فمن يومئذ لا يدخل لهم أحد من غير جنسهم، ومعهم ماؤهم في داخل حصنهم، وله باب صغير في فمه صخرة عظيمة لو اجتمعت عليها المنون من الناس لما أزاحوها عن محلها، هي بابه يفتح ويسد بحيلة[2] من الداخل، ومن جاءهم يريد منهم حاجة أو يريدونها منه، فلا يتكلمون معه إلا وهم من أعلى الدير على سطحه، فيدلون حبلا

---

1 – العبدري، رحلة، 210.

2 – ساقطة من ح و د.

وقفة يوضع بها ما يدفعون[1] وما يأخذون فيها ممن جاءهم ما منه أرادوه، ولا لهم زرع ولا ضرع. وأهل الذمة من النصارى الذين من مصر يعاملونهم ويبعثون إليهم بالنذور والصدقات والكسوة والهدايا، بل زعم حبرهم أن ملوك الروم اليوم بل وبعض ملوك مصر من العلوج الذين لم يرسخ قدم لهم في الإسلام، يعاملونهم ويقصدون بذلك التقرب إليهم. ووجدنا لديهم مسلما من فلاحي مصر يخدمهم على أجرة كثيرة، يأتي إليهم بالحطب ليلا من خارج الدير إن كان بقربهم حتى من الأعراب، وإلا خرجوا نهارا في قضاء أوطارهم جريا على عادة الفلاحين من خدمتهم حتى لليهود والنصارى، لدورانهم مع الدرهم والدينار، ولا يبالون في أخذه بهتك عرض ولا بما ينالهم من مخدومهم يهوديا كان أو نصرانيا أو غيرهما من المجوس والوثني *238* عبدة النار، فسبحان خالقهم ورازقهم العالم بنياتهم وطوياتهم.

وهذه الديور ذكرها البكري في **مسالكه** فقال: «قصور شريفة صحراء رمل ربما قطع فيها الأعراب بالرفاق، وتلك القصور يسكن بعضها رهبان وبها آبار عذبة قليلة الماء».

رجوع، وسرنا حتى نزلنا بالوادي الفارغ، ثم منه قبل الفجر وصلينا الصبح بالظهرين وما تعالى النهار حتى أشرفنا على قرى الريف، ولاحت لنا الأهرام عن يميننا قبل ذلك كأنها جبل منيف بعد مكابدة الأين ومعاينة الحين، وتوحش الجمال والبغال ونفورهم لطول عهدهم على الديار والأطلال حتى كأنها لم تعرفها، ولا قط حطت بساحتها الأحمال، فسبحان خالقها وهو الكبير المتعال.

خاتمة:

أراضي برقة مع اتساعها وقلة ساكنها ورطوبة أراضيها وطيب هوائها وكثرة خصبها وجودة زرعها وقلة مرضها ونذور قومها، كثيرة القراض والخشاش من العقارب والحيات والخنافس والأحناش، لا تكاد تسير بها ميلا أو فرسخا إلا وتقع على قرية من القرى، وآبار ومآذن منقورة في الصلد

1 - في خ"ما دفعوه".

من الحجارة نقرا، وبيوتا منحوتة، وكثيرا ما يظهر الجن لمن تاه بها جهارا، يسكنها أحياء من الجفاة، ديدنهم فيما بينهم النهب والغارات، لا يرى منهم الحاج ضررا إلا في النادر، وربما استعتبوا وإن لم يكن عليهم بقادر. ولا يعرفون من الشرع إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، لا يرى بينهم طالب علم، ولا قرآن، وإن كان فهو أغرب من كل غريب فان، غير أن ألسنتهم باقية على أصلها لم تتبلبل، ولا عرف نسائهم في التبرقع قد تبدل، يتبايعن مع الرجال في إدبار وإقبال.

رجوع، وسرنا حتى خيمنا قرب الزوال بكرداسة، وكان ذلك اليوم آخر أيام الزينة بالمحمل، ولقد أدركه بعض من عجل منا بالعبور، ووجدنا النيل قد انتهى فيضانه، فدار بها والمراكب تعبره والركاب السابقة المغربية يعبرون، فأقمنا بها ثلاثا لتوديع البغال والإبل وبيعها، وليحذر من الفلاحين، وما أحدث مع الحاج فيها، ترى الحجاج إذا وصلوا هنا وبقيت بأيديهم بقية من الإبل ضعاف لا يمكنها بعد قطعها ما تقدم السفر إلى الحجاز، فمنهم من يريد البيع وهو الأولى، ومنهم من يريد الإيداع *239* بأيدي الفلاحين حتى يرجع على أجرة معلومة يتراضون عليها.

قال الشيخ أبو سالم: «لاترى أعجب من لطف الفلاحين ولين خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج، فيحلفون بالأيمان المغلظة على أداء الأمانة وبذل المجهود في النصيحة حتى يركن إلى قولهم، ولو من جربهم مرارا ثم عند المفاصلة قلما ينفصل أحد معهم عن طيب نفس. ومن أمثال الحجاج: «المال المودع، بع واستنفع». فالعاقل من باع ما فضل عنه من إبله أو بضاعة، ومتى احتاج اشترى؛ ولكن رزق يسوقه الله تعالى للفلاحين من قديم الزمان ولا مطمع لأحد في قطعه، ففي كل مرة نقول متى رجعنا، ألا نودع عند أحد، فإذا عدنا استنزلونا بخلب بارق من وعدهم الكاذب، حتى نقع في حبائلهم، ونتورط في مخالبهم التي يعسر الخروج منها بدين سالم وعرض مصون»[1]، هـ.

---

1 - العياشي، **الرحلة**، 1/ 124.

ولقد صدق والله في ذلك فلقد جاءني منهم شيخ و طلب مني الصحبة، فقلت: أهي خالصة لوجه الله؟ فقال: نعم، فقلت: أنا لها الآن، فعند ذلك قام فاستعد لضيافتنا من غير علم مني ولا شعور، فلما أحضرها قال: هذا لوجه الله، فتوسمت منه الفقر، فأعطيته ما يزيد على قيمتها، فلاح منه أنه استقلها واستصغرها، فلم يكفه من التحيل إلى أن قال: من عادتنا أن من تصاحب مع مغربي حاج لا يودع عند غيره من الفلاحين بغلا ولا واحد من الجمال، فجعل يعاهد في سائرالأوقات بالتسليم والترحيب والتردد في بعض الحوائج حتى استنزلني وخدعني، فأودعت لديه جمالا ثلاثة إلى أن أرجع من الحجاز على أحد وعشرين مثقالا، أخذ نصفها عاجلا والباقي إلى أن أرجع. فلما وقع الرجوع وجدنا الجمال ضائعة كما أودعناها، يستخدمونها في معاملهم وأسفارهم إلى الصعيد ونحوه. وأنكر[1] العدة المذكورة بعد إشهادنا عليه، وزعم أن المعقود عليه أكثر وبالغ في الفحش من القول وصار خصما من الخصوم حتى قبض ما أراد، ووكلنا أمره لمالك العباد، وهو مع ذلك يدعي أنا هضمنا من حقه، ولم يراقب الله تعالى ولا ارعوى عن غيه ذلك معي ولا انطوى.

وبحثنا أيام مُقامنا هنا عمن يعرف قبر ابن عمنا أبي العباس أحمد بن الحسين بن ناصرفي مقبرة أبي رُواش فلم نجده، كما لم نجد من يعرف قبر ابن عمنا جعفر بن علي بن محمد بن ناصر اللذين ماتا بالوباء لما قفلا من الحرمين مع* 240* الشيخ أبي العباس ابن ناصر، رحم الله الجميع.

---

1 - ساقط من د.

ذكــر دخولنا لمصر

ولما كانت صَبيحَة الرابع والعشرين من شوال، عَبرنا إلى القاهرة فنزلنا مرسى بولاق على العدوة الأخرى من النيل ذي المساجد والأسواق والمقاهي الباهرة، فما بِتْنا بها إلا ليلتين حتى آذن المصري بالرحيل، فصاحبته تاركا ركبنا السجلماسي في قضاء أوطاره، وكان ذلك بإشارة من لا تسعُني مخالفته من الأولياء بطرابلس موترا مشي الليل على مشي النهار، مستسهلا مشقة السهر بالليل على حر النهار، فكان في ذلك لطف عظيم، وخير جسيم، سيما في الذهاب ويقرب منه الإياب، ومررت بأزقة القاهرة حتى سبحت بالأزهر، وزرت المشهد الحسيني ولم ألق بها لضيق الوقت داعيا ولا مجيبا، غير أنها كما في الحديث: «خزانة الله في أرضه»[1]. وبعد الرجوع، لا حرمنا الله تعالى، نمتع الجفن من روضه و يشفي منا الغليل من التردد في عرصاته[2] والتمثل بين يدي علمائه ودهاته حتى نشاهد من أخباره وعجائبه وغرائبه ما تتمتع به الأسماع، ويكتسي به الكتاب حسنا يكون به في الغاية من الإبداع. فخرجت[3] من باب النصرإلى البركة في السابع والعشرين، ووافق يوم الجمعة، وصليت خلف إمام شافعي بجامع باب النصر.

تـنـبـيـه: ولما فرغ من الخطبة والصلاة على سنتها المألوفة، تقدم رجل آخر من الشافعية للمحراب، وأعادها بالناس ظهرا، فقلت للإمام الأول: ما وجه إعادة هؤلاء؟ فقال: الشافعية يرون أن الجمعة لا تصح إلا بالعتيق اتفاقا عندهم، ولما تعذرت معرفة العتيق وجب إعادتها ظهرا . فقلت: لا والله لم تتعذر معرفة العتيق، وبأيدينا من التاريخ ما يعطينا في ذلك التحقيق، وإن كان الأمر كما قلت فهلا أعدت أنت بهم؟ فقال: صلى خلفي المالكي وغيره،

1 – ولفظه « الجيزة روض من رياض الجنة ومصر خزانة الله في أرضه» قال ابن حجر العسقلاني: كذب موضوع وهو في نسخة نبيض الموضوعة . انظر:ابن حجر العسقلاني: **الامتناع بالأربعين المتباينة السماع**، تحقيق أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي 1418، 1/ 97 .

2 – في د «عرصته» .

3 – في د «خرجت» .

وأنا قد كنت قلدت المالكية أولا، فلو أعدتها ظهرا لبطلت على المالكية. فقلت: إن قلدت قولا في مذهب مالك صحت لك ولهم الجمعة، فما فائدة الإعادة،؟ قال: على وجه الاستحباب وخروجا من الخلاف . فقلت: هذا تنطع في الدين.

تنبيه : ينبغي التعرض للمحمل ولكسوة الكعبة - لأننا أدركنا بعض ذلك وشهدناه - [أما المحمل][1] فهو: قبة من خشب، رائعة الصنعة، بخرط[2] متقن، وشبائك ملونة بالصبغ، عليها *241* كسوة من رفيع الديباج، المخوص بالذهب، وفي أعلى القبة المذكورة قبة صغيرة من الصفر، مموهة بالذهب، وفي وسطها - حسبما حدثني به من له بها[3] علم - مصحف صغير، وغاية الأمر أنهم جعلوا ذلك إمارة مهيجة للحج . تكسى القبة المذكورة، ويتبعها موكب وأبهة في أيام تأهب الحاج بمصر، وفي سائر بنادير[4] الحجاز، تهييجا وتشويقا، وإرهابا للأعراب، حيث تجتمع في البنادير للسوق، وتزال الكسوة من القبة في غير ذلك، ويحملها جمل أبيض، مصبوغ بحناء، وخلفه آخر على تلك الهيئة قد عُدَّ لحملها إن ضعف صاحبه، ورقبة كل من الجملين ورأسه وسائر أعضائه مُحلاة بجواهر منظمة بأبلغ نظم، وعليهما رسنٌ محلى بمثل[5] ذلك، وهما في غاية ما يكون من السمن وعظم الجثة وحسن الخلقة .

وأما الكسوة فقد جرت العادة من قديم إلى زمننا أن المصري تولى كسوة الكعبة ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام كل سنة، كما تولى المصري أيضا في سالف الأزمان ثم انتقلت إلى الشام، كسوة الحجرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فيما سلف من الأزمان، وأما الآن فقد حدثنا الثقاة من المجاورين بالمدينة المنورة، على ساكنها الصلاة والسلام، أن من تأمر من السلاطين العثمانيين كساها مرة واحدة أول إمرته، ثم لا تُزَالُ ولا

---

1 - ساقط من ح .

2 - في **الرحلة العياشية** «بخط» 1/ 150 .

3 - ساقطة من ج .

4 - البنادر: ج بندر . و البندر : المرسى والمكلأ . ويطلق الآن على البلد الكبير .انظر: **القاموس**، 1/ 452 .

5 - في د «ببعض».

تُبَدَّلُ بغيرها حتى يموت ويتولى غيره. وهي أحسن صنعة لكسوة الكعبة إلا ما كان من كسوة باب الكعبة وتسمى البرقع، فكلها مخوظة بالذهب حتى لا يكاد يظهر فيها خيط واحد، بصنعة فائقة وكتابة رائقة، فإذا كان النصف من شوال أو قبله أو بعده بقليل يخرج المحمل الخروج الأول، فيؤتى بالكسوة من دار الصنعة فتضرب سجافة أي سِترٌ وبساط على باب القلعة، فيحضر الصناجق، والولاة، والقاضي، كل وأتباعه ولكل منهم مجلس معلوم في السجافة المضروبة، ومجلس الباشا في الوسط، وعن يمينه القاضي، وكل واحد من الأمراء وأرباب الدولة جالس في مجلسه المعهود له وقربهم من الباشا بحسب قربهم في مناصبهم. فإذا تكاملوا وأخذوا مجالسهم، صفت الخيل عن يمينهم، صف كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا، وهو ميدان كبير يسع الألف من الخيل. وآخرُ *242* من يخرجُ الباشا، فتخرج أمامه طائفة من عسكره بعضهم إثر بعض، على قانون معلوم، وآخر من يخرج معه طائفة من الشاوْشِية - وهم الإنكشارية عند المغاربة في عرفهم - على أرجلهم، عليهم جلود النمر، وعلى رؤوسهم طراطير طويلة، لها ذيول معكوفة بين أكتافهم، وعلى جباههم صفائح من الفضة، مستطيلة مع الطراطير إلى فوق، مموهة بالذهب، فيخرج الباشا بأثرهم راكبا، فإذا وصل إلى السّجافة، قام الكل له، واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس، وكذلك يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده. فإذا جلس الباشا جيء بالجمل عليه المحمل المذكور، وبالكسوة المشرفة، ملفوفة قطعا قطعا، كل قطعة منها على أعواد شبه السلاليم - معدات لذلك- يحملها الرجال على رؤوسهم، والناس يتمسحون بها، ويتبركون، فيُمر بكل ذلك بين يدي الباشا، والأمراء، ويقومون لها إذا مرت بهم تعظيما، ثم يخلع على الذين صنعوها بمحضر ذلك الجمع، ثم يذهب بها كذلك حملتها، ويمرون بها في السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني، فتنشر في صحن المسجد وتخاط هناك. ولقد أدركناها في آخر خياطتها، ومن دخل من الغرباء - سيما المغاربة - يناوله الصناع الإبرة والخيط، فيتبرك بخياطتها، وقصدهم بذلك الأخذ منهم، ولقد خَيَّطت بعض ذلك تبركا وأعطيتهم ما كتب،

جريا على عادة أهل المدن- خصوصا أهل مصر والحرمين- الدوران مع الدينار والدرهم ولو كان فوق الثريا أنالوه بحيلهم الغريبة وشبكتهم المنصوبة. فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال، خرج المحمل من القاهرة، وهذا اليوم هو خروج المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف البلد، ويؤتى بكسوة البيت الشريف من موضع خياطتها، وتجعل في المحمل الذي تحمل فيها. ويجتمع الولاة والجند السلطاني على الهيئة المتقدمة، إلا أن هذا أتم احتفالا، وأكثر جمعا[1]، فإذا تكامل ذلك، جيء بجميع ما يحتاج إليه أمير الحاج: من إبل، وقرب، ومطابيخ، وخيل، ورماة، وغيرها من الأسباب التي تخرج من بيت المال، ويحضر الجميع *243* في ذلك الميدان، كل طائفة لها أمير مقدم عليها حتى الطباخين والفراشين والسقائين، ثم يؤتى بالمحمل على جمله المذكور أولا، يقوده سائسه حتى يناول رأس الجمل للباشا، فيأخذه بيده، ويناوله لأمير الحاج بمحضر القاضي، والأمراء، ومعاينتهم، ثم يناوله أمير الحاج لسائسه فيذهب به. وذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن للأمير المحمل وكل ما يحتاجه ذهبا وإيابا، ويشهد على ذلك القاضي والأمراء، ويكتب بذاك إلى السلطان. ثم يجاء بالإبل تمر بين يديهما، عليها من القرب والمطابيخ، والآلات، كل طائفة بمقدمها، ثم يجاء بالمدافع: الخمس أوالثمان كما في بعض السنين أو أكثر من غير ضبط عندهم فيها، بل على حسب الميسور، تجرها البغال، ثم تمر الرماة من ورائها، ثم الخيل، ثم يجيء أرباب الطوائف كل طائفة من مشائخ الصوفية بشيخهم ولوائهم، رافعين أصواتهم بالذكر، كالقادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية، حتى السعاة يأتون بشيخهم، فيمرون بين يدى الباشا ويعطيهم عطاء، فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحاج خلعة و على كل أمرائه الذاهبين معه كالكيخيا والدّويْدار وغيرهما. الأول في عرف المغاربة هو الباشا والثاني هو القائد، والأول هو الذي يكون مع جيشه في مؤخر الركب، والثاني في أوله مع جيش له، دائما، ثم يودعه وينصرف. ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة، والناس مشرفون من الديار والمساجد

1- في د «اجتماعا» .

التي تلي الشوارع ويتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم. قال أبو سالم: أخبرنا أن بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تكرى من أول السنة ولا يسكنها مكتريها ولا ينزلها[1] إلا في ذلك اليوم بقصد التفرج، وفي سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

وبالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام الزينة، وثانيها يوم وفاء النيل، ويقرب منه يوم قدوم[2] الحاج، ويوم قدوم الباشا من قسطنطينية كل سنة، جريا على عادة السلطان العثماني من بعث الباشا والقاضي كل سنة[3].

رجوع، ثم لما صلينا الجمعة بباب النصر، توجهنا للبركة وبينها وبين القاهرة *244* نحومن ست ساعات، كذا ضبطه أهل مصر جريا على عادتهم من الاعتناء بآلة التوقيت من نحو مكانة[4] والأسطرلاب. وقال العبدري: «بينهما نحو عشرة أميال»[5] . والطريق كلها من مصر إلى البركة كأنها سو ق[6] واحد من كثرة الذاهب والجاي، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات، وبها[7] قصور ذوات شرفات اتخذت للنزهة، ولا تمر ميلا أو نحوه إلا وتجد جيشا سلطانيا يمين الجادة وشمالها يحرسون الخارج من مصر والداخل لها، وكذا دأبهم مع الحاج في الإياب، وإليه سبحانه المرجع والمآب.

ومن يوم خروج المحمل، يشمّرالناس عن ساق الجد في التجهيز للحجاز، ويقدم الجمالون من الصعيد والأرياف، وتختلف رغبات الناس، فمن مائل للكراء، ومن مائل للذهاب بإبله، فمن أراد راحة بدنه[8] وتعب

---

1 - في ج وخ «ولا ينزل إليها».

2 - في خ «مقدم».

3 - العياشي، **الرحلة** ، 2/ 155 .

4 - لعل الصواب «منكاب» وهو مما يستعمل لقياس الزمن ذكره صاحب **الدرر الفرائد**. انظر: جاسر، **ملخص** . . . ، ص49 هامش1 .

5 - العبدري ، **رحلة**، 330.

6 - في خ «محل».

7 - في خ «هناك».

8 - في خ «باله».

قلبه والخصومة آناء الليل وأطراف[1] النهار اكترى، ومن أراد سلامة قلبه والمخاطرة بماله اشترى إبله. ثم يأتي عرب الدرب للكراء على حمل الفول لعلف البغال والإبل من مصر إلى المويلح، فيكتري منهم كل من يريد الطلوع بإبله على العلف إلى المويلح لعدم قدرتها على حمل زادها وزاد أربابها، ذهابا وإيابا، ومن أراد المخاطرة فلا يشتري ولا يكتري، بل يشتري في كل بندر ما يحتاج إليه، إلا أنه ربما يقلّ في بعض الأحيان فيقع الغلاء، وربما كان الشراء في البنادر أرخص وأفضل، ولا يكتري أحد من عرب الدرب إلا بعد إعطاء شيخهم لأمير الركب حميلا بمصر، لئلا يغدروا، مع ذلك ربما غدروا، فيقع الغلاء في البنادر. وبرْكة الحاج المذكورة هي: برْكة واسعة مدّ البصر، يجتمع بها ماء النيل وأنواع الأطيار، وتُنْصَبُ بِها الأسْوَاقُ والقهاوي المزخرفة، والفساطيط[2] المونقة، ويخرج غالب أهل مصر للوداع والتفرج والتنزه في بساتين ومقاصير. وعادة الركب النزول بها ليتلاحق الناس، ويقيمون بها يومين أو ثلاثة، وبها آبار عذبة طيبة، أغنى الله تعالى عباده عنها بماء النيل، ويترفهون في هذه الأيام بطبخ ألوان الطعام، والحلويات، ويفتخرون بها بنصب السّفر الملونات، ويجتمع بها من أخلاط الناس الكثير، خصوصا طوائف الناس من الفقراء مع أشياخهم، يذكرون على ما جرت به عادتهم من الرقص المنهي عنه شرعا، وأما أهل اللهو والغناء والمزامير *245* فلا تسأل، كل ذلك فرح وسرور بخروج الحاج - فيما يزعمون - وفي جانبها الغربي قرى متعددة في إحداها مسجد سيدي إبراهيم المتبولي، حسبما للشعراني في **الطبقات**[3]. ولم تبق البرْكة على ما وصفها به العبدري من قوله: «صحراء لا أنيس بها»[4]، وإنما الحال على ما وصفنا فيها.

وبات الناس الليلة الأخيرة فيما شاهدت في رغد عيش، و مزيد بسط، والحجاج في جد واجتهاد من شد الأقتاب، و تعديل الأحمال، وملء القرب،

1- ساقطة من ج و ح .

2- الفساطيط : ج فسطاط وهو بيت من شعر . انظر: **القاموس**، 7/ 371 .

3 - الشعراني، **الطبقات**. . . ، 1/ 206.

4- العبدري، **رحلة**، 330.

مستقبلين البرية العظمى، برية ما بين مكة ومصر، مسيرة أربعين يوما جادة، وليس بها في القديم مُسْتعْتب إلا ببِبذْرٍ وينبع، أما في هذه القرون المتأخرة فقد أحدث بها أمراء مصر بنادير كثيرة، يستريح الحاج عند وصولها ويقام بينه وبين ساكنها والأعراب سوق فيها . والورود في جميع هذه المسافة ربْعٌ وغِبّ، والربع هو الغالب، وليس في البراري التي يسلكها المسافر في سائر أقطار الدنيا أوحش منها ولا أقفر، وأرضها فيما بين رمل وحروشة تامة، لا يمكن أحد المشي بها إلا بالمداس، بل أينما جئت مكة لا تخلص إليها إلا بعد عناء و خوف فيما احتف بها من هذه البرية .

وبها قوم من العرب صعاليك، أنذل من الثعاليب، يتنقلون بها من موضع لآخر ليس لهم قوت ولا حرث إلا ما يمتارونه من بعيد، فهم أبدا في جهد جهيد، وقلما يظهرون للركب لخبث أفعالهم وعدم ما يعاملون به إلا بنحو حشيش يابس، وإنما يطالعون الركب من كل مرقب، فإذا رأوا متخلفا لحاجة أو نوم أو غفلة أو عيّ أوانقطاع وقعوا عليه فمزقوه ولو على أقل ما يتمول، فإن كان عليه زي المصريين قتلوه، أو المغاربة سلبوه وربما جرحوه. ويزعمون أنهم إخوة المغاربة، ويقولون فيهم: أولاد عائشة إخواننا، وكأنهم ما رأوا من صلابة المغاربة وقوتهم على الحرب وشبيهة بعضهم بهم لانوا لهم بعض اللين بخلاف المصريين والشاميين، ولولا أمراؤهم وما ألهمهم الله تعالى له من الاستعداد لهذه البرية باتخاذ[1] الجيش مرتبا على قانون لما أمكن لأحد ممن يأتي وراءهم الحج، لطولها وخلائها إلا من القطاع، ولكن لطف الله تعالى يصحب عباده، وإغاثته تسرع إليهم على حسب اضطرارهم، وتوجههم[2] إليه، فسبحانه من كريم جواد رحيم، دعا عباده لحج بيته، *246* وزيارة قبر نبيه، ﷺ، وحجته [وسهل لهم سلوك البراري الموحشة وركوب السفن الجارية المدهشة، حتى تمتعوا برؤية تلك العرصات، وعفروا ديباجتهم من تقبيلها، فانقلبوا بغفران ما اقترفوا من الزلات، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره][3] .

1- في خ «ايجاد».

2- مطموسة في ج .

3- ساقط من ج.

ولقد أحسن الشيخ أبو سالم وصف الليلة الأخيرة من أيام[1] البرْكة إذ قال: «وتلك الليلة عند الحجاج إحدى الليالي المشهورة، بالقص وعدم انشراح الصدر مذكورة، كأن الدرب أمامهم عدوٌّ لا يرحم، وبحر لا يقتحم، يترقبون مزاولته عند الصباح، ومبادرته بالكفاح»[2]، وإنه لكذلك لولا ألطاف الله تعالى الخفية فيما هناك. ولقد أحسن الشيخ محمد البكري بن زيد[3] المصري، شيخ الشيخ أبي سالم وصف البركة في قوله: (مجزوء البسيط).

فِـــي برْكَةِ الحَجِّ تَــرَى	نَخْـلاً زَهَا لَكِنْ عَجَـــبْ
زَبَرْجَـداً يَحْــكِي وَمَـا	ثِمَـــارُهُ إلاَّ ذَهَــــبْ
فِيهَــا نَسِيـــمٌ رَائِـــقٌ	بِلُطْفِه يَشْــفِي الْوَصَـبْ
وَالطَّيْـرُ فَـوْقَ مَائِهَــا	يَشْدوا بِأَنْوَاعِ الطَّــرَبْ
فَيَالَهَــا مِـــنْ بَرْكَــــةٍ	تُبَلِّـــغُ القَــلْبَ الأَرَبْ
عَـوذتهَــا مِـــنْ طَـارِقٍ	وَغَــاسِــقٍ إِذَا وَقَـــبْ[4]

رجوع، ثم ارتحلنا من البرْكة ضحوة الثامن والعشرين وقد مضى من النهار ثلاث ساعات من غير حدس ولا تخمين، بعد أن نودي بحمل ماء يومين تامين جادين، وودع الناس أقاربهم، وأجروا لفراقهم مدامعهم، وأخلوا على العادة مدافعهم، فدق ما هجروه من طبلهم، إذ لم يأت على أعلامهم من كثرتهم، [وذهب معهم من المودعين إلى البويب، [وهو في الحقيقة باب][5] الدرب ومفتاحه[6] فانقلبوا مشمرين من صدقات العريب،

1- في خ «ليالي».

2- العياشي، **الرحلة** : 2/ 160 .

3- في **الرحلة العياشية** «زين العابدين» وهو الصواب .

4- «وغاسق إذا وقب» تضمين قرآني لقوله تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾. الفلق:3 .

5- ساقط من ح.

6- في خ «مبتدأه».

ومررنا بواد المنصرف والقباب، بعد مفارقة الأهل والأحباب][1] حتى نزلنا الدار الحمراء[2] بعد مضى النصف من الليل في أرض صحراء قفراء.

ثم منها وقد مضى من النهار ست ساعات ونصف على التحقيق، و لم ننزل عجرود[3] إلا بعد طلوع الفجر بغير ماء دقيق، وهلك بهاتين المرحلتين من الخلق والإبل كثير، لما حل بالناس من السموم الحارة، ولا لهم غير خالقهم من معين ولاظهير سيما و مبدأ الأسفار أصعب ما يكون على الآدمي وغيره في الإقبال والإدبار. و أقمنا بعجرود يوما للراحة والسوق، وبه قلعتان يخزن بهما الحاج ما استثقل من الزاد حتى يرجع، وبه استهلنا هلال ذي القعدة، وماء بئره أشهر من أن يذكر *247* في القبح، [وبه فسقيتان إحاهما أكبر من الأخرى][4]، وثلاثة صهاريج، اثنان[5] صغيران والثالث أكبرها، وعمق كل واحد منها نحو العشرة أذرع، ودور الكبير نحو الثلاثين ذراعا في نصفها، يسقى داخل الحصن من بئر كبيرة بالبقر، فيخرج الماء إليها فيجدها الركاب مملوءة ماء، وهو مع قبحه[6] تصلح عليه الدواب، والآدمي يتجرعه ولا يكاد يسيغه، ومع ذلك ينزفها المصري غالبا حتى لا تبقى لمن بعده من المغاربة قطرة. ويجرى من بيت المال على من يعمر الصهاريج المذكورة بالماء كل سنة ذهابا و إيابا في خراج، وكذا غيره من البنادير، وبمصر عليها أحباس، وبه وبغيره من البنادير عسكر لا يفارقه يتناوبون على ذلك، فلا[7] يخرج منها عسكري حتى يخلفه غيره، ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها، وقلة مرافقها، و شدة

1- ساقط من د.

2- الدار الحمراء : سميت بهذا الاسم لأن رملها أحمر وكذا جبالها ، والبدو يسمونها : مفاريش الأرز لأن فيها حصيات بيضاء تشبه الأرز الأبيض. انظر :حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، السعودية، 2/ 523 .

3- جرود : مدينة قديمة على البحر . انظر : **الاستبصار**. . . ، 136

4- ساقط من ح .

5- ساقطة من ج.

6- مطموسة في ج.

7 - في خ «قلما».

غلائِها؛ وليس بهذا البندر شجر ولا زراعة، وإنما يمتار ساكنه من مصر ومن بعضِ الأعراب إن نزلته . ومن هنا افترقنا مع الكثير من الصعالكة الذين لا طاقة لهم على البر، قاصدين ركوب البحر القلزميّ من مدينة سويس، وهي على فراسخ قليلة من هذا البندر. وقال في **القاموس:** «قلزم كقنفذ سيف عمرو ابن معدي كرب، وهو بلد بين مكة ومصر قرب جبل الطور، وإليه يضاف بحر القلزم لأنه على طرفه أو لأنه يبتلع من ركبه»[1] ، هـ .

وقال في **الروض المعطار في أخبار الأقطار:** «القُلْزُم[2] مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر، وبها يعرف هذا[3] البحر فيقال بحر القُلْزُم، وبها المراكب للتجار[4]، ولأنه سمي القُلْزُم في مضايق بين جبال، والقلازم: الدواهي والمضايق، وهي مدينة صغيرة متقنة البناء ليس فيها زرع ولا شجر، وإنما تمتار[5] من أرض مصر، و يضيق عندها البحر حتى يكون كالنهر، ويمر كذلك دون[6] مدينة القلزم إلى الشمال عشرة أميال و ينقطع، وشرب أهل مدينة القلزم من جزيرة هناك، ومن السويس يجلب على الظهر، وهي يمين طريق مصر على ثلاثة أميال من مدينة القُلْزُم.

ومن أمثالهم: أكلُ لحم التيس، وشرب ماء السويس مع العقل ليس[7] . ومن أعاجيبها أن معزها مرسلة في السكك لا مراعي لها ولا أكل إلا التراب، وهي فائقة في السمن[8]، ومن أعاجيبها في ربض النصارى منها مسجدا في وسطه أسطوانة يأخذ الرقاصون منها زنة الحبة ونحوها وتُحْرز[9] في جلد فلا

1- **القاموس** : 1/ 1486 .

2- القلزم : بلدة على شاطىء البحر الأحمر قرب أيلة . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 387 .

3- ليست في **الروض**.

4- في ج «للتجارة»وهو خطأ.

5- في **الروض** «تمار».

6- في خ «قرب» وهو خطأ.

7- كذا في **الروض** .

8- في م . **س** «سمان فائقة السمن» .

9- في ج وح وخ ود « يخرز» والصواب ما أثبتناه.

تؤذيهم [دابة من][1] دواب البحر، ويراعون *248* ذلك مراعاة شديدة، ولا يشكون فيه، ولا يخلون منه[2]، ويزعمون أن القرش إذا قابل في البحر تلك الأسطوانة انقلب على ظهره، وربما هلك فرماه البحر ميتا. وطول هذا البحر من القلزم إلى المرقدان[3] أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ، وقد رام بعضهم فيما سلف أن يوصل بحر القلزم وبحر الروم حريصا على عمارة الأرض وخصب البلاد ومنافع العباد فمنع من ذلك خشية أن يتوصل[4] الروم بسبب ذلك إلى غزو الحجاز[5].

وفي بحر القُلْزُم[6] جبال عالية فوق[7] الماء و تروش ظاهرة[8] ومخفية، وطرق السفن منها معلومة لا يدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر العالمون بطرقاته والسير فيها أبدا بالنهار فقط، ولا يسير به في الليل أحد لصعوبة طرقه من تعاريج مسالكه.

وكان[9] القلزم مدينتين وأكثرهما الآن خراب لتسلط العدو عليهما وتضييقه الدائم على أهلهما حتى قلت العمارة، وخاف القاصد إليهما، فضاقت معائشهم. وبين القلزم ومصر تسعون ميلا، وبالقلزم تنشأ السفن المسافرة

1- ساقط من ح.

2- في خ «ولا يخشون منها».

3- في **الروض** «الواقواق».

4- في خ «يتعرض».

5- في حاشية خ: «وقد تحقق هذا العمل العظيم وأذنت الحكومة المصرية للمسيو ديلسبوس المهندس الفرنسي في القيام به عام 1281 الموافق 1864 وكان إتمامه وانتهاء العمل فيه والاحتفال العظيم به في عهد الخديوي إسماعيل باشا في شعبان عام 1286 الموافق 17 نونبر 1869 وحضر الاحتفال سائر ملوك أوربا، أو مندوبيهم ومن ذلك الحين التقى البحران الأحمر والأبيض المتوسط، أو القلزمي والرومي كما يعبر المؤلف، واتصل الشرق والغرب، وحصل انقلاب عظيم بسبب ذلك في أحوال عالم الجغرافية والسياسية والاقتصادية، ولله الأمر من قبل ومن بعد. جعفر الناصري». ص195.

6- ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 344.

7- في خ «في جوف».

8- في **الروض** «طافية».

9- في م. س «كانت».

في هذا البحر ، وتعمل بحبال الليف والدّسر وتجلفط بالشحم[1] المتخذ من دواب البحر ودقايق[2] اللبان»[3].

وسبب عدم جعل الدّسُر في سفن هذا البحر ما به[4] من حجر المغناطيس الذي أودع الله سبحانه وتعالى فيه حكمته، منها أنه لا يقبل الحديد، فإذا قابلت السفينة ذات الدسر – يعني المسامير من الحديد – هذا الحجر خرجت من مقرها لحينها، وبه تسقى الإبرة في آلة التوقيت المعهودة، ولذلك تتحرك دائما فيقع بها الانفعال المعهود . ولقد حدثت في سفري هذا أن سفينة من الحجاج ركبوا البحرالرومي من تطوان المغرب إلى الحجاز، وكانت لنصراني معه الحجر المذكور، فلما رأى سفينة أخرى لبعض أعدائه من النصارى وقد قصدت أخذ سفينته، عمل صنعته في هذا الحجر مع الحديد فانقلبت السفينة لحالها راجعة القهقرى من غير ريح، وإنما مشيها بالحجر حتى أفلتت من عدوها، ثم صوبت صوبها. ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[5]، ولا تأثير لأي شيء من الكائنات، وإنما هي أسباب عندها، لا بها .

تكميل[6]، ولا ذكر اليوم لمدينة القُلْزُم في هذا المكان، وإنما الموجود المعروف عند العام والخاص الآن وهو المطروق: مدينة سويس، وهي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات *249*، مستطيلة على شاطئ هذا البحر الذي تأتي من الهند، وهناك يقف بين جبال شامخات وبينه وبين البحر الرومي نحو من مرحلتين . قال الشيخ أبو سالم: «وبها مرسى السفن التي تأتي من مكة وجدة واليمن، وفيها السلع الكثيرة، والبضائع النافقة الجليلة، ومن هنا يحمل بما يأتي به في البحر إلى مصر وما والاها»[7] . وبحرها هذا

1- في خ «الشمع».

2- في **الروض** «دقاق».

3- الحميري، **الروض**. . . ، 466 – 467 .

4- في خ «أنه».

5- النمل: 90.

6- مطموسة في ح .

7- العياشي، **الرحلة**، 1/ 162 .

يدعى أيضا بحر الحجاز كما في **نزهة المشتاق في اختراق**[1] **الآفاق**، قال: «وفيه[2] جزيرة السامري يسكنها قوم يهود سامرية[3] ، وعلامتهم أن يقول أحدهما إذا لقي إنسانا: ﴿لَا مِسَاسَ﴾[4] ، فبهذه اللفظة يعرفون[5] أنهم من اليهود المنسوبين إلى السامري[6] صاحب العجل في زمن موسى»[7] .

والظاهر من كلام **الروض** المتقدم أن سويس هو بئر عجرود، فنسبت المدينة المذكورة التي على البحر له، فقال الناس: مدينة سويس، وتوسعوا فقالوا: بحر سويس كما قالوا فيه بحر القلزم تسمية له باسم المدينة التي على شاطئه، وتسمية المكان بعجرود حادثه، قيل: سمي المكان باسم نازله من الصلحاء، ولازال اليوم يزار فيه ويدعى العجرودي، هكذا تلقيت من بعض طلبة مصر. والعجرود، كما في **القاموس**: «الخفيف السريع، والغليظ الشديد وبلدة بذمار»[8]. وعبد الكريم بن العجرد رئيس للخوارج، وأصحابه العجاردة، والعنجرد المرأة السليطة أو الخبيثة السيئة الخلق[9]. ولم يذكر هذا الموضع فانظر وجه تسمية المكان بذلك، والله أعلم.

وفي **رحلة العبدري** ما يدل على ذلك قال: «وأما مناهلُ هذه البرية فمن البركة إلى السويس ثلاثة أيام، وهي بئر غزيرة واسعة، وهناك ينقطع بحر

1- في ج وح و خ ود «أخبار» . وهو خطأ .

2- في **نزهة المشتاق** «منها» .

3- في خ «سامريون».

4- طه: 95 .

5- في **نزهة المشتاق** «يعرف» .

6- السامري : أحد بني إسرائيل ، من قبيلة السامرة، صنع العجل وعبده ، في غياب موسى عليه السلام، ودعا قومه إلى عبادته فأضلهم رغم تحذير هارون عليه السلام لهم وجاء ذكره في القرآن : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ سورة طه الآية 88 . انظر : **تفسير ابن كثير**، 3/ 152 – 165 .

7- الإدريسي، **نزهة**. . . ، 1/ 136 .

8- **القاموس** : 1/ 380.

9- م . س .

الشرق[1] ويدور السالك من ورائه ويتركه يمينا ولا يزال محاذيا له إلى مكة، وثم كانت مدينة القلزُم بينها وبين الفَرَمَا[2]- كورة من مصر على ساحل بحر الروم[3] - مسيرةُ يوم، وما بين هذين الموضعين أقرب مسافة بين البحرين بحر الشرق وبحر الغرب، قالوا [4] : وهذا الحاجز بينهما هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[5]. وماء السويس ملح[6] لا يكاد يُساغ لملوحته، وخبث طعمه [7] ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو أزيَد قليلا ماء يقال له مغبوق، وهو ماء عذب[8] طيب في أحساء برملة بيضاء، غزير ولا كُلْفَةَ فيه»[9] ، هـ.

اللهم إلا أن يقال: إن المدينة التي على شاطىء البحر اليوم المدعوة السويس لم تبق في زمان *250* العبدري، وصاحب **الروض** وإنما حدث بناؤها بعد، ومكانها كان في القديم يدعى سويسا وطريق الأقدمين عليه، فلما استطالها المتأخرون وتشعبت[10] عليهم طريقها أحدثوا بئرعجرود وبنوا عليها، وهذا هو الذي يغلب على الظن بل هو المتعين لقول العبدري: «ليس بهذه البلية مُسْتَعْتَب، أي مكان يُرجع إليه ويستأنس بأهله، إلا بدر وينبوع»[11] ، هـ.

ويقول البكري في رسالته: «فوصلنا إلى بندر عجرود، وماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهل بندر السويس، وعطفوا علينا انعطاف الأغصان

---

1 - بحر الشرق: يعني البحر الأحمر.

2- الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهي مدينة حصينة بينها وبين البحر قريب من يوم. انظر: البكري، **المسالك**، 2/ 157 .

3- في **رحلة العبدري** «البحر الرومي» . وهو البحر الأبيض المتوسط .

4- ينظر البكري، **المسالك**. . . ، 2/ 157 .

5 - النمل: 61.

6 - في د «ملح ».

7 - في **رحلة العبدري** «خباثية مطعمه».

8- في خ «عد».

9 - العبدري، **رحلة**، 335 - 336.

10- في د «تشعب» .

11- العبدري، **رحلة**، 330. (بتصرف) .

في الميل والميس، وأهدوا إلينا الأحطاب للمشاعل، والأغنام للمآكل»[1] . وفي **خطط المقريزي** أيضا: «بين هذين البحرين هو البرزخ الذي ذكر الله تعالى في كتابه في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[2]»[3] ، هـ .

وفي **الرحلة الناصرية**، وسويس: «هي بموضع مدينة القلزم التي ينسب إليها هذا البحر، بالقرب منها غرق فرعون»هـ[4]. فانظره ففيه بعض مخالفة لما تقدم، اللهم إلا أن عنى أن القلزم قريب من السويس لا أنه هو، والله أعلم. وفي **الخطط** ، مبدأ هذا البحر من البحر الكبير المحيط بالأرض المسمى: «ببحر الظلمات لتكاثف البخار المتصاعد منه، وموجه عظيم. ولم يوقف من خبره سوى ما عرف من بعض سواحله، وما قرب من جزائره. وفي جانب هذا البحر الغربي الذي يخرج منه البحر الرومي، الجزائر الخالدات وهي ست يسكنها قوم متوحشون، كما أن في جانبه الشرقي مما يلي الصين ست جزائر تعرف بجزائر السبيلي نزلها بعض العلويين في أول الإسلام خوفا على أنفسهم من القتل. ويخرج من هذا البحرالمحيط ست بحارأعظمها اثنان، وهما اللذان ذكرا في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[5]، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[6] فأحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب، فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصيني والهندي والفارسي واليمني والحبشي بحسب ما يمر عليه من البلدان، وأما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومي، وأما البحر الهندي الخارج من جهة الشرق فمبدأ خروجه من شرق الصين وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة، ويجري إلى ناحية الغرب فيمرعلى *251* بلاد الصين وبلاد الهند إلى مدينة كتبانة وإلى التبير من بلاد تكران، ينقسم هناك قسمين أحدهما يسمى بحر فارس

1- ليس هو أبو عبيد البكري، ينظر: العياشي، **الرحلة**، 1/ 162 .

2 - الرحمان : 20.

3- أحمد المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار من تواريخ مصر**، باب ذكر دمياط، دار صادر، بيروت، 1/ 268.

4 - الناصري، **الرحلة**، 181.

5 - الرحمان: 17.

6 - النمل: 61.

والآخر بحر اليمن، فيخرج بحر اليمن من ركن يسمى رأس الجمجمة فيمتد إلى مدينة ظفار وساحل حضر موت، وإلى عدن، فإذا انتهى إلى باب[1] المندب يخرج بحر القلزم فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب ومر إلى القصير ومنه إلى عيذاب[2] إلى بلاد الزيلع وهو ساحل بلاد الحبشة ويتصل برا. وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل، وعرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها، وهو بحر كريه المنظر والرائحة.

أما البحر الرومي فيخرج من الغرب وهو في الإقليم الرابع بين الأندلس والغرب سائرا إلى القسطنطينية، وإذا خرج هذا البحر مر مشرقا في بلاد البربر وشمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد الغرب على إفريقية وبرقة الإسكندرية وشمال التيه[3] وأرض فلسطين وسواحل بلاد الشام، ثم يعطف من هناك إلى العلايا وأنطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية، حتى ينتهي إلى البحر المحيط الذي خرج منه. وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل وقيل ستة آلاف وعرضه من سبعمائة ميل إلى ثلاثمائة وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة»[4]. وذكر بعض الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية وبين القسطنطينية من البلاد كان في القديم أرضا تنبت الجميز[5]، وكانت مسكونة وكان أهلها قوما من اليونانية، وأن الإسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض وكان فيها – فيما يزعمون – الطائر المسمى: «ققنس» حسن الصوت سيما إذا حان موته بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد أن يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور، فلا يهدأ من الصياح. وزعموا أن بعضا من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت هذا الطائر في تلك الحال

1- في خ «بلاد».

2- عَيْذاب: بلدة على ساحل بحر القلزم، وهي مرسى المراكب التي تنفد من عدن إلى الصعيد. انظر: البغدادي، **مراصد**...، 2/ 974.

3- التيه: الموضع الذي تاه فيه بنو اسرائيل أربعين سنة، لما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة. وهي أرض من أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة بارض الشام انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 62؛ الحميري، **الروض**...، 147.

4- المقريزي، **المواعظ**...، باب ذكر البحر الرومي، 1/ 19 – 20.

5- جُمَّيْزٌ واحدة جميزة: ضرب من الشجر له ثمر يشبه التين. **المعجم العربي الأساسي**، ص 260

فخشي أن يقتله حسن صوته، فسد أذنيه سدا محكما ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئا بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة ولا يسمعه أول مرة فيأتي عليه. وزعموا أن هذا الطائر هلك ولم يبق ولا نسله، هجم عليه البحر بالليل في الأوكار*252* فلم تبق له بقية. ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحا فيه سم ليشربه وأعلمه بذلك، فظهر منه مسرة و فرح. فقال له: ما هذا أيها الحكيم؟ فقال له: «هل أعجز أن أكون مثل فقنس؟»[1] .

رجوع، ثم لما قضى الناس من هذا البندر أوطارهم بعد نزح ما ببركه من الماء ولم يشف أوامَهُم، عدلوا عن طريق المصانع- ويقال رؤوس النواظر- للمتابعة بعد ما مضى من النهار ساعتان، ولم يَنْزلها إلا بعد الاصفرار، وهي أحساء كثيرة عذبة، تضاهي النيل، في رمال واسعة، على قرب البحر إلى مدينة سويس . وأما طريق المصانع فإنها معطشة، لا تسلك إلا في غير زمان الحر، وتبقى ذات اليسار في سبخة بعدها رمال وهي سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق وكذا في الرمل القريب منها، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها الماشي ليلا، وربما علقوا على الأعلام مصابيح ليلا لبعد ما بينها، وبين كل علم وعلم نحو فرسخ، حتى يتصل إلى رأس واد الرمل، وقد تهدم بعضها الآن، وبقيت بقية لا يكاد يقع الاهتداء التام بها، ومن أجل ذلك وقع تيهان في الركب في ذلك المحل في الرجعة. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي في **رحلته** وقد وقفت عليها بخطه في سفري هذا: «وسميت تلك الأعلام بالنواظر، لأن الناظور في اللغة هو الحارس، فكأنها تحرس من التلف الماشي عن الطريق»[2] ، هـ.

قلت: وفي **القاموس** ما يشهد له في مادة نظر بالظاء المعجمة إذ قال: «والمناظر أشراف الأرض»[3]، هـ. ولو قالوا: رؤوس النواطر- بالطاء المسقوطة- لكان أظهر في معنى الحراسة لقول **القاموس**: والناطر والناطور، حافظ النخل والكرم[4]، هـ. على أنه لا مانع من أن يقال: المعنى هذه رؤوس

1- الناصري، **الرحلة**، 182 - 183 .

2- الزبادي، **بلوغ المرام**، 2/ 97 .

3 - **القاموس**، :1/ 623.

4 - **م . س**، 1/ 622 .

النواظر أي المنظور إليها فأسند النظر إليها مجازا ومبالغة على حد ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[1] أي راض صاحبها .

ثم ارتحلنا، وقد مضى من النهار ست ساعات في جبال وأودية من رمال ولذلك يسمّى المحل بوادي الرمل، وفي مثله يقول الشاعر[٢]: (مجزوء الكامل)

هَــاذِي بَيَـادِرُ رَمْـــلِ	تَـرَى الأَعَاجِيـبَ مِنْهَــا
الرِّيـحُ طُـولَ اللَّيَالِــي	تَسْفِـي وَتَكْتَــالُ مِنْهَــا
وَالْوَضْـعُ لَـمْ يَتَغَيَّــرْ	وَشَكلُهَـا لَـم يَخُنْهَــا

ويسميه بعض الناس المنصرَف[3] بفتح الراء .

ومررنا بعده بوادي السدرة والخروبة، لوجود شجرهما به، وبه تجتمع طريق النابعة ورؤوس النواظر، والمحل محل سرقة *253* غالبا. ومررنا بعقبة التيه، وقد سويت في زمان طولون[4]، ومع ذلك قاست الإبل بالجميع شدة، ولم نحط الرحال إلا وقد قارب الزوال في أرض التيه، وهي أرض قفر موحشة طويلة عريضة معطشة، وهذا هو تيه بني إسرائيل. قال المقريزي: «هو أرض بالقرب من أيلة وهو مقدار أربعين فرسخا في مثلها، ويسير الراكب مرحلتين في فحص التيه حتى يصل بحر فاران وفيه غرق فرعون، وفي التيه المذكور تاه بنو اسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة ولا أووا إلى بيت ولا بدلوا ثوبا، وفيه مات موسى عليه السلام. ويقال إن طوله نحو من ستة أيام، واتفق أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين سنة اثنتين وخمسين وستمائة مرت طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم ترآى لهم في اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه، فإذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر فدخلوها وطافوا بها، فإذا قد غلب عليها الرمل حتى

1- الحاقة: 20 .

2- هو صلاح الدين الصفدي .

3- بالقرب من المدينة موضع كان يعرف باسم المنصرف، لأن الطريق إلى مكة كان ينصرف منه يسارا، أما الآن فيتجه قصدا إلى الصفراء، ويعرف الآن باسم «المسيجيد» أصبح بلدة عامرة. انظر :الجاسر، **ملخص** . . . ، 59 هامش3 .

4- خمارويه بن أحمد بن طولون . انظر : الحميري ، **الروض**. . . ، 70 .

طمس أسواقها ودورها، ووجدوا بها في صينية بعض البزارين، تسعة دنانير ذهبا، عليها صورة غزال وكتابة عبرانية، وحفروا موضعها فإذا حجر على صهريج ماء، فشربوا منه ماء أبرد من الثلج، ثم خرجوا ومشوا ليلة فإذا بطائفة من العربان فحملوهم إلى مدينة الكرد، فرفعوا الدنانير إلى بعض الصيارفة، فإذا عليها أنها ضربت أيام موسى عليه السلام، ودفع لهم في كل دينار مائة درهم، وقيل لهم: إن هذه المدينة الخضراء من مدن بني اسرائيل وبها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخرى، لا يراها إلا تائه، والله أعلم»[1].

قال في **الروض المعطار**: «وينسب البحر إلى فاران وهي مدينة من مدن العمالقة على تل بين جبلين وفي هذين الجبلين نقوب كثيرة لا تحصى، مملوءة أمواتا، ومن هناك إلى بحر القلزم مرحلة واحدة»[2]. وزاد المقريزي في **الخطط**: «ويقال له هناك ساحل بحر فاران، وبين مدينة فاران وبين التيه مرحلتان. ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة أو الحجاز وهي التي ذكرت في التوراة، والتحقق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية وهي غير فاران المذكورة في التوراة، وقيل: إن فاران[بن عمرو بن عمليق هو الذي نسب إليه جبال الحرم فقيل جبال فاران. وكانت مدينة فاران][3] من جملة مدائن مدين إلى اليوم، وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره، وبها نهر عظيم، وهي خراب يمر بها العربان»[4]، هـ.

وفي **القاموس**: «وفاران جبال مذكورة *254* في التوراة منها بكر بن القاسم»[5]. زاد في **الروض**: «والتيه مقدار أربعين فرسخا في مثلها أو أربعة فراسخ في مثلها، وفي فحصه مات موسى وهارون على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام»[6].

1 – المقريزي، **المواعظ**. . . ، 1/ 268.

2 – الحميري، **الروض**. . . ، 147.

3– ساقط من ح .

4 – المقريزي، **المواعظ**. . . ، 1/ 226. (باب ذكر مدينة فاران) مع الاختصار.

5 – **القاموس**، 1/ 1576.

6 – الحميري، **الروض**. . . ، 147.

رجوع، ثم ارتحلنا من التيه عشية يومنا وبالناس من العطش الشديد والحر الهائل المديد ما يكل عنه البيان، ولا يعرب عنه لسان. وفي ذلك يقول الشيخ أبو سالم رحمه الله تعالى ورضي عنه:

(من المتقارب)

وَلَمْ أَنْسَ بِالتِّيهِ يَوْمًا بِهِ ... تَفَانَى[1] الحَجيجُ صَدًى وَوُلُوهَا[2]
وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ ... عَجْرُودَ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَا[3]

وقال البكري: (من الرمل)

لاَ تَسْلُكَنْ بِوَادِي التِّيهِ مُنْفَرِدًا ... بِلاَ دَلِيلٍ تَرَى وَقْعَ الرَّدَى فِيهِ
فَمَا سَمِعْتُ كَلامًا مِنْ أَخٍ ثِقَةٍ ... فِي النَّاسِ إلاَّ وَقَالَ احْذَرْ مِنَ التِّيهِ

ولم ننزل النخيل إلا بعد الزوال، وبتنا به ليلة، وبه تعرض لنا أهل غزة من أرض الشام بالمحتاج، من شعير وسمن، وفواكه من عنب وتفاح ولوز ورمان وسفرجل وزبيب وتين يابس، قل أن يوجد لفواكهها نظير، وبينهما نحو ست مراحل، وهذا البندر فيه حصن وبئر يسقى منها بالبقر فيجمع بجانب حصن في صهاريج دون التي بعجرود، وليست البئر بداخل الحصن بل خارجه، خلافا لسيدي عبد المجيد في **رحلته**[4]، ولعله لم يشاهدها بنفسه فظن أنها كعجرود، و ليس كذلك[5]. وربما قل ماؤها، وهو فيما يبدو لشاربه عذب، إلا أن معه من الثقل ما يضر حتى بالدواب، فلقد شاهدنا من شربه من البغال فمات لحينه، واشتهرعند الحجاج أهل مصر حتى جعلوا[6] يحذرون من تناوله حتى للدواب والعذر لأبي سالم ومن تبعه على مدحه،

1- تفانى: أشرف على الموت، والصدى: العطش.
2- الولوه: من الوله، ومن معانيه الخوف.
3- القائل العياشي، انظر: **الرحلة**، 1/ 163. وفي البيت تضمين للآية القرآنية ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الكهف: 29.
4- ينظر: الزبادي، **بلوغ المرام**، 2/ 95.
5- في حاشية ج «قلت: بل بداخله وبجانبه قديما كما وقفت عليهما سقي منهما جميعان وسقينا منها أيضا فالصواب مع السيد عبد المجيد».
6- ساقطة من د.

ولعلهم وردوه إثر المطر. وليس بالمكان نخل وإنما هو حصن صغير، بجانبه بئر وفسقيات في عراء من الأرض وفيه يقول البكري: (من الرمل)

إِلَى نَخْلِ الْحَصِينَةِ سِرْ حَمِيدًا ... تَرَى فِيهِ الْمُنَى وَالْخَيْرَ بَاقِ
ولاَ تَشْكُ الظَّمَاءَ لِفَقْدِ مَاءٍ ... فَسَاقِيهَا مُقِيمٌ بِالْفَسَاقِ[1]

ثم منه وقد مضى من النهار سبع ساعات، ومررنا بواد القريض وفيه يقول الشاعر: (من السريع)

فِي وَادِ الْقُرَيْضِ كَمْ سَائِرٍ ... مِنْ غَيْرِ نَعْلٍ ثَابِتِ الكَعْبِ
قَدْ صَارَ كَالأَعْجَامِ مِنْ شَوْكِهِ ... يَرْقُصُ مِنْ رَقْصٍ عَلَى الكَعْبِ

ثم نزلنا بئر الصعاليك ويقال بئر العلائي وبئر البارود بعد أن مضى من النهار مدة ساعة، وهي بئر عادية واسعة، مبنية بالحجارة في فلاة من الأرض، قليلة الماء مع برودة *255* وملوحة، لا يطمع في مائها مع قبحه إلا الصعاليك ولذلك نسبت لهم، وكثيرا ما يموت بها الكثير منهم بسبب زحمتهم على الماء سيما في زمن القيظ، وبجانبها أثر بناء[2] وبركتان مندثرتان، قال الشاعر:

(من الوافر)

إِلَى بِئْرِ الْعَلاَئِي قَدْ أَتَيْنَا ... وَفُزْنَا بِالنَّجَاحِ وَالثَّنَاءِ
شَكَرْنَا لِلدَّلِيلِ وَقَدْ دَعَانَا ... إِلَى شَيْءٍ يُوَصِّلُ لِلْعَلاَءِ[3]

ثم ارتحلنا في الساعة العاشرة من يومنا، فمررنا بعد هُدْءٍ من الليل بعرقوب البغلة وهي عقبة صعبة إلا أنها نحتت وسويت وبنيت وعلى جانب الطريق، بها مسجد صغير غير مسقف من عمل الأمير رضوان المتولي، لأمارة الحاج ما يقرب من ثمانين سنة، وتوفى سنة ست وستين وألف أو قريبا منها. قلت: وبهذا المكان حجر منقوش فيه تاريخ تسعمائة، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز من قطع الأشجار، وإزالة الأحجار، وحفر

1- ينظر: العياشي، **الرحلة**، 1/ 165.

2- مطموسة في ح.

3- ينظر: العياشي، **الرحلة**، 1/ 168..

الآبار، وتجديد البرك: (من البسيط)

وَإِنَّمَا المَرْءُ حَدِيثٌ حَسَنٌ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى[1]

وقال الآخر: (من السريع)

وَكُنْ حَدِيثًا حَسَناً ذِكْرُهُ فَإِنَّمَا النَّاسُ أَحَادِيثُ

ثم نزلنا سطح العقبة على غير ماء بعد أن مضى من النهار ثلاث ساعات، وهو مكان فسيح منبسط كثير البرد شديد الخوف من المحاربين، ثم منه وقد بقي من الليل ثلاث ساعات، فهبطنا عقبة أيلة وهي عقبة كؤود شاقة طويلة، مسافتها نحو من خمسة أميال، تضر بالناس وتقتل الجمال وخصوصا في الرجوع، وهي في الذهاب حدور وفي الرجوع صعود، ثم نزلنا بندرها ذو الآبار العذبة والنخيل على شاطئ البحر، وبه حصن حصين، وقد مضى من النهار أربع ساعات، ولم يصل أواخر الركب إلا بعد الزوال من طول العقبة وشدة ما لاقت[2] الدواب بها، بعد ترتب الجيش على قمم الجبال يمينها وشمالها، فسوقنا الأعراب - يقال لهم الأعلوين[3]- وأهل غزة بجميع المحتاج، وليس في بنادير الحجاز أكثر سوقا، وأجمع من هذا المكان إلا ما كان من بندر المُويلح وينبوع فيقربان منه، وبمقبرة هذا البندر قبر الشيخ إبراهيم اللقاني المصري[4]، وبه هلك السيد عبد المولى بن يعقوب الدرعي صاحب الركب السجلماسي في سنتنا[5] هذه بعد خروجنا نحن مع المصري، فمرض ومات فدفن بها، رحم الله الجميع.

قال في **الروض المعطار** على بعض اختصار «أيلة: في طريق *256* مكة من مصر وهي حد الحجاز، وهي مدينة جليلة القدر على ساحل البحر

1- البيت لابن دريد.

2- في د « فلاقت».

3- يقصد العلاوين فرع من قبيلة الحويطات. انظر: **معجم قبائل العرب**، 189.

4- إبراهيم بن حسن اللقاني المصري (برهان الدين) اشتهر بسعة الاطلاع وطول الباع في علم الحديث، توفي سنة 1041 / 1631، وهو راجع من الحج. ترجم له: مخلوف، **شجرة**...، رقم 1136، 1/ 421 - 422؛ الكتاني، **فهرس**...، 1/ 130.

5- ساقطة من د.

المالح[1] ، بها يجتمع حاجّ مصر والمغرب[2]، وبها التجارة الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس، وسميت بأيلة بنت مدين. قالوا: «وهي القرية التي كانت حاضرة البحر المذكورة في القرآن». قال ابنِ إسحاق: «ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تَبُوك أتاه يُحَنّةُ بن رُؤْبَةَ صاحبُ أيْلَةَ، فصالحه وأعطى الجزية، وكتب له كتابا أمنه»[3] . وروى أبو حميد الساعدي أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء وكساه بردا وكتب له. وتسير من أيلة فتقطع[4] العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها ولا تقطع إلا في طول اليوم [لطولها ثم تسير مرحلتين في فحص التيه][5].

وأيلة حد مملكة الروم في الزمن الغابر، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مسلحته[6]، يأخذون المكوس فيه. ومن أيلة إلى بيت المقدس ست مراحل، والطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام من أيلة[7] على يوم ونصف[8] ، وينزلها اليوم قوم من بني أمية، وأكثرهم موالي عثمان رضي الله عنه كانوا سقاة الحاج، وبها علم كثير وآداب، ومتاجر وأسواق، كثيرة النخل والزرع. وأصلح عقبتها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، وسوى طريقها وبنى ما يحتاج إلى البنيان، وزادها إصلاحا بعده السلطان الأشرف الغوري[9] آخر ملوك الشراكسة من جملة ما أصلح في طريق الحجاز في أواخر عمره قبل العشرين وسبعمائة. و بأيلة كثير من اليهود يزعمون أن عندهم بُرْدَ النبي ﷺ وأنه وجهه إليهم أمانا، وهم يظهرونه، رداء عَدَنِيّا ملفوفا في الثياب قد أبرز منه مقدار شبر»[10]، هـ.

1- في **الروض** « الملح» .

2- في خ «الغرب».

3- ابن هشام، **السيرة**. . . ، 4/ 133 .

4- في **الروض** «فتلقى».

5- ساقط من ح .

6- في **الروض** «مسلحة».

7- في د «ليلة» وهو تصحيف .

8- في **الروض**،«يوم وليلة من أيلة » .

9- قانصوه الغوري. انظر: الحميري، **الروض**. . . ، 71

10 - م . **س**، 70 - 71. مع تقديم وتأخير .

وفي **خطط** المقريزي «أن أيلة مدينة على شاطئ البحر- فذكر ما تقدم وزاد- واختلف في تفسير القرية التي كانت حاضرة البحر، فقال ابن عباس وعكرمة والسدي: هي أيلة. وعن ابن عباس أيضا أنها مدينة بين أيلة والطور[1]، وعن الزهري أنها طبرية[2]. وقال قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحل من سواحل الشام، هي بين مدين وعينونة. وقال: وسئل الحسن بن الفضل «هل تجد في كتاب الله تعالى الحلال لا يأتيك إلا قوتا والحرام يأتيك جزافا؟ فقال: نعم في قصة أيلة: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[3] »[4]، هـ. واقتصر الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه المسمى **بالبداية** *257* **والنهاية** على أن القرية التي كانت حاضرة البحر هي أيلة وهي بين مدين والطور، ونسبه لابن عباس»[5].

وفي العقبة المذكورة يقول الشاعر: (من الرمل)

عَقَبَاتٌ تَسْلُكُ النَّاسُ بِهَا ... بِقُلُوبٍ لَمْ تَزَلْ مُرْتَعِبَهْ
قَدْ قَطَعْنَاهَا بِوَقْتٍ هَيِّنٍ ... لَمْ نَرَ فِيهَا أُمُورًا مُتْعَبَهْ
نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي خَلَّصَنَا ... وَأَرَاحَنَا مِنْ عِقَابِ الْعَقَبَهْ

وقال: (من الكامل)

بِطَرِيقِ أَيْلَةَ أَجْبُلٌ وعِقَابُ ... لا يَرْتَجِي فِيهَا النَّجَاةَ عُقَابُ
فَكَأَنَّمَا الْمَاشِي عَلَيْهَا مُذْنِبٌ ... وَكَأَنَّمَا تِلْكَ العِقَابُ عِقَابُ[6]

1- ينظر: **تفسير الطبري**، 9/ 90.

2- طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطل عليه، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام . انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 17 .

3- الأعراف:163.

4- المقريزي، **المواعظ**. . .، باب ذكر أيلة:1/ 232.

5- ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق وتعليق هيأة باشراف الناشر، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية 1977، 1/ 121.

6- البيتان للشاعر الخطابي انظر : خالد البلوي، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1970، 1/ 52؛ بدون نسبة في **بلوغ المرام**، 2/ 100.

وقال: (من الطويل)

سَلَكْنَا عِقَاباً فِي طَرِيـقٍ كَأَنَّــهَــا صَيَاصِــي[1] دُيُـوك أَوْ أَكُـف[2] عِقَابِ
وَمَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ ذَنْبِي أَحَـاطَ بِـي فَـكَانَ عِقَابِــي فِي سُلُـوكِ عِقَــابِ[3]

وقال العبدري: «وهناك قصير وأثر قديم، وهو موضع مدينة أيلة، وماؤها أحساء في الرمل في ساحل البحر، إذا طَمَتْ الموج كسَتْها ومع ذلك ما أثر في مائها البحر[4] . وأيلة معدودة من كور مصر، وفيها عدّها البكري[5] . وجعلها القاضي صاعد حد طول مصر[6]، وذكرها عياض في **مشارقه** و غَلِطَ فيها، فحكى عن أبي عبيدة: «أنها مدينة على شاطئ البحر من بلاد الشام، وهي نصف الطريق من فسطاط مصر إلى مكة»[7]. وذكرها المَتيجّي صاحب **الرسالة في القبلة** في رسالته[8] فقال: «إن منها إلى مكة نصف شهر». فغلط فيها أيضا كما رأيت، وذلك غير مستنكر، فإنّ من لم يشاهد الشيء يصعب عليه وصفه، وقلّما يسلم فيه من الغلط [9]، هـ.

وفي **الرحلة العياشية**: «بحثنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء؟ فقد ذكر بعض المفسرين أنها أيلة، فلم نجد من يشفي لنا خبرها، وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة، ولعلها هي. وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هنا أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء إلا أنها خالية، ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر، والعلم عند الله»[10]، هـ.

1 – في د «صياح» . والصيص : شوكة الديك .

2 – في **الإعلام**، «سلوك ». 6/ 209.

3- البيتان للشاعر الخطابي . انظر : البلوي ، **تاج المفرق**، 1/ 52.

4- في **رحلة العبدري** «فيها ماء البحر » .

5- ينظر : البكري ، **المسالك**. . . ، 2/ 145 .

6- القاضي صاعد، **طبقات الأمم**، تحقيق حياة بو علوان ، بيروت 1985، ص :105 .

7- عياض، **مشارق**. . . ، 1/ 59

8- بياض في ح .

9 – العبدري ، **رحلة**، 337.

10 – العياشي ، **الرحلة**، 1/ 167 .

فظاهر كلام صاحب **الروض** المتقدم أن محل البندر[1] العامر الذي فيه السوق اليوم بين أهل غزة والأعراب مع الركب هو أيلة نفسه، ويدل له قول العبدري: «وأيلة من أسواق الركب الكبار، وربما أقام بها[2] يومين أو[3] ثلاثة لأنها مجمعُ المصريين والشاميين، يتحيّنونها في طلوع الركب ورجوعه بأنواع المبيعات ولا سيما الطعامَ»[4] ونحوه. قال القسطلاني في باب صلاة الجمعة في القرى والمدن من **شرح** *258* **البخاري**: «وأيلة مدينة ذات قلعة، وهي الآن خراب، ينزل بها حجاج مصر وغزة، وبعض آثارها ظاهرة»[5]، هـ. اللهم إن كان قصدهم بأيلة قصرها، ومرجع العلم في ذلك لله سبحانه.

رجوع، ثم ارتحلنا بعدما أقمنا به ليلتين وقد مضى من النهار خمس ساعات، وسرنا في مضيق بين الجبل والبحر في اعوجاج، لا تمر إلا دابة بعدها أخرى، وقلما يخلو المكان من متلصصة الأعراب سيما في الرجعة. ومررنا بأحساء عذبة في نخيل على شاطئ البحر تسمى حفائر النخل، تسكنه ضعفة الأعراب في وقت جذاذ النخل، وبها رطب جيد، وبعدما تعديناها نزلنا بعد مضى ساعتين من الليل ظهرالحمار ويسمى عند الأعراب حقل، وهو بسيط عال من الأرض به حروشة، يصعد إليه من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين، قال الشاعر: (من الكامل)

صَعِدُوا عَلَى ظَهْرِ الْحِمَارِ لَعَلَّهُـمْ ... أَنْ يَبْلُغُوا بِصُعُودِهِمْ كُلَّ الأَمَـلِ
تَعِبَ الْحِمَارُ مِنَ الطَّرِيقِ وَطُولِهَـا ... وَمَدِيدِهَا وإِجْتَثَّ مِـنْ بَعْـدِ الرَّمَـلِ
حَتَّى الْجِمَالُ بِهِ شَكَتْ يَا هَلْ تُرَى ... يقْـبَلْ[6] بِهِ عُـذْرُ الْحِمَارِ أَمِ الْجَمَـلِ

وليس النزول بهذا المكان عادة مقدرة في القديم، وإنما ينزل بعده بعُشّ الغراب. ومن هنا لا يرى البحر إلى عيون القصب بعد ثلاث مراحل، ثم

1- بياض في د.
2- في ج وخ «فيها» وهو خطأ.
3- في **رحلة العبدري** «و».
4- العبدري، **رحلة**، 339- 340.
5- ابن حجر، **فتح**...، 2/ 381-380
6- في **الرحلة** «نقبل».

منه وقد مضى من النهار خمس ساعات تاركين البحر عن يميننا، وسرنا في صعود بين جبلين في أرض كثيرة الغبار، تسمى واد القرّ لبرودته وهو طويل متصل إلى مغارة شعيب وليس فيه ماء، ويسمى مبدأه بين الجرفين، وهو كما قال البكري: مكان كأن الجبال قسمت فيه قسمين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج إلى البحر الملح الأجاج. قال الشاعر مُلْغِزا[1] فيه: (من الوافر)

وَخَمْسَةُ أَحْرُفٍ فِي اللَّفظِ تُقْرَا ... فَإِنْ صَحَّفْتَهَا صَحَّتْ بِحَرْفَيْنْ

وَإِنْ أَسْقَطَتَ خُمْسَيْهَا فَيَبْقَى ... ثَلاثَةُ أَحْرُفٍ مِنْ أَصْلِ أَلْفَيْنِ[2]

فمررنا جوف الليل بعُش الغراب، وهو جبل عن يمين الذاهب، فيه موضع قدر جلسة رجلين أو ثلاثة في صخرة عالية، وهذا المكان هو المسمى بذلك وربما تُوسِّع في ذلك فأطلق على الجبل كله، ثم بأرجام من الحجارة كالشعاب عن اليمين أيضا تسمى عند العامة اليوم بالعظام. وذكر العبدري في **رحلته** أنه قبر السّفاف، قال: «وهو رجل من العرب ذكروا أنه كان فيما مضى يسكن هنالك، ويقطع *259* على الحجاج، ولا يكاد يسلم منه أحد، حتى مرض مرضه الذي مات فيه، فسمع بأن بعض الحجاج على الطريق، فاستدعى بنيه، وهم يظنون أنه يأمرهم بإكرامهم وأنه قد تاب، فوجدوه قد اعتقل لسانُهُ، فقالوا له: نُجيزِ الحُجّاجَ؟ فأشار إليهم: أن لا. فمازالوا يراودونه ويذكرونه بما حل به حتى أضْجَروه، فرفع يديه[3] وأشار إلى فيه أي سفّوهم سَفًّا، فسمى السّفاف. ثم مات فَرُجِمَ قبره من ذلك العَهْدِ إلى الآن، وقد صار جبلا من الحجارة»[4]، هـ.

1- اللغز من أخفى الإشارة الأدبية، وهو أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن، وباطن ممكن غير عجب. انظر: الحسين الأزدي، **العمدة في محسن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد قرقزان، رسالو مرقونة بكلية الآداب، الرباط سنة 1983، 2/ 587-588.

2- يقصد اسم «جُرفين» فهو خمسة أحرف، وإن صحفته صار «حرفين» وإن أسقطت «جر» بقي «فين». ولا يزال الموضع معروفا وقد يقال فيه «بين الجرفين». انظر: الجاسر، **ملخص**...، 69 هامش 1.

3- في **رحلة العبدري** «يده».

4- العبدري، **رحلة**، 341.

رجوع، ثم نزلنا قبيل طلوع الشمس بالشرفة، وهي المسماة في القديم بشرف بني عطية نسبة لقبيلة تسكن هذه البلاد، وأما الآن فتعرف الأعراب النازلون بها بالعُمران، وهم أجرأ على الحرابة وأشد على الحاج، فقد تعرض أعداء الله قبيل طلوع الفجر من هذه الليلة للجمالين من الأعراب، ويدعون اليوم بالربائع في عرف أهل مصر، وقد سبقوا بركبهم حافلين بالكراء للركب، فأخذوا زهاء مائة جمل سلعة، وقتلوا جماعة معهم من الحجاج المغاربة الذين لم يألفوا العطار فجعلوا بدله[1] النفار واثنين من الأعراب، و«لم ينتطحْ عليها عَنْزَانِ»[2]، وإنما ذهب أرباب السلع إليهم فصالحوهم على مائة ريال لكل جمل، فأخذوا المقدور على حمله وخلفوا الباقي، حتى صار المحاربون يبيعون عود النوار ونحوه من العطر المنهوب لمن جاء بعدنا من حجاج المغاربة بالكيل رخيصا بأبخس ثمن كما يباع الشعير والتمر، وردوا لإخوانهم من الأعراب إبلهم مجانا، فظن بعض الناس عند ذلك أنها مكيدة من الجمالين، والله تعالى من وراء الظالمين.

لطيفة: تزعم الأعراب أن الإبل تنفر في هذا المكان، وأنها تسمع صوت سَقْبِ - بالسين والقاف - أي ولد ناقة صالح عليه السلام. ويقال بالصاد بدل السين. ففي **القاموس** في مادة السقب بالسين ما نصه: «السقب ولد الناقة أو ساعة يولد أو خاص بالذكر»[3]. وفي مادة الصقب - بالصاد- منه ما نصه: «الصقب من الناقة ولدها»[4]، وأنه في هذه الجبال وأن بها الصخرة التي دخل بها لما عُقرت أمهُ، فالإبل إذا وصلت إلى هذا المحل تسمع صوت العِشار[5] فتنفر. قال الشيخ أبو سالم: «ولا أدري من أين لهم ذلك وهو بعيد، إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة وهم قوم صالح عليه السلام»[6]، هـ.

1- بياض في د.

2- في المثل «لا ينتطح فيه عنزان». انظر: الميداني، **مجمع الأمثال**، 3/ 174.

3- **القاموس**: 1/ 124.

4- م. **س**: 1/ 135.

5- العشار جمع العشراء من الإبل وهي الحامل التي مضى على حملها عشرة أشهر. انظر: **لسان العرب**، 4/ 572.

6- العياشي، **الرحلة**، 1/ 169.

قلت: وقد تقدم نحوه في إيالة *260* طرابلس مما يلي إيالة تونس، ولا أخال شيئا من ذلك يصح لأن ديار ثمود ليست بتلك ولا بهذه، والله أعلم بغيبه.

وتخبر العرب أيضا أن من وراء الجبل عن يسارك وأنت ذاهب بلدا واسعا، فيه ماء جار، وأرض خصبة، وربما عطش الركب في ذلك المحل فتأتيهم الأعراب بماء يبتاعونه. وفي الشرفة المذكورة يقول الشاعر: (مجزوء الوافر)

إِذَا مَا جِئْتَ لِشَرْفَهْ ... تَرَى الْعُرْبَانَ مُخْتَلِفَهْ
وَأَمَّا العِيْسُ فَاجْعَلْهَا ... بِحُسْنِ الْحِفْظِ مُتَّصِفَهْ
فَإِنْ مُنِعَتْ بِحُرَّاسٍ ... وَإِلاَّ فَهْيَ مُنْصَرِفَهْ

ثم ارتحلنا من الشرفة وقد مضى من نهارنا خمس ساعات في انحدار مع الوادي، وتعرض لنا المحاربون أيضا ليلا فأخذوا عشرة من الإبل بما عليها، فذهبت مذهبها ونزلنا مغاير شعيب[1]، والعرب تقول له البِدْع، وقد مضى من النهار بعده ساعة وثلث، وهو واد ذو مياه دافقة عذبة إلى الغاية، باردة إلى النهاية، جارية في نخيل بطرف الغابة، وسوَّقنا به أعراب مدينَ، يدعون العُمَيرات وغيرهم بتمر وغنم وغيرهما من المحتاج. قال الشاعر[2]: (من الخفيف)

قَدْ وَصَلْنَا إِلَى مَغَارِ شُعَيْبِ ... فَرَأَيْنَا المِيَاهَ كَالأَنْهَارِ
فَاسْتَقَيْنَا مِنْ مَائِهِ وَاشْتَفَيْنَا ... وَظَفِرْنَا بِغَايَةِ الأَوْطَارِ
وَذَكَرْنَا بِغَارِهِ غَارَ ثَوْرٍ ... مَنْ حَوَى الصِّدِّيقَ وَالْمُخْتَارِ
خَيْرِ مَنْ أَنْزَلَ الإِلَهُ عَلَيْهِ ... ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[3]

والمحل محل سرقة واختلاس، وعن يسارّ منزل الرّكب خارج المضيق «مغارة كبيرة مرتفعة السمك جدا، معجبةُ الصِّفَةِ، متسعة من بابها إلى

1- نسبة للنبي شعيب عليه السلام.

2- نسبت الأبيات لمحمد بن زين العابدين البكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 172.

3- التوبة: 40.

داخلها، مضيئة لأجل اتساعها، وهي في حجر أصم بأصل حَذْب[1] غليظ، وفي بابها يسير ارتفاع، فإذا دخلتها انحدرت في درج من حجارة جُعِلَ لأجل الزلق»[2].

قال العبدري: «والمغارة[3] نفسها من ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4]، لا قدرة على مثلها لآدمي[5]، والماء في قعرها كثير ظاهر من الباب راكد كأنه بركة مطر، وبين باب المغارة وقعرها بالتقدير ستون أو سبعون ذراعا وهي آخر واد القُرّ»[6].

قال الشيخ أبو سالم: «يقال إن فيها كان شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يأوي بغنمه، وبإزائها بئر كبيرة معطلة وبجانبها بركة، يقال إن هنالك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وبينها وبين مدينة مدين نصف يوم، وهي بلدة على ساحل البحر *261* كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب أهل بادية، وكانت قبل ذلك مدينة يذكر أن أثر البنيان باق بها إلى الآن»[7]، هـ.

وفي **الرحلة الناصرية**: «أن عنب مدين يطعم مرتين في العام حسبما حدثني بذلك رجل من أهلها، وأتانا بشيء منه في نصف مارس وكان عنبا جديدا»[8].

وفي **الروض المعطار**: «مَدْيَنُ بالشام على ساحل بحر القلْزُم، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي سقى منها موسى لابنة شعيب[9] عليهما السلام.

1- الحَذْبُ: ما ارتفع وغلظ. انظر: **لسان العرب**، 1/ 400.
2- العبدري، **رحلة**، 341.
3- ساقطة من د.
4- النمل:90.
5- في خ «لادمى».
6- العبدري، **رحلة**، 342-341.
7- العياشي، **الرحلة**، 1/ 169
8- الناصري، **الرحلة**، 429. بتصرف.
9- في **الروض** «لسائمة شعيب».

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[1] يحكى أنها بئر معظمة، وسميت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب عليه السلام، وفيها معايش ضيقية وتجارات كاسدة. ومن مدين إلى أيلة خمس مراحل، ومدين الذي سميت به البلدة هو مدْين بن إبراهيم عليهم السلام. وفي القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[2]، وقال بعضهم: لم يكن شعيب عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام وإنما هو من ذرية بعض من آمن به، وهم أصحاب الأيكة[3] من ولد مدين بن إبراهيم عليهم السلام، وسلط الله تعالى على قومه حرا شديدا أخذ بأنفاسهم، ثم بعث الله تعالى سحابة [4] ظلة[5] فوجدوا لها بردا، فلما صاروا تحتها أرسلها عليه نارا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[6]، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلاة[7]، وكانوا أهل كفر بالله وبخس في المكيال والميزان. وزعم قوم أن أهل مَدْيَنَ بعث الله إليهم شعيبا من العرب العاربة والأمم الداثرة وليسوا من ولد مدين بن إبراهيم.

ومدين في الطريق من مدينة النبي ﷺ إلى مصر، وهي بين جبال شامخة، وبقرب مدين البئر التي استقى منها موسى عليه السلام، قد بني على أفنيتها بيت من صخر فيه قناديل معلقة، وبها كهف يسمى كهف[8] شعيب، كان يؤوي إليه غنمه، وفي الجبال التي هناك بيوت منقورة في صخر صم قد حفر في البيوت قبور، وفي تلك القبور عظام بالية كأمثال عظام الإبل، يكون مقدار كل بيت عشرين ذراعا ونحوها، ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل

---

1 - القصص: 21.

2 - الأعراف: 84.

3- قال تعالى ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾، ق: 13. الأيكة: الغيضة من الشجر. انظر: **تفسير ابن أبي حاتم** لعبد الرحمان بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة المصرية، صيدا، 5/ 1519.

4- في د «سبحانه وتعالى». وهو خطأ.

5- ليست في **الروض**.

6 - الشعراء: 189.

7 - في **الروض** «المقلى».

8- ليست في **الروض**.

الداخل فيها حتى يضع يده على أنفه من شدة النتن، يقال إنهم لما أخذهم عذاب يوم الظلة دخلوا فيه فهلكوا، وفي قرب هذه البيوت تلال تراب عظيمة قيل أنها كانت مواضعهم عامرة فخسفت بها .

ومع يهود مدين كتاب *262* يزعمون أن النبي ﷺ كتبه لهم، وهم يظهرونه للناس حتى الآن، وهو في قطعة أديم قد اسودّت لطول الزمان عليها، إلا أن خطها بيّن، وفي آخره: وكتب علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، غير مَعرب، وقال قوم: إنه بخط معاوية بن أبي سفيان، ولم يذكروا عليا، وهو عند أهل قرية من ساحل مدين يقال لها متني[1]»[2] ،هـ .

وقال المقريزي في **الخطط** : «مَدْينُ على بحر القلزم يحاذي تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، والجمهور أنه عجمي قال: وقيل إن الأيكة المذكورة في قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾[3] ، ﴿وإن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾[4]، هي مدين. وقيل: من ساحل البحرإلى مدين، وقيل: هي غيظة نحو مدين، وقيل بل أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر وأول الشام، ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين»[5] .

وقال أبو عبيد البكري: «مَدْيَنُ بلد بالشام معلوم تلقاء غزة، وهو المذكور في القرآن- وهذا وَهْمٌ فإن بلد مدين من أرض مصر- وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى مدين أميرهم زيد بن حارثة فأصاب سبيا وفرق بين الأمهات والأولاد، فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون فقال: «مالهم؟ فأخبر خبرهم، فقال: «لا تبيعوهم إلا جميعا» .

1- في **الروض** «مسي».

2- الحميري، **الروض**. . . ، 525- 526.

3 - الشعراء : 176.

4- الحجر : 78.

5- المقريزي ،**المواعظ**. . . ، باب ذكر مدينة مدين ، 1/ 235 - 236 .

ومدين من منازل جذام بن عدي بن الحارث، وشعيب أَحَدُ بني وائل بن جذام[1]، يروى أن رسول الله ﷺ قال لوفد جذام : «مرحبا بقوم شعيب وأصهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويُولدُ لَهُ»[2]. وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة، قد باد أهلها وخربت وبقي منها إلى يومنا هذا- وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة- نحو الأربعين مدينة قائمة، منها ما يعرف اسمه، ومنها ما جهل اسمه، وبمدينة مدين إلى الآن آثار عجيبة وعُمُدٌ عظيمة» انتهى مختصرا[3] .

وفي **البداية والنهاية** لعماد الدين بن كثير: «مدين قريبة من أرض معان[4] من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريبا من بُحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة»[5].

والبئر المذكورة لم يبقى اليوم بها أثر، نعم : حدثني بعض الثقاة من حجاج مصر أنه يعرف ببطن الوادي صفوان كبير غاية تواترأن البئر تحته غُطِي فمُها به، فجاءت السيول بعد ذلك برمال وتراب فأخفتها، فلم يبق لها ولا لما غطيت *263* به من الحجر أثر، والله ربنا أعلم. وربما يرده قول المقريزي: «ومدين بها البئر التي استقى منها موسى سائمة[6] شعيب»[7]. فظاهره أنها داخل مدينة مدين[8] اللهم إن عنى قطرها فوادي المغارة منه، ويدل له قول **الروض** المتقدم: «وبقرب مدين البئر»[9] .

1- جذام بطن من كهلان القحطانية، مساكنهم بين مدين وتبوك، وهم أول من سكن مصر من العرب . انظر: **معجم قبائل العرب**، 1/ 174.

2- الحديث بهذا اللفظ وقفت عليه في **المواعظ والاعتبار** 2/ 331.

3- البكري، **معجم** . . .، 4/ 1201.

4- معان : موضع في طريق الشام من المدينة . انظر : الحميري، **الروض**. . .، ص 555 .

5- ابن كثير، **البداية والنهاية**، 1/ 184

6- في د «غنم» .

7- المقريزي، **المواعظ** . . .، باب ذكر مدين ، 1/ 234.

8- ساقطة من ح .

9- الحميري، **الروض**. . .، 526 .

رجوع، ثم ارتحلنا وقد مضى من نهارنا سبع ساعات ونزلنا عيون القَصَب[1] وتقول الأعراب، عَيْنُونة، وقد مضى من النهار بعده ساعة وخمسة أدراج، وماؤها عذب جارعن يسارالذاهب في مضيق من الجبل ثابت على ديس[2] قريب من البحر، وهو من أقرب مياه الدرب وأقلها كُلفة . وفي أعلى الوادي في الجبل نخل وأرض زراعة قلما يخلو من الأعراب، فيكثر ضررهم، وعلى شفير الوادي قريب من منزلة الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه، وفي هذا المكان يقول الشاعر: (من الكامل)

قَدْ وَصَلْنَا لِعُيُونِ القَصَبِ وَاسْتَرَاحَ الْقَلْبُ بَعْدَ النَّصَبِ
وَعُيُونُ المَاءِ فِيهَا قَدْ جَرَتْ كَسُيُولِ الغَيْثِ بَيْنَ القَصَبِ
فَجَلَسْنَا فِي صَفَاءٍ حَوْلَهَا وَظَفِرْنَا عِنْدَهَا بِالأَرَبِ
وَتَشَوَّقْنَا لِشَادٍ مُطْرِبِ يَتَغَنَّى بِعُيُونِ الْقَصَبِ[3]

وبهذا المنزل قال شاعر في بدوية اسمها ساكتة: (من الطويل)

بِرُوحِي أَفْدِي ظَبْيَةً بَدَوِيَّةً لَهَا وجْنَةٌ فِيهَا الأَزَاهِيرُ نَابِتَهْ
إِذَا رُمْتُ مِنْهَا أَنْ تُكَلِّمَنِي غَدَتْ تُكَلِّمُنِي أَلْحَاظُهَا وَهْيَ سَاكِتَهْ

ثم منه وقد مضى من النهار بعده ست ساعات ونزلنا المُوَيْلح وهو بندر حصين، به وبخارجه آباركثيرة منها العذب وغيره، وبه بعض نخل، وهو أكبر البنادر وأجمعها للأعراب، بنو عقبة ومعّازة وغيرهما، وربما ورده أعراب بَلِيّ[4]، وهم الذين يحملون الفول وغيره للركب بالكراء إلى قرب جُهَينة[5] وقامت فيه سوق في المحتاج حتى الفواكه الكثيرة والمقاثي المنوعة، وبه

1- ينظر: العبدري، **رحلة**، 342 .

2- الديس جمع ديسة وهي الغابة المتلبدة .

3- نسبت الأبيات لمحمد البكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 172 .

4- في خ «ابلي».

5- جهينة: اسم قبيلة عربية يضرب بها المثل، يقال أن رجلا من جهينة قتل رجلا من بني كلاب اسمه حصين وقال بعد أن قتله وسمع أخته تبكيه:
تُسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبرُ اليقينُ
انظر: **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال** للبكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز توفي 487 هـ)، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة، بيروت، 1971 م، ص 295 .

قبر سيدي محمد والد الشيخ عبد الكريم الفكّون القسمطيني، وعليه بناء على شاطئ البحر قرب منزل الركب، وبه أيضا ضريح لصالح يدعى المُويلحي، وبه سمي المكان حسبما تقدم مثله في عجرود، حدثنا بذلك الثقاة من أهل مصر. وبه مَرْسى في البحر تنزل بها السفن القادمة من مصر وجدّة وسويس والقُصَيْر[1] وغير ذلك، وبه تخزن الميرة، وبه جيش سلطاني لا يفارقه دائما، وأقمنا به ليلتين، قيل: وهو النصف فيما بين مصر *264* ومكة. ويقال للربع الأول من[2] مصر للعقبة: الخراب، لخلوه من ساكن من الأعراب ومن الحطب والكلأ وقلة الماء مع شدة الحر والبرد في وقتهما. وأما الربع الثاني من العقبة إلى هنا فكثير المياه إلا ما كان من يوم الشرفة كما تقدم.

ثم ارتحلنا في السادس عشر من ذي القعدة وقد مضى من النهار أربع ساعات غير ثلاثة أدراج ونزلنا آبار السلطان كما تقول المغاربة، وبعضهم يقول: دار أم السلطان، وبعضهم يسقط أم مقتصرا على قوله دار السلطان، نسبة لأمير أمر بحفرها.

والكُفَافَة: «جبل عن يسار الطريق قد برزت منه شماريخ مصطفة كأنها أضراس»[3]. قال العبدري: «يقولون أنها نصف الطريق من مصر إلى مكة»[4]. وأهل مصر يقولون: سلمى، وأهل البحر: الكُفافة، والعرب: الظبا. وقد مضى من الليل تسع ساعات وهي ثلاثة آبار عذبة غاية لا يكاد يُرى مثلها عذوبة وصفاء في مياه الدرب، وقد كانت من قبل فيما تواتر أجاجا لفيضان البحر عليها، ثم أن الله تعالى ردَّها لحالها من العذوبة التامة[5] مع برودة، ولا زالت على ذلك، وفي واديها يقول الشاعر: (من الخفيف)

إِنّ وَادِي سَلْمَى بَهِيّ بَهِيــــجٌ حَيْـثُ فِيهِ قَبْرُ الـوَلِيِّ المُسَــــمّى

1- القصير: موضع قرب عيذاب. الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 673.

2- ساقطة من د.

3- العبدري، **رحلة**، 342.

4 – م. **س**.

5- ساقطة من ج.

صَاحِبَ السِّرِّ وَالمَعَــارِفِ مَرْزُو ق الكُفَـافِيُّ طَابَ رُوحًا وَجِسْمـًا[1]
فَإِذَا جِئْتَ قَـبْــرَهُ فَتـــأَدبْ وَتَوَسّــلْ بِجَاهِهِ ثُمّ سَــلْ مـــَـا[2]

وفيها يقول سيدي عبد المجيد الفاسي : (مجزوء الرجز)

هـَـذِي بِــلاَدُ سَلْمَـــى أَنْــزِلْ بِهَـا وَسَــلْ مَـــا
هُنَــاكَ ذَاكَ الأَسْمـَـى طَـــابَ أَبـًـا وَأُمـــًـا
مَــرْزُوقُ قَــدْ تَسَمـَّـى ذَاكَ الكُفَـافِي الأَسْمَـــى
يَنَـالُ خَيْــرًا جَمّـــا مَـــنْ زَارَهُ وَأَمـــَّـا
أمـَا رَأَيْتَ الـــيَــَّما[3] بَـــيْــنَ يَـدَيْــهِ ثَــَّمـــا[4]

وبالجملة فهذه بلاد طي في القديم كما في **الروض المعطار** .

ثم منها وقد مضى من النهار بعده سبع ساعات، ومررنا بعد نحو فرسخين بضريح ولي الله سيدي مرزوق الكفافي[5] على شاطئ البحر، وقد دارت به أحجار وأعواد عُلم بها عليه، وزرناه، والعامة تزعم أنها تشم بضريحه رائحة المسك، ولا يبعد في ذاك، فكم من ولي قيل فيه ذلك، كالإمام الجزولي صاحب **دلائل الخيرات** بمراكش، وسيدي عبد الوهاب القيسي بطرابلس الغرب. قيل وهو النصف بين مصر ومكة.

ثم نزلنا الأزْلم، وقد بقي من الليل ساعتان وبه بندر قد صاح به *265* البوم، وآبار ثلاث محكمة، ماؤها بالقبح معلوم، وفيه أنشد الشيخ أبو سالم لغيره : (من الطويل)

إِذَا لَمْ يَكُـنْ فِيكُـنّ ظِــلّ وَلاَ جَنَــى فَأَبْعَدَكُـنّ اللـهُ مِــنْ شَـجَـــرَاتِ[6]

1- في خ « معنى» وفي **بلوغ المرام** «أبا وأما» .

2- نسبت الأبيات للبكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 175 وبدون نسبة في **بلوغ المرام**، 2/ 106 .

3- اليم : القصد .

4- ينظر:الزبادي، **بلوغ المرام**، 2/ 107 .

5- لم أقف على ترجمته .

6 – العياشي، **الرحلة** : 1/ 173 .

نعم عن يسار البندر وأنت ذاهب على بعد أحساء ماؤها قليل لا بأس به. ولا يعرفها إلا الأعراب أو قليل من الحجاج ممن مارس المياه . وسوقنا به أعراب بلي[1]، وبه قيل لعربية أعندك جبن تبيعينه؟ فقالت بهذا اللفظ : لا والله البلاد ممحولة. تريد جذبة أصابها محل أي جدْب ، فتعجبنا من فصاحتها. وما أحسن قول البكري: وسرنا إلى بندر الأزلم ، ولا يرغب فيه من بحقيقته يعلم ، فماؤه ملح أجاج ، ما شربه إنسان إلا احتاج إلى العلاج .

ثم منه وقد مضى من النهار سبع ساعات غير ثلث ، فمررنا في مضيق طويل بين جبلين وعقبات صغار ، وبه وقع بالليل بنو سعد على رجل نائم على ظهر بغلته، ثم لا يُدْرَى ما فعل به ولا بمركبه[2]، ونزلنا إصطبل [عنتر ، وقد مضى من النهار بعده ساعتان ، وبه بندر داثر ، وآبار ثلاثة محكمة البناء بحجر منحوت ، وماؤها عذب غير أنه في الغاية من القلة بل كثيرا ما ينزف ، وفيه يقول الشاعر: (مجزوء الكامل)

إنْ جِئْتَ لِلإِصْطَبْلِ][3] لاَ	تغْفُلْ به عِنْدَ النّزُولْ
وَاحْذَرْ مِنَ العُرْبِ الذي	بجِبَالِهِ أَبَداً تَصُولْ
وَاعْلَمْ فَدَيْتُكَ أَنَّهُ	صَعْبٌ وَلَكِنّي أَقُولْ
قَدْ سُمِيّ الإصْطَبْلُ مِنْ	عُرْبٍ بِهِ شِبْهُ الخُيُولْ [4]

وعنتر المنسوب إليه هو عنتر المشهور في التاريخ بالقصص والخرافات ، يزعمون أن به كان يربط فيه خيله في زمانه؛ وسوقنا به أعراب بَلِي وهذه بلادهم ، وما أكثرهم إلا أن الله تعالى أذلهم وفرقهم ، فنحت كل قبيلة من قبائل الحجاز نتفة منهم ، ولا يعير لهم أحد من الأعراب وزنا ، فهم الآن ضعفة متضعفون دأبهم حمل الكراء والسرقة.

1- في ج وخ ود «ابلي». وهو تصحيف .

2- بياض في ح .

3- ساقط من د .

4- نسبت الأبيات لمحمد البكري في **الرحلة** 1/ 175 وبدون نسبة في **بلوغ المرام** 2/ 108 . .

ثم ارتحلنا في السابعة من نهارنا، فمررنا بواد الأراك[1]، وهو واد واسع قريب من البحر وبه شجر الأراك الأخضر الناعم، ثم بمضايق ذات صعود وحدور . وفي الوادي المذكور يقول الشاعر: (من المتقارب)

سَمعْتُ الأرَاكَ بِأَرْضِ الْحِجَازِ فَصِرْتُ أُسَائِلُ عَنْ غَابَتِهِ
لِنَأْتِ الْحَبِيبَ بِمِسْوَاكِهِ لأَنَّ رقيبَكَ إن غابَ تهْ

وفيه يقول ابن سيد الناس[2] – وفيه تورية – (من المتقارب)

باللهِ إنْ جِزْتَ بِوَادِ الأرَاكِ وَقَبَّلتْ عِيدَانَهُ الخُضْرِ بفَاكَ
فَابْعَثْ إِلَى المملُوك مِنْ بَعْضِهَا فإنّني واللهِ مَا لِي سِوَاكَ

ثم نزلنا الوجه[3] ، وتقول العامة الوشه – بالشين *266* وهو لغة أهل مصر في الوجه – وقد مضى من النهار بعده ساعة، وبه بندر متقن حصين داثر من العمارة في هذا الزمان، وربما نزلته الأعراب تخزن به ما تبيعه من الحاج من الكلأ والحطب، وبه آبار قليلة عذبة يقل ماؤها بقلة الأمطار ويكثر بكثرتها، وبها أخرى قبيحة الماء غاية والتي فوق البندر أحسن، وداخل البندر بئر تسقى بالبقر وتصب في ثلاث برك خارجه، وملاصقا به، وبأعلى الوادي بين جبلين عن قرب من البندر، ماء عذب زلال ، يتكلف حفرها بنحو قامة، تسمى اليوم الزعفران، ويعرف في القديم بالشعبين غير أنه ضنين وربما نزف، ومن هنا يحمل الكثير من الماء لما بعده من المفازات. والمحل ذو خوف عظيم، وسوقنا به أعراب بَلِي وجهينة، وفيه يقول الشاعر: (من الرمل)

قَدْ دَخَلْنَا بَنْدَرَ الْوَجْهِ الَّذِي فيهِ قُوتُ كُلِّ عَامٍ يُخْتَزَنْ
وَشَرِبْنَا مِنْ مِيَاهٍ عَذُبَتْ شُرْبُهَا يَجْلُو عَنْ الْقَلْبِ الْحَزَنْ

1– وادي الأرك : واد بين ما يسمى بإصطبل عنتر والوجه . انظر : الجاسر، **المعجم الجغرافي**، 3/ 1334 .

2– محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري ، أصله من اشبيلية ، ولد بالقاهرة وتوفي بها سنة 734/ 1334، صنف عددا من الكتب في الفقه . انظر ترجم له: السبكي، **طبقات**. . . ، 6/ 29 ، سركيس، **معجم المطبوعات**، مطبعة سركيس، القاهرة، بسنة 1346/ 1928، 1/ 125؛ الزركلي، **الأعلام**، الطبعة الثالثة، بيروت، سنة 1389/ 1969، 7/ 263.

3– الوجه : ماء عذب طيب وهو على ثلاثة أيام من الكفافة . انظر: العبدري، **رحلة**، 343 .

نَحْمَـــدُ اللهَ الَّـــذِي أَسْعَفَنَـــا   وَرَأَيْنَا ذَلِكَ الوَجْـهَ الْحَسَـــنْ

قال العبدري: «والوجه هو منتصف الطريق [على التحقيق»[1] ، ويا عجب من اختلافهم الفاحش في منتصف الطريق][2] بين مكة ومصر. ويغلب على الظن أن مقالته هذه لا تصح، بل تعدا منتصف الطريق على التحقيق حسبما حرر ذلك من كثر تردده للحرمين من المصريين، ولا يقال: هلا اعتبرتم ذلك بعد المراحل حتى يتبين المحق من المبطل؟ فنقول: المراحل غير مستوية في المسافة، فرب مرحلة على النصف من أخرى والثلثين، ونحو ذلك فلا يتأتى التوصل إلى معرفة نصف الطريق بذلك. نعم لو كان السير والمراحل معتدلين لأمكن ذلك، والله أعلم بغيبه.

وقال أبو سالم: «الوجه: واد كبير يخرج من بين جبلين، والناس يتهيبون النزول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي»[3] ، هـ.

قلت: وقد وقع به سنة ست وستين ومائة وألف – فيما حدثني به الثقاة ممن حضر من حجاج أهل مصر– سيلٌ عرمٌ بغت الحجاج، فذهبت بسببه رقاب ودواب وأموال عريضة، ولم ينج إلا من كان على التلول والكُدى. قيل: ومن الغريب أن رجلا من أهل مصر، وكان ذا أبهةٍ خرج قبل مجيء السيل من رَحْله لقضاء حاجته، وخلف زوجته وأولاداً له أربعة وسرِّية، وأموالا عريضة ناضَّةً وغيرها وإبلا وبغالا، *267* فلم يرجع إلا وهو صفر اليدين من الجميع، أصبح غنيا فأمسى فقيرا غريبا فريدا، وهو ينظر إلى جميع ذلك وقد ذهب به السيل حتى ألقاه في اليم .

وهذه البلاد الحجازية مطرها قليل، وإن نزل كان طوفانا في لحظة لكثرة الجبال والأودية والشعاب المتطاولة بها، وربما نزل المطر في بعض الأماكن منه فيتضرر من لم يره ولا علامته بنحو ذلك من السيول الطارقة

1- العبدري، **رحلة**، 343.

2- ساقط من ح.

3 – العياشي، **الرحلة** ، 1/ 175 .

بغتة، فينبغي تجنب[1] النزول في بطون أودية الحجاز كلها. ولا ترى أحذق ولا أنبه من حجاج أهل فاس من المغاربة، فتراهم يجنبون ذلك دائما، وإن نزل المطر وهم معه على العادة في بطن واد انعزلوا إلى تل مرتفع فكأنهم يستحضرون دائما: «المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين»[2] . وربما نزل البَرَدُ بهذه البلاد يحاكي في الكبر بيض الدجاج فيهلك الناس والدواب بذلك .

تـنـبـيـه : من هنا يستقبل الحاج المياه القبيحة، وبعد العمارة وشدة الحر لقربها من بلاد الحجاز بل غالبها منه، وسوء أخلاق أعرابها، وهو آخر البنادر وليس بعده عمارة إلى الينبوع[3] الذي هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريق المصري والمغاربة .

رجوع، ثم ارتحلنا وقد مضى من النهار تسع ساعات، ومررنا ليلا بالنهدين كديتان متقابلتان بينهما فرجة أحدها عن يمين الذاهب والأخرى عن شماله، ونزلنا أكرة، وتقول العامة عُكرة، وقد مضى من النهار بعد أربعُ ساعات ونصف، وهو واد كبير تأتيه السيول من بعيد، يذكر أن سيل المدينة المشرفة يصله، وماء آباره قبيح زعاق جدا، أقبح من عجرود، إلا أن يكون عقب سيل، والمحفور في الوقت أقرب للتجرع من القديم، ومع ذلك فهو سريع الإسهال، وما أحسن إغناء الله تعالى عباده عنه بالطيب. ونزلنا بهذا المكان في حر شديد بعد سير مديد، وهبت علينا به سموم حارة هلك بها الآدميون والدواب. ومن أمثالهم: «لا جمال إلا جمال عكرة»، يعني التي ترد ماءها ثم لا تذوق حينها . وسوقنا به أعراب هُتَيْم وهم أذل الأعراب وأكثرهم فواحش، وقد تفرقوا في البلاد الحجازية ومصر والشام كأهل الذمة.

1- في ج «اجتنام».

2- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأذان باب لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين ولفظه « عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين» رقن 5782، 5/ 2271 ؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن لايلدغ من الجحر مرتين، رقم9984، 2/ 229.

3- المؤلف يكتب اسم ينبع : الينبوع . والصواب ينبع غير معرف ولا واو فيه .

وما في **رحلة العبدري** من مدح مائه قائلا: «وهو واد كبير، وما أحسائه[1] يحفر عنه نحو القامة، وهو غزير عذب - لعله ورده إثر المطر - قال: وعن يمينه في ناحية البحر على مسافة جيدة أحساء عذبة[2] في واد يقال له *268* اليَعْبُوبُ، وهو وادي أكره[3] من أسفله»[4] وفيه يقول الشاعر: (من السريع)

يَا مَنْ أَتَى أَكْرَهَ فِي سَيْرِهِ ... أَبْشِرْ بِنَيْلِ القَصْدِ وَالمِنَّهْ
لاَ تَكْرَهِ الْمَكْرُوهَ فِي أَكْرَهِ ... فَبِالْمَكَارِهِ حُفَّتِ الْجَنَّهْ

قال سيدي عبد المجيد الفاسي في **رحلته:** (من الوافر)

أَكْرَهُ أَرْضٌ تَرْتَاحُ لَهَا النُّفُوسُ ... وَلاَ يَنْفَكُّ طَارِقُهَا الْعَبُوسُ
مَاؤُهَا شِينٌ زُعَاقٌ ... مِنْ أَخْبَثِ مَذَاقِ
يُفْضِي إِلَى الإِطْلاَقِ ... وَوَجَعِ الْمَضَاقِ
وَأَنْ غَلَبَ سَيْلٌ حَسَنٌ ... وَالْمَحْفُورُ مِنْهُ فِي يَوْمِ أَحْسَنْ

وفي **القاموس:** «الأكره[5] - بالضم - لغة في الكره[6]، والحفرة يجتمع فيها الماء فيغرف صافيا»[7]، هـ. فلعل الموضع سمي بذلك لأن فيه حفر الماء، ويحتمل أن يكون منقولا من مضارع كرِهَ.

ثم منه وقد مضى من نهارنا إحدى عشرة ساعة، ونزلنا بين الدَّركين حسبما تسميه المغاربة، وأهل مصر الحنك، والأعراب عُكلة، وقد مضى من النهار بعد ساعتان وخمسة أدراج، سمي بذلك لأنه فرق ما بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز، فإن ما بعده من عمل الحجاز وبه دَرْك أعرابه، ويعنون بالدرك الكفالة والضمان، وهذه أول بلاد جهينة من عرب الحجاز

1- في **رحلة العبدري** «ماؤه أحساء».
2- في م. س « غزيرة» .
3- في خ «بأكرة» وفي **رحلة العبدري** «أكرا».
4- العبدري، **رحلة**، 344-343.
5- في **القاموس** « الأكرة ».
6- في م. س « لغية في الكرة » .
7- **القاموس** :1/ 439.

إلى ينبوع . وهلك بهذه المراحل الثلاث من الصعالكة بالعطش والحر كثير ولم يغسّلوا ولا كفنوا، بل ولا صُلّي عليهم ولا وُوروا، سببه المشي بالليل، وكل يقول نفسي نفسي ! من شدة الخوف، تراهم صرْعى جوانب الجادة، والبهائم تدوسهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، عُهدتهم على الأمير وعلى كل من له على ذلك طاقة .

ثم منه وقد مضى من نهارنا ست ساعات، فمررنا ليلا بالعقبة الزرقاء لزرقة أحجارها، ويقال: السوداء وهي صغيرة من غير صعوبة، في حرة سوداء مائلة إلى الزرقة. قال الشيخ أبو سالم: «يقال إنها أول أرض الحجاز ولا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها، وتباين الجبال ما سواها، ويشتد شبههما بجبال الحجاز السود ويتقوى الحر وتسترمل الأرض»[1]، هـ . وفيه نظر فقد تقدم أن منتهى إيالة مصر عقبة أيلة، وهي مبدأ الحجاز، وأنت إن أمعنت النظر وجدت ما بعدها من الأرض والجبال تباين ما قبلها لناحية مصر، والله أعلم .

ففي **مسالك** الإمام البكري: «أن الينبع أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الإياب»[2] . وكأنه يعني في عرف سكان الحجاز *269* خاصة، والله أعلم .

والعامة اليوم تقول بين الدركين باعتبار زعمهم أن صالحي المغرب الأحياء والأموات كالسيد البدوي بمصر يصاحبون الركب النبوي إلى هنا فيتلقاه صالحو المشرق كذلك فيذهبون معه ويرجع المغاربة عدا الشيخ البدوي، في خرافات لا أصل لها من فصل، منها أنهم إن وصلوها يجأرون إلى الله بالدعاء، ويزعمون مع ذلك أن الإنسان الحاج لابد من هنا أن يرى نفسه في المقام[3] بالحرمين أو بأحدهما، وتقرر ذلك عندهم، ولا يبعد فقد قال الشاعر : (الوافر)

وَأَبْـرَحُ مَا يَكُـونُ الشَّـوْقُ يَوْمًا إِذَا دَنَـتِ الدِّيَارُ مِـنَ الدِّيَـــارِ

1- العياشي، **الرحلة**، 1/ 176 .

2- لم أقف عليه في **مسالك** البكري فالمؤلف خلط بينه وبين البكري الأندلسي . انظر **الرحلة العياشية**: 1/ 180 - 181 ؛ الجاسر، **ملخص**. . .، 40 .

3- بياض في ج .

وسرنا فنزلنا الحَوْراء[1] وقد مضى من النهار ساعتان وعشر دقائق وبتنا بها، وسوقنا أعراب جهينة وأهل الينبع وبنو عبْس، وهم فخذ من هتيم، وبها نخل ومياهها كثيرة، في حفائر على ساحل البحر، يحيط بها ديس كثير، وبها ملوحة ماء، والقريب العهد أجود، وكلما طال في القرب[2] خبُث، وهو مع ذلك يورث إسهالا حتى للدواب. نعم بالقرب منها ماء حسن عذب زلال يدعى سمنه لا يأتي به إلا الأعراب أو ذو النجدة من الحجاج أولي الإرهاب، وبها مرسى وجدنا بها سفنا تعرضت للركب بمَيْر[3] حملته من مصر. ففي **القاموس**: «الحوراء موضع قرب المدينة، وهو مرفأ سفن مصر، وماء لبني نبهاء»[4]. وبها الجبل المنقطع في البحر ويسمى الحساني يسكنه أعراب في أخصاص وكهوف، وبه ماء عذب. وكثير عيشهم صيد السمك، وباعوا في الركب منه كثيرا، ولهم مراكب شبه القوارب يعبرون بها إلى البر، ويصطادون عليها ويغوصون في بعض الأحيان بمكان قريب منهم في البحر فيقعون على جواهر نفيسة، يشتريها منهم بعض من مرَّ بهم من الحجاج بثمن بخس. وما أحوج هذا المكان إلى بندر يبنى به، إلا أنه في حكمه عند المصري من الإقامة والسوق وأعمال الحراقين ونحو ذلك من الغواصين والنزهات، وفيها يقول الشاعر: (من الكامل)

جِئْنَا إِلَى الْحَوْرَاءَ وَهْيَ مَحَطَّةٌ   فِيهَا الأَرَاكُ نَزَاهَةٌ لِلرَّاءِ
نَادَيْتُ خِلِّيَ: قِفْ بِهَا مُتَأَمِّلاً   وَانظُرْ لِرَمْلٍ مُغْمَرٍ بِالمَاءِ
وَاغْنَمْ زَمَانًا مُقْبِلاً بِسُعُودِهِ   فِيهِ اجْتِمَاعُ الشَّمْلِ بِالْحَوْرَاءِ[5]

ثم منه، وقد مضى من النهار أربع ساعات، ومررنا بعد نحو فرسخين بواد في مضيق بين جبلين عن يمين *270* الذاهب يدعى المغاير تحبس به غالبا مياه الأمطار، فإن لم توجد عن ظاهر الأرض حفر قليلا فينبع

1- ينظر: البكري، **مسالك**...، 1/ 98، **معجم ما استعجم**، 1/ 471؛ **القاموس**، 1/ 487.

2- في د «في الحفر القرب».

3- بياض في ح

4- **القاموس**: 1/ 487.

5- الأبيات نسبت لمحمد البكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 180، وبدون نسبة في **بلوغ المرام** 2/ 117- 118.

الماء العذب الزلال فسقينا به وحملنا ما قدره، ثم بواد العُقيق [مصغرا[1] . قال الشيخ أبو سالم: «ولا مناسبة بين الاسم][2] والمسمى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب لشدة جُرْأة أعرابه على السرقة، فإنهم من أجرأ الناس على ذلك»[3] .
قلت: وفي هذا الوادي يقول الشيخ أبو عبد محمد بن أبي القاسم بن القاضي في رحلة له صغيرة: (من المتقارب)

فَيَا سَائِــرًا يَـبْــغِي حَجَّـــــة	بِدَرْبِ الْحِجَـازِ انْتبِه يَا صَدِيـقْ
فَمِــنْ أَرْضِ مِصْــرَ إِلَى مَكَّــة	فَسَهْلٌ وَوَعْـرٌ بِكُـلِّ الطَّرِيـــقْ
فَفِــي الرَّمْلِ تَلْقَــى كَثِيـرَ الْعَنَـا	وَفِي عَقْبَـةِ تَلْفَ سُــوءَ الْمَضِيقْ
وَلَكِنَّـكَ لاَ تَرَى مِثْـلَ مَـا تَــرَاهُ	عَـلَى أَرْضِ وَادِ الْعقِيـــقْ
وَكُــلٌّ يَهُونُ عَلَــى مَـا تَــرَى	بِــوَادٍ يُسَمَّى بِـوَادِ الْحَرِيــقْ

ويعني بالرمل واد الرمل المسمى بالمنصرف قرب التيه، والعقبة أيلة، وواد الحريق هو واد النار الذي بعد النبط، وسيأتي قريبا . ومن أمثال الحجاج: «لا رجال إلا رجال الحوراء ولا جمال إلا جمال الدوراء»[4] . المعنى أن الرجال الحقيقيين هم الذين يأخذون بالحَزْم في هذه الأرض فلا يغترون فيقطعونها وهم من نهب[5] أعرابها سالمون، وهذا بالنسبة إلى الحجاز فإن المثل فيه ضُربَ، وإلا فأعراب الجريد خصوصا أعراب واد سيدنا خالد أكثر الأعراب نهبا وسرقة واختلاسا وفتكا بمن قربهم. ويعنون بالدَّوْرَاء: الرَّجعة، يعني لا يُعَدّ صابرا من الجمال إلا من صبر في حال الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر ومحل قلة العلف .

قلت: وهو مع ذلك أضيق وأحرش وأحر، وبعد تعديه وقعنا في رمال بين جبلين يدعى هذا المكان عند العامة بوكالة الحمير لفناء الكثير منهم كالإبل وبعض البغال بها، وبهذا الوادي شجر يقال له: القَفَل - بقاف وفاء

1- في خ «مصغر» .
2- ساقط من د .
3- العياشي، **الرحلة** :1/ 177.
4- المثل في م. س ،1/ 177 **وبلوغ المرام**، 2/ 117 .
5- في ج وخ «تعديات» وفي د «نصب».

مفتوحتين- له رائحة طيبة، يتخذ منه بمصر والحرمين وما ولاهما أعواد يبخرون بها أواني الشرب قبل وضع الماء فيها فيبقي بها نسمة طيبة يتمتع بها الشارب منه .

ثم أسرعنا السير فنزلنا النبط - ويقال النبك بالكاف - ولعله هو الذي عنى العبدري بالمغيرة - تصغير مغارة - قال: «وهي العرجاء التي ذكرها ناصر الدين في رسالته»[1] . وفي **القاموس:** «نَبِطَ الماءُ يَنْبِطُ ونُبوطا نبع، ونبط البئر استخرج ماءها، *271* ونَبْطٌ وادٍ بناحية المدينة قرب حوراء الذي بها مَعْدِنُ البِرام»[2] . وكان نزولنا فيه بعد ساعة ونصف من النهار، وبه آبار عذبة محكمة البناء بالحجر المنحوت، وماؤها عذب زلال غزير غالبا. قال الشيخ أبو سالم: «وغزارة مياه أودية الدرب إنما يكون بحسب كثرة المطر وقلته، فإذا حمل الوادي ولو مرة في السنة غزر الماء في سائر السنة»[3].

قلت: وفي **رحلة** شيخ شيوخنا سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي: أن ماء النبط هذا تمدحه الأطباء. وقال الشاعر: (من المتقارب)

وَفِي أَكْـرَهَ وَالتِّـي بَعْدَهَـــا ... مَـرَارَةُ مَـاءٍ تَزِيـدُ القَسَـــاوَةْ
فَجِئْنَـا إِلَى نَبْـطٍ نَشْكُـوا الظَّمَـا ... فَأَنْعَشَنَـــا مَـــاؤُهُ وَالطَّـــلاَوةْ
وَلَمَّـا صَبَرْنَـا عَـلَـى غَيْــرِهَـا ... فَأَعْقَبَنَـا[4] صَبـْرُنَـا بِالحَـــلاَوَهْ[5]

وفي ذلك يقول الإمام أحمد بن محمد المقري، صاحب **نفح الطيب** : (مجزوء الكامل)

اسْقِنِـي مِـــنْ مَـــاءِ نَبْطٍ ... أَنْ يُطِـلْ عُمْـرِي مَـدَّهُ
وَدَعِ الْحَـــوَارَا فَـإِنِّـي ... أُبْغِـضُ الحَـوَارَاوَأَكْـرَهُ

1- العبدري، **رحلة**، 344.

2- **القاموس**،/ 889.

3- العياشي، **الرحلة**، 1/ 180 .

4- أعقبنا : كافأنا .

5- الزبادي، **بلوغ المرام**، 2/ 119 . نسبت الأبيات لمحمد البكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 180.

ثم ارتحلنا وقد مضى من نهارنا ثمان ساعات في رمال بين جبلين، فمررنا بوادي النار، سمي بذلك من شدة حره، وبعضهم يقول: واد النور لأجل رؤية الأنوار منه لنواحي المدينة أو مكة فحرف الناس التسمية إذ ذاك، وقلما يسلم الركب فيه من شدة تقع له من حر أو محارب، وعدم ماء إلى الينبع، وربما هلكت به الآلاف من الخلق والإبل من قبح الهوى في أسرع مدة، ويأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت، ووقوع ذلك غالبا في الإياب خصوصا في الركب المصري. وبالجملة فوادي النار كثير الأخطار، لا يخلو في الغالب عن الأكدار، والألطاف لا تنفك عن الأقدار.

ثم نزلنا الخضراء - مكبرة ومصغرة - على غير ماء، وقد مضى من النهار ساعتان، وفيها يقول الشاعر: (من الكامل)

انْظُرْ إِلَى الْخَضْرَاءِ وَاغْنَمْ بَسْطَهَا ... تَلْقَ رُبَاهَا نُزْهَةً لِلرَّاءِ
فَلَرُبَّ حَشَاشٍ شَكَا مِنْ هَمِّهِ ... قَدْ زَالَ عَنْهُ الْهَمّ بِالْخَضْرَاءِ[1]

ثم منها وقد مضى من نهارنا سبع ساعات في رمال، ومررنا بعد العشاء على امرأة فلاحية من الركب على قارعة الطريق، والركب سائر، وبها وجع الطلق فنزلت على حمارها ووضعت على جانب الطريق حملها، وحمارها واقف عند رأسها، فكانت قابلة نفسها، وهي مجتهدة في لف خرَق لها على مولودها. ويا سهولة الطلق *272* على هذه، كسائر نساء أهل مصر فيما حدثنا به الثقاة قالوا: حتى أن المرأة منهن تلد وتخفي نفاسها إن أرادت حتى على زوجها ومن كان معها في بيتها، جاءهن ذلك [من كثرة أكلهن للملوخية والبامْية[2] واختلاط الأطعمة، فيورث ذلك][3] في المحل كمال الرطوبة والرخوة فينشأ عنه عدم عُسْر الطلق، والله ربنا أعلم بغيبه.

وبهذه الليلة رأيت برقا مرة واحدة لنواحي القُلْزُم فلم أشك أنه برق، فلما أصبحنا زعم الحجاج بل وبعض من ينتمي للخير والصلاح والسلوك والجذب

1- نسبت لمحمد البكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 180.

2- البامية: نبات ثماره قرون تؤكل مطبوخة، وهو من فصيلة الخبازيات. **المعجم الأساسي** ص 129.

3- ساقط من د.

منا، ومن أهل مصر أنه رأى الأنوار بهذه الليلة عمت المشارق والمغارب، ثم بعد هذه الليلة رأينا الأنوار تسطع بلا ريب أعظم من البرق لنواحي المدينة المنورة، وأدرك ذلك حتى النساء والصبيان والجمالين، ويصلون على النبي ﷺ عند ظهورها وانتشار لَمَعَانِها حتى يرتج الجو بأصواتهم، وقد أنكر ذلك أبو سالم وشيخه أبو بكر السجتاني وقالوا: ما ذاك إلا بروق[1] ، والحق الذي لا مرية فيه أنها أنوار تكاد تغشى منها الأبصار. فلقد شاهدناه في جماعة من الثقاة بالفرع بعد رجوعنا من مكة في سفرنا هذا إلى طيبة، عمودا من نور بين السماء والأرض لنواحي المدينة، ومكث كذلك نحو ساعة من أول الليل، لا أشك ولا أظن أنه غير برق.

رجوع، وسرنا فمررنا بسبع عقبات، ويقال وعْرات، بعد الثلث من الليل، وهي صخور في رمال ليس بها كبير صعوبة.

لطيفة : كثيرا ما تقدم لي في سفري هذا القهوة جريا على عادة المشارقة، فأمتنع من شربها لمرارتها، ولأني لم آلفها ولا هي في أرض[2] قومي فأجدني أعافها، مع ما يزعمون فيها من المنافع[3]، وفي هذه الليلة قدمها لي بعض المحبين من أهل فاس لما اعتراني وخم وكسل آخر الليل من السهر، ومزجها بسكر، فناولني منها كأسا فكان مابي من الوخم بعد شرْبها كأمس الذاهب[4]، وعقبني[5] من النشاط ما لم أعهد من نفسي فقلت ارتجالا : (مجزوء الرجز)

شَرِبْتُ بِنَجْدٍ قَهْوَةً بِسُكَّرٍ مَزَجُوهْ
فَصَحَّ أَنَّهَا تَقِي مِنْ وَخَمٍ عَهِدُوهْ

1- العياشي، **الرحلة** : 1/ 183 .

2- في خ «ولم تكن بأرض».

3- أثيرت نقاشات كثيرة حول القهوة وتناولها عند علماء الإسلام هل هي خمر أم لا ؟ وهل يجب تحريمه أم لا ؟ لكن في مثل هذه الحالات يلجأ العلماء عادة إلى مبدأ المنفعة والضرر فقد ذكر الحطاب أن شربها يرجع لذات الشارب فإن علم أنها تضره حرم عليه استعمالها ، كما أجاب الإمام أحمد زروق بأنها ليست مسكرة. انظر: **ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت** ، عبد المجيد القدوري ، منشورات عكاظ، الرباط، سنة 1991 ، ص 179 وهامش 390 .

4- في خ «الدابر».

5- في خ «وشملني».

أَكْـرِمْ بِــــهِ مِـــنْ شَـــرَابٍ لَــــوْلاَ أَنَّــــهُ[1] أَحْدَثُــوهْ
مِـــنْ دَوْرِ كَــأْسٍ بِبَيْـتٍ بِـزُخْـرُفٍ مَــوَّهُــوهُ
وَنَقْـرِطَبْـــلٍ وَعُـــودٍ وَشَـــاذِنٍ أَلِـفُـــوهْ
لِــذَا غَــدَتْ ذَاتَ أَلْــفٍ لِـــرَاحٍ اغْتَنَمُــوهْ

ثم أسرعنا السير فنزلنا الينبع وقد مضى من النهار ساعات *273* ونصف – في السابع والعشرين من ذي القعدة– وبتنا به ليلة، وقام بيننا وبين أهل البلد وأعراب جهينة وحرب وبنو سالم سوق عظيم . قال في **القاموس** «والينبع العين أوالجدول الكثير الماء، وينبع[2] كيَنْصُرُ حصن به عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر»[3]. وقال البكري: «وهو أول بلاد الحجاز في الذهاب، وآخرها في الرجوع، وبها حدائق ونخيل، وعيون بين زروع تسيح وتسيل، وكان به سور منيع وجامع مفرد وسيع، وبيوت فسيحة الرحاب، فآل أمرها إلى الخراب، وبه الآن سوق للحاج، يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، وبه أميران وجيشان كبار، وعشش تسقى منها القهوة من أيدي الجواري، قال الشاعر: (من الرمل)

حَبَّــذا يَنْــدَر يَنْبُــوعٍ وَمَـــا فِي رُبَـاهُ مِنْ رِيَاضٍ وَعُيُـــونْ
وَسُقَــاةٍ مِـــنْ مِـــلاَحٍ نُهَّــدٍ يَصْرَعَانِ[4] الصَّبَّ مِنْ نَيْلِ الْعُيُونْ
فَارْتَحِلْ عَنْهُنَّ وَاذْهَبْ وَانْتَصِــحْ فَإِذَا خَالَفْتَ أَذْهَبْتَ الْعُيُــونْ»[5]، هـ.

قلت: ولعله يعني أول الحجاز العامرة، وإلا فمبدأ الحجاز من عقبة أيلة كما تقدم عند الكلام عليها، أو من العقبة السوداء ويقال الزرقاء كما تقدم، ولأبي سالم : وسمي حجازا لحجزه بين تهامة ونجد، أو بين الغور والشام أو بين نجد والسراة . قالوا: بلاد العرب من الجزيرة التي نزلوها خمسة أقسام: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن، وجبل السراة هو الحد بين تهامة

1- ساقطة من د .
2- ساقطة من ج ود .
3- **القاموس**:1/ 988.
4- ساقطة من د.
5- ينظر: العياشي، **الرحلة** :1/ 180 .

ونجد لأنه أقبل من اليمن وهو أعظم جبال العرب حتى بلغ أطراف الشام فسمته العرب حجازا.

قيل: وعمران الينبع متصل نحو ثلاثة أيام، والقرية التي ينزل بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر، وليس بعدها إلا ينبع البحر الذي هو المرسى[1]، وأهل هذه القرى يجتمعون عند الركب، وتجلب إليه البضائع والسلع والثمار والفواكه والحبوب والفول، ومن هنا يجلب الميرُ للمدينة، فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ترسو[2] في ينبع البحر بما كان منها للمدينة، ويتجاوز إلى جدة ما كان بمكة، «وأكبر جبال هذه البلاد جبل رَضْوَى، وهو الجبل الكبير المشرف على بلاد الينبع» قاله أبو سالم [3] وفيه نظر. ففي **الروض المعطار** وإن لم يكن معه تحقيق *274* في أخبار الأقطار، وإنما يتلقفها من غيره ولم يجل في الأمصار ما نصه: «رضوى[4] جبل ضخم من جبل تهامة، وهو من ينبع على يوم ومن المدينة على سبع[5] مراحل مُيامنة طريق المدينة، وعلى ليلتين من البحر، وبقرب خيبر، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية، ورأسها[6] من ينابيع الماء كخضرة البقل، وغلاة الشيعة تزعم أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه حي بجبل رضوى، وفي ذلك يقول السيد الحمْيريّ[7] في كلمة له: (من الوافر)

وَمَا ذَاقَ ابنُ خَوْلَةٍ طَعْمَ مَـوْتٍ   وَلاَ وَارَتْ لَـهُ أَرْضٌ عِظَامَـا
لَقَدْ أَمْسَى بِمُورِق شِعَبَ رَضْوَى   تُرَاجِعُـهُ الْمَلائِـكَةُ السّلاَمَـا
وَإِنَّ لَـهُ لَـرِزْقًا مِـنْ طَعَـامٍ   وَأَشْرِبَـةٍ يَعِـلّ بِهَا الطَّعَامَـا[8]، هـ.

1- ج «يطؤه الماشي».
2- بياض في د.
3- العياشي، **الرحلة** : 1/ 179.
4- رضوى : جبل بالمدينة. انظر : الحموي، **معجم البلدان** : 3/ 51 ؛ البكري، و**معجم ما استعجم**: 2/ 655.
5- في **الروض** «تسع». وفي **معجم ما استعجم** «سبع».
6- في **الروض** «رأسه».
7 - إسماعيل بن يزيد الحميري شاعر ولد سنة 105 هـ وتوفي سنة 173 هـ، له ديوان جمعه وحققه شاكر هادي شكر.
8 - الحميري، **الروض**. . .، 270-269.

وقد توسع فيه صاحب **القاموس**، فقال : « ورَضْوَى كسَكْرَى: جبل بالمدينة»[1] ، هـ .

وفيه يقول الشاعر : (من الوافر)

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ جِبَالَ رَضْوَى تَزُولُ وَأَنَّ وِدَّكَ لاَ يَزُولُ

رجوع ، وإلى هذه البلدة كانت غزوة العُشيرة[2] من غزواته ﷺ، ومسجد القرية الآن هو مسجد العُشيرة المعدود في المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ. قال السمهودي: «ومسجد العُشيرة معروف ببطن ينبع وهو مسجد القرية التي يردها[3] الحاج المصري»[4]. ولابن زبالة[5] أن النبي ﷺ صلى في مسجد ينبع.

قلت: وعنده عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم . وبإزاء منزلة الركب مزارة على ربوة تنسب لأبي الحسن النفاتي، وفوق القرية قبر أبي علي الحسن المثلث، ولما عزمنا على الجولان في تلك العرصات، وزيارة ما بها من السادات، قامت نائرة[6] بين الركب والأعراب فلم نقدر إذ ذاك من الخوف على الذهاب، فزرنا الجميع بالنية في محلنا، لا حرمنا الله من العود إليها مع أمتنا .

وفي **الروض المعطار**: «الينبع على تسعة بُرُد من المدينة في طريق مكة. قالوا ومن الجار إلى الينبع، وهو الذي فيه ضِياع علي بن أبي طالب ﷺ،

1- **القاموس** : 1/ 1662

2- غزوة العشيرة : كانت في السنة العاشرة لهجرة النبي عليه السلام ، وفيها خرج يعترض لعير قريش . والعشير من بطن ينبع . انظر : ابن هشام، **سيرة**، 2/ 186 -187 .

3- ساقطة من ج وفي د «ينزلها».

4- السمهودي، **خلاصة الوفاء**، 231 .

5- محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي المدني ، صنف من ضعاف الرجال والمجروحين كما وصف بالكذب . انظر : محمد العقيلي، **ضعاف العقيلي**، تحقيق عبد الالمعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1404 هـ ، 4/ 58 ؛ عبد الله = =الجرجاني، **الكامل في ضعاف الرجال**، تحقيق يحيى مختار غزواني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 1409/ 1988، رقم 1655، 6/ 171؛ محمد الكتاني، **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة**، تحقيق محمد المنتصر ومحمد الزمزمي الكتاني، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الطبعة الرابعة سنة 1406 / 1986، 1/ 134 .

6- بياض في ح .

أربعون ميلا . ومنها أبو دُلف الخزرجي الينبعي، ذكره الثعالبي في **اليتيمة**[1]. وكان شاعرا متشيعا[2] وهو القائل : (من المجتث)

دَارُ السَّلاَمِ هَنِيئا بِدَعْوَةِ ابْنِ الرَّسُولِ
275 جَاءَ النَّهَارُ وَوَلَّى الظَّلاَم تِلْكَ الذُّحُولِ
وَمَا إنْ رَأَيْتُ حِصَانًا مثالُهُ فِي الأُصُولِ[3]

قال ذلك للبساسيري، القائم بدعوة المنتصر العُبيدي خليفة مصر، وذلك سنة خمسين وأربعمائة»[4].

وقد وصف[5] العبدري في زمانه الينبع بقوله: «وينبع من بلاد الحجاز المعروفة، وهي بُليدة في أصل جبل ضعيفةَ البناء، قليلة الساكن، والخرابُ بها كثير، وغربيّها بسيط متسع، هو مَحَطّ الركب، ولكنه سبخة لا تنبتُ، وفيه نخيل وماء معين طيب. وصاحب ينبع مستبد بها كاستبداد صاحب مليانة؛ إذ لا أحد يرغب فيهما ولو كان كل بلد مثلَهُما لوقع الأمان، و«لم ينتطحْ فيها عنزان»[6]، ومن ذا الذي يرغب في عين العناء، وينافس في نفس الفناء، فهم طلقاء الجوع، وعُتَقاءُ الشظف[7] أمَّنَهُم الخوف، ونجاهم التلف. ولكن ينبع على ما هي عليه ترتاح لها النفوس ويَنُضي لرؤيتها البوس[8] لأنها مصاقبة[9] لدار الحبيب. وربع يدعى في الشّوقُ فيجيب، ويخطر به الخاطرُ فيعرف ولا يستريب، لو نطقت بُقَعُهُ لأفصحت بكل عجيب، مَنْزل غدا للعقولِ عِقالاً،

1- أبو دلف مسهل بن مهلهل الخزرجي شاعر رحالة، صاحب القصيدة الساسانية، توفي سنة 390هـ. أنظر : عبد الملك التعالبي، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1403 / 1983، 3/ 413 .

2- في خ «مشيعا».

3- في **الروض** «حماله في النصول».

4- الحميري، **الروض**. . . ، 621 .

5- ساقط من ح.

6 – في المثل: «لا ينتطح فيه عنزان»، انظر: الميداني، **مجمع الأمثال**، 3/ 174 .

7 – في خ «الشضف» و الشظف: شدة العيش وضيقه.

8 – في **رحلة العبدري** «لبوس البوس».

9 – المصاقبة و الصقب : القرب . انظر : **القاموس**، 1/ 135 .

ينفر إليه جند الوَجْدِ ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[1] تود الخدودُ به لو كانت نعالا[2]، ذا المعالي فَلْيَعْلُ من تعالى»[3] . ثم قال: «وأهل ينبع في خدمة أمير[4] مصر، وهو يميرهم[5] بالزرع، ويمدّهم بالتّحفِ ليجدَهُمْ الحجاجُ ركْنًا، ويأمنَ المُنْقَطِع لديهم . وبخارج ينبعَ من ناحية الجبل مسجد محكم مليح يقولون: إنه مسجد علي بن أبي طالب ﷺ، ولعله كان بنى هناك مسجدا حين تنحى إلى ينبع في أيام عثمان رضي الله عنهما»[6] ، هـ .

وهذه بلدة السادات الشرفاء العلويين ولا زالوا بها، ومنهم خرج جدهم مولانا الحسن بن مولانا علي المقبور ين بسجلماسة المغرب، نفع الله بهم وبأسلافهم إلى النبي ﷺ. ورأينا به فقراء ضعفاء يتعرضون للعطاء في الركب، في يد كل منهم عود أوقصبة طويلة في رأسها معقود نحو قفة صغيرة يأتي لمن أراد استعطاءه فيدني إليه رأس العصا التي فيه الطرف المذكور، ولا يتكلم، فإن تيسر على غيره صدقة دراهم أو غيرها وضعه فيها وإلا ذهب لغيره وهكذا، وهذه العادة رأيناها بعد هذا في الحرمين ومصر. وبها – كالحجاز– دلاع أحلى وأجود وأطيب، ولا ينقطع من الحجاز صيفا ولا شتاء إلا في سنة الجذب والعام الأشهب، يسمى لديهم الحَبْحَب وهو مع ذلك يصلح للتداوي حسبما جربه أهل الطبائع .

276 رجوع، ثم ارتحلنا وقد مضى من النهار ثلاث ساعات ونصف في حر شديد، ورمل هائل مديد، ومررنا عشية يومنا بالسقائف، وهو فضاء بين جبلين به رمل وشجر الغيلان، وكانت من قبل دار الحاج وبها يوقدون الشمع، وتسمى ليلة الوقدة، والآن لا ينزلها الركب غالبا، وهي صحراء لا

1 – اقتباس من قوله تعالى في سورة التوبة الآية 41 ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

2– في **رحلة العبدري** «يغالا».

3 – العبدري، **رحلة**، 345 . وفيها «يتعالى».

4– في م . س، «صاحب» .

5– المِيرة: جلب الطعام والمُيار : جالب الميرة ويميرهم: يجلب لهم الزرع. انظر: **القاموس**، 1/ 615.

6 – العبدري، **رحلة** ، 346.

ماء بها، نعم بقربها بئر لا يعرفها إلا القليل من الناس وهذه هي مبدأ أراضي الدهناء[1] ، ومن مواضعها الخلصاء كما في **القاموس**[2]. قال في **الروض المعطار**: «الدهناء رمال في طريق اليمامة إلى مكة لا يعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، وهي على أربعة أميال من هجر، ويقال في المثل: أوسع من الدهناء»[3].

وقال العبدري: «الدهناء من عَمَلِ يَنْبُع، ولها ماء معين ونخل كثير، وأرضها سبخة وماؤها طيب»[4] ، هـ. إلا أن الركب لا يمر في طريقه منها على ماء ولا على نخل.

وفي **القاموس**: «الدهناء، الفلاة» . ثم قال: «وموضع أمام ينبع، والنسبة دهني ودهناوي»[5] ، هـ. وانظر ما قال مع وصف صاحب **الروض**، ولعله يصف موضعا آخر اسمه الدهناء غير هذا الموضع، وذلك أن اليمامة كما في **القاموس**: «بلاد كثيرة النخيل، وبها تنبأ مسيلمة الكذاب وهي دون المدينة، في وسط الشرق، عن مكة على ست عشر مرحلة من البصرة»[6] . وأما هجر: فبلدة باليمن وأخرى أقرب من المدينة المنورة، وتنسب القلال لها، والله أعلم .

وبهذا المكان – أيضا – يزعم الكثير من الحجاج أنهم يرون الأنوار، تراهم يضجون بالدعاء، وإن لم يروا أنوارا قالوا بأرفع صوت: العادة العادة[7] يا رسول الله ! ثم يتبعون ذلك بقولهم على ماجرت به عادة الفلاحين: الفاتحة، وعلى ذلك دأبهم طول هذه الليلة، ويزيد النساء في ذلك الولاويل؛ وكل يظهر من الفرح والسرور ما يرويه الأواخر عن الأوائل. وتاه

1- الدهناء : رمال في طريق اليمامة إلى مكة ، عرضها في ثلاث ليالي، ويقال في المثل : أوسع من الدهناء. انظر: الحموي ، **معجم البلدان**، 2/ 492 ؛ البكري ، **معجم ما استعجم**، 2/ 559

2- **القاموس** : 1/ 797 .

3 – الحميري ، **الروض**. . . ، 244.

4 – العبدري ، **رحلة**، 346.

5 – **القاموس**: مادة «دهن» ، 1/ 1546 .

6 – م . **س** مادة «اليم» 1/ 1514 .

7- في د غير مكرر .

الركب في رمال الدهناء فما بزغ الفجر حتى حصل لكل واحد من الآخر الهناء، إذ وصلنا إلى الأبرقين، فدخلنا في فرجة بين جبلين، رمال متراكمة على اليسار، وجلامدَ عن اليمين في شوامخ كبار، وبينهما فيما يقال تدق الطبول لنصرة أفضل نبي وأكرم رسول. فيممنا قرية بدر، ذات البها والنور والزهر، والعيون الجارية العذبة، والنخيل الباسقة المحدقة، ونزلنا في فسيح خارج البلدة، *277* ووجدنا الشاميَّ في بطن الوادي قبلنا مخيما، وللرحيل قد استعد بحيث صار جبل النصر[1] بمرأى منا [وقبور الشهداء قريبة غير بعيدة منا][2]، وبها مسجد العريش والغمام، وموضع حوض النبي ﷺ، ورَبْع نصرة سيد الأنام، على عبدة الأوثان والأصنام، وهي الغزوة الكبرى التي شاهت بها وجوه الكفرة جهدا، فقاتلت بها ملائكة الرحمان أشد قتال لم ير مثله قط إنسان، فبدد الله تعالى به جموعهم، وأخزى به أكابرهم وأصاغرهم، فاستشهد به من المسلمين سادات قادات قد خلد ذكرهم في دواوين، وقتل بها فرعون هذه الأمة أبو جهل اللعين، وغيره من أهل ناديه المهين، سُحبوا في القليب، يغشاهم به من لهيب، فلم يغن أهاليهم إذ ذاك ويل ولا ثبور، فانقلب المسلمون بفضل من الله ورحمة لم يمسسهم سوء في فرح وسرور، قد علتهم السكينة والوقار والبهاء والنور. قال الشاعر: (من البسيط)

يَا أَهْلَ بَدْرٍ لقَدْ طَابَتْ مَآثِرُكُمْ ... وَقَدْ عَلاَ قَدْرُكُمْ في أَرْفَعِ الدَّرَجِ
فُزْتُمْ بِغُفْرَانِ أَوْزَارٍ وَحُسْنِ ثَنَا ... عَلَى المَدَى نَشْرُهُ منْ أَطْيَبِ الأَرَجِ
يَكْفِيكُمُ فِي عُلاَكُمْ قَوْلُ مَادِحِكُمْ ... هُمُ أَهْلُ بَدْرٍ فَلاَ يَخْشَوْنَ مِنْ حَرَجِ

وقال الآخر[3]: (المنسرح)

يَا أَهْلَ بَدْرٍ فُزْتُمْ بِمَزِيَّةٍ ... مَا نَالَهَا أَحَدٌ مِنَ الأَخْيَارِ
شَارَكْتُمْ الأَمْلاَكَ فِي قَهْرِ الْعِدَا ... وَظُهُورِ دِينِ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ

1- في خ و د «الجبل النصري».

2- ساقط من د.

3- القائل عبد المجيد الزبادي . انظر : **بلوغ المرام**، 2/ 124 – 125 .

فَجَزَاكُمْ الرَّحْمَانُ إِذْ شَارَكْتُمْ أَمْلاَكَهُ فِي الْمَحْوِ لِلأَوْزَارِ

وقال : (من الطويل)

نَزَلْتُ بِبَدْرٍ وَالسّرُورُ مُصَاحِبِي وَأَذْكرني أَهْلِي وَنَاسِي وَصَاحِبِي

تَمَنَّيْتُ أَنْ لَوْ شَارَكُونِي بِمَنْزِلٍ بِهِ نَصرَ الرَّحْمَانُ خَيْرَ الْمَوَاكِبِ

وقال : (من الطويل)

تَمَنَّيْتُ لَمَّا أَنْ نَزَلْتُ عَلَى بَدْرٍ قِتَالَ بُغَاةٍ بَارَزُوا اللَّهَ بِالْكُفْرِ

مع الْمُصْطَفَى وَالصَّحْبِ أَنْصُرُ دِينَهُ وَمِلَّتَهُ بِالسَّيْفِ أَيَّتمَا نَصْرِ

وقال : (من المجتث)

يَا بَدْرُ أَهْلُكَ جَارُوا وَعَلَّمُوكَ التَّجَرِّي

وَقَبَّحُوا لَكَ وَصْلِي وَزَيَّنُوا لَكَ هَجْرِي

فَلْيَفْعَلُوا مَا أَرَادُوا لأَنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرِ

وما أحسن قول الإمام الصفدي[1] في رسالته[2]، وقد قدم حاجا من الشام إلى المدينة إلى بدر وهي عندنا بخطه: (من الطويل)

أَتَيْنَا مِنْ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ مُحَمَّدٍ نَجِدُّ السَّرَى حَتَّى نَزَلْنَا عَلَى بَدْرِ

فَهَذَا بَدِيعٌ لَيْسَ فِي اللَّفْظِ مِثْلُهُ وَهَذَا جِنَاسٌ لَيْسَ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ

278 فَيَالَهَا مِنْ لَيْلَةٍ بَهِيَّةٍ وَوَقْدَةٍ سَنِيَّةٍ مَلأَتِ الشُّمُوعِ عَرَصَاتِهَا بِالنُّورِ

وَأُحْضِرَتْ أَشْرِبَةُ السُّكَّرِ فَطَابَ الْهَنَا وَالسُّرُورِ

وضاهت الليلة من[3] قصرها طرفة عين وأقصر منها، سيما وقد وجدنا بها الركب الشامي قبلنا مخيما، فعندما اطمأنت بنا الدار آذن بالرحيل ولم يبق ولا قيم.

1- الصفدي : خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، أديب ومؤرخ، ولد بصفد بفلسطين، وتعلم بدمشق، تولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب ، من تصانيفه : الوافي بالوفيات ، توفي سنة 764 هـ. ترجم له :ابن حجر، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، [1385/] 1966م . ،2/ 87 .

2- **رحلة الصفدي** واسمها : **حقيقة المجاز إلى الحجاز** .

3- ساقطة من د .

وبالجملة فهذا البلد كما قال أبو سالم: «عليه أنوار تلوح، ورياض النصر تغدو وتروح، ينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الرب، ومعالم النبوة لا تخفى، ومواطئ أقدام الرسول ﷺ لا تخفى، وقد ظهرت على أهل البلد بركة الرسول ﷺ معلنين بذلك، فأسعارها - في الغالب - أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صُبْح المجاورون لهم»[1]، هـ. وتقام بها سوق عظيم لأن أهلها ومن جاورهم من واد الصفراء والجُرِيْدَة[2] وغيرهما إلى المدينة المنورة يتحينون مجيء الركب، يستعدون لذلك ويستحضرون ما يبيعونه من تمر وعلف وجمال وغير ذلك. وسميت باسم بئر هنالك حفرها بدر بن قريش[3] وقيل غير ذلك.

وفي **الروض المعطار**: «بدر: ماء على ثمانية وعشرين فرسخا من المدينة في طريق مكة، وبين مدينة الجار إلى بدر نحو المشرق إذا أردت المدينة عشرون ميلا». قال: «وموضع القليب الذي كانت بإزائه الوقيعة هو اليوم نخيل وموضع الشهداء خلفه؛ وببدر عينان جاريتان عليهما الموز والعنب والنخل، وسميت بدرا لأنه كان ماء لرجل من جهينة اسمه بدر». قال: «وببدر جبل[4] عظيم من رمل شديد البياض كان بياضه إذا طلعت عليه الشمس يغشي[5] الأبصار، وهم يسمعون من ذلك الجبل دويا فيدل ذلك على خصب العام عندهم، وُيرى على بدر في الليل الغاسق نور ساطع لا يُرى على سواه»[6]، هـ.

قلت[7]: وبآخر[8] المضيق وأنت داخل إلى بدر في أصل جبل الطبول مشاهد مدور عليها بأحجار، يزعمون أنها قبور الشهداء، وبعضهم يقول:

1- العياشي، **الرحلة**، 1/ 183.

2- الجريدة: بضم الجيم وفتح الراء تصغير الجردة بفتحات ثلاث، من قرى جريدة بمنطقة القصيم.

3- ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 357؛ الحميري، **الروض**...، 84

4- في **الروض** «حبل».

5- في م. س «يعشي».

6- الحميري، **الروض**...، 85-84.

7- ساقطة من د.

8- في د «ويأخذ».

محل العريش[1]، فزرنا ذلك بالنية [وإن كان التحقيق أن قبور الشهداء بسفح الجبل قرب القرية، مدورعليهم بحوش من حجر مبنى][2] بالجير، وبأعلى ذلك قبيبة مبنية على حجر يزعمون أنه ساخ بالنبي ﷺ فبقي أثر قدميه *279* به. وبعضهم يقول: إن ذلك إثر جلوسه عليه وقت دفنه للشهداء، هكذا اشتهر على ألسنة أهل البلد، والله أعلم .

وبجانبه فيها حجر مرقوم عليه أسماء شهداء بدر الأربعة عشر[3]: عُبَيْدة بن الحارث بن عبد المطلب، نقل جريحا إلى الصفراء، ومات بها وقبره هنالك مشهور، عُمَيْر بن أبي وقاص الزهري، ثم ذو الشِّمَالَيْن وهو عبد الله بن عمير الخزاعي[4]، ثم مُبَشِّر بن عبد المنذر، ثم عاقل بن البُكَيْر[5] الليتي، ثم صفوان بن بيضاء، ثم سعد بن خَيْثَمَة، ثم حارثة بن سراقة، ثم عُميْر بن الحُمام السَّلمي، ثم مِهْجَع[6] مولى عمر بن الخطاب، ثم زيد بن الحارث، ثم رافع بن المُعَلّى الحيثمي، ثم عَوْفٌ ومُعَوَّذ ابنا الحارث بن رفاعة وهما أبنا عفراء اللذان طعنا أبا جهل. ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما .

تنبيه: عُبَيْدة وعُمَيْر بن أبي وقاص وذو الشِّمَالَيْن وعاقلُ بن البُكَيْر وصفوان ومِهْجَع مهاجرون، وسعد بن خَيْثَمَة ومُبَشّر من الأوس، وباقيهم من الخزرج .

وبأعلاها مسجد صغير مدور بحجارة ينسب لعلي بن أبي طالب، وبأسفل هذا كله في سهوة السادات الشرفاء الزيديون اليمانيون في بيت، وفي كل هذه المشاهد أناس من أهل البلد يتعرضون للعطاء من الحجاج، وكل ينال ما قسم له. وفي وقعة بدر يقول العلامة ابن جابر: (من الطويل)

1- في خ «العريس» .

2- ساقط من د .

3- ينظر: ابن هشام، **السيرة**. . .، 2/ 274 .

4- في م . س، ذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة من خزاعة، 2/ 274 .

5- ينظر: ابن عبد البر، **الاستيعاب**. . .، رقم 3202، 1 / 788 .

6- مهجع بن صالح مولى عمر بن الخطاب شهد بدرا، كان أول قتيل من المسلمين، أتاه سهم فقتله. انظر: ابن عبد البر، **الاستيعاب**. . .، رقم 4، 1576/ 1486.

بَدَا يَوْمُ بَدْرٍ وَهُوَ كَالْبَدْرِ حَوْلَهُ | كَوَاكِبُ فِي أُفْقِ الْمَوَاكِبِ تَنْجَلِي
وَجِبْرِيلُ فِي جُنْدِ الْمَلَائِكِ دُونَهُ | فَلَمْ تُغْنِ أَعْدَادُ الْعَدُوِّ الْمُخَذَّلِ
رَمَى بِالْحَصَا فِي أَوْجُهِ الْقَوْمِ رَمْيَةً | شَرَّدَهُمْ مِثْلَ النِّعَاجِ الْمُجَفَّلِ
وَجَادَلَهُمْ بِالْمُشَرَّفِيِّ فَسَلَّمُوا | فَجَادَ لَهُ بِالنَّفْسِ كُلُّ مُجَدَّلِ[1]
عُبَيْدَةَ سَلْ عَنْهُمْ وَحَمْزَةَ وَاسْتَمِعْ | حَدِيثَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ عَلِ
فَهُمْ عَتَبُوا بِالسَّيْفِ عُتْبَةَ إِذْ غَدَا | فَذَاقَ الْوَلِيدُ الْمَوْتَ لَيْسَ لَهُ وَلِي
وَشَيْبَةُ لَمَّا شَابَ خَوْفاً تَبَادَرَتْ | إِلَيْهِ الْعَوَالِي بِالْخِضَابِ الْمُعَجَّلِ
وَجَالَ أَبُو جَهْلٍ فَحَقَّقَ جَهْلُهُ | غَدَاةَ تَرَدَّى بِالرَّدَى عَنْ تَذَلُّلِ
فَأَضْحَى قَلِيبًا فِي الْقَلِيبِ وَقَوْمُهُ | يَؤُمُّونَهُ فِيهَا إِلَى شَرِّ مَنْهَلِ
وَجَاءَهُمْ خَيْرُ الْأَنَامِ مُوَبِّخًا | فَفَتَّحَ مِنْ أَسْمَائِهِمْ كُلَّ مُقْفَلِ
وَأَخْبَرَ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ | وَلَكِنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ لِمَقُولِ
سَلُوا عَنْهُمْ يَوْمَ التَّسَلِّي إِذْ تَحَاكَمُوا | فَعَادَ بُكَاءً عَاجِلًا لَمْ يُؤَجَّلِ
أَلَمْ يَعْلَمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ بِصِدْقِهِ | وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ لِمَعْقِلِ
280 فَيَا خَيْرَ خَلْقِ اللهِ جَاهُكَ مَلْجَئِي | وَحُبُّكَ ذُخْرِي فِي الْحِسَابِ وَمَوْئِلِي
عَلَيْكَ صَلَاةٌ يَشْمَلُ الْآلَ عَرْفُهَا | وَأَصْحَابَكَ الْأَخْيَارَ أَهْلَ التَّفَضُّلِ

وأما مسجد الغمامة وهو العريش فهو في وسط القرية، وهو صغير تقام فيه الخطبة، وإمامه[2] في الوقت شريف رُدَيني، ومرتبه أنه يأخذ في وقت جذاذ النخل قسطا من التمر إعانة من أهل القرية له. وعلى باب المسجد عين عظيمة عذبة مع سخونة[3] تبرد إن جعلت في نحو قربة.

وأول من بنى هذا المسجد على ما قيل: أبو بكر الصديق، ثم بُني بعده مرارا وآخر من بناه بعض ملوك مصر، وزاد على ما كان في العهد القديم عليه صفوفا أربعة، ووجدت به ضريرا من أهل القرية ملازما له، تلوح عليه

1- في د «مجد» .
2- في خ «خطيبه».
3- مطموسة في ج .

لوائح الخير يحفظ بعض القرآن، اسمه عبد الله بن أحمد، وقد شكا استحاضة[1] زوجته، فكتبت[2] له تميمة في ذلك؟ . حدثني أن سكان القرية من قبيلة صُبْح، وهو خلاف ظاهر لقول الشيخ أبي سالم قبل. وأهلها محظوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صُبْح المجاورون لهم. اللهم أن يقال: إن أعراب صبح تغلبوا بعد ذلك على القرية فسكنوها مع بقاء ضعفاء أهلها بها، والله أعلم . وقال الرجل المذكور: وقبيلة صبح تقرب من ألفي رجل، وهي دائرة بجبال بدر، تسكن الخيام، وجدهم وائل بن بدر الصحابي، وهم حلفاء حرب الآن بعد أن قامت بينهم نائرة، فأجلوهم عن ديارهم إلى ينبع وخربوا قريتهم هذه، ثم أن الله تعالى ردهم لمقرهم فدخلوا في حلفهم إلى الآن، وكلهم شافعية المذهب، وفيهم من الزيدية[3] كثير، ومن المالكية قليل . قال: وحرب عمرت من البلاد الحجازية مسافة اثني عشر مرحلة، فبلادهم من الدهناء إلى الطائف إلى المدينة المنورة، وعواليها وأحوازها ينيفون على مائة ألف رجل، لا يقيمون وزنا لقبيلة من قبائل الحجاز أصلا، مع ماهم عليه من الظلم والحرابة والتوغل في الفحش والجهل .

فـائـدة: بإزاء مسجد العريش مسجد النصر صلى فيه النبي ﷺ، وهناك مَبرك ناقته القصْوى، ومقابر الشهداء ولعله هو المنسوب اليوم لعلي ابن أبي طالب كما تقدم .

تـنـبـيـه : قال العبدري*281*: «وأكثر سكان بدر ضعفاء وهم رافضة، وكذلك أكثر أهل المدينة على ساكنها السلام»[4]، هـ. قلت: أما إثبات الرفض على سكان بدر فلا يبعد لشيوع مذهب الزيود بالحجاز حتى بمكة، وأما أهل المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام فلا نعلم من وصفهم بذلك لا في زمان القائل ولا في غيره، نعم إن طرقها في أيام الموسم رافضي ونحوه من

1- في د «استحاضها» .

2- في د «فشكل» .

3- الزيدية : تنسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وتقابلها الإمامية، وهما أكبر فرق الشيعة، وعرفت الزيدية بالاعتدال بعيدة عن التطرف وهي أقرب إلى أهل السنة. راجع : **الموسوعة العربية الميسرة** بإشراف محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، مصور عن طبعة مصر سنة 1965 م، 1/ 938 .

4- العبدري ، **رحلة**، 346.

أهل الأهواء والبدع أواستوطنها أفراد منهم، فلا ينبغي أن يطلق ذلك فيهم أو في أكثرهم جملة، ومجمل كلامه - والله تعالى أعلم - على ما علم في القرن السادس والسابع من استيلاء الروافض على الحرم الشريف بالمدينة حتى كان الأمير والقاضي والخطيب منهم، وكم أساؤوا فيه من الأدب ولذا قال ابن جبير في **رحلته**: وُجِدَ عقب الحريق على بعض جدران المسجد ما نصه: (من البسيط)

لَمْ يَحْتَرِقْ حَرَمُ النَّبِيِّ لِحَادِثٍ ... يُخْشَى عليْهِ وَمَا بِهِ مِنْ عَارِ
لَكِنَّما أيْدِي الرَّوَافِضِ لامَسَتْ ... تِلْكَ الرّسُومَ فطُهِّرَتْ بالنّارِ[1]

ووُجد أيضا: (من الكامل)

قُلْ للرَّوَافض بالمَدِينَةِ مَالَكُمْ ... يَقْتَادُكُمْ للـذلِّ[2] كُلُّ سَفيهِ
مَا أَصْبَحَ الحَرَمُ الشَّرِيفُ مُحْرَقاً ... إلاَّ لِسَبِّكُمْ الصَّحَابَةِ فِيهِ

ثم قال العبدري: «وفي غربي مقبرة بدر هضبة فيها لِصْبٌ[3]، أي شعب صغير في الجبل أضيق من اللهب - بكسر اللاّم - وأوسع من الشعب قاله في **القاموس**[4]، والحجاج يتمسحون به، ويتطارحون عليه، ويكثرُ زِحامُهم عنده، ويتكلفون الصعود منه إلى أعلى الهضبة فيقاسون فيه شدة لضيقه، وقلما يتخلّصُ منه الصاعدُ حتى يأخذ بيده شخص على الهضبة، ويذكرون في ذلك أشياء ما لها أصل»[5].

قلت: والذي رأيت هناك حجرا مخروقا شبه مغارة ينزل الناس إليها متبركين بها، وينسبونها للنبي ﷺ ويأثرون في ذلك خرافات ما لها فصل من أصل.

قال: «ومن جملة غرائبهم تسميتهم بدرا ببَدْرٍ وحُنَيْن، فلا ينطقون بهما إلا هكذا مقرونَيْنِ على أنهما اسم واحد، واشتُهِرَ ذلك عندهم حتى صار في حيز المقطوع بصحته، وفشى ذلك على ألسنة الخاصة والعامة، حتى لقد

1- وقفت على البيت عند السمهودي، **وفاء الوفا**، 2/ 373.
2- في م. س، «بقيادكم للذم»، 2/ 374.
3- في **رحلة العبدري** «نصب» وهو خطأ.
4- **القاموس**: 1/ 172.
5- العبدري، **رحلة**، ص347.

أَوْهَمَ اشتهاره الفقيه ناصر الدين – رحمه الله تعالى – على جلالة قدره، فذكر حُنينًا مع بَدْرٍ في رسالة له قد مضى ذكرُ فَصْلٍ منها، وليست غزوة بدر من غزوة حُنين، ولا موضعهما واحد ولا زمانهما متقارب. كانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وبدر هو الوادي المذكور على أربعة أيام أو نحوها من المدينة، وكانت غزوة *282* حُنين عام ثمانية من الهجرة بعد فتح مكة. وحُنين في جهة الطائف[1] على بضعة عشر ميلا من مكة»[2].

قلت: وقع للإمام البوصيري في **الهمزية**[3] نحو ما وقع لناصر الدين إذ قال[4]: (من الخفيف)

لاَحَ بِالدَّهْنَوين بَدْرٌ لَهَا بَعْدَ حُنَيْنٍ وخَنتِ الصَّفْرَاءُ[5]

وانتقد عليه بذلك أيضا، ولا أدري ما سبب توهيم القائلين بذلك، ولا أخال ما قالوا مقصودا عندهم وإنما هو شيء جرى به عرف عامة الناس فجرى على لسان هذين الإمامين، وإلا فكون كل من المكانين مكان مستقل وقعت به غزوة مستقلة وبينهما من المسافة ما لا يخفى أمر مشهور لا يجهله مثل هؤلاء الأئمة الأجلاء، نفعنا الله تعالى بهم وبأمثالهم[6].

1- الطائف: مدينة صغيرة على جبل غزوان إلى جنوب مكة. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 9.

2- العبدري، **رحلة**، 347 – 348.

3- القصيدة الهمزية في المدائح النبوية لمحمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله البوصيري الملقب بشرف الدين توفي سنة 696 / 1296، سماها «أم القرى» لما أنها حوت أكثر المدائح النبوية، أولها: كيف ترقى لرقيك الأنبياء إلخ.
شرحها الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي المتوفى سنة 973 هـ وسماها المنح المكية ثم سماها أفضل القرى، وشرحها الشيخ أبو الفضل المالكي وأوله: الحمد لله الذي زين بديع النظام إلخ، وشرحها أيضا شمس الدين محمد بن عبد المنعم الجوجرى وغيرهم. انظر: حاجي، **كشف** . . .، وجعل وفاته سنة 694 هـ، دار الكتب العلمية، 2/ 1349، طبعت أكثر من مرة.

4- **متن الهمزية في مدح خير البرية** للإمام شرف الدين محمد البوصيري، طبع ونشر وتوزيع، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص24؛ **البوصيري شاعر المديح النبوي** دراسة تحليلية معززة بقصيدتي البردة والهمزية لعبد الصمد العشاب مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي الرباط 1999، ص 70.

5 – الصفراء: واد قرب المدينة وكانت الصفراء كثيرة العيون وقد نضب كثير منها انظر:أبو اسحاق الحربي، **المناسك وأماكن طرق الحج**، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، 1969م، ص414.

6- علق حمد الجاسر على هذا الخلط بقوله: كنت تأثرت بقول العبدري فنشرت في **مجلة المنهل** قبل أربعين عاما أنكر ذكر بدر مع حنين هنا لبعد ما بين المكانين، ولكن اتضح لي – فيما بعد– وجود=

تتميم: الوقدة المذكورة اليوم حولت لبدر، عادة الركب المصري أنه يستصحب الشمع الكثير والقصد الأعظم إيقاده بهذا الموضع ويباع به، تراهم يوقدون الشموع على أقتاب الجمال وسروج الخيل وأكتاف البغال والحمير ليلا، ويوقدون في كل خيمة منه العدد الكثير فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة في أحد المواسم، بل شمس أشرقت على معالم، وشاع وذاع عند العامة أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا نيرانا كثيرة فيتشبهون بهم. قال الشيخ أبو سالم: «وتلك غفلة، وخطأ لأن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران كما في كتب السير، ولو سلم أن ذلك وقع ببدر فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لا عدو فلا معنى له. ولا شك أن الفرح بنصر الله تعالى أولياءه على أعدائه، والاستبشار بالأماكن التي أعز الله تعالى فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن ما لم يؤد ذلك إلى محظور مثل اعتقاد أن الوقود سُنة متبعة، بل ربما ظن بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده، يستفتون ويقولون: لا شمع عندنا، فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره. وكم مثلها من بدع محدثة، يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله الثبات على السنة التي لا ترى فيها اعوجاجا[1] ولا أمتا، ثم نقل عن الإمام ابن مرزوق في **شرح البردة**[2] *283* من الآيات ببدر الباقية: سماع

=موضع بقرب بدر يعرف باسم حنين. قال قطب الدين النهروالي محمد بن أحمد القطبي المكي مؤرخ مكة في إحدى رحلاته إلى المدينة المنشورة في **مجلة العرب** س16 ص 525 ما نصه: «وفي قبالة بدر عين ضعيفة يقال لها عين في سفح جبل به مزارع، ومساكن وبعض نخيل، وبه طائفة من الأشراف يقال لهم الفضول، ساكنون هناك وبها بيوت دائرة، وماء حنين أحلى من ماء بدر، وفي شعب حنين موضع بها ماء حلو من المطر يكاد بعض أهل القافلة يستقى منه، وذلك الشعب يقال له شعب المنادى» انتهى. انظر: الجاسر، **ملخص**...، 99 هامش 2.

1- في خ «عوجا».

2- قصيدة البردة، وعنوانها «**الكواكب الدرية في مدح خير البرية**» للإمام البوصيري، وهي 162 بيتا، ترجمت إلى عدة لغات، وتتمحور حول سيرة الرسول ﷺ، وسنته وشمائله، واشتهرت باسم البردة لما يروى عن مؤلفها أنه رأى النبي ﷺ في المنام وخلع عليه بردته فشفي من مرضه. انظر: أحمد عطية الله، **القاموس الإسلامي، موسوعة للتعريف بمصطلحات الفكر الإسلامي ومعالم الحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1383 / 1963 .، 1/ 298؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، 3/ 528.

كهيئة طبل ملوك الوقت، لنصر أهل الإيمان، قال: وسمعه مرارا سماعا محققا، قال . وقال المرجاني: وضربت طبَلخانة النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة . نقله عنه السيد السمهودي في تاريخه الكبير والصغير»[1] . قال الشيخ أبو سالم: «وقد مررت ببدر سبع مرات[2]، وشيخنا أبو بكر السجستاني نحو من سبع وعشرين مرة، فلم يسمع من أحد شيئا يتحققه، والعلم عند الله . وإذ ذكر ابن مرزوق وغيره ممن يوثق به أنهم سمعوه، فالصحيح أن بعض الناس سمعه دون بعض»[3].

قلت: ولقد صعدت جبل الرمل الذي يزعمون سماع الطبل به متثبتا في ذلك فلم أسمع شيئا من ذلك ولا سمعت في ركبنا مع كثرته من ادعى سماعه، والعلم في ذلك لله تعالى .

لطيفة : ومن بدر طريق مشرقة إلى المدينة على وادي الصفراء وهي التي سلك الركب الشامي، فيجتمع هاهنا غالبا مع المصري، والمصري أكثر منه آدميا وخيلا وبغالا وحُمُرا، وأضبط، والشامي أكثر منه إبلا في جودة، وأحسن صنعة في نصب الأخبية، كأنها أزقة ملتوية، مع ما هي من مزيد حسن الصنعة وكمال البهجة، والمصري يكثر من أثقال السلع، والشامي تجارته في نحو جوهر ويواقيت، فترى الإبل فارغة من غير الزاد، وعسكره مغاربة، وأميره في الوقت لا يد فوق يده عند السلطان العثماني، وهو رجل صالح فيما يوتر عنه، بل وأهل الشام الذين رأيناهم واجتمعنا بهم بعد هذا في الحرمين من أحسن الناس هديا وسمتا ودينا وسخاء، فيا بَوْن ما بينهم وبين غيرهم ممن اجتمعنا به في الموسم من أهل الآفاق .

وأما ركب المدينة المنورة فهو ركب صغير معظم، تعلوه مهابة، يمرون أيضا ببدر إلى جدة ثم منها لمكة، ثم يرجعون على جدة أيضا. وصاحبَ

1- العياشي، **الرحلة**، 1/ 181 - 182 .

2- قام العياشي بثلاث رحلات إلى المشرق : الأولى عام 1053/ 1643، والثانية عام 1064/ 1653، والثالثة عام 1069/ 1658 . انظر : أبو سالم العياشي، **إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء**، تقديم وتحقيق محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1999، 24 .

3- العياشي، **الرحلة**، 1/ 128 . مع تقديم وتأخير .

الشامي منهم جماعة، وبنفس ما خيمنا جاءني رجل منهم في جماعة وعليه رونق الخير والصلاح بتمر ورمان قال أنه جاء به من المدينة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ففرحت بها من هدية ما أعظم شأنها. وقال: ما ذلك أردت، إن قضينا المناسك إن شاء الله ورجعنا لطيبة أن أكون في خدمتك في سائر ما تحتاجه بها من زيارة المشاهد، وقضاء ما عسى يُحتاج بها من العوائد، ويستفاد بها من الفوائد، وكتب اسمي واسم أبي وجدي في ديوان له، وكتبت عنه *284* في نسبه مثل ذلك، ولكن غاب عني اسمه الآن، وفعل ذلك توددا وتوثقا وتجديدا للعهد وتذكرة، ولأن الموسم من كثرة الخلق لا يكاد يجتمع الإنسان فيه مع من له مقر معلوم من الحاضرين فضلا عن الغرباء المسافرين، فعند ذلك لم أتمالك نفسي، فتواجدت حتى كدت أن أخرج عن حسي، ففاضت عيناي فيضان فرح وسرور، وأردفت أعينهم بمجاري تحكي الدر في النحور، فقلت ارتجالا ولم ألق لاعوجاجي بالا: (من الخفيف)

مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِجَارِ الْحَبِيبِ ... يَكْتُبُ الاسْمَ في دَفَاتِرِ طِيبِ
حَبَّذَا وَهْوَ في مَعَاهِدِ بَدْرٍ ... جَاءَ بِتَمْرِ طِيبَةَ لِغَرِيبِ
يَرُومُ وَصْلَنَا بِذَاكَ الطِّيبِ ... يَا لَهُ مِنْ وِصَالِ بَدْرٍ نجيبِ
هَذِهِ وَاللهِ نَفْحَةٌ مِنْ نَبِيٍّ ... عَلَيْهِ مِنْ صَلاةِ رَبٍّ رَقِيبِ

وبهذا المحل استهل لنا هلال ذي الحجة، وكانت ليلة الخميس فاستبشرنا بوقفة الجمعة وقد وقع الإجماع عليها من سائر الآفاق ممن شهد عرفة. فارتحلنا ضحوة الخميس الأول منه بعد مضيّ ثلاث ساعات، فتحققت إن شاء الله الوقفة بالجمعة، ولما تجاوزنا القرية بنحو ميلين مررنا بغار على يمين الذاهب في هضبة بِحَرْفِ الوادي، يذكرون تخريصا[1] أنه الغار الذي دخله رسول الله ﷺ وأبو بكر حين هاجرا من مكة»[2]. قال العبدري: «وذلك باطل،

1- خرص يخرص خرصا وتخرص أي كذب، واخترص الشيء: افتعله. والخراصون الكذابون، ويجوز أن يكونوا الذين إنما يظنون الشيء فلا يحقونه فيعملون بما لا يعلمون. انظر: **لسان العرب**، 7/ 21.

2- العبدري، **رحلة**، 347.

فإن الغار المذكور بجبل ثور[1] قريبا من مكة في ناحية الجنوب منها، وهو أشهر وأعرف من أن يعرف به »[2]، هـ. وأسرع إليه لما وازينا الخفاف من الناس، واستقبلناه وزرناه ونحن على دوابنا بالنية، إذ لا يبعد أن يدخله النبي ﷺ يوم بدر أو في بعض أسفاره. وبالجملة فبدر وساحته كلها مزارة عظيمة.

ثم سرنا فمررنا بعده غير بعيد على سبيل ماء مبنى بين جبلين عن يمينك وأنت ذاهب، وقيل وهو لخناتة[3] جدة أمير المؤمنين محمد بن عبد الله بن إسماعيل من قبل أبيه، قد كانت لما مرت بهذا المحل حاجة دفعت مالا لسكان بدر حبسا على ذلك، فإذا قرب مجيء الحاج نقلوا إليه الماء؛ ووجدناه عامرا أخذ منه من احتاج إليه كفايته. وسرنا بقية يومنا وجميع ليلنا في أرض بطحاء مسترملة مجهلة وأي مجهلة، وأظنها هي طريق الساحل التي مر بها رسول الله ﷺ *285* وأبو بكر في هجرتهما من مكة إلى المدينة، وفيها تعرض لهما سراقة بن ملك بن جعشم على فرس له فساخت به وأسلم إذ ذلك[4].

ثم نزلنا فبتنا بقاع البزواء[5] الشبيه بالتيه على غير ماء وقد مضى من النهار ساعة وهو كما قال الصفدي: قاع لا يظفر غائص بحره بقاع، ولا يرى المسافرون له نظيرا في البقاع، لأنه للقاع صفصف، ومهمه نفنف ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[6]، ولا نجد له إلا السماء سمتا، يخر خريته من الضلال، ويفرعفريته من الظلال.

1- جبل ثور: يقع بأسفل مكة انظر: محمد الفاسي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق فؤاد سيد ورفاقه، بيروت، 1986م، 1/ 101. الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 182.

2- العبدري، **رحلة**، ص347.

3- زوج السلطان مولاي إسماعيل، ثاني سلاطين الدولة العلوية، تولى الحكم ما بين 1672 - 1727م.

4- ينظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1/ 232؛ ابن هشام، **سيرة**، 2/ 100 - 101. وقد أبدل رسول الله اسمه إلى عبد الرحمان، لأن سراقة اسم مكروه.

5- البزواء: موضع في طريق مكة قريب من الجحفة. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 411؛ **القاموس**، 1/ 1630.

6 - طه: 104.

وقلت: (من الخفيف)

قَدْ سَلَكْنَا القَاعَ المَدِيدَ الَّذي أَضْحَى مُضَافًا دُونَ البِقَاعِ لِبِزْوَةَ
فَهْوَ قَاعٌ لا نَبْتَ فِيهِ تَرَاهُ عَيْنُ سَارٍ وَكَمْ لَنَا فِيهِ سَرْوَهْ

فما رأينا أكثر تسليطا من الزيلع على الجمال[1] التي عجزت، وفرغت مدة حياتها ونجزت، متى يبرك أو يعى بعيرا عتوروا على أخذ جلده للأحذية، واشتزوا على لحمه للأغذية، ولما نزلنا وجدنا الحشيش كثيرا ومحل الماء في العدة أثيرًا فقلت: (من الطويل)

مَرَرْنَا بِقَاعِ الْبَزْوَةِ الأَفْيَحِ الَّذي عَلَيْه صريح الذمِّ رَاحَ حَبِيسَا
فَكَانَ بِهِ لِلْمَاءِ قَدْرٌ وَعِزَّةٌ وَكَانَ به قَدْرُ الْحَشِيش خَسِيسَا
فَسِرْنَا بِهِ يَوْمَيْنِ وَالثَّالِثَ انْقَضَى وَقَدْ أَذْهَبَتْ بِه النُّفُوسُ نَفِيسَا
وَكَمْ زَيْلَعَ وَافَى ومُوسَى بِكَفِّهِ لِيَنْحَرَ وَسْطَ الْمَفَازَةِ عِيسَى

وبهذه المنزلة جاء الثبت من ورائنا أن الركاب[2] المغربية تقاتلوا مع أعراب ينبع فوقعت بينهم موتى ونهب، ومنعوهم الماء.

وفي الليلة الماضية[3]- أيضا - ظهرت الأنوار من شاهدها من الركب من نواحي مكة والمدينة، فإن كانت أنوارا خاصة فذاك، وإلا فالبرق، وسائر ما يهتدى به من شمس وقمر ونجم من نوره ﷺ فلا غرابة في شيء من ذلك حتى يجزم الشيخ أبو سالم وشيخه أبو بكر السجستاني بأنها بروق من غير دليل يقوم على ساق .

تنبيه : هكذا تنطق العامة فتقول: قاع البزوا، وربما أفردوا البَزْوَا عن[4] القاع والقاعَ عن البزوا. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد المجيد الزبادي الفاسي في **رحلته**: «ووجهه أن هذه الأرض في هذه الرحلة تسمى بَزْوَا لما فيها

1 - في د «الجمل».
2- في د «الكوكب» .
3- في د «المضية» .
4- في د «على» .

من الضيق والأحديداب[1] وعدم الاستواء، هذا الطرْف منها لما اطمأن[2] واتسع وسهل وما ارتفع سمى بالقاع [3] وأضيف إلى البزوا لأنه بعضها أو مجاور لها»[4] ولا نزاع . قلت: والقاع *286* في اللغة : «اسم للأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام»[5] . والحاج يبيت بهذا المكان الموصوف بهذه الصفات، وعن يساره جبال، ومن العادة أن يلازمها عدم الاستواء. والبزاء في أصل اللغة: «انحناء في الظهر عند العجز أو إشراف وسط الظهر على الأست أو خروج الصدر ودخول الظهر وأن يتأخر العجز»[6] . فصح إطلاق البزو على الجبال بهذا المعنى، والله أعلم بغيبه .

وقال العبدري: «ومن بدر تشير إليك البزْوَاء وهي برية[7] ممتدة ملساء، مجهل من أعظم المجاهل، نكراء، يضلّ بها لنكارَتِها الدليل، ويذهَلُ فيها الخليل عن الخليل، وهي مسيرة ثلاثة أيام، ليس بها على التَّرَفّق إلمام، ولا نصبت بها على المسالك أعلام. اشتبهت فما يتميزُ من وراء ومن قُدّام، يسرح الطرْفُ بها فلا يقف على مداه، وتظمأ الأفواهُ فلا تجد بلَّةً تنقعُ صداه[8] ، هـ .

رجوع، ثم ارتحلنا وقد مضى من نهارنا خمس ساعات ونصف في مجهلة بطحاء، ذات رمال وهي رمال عالج التي تضرب بها الأمثال في غابرالأزمان، وهي كما قال الصفدي : بقعة من رمقها أصبح ذا نظر متخالج، فرأينا فيها رمالا نصبت جبالا، وعدت للأهرام في الرفعة مثالا، وعزت أعاليها على النجوم منالا، ورأينا أفاعي بيضًا بُترا لها قرون، قد مرت عليها في تلك البقاع دهور متعددة وقرون، من كل حية بترا، لا يجد[9] السليم منها

1- الاحديداب تصغير حدب، وهو الغليظ من الأرض في الارتفاع .

2- اطمأن : انخفظ .انظر مادة «طمن» في **لسان العرب** .

3- في **بلوغ المرام** « لما اطمأن وسهل سمي بالقاع لأجل الاتساع».

4- الزبادي، **بلوغ المرام**، 2/ 128 .

5- ينظر: **القاموس**، 1/ 978 .

6- **ن . س**، 1/ 1630 .

7 - في **رحلة العبدري** « دوية» والدوية : الفلاة الواسعة.

8- العبدري، **رحلة**، 348.

9- ساقطة من د .

دون الموت سترا، لو كان الجمل جبلا لبيعت إليه ولسعت، وأضرمت فيه سمها فلدغت[1] ولذعت، فما كدنا نقضي العجب مما بصرنا به، ولا أدينا شكر الله تعالى الذي ما ابتلانا بضرنا به، وقلت : (مجزوء الخفيف)

فِي وَسَطِ رَمْلٍ عَالِجٍ عَجِيبَةٌ أُبِينُهَا
حَيَاتُهَا الْبَتْرَا غَدًا بَيَاضُهَا يَشِينُهَا
رَأَيْتُ فِيهَا حَيَّةً أَشْبَهَ لِي بِكُونُهَا
مِفْتَاحُ عَاجٍ أَبْيَضَ أَسْنَانُهُ قُرُونُهَا

ثم مررنا بسبيل محسن، وليس به في الوقت ماء وفيه يقول الشاعر:(من الخفيف)

قَدْ شَكَا لِي بَعْضُ الْمُحِبِّينَ يَوْمًا ظَمَأَ الْمَاءِ قُلْتُ ذَا غَيْرُ مُمْكِنْ
كَيْفَ تَشْكُو الظَّمَأَ وَتَجْزَعُ مِنْهُ وَبِهَذَا السَّبِيلُ أَحْسَنُ مُحْسِنْ

ثم مررنا عشية يومنا بمستورة ويقال: مِستيرة – بالياء – قرية سميت فيما يقال على ألسنة العامة باسم بنت عنتر المتقدم المنسوبة إليه الإصطبل، قد كانت نزلت هذا المكان القديم[2] ، وبها بئر كبيرة مطوية *287* بالحجر المنحوت، وماؤها عذب كثير في الوقت، وحولها عمارة قليلة، وبها قبر يزارعليه قبة، اسم صاحبه الشيخ يحيى، شريف يمني، وبروضته قيم يأخذ صدقاته، وقامت هناك سوق مع أعراب حرب، وبالقرب من هذا الموضع كانت ودّان. قال في **الروض المعطار** وهي : «من أمهات القرى بالحجاز، وهو فَعَال[3] من الود. وفي **سيرة ابن إسحاق** في: غزوة الأبواء وهي ودّان[4]. وقال يعقوب بن حميد: أقبلت من مكة، فلما صرت بودّان لقيت صفراء من

1- في د «فلدعت» .
2- بلاد عنتر وقومه في عالية نجد.
3- في **الروض** «فعلان».
4- ينظر: ابن هشام ، **السيرة**. . . ، 2/ 181 .

مولداتها. فقلت: يا جارية ما فعلت نُعْم؟ فقالت: سَلِ النّصَيب[1] ، تريد قوله: (من الطويل)

أَلاَ تَسْـأَلْ الْخَيْمَاتِ مِنْ بَطْنِ أَرْثدٍ ... إِلَى النَّخْلِ مِنْ ودّانِ مَا فَعَلَتْ نُعْـمُ

أَسَائِلُ عَنْهَا كُلَّ رَكْبٍ لَقَيْتُهُـمْ ... مَا لي بِهَا مِنْ أَيْنَ[2] أُفَارِقُـهُ عِلْـمُ

قال: فعجبت ظرفها[3].

قال البكري: ومن ودّان إلى مدينة الجار[4] ، وهو بئر ينزل عليه القوافل بينهما خمسة وثلاثون ميلا»[5] ، هـ. وقول ابن إسحاق: غزوة الأبواء وهي ودّان يقتضي أنهما اسم لموضع واحد، وليس كذلك . فقد سألت سكان هذه البلدة من الأعراب فقالوا : هما موضعان . وفي **القاموس**: «والأبواء موضع قرب ودّان»[6] . وسيأتي الكلام على الأبواء في الرجوع إن شاء الله، وهو عن يسار مستورة داخل الجبل، وهناك يتم الكلام على ودّان.

ثم نزلنا رابِغ[7] وقد مضى من النهار نحو ساعة، وهو واد أُفيح يسيل بالأمطار الكثيرة تجتمع إليه من أماكن بعيدة، وكثيرا ما توجد به الحياض الموقورة بالطين فتستغني الركاب بها، وإلا حفروا قليلا فوقعوا عليه، وهو بكسر الباء الموحدة والغين المعجمة، من «رَبَغ القوم في النعيم: أقاموا وعيش رابغ ناعم، وربيع رابغ مخصّب» قاله في **القاموس**[8] . ولما كان هذا الوادي المبارك من أخصب أودية الحجاز سمي بذلك.

---

1 - نصيب بن رباح أبو محجن . انظر ديوانه:

2- في **الروض** و**معجم ما استعجم** «بعد أن» .

3- في **الروض** «فعجبنا من ظرفها» .

4- الجار : مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم وليلة وإلى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل. انظر: الحموي ، **معجم البلدان**، 2/ 92 .

5 - الحميري ، **الروض**. . . ، 608.

6 - **القاموس** : 1/ 329.

7- رابغ : واد بين البزواء و الجحفة . انظر : الحموي ، **معجم البلدان** : 3/ 11 .

8 - **القاموس**: 2/ 347.

وفي **رحلة العبدري**: رابخ[1] – بالخاء المعجمة– قال: «وبعضهم يقوله بالغين»[2]، فظاهره أن الأشهر فيه الخاء، قلت وفيه نظر. ففي **القاموس**: «رابخ موضع بنجد»[3]. وكان هذا ونحوه هو الذي أوهم العبدري.

ونجد ما ارتفع من أرض الحجاز لنواحي المدينة، وليس هذا منها والله أعلم، إذ هو في بسيط من الأرض وبه آبار ليست بذلك، وبعض نخل، وتزرع به مقاثي كثيرة ودخن وذرة، وهو من أخصب *288* أودية الحجاز، تسكنه قبيلة حرب في قرية، وأخصاص تقوم معهم سوق عظيمة، ووجدنا به الشامي مخيما فارتحل محرما في الساعة الرابعة من نهارنا، فعند ذاك تأهبنا بغسل الثياب والاغتسال للإحرام وشراء الرداء والإزار والنعال لمن لم يستعرها من مصر؛ فلما صلينا الظهر ومضى من النهار تسع ساعات نودي بالرحيل، فلما برزنا إلى البرية على ظهر، صلينا ركعتي الإحرام، ثم بعد أن تجردنا وانتعلنا فارتدينا ثم اتزرنا وأحرمنا ملبين بالحج مفردين، وعلى استحضارالنية محافظين، ومتابعة التلبية ولها مجددين، حتى أشارت علينا الجُحْفَة عن يسارنا، إذ لم يتأت تأخير الإحرام إلى مقابلتها لنا، قال الشاعر: (الطويل)

تَجَرَّدْتُ لَمّا أَنْ وَصَلْتُ لِرَابِغٍ ... وَلَبَّيْتُ لِلْمَوْلَى كَمَا حَصَلَ النِّدَا
وَقُلْتُ إِلَهِي! عِنْدَكَ الْفَوْزُ بِالْغِنا ... وَإِنِّي فَقِيرٌ قَدْ أَتَيْتُ مُجَرَّدَا

وقال الآخر[4]: (الطويل)

وَفِي رَابِغَ رَكْبُ الحَجِيجِ تَجَرَّدَا ... لِيَسْأَلَ مَوْلاَهُ الأَمَانَ مِنَ الرَّدَى
خُضُوعًا أَذِلاَّ سَائِلِينَ إِلَهَهُمْ ... يُفِيضُ عَلَيْهِمُ أَبْحُرَ الجُودِ والنَّدَى[5]

1- في **رحلة العبدري** «رابغ»

2- العبدري، **رحلة**، 348 وفيها «بالخاء»

3- **القاموس**: 1/ 321.

4- القائل: عبد المجيد الزبادي. انظر: **بلوغ المرام** 2/ 132.

5- في د بياض.

قال العبدري: «ورابغ دون الجُحْفَةُ بمسافة، والجُحْفَةُ على طريق الركب على أميال وهي الميقاتُ، وما أظن الآن بها عمارة، وإنما لم يكن الإحرام منها لأنها رائغة عن الطريق . وفي **البخاري** عن ابن عمر»لما فُتح هذان المِصران - يعني الكوفة[1] والبصرة - أتوا عمر فقالوا له: يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ حَدّ لأهل نَجْدٍ قَرْنَ[2] ، وهو جَوْرٌ عن طريقنا، وإنا إذا أردنا قرن شقَّ علينا . قال : فانظروا حَذوَها من طريقكم، فحدّ لهم ذات عِرْقٍ "[3]، وإنما لم يترك الإحرامَ إلى موضع يحاذي الجُحْفَةَ لعدم وجود الماء[4] هنالك . ومن سنة الإحرام أن يكون عُقْبَ الغُسل، على أنه ليس بين الموضعين من تفاوت المسافة ما يُتّقى فيه تقديمُ الإحرام قبل الميقات، وللقُرْبِ تأثير، وإن كان ابن الموّازِ روى عكس هذا من جَوازِ تقديمه من موضع بعيد، وكراهته من موضع قريب، ويدلّ على صحة ما قدمتُ أنه قد حد الميقاتَ بالجُحْفَة، ومرة بمَهْيَعَة. وقال صاحب **الدلائل**[5] : هي[6] قريبة من الجُحْفَة وإن كان أكثر الناس على خلاف ما حكى أن الجُحْفَةَ هي مهيعة، وكذلك في إحرام النبي ﷺ *289* تارة تذكر البيداء[7] والأكثر ذو الحليفة[8]، وما أوجب ذلك إلا تقارب

1- الكوفة : مدينة بأرض بابل من سواد العراق وسميت الكوفة لاستدارتها : انظر: **معجم البلدان**، 4/ 490.

2- قرن: ميقات أهل نجد ومنه أويس القرني، وهو موضع على مرحلتين من مكة انظر: **معجم البلدان** 3/ 332 .

3 - الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الحج ، باب ذات عرق لأهل العراق ،رقم 4582،1/ 556 . وذات عرق: ميقات أهل العراق وبينها وبين جدة سبعة وعشرون ميلا، بينه وبين مكة خمس مراحل. انظر: فض الله العمري ، **مسالك الإبصار**، تحقيق أحمد زكي القاهرة، 1958 ، ص 122.

4- **في رحلة العبدري** «إذ لا ماء» .

5 - هو **كتاب الدلائل على معاني الحديث بالشاهد والمثل** لقاسم بن ثابت السرقسطي المتوفى سنة 302هـ. انظر: ترجمته في **نفح الطيب** 2/ 49.

6- **في رحلة العبدري** «إنها» .

7 - البيداء: أرض ملساء بين مكة والمدينة تعد من الشرق أمام ذي الحليفة في أولها بئر. انظر: الحموي ، **معجم البلدان**، 1/ 523 .

8 – ذو الحليفة: هو الموضع الذي أحرم منه الرسول صلى الله عليه وسلم ويبعد عن المدينة بخمسة أميال وهو بين الحاذة وذات عرق انظر: الحموي ، **معجم البلدان**، 2/ 296 ؛ الحربي ، **المناسك**، 425.

الموضعين»[1]. ثم قال: «ذكر أهل الأخبار أن الجُحْفَةَ كان اسمها قديما مَهيعَة حتى نزلها بنوا عبيل[2] إخوة عاد في الدهر الأول حين أخرجتهم العمالقة من يثرب، فأتى عليهم سَيْلٌ أجْحفَهَمْ فسميت الجُحْفَةُ. وحكى القاضي عياض في **مشارقه** قولا: «أنها سميت الجُحْفَة من سَبَبِ سيل الجُحَافَ الذي أجْتَحَفَ الحجّاجَ عام ثمانين»[3] . ولا أدري كيف ينطلق اللسان بحكاية مثل هذا؛ وبعد أن يحكى كيف لا ينبّه عليه؛ وذلك أنها كانت تسمى الجُحْفَةَ قبل الإسلام وإلى الآن، وجاء ذكرُها في الأحاديث الصحيحة والأخبار الثابتة، وكان سيل الجحاف في إمارة عبد الملك بن مروان[4] فكيف سُميّت به قبل وجوده؟ وأغرب من ذلك أن سيل الجُحافِ كان بمكة واجتحفَ الحجّاجَ من المُحَصّبِ[5] وذهب بهم وبأمتعتهم، وهدم بمكة دورا كثيرة، ودخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة، وكان ذلك فجر[6] يوم التروية من عام ثمانين، فما شأنه والجُحْفَة حتى سميت به؟ هذا مما يكون الإضرابُ عنه صفحا أولى وبالله التوفيق»[7].

وفي **رحلة** أبي عبد المجيد الزبادي الفاسي: «وما زالت الجُحْفة ميقاتا لأهل مصر والشام حتى تعذر ذلك، ولست أدري الآن ما سبب تعذره، فصار الناس يحرمون اليوم من رابغ، والفقيه منهم يحافظ على استحضار

1 - العبدري، **رحلة**، 350-349.

2 - بنوا عبيل : قبيلة قد انقرضوا: انظر **لسان العرب**، 11/ 422 .

3 - عياض، **مشارق الأنوار**، دار التراث، بيروت، 1933، 1/ 168.

4 - عبد الملك بن مروان ، من أعظم «خلفاء» بني أمية توفي بدمشق سنة 86هـ. انظر ترجم له: السيوطي، **تاريخ الخلفاء** : 171 - 178؛ الديار بكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، القاهرة سنة 1283 هـ و1302هـ، 1/ 311 .

5 - المُحصب: موضع بين مكة ومنى ، قليل الارتفاع على يسار الطريق من شعب الحجون إلى منى، وهو خيف بني كنانة واسم المحصب مأخوذ من الحصباء وهي الحصى الدقيق الذي تتجمع فيه بسبب السيل . وليس لهذا المكان أهمية فيما يتعلق بمناسك الحج ، وإما هو منزل نزله رسول اللهﷺ ينتظر عائشة رضي الله عنها وهي تؤدي العمرة . انظر: **صحيح البخاري**، كتاب الحج باب قول الله تعالى « الحج أشهر معلومات . . .» رقم2، 1485/ 565 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 159 - 162؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 4/ 1192؛ الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 412.

6 - **رحلة العبدري**» سحر».

7 - العبدري، **رحلة**، 350 - 351.

النية ومتابعة التلبية[1] حتى يقابل الجُحفة»[2] . وقد علمت من كلام العبدري السبب.

قلت: والظاهر في الجواب أن الناس تركوا الإحرام بها لما بها من الحُمى التي انتقلت لها من المدينة بدعاء النبي ﷺ [3]. وقد أحرم منها الإمام جدنا أبو عبد الله ابن ناصر اقتداء في ذلك بالسنة فأصابته منها حمى . وأما ميلها عن الطريق فليس بعذر، على أنه لا كبير بُعْدٍ بينها وبين الطريق، فإن قيل: لو ترك الإحرام منها في العهد النبوي وفي زمان الصحابة والتابعين يكون الجواب ما ذكرتم، ولكن لم يترك إلا في هذه الأزمان المتأخرة؟ فالجواب [أما أولا : فالعهد النبوي][4] لم ينتظم به ركب شامي ولا مصري، وإنما الإحرام من ذي الحليفة لأهل المدينة ومن نحا نحوهم كأهل الشام اليوم لأنهم يمرون بالمدينة ذهابا وإيابا فيقع احرامهم من ميقاتها، وإنما حَدّها رسول الله ﷺ لأهل مصر والشام *290* لما يستقبل بعد زمانه، فيبقى النظر بعد ذهاب العصر النبوي وافتتاح مصر والشام في زمان الصحابة فمن بعدهم، ويجاب بأنهم مع ما عُلِمَ من ورعهم كانوا يستسهلون ما بها من الوباء فيحرمون منها، فلما جاء من بعدهم تركوا الرخصة في ذلك، والله أعلم .

وقول العبدري في الجُحْفة: «ما أظن الآن بها عمارة»[5] . جاء بعده صاحب **الروض المعطار** وزعم أن بها في زمانه عمارة فقال: «الجُحْفة قرية جامعة بينها وبين البحر ستة أميال، وبين مكة ستة وسبعون ميلا، وهي منزل عامر وآهل فيه خلق ولا سورعليه»، ثم قال: «وبين الجُحفة وعسفان غدير خُم . وعن الأصمعي قال: لم يولد بغدير خُم مولود فعاش إلى زمن

1- التلبية : هي قولك : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

2- الزبادي، **بلوغ المرام**، 2/ 130 .

3- الحديث رواه النسائي في **السنن الكبرى** ولفظه « اللهم حبب إلينا المدينة اللهم بارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها إلى المدينة وهي الجحفة» كتاب الطب باب الدعاء نقل الوباء رقم7519، 4/ 361 .

4- ساقط من د .

5 - العبدري، **رحلة**، 349.

الاحتلام إلا أن يرحل[1] عنها. وروى أن النبي ﷺ عَرّس في غدير خُم وقال هناك: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[2] وذلك منصرفه من حجة الوداع». ثم قال: «وغدير خُم على ثلاثة أميال من الجحفة يُسْرَة الطريق[3]، وهذا الغدير يصبّ فيه عين، وحولها شجر كثير ملتف وهي الغيضة التي تسمى خم، وبين الغدير والعين مسجد النبي ﷺ». قال: «وفي أول الجحفة مسجد النبي ﷺ، وقال عليه السلام: «اللهم انقل وباء[4] المدينة إلى مَهْيَعَة»[5]، ولما قدم رسول الله ﷺ وُعِكَ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، قالت عائشة رضي الله عنها: فدخلت عليه فقلت: يا أبتِ كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر ﷺ إذا أخذته الحمى يقول: (من الرجز)

كُلّ امْرِئ مُصَبَّحٌ فِــي أَهْلِــهِ   والمَـوْتُ أَدْنَى مِـنْ شِــرَاكِ نَعْلِه[6]

وكان بلال ﷺ إذا أُقْلِعَت عنه يرفع عقيرَتَهُ ويقول: (من الطويل)

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَــةً   بِـوَادٍ وَحَـوْلِي إِذْخِـرُ[7] وَجَلِيــلُ
وهَـلْ أَرِدْنَ يَوْمًا مِيَـاهَ مَجَنَّــةٍ   وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِـي شَامَـةٌ وَطَفِيـلُ[8]

قالت عائشة رضي الله عنها: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللهم

1- في **الروض** «يتحول».

2- الحديث أخرجه النسائي في **السنن الكبرى**، كتاب الإمامة والجماعة، باب قول النبي ﷺ من كنت وليه فعلي وليه، رقم8464، 5/ 130.

3- في **الروض** «عن الطريق».

4- بياض في د.

5- الحديث رواه النسائي في **السنن الكبرى** ولفظه «اللهم حبب إلينا المدينة اللهم بارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها إلى المدينة وهي الجحفة» كتاب الطب، باب الدعاء نقل الوباء رقم7519 4/ 361.

6- ينظر: **سيرة ابن هشام**:2/ 179؛ **صحيح البخاري**، كتاب الوضوء باب كراهية النبي ﷺ أن تُعرى المدينة رقم 1790، 2/ 667، و كتاب المرضى، باب عيادة النساء والرجال رقم5330، 5/ 2141.

7- في د «اذخير».

8- ينظر: **سيرة ابن هشام**: 2/ 179؛ **صحيح البخاري**، كتاب الوضوء باب كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تُعرى المدينة رقم 1790، 2/ 667، و كتاب المرضى، باب عيادة النساء والرجال رقم5330، 5/ 2141.

حبب إلينا المدينة كحبِّنا مكة أو أشد، وصَحِّحْها وانقل حماها إلى الجُحْفة»[1]»[2].
قال أهل التاريخ فكانت إذا مر بها حتى الطائر سقط مما بها من الوخم والوباء.

رجوع، ثم تابعنا السير ملبين *291* صارخين بها فرحين، فلما تجاوزنا الرمال المسماة بالقرينات الطوال، وأخذنا في الأرض الصلبة لاحت لنا من بطن هرشى[3] الأطلال وفيها يقول الأول: (من الطويل)

خُذَا بَطْنَ هَرْشَى أَوْ قِفَاهَا فَإِنَّـهُ ... كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[4]

وبطن معناه: واد وهرشى[5] ثنية في الجبل. قال في **القاموس**: «قرب الجحفة» هـ[6]. والمعنى الوادي الجاري من هذه الثنية - وسيأتي الكلام عليها إذ مررنا عليها في الرجعة - ثم نزلنا قُدَيدًا وقد مضى من النهار بعده ثلاث ساعات وخمسة أدراج وهو واد بينه وبين البحر خمسة أميال، به أحشاش وأخصاص، وبه بئر لها صهريج، ماؤها ليس بذلك، بل أقبح من ماء رابغ، تتعرض فيه الأعراب بسوق، وبه دلاع وبطيخ كثير، وفيه يقول الشاعر: (من الخفيف)

قَدْ نَزَلْنَـا بِطَـرِيق[7] لِقُدَيْـدِ ... وَدَخَلْنَـا حِمَـاكَ نَرْجُـو الحِمَايَـةْ
فَتَفَضَّـلْ عَلَـى عَبِيـدٍ وَفُـودٍ ... مِنْكَ يَرْجُو دَفْعَ العَنَـا بِالعِنَايَـةْ

قال في **الروض المعطار**: «قُدَيْد بين مكة والمدينة، بينها وبين الجُحفة سبعة وعشرون ميلا وهو حصن صغير، فيه أخلاط من العرب، بها[8] نخيلات يعيشون منها، وبينه وبين البحر خمسة أميال، وبقرية قديد كانت للأوس

1- نفسه.

2- الحميري، **الروض**...، 156 - 157.

3- هَرْشَى: جبل من بلاد تهامة وهو على ملتقى بلاد الشام والمدينة وهي قريبة من الجحفة. انظر: الحميري، **الروض**...، 592؛ البكري، **معجم ما استعجم** 4/ 1350؛ الحموي، **معجم البلدان** 5/ 397.

4- البيت لعقيل بن علفة انظر: الأصفهاني، **الأغاني**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، 12/ 262.

5- في خ «هرشا».

6- **القاموس**: 1/ 787.

7- في خ «طارق».

8- في **الروض** «لها».

والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب [مناة][1] ، فبعث إليها رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب ، ويقال علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فهدمها.
وبها مات مُسْلم بن عقبة المرّي صاحب وقعة الحرة مُنْصَرفهُ عن المدينة بعد وقعة الحرة ، فإنه لما عمل بالمدينة ما عمل ، أخزاه الله ، توجه بجنده إلى مكة ، قاصدا حرب ابن الزبير ، فمات بقُدَيد لأربع بقين من محرم سنة أربع وستين بعد أن عهد إلى الحصين بن نُمير بالتوجه بالجيش إلى مكة لحرب ابن الزبير .
وقديد كثيرالماء والبساتين ، روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ صام حتى أتى قُدَيْدًا فأفطر حتى أتى مكة[2] . وسميت قُديدا لتقدد السيول بها .

وبقديد كانت وقعة الخارجي الذي يقال له طالب الحق مع أهل المدينة ، قالت امرأة ترثيهم (مجزوءالرجز)

يَـــا وَيْلَتَـــا وَيْـــلاً لِيـــــــهْ   أَفْنَـــتْ قُدَيـــدُ رِجَاليـــــــه

وهناك مات القاسم بن محمد حتف أنفه. وفي الكتب القديمة أن قديدا*292* هو الوادي الذي وقعت فيه الريح لسليمان عليه السلام ، وأنه هو الذي أتى فيه بصاحبة سبأ"[3] ، هـ .

قلت: وليس به الآن عمارة غير ما ذكرناه ، ولا نخل ولا بستان ولا ماء جار ولا راكد غير بئر- كما تقدم- نعم بساحته أراضي واسعة تصلح للزراعة لو كان بها ماء جار أوينزل بها ما يكفيها من الأمطار ، وعادة أهلها - كغالب أودية الحجاز- إنما يزرعون على ماء المطر في الأماكن التي يستنقع فيها الماء. وقد أخبرنا أن كثيرا منها ينبت بغير استنبات ، حتى أنهم يغرسون

1- ساقطة من ح ود .

2- في الحديث : «حتى بلغ الكديد ثم أفطر» وهو أصح وأثبت . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ الكَديدَ أفطر فأفطر الناس قال أبو عبد الله والكَديدُ ماء بين عُسْفان وقُدَيْد . أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الصوم باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر ، رقم 8422 ، 1/ 686 .

3- الحميري ، **الروض**. . . ، 454 - 455.

النخيل[1] في بطون الأودية على ما ينقع[2] بها من السيول فتصلح عليها، غير أن سائر نخل الحجاز لا يبلغ مبلغ غيره في الطول . قال في **الروض** في مادة الجحفة: «وبقديد خيمتي أم معبد الخزاعية، بل بينهما ميلان»[3] . قال الشيخ أبو سالم: «وسألنا عن موضع مناة التي بالمشلل حَذوَ قُديد هل يعرفه أحد؟ فلم نجد أحدا يعرفه والحمد لله الذي هدم رسوم الطواغيت، حتى لا يبقى أحد يعرف حتى أمكنتها»[4] .

رجوع، ثم منه وقد مضى من نهارنا ست ساعات، ومررنا اصفرارا بعقبة السكر، في جبل صغير ذي حرة ورمال، وقد سُوّيت ونُحِّيَتْ، ومع ذلك قاست الإبل بها شدة[5] عظيمة وهلك بسببها من الإبل شرذمة، وفيها يقول الصفدي وما أحسنه ! (من السريع)

كَـمْ جَمَـلٍ مُنْتَصِـبٍ لِلشّقَـا … مَـا جَـرّهُ الجَمّـالُ إلاّ انْكَسَـرْ
وَكَانَ فِي الرَّكْـبِ يُـرَى مُبْتَـدَا … فَمَـا لَـهُ مِـنْ بَعْدِ هَـذَا خَبَـرْ

وبني مسجد صغير بجانبها، وأكثر الناس اليوم خصوصا أهل مصر يجلبون السكر من مصر بالقصد يشربوه هنا، ويأثرون في ذلك أثرا لا أصل له، يزعمون أن رمل هذا المحل[6] انقلب للصحابة سكرا فشربوه، وهذا نظير ما تقدم في الوقدة ليلة مبيتهم ببدر .

وفي **الرحلة العبدرية**: «الناس يقصدون هذه العقبة بشرب السّويق، ويستصحبونه برسم ذلك من مصر، ويخلطونه مع السكر، ويسمونها عقبة السويق . وأصحاب مصر يسقونه الناس هناك كثيرا، ويذكرون[7] أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يكن معهم طعام، فأخذ من رملها وأعطاهم إياه فشربوه

1- في خ ود «النخل».

2- في د «يقع».

3- في **الروض**: « وبقرب غدير خم موضع خيمتي أم معبد الخزاعية ، وقديد ميلان». ص : 156.

4- العياشي، **الرحلة**:1/ 186 .

5- في خ «مشقة».

6- في خ «الجبل».

7 - في **رحلة العبدري** «يذكر» .

سويقا، ولم أقف على هذا فيما وقفت عليه من معجزاته ﷺ، وما هو ببعيد في حقه، والله أعلم»[1].

ثم نزلنا خُلَيْصًا[2] قرب*293* غيبوبة الشفق، بقدرِ ما تعشينا وعلفنا الدواب، وما مضى من الليل الثلث حتى ارتحلنا من أجل أنّا وجدنا الركب الشامي في ارتحال منها، ولم يبق[3] من البركة العظيمة المبنية في صورة صهريج عظيم، كاد يغرق به من لا يحسن العوم[4]، تصب إليه عين عذبة قطرة ماء. ووجدنا كثرة الأعراب هناك تعرضت للأركاب، فخاف الناس السرقة والنهب من كثرة الاختلاط، واستقى الناس من الآبار الكفاية، وزايلوا المحل لما به في الوقت من الإذاية.

قال العبدري: «وخُلَيْص قلعة منيعة على شرف مرتفع، ولها نخل كثير، وماء جار طيب، وصاحبها من الشرفاء مستبدٌ بها، وهو رجل صالح محبّ للحجاج[5]، مكرم لهم، وإذا نزل الركب به تلقاهم وأحسن مثواهم»[6]. والقرية اليوم خالية، ما بقي إلا أثر أنقاضها، وبالمكان ضعفاء من الشرفاء أهل البيت، وربما تعدّى عليهم الأعراب، يسكنون الأخصاص والشعاب، وربما بنوا بنيانا ضعيفا.

وبالجملة فالمكان عليه طلاوة وقد كساه البهاء، وينشرح فيه الصدر كل الانشراح، مع ما هو عليه من توفر أسباب العمران، من مياه عذبة وأرض خصبة، يصلح بها الزرع وأنواع المقاثي، وبه آبار كثيرة مطوية بالحجارة قد بلغت النهاية في العذوبة والخفة، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها[7] وهو خير الوارثين[8].

---

1 – العبدري، **رحلة**: 352.

2 – خليص: حصن بين مكة والمدينة: خليص: انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 387.

3– مطموسة في ج.

4– ساقطة من د.

5– في **رحلة العبدري** «في الحجاج.»

6 – العبدري، **رحلة**، 351.

7– استعار من الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مريم :40.

8 – استعارة من الآية. ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾الأنبياء: 89.

وفي خُليص يقول الإمام الصفدي[1] رحمه الله تعالى: (من المجتث)

يَقــولُ سَائِــقُ رَكْــبِـي وَلاتَ حِــينَ مَنَــاص
لقَـــدْ بُليــنَــا بِــدَرْبٍ يَطولُ يَــوْمَ القصَــاصِ
فقلتُ: جــيء بــي خُلَيْص وابْشِرْ بِحُسْــن الْخَــلاصِ

[ثم أزمعنا السير في غيضة ذات أشجار ملتفة من الطرفا وغيرها، وفي خلالها مزارع حتى نزلنا مدرج عثمان، ثنية يُهْبَطُ منها إلى عُسفان[2] وهي شاقة لولا أنها بُنيتْ ولقِطت أحجارها وسُويَتْ، مع ما هي عليه من بعض الطول، وبجانبها مسجد صغير، أثر فيه السيل، فكاد عن مكانه][3] أن يزول.
وفيها الصفدي يقول وهو والله سيف مسلول: (من الطويل)

طَوَيْنَا الْفلا نَبْغِي الوُصُولَ لِمَكّةٍ فنَاحَتْ عَلَيْنَا الْوِرْق في عَذْبِ الْبَانِ
وَكَمْ مُدْرِجٍ قَدْ رَاحَ فِي كفَنِ الْبلا لِيَوْمِ التَّلاقِ فِــي مَدْرَجِ عُثمَــانِ

وكأنه يصفها قبل تسويتها. ثم لا أدري من عثمان الذي سواها، وبنى بها*294*، وما هوإلا ملك من الملوك.

فلما قطعنا العقبة، نزلنا عُسفان في الساعة الأولى من النهار، وشربنا من الماء أعْذبَهُ، وبها آبار متقنة، قليلة الماء، غير صاحبة التّفْل النبوي فهي بحر لا ينزح، وشفاء من كل داء به الإنسان يُبْرَح، ولما بحثت عنها على التعيين، فقال من اشتبهت عليه قالوا: غارت أو بها ماء ضنين، حملتني عليها الغيرة فأنشدت ارتجالا جهرة: (من المجتث)

عُسْفَــانُ رِدْ وتَــضَلَّــعْ مِنْــهُ فَــفِيــه شِفَــاءُ
وَلا تقُــلْ قالُــوا غَارَتْ ريـــقُ النَّــبِــيِّ رَوَاءُ

فذيلها الزلال الصافي، والخِلُّ الوافي، القاضي أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان الدمناتي بقوله: (من المجتث)

1- في ج ود «العبدري».
2- ينظر: الحموي، **معجم البلدان** 4/ 121 - 122.
3- بياض في د.

مِـــنْ أُصْبُعَـيْهِ جُيُـوشًا سَقَـــاهَا وَهِـــيَ ظَمَـاءُ
وَالضَّـرْعُ دَرَّتْ لَدَيْــهِ وَكَـانَ مِنْـهَا الغِـذَاءُ
فَكَـيْفَ بالبِئْـرِ حَتَّــى غَـارَتْ فَقَالُـوا جَفَـاءُ

وقد شربت منها والحمد لله تبركا، وفيها يقول الشاعر: (من الخفيف)

إِنَّ عُسْفَانَ تَسَامَتْ رِفْعَـةً وَعَلَتْ قَدْرًا عَلَى كُلِّ القُـرَى
وَبِهَا بِئْرُ النَّبِـيِّ المُصْطَفَى وَخَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَقَرَا
فَـإِذَا جِئْتَ لَهَا كُنْ مُحْسِنًا فَعَسَى تُحْسَبُ مِنْ أَهْلِ القُرَى

تـنـبـيـه: في **الرحلة العبدرية** ما نصه: «والمُدرّجُ على نصف يوم من خُلَيص، وهو مضيق بين جبلين، وفي موضع منه بلاط على صورة الدّرَج، وأثر عمارة قديمة، وهنالك بئر تعرف بئر علي، ويقولون: إن علي بن أبي طالب ﷺ أحدثها هناك»[1]، هـ. قلت: لا ذكر لبئر علي في هذا المكان، وإنما به البئر التي تفل فيها رسول الله ﷺ في عُسفان.

وقال في **الروض المعطار**: «عُسفان بينها وبين مكة تسعة وأربعون ميلا، وبينها وبين البحر عشرة أميال، وفيها مياه عذبة في الآبار[2]، قال كثير[3]: (من الخفيف)

قِلْنَ عُسْفَانَ ثُمَّ رُحْنَ عِشَاءً قَـاطِعَاتٍ ثَنِيَّةً مِـنْ غَزَالِ[4]

وكان تُبّع ملك اليمن أتاه نفر من هذيل، وهو بين عُسْفان وأَمَجَ[5]، فقالوا له: أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة، يريدون الكعبة، إلى آخر

1 - العبدري، **رحلة**، 352.

2 - في **الروض** « مياه آبار عذبة» .

3- كثير بن عبد الرحمان بن الأسود بن مليح، شاعر من أهل المدينة اشتهر بحبه لعزة بنت حميل، فاشتهر بها. توفي بالحجاز سنة 105هـ/ 723م.

4 - **ديوان كثير عزة**، تحقيق د احسان عباس، بيروت، 1971، ص 396.

5- أَمَج : بفتح أوله وثانيه والجيم، قرية جامعة ما بين مكة والمدينة على أميال من قديد، وهي كثيرة المزارع وأهلها خزاعة. انظر : الحميري، **الروض**. . .، 30 - 31.

القصة، ذكرها ابن إسحاق[1] . وربما كان في عُسفان غدران بين أراك وأم غيلان»[2] . ربما حصن مبنى بالحجر على تل عن يمين الذاهب إلى مكة خال الآن من*295* العمارة، وكانت من قبل مسكن[3] جهينة كما قبلها من البلاد، والآن غلبتهم قبيلة حرب أهل الطغيان والفساد .

فـائـدة : أخرج الإمام أحمد والبيهقي وأبو داود الطيالسي وغيرهم بأسانيدهم أن النبي ﷺ لما خرج يغزو بني لحيان، وهم قوم من جهينة، صل بأصحابه صلاة الخوف وهي أول صلاة خوف صلاها بعُسفان، ثم صلاها مرة أخرى بأرض بني سليم[4] . بين ذلك الحافظ ابن كثير في تاريخه المسمى **بالبداية والنهاية**[5] .

رجوع، ثم منه وقد مضى من نهارنا ست ساعات نمشي في أرض متسعة خصبة، تجتمع إليها سيول كثيرة، وتزرع بها مقاثي متنوعة تسمى بدقة، ثم مررنا بالسيل الذي بآخرها وهو معطل لم يبق به إلا البناء، ثم بواد العميان سمي بذلك لكون الفقراء من سكان مكة يتعرضون فيه للركبان طلبا للصدقة، ويسمى أيضا محطب العميان. وبالجملة فأهل مكة إن حصل لهم الأمن يتلقون منه الحاج، ومنه يحتطبون، ولما به من الكلأ يرتفقون لخروجه عن الحرم الشريف، وربما احتطبوا كالحجاج فيما بين التنعيم[6] والواد الشريف لأن مكة شجرها لا يعضد، ورطب أعوادها لا يخضد، وفي ذلك يقول الصفدي : (مجزوء الرمل)

1 - ينظر: ابن هشام، **السيرة**. . .، 1/ 32 - 33 .

2 - الحميري، **الروض**. . .، 421.

3- في د «يسكن» .

4- **سنن الكبرى** للبيهقي كتاب صلاة الخوف رقم 1938، 1/ 597 ؛ **مسند** الإمام أحمد، 1/ 60.

5- ابن كثير، **البداية والنهاية**، 4/ 94.

6- التّنعيم : موضع بمكة في الحل وهو حد الحرم من جهة المدينة على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة وهو بين مكة وسرف، وهو ليس من الحرم ومنه يحرم من أراد العمرة من المدينة وهو الذي أمر الرسول عليه السلام عبد الرحمان بن أبي بكر أن يعمر منه عائشة رضي الله عنها .وإنما سمي التنعيم لأن جبلا عن يمينه يقال له نعيم وآخر عن شماله يقال له ناعم والوادي نعمان . انظر : الحموي، **معجم البلدان** 2/ 49 ؛ الحميري، **الروض**. . .، 138 ؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 1/ 321.

يَـا خلِيلِـي اسْمَعَانِـــي وَالْحَاطِـبُ المَحَاطِـبِ
وَخُـذَا مَـا رَاحَ مِنِّــي وَاحْـذَرا شَــرَّ الْقَاطِـبِ

وبه وقع بنو سعد على من تقدم من قديد لمكة من بغالة أهل فاس المجاورين بمصر ليلا، فجردوا وقتلوا وجرحوا وسلم منهم من سلمه الله، وليحذر من مثل هذا التقدم على الركب، فإن فيه – قديما وحديثا – آفة عظيمة، نسأل الله تعالى السلامة من كل بلية مصحوبة بالصحة والعافية.

ثم سرنا وما طلع الفجر حتى مررنا بمُرّ الظهران وهو بطن مر[1] و الوادي الشريف، ويعرف اليوم عند العامة من الحجاج بوادي فاطمة، ولا أدري ما وجه نسبته إليها بعد البحث عن ذلك، وعند أهل مكة بالوادي علما بالغلبة، وبينه وبين مكة يوم ونصف، وضبطه بعضهم ستة عشر ميلا. وبالجملة فهو وادي كبير به قرى ونخيل وبساتين وفواكه وخضر، وعيون عذبة جارية، وآبار منهمرة نميرة، تقام به سوق عظيمة، وهو من أعمال مكة، ومنه كالطائف يحمل لمكة أودية من الفواكه والخضر.

قال في **الروض المعطار** *296* : «بينه وبين عُسفان أربعة وثلاثون ميلا، وبينه وبين قبر ميمونة[2] في شرق أربعة أميال، وبعده على ستة أميال، يحرم أهل مكة، وهو حد الحرم، وحوله أعلام منصوبة من جوانبه، ومن بطن مر إلى مكة[3] ستة عشرة ميلا»[4]. ومنه «وردَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ترك طواف وداع البيت، سمي مر لمرارة مائه»[5]، هـ.

قلت: ما رأينا به نحن إلا المياه العذبة الدافقة، فإن كان به غيرها من المياه فمسلم له قوله. ثم قال: «وهناك نزل على النبي ﷺ صُلح قريش؛ وبه حصن

1- بطن مر: واد من عمل مكة عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران واديا واحدا وكان الرحلة الأخيرة في طريق الحاج القادم من مصر إلى مكة انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 449؛ العبدري، **رحلة**، 352.

2- ميمونة بنت الحارث بن حَزن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: ابن هشام، **سيرة**، 4/ 227.

3- في **الروض** «بكة».

4- الحميري، **الروض**...، 93.

5- م. **س**:531.

كبير يسمى البوقة، وهو مسكن شاكر بن علي بن جعفر الحسني أمير مكة، به ضياع كثيرة لأهل مكة وبه تخزعت خزاعة عن إخوتها فبقيت بمكة وسارت إخوتها إلى الشام أيام سيل العرم، قال حسان بن ثابت : (من الطويل)

لَمَّا نَزَلْنَا[1] ببَطْــنَ مُرّ تَخَزَّعَــتْ ... خُزَاعَةُ عَنَّـا في الْحُلُولِ[2] الْكَرَاكِرِ[3]

ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزل أزد عاص[4]، ونزلت خزاعة مرًّا « مختصرا من مادة مر الظهران ومن مادة بطن مر[5] . وبالجملة يكاد الإنسان إن وصله يطير فرحا وسرورا مع ما هو عليه من مجاورة الديار، ومشاهدة تلك المشاهد والآثار، قال الشاعر[6] : (من الوافر)

وَأَقْرَبْ[7] مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا ... إِذَا دَنَـتِ الدِّيَـارُ مِــنَ الدِّيَــارِ

وقال الآخر : (من السريع)

يَاَ حَبَّــذَا وَاد فَسِيـــحُ الفَضـَـا ... أَرِيجُــهُ قَـدْ عَطّــرَ النَّــادِي

كَمْ فِيـهِ مِـنْ فَاغِيَةٍ[8] قَدْ زَكَــتْ ... وَفِيـهِ زَهْرُ الفُــلّ وَالكَــادِي[9]

وَكَــمْ ثِــمَارٍ وَزُرُوعٍ بِــــهِ ... والمَاءُ فِيــهِ يُنْعِــشُ الصَّـادِي[10]

قُلْتُ لِخِــلّي حِينَ شَاهَدْتُــهُ ... وَلاَحَ لِي نُــورُ السّنَا البَــادِي

هَلْ دَارُ لَيْلَى قَــدْ تَدَانَتْ لَنَــا ... فَقَالَ لِي: إِنَّــكَ بِالــــوَادِي[11]

1- في ديوان حسان بن ثابت «هبطنا».

2- في م . س، «بالجموع».

3- **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1419/ 1998. ص 105.

4- عاص: واد بين مكة والمدينة . انظر : الحميري، **الروض**. . .، 405 .

5- م . **س**، 531 – 532.

6- هو ابن حجاج (وأبرح) أبي عبد الله بن أحمد بن الحجاج، انظر ترجمته و شعره: **يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر**:ابو منصور الثعالبي:3/ 35 – 116.

7- في **ملء العيبة** «وأبرح» ، والبيت بدون نسبة . 5/ 17 .

8- الفاغية : نور كل ما له رائحة طيبة.

9- الكادي : شجر طيب الريح .

10- الصادي : العطشان .

11- البيت نسب لمحمد البكري في **الرحلة العياشية**، 1/ 188 وبدون نسبة في **بلوغ المرام**، 2/ 134 –135 .

وهذا الوادي أيضا هو المعروف بمنزل أبي عروة. وفيه يقول الصفدي: (من السريع)

ضمْ عَلَيْنَـا الْعَيْشَ زُرِ الصَّفَـا	وَحِـقْ مَـا نَكدَ فِـي كُـلِّ بَـالِ
لَمَّـا نَزَلْنَـا فِـي أبِـي عُـرْوَةَ	وَحْلَـهُ أزْرَارُ تِلْكَ الْجِبَـالِ

ولم ننزل به، وأسرعنا السير فوصلنا سرف[1] وقد حلت النافلة، وزرنا به على قارعة الطريق قبر أم المؤمنين ميمونة الهلالية في قبة بجنبها مسجد صغير، وصهريج يجتمع به ماء المطر، وبعض أهل مكة يخرج إلى هذا الموضع في تلقي الحاج وفي انتهاز فرصة البيع والشراء، ومن غريب الاتفاق أن بهذا الوادي بنى بها ﷺ مرجعه من مكة حين قضى نسكه من عمرة القضية[2]، وقد كان عقد عليها وهو محرم[3] حسبما *297* تضافرت بذلك الروايات. وقيل عقد عليها وهما حالان. قال ابن إسحاق: «زوجه أياها العباس بن عبد المطلب»[4]. وقال ابن هشام: «كانت جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس، فزوجها منه ﷺ واصدقها عنه أربعمائة درهم»[5]. وذكر السهيلي أنه ما أن انتهت إليها خطبة النبي ﷺ وهي راكبة على جمل، قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ. قال: وفيها نزلت الآية: ﴿وَامْرَأَةً مُّومِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾الآية[6]. وفي هذا

1- سرف: موضع على ستة أميال من مكة. انظر: الحميري، **الروض**...، 312؛ البكري، **معجم ما استعجم** 3/ 735. الحموي، **معجم البلدان** 3/ 212.

2- عمرة القضية أو القضاء: العمرة التي قام بها رسول الله ﷺ سنة سبع للهجرة بعد صلح الحديبية. وسميت بالمكان الذي صدته قريش منه، ويقال لها عمرة القصاص؛ لأن قريش صدوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقتص رسول الله ﷺ منهم، فدخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه من سنة سبع. وأما تسميتها بعمرة القضاء فلأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها رسول الله عليه السلام بالحديبية. ويقال لها غزوة الأسن أيضا. انظر: ابن هشام، **سيرة**، 4/ 3؛ الديار البكري، **تاريخ الخميس**، 2/ 62.

3- ابن هشام، **السيرة**...، 4/ 5

4- م. س.

5- ن. م.

6- الأحزاب: 50.

الموضع ماتت. وقال في **الروض المعطار** ناقلا عن البكري[1] : «لأنها اعتلّت بمكة، فقالت : أخرجوني من مكة فإن رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بمكة، فحملوها حتى أتوا بها سرفا إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القبة، فماتت هناك سنة ثمان وثلاثين»[2] ، أو إحدى وخمسين أو ثلاث وستين أو ست وستين[3]، وصلى عليها ابن عباس، ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم[4] وعبد الله بن شداد[5]، وبنو[6] أخواتها، وعبيد الله الخولاني[7] وكان يتيما في حجرها.

«وهناك حفر قبرها[8] . وبسُرف كان منزل قيس بن ذريح الكناني الشاعر، ولذلك قال حين بانت[9] لُبْنَى عنه: (من البسيط)

الحَمْدُ لله قد أمْسَتْ مُجَـاوِرَةً … أهْلَ الْعَقِيـق وَأَمْسَيْنَا عَلَى سُرِفِ
حَيَّ يَمَانُـونَ وَالْبَطْحَـاءُ مَنْزِلَنَـا … هَذَا لَعَمْرُكَ شَـكْلٌ غَيْرُ مُـؤْتلِفِ
قَدْ كُنْـتُ آلَيْتُ جُهْـدًا لا أُفَارِقُهَـا … أُفٍ لأَكْـثَرِ ذاكَ الْقِيلِ وَالْحَـلِفِ
حَتَى تكَنَّفَنِي الْوَاشُـونَ فَافْتَلَتَـتْ … لاَ تَأْمَنَنَّ أَبَدًا إِفْلاتَ مُـكْتَنَفِ[10]

1- البكري، **معجم ما استعجم**، 3/ 735 – 736 .

2- الحميري، **الروض**. . . ، 312 .

3- هذه الأقوال الثلاثة في **الاستيعاب**، 4/ 1918 .

4- يزيد بن العصم العوامري من التابعين، توفي سنة 103 هـ. انظر : أبو نعيم، **حلية الأولياء**، 4/ 97 .

5- عبد الله بن شداد الليثي ، ولد على عهد النبي عليه السلام، توفي سنة 82 هـ . انظر : ابن عبد البر، **الاستيعاب**. . . ، 3/ 926 .

6- في **بلوغ المرام** «وهم بنو» .

7- عبيد الله الخولاني، كان قومه مروا بالمدينة وتركوه وهو صغير وأتوا به ميمونة. انظر : البخاري، **التاريخ الكبير**، 5/ 379 .

8- في **الروض** «عند قبرها سقاية».

9- في م . **س** «نقلت».

10- النقل عن البكري .

وبسرف مات عدوالله تعالى أُبيٌّ بن خلف بسبب طعنة النبي ﷺ له بالحربة مرجعه من أُحُد[1] في النحر[2] المشهور ذكره ابن إسحاق[3] "[4] ، هـ .

رجوع ، ثم سرنا تاركين الجِعرانة[5] محل الإحرام في القديم في جبال عن يسارنا لناحية الطائف[6] وهي إلى مكة أدنى ، وبها قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين ، ومنها أحرم بعمرته في وجهته تلك قالوا: دخل رسول الله ﷺ الجِعرانة فجاء إلى المسجد فركع ، ثم أحرم ، ثم استوى على راحلته – الحديث[7] – وربما أحرم منها اليوم النادر من الناس على خوف من متلصصة الأعراب . وسرنا حتى مررنا بالتنعيم *298* ضحوة ، وهو على فرسخين ، قيل أوثلاثة أميال أو أربعة من مكة ، سمى بذلك لأن الجبل الذي عن يمينه يسمى نُعَيْم ، عن يساره ناعِم والوادي نَعْمان ، قاله في **القاموس**[8] . ثم قال: «ونَعْمان ، كسَبْحان أيضا ، واد وراء عرفة ، وهو نعمانُ الأرك ، وواد قرب الكوفة ، وواد بأرض الشام قرب الفرات ، وواد بالتنعيم ، وموضعان آخران»[9] ، هـ.

وفي **الروض المعطار**: «نَعْمان– بفتح أوله– وادي عرفة دونها إلى مِنى ، وهو كثير الأرك ، قال الشاعر[10] : (من الطويل)

1 – في **الروض** «بدر» وهو خطأ .

2– في م . س «الخبر» .

3– ينظر: ابن هشام ، **السيرة**. . . ، 3/ 37 .

4– الحميري ، **الروض**، 312.

5– الجِعرانة : موضع بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب ، ومنها كانت عمرة النبي ﷺ في ذي القعدة حين قسم غنائم حنين. انظر : **صحيح البخاري** كتاب الإمام الناس باب من قسم الغنيمة في غزوه وسفره، رقم 29003/ 1116 ؛ البكري ، **معجم ما استعجم**، 1/ 384. الحموي ، **معجم البلدان**، 2/ 142.

6 – مدينة صغيرة إلى جنوب مكة . أنظر : الحموي ، **معجم البلدان** ، 4/ 8 – 9 .

7– الحديث أخرجه أبو داود في أول كتاب المناسك ، باب المهلة بالعمرة تحيظ فيدركها الحج ، رقم 2، 1996/ 206 .

8– **القاموس** : 3/ 288.

9 – م . س .

10 – هو محمدعبد الله النميري شاعر غزل من شعراء الدولة الأموية ، وكان يهوى زينب أخت الحجاج ، وله أشعار يشبب بها فيها. انظر : الحميري ، **الروض**، 578 هامش 1 ؛ الأصفهاني، **الأغاني**، 6/ 180 .

تَضَوّعْ مِسْكًا[1] بَطْنُ نَعْمانَ إذْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ "[2]

فأنظره، مع **القاموس**[3] فظاهره أن نعْمان وراء عرفة لناحية الطائف عكس ما في **الروض**. إلا أن يقال وراء من الأضداد على حد: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾[4] أي أمامهم.

وفي نعمان الأراك[5]. يقول الشاعر: (من الطويل)

تَخَيّرْتُ مِنْ نَعْمَانَ عُودَ أَرَاكَةٍ لِهِنْدٍ وَلَكِنْ مَنْ يُبَلِّغُهَا هِنْدَا[6]

وفيه يقول أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة التجيبي النسب، السرقسطي الدار[7] يتغزل:

(من الطويل)

أَسُكّانَ نَعْمَانَ الأَرَاكِ تَيَقّنُوا بِأَنّكُمُ فِي رَبْعِ قَلْبِي سُكّانُ
وَدُومُوا عَلَى حِفْظِ الوِدَادِ فَطَالَمَا بُلِينَا بِأَقْوَامٍ إِذَا اسْتُحْفِظُوا خَانُوا
سَلُوا اللّيْلَ عَنّي إِذْ تَنَاءَتْ دِيَارُكُمْ هَلْ اكْتَحَلَتْ لِي فِيهِ بِالنّوْمِ أَجْفَانُ
وَهَلْ جُرِّدَتْ أَسْيَافُ بَرْقِ سَمَائِكُم فَكَانَتْ لَهَا إِلاّ جُفُونِي أَجْفَانُ[8]

وجبلا نعمان أحدهما عرفات والآخر غيره أضيف إليه لكونه بينهما.

1- تضوع المسك: تحرك وانتشرت رائحته.

2 - الحميري، **الروض**...، 578-577. وزينب المذكورة في البيت هي أخت الحجاج بن يوسف الثقفي. والبيت نسب لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفي في **الأغاني**، 6/ 203؛ و**فيات الأعيان**، 2/ 40.

3 - **القاموس**: 1/ 1502.

4 - الكهف 78.

5- في خ «الأرك».

6- ينسب لابن أبي الربيع في **معجم ما استعجم** 4/ 1316.

7 - محمد بن باجة وقيل ابن يحي بن باجة ابو بكر التجيبي الأندلسي السرقسطي، المعروف بابن الصائغ، فيلسوف وشاعر. انظر :ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4/ 429؛ الذهبي، **سيرأعلام**، 2/ 93.

8- الأبيات منسوبة لابن باجة التجيبي في **نفح الطيب** للمقري: 7/ 25-24.

يحكى أن امرأة نجدية تزوجها رجل تِهامي، وحملها إلى تِهامة[1] وأصابها حرها فقالت له: ما فعلت ريح كانت تأتينا بنجد، تعني الصبا[2] ؟ فقال لها : حل بيننا وبينها هذان الجبلان، فقالت له: (من الطويل)

أَيَا جَـبَلَـيْ نَعْمَـانَ باللهِ خلِّـيَا نَسِيمَ الصَّبَـا يَخْلُصُ[3] إليَّ نَسِيمُهَـا

أجدْ بَرْدَهَا أَوْ تشْفِ مِنِّي حَرارَةً علـي [كبِدٍ لَـمْ يَبْـقَ إلا صَميمُهَا][4]

رجوع[5] وبالتنعيم[6] يحرم الناس اليوم، أهل مكة وغيرهم لعمرة، وهو أدنى الحل للحرم . وفي الصحيح عن عائشة أنها اعتمرت به حين بعثها رسول الله ﷺ مع أخيها عبد الرحمان من مكة في حجة الوداع، لما قال له رسول الله ﷺ : «أردف أختك عائشة فأعمرها من التنعيم، فإذا هبطت من الأكمة فلتحرم، فإنها عمرة متقبلة»[7]. وفي الخبر أن ابن الزبير ﷺ لما فرغ من بناء الكعبة خلّقها من داخلها، وخارجها من أعلاها إلى أسفلها وكساها *299* وقال: من كانت لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل وإلا فلْيذْبَحْ شاة، وخرج الناس معه مشاةً حتى اعمروا من التنعيم شكرا لله عز وجل، ولم يُر يوم أكثر منه عتقا وصدقة وذبحا ونحرا، ونحر ابن الزبير مائة بدنة[8] .

وبه مساجد ثلاث مصطفة تنسب لعائشة ويقال: مساجد عائشة[9]، وهو المكان الذي ابتدأت منه الإحرام لعمرتها، وبقربه يُنْشأ اليوم الإحرام،

1- تهامة : سميت تهامة لتغير هوائها من قولهم تهم الدهن وتمه إذا تغير ريحه . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 63 ؛ الحميري، **الروض**. . . ، 141 - 142 .

2- الصبا : ريح تأتي من ناحية الشرق .

3- في د بياض. وخُليص : حصن بين مكة والمدينة . أنظر : العبدري، **رحلة**، 351 .

4- بياض في ح وساقط من ج و د . والحكاية في **بلوغ المرام** 2/ 152 .

5- بياض في ح .

6- في خ و ح »وبه«.

7- الحديث في **سنن ابي داود**، أول كتاب المناسك، باب المهلة، رقم1995، 2/ 206.

8- ينظر : الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 210 ؛ الحميري، **الروض**. . . ، 139.

9- لم يكن موجودا على عهد النبي (ص) بل بناه عبد الصمد بن علي عم المنصور العباسي (ت187) انظر: الحربي، **مناسك**، 347.

وتصلى به ركعتان، وهو الآن مسجد صغير متقن البناء، بجانبه يليه بركة ماء، وبه آبار عذبة، ومن عادة أهل مكة الخروج لملاقاة الركاب فتنصب هنالك أسواق ويخرج حتى الطباخون.

واعلم أن العامة اليوم إن مروا بسرف أشاروا عن يسارهم للجِعْرانة، وقالوا: هذه العمرة القديمة، وإن وصلوا التنعيم قالوا: هذه العمرة الجديدة، وهو كما قال الشيخ أبو سالم: «من باب تسمية الشيء باسم ما يقع فيه»[1]، على أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾[2] أي أماكن الصلوات، وسميت الأماكن بالصلوات تسمية للشيء باسم ما يقع فيه.

وسرنا حتى مررنا بين جبلين في مضيق وبه مشهد عن يمينك وأنت ذاهب إلى مكة، يقف الناس عنده للدعاء، يزعمون أن النبي ﷺ جلس فيه، فجاوزناه إلى الزاهر[3]: واد بين جبلين يسمى جنان مكة، وبه آبار كثيرة متقنة عذبة، وبعض الأشجار ومبان، وبه في سفح جبل عن يمينك وأنت ذاهب إلى مكة قبور للصحابة وغيرهم، يزعمون أن فيهم قبر سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد صح أنه مات بمكة بعد الحج، وقد بنى عليهم سلطان مكة في الوقت – السيد سرور – بنيانا عظيما وجعل عليه حاجبا، وكتب الباني على كل قبر اسم صاحبه. زرنا جميع ذلك بالنية، وإن قال الشيخ أبو سالم: «قيل أنه دفن خارجها بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد التي هاجر منه، فمن قائل أنه بهذا الوادي، ومن قائل أنه بالوادي الذي بطرف المحصّب وهو الذي شهده كثير من الناس إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه»[4].

---

1 – العياشي، **الرحلة** : 1/ 189.

2 – الحج : 38.

3– الزاهر : واد بمكة، انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 237.

4– العياشي، **الرحلة**، 1/ 190.

وفي **الروض المعطار**: «ذو طوى[1] عند مكة، فيه دفن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سنة ثلاث وستين[2]»[3]. وقيل بل دفن في فخ[4] – بالخاء المعجمة – من فوق من فجاج مكة، بينه وبين مكة *300* ثلاثة أميال، وقيل ستة. وفي الخبر أن رسول الله ﷺ اغتسل بفخ قبل دخوله[5]، وبه» كانت وقعة الحسين[6] وعقبة» قاله البكري[7]. وللشعراء فيها كلام.

وبفخ كانت مقابر المهاجرين من كل من جاور بمكة فمات فدفن هناك، وبهذا المكان تخيم الأركاب الشامية والمصرية قبل الوقوف وبعد الصدور من مكة حتى يجتمع الناس، خلاف العادة القديمة من التخييم بالمحصب وهو بطحاء مكة، عدا الشامي إذا صدر من مِنى فلا زال يخيم به، ثم ينتقل منه إلى الزاهر، وبه يغتسل الكثير من الناس لدخول مكة، بناء على أنه هو ذي طوى الذي بات به ﷺ واغتسل به، والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذي طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكة واد آخر، وهو الواد الذي وراء قُعَيقعان[8] وبأسفله الموضع المسمى بالشّبيكة[9] حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج

1 – ذو طوى : أحد أودية مكة على طريق المدينة وفيه توقف النبي ﷺ عند فتح مكة . أنظر : الأزرقي، **أخبار مكة** ، 2/ 297 ؛ البكري ، **معجم ما استعجم**، 3/ 896 ؛الحموي ، **معجم البلدان**، 4/ 45 ؛ العبدري ، **رحلة**، 353 ؛ **الاستبصار**: 4 .

2– في **الروض** «سبعين».

3– الحميري، **الروض**، 260.

4– فخ : موضع بينه وبين مكة ثلاثة أميال . انظر :البكري ، **معجم ما استعجم**، 3/ 1014 ؛ الحموي ، **معجم البلدان**، 4/ 237 ؛ العبدري ، **رحلة**، 353 .

5– الحديث أخرجه الدار قطني في **السنن** : «عن عمر أن رسول الله ﷺ أن رسول الله اغتسل بفخ قبل دخوله مكة «كتاب الحج ، كتاب الحج رقم 24، 2/ 221 .

6– أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، خرج يدعو إلى نفسه في ذي القعدة سنة 169 هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة في المدينة وخرج إلى مكة فلما كان بفخ لقيته جيوش بني العباس وقتل هو وجماعة من أتباعه . انظر: الحموي ، **معجم البلدان**، 4/ 237 – 238 .

7– البكري، **معجم ما استعجم**، 3/ 1015.

8– قعيقعان : جبل بينه وبين مكة اثنا عشر ميلا . انظر : الحموي ، **معجم البلدان** ، 4/ 379 ؛ البكري ، **معجم ما استعجم** ،3/ 1086 .

9– الشبيكة : موضع بين مكة والزاهر على طريق التنعيم . انظر : الحموي، **معجم البلدان** ،3/ 324 .

بأعلى هذا الواد، هو ذو طوى، وأسفله هو الشبيكة، فينبغي تأخير الغسل إليه خلافا لما عليه الجادة من الناس اليوم . ففي **الموطأ والبخاري**: «أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يبيت بذي طوى بين الثنيتين ويغتسل فيه، ثم يغدو منه إذا أصبح إلى مكة»[1] . زاد البخاري : ويذكرون أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك[2]. والثنيتان ثنية الحَصْحاص[3] وثنية مقبرة الحَجُون[4] ، ويقال المَعْلاة[5] وهي كداء[6] بالفتح .

قال الأزرقي في **تاريخ مكة**: «والمسجد الذي هناك بَنَتْه زُبَيْدَة[7] حيث نزل رسول الله ﷺ »[8]. وفي **البخاري** عن ابن عمر قال: «ومُصَلّى رسول الله ﷺ على أكَمَةٍ ليس في المسجد الذي بُنِي ثَمّ، ولكن أسفل من ذلك»[9].

وفي **الرحلة العبدرية** بعد الخلاف في محل ذي طوى وضبطه ما حاصله: «وإذا سار الركب من ثنية الحصحاص -حيث قبور المجاهدين[10]- على ذي طوى ردوا مكة يمينا وساروا يسرتها، وقد سترها عنهم الجبل

1 - **صحيح البخاري** كتابة العلم باب النزول بذي طوى قبل دخول مكة ، رقم 1678 ، 2/ 627 ؛ **الموطأ** ، رقم 705 ، 1/ 324.

2 - **صحيح البخاري** ، كتابة العلم باب الاغتسال عند دخول مكة ، رقم 2، 1498/ 570.

3 - الحصحاص : جبا مشرف على ذي طوى على بطن مكة **رحلة** العبدري: الحصحاص والتصحيح من **أخبار مكة** للفاكهي: 2/ 299 ؛ الحموي ، **معجم البلدان**، ج/ 2/ 263 ؛البكري ، **معجم ما استعجم** ، 1/ 451 .

4- الحجون : موضع بمكة وهو الجبل المشرف حذاء مسجد البيعة ، ومنه دخل النبي إلى مكة حين فتحها . انظر: الحموي ، **معجم البلدان**، 2/ 225 ؛ البكري ، **معجم ما استعجم**، 1/ 427 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة** ، 2/ 273 ؛ الفاكهي ، **أخبار مكة** ، 4/ 143

5- المعلاة : موضع بين مكة وبدر . انظر :الحموي ، **معجم البلدان** ، 5/ 158 ؛

6 - كداء: بأعلى مكة وهي التي دخل منها النبي ﷺ، وهي العقبة الصغرى التي بأعلى مكة وهي التي تهبط منها الى الابطح و المقبرة على يسارك ، انظر: الحموي ، **معجم البلدان** ، 4/ 439 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة** ، 2/ 297 ؛ عياض ، **مشارق الأنوار**، 1/ 351.

7 - زبيدة الهاشمية العباسية زوجة هارون الرشيد وبنت عمه ، وإليها تنسب عين زبيدة بمكة. توفيت ببغداد سنة 216 هـ. ترجمتها في : **تاريخ بغداد**، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 14/ 433 ؛عمر كحالة، **أعلام النساء**، طبعة دمشق سنة 1359 هـ ، 1/ 430 .

8- الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 203 .

9- **صحيح البخاري** كتاب الصلاة باب المساجد التي في طرق المدينة ، رقم 470 1/ 183 .

10- ليست في **رحلة العبدري** .

المطل عليها، حتى يدوروا من ورائها، ويدخلون من ناحية الشرق[1] على ثنية كداء[2] التي بأعلى مكة وهي ثنية المقبرة، ويهبط منها على مقابر مكة وهي الحجون، وقيل: الحجون الجبل المشرف عليها، ويهبط منها على المُحصب وهو الأبطحُ، وهو خيف[3] بني كنانة .

وفي **البخاري**: أن رسول الله ﷺ قال وهو بمنى[4] *301*: «نحنُ[5] نازلون غدا إنشاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»[6]. وفسر. في الحديث نفسه بأنه المحصب[7]. وهذه الثنية التي دخل منها رسول الله ﷺ في حجة الوداع . وهي ثنية بيضاء بين جبلين، وبينها وبين مكة بسيط سهل، هو منزل[8] الركب إذا صدرَ من مِنًى. وفي مضيقها كوم عظيم من حجارة يقولون أنه قبر أبي لهب[9] رجم حتى صار كذلك، ويقال أنه قبر أبي رِغَال[10]،

1- في م . س «بالمشرق» .

2- في م . س «كدى» .

3- الخيف: الوادي وأصله ما انحدر عن الجبل وارتفع عن السيل وهو بطحاء مكة . انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 412 .

4- منى: جبل بمكة شهير، يذكر ويؤنث، ومنى قرية بنيت على ضفتي الوادي النازل من عرفات، وفي وسط ذلك الوادي الجمرتان: الأولى جمرة العقبة، أول ما يلقى من منى في رأس العقبة، وسميت منى لما يمنى بها من الدماء أي يراق ويصب ولاجتماع الناس بها وهي من حرم مكة. عن أبي هريرة قال أن رسول الله ﷺ قال: منى كلها منحر وفجاج مكة كلها منحر « أخرجه أبو داود في كتاب الصوم، باب إذا أخطأ القوم الهلال رقم 2324، 2/ 297 . أنظر: الحميري، **الروض**. . .، 551 – 552؛ **الاستبصار**. . .، 30– 31؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 172 – 186؛ الفاكهي، **أخبار مكة**، 4/ 246 – 257؛ محمد السخاوي، **البلدانيات**، تحقيق حسام بن محمد القطان، دار العطاء، السعودية، الطبعة الآولى، 1422 هـ، 1/ 290 .

5- في **رحلة العبدري** والنسخ المعتمدة «إنا» والتصحيح من **صحيح البخاري** .

6- **صحيح البخاري**، كتاب العلم باب نزول النبي ﷺ مكة، رقم 1513 2/ 576 .

7- جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ من الغد يوم النحر وهو بمنى نحن نازلون غدا إنشاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر يعني ذلك المحصب وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أو بني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعونهم حتى يسلموا لهم النبي ﷺ . نفس المصدر السابق .

8- في **رحلة العبدري** «موضع نزول» .

9- هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هشام، عم رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمين وفيه نزلت سورة المسد .

10- هو عيسى بن منبه بن النبت بن يقدم، **دليل** أبرهة إلى الكعبة، وقد هلك في هذه الغزوة ودفن في المغمس فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس .. انظر: ابن هشام، **سيرة**، 1/ 51 – 52؛ الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 161 .

ولايصح، فإن أبا رِغَال كان من ثقيف، بعثهُ أهل الطائف دليلا على الكعبة لأبرهةَ[1] ملك الحبشة حين أراد هدمها، فلما نزل بالمُغَمّسِ[2] مات أبو رِغال فرجم قبره إلى اليوم . المغَمّس على يمين المصلى بعرفة وليس منها بعيدا، وقد سألت بعرفة شيخا من أهل البلاد خبيرا بها عن حدود عرفة ومسجدها فدلني على موضع المسجد وذكر جهات عرفة حتى ذكر المُغَمّس فقلت له: أين هو؟ فأشار لي إلى ناحية اليمين وأنت مستقبل القبلة . وقد وَهِم فيه الأستاذ أبو القاسم السّهَيْلي[3] - رحمه الله تعالى - فذكر أنه: «من مكة على ثلثي فرسخ»[4] وذلك لا يصح. وليس المُغَمّس من الحَرم، ولا وصل أصحاب الفيل إلى الحرم، بل المروي خلاف ذلك، وهو أنهم لما نزلوا بالمُغَمّسِ برك الفيلُ، فكانوا إذا وجهوه إلى ناحية الشام ولى يهرول، وإذا ردوه إلى اليمن فعل كذلك[5] وإذا وجهوه إلى الحرم برك ولم يَبْرَحْ . وإن صح الحديث الذي ذكره السّهَيْلي، وهو أنه ﷺ : «إذا أراد قضاءَ الحاجةِ وهو بمكة خرج إلى المُغَمّسِ على ثلثي فرسخ»[6]. فمعناه أنه يخرج إلى ناحية المُغَمّسِ لا أنّه يصل إليه، ولعل التقييد بثلثي فرسخ إنّما كان بمسافة المَذْهب لا لمسافة المُغَمّس، ولا يصح غيره، اللهم إلا أن يكون بالحرم موضع آخر يقال له: المُغَمّس غير الذي انتهى إليه أبْرهَةُ ومات به أبو رغال، وما أظن ذلك كائنا والله الموفق»[7] ، هـ .

---

1 - أبرهة : أبو يكسوم ملك الحبشة صاحب الفيل ، أراد هدم الكعبة فأهلكه الله . انظر : ابن هشام، **سيرة**، 1/ 55 - 56 ؛ المسعودي، **مروج الذهب**، تحقيق محيي الدين عبد المجيد، القاهرة 1958م، 2/ 78 .

2- المغمس : موضع قريب من مكة في طريق الطائف . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 161.

3- هو عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي : حافظ من علماء اللغة والقراءات والسير، .ولد بمالقة سنة 508هـ وكف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة، له تصانيف منها :**الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام** .توفي بمراكش581هـ . انظر : **رحلة العبدري** ص 357 هامش2 .

4- **في الروض الأنف** « ثلث فرسخ ».

5- **في رحلة العبدري** «ذلك» .

6- السهيلي، **الروض الأنف**، 1/ 68 . والحديث أخرجه لطبراني في **المعجم الكبير** رقم 13638، ج 12/ 451، وفيه نحو ميلين من مكة.

7- العبدري، **رحلة**، 353 - 358.

قلت: انظر قوله: لم يصل أصحاب الفيل إلى الحرم إلخ، مع ما ورد أنهم وصلوا بطن مُحَسِّرٍ[1]، وبه نزل عليهم العذاب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[2] [حسبما للمفسرين، وفي ابن حجر الهيتمي[3] على **الهمزية**: «أن أصحابَ الفيل]4 لم يدخلوا الحرم على الأصح، وإنما برك بهم الفيل في المُغَمّس، *302* وقيل: دخلوه، وإنما [برك لما وصلوا إلى واد محسر، ولذا سمي بذلك لأن فيلهم حسر أي أعيى به»اهـ. واقتصر الحافظ بن كثير في تاريخه على أن فيلهم]5 برك بالمغمس[6]، فتحصل الخلاف في المسألة.

تـنـبـيـه: غالب الناس يخالف السنة اليوم في دخوله مكة، فيدخلونها من باب الشّبيكة، من أسفلها وهو كُدى- بالضم على الأشْهر عند الفقهاء، وصوب **العبدري** أنه بالفتح[7]، والذي بأعلاها بالضم- وقد أبدى الفقهاء ما شهروا من حكمة، وهو أنه يدخل من أعلاها وهو كَداء - بالفتح والمد - تفاؤلا أن يفتح الله على الداخل في سائر ما يطلبه من مولاه في حرمه، ويخرج من كُدى - بالضم والقصر- تفاؤلا أن يضم الله شمله بأهله، ثم لا يخلو ما للعبدري أيضا من حكمة في كَداء- بالفتح - يقول حسان: (من الوافر)

1- بطن محسر : وادي ضيق يقع بين وادي منى ووادي المزدلفة وهو في أول دخولك إلى المزدلفة من ناحية الغرب ، والمزدلفة كلها موقف إلا الوادي . انظر : الحموي ، **معجم البلدان** ، 1/ 449؛ **الاستبصار**. . . ، 36 .

2- الفيل : 1.

3- أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي ، شهاب الدين ، أصله من مصر ثم أقام بمكة واشتهر بها أمره كعالم ومشارك . توفي سنة 973 / 65 – 1566. ترجم له في : الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، مطبعة السعادة ، القاهرة، الطبعة الأولى سنة 1348 / 1930، 1/ 109 ؛ الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 337 – 340 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** ، 1/ 133 – 135 .

4- ساقط من ح .

5- ساقط من د.

6 – ذكر ابن كثير أن : « أبرهة نزل بجيشه في مكان يقال له المغمس فأرسل الله عليهم طيرا أبابل. وذكر شعرا لأمية ابن أبي الصلت فيه البيت التالي:

حسر الفيل بالمغمس حتى صار يحبو كأنه معقـور .

انظر: ابن كثير ، **البداية والنهاية** ، 2/ 170 – 176 .

7- العبدري ، **رحلة**، 356

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَـــا تُثِيرُ النّقْعَ مَوْعِدُهَا كَـــدَاءُ[1]

وفي **البخاري** وغيره[2] أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد ﷺ يوم الفتح يدخل من أعلى مكة من كداء – بالفتح – ودخل رسول الله ﷺ من كُدى – بالضم – من أسفلها كأنه جمع كُدْيةٍ، ولا شاهد فيه لما عليه الجادة[3] اليوم من الدخول من أسفل، لأنه لم يأت محرما وقصده ﷺ التحليق على مكة وأهلها، فكأنه ضرب عليهم دائرة، وأما حيث جاء في حجة الوداع قاصدا النسك، فقد دخل – كما قررنا – من أعلى وخرج من أسفل. وفيه يقول الشاعر: (من المديد)

أَقْفَرْتُ مِنْ عبْدِ شَمْسٍ كُدَى فكَدَاءُ[4] بِالرّكْنِ فالْبَطْحَـــاءُ[5]

ومدارالأمرعلى الدخول من أعلى، والخروج من أسفل إحياء للسنة النبوية، فقد ورد في تفضيل المَعْلاة على المسفلة خبر أورده الفاكهي[6] وغيره ممن أرخ لمكة، وقد اقتفيتها والحمد لله وحدي، فانعزلت عن صحبي ويمّمْتُ كداء وهي الثنية العليا؛ وقد بالغ الولاة في تسويتها وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك ففيها بعض صعوبة، ومنها أشرفت على مقبرة مكة وهي الحَجُون، ويقال لها المَعْلاة كما في **القاموس**[7]، وهي كما في الحديث: إحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل

1- ينظر: **ديوان** حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1419/ 1998، 10 ؛ **سيرة لابن هشام**، 4/ 49.

2 – **صحيح البخاري** : كتاب المغازي باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح ؛ **سنن البيهقي الكبرى** ، باب فتح مكة، رقم 9، 18058/ 119 . **سنن أبي داود** أول كتاب المناسك باب دخول مكة رقم 1868 2/ 174 ؛ **صحيح ابن حبان** كتاب البر والإحسان، رقم 3908، 6/ 216 بالفاظ مختلفة .

3- في د «الجاذة» .

4- في د «فكدا» .

5- البيت لعبد الله بن قيس ، وصوابه : (المديد)

اقفرت بعد عبد شمس كداء فــكـدي فالـركن فالبطحاء

انظر : الجاسر، **ملخص** . . . ، 123 هامش 1.

6- ينظر: الفاكهي، **أخبار مكة**، 2/ 266

7- **القاموس** : 1/ 1694.

الأرض. وكيف لا وبها[1] من البضعة النبوية، والدرة واحدة من أمهات المؤمنين من هذه الأمة المحمدية، وغيرهم من الصحابة والتابعين، وغيرهما من فضلاء هذه الأمة، سقى الله تعالى ضرائحهم بوابل الرحمة . فانحدرت من العقبة، ومنها تراءت البيوت عن يميني في البهاء غربه، فقطعت إذ ذاك *303* التلبية ولم أعرف من فرط السرور ما هية، غير أني عوضتها التكبير والتهليل والتحميد وقلت: إلهي !هذا عبدك المذنب وافد عليك، فريد في تعدي الحدود وحيد، ما له عن غير بابك الكريم ملجأ، ولا له إلا إليك اللجاء، فتداركه منك بعناية، وتجاوز عما اكتسبه من جناية، وفدت بها على ما جد، وإني ومن زللي ذو احتشام، نزلت على أكرم الأكرمين، وليس يخيب نزيل الكرام .

فـائـدة : كان بعض السلف يقول عند دخول مكة: اللهم هذا البلد بلدك والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك، وألزم طاعتك، طائعا لأمرك، راضيا بقدرك، أسألك مسألة المضطر إليك، المشفق من عذابك، أن تستقبلني بعفوك، وأن تتجاوز عني برحمتك، وأن تدخلني جنتك . ولبعضهم في معنى ذلك: (من الكامل)

إلهِـي هَـذا البَيْـتُ بَيْتـكَ جئتـهُ ... وعادةُ رَبِّ البَيْتِ أنْ يُكْرِمَ الضَّيْفَ
فهَـبْ لِي قـرىً فيـهِ رضـاكَ ... وَقِنِي منْ النَّارِ وَلْتؤَمِّنِي الْخَـوْفَ

وينبغي أن نثبت هاهنا قصيدة لسيدي عبد المجيد بن علي المنالي الزبادي الفاسي، رضي الله عنه، مشتملة على مراحل الحجاز من مصر إلى مكة، ثم إلى طيبة، وذكر المناسك على سبيل الإيجاز، وبيان الآثار والمشاهد، وغير ذلك من الفوائد، فيحق لها أن تسمى : «إتحاف المسكين الناسك في بيان المراحل والمناسك»[2] وهي تغني عن إفراد المناسك بفصل، مع مزيد بعض آداب الزيارة، وهي في ذلك القول والفصل، وهي هذه : (من الكامل)

1- في د «وهما» .

2- وردت هذه القصيدة في **بلوغ العرام**، 2/ 300- 312 . قال في دباجتها : « الحمد لله الفتاح المعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الحق المبين، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على سيد المرسلين سيدنا محمد المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد، فقد سمحت سليقة عبد المجيد بن علي بن محمد الحسني الصوفي، بلغ الله أمله وتقبل عمله، بقصيدة مشتملة على مراحل الحجاز، وذكر المناسك وبيان الآثار والمشاهد وغير ذلك من الفوائد ».

في بِرْكَةٍ بَرَكَتْ بِنَا الأكْوَارُ ❊ لَمَّا رَمَتْنَا لِلْفَلا الأمْصَارُ
وَتَدَانَتْ الْحَمْرَاءُ قَفْرًا بَعْدَهَا ❊ عَجْرُودُ فِيهِ الْمَاءُ لا يُخْتَارُ
إنَّ النَّوَاظِرَ إنْ قَطَعْتَ جَمِيعَهَا ❊ فَانْزِلْ بِوَادِي الرَّمْلِ لا يَنْهَارُ
وَانْزِلْ بِوَادِ التِّيهِ وَاحْذَرْ سَبْلَهُ ❊ وَأُوَارُهُ[1] فِيهِ الدَّلِيلُ يَحَارُ
وَابْرُدْ غَلِيلَكَ فِي النَّخِيلِ بِبَنْدَرٍ ❊ بِير الصَّعَالِكِ بَعْدَ ذَاكَ وِجَارُ
وَانْزِلْ بِسَطْحٍ وَاسْتَعِدَّ لِبَرْدِهِ ❊ فَالضَّرّ يُدْنِيهِ لَنَا الإجَارُ[2]
وَإذَا سَلَكْتَ عِقَابَ أَيْلَةَ سَالِمًا ❊ وَأَتَيْتَ بَنْدَرَهَا فَثَمَّ قَرَارُ
ظَهْرَ الْحِمَارِ اقْطَعْهُ، لا تَنْزِلْ بِهِ ❊ شَرَّافَةٌ لِبَنِي عَطِيَّةَ دَارُ
وَبِوَادِ مَدْيَنَ فِي مَغَارِ شُعَيْبِهِمْ ❊ حُطَّ الرِّحَالَ فَمَاؤُهَا خَرْخَارُ
وَإذَا الْعُيُونَ رَأَيْتَهَا لا تَعْدُهَا ❊ مَا لِلْعُيُونِ مِنْ الْعُيُونِ نِفَارُ
*304*إنَّ الْمُوَيْلِحَ بَنْدَرٌ فَانْزِلْ بِهِ ❊ تُجْبَى إلَيْهِ فَوَاكِهٌ وَثِمَارُ
ثُمَّ الْكُفَافَةُ بَعْدَهُ وَوَلِيُّهَا ❊ مَرْزُوقٌ الَّذْحَوْلَهُ الثِّيَارُ
وَلْتَأْتِي أَزْلَمَ مُرَّ مَاءٍ، وَلْتَجِئْ ❊ إصْطَبْلَ عَنْتَرَ خَانَهُ الإدْرَارُ
وَالْوَجْهُ لَوْلاَ الْمَاءُ زَالَ بَهَاؤُهُ ❊ فَانْزِلْ وَهَمّكَ عِنْدَهُ الآبَارُ
وَانْزِلْ بِأَكْرَهَ، لاَ تَرِدْ مِنْ مَائِهِ ❊ إلاَّ إذَا حَلَّتْ بِهِ الأمْطَارُ
ثُمَّ انْزِلِ الدَّرَكَيْنِ لِلْعُرْبَيْنِ فِي ❊ قَفْرٍ وَكُنْ حَذِرًا فَثَمَّ يُغَارُ
وَارْشُفْ مِنَ الْحَوْرَاءِ ثَغْرًا أَشْنَبَا ❊ غَضًّا فَمَا قَدْ طَالَ فَهُوَ مُوَارُ
وَالنُّبْطِ فِيهِ الْمَاءُ عَذْبٌ سَائِغٌ ❊ إنَّ الْخُضَيْرَا حَسْبُهَا اخْضِرَارُ
وَبِيَنْبُعَ النَّخْلِ انْزِلَنْ تَلْقَ الْمُنَى ❊ مِنْ كُلِّ مَا تَحْتَاجُهُ الأَسْفَارُ
إنَّ ابْتِدَاءَ عِمَارَةَ لِحِجَازِنَا ❊ مِنْ يَنْبُعٍ حَيْثُ الرُّبَى وَالْغَارُ[3]
حَيْثُ اللِّوَى حَيْثُ النَّقَا حَيْثُ الْحِمَى ❊ وَالْمُنْحَنَى حَيْثُ الْمِيَاهُ غِزَارُ
حَيْثُ النَّخِيلُ وَرَامَةٌ وَتِهَامَةٌ ❊ حَيْثُ الْعَرَادُ وَعُرْفُطٌ وَعَرَارُ[4]

1- الأوار : شدة لفح الشمس . انظر مادة «أور» في **لسان العرب** .
2- الصر : شدة البرد . الإجار : السطح . انظر: **لسان العرب**، مادة «صرر» و «أجر» .
3- الغار: ضرب من أوراق الشجر ، ورقه طيب الريح . انظر: **لسان العرب**، مادة «وغور» .
4- العراد : شجر صلب العود واحدته عرادة . والعرفط : شجر العضاه . انظر : **لسان العرب**، مادة «عرد» و «عرفط» .

حَيْثُ البِشَامُ وَتَنْضَبٌ وَكَنْهَبَلُ[1] حَيْثُ الغَضَا حَيْثُ العضَاهُ كِبَارُ[2]
حَيْثُ البَهَا حَيْثُ البَهَارُ واسْحِلٌ[3] حَيْثُ الغِيَاضُ تَفُوحُ مِنْهَا الْغَارُ
حَيْثُ الشّكَاعَى وَالأَرَاكُ وَسَاسَمٌ[4] حَيْثُ الخُزَامَى عَرْفُهَا مِعْطَارُ
أَمَّا السَّقِيفَةُ مَا حَطَطْنَا رَحْلَنَا فِيهَا إِلَى بَدْرٍ يَحِقُّ بِدَارُ
دَارٌ بِهَا انْتَصَرَ الرَّسُولُ عَلَى الْعِدَى وَجُنُودُ أَمْلاَكِ السَّمَا أَنْصَارُ
يَالَيْتَنِي مِنْ حَاضِرٍ بِهَا عِنْدَمَا حَمِيَ الْوَطِيسُ وَكَلَّتِ الأَبْصَارُ
لأَحُوزَ مَا حَازُوهُ مِنْ نَصْرِ الْهُدَى نَصْرًا يَذِلُّ لِعِزِّهِ الْكُفَّارُ
لَمَّا رَمَاهُمْ بِالْحَصَا مِنْ كَفِّهِ وَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ بِهَا عُوَّارُ
مَا لامْرِئٍ قَدْ مَرَّ فِي أَطْلاَلِهِمْ أَنْ لاَ يَكُونَ لَهُ بِهِمْ تَذْكَارُ
يَا هَلْ لِمَنْ لَمْ يَلْقَهُمْ مِنْ عَطْفَةٍ مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ بِهَا تِطْهَارُ
فَيَصِيرُ مَحْبُوبًا لِمَوْلاَهُ كَمَا قَدْ كَانَ مَحْبُوبًا لَهُ الْحُضَّارُ
جِيءْ قَاعَ بَزْوَا أَنْزِلْهُ قَفْرًا وَأَنْزِلَنْ مِنْ بَعْدُ رَابِغَ مَاؤُهُ مِهْدَارُ
فِيهِ تَجَرَّدْ وَاغْسِلَنْ وَارْكَعْ بِهِ فَإِذَا رَكِبْتَ فَلَبِّ يَا عَمَّارُ
أَحْرِمْ بِحَجٍّ مُفْرِدًا مِنْ بَعْدِمَا تُبْدِي الْخُشُوعَ وَلَيْسَ فِيهَا فَخَارُ
وَأَنْزِلْ قُدَيْدًا وَارْحَلَنْ مِنْ قَفْرِهِ وَرِدَنْ خُلَيْصًا لَيْسَ فِيهَا دَارُ
305 عُسَفَانَ فَانْزِلْهُ وَرِدْ مِنْ بِئْرِهِ فَهْيَ الشِّفَاءُ لِمَنْ بِهِ أَضْرَارُ
وَبِبَطْنِ مُرٍّ وَهُوَ وَادِي فَاطِمِ فَامْرُرْ فَمِنْهُ تُشَاهَدُ الآثَارُ
زُرْ أُمَّنَا مَيْمُونَةَ ثُمَّ لْتَجِئْ لِمَسَاجِدِ التَّنْعِيمِ وَهْيَ تُزَارُ
ثُمَّ لْتَجِئْ لِجِنَانِ مَكَّةَ زَاهِرًا يُدْعَى وَفِيهِ بَدَتْ لَنَا الأَزْهَارُ
ثُمَّ أَغْتَسِلْ فِي ذِي طَوَى وَلْتَصْعَدَنْ وَأَرْقَ الثَّنِيَّةَ تَنْتَفِ الأَوْزَارُ
وَانْزِلْ مِنَ الْمَعْلاَةِ وَادْخُلْ بَلْدَةً فِي العَالَمِ العُلْوِي لَهَا أَنْوَارُ

1- البشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به. الكنهبل : شجر عضام. انظر : **لسان العرب**، مادة «بشم» و«كهبل» .

2- الغضا و العضاه : نوع من الشجر وقيل العضاه أعظم الشجر واحدته عضاهة . انظر: **لسان العرب**، مادة « غضا» و « عضه» .

3- الأسحل : شجر يستاك به . انظر: **لسان العرب**، مادة «سحل».

4- الشكاعى و الساسم : نوعان من الشجر. انظر: **لسان العرب**، مادة «شكع» و «سسم» .

بَلَدٌ شَرِيفٌ بِالْمَنَاسِكِ مَجْدُهُ ... مَرَّتْ عَلَى تَعْظِيمِهِ الأَعْصَارُ
مَا زَاغَ فِيهِ زَائِغٌ إِلاَّ غَدَا ... دَاءً لَهُ أَوْ غَالَهُ الإِعْصَارُ
حَنَّت لَهُ حُبًّا قُلُوبٌ أَسْلَمَتْ ... وَعَنَتْ لَهُ مِنْ غَدِهِ الأَمْصَارُ
وَاقْصِدْ لِبَيْتِ اللهِ مِنْ بَابِ السَّلاَمِ ... تَلُحْ لَكَ الأَنْوَارُ وَالأَسْرَارُ
بَيْتٌ لَهُ الشَّرَفُ الْمُؤَثَّلُ وَالسَّنَا ... وَلَهُ العُلاَ وَالْمَجْدُ وَالإِيثَارُ
سَلِّمْ وَكَبِّرْ وَالْثَمْ الحَجَرَ الَّذِي ... فِي رُكْنِهِ الشَّرْقِيِّ يَا زُوَّارُ
يَمَنِيَّهُ[1] الْمَسْ مَا مَرَرْتَ وَأَسْوَدَا ... قَبِّلْهُ إِنْ لَمْ يَحْصُلِ الإِضْرَارُ
فَإِذَا غُلِبْتَ فَضَعْ يَمِينَكَ وَاسْتَلِمْ ... كَبِّرْ فَقَطْ أَنْ صَدَّكَ الإِكْثَارُ
وَانْوِ الطَّوَافَ لِقَادِمٍ حَتْمًا وَدُرْ ... بِالبَيْتِ بِالتَّسْبِيحِ وَهُوَ يَسَارُ
وَارْمُلْ إِذَا طُفْتَ القُدُومَ ثَلاَثَةً ... وَلْتَمْشِ بَاقِيَهُ عَدَاكَ العَارُ
فَإِذَا أَتَيْتَ بِسَبْعَةٍ فَاقْصِدْ إِلَى ... خَلْفِ الْمَقَامِ وَصَلِّ فَهُوَ شِعَارُ
وَأَخْرُجْ عَلَى بَابِ الصَّفَا وَلْتَعْلُهَا ... كَبِّرْ وَهَلِّلْ وَأَدْعُ فِيكَ جُؤَارُ[2]
وَلْتَسْعَ مِنْهُ لِمَرْوَةٍ وَاخْبُبْ[3] لَدَى ... بَطْنِ المَسِيلِ[4] فَإِنَّهُ الْمُخْتَارُ
وَافْعَلْ بِمَرْوَةَ مَا فَعَلْتَ عَلَى الصَّفَا ... وَاسْتَوْفِ سَبْعًا عَدَّهَا الأَبْرَارُ
فَالسَّعْيُ بَيْنَهُمَا بِسَبْعٍ وَاجِبٌ ... مَا إِنْ لَهُ بَدَلٌ وَلاَ أَعْذَارُ
وَاسْمَعْ لِخُطْبَةِ سَابِعٍ وَانْزِلْ مِنًى ... فِي ثَامِنٍ وَبِهَا الْمَبِيتُ أَجَارُ
وَاقْصِدْ إِلَى عَرَفَاتَ تَاسِعَ شَهْرِنَا ... فِيهِ إِلَى عَرْضِ العِبَادِ يُشَارُ
وَانْزِلْ بِنَمِرَةَ وَاسْتَمِعْ[5] قُرْبَ الزَّوَالِ ... لِخُطْبَةٍ تَزْكُو بِهَا الأَبْرَارُ
وَاجْمَعْ بِهَا الظُّهْرَيْنِ أَوَّلَ وَقْتِهِ ... وَقِفُوا السَّاقَ الْجِدَّ يَا زُوَّارُ

1- يشير إلى الركن اليماني، وهو من أركان الكعبة ينسب رجل من اليمن اسمه أبي بن سالم. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 3/ 64.

2- الجؤار: رفع الصوت بالتلبية متضرعا. انظر: **لسان العرب**، مادة «جأر».

3- الخبب: ضرب من العد، وقيل: مثل الرمل. انظر: **لسان العرب**، مادة «خبب».

4- بطن المسيل: الوادي الذي بين الصفا والمروة.

5- ساقطة من د

وَادْعُوا الإلَهَ[1] وَسَبِّحُوهُ وَكَبِّـرُوا فَلَهُ تَعَالَـى العِـزّ وَالإكْبَارُ
وَلْتَطْلُبُوا غُفْرَانَ كُلِّ ذُنُوبِكُـمْ فَهُـوَ الكَرِيـمُ وَأَنَّـهُ الغَفَّـارُ
306 وَلْتَحْمَـدُوهُ وَعَظِّمُـوهُ وَهَلِّلُوا فَلِرَبِّنَـا التَّوْقِيـرُ وَالتَّعْـزَارُ
وَلْتُرْسِلُوا الْعَبَرَاتِ فِي وَجَنَاتِـكُمْ فَصَنِيعُكُمْ بِدُمُوعِكُـمْ يَنْهَـارُ
فَإِذَا تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ فَبَـادِرُوا جَمْعًا وَتَكْثُرُ مِنْكُـمُ الأَذْكَـارُ
وَاحْطُطْ بِمُزْدَلِفَةِ اجْمَعْنَ وَبِتْنَ بِهَا وَلْتُحْـيِهَا وَبِهَا تُعَـدّ جِمَـارُ
الصّبْحَ صَلِّ بِهَـا وَغَلِيس رَاحِـلاً وَبِمَشْعَرٍ قِفْ أَوْ يُـرَى الإِسْفَـارُ
وَاذكُرْ بِهِ مَوْلاَكَ وَادْعُ وَاسْـرِعن فِي الوَادِي حَيْثُ لَهُ تُضَافُ النَّارُ
وَانْزِلْ بِخَيْفِ مِنًى تَنَلْ كُـلَّ المُنَـى بِضِيَافَـةٍ كَـمْ نِيلَت الأَوْطَـارُ
وَلْتَرْمِ جَمْرَةَ عَقَبَةٍ وَانْحَـرْ وَسِـرْ لِلْبَيْتِ بَعْدَ الحَلْـقِ يَا ضَيْطَـارُ[2]
وَطُـفَ الإِفَاضَةَ فَهُوَ رُكْنٌ مَالَـهُ بَـدَلٌ وَلاَ يَكْفِيكَـهُ الأَنْهَـارُ
وَالآنَ قَدْ أَحْلَلْتَ فَافْعَـلْ مَا تَشَـا مِمَّا نَفَـى الإِحْـرَامُ لاَ الإِنْـذَارُ
وَالظّهْرَ صَلِّ بِمَكَّةَ أَوْ فِـي مِنًـى لَكِنْ تَبِيتُ بِهَـا كَمَـا الإِكْـوَارُ
إِثْرَ الزَّوَالِ ارْمِ الجِمَارَ ثَلاَثَهَـا كُلاًّ بِسَبْـعٍ عَـزَّتِ الأَحْجَـارُ
وَمِنَ الغَدِ أَفْعَلْ مِثْلَ ذَا وَتَعَجَّلَـنْ إِنْ شِئْـتَ أَوْ بِـتْ وَالمَبِيتُ نِجَـارُ
إِنْ بِتَّ فَافْعَلْ فِي الزَّوَالِ كَمَا مَضَى وَاذْهَـبْ لِمَكَّـةَ فِي الْمُحَصَّبِ جَـارُ
فَإِذَا حَطَطْتَ بِهَا الرِّحَالَ فَسِرْ إِلَى التَّنْعِيـمِ تَغْسِلْ عِنْـدَهُ الأَوْضَارُ[3]
أَحْـرِمْ هُنَاكَ بِعُمْـرَةٍ وَتَجَـرَّدَنْ كَالحَجِّ لَبِّ وَطُـفْ كَمَـا يُخْتَـارُ
وَلْتَسْعَ بَيْـنَ المَرْوَتَيْـنِ بِذِلَّـةٍ وَاحْلِقْ وَلِلنّسْكَيْنِ مِنْـكَ غِـزَارُ
وَالْبَيْتَ لاَزِمْ لِلطَّـوَافِ وَلِلصَّـلاَةِ وَرُؤْيَةٍ لاَ تَهْتِـكَ الأَسْتَـارُ
وَالحِجْرُ إِنْزِلْهُ مَثَابَـةً جَوْفِـهِ إِنْ صَدَّكَ الرُّؤَسَـاءُ وَالأُمَّـارُ
مِقْدَارَ سِتَّةِ أَذْرُعٍ مِـنْ جَوْفِـهِ صَحَّتْ بِهَا لِلنَّاسِـكِ الأَخْبَـارُ
وَلْتُكْثِرَنَّ مِـنْ مَـاءِ زَمْزَمَ شَارِبًـا مُتَضَلِّعًا فِيـهِ لَـكَ الأَوْطَـارُ

1- في د «مولاه».

2- الضيطار: العظيم من الرجال. انظر: **لسان العرب**، مادة «ضطر».

3- الأوضار: الأوساخ.

وَلْتَدْعُ رَبَّكَ عِنْدَ مُلْتَزِمٍ كَذا — عِنْدَ الحَطِيمِ[1] تُحَطَّمُ الأَوْزَارُ
ثُمَّ اشْهدَنْ تِلْكَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا — إِنْ سَاعَدَتْ بِحُضُورِهَا الأَقْدَارُ
فَإِذا عَزَمْتَ عَلَى الخُرُوجِ فَوَدِّعَنَّ — بَيْتَ الإِلَهِ وَدَمْعُكَ المِدْرَارُ
وَاخْرُجْ مِنْ أَسْفَلِهَا إِلَى الوَادِي وَسِرْ — مَثْنَى الطَّرِيقِ وَرَبُّنا السَّتَّارُ
حَتَّى إِذا مَا جِئتَ بَدْرًا فَارْحَلَنْ — لِجُدَيْدَةٍ تُخْبَأُ بِهَا الأَوْقَارُ
ثُمَّ انْزِلِ الرَّوْحَاءَ عِنْدَ قُبُورِهَا — فَإِذا رَحَلْتَ بَدَتْ لَكَ الآثَارُ
*307*هَذا مُفَرِّحٌ لِلْقُلُوبِ مُفَرِّجٌ — وَأَمَامَهُ البَيْدَا لَهَا أَشْعَارُ
وَلَدَى المُعَرَّسِ فَانْزِلَنْ وَتَطَهَّرَنْ — وَعَقِيقُ دَمْعِكَ فِي العَقِيقِ نِثَارُ
وَبَدَتْ قِبَابُ قُبَا يَمِينًا وَالنَّقَا — وَبَدَا النَّخِيلُ وَسُرَّتِ الزُّوَّارُ
ثُمَّ ارْقَ غَرْبِيَّ الحِرَارِ وَبَادِرَن — بُطْحَانَ تَبْدُ لِعَيْنِكَ الأَنْوَارُ
هَذَا المُصَلَّى وَالبَقِيعُ وَهَذهِ — دَارُ الرَّسُولِ بَدَتْ وَذِي الأَسْرَارُ
هَذِي الَّتِي لاَحَتْ لِعَيْنِي قُبَّةٌ — خَضَعَتْ لِنُورِ شُمُوسِهَا الأَنْوَارُ
فِيهَا الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ وَعَتِيقُهُ — وَوَزِيرُهُ عُمَرُ هُمُ العُمَّارُ
فَادْخُلْ لِطَيْبَةَ وَتَأَدَّبْ إِنَّمَا — أَدَبُ الفَتَى خُلُقٌ بِهِ يُخْتَارُ
فَبِطَيْبَةَ طَابَتْ قُلُوبُ ذَوِي النُّهَى — وَالطَّيِّبُونَ لِطَيْبَةَ كَمْ زَارُوا
مَنْ[2] لَمْ يَطِبْ فِي طَيْبَةَ فَهُوَ الَّذِي — فِي خَيْبَةٍ ذَهَبَتْ لَهُ الأَعْمَارُ
بَلَدٌ بِهَا حَلَّ الرَّسُولُ وَآلُهُ — وَالصَّحْبُ وَالأَزْوَاجُ وَالأَنْصَارُ
وَاقْصِدْ إِلَى رَوْضِ الجِنَانِ مُسَلِّمًا — وَمُصَلِّيًا وَالشَّوْقُ مِنْكَ مُثَارُ
وَادْخُلْهُ مِنْ بَابِ السَّلاَمِ وَحَيِّهِ — عِنْدَ المُخَلَّقِ إِنْ يَكُنْ تَيْسَارُ
ثُمَّ لْتَقِفْ عِنْدَ الضَّرِيحِ مُوَاجِهًا — إِذْ ذَاكَ مِنْكَ لِقِبْلَةٍ إِدْبَارُ

1- الحَطِيمُ: بالفتح ثم الكسر بمكة. قال مالك بن أنس هو ما بين المقام إلى الباب. وقال ابن جريج: هو ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر، وقال ابن حبيب: هو ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى المقام حيث يتحطم الناس للدعاء. وقال ابن دريد: كانت الجاهلية تتحالف هناك يتحطمون بالأيمان فكل من دعا على ظالم وحلف إثماً عجلت عقوبتُهُ. وقال ابن عباس الحطيم: الجذر بمعنى جدر الكعبة، وقال أبو منصور: حجر مكة يقال له الحطيم مما يلي الميزاب، وقال النضر الحطيم الذي فيه الميزاب وإنما سمي حطيماً لأن البيت ربعَ وتُركَ محطوماً. انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 273 .

2- ساقطة من د .

سَلِّمْ عَلَى الْمُخْتَارِ خَيْرَ تَحِيَّةٍ ... وَعَلَى ضَجِيعَيْهِ فَذَاكَ شِعَارُ
وَاطْرَحْ عَصَى التِّسْيَارِ عِنْدَ ضَرِيحِهِ ... فَإِلَى حِمَاهُ قَدِ انْتَهَى التِّسْيَارُ
وَاحْطُطْ رِحَالَ الذنْبِ عِنْدَ جَنَابِهِ ... فَجَنَابُهُ لِلْمُذْنِبِينَ جُوَارُ
وَلْزَمْهُ وَلْتَضْرِبْ خِيَامَكَ عِنْدَهُ ... فلَدَيْهِ مَا تَهْوَى وَمَا تَخْتَارُ
وَافْرَحْ بِمَا أُوتِيتَهُ مِنْ وَقْفَةٍ ... عِنْدَ الرَّسُولِ وَفَتْ بِهَا الأَقْدَارُ
وَاشْكُرْ لِمَوْلاَكَ الَّذِي أَوْلاَكَهَا ... فَهُوَ الشَّكُورُ لِمَنْ لَهُ إِقْدَارُ
وَاجْعَلْ حَبِيبَكَ أَحْمَدَ خَيْرَ الْوَرَى ... حِرْزًا لِتَبْعُدَ عَنْ حِمَاكَ النَّارُ
وَاجْعَلْهُ وَاسِطَةً لِكُلِّ مُؤَمَّلٍ ... فَبِجَاهِهِ كَمْ نِيلَتِ الأَدْخَارُ
وَامْلأْ فُؤَادَكَ وَالْحَشَا مِنْ حُبِّهِ ... [فَوِدَادُهُ الإِكْسِيرُ وَالأَزْهَارُ
طُوبَى لِمَنْ فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّهِ][1] ... وَوِدَادِهِ طُولَ الْمَدَى مِزْمَارُ
فَهُوَ الَّذِي بَهَرَ الْكِرَامَ سَخَاؤُهُ ... وَعَنَتْ لَهُ عِنْدَ اللِّقَا الأَذْمَارُ[2]
هَذَا خَلِيفَةُ رَبِّنَا فِي خَلْقِهِ ... هَذَا الَّذِي مِنْ سِرِّهِ الأَسْرَارُ
أَصْلُ الْوُجُودِ وَأَصْلُ كُلِّ مَعَارِفٍ ... وَمَوَاهِبٍ قَدْ نَالَهَا الأَخْيَارُ
يَا سَيِّدَ الأَرْسَالِ هَذَا عَبْدُكُمْ ... قَدْ أَمَّكُمْ وَبِظَهْرِهِ أَوْزَارُ
308** فَاشْفَعْ لَهُ حَتَّى يُرَى ذَا تَوْبَةٍ ... قَدْ صَحَّ مِنْهَا الْمَتْنُ وَالآثَارُ
وَامْنُنْ عَلَيْهِ بِالتُّقَى حَتَّى يُرَى ... أَبَدًا تُوَاطِئُ قَوْلَهُ الأَفْكَارُ
وَاعْطِفْ عَلَيْهِ بِقُرْبِكُمْ وَوِدَادِكُمْ ... حَتَّى يَكُونَ لَهُ بِكَ اسْتِبْصَارُ
وَلْتَحْمِهِ نُوَبَ الزَّمَانِ وَهَوْلَهُ ... فَلَهُ بِجَاهِكَ سَيِّدِي اسْتِنْصَارُ
وَلْتَسْقِهِ خَمْرَ الْمَعَارِفِ كَيْ يُرَى ... وَلَهُ لَدَى حَضَرَاتِكُمْ إِحْضَارُ
وَاعْطِفْ عَلَى الآبَاءِ وَالأَشْيَاخِ ... وَالإِخْوَانِ وَالأَوْلاَدِ يَا مُخْتَارُ
قُلْ أَنْتَ مِنْ حِزْبِي وَمَنْ يَهْوَاكَ مِنْ ... حِزْبِي فَلَيْسَ يَنُوبُهُمْ أَكْدَارُ
هَذَا لَعَمْرُكَ هَيِّنٌ فِي جُودِكُمْ ... يَا مَنْ نَدَاهُ وَابِلٌ مِدْرَارُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ جَلَّ جَلاَلُهُ ... يَا مَنْ أَجَابَ دُعَاءَهُ الأَشْجَارُ
ثُمَّ السَّلاَمُ عَلَيْكَ مَا هَبَّتْ صَبًا ... وَتَرَنَّحَتْ فِي أَيْكِهَا الأَطْيَارُ
وَالآلِ وَالأَصْحَابِ وَالأَتْبَاعِ مَا ... قَدْ هَامَ صَبٌّ هَاجَهُ التِّذْكَارُ

1- ساقط من ح.
2- الأذمار: الشجعان البواسل.

الرحلة الناصرية الكبرى

الرحلة الناصرية الكبرى

تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري
(ت: 1239هـ/1823م)

دراسة وتحقيق
د. المهدي الغالي

الجزء الثاني

1434هـ/ 2013م
منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية



الرحلة الناصرية الكبرى

الجزء الثاني

تأليف : أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري

دراسة وتحقيق : ذ.المهدي الغالي

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الإيداع القانوني: 2013MO2093
ردمك: 978-9954-601-22-8
الطبعة الأولى: 2013

الطباعة والاخراج الفني:



دار أبي رقراق للطباعة والنشر
الهاتف : 83 75 20 37 05 - الفاكس : 89 75 20 37 05
البريد الإلكتروني : editionbouregreg@gmail.com

ذكر دخولنا مكة أشرف البلاد ومسقط رأس أشرف العباد

وفي ضحى السادس من ذي الحجة[1] دخلناها بفرحة تكاد تطير منها[2] القلوب، فانجلى ما كان خيم بها من الأحزان والكروب، كيف ونحن بحرم جعله الله تعالى مكفرا لما سلف من الذنوب، ماحيا للأوزار والخطايا، منة منه سبحانه، فله الحمد بدء وعودا ما طلعت شمس ولها غروب، بلدة أقسم بها الحق سبحانه وتعالى في كتابه في موضعين فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[3]، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[4]، وما على الأرض بقعة سواها يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي فيها، موضع شُرع تقبيله واستلامه، وقبلة كل ناسك وإمام[5]، فسبحان من جعل أفئدة من الناس تهوي إليه، وجذب إليه من القلوب فانعطفت بحذافيرها إليه[6]: (من الخفيف)

مَحَاسِنُهُ هِيَّ وَلِيّ كُلُّ جِنْسِ ... وَمِغْنَاطِيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجَالِ!

فكلما وفدت عليه ازدادت اشتياقا، ومهما ارتحلت عنه[7] ازدادت تولّهًا واحتراقاً (من البسيط)

لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا ... حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقَا!

فلله كم لها من قتيل وجريح وسليب! وكم أنفق على وصالها من الأموال والأرواح وهجران حبيب، من فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان والبعيد والقريب، مقدمًا بين يديه أنواع المخاوف، والمشاق والمعاطب *309*والمثالب، وهو يستلذ كل ذلك ويستطيبه، ويعده نزهة رياض تضوع

1- موافق 12 نونبر 1782م، وكان قد غادر الزاوية الناصرية يوم 3 جمادى الثانية 1196 هـ موافق 16 ماي 1782م.

2- في خ «منه».

3- البلد: 1

4- التين: 3

5- في د «إمامه».

6- في د «عليه».

7- ساقطة من د.

منها طيبه، وهذا سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله:﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ[1]﴾[2] ، فأقسم بالله يمينا غير كاذبة، ما حرم سكناه غير ذي البضاعة المزجاة من الناس قاطبة: (من الخفيف)

بَلَدٌ نَحْوَهُ يَحِنّ الرَّسُولُ ... وَبِهِ عَقَلَتْ قَديمًا عُقُولُ
بَلَدٌ أنْ رآه يَوْمًا مَشُوقٌ[3] ... قَالَ لُمْنِي أَوْ لا تَلُمْ يَا عُذُولُ
لَوْ رَآى مِنْ سَنَاهُ غيلانَ فيّ ... بَارِقا لَمْ تُشْفه تلْكَ الطُّلُولُ
أَسَفِي إنْ مُنِعْتُ سُكْنَى حمَاهُ ... وَعَدَاني عَنْهُ الزَّمَانُ المَطُولُ
يَا لَحظِّي محسنهُ في ثَنَاهُ ... عَنْ مَعَانٍ لَهَا حَديثي يَطُولُ
لاَحَ لِي مَرَّةً لَمَّا زَالَ طَيْفٌ ... وَوَدَاعٌ إذَا اسْتَقَلَّ الحَمُولُ
كُنْتُ أرْجُو بِهِ شِفَاءَ غَليلي ... وَإذا فيه لي جَوًى وَغَليلُ
أَسْعِدْني بِذِكْرِهِ يَا خَلِيلَيَّ ... فَقَدْ يُسْعِدُ الخَليلَ الخَليلُ
وَعَدَاني وَمَنَيَاني وُصُولاً ... فقصَارَى مِنَ الفُؤَادِ الوُصُولُ
يَا لِرَبْعٍ[4] غَدَا بِهِ رَبْعُ صَبْري ... وَهُوَ مُسْتَعْجَمُ الرُّسُومِ[5] مُحِيلُ
مُنْذُ فَارَقْتُهُ فَدَمْعي سيلٌ ... وَالأَسَى غَيَّهُ وَخَدِّي يَسيلُ
وَرَمَى بَعْدَهُ بِعَنْ لِسَاني ... لَسْتُ أَدْري مِنْ بَعْدِه مَا أَقولُ

فياله من روض عاطر، وزاهر تفتق عن أكمامه فيح[6] المسك الذافر، ما كيد بسوء به الحديث والقديم إلا ونودي على صاحبه من أهل القبلة أو من سكان الجحيم، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[7]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ

1- في ح ود «الطائفين والعاكفين والقائمين» . وهو تصحيف
2- الحج: 26 .
3- في د « مشتاق».
4- في د «لربيع».
5- في د «الرسول».
6- في د «فاق» .
7- الحج : 23.

﴿يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾[1] ، ماذا أقول في مدحه والأقلام قد وقفت ، والألسن عن وصفة قد عجزتّ فوجمت ، كيف وقد تولى مدحه البارىء[2] ، فكيف يأتي عليه غيره من بارع أو قارىء .

ثم يممت المسجد الحرام فدخلته من باب بني شيبة بعد باب السلام ، فلاح لنا البيت العتيق المحجوج ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[3] قد علاه البهاء والنور ، باديا في العلو والظهور ، فعثرت الأستار في الذيول ، وتاهت في جماله العقول ، فقلت ارتجالا في ذلك وإن لم يكن في البديع هناك : (من المجتث)

لَمَّا احْتَمَـيْـتُ حِمَـاهَــا	وَلاَحَ لِي[4] مِـنْ سَنَاهَـا
طَفِقْـتُ أَرْفَـعُ شَـاوا	ذيلـي وَتَنَـاوَا أَطَاهَـا
فَقَالُـوا مَجْنُـونُ لَيْـلَـى	قَـدْ حَـلَّ رَوْضَـا تَمَنَّاهَـا
*310*إذ كَشَفَـتْ عَـنْ جَمَـالٍ	كُـلُّ الـوَرَى فيـه تَاهَـا
مِـنْ فَـرْطِ حُبِّـي وَشَوْقِـي	قَبَّلْـتُ منْهَـا شِفَاهَـا
فَاعْجَـبْ لثغـر غَـدَا	مَثْلُومَـا لِصَـبٍّ أَتَاهَـا
فَعِنْـدَ ذلَـكَ قَالَـتْ	بَلَغْـتَ نَـفسَـا مُنَاهَـا
قُلْـتُ بَلَـى أَمْهِلِينِـي	فَحُسْـنُ عَهْـدِ شِفَاهَـا

فلو رأيته وقد شمرت عنه الأستار حتى لا تكاد تنالها الأيدي ، وقد غشيه من الأنوار والطائف والباكي والمعفر والمقبل والراكع والساجد والداعي والخاضع حوله ، لقلت هذه والله دعامة الإسلام والأساس ، والتي إذا عدت البيوت الفاضلة كانت كما قيل الوجه والرأس ، ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾[5] ، وما هي إلا عروس تجلت على منصتها ، ترفل في الذيول فكادت تغشيَ العيون من نظرتها ، وما أحسن قول بعض الأدباء في وصفها ونعتها:(من الخفيف)

1- الفيل : 1 – 2 .

2- في د «الباري» .

3- اقتباس من الآية ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج :25 .

4- ساقطة من د .

5- المائدة : 99

قلْتُهَـا فأعْجبُـوا لِبَيْتٍ عَتِيـقٍ كُلَّ عَـامٍ لَـهُ ثِيَّابٌ جَدِيـدْ
ألْبَسُـوا الْكَعْبَـة الشَّرِيفَـةَ ثَـوْ بًـا أسْـوَدًا[1] وَهِـيَّ نُورُهَـا مُسْتَزِيدْ

وقال الآخر: (من الطويل)

قفُوا واحْتلُّـوا منْ كَعْبَة الله مَنْظَرًا فَمَا لفِرَاق منْـهُ في الدَّهْرِ تَعْوِيضْ
وَقَدْ لَبِسَـتْ ثَوْبَ السَّوَادِ توَاضُعـًا وَكُـلُّ لَيَالِيهَا بِأنْوَارِهَا بيـضْ

وقال أبو سالم في هذا المعنى: وقد أبدى « فيه تشبيها غريب المعنى: (من الكامل)

فَكَأَنَّـهُ لَمَّا بَـدَا مُتَشَمِّـرًا وَالطَّائِفُـونَ بِـه جَمِيعًا أَحْدَقُـوا
مَلِكٌ هُمَـامٌ نَاهِضٌ لِلِقَـاءِ مَـنْ قَدْ زَارَهُ وَلَـهُ إِلَيْه تَشَوَّقُـوا
فَتَبَـادَرَ الغِلْمَانُ رَفْـعَ ذيُولِـهِ حَتَّى إِذَا رَجَعُـوا جَمِيعًا أَطْلَقُوا»[2]

وأشار بذلك إلى أن تشمير الأستار هو العادة أول ما تقدم الوفود، ثم لا يطلقونها حتى تعود، هذا أول بيت وضع، هذا أول بيت رفع، ما بعث الله قط ملكا، ولا سحابة - كما ورد في الأثر- إلا طاف بالبيت أولا، ثم يمشي حيث أمر، وما من سماء، ولا أرض، إلا و فيها بيت بإزائه، ولكل بيت عمار وزوار.

قال الحافظ السيوطي: وجملة البيوت أربعة عشر[3]، أو خمسة عشر، كما ورد في عدة من الآثار، وإن استغرب ذلك زعيم، ففوق كل ذي علم عليم. وورد أنها من النفاق أمان، والنظر إليها عبادة ومحضر إيمان، وهو أفضل من الصلاة والصيام والجهاد. روي أن الناظر للكعبة كالمجتهد في العبادة في غيرها *311* من البلاد، وورد أن النظر إلى الكعبة يعدل عبادة سنة، وأن من نظر إليها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ولقد شكت إلى ربها ما نصب حولها من الأصنام، وما استقسم به من الأزلام، فوعدها ببشر

1- في د «أسود».

2- العياشي، **الرحلة**، 1/ 191.

3- ينظر **الدر المنثور** لعبد الرحمان بن الكمال جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، دار الفكر، بيروت، 1993، 1/ 298.

يحنون إليها حنين الحمام، ورد ذلك مرفوعا[1] . وعن كعب وسلمان قيل: وهل لها لسان؟ قال: نعم، وأذنان وشفتان[2] . روى مرفوعا: ما بعث الله نبيا إلا قيل له إلى الكعبة صلوا، وأن اليهود والنصارى أمروا بها، ولكن عنها ضلوا[3] . وورد أنها لما وقع فيها حجر المنجنيق، أيام ابن الزبير، سمع لها الأنين[4] ؛ وأنها تزور يوم القيامة قبر سيد المرسلين، وتتكفل بالشفاعة من حجها من المومنين . فلما دنونا منها، وغشينا من نورها لم نزد على أن قبلنا وسلمنا وكبرنا مع ذلك وهللنا وقلنا: اللهم زد هذا البيت شرفا وتعظيما وتمجيدا وتكريما، ويممنا الحجر الأسعد، يمين الواحد الأحد، فقبلناه عسى بتقبيله تبيض منا الوجوه يوم تبيض وجوه وتسود، ولم نبال بالزحمة عليه من فرط شوقنا إليه، فسكبنا لديه من العبرات، وتشفعنا به إلى الله تعالى في غفران الزلات، ولله در[5] الصفدي في قوله: (من الطويل)

إِلَى سَيدِ الأَحْجَارِ فِي الحَرَمِ الَّــذِي ... قَضَى الخَالِقُ البَارِي بِتَعْظِيمِ شَأنِــه
حَطَطْنَا مَطَايَا الشَّوْقِ والشَّوْقِ فِي الْفَلاَ ... فَجَاءَتْ بِنَا إِنْــسَانَ عَيْــنِ زَمَانِــه

وقال: (من السريع)

تقبيلُ ذاكَ الْحَــــجَرِ الأسْــــوَدِ ... يَصُدّ عَنِّي حَــــرَّ قَلْبِي الصَّـــدِ
فِي الْكَعْبَةِ الْغَــرَّاءِ خَالٍ مِــــنَ ... النَّــدَى عَلَــى صَفْحَةِ خَدٍّ يَـــدِ

وقال غيره: (من المنسرح)

فِي الْحَجْرِ الأسْــــوَدِ ازْدِحَــامٌ ... لِلنَّـاسِ لَثْماً لَـــــهُ وَضَمَــــاءُ
حَتَى لَقَــدْ قُلْــــتُ إِنَّ هَــــذا ... مِنْ شِـدَّةِ اللَّثْــمِ صَــارَ الْمَــاءُ

1- عن جابر بن ساج الجوزي قال : «جلس كعب الأحبار وسلمان الفارسي بفناء البيت ، فقال : شكت الكعبة الى ربها عز وجل ما نصب حولها من الاصنام، وما استقسم به من الأزلام ، فأوحى الله تعالى إليها إني منزل نورا وخالق بشرا يحنون إليك حنين الحمام إلى بيضه ويدفون إليه دفيف النسور ، فقال له قائل : وهل لها لسان ؟ قال : نعم وأذنان وشفتان». انظر :السيوطي، **الدر المنثور**، 1/ 320 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 4.

2- الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 4. .

3- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث .

4- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 199 .

5- ساقطة من ح .

وقال: (من الكامل)

طُفْ واسْتلِمْ رُكْناً لأشْرَفِ مَنْزِلِ ... واخْضَعْ وَذُلْ تَفُزْ بكُلِّ مُؤَمَّلِ
وَإذا عَلا الْحَجْرُ الْمُعَظَّمُ قَدْرُهُ ... بالْيمْنِ تِلْكَ الْيَمِينُ تُقَبَّلُ

نزّله الله من الجنة أبيض من اللبن، وأبرق من كل بارق، يفوق الجوهر الثمين والدر الحسن، فسودته بعد ذلك[1] خطايا الآدميين[2] ، ولولا أن مسه المشركون لأبرأ الأبكم والأبرص وغيرهما من ذوي العاهات والمجذومين[3]. ورد أن الله تعالى جعله عيد أهل هذه القبلة كما كانت المائدة عيدا لبني إسرائيل، «ولا تزال هذه الأمة بخير ما دام فيها إلى أن يرفعه جبرائيل»[4] ، هـ. *312* وفي الحديث عن أنس مرفوعا: «أول ما يرفع الركن والقرآن، ورؤيا النبي ﷺ في المنام»[5] ، وما أقرب هذا الاقتران من الحديث الآخر وهو: «من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي، ولا بالكعبة»[6] .

ثم طفنا للقدوم سبعا، وكلما وَازينا الركن اليمني والحجر وقفنا للدعاء أو عاينا الميزاب أشرنا إليه، ورأينا في ذلك لله تعالى منة منه وإليه، وأرملنا من الأشواط الثلاث الأولى، وعلى الله المعول. ولله در القائل الأول: (من الوافر)

لَقدْ طَابَ الطَّوَافَ لَنَا وَرَ ... قَّتْ حِمَاهُ وَلَذَيْهَا الْمَرَارُ
وَمِلْنَا لِلْيَسَارِ لِفرْطِ سُكَرٍ ... مُفان الكأسِ مَجْرَاهَا الْيَسَارُ

1- مطموسة في د .

2- – عن ابن عباس قال : «قال رسول الله ﷺ : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم» أخرجه الترمذي في كتاب الحج ، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام رقم 877 ، 3/ 226 .

3- ينظر : الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 332.

4- ينظر: عبد الرؤوف المناوي، **فيض القدير** ، المكتبة التجارية ، مصر ، الطبعة الأولى، سنة 1356 ، 3/ 94 .

5- ينظر :السيوطي، **الدر المنثور**، 1/ 325 ؛البرهان، **كنز العمال** ،رقم 38431، 14/ 96 .

6- أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط** ، كتاب فضائل الصحابة رقم 3026، 3/ 238.

وقال الآخر: (من الكامل)

لا تُنْكِرُوا حَالَ الطَّوَافِ تَبَخْتُرِي ... وَتَمَايُلِي سُكْرًا بِغَيْرِ شَرَابِ
قَدْ كُنْتُ بِالذِّكْرِ أَهِيمُ فَكَيْفَ لِي ... عِنْدَ الْوُقُوفِ بِمَرْبَعِ الأَحْبَابِ

وقال: (من الطويل)

طُوبَى طَوَافُ اللهِ لِي مِنْهُ لَذةً ... إذا نُشِرَتْ بَشَّرَتْ عُسْرِي بِاليُسْرِ
وَكَمْ حَسَنَاتٍ فاضَ فِي الْحَجَرِ ذُرّهَا ... وَسَالَ بِهَا الْمِيزَابُ حَتَّى امْتَلأَ حِجْرِ

وبعد كمال السبع، وقفنا بالملتزم متضرعين إلى الله تعالى في كفاية هموم الدارين، فيالها من وقفة تزيح عن القلب السدم، ثم صلينا الركعتين خلف المقام، وعاودنا من الحجر الأسود الإستلام . ففي الحديث عن سيد ولد عدنان: «أن الركن والمقام من يواقيت الجنان، يأتي كل واحد منهما يوم القيامة مثل أحد له لسان وشفتان وعينان يشهدان لمن وافاهما بحق ويشفعان، ولولا ما مسها من الخطايا لكان لما بين المشرق والمغرب يضيئان ولكل ذي عاهة وسقم يشفيان»[1] .

تـنـبـيـه : شاع عند الناس أن المطاف لا يخلو من طائف ليلا ونهارا، حرا أو قرا، وهذا أمر جلي، وإلا فقد حدثنا الثقاة من علماء زماننا القاطنين بمكة أنه قد يخلو من طائف في وقت مخصوص في غير أيام الحج، ويزعمون أنه لا يخلو إلا لولي أو قطب . فقد حدث شيخنا أبو عبد الله محمد بن الحسين البنائي الفاسي، رحمه الله تعالى، أنه جعل ينتهز فرصة في ذلك، فلما وجدها ابتدأ الطواف، فما أكمل الأشواط السبعة حتى شاركه غيره .

1- أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** بلفظ «عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : الركن والمقام يقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولو لا ذلك لأضاءتا بين المشرق والمغرب» كتاب الحج باب ماورد في الحجر الأسود والمقام، رقم 9010، 5/ 75 ؛ **صحيح ابن حبان** ، كتاب الحج، ذكر البيان بأن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، رقم 3710، 9/ 24 ؛ **مسند الامام أحمد**، رقم 7000، 2/ 213.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: يأتي الركن يوم القيامة أعظم من أبي قبيس له لسان وشفتان. **مسند الامام أحمد** : رقم 6978، 2/ 211. وذكر الأزرقي عن ابن عباس قال :«ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جوهر الجنة، ولولا ما مسهما من أهل الشرك ، ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل». انظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 332 .

وفي كتاب **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، لقطب الدين الحنفي ما نصه: «كنت أشاهد خلو الحرم الشريف، وخلو المطاف من الطائفين حتى أني أدركت الطواف وحدي *313* من غير أن يكون مع أحد مرارا كثيرة، قصدا لتكثير الثواب بأن يكون الشخص الواحد يقوم تلك العبادة وحده في جميع الدنيا؛ وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط ، وأما الملائكة فلا يخلو عنهم المطاف الشريف، بل يمكن أن لا يخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا يظهر صورته، ويطوف خافيا عن أعين الناس . ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يتحدى أداء هذه العبادة بالانفراد ظاهرا كثير من الصلحاء، لأنه ليس يعني عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد في جميع الدنيا، ولا يشاركه غيره في تلك العبادة بعينها إلا الطواف فإنه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر، والله تعالى أعلم بالسرائر، حتى حكى لي والدي رحمه الله تعالى، أن وليا من أولياء الله تعالى، رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهارا ليفوز بالطواف وحده، فرأى بعد هذه المدة خلو الطواف الشريف، فتقدم يشرع وإذا بحية تشاركه في ذلك الطواف، فقال لها: ما أنت من خلق الله تعالى؟ فقالت: إني أرصد ما أرصدته قبلك بمائة عام، فقال لها: حيث كنت أنت من غير البشر فإني فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر، وأتم طوافه .

وحكى لي شيخ معمر من أهل مكة أنه شاهد الضبا تنزل من جبل أبي قبيس[1] إلى الصفا[2] ، وتنزل من باب الصفا إلى المسجد، ثم تعود لخلو المسجد، وهو صدوق عنده. وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خاليا عن الباعة والقوافل، تأتي بالحنطة فلا يجدون من يشترى ما جلبوه، وكانت الأسعار رخيصة من قلة الناس، وعزة الدرهم»، هـ .

---

1 - جبل أبي قبيس : يقع فوق الصفا ويطل على المسجد الحرام ، وهو الذي انشق فيه القمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر:الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 80 - 81 ؛ الحربي، **المناسك** 474 - 481 .

2- الصفا : ربوة يرتقي عليها الحاج حتى يحاذي الحجر الأسود ثم يكبر ويهلل ويشرع في السعي بينها وبين المروة .انظر: الحموي، **معجم البلدان**،3/ 411 ؛ الحربي، **المناسك**. . .، 305 ؛ **الاستبصار** : 29 - 30 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة**،2/ 120 .

ثم قصدنا زمزم فتضلعنا من مائها، فقد ورد أن التضلع منها هي الآية الفاصلة بين أهل الإيمان وأهل النفاق، لا يحبها إلا مؤمن، ولا يبغضها إلا ذو نفاق. رأى في الحديث: «أن خير بئر في الأرض بئر زمزم»[1]، وبها تجتمع أرواح الموتى ممن أسلم. وقد صح الحديث «أن ماء زمزم لما شرب له»[2]، ولا التفات إلى من ضعفه أو علله، وصح أنها للجائع طعام، وللمريض شفاء من السقام، وقد فضل ماؤها على نهر الكوثر حيث غسل منها القلب الشريف الأطهر، ففي الحديث «من طاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، وشرب من ماء زمزم، غفر الله ذنوبه كلها بالغة مابلغت»[3] *314* وورد أن الله تعالى يرفع المياه العذبة غير زمزم قبل يوم القيامة، وناهيك بذلك أمارة عن الفضل وعلامة[4]. (من الطويل)

غَنمْنَا عِنْدَ بَيْتِ اللهِ عَيْشًا ... وَطيبًا فِي مَقَامِ هُنَا آمِينِ
وَدَارَ بِمَاءِ زَمْزَمَ لِي قَدِيمٌ ... وَطَافَ لَنَا بكَأسٍ مِنْ مَعِينِ

ثم خرجنا بأثر ذلك إلى الصفا، فوقفنا ومن بابها إليها توجهنا وذهبنا، وبما بدأ به الحق سبحانه بدأنا، فاستقبلنا وكبرنا وهللنا وإلى الله تعالى مددنا يد الضراعة فدعونا، ثم منها إلى المروة[5] مثل ذلك، ثم أكملنا سبعا، وفي كل ذلك نسعى[6] بين الميلين أخضرين سعيا شديدا، مع ما عليه المسعى. فعند ذلك قر القرار

1- قول علي بن أبي طالب ﷺ. انظر: يحيى النووي، **شرح النووي على صحيح مسلم**، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1392هـ، 8/ 194؛ ابن هبة، **تاريخ مدينة دمشق**، 41/ 468؛ ابن الجوزي، **غريب الحديث**، تحقيق د عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1405/ 1985، 2/ 113.

2- الحديث أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** كتاب الحج باب الرخصة في الخروج بماء زمزم رقم 9767، 5/ 202؛ والإمام أحمد في **مسنده**، رقم 1538، 3/ 372

3- ينظر: السيوطي، **الدر المنثور**، 1/ 293.

4- ساقطة من د.

5- المروة: أشهر أكمة بمكة واسمه مرتبط بتل الصفا، بينهما يتم السعي أحد أركان الحج والعمرة قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾سورة البقرة الآية 158. انظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 120؛ الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 116؛ **الاستبصار**. . .، 29 – 30؛

6- السعي: يكون بالسير سبع أشواط بين الصفا والمروة مع الابتداء بالصفا. انظر: ابن رشد، **بداية المجتهد**، دار الفكر، بيروت، 1/ 251 – 252.

وطاب المسكن والمزار، فنزلنا بدار السمان على باب دار الندوة[1] المزيدة في المسجد، ويدعى بباب الزيادة في هذه الأزمان، وحضرنا ضحوة السابع خطبة المناسك بالمسجد الحرام، والخطيب حنفي، وله ببعض أبعاض جزئيات العلم إلمام !. وفي الثامن، وهو يوم التروية، خرجنا قبيل الزوال إلى مِنى موافقة لرفقائنا بعد أن طفنا بالبيت سبعا، وإلا فالسنة الخروج بقدر ما يدرك الظهر بمِنى في آخر وقتها المختار، فصلينا الظهر بمسجد الخيف[2]، ولم نبتْ بها إذ لم نجد أمنا، ولما تعذر[3] منذ أزمان من عادة الشامي والمصري سيما ومنه كان الرفيق والمغنى، على أنه لا هدي على تاركه إلا على سبيل الورع، وقيل بوجوبه وهو شاذ في المذهب، قال الحطاب. وهذه السنة - أعني المبيت بمنى هذه الليلة - قد أميتت منذ أزمان، وقد ذكره كثير من المرتحلين كابن رُشيْد[4] والعبدري[5] ومن بعدهما وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك، بعد ذهاب الأركاب، ولا يبيت بها اليوم، ولا يحيي هذه السنة إلا المغاربة إن كانوا أقوياء على الدفع عن أنفسهم، وإلا اقتفوا أثر غيرهم. وربما يعتقد بعض الجهلة في المبيت هذه الليلة بعرفة الوقوف احتياطا، خشية أن يسبق الهلال[6]، ولا يجزئ الوقوف ولو صادفوا في نفس الأمر لفقد نية أنها ليلة عرفة، كما قيل في الصلاة، وإن شك في دخول الوقت لم تجزئ ولو وقعت فيه.

1- دار الندوة : أحدثها قصي بن كلاب بن مرة لما تملك مكة، وهي دار كانت قريش تجتمع فيها للمشاورة. ولفظه مأخود من الندي والنادي والمنتدى وهو مجلس القوم الذي يندون حوله أي يذهبون قريبا منه. وهي الدار التي اجتمعت فيه قريش للتشاور في أمر السول عليه السلام. انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 423؛ الحربي، **المناسك**...، 475؛ **الاستبصار**...، 26

2- مسجد الخيف : ويسمى مسجد علي وهو بمنى، وهو موضع منزل النبيﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في حجة الوداع. انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 412؛ الحميري، **الروض**...، 229؛ العياشي، **الرحلة**، 1/ 204.

3- في د «تقرر».

4- ابن رشيد، **ملأ العيبة بما جمع بطولة الغيبة في الوجهة من مكة إلى طيبة**، ص 95-96.

5- العبدري، **رحلة**، الصفحات : 372، 392، 407.

6- في د «إليها».

ثم سرنا فصلينا العصر بالمشعر الحرام[1] من المزدلفة[2]، ثم رحلنا بين المأزمين[3] إلى عرفة، وعن يمينك وأنت ذاهب بينهما طريق من وراء الجبل أسهل وأوسع وأبعد من الزحمة، مع ما هي *315*عليه من بعض الطول. يروى أن النبي ﷺ في ذهابه مر بها وفي إيابه على هذه. ثم حططنا الرحال قبيل الغروب فيما بين مسجد نمِرَة[4]، والموقف في ليلة بهية ما أقصرها وما أحسن من وفق لمراقبة خالقه ولإخلاص عبادته بها، معرضا عن الدنيا بحذافيرها، وعما أحدث من اللهو والفرجة فيها، وقد وجدنا بها قبلنا جموعا من الأعراب لا يحصيها كثرة إلا الملك الوهاب. وفي صبيحة الجمعة، وهو يوم عرفة، إجماعا من أهل الموسم، قامت سوق عظيمة من كل ما يطلبه الإنسان، وهو به يهيم، لا ترى أرخص سعرا منه في بلاد الحجاز حقيقة من غير مجاز، إكراما من الله تعالى لعباده، وإنعاما عليهم حتى يرجع كل منهم بمراده. ثم لما اشتد النهار وزالت الشمس اغتسلنا، واتجاه مسجد نمرة توجهنا، فلم نتمكن من سماع

1- المشعر الحرام: وهوفي قول الله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾ البقرة: 198. وهو بمزدلفة وجمع يسمى بهما جميعا، والمشعر العلم المتعبد من متعبداته وهو بين الصفا والمروة، وهو من مناسك الحج يقف عنده الحجاج للدعاء والذكر غداة النحر ففي **صحيح مسلم** وسنن البيهقي أن رسول الله ﷺ «أتى المشعر الحرام فرقى عليه فحمد الله وكبره وهلله ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا ثم دفع قبل أن تطلع الشمس». انظر: **صحيح مسلم**، كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ، رقم 1218، 2/ 891؛ **سنن البيهقي الكبرى**، كتاب الحج باب من بات المزدلفة حتى يصبح، رقم9300، 5/ 124؛الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 133 – 134.

2- المزدلفة: اختلف فيها لم سميت بذلك فقيل: مزدلفة منقولة من الازدلاف وهو الاجتماع وفي التنزيل ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ الشعراء: 64. وقيل الازدلاف الاقتراب لانها مقربة من الله، وقيل إن آدم هبط إلى الأرض لم يزدلف إلى حواء أو تزدلف إليه حتى تعارفا بعرفة واجتمعا بالمزدلفة فسميت جمعا، ومزدلفة هو مبيت للحجاج ومجمع الصلاة إذا صدروا من عرفات وهو مكان بين بطن محسر والمأزمين والمسافة بينهما وبين منى ثلاثة أميال. انظر: الحربي، **المناسك**...، 506؛ العبدري، **رحلة**، 386؛ الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 121–120.

3- المأزمين: مفرد مأزم ومعناه المضيق، وتطلق هنا على التلين الواقعين بين المعشر الحرام وعرفات والمقصود المضيق بينهما، ويعرف التلان باسم مأزمى عرفة أو منى. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 40؛ **الاستبصار**، 36

4- نمرة: موضع بعرفة نزل بها رسول الله ﷺ في حجته. انظر: البكري، **معجم ما استعجم**، 1/ 134؛ العبدري، **رحلة**، 387 – 388؛ الفاكهي، **أخبار مكة**، 4/ 326.

الخطيب ولا صلينا خلفه، لإنه حنفي يتم الصلاتين، ويجمع بينهما إثر الخطبة، فاجتمعنا بعد فراغهم في جماعة من المغاربة فجمعنا بين الظهرين قصرا على ما تقرر في المذهب المالكي. ثم يممنا الموقف، فوقفنا راكبين أسفل موقف النبي ﷺ عند الصخرات، وهو موقف الإمام اليوم، فشرع في التذكير، وهو حنفي طاعن في السن ترْجى له البركة، وجعل يخلله بالتلبية فكلما أراد أن يلبي أشار بطرف ثوبه إلى الناس ليلبوا فانقلبت بدعة، فصارغالب من بالموسم يشير عند التلبية بطرف ثوبه أو ردائه، وربما اعتقد العامة أن الإشارة في ذلك بالثوب من السنة وما يدرى أنها بدعة والناس عنها في سعة. فأقبل الناس على الدعاء في موقف يبهر أمره، ويعجز عن وصفه ذو المنطق البليغ وغيره، في موقف استوى فيه الشريف والمشروف في الإفتقار والدلة والإضطرار حسبما هو به موصوف، كل يرغب مولاه المغفرة للذنوب، ويناجيه في ذلك وهو علام الغيوب. يا له من مشهد تسكب فيه مزيد العبرات، ويتذكر الإنسان فيه ما اقترفه من الزلات، فيتداركه ربه بطوفان الرحمات، وينادي بذلك ملك لو يسمع من سائر الجهات: قد غفر لكم الكبائر والصغائر، فضلا من متولي السرائر، وخصيصة اختص بها الحج من بين سائر العبادات، ومكرمة أكرم بها الحق تعالى عباده، فله الحمد في الزمان الأول والآت. *316* قال الشاعر: (من البسيط)

جَاؤوا بأَحْمَالِ أَوْزَارٍ تؤَودُهُمُ ... منْهَا جبَالٌ وَحُسْنُ الظَّنِ وَطاهَا
فَسَالَ لَمَّا رَأَى الرّحْمَانُ ذِلتَهُم ... طُوفَانُ عَفْوٍ وَغُفْرَانٍ فَغَطاهَا

وقال الآخر: (مجزوء الكامل)

ضِيّافَةَ الْغُفْرَانِ قَدْ ... عَمّتْ بِمَكّةَ لِلْوَرَى
فَأَصْبَحَتْ مَعْلَمَةَ ... أمّ القِرى أمّ القُرَى

ولم يزل ذلك دأبهم إلى أن تحقق سقوط قرص الشمس فنفروا، ومن لم يبال من الرعاع[1] والجمالين وخصوصا الفراشين ينفر قبل الغروب ظانا أن الوقوف يجزئ بالنهار[2]، وما درى أن المالكي لا يجزيه على المشهور

1- في د «الدعاء».

2- في د «مجزء في النهار».

من مذهبه إلا حضور جزء من الليل. ثم أفاض الناس من عرفة إلى المزدلفة بين المأزمين في فرح وسرور لم ير مثله في الأعصار والدهور، في زحمة عظيمة، كل من الشامي والمصري بأمرائهما وجيوشهما يروم السبق بين العلمين[1]، وغالبا يقع في ذلك موت أو جرح، وقد اختار الله تعالى لكلا الركبين في هذه السنة أميرين عاقلين ثابتين، فتم السرور بهما، ولا وقع شيء من ذلك بينهما. ومن عرفة يستقي الناس من مياهها العذبة الجارية الدافقة ما يشربون، ويطبخون به بالمزدلفة في القديم، وأما اليوم فالماء بها موجود، وسرنا فبلغنا جمعا وهي المزدلفة بعد غروب الشفق، فجمعنا بين الصلاتين مقصرين العشاء على السنة المألوفة، وبهذا أخذنا جمار العقبة السبع، وغيرها يلقط [2] من منى، وبعض الناس يأخذ الجميع من المزدلفة ولاباس بذلك. ثم لما صلينا الصبح تقدمنا للمشعر الحرام، وهو في صورة مسجد غير مسقف ومعه بعض اتساع، وفي وسطه منار صغير وقبة، يزعمون أنها موقف النبي ﷺ فيه للدعاء، ثم وقفنا هنيهة للدعاء إلى الإسفار، فسرنا إلى مِنى مسرعين في بطن واد النار[3] وهو قدر رمية حجر، وسرنا كما نحن إلى العقبة أسفل منى ناحية مكة فرميناها من أسفل بسبع حصيات، ثم ذبحنا متطوعين، وحلقنا، فتحللنا التحلل الأصغر، وتوجهنا نحو البيت فطفنا الإفاضة[4]، فتحللنا التحلل الأكبر، فحل الصيد والنساء وغيرهما من محظورات الإحرام، حامدين الله تعالى على ما أولانا، شاكرين على ما أعطانا. ثم رجعنا في يومنا هذا إلى منى، وبها صلينا الظهر مقصرة، وبتنا ورمينا لليوم الثاني والثالث الجمرات الثلاث سبع حصيات *317* لكل واحدة، وتعجلنا جريا على العادة اليوم، ومن لم يتعجل فعلى خطر في نفسه وماله.

1- في د «العالمين».

2- في د «يؤخذ».

3- واد النار: واد مُحَسِّر وهو حد مزدلفة مما يلي منى. انظر: العبدري، **رحلة**، 386؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 4/ 1190؛ الناصري، **الرحلة**، 234.

4- طواف الإفاضة: يقع بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر، وهو المعني بقوله ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الحج: 29. انظر: ابن رشد، **بداية المجتهد**، 1/ 251.

والذي يذبح بمنى من الغنم والبقر، وينحر من الإبل ما ليس في طوق البشر عدة، حتى تمتلئ الطرقات باللحوم، بل يبقى الكثير غير مسلوخ للطيور، ضيافة الله تعالى لوفود بيته حسا، وأعظم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة؛ وتنصب بمنى الأسواق بأنواع التجارات، وعرفة أرخص منها، والناس يتحرون الشراء منهما بقصد التبرك، وبها في هذه الأيام من أنواع الفرح بايقاد المصابيح والرمي بالمدافع ما فيه نزهة للأبصار وتسلية للأفكار.

لطيفة : بسيط مِنى وشعبها متسع طويل ممتد، يتخيل للناظر في أيام الموسم ضيقه من كثرة الخلق، قيل: ومن أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها، فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله. ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها، قصور عالية، وأسواق حافلة، وجنود مجندة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية، ومواكب هنية، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة، إلى أنواع العبادة من تكبير وتهليل وصلاة وقراءة ونحر وذبح وإطعام طعام ورمي جمار، وما الدنيا بمحمودها ومذمومها إلا كذلك، فلا تمر على ذلك كله إلا ثلاثة أيام حتى ﴿لَا تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[1]، فلا ترى في منازل لهم إلا عظاما نخرة[2] وغرف بالية وفضلات مشتة وغثاء أحوى[3]، أغبر تسفيه الريح وتذروه، وهذا هو المثل الحقيقي للدنيا، فليعتبر أولوا الأبصار من سكان البادية والأمصار.

رجوع، ثم أفضنا إلى مكة، فاعترتني بها أمراض من انتفاخ رأسي بسبب التجريد، وهاجت علي مع ذلك الصفراء والحمى فما عوفيت من ذلك إلا بعد أيام. وفي السابع عشر من الشهر وهو صبيحة يوم السبت اغتسلت فخرجت إلى التنعيم فأحرمت للعمرة، ثم دخلت فطفت وسعيت لها، وتحللت من ذلك، فحلقت قبل الزوال والحمد في ذلك وغيره، للكبير المتعال لا إله غيره ولا خير إلا خيره.

1- استعار من الآية ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ مريم :99

2- استعارة من الآية ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ النازعات : 11 .

3- استعارة من الآية ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ الأعلى: 5 .

خـاتـمـة[1] تشتمل على المحتاج إليه من أخبار مكة والبيت والمسجد وما حواه، وما في داخلها أو في خارجها من المشاهد، وذكر ما اجتمعنا[2] به على سبيل الاختصار.

فنقول: مكة المشرفة لها أسامي كثيرة، سميت مكة لقلة مائها من قولهم: «أفن الفصيل ما في ضرع أمه»[3] *318*إذا لم يبق فيها شيئا، ولذلك يقال لها المعطشة أو لأنها تنقص الذنوب وتنقيها. ومن أسمائها: بكة بالباء الموحدة لأنها تبك أعناق الجبابرة[4] أي تكسرها. وهي مدينة لايراها القاصد إليها حتى يشرف عليها، مستطيلة كبيرة، ذات شعاب مستطيلة لها مبتدأ[5] ونهايتان، فمبدؤها المعلاة ومنتهاها من جانب جدة[6] الشَّبِيكة، ومن جانب اليمن قرب مولد سيدنا حمزة ﷺ، وعرضها من وجه جبل يقال له الآن: جبل جِزَلّ[7] - بكسر الجيم وفتح الزاي وتشديد اللام - سمي بذلك لأن طائفة من الحبوش يقيمون به ويسمون بهذا الإسم، يلعبون فيه بالطبل، وينتهي عرضها إلى أكثر من نصف جبل أبي قبيس تسع من الخلائق - خصوصا في أيام الموسم - ما لا يحصيهم إلا الله تعالى، في بطن واد مقدّس، والجبال محدقة بها كالسور لها. ولها في القديم سور في شرقيها يعرف بباب المعلاة [8] لأنه في أعلاها، وهو لناحية الشرق، وسور في جهة الغرب يعرف بسور باب شبيكة[9]، وسور في جهة اليمن وهو الجنوب، ويعرف بسور باب اليمن، ولم يبق الآن سور،

1- بياض في ح.

2- في د «اجتمعت».

3- المثل : أفن الفصيل ما في ضرع أمه إذا شرب ما فيه : أنظر:الميداني، **مجمع الأمثال**.

4- يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سميت بكة لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة. انظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 89

5- ساقطة من د.

6- ساقطة من د.

7- ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 134.

8- باب المعلاة : هو عند الثنية المعروفة بكداء، ومنه يخرج إلى المقبرة الموصوفة بالبركة. انظر: القاسم التجيبي، **مستفاء الرحلة والاغتراب**، تحقيق عبد الحفيظ منصور ليبيا - تونس 1975م، 232

9- باب الشبيكة: أحد أبواب مكة مبنى على ثنية كداء ، وهو باب العمرة وكان يعرف سابقا بباب الزاهد، ومنه يتوجه الى التنعيم. انظر : م . **س** : 233.

أينما جئتها تدخلها من الجهات الثلاث، ثم لا يمكن السلوك إليها من الجبال إلا منها، وفي شرقيها المناسك كلها: عرفة والمزدلفة ومنى.

قال تقي الدين الفاسي في كتابه **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**: »ذرع مكة من باب المعلاة إلى باب الماجن وهوباب اليمن أربعة آلاف ذراع وأربعمائة ذراع وإثنان وسبعون ذراعا - بتقديم السين- بذراع اليد وذلك على خط الردم والمسعى وسوق العلاقة، ومن باب المعلاة إلى الشبيكة مثل ذلك بزيادة مائة ذراع وعشرين ذراعا باليد وذلك في الطريق المشار إليها، إلا أنه يعدل منها إلى الشبيكة من الزقاق المعروف بابن عرفة» . قال قطب الدين الحنفي في كتابه **الإعلام**، ونقله أيضا التقي الفاسي، ذكر الزبير بن بكار عن أبي سفيان بن أبي وداعة السهمي أن سعد بن عمرو السهمي أول من بنى بيتا بمكة، قال: وينبغي لمن بنى بمكة بيتا أن لا يرفع بناءه على بناء الكعبة فإن بعض الصحابة كان يأمر بهدمه. قال الأزرقي: وإنما سميت كعبة لأنه لا يبنى بمكة بناء مرتفع عليها، ثم قال: فلم يبق بمكة دار لكبير أو غيره تشرف على الكعبة إلا هدمت أو خربت.

قلت: وأهل مكة اليوم وإن افرطوا في إعلاء البناء*319* على ما جرت به عادتهم به من طبقات ثلاث في غالب الدور، فلا أخال الكعبة إلا تعلو الجميع، نعم جيران المسجد من غير جهة المسعى أشد التصاقا بالمسجد مشرفون عليه بل عليته مخصوصة[1] الدور[2] مفتوحة فيها طاقات إليه، فلقد استضافني فيها بعض الطلبة فعلوتها فكان المسجد كما وصفت، ثم لا يخلو من قلة الاحترام سيما من الولدان.

ومن الجبال المحدقة بها أخشباها وهما: أبو قبيس وهو المشرف على الصفا وهو لناحية الجنوب، ومن جهته أجياد الكبير والصغير: شِعبان هنالك[3]،

1- في خ «بخصوصه».

2- ساقطة من د.

3- الجياد: موضع ببضحاء مكة، غربي الصفا، وهو مأخوذ من كلمة جياد بمعنى الخيل، وذلك أن السميدع بن جرهم عندما خرج لحرب الحارث بن مضاض كان معه جياد مسرجة حسنة وبها سمي المكان.. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 104- 105؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 1/ 115؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 133؛ **الاستبصار**، 7.

والجبل الأحمر[1] المقابل لأبي قبيس على ما ذكره الأزرقي[2] والفاكهي[3]، وكان يقال له في الجاهلية الأعرف، وهو المشرف على قيقعان وعلى دور عبد الله بن الزبير، وهو لناحية الشمال، وقيل أبو قبيس وقيقعان[4]، ذكر ذلك ياقوت[5]، ومن جهة قيقعان يتصل الجبل إلى الحَجون[6]، وهو ما أشرف منه على المقبرة ويقال للحجون نفسه: مقبرة والمعلاة وسيأتي. وعرف أبو قبيس بالأخشب الشرقي، وقيقعان بالغربي، والأخشب الغليظ. وفي تسمية أبي قبيس أقوال أولاها: أنه سمي باسم رجل ذكر الوراق أنه يقال له: أبو قابوس[7]، ويعرف هذا الجبل بشيخ الجبال، وليس في الشماخة كغيره من الجبال المحدقة بمكة، وسبب تسمية قيقعان وأجياد بذلك، ما في **شفاء الغرام**: «أن الحارث بن مضاض[8] جرى بينه وبين السميدع[9] حروب وإلى الأول ولاية البيت، فيخرج قيقعان وهم أهل كتبة إلى السميدع، ومع كتبته عدتها الرماح والدرق والسيوف تقعقع فسمي قيقعان لذلك، وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل الجياد والرجال الشداد فسمي أجياد لذلك»[10].

1- الجبل الأحمر : يقع في جهة الشمال من مكة على قعيقعان، انظر : الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 267 ؛ **الاستبصار** : 8 .

2- الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 267

3- الفاكهني، **أخبار مكة**، 4/ 47

4- قيقعان : اسم جبل بمكة، يشرف على الكعبة من شرقيها يقابل أبا قبيس ، وقعيقعان بمعنى رنين أتت من قرع الرماح والدروع من الحارث بن مضاض في حربه مع السميدع . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 279 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 133 ؛ **الاستبصار**، 8 .

5- الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 76

6- الحَجون : جبل بأعلى مكة . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 225 ؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 1/ 427 .

7- ينظر : البكري، **معجم ما استعجم**، 3/ 1040 .

8- الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض بن عمرو الجرهمي أحد ملوك جرهم وأول من تولى أمر الكعبة . انظر : المسعودي، **مروج الذهب**، القاهرة 1958م، 2/ 49 ؛ **تفسير ابن كثير**، 4/ 496 .

9- السميدع بن حوثر . انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 1/ 105 .

10- **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** لتقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي (قاض المالكية بمكة)، م خ ح ، رقم 1911 الباب الأول، ص13 والباب25 ص 344. (لم أعتمد ترقيم الصفحات المعتمد بالمخطوط لأنها غير مضبوط)

وبها آبار كثيرة غالبها مسبّل، وبرك مسبلة، منها المعروفة[1] للشامي والتي للمصري، وهما في الغاية من الكبر والإتقان، وحمامات، وعين[2] جارية عذبة، أجرتها إليها من عرفة[3] في قنوات متقنة زبيدة زوجة هارون الرشيد، ثم تعطلت منذ زمان، فكانت الركاب تتضرر أيام الموسم من قلة الماء، ثم أصلحها الأمير سرور في وقتنا هذا فكثر الماء بها، جزاه الله خيرا، ومع ذلك فلا بد وخصوصا في أيام الموسم من شراء الماء حتى للشرب والوضوء من زمزم وغيرها، إلا في مواضع قليلة لمن يعرفها. وعمالتها *320*اليوم من خارج جدة والطائف ومُر الظهران، وما كان بالقرب من هذا الذي في إيالة أميرها، وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا .

وأعراب الحجاز اليوم غالبيتهم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من ولى الحرمين، وأمير مكة هو الحاكم غالبا على أهل المدينة المنورة، وفي سنتنا[4] هذه وقعت نائرة[5] بينه وبينهم حتى توجه إليهم في جيش فحاربهم وأخلى قلعة المدينة، ووقع فيها نهب وهتك حرمة، ومع ذلك لم ينقادوا له، ولا أقاموا له وزنا، وحجة الأمير عليهم أنهم يتحزبون عليه بمن والاهم من الأعراب، فنكثوا بيعته بعد أن دخلوا فيها، ثم أن الله تعالى ندب السلطان عبد المجيد العثماني إلى ذلك، فأخمد الفتنة بينهم، وبعث ابن أمير الركب الشامي حاكما على المدينة، فعند ذلك تخلى عنهم أمير مكة .

وبيع دورها وإجارتها أختلف فيه، قول مالك[6] بالمنع والكراهة، وعليه فإن بيعت أو أكريت لم يفسخ، ولم يختلف المالكية في أنها أُفْتُتِحت عنوة،

---

1 – في د «المعروف» .

2 – في ج وخ ود «عيون» .

3- زبيدة أجرت عينا إلى مكة من حنين ، أما العين التي أجرتها من عرفة فقد أوصلتها إلى منى ، وبعده بيسير وقف العمل لصلابة الصخر ، ولم تجر إلى مكة إلا بعد عهد زبيدة بقرون . انظر: عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات مكة المكرمة في مئة رحلة مغربية ورحلة**، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، الرياض سنة 1425/ 2004، 2/ 461 هامش1.

4- في د «وقتنا» .

5- في د «منافرة» .

6- في د «الإمام مالك» .

وبسبب الخلاف في البيع والإجارة، الخلاف في مكة هل حرمها صلى الله عليه وسلم على أهلها فلم تقسم؟ ولا سبيَ أهلها لما عظم الله من حرمتها، و أقرت للمسلمين، فعلى الأول الجواز، وعلى الثاني المنع وفيه نظر. فقد بيعت على عهد رسول الله ﷺ، وعمر وعثمان، وبأمرهما اشتريت الدور فيها لتوسعة المسجد الحرام، وكذلك فعل ابن الزبير وغيره من الصحابة، وهم أعرف الناس بذلك، ولا يعارض هذا ما في ابن ماجة وغيره: كانت الدور على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم لا تكرى ولا تباع، «من احتاج سكن ومن استغنى أسكن»[1] لأن هذه شهادة على النفي، وفي مثل ذلك يقدم المثبت. وينبغي أن يتفق اليوم على جواز البيع والكراء في خصوص الأنقاض المبنية لأن بانيها مالكها، ألا ترى من بنى في أرض الوقف جاز له أن يبيع بناءه، وأما بيع أرضها فيبقى فيه الخلاف المذكور. وحرمهما من نحو المدينة أربعة أميال وخمسة للتنعيم، ومن العراق ثمانية للمقطع، ومن عرفة تسعة، ومن جدة عشرة لآخر الحديبية، ومن علامته أيضا أنه يقف سيل الحل دونه. قال *321* الناظم: (من البسيط)

إنْ رُمْتَ لِلْحَرَمِ الْمَكِّيِّ مَعْرِفَـةً فاسْمَعْ وَكُنْ وَاعِيًا قوْلي وَمَا أصِفُ
وَ اعْلَمْ بأنَّ سُيُولَ الْحِلِّ قاطِبَـةً إذاجَرَتْ نَحْوَهُ فَـدُونهُ تَقِـفُ

وهذه العلامة الثانية أغلبية وإلا فقد يدخل سيل الحل للحرم حسبما شوهد ذلك في القرون السالفة، غير ما مرة ذكره الأزرقي[2] وغيره، ونقله غير واحد من شروح أبي المودة و خليل.

ولقد حدثني بعض من جاور من العلماء بمكة من المغاربة أنه شاهد ذلك في بعض السنين حتى دخل السيل المسجد الحرم فبلغ في سمك أساطينه

1- الحديث أخرجه ابن ماجة والبيهقي والدار قطني، عن علقمة بن نضلة قال: «توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تداعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن». انظر: **سنن ابن ماجة** باب أجر بيوت مكة رقم 9، 3098/ 258؛ **السنن الكبرى للبيهقي** كتاب البيوع باب ما جاء في بيع دور مكة وكرائها وجريان الإرث فيها رقم، 10968، 6/ 35؛ **سنن الدار قطني**، كتاب البيوع رقم 228، 3/ 58.

2- الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 130.

ما يقرب من قامة الإنسان حتى تهدمت بسببه دور كثيرة، ولقد ثبت لدينا بعد قفولنا من حجنا هذه السنة ونحن بمصر على البحر، أنه وقع بمكة سيل عظيم تهدمت به دور كثيرة، ولا يكثر هذه الكثرة إلا إن جاء خارج الحرام.

وسبب تحريمها على ما قيل أن آدم عليه السلام خاف على نفسه حين هبط إلى الأرض، فبعث الله تعالى ملائكة لحراسته، فوقفت في مواضع أنصاب الحرم من كل جانب فصار ما بين آدم وموقف الملائكة حرما، وقيل غير ذلك. وله علامات تبينه وهي أنصاب مبنية من جميع جوانبه إلا جهة الجعرانة، والخليل عليه السلام أول من نصبها بدلائل جبريل عليه السلام، ثم قصي بن كلاب، ثم قريش بعد أن نزعتها قبل هجرة النبي ﷺ، ثم أمر ﷺ بنصبها عام الفتح، ثم عمر، ثم عثمان، ثم معاوية رضي الله عنهم، ثم عبد الملك بن مروان، ذكره الأزرقي[1]. وقيل أن إسماعيل نصبها، وقيل أن عدنان أول من نصبها، ونصبها المهدي العباسي والراضي العباسي، والمظفر صاحب اليمن. وجميع حدود الحرم مختلف فيها، قال مجاهد: «إن هذا الحرم حرم ما[2] حذاءه من السماوات والأرضين السبع»[3]. وفي **الصحيح** من حديث أبي هريرة وابن عباس وغيرهما مرفوعا: «إن الله عز وجل حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض وأنه لا يحل اختلاء خلاها[4] ولا يُعْضَدُ[5] شجرها ولا يُنَفّرُ صيدها ولا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إلا لِمُعْرِف»[6]، والصحيح من مذهب مالك أن لقطة مكة كغيرها وفي صيدها الجزاء، وبه اختصت عن حرم المدينة كما اختصت بإقامة صلاة[7] العيد بالمسجد الحرام، وفي غيرها تقام بالصحراء، وبأن الإنسان يؤاخذ*322* بهمه بالسئية فيها وإن كان نائيا عنها، وتختص عند الشافعي بتضاعف الصلاة

1- م. س، 2/ 129 – 130.

2- ساقطة من ج و د.

3- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 124.

4- الخلا: ما يبس من النبات.

5- في د «عضد».

6- **صحيح البخاري** عن أبي هريرة في كتاب العلم باب كتابة العلم رقم 112، 1/ 53؛ وعن ابن عباس في كتاب الجنائز باب الإدخير والحشيش في القبر رقم1284، 1/ 452.

7- في د «صلاوات».

فيها وبعدم كراهة النافلة في وقت الكراهة، وتمتاز عند مجاهد وابن حنبل بتضاعف السيئات فيها. ويستثنى من نبات الحرم الإذخر[1] والسنا[2] ، وقطع العصا والعصاتين. ومن تعظيم الناس لمكة وحرمها ما في الأزرقي: «أن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في الكعبة أوفي الحرم أو في الشهر الحرام فلا يتعرض له»[3] .

ومنها، أن احتكار الطعام بها للبيع إلحادا[4]، يروى عن عمر وابنه رضي الله عنهما : «لأن أخطئ[5] سبعين خطيئة بركبة[6] أحب إلى من أن أخطئ خطيئة واحدة بمكة»[7] .

ومنها، أن الشيخ أبا عمرو الركراكي -أحد كبار مشايخ الصوفية- أقام بمكة أربعين سنة لم يبل ولم يتغوط في الحرم. وجاء في النجاة من الذنوب بالالتجاء إلى الحرم حديث لجابر ﷺ في نجاة أبي بن غال[8] والد ثقيف مما أصاب قوم ثمود لعقرهم الناقة، فلما خرج من الحرم أصيب، والحديث في مسلم وغيره[9] . تفضيلها على غيرها ورد مرفوعا من حديث أبي هريرة وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عدي بن الحمراء انظره في السنن الأربعة وغيرها، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه كالشافعية والحنابلة،

1- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : حَرَّمَ اللَّهُ مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا لأَحَدٍ بَعْدِي أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا الإِذْخِرَ لِصَاغَتِنَا وَقُبُورِنَا فَقَالَ إِلا الإِذْخِرَ. **صحيح البخاري**، كتاب الجنائز باب الإدخير والحشيش في القبر رقم 1284 ، 1/ 452.

2- السنا : واحدته سناة ، نبت يتداوى به . انظر: **لسان العرب**، 4/ 405 ؛ و قيس على الإذخر للحاجة العامة إليه .انظر : **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك** لمحمد عبد الباقي الزرقاني (ت1122 هـ)، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1411 ،2/ 533.

3- الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 140.

4- ساقطة من د .

5- في د «أخطأ» .

6- ركبة : موضع بين مكة والطائف . انظر : الحموي، **معجم البلدان** ،3/ 63 ؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 2/ 669 .

7- ينظر : الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 134 ؛ الفاكهي، **أخبار مكة**، 2/ 256 .

8- في د «غالب» .

9- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث .

محتجين أيضا بما أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحهما مرفوعا: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي»[1] . وبما لها من الفضائل على غيرها كاختصاصها بالبيت، وكونها قبلة للحي والميت، وبفرض الحج، وتحريمها يوم خلق الله السماوات والأرض، وبأنها لاتدخل إلا بإحرام، وبأنها مثوى الأنبياء كإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ومسقط رأس النبي ﷺ، ومحل إقامته قبل النبوة وبعدها إلى أن هاجر، ومحل نزول أكثر القرآن، ومهبط الوحي، ومظهر الايمان والإسلام ، ومنشأ الخلفاء الراشدين، وبها الحجر الأسود، والمقام، والصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، والمشعر الحرام، ومنى إلى غير ذلك من عظيم المزايا.

وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أفضلية المدينة محتجا بما روى أن النبي ﷺ قال حين خروجه من مكة إلى المدينة *323*: «اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إلي فاسكني أحب البلاد إليك» رواه الحاكم في **المستدرك**[2] إلى غيره من الأدلة. وبين الفريقين في ذلك نزاع طويل ليس هذا محله، قال[3] عياض: وهذا الخلاف لا يدخل الموضع الذي ضم أعضاءه ﷺ، فهو أفضل بقاع الأرض بالإجماع [4] . وورد في عدة أحاديث صحيحة أيضا تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على غيره[5]، وهو يعم الفرض والنفل عند الشافعي، ويختص بالفرض على مشهور مذهب مالك، ولا يسقط هذا [التضاعف شيئا من

1- **صحيح ابن حبان**، رقم 1620، 4/ 499 ؛ **مسند الإمام أحمد** ، رقم 4838 ،2/ 29 ورقم 5778، 2/ 101 .

2- **المستدرك على الصحيحين** لمحمد بن عبد الله الحاكم (ت405هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1411هـ ، كتاب الهجرة، رقم 4261، 4/ 3.

3- ساقطة من ح .

4- **كتاب الشفا** وفيه : «ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض» ص : 281 .

5- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» أخرجه **البخاري** في كتاب الكسوف باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة رقم 1113 ،1/ 398 ؛ **ومسلم** في كتاب باب فضل الصلاة في مسجدي مكة والمدينة رقم 1394،2/ 1012 ؛ وفي **صحيح ابن حبان** عن عبد الله بن الزبير قال : «قال رسول الله ﷺ : صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في ذاك المسجد أفضل من مائة صلاة في هذا يعني في مسجد المدينة ». كتاب الصلاة باب المساجد رقم 1619 ،4/ 498 .

الفوائت كما تخيله كثير من الجهال كما نبه عليه الإمام النووي] [1] . وورد في الحديث تفضيل الصوم بمكة على غيرها أخرجه ابن ماجة بسند لا يصح عن ابن عباس، وأخرج الحاكم عنه وصححه مرفوعا: «من حج من مكة ماشيا حتى يرجع إليها كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم[2]. فقال بعضهم لابن عباس: وما حسنات الحرم؟ قال: كل حسنة بمائة ألف حسنة»[3] . قال المحب الطبري في حديث مضاعفة الصوم والصلاة بمكة دليل على اطراد التضعيف في جميع الحسنات الحاقا بهما، ويؤيده قول الحسن. والمجاورة بها استحبها الشافعي وأحمد وأبو يوسف ومحمد صاحب أبي حنيفة وابن القاسم والمالكية نقله ابن الحاج. وقال النووي: هو المختار وعليه عمل الناس، وكرهها أبو حنيفة وبعض الشافعية وجماعة من المحتاطين، وفهم ذلك ابن رشد من كلام وقع لمالك كخوف الملل، وقلة الإحترام، وخوف ارتكاب ذنب هنالك، ولهذا كان عمر ﷺ يدور على الحاج بعد قضاء النسك بالدرة ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم، فإنه أبقى لحرمة ربكم في قلوبكم»[4] .

وقال بعض العلماء: من جاور بالحرم وقلبه متعلق بما سوى الله تعالى فقد ظهر خسرانه، وقال بعض السلف: كم من رجل بخراسان هو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به كما قيل: (من الطويل)

وَكَمْ مِنْ بَعِيدِ الدّارِ نَالَ مُرَادَهُ وَكَمْ مِنْ قَرِيبِ الدّارِ مَاتَ كَئِيبًا

ولهذا اختار ابن عباس المقام بالطائف والموت بها، وورد فيه من حديث ابن عمر مرفوعا: «من مات بمكة فكأنما مات في سماء الدنيا »[5] وفي إسناده ضعف. وروى مرسلا «من مات بمكة بعث من الآمنين»[6] . وورد في فضل

1- ساقط من د .

2- في د «الحرام» .

3- الحاكم، **المستدرك**. . . ، أول كتاب المناسك، رقم 1692، 1/ 631 .

4- ينظر : الفاكهي، **أخبار مكة**، رقم 1556 ، 2/ 307 رقم 1918.

5- م. **س**، باب من مات بين الحرمين رقم1918 ، 3/ 160 .

6- **ن. م**، باب من مات بمكة أو في طريق مكة رقم 419. 1/ 387.

أهل مكة *324* حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «بعث رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة فقال له: هل تدري إلى من أبعثك، أبعثك إلى أهل الله فاستوص بهم خيرا، يقولها ثلاثاً»، أخرجه الزبير بن بكار والفاكهي والأزرقي[1]. وورد أن سفهاء مكة حشو الجنة، واتفق بين عالمين في الحرم منازعة في تأويل الحديث وسنده، فاصبح الذي طعن في الحديث ومعناه قد طعن أنفه وأعوج، وقيل له ثلاثا: إن والله سفهاء مكة من أهل الجنة، فأدركه روع وخرج إلى الذي كان يكابده في الحديث من علماء عصره، وأقر على نفسه بالكلام فيما لايعنيه، وفيما لم يحط به خبرا .

والمسجد الحرام، زاده الله تعالى شرفا وتعظيما وعظمة ومهابة وتكريما، من أعظم مساجد الدنيا، وأشرف مكان خصه الله بالشرف والعليا، بناه ووسعه عدة من الخلفاء، وذلك أن الكعبة لما بناها إبراهيم عليه السلام لم يكن حولها دار ولا جدار، واستمرت كذلك في أيام العمالقة وجرهم وخزاعة، لا يتجرأ أحد أن يبني عليه دارا ولا جدارا، احتراما للكعبة. فلما آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب واستولى على مفتاح الكعبة، جمع قومه وأذن لهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتا من جهاتها الأربع، وكانوا يعظمونها بعدم البنيان حولها والدخول إلى مكة بجنابة، وكانوا يقيمون بها نهارا، فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل، فقال لهم قصي: إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس، ولم يستحلوا قتالكم والهجوم عليكم. وبنى هو، وبنى دار الندوة من الجانب الشامي- ويقال أنها محل مقام الحنفية الذي يصلي فيه الآن الإمام الحنفي الصلوات الخمس- وقسم قصي باقي الجهات بين قبائل قريش، فبنوا دورهم وفتحوا أبوابها نحو الكعبة، وتركوا للطائفين مقدار المطاف . ثم كثرت البيوت واتصلت إلى زمن النبي ﷺ، ثم لما ظهر الإسلام وكثر المسلمون، استمر الحال على ذلك الموضع إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فرأى لكثرة الناس أن يزيد في المسجد، فاشترى - كما للأزرقي[2] - دورا حوله، وهدمها وأدخلها فيه، وأمر بجدار قصير أحاط

1- الفاكهي، **أخبار مكة**، رقم 1801، 3/ 64 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 153(بلفظ مختلف) .

2- الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 69

بالمسجد، وجعل له أبوابا كما كانت بين الدور قبل أن تهدم، جعلها في محاذاة الأبواب السابقة. ولما كثر الناس في زمن عثمان *325* ﷺ فعل مثل ما فعل عمر ﷺ في شراء الدور والتوسعة[1]، ثم فعل مثله عبد الله بن الزبير ﷺ، وجعل له سقفا، وهل أكمله أو بعضه تردد فيه نقل الأزرقي[2]. ثم عمره بعده عبد الملك بن مروان، ولم يزد فيه، ثم ابنه الوليد، ونقض عمل والده وعمل عملا محكما، وكان إذا بنى مسجدا زخرفه، وهو أول من نقل إليه الأساطين الرخامية، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وفرش المسجد بالرخام، وجعل له سرادقات، وبعث إلى واليه بمكة خالد بن عبد الله يضرب على باب الكعبة صفائح الذهب، وعلى الميزاب، وعلى الأساطين التي في باطنها، وعلى الأركان التي في جوفها. ويقال: إن الحلية التي حلاها الوليد هي ما كانت في مائدة سليمان بن داود من ذهب وفضة، وكانت قد احتملت من طليطلة من جزيرة الأندلس على بغل قوي، وكانت بها أطواق من ياقوت وزبرجد[3]. ثم لما أنطوى ملك بني مروان وآل إلى آل عباس، وأول من ولى منهم السفاح[4]، ثم أخوه أبو جعفر المنصور، وزاد في المسجد في الجهة الشامية مما يلي دار الندوة، وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التي في ركن باب بني شيبة، ولم يزد في أعلاه ولا في جنوبه شيئا. وكل ذلك بعد شراء الدور وهدمها، وعمل نطاقا واحدا بأساطين الرخام دائرا على صحن المسجد، وهو الذي زاد في المسجد مقدار الضعف مما كان قبله، وزخرفه بالذهب والنقوش، ورخم الحِجر- بكسر الحاء المهملة ثم جيم - وكان الأول من رخمه، وكل ذلك على يد زياد بن عبد الله الحارثي والي الحرمين والطائف من قبل المنصور، وكتب على باب

1- الأزرقي، **أخبار مكة**: 2/ 69.

2- **م. س**.

3- ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 124 - 125.

4- السفاح: أول خلفاء بني العباس، أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هشام. ولد سنة 28 هـ بالحميمة، بويع بالخلافة لاكوفة سنة 132هـ. وتوفي سنة 136هـ. ترجم له: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**: 206 - 208.

بني[1] جُمح أحد أبواب المسجد من قبل الصفا: بسم الله الرحمان الرحيم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[2] أرسله ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[3]، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ إلى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾[4]، أمرَ عبد الله أمير المومنين أكرمه الله تعالى بتوسعة المسجد الحرام، وعمارته والزيادة فيه، نظرا منه للمسلمين واهتماما بأمورهم؛ والذي زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل، ورفعت الأيدي عنه في ذي الحجة سنة 145هـ، وذلك بتيسير الله تعالى على أمير المومنين، وحسن رعايته وكفايته وإكراما له *326* بأعظم كرامته، فأعظم الله تعالى أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام، وأحسن الله ثوابه، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة، وأعز نصره وأيده. ثم ولي بعده ولده المهدي[5]، فاشترى دورا في أعلى المسجد وأسفله، ومن الجانب الشامي واليماني بأموال لا يكاد يحصيها العد، وأمر بالأساطين الرخامية، فنقلت من مصر والشام، وحملت إلى بحر جدة في موضع كان في أيام الجاهلية ساحلا لمكة يقال له الشعيبية[6]، فجمعت هناك لأن مرساه قريب بخلاف مرسى جدة، فهي بعيدة عن البر، وصارت الأساطين تحمل على العجل إلى مكة. قيل: ولازالت الرياح تنسف الرمال في ذلك الموضع فتبدو منه الأساطين الرخامية إلى الآن. ثم حج المهدي في عامه، ورأى الكعبة ليست في وسط المسجد بل في جانب منه، ورأى المسجد قد اتسع من أعلاه وأسفله ومن الجانب الشامي، وطاف من الجانب اليماني الذي يلي مسيل الوادي، وكان في محل السيل الآن بيوت الناس، وكانوا يسكنون من المسجد في بطن الوادي، ثم يسلكون زقاقا ضيقا، ثم يصعدون إلى الصفا، وكان السعي في موضع المسجد الحرام، وكان باب

1- ساقطة من ج وخ ود.

2- الفتح: 29.

3- التوبة: 33 والصف: 9.

4- آل عمران: 96 ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

5- المهدي: أبو عبد الله محمد بن المنصور، ولد سنة 127 هـ، وقيل 126 هـ، وتوفي سنة 169 هـ. انظر ترجم له: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، 218 - 224.

6- الشعيبية: بطن واد يقال له الحريم. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 3/ 351.

دار محمد بن عباد بن جعفر العابدي عند حد ركن المسجد الحرام اليوم عند موضع المنارة الشارعة في مجرى الوادي، فبها علم المسعى. وكان الوادي يمر دونها في موضع المسجد اليوم، فهدموا أكثر دار محمد بن عباد، وجعلوا المسعى والوادي منها، وكان عرض الوادي من الميل الأخضر الملاصق للمئذنة التي في الركن الشرقي للمسجد إلى الميل الأخضر الآخر الملاصق الآن لرباط العباس، وكان هذا الوادي مستظلا إلى أسفل المسجد الآن، يجري فيه السيل ملاصقا بجدار المسجد إذ ذاك، وهو الآن بطن المسجد من الجانب الشامي، فلما رأى المهدي تربيع المسجد ليس على الاستواء، ورأى الكعبة في الجانب اليماني من المسجد، جمع المهندسين وقال لهم: إني أريد أن أزيد في الجانب اليماني لتكون الكعبة في وسط المسجد، فقالوا: لا يمكن ذلك إلا بأن تهدم البيوت التي على حافة المسيل في مقابلة هذا الجدار اليماني، ولينقل السيل إلى تلك البيوت وندخل السيل في المسجد، ففعل بعد جهد جهيد، وإنفاق مال مديد، فعند ذلك طلع المهدي إلى جبل أبي قبيس، وشاهد تربيع المسجد، ورأى *327*الكعبة في وسطه، ورأى ما تهدم من البيوت، وجعله ميلا محلا للمسعى. هذا ملخص ما ذكره الأرزقي[1] والفاكهي[2].

قال الشيخ قطب الدين الحنفي في كتاب **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**: «وها هنا إشكال عظيم ما رأيت من تعرض له[3]، وهو أن المسعى بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التي أوجبها الله تعالى علينا في ذلك المحل المخصوص، ولا يجوز العدول عنه، ولا نتعبد بهذه العبادة إلا في هذا المكان المخصوص الذي سعى رسول الله ﷺ فيه، وأما المكان الذي يُسعى فيه الآن، فلا نتحقق أنه بعض من المسعى الذي سعى فيه رسول الله ﷺ وغيره، فكيف يصح السعي فيه، وهل الجواب عن ذلك أن المسعى في عهد رسول الله ﷺ كان عريضا، وبنيت تلك الدور بعد ذلك في بعض عرض المسعى القديم، فهدمها المهدي وأدخل بعضها في المسجد الحرام، وترك بعضها للسعي فيه، ولم يحول

1- الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 79 – 80.

2- الفاكهي، **أخبار مكة**: 2/ 170 – 173.

3- ساقطة من د .

تحويلا كليا وإلا لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين، مع توفرهم إذ ذاك . وكان الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما والإمام مالك بن أنس ﷺ موجودين يومئذ، وقد أقروا ذلك وسكتوا، وكذلك من جاء بعد ذلك الوقت في مرتبة الإجتهاد: كالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وبقية المجتهدين، رضي الله عنهم، فكان إجماعا منهم على صحة السعي من غير نقل عنهم. وبقي الإشكال في جواز إدخال شيء من المسعى في المسجد، وكيف يصير ذلك مسجدا، وكيف يصير حال الاعتكاف، وحكم بأنه يجعل حكم المسعى حكم الطريق العام، قال علماؤنا : يجوز إدخال الطريق في المسجد إذا لم يضر بأصحاب الطريق فتصير مسجدا، ويصح الاعتكاف فيه حيث لم يضر بمن سعى فاعلم ذلك، وهذا مما تفردت ببيانه، ولله الحمد على التوفيق لبيانه»، هـ .

قلت: والظاهر في الجواب أن الصفا والمروة هما اللذان يجب التعبد بالوقوف عليهما، إذ هما من شعائر الله تعالى كما في التنزيل[1] وما وراء ذلك، فسبيل من أحدهما لأخرى أينما مر الساعي أجزاه سواء مر في محل مروره ﷺ أو تركه يمينا أو شمالا. نعم يراعي الخبب في بطن المسيل، وغاية ما يقال: إنه كعرفة وهي كما في الحديث: «كلها موقف»[2] ، ومثل ذلك المطاف، وقد علمت جواز الطواف *328* خارجه تحت السقائف لزحمة، ومثله الوقوف للدعاء بالمشعر الحرام. نعم يتحرى الوقوف بموقف النبي ﷺ استحبابا لمن أمكنه ذلك ولو علم محل وطيه ﷺ في المطاف والمسعى لكان كذلك. ومما يناسب ما ذكر من التعدي على المسعى ما وقع في دولة الجراكسة في سلطنة الملك الأشرف قايتباي[3] المحمودي- سامحه الله تعالى- وملخصه: أن تاجرا أرسله قايتباي إلى

1- قال تعلى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 158 .

2- أخرجه مسلم فيصحيحه، كتاب الحج باب ماجاء أن عرفة كلها موقف ، رقم 121 ،2/ 893.

3- الملك الأشرف قايتباي المحمودي : سلطان مصر المملوكي ، من المماليك الجراكسة ، وقد كونوا عناصر الجيش في مصر وكان قايباي من رجال هذا الجيش قبل أن يبايع سنة 872 هـ ، وتعتبر فترة ملكه من الفترات الزاهية في هذا العهد . توفي سنة 901/ 1496 . انظر : السيوطي، **حسن المحاضرة**، 2/ 106 .

مكة اسمه محمد بن عبد الله بن الزمن الخواجة[1] يتعاطى له تجارة، ويعمر له مدرسة وجانبا من الحرم والحِجر[2] وجوف الكعبة، فكان من جوره وحبه للجاه أن كان بين الميلين ميضأة أمر بعملها السلطان الملك الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون[3] ، وكانت في مقابلة باب علي يحدها من الشرق بيوت الناس، ومن الغرب المسعى الشريف، ومن الجنوب مسيل وادي إبراهيم، ومن الشمال دار سيدنا العباس ﷺ الذي هو الآن رباط يسكنه الفقراء، فهدم الخواجا الميضأة المذكورة، وهدم من جانب المسعى مقدار ثلاثة أذرع وحفر أمامه ليبني بها رباطا يسكنه الفقراء، فمنعه من ذلك قاضي القضاة بمكة برهان الدين إبراهيم بن علي بن ظهيرة الشامي[4] ، فلم يمتنع من ذلك، فجمع القاضي جماعة وافرة من علماء المذاهب الأربعة وأنكروا ذلك وقالوا للظالم في وجهه: إن عرض المسعى كان خمسة وثلاثين ذراعا، وأحضروا النقل من تاريخ الفاكهي[5] ، وذرعوا من ركن المسجد إلى المحل الذي وضع فيه الظالم المذكور بنيانه فكان سبعة وعشرين ذراعا، ومع ذلك لم ينته، فكتب من بمكة من العلماء خطوطهم بمنعه، ووجهوها إلى السلطان قايتباي. وكان للجراكسة تعصب فيمن يلوذ بهم، ولو كان على باطل، فلما وصله ذلك انتصر لخادمه فكتب إليه أن يمضي على عمله، فبنى رباطا وبنى في جانبه دارا وحفر الميضأة وجعل في جانبها مطبخا يطبخ فيه ما يفرق على الفقراء، ووقف على ذلك دورا بمكة ومزارع بمصر، واستمر ذلك مدة إلى أن انقطع حتى بيعت القدور والديار. وقايتباي وخادمه هذا من أحسن الجراكسة عقلا ودينا ومع ذلك صدر منهم هذا الفعل المحرم الذي قام الإجماع على تحريمه. (من الرجز)

فَكُنْ حَديثاً حَسَنَا ذِكْرُهُ فإنَّمَا النَّاسُ أحَادِيثُ

1- ساقطة من د .

2- الحجر : حجر مكة هو ما تركته قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام وفيه قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 221 .

3- قلاوون : انظر ترجمته في **حسن المحاضرة** : 2/ 96 – 97 .

4- في د «الشافعي» .

5- الفاكهي، **أخبار مكة** : 2/ 243.

وقال الآخر:(من الرجز)

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا لِمَنْ رَوَى

رجوع ، لما نحن بصدده، *329* وأحضر المهدي البنائين والمهندسين في بناء هذه الزيادة، ووضع أعمدة الرخام، وسقف المسجد بالخشب من الساج المنقوش بالألوان، وكان في غاية الإتقان والإحكام، واستمر عملهم إلى أن توفي المهدي[6] قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذي أراده. ثم لما تولى أبو محمد وهو الهادي موسى[7] أخو هارون الرشيد وكان أول شيء أمر به إتمام بنيان المسجد الحرام، وبنى بعض أساطين الحرم من جانب باب أم هانيء. وهذا البنيان هو الباقي إلى زماننا هذا سنة تسعة وتسعين- بتقديم المثناة- ومائة وألف[8]، ومايزيد بعد ذلك إلا زيادتان: إحداها وهي الكبرى وقعت في أيام المعتضد[9] ، عمد إلى دار الندوة وأدخلها في المسجد من الجانب الشامي- وهي أول الزيادتين- وهي صحن مربع بأربعة أروقة من جوانبه الأربع ملاصقة لأروقة المسجد مرتفعة عنه بقليل، ليس بينها وبين المسجد حاجز ولا ساتر يعرف الآن بابها بباب الزيادة، يصعد الخارج منه إلى السوق في أدراج، وفتحت فيه خوخات، وليست الزيادة هي عين دار الندوة كما قيل، بل قريب منها على اليقين خلف مقام الحنفي إلى آخر هذه الزيادة، وعُدّت هذه الزيادة من مآثر المعتضد حتى حكي أن تراب دار الندوة نبش ورمي خارج الحرم، وبعد ذلك سويت وجعلت مسجدا .

الثانية: زيادة المقتدر[10] ويقال لها: زيادة باب إبراهيم في الجانب الغربي من المسجد، وإبراهيم هذا كان خياطا يجلس عند هذا الباب دهرا طويلا

6- الفاكهي، **أخبار مكة**، 2/ 243.

7- الهادي : أبو محمد موسى بن المهدي ، ولد بالري سنة 147 هـ ، وبويع بعد أبيه بعهد منه سنة 169 هـ ، وتوفي ساو 170 هـ . انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء** : 224-227 .

8- زمان تأليف **الرحلة** .

9- المعتضد بالله : أجمد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، ولد سنة 242 هـ ، بويع له سنة 279 هـ ، توفي سنة 289 هـ . انظر ترجمته في **تاريخ الخلفاء** : 295 - 301 .

10- المقتدربالله : أبو الفضل جعفر بن المعتضد ، ولد سنة 282 هـ ، تولى بعد أخيه المكتفي أبو محمد علي سنة 295 هـ ، وهو صغير السن، قتل سنة 319 هـ . انظر : السيوطي، **تاريخ الخلفاء** : 303 - 309؛ الديار بكري ، **تاريخ الخميس**، 1/ 382 .

فعرف به، وعملت الأولى مسجدا موصولا بالمسجد الأعظم، وطولها من المسجد إلى باب إبراهيم سبعة وخمسون ذراعا وربع ذراع، وعرضها اثنان وخمسون ذراعا وربع ذراع، وفي جانبها الشرقي المتصل بالمسجد أرواق على أساطين منحوتة من الحجارة، وكذلك من جانب الشمالي، ولم يكن في جانبها الغربي أرواق، وفي جانبه الغربي سيل ماء وسط رواقه، وبها مغارة ذكرها التقي الفاسي لم تبق بها الآن . وأما ملوك الجراكسة وآل عثمان فمن بعدهم إلى الآن فليس لهم في المسجد الحرام إلا نحو الترميم، وبناء ما انهدم من السقف والأسطوانات ونحو ذلك مما لا كبير مؤونة فيه. ولما كانت خشب السقف يعتريها الوهن والبلا بتقادم الزمان وأكل الأرضة لها، أمر السلطان سليمان خان[1] أن يجعل مكانها قبب محكمة راسخة الأساس سيما وهي أزين *330* وأحكم .

وأما هارون الرشيد فلم يعمر شيئا في المسجد الحرام مع كثرة خيره، غير أن عامله بمصر موسى بن عيسى أهدى إلى مكة المشرفة منبرا منقوشا له سبع درجات. وللمسجد الحرام اليوم تسعة عشر بابا، لكل واحد منها إسم يختص به، فمنها ذو خوخة[2] ، ومنها ذو الخوختين، ومنها ما له أكثر من ذلك، ولذا قال العبدري: «جملة أبوابه تسعة وثلاثون بابا»[3] . وفي **تاريخ الخميس**: «ثمانية وثلاثون بابا»[4] . ومنها الكبير، ومنها الصغير، ومنها المساوي لما كان خارجه من السمك، ومنها الذي يصعد إليه ومنه بأدراج أو ينزل إليه، ومنها المسدود غالبا، والمفتوح دائما، وتارة بتارة. وجدرانه

1- سليمان خان المعروف بسليمان القانوني أشهر سلاطين الدولة العثمانية ، حكم ما بين 1520م - 1566م .

2- الخوخة : واحدة الخوخ والخوخة كوة في البيت يؤدي إليه الضوء ، والخوخة مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب بلغة أهل الحجاز وفي الحديث لا تبقى خوخة في المسجد إلا سدت غير خوخة أبي بكر الصديق ، انظر: **لسان العرب**، مادة «خوخ»، 3/ 14 ؛ وفي **فتح الباري** قال ابن حجر عن ابن قرقول : الخوخة باب صغير قد يكون بمصراع وقد لا يكون ، وإنما أصلها فتح في حائط ، 1/ 558.

3- العبدري، **رحلة**، 367 .انظر كذلك وصف المسجد الحرام في المناسك للحربي، 475 (وفيه : للمسجد ثلاثة وعشرون بابا) .

4- الديار بكري، **تاريخ الخميس**، 1/ 123.

واسطواناته دائرة بين الحجر المنحوت والرخام المنقوش وغيره، وبه في كل جهة من الجهات الأربع رواقات ثلاث في هيأة الصفوف، وسقفها قباب، وهي كالصحن لا فراش بها، وإنما المصلي - خصوصا من أهل مكة - يأتي بسجادة أو زربية يصلي عليها ثم يرفعها، وما وراء ذلك كله صحن متسع مفروش بالحصباء عدا طرف الأبواب التي يخرج منها فقد بلطت بالحجارة المرتفعة عن الأرض والجير فوقها حتى يتأتى المرور لمن لم يتنعل فيها بسهولة، وفي وسطه: الكعبة والمقام وزمزم وقبة الشراب ومقامات الأئمة الأربعة.

ومحصل القول فيه أنه معجز يكل الوصف عن وصفه من اتساعه، وبهاء صنعته، ولمعان أنواره حتى يقع الداخل إليه في حيرة عظيمة، حتى ذكروا في طوله أنه يزيد على أربعمائة ذراع، كما للأرزقي[1] . وطوله من الشرق إلى الغرب، وبعبارة من باب السلام إلى باب العمرة وذلك مائتان وثمانون خطوة، وهو قريب من التربيع- يخيل للناظر أنه مربع- وارتفاع حيطانه نحو من عشرين ذراعا، وعرضه من باب بني مخزوم المشهور بباب الصفا في الجدار الجنوبي للمسجد إلى الشمالي الذي عند دار الندوة ثلاثمائة ذراع وأربعة أذرع، كذا في **البحر العميق**[2] فذلك مائتان[3] وست خطوات، وفي غيره ثلاثمائة ذراع وعشرة أذرع، وعدد أساطينه غير ما في الزيادتين أربعمائة أسطوانة وتسع وستون - بتقديم المثناة - وعدد زيادة إبراهيم: سبع وعشرون، ودار الندوة ست وستون . ومن المؤكد التعرض لوصف البيت والمقام وزمزم وقبة الشراب، ومقامات الأئمة الأربعة وباب بني شيبة.

أما *331* البيت العتيق - زاده الله شرفا وتعظيما- سبب بدء[4] خلقه كما ذكر أهل الأخبار[5] والتفسير أن الله لما قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي

---

1 - الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 81 - 82 وفيه أربعمائة ذراع وأربعة أذرع .

2- **البحر العميق في مناسك العمرة والحج إلى بيت الله العتيق** لأبي البقا محمد بن أحمد بن الضيا العمري المكري توفي 854هـ .**كشف الظنون**، 1/ 225.

3- في د كذا «ما يأت لها».

4- في خ «بدا» .

5- ينظر : الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 33 - 34 .

﴿الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فأجابوه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾الآية[1]، فغضبَ عليهم، فلاذوا بالعرش، فطافوا حوله سبعة أشواط يسترحمون ربهم فرضي عنهم وقال: ابنوا لي بيتا في الأرض يلوذ به من سخطت عليه من بني آدم ويطوفون حوله كما فعلتم[2] بعرشي فأرضى عنهم، فبنوا له هذا . قال الأزرقي : إن ذلك قبل آدم لما روي عن زين العابدين أن الله تعالى وضع بيتا تحت العرش وهو البيت، وأمر الملائكة أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. وروي في بدء خلق الركن أن الله تعالى لما خلق الخلْق قال لبني آدم : ألست بربكم؟ قالوا: بلى وأقروا بذلك، فأجرى نهرا أحلى من العسل وألين [3] من الزبد، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر فكتب إقرارهم بالذي كانوا أقروا به[4]، ولذلك يقال عند استلامه: اللهم هذه أمانتي أديتها وميثاقي وفيت به ليشهد لي عندك بالوفاء . وأخرج الترمذي عن عبد الله ابن عباس وصححه قال: قال رسول الله ﷺ : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم»[5]. وفي تاريخ الأزرقي: «فاسود من لمس الحيض في الجاهلية»[6]. وفي حديث ابن عمر مرفوعا: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمست نورهما ولو أشرقا لأضاء ما بين المشرق والمغرب»[7] ، وفي حديث ابن عباس مرفوعا: «الحجر الأسود يبعث يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق»[8] . وفي خبر : الركن والمقام يقوتتان من يواقيت الجنة أنزلا فوضعا على الصفا فأضاء نورهما لأهل الأرض ما بين المشرق والمغرب كما يضيئ المصباح في الليل

1- البقرة 29 .
2- في د «فعلت» .
3- في د «ألذ» .
4- ينظر : السيوطي، **الدر المنثور**، 3/ 605 .
5- **سنن أبي داود** ، كتاب الحج ، باب ما جاء في الحجر الأسود والركن والمقام رقم 877 ، 3/ 226 .
6- الأزرقي، **أخبار مكة** : 1/ 53 .
7- أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** كتاب الحج باب ما ورد في الحجر الأسود والمقام رقم5، 9010/ 75 ؛ وابن حبان في **صحيحه** كتاب الحج باب فضل مكة رقم3710 ، 9/ 24 .
8- الحديث أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس .

المظلم، يؤمنان الدعاء ويستأنس بهما، ويبعثان يوم القيامة[1] وهما في العظم كأبي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالوفاء[2]، ورفع النورعنهما وغبر عنهما ووضعهما حيث هما فيه. وفي خبر وهب بن مُنبّه[3] أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره، قال: ربي ما لأرضك هذه عامر يسبح ويقدس لك غيري، قال الله تعالى: إني سأجعل فيها *332* ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني، وسأجعل فيها بيتا من تلك البيوت أخصه بكرامتي وأؤثره بالسعي، وأجعله حرما آمنا يحترم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه، ومن حرمه بحرمتي استوجب بذلك كرامتي[4] . وعن كعب الأحبار[5] : أنزل البيت من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم، فقال: يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، وأنزل عليه الملائكة فرفعوا قواعده من الحجارة ثم وضع البيت عليه ثم رفعت قواعده زمن الطوفان[6] . والأخبار في مثل هذا كثيرة، وقد بنيت الكعبة على ما روي في عدة أخبار مرارا . قال التقي الفاسي في كتابه **شفاء الغرام**: «لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات، واختلف في عدد بنائها»[7].

1- في د «القيمة» .

2- ينظر: الفاكهي، **أخبار مكة**،/ 1/ 444 ؛ كما أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط** بلفظ : «عن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ : الركن والمقام يأتيان يوم القيامة لهما لسان وشفتان أعظم من أبي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالوفاء». كتاب فضائل الصحابة باب من اسمه إبراهيم، رقم 2665، 3/ 119 .

3- وهب بن منبه اليماني ، ولد بصنعا سنة 34 هـ ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، توفي سنة 114 هـ . مؤرخ له قصص الأنبياء وقصص الأخيار. ترجم له : أبو نعيم، **حلية الأولياء** ،4/ 23؛ الذهبي، **سيرة أعلام**، 4/ 544 – 545 ؛السيوطي، **طبقات الحفاظ**، 1/ . 48.

4- انظرالخبرفي **تاريخ مدينة دمشق**،6/ 263 و 7/ 423 .

5- كعب بن ماتع الحميري، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، أسلم في زمن أبي بكر‌رضي الله عنه وقدم المدينة في عهد عمر رضي الله عنه أخذ الكتاب والسنة عن الصحابة، توفي بحمص في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة 32هـ . ترجم له، ابن حجر، **الإصابة** 5/ 647 ؛ الذهبي، **سيرة أعلام**، 4/ 489 ؛ **تذكرة الحفاظ** ، 1/ 52 ؛أبو الفرج، **صفوة الصفوة** ، 4/ 203 .

6- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 40 ؛ أحمد البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني سعيد دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1410 ،رقم 9903، 3، / 436 ؛ عياض، **مشارق الأنوار**، 1/ 115 .

7- **شفاء الغرام** : الباب السابع ص 80 ؛ ينظر كذلك : الديار بكري، **تاريخ الخميس** : 1/ 117 .

ويُتَحَصَّلُ من مجموع ما قيل في ذلك أنها بنيت عشرَ مرات، وهي بناء الملائكة، وبناء آدم عليه السلام، وبناء أولاده، وأبناء إبراهيم الخليل عليه السلام، وبناء العمالقة، وبناء جُرهم[1]، وبناء قصي بن كلاب جد النبي ﷺ، وبناء قريش قبل مبعثه ﷺ وعمره الشريف خمسا وعشرين سنة[2]، وبناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي[3]، وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفي. وفي إطلاق العبارة أنه بناها تَجَوّزٌ لأنه إنما بنى جهة الميزاب الموالي للحِجر- بكسر الحاء- ورفع جوف الكعبة، ورفع الباب الشريف الذي في لصق الملتزم، وسد الباب الغربي الذي يلصق المستجار لا غير، وما عدا من الجهات الثلاث وجهة الكعبة وجهة ظهرها وما بين الركن اليمني والحجر الأسود فهو بناء ابن الزبير وهو الباقي إلى الآن، وبناؤه هو على قواعد إبراهيم فيما عدا جهة الحجر فقد نقص من طولها في الأرض ما يلي الحجر ستة أذرع. وما في **رحلة العبدري** من قوله: «فنقضها الحجاج وبناها على ما هي عليه اليوم»[4] لا يخفى ما فيه من الإيهام والإجمال، «ولم يغير الحجاج طولها في السماء، والدرجة التي في بطنها اليوم والبنيان اللذان عليهما اليوم من عمل الحجاج»، قاله في **تاريخ الخميس**[5]، هـ. زاد واستمر على هذا البنيان إلى أن تهد من الحبشة، ونقلها حجرا حجرا كما ورد في الحديث[6].

1- جرهم: كانت منازلهم باليمن، ثم نزلوا مكة وولوا أمر البيت الحرام، فعادوا إلى اليمن بعد أن أخرجتهم خزاعة. انظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 1/ 62؛ **معجم القبائل العرب**، 1/ 183.

2- عند ابن إسحاق: «خمسا وثلاثين سنة». انظر: ابن هشام، **سيرة**، 1/ 157.

3- عبد الله بن الزبير بن العوام أول مولود في المدينة بعد الهجرة وهو ابن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، بويع له بالخلافة سنة 64 هـ عقيب موت معاوية، وجعل قاعدة حكمه المدينة، قتله الحجاج بمكة سنة 73 هـ. ترجم له: أبو نعيم، **حلية الأولياء**، 1/ 329؛ أبو الفرج، **صفة الصفوة**، 1/ 764.

4- العبدري، **رحلة**، 384.

5- الديار بكري، **تاريخ الخميس**: 1/ 117.

6- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يخرب الكعبة \و السويقتين من الحبشة. انظر تفسير ابن كثير، 1/ 184، و« عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: كأني به أفحج يقلعها حجرا حجرا»؛ أخرجه البخاري في كتاب العلم باب هدم الكعبة، رقم15182/ 549

قلت: وجدت في بعض التقاييد المنسوبة لتأليف الأسدي فيما يتعلق بالكعبة ما نصه: «وبعد العصر من يوم الخميس الموفى عشرين شعبان سنة تسع وثلاثين وألف *333* سقط من الكعبة الجدار الشامي والشرقي إلى حد الباب والغربي إلى نحو تلثيه بسبب سيل عظيم، ثم هدم ما بقي للمصلحة ما عدا الحجر الأسود وما حوله، ثم أنعم الله ببنيانه وإتمامه سنة أربعين وألف، عصر الأربعاء السابع والعشرين من رمضان على يد السلطان مراد التركي العثماني» ، هـ .

وقال التقي الفاسي: «وقد صنعت فيها أمور بعد ابن الزبير والحجاج، من ذلك عمارة في الجدار الذي بناه الحجاج لانفتاحه، وعمارة رخام غير مرة، وعمارة في سطحها وسقفها، وإصلاح رخام كثير بجوفها، ورخامة تلي ميزابها تخرب ما تحتها، والأخشاب التي بسطحها المعدة لشد كسوة الكعبة، وإصلاح رخام كثير بأرضها بين جانبها الغربي وأساطينها، وفي جداراتها[1] إقامة الأسطوانة[2] التي تلي باب الكعبة لميلها، ومن ذلك عتبة الباب السفلى لرثاثتها[3] وجعل عوضها عتبة قطعة ساج ثم غير ذلك بعتبة حجر منحوت وهي الآن على ذلك، ومن ذلك أسطوانة فيها، ومن ذلك ميزاب، فقد عمل مرارا والملوك يتنافسون فيه كالباب، وقد اختلف في أول من جعل لها بابا فقيل: أنوش بن شيت بن آدم، وقيل تبع الثالث الذي كساها ونحر لها، وقيل جرهم . وطولها في الأرض من الركن اليماني إلى الحِجر- بكسر الحاء- نحو عشرين ذراعا، وعرضها من اليماني إلى الحَجر الأسود نحو خمسة وعشرين ذراعا، وهي طويلة مرتفعة جدا إلى السماء، تكاد أن تكون صومعة متوسطة، بل ربما كانت أطول من مِئذنات[4] المشارقة خصوصا الحرمين عكس مآذن المغاربة فهي في الغاية من الطول، وقد ذكروا أن ارتفاعها في السماء ثلاثون ذراعا، وقيل

1- في خ «جدراتها».
2- في خ و د «الأسطوانية».
3- في د «لرثاتها» .
4- في د «مأذونات» .

سبعة وعشرون ذراعا[1] وربع ذراع وعرض جدارها ذراعان وعرض الباب أربعة أذرع، وأرتفاع الباب وطوله في السماء ستة أذرع وعشرة أصابع، وهي كلها مبنية بالحجارة المنحوتة السوداء، تميل إلى الزرقة، وفي عبارة العبدري: «ولون بنائها إلى الحمرة مع دُكْنَةٍ يسيرة»[2]، وأرضها من داخل كالمطاف كلها مُرخّمة برخام ملون وكذا جدرانها، والحِجر- بكسر الحاء- كذلك، وأول من رخم ذلك: الوليد بن عبد الملك[3] .

وصفتها من داخلها حسبما *334* شاهدت ذلك لما دخلتها ليلا في جماعة من الفضلاء بعد جهد جهيد وإعطاء ما تيسر من الدراهم ! واستعمال التحية بالركعتين لكل جهة، بعد تقديم الجهة التي صلى بها النبي ﷺ وهي أن يستقبل الباب المسدود ويستدير الذي يدخل فيه، أنها بيت قريب من التربيع نقصٌ من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السّلم نحو ثلاثة أذرع، يُصْعَدُ منه إلى السطح، وعدد درجها ثمان وثلاثون درجة، ولهذا السلم باب صغير لا يظهر للداخل إلا إن فتح الباب. وأرضها مفروشة بالرخام الملون، وقد كسي منها السقف والحيطان بكسوة مخالفة للخارجة في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها، والداخلة بياض في حمرة، وفيها مصابيح معلقة بعضها ذهب وبعضها بلار صافي ملون بلون زورْدي[4] ، ولها ثلاثة أعمدة من خشب، مصْطفة[5] في وسطها ما بين جهة الحجر[6] ومقابلها من جهة اليمن وهو طولها، وكل من الأعمدة الثلاثة سُمِّر عليه ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة، يحكى أن الأعمدة من العود الهندي، ولم أره في تاريخ معتمد .

1- قال الأزرقي : «طولها في السماء سبعة وعشرون ذراعا» . **أخبار مكة**، 1/ 289 .

2- العبدري، **رحلة**، 375 . الدكنة : لون بين الحمرة والسواد.

3- الوليد بن عبد الملك أبو العباس ، ولي الحكم بعهد من أبيه سنة 86 هـ ، وفي عهده بني مسجد دوشق وفتحت الأندلس سنة 92 هـ . توفي سنة 96 هـ . انظر ترجمته في السيوطي، **تاريخ الخلفاء** : 178 – 179 ؛ الديار بكري، **تاريخ الخميس**، 1/ 311 – 314 .

4- ما كان بحجر الازورد، وهو معدن يتخذ للحلي وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة.

5- المصطفة والمصطبة : مكان قليل الارتفاع ، ولعلها استعملت بمعنى قليلة الارتفاع .

6- ساقطة من د.

ويقابلك وأنت داخل علامة في الجدار جعلت دليلا على الباب المسدود، وبينه وبين الركن اليماني المستجاب، وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء كالمُلْتَزَم[1] ، وهو يقابله من الجهة الشرقية وعند رتاج[2] الباب مما يلي ركن الحجر الأسعد من داخل نحو صندوقة صغيرة يجعل السادن فيها المفتاح إن دخل وهي من فضة، يريها الناس للتبرك ويأخذ على ذلك عطاء، شاهدت ذلك. والخشب التي سقفت به - الذي عليها اللوح - ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدهما رأسه على حد السلم وهو أقرب لجدار البيت، وليس بينه وبين المقدار إلا مقدار ما يصلى فيه، والثاني بينه وبين الباب، والثالث عند الباب، ولها سقفان أحدهما فوق الآخر، وبينهما فرجة، وفي السقف طاقات أربع للضوء نافذة إلى أسفلها، وسقفها الأعلى مما يلي السماء مرخم برخام أبيض، وبابها من ظاهر مصفح بصفائح من فضة مموهة بالذهب، وعتبتها العليا مطلية بالفضة، وإن وقف المتوسط من الناس في المطاف *335* تحت الباب ومدَّ يده جدا ربما وصلت العتبة السفلى، وكل ذلك من داخل معمر بالأنقاض من التراب والحجر، قيل لما هدمها ابن الزبير وغير منها الحجاج بعده، حفظت الأنقاض القديمة هناك، والله أعلم .

وميزابها من عود وعليه صفائح الذهب وهو يصب في الحِجْر- بكسر الحاء- «وفي موضعها (أي الكعبة) - قال العبدري - يسير نُتوءٍ يبين للمتأمل»[3]. قلت : ولم أر الآن شيئا من ذلك وإنما المطاف الدائر بها معه انخفاض عن باقي الصحن ولعله غُيِّر بعد زمان العبدري، والله أعلم .

وقد أسأنا الأدب فأمعنا النظر، والقصد الوقوف على الحقيقة إذ لا دليل أقوى من المشاهدة، وعليها من خارج الكسوة - من الحرير - السوداء يُؤْتى بها

1- المُلْتَزَمُ : ما بين باب الكعبو والركن الذي به الحجر الأسود . «عن ابن عباس رضي الله عليهما كان يلزم ما بين الركن والباب وكان يقول ما بين الركن والباب يدعى المُلْتَزَم لا يلزم ما بينهما أحد يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه»، أخرجه البيهقي في **سننه الكبرى**، كتاب الحج، باب الوقوف في الملتزم، رقم4، 9547/ 164 .

2- في خ «زلاج».

3- العبدري، **رحلة**، 375 .

من مصر كل سنة، وفي غير أيام الموسم تسدل عليها حتى تصل الشّاذِروان[1]. فتربط في أخراص غلاظ متسعة من النحاس مبنية في نفس الشاذروان فيما بين الركن الشامي واليماني، وفيما بينهما وبين الحجر الأسعد. «وأما الحجر فلا شاذروان فيه لأن موضعه من الكعبة بلا ريب» كما في **شفاء الغرام**[2]، كبعض جهة الباب لا بناء فيه وإن كان شاذروانا أيضا، وطوله في بعض المواضع - أعني الشاذروان - في السماء ذراع وست أصابع، وفي بعضها ذراعان وأربع أصابع، وعرضه في بعض المواضع اثنان وعشرون أصبعا، وفي بعضها ثمان عشرة أصبعا. وتشمر هذه الكسوة في أيام الموسم حتى تكون أعلى رؤوس الطوال من الطائفين حفظا لها من الأيدي.

والشمس في أيام الإعتدال تطلع على الباب، والباب مستقبل للمشرق، والمُلْتَزَمُ بين الباب والحجر الأسعد ومساحته أربعة أذرع ونصف تزيد قليلا حسبما ذرعت ذلك مرارا، والحجر الأسعد القصير من الناس يلمسه ويقبله بلا كلفة حيث لا زحمة، وأما المتوسط فلا بد له من بعض الانحناء، وهو الآن على ما تقرر أسود جدا، وبه أثر كسر من الحريق، وبسبب ذلك تصدع وانشطر لثلاث قطع، فانشطرت منه شطية كانت عند آل شيبة، فشده ابن الزبير بالفضة في إمارته إلا تلك الشطية. وحدث فيه[3] غير ذلك لما ذهب به القرامطة إلى الكوفة[4]، ثم منها إلى هجر فبقي لديهم بضعا وعشرين سنة[5]

1- الشاذروان: بالفتح من جدار البيت الحرام الذي ترك من عرض الأساس خارجا، ويسمى تأزيرا لأنه كالإزار للبيت. انظر: محمد المناوي، **التعاريف**، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، سنة 1410 هـ، 1/ 421.

2- **شفاء الغرام**: الباب الثامن ص 100.

3- في د «فيها».

4- ينظر: الديار بكري، **تاريخ الخميس** 2/ 350.

5- القرامطة: خوارج نسبة لزعيمهم أبو طاهر، سليمان بن بهرام الجنابي القرمطي، نسبة إلى قرمطه إحدى قوى واسط (مات بالجدري سنة 332 هـ)، ملك البحرين، سيطرة على البصرة والأهواز والكوفة وأغار على مكة يوم التروية في سنة 317 هـ، حيث سير المقتدر العباسي ركب الحاج، فوافاهم، عند وصولهم إلى مكة، فقتل الحجيج وهم حرم (ثلاثين ألف) واقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى الكوفة ثم نقل من الكوفة إلى هجر، وبقي عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة إلا شهرا ثم رد لخمس خلون من ذي الحجة 337 هـ. انظر: **عمدة القاري** لمحمود العيني، كتاب الحج باب ما ذكر في الحجر الأسود، 9/ 242؛ انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**: 307؛ محمد الحلبي، **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة 1973م، 1/ 175.

والناس يمسحون موضعه في الكعبة *336* حتى رد بمال عظيم على يد بعض العباسيين[1] ، وربط الآن بصفيحة من الفضة مموهة بالذهب، وقد دخل في جدار الكعبة بعضه وبرز منه ما برز، محفور في وسطه، ولعله من أثر التقبيل واللمس. وفيما بين الباب والحِجر- بكسر الحاء- في المطاف ملاصقا لجدار الكعبة مما يلي الحِجر- بكسر الحاء- حفرة مرخمة تسع المصلي، سألت عنها بعض علماء مكة ممن لقيته بها فلم يشف لي غليلا بذلك، وزعم أنها صنعت لجمع ماء المطاف إذا نزل به المطر فيأخذه الناس للتبرك، وسألت عن ذلك فزعم أن إبراهيم عليه السلام هناك كان يعجن التراب لبناء الكعبة، وبه أجاب بعض من سألته عن ذلك من علماء مصر بعد قفولي، وكل ذلك حدس وتخمين ورجم بالغيب. ففي تاريخ الشيخ حسّين بن محمد بن الحسن المسمى: **بالخميس في أحوال أنفس نفيس** مانصه: «وطول الحفرة المرخمة الملاصقة للكعبة في المطاف من جهة الشرق ثمانية أشبار وسبع أصابع مضمومة»[2] ، روى أن الفقيه إسماعيل الحضرمي لما حج إلى مكة سأل الشيخ محب الدين الطبري عن الحفرة الملاصقة للكعبة، فأجاب الشيخ محب الدين الطبري بأن الحفرة مصلى جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ الصلوات الخمس في اليوم حين فرضها الله تعالى على أمته . قال القاضي عز الدين بن جماعة في **مناسكه الكبرى**: ولم نر ذلك لغيره وفيه بعد، لأن ذلك لو كان صحيحا لنبهوا عليه في الكتابة في الصخرة، ولما اقتصروا بالتشبيه على من أمر بعمل عز الدين بن عبد السلام ولا يلزم التنبيه بالكتابة عليه والشيخ عز الدين ناقل ، هـ .

قلت: وإذا ثبت أنها المكان الذي صلى فيه جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم، فكان من حق الناس أن يرفعوها عما ولاها من المطاف، تعظيما لها وتشريفا، ولذلك رأيت الكثير من الناس يتخيرون الصلاة عندها، وربما يستفاد من ذلك أفضلية[3] الصلاة لذلك – أعني لجهة الباب- ولقائل أن يقول:

1- أعيد الحجر الأسود في عهد المطيع أبو القاسم الفضل بن المقتدر سنة 339هـ .(ولد المطيع سنة 301 هـ وبويع له سنة 334 هـ) انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**: 319.

2- الديار بكري، **تاريخ الخميس** : 1/ 21 .

3- في د «فضيلة» .

لو رفع ذلك المكان بالبنيان لكان فيه التضييق على الطائفين وترك لذلك أو كراهية أن يغير عن حاله. *337* فنقول: لموقع كونه أنزل مما يليه من المطاف لا ينزل إليه أحد في حال الطواف بل يتركه الطائف يسارا فيما بينه وبين الكعبة، ففيه مع ذلك تضييق فهو على هذه الحال، وهو مع ذلك غير عن حاله في ذلك الوقت لما به من التزخرف بالرخام كالحجر وسائر المطاف، والحِجر- بكسر الحاء - على نصف صورة دائرة لم تتصل بالبيت في كل من طول جداره وعرضه نحو ثلاثة أذرع، وكل ذلك بالرخام الملون، وذرع تدويره من داخله ثمانية وثلاثون ذراعا حسبما حددت ذلك .

واعلم أن البيت في غير أيام الموسم إن أريد دخوله ينصب له سلم، وفي أيامه رأيتها فتحت مرارا ولا أراهم من الإزدحام ينصبون له سلما، وإنما يتكلف الأول الصعود على ظهر غيره فيمد يده لمن تحته، وتراهم يزدحمون ويتحينون أوقات فراغ المسجد كجوف الليل، ومع ذلك لا يخلو عن زحمة وقلة احترام، فترى الرجال يتساقطون ويتقاتلون على ذلك، وربما سالت الدماء، وربما اختلط النساء بالرجال حتى يتساقط الذكرعلى الأنثى والأنثى على الذكر ويلتفت بعضهم لبعض، وأعظم من ذلك ما يقع على الركنين اليمانيين فقلما يتمكن أحد كل التمكن منهما، وأفضى بهم إلى البدعة الشنيعة، فيقطعون الأوقات في لثمهما[1] ولحسهما خصوصا الأسود حتى إن خلا تشم منه بعض العفونات مما يناله من الأيدي والأفواه. وقد وقع مثل هذا في زمن العبدري وزاد: «قد أسقطوا بجهلهم وجفائهم حرمته، حتى إن منهم من لم يبال بالبصاق وقتل القمل في المسجد، وإلقاء الوسخ في داخله. قال: وقد دخلت مسجد دار الندوة فوجدته ملآن من الأوساخ والقمامات، ووجدت فيه أناسا يعملون بأعمالهم من سائر الصناعات»[2] ، هـ .

قلت: وما ذكره من البصاق والقمل، وفي دار الندوة فلم نر منه شيئا، وكل ذلك اليوم في الغاية من النظافة خصوصا المطاف، ترى السدنة من العبيد المعروفون بالأغوات يكنسون كل صبيحة مع ظهور الضوء، وهم في

1- بياض في د.

2- العبدري، **رحلة**، 371، 372.

غاية السكينة والوقار والعفاف عن المسألة عكس الذين بالحجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما المقام فهو أمام باب الكعبة*338* على حدود المطاف متياسرا عن زمزم وأقرب منها إلى الكعبة يسيرا، وبينه وبين الكعبة سبعة وعشرين ذراعا كما في الأزرقي[1] ، وبينه وبين الركن الشامي ثمانية وعشرون ذراعا وتسع عشرة أصبعا، وبينه وبين الركن الأسود تسعة وعشرون ذراعا وتسعة أصابع[2]. وهو الحجر الذي وقع عليه إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة[3] وبه أثر قدميه[4]، وقيل: كان كلما ارتفع البناء ارتفع به المقام في الهواء حتى تم البيت، وقيل أنما وقف عليه حين أذن في الناس بالحج فتطاول حتى علا الجبال وأشرف على ما تحته فنادى: «أيها الناس أجيبوا ربكم»[5] إلى غير هذا مما ورد

1- الأزرقي، **أخبار مكة** :2/ 85 .

2- م . س .

3- المقام : الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام قائما لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده إسماعيل عليه السلام هذا الحجر ؛ ليرتفع عليه لما تعالى البناء . وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة إلى أيام عمر بن الخطاب ﷺ ، فأخره عن البيت قليلا ؛ لئلا يشتغل المصلين عنده الطائفين بالبيت . فقال لرسول الله ﷺ لو أخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة: 125 . انظر : ابن كثير ، **قصص الأنبياء**، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الحديث القاهرة الطبعة الاولى سنة 1425هـ/ 2004 م ، ص 147 ؛ **تفسير الطبري** ،1/ 534 ؛ **تفسير** ابن كثير ،1/ 178 ؛ **مسند الإمام أحمد** رقم 1، 157/ 23؛ **صحيح البخاري** كتاب الصلاة باب ما جاء في القبلة رقم 393 ، 1/ 157 .

4- كانت آثار قدمي إبراهيم الخليل عليه السلام باقية في الصخرة إلى أول الإسلام. وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... عـــلى قدميه حافيا غير ناعـــل

أنظر : ابن كثير، **قصص الأنبياء** : 147 .

5- عن ابن عباس ، قال : «لما أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس تواضعت له الجبال ورفعت له الأرض فقام فقال : يا أيها الناس أجيبوا ربكم» انظر: السيوطي، **الدر المنثور**، 6/ 35 .

في ذلك والأول أصح[1] . وسأل أبو سعيد الخدري عبد الله بن سلام[2] رضي الله عنهما عن الأثر الذي في المقام فقال: كانت الحجارة على ما هي عليه الآن إلا أن الله تعالى أراد أن يجعل المقام آية[3] . ومن تمكن من رؤيته على العادة الجارية بين الناس اليوم وضع ماء في تلك الحفرة وشربه وتمسح به تبركا، وعليه الآن قبة صغيرة من عود وعليها شباك من نحاس أو حديد كما للعبدري[4] بين أربع أسطوانات متجاف عن القبة التي فيها الحجرعليها بقدر ما يصل من يدخل يده بأصابعه إليها، والشباك مقفل عليه لجهة المشرق، وهوضيق كداخل الشباك لا يكاد يخلص إليه الواحد من الناس إلا بكلفة، والدخول إليه أعز عند السدنة من الكعبة، ترى الرجل يبذل على ذلك الأموال العريضة، طلبت دخوله مرارا فلم يتأت لي إلا في ليلة ومنعني الزحام، فكلما رمت الدخول صدني الزحام وقلة الإحترام حتى سقطت على وجهي، ولم أشرف عليه إلا برأسي وبقية الذات خارج الشباك، وقد وقع مثله للعبدري[5] . ثم قال: «قديما شُكي بذلك، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[6] ، إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمَروا بمسحه، وَلقد تكلفتْ هذه الأمة شيئا ما تكلّفتْهُ الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا بعض من رأى آثاره[7] وأصابعه فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وامّحى»[8]، وعلى فمه موضع قد حيز وجعل مصلى ركعتي الطواف مع ما هو عليه من التزخرف، ترى الناس يزدحمون

1- عن ابن عباس – في حديث طويل – أن إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما السلام « رفعا القواعد من البيت وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجرفوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» انظر الحديث بكامله في **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي رقم 3، 3184/ 1227 – 1230 .

2- عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف، صحابي، مات بالمدينة سنة 43 هـ . ترجمته في **الإصابة** 2/ 312.

3- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**: 1/ 442 و 2/ 30 .

4- العبدري، **رحلة**، 374.

5- نفسه : 370.

6- البقرة 124.

7- في **رحلة العبدري** أثره.

8- العبدري، **رحلة**، 370 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 30–29.

على إيقاع الركعتين في خصوص ذلك المكان المحوز، وليس*339* شرطا وإنما الشرط إيقاعها خلف المقام. ففي الصحيح: «أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى المقام فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ مُصَلّٗى﴾[1]، وركع خلفه ركعتين[2]. والمصلى خلفه و الكعبة أمامه، إلا أنها مستورة عنه بما بني على المقام، اللهم إن التفت خصوصا إلى جهة الحجر وهو عن يمينه فإنه يراها عيانا.

قال الأزرقي: «والحجر مربع طوله ذراع، وعرضه أحد وعشرون أصبعا، والقدمان داخلتان فيه سبعة أصابع، وبين القدمين أصبعان، ووسطه قد استَدَقّ من التمسح به، وهو في حوض من ساج مربع حوله رصاص، والحوض ملبس بالرصاص وعليه صندوق ساج مسقف يقفل عليه»[3]. قال: «وهو حَجَر رخْوُ مُضَبّب[4] بالذهب من أعلاه وأسفله ضببه المهدي بألف دينار، وزاد عليه المتوكل ذهبا آخر»[5]، هـ. زاد غيره: ولونه بين الدُّكْنة والحمرة، منقط بنقط سود مخضر الوسط[6].

وأما زمزم فهي في شرق الكعبة أما بابها إلى جهة اليمين، وهي بئر شريفة عظيمة عليها قبة شامخة متسعة مربعة، وفي دورها حياض متقنة العمل، دائرة مع القبة، تملأ بالماء للوضوء والشراب مجانا، وفي غير أيام الحج فبالثمن، وعلى البئر تنور من رخام غليظ، اتسع من أعلاه، وطوله نحو نصف القامة، وعمق البئر من أعلاه إلى سطح الماء نحو من ثلاثين ذراعا، ومن سطح الماء إلى قعر البئر نحو من أربعين ذراعا. ويقال إن

1- البقرة 125.

2- أخرجه النسائي في **السنن الكبرى** كتاب الحج باب الابتداء بالطواف من الحجر الأسود، رقم 5، 9063/ 83؛ والإمام أحمد في **المسند**، 3/ 320؛ **صحيح ابن خزيمة** كتاب المناسك باب الصلاة بعد الفراغ من الطولف عند المقام، رقم2753، 4/ 228؛ **صحيح ابن حبان** كتاب البر والإحسان، باب ذكر وصف حجة المصطفى عليه السلام، رقم 9، 3943/ 251؛

3- الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 38

4- مضبب : مُلَبّس.

5- الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 36.

6- العبدري، **رحلة**، 374.

عمقه من أعلاه إلى أسفله اثنان وسبعون ذراعا، وسعته قريب من أربعة أذرع، وماؤه دافىء، وليس بتلك العذوبة: (من الطويل)

وَلِكِنْ لَـهُ فِي النَّفْسِ مَوْقِعُ فَرْحَـةٍ ... تُفَاجِئُ بَعْـدَ اليَأْسِ قَلْـبَ كَئِيـبِ
تُرِي صُوَرَ الأَحْبَابِ مِرآةُ صَفْوِهِ ... فَيُطْفِـي مِنَ الأَحْشَاءِ لَفْـحَ لَهِيـبِ

وتراهم داخل قبة زمزم يغتسلون بمآزرهم، يعطي مريد الغسل للسقائين وهم واقفون على التنور فيصبون عليه دلوا كبيرا أو دلوين أوما أراد على حسب عطائه حتى يشفي غليله، وهم مع ذلك لا يراعون لها حرمة فيتشاجرون على الماء، ويأخذ أحدهم الدلو فيصبه على نفسه بثيابه ! حتى وقعوا في تلويث المكان الشريف، سيما وهي في وسط أفضل المساجد : فيجب تنزيه *340* المسجد عن قاذوراتهم ولغطهم ورفع أصواتهم وخصوماتهم. قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[1]، قال الحافظ عمّاد الدين بن كثير في تاريخه: «وقد ذكر عن عبد المطلب أنه لما حفر زمزم قال: اللهم إني لا أحلها لمغتسل، هي لشارب حلٌ وبلٌ، وذلك أنه جعل لها حوضين: حوضا للشرب، وحوضا للوضوء، فعند ذلك قال: لا أحلها لمغتسل، لينزه المسجد عن أن يغتسل[2] فيه. وبلٌ بلغة حِمْيَرَ مُبَاحٌ»[3].

قال العبدري: «ويتقولون في ذلك أشياء ما لها وجود مثل زيادة الماء في ليلة الجمعة، وهو أمر مشهور عندهم. وقد ذكر ابن جبير في رحلته[4] أنه قاسه في ليلة الجمعة وهم يتقاتلون عليه وقت زيادته بزعمهم فوجده على حاله، وبوُدِّي لو أتاح الله[5] محتسبا يذيقهم النكال، فإن حُرَمَ الله تعالى أولى المواضع بالهيبة، ولزوم السكينة "[6].

1- النور 36.
2- في خ «يغسل».
3- ابن كثير، **البداية والنهاية** : 2/ 247 .
4- ابن جبير، **رحلة** :119 .
5- في **رحلة العبدري** «أتاح الله لهم».
6- العبدري، **رحلة**، 371.

فـائـدة : قال الحافظ السيوطي في **الحاوي**: «الذي يظهر أن ماء الكوثر أفضل من ماء زمزم، لأن الكوثر عطية الله تعالى لأفضل الخلق، وزمزم عطية الله تعالى لإسماعيل، ولأن الكوثر صرح بذكره في القرآن[1] في معرض الإمتنان مسند إلى نون العظمة، ولم يقع في زمزم مثل ذلك. ولمن خطر بباله تفضيل زمزم أن يحتج بغسل جبريل صدر نبينا ﷺ وأجاب الحافظ ابن حجر: «بأن ماء زمزم أفضل مياه الأرض، وماء الكوثر أفضل مياه الآخرة، وهذا ليس فيه نص على تفضيل أحدهما على الآخر»[2] ، هـ. قلت: الظاهر تفضيل الكوثر لما علم أن مياه الآخرة ونعيمها أفضل من مياه الدنيا ونعيمها .

لـطـيـفـة : ينبغي على حسب ما تقررت به العادة استصحاب ماء زمزم للأفاق، أخرج الترمذي عن عائشة أنها كانت تحمل من ماء زمزم، وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله[3] . ثم قال بأثره حديث حسن غريب.

رجوع «وبإزاء قبة زمزم قبة الشراب وهي سقاية الحاج، ويسقى منها للناس في رمضان، ويجري إليها الماء في قناة تحت الأرض من قبة زمزم، وبإزائها بيت صغير هو مخزن الكعبة، وليس في المسجد أبنية[4] سوى هذه الثلاث» قاله العبدري[5] .

قلت: وفيه في صحنه مقامات الأئمة الأربعة للصلاة، ولا يقال حدثت بعد زمانه، لأنها حدثت في زمان الإمام ابن الحاجب – كما يأتي – وهو أقدم من العبدري، وحجه*341*إنما كان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. أما مقام إمامنا مالك رحمه الله تعالى ورضي عنه فهو أربع أسطوانات فوقها قبة يقف الإمام تحتها على تراب صحن المسجد، وقبلته ما بين الركن اليماني والحِجر– بكسر الحاء – إلى الباب المسدود وهي قبلة المغرب، وهو أبعد المقامات من

1- الكوثر.

2- السيوطي، **الحاوي للفتاوي** : 2/ 313 . مع تقديم وتأخير .

3- **سنن الترمذي** ،كتاب الحج باب ما جاء في الحجر الأسود، 3/ 226 .

4- في **رحلة العبدري** «بنية» .

5- العبدري ، **رحلة**، 372.

الكعبة . وأما مقام الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه فهو أشمخ المقامات بناء وله سقفان، ومحل الإمام بينهما فوق السقف الأسفل واتخذوا في ذلك محرابا وسترة بينهم وبين القبلة ولا يخفى ما بذلك، وموجب ذلك كون حكام مكة - وغالب من بها - حنفية، وقبلتهم إلى الحِجر- بكسر الحاء- والميزاب، وهي قبلة أهل المدينة المنورة. و أما مقام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه فهو في أيام الموسم عند باب الكعبة في المطاف قرب الحفرة التي هناك، وفي غيرها خلف المقام حيث تؤدى ركعتا الطواف، فلم يبين له مقام مخصوص كغيره. وأما مقام الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ورضي عنه فيضاهي في البناء مقام مالك، وقبلته ما بين الحجر الأسعد والركن اليماني، وليس للإمام مقام صلاة إلا الصبح وسواها من الخمس معطل لضعفه بمكة كالمدينة، ويقرب منها في الضعف مذهب مالك وأصحابه، وكل هذه المقامات وراء المطاف عدا الشافعي في أيام الموسم. وهذه المقامات حدثت أيام الإمام ابن الحاجب لما تنازع أرباب المذاهب كل يروم الإختصاص بتوليته إمامة المسجد الحرام، فارتفعت فيها الفتاوي إليه بالإسكندرية، فأجاب بأن غاية ما يقال فيها أنها بمنزلة تعدّد المساجد، ولا يقال على مذهب المالكية : إن فيها إعادة الجماعة بعد الراتب إلى غير ذلك مما وقع التهوين به والتشويش على الناس وقد رأيت بمكة - شرفها الله تعالى - تأليفا في ذلك لبعض علماء العصر المالكية .

وأما باب بني شيبة القديم فهو أمام باب الكعبة والمقام غير بعيد قرب زمزم في وسط الصحن، وهو الآن مبني على صورة باب مقوس تقويسا مرتفعا عاليا جدا، وهو الذي يستحب لداخل المسجد يريد الطواف أن يدخل منه اقتداء بالوارد في ذلك، وإلى جنبه - غير بعيد - منبر عال من رخام مخروط بصنعة عجيبة لم ير الراؤون مثله، وبه يخطب الإمام في الجمعة والأعياد *342* وخطبة السابع في الحج، ويقابل باب بني شيبة المذكورباب السلام المعروف عند العامة والخاصة اليوم . وفي إطلاق العبدري عليه أنه باب بني شيبة تجوز وهو «في ركن الحائط الشرقي من جهة الشمال أمام باب

الكعبة أيضا متياسرا»[1] ، وبداخله فيما بينه وبين المسجد حوانيت لبيع أشتات المبيعات خصوصا أنواع الطيب من مسك وند وغيرها وكذا أنواع السبح. وهذا الموضع كالمسعى من أكثر أسواق مكة زحاما ولغطا، وفيه مالا يخفى من قلة الأدب، وقد قيض الله تعالى من منعهم من ذلك كإقامة سوق بيع الكتب، وقطع من كسوة الكعبة البالية بالمسجد، إلا أن العادة جارية عندهم بأن السمسار يجلس وأمامه جبال من الكتب، وبيده دفتر يضبطها وأثمانها، فكلما طلب منه كتاب راجع دفترته فأخبر السائل به وبثمنه الذي سمي له ربه، وإن لم يجد في دفتره شيئا قال: انظر غيري من السماسرة. ولا ترى بلدة تضاهي هذه في كثرة الكتب من كل فن عدا فقه الإمام مالك، فقلّما تجد هناك دواوين المغاربة من المالكية، وفي كل موسم يحمل من الكتب إلى الآفاق خصوصا السودان العجب، ثم إن جاء موسم آخر ظهر من الكتب العجب العجاب وهكذا أبدا، فسبحان من خص حرمه بما شاء.

وأشهر أبواب المسجد الحرام أربعة: باب بني شيبة هذا المعروف الآن بباب السلام، والثاني باب العمرة وهو بناحية الغرب وهو من أجل أبوابه، والثلث باب الصفا، وهو بجهة الجنوب، وهي ناحية الركنين الأسود واليماني وكلاهما إلى ناحية اليمن كما تقدم في **الموطأ** عن عبيد بن جريج أنه قال لعبد الله بن عمر: «رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليمانيين» الحديث[2] . والرابع باب دار الندوة وهو في جهة الشمال – وقد تقدم أنها جعلت مسجدا – وهي تقابل الحجر والميزاب . وفي المسجد في زمن العبدري خمس مئذنات[3] ، وزيد

1- العبدري، **رحلة**، 367.

2- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحج باب العمل في الإهلال رقم733 ،1/ 333. ولفظه : « عَنْ مَالك عَنْ سَعيدِ بْنِ أَبي سَعيدِ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ لعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَأَيْتُكَ تَصْنَعُ أَرْبَعًا لَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ يَصْنَعُهَا قَالَ وَمَا هُنَّ يَا ابْنَ جُرَيْجٍ قَالَ رَأَيْتُكَ لَا تَمَسُّ مِنْ الْأَرْكَانِ إِلَّا الْيَمَانِيَّيْنِ وَرَأَيْتُكَ تَلْبَسُ النِّعَالَ السِّبْتِيَّةَ وَرَأَيْتُكَ تَصْبُغُ بِالصُّفْرَةِ وَرَأَيْتُكَ إِذَا كُنْتَ بِمَكَّةَ أَهَلَّ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الْهِلَالَ وَلَمْ تُهْلِلْ أَنْتَ حَتَّى يَكُونَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَمَّا الْأَرْكَانُ فَإِنِّي لَمْ أَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمَسُّ إِلَّا الْيَمَانِيَّيْنِ وَأَمَّا النِّعَالُ السِّبْتِيَّةُ فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلْبَسُ النِّعَالَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَعَرٌ وَيَتَوَضَّأُ فِيهَا فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَلْبَسَهَا وَأَمَّا الصُّفْرَةُ فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْبُغُ بِهَا فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَصْبُغَ بِهَا وَأَمَّا الْإِهْلَالُ فَإِنِّي لَمْ أَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُهِلُّ حَتَّى تَنْبَعِثَ بِهِ رَاحِلَتُهُ ».
والبخاري في كتاب البيوع باب غسل الرجلين في النعلين، ولا يمسح على النعلين، رقم 164 ،1/ 73 .

3- العبدري، **رحلة**، 368 وفيها خمس صوامع.

فيه اثنتان بعد زمانه فهي الآن سبع متفرقة في مواضعها اللائقة بها، وفي نسبة الجوانب إلى الجهات تجوز إنما ذلك على التقريب إذ الكعبة غير موضوعة على مسافة حقيقة الجهات، بل فيها انحراف، «واعلم أن حول المطاف من جميع جوانبه أساطين تعلق بها المصابيح، ثلاث وثلاثون أسطوانة منها اثنتان من حجارة وهما اللتان يليان مقام إبراهيم من جانبيه *343* والبواقي[1] وهو إحدى وثلاثون أسطوانة من صفر» أي من نحاس كذا في **الخميس**[2] .

قلت: وهذه الأسطوانات على هيئة مرافع كبار، جمع فم أحدهما فركب على الآخر بصنعة غريبة فكان مجموعهما أسطوانة وهكذا، ووصل بين كل اثنين منها بعود علقت فيه ستة فأكثر من المصابيح الزجاجية، توقد كل ليلة حتى كأن الكعبة قد دار بها نجم[3] وشموس وأقمار، زيادة على ما يوقد في صدر الكعبة والمقام وزمزم وسائر رواقات المسجد وخلواته ورباطاته . يحكى في الخرافات أن هذه الأساطين كانت مرافع لأبرهة في وقعة الفيل، فلما حل به ما حل تركها فجعلت هناك، هذا أمر لايقول به عاقل، لو كانت لظهرت في الصدر الأول وإنما الظاهر - والله أعلم- أن الناس لما أعجبهم التوصل إلى الكثير من الضوء في المسجد ليلا خصوصا عند المطاف وما ولاه، لعدم ما تعلق فيه المصابيح، واستهجنوا السواري من التراب لغلظها وتعطيلها كثيرا من المسجد، ابتكروا هذه لظرافتها ورقتها وحسن صنعتها، والله ربنا أعلم .

وأما الصفا والمروة فقد كانتا في سالف الأزمان جبلين صغيرين، فكاد أن يفنيهما ويعفى أثرهما تطاول الأزمان والدهور وتعاقب السيول عليها بالمرور، فبني في موضع كل منهما، أما الصفا فبنيت أدراجا مرونقة ومكانها نظيف، وفوق الأدراج قوس كبير على أسطوانتين كهيئة باب مرتفع مسدود، والواقف بها يستقبل المسجد الحرام، وبينها وبينه باب الصفا، ومنه يرى البيت للواقف . وأما المروة فكذلك بنيت أدراجا وفوقها دكان

1- في خ ود «الباقي».
2- الديار بكري، **تاريخ الخميس**: 1/ 124 بتصرف.
3- ساقطة من د .

كبير، والواقف بها لا يستقبل القبلة، يبقى المسجد لصوب اليمين، وبإزائها الحلاقون، فليست بذلك في النظافة لما يقع عندها من اجتماع الناس للحلق بعد النسك، فيكثر الشعر، بل ربما وجدت النجاسة في المسعى، بل لا تكاد تفارقه من الآدمي وغيره! وبينهما على ما ذكره الأزرقي: «سبعمائة ذراع وستة وستون ذراعا ونصف»[1] ، وبين العلمين - وهو المسعى - مائة واثنا عشر ذراعا، وقد جعلت له علامة في كل من جدار المسجد[2] والذي يقابله لا تكاد تخفى ولو على من لم يعرفها .

1- الأزرقي، **أخبار مكة** :2/ 120.

2- ساقطة من د .

فصل في ذكر المسالك خارج مكة

اعلم أن الطريق من مكة إلى عرفة بين جبال في وادي، فإذا زايل الإنسان البيوت مر بالحجون ومنه إلى المحصب، ومنه إلى الأبطح، ومنه - جبل حراء المبارك بمرآى *344* غير بعيد - إلى منى، ومنها للمزدلفة، ومنها لعرفة، وعدد الأميال من مكة إلى عرفة اثنا عشر ميلا، لاتزيد ولا تنقص، قاله الأزرقي[1]، وضبطه المشارقة أيضا بست ساعات بالمشي الهوينا. والمزدلفة أوسع وأوطأ من مِنى، والمشعر الحرام منها فيما يلي مِنى، وحد مزدلفة مما يلي مِنى مُحَسِّر[2]، وهو واد صغير هنالك قدر رمية حجر.

قال الشيخ أبو سالم: «وهو أول من تحاذى البركة الخربة، التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى، حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض، بهذا عَرَّفهُ أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلوي في **رحلته** إذ سأله عن حده»[3].

«وحدها - يعني المزدلفة - مما يلي عرفة مأزما عرفة، وهما جبلان مكتنفانِ للطريق أفسح من مأزمي مِنًى. قال ابن جُرَيج[4]: قلت لعطاء[5]: ماحد المزدلفة؟ قال: من مأزمي عرفة إلى مُحَسِرٍ، وليس المأزمان منها ولكن منتهاها[6] فقف بأيِّها[7] شئت. ومن مُحَسِّر إلى مسجد مزدلفة نحو الميل، ومن مسجد مزدلفة إلى مسجد عرفة أربعة أميال، وهو مسجد كبير على يمين

1- الأزرقي، **أخبار مكة**: 2/ 190.

2- .ينظر: العبدري، **رحلة**، 368.

3- لبلوي، **رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**: 2/ 6.

4- هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: فقيه الحرم المكي، كان إمام أهل الحجاز في عصره رومي الأصل ولد بملة سنة 50هـ، وتوفي فيها سنة150هـ. ترجمته في **طبقات ابن سعد**، 5/ 194، **صفة الصفوة** ج / 216.

5- هو عطاء بم سالم بن صفوان: تابعي من اجلاء الفقهاء ولد في جند باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة 114هـ ومولده سنة 7 هـ ترجمته في **طبقات ابن سعد**، 2/ 386.

6- في **رحلة العبدري** «مفضاهما».

7- في م .س «أيهما».

الطريق وأنت ذاهب إلى الموقف، مستطيل من الشرق إلى الغرب. وفي غربه القبلة، ويعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام، وهو في أصل[1] عرفة، وقل من يعرفهُ من الحجاج، لأن الموقف وراءه بميل، وهو على وادي عرفة، والوادي هو بطن عرفة، ويقال أن حائطه القبلي على حده ولو سقط ما وقع إلا فيه» قال العبدري[2] . وليس المسجد على حد الحرم، بل ذكر الأزرقي أن «من حد الحرم إلى المسجد عرفة ألف ذراع وستمائة ذراع وخمسة أذرع. ونمرة[3] جبل على اليمين إذا خرجت من مأزمى عرفة، وعليه أنصاب، وتحت الجبل غار ذكروا أن النبي ﷺ نزله، وبين الغار والمسجد ألف ذراع وواحد وعشرون[4] ذراعا» قاله الأزرقي[5] .

وحدود عرفة: البسيط الذي أحاطت به جبال الموقف، والتي منه يمينا ويسارا إلى التي فيها هذا المسجد، والمأزمان من ناحية مكة وبطن عرفة. قلت: وقد اتفق لي ما اتفق للعبدري في **رحلته**[6] ، فقد سألت عنه عريفا[7] من سكانها، فأجاب بأن البطن هو الوادي الذي عليه مسجد نمرة، وعرفه بلاد، وأشار بيده إلى جهة اليمين، ونحن إذ ذاك مستقبلون جهة مكة. وفي العبدري التعبير باليسار، ولعله سأله وهما مستقبلان عرفة فلا تخالف - والله أعلم - زاد العبدري : «وسألته عن العلمين المنصوبين على الطريق في وسط بسيط عرفة، فقال لي: إنما بناهما الأمراء احتياطا على الناس ألا يتقدموا فيخرجوا على عرفة قبل غروب الشمس، فأوهموهم *345* أن العَلَمين حدُّ عرفة وهما في وسطها حتى يكون من تعجّلَ لا يخرج من عرفة إلا بعد الغروب»[8].

1- في ن. م «أول».
2- العبدري، **رحلة**، 387-386.
3- نمرة : ناحية بعرفة نزل بها النبيﷺ.
4- في **أخبار مكة** للأزرقي «أحد عشر» .
5- الأزرقي، **أخبار مكة** : 2/ 189-188
6- ينظر: العبدري، **رحلة**، 388 .
7- في خ و د «عربيا».
8- العبدري، **رحلة**، 388.

وجبال عرفة صغيرة، وبني على أعلى الجبل المسمى بجبل الرحمة[1] فوق موقف النبي ﷺ قبة يقصدها الناس للزيارة، يزعمون أنه الموضع الذي اجتمع فيه آدم مع حواء . يروى أن آدم لما هبط من الجنة وقع بالهند ووقعت حواء بجدة، فاجتمعا بالمزدلفة وتعارفا بعرفة، فلذلك سميت بها فقيل عرفة، ويقال: عرفات بالجمع وكلاهما علم، والتأنيث[2] جمع سمي به فيبقى على حاله، وقيل: سميت بذلك لأن جبريل كان يُري آدم المناسك فلما وصل به إلى عرفة قال: أعرفْتَ؟ قال نعم . وقيل: وصَفَ له جبلها فلما رآه عرفه[3] . وبها عين جارية عذبة وقد حدثت بدعة بها حسبما شاهدنا ذلك وهي أن الإمام وهو واقف بها يخطب ويخلل خطبته بالتلبية، فإذا وصل محلها لبى بلسانه يسمعه من يليه ويشير لمن لم يسمعه بطرف ثوبه، فاتخذها الناس سنة، فجعل جل من حل بالموقف يشير بثوبه ويلبي، فاعتقد العامة بذلك أن الإشارة بالثوب قربة يتقربون بها وما هي إلا بدعة يجب إنكارها، ووصمة في الدين يتأكد إخمادها، وقد تقدمت الإشارة لذلك وأعيد اهتماما .

وبعرفة قبور وبعض قباب ولا أدري ما سبب ذلك ولعل أهلها مرضوا بالموقف فماتوا به، فقبروا هنالك – هنيئا لهم– ويبعد أن يموتوا بمكة أو بالطائف أو ماوالاهما فينقلوا إليها. ومما حدث بالمزدلفة فيما شاهدنا أن الروافض وأهل الأهواز يأخذون الشمع بالليل ويذهبون للقط الجمار تحت جبل قزح[4]، وتحت الجبل الآخر المقابل له، ويتكلفون في ذلك مشقة عظيمة، ويحيون ليلتهم على ذلك تاركين السنة من إحياء الليل بالعبادة .

لطيفة : ألغز الإمام ابن رشيد في **رحلته**[5] في المزدلفة قوله: (من المجتث)

1– جبل الرحمة : أقرب الجبال إلى الموقف ، يطلع الناس إليه للدعاء . انظر : **الاستبصار** : 33

2– في د «الثاني» .

3– ينظر : عياض، **مشارق الأنوار** ،2/ 107؛ الحموي، **معجم البلدان** ، 4/ 105–104 .

4– جبل قزح : جبل بالمزدلفة . انظر : الحموي، **معجم البلدان** ،4/ 341 .

5– **ملءالعيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة** لأبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (ت 721/ 1321 بفاس)، الجزء الخامس : **الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور**، تقديم وتحقيق د محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الاسلامي ، الطبعة الأولى 1408/ 1988 ، ص 102 .

مَا اسْـمُ أرْضٍ فَــرِيدٍ وَإنْ تَشَأ فهُــوَ جَمْــعُ
وَفيـهِ لِلْفِعْـــلِ وَقْــفٌ وَفِيهِ لِلْحَــرْفِ دَفْــعُ
وفيـه للجمــع صــرف وَفِيهِ لِلصَّــرْفِ مَنْـعُ

وأما المشعر الحرام فهو تحت جبل قزح في المزدلفة في صورة مسجد غير مسقف ولا كبير مسور ومعه بعض اتساع، وفي وسطه منار صغير وقبة صغيرة قيل: وهي موقف النبي ﷺ.

وأما منى ففيها مشاهد أعظمها: مسجد*346*الخيف وهو تحت جبل ثبير[1]، هكذا قال أبو سالم[2]. وفي العسقلاني في باب طواف النساء مع الرجال من البخاري ما نصه: «ثبير جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها إلى منى وعلى يمين الذاهب من منى إلى عرفات»[3].

وبمكة خمسة جبال أخرى يقال لكل منها ثبير، كما ذكره ياقوت[4] والبكري[5]، هـ. وفيه أيضا: في باب متى يدفع من جمع بالمزدلفة بعد ذكر ما تقدم، ونسبته للإمام النووي ما نصه: قال صاحب **تحصيل المرام في تاريخ البلد الحرام**: وهذا غير مستقيم لإنه يقتضي أن ثبيرا المذكور في صفة الحج بالمزدلفة وإنما هو بمنى على ماذكر المحب الطبري، بل قال المجد الشيرازي في كتاب **الوصل والمنى في بيان فضل منى**: أن قول النووي مخالف لإجماع أئمة اللغة والتواريخ[6]، هـ. وفي كتاب **الإعلام** خلافه وهو: ثبير عن يسار الذاهب إلى عرفات وهو أعرف لأنه من سكان الحرم، وأهل مكة أعرف بشعابها. وهو مسجد عظيم وعلى بابه منارة لم يسقف منه إلا أربعة صفوف

1- جبل ثبير: جبل شامخ بمكة يقابل جبل حراء. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 233؛ البكري، **معجم ما استعجم**، 1/ 335.

2- ينظر: **الرحلة العياشية**، 1/ 198.

3- **مقدمة فتح الباري** لابن حجر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، 1379 هـ. 1/ 94

4- الحموي، **معجم البلدان**، وفيه: بمكة عدة جبال يقال لكل واحد منهم ثبير، 1/ 90.

5- البكري، **معجم ما استعجم** وفيه: ثبير جبل بمكة وهي أربعة أثبرة، 1/ 335.

6- **الوصل والمنى في فضل منى** للشيخ محي الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي المتوفى سنة 817 هـ.

لناحية الكعبة، وباقيه صحن كبير، وفي وسطه قبة مثمنة لها أبواب قيل: وهي محل فسطاطه ﷺ، وكل ثمن منها أربعة وعشرون قدما من خارجها[1]، وبها تحرينا النفل والفرض.

وفي **الرحلة الناصرية**: أنها موضع خباء علي بن أبي طالب[2]. قال الشيخ أبو سالم: «يسمى مسجد علي بن أبي طالب ﷺ، قيل إنه أول من بناه، وهو موضع نزول النبي ﷺ وأصحابه في حجة الوداع، وطوله من المحراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة قدم، وعرضه ثلاثمائة وأربعون»[3]، هـ.

وهذا المسجد اليوم قد تخرب بعض جداره الشرقي، وامتهنه صعالكة[4] الركاب بنشر اللحوم وإراقة الدماء، حسبما شاهدنا ذلك، ترى الرجل يعمد إلى إبل منحورة وغنم مذبوحة، فيأتي باللحم فيملحها وينشرها فيه من غير نكير، والذباب يجتمع عليها، بل ربما رئيت فيه العذرة، وأنواع الكناسات والأقذار، والرؤوس بدمائها حتى حصلت النتونة الفاحشة في المسجد، ولم يقتصروا على ذلك، بل أفضى بهم قلة التحفظ وكثرة التهاون إلى إيقاد النار فيه للطبخ والشيّ ونحو ذلك حتى اسودت جدرانه، فلا حول ولا قوة إلا بك مولى الموالي، فسبحان *347* من قضى بما شاء وهو الفعال لما يريد؛ والبناء الموجود فيه اليوم، وفي مسجد نمرة من عمل قايتباي. وبقرب هذا المسجد في الجبل حية بجحر غار المرسلات[5]، وقد بني عليه، دخلته تبركا وخبره في الصحيح[6]. وبمنى أيضا مسجد النحر قيل: وهو محل نحره[7] ﷺ وبه جابيتان،

1- ينظر: العياشي، **الرحلة**: 1/ 204.

2- الناصري، **الرحلة**: 239.

3- العياشي، **الرحلة**، 1/ 204.

4- في خ «أكثر»..

5- غار المرسلات من منى. انظر: السخاوي، **البلدانيات**، 1/ 290.

6- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنا مع رسول الله ﷺ بالخيف من منى حين نزلت المرسلات عرفا فخرجت حية فقال رسول الله ﷺ: اقتلوها. فابتدرناها فدخلت بجحرها. أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الحج، باب قتل الحية في الحرم، رقم 3866، 2/ 386.

7- عن جعفر بن محمد قال قال نبي الله ﷺ: منى كلها منحر. أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الحج، باب أين ينحر، رقم 4133، 2/ 453.

وبها مسجد الكبش[1] أي محل نزول الكبش في فداء إسماعيل بسفح الجبل المقابل لثبير، بل تحت ثبير كما في كتاب **الإعلام** قائلا: «ومن الجبال المباركة في الحرم ثبير وهو على يسار الذاهب إلى عرفات بمنى، وهو الذي هبط عليه الكبش» فحرره، وبها مسجد الحلق وهو بجنب جمرة العقبة يقابل حوانيت الحلاقين، وينبغي التفطن لفعل أولئك الحلاقين فإنهم لا يستوفون[2] الرأس بالحلق بل ربما اقتصروا على بعضه قائلين: يكفيك هذا وقصدهم استكثار الأجرة. وبأسفل من العقبة عن يمينك وأنت ذاهب إلى مكة في فسحة من الجبل عن يمين الجادة مسجد البيعة[3]، فهو المكان الذي بايع النبي ﷺ الأنصار رضي الله تعالى عنهم فيه بيعة العقبة، فهو من المساجد المنسوبة إلى النبي ﷺ وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء.

فـائـدة : من خواص واد منى أن الركب يجده كل سنة مغسولا ليس به من أثر العام الماضي إلا القليل، ومن خواصّه أن الذباب لا يظهر به وقت الحج مع توفر أسبابه إلى الغاية . ومنها الحصيات التي يرمي بها الناس من لدن إبراهيم عليه السلام على مرالأعوام، لا سيما من لدن كمُلتْ هذه الملة المحمدية، ومع هذا إذا صدر الركب وكنت آخر من رمى لم تر بهذه الأماكن من الحصيات إلا يسيرا، لا يبلغ أن يكون ولا عشر معشار الحاضرين فضلا عن السالفين . يذكرون أن من قبلت حسناته رفعت حصياته ومن لا فلا، على أن من خواص مكة إذا خرجت الركاب منها وتركت بها كثرة الزبل وجيف الإبل، حتى يحصل لأهل مكة من ذلك الضرر الكبير، أن الله تعالى أجرى سنة بحدثان ذلك وهي نزول المطر الغزير، وجريان السيول حتى ينقى الحرم من جميع ذلك .

1- مسجد الكبش : بنته لبابة بنت علي بن عبد الله بن العباس . انظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، ما جاء في مسجد الكبش، 2/ 175 و4/ 275 .

2- في خ «يستوعبون»، وفي د « يستعفون» .

3- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 205 و4/ 231 .

فصل في ذكر أماكن تقصد بمكة وخارجها للزيارة والتبرك

ويستحب في بعضها الصلاة والدعاء، ذكره أبو الفرج الجوزي *348* وابن فرحون وابن هلال في **مناسكهم**، ومازال التبرك بآثار الصالحين من شعائر الدين . ففي **الموطأ** عن محمد بن عمران الأنصاري عن أبيه أنه قال: عدل إلى ابن عمر وأنا نازل تحت سَرْحَة بطريق مكة فقال: ما أنزلك تحت هذه السَّرْحَة؟ فقلت: أردت ظلها . فقال: هلّ غير ذلك؟ فقلت: لا ما أنزلني غير[4] ذلك . فقال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنت بين الأخشبين – يعني الجبلين– ونفح[5] – بالحاء المهملة – أي ضرب ورمى بيده نحو المشرق، فإن هناك واديا يقال له السُّرَرُ[6] به شجرة[7] سُرّ تحتها سبعون نبيا»[8]. عياض، من السرور أي بشروا بالنبوة أوولدوا تحتها وقطعت سررهم، وهو ما تقطعه القابلة من المولود عند الولادة، ابن عبد البر في الحديث[9]. وقيل: «التبرك بمواضع الأنبياء والصالحين ومقامهم وأماكنهم وآثارهم، وإلى هذا قصد ابن عمر بحديثه»[10].

فبمكة الحجر[11] الذي كان يسلم على النبي ﷺ في مبدإ البعثة وهو في زقاق الحجر به شُهر، وعليه نقش في رخام مبني في جدار. يروى أن النبيﷺ لما جاء إلى بيت أبي بكر ووقف ينتظره ألصق منكبه ومرفقه بالحائط فغاص المرفق في الحجر وأثر فيه، وبه سمي الزقاق المرفق، قال ابن حجر الهيتمي:

4- في **الموطأ** «إلا».

5- في م . س «نفخ» .

6- في ح «السيور» . في د « السيررية» كذا . .

7- في د «سرحة».

8- أخرجه مالك في **الموطأ**، كتاب الحج ، باب جامع الحج ، رقم 949، 1/ 423.

9- ابن عبد البر، **التمهيد** : 13/ 65 – 67.

10- نفسه : 13/ 67.

11- ساقطة من ح .

صح أنه ﷺ قال: «إني لأعرف حجرا كان يسلم علي بمكة»[1]. وقد أطبق السلف كالخلف على أنه الحجر البارز الآن بالزقاق المذكور»[2]، وبإزائه تليه في العدوة الأخرى دار أبي بكر الصديق ﷺ وبني مسجد صغير، وفيه خلوة. ومنها منزل خديجة وهو البيت الذي كان النبيﷺ يسكنه معها، وفيه ولدت أولادها منه، وبه بيت صغير فيه قبة صغيرة مغشاة بملف قيل: هو محل مسقط رأس فاطمة رضي الله عنها، به رحى صغيرة جدا – قد تلاشت– لاصقة بالأرض يزعمون أنها لفاطمة. وبهذا المنزل توفيت خديجة ولم يزل ﷺ مقيما به إلى أن هاجر فأخذه عقيل[3] ، وكان معاوية اشتراه منه وجعله مسجدا يصلى فيه، وبناه وفتح فيه بابا من دار أبي سفيان وهي الدار التي قال فيها رسول الله ﷺ يوم الفتح كما في الصحيح: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[4] . قال محيي الدين الطبري: دار خديجة أفضل المواضع بمكة بعد المسجد الحرام لطول سكنى رسول الله ﷺ بها، ونزول الوحي.

349 ومنها، البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺوهو في زقاق يعرف عند أهل مكة بزقاق المولد، وهو أفضل هذه الأمكنة وأولاها بالتقدير. وقد جعلته الخيزران – جارية المهدي – مسجدا يصلى فيه، وأخرجته من الدار إلى الزقاق، وهو الآن قبة كبيرة مربعة في وسطها قبة صغيرة من عود يثرب عليها من طاقة، يزعمون أن هذا الموضع بالخصوص هو محل مسقط رأس النبي ﷺ، وفيه بعد، وإلى جانبه منبر كبير مزخرف، ولا أدري ما فائدة وضعه بهذا المحل . ولأهل مكة بهذا الموضع موسم عظيم كل سنة في المولد النبوي، تجتمع فيه الوفود من كل جانب، وله كمال التعظيم والتوقير مع

1- الحديث : عن جابر بن سمرة قال قال النبي ﷺ : «إني لأعرف حجرا كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن .» أخرجه مسلم في صحيحه 4/ 1782 والطبراني في **المعجم الصغير** كتاب فضائل الصحابة رقم 2012 ،2/ 291 وفي **المعجم الكبير** رقم 1907 ، 2/ 220 ؛ **كنز العمال** ، كتاب فضائل من قسم الأفعال ، رقم35375 ، 12/ 166 ؛ **فتح الباري** ، كتاب الحيل ، 2/ 89 .
وقال عياض إن النبي ﷺ أراد به الحجر الأسود . انظر : **مشارق الأنوار** ، 1/ 220 .

2- ابن حجر الهيتمي، **الفتاوي الحديثية**، 1/ 409.

3- عقيل بن أبي طالب ابن عم رسول الله عيه السلام أسن من أخيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بعشرين سنة توفي أواخر إمارة معاوية . ترجم له: الذهبي، **سير أعلام**، 1/ 218 و3/ 99 – 100 ؛ ابن حبان، **مشاهير علماء الأمصار**، دار الكتب العلمية ، رقم 14 ، 1/ 9 .

4- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب فتح مكة رقم 1780 ، 3/ 1407 .

مزيد نظافة، وحق له بذلك . قال قطب الدين الحنفي في كتابه **الإعلام**: «قال بعض العلماء[1] إجابة الدعاء في المولد بعد الزوال» . وقال الشيخ أبو سالم: «قد علم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده ﷺ هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى الأول فهل بالشعب أو بالمحصب، ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص، اللهم إلا أن يثبت أن هذه الدار دار والده أو جده ﷺ فيترجح القول أنه ولد بمكة بقضية عادية، وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده». ثم أطال القلم في استبعاد ذلك كمولد علي وغيره حاشا مولد فاطمة، قال: أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره. قال : «والحاصل أنها أماكن تزار بحسن النية»[2] .

وبقربه غير بعيد شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم، وبه البيت الذي ولد به علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ومنها مسجد دار الأرقم التي عند الصفا، يقال لها دار الخيزران، كان النبي ﷺ يقيم بها مستترا في بداية الإسلام[3] ويكثر التردد إليها. ورأيت منقوشا على بعض جدرانها أنها أفضل المشاهد بعد المولد، وهو كذلك بلا ريب، وبها مزيد هيبة فتقشعر النفس والجلد عند دخولها. ومنها مسجد الجن[4] ، ويقال له : مسجد البيعة، يقال إن الجن بايعوا هناك رسول الله ﷺ، ويقال له: موضع الخط الذي خطه هناك لابن مسعود ليلتين وهو بأعلى مكة بقرب الحجون، وبه من الهيبة أعظم من الذي قبله. ومنها مسجد *350* بأعلى مكة أيضا يقال له: مسجد الشجرة يقابل مسجد الجن، يقال إن النبي ﷺ دعا شجرة كانت في موضع ذلك المسجد فأقبلت تخط الأرض حتى وقفت بين يديه، ثم أمرها فرجعت[5]. ولم أدخله، نعم زرته من خارج .

1- ساقطة في د.
2- العياشي، **الرحلة** : 1/ 224 - 225 .
3- ينظر : الفاكهي، **أخبار مكة**، 3/ 330 ؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 200 وما بعدها .
4- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 201.
5- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 201. .

ومنها مسجد يسميه أهل مكة: مسجد عبد الصمد بن علي لأنه من بنائه[1]. ومنها مسجد بأعلى مكة عند سوق الغنم يقال أن النبي ﷺ بايع الناس عنده يوم الفتح[2]. ومنها مسجد بأسفل مكة ينسب إلى أبي بكر الصديق يسمى الآن دار الهجرة يقال أنه ركب منها مع النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة يزوره الناس. ومنها مسجد أجياد[3] وبه مسجد يقال له المتكى[4]، يقال أن النبي ﷺ اتكأ هناك[5]. ومنها المُدَّعَى ويقال: المودع وهو في زقاق يبقى عن يسارك وأنت مستقبل الكعبة، والأسطوانة جعلت علما على موضع وقوفه ﷺ لما قدم مكة ورأى البيت، وقف داعيا، فقيل له: المَدْعَى، وقيل به ودع ﷺ أهل مكة في حجة الوداع لما أراد الخروج إلى المدينة، وهو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة، وليس في أسواق مكة محل تظهر منه الكعبة إلا هذا فيقف الناس فيه للدعاء.

وبمكة أيضا مشهد يزار للإمام مولانا عبد القادر الجيلاني ولا أدري ما سببه، أكان في القديم خلوة عبادته أو بنى رباطا منسوبا له، يجتمع به من ينتسب إليه. وبها أيضا معبد الجنيد[6] وإبراهيم بن أدهم[7] وعليهما أوقاف. ومن

1- وهو مسجد السرر. انظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 202.

2- م. س.

3- ن. م: 2/ 202.

4- في ج وخ ود «المتكا».

5- ذكر الأزرقي أقوال تشكك في صحة ذلك. انظر: **أخبار مكة**، 2/ 202.

6- الجنيد بن محمد البغدادي الخزاز، أبو القاسم، عرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز، زاهد مشهور، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، عده العلماء شيخ المتصوفة، لضبط مذهبه بالكتاب والسنة، من كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة. من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، له رسائل منها رسالة: دواء الأرواح. توفي سنة 297هـ/ 910م. ترجم له: أبو الفرج، **صفوة الصفوة**، 2/ 416؛ البغدادي، **تاريخ بغداد**، 7/ 241 – 249؛ أبو نعيم، **حلية الأولياء**، 10/ 255؛ السبكي، **طبقات الشافعية**، 39؛ الشعراني، **طبقات الشعراني**، 1/ 72؛ القشيري، **الرسالة القشيرية** للقشيري، 430 – 431.

7- إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، أبو إسحاق، زاهد مشهور، توفي سنة 162هـ/ 778م. ترجم له في: الشعراني، **طبقات**، 1/ 59؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، 10/ 135 – 146؛ **شذرات الذهب**، 1/ 255؛ أبو نعيم، **حلية الأولياء**، 8/ 55؛ كوهن، **جامع كرامات الأولياء**، 1/ 385 – 388.

أعظم ما يزار بمكة: الحجون وهو الآن مقبرتان فصلت بينهما الطريق الجادة النازلة من كداء - بالفتح - وبه قبر أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، ومعها أولادها الذكور في قبة، وفيه عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وأخوها عبد الرحمان، وبه - على ما قيل - قبر آمنة والدة النبي ﷺ، وقيل: قبرت بالأبواء. وبه من العلماء والصالحين مالا يكاد يحصره العد، فمنهم أبو طالب مكي وأبو السعود والنسفي صاحب **العقائد**، والحطاب شارح **مختصر خليل**، وسيدي عمر الأعرابي، وبه قباب الشرفاء العلويين أمراء مكة.

ثم لا يخفى في أفضلية هذه المقبرة، فعن ابن عباس *351* مرفوعا: «مقبرة مكة نعم المقبرة»[1]. وورد: «من دفن بها بعث يوم القيامة آمنا»[2]. وروي أن نوحا وهودا وصالحا وشعيبا وإسماعيل عليهم السلام قبروا بمكة، فقبورهم بين زمزم والحِجر، وكان النبي إذا هلكت أمته لحق بمكة فتعبد بها ومن معه حتى يموت[3]. وروى بين المقام والركن قبور تسعة وتسعين نبيا[4]، وقيل قبر إسماعيل عليه السلام وأمه في الحِجر[5] - بكسر الحاء - وبداخل البيوت قبر عباس بن مرداس وعباس بن عبد الله بن عباس في قبة صغيرة.

ومن الأماكن التي تتأكد زيارتها: جبل أبي قبيس وقد صعدنا إليه من الثنية التي قيل إن القمر ظهر لأهل مكة انشقاقه مرتين منها - معجزة للنبي ﷺ - وبه مسجد يقال له: مسجد إبراهيم وليس هو بالخليل عليه السلام، وفيه مغارة

1- الحديث : عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : نعم المقبرة هذه يعني مقبرة مكة. أنظر: ابن حجر العسقلاني، **تعجيل المنفعة بزوائد رجل الأئمة الأربعة**، دار الكتاب العربي، 1/ 15 ؛ عبد الرحمان الرازي، **علل الحديث**، دار المعرفة، 2/ 270.

2- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 209

3 - لفظه : «عن النبي ﷺ قال: كان النبي من الأنبياء إذ هلكت أمته لحق بمكة فيتعبد فيها ومن معه حتى يموت، فمات بها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام وقبورهم بين زمزم والحجر». انظر: الأزرقي، **اخبار مكة**، 1/ 68 ؛ السيوطي، **الدر المنثور**، 1/ 327

4- ينظر : السيوطي، **الدر المنثور**، 3/ 487.

5- حجر الكعبة : هو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم وفيه قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام . الحموي، **معجم البلدان** : 2/ 221.

يقال إنها قبر آدم، وبأعلى[1] الجبل دهليز[2] به عظام الرؤوس يحكى بل تواتر[3] عند أهل مكة أن من أكل رأسا مشويا فيه لا يرى وجع سن أبدا، ويحكى أنه حَبْسُ الحَجاج أيام إمارته بمكة . ودخلت هذه الأماكن كلها بقصد الزيارة، وبنيت كلها وعليها من يقبض الصدقة أيام الموسم كعادة أهل الحرمين في سائر المشاهد، وكان الواقف معنا في ذلك – وأجره على الله – الفقيه العلامة الدراكة الفهامة أبو زيد عبد الرحمان بن عبد العزيز المغربي التادلي من سلالة القطب سيدي علي بن إبراهيم التادلي، وكان مجاورا الحرمين نحو عشرين سنة، وأنزلنا بيتا له بها عدة كتب بباب الزيادة الكبرى بقرب المسجد الحرام وأضافنا مرارا، وذهب بنا لداره مرارا، تقبل الله تعالى منه .

ومنها قبة على الجبل الذي على يسار الذاهب إلى الشبيكة يقال إن فيه مولد عمر ﷺ. ومن الأماكن الخارجة عن مكة التي لا ينبغي لعاقل إهمال زيارتها إلا لعذرنزل به في مدة إقامتنا غارا حراء[4] وثور[5]. أما الأول فيقال: مجمله حراء، واشتهر عند العامة من أهل مكة وغيرهم بجبل النور، وهو عن يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى بمرأى من العين، على ثلاثة أميال من مكة، وهو جبل شامخ وفي أعلاه قبة ظاهرة، قيل: بنيت على موضع تحنثه ﷺ، ترى من المسجد الحرام، وكيف لا وبه بدأ *352*

1- في خ و د «أعلا».

2- ساقطة من د.

3- ساقطة من د.

4- غار حراء بجبل حراء بمكة، كان رسول الله ﷺ يتحنث فيه قبل النبوءة وبه بدأ نزول الوحي، ففيه نزلت سورة «اقرأ» كما في الصحيح. انظر: **صحيح البخاري**، كتاب الجمعة باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم 1، 3/ 4؛ **صحيح مسلم** كتاب الجهاد والسير باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم 160، 1/ 139 – 140؛ الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 204 .

5- غار ثور: بجبل ثور أسفل مكة وهو الغار الذي دخله رسول الله ﷺ و أبو بكر الصديق في هجرتهما إلى المدينة. وقد طلبت قريش رسول الله ﷺ أشد الطلب بعد فشل محاولة قتله، ولما انتهوا باب الغار قال بعضهم إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد، فانصرفوا. وهو الذي ذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة: 40. انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1/ 228؛ أحمد الطبري، **الرياض النضرة**، تحقيق عيسى عبد الله محمد صانع الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1417/ 1996، 1/ 445 .

نزول الوحي وبه نزل على النبي ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1] ، ثم المزمّل والمدثر، والغار في أعلاه وبإزائه صهريج ماء يجتَمع فيه أيام المطر، سائغ عذب شرابه .

قال السهيلي في **الروض الآنف** أن قريشا لما طلبوا رسول اللهﷺ ليهموا بقتله كان على جبل ثبير، « فقال له ثبير[2] وهو على ظهره: اهبط يا رسول الله، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فيعذبني الله تعالى، فناداه حراء: إلي يارسول الله »[3] ، هـ .

ولم أذهب إليه بالقصد ولا علوته كغار ثور لمرض حل بي، فلما نقهت لم أجد من يذهب بي إليه مع ما هو الثاني عليه من البعد من مكة إذ هو على ما يقرب من مسافة يوم لصعوبة الطريق. يروى أن من به حزناً وزاره يذهب حزنه وكأنه اقتبس ذلك من قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [4]. ويحكى من جهل العامة وضلالهم أن من لم ينفد فيه - إذ له بابان في حجر وأحدهما ضيق - فهو ولد زنى، وتقرر ذلك في اعتقادهم الفاسد حتى أن العقلاء من الناس يجتنبونه، لأن من أراد النفاذ منه ولم ينفذ يحكمون له بأنه لغية[5] يعني ابن زنى، ولا يكاد يتمكن منه في الغالب إلا المجاور لمكة مع ماهي الطريق عليه من الخوف الشديد .

ومنها مسجد الجعرانة[6] حيث أحرم النبي ﷺ بعمرة، وهذا الموضع قد هجراليوم الإحرام للعمرة منه، يعبر عنه بعض العامة بالعمرة القديمة، وجُل الناس لا يعرف أنه ميقات للعمرة، بل ربما جهّلوا من طلب الإحرام

1- العلق: 1 .

2- ساقطة من د .

3- عبد الرحمان السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، علق عليه ووضع حواشيه مجدي به منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، د . ت، 1/ 400 .

4- التوبة :40 .

5- مطموسة في د .

6- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 207. ؛ الفاكهي، **أخبار مكة**، (ذكر مسجد الجعرانة وما جاء فيه)، 5/ 62.

منه. ومنها مسجد عائشة[1] بالتنعيم، قال قطب الدين الحنفي في كتابه **الإعلام**: وهذا المسجد فوق التنعيم، على يمين المستقبل وهو بعيد عن أميال حد الحرم وقد تهدم، وما بقي منه إلا آثار جدران قائمة، وكان[2] المكان الذي أرسل النبي ﷺ عائشة مع أخيها عبد الرحمان لتعتمر منه، ولا يصل المعتمرون إليه بل يقتصرون على أجبال[3] الحرم، ومسجد عائشة يتعين تجديده لأنه من الآثار المباركة، وقد تركه الناس لتهدمه[4]، واقتصروا على مساجد مرسومة بالأحجار بمحاريب، وهناك صهريج يمتليء من المطر من قديم، ثم جعلت الآن بئر يمتلئ منها.

ومن الأماكن التي تزار خارج مكة: الطائف على مرحلتين من مكة، وبه مشاهد*353* من أعظمها: ضريح سيدي عبد الله بن عباس ﷺ، ومنها جدة مرسى على البحرالقلزمي على مرحلتين من مكة ورد في فضلها آثار، وبها قبر أمنا حواء على ما أشتهر من الأقوال، ومنها مسجد بذي طوى كان عليه السلام ينزل هناك حتى يعتمر تحت سَمُرَةٍ[5] في موضع المسجد، وبنته زبيدة[6].

1- مسجد عائشة دون مكة بأربعة أميال وبينه وبين أنصار الحرم غلة (الغلوة قدر رمح بسهم). انظر: الفاكهي، **أخبار مكة**، 3/ 97.

2- في د «كأنه».

3- في د «أميال».

4- ساقطة من ح ود.

5- سمرة من الشجر وهي على ستة أميال من المدينة، كان النبي ﷺ ينزلها من المدينة ويحرم منها كما نزل بها في حجته التي حج. ففي **صحيح البخاري**: «أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حتي يعتمر وفي حجته حين حج تحت سَمُرَةٍ في موضع المسجد الذي بذي الحليفة». كتاب المناقب باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى بها النبي ﷺ رقم 470، 1/ 183.

6- ينظر: الأزرقي، **أخبار مكة**، 2/ 203؛ الفاكهي، **أخبار مكة**، 4/ 33.

فصل في ذكر من لقيته بمكة من الفضلاء وأخذت عنه من النبلاء

اعلم وفقنا الله تعالى وإياك أن مكة اليوم ليس بها من يُرجع إليه في المعضلات ! ولا من يصلح للمثول بين يديه، وقديما في زمن المحب الطبري قال العبدري: «ضعف العلم في هذه[1] البلاد لضعف العيش بها، والناس مع الدنيا وصاحبها »[2] . وأما المالكية فلم أر بها بعد البحث إلا المجاورين منهم، وأولاهم بالتقديم الشيخ أبو زيد – المذكور قبل- وله ممارسة بالعربية واللغة والقراءة وغيرها، أوقفني على حواشي له على **القاموس** في نحو ست كراريس، ومحصلها التشنيع عليه في الرد على الجوهري[3] ، وتكلم معه المحشي في[4] نحو ثلاثمائة مسألة، وغالبها نقل من أصله، وقد وهبني منها نسخة، تقبل الله تعالى منه وشكر سعيه.

وسألني عن نازلة تنازع فيها أرباب الفتوى من المذاهب في أيام حجنا، وهي؛ أن رجلا حلف بالحرام وحنث فروجعَ وأنكر أن يكون حلف ولا حنث، فشهد عليه عدلان فأعذر إليه فيهما، فجرحتهما بَيِّنة بأنهما يبعثان لأرباب الذمة بجدة ما بعثاه من السلع، وهما ينوبان عنهم في بيع ما وجهوه إليهما من مثل ذلك، أيسمع هذا التجريح ويعمل بمقتضاه حتى لا يلزم الرجل حنث في زوجته؟ أم لا يعمل به لجواز البيع والشراء مع الذميين، وأن يكون المسلم وكيلا عنهم في ذلك ؟ فأجبت بأنه لا يجرح الشاهد بما ذكر لجواز الإقدام على ذلك، نعم، إن ثبت على الشاهد أنه يدخل عليه الربا من الذميين بذلك، أو يداخلهم مداخلة تمكن محبتهم في قلبه فلا شك أنها جرحة فيه .

وسألني عن متعلقات حروف الجر ونحوها، من كل مقدر لا بد منه في صحة المعنى كالمبتدإ والفاعل والمفعول للعلم به، هل هي من القرآن؟ فأجبته بأن

1- في رحلة العبدري «تلك» .

2- العبدري، **رحلة**، 471.

3- في د «جوهر» .

4- مطموسة في د .

السؤال قديم، ففي **حواشي الشهاب الخفاجي على البيضاوي***354* مانصه: «فإن قلت: مقدرات القرآن هل هي منه حتى يطلق عليها كلام الله[1] أم[2] لا ؟ قلت: معانيها مما يدل عليه لفظ الكتاب[3]، التزاما للزومها في متقارب اللسان فهي من المعاني القرآنية، وأما ألفاظها فليست منه، لأنها معدومة ومنها ما لا يجوز التلفظ به أصلا كالضمائر المستترة وجوبا، وأما جعلها مقدرة[4] فأمر اصطلاح[5] ادعاه النحاة تقريبا للفهم، فأنظره فإنه من الحور القاصرات في الخيام[6]»[7]، هـ.

ومنهم الشيخ الحسين يعرف هناك بالتونسي، وهو في الحقيقة الزواوي، اجتمعت به وذهب بي لبيته لما ختن ولدا له، وأضافني في جماعة من الفضلاء، وله ممارسة ما بفقه مالك.

وأما الحنفية كالشافعية فلهم اليد الطولى في الحرمين الشريفين من طلبة وغيرهم، ومنهم الأئمة والقضاة والمفتون، ولم ألق إذ ذاك – بعد البحث– من يصلح الأخذ عنه !

وأما الحنابلة فما أضعف مذهبهم في مصر والحرمين ! وأكثرهم اليوم بالشام، وفيما وراء النهر، وغالبهم– على ما يحكى – أهل عقائد فاسدة فيما بين رافضي وغيره، ولم ألق بمكة منهم إلا إمام مقامهم وهو الشيخ علي، فهو يدعي معرفة فقه ابن حنبل ويفتي في مذهبه من غير منازع له:

(من الكامل)

خَلَتْ الدّيَارُ فَسُدْتَ غَيْرَ مُسَوّدِ وَمِنَ الشّقَاءِ تَفَرّدِي بِالسّؤْدَدِ[8]

1- في د «الناس».

2- ساقطة من د .

3- في د «الكتب» .

4- في ح خ ود «مقدرات».

5- في د «أمرا اصطلاحا».

6- اقتباس من الآية ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ الرحمن: 72 .

7- ساقطة من ج.

8- البيت للحارث بن بدر الغداني (ت64 هـ) تابعي من أهل البصرة . انظر : الأصفهاني، **الأغاني**، 8/ 417.

بحث عني حتى اجتمع بي اتجاه الحجر، بقرب دار الندوة، وقد صاحب معه ضيافة، تقبل الله منه، وأخبرني أنه كان أخذ العهد الناصري من عمنا الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد طيب الله ثراه، لما حج سنة إحدى وستين. نعم من منن الله تعالى علي وعظيم مواهبه لدي أن اجتمعت- بعد البحث التام عن الواردين من سائر الآفاق تجاه البيت قبالة الميزاب- بمحدث الشام في وقتنا، وهو الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن عبيد العطار الشافعي إمام مسجد دمشق والمدرس به، وكان - والله - من الأولياء والصلحاء، والعلماء العاملين، فرأيت رجلا خاضعا خاشعا ذاكرا، لا يتكلم إلا فيما يعنيه، وكان أمثل من رأيته في سفري من لدن خروجي من مقري، فتفاوضت معه في مسائل علمية، فكان مما استفدته منه وقد جرى ذكر **مسند** الإمام أحمد بن حنبل لما اشتريت الثلث الوسط منه بالمسجد الحرام، وأكمله الله لي[1] بعد بمصر، قائلا: فيه أربعون حديث – يعني بالتكرار وإلا فالذي *355* من غير تكرار: ثلاثون ألف حديث – لم يتكلم معه فيها إلا في ست، أجيب عن الخمس وبقي الباقي بلا جواب، وهو: «يدخل الجنة عبد الرحمان بن عوف حبوا»[2]. قال: وهو موضوع. قلت: وقد وقعت بعد ذلك على رسالة للحافظ ابن حجر وهي بالخزانة الناصرية سماها: **القول المسند في الذب عن مسند الإمام أحمد**، ومحصلها أن شيخه الحافظ العراقي سئل: هل في **مسند أحمد** حديث ضعيف أو موضوع؟ فأجاب أن به بعض ذلك، فبلغ ذلك بعض الحنابلة فأنكروه. ونقل عن ابن تميم: الذي وقع في المسند من هذا النوع هو من زيادة القطيعي لا من رواية الإمام أحمد، ولا من رواية ابنه عبد الله عنه، فحرضه هذا القائل على أن جمع الأحاديث من رواية أحمد، ومن رواية ابنه، مما قال فيه بعض الحفاظ بالوضع وإن خالفه غيره. وعدها العراقي تسعة أحاديث، وزاد عليه ابن حجرحتى بلغت أربعة

1- ساقطة من ج و د.

2- الحديث: عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَمَا عَائِشَةُ فِي بَيْتِهَا إِذْ سَمِعَتْ صَوْتًا فِي الْمَدِينَةِ فَقَالَتْ: مَا هَذَا قَالُوا عِيرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَوْفٍ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ: فَكَانَتْ سَبْعَ مِائَةِ بَعِيرٍ. قَالَ: فَارْتَجَّتْ الْمَدِينَةُ مِنَ الصَّوْتِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَدْ رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَبْوًا. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَقَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتُ لَأَدْخُلَنَّهَا قَائِمًا، فَجَعَلَهَا بِأَقْتَابِهَا وَأَحْمَالِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أخرجه الإمام أحمد في **مسنده** رقم 24886، 6/ 115.

وعشرين حديثا، وبين أنه لا يتأتى الحكم على شيء منها بالوضع بأجوبة عقب كل حديث، يذكر الشواهد والمتابعات وغير ذلك مما يتقوى به الحديث.

وسألته أترفع نسبك لصحابي من أصحاب النبي ﷺ، وأنا[1] قد توسمت منه الشرف المصطفوي؟ فقال: لا يرجع نسبه إلا لمن تقدم في آبائه علم، وأنا لم يتقدم في آبائي علم، فازددت بكلامه هذا فيه محبة لما لاح[2] عليه من الصدق، ومراقبة الجليل سبحانه. ولما جالسته[3] مرارا عقدنا عقد الآخرة في الله تعالى، بعد إن كان هو السابق لطلبها من حسن ظنه واعتقاده، ثم طلبت منه الإجازة فامتنع إلا بأن أجيزه كولده معه وقد صاحبه واسمه الشيخ عبد الوهاب، يفعل كل منا ما طلبه منه صاحبه، بعد قوله: على شريطة إجازة الأقران. ونص ما أجازني به وكتبه لي بخطه تجاه الكعبة الشريفة: «بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن نقلوا لنا أقواله وأفعاله وأحواله، وبعد فقد اجتمعت اتجاه بيت الله بالأخ العالم الفهيم البارع بالمعقول والمنقول سيدنا الشيخ محمد عبد السلام من ذرية الإمام ابن ناصر، وطلب مني إجازة الأقران، ولشيخه أبي العباس أحمد بن الحسين من حفدة ابن ناصر للتبرك، ولاتصال الإسناد، فإن الأسانيد أنساب أهل الحديث، فامتثلت أمره*356* رجاء بركته وبركة أصوله، وأجزتهما عن الشاميين الشيخ علي بن كزبر، والشيخ إسماعيل العجلوني، والشيخ محمد القرفي، والشيخ أحمد المنيفي، والشيخ علي الجنيني، كلهم عن الشيخ المحقق عبد الغني النابلسي الصوفي صاحب التآليف الكثيرة، وعن أبي المواهب، وعن محمد الكاملي وثلاثتهم عن الشيخ عبد الباقي الحنبلي صاحب **الثبت**، وهو عن الشيخ حجازي الواعظ المعمر، وهو عن الشيخ محمد بن أركاس، وهو عن سيدنا الحافظ ابن حجر قدس الله سره، وأرجو منهما الدعاء لي ولذريتي بالتوفيق لمرضاة الله وحسن الختام. كتبه أحقر الورى أحمد بن عبيد العطار الشافعي الإمام في مسجد دمشق الأموي، هـ.

1- في د «إنني».

2- في خ «قام».

3- في د «جلسته».

فصل في ذكر ما شاهدت بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته، أوإلا نادرا في خصوص خزانتنا

مجلدان من ابن التلمساني على الجلاب إلى الحج، وأعجب به[1] من فقيه حافظ ورع زاهد في الدنيا[2]، وكتاب **المجمل في اللغة** لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء عصرى الجوهري في مجلد كثير الفوائد، سهل التناول. والأول من **الفاكهاني على الرسالة** إلى آخر الصلوات، وهو شرح عديم النظير، لا أظن **الرسالة** شرحها متقدم ولا متأخر مثله، وحواشي الشيخ زكرياء الأنصاري على **تفسير البيضاوي**، وهي مختصرة محررة جامعة على عادته في مؤلفاته، في سفر رباعي مدموج، **وتبصرة اللخمي** المالكي، كاملة في أربعة أسفار بخط حسن مغربي من أحباس المسجد الحرام، ولم أكن رأيت منها في عمري إلا قسطا في الخزانة الناصرية ولم تكمل بها.

وبمكة من الكتب سيما في فقه الحنفية العجب، وهي كاسدة جدا لا يكاد يباع منها شيء إلا بالموسم. ومما وجدته يباع بالمسجد الحرام: **صحيح ابن حبان**، **ومشكل الأسماء والآثار** للطحاوي وهو كتاب كبير، **والمؤتلف**[3] **والمختلف** للذهبي، والتجريد له، **مختصر جامع الأصول**، وعندنا في الخزانة الناصرية جزء من أصله، ومما وجدته يباع أيضا: **الأحاديث المختارة** للضياء المقدسي، أبو الحسن السندي على **مسند** الإمام أحمد في ثلاثة أجزاء، وقد اشتُريَ[4] لأميرنا نصره الله، فجيء[5] به له، **وسنن الترمذي والنسائي** وهما بالخزانة الناصرية كبقية الستة.

1- بياض في د.
2- مطموسة في ج.
3- ساقطة من ح ود.
4- في د «انتهى».
5- في د مطموسة.

ذكر خروجنا من مكة شرفها الله تعالى

357 وفي ضحوة الإثنين السادس والعشرين من ذي الحجة، أذن الركب المصري بالرحيل، فارتحلنا بعد توديع البيت وجعلها آخر العهد في حر شديد، مع[1] كونه السابع في فصل الشتاء لما علم من حرارة الحجاز، ونزلنا عشية يومنا الوادي وبه قلت لعربي : أمسك الركاب لأعلوّ ظهر دابتي، فقال مفصحا: لستُ بفارغ لك . فقالت عربية إلى جنبه منكرة من قوله مفصحة عن جهله: ليس كل الناس يفعل الجميل ! فتعجبت من فصاحتها ومزيد بلاغتها .

ثم ارتحلنا منه لعُسْفان[2] ، وفيما بين العشائين في هذه المرحلة وقع بنو سعد على المرابط السيد بركات من ذرية الشيخ أبي محمد صالح المغربي الأسفي، وولده المذكور من سكان بسكرة النخيل، ذهب في طائفة وافرة من حجاجهم وله مع ذلك وفر وخدم ودواب مَحَافّ . وكان سبب أخذ بني سعد له ولمن معه أن الركب الطرابلسي تقدم غير بعيد في تلك الليلة أمام الركب المصري، فخرج هو ومن معه بجميع ما بأيديهم من الأموال والدواب من المصري ليدخل مع الطرابلسي، فوقع اللصوص عليهم فقتلوا من أصحابه اثنين وجرحوا عشرة، وذهبوا بجميع ما لديهم حتى بعض الإبل، فنسأل الله تعالى لنا ولهم العافية والخلف .

ثم منه لخليص وبه جعل يشرب الدخان – على عادة المشارقة في التكثير منه – أخونا ومحبنا الحاج قاسم الشرايبي الفاسي الأصل المصري الدار، وكان ذا حكم ومواعظ ، طاعن في السن فقلت له : ما أحسن ما تنطق به من الحكم لولا أنك ابتليت بهذه الشجرة الخبيثة، فأنشدني بيتين أظنهما للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي الله عنه وهما: (من البسيط)

1- ساقطة من د .

2- عسفان بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون فعلان من عسفت المفازة وهو يعسفها، وهو قطعها بلا هداية ولا قصد وكذلك كل أمر يركب بغير روية. قال: سميت عسفان لتعسف السيل فيها كما سميت الأبواء لتبوء السيل بها. قال أبو منصور: عسفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وقال: غيره عسفان بين المسجدين وهي من مكة على مرحلتين. وقيل عسفان قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلا من مكة وهي حد تهامة .انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 121 – 122 .

دَع المَقَادِيـرَ تَجْـرِي فِي أَعِنَّتِهَـا وَلا تَبيتَـنَّ إلاَّ خَالِـي البَـالِ
مَا بَيْنَ لَمْحَـةِ عَيْـنٍ وَانْتِبَاهَتِهـا يُغَيِّرُ الله مِـنْ حَـالٍ إِلَـى حَـالِ[1]

ثم منه لقدَيْد وبه لقيت بعض أهل سوس ممن تقدم من الركاب المغربية مجردا من ثيابه، مجروحا مخضوبا بالدماء، مسلوبا مما معه من البضاعة، زعم أنه نام خلف الركب فوقع عليه بنو سعد . وبه أنشدني الشرايبي المذكور لما أضرَّ به الجوع لابن الراوندي، وقد جاع وهو بمكة أياما، فلقي غلاما وبيده تيس من الماعز، وهو يطعمه لوزا وبندقا[2]، فأنشد *358* يقول: (من الكامل)

تُوتَى التُّيُوسُ رِزْقَهَـا بِسُهُولَـةٍ وَذَوُوْ الفَصَاحَـةِ رِزْقُهُمْ مَسْجُونُ
إِنْ كَانَ حِرْمَانِي مِنْ أَجْلِ فَصَاحَتِي هَـوْنٌ عَلَيَّ مِـنَ التَّيُوسُ أَكُـونُ

ثم منه في الموفى ثلاثين من ذي الحجة لرابغ، وبالليل ذهب بنو سعد بمَرْحول من الإبل وما عليه من الأحمال والبضاعة، وسببه أن الركب ريّضَ، لئلا يدخل رابغ ليلا على عادته من عدم دخول البنادر ليلا، لما يتضرر به من الأعراب وسواق الركب من الصعالكة في وقت اشتغال الناس بأسباب النزول، فنام أربابها فجرى عليهم المقدور.

وبرابغ اضطربت الآراء فقائل يقول : نمر[3] على الدرب[4] السلطاني، إلى بدر إلى الجُريْدَة إلى المدينة، وقائل يقول: نرجع يمينا من هنا على طريق الفرْع كالشامي، إذ رجع يمينا من الوادي على درب الليمون، فرارا من شر أعراب الجريْدَة والصفراء وما والاهما من أعراب حرب، إذ عادتهم مع المصري إن وصل في الرجعة رابغا، أن يعطيهم عطاءهم المقرر لهم قديما، بعد إعطائهم الرهائن منهم، يُقيدون ويحملون مع الركب إلى طيبة، ثم منها إلى

1- لم أقف على البيتين في ديوان الشافعي.

2- بندق واحدته بندقة : نبات ثماره اللوزية صغيرة مستديرة لذيذة الطعم . انظر : **المعجم العربي**، 176- 177.

3- بياض في ح.

4- ساقطة من د .

أن يأمَنَّ، فيطلقهم ويكسوهم ويعطيهم وفرًا . وقد حضر هذه السنة رؤساؤهم[1] برابغ، فلما تَخيّل منهم الغدر بِمَنْعِهم من إعطاء الرهائن نودي بالليل في الركب - وهم يسمعون تورية - ألا إن السفر على القاع[2] إلى بدر، إلى الجُريْدَة. فأدلج الأعراب أمام الركب متحزبين، ظانين أن الأمر كما نودي به، فلما أصبحنا صبيحة السبت الأول من المحرم أذنوا بالرحيل على طريق الفرع وهي أضيق وأحرش وأطول وأقل ماء من السلطاني، وهي كما في تاريخ الشريف السمهودي الكبير : «طريق الحاج من قديم» .

وبرابغ اجتمعت بعربي وعليه أثر الصدق والخير وهو من قبيلة حرب من سكان الأبواء، وتسمى اليوم عند أهل الحجاز: بالأخربات - لسيل خربها - وسألته عن تعيين[3] أسماء قبائل الحجاز[اليوم][4]، فعين منها قبائل شتى وقال: يا سيدي لا تجد بالحجاز اليوم قبيلة واحدة ذات شوكة ومنعة إلا وقد حدث سكناها بالحجاز بعد العهد النبوي، وأما الذين أدركوا العهد النبوي كثقيف لناحية الطائف ونحوهم، فلا تجدهم إلا ضعفاء متضعفين متمسكين ببعض آثار الدين والخير .

فــوائــد :

سأل في هذا اليوم، *359* ونحن مرتحلون من رابغ، مُحبُنا في الله العلامة الدراكة القاضي أبوفارس عبد العزيز بن حمزة المراكشي، وكان كرفيقه العلامة أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان القضوي الدمناتي من أهل الدينِ والصلاح والمحبة لنا ولأسلافنا وكنا نترافق ليلا ونهارا، وكانا -

والله - من الأفاضل الذين أبرزهم الوقت[5] ، عن حديث: «إن الزمان

1- في د «رؤساء» .

2- القاع : منزل بطريق مكة بعد العقبة لمن يتوجه إلى مكة. أنظر: الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 298 .

3- قي د «تفسير» .

4- ساقطة من ح .

5- أي لكونهم يواظبون على الصلوات فبرزوا وظهروا للعامة، ومنه قول الصوفية : رجل له أوقات أي له مواقيت يخلو فيها لنفسه يصلي ويذكر الله فعرف عنه ذلك .

قد استدار»[1]، قال: يلزم من تفسيره بما تقرر من قضية النَّسِيء المشار إليه بآية براءة[2]، أن الزمان الذي قبل حجة الوداع وقع فيه اشتباه، فيسري حينئذ الخلل لحجة أبي بكر الصديق ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم، وقد كانت سنة تسع على الصحيح، وكذا يسري الخلل لحج عتاب بن أسِيد ومن معه سنة ثمان، لأن النبي ﷺ خطب بمنى يوم النحر في حجة الوداع، وكانت سنة عشر، فقال: «إن الزمان قد استدار»، أي زمان الحج، عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله تعالى له يوم خلق السماوات والأرض»، بأصل المشروعية التي سبق بها علمه ونفذ بها حكمه.

فقلت: لا يلزم من قوله ﷺ ذلك ولا تفسيره، إذ يوم حجة الوداع يوم إخباره بالاستدارة ولا يلزم من ذلك نفيها قبل حجة الوداع حتى يلزم عليه من ما ذكر من خلل، بل كل من حج أبي بكر وعتاب وقع موقعه في ذي الحجة. هذا الذي عند عماد الدين بن كثير في **البداية والنهاية**[3] ونحوه له في **تفسيره** مزيفا من قال أن حج أبي بكر بالناس سنة تسع وقع في ذي القعدة[4] على حكم النسيء، وقد أطال الكلام على المسألة الشيخ إبراهيم البقاعي في تفسيره المسمى: **بنظم الدرر في تناسق الآي والسور**[5]، ومحصله أن السنة التي حج فيها أبو بكر نودي فيها بتحريم النسيء وغيره من أمور الجاهلية. ولما مضى من الشهور الذي حج فيه عشرة أشهر، وكان الحادي عشر وهو

1- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبعة أرضين، ولفظه: عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشرا شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». رقم 3025، 3/ 1168. أي: الأمر اليوم شرعا كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

2- البقرة: 189.

3- ابن كثير، **البداية والنهاية**: 5/ 164 – 165. دار الكتب العلمية.

4- ينظر: **تفسير ابن كثير**، 2/ 355. وعلق عليه بقوله: «و في هذا نظر».

5- **نظم الدرر في تناسب الآي والسور** في التفسير للشيخ الإمام برهان الدين: إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة 885 هـ، خمس وثمانين وثمانمائة وهو كتاب لم يسبقه إليه أحد جمع فيه: من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول. وذكر في آخره: أنه فرغ منه في: سابع شعبان سنة 875 هـ، خمس وسبعين وثمانمائة. انظر: حاجي، **كشف**...، 2/ 1962.

ذو القعدة، سار النبي ﷺ في أواخره[1] إلى الحج موافيا لهلال ذي الحجة، فلما وقف بعرفة أخبر بأن الزمان قد استدار، فعلم قطعا أن استدارته كانت في حجة أبي بكر وكذا في حجة عتاب، لما علم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا يعتبرون حساب أهل الجاهلية، إذ هم لو اعتبروه لكان زيادة في الكفر، وهذا لا يقوله ذو ملة[2]. والنقل الصحيح أن النبي ﷺ أرسل أبا بكر إلى الحج في آخر ذي القعدة أو بعد انقضائه من سنة تسع. ولقولهم أن الأربعة الأشهر التي ضربت للمشركين من يوم النحرآخرها عاشر *360* ربيع الأخير، وقد صرح ابن إسحاق ونور الدين الهيتمي في **زوائد معجم** الطبراني **الأصغر والأوسط** بأن حج أبي بكر وقع في زمانه قائلين: «فلما كان حج أبي بكر بالناس وافى ذلك العام الحج فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل فقال: «أن الزمان»[3]، وبه قال الداوردي والثعالبي والماوردي.

قلت: ومجاهد هو القائل كما في **تفسير القرطبي** وغيره «أن حج أبي بكر كان في ذي القعدة»[4]، وجعله ابن حجر هو المعتمد وقال سنده صحيح. ولئن صح فيتعين حمله على أن المراد ابتداء سفر أبي بكر كان في ذي القعدة أو آخره، إلا أنه أدى مناسك الحج فيه ووقف حتى الوقوف بعرفة تقريرا لأحكام النسيء، إذ لا يقوله إلا جاهل معاند. الحاصل الذي ندين الله به أنه تعالى حفظ الإسلام والمسلمين من لدن فرض الحج، بل من لدن بعث النبي ﷺ من التديّن بما عليه المشركون في أمر النسِيء، فلم يوقعوا الحج إلا في زمنه الذي فرضه الله تعالى فيه، ولا التفات إلى اقتصار القرطبي وغيره على قول مجاهد، والله أعلم بالصواب.

1- في د «آخره».

2- في د «مسكة».

3- **المعجم الأوسط** للطبراني، كتاب فضائل الصحابة، باب من اسمه إبراهيم، رقم9093، 2/ 196؛ وفي **معجم الزوائد** لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807 هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة 1407، 7/ 29. (لم أقف على القولة في **زوائد** الهيتمي (نور الدين) المتوفي سنة 282هـ)

4- **تفسير القرطبي**: 8/ 68.

وسأل أيضا عن حديث الضب وهو قوله ﷺ : «ليس بأرض قومي»[1] مع ما ثبت في السّير من كلام الضب له ﷺ في مكة مبدإ البعثة المشار إليه بقول البوصيري: «ألفته ضبابها والظباء»[2]. فظاهر ما في الحديث والسيرة التعارض، فأجبت بأن البحث قديم كالجواب وهو أنه ليس بأرض قومي اصطياده ، فالمنفي الإصطياد لا الوجود، أوالمراد ليس بالحرام أوبما قاربه، وإن وجد خارجه عن بُعْدٍ منه مثلا نحو ذلك من الأجوبة وقد طال عهدي بها.

وسأل عما علم من أن المسخ والخسف مرفوعا عن هذه الأمة مع ما في الصحيح: «يغزوا جيش الكعبة فيخسف بهم»[3] ، ومع ما في الحديث المرفوع: «بينما الناس يصبحون فيذهبون إلى علمائهم فيجدونهم قد مسخوا قردة وخنازير»[4] ؟ فأجبت بأن المرفوع هو الإستئصال أو محمل رفعه على صدر الإسلام وما قاربه إلى قرب الساعة ثم يقع.

وسأل عما يحكى عن ابن العربي من قوله وهو راكب البحر: اسكن بحر فإن عليك بحرين: بحرالعلم وبحر التقوى ! فأطلعت له منه دابة فسألته ماذا على زوجة الممسوخ أعدة الوفاة أو الطلاق؟ فأُفْحِمَ ولم يجد الجواب عن هذا السؤال. فأجبته ولست على وثوق: إنا إن قلنا أن الممسوخ *361* لايعيش أكثر من ثلاث، توقف المرأة إذ لا ضرر عليها في هذه المدة، فإن مات اعتدت[5] عدة

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه** ولفظه : عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن خالد بن الوليد : أنه دخل مع رسول الله ﷺ بيت ميمونة فأتي بضب محنوذ فأهوى إليه رسول الله ﷺ بيده فقال بعض النسوة أخبروا رسول اللهﷺو سلم بما يريد أن يأكل فقالوا هو ضب يا رسول الله فرفع يده فقلت: أحرام هو يا رسول الله ؟ فقال: لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه. قال خالد: فاجتررته فأكلته ورسول الله ﷺ و سلم ينظر». كتاب الذبائح والصيد، باب الضب، رقم 2175 ، 5/ 2105.

2- عجز بيت للبوصيري وصدره : ويح قوم جفوا نبيا بأرض .
انظر : البصيري ، **متن الهمزية**، 6 .

3 - **صحيح البخاري** ، كتاب العلم باب هدم الكعبة ، 2/ 579 .

4- ينظر: **الدر المنثور** وباختلاف في اللفظ : «عن مالك بن دينار قال : بلغني أن ريحا تكون في آخر الزمان وظلمة فيفزع الناس إلى علمائهم فيجدونهم قد مسخوا» . وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في أمتي فزعة فيصير الناس إلى علمائهم فإذا هم قردة وخنازير». 7/ 492 ؛ رجاء مصطفى حزين: **الحكيم الترمذي ومنهجه الحديثي في نوادر الصول**، وقد صنفته ضمن الأحاديث التي لم يقف على درجة صحتها . دار الآفاق العلمية، 1419/ 1998 ، ص 302.

5- في د «عدة» .

الوفاةَ [وإن لم يمت ثبت لها الخيار، أو يقال تلزمها عدة الوفاة][1] أيضا، لأن الزوج بعد مسخه سيما إن مُسخ إلى صورة لا تشبه الآدميين في معنى الموتى، والله أعلم. وقد[2] قالوا: إن مُسخ في صورة حيوان اعتدت عدة الطلاق وإلا فعدة الوفاة.

وسأل عن تقديم الأخ على الوالدين في آية: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾[3] فلم يحضرني إذ ذاك جواب، ثم راجعت المسألة بعد فوجدت البرهان أبا إسحاق إبراهيم البقاعي في تفسيره الكبير المسمى **بنظم الدرر في تناسب الآي والسور**، بين ذلك غاية وسبقه الزمخشري في **الكشاف**[4]، وأشار إليه البيضاوي وابن جزي. وسئل عنها ابنُ حجر الهيتمي في **فتاويه** المشهورة، وكلهم قالوا: إن الآية من باب التوخّي، «لأن الأبوين أقرب إلى الإخوة وتعلق القلب والالتصاق بالصاحبة أشد منه لهما، وكذلك بالإبن أشد منه بها، وكأنه قيل من أخيه بل من أبويه مع مزيد قربهما، بل من صاحبته مع مزيد تعلقه بها، بل من الابن الذي هو الغاية في التعلق به وعدم مساواة أحد له في هذه المرتبة، وذلك ينبئك عن شدة الهول في ذلك اليوم حتى يحمل على الفرار من مثل هؤلاء. نسأل الله اللطف في ذلك والمسامحة[5] إنه أكرم مجيب سبحانه»[6].

وسئل عما ورد في السنة من القصاص بين البهائم، كالقصاص للجمّ من[7] القرنى، مع أن مذهب أهل السنة والجماعة أن العقاب مرتّبٌ على العقل؟

1- ساقط من ح.

2- ساقطة من د.

3- عبس: 36-34.

4- الزخشري، **الكشاف**: وفيه: «وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب؛ كأنه قال: يفرّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه. وقيل: يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات. يقول الأخ: لم تواسني بمالك. والأبوان: قصرت في برنا. والصاحبة: أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت. والبنون: لم تعلمنا ولم ترشدنا، وقيل: أوّل من يفرّ من أخيه: هابيل؛ ومن أبويه: إبراهيم ومن صاحبته: نوح ولوط؛ ومن ابنه نوح ﴿يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به». 7/ 237 (سورة عبس)

5- في د «المسامحات».

6- ابن حجر، **الفتاوي الحديثية**، 1/ 540.

7- ساقطة من د.

فأجبت بأنه محتمل للحقيقة والمجاز، وأن المراد القصاص مرتب على الإلهام[1] لا على العقل[2] بخصوصه، أو أن هذا جرى مجرى المبالغة[3] في أخذ الحق، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد إذ هو الفاعل المختار لا معقب لحكمه، وقد بين ذلك عياض وتبعه الأبّي.

رجوع، ثم سرنا مرتحلين من رابغ ومررنا بعقبة هرشى[4]، قاست الإبل منها شدة، فبتنا بعد ذهاب نصف الليل بالأبواء: قرى صغيرة، وأخصاص بين جبلين، في واد ذي آبار كثيرة عذبة، قريبة القعر، وبه نخل وذرة ودُخَنٌّ[5] طويل جدا يأتي على الراكب والجمل، وأرضه مُخْصِبَة عجيبة، وسكان هذا الدرب من حَرْب إلا أن هذا الفريق منهم سلم للحاج لا يناله منهم ضرر، أقاموا مع الركب *362* سوقا عظيمة من ثمار العجوة وغيرها. وبهذا الموضع وقعت في العهد النبوي سرية، قيل بموضع قربها يقال له الآن المحلة، وبها ولد النبي ﷺ على أحد الأقوال، وبها قبر والدته ﷺ على آخر[6]، وبقربه ودّان[7] – كما تقدم التنبيه عليه – فهما موضعان لا موضع واحد خلافا لابن إسحاق ومن تبعه. وسمي هذا المكان بالأبواء [8] لتبوّئ

1- في د «الاكمال».
2- في د « النقل».
3- في د «المغالبة».
4- هرشى: بالفتح ثم السكون وشين معجمة ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى موضع واحد ولذلك قال الشاعر: خذا أنف هرشى أو قفاها فإنما كلا جانبي هرشى لهن طريق. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 397.
5- الدخن: حب الجاورس واحدته دخنة. انظر مادة « دخن» في **لسان العرب**.
6- في **معجم البلدان**: « وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ وكان السبب في دفنها هناك أن عبد الله والد رسول الله ﷺ كان قد خرج إلى المدينة يمتار تمرا فمات بالمدينة فكانت زوجته آمنة بنت وهب بن عبد مناف تخرج في كل عام إلى المدينة تزور قبره فلما أتى على رسول الله ﷺ ست سنين خرجت زائرة لقبره ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ فلما صارت بالأبواء منصرفة إلى مكة ماتت بها »، 1/ 79.
7- ودّان: بالفتح كأنه فعلان من الود وهو المحبة، ثلاثة مواضع أحدها بين مكة والمدينة قرية جامعة من نواحي الفرع بينها وبين هرشى ستة أميال وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال قريبة من الجحفة وهي لضمرة وغفار وكنانة. انظر: م. **س**، 5/ 365.
8- الأبواء – بالفتح ثم السكون وواو وألف ممدودة – قرية من عمل الفرع من عمل المدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا قيل سميت بذلك لما فيها من الوباء ولو كان كذلك =

السيول به، لا لأنه سمي بذلك لما به من الوباء وإن قاله صاحب **المطالع** إذ لو كان كذلك لقيل: الأوباء أو هو مقلوب منه، والله أعلم.

وبهذا المنزل أنشدني الحاج قاسم الشرابي لغيره، وقد ذكر ما جرى بهذا الموضع في العهد النبوي: (من البسيط)

لَمَّا عَلِمْتُ بِأَنَّ القَوْمَ قَدْ رَحَلُوا ... وَرَاهِبَ الدّيرِ بِالنَّاقُوسِ مُشْتَغِلُ
شَبَكْتُ عَشْرِي عَلَى رَأْسِي وَقُلْتُ لَهُ ... يَا رَاهِبَ الدّيرِ هَلْ مَرَّتْ بِكَ الإِبِلُ
فَحَنَّ لِي وَبَكَى وَرَقَّ لِي وَشَكَى ... وَقَالَ لِي يَا فَتَى ضَاقَتْ بِكَ الْحِيَلُ
أَمَّا الْخِيَّامُ الّتِي قَدْ جِئْتَ تَطْلُبُهَا ... بِالأَمْسِ كَانُوا هُنَا وَالْيَوْمَ قَدْ رَحَلُوا
يَا رَاحِلِينَ قِفُوَا مَهْلا أُودّعَكُمْ ... فِيكُمْ رَجَاءٌ وَلَكِنْ خَانَنِي[1] الأَمَلُ

وبهذا المنزل أنشدني الأديب أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان الدمناتي وقد جرى ذكر الجواري[2] لشيخنا أبي حفص عمر الفاسي[3] رحمه الله تعالى في مملوكة له اشتراها بمراكش مدة إقامته بها: (من الطويل)

وَمَمْلُوكَة أَمْسَيْتُ أَمْلِكُ رِقَّهَا[4] ... فَمَا أَصْبَحَتْ إلاَّ وَقَدْ مَلَكَتْ رِقِّي
لِي اللهِ لاَ أَرْجُو الْخَلاَصَ مِنْ أَسْرِهَا ... وَرُبَّ فَتَى يَرْجُو التَّخَلُّصَ بِالْعِتْقِ

وبه أنشدني له رحمه الله في هجو بعض[5] معاصريه، وكان بيده خال، وكان يأنف القراءة على الشيخ متكبرًا، ثم نزلت به ملمّة فجاء يشكوها إلى الشيخ، فقام وقعد عند أمير البلد في رفعها عنه قائلا متغزلا: (من الطويل)

خَلِيلَيَّ مَا لِلْخَالِ حُطّ إِلَى الْيَدِ ... وَعَهْدِي بِهِ يَعلُو بِخَدّ مُوَرَّدِ
أَجَارَ بِفَرْطِ الْكِبْرِ فَانْحَطَّ مِهنَة ... وَشَأْنُ ذَوِي الْكِبَرِ الرّجُوع إِلَى الْيَدِ

= لقيل الأوباء إلا أن يكون مقلوبا. وقال ثابت بن أبي ثابت اللغوي: سميت الأبواء لتبوئ السيول بها وهذا أحسن. انظر: الحموي، **معجم البلدان** 1/ 79؛ عياض، **مشارق الأنوار**، 1/ 57.

1- في خ «فاتني».
2- في خ «جوار».
3- عمر بن عبد الله بن يوسف بن العربي بن يوسف الفاسي المتوفى سنة 1180هـ.
4- في خ «بريقها».
5- ساقطة من د.

وبه أيضا أنشدني لشيخنا المذكور رحمه الله ورضي عنه: (من الرمل)

أَمْطَرَ السُّحْبُ ثُلُوجًا ... وَبَنَا مِنْهُ بُرُوجًا
كُلَّمَا رُمْتُ خُرُوجًا ... لَمْ تُطِقْ أَرْجُلِي وُلُوجًا

وأنشدني بهذا المنزل لنفسه ارتجالا وقد أخذ مني هيدورة مدبوغة من جلد تيس الجبل، وما أديت بذلك حقه وهو والله أجلّ : (من البسيط)

*363*يَا نُخْبَةَ الْعِلْمِ يَا صَدْرَ الأَفَاضِلِ مَنْ ... تَشَرَّفَتْ آلُ نَاصِرٍ بِمَعْنَاهُ
أَمْسَيْتَ مُمْتَطِياً ظَهْرَ الْفِرَاشِ الَّذِي ... مَنَحْتَنِي حُرَمًا تَقَبَّلَ اللَّهُ
مَا ذَاكَ أَوَّلُ صُنْعٍ[1] مِنْ مَكَارِمِكُمْ ... فَأَنْتَ لِلْفَضْلِ أُسُّهُ وَهَبْنَاهُ
يَا نَجْلَ عَبْدِ السَّلاَمِ الْمُرْتَضَى خَلَفاً ... لاَ زِلْتَ قِبْلَةَ مَجْدٍ فِي مُصَلاَّهُ

ثم ارتحلنا من الأبواء وقد مضى من النهار أربع ساعات في مضيق واد طويل بين جبلين، أحرش كثير الغضاة والأراك، لا ماء ولا كلأ، إلا ما وقعنا عليه به من غدير ماء غدرته الأمطار، وأزمعنا السير بقية يومنا وسائر ليلتنا حتى نزلنا الفُرُع[2] - بضم أوله وثانيه- وقد مضى من النهار خمس ساعات. والفُرْع[3] قرى متعددة متفرقة ذات نخيل كثير و ظل ظليل وعيون جارية عذبة إلى النهاية، وخيمنا بإزاء أكبرها عمارة مدشر تسمى أبا الضبع، وأقمنا به بقية يومنا وسائر ليلتنا . وقامت بين أهله وبين الركب سوق عظيمة في المحتاج من زرع وغنم وتمر، وبه- ليلا - شاهدت، في جماعة من الفضلاء أهل الركب طلبة وغيرهم ،عمودا من نور آخذا فيما بين السماء والأرض لصوب المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وبهذا المكان كانت السّقيا .

1- ساقطة من د .

2- في جو خ ود «الفروع».

3- الفرع : قرية من نواحي المدينة عن يسار السقيا بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة، وقيل أربع ليال بها منبر ونخل ومياه كثيرة وهي قرية غناء كبيرة. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 252 .

قالوا: والفُرْع «أول قرية مارت[1] إسماعيل عليه السلام التمر بمكة»[2]، وكانت من ديار عاد، وروي أن النبي ﷺ نزل في موضع المسجد بالبرود من مضيق الفرع فصلى فيه . وعن ابن عمرأنه أحرم من الفرع، وبه مات عروة بن الزبير ودفن هناك سنة أربع وتسعين[3] .

والفُرْع من أشرف ولايات المدينة لأن فيها مساجد النبي ﷺ نزلها مرارا، وأقطع فيها لغفار وأسلم قطائع، وبه سئلت والسائل من تلك البلاد عمن بنى بامرأة ثم طلقها في مرضه فاعتدت وتزوجت ثم هلك الأول من مرضه ذلك أترثهُ أم لا؟ فأجبت بالميراث عملا بقول **المتن** في الخلع: «وورثت أزواجا وإن في عصمة»[4] .

ثم ارتحلنا من أبي الضبع وقد مضى من النهار ساعة نخط بقية بلاد الفرع، وما تعديناها حتى قارب الزوال، ونزلنا آخر الليل مكانا يسمى أم غيلان[5]، لكثرة أشجارها به[6]، ولا ماء به ولا كلأ، إن هي[7] إلا الفلوات، لا ينزلها إلا عوافي السباع *364* والحيات، وبها سمعت أعرابيا وقد قيل له: متى تنزل الموضع الفلاني؟ - موضع استقبلناه - فقال بهذا اللفظ : بعد هُدء من الليل، أي بعد مضي مدة منه . ففي **القاموس**: «وأتانا بعد هُدء من الليل، وهَدْءٍ وهدءة ومهدإ وهديء وهدوء أي حين هدأ الليل»[8] يعني سكن . ثم قال: «أو الهدء أول الليل إلى ثلثه»[9] . وهذا المعنى الأخير هو الذي قصد الأعرابي. وأعراب هذه النواحي لازالت معهم في كلامهم بعض فصاحة ونطق بلغة

1- مار الشيءُ يَمورُ مَوْراً تَرَهْيَأَ أي تحرّك وجاء وذهب كما تتكفأُ النخلة العَيْدانَةُ وفي المحكم تَرَدّدَ في عَرْض والتَّمَوُّرُ مثله . أنظر : مادة «مور» **لسان العرب**، 5/ 186 .

2- انظر:الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 252 .

3- انظر : ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 5/ 181 .

4- خليل، **مختصر** : ص 103.

5- أم غيلان : موضع بين المدينة وبدر . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 38 .

6- ساقطة من د .

7- ساقطة من ج .

8- **القاموس** : مادة «هدأ» ، 1/ 71 .

9- المرجع السابق : 1/ 72 .

قديمة، وأفصح منهم أعراب برقة - كما تقدم - لقلة مرور الناس بهم، وعدم مخالطتهم لغيرهم، وقلة جولانهم وعدم دخولهم الأمصار، بعكس الحجاز.

وبهذه الليلة نام بعض رفقائنا على جمله فجاءه بنو سعد وقطعوا حبل القطار أمامه وخلفه، وقادوا به الجمل وهو نائم حتى مالوا به عن الركب بقليل، فانتبه وتفطن لهم، فضربوه ليافوخه[1] فخر مغشيا عليه، وذهبوا بالجمل وما عليه، فكان كأمس الذاهب، وحمدت عاقبة صاحبه، فلم يتضرر من جرحه[2].

ثم ارتحلنا من أم غيلان، وقد مضى من النهار أربع ساعات، وأسرعنا بقية يومنا وسائر الليل والنهاربعده لعدم الماء، وعطش الركب لذلك عطشا[3] شديدا، مع ما انضم لذلك من الخوف الشديد من أولئك الظلمة الفجرة أعراب حرب وسكان الجُريْدَة، فانحرفنا بذلك يمينا لطريق أخرى، إذ قيل: إنهم[4] تحزبوا بجيوش لهم عن يسارنا في مضيق بين جبلين، فاجتمعت الركاب المغربية مع المصري بعد أن تولى أمير مصر جمعها جبرا عليها، فقدم الطرابلسي لقوته ومنعته وشدته على الأعراب، والسجلماسي والتونسي والجزائري، وأما الركب الفاسي فقد دخل في وسط المصري فرتبت الجيوش، وأخرجت الرماة[5]، وانعزل الركبان من خيالة وبغالة، وأخذ الناس أهبتهم للقتال على أنفسهم ومالهم، والركب مع ذلك سائربالهوينا في أقطاره على العادة، والجيوش دائرة عليه حتى نزلنا آبار علي، بعد مغيب الشفق[6]، فوجدنا جيشهم على الآبار يمنعون الركاب من الماء لما علموا شدة احتياجهم

1- اليأفوخ حيث التقى عظم مقدَّم الرأس وعظم مؤخره وهو الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل. انظر: **لسان العرب** مادة «أفخ»، 3/ 5.

2- في خ و د «جرحهم».

3- مطموسة في ج.

4- في د «لهم».

5- في د «للقتال».

6- في ج «الشمس».

إليه، وأنهم نحو ثلاثة أيام لم يأكلوا طبيخا[1] من قلته، وحتى وصلت[2] العلفة[3] الواحدة مثقالا من الذهب، فعند ذاك حل بالناس الرعب، واشتد الخطب، *365* وماج الناس بعضهم في بعض، وبركت الإبل مما عليها من الأثقال ولم تحط إلى الأرض الأحمال، فبرز إذ ذاك الشجعان من الرجال، أهل الإدبار والإقبال . وكان الذي جاء الله بالفرج على يديه جماعة من أهل فاس لما جاءهم أمير الأعراب عامر بن جويسر[4] الخداع الكذاب برسالة يزعم أنها من عند أولئك الأحزاب[5]، وفيها : «إن لم تؤدوا لنا جميع خراج أربع سنين الماضية من قناطير العسجد فما لخروجكم من هذه الورطة باب»، فتفطن أهل فاس لخداعه من خط الكتاب، فداروا به وأخذوه على غرة، فقيدوه وجعلوا في عنقه غلا وأعلوه على جمل، ولم يشاوروا بذلك أمير مصر ولا غيره وكانوا والله ذوي ألباب، فسمع الأعراب بما حل برئيسهم فانقلبوا على وجوههم، وما بقي بالآبار إلا آثار من نيرانهم، ومع ذلك لم تأمن الركاب الذهاب إلى الآبار، خوفا من كيد أولئك الفجار، عدا من تمكن منه العطش من الصعالكة أو برز بشجاعته من المغاربة . وبات الناس ليلتهم يحرسون، وفي أمرهم يدوكون ، فلما طلع الفجر أذنوا بالرحيل، بعد أن قام الضجيج والعويل، وأخليت المدافع والبنادق، ورتبت الجيوش فلا تسمع إلا القعقعة والصهيل، فتقدموا للآبار، وما تعرض عليها فاجر ولا بار، ومع ذلك لم ينل منها إلا الآدمي وما خف من البغال، خوفا مما عسى أن يفجأهم من المحاربين، وهم أعداء الله لما استقر عندهم العلم فيما حل بأميرهم أشفقوا عليه، وخافوا إن تعرضوا لواحد من الركب[6] وقع به هو الفتك، مع مزيد افتراق آرائهم في مكائدهم . وسنعود لبقية أخبارهم وما آل إليه أمرهم بعد الزيارة إن شاء الله تعالى .

1- ساقطة من د .

2- ساقطة من ح ومطموسة في ج .

3- في ج «العلقة».

4- في د «جوير».

5- في ج «الأعراب».

6- في د«الركاب».

والآبار المذكورة كثيرة عذبة باردة تسقى بها نخيل عليها، وخضر كثيرسيما الباذنجان الكثير والقرع بأنواعه الجيد، وبها تجتمع الطريق السلطاني الآتي على الجُريْدَة وهذه التي سلكناها.

وبهذا الموضع آثار رسوم داثرة، وهذا هو وادي العقيق، سمي بذلك لأن حصاه تنحو نحو الحمرة وهو وادي ذي الحليفة، والعقيق حجر أحمر، والعقيق أيضا وادي المدينة الذي فيه أموالها ونخيلها، وذو الحليفة وهي البيداء البطحاء، وفيها المُعَرّس بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال وهي بطحاء سهلة لينة، وفيها أوحي إلى *366*رسول الله ﷺ: «إنك بالبطحاء المباركة»[1]، وهي مَهِلّ أهل المدينة من العصر النبوي إلى الآن كأهل الشام في هذه الأزمان، إذ عادتهم الذهاب إلى مكة على المدينة ثم يرجعون عليها، يزورونها في سفرهم[2] مرتين في ذهابهم وإيابهم، فهنيئا لهم. وبها مسجد يدعى الآن[3] مسجد الشجرة[4]، جُعل[5] علامة على محل إهلاله[6] ﷺ وهو على يمين الذاهب في شرف من الأرض، ولم أدخله لعدم من يساعدني والشوق يدنيني ويقلقني.

رجوع، والركاب مع ماحل[7] بها من العطش والجوع والغلاء التام والخوف، لم يبالوا بذلك من أجل ما خامرهم من الغرام بالقرب من الحبيبة المحببة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، تراني راكبا على دابتي أمسك لجامها فتجبذه من يدي جبذا علي مسرعة نحو قباب سلمى وخيامها، ولقد والله أحس بجوانبي كأن لها من الفرح والسرور أجنحة تطير من شدة الشوق،

1- وقفت على الحديث في **الكامل في ضعاف الرجال** للجرجاني، ولفظه «أن الرسول ﷺ قيل له وهو بالمعرس مغرس الشجرة: صل فإنك بالبطحاء المباركة»، تحقيق يحيى مختارغزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة 1409/ 1988، 5/ 231.

2- في د «سفرتهم».

3- ساقطة من د.

4- مسجد ال**شجرة** التي بايع رسول الله ﷺ تحتها بينه وبين مسجد التنعيم ميلان. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 229 و 5/ 424.

5- في ج «يعد».

6- بياض في د.

7- في د «حصل» والصواب ما أثبتنا.

وما رأينا من كَلٍّ في هذا اليوم ولا من النوم، فكان الأمر كما قيل: إذا عمرت القلوب بالمسرات، ذهلت الأجساد عما تلاقي من المضرات، وإذا تنعمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة للأشباح. وأي مسرة أعظم من الدنو من هذا النبي الكريم، وأي لذة أشهى من التمتع بمناجاته فهي والله من النعيم المقيم. وسرنا فعلونا بقرب ذي الحليفة مُفْرِّحًا، سمي بذلك لأن منه يتخيل الناظر أعلام المدينة، فلم يبق لمن علاه هما مُبَرِّحاً، ولما جاوزناه بغلوة[1] أو غلوتين، وصلنا[2] منتهى حرم الشجر[3]، فلاحت البيوت بقبابها، ونزلت للاغتسال فلم يتأت لي، فعوضته الوضوء بقربها. ولما وصلنا الحرة[4] نزلنا، وبها أهل المدينة التقينا، مشاة وركبانا، نساء وصبيانا، شيوخا وكهولا وشبانا، أحرارا وعبيدا وولدانا، لا ترى العين أجمل منهم صورة، وأطيب كلاما، وأحسن أخلاقا، وأتقن نظاما، كيف وقد تمتعوا بجوار سيد المرسلين، وإمام المتقين، فتبارك الله أحسن الخالقين، لا تسمع منهم إلا مرحبا أهلا سهلا طيبا، أنستم، بلغتم، والصبيان على أرجلهم يرددون بصوت رخيم : يا صاحب النبي ركبني. * 367*والحجاج على اختلافهم، منهم المُرْدِفُ لواحد واثنين، ومنهم النازل لهم، والقائد بهم والسائق لهم، وكنت – محبة فيهم – حملت صبيين على دابتي أقود بهم تارة وأسوق آخرى حتى جاوزنا بطحاء ذات اليمين، وسَلْع[5] وهو جبل صغير ذات اليسار، فوصلنا البيوت ضحى يوم

1- غَلْوَةٌ ج : غَلَوَاتٌ وغِلاءٌ و الغَلْوَةُ قدرُ رَمْيَةٍ بسَهْم. انظر : **لسان العرب** مادة «غلا»، 10/ 131؛ **القاموس** :1/ 1700 .

2- ساقطة من د.

3- في د «المدينة». ويقصد الذي يحرم قطع شجره.

4- الحرة : تقع غرب المدينة المنورة . وفي اللغة : حرة : حجارة سود نخرات كأنها أحرقت بالنار . انظر : **الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين** لمحمد غالي محمد الأمين الشنقطي، عني بطبعه ومراجعته عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي، مصر، ص 253 ؛ **لسان العرب** مادة «حرر» .

5- سلع : بفتح أوله وسكون ثانيه، السلوع شقوق في الجبال واحدها سلع وسلع وقال أبو زياد: الأسلاع طرق في الجبال يسمى الواحد منها سلعا وهو أن يصعد الإنسان في الشعب وهو بين الجبلين يبلغ أعلى الوادي ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه ثم ينحدر حينئذ في الوادي الآخر حتى يخرج من الجبل منحدرا في فضاء الأرض فذاك الرأس الذي أشرف من الواديين السلع ولا يعلوه إلا راجل. وسلع جبل بسوق المدينة قال الأزهري سلع موضع بقرب المدينة. انظر: الحموي، **معجم البلدان** ،3/ 236 .

السبت الثامن من المحرم حامدين الله تعالى على ما أولانا، شاكرين له على ما أعطانا، ووقفت بالصبيان وهما على الدابة ممتنعين من النزول، فجعلت أدور معهم ريثما ينزلون عن طيب أنفسهم، فلما نزلوا أخذت بعنان دابتي فتوجهت إلى المُناخ[1] وسط البيوت المبنية خارج سور المدينة المنورة، فربطت دابتي حيث نزل رفقائي.

1- المُناخ: الموضع الذي تُناخ فيه الإبل. انظر: **لسان العرب**، 3/ 65.

ذكر دخولنا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي ضحى يوم السبت الثامن من محرم وصلنا إلى معهد الفضائل، ومهاجر سيد الأواخر والأوائل، مجمع محاسن الدارين، ومطلع سعادة الثقلين، روضة الرياض، وزهرة الأزهار، لامن أزهار تلك الحياض، كيف وقد ضمت سيد الأولين والآخرين عليه وعلى سائر النبيئين والمرسلين وسائر الآل والأصحاب والتابعين أزكى الصلاة والسلام من رب رحيم كريم جواد غفور للآثام العظام . فدخلت من باب المصري الموالي للسوق ومررت به وهو الطريق إلى المسجد النبوي، فدخلته من باب السلام، وأوقعت التحية عن يمين المحراب الذي جعله عمر بن عبد العزيز علامة على محل مصلى النبي ﷺ قرب محل المنبر النبوي ، ثم تقدمت لمواجهة الحجرة الشريفة قبالة باب التوبة الموالي لوجهه ﷺ، فصليت وسلمت عليه ما شاء الله، ثم دعوت لي ولوالدي ولأشياخي ولكل من له علي حق، وسائر المسلمين، وأنا كغيري واقف دليل حقير، مقر بالذنوب التي اقترفتها، معترف بالموبقات التي ارتكبتها، واثق بأن الله تعالى – ببركة رسول الله ﷺ – يغفرها . وفعلت مثل ذلك من السلام على الصحابيين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكل ذلك بعد أن وجمت زمانا وأمطرت عيني عيونا : (من الطويل)

وَلَمَّا وَقَفْنَـــا وَالْخُضُـــوعَ وَسيلَـــــةٌ لَنَاعنْدَ قَـبْرِ[1] الْمُصْطَفَى خَاتمِ الرّسُــلِ
حَطَّتْنَا حُمُولُ الشَّوْقِ عَنْ كَاهلِ الْمنَى وَقُلْنَـا لمَهْلِ الدَّمْـــعِ عَـلَى مَهْـلِ
وَرُحْنَا وَحجْرُ الْقَصْـدِ مَلْئَـانٌ بالنَّدَى وَكَـاهلُـنَا يُنَـادي مِـنْ ثقْـلِ الْبَذْلِ
*368*وَقُلْنَا لرَيْبِ الدَّهْرِ مَا شئْتَ بَعْدَها بنَا أفْعَلْ فَأَنْتَ الْيَوْمَ في أوْسَـعِ الْحـلِّ
فَلاَ تَسْأَلِ الْمَحْبُوبَ عَـنْ بَـذْلِ جُـوده وَلاَ تَسْأَلِ الْمُشْتَاقَ عَنْ لَـذَّة الْوَصْـلِ
فَمَا تَسْمَعُ الأذْهَانُ وَصْفَ سُـرُورِنَا وَلا تَحْسَبَنَّ الأيَّـامَ تَكْتُـبُ بِأَنْمُــلِ

1- ساقطة من د .

وبقيت كذلك حتى أقيمت الظهر ثم العصر كل لوقتها، فأديتهما لربي الحمد بين البيت والمنبر مأموما في زحمة عظيمة، أرجو بها من الله تعالى مغفرة جسيمة . ثم خرجت لتهيئة المنزل بالمناخ، فلما هيئته وكفيت مؤونة الدابة وغيرها، عدت للحرم الشريف أبيت به وأظل، ولا أخرج إلا لقضاء حاجة لا بد منها، فلو رأيت أمة محمد ﷺ وما هي عليه من التهجد والذكر والصلاة عليه في هذا المسجد الكريم بحجرته، منهم الباكي والشاكي والمترنم بالقصائد في مدحه ﷺ خصوصا ولْدان أهل المدينة، ووقوفهم مع الحجاج في الزيارة، وذكر الأدعية المأثورة في ذلك، فلله فصاحتهم وطلواتهم ورقتهم، فلا تبقي لذي رقة دمعة، ولا لذي نكبة وجعة .

وزرنا في خلال أيام الزيارة بقيع الغرقد ثلاث مرار، مرة في كل يوم، وما في داخل المدينة من المشاهد، وما أمكننا خارجها كأحد، ولم نتمكن لضيق أيام الزيارة من البحث والاستقصاء ولا من الزيارة لما في خارجها كمسجد قباء[1] فإنا لما أخذنا أهبتنا في جماعة، ركبنا وخرجنا على باب البقيع وذهبنا حتى لاحت لنا صومعته[2] في سواد[3] النخيل، إذ ما بينه وبين المدينة إلا ثلاثة أميال أو أقل، وآذن المصري بالرحيل فرجعنا ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلي العظيم][4] .

وكنا اقتصرنا على المقصود الأعظم وهو المسجد النبوي وما حوى، فلنقتصر على أخبار ما شاهدنا، وبعض أبعاض ما لا بد منه مما لم نشاهده لداعية الحاجة لذلك[5]، فنقول بعد استفراغ الوسع في تأملها، وما عسي أن أذكر من ذلك مع قلة الإقامة بها : المدينة اليوم – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام – مدينة متوسطة مليحة ظاهرة الأنوار، موضوعة في فضاء مستو

1- قباء : قرية خارج المدينة على ميلين ، مسكن بني عمر وبن عوف ، نزل بها الرسول (ص) في سيره الى المدينة أسس بها مسجده . انظر: الحموي، **معجم البلدان** ، 4/301 ، 5/ 82 و 124.

2- بياض في د.

3- في د «سودة»

4- سقط من ح .

5- ساقطة من د.

من الأرض على واد به غابة كثيرة من نخل متفرق، أرضها سبخة، البقيع شرقيها، وأحد شمالها وقباء إلى الجنوب أقرب، خلافا لقول العبدري أنها في جهة *369* الشرق[1] .

والمدينة الآن قد دار عليها سور حسن له أبواب ثلاثة: باب البقيع، وباب المصري، وباب الشامي، وكل منها في غاية من التزخرف وشماخة البناء عكس باب البقيع، وفي داخلها سوق طويل، دارت به حوانيت البيع والشراء من كل جهاته، وعن خارج المدينة بقربها يليها المناخة، وقد زيد فيها بنيان كثير من دور مشيدة، وأزقة نظيفة متسعة، وفيها جامع تصلى فيه الجمعة، وقد كثر في هذه الأزمنة سكنى العجم من ترك وغيرهم الحرمين[2]، فخرج ساكنها عما كانوا عليه في العهد القديم، من التنافس الآن في المآكل والمشارب وارتفاع البناء وتزخرفه، خصوصا أهل مكة . وفي داخل المدينة المنورة اليوم بعض بيوت وحومات، شاهدنا بنيانها قصيرا من محض التراب واللبن والسقف من جذوع النخل وغير ذلك مما كانت عليه في العهد القديم، وفي داخلها في وسطها المسجد النبوي على صاحبه أزكى الصلاة والسلام .

وقد ثبت أن النبيﷺ قدم يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فنزل في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن هدْم[3]، وأقام عندهم اثنين وعشرين ليلة، وقيل أربع عشرة ليلة، وقيل أربعا وقيل ثلاثا[4] ، ثم توجه إلى المدينة يوم الجمعة فنزل على أبي أيوب الأنصاري وأقام عنده سبعة أشهر على ما ذكر الواقدي[5]، وقيل أقل من ذلك، حتى رأينا مساكنه ومسجده.

1- العبدري، **رحلة**، 422.

2- ساقطة من د .

3- كلثوم بن هذم بن امرئ القيس بن الحارث، نزل عليه النبي ﷺ بقباء أول ما قدم المدينة، توفي قبل بدر. انظر: ابن سعد، **طبقات الكبرى**، 3/ 623 ؛ ابن هشام، **سيرة**، 2/ 104 – 105 .

4- في **سيرة ابن هشام**: أربعة أيام : «يوم الإثنين و يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده (مسجد قباء) »، 2/ 105.

5- **طبقات ابن سعد** : 1/ 237.

وكان موضع المسجد[1] قد بني في محل يُبدر فيه التمر حتى ييبس [2] لسهل وسهيل[3]: غلامين في حجر أسعد بن زرارة[4] وهو الراجح، وقيل في حجر أبي أيوب[5]، وقيل في حجر معاذ بن عفراء، فاشتراه منهما على ما في **طبقات ابن سعد** بعشرة دنانير وأمر أبا بكر أن يعطيهما الثمن[6]. وذكر موسى بن عقبة أن أسعد بن زرارة عوضها[7] نخلا له في بني بياضة، وعن ابن زبالة[8] أن أسعد مات قبل أن يبنى المسجد، وابتاعه النبي ﷺ من وليهما، وعن أبي معشرأن أبا أيوب اشتراه منهما فأعطاه النبي ﷺ، وقيل إنهما وهباه لرسول الله ﷺ فبناه مسجدا[9].

قال العبدري: «ومحل بيعهما أو هبتهما وهما في الحجر على أنهما كانا بالغين مالكين لأمرهما كما روي عن ابن عباس ﷺ أن الغلام الذي قتله الخضر*370* كان مجمع السن[10]، وأنشدوا في ذلك قول ليلى[11] تمدح

1- ينظر خبر بناء المسجد النبوي في **سيرة ابن هشام**: 2/ 106 وما بعدها.

2- في **سيرة ابن هشام** « مرْبَدٌ» وهو موضع تجفيف التمر بعد جذاذه من النخل. 2/ 106. انظر كذلك: السنهودي، **وفاء الوفا** 2/ 31.

3- سهل وسهيل: أبناء رافع بن أبي عمر بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار. وقيل، كانا يتيمين عند معاذ بن عفران. انظر: **سيرة ابن هشام**، 2/ 106.

4- أسعد بن زرارة بن عدس النجار من الخزرج من أشراف المدينة وأحد النقباء الاثني عشر. مات قبل معركة بدر ودفن في البقيع. ترجم له: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت 1968، 3/ 607؛ ابن حجر، **الإصابة**، دار الكتاب العربي، بيروت 1359 هـ، 1/ 5.

5- أبو أيوب الأنصاري: خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، صحابي شهد العقبة وبدرا وأحدا والخندق، خرج في جيش يزيد ابن معاوية لفتح القسطنطينية. توفي سنة 52 هـ. انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 3/ 483.

6- **طبقات ابن سعد**: 1/ 239.

7- ساقطة من د.

8- في د «ابن عباس».

9- ينظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، فقد تضمن هذه الروايات 2/ 27- 28.

10- مجمع السن: أي بلغ أشده. انظر: القرطبي، **الجامع لاحكام القرآن**، 11/ 21.

11- هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأخيلية شاعرة اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، قال لها عبد الملك بن مروان ما رأى منك توبة حتى عشقك؟ فقالت: ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة! وكانت وفاتها سنة 75هـ - 80 هـ. انظرترجمتها وأخبارها في **الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني، طبعة دار صادر، بيروت، 11/ 204.

الحجاج: (من الطويل)

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُقام[1] الَّذي بِـهَا غُلامٌ إِذَا هَزَّ القَنَـــاةَ سَقَــاهـــــا[2]

والمراد بالحجر[3] الكنف والحمى، ولم يكن إذ ذاك حجر شرعي حتى يحمل هذا عليه»[4]، بمعناه .

قلت: ونظيرها شرب النبي ﷺ وأبو بكر اللبن عند راعي الغنم في سفره مهاجرا من مكة إلى المدينة، والجواب عنه من وجوه معلومة يأتي بعضها هنا، والله أعلم . وعمل فيه مع أصحابه، يرغبهم في العمل، فعمل المهاجرون والأنصار وارتجزوا في ذلك فقال قائلهم: (من الرجز)

لَئـــنْ قَــعَـــدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَـــلُ فَـــذَاكَ الْعَـــمَــــلُ الْمُــضَـلَّــلُ[5]

وقال النبي ﷺ:

«اللهمَّ لا خيْرَ إلا خيْرُ الآخِرَهْ فانْصُــرِ الأنْصَــارَ والمُهَاجِـرَهْ»[6] .

فأحاط به حائط من غير أساطين ولا سقف، وجعله مائة ذراع طولا وعرضا، وقيل سبعين - بتقديم السين المهملة- طولا وستين عرضا، وقيل غير ذلك، ويجمع بالتعود، ففي رواية عن أنس: «أول ما بناه بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين»[7] ، ونحوه للزبير بن بكار[8] . «وجعل[9]

1- في ديوان ليلى الاخيرية « العضال» .

2- ليلى الأخيلية، **ديوان**، تحقيق خليل العطية وجليل العطية، بغداد 1407/ 1987، ص 121 . البيت من قصيدة في مدح الحجاج (كان الحجاج يكرمها . .) .

3- حجر أسعد بن زرارة.

4- العبدري، **رحلة**، 343.

5- البيت في **سيرة ابن هشام**. : 2/ 107؛ **فتح الباري**، 7/ 247.

6- أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ابتناء مسجد النبي (ص) رقم 524، 1/ 373. ويذكر أن هذا البيت لعبد الله ابن رواحة، انظر : ابن حجر، فتح. . .، 7/ 247 .

7- ينظر: **فتح الباري** : 7/ 246.

8- م. س .

9- في **طبقات ابن سعد** «جعلوا» .

الأساس - كما في **طبقات ابن سعد**- قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللبن»[1]، ورفع حائطه قدر القامة في عرض لبنة .

ثم أن المسلمين لما كثروا بنوه لبنة ونصف، ثم بنوه لبنتين مختلفتين، فلما اشتد الحر كلموه في تسقيفه بالجريد والإدخر، فأقام فيه أساطين من جذوع النخل، فلما جاء الشتاء ونزل المطر ولف عليهم، فكلموه في عمله بالطين فقال[2]: «بل ظلة كظلة موسى . قيل وما ظلة موسى؟ قال: كان إذا قام أصاب رأسه السقف»[3]. «وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وباب يقال له باب الرحمة وهو الذي يقال له باب عاتكة، والثالث الذي يدخل منه ﷺ وهو الباب الذي يلي آل عثمان»[4] . ثم سد الجنوبي حين حولت القبلة فبقي المسجد كذلك حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر، ثم زاد فيه عمر بن الخطاب ﷺ، فكان في طوله مائة وأربعون ذراعا في عرض مائة وعشرين وقال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينبغي أن نزيد في المسجد» ما زدت فيه[5] . فأزال الخشب وجعل مكانها أساطين من لبْن، وجعل الأساسَ*371* من الحجارة إلى قامة، وجعل على ظهر المسجد سترةً من ثلاثة أذرع، وجعل طول السقف أحد عشرة ذراعا، وفرشه بالحصر، وجعل له ستة أبواب : شرقيين وغربيين، وشماليين، وقال في باب النساء: «ينبغي أن يترك هذا للنساء» فما رُئي فيه حتى لقي الله تعالى. قال: ولو زدنا في هذا المسجد حتى بلغ الجبانة[6] - يعني المقبرة - لكان مسجد رسول الله ﷺ. ويروى في الحديث المرفوع:

1- ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** : 1/ 239.

2- ساقطة من د .

3- ينظر : السمهودي ، **وفاء الوفا**، 2/ 34.

4- ينظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 1/ 240 .

5- وقفت على الحديث في : **مجمع الزوائد** للهيثمي 2/ 11 ، و **كنز العمال** بلفظ : «عن ابن عمر قال: قال عمر: «لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني أريد أن أزيد في قبلتنا ما زدت» ، رقم23080 ، 8/ 148 .

6- الجبانة الصحراء، وتسمى بها المقبرة، لأنها تكون في الصحراء تسمية للشيء بموضعه، وفي الكوفة عدة مواضع تعرف بالجبانة. انظر: البرهان ، **كنز العمال**: رقم24543 ، 8/ 294؛ الحموي ، **معجم البلدان** ، 4/ 100.

«لو بني هذا المسجد إلى صنعاء لكان مسجدي»[1] . وراود عمر العباس على أن يدخل فيه موضعا له فمنعه العباس، وكان فيه ميزاب يصبُّ في المسجد فنزعه عمر وقال: إنه يؤذي الناس، فحكّم بينهما أبيَّ بنَ كّعْب[2] وأتيا إلى داره فحبسهما عند الباب ساعة، ثم أذن لهما وقال: كانت جاريتي تغسل رأسي، فأراد عمر أن يتكلم فقال له : يا ابنِ الخطاب ! دَعْ أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله ﷺ، فقال العباس: خطّة خطّها لي رسول الله ﷺ وبنيتها معه، وما وضعتُ الميزاب إلا ورجلاي على عاتقيْ رسول الله ﷺ وسلم فجاء عمر وطرحه وأراد إدخالها في المسجد . فقال أبَي: إن عندي من هذا علْمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أراد داود أن يبني بيت المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا، ثم راودهما فباعاه، ثم قاما بالغَبن[3] فرد البيع، ثم اشتراه منهما، ثم رداه كذلك[4] حتى استعظم داود الثمن فأوحى الله تعالى إليه إن كنت تعطيهما الثمن من شيء هو لك فأنت أعلم، وإن كنت تعطيهما من رزقنا فاعطهما حتى يرضيا، وإنّ أغنى البيوت عن مَظْلمة بيتٌ هو لي وقد حرّمت عليك بناءه، فقال: يارب اعطه سليمان، فأعطاه سليمان»[5]. فقال عمر: من لي بأن رسول الله ﷺ قاله؟ فقال أبَي: تكذبني؟ لتخرجن من بيتي، ثم خرج أبَيّ إلى قوم من الأنصار، فأثبتوا ذلك له. فقال عمر: أما إنه لو لم أجد غيرك لأخذتُ قولك ولكني أردت أن أتثبت. ثم قال للعباس: والله لا تردّ الميزاب إلا وقَدمَاك على عاتقي، ففعل ذلك العباس ثم قال: أما إذا ثبتت لي فهي *372* صدقة لله، فهدمها عمر وأدخلها في المسجد»[6] .

1- أورده السيوطي في **الجامع الصغير**، 2/ 129، وقال عنه: ضعيف وهوكذلك في **كنز العمال**، رقم 34832 /12 107-115، **وكشف الخفاء**، 2/ 414.

2- أبي بن كعب بن قيس بن عبيد من الخزرج صحابي، كان قبل الاسلام ، جرأ من أخبار اليهود، كان من كتاب الوحي بعد اسلامه. توفي بالمدينة سنة 22 أو 30هـ. انظر: ابن حجر، **الاصابة**، 1/ 27 .

3- الغبن : الظلم.

4- في د «كذا» .

5- وقفت على الحديث في **المناسك** للحربي، 362 ، بخلاف في اللفظ .

6- ينظر: السمهودي، **وفاء والوفا** 2/ 232- 233 ؛ الحربي، **المناسك** : 362 - 363.

قال العبدري: «هذا الحديث تعضُدُه الأصولُ من قول رسول الله ﷺ: «كلّ ذي مال أحق بماله» [1] . وقوله: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» [2] . وقوله حين أراد أن يبني مسجده: «ثامِنوني بحائطكُم» [3] . ولم يأخذه إلا برضى أصحابه، وإن كان أخْذُه من المصلحة العامة، ولهذا [4] يردّ فعل من أجبر الناس على البيع من الأمراء. وليس فعْلُ عمر بن الخطاب في شراء الدور المجاورة للكعبة من هذا في شيء، فإنه قد بين ذلك بقوله: «إنما نزلتم عليها ولم تنزل عليكم» [5] . فدل بهذا أنها لو نزلت عليهم لكان لهم مَنْعُ أموالهم، والله أعلم» [6] .

ثم زاد في المسجد عثمان [7] رضي الله عنه بعد أن غيره متأولا قوله ﷺ: «من بنى لله مسجدا ولو كفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة» [8] ، ووافقه الصحابة، فيستدل بذلك على الراجح أن حكم الزيادة حكم الأصل فتدخل الزيادة في حكم سائر المسجد من تضعيف الصلاة، وشد الرحال ونحو ذلك. وبناه بقوة وباشر ذلك بنفسه، وكان يظل فيه نهاره كله وربما نام فيه، وبيضه بالفضة، وأتقن عمله بالحجارة المنقوشة، ووسعه من كل جهة إلا من المشرق، حتى بلغ طوله مائة وستون ذراعا وعرضه مائة وخمسين ذراعا على ماذكره النووي . وجعل أعمدته من حجارة مثبتة بأعمدة الحديد

1- الحديث في **سنن الدارقطني** : رقم 112، 4/ 235 ، و**سنن الكبرى البيهقي** ،كتاب الهبات باب ما يستدل به على أن أمره بالتسوية بينهم في العطية على الاختيار دون الإيجاب ، رقم 6، 11787/ 178 ، وفي **كنز العمال** : 6/ 76 .

2- مما قاله الرسول ﷺ في خطبة الوداع ، انظر ما في **صحيح مسلم**، كتاب الحج ، باب حجر النبي ﷺ، رقم 1218، 2/ 889 ،وفي **سنن أبي داود** ، أول كتاب المناسك ، 2/ 185.

3- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب البيوع ، باب صاحب السلعة أحق بالسوم ، رقم 2، 2000/ 742، و مسلم في **صحيحه**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ابتناء مسجد النبي ، رقم 524، 1/ 373 .

4- في **رحلة العبدري**، «هذا».

5- ورد قول عمر في **أخبار مكة** للأزرقي ، 2/ 96 .

6- العبدري ، **رحلة**، 445- 446 .

7- حول زيادة عثمان رضي الله عنه انظر : السمهودي ، **وفاء الوفا**، 2/ 248 - 258.

8- الحديث في **صحيح ابن حبان**، 4/ 490 رقم 1610 ، ورقم 1، 6114/ 491 ، و**سنن ابن ماجة**، كتاب بناء المساجد والجماعات باب من بنى لله مسجدا ، رقم 738 ، 1/ 244.

والرصاص، وجعل أبوابه ستة على ما كانت عليه قبله، وسقفه بالسّاجِ، وجعل له محرابا، وهو أول من بنى المحراب وقيل: أول من بناه مروان بن الحكم، وقيل عمر بن عبد العزيز ﷺ، فوسعه في خلافة الوليد على ما يأتي .

ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك وولى عمله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فوسعه[1] حتى بلغ طوله مائتي ذراع، وحسنه وبالغ في إتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب. وكان الوليد قد بعث إلى ملك الروم: إني أردت أن أبني مسجد نبينا محمد ﷺ الأكبر فأعني[2] فيه بعمال، فبعث إليه عدة من الروم والقِبْطِ وبثمانين ألف مثقال ذهبا، وبالسلاسل التي فيها القناديل، وأمر الوليد بإدخال حُجَر النبي ﷺ في المسجد»[3] ، فاشترى عمر بن عبد العزيز ما منها في الشرق والغرب والشمال، فلما صار إلى القبلة أمتنعَ عُبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة[4] فقال*373.* عمر: لابد لي من إدخالها في المسجد، وطال الكلام بينهما حتى ابتاعها منهم على أن يكون لهم ما بقي منها، وأن يخرجوا من باقيها طريقا إلى المسجد، وهي الخوخة التي في المسجد ولم تبق الآن . وجعل عمر للمسجد أربع منارات في كل ركن واحدة وكانت الرابعة مطلة على دار مروان، فلما حج سليمان بن عبد الملك[5] [أذن المؤذن][6] فأطلَّ عليه فأمر[7] بها فهُدمت، وجعل له عشرين بابا، وبنى على الحجرة الشريفة حائطا ولم يلصقه بجدار الحجرة ولا بالسقف، وطوله مقدار نصف قامة بالآجر، وجعل عمر للمسجد محرابا وشُرفات فقال الناس: إنها من زينته،

1- كان ذلك سنة 91 هـ .

2- في د «فأعنا».

3- الحربي، **المناسك**: 365.

4- حفصة بنت عمر بن الخطاب : صحابية جليلة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم توفيت بمكة سنة 45 هـ . انظر: ابن حجر، **الاصابة**، 4/ 264، عمر كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، طبعة دمشق سنة 1359/ 1940 ، 1/ 284.

5- سليمان بن عبد الملك بن مروان ، خليفة أموي ولي ما بين 96 – 99هـ انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء** ، 225 وما بعدها.

6- ساقطة من ج وح و د .

7- في د «أمر» .

وقد جاء أثر في النهي عنها وعن الصلاة في مسجد له[1] شرافات، وليس فيه الآن شرافة ولكن تزويق .

ثم زاد فيه المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور، وكان والده أبو جعفر[2] قد همَّ بالزيادة فيه ولم يُقدر له ذلك[3]، وكتب إليه الحسن بن زيد[4] يُرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق ويقول: إن زيد منها توسط قبر النبي ﷺ المسجد[5]، فاتهمه أبو جعفر أنه إنما أراد هدم دار عثمان فكتب إليه : قد عرفْتُ الذي أردت فاكفف عن دار عثمان بن عفان - ﷺ- وأمر أبو جعفر بستور للصحْن تُنْشَرُ عليه أيام الصيف على حبال ممدودة على خشب، قد أقيمت في الصحن تقي المصلين من الحر وبقيت تلك الستورزمانا [6]، وتوفي المنصور ولم يزد فيه شيئا . وزاد فيه ولده المهدي من ناحية الشام خاصة مائة ذراع، وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع، فبلغه المهدي ثلاثمائة ذراع، وسوى المقصورة بالأرض وكانت مرتفعة عنها ذراعين، وكتب اسم المهدي على مواضع من المسجد[7] ، وعلى الأبواب مع كلام كثير وآيات قرآنية وسور تامة من القصار، وقد بني بعده وغُير أكثرالأشياء، وكان له عشرون بابا ثم سدت [إلا][8] الأربعة الموجودة الآن .

ثم عمل الخليفة الناصر سنة ست وسبعين وخمسمائة في صحنه قبة لحفظ

---

1 - ساقطة من د .

2- أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، هو باني بغداد، ولي بين سنتي 158-136 هـ. انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء** : 259.

3- في د «ولم يقض له بذلك» .

4- الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: أمير المدينة كان من الاشراف ، ولاه المنصور على المدينة خمس سنين ثم عزله وحبسه في بغداد، فلما ولي المهدي أخرجه، توفي سنة 168هـ. وهو في طريقه للحج مع المهدي. انظر:الذهبي، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة، 1963 ، 1/ 294 ؛ البغدادي، **تاريخ بغداد**، 7/ 309.

5- ساقطة من د .

6- ينظر: العبدري، **رحلة**، ص 449 هامش : 5.

7- ينظر تفاصيل الزيادات في المسجد النبوي :الحربي، **المناسك** : 373 .

8- ساقطة من «ح» و«د» .

ذخائرالحرم، وقد كان وقع فيه حريق في هذه الأزمنة [الأخيرة][1] فاحتيج إلى تجديده وإصلاح ما احترق فيه .

ثم أمر الملك المنصور، في القرن السابع، ببناء دار الوضوء عند باب السلام من ناحية الغرب وهي متسعة متقنة، وأجرى لها الماء، وأدارها بالبيوت، وأحدث في ذلك من *374* الرفق بالناس وإدخال الراحة عليهم ما يقصر عنه الوصف. ثم بعد دهور أعقب ذلك نزول صاعقة من السماء فاحترق المسجد بأسره وذلك في ليلة ثالث عشر من رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة في أيام الملك الأشرف قايتباي في زمن الحافظ السيوطي، فبناه هذا البنيان الموجود إلى الآن .

واعلم أن ما في **رحلة العبدري** من وصف المسجد في زمانه[2] ، فقد غير في القرن التاسع لما بناه الأمير قايتباي وبناؤه هو الموجود الآن كالحجرة النبوية، وصفته على حسب ما شهدناه أنه غير مربع عرضه على نحو ثلثي طوله، والمسجد القديم النبوي معلوم عند الكافة بزليج في اسطواناته، وقد ذكر السمهودي لذلك علامة في زمانه فانظره . وصحنه اليوم ليس بذلك في الوسع، وهو فيما زيد في مؤخره وقد فرش بالحصباء، وبه نخلات ثلاث يجنى ثمرها على ما قيل، ويذهب بها للأمير العثماني إلى القسطنطينية، وبقرب النخلات بيت القناديل، وبالصف الأخير مثل ذلك .

وطول المسجد مائة خطوة وتسعون خطوة- بتقديم المثناة- وعرضه مائة وعشرون خطوة، وطوله من الجنوب إلى الشمال وعرضه من الشرق إلى الغرب، وعدد أسطواناته مئتان وتسعون، وعلى رأس محرابه حجر مربع أصفر قدر شبر في مثله بريق يلمع يقال إنه من مرآة كسرى، وفي أعلاه - داخل المحراب - مسمارمثبت في جداره[3] ، فيه شبه حُقّ[4] صغير لا

1- ساقطة من ح .

2- ينظر العبدري، **رحلة**، 442 - 450.

3- ساقط من ح ود .

4- حُقّ ج أحقاق وحِقاق: وعاء صغير ذو غطاء يصنع من عاج أو زجاج أو غيرهما . **المعجم العربي**، 338 .

يعرف من أين هو، ويزعمون أنه كأس كسرى . والمسجد مفروش كله عدا الصحن والصف الأخير مع ما هو عليه من الإرتفاع على سائر المسجد .

وأبوابه أربعة: باب السلام في الجانب الغربي قريب من الصف الأول عن يمينك وأنت مستقبل القبلة، وباب الفتح ويقال: باب عاتكة وهو قريب منه في الجدار الغربي قريب من الصحن، وبابا جبريل والنساء، وهما في الجانب الشرقي قريب من الحجرة، ولا باب في القبلة ولا فيما يقابلها من الصف الأخير. وعلى كل من بابي الفتح والسلام من يحرس للناس نعالهم بأجرة، فلا أرى أحد يدخل بها . وللمسجد – فيما قيل – سقفان : أحدهما فوق الآخر، وسقفه الذي يلي المصلين مرتفع جدا، وسطحه لا *375*يخلص له أحد إلا المؤذنون، حاشى أيام الموسم فإنه يباح لكل أحد، ولقد – والله – راودت بعض المؤذنين وبعض لغوات بأجرة على أن يتركوني أصعد تبركا ووقوفا على حقيقة الأمر، فامتنعوا واعتلوا بأنه سوء أدب مع النبي ﷺ. وله خمس مئذنات أفضلها التي في الركن الشرقي الجنوبي، وهي أقرب للنبي ﷺ وتقابلها في الركن الشرقي الشمالي الموالية لها في الارتفاع والحسن، ثم ثلاث مصطفات في الركن الغربي إحداهن على باب السلام، و الأخرى على باب الرحمة، والأخرى أمامها، وكلها من عمل قايتباي إلا السليمانية وهي الشرقية الشمالية فقد بناها السلطان سليمان[5] التركي .

والمسجد الآن كله مبيض بالفضة، وناحية الشرق لم يزد فيها إلا مقدار ممر الإنسان بل مقدار صف وراء الحجرة المطهرة، وفيه نوع ظلمة بالنسبة لسائر المسجد، ولم أر فيه فراشا وإنما أرضه مرخمة برخام ملون . والمسجد الآن على ما شاهدت قد دارت به أزقة متسعة نظيفة، ولم يغرز أحد خشبه في بعض جدرانه، بل لم تتصل به دار، ولا فتحت إليه طاقة ولا شباك يشرف منهما إليه عكس المسجد الحرام بمكة، وكأنهم امتثلوا في ذلك حديث **الصحيحين**

5- عرف بسليمان القانوني حكم ما بين 1520– 1566 . انظر: بنحادة، **العثمانيون** . . .، 316 .

وغيرهما من الأمر بسد الخوخات عدا خوخة[1] أبي بكر[2] وعلي في رواية[3]. وفي أخرى أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «يا رسول الله دعني أفتح كوة أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا»[4]. وسأل مثل ذلك عمه العباس ومنعه. وبالجملة فإنه عَهْدٌ عَهِدَه النبي ﷺ عند وفاته فوجب الوقوف عنده، ولا يراعى في الترخيص فتح ذلك صديق ولا حبيب ولا بعيد ولا قريب، فهي خصوصية لهذا المسجد الشريف ولأبي بكر، ولا يلتفت إلى الترخيص في ذلك اعتمادا على فتاوى صدرت من علماء في عصر الحافظ

1- الخَوْخَة: بابٌ صغيرٌ كالنَّافِذَة الكَبِيرَة، وتكُون بَيْن بَيْتَيْن يُنْصَبُ عليها بابٌ.

2- لفظ الحديث: «عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده». فبكى أبو بكر وقال فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر هو أعلمنا به وقال رسول الله ﷺ: «إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر». أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، رقم2382، 4/ 1854، والبخاري عن ابن عباس في كتاب أبواب المساجد باب الخوخة والممر في المسجد، رقم 455، 1/ 178.

3- لفظ الحديث: «عن مصعب بن سعد، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «سدوا عني كل خوخة في المسجد إلا خوخة علي». وهذا الحديث قد روي عن النبي ﷺ: من وجوه ولا نعلم يروى عن سعد». انظر، أحمد البزار، **البحر الزخار**، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، 1409 هـ، رقم 1169، 3/ 363.
وقد وضح السيوطي أن الأمر ليس فيه تناقض بقوله: «قال العلماء: لا معارضة بين الأحاديث المذكورة في سد الأبواب إلا باب أبي بكر وبين المذكورة في سد الأبواب إلا باب علي، فإنهما قصتان إحداهما غير الأخرى، فقصة علي كانت متقدمة وهي في سد الأبواب الشارعة وقد كان إذن لعلي أن يمر في المسجد وهو جنب، وقصة أبي بكر متأخرة في مرض الوفاة في سد طاقات كانوا يستقربون الدخول منها وهي الخوخ كذا جمع القاضي إسماعيل المالكي في أحكامه والكلاباذي في معانيه والطحاوي في مشكله، وعبارة الكلاباذي لا تعارض بين قصة علي وقصة أبي بكر لأن باب أبي بكر كان من جملة خوخات يطلع منها إلى المسجد وأبواب البيوت خارجة من المسجد، فأمر رسول الله ﷺ بسد تلك الخوخ فلم تبق تطلع منها إلى المسجد وتركت خوخة أبي بكر فقط. وأما باب علي فكان داخل المسجد يخرج منه ويدخل منه. وقال الحافظ ابن حجر قصة علي في سدِ الأبواب. وأما سد الخوخ فالمراد به طاقات كانت في المسجد يستقربون الدخول منها فأمر النبي ﷺ في مرض موته بسدها إلا خوخة أبي بكر، وفي ذلك إشارة إلى استخلاف أبي بكر لأنه يحتاج إلى المسجد كثيرا دون غيره انتهى». السيوطي، **الحاوي للفتاوي**: باب حسن التسليك في حكم التشبيك، 2/ 14 – 15.

4- السيوطي، **الحاوي للفتاوي**: باب حسن التسليك في حكم التشبيك، 2/ 14.

السيوطي ولا إلى ما أبدوه في ذلك من الشبه، وقد تكفل بابطالها السيوطي في **الحاوي للفتاوي** فليطالعه من أراده[1] ، والله الهادي بمنه إلى الصواب .

وفي المسجد الآن محاريب أحدها القديم النبوي*376* وهو الآن في الصف الثالث اليوم ومحل المنبر القديم عن يمينه، وفي منبر رائق الآن، وبينه وبين الحجرة الشريفة زهاء خمسين ذراعا، وفي الصفين المزيدين للقبلة محراب آخر، وعن يمين القديم آخر لا أدري ما سببه، ولعل الإمام المالكي أو الحنبلي كان يصلي به في سالف الأزمان، وأما الآن فليس للمالكي ولا للحنبلي إمامة[2] في سائر الصلوات الخمس إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، جريا على عادتهم في الحرمين، حرصا على أكل الوقف، فيتوارثون ذلك عن آبائهم حتى أفضى بهم ذلك إلى إمامة من ليس بذلك في العلم والدين، بل وربما تولاها بذلك حدث الأسنان. (من الوافر)

إذا التَحَقَ الأسَافِلُ بالأعَالي فَقَدْ وَجَبَتْ مُنادَمَةُ المَنَايَا[3]

وما يحكى عن التقي السبكي من أنه كان يرى تولية الأطفال مع عدم صلاحيتهم إذا قام بالوظائف صالحون، ويرجِّحُهم على الصالحين، ليس على إطلاقه وإنما معناه أن الولد له تولية الإختصاص[4]، والصالح له تولية المباشرة، فيدفع للأول على سبيل الإعانة البعض، وللثاني البعض تنفيذا لغرض، كما بين ذلك التاج في **الطبقات**[5] في ترجمة أبي منصور بن عساكر.

1- م . س : باب حسن التسليك في حكم التشبيك، 2/ 15 – 26 .

2- في خ «إقامة».

3- في الطرة للقاضي عبد الوهاب.

4- في د «من اختصاص والده» والصواب ما أثبتناه . انظر: هامش 3 .

5- وقد نفى ذلك التاج السبكي بقوله : « وقد أشاع كثيرٌ من الناس أن الوالدَ كان يرى تولية الأطفال وظائف آبائهم مع عدم صلاحيتهم إذا قام بالوظائف صالحٌ ويرجِّحُهم على الصالحين وتوسَّعوا في ذلك ونحن أخبرُ بأبينا وبمقاصده ولم يكن رحمه الله رأى ذلك على الإطلاق إنما كان رأيه فيمن كانت له يدٌ بيضاء في الإسلام من علم أو غيره قد أثَّر في الدين آثارا حسنة وترك ولدا صالحا أن يباشر وظيفته من يصلُح لها وتكون الوظيفةُ = باسم الولد ويقول التوليةُ توليتان تولية اختصاص وتوليةُ مباشرة فالصبي يتولى تولية الاختصاص بمعنى أن تكون له خصوصية بها ويصرف له بعض المعلُوم والصالح يتولى تولية يعني أنه يأتي بالمعنى المقصود من الوظيفة فيحصل غرض الواقف ومراعاةُ جانب الصغير إعانة لحقِّ أبيه ويقول أنا في الحقيقة إنما أوَلي المباشر وهو ذو الولاية الحقيقية». **طبقات الشافعية الكبرى**، 5/ 9.

وفي **الرحلة الناصرية**: «وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب فيتقدم الحنفي لضيق الوقت عنده كالمالكي، ولا يقدم بالمدينة من الأئمة سواهما إلا في الجمعة فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في المحراب الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلّى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس»[1].

والحجرة الشريفة ليست كما ذكر عروة ولا غيره بعده، لأنها أحرقت ثم أنشئت[2] ثم أحرقت ثم أنشئت، ثم جددت في عام واحد وثمانين وثمانمائة من عمل قايتباي، وقيل عام ستة وثمانين وثمانمائة على ما في **شرح دلائل الخيرات** للشيخ المهدي الفاسي رحمه الله تعالى قال: « وصفتها على ما ذكره بعض المتأخرين عما أخبره به الشيخ أبو عبد الله محمد بركات الحطاب عن والده، وقد حضر إنشاءها أن القبور الشريفة ليس عليها علامة سوى ارتفاع *377* الأرض» . ثم بنيت عليها قبة صغيرة كقباب صلحائنا في هذا الزمان، ليست بمثلثة ولا بمربعة ولا بمخمسة، أسطوانية[3] البناء من أسفل ومن فوق، ولم تبق لها عدا طاقة من أعلاها يخرج منها النور، ثم على القبة المذكورة قبة أخرى أعظم منها لكنها إلى التخميس أقرب، وهي على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى التي[4] تلي الأساس، والأساس منشأ بحجارة سود، ملبسة بالرخام الأبيض غير الرخامة التي فيها المسمار الفضي فإنها حمراء جدا، والطبقة الثانية من الآجر، والطبقة الثالثة من العود فيها تربط الكسوة، وليست بمطموسة كما هي الأولى . ثم على القبتين قبة شامخة تعلو الصومعة أو تقرب منها، وهي مربعة على أركان أربعة وسوار عشر غير الروضة الصغيرة، وأرضها مفروشة بالرخام غير الموضع الذي يذكر أنه يدفن فيه

1- الناصري، **الرحلة**، 366 .
2- في د «انشأت» .
3- في ح ود «مطموسة».
4- ساقطة من ح .

عيسى عليه السلام في السهوة[1]، وهو معروف عند الخدام ومن شاهد ذلك. ولها أربعة أبواب : باب التوبة وهو في قبلة المسجد في شباك من النحاس يفتح عند الشدائد ليس إلا، وباب الوقود يفتح كل ليلة لوقود المصابيح، وباب فاطمة كذلك يدخل منه بالشمع وبالمبخرات كل ليلة، وفي ليلة الجمعة لكشف الصندوق المواجه لرأسه عليه الصلاة والسلام، ورشه بماء الورد وغيره من الطيب، وفي صبيحتها لكنس الحجرة، وباب التهجد تارة فتارة، وفي يوم الجمعة تجلل الأبواب كلها بجلال الحرير»، هـ.

قلت: وقد دخلتها لربي الحمد، في جوف الليل من باب فاطمة وهو الذي يقال له اليوم باب الوقود، ولم أرهم يدخلون إلا منه، وهو الموالي للجهة الشرقية، بينه وبين الجدار الشرقي ممر ضيق مقدار صف كما تقدم. والباب المقابل لباب التوبة وهو في الجنوب يُدعى الآن باب لغوات لجلوسهم بدكان ببابه، وهم خدمة الحجرة الشريفة، ويقال له باب حمزة وباب أحد، لأن الواقف به وهو مستدبر القبلة يستقبل أحدا، وفي شباك الكسوة لجهة القبلة قبالة وجه النبي ﷺ باب صغير مرونق، فيه الكوكب الدري يضيء كالمصباح، يشاهده من كان خارج الحجرة في المواجهة قيل: وهذا الباب لا يدخله أحد إلا شيخ الحرم مرة في السنة، يضمخ القبة المطموسة بأنواع الطيب، وقد جعل في الكسوة علم بإزاء رأس النبي ﷺ، ثم آخر بإزاء رأس أبي بكر، ثم آخر بإزاء *378* رأس عمر رضي الله عنهما. يقف الزائر قبالة الأول ثم يرجع شيئا ما يمينا قبالة الثاني، ثم كذلك في الثالث، وقد وضع نحو تلك العلامة بالنقش في البنيان خارج الشباك الذي فيه باب التوبة في المواجهة، فيقف الزائر مثل ذلك خارجه على نحو ماذكر، ومن وراء الشباك من عود الذي عليه الكسوة قبة صغيرة داخل الحجرة تنسب لفاطمة رضي الله عنها وبذلك سمي الباب الموالي لها باب فاطمة، ولا يصح شيء من ذلك فالصحيح أنها بالبقيع، كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وإلى جانب هذه القبيبة محراب مستقبل للقبلة يسبح به من دخل الحجرة، ومعي في حال دخولي شيخ الحرم وحده هو الذي أراني ذلك، فأوقعت التحية هناك، والقبور أمامي في قبلتي، والكسوة المسدولة على

1- السهوة : بيت صغير منحدر من الأرض.

الشباك هي اليوم في الغاية من الإتقان، بلون الخضرة والبياض، وبها من خيوط الذهب والفضة العجب فلا ترى كسوة تضاهيها، وهي انسدلت عليها إلى الأرض، خلافا لقول العبدري: إلى قريب من القامة[1] ، ولعل ذلك كان في زمانه وتغير، بعد قوله: «فكساها كل عام»[2] . ففي **تاريخ السمهودي الكبير**: «أنها كان يوتى بها من مصر في كل عشر سنين مرة، أو في كل ست سنين»[3].

وفي **الحاوي للفتاوي** للسيوطي ما نصه: «أول من كسا الحجرة الشريفة ابن أبي الهيجاء وزير ملك مصر، بعد أن استأذن الخليفة المستضيء، فكساها ديباجا أبيض، ثم بعد سنتين أرسل الخليفة المستضيء كسوة ديباج أبيض بنفسجيا[4] ،ثم أرسل الخليفة الناصر لما ولي، كسوة من الديباج الأسود، ثم لما حجت أم الخليفة وعادت أرسلت كسوة كذلك، ثم صارت ترسل الكسوة من جهة مصر كل سبع سنين من الديباج الأسود، ذكر ذلك الأقفهسى»،[5] هـ .

قلت: وأما اليوم فقد حدثني الثقاة من المجاورين وغيرهم أنها يأتي بها الشامي، يبعث بها من تأمَّر بالقسطنطنية وتبقى في مدة إيالته حتى يموت أو يعزل، ثم إذا ولي من بعده جددها، وهكذا فليست ككسوة الكعبة ومقام إبراهيم التي يؤتى بها كل سنة من مصر. ولست أدري متى انقطع الإتيان بها من مصر ولا سبب ذلك، ولعله لما استقرت المملكة وصاحبها *379* العثماني باسطنبول غير ذلك، والله أعلم .

وكسوة الحجرة عليها الكتابة غالبا نظما ونترا، فقد كتب عليها في زمن العبدري: (من الطويل)

هَنِيئًا لَكُمْ يَازَائِرِيــنَ ضَرِيحَـــهُ أَمِنْتُمْ بِهِ يَوْمَ المَعَادِ مِنَ الرِّجْـــسِ

1- العبدري، **رحلة**، 426.

2- العبدري، **رحلة**، 426.

3- السمهودي، **وفاء الوفا**، وفيه: «قد استقر الأمر بعد قتل الخليفة المستعصم على حمل الكسوة منمصر ... فالكعبة تكسى كل عام مرة، والحجرة والمنبر في كل ست سنين مرة». 2/ 137- 138.

4- في **الحاوي للفتاوي** «ديباجا بنفسجيا».

5- السيوطي، **الحاوي للفتاوي**: باب حسن التسليك في حكم التشبيك، 2/ 31 .

وَصَلْتُمْ إِلَى قَبْـرِ الْحَبِيبِ بِطِيبَــةٍ فَطُوبَى لِمَنْ يُضَحِي بِطِيبَةَ أُويُمسي[1]

فذيلها العبدري بقوله: (من الطويل)

قِفُوا وَسَلِّمُوا[2]هَــذَا ضَرِيحُ مُحَمَّـدٍ أَمَا تُبْصِرُونَ النّورَ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ
وَصَلّوا عَلَيْهِ وَاسْأَلُوا وَتَوَسَّلُـوا إِلَى اللهِ بِالمَبْعُوثِ لِلْجِـنِّ وَالإِنْـسِ[3]

وقد كتب أيضا فوق شباك الحجرة بالذهب بخط غليظ من جهة المواجهة بعد البسملة: (من البسيط)

يَاسَيِّدِي يَا رَسُولَ اللهِ خُـذْ بِيَدِي مَالِي سِوَاكَ وَلاأَلْـوِي إِلَى أَحَـدِ
فَأَنْتَ نُورُ الهُدَى فِي كُـلِّ كَائِنَـةٍ وَأَنْتَ سِرّ النَّدَى يَاخَيْـرَ مُعْتَمَـدِ

وفيه أيضا اللهم صل على سيدنا محمد نور الذات الساري سيره في جميع آثار الأسماء والصفات، وعلى آله وسلم تسليما .

وأما المنبر، ففي الحديث أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع نخلة في المسجد، فلما صُنع له المنبر وتحوّل إليه حَنَّ إليه الجذع حنين النّاقة إلى ولدها . روى أنه نزل إليه فالتزمَهُ فَسَكَنَ وقال: «لو لم ألتزمْه لحَنَّ إلى يوم القيامة»[4] . وقد اختلفت الروايات في الذي صنع المنبر، فقيل تميم الداري[5] ، وقيل غلام للعباس، وقيل غلام لامرأة من الأنصار[6]، وصنع من طَرْفاء الغابة، وروي من الأثْل وهما واحد. وكان ثلاث درجات فكان عليه

1- العبدري، **رحلة**، 426،؛ ابن رشيد، **ماء العيبة**، 5/ 271 .
أو يمسي.
2- في و « امثلوا» .
3- العبدري، **رحلة**، 426 .
4- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة ، باب الخطبة قائما ، رقم 876، 1/ 397 بخلاف في اللفظ ، والدارمي في **سننه** ، كتاب الطهارة ، رقم 39، 1/ 32 وابن ماجة، كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في بدء شأن المنبر، رقم 1414 و1415، 1/ 454 ، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الخطبة على المنبر، رقم 2، 505/ 379.
5- هو تميم بن أوس بن خارجة الداري: صحابي أسلم سنة 9 هـ . كان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان، ترجمة في: **صفة الصفوة** 1/ 737، **الاصابة** 1/ 186، **طبقات** ابن سعد 7/ 408.
6- حول هذه الروايات انظر : السمهودي، **وفاء الوفا**، 2/ 111- 118.

السلام يقف على الثالثة ويضع رجليه على الثانية، فلما ولي أبو بكر رضي الله عنه قعد على الثانية ووضع رجليه على الأولى، ولما ولي عمر قعد على الأولى ووضع رجليه على الأرض، ففعل ذلك عثمان صدرا من خلافته، ثم ارتقى إلى الثالثة. ولما ولي معاوية أراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون، وهاجت[1] ريح شديدة هائلة، وكسفت الشمس حتى بدت النجوم، وأظلمت الأرض حتى كان الرجل يصادم الرجل ويناطح الجدار لا يرى مسلكا، فلما رأى ذلك تركه، وزاد ستَّ درجات من أسفله فصارت تسعا[2]. ولما وقع الحريق بالمسجد احترق المنبر حتى لم تبق منه إلا قطعة عودِ فصنع منبر آخر من ساج[3] وهو الذي أدركه العبدري في زمانه، وجعلت *380* تلك القطعة في داخله بإزاء ثقب[4] يُدْخِلُ منه الناس أيديهم يتمسحون[5] بها تبركا، وكان بين موضع المنبر وحائط القِبلة قدر ذراعٍ، فلما زيد في القبلة بقي المنبر بموضعه إلى الآن»[6]. ولست أدري أهذا المنبرُ هو الباقي الآن أو غيره، وهو الظاهر، وبينه وبين محل المحراب النبوي القديم فرجة، وما صليت والحمد لله مدة إقامتي أمامه في الصف الأول المزيد لأني كرهت أن أتقدم على مصلى رسول الله ﷺ، فإن وجدت فسحة صليت فيما بين الحجرة والمنبر، وإلا فخلف ذلك في المسجد القديم، وما أعلم أني صليت في الزيادة في سائر الجهات.

وفي حائط المحراب أمام المصلى نحو القامتين أو أقل شكلٌ ناتئ أكحل[7] برّاق أملس، كأنه رأس خشبة أبنوس مخروطا، ذكر المؤرخون أنه عمود كان في جدار القبلة وكان رسول الله ﷺ يتمسك به إذا أقيمت الصلاة ثم يلتفت يمينا وشمالا ويقول: «سَوّوا صفوفكم» فإذا استوت كبر[8]. فلما توفي رسول

1- في رحلة العبدري « عصفت».

2- ينظر: السمهودي، وفاء الوفا، 2/ 119- 122..

3- في د « سادج ». والساج، شجر عظيم صلب الخشب أسوده.

4- في رحلة العبدري «نقب».

5- في م . س « فيمسحونها».

6- العبدري، رحلة، 452-451.

7- الأكحل : الأسود .

8- أخرجه ابن حبان في كتاب الايمان باب ذكر الامر بتسوية الصفف، رقم 2165، 5/ 538 بخلاف في اللفظ ، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب إقامة الصفوف، رقم 1، 994/ 318.

الله ﷺ فَقُدَ فلم يجده أبو بكر، ووجده عمر في خلافته عند رجل بقباء وقد دفنه حتى أكلته الأرضة[1]، فأخذ له عمر عودا فشقه وأدخله فيه ثم شعّبه ورده في موضعه[2]. فلما زاد عمر بن عبد العزيز في القبلة جعله في المحراب، والناس يتحرون لمسه تبركا به، والحجاج يحرصون عليه ويرمون ثيابهم إليه، وتراهم يحمل بعضهم بعضا ليتَّصلوا به ولا يعرفون ماهو، كما جرت عادتهم في غيره.

وأما البقيع الشريف - زاده الله طهارة - فلا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بإجماع، فهي خارجة من الخلاف الذي في تفضيل المدينة على مكة لما فيها من مزارات شريفة ما لا يكاد يحصره وصف من قبور الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين، فقد ذكر السمهودي وغيره من أرباب التواريخ أن به أكثر من عشرة آلاف صحابي مدفونا- ويروى ذلك عن مالك بن أنس[3] - مع أنه ليس بذلك في الوسع، ويحمل على ذلك أنه طبقات من الموتى بعضها فوق بعض، لأن الأرض سبخة فلا تمر سنة أو سنتان حتى لا يبقى للقبر أثر. وما فيه من المباني إلا نحو عشرة مشهورة، خلافا لقول العبدري على أكثرقبوره مبان[4]، وقباب متقنة. والمشهور اليوم فيه بالزيارة: قبة سيدنا إبراهيم بن نبينا ﷺ ومعه سعد بن أبي وقاص، وسعد بن زرارة، وخُنَيْسُ بْنُ حُذَافَةَ السّهْمِيّ[5]، وعثمان بن مظعون وهو أول من دفن *381* بالبقيع كما في **الصحيح**[6]، وفيه: لما توفي إبراهيم بن النبي ﷺ قيل يا

1- في د «الأرض». والأرضة: دودة بيضاء تأكل الخشب.

2- ينظر: الحربي، **المناسك**: 403.

3- السمهودي، **وفاء الوفا**: 3/ 300 نقلا عن القاضي عياض في **ترتيب المدارك**، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة **الحياة**، بيروت، 1384/ 1965، 1/ 67.

4- العبدري، **رحلة**، 423.

5- زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب والتي تزوجها رسول الله ﷺ بعد وفاته. انظر: **سيرة ابن هشام** 4/ 228.

6- أخرجه البخاري في **التاريخ الكبير**، باب العين، رقم 538، 1/ 177 (أول من دفن بالبقيع عثمان ابن مضعون رحمة الله عليه وأول من تبعه إبراهيم بن النبي ﷺ.

رسول الله : أين نحفر له؟ فقال: «عند فَرَطِنَا[1] عثمان بن مظعون»[2]. وقيل إن البنات الطاهرات هنا أيضا ففي **الصحيح** : لما مات عثمان بن مظعون وضع ﷺ عند رأسه حجرا وقال: «أعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي»[3] .

وفي هذا المشهد أيضا: عبد الرحمان بن عوف وعبد الله بن مسعود ، هكذا كتب هناك خارج القبة وداخلها في حائزة عن يسارك وأنت داخل منعزلين عن إبراهيم ، ثم قبة سيدنا العباس وهي قبة بهية ، على قبره دربوز عجيب ومعه في قبته قبر فاطمة رضي الله عنها على الصحيح ، مسدول بينها وبين الداخلين بأستار من الحرير لا يترك من ولى هذه القبة الداخلين أن يكشفوا الأستار حتى يتمكنوا من رؤية ضريحها ، وقد شاهدت بعض الحجاج رام كشفها فضربه على يديه الواقف هناك . وقيل أن قبر فاطمة رضي الله عنها بقبة إبراهيم السابقة ، وفي هذه القبة على قول قبر الحسين بن علي عدا رأسه فبمصر وقيل رأس الحسين فقط ، وفيها زين العابدين وجعفر بن محمد الصادق وأبوه محمد الباقر ، وفيها قيل : (من الكامل)

نَفْسِي الفَـرَاءُ لِقُبَّـةٍ أَكْـرِمْ بِـهَا ... جَمَعَتْ مِـنْ آلِ الْبَيْـتِ سِتَّةَ أَبْحُرِ
عَبَّاسُ عَـمّ الْمُصْطَفَـى وَنَصِيرُهُ ... وَالسِّبْـطُ نَجْـلُ عَلِـي الْمُسْتَرِ
زُرْ حَسَـنَ بْنَ فَاطِمَةَ وَفَاطِمَةَ كَذَا ... عَلِـيَّ بْنَ حُسَيْـنِ السِّبْطِ الْبَـرِّ
وَالْبَاقِـرُ الْمُسَمَّـى مُحَمَّـدٌ ابْنَهُ ... وَالصَّـادِقُ النَّجْلُ الشَّهِيرُ بِجَعْفَرِ
مِنِّي عَلَيْهِـمُ أَلْـفَ تَحِيَّـةٍ ... مُزَفَّـةٍ فِي أَلْـفِ أَلْفِ أَعْطَـرِ

ثم قبة عثمان داخل البقيع وهي قبة شامخة ،على قبره دربوز ما رأينا شرقا وغربا مثله في الصنعة وهو من صفر وليس معه في قبته غيره ، وبجدرانها كغالب من بالبقيع من الأضرحة المشهورة قصائد مدح أربابها والتوسل بهم

1- الفارطُ : فرَطَ يَفْرُط فُروطا ، المتقدّم السابِقُ ، والفارِطُ والفَرَطُ بالتحريك المتقدّم إلى الماء يتقدَّمُ الوارِدَةَ فُيهَيِّء لهم الأَرْسانَ والدِّلاءَ ويملأ الحِياضَ ويستقي لهم وهو فَعَلٍ بمعنى فاعل مثل تَبَع بمعنى تابِع ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم أنا فرَطُكم على الحوْضِ أي أنا متقدِّمُكم إليه . انظر : **لسان العرب** مادة «فرط» ، 7/ 366 .

2- وقفت على الحديث في **الطبقات الكبرى** لمحمد بن سعد الزهري ، دار صادر ، 1/ 144 .

3- أخرجه البيهقي في **سننه الكبرى** ، في كتاب الجنائز ، باب اعلام القبر بصخرة ، رقم 6535 ، 3/ 412 .

إلى الله تعالى، بخطوط مشرقية وبعض أبعاض المغربية، وبمخارجها مشهد الإمام النقشبندي في حوش محوط عليه بخشب مخروط وبقربه قبة السيدة حليمة مرضعة رسول الله ﷺ فيما يحكى، ولم يصح ذلك بل يصح أنها قبرت بالبقيع. ثم قبة فيها سيدنا عقيل بن أبي طالب معه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث. روى «أن عقيل بن أبي طالب ﷺ رأى أبا سفيان بن الحارث يجول بين المقابر فقال: ابن عمي مالي أراك *382* هاهنا؟ فقال : أطلب موضع قبري، فأدخله داره فأمر بقبر فحفر في قاعها، فقعد عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف، فلم يلبث إلا يومين حتى توفي ودفن فيه رحمه الله تعالى ورضي عنه»[1] . وفي هذه القبة [أيضاعبد الله بن جعفر الطيارعلى الصحيح وقيل بالشام وقيل وراء هذه القبة][2] . ثم قبة فيها الزوجات الطاهرات قيل: ومعهن السراري سوى خديجة وميمونة رضي الله عنهما [بمكة كما تقدم، ثم قبة البنات النبويات: زينب ورقية وأم كلثوم رضي الله عنهن][3]، ولا يترك الحاجب لهن - كالزوجات - ذكرا كان أو أنثى، يدخل عليهن إلا إن كان من أهل البيت . وأهل مكة في قبة السيدة خديجة كذلك على هذا الحال حسبما شاهدت ذلك، وإنما يزور الرجال إن كانوا غير آل النبي ﷺ من خارج، ثم قبة صغيرة فيها مالك بن أنس وحده[4] ، وبإزائه يليه قبة صغيرة لنافع مولى ابن عمر وقيل لنافع المقرئ، وقيل لبعض ولد عمر بن الخطاب ﷺ . وفي خارج البقيع غير بعيد قبة فيها فاطمة بنت أسد والدة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه على قول مرجوح ومعها سعد بن معاذ سيد الأوس، وأهل المدينة مجمعون على أن الذي معها في قبتها أبو سعيد الخدري، وعن يسارك وأنت خارج من المدينة من باب البقيع قبة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وعن يمينك مع سور المدينة وأنت خارج منها مسجد صغير قيل أن فيه موقف النبي ﷺ بالليل إذ خرج ليستغفر لأهل البقيع، وقيل هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها، وفيهن دفن كثير من أهل البيت . وروى

1 - وردت القصة في **الإصابة**، 7/ 180 .

2- ساقط من ح .

3- ساقط من ح .

4- في **رحلة العبدري**، « فإن قبره في بيت لا يسع غيره» ص 423.

عن خالد بن عوسجة قال: كنت أدعو ليلة إلى زاوية عقيل فمر بي جعفر بن محمد فقال لي : عن أثر وقفت هنا؟ فقلت: لا . فقال: هذا موقف النبي ﷺ بالليل إذ خرج يستغفر لإهل البقيع . قال المراغي: «وقد أخبرني غير واحد أن الدعاء هناك مستجاب» ، هـ .

وأعلم أنه وقع في **الرحلة العبدرية**: «وفي كل بقعة بالبقيع عدة مقابر للصحابة وغيرهم إلا تربة الإمام مالك»[1] إلخ . وفيه ما لا يخفى ، فقد شاهدنا قبة عثمان ، وقبة صفية ، وقبة فاطمة بنت أسد ، وأبي سعد أو سعد بن معاذ كما تقدم ، وقبة نافع ، ولم نر أحدا مع هؤلاء بعد البحث التام ولا يقال : لعل الزمان الذي ورد فيه العبدري على البقيع كان أكثر من فيه مبنيا عليه ، وفي كل بقعة *383* عدة من القبور خلاف قبة مالك ، فهدمت الأبنية لطول الزمان وتنوسيت القبور وبقي مشهورا ما بقي منها ، لأن ذلك يأباه التاريخ ، فإن أرباب التواريخ لم يتركوا أحدا ممن شهد به إلا واعتنوا بذكره وفاقا وخلافا .

والبقيع اليوم له ثلاثة أبواب ولم أر في أيام زيارتي مفتوحا إلا الذي يستقبلك وأنت خارج من المدينة ، وقد دار بالبقيع سور قدر القامة أو أكثر في بعض المواضع وهو مع قدمه تلاشى . وبنو سعد يتسورون على الزوار في آخر النهار أو أوله ، ولقد شاهدنا رجلا ونحن خارجون إلى الزيارة مسلوبا فيه من ثيابه ، مضروبا لرأسه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وأهل المدينة يحذرون الغريب من ذلك ويقولون أن المحاربين يكثرون بالمدينة خصوصا في أيام الحج ، فلا يخرج الغريب إلا في عدة وعدد أو معه بعض أهل البلد. وكان الواقف معي في الزيارة - في جماعة من أصحابنا المغاربة - فراش الحجرة النبوية الشريفة سيدي محمد علي الدمياطي وله كغيره من أهل المدينة مزيد اعتناء بالشاهد وحفظ الأدعية ، تراه إن وصل المشهد يستعطف صاحبه لمن جاء من الزوار معه بكلام يسبي العقول .

لطيفة : إنما أضيف البقيع إلى الغرقد وهو إسم شجر لوجوده به وقطعه لما أريد دفن عثمان بن مظعون به ، فسمي بقيع الغرقد . قاله جمع من المؤرخين .

1- العبدري ، رحلة ، 423 .

ومن المشاهد المقصودة للزيارة اليوم داخل المدينة بقرب باب البقيع على سور المدينة قبر إسماعيل بن جعفر الصادق، وهي قبة كبيرة في صورة مسجد صغير دخلتها زائرا، ويقابل هذه القبة وإن كانت من داخل قبة سيدنا العباس في البقيع، والمسجد بجانب هذا المشهد لزين العابدين وعرصة المشهد والبئر التي بين الباب الأول والمشهد بئره، يحكى أنه يتداوى بمائها، وهناك بئر آخر في الرحبة خارج المشهد يقال أنها هي التي يستشفى بمائها . ومنها داخل المدينة غربيها يلصق السور من داخله مشهد مالك، وأبوسعيد الخدري وهو من شهداء أحد عليه قبة وبها ماء مُعَد للشرب والوضوء، ومحلها هذا وهو سوق المدينة القديم، يروى عن أبي سعيد ﷺ، أنه قال: «أمر رسول الله ﷺ من نقل من[1] شهداء أحد [إلى المدينة] أن يدفنوا حيث أدركوا»[2] . فأدرك*384* أبي مالك بن سنان عند أصحاب العباء، أي الذين يبيعون العباء في طرف الحناطين[3]، ولأبن زبالة فوافوه بالسوق فدفن عند مسجد أصحاب العباء، وهنالك كانت أحجار الزيت . وقد ذهبت لزيارة هذا المشهد في جوف الليل من المسجد النبوي، وكان المتقدم معي في ذلك بعض المجاورين من المغاربة، ولست على وثوق في نفسي الآن .

ومنها خارج المدينة ولم أزره إلا عن بعد منه لضيق الحال، مشهد النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو أخو مولانا إدريس الأكبر أول أهل البيت قدوما إلى المغرب، وعامة شرفاء المغرب من نسله إلا شرفاء سجلماسة فهم من نسل النفس الزكية محمد المذكور، إستوطن أسلافه الينبع، فقدم جدهم منه إلى المغرب في المائة السابعة، ومشهده بناء في جوف مسجد كبير شرقي سلع، وفي قبلة المسجد منهل من عين الأزرق قال السمهودي: «وذكر سبط ابن الجوزي أن كثيرا من الناس قد كان بايعه، فخرج على المنصور بعد حبسه لأبيه وأقاربه، فجهز

1- ساقطة من ج .

2- وقفت على الحديث الحديث في **أخبارالمدينة** لابن شبية، 1/ 84 ؛ وفي **الكامل في ضعاف الرجال** للجرجاني، 3/ 174 .

3- ابن شبية، **أخبارالمدينة** :1/ 84 .

إليه المنصور عمه عيسى بن موسى في أربعة آلاف»[1] . وذكر قتله عند أحجار الزيت عند مشهد مالك بن سنان، وأن جسده دفن بالبقيع [وكان معه ذو الفقار - سيف علي- ثم انتقل إلى الرشيد، فعلى هذا قبره بالبقيع][2]، والمستفيض على ألسنة أهل المدينة ما تقدم .

ومنها خارج المدينة: مشهد سيد الشهداء وإمام الفضلاء سيدنا حمزة ابن عبد المطلب وهو تحت جبل أحد فيما بينه وبين المدينة، وبينهما ما ينيف على ثلاثة أميال، زرناه والحمد لله على عادة الركب من الخروج إليه ثالث أيام الزيارة، ولم أمر بأحد من المشاهد أعظمها وأشمخها بنيانا، ضريح سيدنا حمزة ﷺ وبه من مزيد المهابة العجب حتى كان الزائر له يشاهد ذاته، فلا ترى به إلا باكيا متضرعا، ولأهل المدينة اهتبال كبير بزيارته، ولقد - والله - تصدقت بالميسور عند ضريحه على بعض من أهل البيت، فرفعت يدي للدعاء في زحمة من الناس فما وضعتها حتى طرح لي فيها بعض الناس - ولا أدري من هو- ما ينيف على ما تصدقت به بأضعاف مضاعفة .

واشتهر عند الناس أن معه في قبره عبد الله بن جحش، وشماس وقيل مصعب بن عمير، والصحيح أنهم بقبر يليه في حوش مدور بحجارة، اشتهر لدى الكافة اليوم بقبور الشهداء، فزرنا الجميع *385* ما عرفنا وما لم نعرف بالنية . وبقربهم مكان على صورة الجابية الكبيرة، يجتمع فيه مياه المطر في وقتها ولم نجد به نحن إلا الحمأة، وعلونا ما قدرنا عليه من الجبل القائل فيه رسول اللهﷺ: «جبل يحبنا ونحبه»[3] . حقيقة بأن خلق له الإدراك أو مجازا من باب الحذف أي يحبنا أهله، فهو من باب: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[4]، ﴿وَأُشْرِبُوا

1- السمهودي، **وفاء الوفا**، 3/ 310 .

2- ساقط من ح.

3- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب خرص التمر، رقم1411، 2/ 539 وفي مواضع كثيرة بألفاظ مختلفة في كتاب الغسل، 3/ 1058 ، كتاب الأنبياء رقم 3، 3187/ 1232، كتاب الأطعمة رقم 5109 ، 5/ 2069 ؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الحج ، باب فضل المدينة ، رقم 1365، 2/ 993، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم 2، 1393، 1392/ 1011 ؛ **صحيح ابن حبان**، 9/ 42 - 43 ؛ **موطأ مالك** ، كتاب الجامع باب جامع ما جاء في أمر المدينة، 2/ 893 .

4- يوسف : 82 .

﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[1] ، ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[2] ، وبأسفله ووسطه وأعلاه مَشاهد مبنية منها في أعلاه قبة مهابة، يَزعمونَ أنها قبر هارون عليه السلام، ولا يصح شيء من ذلك، فالصحيح أنه مات بالتيه، وقيل: محل صلاته ﷺ في غزوة أحد. وبه دور ومساجد خربة، وهناك حجر كبير على طرف حافة منقطع عن ما والاه من الجبل يعتقد فيه العامة اعتقادات، فتراهم يتكلفون النزول بين الجبل والصخرة في مهواة، تحكم العادة أن من سقط منها لا يعيش ولا يبقى له عظم صحيح، يزعمون أنها الصخرة التي علا النبي ﷺ يوم أحد لما أقعد طلحة تحته، وفيه بعد.

وفي كل مشاهد الحرمين الداخلة والخارجة خدمة كثيرون، وسعاة يتعرضون بالسؤال بإلحاح على الحاج سيما النساء والصبيان، وقد جرت عادة أهل المدينة بزيارة سيدنا حمزة كل يوم خميس وربما باتوا به ليلته. والذين أكرموا بالشهادة بأحد سبعون رجلا أفضلهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وكان النبي ﷺ يتعهّدهم بالزيارة كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة[3] ، والقبر الذي عند رجلي حمزة والذي في الصحن من قبته ليسا من قبور الشهداء؛ ولأهل المدينة بهذا المشهد موسم كبير في رجب يأتيه الناس من مكة واليمن والطائف والينبع يقارب موسم الحاج .

وفضل أحد على الجملة معلوم مشهور ففي الصحيح مرفوعا: «جبل يحبنا ونحبه»[4] ، وفي حديث آخر: أنه «على باب من أبواب الجنة»[5] ،

1- البقرة : 92 .

2- طه :94.

3- جاء في **صحيح ابن حبان** : « أن النبي ﷺخرج إلى أحد فدعا لشهداء أحد كما كان يدعو للموتى في الصلاة عليهم، والعرب تسمي الدعاء صلاة ، فصار خروجه صلى الله عليه و سلم إلى شهداء أحد وزيارته إياهم ودعاؤه لهم سنة لمن بعده من أمته أن يزوروا شهداء أحد يدعون لهم كما يدعون للميت في الصلاة عليه». 7/ 475 .

4- سبق تخريجه ، انظر : هامش 1 .

5- أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط** ، كتاب فضائل الصحابة، ولفظه «أن رسول الله ﷺ قال : أحد هذا جبل يحبنا ونحبه على باب من أبواب الجنة وهذا عير يبغضنا ونبغضه وإنه على باب من أبواب النار» . رقم6505 ، 6/ 315 .

وترابه يستشفى به . قال الزركشي : «ينبغي أن يستثنى من منع نقل[1] تراب الحرم[2] تربة حمزة المأخوذة من المسيل الذي به مصرعه، لإطباق الخلف والسلف على نقلها للتداوي من الصداع ، قال السمهودي : «وتربة صهيب أولى بذلك»[3]. ورد في الحديث: «تراب المدينة شفاء من كل داء حتى الجذام والبرص»[4]. وورد أن التمرغ بتراب صهيب– واد من أودية المدينة – شفاء من الحمى، وفيه حفرة*386*موجودة اليوم مشهورة سلفا عن خلف يأخذ الناس منها التراب وينقلونه للتداوي ، وجرب ذلك فصح[5].

وفي **الصحيحين**: «من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك سم ولا سحر[6] » . وفي أسئلة ابن حجر الهيثمي وقد سئل: «أيها أفضل؟ أجبل الطور أم أحد؟ فأجاب: أن أحد أفضل لما ذكر، وزاد ما نصه: «ولأنه من جملة أرض المدينة التي هي أفضل البقاع مطلقا أو بعد مكة»[7].

1- ساقطة من د .

2- أخرج البيهقي في **السنن الكبرى** : «عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما أنهما كرها أن يخرج من تراب الحرم وحجارته إلى الحل شيء». كتاب الحج باب لا يخرج من تراب حرم مكة ولا حجارته شيء إلى الحل، رقم 9765، 5/ 201 .

3- قال السمهودي تعليقا على قول الزركشي : فقلت عند الوقوف عليه : أين هو من تراب صهيب لما قدمناه فيه؟ بخلاف ما ذكره إذ لا أصل له». انظر : السمهودي، **وفاء الوفا**، 1/ 155.

4- ولفظه : عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال : « لما رجع رسولُ الله ﷺ من تبوك ، تلقاه رجال من المتخلّفين من المؤمنين ، فأثاروا غُبارا ، فَخَمَّرَ بعضُ من كان مع النبيِّ ﷺ أنْفَه ، فأزال رسولُ الله ﷺ اللِّثَام عن وجهه، وقال: والذي نفسي بيده: إن في غُبارها شفاء من كل داء ، قال : وأُراه ذكر : ومن الجذام والبرص». انظر : **جامع الأصول في أحاديث الرسول** لابن الأثير تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، باب فضل الأمكنة ، 9/ 6962 .

5- ينظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، 1/ 155 .

6- اخرجه البخاري في كتاب الاطعمة، باب العجوة ، رقم 5130، 5/ 2075 ومسلم في كتاب الاسرية ، باب في ادخار التمر ، رقم 2047، 3/ 1618.

7- ابن حجر: **الفتاوي الحديثية**، باب مطلب هل الأفضل طور سيناء أم أحد ؟ 1/ 448 .

قلت: زاد السيوطي في **الحاوي**: «ولأنه مذكور في القرآن باسمه في قراءة من قرأ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾[1] "[2]. قلت: هذه مزايا حصلت لأحد وهي لا تقتضي الأفضلية، وإذا أقتضتها فالطور كلم الله تعالى عليه موسى ﷺ وأقسم به الحق سبحانه قائلا: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[3]، وينظر أيضا في التفضيل بينهما وبين جبل حراء وثور لما بهما من المزايا، والله أعلم. ويقابل أحد إلى ناحية مكة عن يسار ذي الحليفة وأنت خارج من المدينة جبل عير[4] ، وهو جبل كبير يقال له : الجبل الملعون لقول النبي ﷺ: «جبل يغضنا ونبغضه على باب من أبواب النار»[5]. ومما ينبغي لزائر أحد الأكل من نباته ولو من عضاهه[6] .

وأما ذكر الآبار التي ورد أن النبي ﷺ تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ منها، فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها، فصارت مقصودة بالزيارة والإستشفاء بمائها، وذكر المساجد التي في خارج المدينة المقصودة بالزيارة المنسوبة للنبي ﷺ والأودية التي تسيل بالأمطار في المدينة وغير ذلك، فلم أتعرض له لأني لم أزر من ذلك شيئا لضيق الوقت والإشتغال بما هو أهم من ملازمة المسجد النبوي، وقد تكفل ببيان ذلك كله السيد السمهودي في تأليفه، وغيره من أصحاب الرحل ممن جاور فعاين ذلك.

والبلد الطيب اليوم كادت أن تعرى من متعاطي العلم سيما مذهب مالك وأحمد، وأمثل من رأينا بها المُسِنّ البركة الشيخ محمد بن عبد الله المالكي- به شهر- ذهبت إلى باب داره، فزرته وأخذت عنه وأجازني، ونص ما أجازني به وكتبه بخطه بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ وشرف ومجد وعظم وكرم، وبعث به إلي بعد أن سافرت من المدينة بأشهر: «الحمد لله

1- آل عمران : 153.

2- ابن حجر، **الحاوي للفتاوي** : باب العجاجة الزرنبية في السلالة الزينبية، 2/ 308 .

3- التين : 2.

4- جبل عير : جبل في المدينة : الحموي، **معجم البلدان** 4/ 73.

5- الحديث أخرجه الطبراني في **معجم الأوسط** ، كتاب فضائل الصحابة، رقم 6505 ، 6/ 315.

6- العِضَاهَةُ بالكسر : أَعْظَمُ الشجرِ أو الخَمْطُ أَو كُلُّ ذاتِ شَوْك أو ما عَظُمَ منها وطالَ كالعِضَه كعِنَبٍ والعِضَهَةِ كعِنَبَةٍ ج : عِضاهٌ وعِضُونَ وعِضَواتٌ . انظر **القاموس** ، 1/ 1613 .

الذي خص هذه الأمة *387* المحمدية بأعلى المزايا وأرفع سند، ومنّ عليهم بمبعث هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه شموس الهدى ونجوم الرشد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد ﷺ عبده ورسوله المخصوص من حسن الأخلاق بالنَّص المعتمد، ما أمَّ طالبٌ سرح هذا النبي الكريم وتضلع من بحار علمه عندما ورد، وبعد فقد أجزت الأخ في الله، والمحبوب من أجل الله مولانا الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري بجميع ما أرويه من الكتب العلمية والأحاديث النبوية، حسبما أجازني به مشايخي رحمهم الله تعالى، الذين من جملتهم والدي رحمه الله الشيخ محمد بن عبد الله المغربي، المدرس في الحرمين الشريفين، على حسب ما أجازه به مشايخه الذين من جملتهم الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي وسنداته مشهورة في مؤلفه الذي سماه **بالمنح البادية في الأسانيد العالية**. ومن جملتهم أيضا المرحوم بكرم الله تعالى الشيخ عبد السلام بن سالم البصري المكي، عن شيخه البابلي، عن أبي النجا سالم بن محمد السنهوري، عن محمد بن أحمد بن علي، عن شيخه شيخ الإسلام زكرياء، عن أبي الفضل ابن حجر، عن شيخه إبراهيم بن أحمد التنوخي، عن شيخه أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجازي، عن الحسين بن المبارك الزبيدي، عن أبي الوقت عبد الأول الشجزي الهروي، عن أبي الحسين عبد الرحمان بن محمد الداودي، عن أبي محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، عن محمد بن يوسف الفربري، عن أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى، فقد أجزت الشيخ المذكور على طريقة ما أوصاني به مشايخي رحمهم الله تعالى بلزوم تقوى الله تعالى في سائر الخلوات والجلوات، وعلى أن لا ينساني من الدعاء الصالح عندما يذكرني في الأوقات . قاله بفمه، وكتبه بقلمه، أفقر العباد إلى الله تعالى، تراب أقدام العلماء محمد بن محمد بن عبد الله المغربي، المدرس بالحرم النبوي على ساكنه أفضل الصلاة والسلام في 14 من شوال

1- الإخلاص : 3 – 4 .

سنة ثمانية وتسعين- بالمثناة- ومائة وألف (1198 هـ) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ومنهم المسن البركة الشيخ علي بن محمد بن علي الشرْواني، نسبة إلى شَرْوان[1]- بفتح الشين وسكون الراء - بلدة ببلاد العجم حسبما أخبرني بذلك، قال في **الروض المعطار** : «وشروان إحدى مدن أرمينية، قالوا : والصخرة في قول الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾[2] وهي *388* صخرة شروان [3]، والبحرمن بحر فارس والروم[4] . وقال قتادة وغيره: بحر إفريقية» [5]. وهو حنفي المذهب، قد كان أخذ العهد الناصري عن عمنا الشيخ أبي يعقوب رحمه الله تعالى، وكان هذا الشيخ هو الذي سأل عني، إذ له كبنيه الشيخ عبد الرحمان وأخوه أبو السعود كمال المحبة لدارنا ولأسلافنا، جالسته مرارا قرب المحراب النبوي القديم، وكان فيما سئل عنه بمحضري في المسجد: ما تقول في رجل دفع مالا لآخر وقفا ليبلغه إلى رجل معين من أئمة المسجد النبوي وظيفة السنة الماضية وهذه، فلما بلغ المبعوث معه المال وجد الإمام المذكور قد توفي، وترك ابنة وأخوة عصبة ماذا يفعل بالمال؟ فأجابه الشيخ بأن المال يمكن كله من ابنته . فقلت: أما حظ السنة الأولى فقد استحقه الميت بلا ريب، فللبنت نصفه، وما بقي لأخوته العصبة، وأما حظ السنة الثانية فإن هو توفي في أولها كان جميع ما ينوبها من المال لمن استحق الإمامة في موضعه، وإلا كان للأول فحسبه ولمن بعده بحسبه، فاعترضني الشيخ وقال: تعيين فلان في الرسالة دليل على إرادة التملك له فيورث الجميع عنه. فقلت: لا والله لم يعينه إلا لما اعتاده الكاتب من حياة من عين، إذ لو علم موته لبعثه لمن تولى بعده، فلم يرد علي بشيء على عادة المشارقة اليوم في النوازل الفقهية مالكية وغيرهم، وإنما يعتمدون تقريرات وظواهر، لا

1- شروان : مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه الفرس الدربنه نواحي أرمينية بناها أنو شروان فسميت باسمه ثم خففت بإسقاط شطر اسمه. انظر: الحموي، **معجم البلدان** ، 3/ 339.

2- الكهف: 62.

3- ينظر: الحموي، **معجم البلدان** ، 3/ 339.

4- وفي م . **س** : والبحر بحر جيلان : 3/ 339.

5- الحميري، **الروض**، 340.

يعتنون بمطالعة كتب الأحكام الفقهية، على أنه لو عارضني بما يخالف مذهبي في النازلة لما أمكنني إلا إلقاء السلاح لعدم معرفتي به، فما يظهر منه إلا أنه قال ذلك تفهما لا فقها منصوصا. ومرة أخرى كنت جالسا معه قرب المحراب فأقام الصلاة صبي شافعي فقلت له: سبحان الله! الأولى على مذهب الشافعي والحنفي في المؤذن والمقيم أن يكون بالغا، ومالك رحمه الله يجعل البلوغ شرطا في صحة الأذان والإقامة، وهذا مسجد رسول الله ﷺ فينبغي الاحتياط فيه، فلم يجب بشيء[1]، وكأنه رضي مني مقالتي. ولم أستجزه لأني اختبرته فلم أجد له كثير رواية.

ومنهم سيدي علي بركة الدقاق المغربي من رباط الفتح بسلا، أخذ العهد الناصري، وله محبة في دارنا، وكانت له ممارسة بالعلم، اجتمعت به في المسجد النبوي مرارا ولم أستجزه.

ومنهم الشيخ محمد بن *389* خالد بن أبي بكر الجعفري مفتي المالكية وخطيبهم بمكة ثم انتقل إلى المدينة مجاورا، وكان أيضا ممن أخذ العهد الناصري وله كمال في المحبة.

وممن اجتمعت به من المجاورين المتزوجين[2] السيد عبد الرشيد الشنكيطي المغربي، وله فينا محبة تامة، أدخلنا بيته بقرب باب النساء من المسجد، وأحسن ضيافتنا، جزي خيرا، ووقى ضيْرا.

ومنهم مولانا إبراهيم المغربي الرباطي، أدخلنا بيته برواق سيدنا عثمان بقرب المسجد، وأحسن ضيافتنا بعسل مصفى، وخبز حُوّارى، تجاه القبة النبوية ونحن بسطح الرواق، نمتع بها الأحداق، والحمام عليها في الكثرة كغوغاء الجراد خاشع خاضع لا يتحرك.

ومنهم الأستاذ النجيب سيدي محمد المهدي المغربي الحمري، وقام في خدمتنا والخروج معنا للزيارة، بلغه الله تعالى مأموله.

ومن سكان طيبة الشيخ عبد الكريم بن محمد السمان، دخلنا داره وهي في القديم فيما اشتهر عندهم دار أبي بكر الصديق قبالة باب النساء من جهة

1- في د «شيء».

2- في خ «المعروفين».

الشرق ، وسألته عن سبب انتقال دار أبي بكر إليكم؟ فقال: ورثها جدي من زوجته. فقلت: في **تاريخ السمهودي** أنها تداولتها الأملاك قبل هذا بالبيع في سالف الدهور. وفي **فتح الباري** في باب قول النبي ﷺ: «سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر» من كتاب المناقب ما حاصله: ادعى بعضهم أن الباب كناية عن الخلافة، والأمر بالسد كناية عن طلبها كأنه قال : لا يطلب أحد الخلافة إلا أبو بكر [وإليه جنح ابن حبان، وقوى بعضهم[1] بأن منزل أبي بكر][2] كان السُّنُحُ[3] من عوالي المدينة، فلا يكون له خوخة إلى المسجد وهو ضعيف لأنه لا يلزم من كون منزله كان السُّنْحُ أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد، ومنزله الذي كان بالسُّنْحِ هو منزل أصهاره من الأنصار، وقد كان له إذ ذاك زوجة أخرى وهي أسماء بنت عميس بالاتفاق، وأم رومان على القول أنها باقية يومئذ . وقد تعقب المحب الطبري[4] كلام ابن حبان بأن دار أبي بكر التي أذن له في إبقاء الخوخة فيها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد، ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم، فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان، وطلبوها منها ليوسعوا المسجد فامتنعت وقالت: كيف بطريقي إلى المسجد؟ فقيل لها: نعطيك *390* دارا أوسع منها، ونجعل لك طريقا مثلها فسلمت ورضيت»[5].

قلت: هذا يدل على أن دار أبي بكر أدخلت المسجد، وبه جزم الحافظ السيوطي في **الحاوي** وأنها في الجهة الغربية[6] . زاد السمهودي في دار القضاء

1- في **فتح الباري** «بعضهم ذلك».

2- ساقطة من د .

3- السنح : بضم السين والنون معا أو اسكان النون وآخره حاء مهملة ، اليمن والبركة وهو منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة وفيه نزل أبو بكر الصديق وبينه وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل . انظر : عياض، **مشارق الأنوار**، 2/ 233 ؛ **القاموس**، مادة « السنح» ، 1/ 288 ؛ **لسان العرب**، 2/ 491.

4- في د «المحب الصبري» .

5- ابن حجر، **فتح الباري** ، باب قول النبي ﷺ : سدوا الابواب الاباب أبي بكر. رقم 3454، 7/ 14.

6- السيوطي، **الحاوي للفتاوي**، باب حسن التسليك في حكم التشبيك، 2/ 30 .

كانت فيما بين باب السلام وباب الرحمة[1]. وفي العسقلاني على البخاري في باب الاستسقاء وفي خطبة الجمعة ما نصه : «داره التي بيعت في قضاء دين عمر بن الخطاب الذي كان أنفقه من بيت المال وكتبه على نفسه وكان ستة وثمانين ألفا، وأوصى ابنه عبد الله أن يباع منه ماله، فباع ابنه هذه الدار من معاوية . وكان يقال لها دار قضاء دين عمر، ثم طال ذلك فقيل لها دار القضاء»[2] ، هـ. وهذا كله يبطل دعوى نسبة الدار الخارجة عنه إلى أبي بكر، اللهم إلا أن تعددت له بالمدينة الدور أو ويقال أنما أدخل للمسجد بعضها، وقيل: وبقي البعض خارجه فهو اليوم المنسوب إلى أبي بكر ودليله أنه ليس بينه وبين المسجد إلا الزقاق فحسب، والله الموفق . وقد اتخذ في مواقعها مسجد على باب الدار .

وهذا الرجل – أعني الشيخ عبد الكريم – فيما يظهر لنا يقتفي آثار والده في الصلاح، وقد كان والده رحمه الله تعالى صالحا، نفعنا الله به، وقد كنت اجتمعت بولده هذا بمنى، في ضيافة بعض الأحبة بها، ثم تلاقيت به بمكة أيضا، ثم لما قفلنا راجعين[3] من حجنا سأل عنا فكان ذلك سبب دخولنا بيته المبارك، وله اهتبال بحفظ كلام القوم، وكان فيما أنشدني لابن الفارض ببيته هذا قوله: (من البسيط)

مَا بَيْنَ بَابِ الْمُنْحَنَى وَضَلاَله ضَـلَّ الْمُتَيَّـمُ وَاهْتَـدَى بضَلاَلـــه[4]

1- السمهودي، **وفاء الوفا**، 2/ 216- 217 .

2- ابن حجر، **فتح الباري**، رقم 967، 2/ 502. بتصرف .

3- في د «أجمعين».

4- البيت ساقط من ح . .

ذكر خروجنا من المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام[1]

ثم لما كان يوم الثلاثاء بعد أن اشتد النهار وأذن المصري بالرحيل، فاشتد عزمي على الجوار ونبذ العشير والقبيل، فبادرت تجاه المواجهة النبوية إلى الاستخارة مشمرا وما زادني ذلك إلا تقديم رجل وتأخير أخرى وقلت: يا رسول الله أردت منك الإذن جهرا، فلم أتمالك نفسي أن ودعت وخرجت من باب السلام قهرا، فنكصت على عقبي من غير شعور مني جبرا، ورجعت إلى باب التهجد عسى أن أجد على المفارقة صبرا، فلم أملك أن شارفت الخروج من باب الفتح، ثم كذلك فيما بين باب فاطمة وباب جبريل دهرا، حتى أقيمت الصلاة فصليت ظهرا *391* فبينما أدور بالحجرة متحيرا في جماعة من الطلبة المجاورين وهم يحضوني على الجوار ويقولون : ما قط رأينا من وقع له مثل ما وقع لك، تودع وترجع جبرا منك ما ذاك إلا أنه أمِر لك بالجلوس، فازداد تحيري. فبينما نحن كذلك إذ استقبلنا إنسان، وقد جاء من جهة المواجهة، ونحن بباب فاطمة فمد يديه وعانقني على عادة المشارقة فيمن فرحوا به، وسالت دموعه أكثر وأطم مما حل بي وقال بلسان فصيح : استودعك الله، والرجل أبيض إلى الحمرة، حسن الخلق جدا، طويل ممتلىء لحما، سألت عنه المجاورين الذين معي فلم يعرفوه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، ولعله ممن أعطي التصرف بالحجرة من أولئك الرجال .

يحكى عن بعض المشايخ قال: ذهبت إلى الحج فلما زرت قبر النبي ﷺ أخذتني حالة وقلت: يا رسول الله ما ظننت أن أصل إلى مدينتكم ثم أرجع إلى فاس. قال: فسمعت صوتا من قبل القبر الشريف يقول: إن كنتُ مخزونا في هذا القبر فمن جاء منكم فَلْيَبْقَ هاهنا، وإن كنت مع أمتي حيثما كانت فارجعوا إلى بلادكم، فرجعت إلى بلادي، هـ.

1- عند هذا العنوان انتهت النسخة «د».

وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا فرغ الحجاج من الحج وتوابعه يقوم فيهم خطيبا يقول: «يا أهل اليمن يَمَنكم، ويا أهل الشام شامَكم، ويا أهل العراق عراقكم»[1].

رجوع، فعند ذاك سكن ما بي وودَّعت النبي ﷺ، وخرجت أتأهب فلم يكن إلا أن جمعت أثاثي وركبت دابتي، ووجدت رفقائي كغالب الركب قد برزوا، وخرجت فما تلاحقت مع الرفقاء وجل الركب إلا بالجُرُف -بضمتين- على نحو فرسخ ونصف من المدينة، بلدة ذات نخيل ومياه جارية وآبار عذبة قريبة من أحد.

وفي **الروض المعطار**: «الجُرُف[2] على ثلاثة أميال من المدينة، مر به تُبّعُ في مسيره فقال: هذا جُرُف الأرض، فلزمَهُ. وقال الزبير ﷺ: الجرف على ميل من المدينة، وقيل: على فرسخ من المدينة، وهناك كان المسلمون يعسكرون إذا أرادوا الغزو. وفي حديث أنس مرفوعا: «يأتي الدجال من المدينة فيجد على كل نقب من أنقابها صنوفا من الملائكة، فيأتي سبخة الجرف فيضرب خباءه»[3]. وقال أنس: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى الجرف، فرآى في ثوبه احتلاما *392* فقال: «بلينا بالاحتلام منذ ولينا أمر المسلمين، فاغتسِل وغسل ما في ثوبه من الاحتلام، ثم صلى بعد أن طلعت الشمس»[4]. وبالجُرف مات المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان ﷺ»[5].

رجوع، وفي هذه الليلة اجتمعت أعراب حرب ومن كان في حلفهم على محاربة الركب إن لم يطلق لهم أمير الركب المصري عامر بن جويسر أميرهم وقد كان على ما تقدم، أخذه بقرب آبار علي، فامتنع المصري من

1- ينظر: الفاكهي، **أخبار مكة**، 2/ 307.

2- الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. الحموي، **معجم البلدان**، 2/ 128.

3- الحديث أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ولفظه: «عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: يجيء الدجال فيطأ الأرض إلا مكة والمدينة فيأتي المدينة فيجد بكل نقب من نقابها صفوفا من الملائكة فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه فترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل منافق ومنافقة» الرقم 13009، 3/ 191؛ ومسلم (بخلاف اللفظ)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجَسَّاسَةِ، رقم 2943، 4/ 2266

4- **مصنف عبد الرزاق**، باب الرجل يبدأ بنفسه في الكتاب، رقم 3644، 2/ 347.

5- الحميري، **الروض**...، 159.

إطلاقه وبعث لهم عشرة آلاف ريال مرتب سنة، فامتنعوا من قبولها وردوها بعد أن عُدّت لهم عدّا، وقالوا: لا نقبل شيئا إلا إن دفعت لنا مرتب أربع سنين السالفة، وقد كنتم حرمتمونا، وتزيدونا دية من قتلتم منا[1] السنين الماضية وإلا فأذنوا بحرب، فعند ذاك أجابهم : إن كانت في أيديكم طاقة فافعلوا ما بدا لكم فنحن ذاهبون على الدرب السلطاني إلى ينبع النخل وهي وسط بلادكم فاجمعوا أمركم، وكل ذلك منه مكر وحيلة نظير ما فعل معهم برابغ، فبعث مناديا ينادي بذلك، فلما طلع الفجر أذن بالرحيل، بعد ترتيب الجيوش وأخذ الدرب الشامي وترك بلادهم . وهذا الدرب أوسع من الدرب المصري إلا أن معه صعوبة من كثرة الغبار والوحل وشدة البرد وقلة الماء، والساكن الذي ينتفع معه الحاج ببيع أو شراء، ولا يجتمع مع المصري إلا بالأزلم[2] .

وسبب ما تقرر من العطاء بين المصري والأعراب الذين في طريقه إلى الحجاز- على ما حكى لنا- أن بعض ملوك مصر بعث ابنة له حاجة، فنهبها الأعراب وقالوا لها : إن رجعت فقولي لأبيك يأتي لقتالنا على الخيل البُلْق[3] . فلما وصلت مصر امتنعت من رؤية أبيها، فتقدم إليها في ذلك فقالت: لا ألقاه حتى يأخذ لي بالثأر من أعراب الحجاز، فقد عيروني وقالوا: قولي لأبيك يأتي لقتالنا على الخيل البُلق ! فعند ذاك تأهب والدها بجمع ما في إيالته من الخيل البلق وغيرها، وذهب لقتالهم من مصر إلى مكة ثم إلى المدينة حتى أفناهم وأجلاهم، فرجع إلى مصر فاجتمع إليه العلماء والرؤساء وقالوا له: يُخشى علينا وعلى من ورائنا من قطع الحج بسبب *393* ما فعلت مع أعراب الحجاز، وذلك أنهم إن تقووا منعونا فتكون أنت قد سننت سنة سيئة يكون عليك وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. فقال الملك : ما الرأي؟ أشيروا علي . فأشاروا عليه بحل هذه العقدة بالدينار والدرهم، فعند ذاك رتب لكل قبيلة عددا معلوما لكل سنة، إذا مر الركب يذهب به إليهم، وكتب ذاك

1- في ج وخ «هذه».

2- في ح وج وخ « الألزم» وهو خطأ.

3- البَلَقُ : سواد وبياض وكذا البُلْقةُ بالضم يقال فرس أبْلقُ وفرس بَلْقاءُ. أنظر : **مختار الصحاح**، مادة « ب ل ق»، 1/ 26 ؛ **لسان العرب**، 10/ 25 .

في ديوان، فعند ذاك اصطلحوا مع الأعراب . ثم أن السنين تطاولت وكثر الجور والطمع، فترى الأعراب يقولون: الذي لنا من الدفتر القديم كذا، ويقول المصريون الآن أقل من ذلك، وبالعكس ترى الرجل من الأعراب يأتي إلى طالب من أصحاب الأمير فيعطيه شيئا ويكتب أن له أو لأبيه أو جده كذا على حسب شهوته، فيكثر اللغط والخصومات حتى أفضى بهم ذاك إلى القتال، فلا حول ولا قوة إلا بالله . وأخشى إن طال هذا الأمر أن يتعطل الحج. وللركب الشامي مع أعراب دربه اليوم بعض ذلك أيضا.

رجوع، وسرنا في حفظ الله تعالى وأمانه فما تعرض لنا ببركة رسوله ﷺ سارق ولا حامَ حول ساحتنا طارق، فمررنا بثنية الوداع، وبوادي القُرى[1]، وفيه يقول الصفدي:(من السريع)

مَرَرْنَا بِوَادِ الْقُرَى ضَحْوَةً ... وَدُسْنَا بِهِ الْمَهْمَهَ الأَغْبَرَا

فَأَمْطَرنَا اللهُ ذَاكَ النَّهَارَ ... وَكَانَ قِرَانَا بِوَادِ الْقُرَى

قال: وتعجبت لما به من آثار القرون الماضية، وما نالوا في أوطان أوطانهم من العيشة الراضية، وكان ذلك عبرة لمن تفكر وآية لمن تذكر .

قال في **الروض المعطار**: «وادي القرى من أعمال المدينة، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل والبساتين، وبها أناس من ولد جعفر بن أبي طالب وهم الغالبون عليها. ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهلها ليالي، ثم انصرف راجعا إلى المدينة . قال أبو هريرة ﷺ : «نزلنا مع غروب الشمس فبينما غلام[2] لرسول الله ﷺ يضع رحله أتاه سَهْمٌ غرب فقتله، فقال الناس: هنيئا له الجنة . فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفس محمد بيده

1- وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة، كثير القرى. الحموي، **معجم البلدان**، 5/ 345.

2- هو مدعم أهداه رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ يوم خيبر.

أن الشَّمْلَةَ الآن لتحترق عليه في النار كأن غلها من فيء خيبر» إلخ الحديث [1] "[2] .

وسرنا في كلاءة خالقنا حتى نزلنا - وقد بقي من الليل ساعتان - آبار نصيف ذات المياه العذبة، وفيها *394* المالح إلى الغاية وتعذب بالأمطار إن نزلت بها، وليس بها عمارة ولا سوق . وبها سمعت أعرابيا يقول لحاج : أبْغني بردعة بعير أشترها، من « بَغَا الشيءَ يبْغو: نَظَرَ إليه كَيْفَ هو، أو من بَغَيْتُهُ أبْغيه بُغاءً: طَلَبْتُه . وأبْغَاه الشيءَ: طَلَبَهُ لي[3] كبَغَاهُ إيَّاهُ أَعَانَهُ على طَلَبِه»[4] . والمعنى على الأول انظرلي بردعة أشترها، وعلى الثاني : أطلبها لي، كذا في **القاموس**.

ثم منها وقد مضى من النهار أربع ساعات، ونزلنا الفحلتين[5] وقد مضى من الليل خمس ساعات، وبها قلعة صغيرة حصينة يسكنها الحرس وآبار عذبة، يخزن بها الشامي على عادة بنادر درب المصري. وقد حدثت البنادر بالدرب الشامي في هذه الأزمان، وقبل ذلك لم تكن فيه، إلا أن عادة من يحرس هذه البنادر الشامية لا يتركون من مرًّ بهم من الحجاج المصريين ولا من غيرهم أن يدخلها، وإنما يُسَوّقونَ خارجها .

ثم منها وقد مضى من النهار بعده أربع ساعات، ونزلنا هَدِيَّة مع طلوع الشمس، قلعة ذات آبار وفسقية، وماؤها ليس بذلك إلا بقرب الحفر أو المطر، قامت بها سوق مع أعراب عنزة. ثم منها وقد مضى من نهار ثمان ساعات، ونزلنا بين الجديد، العذب الماء، العديم النظير، وبه قلعة، وقد مضى من النهار بعده أربع ساعات، ونزل علينا به مطر غزير وبرد شديد، ثم منه وقد مضى من نهارنا تسع ساعات ومررنا ليلا ببئر الزمرد وهي عذبة، وفي موضعها قلعة وفسقية ولازال البناؤون بها. وسرنا حتى نزلنا حفائر الغنم بعد انتصاف النهار، وبه قلعة في سبخة كبيرة ذات آبار كثيرة متنوعة بالعذب وغيره .

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الايمان والنذور ، باب هل يدخل في الايمان والقدور الارض، رقم 6329، 6/ 2466، بخلاف في اللفظ؛ **صحيح ابن حبان** ، كتاب السير ، رقم 4852 ، 11/ 189؛ **سنن أبي داود** ، اول كتاب الجهاد باب في تعظيم الغلول ، رقم 2711، 3/ 68 ؛ **موطأ مالك** ، كتاب الجهاد باب ما جاء في الغلول ، رقم 980، 2/ 459.

2- الحميري، **الروض**. . . ، 602 .

3- في **القاموس** «له» .

4- **القاموس** : 1/ 1631.

5- موضع قريب إالى المدينة . انظر: **معجم البلدان** ، 4/ 237 .

وما قط رأينا مثل هذه الرحلة في درب الحجاز طولا وعرضا حتى مات بها خلق كثير من الجوع والبرد، وقد غلت الأسعار حتى وصل علف الدابة المثقال من الذهب. ومن هنا افترقنا مع الدرب الشامي، تركناه يُمْنتنا ورجعنا ذات اليسار في درب يقال له درب القزاز، وهو فرق ما بين دربي المصري والشامي اليوم، وأما في سالف الدهور فكان الشامي يأتي على غزة ثم منها إلى عقبة أيلة على الدرب المصري، ثم تُرِكَ هذا الطريق من أجل طوله وكثرة دورانه .

ثم ارتحلنا من حفائر الغنم وقد مضى من النهار بعده ساعة، ونزلنا *395* البلاطة وهي فضاء بين جبال و صخور، لا ماء به ولا كلأ، بعد مضي ست ساعات من النهار بعده ، ثم منها وقد مضى من نهارنا عشر ساعات ونزلنا بَدَا، موضع كثير شجر الدوم والغيلان، وبه بئر قليلة الماء لم تغن شيئا، وآثار عمارة قديمة من بنيان وآبار متهدمة، وقد مضى من النهار بعده ست ساعات؛ وهذه المرحلة واللتان قبلها أيضا هلك بها من الآدميين والدواب الكثير . ثم منه في الساعة الأولى من الليل بعده، ونزلنا القزاز في الثامنة من ليلنا، وهو معطن في فسحة من الرمل، وبه كثرة الدوم الطويل، وآباره عذبة إلا أن ماءها ضنين، حتى وقعت عليه المقاتلة ثم لم يغن شيئا . ومن لطف الله تعالى أن ضرب الناس يمينا وشمالا حتى وقعوا على غدير من المطر في جبل قريب من منزل الركب أروى الركب بأجمعه، وحملوا منه ما فيه الكفاية .

ثم منه وقد مضى من النهار ثمان ساعات في رمل مديد، ولم ننزل الأزلم[1] مجتمع هذا الدرب والدرب السلطاني الذي تركناه إلا في الساعة السادسة من النهار بعده. ووقع الغلاء في الركب مع أن أعراب الحويطات وبعض أعراب نواحي ينبع سرقونا، ولم يغنوا شيئا. وقد وقع بنو سعد على طائفة تأخرت عن الركب، فأخذوا منهم الإبل وما عليها وسلبوهم وجرحوهم .

ثم منه لسلمى ثم للمويلح، وبالقرب منه قطع أمير الركب المصري رؤوس محاربين تعرضوا للركب ورفعهم على رماح على قارعة الطريق، وأقمنا به يومين . وقد غلت الأسعار حتى صار صاع النبي ﷺ بريال كبير، ثم

1- في ج وح و خ «الألزم» . وهو خطأ

لما رأى الأمير أيوب - أعني أمير الركب المصري - ذلك نادى في الناس : ألا أن من أراد الفول والشعير فهذه هي خمسة آصع نبوية بريال حتى أنفد جل ما عنده، لعلمه أن الملاقاة تصله لمغارة شعيب حسبما جاءه الخبر بذلك، فنفس إذ ذاك على الناس ما نزل بهم، فرخصت الأسعار بعض الرخص، وكان والله حليما شفيقا مدبرا عاقلا .

ثم منه لعيون القصب، ثم للمغاير، وأقمنا بها يومين إذ وصلت الملاقاة من مصر ومع صاحبها جيش سلطاني، ففرح الناس غاية، وأخلوا البنادق والمدافع. ثم منها للشرفة وبها استهل لنا هلال صفر، وفيه توفي على ظهر جمله الفقيه سيدي عبد الكريم بن قريش*396* التطواني، ودفن بها رحمه الله تعالى. ثم منها لظهر الحمار ثم لبندر العقبة، وأصابتنا في هذه الأيام الثلاثة سموم باردة سيما في واد القرى ضرت الناطق والصامت. وسوقنا بهذا البندر - على العادة- الأعراب وأهل غزة من أرض الشام، فوقع في الركب رخاء كثير.

ثم منه للسطح وبه سئلت عمن اشترى ناقة، وقبل أن يدفع للمشتري الثمن أخذها والي المظالم من المشتري ظنا منه أنها للبائع من الأعراب المحاربين؟ وعمن أودع غيره أحمال قهوة فأخذها ظالم وهي تحت يد المدّع عنده ؟ فأجبت بأن المصيبة في الأولى من المشتري إذ البيع لازم بالعقد، ومن ظلم لا يظلم، وليس من تمام البيع أن يحوز المشتري ما اشترى ولا أن يدفع للبائع الثمن، والمصيبة أيضا بالثانية من رب المتاع وهو المودِع - بالكسر- ما لم يعلم المودع عنده أن الظالم أراد أن يأخذها ظلما، وأمكنه إخفاؤها فلم يفعل أو يقدر بجاهه أن يدفع الظالم فلم يفعل فإنه هو الضامن لها كما تقرر في الفقه المالكي.

ثم منه لبئر الصعاليك، ويقال لهذا المكان العلائي، ثم منه للنخيل، وسوقنا به أهل غزة من أهل الشام أيضا على عادتهم، وبه مات أناس وبهائم بالبرد، وآخرون بالمرض . ثم منه التيه، ثم لعجرود وبه تلقى أهل مصر الركب بكل المحتاج، فحصل رخاء عظيم لم نر مثله في الحجاز ذهابا وإيابا؛ ومن هنا يأتي المكاسون من مصر لعد أحمال الحجاج فيكتبون في دفترما لكل واحد من الأحمال، ثم إذا وصلوا إلى مصر أدوا الخراج . وقد رأيت في سنتنا هذه نصرانيا من الإفرنج يحسن العربية والكتابة بها والحساب، وهو الذي تولى

عد ذلك على المسلمين، قطع الله تعالى دابر هؤلاء الظلمة الفجرة، وحسم مادة هذه العادة المذمومة، ولقد كابد الناس معهم على هذا العطاء مشقة عظيمة، حتى فتشوا الأحمال، والمحيط من ورائهم الكبير المتعال لا إله غيره .

ثم منه للدار الحمراء، ويقول لها أهل مصر في الرجعة، الدار الخضراء لإخضرارها بما يصلهم إليها من أهاليهم بمصر من أنواع الأطعمة والطبخ والفواكه والحلويات والأشربة من سكر ونحوه، ولعل البوصيري في **الهمزية** رآى ذلك فعبر عنها بالخضراء[1] ، والله أعلم .

ثم منها ضحوة الخميس *397* الثاني عشر من صفر للقاهرة – حرسها الله تعالى – وتلقى أهلها الركب بقضهم وقضيضهم مشاة وركبانا، كهولا وشيوخا وصبيانا، فلو رأيت الفلاحين بالبركة وفيما بينها وبين مصر منهم الباكي لموت قريبه، والمستبشر لقدومه، لقضيت العجب، فهم على كثرتهم في سفرهم إلى الحج لا يعبأون ببعث الرسائل إلى مصر، ولا أهاليهم ببعثها إليهم، ومن لم يظهر يوم دخول الحاج عُلِمَ أنه قد مات، لأن منهم من يذهب بإبله حاجا، ومنهم من يذهب صعلوكا يستخدم نفسه، ومنهم من يذهب عالة على الناس، حتى يموت جوعا أو عطشا لا يُدرى في أي واد، فسبحان خالقهم ورازقهم . وكان ممن خرج لملاقاتنا الكثير مما خلفنا وراءنا من حجاجنا المغاربة أهل السفن، وكانوا زهاء ألفين، إذ لم يصل غالبهم مصر إلا بعد ذهاب الركاب بأيام، فاستحال الحج عادة في حقهم فخرجوا لملاقاتنا، وكان ممن خرج لملاقاتنا أخونا الفقيه سيدي أحمد الهلالي السوسي وأدخلنا على باب الفتوح وقال تفاؤلا : لأنك خرجت للحرمين من باب النصر، وتدخل من باب الفتوح .

خـــاتمـــة :

من مصر إلى المويلح بلاد الحُويطات ومعازة، والأعلوين، وبني عقبة، ومن المويلح إلى أكره بلاد بْلى، ومن أكره إلى ينبع بلاد جهينة، ومن الينبع إلى عسفان بل إلى غرب الطائف بلاد حرب، هكذا أخبرنا الثقاة ممن كثر ترداده من الحجاج للحرمين، وكذا أخبرنا به أعراب تلك البلاد، وإليه سبحانه المرجع والمآب، لا إله غيره ولا خير إلا خيره، هـ.

1- البوصيري، **متن الهمزية** : 23 .

ذكر دخولنا مصر حفظها الله تعالى

وفي ضحوة الخميس الثاني عشر من صفر، دخلنا القاهرة ذات العجائب والغرائب الباهرة، وذهب بنا أبو العباس الهلالي المذكور إلى منزله بوكالة الصنادقين بقرب الأزهر، وبالغ في ضيافتنا، وكان منذ لقيته أن أتانا بماء حار للإغتسال، قال: أردت أن تغسل وسخ طريق الحرمين في بيتي، ففعلت، وألبسنا ثيابا نظيفة. وقد كنا كاتبناه من العقبة مع من تقدم برسائل الحجاج بتهيئة منزل لنا بالكراء قرب الأزهر فهيأه، فلما استكملنا لديه ليلتين واسترحنا بعض الإستراحة، ذهبت معه للمنزل المهيأ على باب الأزهر، فإذا بأهله يهدمون منه طرفا فتنكلت من ذلك، وجعلنا *398* نطلب المنزل قريبا أو بعيدا من الأزهر يليق بنا، فلم نجد لضيق مصر مع سعتها من أهلها، فضلا عن الوارد عليها، ثم إن الله أرشد الأحب الحاج عبد السلام الفاسي، من أولاد الحلو وقد كان حج معنا وهو قاطن بأولاده بمصر، وكانت لي معه عشرة، وكان والله ذا نية صالحة، فجاءني وأنا مع أخينا السوسي المذكور بالمشهد الحسيني وقال : أقسم عليك بالله تعالى وعزمت عليك بسيدنا الحسين أن تذهب معي إلى بيتي، فإني اتخذت لك بيتا واسعا متفردا به، وهو بعيد عن المحارم، وله ميضاءة ومرحاضا، ولبهيمتك مكان تربط فيه، لله تعالى ومحبة في الأشياخ، وهو مع ذلك لا يملك ذات الدور وإنما هو مكتر. فأجبته إلى ما طلب، فنقلت كتبي وأثاث سفري ودابتي، ورحلت إلى داره، وهي دار السلطان الغوري بقرب الغورية غير بعيدة من الأزهر، فوجدته قد فرش لي بيتا فسيحا بزرابي ولحاف ومخاد، واستعد لي ما أحتاج من أواني الشرب ومياه النيل، وجعل يمونني بعد امتناعي من ذلك مرارا فيما بين اليوم والليلة، وأحسن ضيافتي مدة إقامتي بمصر ما نيف على شهرين، ورأينا المنة لله تعالى فعند ذلك أنشد لسان الحال: (من الطويل)

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوى   كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالإِيَابِ الْمُسَافِرُ[1]

1- البيت نسبه الجاحظ، لمضرس الأسدي، انظر : **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 3/ 40.

ولما اطمأنت بنا الدار، وطاب المسكن والقرار، زرنا القرافتين: الكبرى والصغرى مرارا، فمرة صحبة الأخ الهلالي السوسي المذكور. ثم توفي رحمه الله تعالى، وذلك أنه ذات جمعة على عادتهم في زيارة القرافتين، عقدت معه الذهاب صبيحتها وهو ملازم لها، فجاءني ولم يتأت لي الخروج لشغل، فذهب فلما جاء بالعشى مرض نحو أربعة أيام، وجئته في منزله ووجدته – حسبما أظن– لا بأس عنده، وجعلت أخفف عنه وأقول لابأس عندك، كما هو سنة العائد للمريض . فقال: يا فلان لا بد لي من الموت في هذا المرض لرؤيا رأيتها – لم يذكرها لي – فكان من قدر الله تعالى أن مات بالغد من ذلك اليوم، ولم أشعر به إلا بالليل، كنت عند بعض الأحبة في ضيافته، فإذا به أوصى أن أصلي عليه، ولما أحضر بالأزهر قيل إنه أوصى وعين من يصلي عليه، فجعل الناس ينتظرون ويبحثون عني، فلم يجدوني فلما خشي الإصفرار صُلي عليه – ولم أشعر أنا بموته *399* إلا بالليل– رحمه الله تعالى من رجل .

وقد كانت لي به صحبة في صغرنا في زاويتنا، ثم سافرإلى فاس، ثم لما رحلت إليها وجدته بها يقرأ العلم، فازدادت صحبتنا، ثم سافر حاجا، وجال فيما بين الشام والعراق والحرمين واسطنبول ومصر، واستقر أخيرا متزوجا بمصر، حتى اجتمعت به في سفري هذا رحمه الله تعالى. ودفن بالقرافة الصغرى، وزرناه بالغد من يوم دفنه رحمه الله تعالى، وألحقنا به مسلمين آمين. وكانت وفاته بالخامس والعشرين من صفر بعد قفولنا من الحرمين بنحو ثلاثة عشر يوما . وكان والله شابا، نشأ في عبادة الله، ولقد أتينا على ميتته على فجأة : يغتر ابن آدم بقضاء أوطاره، ويطمئن لذلك في ليلته ونهاره، فلم يجد ذكر الموت على بابه، وهذه غفلة المحجوبين وتجارة المنهمكين. قال الشاعر: (من الكامل)

يَسْعَى ابْنُ آدَمَ فِي قَضَاءِ أَوْطَارِهِ وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ عَلَى آثَارِهِ
يَزْهُو وَيَمْرَحُ وَالْمَنَايَا حَوْلَهُ كَالْكَبْشِ يَلْعَبُ فِي يَدِي جَزَارِهِ
وَيْحَ ابْنِ آدَمَ كَيْفَ يَسْكُنُ قَلْبُهُ أَوْ يَطْمَئِنّ بِلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ

مَـنْ شَاءَ يَنْظُرُ كَيْفَ تُصْبِحُ دَارُهُ مِـنْ بَعْـدِهِ فَلْيَعْـتَـبِـرْ بِـتُجَّـارِهِ

وكان من المعنيين بالزيارة .

ووقف معنا في الزيارة مرارا، الشريف مولانا إدريس أبو المهار- به عرف- وكان يشار إليه بالخير والصلاح، وهو تلمساني الأصل، سكن فاس مدة، ثم ارتحل إلى مصر ديدنه الحج والزيارة، فلا ترى وليا بمصر داخلها و خارجها إلا ويعرف قبره، وربما علم من أخبار الصالحين الكثير. وله تشبث بطريق القوم؛ عقدنا معه عقد الأخوة في الله تعالى، وزار أيضا معنا القرافتين مرارا، فقدروه في الآثار أنها بقعة من الجنة، ولذلك مرعمر بن الخطاب وجعلها مقبرة للمسلمين قائلا: لا أعلم تربة الجنة إلا مقابر المسلمين[1]. فبالقرافة الكبرى الإمام الليث بن سعد، وبساحته حارة وجامع تصلى فيه الجمعة، وبقربه مشهد الإمام الشافعي في قبة لا يرى الرائي مثلها، وبجانبه جامع تصلى فيه الجمعة، وبقربه ميضاءة كبيرة، وبجانب مسجده قبر شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري، والإمام البكري المفسر، ومع الشافعي في قبته يليه عبد الله بن عبد الحكم بن أعنين بن ليث بن رافع المصري، أبو محمد المالكي، ومحمد بن عبد الله بن الحكم، وعبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم، وعبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم، وبعض ملوك مصر. وممن دفن في ضريح الشافعي *400* أبو إسحاق المروزي إبراهيم بن أحمد والإمام المزني.

وبالقرافة الكبرى أيضا عبد الرحمان بن القاسم، وأشهب وأصبغ. وذكر القشيري في **الرسالة**: أن من وقف بين قبري ابن القاسم وأشهب وقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] مائة مرة، ثم استقبل القبلة ودعا استجيب له، فالدعاء عندهما مستجاب مجرب[3] . ومعهما أصبغ، ويحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي، راوي **الموطأ**، والإمام أبو عمر، وعثمان بن مرزوق، وكان

1- ينظر: **كنز العمال** رقم14227، 5/ 281 .

2- الإخلاص :1.

3- **لم أقف عليه في الرسالة القشيرية.**

من أهل الطريق يصلي بمكة والمدينة والقدس في ليلة ويرجع لمصر، وسيدي يحيى الشاوي، والقاضي سيدي محمد المدعو الصغير الورزازي بلدا، الكل في موضع واحد شبه مسجد. وبالقرافة الكبرى أيضا عز الدين بن عبد السلام مع الحافظ المنذري في قبة قرب القرافي ابن دقيق العيد، وابن سيد الناس عمر بن رسلان، و ابن سراج الدين البلقيني، والجلال السيوطي، وابن الحاج صاحب **المدخل**، قريب من ابن أبي جمرة، وسيدي محمد العياشي الرحماني.

ومنهم الشاطبي صاحب **الحرز**، وذو النون المصري، ومعه في قبته على ما قيل: ربيعة العدوية، وأبو الحسن على الطيار، وضريحهم مشهور بإجابة الدعاء. وقد وجدت على رخام في يسار محراب مسجدهم: (من الكامل)

يَـا لِلرِّجَالِ الْعِظَامِ هَـوْلُ مُصِيبَةٍ ... حَلَّتْ فَمَـا لِمُصَابِهَا مِــنْ حَائِــلِ
وَأَنَّ الطَّرِيـحَ قَدْ تَزَايَــدَ بَغْيُــهُ ... وَالْحَقّ أَصْبَـحَ سَاطِعـًا لِلْبَاطِــلِ

وفي جانب القبة من خارج، قبر عثمان الذيلمي **شارح الكنز في فقه الحنفية**، وفي خارجها ذو العقلين، وبقربه شكران المغربي، ثم ابن حجر العسقلاني، وعليه حوش على صورة قبة غير مسقف، قيل: ولا يقبل السقف أبدا، فكلما سقف عليه انهدم، وبقربه قبر يقال لإمام القوم، ثم الفخر الفاسي، ثم سالم الأقطع وبقربه يحيى الشبيه ووالده القاسم وبنته أم كلثوم، وأخوه وأمه بنو الباقر، وسيدي محمد المترج بالنور، أخو السيدة نفيسة وراء النوى مع واحد من تلامذة مالك في قبة، ثم ابن جماعة ثم الحَمَّار. ويحكى أنه كان من الفلاحين الذين يكرون الحمر، كان يأتي الرجل فيقول : إلى أين تريد من البلاد؟ فيقول له: إلى المدينة المنورة مثلا، فيأخذ منه ما قل من الدراهم، ويخرج به خارج القاهرة غير بعيد فيوصله لحينه إلى المدينة، ثم يرجع هذا دأبه.

ومنهم *401*ابن الفارض، وفيه قيل: لم يبق صيبُ مزنة إلا وقد وجبت زيارته على ابن الفارض

(من الكامل)

لاَ غَرْوَ أَنْ يسْقَــى تَرَاهُ وَقَبْرُهُ ... بَاقٍ لِيَوْمِ الْعَرْضِ تَحْتَ الْعَـارِضِ
وقال خبر بالقَرَافَــةِ تَحْتَ ذَيْـلِ ... الْعَارِضِ وَقُلْ السَّلاَمُ يَابْنَ الفَارِضِ
أَبْرَزْت في نَظْـمِ السّلوُ ك عَجَائِباً ... وَكَشَفْتَ عَنْ سرِ مَصُونِ غَامِـضِ
وَشَرِبْتَ مِنْ بَحْرِ الْحَقِيقَةِ والـولا ... فَرَوَيْتَ مِنْ بَحْرٍ مُحِيطٍ فَائِــضِ

عليه قبة صغيرة يعلوها البهاء والنور، وبإزائها مسجد مفروش معظم يدخل إليها منه، وأبو السعد بن أبي الأشاير وابن عطاء الله، وأبو السعود الجارحي وهو بمصر العتيق قرب القرافة الكبرى. ومنهم سيدي يوسف العجمي العارف، ومنهم السادات الوفائيون سيدي علي وسيدي محمد وولده، وعليهم مشهد عظيم بناه السلطان عبد الحميد العثماني.

ومن المؤكد ما يزار بالقرافة جبل المُقَطَّم[1]، ووردت فيه أحاديث وآثار ذكرها صاحب **المحاضرة**[2] وغيره. ويدعى بالجبل الجيوشي [وفيه مغارة جمع الأولياء تنسب إلى عبد الله المغاوري الإسكندري، وبقربها أبو عبد الله الجيوشي][3] القرشي، وشاهين وولده البارقي، وأسفل من الجبل المذكور ضريح الشيخ علي الأجهوري والقرطبي والشعبي والأسباط أولاد يوسف عليه السلام فيما يحكى، وبنى عليهم كل ذلك متجاور. وبقربهم السادات

1- المقطم : بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها وميم وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم.

2- جاء فيه : قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، قال: سأل المقوقس عمرو ابن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو عن ذلك وقال: أكتب في ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تزدرع ولا يستنبط بها ماء، ولا ينتفع بها. فسأله فقال: إنا لنجد صفتها في الكتب؛ إن فيها غراس الجنة. فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين، ولا تبعه بشيء. فكان أول من دفن فيها رجل من المعافر، يقال له عامر، فقيل : عمرت.

حدثنا هانئ بن المتوكل، عن ابن لهيعة، أن المقوقس قال لعمرو: إنا لنجد في كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة، فكتب بقوله إلى عمر ابن الخطاب، فقال: صدق، فاجعلها مقبرةً للمسلمين». السيوطي، **حسن المحاضرة**: 1/ 212 - 125 . انظر كذلك: **كنز العمال** رقم14227، 5/ 281 .

3- ساقط من ح.

الحنفية، وسيدي عمر البسطامي، وهناك مسجد الشناوي الذي غسل فيه الإمام الشافعي بعد موته، والشيخ عيسى القادري والشيخ الرديني والقارىء والمستمع، قيل : ويستجاب الدعاء بينهما. ولأهل مصر حكايات فيهما، والشيخ الطوسي وأبو العباس البصيري والشيخ أبو طرطور والشيخ البلقني، والكمال بن الهمام الحنفي أبو المواهب التونسي بن اللبان عقبة بن عامر الصحابي الجهني في قبة، قيل: ومعه عمرو بن العاص، وإزاء قبتهم مسجد صغير. ووجدت مكتوبا هناك: (من الكامل)

وَلَقَدْ جَلَسْنَا مَعَ الأَجْنـدِ هَاهَنَا ... وَسَوْفَ يَجْلِسُ بَعْدَنَا الأَحْبَابُ
وَيُبِيدُنَا صَرْفُ الزَّمَانِ بِقَدْرِهِ ... وَيَلُمّنَا بَعْدَ النَّعِيمِ شَرَابُ

ثم موضع يقال له جيوش أبي علي، فيه جمع من التابعين والصحابة، قيل : وفيهم عمرو بن العاص. وفي القرافة الكبرى مشهد السادات الثعالبة، ومشهد السادات البكريين في روضة حسنة، وبجانبهما السادات الكلبيون، والإمام التبريزي والإمام وكيع[1] أحد شيوخ الإمام الشافعي في قبة صغيرة بقرب الشافعي، وفيه يقول *402* : (من الوافر)

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُوُرِ اللهِ لاَ يُهْدَى لِعَاصِي[2]

وبها أيضا القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي ولا بناء عليه، ثم الطحاوي الحنفي في قبة، ثم عائشة بنت جعفرالصادق في قبة في جامع، ثم التتائي شارح **مختصر خليل**، بباب القرافة مما يلي القاهرة، وفي داخل مصر بقرب القرافة يليها مشهد السيدة نفيسة العلوية بنت الأمير حسن بن زيد بن

1- وكيع بن الجراح ين مليح الرؤاسي، أبو سفيان ورواس بطن من قيس عيلان ، حافظ للحديث، ثيت ، كان محدث العراق في عصره، ولد بالكوفة سنة 129 هـ / 746 م ، وكان أبوه ناظر على بيت المال فيها، وتفقه وحفظ الحديث، واشتهر، وأراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة ، فامتنع ورعا. له كتب منها: تفسير القرآن، والسنن، والمعرفة والتاريخ، والزهد .قال الإمام أحمد: ما رأيت أحدا أوعى منه وأحفظ، وكيع إمام المسلمين . توفي راجعا من الحج سنة 197 هـ/ 812 م. ترجم له: أبو الفرج، **صفوة الصفوة** دار المعرفة، 3/ 170 ؛ السيوطي، **طبقات الحفاظ**، 1/ 133.

2- **ديوان الشافعي**، جمعه وشرحه ورتبه محمد عبد الرحيم ، اشراف مكتبة البحوت والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1420/ 2000 ، ص 262 - 263.

علي بن الحسين، دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق، وعليها مسجد وعمارة. ولأهل مصر بزيارتها - كالإمام الشافعي - كمال الاعتناء. وفي داخله أيضا السيدة رقية بنت علي بن أبي طالب، ثم السيدة سكينة بنت الحسين، ثم زينب بنت علي زين العابدين. ثم عائشة بنت جعفر الصادق بباب القرافة، ثم رأس زين العابدين، وبقية جسده بالبقيع من الحسن بن علي على قول، ثم زيد الأبلج، ثم الحسن الأنور وأخوه محمد الأنور، قال الشعراني: «ينبغي زيارة هؤلاء كلهم صلة لرحم رسول الله ﷺ ولو في السنة مرتين». ثم أبو محمد الحنفي، ولأهل مصر به اهتبال، وبني عليه مسجد، وفي قنطرة السبع داخل مصر مما يلي مصر العتيق، قبر عبد الله بن جزء الصحابي، وأهل مصر يقولون هو قبر أبي سعيد الخدري، وقد تقدم أنه بالمدينة المنورة، وبداخلها أيضا الشيخ الخضيري من أبناء الزبير.

وأما القرافة الصغرى ففيها من المتأخرين العجب العجاب: منهم الشيخ عبد الله المنافي في قبة صغيرة، وبجانبه يليه تلميذه خليل المالكي في قبة رائقة في شباك من العود من عمل المغاربة المجاورين بمصر تنويها به، وقد كان قبل هذه الأزمان لا بناء عليه أصلا، وبجانبه يليه الناصر اللقاني بل تربة الأئمة اللقانيين عدا الشيخ إبراهيم، فقد توفي ببدر العقبة من طريق الحجاز كما مر، والشيخ الصباغ الإسكندري شيخ شيوخنا، والشيخ البليدي، وسيدي عبد الله الكنيسي، وسيدي أحمد الحاج السوسي البركي مقدم جدنا ابن ناصر. وبها سيدي عبد الوهاب العفيفي، والنور التلمساني، والشيخ عبد الباقي ووالده الشيخ يوسف وابنه سيدي *403* محمد - الزرقانيون- في قبر، أي في قطيعة على عادتهم، والشيخ البساطي البلقني إلى الخطيب الشويني، وعطية الجوهري محشي **تفسير الجلال في أسفار البابلي**، والشيخ سالم السنهوري، والشيخ الخرشي ومولاه وكان عالما واسمه الشيخ عنبر، وبقربهم النشرتي. وأما الشبرختي فقد غرق في النيل ورفع فدفن بالريف لنواحي سيدي أحمد البدوي، والشيخ إبراهيم الفيومي، والشيخ الدميري،

والشيخ علي الصعيدي، والشيخ سلطان، والشيخ محمد الجعني في قبة الشيخ مصطفى البكري، وتلميذه الشيخ محمود الكردي في قبة.

وبجانب القرافة الصغرى مما يلي القاهرة، قبر السلطان العدل المعدود من الأولياء الأتقياء قايتباي رحمه الله، وعلى قبره بناء عظيم، وحوله حومة عامرة إلى الآن يسكنها الفقراء، وعند رأس القبر حجر مبنى عليه فيه أثر قدمين، شاع عند الناس أنهما قدما النبي ﷺ، وهناك حجر آخر فيه أثر قدم أخرى يقال أنها قدم الخليل، والناس يزورونهما، ويذكرون أنهما من الذخائر التي ظفر بها قايتباي فجعلت عند رأسه رجاء بركتهما، و لم نر من نص على أنه ظفر بشيء من هذه الآثار، بل نص المحدثون على أن ما استفاض من أن رجله ﷺ غاصت في الحجر لا أصل له، ولم يذكر أحد أن أثر الخليل موجود في غير حجر المقام.

وبالمدينة ومكة والقدس آثار بعض أعضاء النبي ﷺ من قدم ومرفق وأصابع، والله أعلم بصحة ذلك. ولكن لم يزل الناس منذ أعصر يتبركون بها من العلماء وغيرهم فتزار بالنية، قاله أبو سالم[1]. قلت: وانظر قوله: قايتباي أنه عدل من الأولياء، إلا أن يقال: إن هذه معاصي صدرت منه والولي غير معصوم. على أن شيخنا أحمد الدردير ربما صرح بلعنه لذلك، وقد زرته بالنية وتبركت بما عند رأسه من الحجر، وقد أنكر ابن حجر الهيتمي في **أجوبته** أيضا ثبوت نحو هذه الآثار[2].

رجوع، وبباب الشعرية داخل القاهرة الإمام الشعراني، وعليه قبة ومسجد السادات المناويين، وبالحسينية عبد الله بن مسلمة القعنبي تلميذ الإمام مالك، وسيدي علي الخواص *404*، وبباب النصر التقي السبكي وعليه قبة جديدة لم يكمل بناؤها. ووقع في **شرح المواهب اللدنية** وهو لسيدي محمد بن عبد الباقي الزرقاني، أن التقي السبكي توفي بجزيرة الفيل على شاطيء النيل، هـ. ولعله حمل بعد فدفن بباب النصر، والله أعلم. وبقربه الإمام

1- العياشي، **الرحلة** : 1/ 131.

2- ابن حجر، **الفتاوي الحديثية**، باب مطلب في أنه حفر الخندق 1/ 409.

المحلي وعليه قبة صغيرة، وكم بها من قصائد في مدحه، وبداخل القاهرة السادات الرفاعيون، وبها قبر الإمام الشنواني في قبة، وبقربه جعفر، قيل: هو الصادق، وهو في الصنادقيين، وبقرب الأزهر مشهد الإمامين العيني والقسطلاني شارحي البخاري، في حومة تدعى العينية سميت بذلك لدفن العيني بها، وعليهما قبة ومسجد.

وهؤلاء العلماء والأولياء زرتهم كلهم على التعيين، وبقي بمصر مالا يعلمه إلا الله تعالى من قبور الأولياء والعلماء والصالحين والتابعين، وإنما اقتصرنا على البعض مما لا بد من ذكره من الأعيان، وقد أمسكنا عن الكثير وإن زرناه على التعيين خشية الإطالة، نسأل الله تعالى ببركتهم أن يصلح ظواهرنا وبواطننا، ويكفينا هموم دنيانا وأخرانا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

فصل في ذكر من لقيته بمصر بعد قفولي من الحرمين الشريفين من العلماء ومن شافهته بها من الفضلاء

منهم وهو أولاهم بالتقديم لقول النبي ﷺ: «قدموا قريشا ولا تقدموها»[1]، السيد الشريف ذو القدر المنيف، الحافظ البارع الجامع الناظم، شيخنا أبو الفيض محمد المرتضى بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي العراقي الأصل، الزبيدي الحنفي، نزيل مصر وخادم علم الحديث بها، تقبل الله عمله وبلغه أمله ونفعنا وإياه بخدمة الحديث في القديم والحديث. ذهبت إليه لداره فاجتمعت به فرأيت رجلا لا تكاد العين ترى أحسن منه خلقا وخلقا، وأما السخاء و الكرم فحدث عن البحر ولا حرج، ترددت إليه بقصد الأخذ مرارا كثيرة، فألفيته عديم النظير في كمال الإطلاع على الأحاديث النبوية، وتراجم الرجال، وله مع ذلك كمال الإطلاع والحفظ للغة والأنساب؛ قد طار صيته في هذه البلاد المشرقية حتى بالعراق والشام واليمن والحرمين، بل وبإفريقية المغرب تونس وطرابلس*405* وغيرهما، تأتي إليه الأسئلة الحديثية وغيرها في أقطار الأرض حتى أن السلطان العثماني عبد الحميد- نصره الله تعالى- بعث إليه بذهب كثير، وأمره بالقدوم إليه فاعتذرإليه وجلس ولم يأخذ مما أرسل إليه شيئا.

كان من حسن سيرته، فيمن زاره لعلم أو غيره، أن لا يفترق معه إلا بدوق معنوي كمسألة علمية يفيده بها، أو حسي كطعام نفيس أو يجمع له بينهما، ولم نمر بمصر على من كان على حالته هذه إلا النادر كما يأتي. جمع الله له من دواوين الحديث والتفسير واللغة وغيرها من أشتات الدواوين في سائر العلوم ما لم يجمعه فيما شاهدنا من علماء عصرنا شرقا أوغربا، ولا شيخنا الحافظ إدريس العراقي بفاس رحمه الله تعالى، تراه يشتري وينسخ

1- الحديث أخرجه الشافعي في **مسنده** من كتاب الأشربة و فضائل قريش، 1/ 278؛ و في **كنز العمال** كتاب الأذكار، رقم 37996، 14/ 37، و في **فتح الباري**، باب قول الله تعالى و اذكر في الكتاب رقم: 3305، ج 6/ 530.

دائما بالأجرة ويستعير من الأقطار البعيدة، ويوتى إليه منها بالكتب هدية، ومع ذلك فهو يحبس ويعطي أيضا غيره . فلقد حدثني أنه حبس على مسجده بحارته بمصر في سوق «لالا» بقرب الشيخ أبي محمود الحنفي، ما ينيف على الثلاثمائة مجلد، ولقد أتحفني بعدة كتب تقبل الله منه وشكر سعيه . منها **سنن الإمام الشافعي** وهي رواية الحافظ أبي جعفر الطحاوي عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني عن مؤلفها الإمام الشافعي .

ومنها السفر الثاني من **غاية الإحكام في أحاديث الأحكام** لمحب الدين الطبري، أوله كتاب في الصلاة وهو كتاب كبير في الحديث مدحه الحافظ ابن حجر في أوائل شرحه على البخاري، والتاج السبكي في **طبقاته** قائلا: «له كتاب الأحكام الكبرى، كتاب نفيس دل على فضل كبير»[1] ، هـ.

ولعل الشيخ أبا العباس أحمد بن مَحمد بن ناصر لما اشترى بمصر، سنة حجته الأخيرة، أسفارا ثلاثة منه لم يظفر بغيرها حتى منَّ الله تعالى بهذا الرابع، وقد كان على يدي ثلاثة أجزاء بالخزانة الناصرية وكنت أتمنى إكماله، فلما حضرت بين يدي صاحب الترجمة المذكور، وأذن لي في مطالعة ما لديه، فكان مما رأيت ظاهرا بين الكتب هذا المجلد، فقلت: سبحان الله عندنا من هذا الكتاب أجزاء ثلاثة ولم تكمل وعليها خط الحافظ ابن حجر، فقام بنفسه ﷺ وأخذه من بين الكتب وقال لي: هذا رابع ثلاثة، وكتب *406* لي عليه الملكية لنفسه، فوجدت عليه خط ابن حجر والكاتب له، ولما عندنا من إخوانه واحد فقضيت من ذلك العجب.

غـريـبة: كنت قبل حجي هذا بسنين رأيت في النوم الحافظ ابن حجر العسقلاني وأنا ممتثل بين يديه على هيئة الجالس للصلاة لأخذ العلم، وقد خضنا في مسائل كثيرة حديثية لا استحضر منها شيئا غير أنه رحمه الله تعالى ورضي عنه، نسب لي حديثا للذهبي في تلخيصه **للمستدرك** ولكتاب **الأحكام** هذا، فقلت له في النوم : يا سيدي الكتابان عندنا في الخزانة الناصرية، وعليهما بعض طرر وتوقيفات بخطك، وعلى خصوص الأول منهما ملكيتك بخطك

1- السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى** ، ترجمة أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري ، 5/ 9 .

وملكية سبطك يوسف من بعدك بخطه، فقال لي بلغة المشارقة: أي نعم. فلما انقضى المجلس أخذ بيدي فصعد بي في سلم من عود إلى مكان عال، وفيه امرأة لا أدري أحرة هي أم أمة وهي مستجات عني بثوب، وبين يديها قدر تتناول طعاما، فجلست مع الشيخ إلى ناحية من ذلك المكان حتى قدمت لنا المرأة خبزا حُوارى، ومرقا فيه لحم ودجاج فأكلنا جميعا، فلما شرعنا في غسل أيدينا وفي مسحها بالمنديل- الشك مني- استيقظت وما ذاك إن شاء الله إلا خير نلقاه وشر نتوقاه. والرؤيا تسر ولا تغر، وفقنا الله إلى ما فيه رضاه، ورزقنا الحظ الوافر من تقواه.

رجوع، ومما أتحفني به أيضا **لب الإعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب** للإمام الشيخ عبد الوهاب الشعراني، وهو كتاب صغير، وأتحفني بكثير من صغار مؤلفاته وبعضها بخطه، وأعارني الكثير مما استغربته من الدواوين مما لم أكن رأيته ولا سمعت به أو سمعت به ولم أره، وكثيرا ما كنت أجالسه في جماعة حتى تأتيه هدية فإما أن يشاركنا فيها، وإما أن يفرقها إن احتملت التفريق، وإما أن يخص بها بعض الحاضرين . فكان مما جاءه هدية – ونحن لديه – شمع كثير، وبرنس جيد جديد غريب الصنعة، هدية من بعض العلماء بتونس، فأنالني جل الشمع وقال : خذه إعانة على المطالعة مدة إقامتك لدينا، وألبسني البرنس هبة . فلما رآني تنكلت من ذلك وقلت : أنا أولى بأن أهاديك وأسدي إليك *407*، وكان لي وفرٌ وطاقة، فقال: نيتي في ذلك أن يكون على نمط خرقة الصوفية، فعند ذاك طابت نفسي بلبسه .

ومن غريب الكتب التي عنده: أجزاء من **تاريخ البخاري الكبير**، وأجزاء كثيرة من **طبقات** الإمام ابن سعد كاتب الواقدي[1] وهي في ثلاثين جزءً ولم تكتمل عنده. وحدثني الثقة بمصر أنها عند غيره كاملة، بل راودني على شرائها، ولم أجد لها طاقة وصنيعه [أنه ترجم][2] المهاجرين والأنصار والتابعين إلى زمانه على طبقاتهم مهتما بأنسابهم، يترجم الرجل فيحيط بنسب أبيه وأمه

1- أبى عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري المصري المعروف بكاتب الواقدي المتوفى سنة 230 ثلاثين ومائتين .

2- بياض في ح .

وأخوالهم [وأعمامهم][1] وأولادهم وأمهاتهم، فهي أوسع طبقة رأيتها يترجم للرجل ويذكر ما له من حديث أو أثر أو حكاية، وننقل منها تبركا مع ما في [المنقول][2] من مزيد حكم ومواعظ.

ففي ترجمة سعيد بن عامر بأسانيده قال: أمّر عمرُ سعيداً بن عامر على جيش فقال عمر: اللهم إني لم أسلط سعيدًا بن عامر[على أشعارهم][3] ولا على أبشارهم، ولكن أمرته أن يجاهد بهم عدوهم، ويعدل فيهم ويقسم بينهم[4]، فقال سعيد بن عامر لعمر: يا أمير المومنين اخش الله في الناس ولا تخش الناس في الله، أحب للمسلمين ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، والزم الأمر ذا الحجة يعينك الله على أمرك ويكفيك ما أهمك، وأقم وجهك وقضاءك [لمن][5] استرعاك الله لقريب المسلمين وبعيدهم، ولا تقض في الأمر قضاءين فيختلف عليك [رأيك وتنزع عن الحق وخض الغمرات إلى الحق][6] حيث علمته، ولا تخف في الله لومة لائم فإن خير القول ما تبعه الفعل، فقال عمر: ومن يطيق هذا يا سعيد بن عامر قال: من وضع الله في عنقه ما وضع في عنقك من أمر المسلمين، إنما عليك أن تقول فيتبع قولك، زاد في رواية بعدها، وتترك فتكون لك حجة[7]، فقال عمر: إنا سنجعل لك رزقا، قال: لقد اعطيت ما يكفيني دونه- يعني عطاءه- وما أنا بمزداد من مال المسلمين شيئا، قال: فكان إذا خرج عطاؤه نظر إلى قوت أهله من طعامهم وكسوتهم وما يصلحهم فيعزله وينظر إلى بقيته فيتصدق به فيقول أهله: أين بقية المال ؟ فيقول أقرضته . فقال: فأتاه نفر من قومه فقالوا: إن لأهلك عليك حقا، وإن لأصهارك عليك حقا، وإن لقومك عليك حقا، فقال: ما أستأثر عليهم، إن يدي لمع *408* أيديهم، وما أنا بطالب أو ملتمس رضى

1- نفسه .
2- نفسه .
3- نفسه.
4- في **تاريخ دمشق** « فيأهم بينهم»، 21/ 158.
5- بياض في ح .
6- نفسه .
7- كلمة مطموسة في ح .

أحد من الناس بطلبي الحور العين لو طلعت منهن واحدة لأشرقت الأرض كما تشرق الشمس، وما أنا بمتخلف عن العنق[1] الأول - يعني السلف الأول - بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجيء فقراء المسلمين يدفون[2] كما يدف الحمام [فيقال لهم: قفوا للحساب فيقولون والله ما تركنا شيئا نحاسب به][3] فيقول الله تعالى: صدق عبادي فيدخلون الجنة قبل الناس سبعين عاما»[4] "[5].

وروى أيضا ابن سعد في ترجمة عبد الله بن مغفل بسنده إلى ابنه محمد قال: «أري عبد الله أن الساعة قد قامت، وأن الناس حشروا فجعلوا يعرضون على مكان عليه عارض، قد علمت في منامي أنه من جاوز ذلك المكان نجا، فذهبت أدنو منه لأنجو، فقال لي قائل: وراءك، أتريد أن تنجو وعندك ما عندك كلا والله، فرجعت فاستيقظت من الفزع. قال: فأيقظ أهله وعنده تلك الساعة عيبة مملوءة دنانير فقال: يا فلانة أريني تلك العيبة قبحها الله وقبح ما فيها. وعرف رؤياه فما أصبح حتى قسمها ولم يدع منه دينارا. قال: فلما كان المرض الذي مات فيه أوصى أهله فقال لهم: لا يلني إلا أصحابي ولا يصلي علي بن زياد، فتولى أبو برزة الأسلمي[6] وعائذ بن عمرو[7] في نفر من الصحابة بالبصرة غسله وتكفينه، فما زادوا على أن طووا يدي قمصانهم ودسوا قمصانهم في حجزهم ثم غسلوه وكفنوه، ثم لم يزيدوا على أن توضأوا

1- يقال جاء القوم عنقا عنقا أي طوائف. انظر: **لسان العرب**، 10/ 273؛ **تهذيب الأسماء واللغات**، 3/ 228 مادة «عنق».

2- في **المعجم الكبير** للطبراني «يزفون».

3- ساقط من ح.

4 ـ الحديث في **المعجم الكبير** للطبراني، كتاب خطبة الكتاب، من اسمه سعيد، رقم 5508، 6/ 58. ولفظه: عن سعيد بن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في فقراء المسلمين يزفون كما يزف الحمام فيقال لهم قفوا للحساب فيقولون والله ما تركنا شيئا نحاسب به فيقول الله عز وجل صدق عبادي فيدخلون الجنة قبل الناس بسبعين عاما»؛ وفي **كنز العمال**، كتاب الزكاة وفيه فضائل السخاء، رقم 16617/ 6/ 203؛ **الترغيب والترهيب**، كتاب التوبة والزهد، رقم 4817، 4/ 64

5- لم أقف على القصة في **طبقات ابن سعد** ولعل المؤلف وقع له خلط. انظرها في **تاريخ دمشق**: 21/ 146 - 159.

6- نضلة بن عائذ وقيل بن عبيد على الأصح. انظر ترجمته في **سير أعلام النبلاء**، 3/ 40 - 41.

7 - هو عائذ بن عمرو بن هلال المزني أبو هبيرة البصري. ترجمته في **تهذيب الكمال** 9/ 389؛ **وأسد الغابة** 3 - / 43؛ **صفوة الصفوة**، 1/ 680.

فلما أخرجوه من داره إذا بن زياد في موكبه بالباب فقيل له إنه أوصى أن لا تصلي عليه، قال: فسار معه حتى بلغ حد البيضاء فمال إلى البيضاء وتركه»[1].

ومن غريب ما وجدته عند صاحب الترجمة من الكتب[**أمالي القالي**][2] واسمه إسماعيل بن القاسم البغدادي[3] تلميذ ابن دريد، وهي على نهج ما في خزائننا من **دلائل السرقسطي** ولم تكمل لدينا، وننقل من **الأمالي** تبركا قال: أنشدنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي[4] رحمه الله تعالى: (من الطويل)

وَلَمَّــا رَأَتْ أَنْ قَــدْ عَزَمْتُ وَرَاعها   الفِرَاقُ بَكَتْ والإِلْفُ يَبْكِي مِنَ البَيْنِ
لَعَمْــرِي لَئِنْ أَبْكَتْ في سِحرِ عَيْنِهَا   قَــدْ طَالَمَا أَبْكِي بِإِعْراضِهَــا عَينِـي

ومنها، **شرح تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد** للشيخ عبد الرحيم العمراني وأكمله ولده في سفرين ضخمين لا يأتي الزمان بمثله منها، واستنباطا وابحاثا وفوائد، أنشد في ترجمة أبي سليمان الخطاب[5]: (من الطويل)

*409*وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَان في شقَّةِ النَّوَى   وَلَكِنَّهَا وَاللهِ فِــي عَــدَمِ الشَّكْــل
وَإِنِّي غَرِيــبٌ بَيْنَ بُسْــتِ وَأَهْلِهَــــا   وَإِنْ كَانَ فِيهَا أُسْرَتِي وَبِهَا أَهْـلِي

والتقريب المذكور- أعني الأصل - موجود عندنا في خزانتنا . وأنشد أيضا في الشرح للإمام الشافعي في مناظرة بينه وبين غيره : (من الطويل)

1 ـ لم أقف على القصة في **طبقات ابن سعد** . انظر القصة في : **تاريخ دمشق**، ج37/ 448 ؛ **صفوة الصفوة** في ترجمة عبد الله بن مغفل أبو سعيد (ض)، وكان من البكائين ومن الذين بعثهم عمر (ض) الى البصرة يفقهونهم، رقم 1، 93/ 680 ؛ **سيرة اعلام النبلاء** . رقم 2، 99/ 485.

2- بياض في ح .

3- أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي البغدادي ولد سنة 288 هـ وتوفي سنة 356هـ. انظر ترجمته في مقدمة كتاب **الأمالي**، منشورات دار الآفاق، بيروت.

4- أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه بن البرزبادي الفارسي النحوي، ولد سنة 258 هـ و توفي سنة 347 هـ . انظر ترجمته في **سير أعلام النبلاء** : 15/ 331 - 332.

5- أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب السبتي الشافعي، فقيه ومحدث، توفي سنة 388هـ له تصانيف منها : **أعلام السنن في شرح البخاري**، ترجم له في: **طبقات الشافعية**، 2/ 218 - 222؛ **الحطة في ذكر الصحاح الستة** لأبي الطيب لسيد صديق القنوجي، دار الكتب العلمية الطبعة1 ، بيروت، 1405/ 1، 1985/ 184 .

مَتى مَا تقُدْ[1] بالبَاطِل الحَقَّ يَأْبَهُ وَإنْ قدْتَ بالحَقِّ الرَّواسي تُنْقَدِ
إذا مَا أتَيْتَ الأَمْرَ مِنْ غيْرِ بَابِهِ ضَلَلْتَ وَإنْ تَقْصُدِ إلَى البَابِ تَهْتَدِ[2]

قال: فقربنا منه الرجل فقبل يده . وفي الشرح المذكور عن المزني، قال: أنشده الشافعي[3]: (من الكامل)

اللَّيْلُ شَيَّبَ والنَّهَارُ كلاهُمَا رَأسي لِكَثْرَةِ مَا تَدُورُ رَحَاهُمَا
يَتَنَاهَبَانِ لُحُومَنَا وَدِمَاءَنَا وَنُفُوسَنَا جَهْرًا وَنَحْنُ نَرَاهُمَا[4]

وفيه عن ابن مندة[5] : حُدِّثْتُ عن الربيع[6] قال : سمعت أشهب بن عبد العزيز وهو ساجد يدعو على الشافعي، يقول: اللهم أمت الشافعي ولا تذهب علم مالك. فبلغ ذلك الشافعي، فأنشد يقول: (من الطويل)

تَمَنَّى رِجَالٌ أنْ أمُوتَ وَإنْ أمُتْ فَتلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فِيهَا بأَوْحَدِ
فَقُلْ للَّذي يَبْغي خِلاَفَ الذي مَضَى تَهَيَّأْ لأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَانَ قَدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَوْ يَنْفَعُ العِلْمُ عَالِمٌ[7] لَئنْ متُّ مَا الدَّاعي عَلَيَّ بِمُخَلَّدِ[8]

1- تقد : من القيد . تنقد : ينميز جيدها من رديئها .

2- **ديوان الشافعي**، جمعه وشرحه ورتبه محمد عبد الرحيم اشراف مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1420/ 2000 ، ص 203 .

3- م. س ص 349 .

4 ـ ورد هذا البيت في **ديوان الشافعي** بهذا اللفظ:
يَتَنَاهَبَانِ لُحُومَنَا وَدِمَاءَنَا نَهْبًا عَلانيةً وَنَحْنُ نَرَاهُمَا.

5- أبوعبد الله محمد بن يحي بن مندة، العبدي، مؤرخ، من حفاظ الحديث الثقاة، من أهل أصبهان، و«مندة» : لقب جده واسمه إبراهيم بن الوليد. توفي سنة 301هـ/ 914 م. انظر : **تذكرة الحفاظ**، 2/ 276 ؛ **وفيات الأعيان** لابن خلكان دار الثقافة، بيروت، 1/ 487 . **الأعلام** للزركلي، دار العلم للملايين الطبعة السادسة، 1984 م 7/ 135 .

6- الربيع : هو الربيع بن سلمان بن عبد الجبار ، أبو محمد المرادي ، الفقيه المصري ، المؤذن صاحب الشافعي وراوي كتبه ، قال له الشافعي : لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك . توفي بمصر سنة 270هـ وهو أخر من روى عن الشافعي. ترجمته في **وفيات الأعيان**، 1/ 183 ؛ **الأعلام**، 1/ 333؛ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال** لجمال الدين أبي الحجاج يوسف المازني، إشراف د سهيل زكار، دار الفكر، بيروت سنة 1993 م، 2/ 292 .

7- في **ديوان الشافعي** « عندهم».

8- **ديوان الشافعي** : 194 - 196.

قال: وقد مات الشافعي ولم يتأخر بعده أشهب إلا خمسة عشر يوما[1] ، رحمهما الله تعالى، هـ .

وانظر هذا، فإن الذي في التواريخ أن ابن عبد الحكم هو الذي سمع أشهب يدعو في سجوده بذلك ولعل القضية متعددة، أو الدعاء متعدد، فسمعه كل من الربيع وابن عبد الحكم . والبيتان الأخيران لطرفة بن العبد، وإنما تمثل بهما الإمام الشافعي. على أن في صحة هذه الحكاية نظرا لجلالة أشهب تأبى ما نقل عنه، سيما وقد تقرر عند الكافة أنه لا أجل في أصحاب مالك من الشافعي كما في ابن الصلاح وغيره، ولا أجل في أصحاب مالك بعد ابن القاسم، قيل وابن وهب من أشهب مع مزيد ثقابة ذهنه ووفور داعيته واتساع عارضته. (من السريع)

خَرَجْتُ مِنْ شَيءٍ إِلَى غَيْرِهِ وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ كَذا يُذْكَرُ

كنت أتكلم مع شيخنا البخاري الشامي بموضع نزوله بوكالة الملا الجمالية – أيام مقامي بمصر – وستأتي إن شاء الله تعالى ترجمته، حتى ذكرنا الشافعي وأحمد رضي الله عنهما، وأن الأول أجل أصحاب مالك، والثاني أجل أصحاب الشافعي، قال: هذا كلام الناس . وظهر لي أن هذا *410* الكلام، إنما صدرمن قائله من بعد ذهاب أكابر أصحاب مالك، وأكابر أصحاب الشافعي؛ وتميز كل من الشافعي وأحمد بمذهبيهما، ولا يعنون أن الشافعي أحفظ وأثقف حتى من ابن وهب، ومعن بن عيسى الفزار، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، ومحمد بن يوسف الفريابي، وابن القاسم في فروع الفقه، وإنما يعنون أجل أصحاب مالك الذين تميزوا عنه بعد الأخذ عنه بمذهب مستقل هو الشافعي . وأجل أصحاب الشافعي بعد الأخذ والتمييز بمذهب وهو أحمد بن حنبل. فقلت: غير ظاهر، والله أعلم .

أما ابن حنبل فهو إمام الأئمة وحافظ الدنيا على الإطلاق بلا منازع، شهد لذلك **مسنده**، وترجمته في غير ما طبقة. فقد سئل كم عدد المروى من

---

1 ـ قيل بشهر وقيل بثمانية عشر يوما . انظر: عبد الله اليافعي، **مرآة الجنان وعد اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417/ 1997 ، 2/ 22.

الأحاديث؟ فقال: اثنا عشر مائة ألف حديث فيما بين صحيح وسقيم، فقيل: ومن يحفظها قال أنا. قال: وهذا الفتى لأبي زرعة الرازي إمامه، يحفظ منها الثلثين.

وأما الإمام الشافعي فكان مالك يجله ويعظمه ويقر له بالفطنة والذكاء، فقال الشيخ البخاري من هنا تفهم أنه جلله لكونه قرشيا. ولمزيد فهم، فلا يلزم منه أنه أعلى حفظا وضبطا إذ لم يكن بذلك فيهما، فسلم لي البحث في ابن حنبل ولم يسلم لي في الشافعي، ويوشك أن يكون الحق معه فيه.

ونظير هذا الحديث شجون أن شيخنا الإمام أبا عبد الله بن سودة الفاسي - أطال الله بقاءه - لما قفل من حجه في أوائل الثمانين، طُلِبَ منه تدريس الموطأ لمالك بالأزهر، فاجتمع لديه جل علماء الأزهر، فكان في مبدإ افتتاح الكتاب ذكر تراجم الأئمة الأربعة، وقال في الشافعي: إنه ليس بحافظ، فأنكر عليه ذلك من حضره من أئمة الشافعية حتى انقطع عنه بذلك بعضهم. ثم لما اجتمع الشيخ ابن سودة مع بعض المنقطعين لامه على الإنقطاع عنه، فأبدى سببه من قوله أن الشافعي ليس بحافظ، فقال: ليس قصدي ما تفهمون وإنما القصد أنه غير حافظ على طريقة أرباب المصطلح من أن الرجل لا يقال فيه حافظ إلا بعد أن يحفظ ما يزيد على مائة ألف حديث بأسانيدها وعللها وتراجم رجالها، ولسنا نرى في ترجمة الإمام الشافعي هذا الحفظ ولا له مؤلف كبير ينحو نحو **مسند** أحمد بن حنبل **وصحيحي** البخاري ومسلم وأضرابهم من الحفاظ. ثم إن الإمام ابن سودة - من صلاحه وحسن اعتقاده - لم يطمئن لذلك ولا وقف عنده، بل ذهب *411* مع الشيخ اللبان رحمه الله - حسبما حدثني بذلك- إلى ضريح الإمام الشافعي بالقرافة وتعلق بشباك قبره والتزمه وهو يبكي ويستغفر الله تعالى من مقالته تلك، وإن كانت على الصواب. وكان لسان حاله ينشد: (من البسيط)

إِنَّ السَّلامَةَ مِـنْ سَلْمَى وَجَارَتِهَا — أَنْ لا تَمُـرَّ عَـلَى حَـالٍ بِوَادِيهَـا
لا تَسْلُكَـنَّ طَرِيقًا لَسْـتَ تَعْرِفُهَــا — بِلاَ دَلِيلٍ فَتَهْـوَى فِـي مَهَاوِيهَــا

رجوع، ومن غريب ما وقفت عليه لدى صاحب الترجمة من الكتب: **طبقات** عماد الدين بن كثير، صاحب **البداية والنهاية والتفسير** وهما في

خزانتنا، والطبقة المذكورة على نمط **طبقة** التاج السبكي في خصوص فقهاء الشافعية. وعلى هذه النسخة إجازة من مؤلفها لبعض تلامذته، وهي في مجلد ضخم من الحجم الكبير. ولما فرغ من تراجم الرجال وأسمائهم ذيلها بالكنى، ثم زاد زيادات سماها **كتاب التتميم** وهو كتاب نفيس.

قال في ترجمة الشافعي، وبها بدأ: إذا قال الشافعي في كتبه، أخبرنا الثقة عن أبي ذئب فهو ابن أبي الفديك[1]، وإذا قال أخبرنا الثقة عن الليث بن سعد فهو يحيى بن حسان، وإذا قال أخبرنا الثقة عن الوليد بن كثير فهو أبو أسامة، فإذا قال أخبرنا الثقة عن الأوزاعي فهو عمرو بن أبي سلمة، وإذا قال أخبرنا الثقة عن ابن جريج فهو مسلم بن خالد الزنجي، وإذا قال أخبرنا الثقة عن صالح مولى التوأمة فهو إبراهيم بن يحيى[2].

قال ابن كثير: «أخرج للشافعي أصحاب السنن الأربعة وذكره البخاري في موضعين من صحيحه أحدهما: «في الزكاة، وقال مالك وابن إدريس: الرِّكاز دِفْنُ الجاهلية في قليله وكثيره الخُمُس، وليس المعدن بركاز»[3]. الثاني، قوله في البيوع: «وقال ابن إدريس العَرِيَّةُ لا تكون إلا بالكيل من التمر يدا بيد، لا تكون بالجزاف، ومما يقويه قول سهل بن أبي حَثْمَةَ بالأَوْسُقِ المُوَسَّقَةِ»[4]، هـ.

قلت: إنما لم يخرج له الشيخان لنزول إسناده عندهما، لأنهما أدركا شيوخه، وطلب العلو في الإسناد سُنَّة كما في مصطلح الحديث وإلا فجلالته وإمامته لا تخفى. وانظر جزم ابن كثير بأن ابن إدريس في موضعين من البخاري لمقارنة ابن إدريس بمالك في تعليق الزكاة، سيما ومذهبه ما ذكر، على أني وقفت على أسئلة وردت من مكة - شرفها الله تعالى- لتقي الدين العراقي منها: وأجاب أن البخاري ومسلم لم يسمعا من *412* الإمام الشافعي. أما مسلم فلم يدركه أصلا، وأما البخاري فأدركه وكان صغيرا. ثم أطال الكلام في ذلك فحرره.

1- في كتاب **الأم والرسالة** للشافعي «فديك».

2- ينظر كتاب **الأم** للشافعي، 1/ 289؛ و **الرسالة**، 1/ 73.

3 - **صحيح البخاري**، كتاب الزكاة باب في الركاز الخمس، 2/ 545.

4- **صحيح البخاري**، كتاب البيوع باب تفسير العرايا، 2/ 764.

ثم ذكر صاحب الطبقة فيها زهاء مائتي مسألة فقهية انفرد بها الشافعي عن الأئمة الثلاثة، فسودها مرتبة على أبواب الفقه. وذكر في ترجمة أحمد بن حنبل أنه جمع تفسيرا احتوى على نحو مائة ألف حديث وعشرين ألف[1]. وقال في ترجمة الربيع بن سليمان المرادي المصري المؤذن بجامع الفسطاط بمصر، صاحب الشافعي، من شعره : (من المنسرح)

صَبْرًا جَميلاً مَا أَسْرَعَ الفَرَجَا مَنْ صَدَقَ اللهَ في الأُمُور نَجَـا
مَنْ خَشيَّ اللهَ لَمْ يَنَـلْـهُ أَذَى وَمَـنْ رَجَا اللهَ كَانَ حَيْثُ رَجَـا[2]

وأنشد في ترجمة ابن جرير الطبري لأبي سعيد بن الأعرابي قوله : (من الوافر)

حَـدَثٌ مُفْظِـعٌ وَخَطْـبٌ جَلَـلُ دَقَّ في مِثْلِـه اصْطِبَارُ الصَّبُـورِ
قَامَ نَاعِـي العُلُوم أجْمعَ لَـمَّـا قَـامَ نَـاعِي مُحَمَّـدِ بْنِ جَرِيـرِ[3]

وأنشد في ترجمة أبي سليمان الخطاب: (من الطويل)

فَسَامِحْ ولا تَسْتَوْفِ حَقَّـكَ كلَّـه وأَبْقِ فَلَـمْ يَسْتَـوْفِ قَـطُ كَرِيـمُ[4]

قلت: ودليله من كتاب الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ الآية[5].

غـريبـة : ترجم ابن كثير في **طبقاته** هذه لأبي عمر بن عبد البر المالكي، قال: ولا شك أنه مالكي المذهب . والحامل على ايراده مع الشافعية قول أبي عبد الله الحميدي: وكان يميل في الفقه إلى مذهب الشافعية. ومن جملة ميله تصنيفه في الجهر بالبسملة وانتصاره لذلك.

قلت: ويا عجبا من غيرة الشافعية على من رأوه حافظا في مذهب غيرهم فهذا هو السبكي ترجم لابن عبد الحكم وابن دقيق العيد وغيرهم من المالكية

1- **طبقات الشافعية الكبرى** للسبكي ترجمة الإمام ابن حنبل ، 1/ 202.
2 ـ م . س : 1/ 260؛ **ديوان الشافعي** : 174 . .
3- السبكي، **طبقات**. . . ، 2/ 138. .
4 ـ البيت نسب له في **طبقات الشافعية** : 2/ 219 ؛و **مرآة الجنان**، 2/ 328 . .
5 ـ التحريم 3.

في **طبقات الشافعية**[1]؛ بل ترجموا للمجتهدين الذين لم يتمذهبوا إلا بالحديث كبعض أرباب الكتب الستة، وابن خزيمة وأضرابهم .

وقال ابن كثير في ترجمة علي بن الحسين الخلعي[2] نسبة لبيع الخلع، يحكى أنه كان يحكم بين الجن فأبطأوا عليه قدر جمعة ثم أتوه وقالوا: كان في بيتك شيء من الأترج، ونحن لا ندخل مكانا هو- أي الأترج- فيه»[3] ، هـ. قال شيخنا المرتضى صاحب الترجمة: هو منسوبا لبيع الخلع للملوك. وقبره الآن بالقرافة موسى لمن به جن.

ومما استغربته لديه من الكتب، شرح العلامة أحمد بن محمد الأنصاري الشافعي **للجامع الصغير***413* بخطه في خمسة عشر مجلدا من الكبير، وهو من أحسن الشروح وأجمعها، ومنها **الذيل على تاريخ بغداد** للحافظ محب الدين محمد بن محمود بن الحسن بن النجار الحنبلي، وغير ذلك مما تكفلت بذكره إجازته لنا حسبما يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى وفيها ذكر أشياخه .

ومنها، تأليف في مجلد رباعي نفيس[4] لأبي عبد الله محمد بن الربيع بن سليمان بن داود الجيزي، غريب في بابه، يذكر فيه خصوص من دخل معه من الصحابة، ويروى في كل ترجمة ما رواه المصريون عن صاحبها من حديث أو آثار أو حكاية بعد ذلك عدا . قلت: وإياه اعتمد الحافظ السيوطي في **محاضرته** لما تعرض لذكر: «من دخل مصر من الصحابة»[5] ، وزاد عليه زيادات.

1- السبكي، **طبقات**. . .، 6/ 2

2- علي بن الحسن بن الحسين بن محمد القاضي أبو الحسن الخلعي، موصلي الأصل مصري الدار، ولد بمصر في أول سنة 405 هـ وتوفي سنة 492 هـ . انظر ترجمته في : السبكي، **طبقات الشافعية**، 3/ 296 – 297. .

3 - م . س، 3/ 297. .

4 - اسم الكتاب: **دار السحابة فمن دخل مصر من الصحابة** : انظر : السيوطي، **حسن المحاضرة** : 1/ 148 .

5 - م . س .

وأول ما سمعته من صاحب الترجمة ﷺ أول ما اجتمعت به: حديث الأوقي[1] ، وبيتا القيراطي[2] في ذلك ، وحديث سلمة بن الأكوع ، أول ثلاثيات البخاري ، وأمر من حضر معنا السماع ، وهو الشيخ علي بن عبد البر الحسني الشافعي الونائي أن يكتب في ذلك . ونص ما كتب بعد البسملة والحمدلة: قرأ مسند عصره وحافظ دهره أبو الفيض محمد مرتضى الحسني الحنفي حديث الرحمة، وبيتي القيراطي، وحديث سلمة بن الأكوع من **صحيح البخاري**، على العمدة الفاضل سيدي محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي المغربي المالكي المقدادي . أما حديث الرحمة، فقد أخذه عن عمر بن أحمد بن عقيل الحسني، وهو أول حديث سمعه منه من حفظه، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، وهو أول، حدثنا محمد بن عبد العزيز المتولي، وهو أول، حدثنا أبو الخير عمر الرشيدي، وهو أول، حدثنا زكرياء الأنصاري، وهو أول، حدثنا ابن حجر، وهو أول، حدثنا عبد الرحيم بن يوسف العراقي، وهو أول، حدثنا أبو الفتح محمد بن محمد الميداوي، وهو أول، حدثنا أبو الفرج عبد اللطيف بن عبد المنعم، وهو أول، حدثنا أبو الفرج ابن الجوزي، وهو أول، حدثنا أبو سعيد النيسابوري، وهو أول، حدثنا والدي أبو صالح، وهو أول، حدثنا أبو طاهر النيسابوري، وهو أول، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن بلال، وهو أول، حدثنا عبد الرحمان بن بشر العبدي، وهو أول، حدثنا سفيان بن عيينة، وهو أول، حدثنا عبد الرحمان بن بشر العبدي، وهو أول، حدثنا سفيان بن عيينة، وهو أول، عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس *414* مولى عمرو بن العاص عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «والراحمون يرحمهم الرحمان تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» هذا حديث حسن

1 ـ أبو علي الحسن بن يوسف الأوقي. «حديث صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة». انظر: **سير أعلام النبلاء**، كتاب أخبار القصص، 17/ 49.

2 ـ القيراطي : إبراهيم بن عبد الله بن محمد الطائي، القيراطي، نسبة الى قيراط، وهي من أعمال الشرقية، شاعر من أعيان القاهرة، اشتغل بالفقه والأدب، وله ديوان شعر، جاور مكة وتوفي سنة 782هـ. انظر ترجمته : **الدرر الكامنة**، 1/ 31 ؛ **النجوم الزاهرة**، 11/ 198؛ **شذرات الذهب**، 6/ 229 .

عالي الإسناد أخرجه البخاري في الكنز والأدب[1]، والبيهقي[2] ، والحاكم[3] ، وأبو داود[4] ، والترمذي[5] ، وأبو بكر بن شيبة[6].

وأما شعر البرهان القيراطي، فقال الشيخ المرتضى: كتب إلى فخر الديار الشافعية محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي، وهو أول شعر كتبه إلي، قال: أنشدنا أبو عبد الله محمد الغني الدمشقي، وهو أول، أنشدنا محمد أبو المواهب، وهو أول، أنشدني والدي عبد الباقي، وهو أول، أنشدني النجم القرافي، وهو أول، أنشدني والدي البدر الغزي، وهو أول، أنشدني شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري، وهوأول، أنشدنا رضوان بن يوسف، وهو أول، أنشدنا الحافظ شمس الدين بن الجوزي، وهو أول، أنشدنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله القيراطي لنفسه وهو: (مجزوء البسيط)

أَوَّلُ لِي فِيكَ حُبّ أَوَّلٌ ... أَرْوِيهِ مِنْ طَرف عَلَيْهِ
فَحَدِيثُ شَوْقِي فِي هَوَاكَ ... مُسَلْسَلٌ بِالأَوّلِيَّةِ

وأما حديث سلمة بن الأكوع مرفوعا فهو: «من تقول علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»[7] . فسنده يأتي مع سند البخاري بعد في الإجازة، هـ. وكتب الشيخ تحته بخطه، ما ذكر من السماع، والقراءة، والإجازة مني للشيخ محمد بن عبد السلام صحيح . وكتب أبو الفيض مرتضى كان الله له.

1 ـ أخرجه البخاري في **التاريخ الكبير** دار الكتب العلمية بيروت، رقم 862 ،7/ 194؛ رقم57، 9/ 64 .

2 ـ **سنن البيهقي** ، كتاب السير ، باب معلى الوالي من أمر الجيش رقم17683 ، 9/ 41 .

3 ـ **المستدرك على الصحيحين** للحاكم ، كتاب البر والصلة ، رقم4، 7274/ 175 .

4 ـ **سنن أبي داود** كتاب الأدب باب ما جاء في رحمة المسلمين ، رقم1924 ، 4/ 286.

5 – أول حديث أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين رقم 1924، 4/ 324. وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

6 ـ أبو بكر بن شيبة، **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، سنة 1409هـ، كتاب الأدب، باب ما ذكر في الرحمة من الثواب، رقم25355، 5/ 214.

7 ـ أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم 109، 1/ 52

رجوع ، ولهذا الرجل - أطال الله بقاءه - اليد الطولى في التأليف ، فهو والله فيها سيوطي زمانه، فلقد شرح **القاموس** في عشرة أجزاء، كل جزء منها يقرب من الأصل، جمع فأوعى . وقد ظفر بأصله القباب ، وبما كتبه عليه شيخه ابن الطيب الفاسي أصلا المصري دارا، أو بما كتبه غيره عليه من المغاربة والمشارقة، وزاد من عنده العجب العجاب، سبك **المتن** بالشرح ، فكان والله من أجل ما ألف من كتاب . ولقد قرض من له عليه من النظم والنثر شيوخه وأقرانه من أهل مصر والشام والحرمين وغيرهما ما جمعه مؤلفه في مجلد ضخم، كان يشرفه تقريض شيخه أبي زيد عبد الرحمان بن مصطفى العيدروسي، وهو في لغتهم الأسد، وهذا الشيخ أدركه - لم أدركه أنا- بقيد الحياة، وهو من ذرية جعفر الصادق . وله تأليف، ونص ما قرض له عليه: *415* (من الكامل)

هَذِه الزّهُورُ أَمْ رِيَاضُ الشّمُوس ... أَمْ كُؤُوسٌ مِنَ الثّمُولي الشّمُوسِ
بِنْتَ قُدّسٍ قَبْلَ الكُرُوم تَرَاءَتْ ... لِذَوِيهَا فِي حَانَةِ التَّقْدِيسِ
أَمْ رِيَّاضٍ تداعَ الدَّهْرَ فيهَا ... فَهِيَّ تَنْجَلِي لَنَا بِكُلِّ الجُنُوسِ
أَمْ ذَوَاتِ الجَمَالِ حَيَتِ فَأَحْيَت ... بِجَمِيلِ الْوِصَالِ مِيتُ النّفُوسِ
أَمْ عُلُومٌ لَمَا تَسَامَي سَنَاهَا ... مَدْرَكُ القَبَت[1] بِتَاجِ العَرُوسِ
أَيّهَا الشَّرْحُ كَمْ شَرَحْتَ صُدُورًا ... حَيْثُ يَجْلُو جَوَاهِرُ القَامُوسِ
دَامَ عَلَيْكَ فِي الكَمَالِ مَلِيكًا ... جُنْدُهُ الفَهْمُ فِي المَجَالِ النَّفِيس
أَيّهَا السَّيّدُ المُهَذَّبُ أَنْتَ ... وَصْفًا تَارانَتْ جيّادُ الطّرُوسِ
أيّهَا المُرْتضَى الرِّضَى بِعِلْمِ ... وَبِمَجْدٍ سَمَى بِطِيبِ العَرُوس
دُمْتَ يَابْنَ البَتُولِ فِي عِزٍّ عِلْمِ ... مِنْ إِلَهٍ مُهَيْمِنٍ قُدُوسِ
وَابْقَ واعْلَمْ تَجْلُوُ كُنُوزَ عُلُومٍ ... مُشْرِقَاتٍ فِي أَوْجِهَا النّامُوسِ

وللشيخ عبد القادر بن خليل المدني الفقيه المحدث المقري رحمه الله تعالى في ذلك: (من الكامل)

1- التبس علينا قراءتها.

تهْ في الأنَام وَعثر فذا النَّامُـوسُ يَكْفيكَ نَظْـمُ جَوَاهــرِ القَامُـوسِ
وَافْخَرْ بتَاج عَرُوسٍ حَسَنٌ مُذْ بَـدَا أَكْرِمْ بِهِ أَعْظِمْ بتَـاج عَــرُوسِ
شَرْحٌ عَلا لَفْظاً وَمَعْنَى قَـدْ عَـلا وَجَلا جَـلا وَأَضَاءَ ضِيَّاءَ شُمُوسِ
فَتَنَوَّعَتْ فيهِ الدَّرَاري وَالدَّرَاري قَـدْ تَجَلَّى فَانْجَلَـى بِحُقُـوسِ
وَغَدَوْتُ لا أَدْري أَقُولُ بِوَصْفِـهِ ضِيَّاءُ شُمُوسٍ أَوْ كُؤوسُ شُمُوسِ
إنَّ البَيَانَ لَسِحْـرُ مَعْـنَى خَطِّـهُ ذَلِكَ البَنَانُ بِلَفْظِـهِ المَـانُـوسِ
فَكَأَنَّـهُ رَاحٌ تَنَاهَـى حُسْنُهَـا فَأَعْجَبْ شَرِبْنَاهَا بِغَيْرِ كُؤوسِ
كُلُّهُ دُرٌّ مُؤَلَّفٌ كُلُّهُ دُرٌّ مُـؤلَّـفٌ مُـذْ دَرَّ ضِمْـنَ طُـرُوسِ
هَـذه التآليفُ التـي أَلْقَـتْ بِـا لأيْدي وَذُو التَّأليفِ فَوْقَ رُؤوسِ
لَمَ لا وَذَلِكَ مَـوْضِعٌ لِلتَّـاجِ كَـيْفَ وَذَلِكَ التَّـاجُ الَّـذي لِعَــرُوسِ
وَإذَا أَرَدْتَ تَـرَى لِقَـدَرِ مُـؤلِّـفٍ فَانْظُـرْ لِقَـدَرِ مُؤلِّـفٍ بِـرُؤوسِ
أَحْيَا دُرُوسُ مَعَالِمِ العَرَبِيَّةِ الْعَرَبُ الْعَـرَبِيَّةَ ثُـمَّ بَعْـدَ دُرُوسِ
مَنْ قَاسَ قَسَا في الفَصَاحَةِ عِنْـدَهُ قَـاسَ لِـرَئيسِ الرَّأسِ بِالمَرْؤوسِ
لله ذَلِكَ السَّيِّـدُ السَّنَدُ الـرِّضَـى المُرْتَضَى ذُو الفَضْلِ والنَّامُوسِ
416 نَجْلُ الحُسَيْنِ وَثالثُ البَدْرَيْنِ الشَّرَ فَيْنِ هَـذَا بِطِيبٍ طيبِ غَـرُوسِ
زَاكِيُّ الأُصُـولِ ابْنِ البَتُولِ وَحَبَّـذَا فَرْعٌ لأَصْلٍ فِي النَّـدَا مَضْـرُوسِ
هَذِي المَفَاخِرُ في الوَرَى فَاخِرْ بِهَـا هَاذي مَـوَاهِبُ وَاهِبِ القُـدُوسِ

وللعلامة أبي الكمال محمد بن سعيد بن عبد الله الحسني البغداد العباسي - أطال الله بقاءه - في ذلك، ولقد أبدع ما شاء، هـ. (من الكامل)

شَرَحَ الشَّرِيفُ المُرْتَضَى القَامُوسَا وَأَضَـافَ مَا قَـدْ فَاتَهُ قَامُـوسَـا
بَعُدَتْ صِحَاحُ الجَوْهَرِيِّ وغَيْرُهَا سِحْـرَ المَدَاينِ حَيْثُ أَلْقَـى مُوسَى
إذْ قَدْ أَبَانَ الدّرِ مِنْ صَدَفِ النّـهَى في سِلْكِ جَمْهَـرَةِ اللّـهَى كَأنيسَـا
وَبَنَى أَسَاساً فائقًا وَأشَارَ فِـي إتقانِـهِ لِـمُخْتَـارِهِ تَأسِيسَـا
فَأَنَارَ مِنْ مِصْبَاحِ مُزْهِرِ نُـورُهُ عَيْـنُ الغَبِـيّ فَأَبْصَـرَتْهُ نَفِيسَـا

فَهُوَ الفريدُ ولا يُثنى جَمْعُهُ إذ لا يُخَالُ كَمِثْلِهِ تَدْلِيسَا
فلِسَانُ نَظْمِي عَاجِزٌ عَنْ مَدْحِهِ فالله يَنْشُرُ نَشْرَهُ تقْدِيسَا
وَيديمُ مَوْلانَا الشَّرِيفَ بمصْرِنَا فِي كُلِّ قطْرٍ للْهُدَاة رَئيسَا
وَإذا تَوَجَّهَ لِي بلَمْحَةِ نَظْرَةٍ إنّي سَعيدٌ لاَ أصِيرُ خَسِيسَا
وَ الآلُ مَعَ صَحْبٍ وَهَذا المُرْتضَى وَمَنْ أرْتضَى وَمَنْ أصْطفاهُ أنيسَا
أهْدِي الصَّلاة مَعَ السَّلامِ لِجَدِّهِ هَدْيًا جَزِيلا لا يُطَاقُ مَقيسَا

ومما قال فيه الشيخ محمد العوفي أطال الله بقاءه : (من الرمل)

إنَّ هَذا اللّبَابُ لاشَكَّ سِحْرٌ نافِعٌ مِنْ سُقَامِ جَهْلِ اللّغاتِ
وَهُوَ للهِ مُرْتضَى لَيْسَ فِيهِ مَوضِعٌ قابِلٌ لِطَعْنِ اللّغَاتِ

قال: فكان كما قيل (من الوافر)

حَوى مَا لَيْسَ يَحْوِيهِ سِوَاهُ فكَانَ أجَلَّ شَيءٍ للمَعَانِي
فَمَطْلَعٌ إلى تخْلِيصِ عَانٍ وَمَطْلَعٌ بِتخْلِيصِ المَعَانِي

وقال فيه أيضا : (من الطويل)

أحَاطَتْ بِذا البَحْرِ المُحيط يَدُ النَّدَا فأوْلتْ أولي الألبَابِ مَا المُرْتضَى اقتضَى
مُحاطاً بِهِ صَارَ المُحِيطُ مِمَّا ارْتضَى لِهَذا الإمَامِ السَّيِّدِ البَحْرِ مُرْتضَى

وللمؤلف نفسه في مدحه مقطعات كثيرة منها قوله : (من الكامل)

وَرُعُونةٌ رَعْناءَ جادَتْ قريحَتِي بِهَا فجَلتْ فِكْرًا مُشرَّفَةَ المَعْنَى
*417*عَرُوسٌ لها تاجٌ وفكري وليهَا سَهِرْتُ لهَا وَهْنًا فما وجَدَتْ وَهْنا

وقال فيه أيضا مضمنا :(من المتقارب)

شَدَدْتُ بُنَاةَ الغرائبِ حِرْصًا وَبَيَّنْتُ تحْقِيقَ مَا كَانَ خَرْصًا
وَلا فَضْلَ لِي فِي بِنَا شَرْحِهِ وَجَدْتُ معِينًا وَطوْبًا وَجصًا

وقال : (من الطويل)

شَرَحْت عَلى القامُوسِ شَرْحًا مُحققاً غَدَتْ أعْيُنُ الحُسَّادِ مِنْهُ عَلى الغَضِّ

وَألفيْتُ لمَّا أنْ مَزَجْتُ بشَرْحِهِ عَلَيْه رِدَاءَ سَابِغ الطّول وَالعَرْضِ
وَنَوَّهْتُ مِنْ ذِكْرَاهُ مَاكانَ خَافِلاً حَنَانَيْك بَعْضُ الشَّرحِ أنبَهُ مِنْ بَعْضِ

وقال : (من الطويل)

وَلَمْ يَكُ إلاّ عَاطِلا فكسَوْتُهُ حُلى بيَوَاقيتِ الجَمَالِ تُرَصَّعُ
كَذلِكَ اكْتَسَى مِنْ مَتْنِهِ الشَّرْحُ نَفحة وَهَا هِيَ فِي أعْطَافِهِ تَتَوَضَّعُ

وقال : (من الكامل)

وَلَقَدْ كَسَوْتُ المَتْنَ مِنِّي جُلَّةً جلَّتْ عَنِ التَّلْفِيقِ وَالتَّرْقِيعِ
حَسُنَتْ بِأقْوَالِ الأئِمَّةِ فَاغْتَدَتْ كَالرَّوْضِ فِي التَّسْهِيمِ وَالتَّوْشِيعِ

وقال : (من الكامل)

وَلَقَدْ كَسَوْتُ المَتْنَ أبْهَى حُلَّةً يَمَنِيةً قَدْ فُولجِتْ تَفْويفَا
فِيهِ البَدَائِعُ وَالغَرَائِبُ جُمِعَتْ فَغدَتْ لآذَانِ المُلُوك شُنُوفَا

وقال : (من الطويل)

لَقَدْ سَارَ سَارَ القَوْمُ بالمَدْحِ وَالثَّنى وَغَنَّى بهَذَا الشَّرْحِ مَنْ في الثَّرى يَحْدو
وَصَاغَ لَهُ الإبْدَاعُ حُسْناً وَزِينَةً وَحيكَ لَهُ مِنْ حُسْنِ ألْفَاظِهِ بُرْدُ
وَلَيْسَ لِكُلِّ الكُتُبِ يُسْتَحْسَنُ الثَّنَا كمَا لَيْسَ فِي كُلِّ الطّلى يَحْسُنُ العِقْدُ

وقال : (من الطويل)

أوْضِحْ أنَّ في ذَا الشَّرْحِ غدَا غرَائبا تُقَبِّلُ أفْوَاهَ الرُّوَاةِ لَهَا رَشْفَا
وَمَا أدَّعِي فِيهِ الكَمَالَ لأنَّهُ مِنَ النَّقْصِ إلاّ أنَّنِي أحْسَنُ الرَّصْفَا

وقال : (من الطويل)

وَدُونَكَ لِلقَامُوس شَرْحاً عَجِيباً خَليقاً بأوْصَافِ المَحَاسِنِ وَالمَدْحِ
تَكَفَّلَ بالتَّحْرِيرِ وَالبَحْثِ فَارْتَقِي وَبالكَشْفِ وَالإيضَاحِ فَاقْرِنْ عَلى الصُّبْحِ
بِعَيْنِ الرِّضَى فَانْظُرْهُ أرْجَاءً فَحُسْناً وَقَابِلْهُ بالحُسْنَى وَإلاّ فَبالصَّفْحِ

وقال مجيبا بعض من قرظ له عليه : (من الطويل)

نَظَرْتُ بفَتْحِ المَدْحِ تَاجَ عَرُوسِنَا إلاّ فِي سَبيلِ الحَقِّ ذَا الفَتْحِ وَالنَّصْرِ
عَمَّنْ رَامَهُ الحَسَا مُقَضّاً سُكْرَهُمْ وَقَذْفُكَ مِنْ أيْدِي الجَهُولِ لَنَا الأسْرِ

عَقَدْتُ لَـهُ لإِجْمَـاعٍ فَانْتَشَـرَتْ لَـهُ دُمُوعِـي وَعِنْدَ الْعَقْدِ لاَ يُنْكَرُ النَّشْـرِ

صَرَفْتُهُمْ عَـنْ رَبْعِـهِ إِذَا أَضَفْتُهُـمْ إِلَى الْبُهْتِ وَالْمَعْـرُوفِ يَدْخُلُهُ الْكَسْرِ

وقد قلت أنا في ذلك - وإن لم يكن قولي هنالك - وكتبها الشيخ بيده وأضافها لما قيل في ذلك : *418* (من الكامل)

يَاحُلَّـةً طُرِّزَتْ بِوَشْيِ الْمَاثِـلِ يَمَنِيَّةً تَسْمُـوا بِلَبْـسِ الْكَامِـلِ

لاَ بَلْ أَزَاهِرُ رَوْضَةٍ طَرِبَ الْحَشَى لِرَخِيمِهَـا وَخَرِيرِهَـا الْمُتَهَاطِـلِ

لاَ بَلْ سَبَائِـكَ عَسْجَدٍ قَدْ صَاغَهَـا بَطَـلٌ بِطَلْعَتِـهِ الْمُنَـى لِلسَّائِـلِ

لاَ بَلْ تَنَائِجِ فِكْرِ حَبْرٍ قَـدْ غَـوَى تَاجَ الْأَيِمَّـةِ حَبَّـذَا مِـنْ فَاضِـلِ

أُنْظُرْ إِلَى تَاجِ الْعَرُوسِ وَمَا حَوَى مِنْ جَوْهَرِ الْفَيْضِ اللَّدُنِيِّ الْحَاصِلِ

بَحْرَانِ يَلْتَطِمَانِ مِنْ عِلْـمٍ وَمِـنْ جُودٍ وَمِـنْ كَـرَمٍ لِكُـلِّ النَّـازِلِ

مَـا ذَاكَ إِلاَّ نَفْحَـةً نَبَوِيَّـةً عُلْوِيَّـةً تَزْهُـوا بِسِـرٍّ شَامِـلِ

وَأَنَا أَقُـولُ مَقَالَـةً لَـوْ قَالَهَـا قَبْلِي لِفَتَىً ما لَغَدا بها صدق قَائِـلِ

إِنَّ الْمُجَـدِّدَ الْإِمَـامُ الْمُرْتَضَـى رَقَصَـتْ بِـهِ مِصْرٌ بِرَغْمِ الْجَاهِـلِ

زُفَّتْ إِلَيْكُمْ بِنِيَّةِ الأَفْكَـارِ قَـدْ غَطَّتْ مَحَاسِنَهَا مَهْجَـرُ الْوَاصِـلِ

طَـوْراً يُقَهْقِرُهَـا الْحَيَـاءَ وَدَادِنِ تَرْجُو الْوِصَالَ بِنَيْـلِ ذَاكَ الأَجَـلِ

وَعَلَيْكُمْ مِنِّي التَّحِيَّـةَ مَـا غَـدَتْ يَمَنِيَّةً تَزْهُـو بِلَبْـسِ الْكَامِـلِ

وله من التآليف الكبار، شرحه **لإحياء علوم الدين** للإمام الغزالي يخرج فيه الأحاديث على سنن المحدثين، ويمد القلم في أخبار الصالحين، ويناضل كثيرا عن المؤلف سيما في مواضع غمز فيها كقوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[1] . فالله لو كمل لكان من أعجوبة الزمان . وقد كتب منه أجزاء، أخبرني أنه لو كمل يكون من تجزيته أربعين مجلدا. وقد قرض الناس عليه كثيرا، منهم عصريه شمس الدين بن عبد الله بن فتح الفرغلي، نسبه لجده الفرغل من أولاد محمد الحنفية الشافعي المذهب، قال مدرجا في ذلك مدح **شرح القاموس** ما نصه : (من الطويل)

1- أي ما سبق في علم الله يكون لا يمكن غيره فلا أبدع منه. انظر: **إنهاض الهمم شرح متن الحكم** لأحمد بن عجيبة، 1/ 36 .

لشَرْحِكَ إحياء الْعُلُوم لديننَا تَطَاوَلَتْ الأعْنَاقُ وَامْتَدَّتْ الأيْدي
وَخَرَّتْ أُولُو الألْبَاب سَاجِدَةً لَهُ تَرُوحُ وَتَدنُوا منْهُ ياجْهَبَذ التَّقد
وَاضْحَ بِهِ قُوتَ القُلُوب مفاخِرًا فُتوحًا مُحْيي الدِّين في القُرْبِ وَالبُعْد
وجاءَتْ لَهُ تَسْعَى الْعَوَارِفُ تَرْتَجي مَعَارفُهُ الَّتي سَنَا نُورُهَا يَهْدي
وَأهْدَاهُ تَاجُ الدِّين تَاجَ عَرُوسِهِ وَضَمَّخَهُ بِالعُودِ وَالمِسْكِ وَالنِّد
وَأقْسمُ بِالتَّنْوير وَالْحِكَمِ التي غَدَتْ بَيْنَ أَهْلِ الفَضْلِ وَاسطَةَ الْعقْد
بأنَّ الإمَامَ المُرْتَضَى قُطْبُ وَقْتِهِ لَهُ الشَّرَفُ الأعْلَى عَلَى الحُرِّ وَالعَبْد
419 هممٌ لَهُ بَيْنَ الأفَاضِلِ همَّةٌ لَقَدْ قصُرتْ عَنْ شَأوِهَا همَّةُ السَّعْد
فها شَرَحَ القَامُوسَ شَرْحًا تفاخَرَتْ بِهِ العَرَبُ العَرَبَا عَلَى الفُرْسِ وَالهِنْد
وَقالَتْ صحَاح الجَوْهَري لثَعْلَبَ فَصبحُكَ قَدْ تَبَّتَ يَدُهُ وَلَمْ يُجْد
قَدْ حَوَى بالبَهَا بَديعُ بَيَانِ فَمَعَانِيهِ فِي عُقُودٍ تَنَضَّد
وَأحْيَا عُلُومَ الدِّينِ فاعتلى الهَنَا بشَرْح وَإيضَاحي وَقدْ تَمَّ لِي سَعْد
فَيَا طَالِباً لِحَلِّ الرِّمُوز وَفَاتِحًا كُنُوزَ المَعَالي وَالْهِدَايَة وَالرِّشْد
عَلَيْكَ بِطَرقِ العُلْم والحِلْم والحِجَا وبَحْر السَّخَا والجُود والفضْلِ والمَجْد
وَمن شَرُفَتْ مصْرعلى سَائِر القُرَى بطلْعَته الحُسْنَى ومَنْطقِهِ الشهْد
مُحَمَّدٌ المُرْتضَى شاعَ في الوَرَى ونيطَتْ به الأحْكامُ في الحلِّ والعَقد
عَلَيْه رِضَا الله مَا لاحَ بَارِقٌ وَمَا غرَّدَتْ وَرْقٌ وَفَاحَ ألَدُّ النِّجْد
وَمَا طلَعَتْ شمْسٌ وَأشْرَقَ كوْكَبٌ وَهَبَّتْ رِيَّاحُ النَّصْرِ والفتْحِ والسَّعْد

وقال في خصوص مدح شرح **الإحياء**، الشريف مولانا عبد القادر **الشامي** الطرابلسي باشارة صهره وشيخه ولي الله تعالى الشيخ محمود الكردي، وستأتي إن شاء الله ترجمة هذا القائل:(من الوافر)

لاَحَ نُورُ الجَمَالِ في كُلِّ مَشْهَد وَتَعَالَى الكمَالُ في كُلِّ مَعْهَد
وَتَسَامَى إلَى السَّمَاءِ ضيَاءٌ فَاقَ في الْحُسْنِ وَالبَهَا بَرْقَ فَرْقَد
فَشَمَمْنَا بِهِ فَوَائِحَ مِسْك منْ فُتوحَاتِ نَشرَهَا عَبْقُ النَّد
وَهُدْنَا إلَى فَوَاتِحِ شَرْحٍ يَشْرَحُ الصَّدْرَ نُورُهُ وَهُوَ مُفْرَد

قَــدْ حــوَى بِالبَهَــا بَدِيــعُ بَيَــانٍ فَمَعَانِيــهِ فِــي عُقُــودٍ تَنَضَّــدِ
وَتَلاللْــوَرَى أَحَــادِيــثَ صِــدْقٍ لَيْــسَ فِيهَــا إِلا صَحِيــحٍ وَمُسْنَــدِ
قَــدْ جَنَتْــهُ يَــدَا إِمَــامٍ هُمَــامٍ مَاجِدٌ وَاجِــدٍ حَوَى كُــلَّ سُــؤْدَدِ
عَلَــمٌ مُفَــرَدٌ شَرِيــفٌ لَبِيــبٌ مُجْمَعِ الفَضْــلِ وَالفَضَائِــلِ تَشْهَــدِ
مِنْ قَــومٍ هُمْ أَصْلُ كُــلِّ كَمَــالٍ حُبُّهُــمْ وَاجِــبٌ لِمَــنْ رَامَ يَسْعَــدِ
فَعَلَيْهِــمْ مِــنْ الإِلَــهِ سَــلامٌ وَصَــلاةٌ عَلَــى النَّبِــيِّ مُحَمَّــدِ

وله غير ذلك من المؤلفات و الرسائل، فقد سألته ذات يوم أن يقيد لي عدد مؤلفاته بأساميها، فكتب لي ذلك بخطه بعد ذكر شرحي **القاموس والإحياء**، منها[1]: **رفع الاشتباه عن مباحث بسم الله** في كراسين وشرح حديث أم زرع[2] في ثمانية كراريس سماها: **إنجاز وعد السائل في شرح حديث** *420* **أم زرع من الشمائل**، و**إتحاف بني الزمن في حكم قهوة اليمن**، و**إتحاف الإخوان في حكم شجرة الدخان**، أكثر فيه من الأدلة على تحريمه، و**رفع الحجاب الكامن عن اتصال القطب البدوي بأبي الحسن في الباطن**، و**منحة المعبود في شرح رسالة المقصود في علم التصريف والبيان**، و**التعريف بجامع علم اللغة والتصريف**، و**الزهر المنثور في تحقيق الإيمان**، و**التعريف بالجامع**، و**عدد القباء الجزور** و**عجالة العابر في بحثي المضارع والغابر**، و**كوثرى النبع لفتى جوهرى الطبع** في علم التصريف، و**عقد الجوهر الثمين في الحديث المسلسل بالمحمدين** و**العقد المكلل بالجوهر الثمين في طرق الإلباس والذكر والتلقين**، و**إتحاف الأصفياء برفع سلالة الأولياء**[3]، و**القول المبثوث في تحقيق لفظ التابوت**، و**الابتهاج بختم صحيح مسلم بن الحجاج**، و**تحفة الودود في ختم سنن**

1- من هذه المؤلفات ما لم نستطع قراءتها، فرسمنا ما قاربها.

2- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، رقم 4893، 5/ 1688 – 1990 ؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة (ض)، باب ذكر حديث أم زرع، رقم2448، 4/ 1896 – 1901 .

3- مرتضى الزبيدي **تاج العروس**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة لكويت، 1385 / 1965، في المقدمة «إتحاف الأصفياء بسلالة النبياء»، الصفحة :ي

أبي داود، والتعليقة الجليلة على مسلسلات ابن عقيلة، ووهب لي منها نسخة، و منح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمان من أسرار الصفة الإلهية، وتخريج حديث نعم الإدام الخل، وبذل المجهود في تخريج حديث شيبتني هود، والروض المؤتلف في تخريج حديث: يَحْمِلُ هذا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ [1]، و رفع الكلل عن العلل، وهي أربعون حديثا انتقاها من كتاب الدار قطني وتكلم معه فيها. وأربعون حديثا في الرحمة، والتغريد في الحديث المسلسل يوم العيد، و الطراز العسجد في خلفاء المقام الأحمد، والموارد البهية في الطريقة النقشبندية، والمقاعد العندية في المشاهد النقشبندية، وهي منظومة مائة وخمسة وأربعون بيتا، وشروح حزب النوى ثلاثة: أحدها على طريقة أهل الظاهر، والثاني على طريقة أهل الباطن، والثالث على طريقة أهل الحديث. وشرح الحزب الكبير للقطب أبي الحسن الشاذلي اسمه: تنبيه العارف البصيرعلى أسرار الحزب الكبير، والطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب، التي أولها: (من الكامل)

مَا فِي المَنَاهِلِ مَنْهَلٌ يستعْذَبُ إلا ولِي فِيها الأَلَـذ الأَطْيَبُ

وشق الجيب عن الغيب، وشرح الصيغة المطلسمة، وشرح صيغة *421* القطب ابن مشيش، وقرة العين بذكر الناشي والصنيفي، والإسعاف بالحديث المسلسل بالإشراف، والأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة، وحسن المحاضرة في آداب البحث والمناظرة، وعقد الجمان في أحاديث الجان، واتحاف المبتدرين بضروري الدين، وإتحاف الخلان في ضبط لفظ أصبهان، وشرح صيغة القطب البدوي، والشراب المروق الحامي في شرح صيغة القطب الخامي، والمداح المختوم البكري ومن جاء في زلال صيغ القطب البكري، وشرح سبع صيغ المسماة بدلائل القرب السيد مصطفي البكري، وفتح باب المروة في ذكر أولياء ربوه، وإنالة المنى في رفع سر الكنى، و بلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب ﷺ، وشرح رسالة التشريح للسيوطي، والعقد النفيس في سلالة مولانا إدريس،

1- ولفظه: «يَحْمِلُ هذا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ وانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ وتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ». انظر: كنز العمال، 10/ 176.

وإقرار العين بذكر بني الحسن والحسين، ورشف السلاف عن المتجر الكشاف، ثلاثون كراسا، والأزهار اليانعة في تفسير سورة الواقعة، والنوافح المسكية على الحكم[1] الكشكية، ووجزيل الدر في أنساب الخيل، وإنجاز الحاجة الماسَّة في تحقيق لفظ سجلماسة، ورفع الشارةعن سب الهرارة، وإسماع الصم في نسب الإمام الشافعي من البكم، وغاية الأماني في نسب القطب الجيلاني، ورسالة علم العروض، وكشف المغطى عن أصول المعنى، وطب القلوب وصية الحبيب للمحبوب، والأنوار مما في سورة يونس من الأسرار، وتخميس بردة البوصيري، وشرح على خطبة الشهاب محمد بن أحمد البحيري على تفسير سورة يونس، و شرح خطبة القاموس، ونزهة الأنظار و جلاء الأبصار في ذكر الفوائد والأسرار، ومزيل نقاب الخفا عن كنى ساداتنا بني الوفا، وشرح السلسلة الوفائية، وعقد صرح الصفاء في ذكر السادات بني الوفاء، ونور النبراس في نسب بني العباس، وترويح القلوب في نسب[2] ملوك بني أيوب، واتحاف سيد الحي بسلاسل سيد[3] طي، وعقد الجمان المنظم في ذكر أمهات النبي ﷺ، والتفتيش عن لفظ[4] درويش، والمذمات العلية في شرح الحديث المسلسل بالأولية، والعروس المحلية في سند حديث الأولوية، أرسلها إلى نابلس *422* بالشام، والمهدية المرتضية في المسلسل بالأولوية، أرسلها إلى فزان، وتخريج أحاديث الأربعين النووية، والروض المعطار في نسب بني جعفر الطيار، ومعجم شيوخ العلامة الشيخ عبد الرحمان الأجهوري، شيخ القضاء بمصر في الوقت، ومعجم شيوخ شيخ السادات الوفائية، وارتشاف السلاف في من جاء في زلال الإسعاف، حاشية والأصل هوالإسعاف في من دفن بمصر من الأشراف لصاحبنا العلامة محمد بن علي الصبان وستأتي ترجمته. وتحفة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل،

1- في مقدمة تاج العروس «الفوائح»، ص :اي

2- م . س «بذكر»، ص :ي

3- ن . م «بني».

4- ن . م «في معنى».

والمقامة الدجوية، **ونشق الغوالي من العوالي**[1]، وهو تخريج عوالي شيخه المرحوم علي بن صالح الشاورى، **ومعراج الحقائق في الاتصال بأهل الحقائق**، **والنفحة القدسية في واسطة البضعة العيدروسية**، عشرة كراريس، **وروح الروح بما جرى لنا بمحلة روح**، **والنسب الإنسي في نسب السيد القدسي**، **وإتحاف أهل الصفا في الصلاة على النبي المصطفى** ﷺ، **وحلاوة الفانيد في إرسال الأسانيد**، **واختصار مشيخة أبي عبد الله البياني**، **وحديقة الصفا في والدي المصطفى** ﷺ، **ورفع الضيم عن نسب بني تميم**، **وإدراك الشرف المروم في نسب أشراف الروم**، **والمقامة الشكالية**، **والمقامة السندسية**، **والمقامة النقسلية**، **وإكليل الجواهر الغالية في رواية الأحاديث العالية**، **والعقد الثمين في تخريج حديث اطلبوا العلم ولو بالصين**، **والمدى الكاملي فيمن روى عن البابلي**، **والفجر البابلي في ترجمة البابلي**، **وشرح الصدر بشرح أسماء أهل بدر** أربعون كراسا، **والقول المسموع في الفرق بين الكوع والكربوع**، **والتكملة والذيل، والصلة فيما فات صاحب القاموس من اللغة**، في مجلدين ضخمين، لم يكمل إلى الآن. و **قلنسوة التاج في بعض أحاديث صاحب الإسراء**[2] **والمعراج**، **وعقيلة الأتراب في سند الطريقة الإدريسية والأحزاب**، **وحكمة الأشراق إلى كتاب الآفاق**، **وحسن التحبير بالقراءة في التكبير**، **وكفاية المحتاج في ذكر من ولى مصر إمارة الحجاج**، **والإنصاف في المحاكمة بين الإسعاف والإتحاف والإنتصار لإمام أيمة الأمصار**، وهو رد على أبي *423* جعفر العقيلي في ترجمة الإمام أبي حنيفة في كتاب **الضعفاء**، **وكشف المغطى عن الصلوات الوسطى**، **والأمالي الحنفية**، في مجلد. **والأمالي الشيخونية** كراريس لم تبيض، **وإتحاف الأعيان في شرح ليس في الإمكان أبدع مما كان**، ومناقب أصحاب الحديث، وهي منظومة نحو مائتين وخمسة وعشرين بيتا، وأرجوزة في علم الرمل، ورسالة في اختلاج الأعضاء، ورسالة في أحكام النجوم المعروفة بالثمانية، **والدرة المضيئة في الوصية المرضية**،

1- م . س «نشق الغوالي من تخريج العوالي» عوالي شيخه علي بن صالح الشاوي.

2- في ج وخ «الإسرار».

ووهبني منها نسخة تبركا ولما احتوت عليه من الحكم، **وإرشاد الإخوان إلى الأخلاق الحسان**، **وألفية السند**، ألف وخمسمائة بيت، وشرحها في عشر كراريس، **والجواهر المنيفة في أصول أدلة مذهب أبي حنيفة مما وافق فيه الأئمة الستة أو أحدهم**، خمس وعشرون كراسا .

هذا ما تعلق بالذهن من تآليفه، نفعنا الله به وآجرنا به. وكتبه لنا بخطه، حسبما تقدم ذكره، ولئن أطال الله تعالى بقاء هذا الرجل لتصلن تآليفه ما وصلت تآليف الحافظ السيوطي، إذ لم يمت حتى كانت تآليفه على عدد أيام حياته !. وقد انخرق لصاحب الترجمة من العوائد ما انخرق لابن حجر، بل لابن شاهين وأضرابهم ولو أنهم جُمعوا لديه لتيقنوا أن الفضيلة لم تكن للأول، قال في كتاب **منتهي النقول ومشتهى العقول**: «منتهى التصانيف في الكثرة، ابن شاهين صنف ثلاثمائة وثلاثين مصنفا، منها التفسير: ألف جزء، والمسند: خمسة عشر مائة جزء، والتاريخ: مائة وخمسون مجلدا؛ ومداد التصانيف: ألف قنطار وثمانمائة قنطار وسبعة وسبعون قنطارا. وهذا من كرامات طي الزمان والمكان وراثة من ليلة الإسراء وليلة القدر».

ويحكى أن بعض الأشياخ دخل على ابن شاهين في دار مملوءة كتبا، فتعجب من كثرتها الراؤون، فقال: يا سيدي متى تطالع هذه الكتب؟ ! فقال: أومن هذا تتعجب، إنها كلها تآليفي. ويناسب كثيرا تآليف ابن جرير الطبري، فقد شرح البخاري في أربعة عشر مائة مجلد، وألف تفسيرا في ثلاثمائة مجلد. وفي **القاموس** أن محمد بن الحسين البَنْجَدِيهِي صنف كتاب **قَيْد الأوَابِد** في أربعمائة مجلد، تشتمل على التفسير والحديث والفقه واللغة[1] . وانظر **حسن المحاضرة***424* ففيها- في ترجمة عز الدين بن جماعة[2] – أنه صنف ما يقرب من ألف مصنف[3].

1- **القاموس** : 1/ 1305 .

2- ابن جماعة الشيخ عز الدين محمد بن شرف الدين أبي بكر بن قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة بدر الدين محمد. ولد سنة 759 هـ وتوفي سنة 89 هـ. انظر ترجمته في : **حسن المحاضرة** :1/ 366.

3 ـ م . س .

وكان ابن جرير يحفظ ما تحمله ثمانون من **الإبل**، وحفظ ابن الأبار في كل جمعة ألف كراس، وحفظ ثمانمائة بيت من الشعر، استشهادا في النحو. وكان الشافعي يحفظ من مرة، وابن سيناء حفظ القرآن في ليلة، وأبو زرعة كان يحفظ ألف ألف حديث، والبخاري عشرها - أي مائة ألف حديث - والكل من بعض محفوظ الإمام أحمد بن حنبل. ولصاحب الترجمة النظم البليغ، فمن نظمه: (من البسيط)

طَهِّرْ فُؤَادَكَ مِنْ وَسْوَاسِ خَنَّاسِ ... وَاطْلُبْ سُرُورَكَ فِي تَطْهِيرِ أَنْفَاسِ
وَاجْعَلْ رَفِيقَكَ قُرْآناً تُرَدِّدُهُ ... عَسَى يُهَذِّبُ مِنْ قَلْبِكَ الْقَاسِي
وَعَاشِرِ النَّاسَ بِالْحُسْنَى عَلَى ثِقَةٍ ... مِنَ الْخِدَاعِ بِإِينَاسٍ وَإِحْسَاسِ
وَحَاذِرِ الْخَلْقَ فِي مَجَالِسِهِمْ ... وَاخْطُبْ إِلَى النَّاسِ أَنَّ النَّاسَ بِالنَّاسِ
وَقَدْ مَضَى النَّاسُ فَانْظُرْ مَا الَّذِي ... صَنَعُوا وَلَا تَكُنْ لِرُسُومِ النَّاسِ بِالنَّاسِي
وَإِنْ تَنَاسَوْا وِدَاداً كُنْتَ تَعْهَدُهُ ... فَأَوَّلُ نَاسٍ قَالُوا أَوَّلُ النَّاسِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مَا تُلِيَتْ ... طَهِّرْ فُؤَادَكَ مِنْ وَسْوَاسِ خَنَّاسِ

وله أيضا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (من الطويل)

عَلَيْكَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ إِنْ سَامَكَ الْخَسْفُ ... وَقِفْ وَقْفَةَ الْمَظْلُومِ يَنْتَابُكَ الْكَشْفُ
وَإِنْ لَمْ تَنَلْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُنَى ... فَبِتْهَا صَبُوراً يَاتِكَ الْعَفْوُ وَاللُّطْفُ

وقال: (من الطويل)

عَلَيْكَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ إِنْ نَابَكَ الْأَسَى ... وَصِفْ فُؤَاداً بِالْهُمُومِ لَقَدْ قَسَا
فَإِنْ لَمْ تَنَلْ مَا رُمْتَهُ فَانْتَظِرْ لَهُ ... عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِتَفْرِيجِهِ عَسَى

وله: (من الطويل)

وَقَائِلَةٍ مَالِي أَرَاكَ بِغُرْبَةٍ ... فَطَوْراً إِلَى الشَّامِ وَطَوْراً إِلَى مِصْرَا
وَقَدْ كُنْتَ مَأْنُوساً بِرَحْلِكَ بُرْهَةً ... لِمَ اخْتَرْتَ بُعْدَ الْعَيْشِ مِنْ حُلْوَةِ الْمَرَا
فَقُلْتُ لَهَا كَفَى الْمَلَامَ فَإِنَّنِي ... أُرَجِّي هِلَالِي أَنْ يَعُودَ بِهَا بَدْرَا

وقال في الكشاف - أثناء كتاب لبعض الشرفاء وقد تزوج ابنة جميلة: (من الوافر)

وَأَتَـمُّ الْأَشْيَاءِ عزا وقَـدْرَا ... بِكْرٌ حَسَنٌ تُزَفُّ لِلْأَشْرَافِ
مَا قِرَانُ السَّعْدَيْنِ فِي الْحُوتِ أَبْهَى ... مِنْ قِرَانِ الْبَدْرَيْنِ تَحْتَ لِحَافِ

وقال في مدح مصر: (من المتقارب)

سَقَى اللهُ مِصْرَ الْحَيَا أَنَّنِي ... لَهَا شَاكِرٌ وَبِهِ أَعْتَرِفُ
أَتَيْتُ لَهَا زَائِراً رَاجِعاً ... عَقْدَ خِبَرِيّ أَنَّ الصَّدَفْ
فَبِتْنَا بِخَيْرٍ وَجَادَتْ يَداً ... وَوَاسَتْ لِنَعْمى بِهَا التُّحَفُ
أُقَصِّرُ فِي بَثِّ أَمْدَحِهَا ... وَحَسْبِي بِأَنَّ فِي حِمَاهَا أَقِفُ

425 وله: (من الكامل)

صُنْ مَاءَ وَجْهِكَ وَالْمَذَلَّةَ فَاجْتَنِبْ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ لَيْسَ يَدُومُ
وَاسْلَمْ بِتَسْلِيمِ الأُمُورِ لِرَبِّهَا ... وَالْحِرْصَ دَعْهُ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

وله شطر الأبيات المشهورة التي أنشدها بهلول للشيخ الإمام ابن ناصر بالأزهر: (من الكامل)

الْعِلْمُ لاَ يَنْفَعُ إِلاَّ إِذَا ... أَخْلَصْتَ فِيهِ لاَ لِعَمْرٍ وَزَيْدِ
فَاعْمَلْ بِتَقْوَى اللهِ وَانْظُرْ لِمَا ... بِهِ عَمِلْتَ، اسْمَعْ كَلاَمَ الْعُبَيْدِ
لَوْ كَانَ بِالْعِلْمِ الْفَتَى صَالِحاً ... مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْمَلَ رَفْعاً لِيَدِ
أَوْ أَنَّهُ مِنْ دُونِهِ نَافِعٌ ... لَكَانَ إِبْلِيسُ نَظِيرَ الْجُنَيْدِ

وقال يرد على قطع مذاكرة العلوم وملازمة بيته لعوارض عرضت له بمصر بعد تصديه للتدريس: (من الكامل)

لَمَّا رَأَيْتُ النَّوَى فِي وُدِّهِمْ ... مَا بِحْتُ بِالرَّسْمِ مُعلَنَا
وَحِينَ عَايَنْتُ الْجَفَا مِنْهُمُ ... لَزِمْتُ بَيْتِي كَلُزُومِ الْبِنَا

وله – وقد أنشدنا من لفظه– يمدح القطب أبا الفرج أحمد البدوي رحمه الله تعالى ورضي عنه :

(من البسيط)

نَمتْ بأَسْرَار مَا أُلْقِي الْعَبَرَاتُ ... وَتَرْجَمتْ عَنْ حَالي الإشَارَاتُ
في كُلِّ يَوْم لِشَأني في الْهُدَى خَبَرُ ... يَبْدُو وَمَا لاَ تُبْدَا لِشَوْقِي نِهَايَاتُ
لأَهْلِ وُدّ إِلَيْكُمْ مُغْرَمٌ دَنِفُ ... مُتَيَّمٌ لَعِبَتْ بِهِ الصَّبَابَاتُ
يَنْخُرُ الرِّيحُ إنْ هَبَّتْ جَنُوباً إلاَّ ... هَبَا صَباً وَإذَا هَبَّتْ شَمَالاَتُ
وَيُسْأَلُ الْبَرْقُ فِي حَمْلِ السَّلاَم إلَى ... الأَحْبَابِ مَا بَدَتْ مِنْهُ ابْتِسَامَاتُ
كَانَتْ مَنَامَاتُ أَوْقَاتٍ بِضَيْمٍ ... لَهَوْا فَلِلَّهِ هَاتِيكَ الْمَنَامَاتُ
فَارَقْتُهُمْ وَنَعْتِي مِنْ فِرَاقِهِمُ ... فَوْقَ الْخُدُودِ دُمُوعٌ عَنْدِيَّاتُ
تَمَسُّكاً فِي أَشْرَفِ مَخْلُوقٍ مَنْ ... سُقِي بِهِمْ عِنْدَ حَلِّ الْمَحَلِّ رَوْضَاتُ
قَوْمٌ سَجَايَاهُمْ مِنَ الْحَرَمِ جَارُهُمْ ... وَكَمْ بَدَتْ لَهُمْ فِينَا الْكَرَامَاتُ
قَوْمٌ لَهُمْ تَجْنِيدٌ فِي الشَّمْسِ قَدْ ضَرَبَتْ ... تَهَابُهُ وَبَدَتْ مِنْهُ إشَارَاتُ
نَعَمْ وَلِي مِنْهُمْ بَدْرٌ قَدْ امْتَلأَتْ مِنْ ... نُورِهِ الأَرْضُ وَالسَّبْعُ السَّمَاوَاتُ
السَّيِّدُ الْعَلَوِيُّ الْفَرْدُ مَنْ خُتِمَتْ ... بِهِ السِّيَادَةُ تَتْلُوهَا السَّعَادَاتُ
السَّيِّدُ الأَفْيَدُ التَّقِيُّ مَنْ تُلِيَتْ ... بِمَدْحِهِ سُوَرٌ بَيِّنَاتٌ وَآيَاتُ
مُجَدِّدٌ لَوْ أَعَازَ النِّيلُ لأَبَلَهُ ... فِي كُلِّ حِينٍ بِهِ بَدَت الزِّيَادَاتُ
مَا أَمَّهُ وَابِلٌ يَوْماً وَأَهْلُهُ ... إلاَّ وَعَادَ لَهُ بِالْخَيْرِ عَادَاتُ
426 هُوَ السَّرِيُّ وَفِي أَبْنَائِهِ سَيِّدٌ ... سَرَتْ بِهِ عِنْدَ أَنْفَاسٍ سَرِيَّاتُ
يَا سَيِّداً خَصَّهُ الْمَوْلَى بِمَكْرُمَةٍ ... وَمَنْ لَهُ فِي الْوَرَى محقٌّ وَإثْبَاتُ
لِي فِي عُلاَكَ مَدِيحٌ نَظْمُهُ دُرَرٌ ... لَكِنَّهَا غُرَرٌ وَالدَّهْرُ جِيهَاتُ
كَأَنَّهُ إذ بَدَا وَالشِّعْرُ فِي مَلاَ ... شَامَاتُ حُسْنٍ زهت وَالشِّعْرُ وَجْنَاتُ
كَأَنَّ أَلْفَاظَهُ فِي طَيِّ السَّطْرَةِ ... سَوَالِفٌ وَمَعَانِيهِ سُلاَفَاتُ
عَارَضْتُ فِي فُحُولِ النَّظْمِ أَجْمَعَهُمْ ... فِي كُلِّ فَنٍّ وَفِي هَذَا إشَارَاتُ
وَاللهِ لَوْ لَمْ أَخَفْ مِنْ كبوة جَسَدٍ ... لَقُلْتُ إنَّ بِدَايَتِي نِهَايَاتُ

لَكِنْ تَخذتُ جِلاَبيبَ الْخُمُولِ وَهي: أَنَّ الظُّهُورَ لَهُ في الظَّهْرِ مَصَمَّاتُ
وَكَمْ تَخذتُكَ يَا ابْنَ الْمُصْطَفَى وِزْراً وَمَنْ يَلُذْ بِكَ حَفتـهُ الْعِنَايَـاتُ
قَدْ بُحَّتْ فِيكَ أَشْعَارِيَ وَلَيْسَ لَهَا بِغَيْرِ وَجْهِكَ فِي الدُّنْيَا مُرَاعَـاتُ
فِيمَ افْتِقَارِي وَأَفْكَـارِي مُدَبِّـرَة لِـيَ الْغِنَـا وَرِوَايَاتِـي رِوَايَـاتُ
وَأَنتَ قُطْبُ رَحَى الإِفْضَالِ إِذْ لَـكَ بَلْ عَلَيْـكَ فِيـهِ مَـدَارٌ أَوْ مَـدَارَاتُ
وَأَنتَ أَعْظَمُ مَنْ فِي الْكَوْنِ قَدْ جُعِلَتْ لِلنَّاسِ مِنْـهُ وَجَاهَـاتٌ وَجَاهَـاتُ
وَأَنْتَ رُكْنٌ مَنِيـعٌ صَرْحُـهُ حَرَمٌ تَنَالُ مِنْـهُ الرِّعَايَـاتُ الرَّعِيَّـاتُ
وَأَنْتَ نَدْبٌ وَفِي فِـي مَدِيحِكَ لِـي فَرَائِضٌ مِـنْ مَـوَدَّاتٍ مُـؤَدَّاتُ
حَقَائِقاً مِنْـكَ عُدَّتْ كُـلُّ جَائِـزَة وَمَـنْ سِوَاكَ مَجَازَاتٌ مَجَـازَاتُ
عَادَتْ بِـرّاً إِذَا مَـا كِـدْتُ عَدَدْتُ فَعَجِبْتُ لَهَا وَهِيَ فِي الذِّكْرِ أَمْ عَادَاتُ
يَا ابْنَ الْبَتُولِ قَـدْ نِلْتَ الْعُـلاَ كَرَماً فَالْعَدْلُ طَوْعُكَ قَهْراً وَالْوِلاَيَـاتُ
وَفِي مَقَامِكَ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ الْقَبُـولَ بَدتْ، وَالْبِشْرُ مِنْهُ تَرَاءَى وَالْبِشَارَاتُ
لَكَ الْخَصَائِـصُ بَيْـنَ الأَوْلِيَـاءِ ظَهَرَتْ فَوْقَ الْكَرَامَاتِ أَنْوَارٌ سَنِيَّاتُ
فَانْظُرْ لَنَا وَلِمَنْ مَعَنَا وَكُـنْ سَنَـداً وَكُـفَّ عَنَّـا فَلِلأَعْـدَاءِ غَـارَاتُ
إِلَيْكَ مِنَّـا سَـلاَمُ اللهِ يُتحِـفُ مَـا قُصَّتْ: بِأَسْرَارِ مَا أُلْـقِي الْعِبَـارَاتُ

وله ﷺ: **إرشاد الإخوان إلى الأخلاق الحسان** نثبتها هاهنا لما احتوت عليه من الحكم ونرجو- ببركة ناظمها- من الله تعالى أن يعاملنا بجميل مغفرته بعد فزعنا على ما اقترفنا من الذنوب: (من أرجوزة)

حَمْـداً لِرَبِّـي دَائِـمِ الإِنْعَـامِ ثُـمَّ الصَّـلاَةُ وَالسَّـلاَمُ التَّـامّ
عَلَـى النَّبِـيِّ الْهَاشِمِـيِّ أَحْمَـدَا وَالآلِ وَالأَصْحَابِ مَا نَجْمٌ بَـدَا
427 وَبَعْـدُ، ذِي وَصِيَّـةُ الْفَقِيرِ رَاجِي رِضَـى مَوْلاَهُ بِالتَّيْسِيـرِ
الْمُـرْتَضَـى مُحَمَّـدُ الْحُسَيْنِـي رَزَقَـهُ اللهُ شُهُـودَ الْعَيْـنَ
بَلِيغَـةُ مَطْبُوعَـةُ الأَلْفَـاظِ وَصِيـةٌ تَسْهُـلُ لِلْحُفَّـاظَ
سَنِيَّـةٌ جَالِبَـةٌ لِلسَّـرَاءِ رَضِيَّـةٌ جَلِيَّـةُ الأَنْبَـاءِ
جَـادَتْ بِهَـا الْقَرِيحَـةُ الْقَرِيحَـةَ فِي مَعْـرِضِ الإِرْشَادِ وَالنَّصِيحَـةَ
مَنْطِقُهَـا مِـنْ حِكْمَـةِ الْعِرْفَـانِ لاَ مَنْطِـقَ الْيَهُـودِ وَالْيُونَـانِ

أَرِيجُهَا مِنْ بَاطِنِ الْقُرْآنِ ... أُتحِفُهَا لِجُمْلَةِ الإِخْوَانِ

تَقُولُ إِنْ دَامَتْ ذُرَى الْكَرَامَةَ ... وَتَطْلُبُ النَّجَا مَعَ السَّلاَمَةَ

فَاسْلُكْ مَعَ النَّاسِ سُبُلَ الأَدَبَ ... وَلاَ تَمِلْ إِلَى الْخَنَى وَالشَّغَبَ

وَإِنْ أَرَدْتَ تَسْحَرُ الأَلْبَابَا ... جَمِيعَهَا: لِنْ لَهُمْ الْخِطَابَا

وَلاَ تَطَاوَلْ عِنْدَهُمْ بِنَسَبِ ... وَلاَ تَفَاخَرْ أَبَداً بِنَسَبِ

الْمَرْءُ فِيمَا قِيلَ نَجْلُ الْيَوْمِ ... وَالْعَقْلُ فِي الْغِيَارِ زَيْنُ الْقَوْمِ

وَإِنْ طَلَبْتَ أَنْ تَكُونَ مُحْسِناً ... فَلاَ تَقُلْ قَطُّ لَهُمْ أَنَا أَنَا

وَإِنْ أَرَدْتَ بَيْنَهُمْ لاَ تُوهَنِ ... إِذ أتمنت أَبَداً لاَ تَخُنِ

الْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ فِي إِلاَّ . . .[1] أَنَّهُ ... وَالْكَيْسُ كُلُّ الْكَيْسِ فِي الْفَطَانَهْ

وَالْقَصْدُ فِي الْعِيشَةِ بِالْبَرَكَهْ ... وَالْخَرْقُ يَدْعُو دَائِماً لِلْهَلَكَهْ

لاَ تُغْضِبَنْ الصَّاحِبَ الْجَلِيَّا ... لاَ تُسْخِطَنْ السَّيِّدَ الرَّعِيَّا

لَكِنَّ الْعِتَابَ فِي الْكَلاَمِ ... فَإِنَّهُ يُورِثُ الْمُلاَمِ

وَرُبَّمَا دَعَا إِلَى الْمُجَانَبَهْ ... وَرُبَّمَا دَعَا إِلَى الْمُحَارَبَهْ

وَإِنْ حَلَلْتَ يَا أَخِي مَحَلِيَّا ... بَيْنَ سُرَاتٍ وَكِرَامٍ رَدِيَّا

فَكُنْ حَلِيماً سَدّاً مِطْوَاعاً ... وَاقْصِدْ رِضَاهُمْ وَاحْذَرْ الْخِدَاعَا

وَدَارِهِمْ فِي دَارِهِمْ بِاللُّطْفِ ... وَجَارِهِمْ وَاحْذَرْ وَبَالَ السُّخْفِ

بَاكِرْ فِي الْحَدِيثِ إِنْ تَجَاذَبَا ... إِيَّاكَ أَنْ تُلْقِي لَدَيْهِمْ تَأَدُّبَا

وَإِنْ تَرُمْ سَاحَةَ الْكِرَامِ ... لاَ تَقْرَبْ سَاحَةَ الْمُدَامِ

فَإِنَّهُ جِمَاعُ كُلِّ شَرِّ ... وخبثه بَادٍ لأَهْلِ السِّرِّ

وَمُخْتَسِيهِ قَطُّ يَوْماً أَتَى ... غَيْرَ رَضِيعِ هَزِيلٍ عادم

وَاحْذَرْ مِنَ الْمَلاَعِبِ الْمُحَرَّمَهْ ... كَالنَّرْدِ وَالشَّطْرَنْجِ فَهِيَ مُأَثَّمَهْ

428 وَرُبَّمَا جَاذَبَكَ التَّلاَهِي ... إِلَى السَّمَاعِ آلَةَ الْمَلاَهِي

كَالنَّايِ وَالطَّنْبُورِ وَالْقَانُونِ ... لَيْسَتْ على الشَّرْعِ عَدَ الْقَانُونِ

وَكُلُّ ذا مُحَرَّمٌ يَقِيناً ... نَسْئَلُ رَبَّ الْعَرْشِ أَنْ يَقِينَا

إِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ لِلدُّخَانِ ... فَشُرْبُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ

1- كلمة لم نستطع قراءتها.

وَمُسْقِطُ عَدَالَةِ الإِنْسَانِ وَمُبْعِدُ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَانِ
وَاخْتَصِرْ السُّؤَالَ فِي الْجَوَابِ وَقَلِّلْ الْمَقَالَ فِي الْخِطَابِ
وَاتْرُكْ إِذَا فَهِمْتَ قَوْلَ السَّفَلَهْ وَلاَ تَمِلْ لِلنُّكْتَةِ الْمُبْتَذَلَهْ
وَحَاوِرْن مَقَالَةَ الأَكْيَاس كَمَا جَرَتْ عَوَائِدُ النَّاس
وَلاَ تَكُنْ فِي غَايَةِ التَّعْجِيلِ فَرُبَّمَا وَقَعْتَ فِي التَّخْجِيلِ
وَلاَ تَكُنْ مُشْتَغِلاً بِالْغِيبَةِ فَإِنَّهَا مُصِيبَةُ الْمُصِيبَةِ
ولا تَصِحْ يَوْمًا إِلَى النَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا شَنَاعَةٌ عَظِيمَةَ
وَاجْتَنِبْ اللِّوَاحَ والمِزَاحَا ولا تكُنْ بَيْنَهُمْ مِلْحَاحَا
وَلْتَحْذَرَنَّ كثْرَةَ الْمجُونِ فَإِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْجُنُونُ
وَلاَ تُعَاشِرْ عُصْبَةَ الْعَوَام فَإِنَّهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الأَنْعَام
وَلاَ تُصَاحِبْ مَنْ بِهِ جَفَاءُ فَإِنَّمَا صُحْبَتُهُ جَفَاءُ
وَمَنْ يَكُنْ فِي نفْسِهِ ذا عَرْبَدَهْ فَإِنَّمَا تَرْعَتُهُ مُبَدَّدَهْ
صُحْبَتُهُ تُورِثُكَ الْمَلالا فَلاَ تكُنْ بَدَلاً وَلاَ مَلالاَ
وَالشَّدْيُ كُلَّ الشَّدْيِ في اللِّجَاجِ وَالْحُرُّ مَهْمَا عَاش لاَ يُدَاجِي
وَلاَ تمِلْ لِزَهْرَةِ الرِّيَاضِ وَمِلْ إِلَى الْعُلُومِ بِانْتِهَاضِ
لا تَحْمِلَنَّ النَّفسَ فَوْقَ الطَّوْقِ فِي حُبِّ ذَاتِ بِمِعْصَمٍ وَطَوْقِ
يَشْرُقُ الْكَوْكَبُ فِي الدَّيْجُورِ أَوْ جَامَةٌ صِيغَتْ مِنَ الْبَلُّورِ
لا تَشْرَحَنَّ لاعِجَ الإِشْرَاقِ وَدَعْ هَدِيلَ الْوَرْقِ فِي الأَوْرَاقِ
وَلاَ تَكُنْ حَمَامَةَ الأَرَاكِ تَشْدُو عَلَى الأَغْصَانِ بِالْبَوَاكِي
وَلا تَمِلْ لِنَغْمَةِ الرَّبَابِ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمُصَابِ
إِيَّاكَ إِيَّاكَ تَرَى الرَّبِيعَا وَحَاذِرَنْ فِيهِ الْمُرِيعَا
لا تَنْقُلَنَّ الرِّجْلَ لِلأَزْهَارِ عَلَيْكَ بِالْخَلْوَةِ وَالأَذْكَارِ
فَاسْمَعْ كَلامِي يَا أَخِي وَاعْتَمِدْ وَصِيَّتِي وَأَخْبَارِي مِنْهَا فَاسْتَفِدْ
429 وَلاَ تُخَالِفْ مَا أَقُولُ تَنْدَمِ وَلا تَمِلْ لِلْجَاهِلِينَ تَعْدَمِ
لاَ تَرْكَبِ الْجِمَالَ وَالأَرْحَالَ لاَ تَصْعَدِ الْجِبَالَ وَالتِّلالَ

لاَ تَرْكَبِ الأَنْهَارَ وَالْبِحَارَا ... لاَ تَسْلُكِ الْبَيْدَا وَالْقِفَارَا

إلاَّ لِعِلْمٍ أَوْ عُلُوِّ السَّنَدِ ... عَنْ كُلِّ شَيْخٍ فَاضِلٍ مُعْتَمَدِ

أَوْ مُرْشِدٍ يَهْدِيكَ لِلسُّلُوكِ ... إِلَى جَنَابِ مَلِكِ الْمُلُوكِ

فَارْحَلْ لَهُ مُجْتَهِداً بِالسَّبْقِ ... بِهِمَّةٍ طَالِبَةٍ لِلصِّدْقِ

وَحَصِّلِ الْبَيَانَ وَالْمَعَانِي ... وَاتْرُكْ مَبَانِي الْخَلْقِ وَالْمَعَانِي

وَالْفِقْهَ وَالأُصُولَ وَالتَّوْرِيثَ ... وَالنَّحْوَ وَالتَّصْرِيفَ وَالْحَدِيثَ

وَاللُّغَةَ الْجَامِعَةَ الأَسْرَارِ ... وَالْبَحْثَ وَالتَّارِيخَ فِي الأَخْبَارِ

وَالطِّبَّ لِلأَبْدَانِ وَالْقُلُوبْ ... بِكُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ مَطْلُوبْ

وَاسْتَثْبِتِ الْمَنْقُولَ مِنْهَا ضَابِطَ ... وَحَقِّقِ الْبُرْهَانَ وَالْمَغَالِيطَ

وَسِرْ عَلَى مَسَالِكِ الْعُقُولِ ... عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْمَقْبُولِ

وَحَقِّقِ الأُصُولَ وَالْفُرُوعَا ... مَقِيسُهَا الْعَقْلِي وَالْمَسْمُوعَا

وَانْقُدْ مُطِيعاً لأُمُورِ الشَّرْعِ ... فِي حُكْمِ أَصْلِ دِينِهِ وَالْفَرْعِ

وَكَمِّلِ الإِيمَانَ بِالإِحْسَانِ ... وَاجْتَهِدَنَّ فِي طَاعَةِ الرَّحْمَانِ

وَاتْبَعْ الأَخْبَارَ فِي الإِرْشَادِ ... وَاجْتَنِبِ الأَغْيَارَ فِي الْعِنَادِ

وَارْفَعْ عَنِ النَّفْسِ طَوْقَ الْقَيْدِ ... وَانْفَذْ إِلَى طَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ

وَالْعَجَمِيِّ وَالسَّرِيِّ السَّقَطِي ... وَمَنْ قَفَا هَدْيَهُمْ فِي النَّمَطِ

لاَ سِيَّمَا الْحَارِثُ وَالْقُشَيْرِي ... وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ فِي السَّيْرِ

كَالْحُجَةِ الْمُجَدِّدِ الْغَزَالِي ... ذِي الْهِمَّةِ الْعُلْيَا فِي الرِّجَالِ

فَطَالِعَنَّ كِتَابَهُ الإِحْيَاءَ ... يُورِثْكَ التَّمْكِينَ وَالإِحْيَاءَ

وَكَالإِمَامِ الشَّاذِلِي الْمُؤْتَمَنِ ... قُطْبِ الْعُلاَ حَامِي الْحِمَى أَبُو الْحَسَنِ

أَخْبَرَنِي بِهِ غَوْثٌ عَلَى الإِسْرَارِ ... لاَ سِيَّمَا الْكَبِيرُ ذُو الْمِقْدَارِ

وَالْقُطْبِ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلاَنِي ... فَإِنَّهُ مُدَبِّرُ هَذَا الشَّأْنِ

وَالْكَوْكَبُ النُّورُ الْوَهَّاجُ ... قُطْبُ الْعُلاَ الْبَاهِي أَبِي فَرَاجِ

وَمَنْ لَهُ الأُسُودُ وَالأَفَاعِي ... عَنَتْ بِذُلٍّ أَحْمَدَ الرِّفَاعِي

وَمَنْ تَحَلَّى بِالْعُلاَ الْمَحْقُوقِ ... قُطْبِ الْكَمَالِ السَّيِّدِ الدُّسُوقِي

430 وَلاَ تَملْ لِسِّرٍ اَلسَّمْرَقَنْدِي وَاسْلُكْ طَرِيقَ اَلشَّيْخِ نَقْشَبَنْدِي
بَهَاءُ دِينُ اَلْحَقِّ وَالْجَمَالِ مَوْلَى اَلْمَوَالِي اَلْكُمَّلَ الأَبْطَالِ
هُوَ الَّذِي امْتَازَ بِنَقْشِ الذِّكْرِ فِي الْقَلْبِ بِالْإِخْفَاءِ دُونَ الْجَهْرِ
وَعَمِّرْ اَلْأَسْرَارَ بِالْمُوَاظَبَةِ وَاسْتَكْمِلْ الشُّهُودَ فِي الْمُرَاقَبَةِ
أُولئِكَ السَّادَاتُ وَالأَعْيَانُ عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ وَالرِّضْوَانُ
وَكَمْ كَرَامَةٍ لَهُمْ لا تُحْصَرُ تَوَارتْ فِي كُلِّ جَمْعٍ تُذْكَرُ
فَإِنْ تَرُمْ نَيْلَ مَقَامٍ عَالِ عَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ لِلأَحْوَالِ
وَمَا أَتَى عَنْ سَالِكِ اَلطَّرِيقَهْ فَكُنْ بِذَاكَ مُومِناً حَقِيقَهْ
وَمَذْهَبُ السُّنَّةِ هُوَ اَلأَحْسَنُ إِنَّ كَرَامَاتِ اَلْوَلِيِّ تُمكِنُ
وَقَدْ أَتَى بِنَقْلِهَا اَلْكِتَابُ وَاتَّضَحَ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ
سُبحنهُ مِنْ قَادِرٍ حَكِيمٍ أَنْعَمَ مَنْ شَاءَ مِنَ التَّكْرِيمِ
وَالْعَارِفُ الْكَامِلُ سِرِّ الْكَافِ وَالنُّونِ فِي مَظَاهِرِ الأَلْطَافِ
لَو لَمَسَ الصَّخْرَ لَفَاضَ نَهْرَا أَوْ صَحِبَ النَّجْمُ لَهَا وبَدْرَا
وَمَا لأَهْلِ الاعْتِزَالِ مُسْتَنَدٌ فِي قَوْلِهِمْ وَمَا عَلَيْهِمْ مُعْتَمَدُ
فَإِنَّهُمْ أَرْذَلُ خَلْقِ اللَّهِ قَدْ أَوْقَعُوا النَّاسَ فِي الاشْتِبَاهِ
وَأَنْكَرُوا الرُّؤيَةَ وَالصِّفَاتِ وَارْتَكَبُوا عَظَائِمَ الزَّلاتِ
فَلا تَكُنْ مِمَّنْ لَهُم يُصَافِي وَاخْلَعْ رِدَاءَ الْكِبْرِ وَالْخِلافِ
فَمَنْ يَحِدْ عَنْ سُنَنِ الطَّرِيقِ غَابَ بِلا شَكٍ عَنْ التَّوفِيقِ
فَهَا كَهَا وَصِيةٌ مِنْ مُرْتَضَى أَصْحَبهَا اللهُ الْقَبُولَ وَالرِّضَا
تَحْمِلُهَا اَلْمَلائِكَةُ الْكِرَامُ إِلَيْكَ يَا أَخِي وَالسَّلامُ
وَارْتَجِ الْإِحْسَانَ فِي الْخِتَامِ بِحَمْدِ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الأَنْعَامِ
مُصَلِّياً عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِي خِيرَةِ مَوْلاهُ مِنَ الْعِبَادِ
مُحَمَّدٌ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَهْلِ التُّقَى مِنْ بَعْدِهِ وَحِزْبِهِ
مَا اتَّضَحَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ أَوْ حَنَّ قَمَرِي عَلَى الْغُصْنَيْنِ

ومن مستفاداتي منه أيام ترددي إليه بقصد الأخذ، أن مسلم بن الحجاج قبر بنيسابور، وسبب موته أنه عقد له مجلس للمناظرة، فذكر له حديث فلم

يستحضره ولا عرفه ولا الجواب عنه، فانصرف *431* إلى منزله ليلا، فقُدِّمت له سلة من تمر أو تين، فاشتغل يبحث عن الحديث ويأكل من السلة، فأصبح وقد فني التمر، ووجد الحديث المسؤول عنه، فكان ذلك سبب موته، يعني بتخمة حصلت له بسبب ذلك. قال: ولذا قال ابن الصلاح: «وكانت وفاته بسبب غريب نشأ من غرة فكرة علمية».

ومنها، وقد جرى ذكر شمهروش قاضي الجن، وأن الشيخ ابن ناصر روى عنه بثلاث وسائط ، وأن شيخنا الحافظ إدريس كان ينكر ذلك، ويشنع على من يزعم ذلك. وأن بالأندلس اليوم جنيا صحابيا، قال: وهذه رسائله إلي، فاستغربت ذلك، وكدت أن أعده محالا وما هو كذلك. ففي ترجمة أبي الحسن الخلعي - من **طبقات السبكي**- عن أبي الفضل الجوهري الواعظ حكاية[1]، وأن أبا الحسن المذكور كان يعرض عليه قسطا من القرآن كل جمعة بعض مؤمني جن قصيبين الذين سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ .

ومنها، أن باني القلعة المشهورة بمصر- وسيأتي مزيد الكلام عليها- يوسف بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن شاذي بن مروان ، قال: ويوسف المذكور هو الملك الناصر بن العادل الأيوبي الكردي - يعني الأكراد - وإليه تنسب البئر المنحوتة الغريبة الصنعة بها. قال: وأما سارية المقبور بالقلعة فليس هو سارية بن زنيم الصحابي أو التابعي - على قول- بل هذا متأخر عنه، وكان من الأولياء .

قلت: وعامة الناس اليوم بمصر ينسبون القلعة والبئر ليوسف بن يعقوب عليه السلام، وقد غلطوا في ذلك، ولهذا سألت الشيخ عن ذلك، فرفع لي عنه النقاب بما هو في ذلك عين الصواب. وكذا يعتقدون في سارية المقبور بالقلعة أنه سارية بن زنيم الصحابي الذي قال فيه عمر: يا سارية الجبل. وليس كذلك لما علمت، والله ربنا أعلم، على أن السيوطي في **حسن المحاضرة** لم يذكره من الصحابة الذين دخلوا مصر[2].

1- انظر الحكاية في **طبقات الشافعية الكبرى**، ترجمة علي بن الحسن بن الحسين بن محمد القاضي أبو الحسن الخلعي، 3/ 297.

2- السيوطي، **حسن المحاضرة** : 1/ 177 - 180 .

ومنها، أن أبا عبد الرحمان السلمي[1] الراوي عن عثمان، ليس هو صاحب التفسير بل هو متأخر.

قلت: في **الطبقات الكبرى** للإمام السبكي أن اسمه «محمد بن الحسين، ولا عبرة بمن تكلم فيه، ولا بوصف الحافظ الذهبي له ولتفسيره المسمى **حقائق التفسير**، وإنما كثر الكلام في تفسيره هذا من قبل *432* أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات، ومحال للصوفية ينبو عنها ظاهر اللفظ»[2] . وولد سنة ثلاثين وثلاثمائة على الصحيح وتوفي سنة عشر وأربعمائة .

ومنها، أن أبا الحسن علي بن الحسن الخلعي الشافعي صاحب **الفوائد**، هو الذي بالقرافة بمصر. ومن الغرائب أن ببغداد- في عصره - حافظا اتفق معه في الاسم والكنية، واسم الأب والجد ولهذا سُداسيات. قال الشيخ صاحب الترجمة: أفردتها في رسالة.

ومنها، ما أنشد لشيخه أبي زيد العيدروسي، وقد جرى بيننا وبينه ذكر من يأتي للأخذ عن عالم فيظهر علمه، وأنه ليس من الأدب في شيء :(من الخفيف)

مَنْ أتانَا ببَيَاضٍ لَمْ تكُنْ فيهِ كِتابَـهْ كَتبَ الإرْشادَ مِنّا فيه مِناهِجُ الإصَابَهْ

ومن الذين ضمني وإياه ناديه السعيد - وكان من الفضلاء ولم أكن اجتمعت به قط لا قبل هذا اليوم ولا بعده- الشيخ حسن أفندي الحنفي المذهب، الغُزي - بضم الغين- نسبة للغز المالك الذين تملكوا على مصر في هذه الأزمان. و سأل الشيخ، بل وقصدني بالسؤال أيضا عن توأمين خرج أحدهما إثر الآخر بلا مهلة، أيهما أكبر من الآخر؟ فسكت الشيخ، وكأنه لم يستحضر جوابا. فقلت: قرينان، والله أعلم. إذ لما لم يأت خروجهما في العادة دفعة واحدة اقتضت حكمة الباري سبحانه تعاقبهما. قال أفندي: نزلت في

1- محمد بن الحسين بن موسى الأزدي أبو عبد الرحمن السلمي جدا لأنه سبط أبي عمرو إسماعيل بن نجيد السلمي النيسابوري بلدا كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان اختلف في ولادته ما بين 325 أو 330 هـ توفي سنة 412 هـ. انظر ترجمته في : السبكي، **طبقات الشافعية** ، 3/ 60.

2- م . س ، 3/ 60.

العجم في حمل من سلطان للك، فقضى بالخلافة للسابق منهما خروجا، جريا على قرانيتهما في الخلافة.

وعن قوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾ الآية[1]. هل هي من باب الكل المجموعي، أو الجميعي يعني الكلية؟ فأجبت بالثاني، يعني المراد: اغسلوا جميع الوجه واليدين والرجلين، وامسحوا الرأس كلا أو بعضا على الخلاف في الباء، هل هي للإلصاق أو التبعيض. فقال معترضا: دلت الآية على غسل جميع الوجه لعدم تعدده. وأما اليدان والرجلان من كل شخص شخص، فليس فيها دليل على وجوب غسل الجميع من الكل، بل تصدق على غسل اليد من شخص والرجل من آخر، مثلا يحرر على أن مقتضى الآية وجوب غسل البعض من اليدين والرجلين.

فقلت: السنة بينت مراد الآية، وأوجبت غسل *433* الجميع من كل شخص. فقال: سلمنا، والآية لا تقتضي ذلك. فقلت: الخطاب أولا مصروف لكل بالغ عاقل ذكرا كان أو أنثى، فلو قيل في غير القرآن: اغسل وجهك وأيديك وأرجلك، أيحتمل غسل واحدة دون الأخرى؟ هذا خُلْف. وأيضا لما سلم انسحاب الأمر بالغسل على جميع الوجه، لزم انسحابه على جميع الأيدي والأرجل من كل شخص. ولا يقصر على البعض إلا بدليل، وهو قائم من السنة على غسل الجميع.

وسأل عن مقابلة الجمع بالجمع، هل هي من باب الكل والكلية ؟ فأجبت بأنها ترد لكل منها. فمن الكلية الآية السابقة . ولما ورد ابن رشد على الديار المصرية وحضر مجلس العلم بها، وجدهم يتحدثون في تفسير الكعبين، هل هما الناتئان على أنهما الناتئان للواحدة إنما يتقرر في الساقين أو اللذان عند معقد الشراك بذكرهم هذه الآية . وقال إنها تدل على أنهما الناتيان في كل رجل، لأن أرجلكم جمع مضاف إلى الضمير فهو بمعنى الكلية لا بمعنى الكل، والرجل الواحدة إنما يتقرر فيها كعبان اثنان على تفسيرهما بالناتيين، وأما موضع معقد الشراك، فليس في كل رجل منه إلا واحد فقط . فاستحسنوا ذلك منه.

---

1 ـ المائدة: 7.

ومنها، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[1] حيث لم يقل أدباركم، لأن كل واحد إذا ولى دبره كان ذلك سببا لتولي غيره، فهذا إشارة إلى أن كل واحد مكلف بفعل نفسه وبفعل غيره بهذا المعنى. وما ذكره ابن عطية هنا لا يناسب وهو محمول على قلة الناس وعدم القدرة على المقاتلة .

ومنها، «إنما الأعمال بالنيات»[2] ، فهومن باب مقابلة الجمع إذ هو يلغي انقسام الأبعاد على الآحاد.

ومنها، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في سورة آل عمران[3] ،أي كل واحد اتبع هوى نفسه .

ومنها، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[4] ،أي على قلب كل واحد منهم أكنة باعتبار تتبع أفراد القلوب.

ومنها، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[5] ،فالمراد اذكروا في كل يوم إلا في جموع الأيامَ، وليذكرَّ كل واحد ممن حضر منى وغيرهم على سبيل التشبيه بهم ومن الكل: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا *434* دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾[6]، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾[7]، ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ اسْتِكْبَارًا﴾[8] إذ ليس المراد ليدخل كل فرد على كل فرد، ولا أن اليدين معا ترد في الأفواه أو الأصابع كلها في الآذان، هذا إن حمل الرد والجعل على حقيقتهما، وإلا فليس

---

1 ـ الأنفال: 15.

2ـ الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان والنذور، باب النية في الايمان، رقم6، 6311/ 2461 ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة باب قوله ﷺ إنما العمال بالنية، رقم9073، 1/ 1515.

3 ـ جزء من الآية 15 من سورة محمد بدل آل عمران .

4 ـ الانعام :26.

5– البقرة :201.

6 ـ المائدة: 26.

7 ـ إبراهيم :12.

8 ـ نوح :7.

من هذا القبيل. ومن الكل: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1]، إذ المراد النهي عن اتخاذ مجموع الإثنين إلهين لا اتخاذ كلّ واحدَ على حدته.

ومنه، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[2]، لقول الفخر الرازي: لا دليل فيه لمنكري الشفاعة، لأنه بمعنى الكل لّا الكلية. ومعلوم أن بعض الظالمين لا ناصر له، ويحتمل الوجهين قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾[3]، إذ يحتمل أن يكون من باب الكل أو على التوزيع. ولم يعترض صاحب الترجمة شيئا من أجوبتي، فحرر ذلك.

وقد آن ذكر ما أجازني به صاحب الترجمة، بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ وعلى آله وأصحابه، وكتبه لي بخطه: (من الرجز)

اَلْحَمْدُ لِلـهِ اَلْمُفِيـضِ اَلنَّاصِـرُ ... اَلْمُنْعِـمُ الهَادِي مـرقـي القَاصِـرُ
مُطْلِعُ شمْسِ اَلْفَضْـلِ بِالعِنَايَـةِ ... إلى سَمَـاءِ رَفَعَـتِ الرِّوَايَـةِ
مَـنْ جَعَلَ السَّـادَاتِ أَعْنِي العُلَمَا ... وَرَثَـةَ الأَنْبِيَـاءِ وَالْعُظَمَـا
فَهُمْ هُـدَاة لِطَرِيـقِ الْحَـقِّ ... وَرَحْمَـةً شَامِلَـةً لِلْخَلْـقِ
ثُمَ الصَّلَاةُ وَالسَّـلَامُ أَبَـدَا ... عَلَـى النَّبِـيِّ الْهَاشِمِيِّ أَحْمَـدَا
مُحَمَدٌ خَيْـرُ نَبِـيّ أُرْسِـلَا ... وَآلِـهِ وَصَحْبِـهِ وَمَـنْ تَـلَا
وَبَعْـدُ فَالسَّعِيـدُ مَـنْ تَوَفَّقَـا ... لِطَلَبِ الْعِلْـمِ الشَّرِيـفِ مُطْلَقَـا
وَالْعِلْـمُ مِـنْ أَنفَسِ مَا يُدَّخَـرُ ... لِلدِّيْنِ وَالدُّنْيَـا لِخَيْـرٍ يُذكَـرُ
فَهُـوَ حَقِيقَةً أَجَـلُّ مَرْتَبَـهْ ... إِلَى الْمَقَامَـاتِ الْعُلَـى مُقَرِّبَـهْ
لا سِيَّمَـا الْحَدِيثِ يَـا ذا الْفَهْـمِ ... فَإِنَّـهُ لاشَـكَ أَوْعَـى عِلْـمِ
وَكَانَ مِمَّـنْ يَسَّـرَ الإِلاهُ لَـهُ ... يَلِيـهِ بِأَخْـذٍ وَسَمَـاعٍ حَصلَـهُ
الْسَّيِّدُ النَّـدْبُ الذكـي الأَلْمَعِيُّ ... الْثِّقَـةَ الأَرْضَ الْنَّبِيـهُ اللَّوْذَعِـي
سُلالَـةُ الأئِمَـةِ الأَنْجَـابِ ... إِنْسَانُ عَيْنِ السَّـادَاتِ الأَقْطَـابِ

1 ـ النحل :51

2 ـ البقرة :269.

3 ـ الكهف :31.

مُحَمَّدُ الْمَــــوْلَى الإنْعَــــام سَليلُ قُطْـبِ عَبْـدِ السَّـــــلامِ
نَجْـلُ مُحَمَّـدِ ابْـنُ نَاصِـــــر أُولـِي الْعُلَـى وَالْمَجْدِ وَالْمَفَاخِرِ
بَلَّغَـهُ اللـهُ إلَـى الأعْمَـــالِ غَايَتُهَـا الْجَميلَــــةُ الْجَمَـــال
435 مَقَامُهُـمْ رِفْعَتُـهُ عَظِيمَـه وَبَيْتُهُـمْ شُهْرَتُـــهُ قَديمَــــهْ
كُـلُّ رِيَاسَــــةٍ أَتَـتْ فَعنْهُــم مَأْخُــوذَةٌ وَتُسْتَفَـــادُ مِنْهُـمْ
وَإنَّنِــي أَرْجُــوهُ يُحْيِـي الْمَيِّـتَ مِـنْ أَقْدَمِيْـهِ وَيُشَيِّـدَ الْبَيْتَـا
فَهُوَ الَّذِي قَـدْ عُرِفَـتْ حَقَائِقَهُ وَعَنْـهُ أَيْضَـا شِيَمٌ مِنْهُ بَارِقَـــهُ
وقـد أتـى بِفَضْلِـــهِ لَمَنْزِلِـــي سَمْـعِ مِـنْ حِفْظِـي حَديثِ الأَوَّلِ
ومِـنْ أوائِلِ الصِّحَـاحِ السِّتَـــةِ قِــرَاءة .... [4] عَــنِ الـتـثـبُـتِ
وَغَيْرُهَـا مِــنْ كُتبٍ وَالأَجْـــزَا يُضيقُ نَظْمِي أَنْ أُعَـدَّ عَجــزَا
وَقَــدْ سَأَلْــتُ رَبَّنَـا سُبْحَانَـــهْ لَـهُ عَلَـى مَا قَصَـدَ الإعَانَـــهْ
حَتَّى يَصِيـرَ حَافِـظَ الزَّمَـانِ وَعَالِمَـاً بِعِلْمِــــهِ الرَّبَانِـــي
وَقَـدْ أَجَزْتُـهُ أَقَــرَّ اللَّــــهُ بِـهِ عُيُـــونَ أُسْــرَةٍ تَهْــوَاهُ
فَكُـلَّ مَـا أَرْوِيـهِ بِالإجْمَـــالِ إجَـــازَةً تُــوذِنُ بِالاتِّـصَـــالِ
وَكُـــلِّ مسَـــامِع وَكُـــلِّ مَا لـي مِــنْ الْمُسَلْسَلات وَالْعَـــوَالِي
وَكُــلِ مَـا جَمَعْـتُ أَوْ أَلَّفْـــتُ وَكُلَّمَــا نَظَمْـتُ أَوْ نَثَـــرْتُ
فَلْيَبْــدُو بِالاسْنَــادِ فِــي الْمَجَالِ عَنِّــي بِإفْصَـــاحٍ وَلا يُبَــــالِي
بِشَرْطِـــهِ الْمُعْتَبَــرِ الْمقــررِ كَمَــا بِــهِ لَــوْحُ أَهْـلِ الأَثَـــرِ
وَلِــي شُيُــوخُ سَــادَاتٌ ثِقَــاةٌ سُــرَاةٌ عِشْــرَةٌ قَــادَةٌ أَثْبَـــاتٌ
أَحْوَالُهُــمْ قَيِّـدَتْ فِي الْمَعَاجِـمِ إِسْنَــادُهُــمْ يُعْـرَفُ مِنْ تَرَاجِمِـي
وَبَعْضُهُـمْ ذُكِـرَتْ فِــي أَلْفِيَّتِــي وَالْبَعْـضُ فِي تَـارِيخِ قَرْنِ الْمِائَـةَ
حَبَاهُـمْ اللهُ جَزِيـلَ الْعَفْــــوِ أَجَـلَّهُـمْ فِـي مُسْتَقَـرِّ الصَّفْــــوِ
وَأَرْتَجِــي مِنْــهُ بِــلا إهْمَـــالِ خَيْــرَ دُعَــاءٍ بِصَــلاحِ الْحَــالِ
فَدَعْــوَةُ الأَخِ بِظَهْــرِ غَيْــبِ مُجَابَــةٌ قَطْعَـــاً بِغَيْــرِ رَيْـــبِ

4- كلمة لم نستطع قراءتها.

حُـــرِّرَ فِـــي رَبِيـــعِ الأَوَلِ فِـي عَشْـرَةِ الأَوْسَـطِ وَفِي الأَوَلِ
سَنَـــةَ سَبْـعِ بَعْـدَ تِسعِينَ خَلَـتْ مِنْ بَعْدِ أَلْف مِـائَة قَـدْ كَمُلَـتْ
إلـهٌ يَقْضِيهَا بِخَيْـرٍ وَرِضَـى وَنَالَـهُ الْعَبْـدُ الْمُحِبُّ الْمُرْتَضَى
يُكَنَّى أَبَا الْفَيْـضَ بِغَيْـرِ مَـنِ نِسْبَتُـهُ تَنهى إلَـى الْحُسَيْـنِ
وَيَسْـأَلُ اللهَ الْهِبَـاتِ الْدَّائِمَـه فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَحُسْنَ الْخَاتِمَه
وَالْحَمْـدُ للهِ تَعَالَـى وَحْـدَهُ ثُمَ الْصَّـلاةُ وَالْسَّـلامُ بَعْـدَهُ
436 عَلَـى مُحَمَّدٍ خِتَامَ الرُّسلِ وَالآلِ وَالأَصْحَابِ أَهْلِ الْفَضْلِ
الْسَّابِقِينَ الْحَائِزِيـنَ الشَّرَفَـا وَحَسْبُنَـا اللهَ تَعَالَـى وَكَفَـى

قال: وهذه تفاصيل مسموعات سيدنا المجاز المشار إليه ومقروآته حفظه الله تعالى ونفع به وبأسلافه آمين. فأول ما سمعه من حفظي ولفظي حديث الرحمة المسلسل بالأولية، وحديث سلمة بن الأكوع، وهو أول ثلاثيات[1] كتاب البخاري، أملاء لسندهما ومتنهما، ومن خرجهما من الأئمة بالموافقات والإبدال. وقد كتب له ذلك بخط أحد السامعين لها في المجلس والتاريخ، وهو الفقيه النبيه أبو الحسن علي بن عبد البر بن علي الحسني الونائي الشافعي، ثم سمع في عشية يوم الخميس لأربع بقين من صفر الخير من السنة الأولى من كتاب الصحيح للإمام أبي عبد الله البخاري إلى قوله: «بوارده» ومن **صحيح** مسلم من أول كتاب الإيمان إلى آخر الباب وهو قوله: «بنحو حديثهم»[2]، ومن سنن أبي داود إلى قوله: «الخبث والخبائث»[3]، ومن **سنن الترمذي** إلى قوله: «فلا تقتتلن بعدي»[4]، ومن **سنن النسائي** المعروفة بالمجتبى إلى باب: «كيف

1- المراد بها: ما اتصل إلى رسول الله ﷺ من الحديث بثلاثة رواة، و تنحصر الثلاثيات في **صحيح البخاري** في اثنين وعشرين حديثا الغالب عن مكي بن إبراهيم وهو ممن حدثه عن التابعين وهم من الطبقة الأولى من شيوخه مثل: محمد بن عبد الله الأنصاري وأبي عاصم النبيل وأبي نعيم وخلاد بن يحيى وعلي بن عباس. انظر: حاجي، **كشف**...، 1/ 522.

2 ـ **صحيح مسلم**، كتاب الايمان، 1/ 38.

3 ـ **سنن أبي داود**، ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء «إذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث» رقم 6، 1/ 2.

4 ـ **سنن الترمذي**، باب ما جاء أنه لا صلاة الا بفاتحة الكتاب، «إني مكاثر بكم الامم فلاتقتتلن بعدي». رقم 1، 2/ 8.

يستاك»[1] ، ومن **سنن** ابن ماجة إلى قوله: «ليلها ونهارها سواء»[2] ، ومن مسند الإمام أحمد: رواية ابنه[3] أول حديث، ومن مسند الإمام الشافعي إلى قوله: «وبما أفضلت السباع كلها» [4] ، ومن مسانيد الإمام أبي حنيفة: تخريج الخوارزمي إلى تمام الخطبة، ومن **الموطأ** لإمام دار الهجرة إلى قوله: «وقت الجمعة»[5] ، كل ذلك بقراءة سيدنا المجاز المشار إليه. فسمع ذلك كله الجماعة السادات الفضلاء: سيدنا الفقيه الدين الثقة، العدل المرتضى، قاضي الجماعة بمراكش عز الدين أبو العز عبد العزيز بن العباس بن حمزة المطاعي الفزاري، وسيدنا أحمد بن عبد الرحمان الدمناتي، وسيدنا الفقيه الصالح العالم المدرس، سلالة الأشراف، شمس الدين أبو التوفيق محمد الصديق بن مولانا محمد الهاشمي بن مولانا علي بن عبد الله بن طاهر الحسني السجلماسي أدام الله فضلهم، ونفع بعلومهم المسلمين.

ثم في يوم السبت سادس شهر ربيع النبوي الأول قرأ علي سيدنا المجاز حفظه الله تعالى بعضا من **مسلسلات** ابن عقيلة، وهو شيخ مشايخنا، وناولتها له مع حاشيتي *437* عليها المسماة: **بالتعليقة الجليلة بمسلسلات ابن عقيلة**، ومن **الإصابة** للحافظ ابن حجر من ترجمة سارية بن زنيم إلى آخرها، ومن **الطبقات الكبرى** ترجمة سهيل مولى بن ظفر، ومن **الأنواع والتقاسيم** لابن حبان حديث حذيفة إلى سباطة[6] قوم[7]، وهو النوع الثاني إلى آخر الباب، ومن **تقريب التغريب** لأبن حجر إلى آخر خطبته، ومن **ديوان الضعفاء** للذهبي للتراجم، ومن **البدر المنير** للشعراني إلى آخر الخطبة، ومن **المستوفى** لابن دحية قصة الأعشى المازني، ومن **تاريخ ابن أبي خيشبة** ترجمة عمارة بن

1 ـ **المجتبى من سنن النسائي** ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الاسلامية حلب ، الطعة الثانية 1406/ 1986، باب كيف يستاك ، 1/ 9،

2 ـ **سنن ابن ماجة** ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ رقم 5 ، 1/ 4.

3 ـ أبو عبد الرحمان عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل . انظر الحديث رقم 1 من **مسند** الإمام أحمد .

4 ـ **مسند الشافعي** ، من كتاب الطلاق والرجعة ، باب ما خرج من كتاب الوضوء ، 1/ 8.

5 ـ **موطأ مالك** ، كتاب المدبر ، باب وقت الجمعة ، 1/ 9.

6- السُّباطة : الموضعُ الذي يُرْمَى فيه الترابُ والأوساخ وما يُكْنَس من المَنازل .

7- أخرجه ابن حبان في **صحيحه**، باب الاستطابة ولفظه : «عن حذيفة أن رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم فبال قائما ثم توضأ ومسح على خفيه»، رقم 1424 ، 4/ 272 .

عمير، ومن كتاب **الوهم والإيهام** لأبي الحسن القطان إلى آخر الخطبة، ومن جزء بن هزار مرد الصريعني حديثا واحدا، ومن الأدب المفرد للبخاري حديثا واحدا، ومن **مختصر السيرة** للشمس الريادي إلى آخر الخطبة، ومن **ذيل تاريخ بغداد** لابن الفخار ترجمة علي بن ناصر النقيب العلوي، وفيها حديث مغيرة المسلسل بأشهد عليك بذلك، ومن تبيين كذب المفترى على أبي الحسن الأشعري إلى آخر الخطبة، ومن **السفينة البغدادية** لابن طاهر السلعي حديثا واحدا، ومن ترجمة الليث بن سعد لابن حجر حديثا واحدا، ومن الجزء الثاني من كتاب **الاختصاص وتشريف الفقر على الغنى** لأبي سعيد بن الأعراب حديثا واحدا، ومن سلام المومن لأبي الفتح بن الإمام إلى آخر الخطبة، ومن جزء الجمعة للنسائي حديثا واحدا، ومن طرق السلامة في مشيخة علي بن سلامة تخريج الحافظ تقي الدين بن مهدي ترجمة الشيخ الرابع والخمسين، ومن سداسيات الرازي ترجمة زهير بن جزء الجثمي، ومن مشيخة الفخر البخاري حديثا واحدا، ومن كتاب الطهور لأبي عبيد القاسم بن سلام الجمحي حديثا واحدا، ومن **معجم البلدان والقرى** لابن عساكر ترجمة، ومن جزء الحسن بن عرفة حديثا واحدا، ومن **الحربيات** لابن معين حديثا واحدا، ومن الجزء الثامن من **الموافقات والإبدال والعوالي** تخريج الحافظ صلاح الدين خليل بن محمد الأقفهسي من شيوخ القاضي أبي إسماعيل بن إبراهيم الكناني حديثا واحدا، ومن **التذكار في فضل الأذكار** للقرطبي إلى آخر الخطبة، ومن **المقاصد الحسنية** للحافظ السخاوي إلى آخر الخطبة، ومن **كتاب العلم** لأبي خيتمة زهير بن حرب النسائي حديثا واحدا، ومن الجزء الثالث عشر من *438* **أصول ساعات** أبي الحسن المصري تخريج أبي طاهر السلفي حديثا واحدا، ومن كتاب **المعجم الكبير** للطبراني إلى تمام نسب أبي بكر ﷺ، ومن أول **السنن الكبرى** للبيهقي ﷺ إلى آخر باب شعر النبي ﷺ، ومن دلائل النبوة له إلى آخر باب، ومن شعب الإيمان له من باب فضل من تعلم القرآن ثلاثة أحاديث، ومن **مسند أبي عوانة** من باب الترغيب لذكر الله عز وجل أربعة أحاديث آخرها قال: رواه عبد الرزاق عن معن عن أبي إسحاق مثله، ومن **كتاب الضعفاء** لابن الجوزي إلى آخر الخطبة، ومن **كتاب الضعفاء للعقيلي**

ترجمة أبي بن عباس، ومن **كتاب الصمت** لابن أبي الدنيا أربعة أحاديث من أوله، ومن **زوائد مسند البزار الليثي** حديثا واحدا من أوله إلى قوله عن أبي بكر، ومن **مختصر البداية والنهاية** لابن حجر إلى قوله: فمن المقدم، ومن **إتحاف المهرة** للشهاب البصري إلى آخر مقدمة الكتاب، ومن **الناسخ والمنسوخ** لأبي بكر الحازمي إلى قوله حتى جالسنا الشافعي، ومن **السنن الكبرى للنسائي** في رواية ابن الأحمر إلى قوله: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[1]، ومن **كتاب المجالسة** للدينوري إلى قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[2]، قال: نعم الله عز وجل، ومن مسند عبد بن حميدَ إلى قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، ومن **معجم الشيوخ** لأبي بكر المقري إلى آخر حديثَ «إنما الأعمال بالنيّة»، ومن **المستدرك للحاكم** حديث عمرو بن شعيب الذي فيه دعاء جبريل عليه السلام: «يا من أظهر الجميل»[4]، ومن **تاريخ ابن عساكر** ترجمة محمد بن عبيد بن عطارد، ومن **الإيضاح على المستدرك** للزين العراقي إلى آخر قول أبي بكر بن خير.

وحضر سماع بعض ماذكر من الكتب، السيد الشريف النجيب المستعد مولانا الحاج سيدي محمد الهادي بن مولاي علي زين العابدين بن مولاي محمد بن إدريس بن عبد الرحمان بن الحسين العراقي الفاسي حفظه الله تعالى.

ثم في يوم الإثنين ثاني من شهر ربيع الأول من السنة، قرأ على سيدنا المجاز المشار إليه – حفظه الله تعالى– من أول الخليعات المسماة **بالفوائد** لأبي الحسن علي بن الحسن الخلعي المصري وهي عشرون جزءً، ومن **اختصار المغازي والسير** لابن عبد البر إلى آخر الخطبة، ومن **مختصر الصحيح** لابن خزيمة *439* وهي القطعة من باب الطهارة بخط الحافظ ابن حجر إلى آخر حديث الوضوء، ومن جزء **الرد على الجهمية** لنفطويه إلى آخر الخطبة، ومن **كتاب القناعة** لأحمد بن محمد بن مسروق الطوسي أول حديث، ومن

---

1 ـ **سنن النسائي الكبرى**، كتاب الطهارة باب الترغيب في السواك، 1/ 64.

2 ـ إبراهيم: 7.

3 ـ إبراهيم: 38.

4 ـ **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح، رقم 1998، 1/ 729.

جزء الأنصاري تخريج ابن شاهين الحوشي أول حديث، ومن **اقتضاء العلم العمل** للخطيب البغدادي إلى قوله: شرا شره، ومن الجزء السابع من **فوائد** أبي عبد الله الثقفي حديثا واحدا، ومن **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص** للسيوطي إلى آخر المقدمة، ومن **بيان الأوهام في كتاب الأنواع والأقسام** للحافظ محمد بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي حديثا واحدا، ومن **كتاب السنة** لأبي القاسم الألكائي الموالي قوله أما بعد، ومن **شرح الأسماء والصفات** لعبد القاهر التيمي، ومن **شرح الأسماء والصفات** للبيهقي إلى آخر المقدمة، ومن **عوارف المعارف** للسهروردي إلى آخر الخطبة، ومن الثاني من **معجم شيوخ أبي علي الحداد** حديثا واحدا، ومن **الأربعين المتتالية النساعية** للبدر بن جماعة أول حديث، ومن **عوالي أبي الفتح** حديثا واحدا وهو حديث الأولية، ومن **معجم** أبي يعلى الموصلي حديثا واحدا، ومن **آمالي** أبي بكر الخطيب حديثا واحدا، ومن **مشيخة أبي عبد الله البياني** حديث الأولية، ومن **البعث والنشور** لإبي بكر بن أبي داود حديثا واحدا، ومن **الداء والدواء** لإبن القيم إلى آخر المقدمة، ومن **معجم شيوخ ابن النجار** تخريج البرزلي حديثا واحدا، ومن **الكاشف** للذهبي إلى أول ترجمة، ومن **الناسخ والمنسوخ** لأحمد بن أبي الرضى الحمولي إلى آخر الخطبة، ومن شرح حديث «أم زرع» للقاضي عياض إلى آخر المقدمة، ومن **الترخيص في الإكرام بالقيام** للنووي إلى آخر المقدمة وهي رسالة صغيرة للحافظ ابن حجر، ومن جزء ما ورد في غار حرا من مرويات ابن الجزري، ومن تخريج الحافظ تقي الدين بن مهدي وما ورد في يوم عرفة من مروياته تخريج المذكور أيضا من كل منهما حديثا حديثا، وهو الذي ضبط في تلك المجالس.

وأما أسانيدها المتصلة من شيوخنا إلى هذه الكتب وغيرها فإني أرويها ما بين سماع وقراءة وإجازة خاصة وعامة، وبالمراسلة والمساولة من عدة شيوخ، هم أهل الرسوخ، أعلاهم سندا وأكثرهم *440* مددا، شيخنا الفقيه المحدث نجم الدين أبو جعفر بن أحمد بن عقيل بن أبي بكر الحسني الشافعي المكي، فقد سمعت غالب ما ذكر عليه بمكة المشرفة بقراءتي والبعض بقراءته، وقد أجازنا فيها إجازة ينبئ ذلك خطه الكريم، وفيه ضبط تلك المسموعات

والتقييد لتلك المرويات. وقد روى هو كل ذلك عن الشيوخ الثلاثة ، خاله الإمام حافظ الحجاز عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم البصري الشافعي المكي، ورفيقه في الشيوخ الإمام المسند شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد النخعي الشافعي المكي، والمسند المعمر نادرة العصر أبي الأسرار الحسن بن علي بن يحي العجمي الحنفي المكي، وعلى هؤلاء الثلاثة مدار أسانيد الحرمين الشريفين، بل ومن والاهما من الأقطار النائية والبلدان الشاسعة . وكلهم رووا عن الإمام الحافظ شمس الدين بن محمد بن علاء الدين البابلي، وهو عن النجا سالم بن محمد السنهوري، وخاله الزين سليمان بن عبد الدائم البابلي، والشهابان أحمد بن خليل السبكي، وأحمد بن محمد بن يونس الحنفي الشهير بابن الشلبي، والشيخ عبد الرؤوف المناوي، وعبد الله بن عبد الرحمان الدنوشرى، والمعمر محمد بن محمد بن عبد الرحمان الأنصاري الواعظ. سمعتهم عن الإمام نجم الدين محمد بن أحمد الغيطي، عن شيخ الإسلام زكرياء بن محمد الأنصاري، عن الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بأسانيده المعروفة . وروى البابلي الحافظ أيضا عن المعمر نورالدين علي بن يحيى الزيادي الشافعي، عن المسندين: يوسف بن عبد الله الأرميوني الحسيني، ويوسف بن زكرياء الأنصاري، كلاهما عن الحافظ أبي الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي، عن الحافظين ابن حجر والتقي أبي الفضل محمد بن محمد بن مهدي الهاشمي المكي. وروى اليوسفان أيضا عن الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي بأسانيده المعروفة، وروى البابلي أيضا عن الشهاب أحمد بن عيسى بن جميل الكلبي، عن النور علي بن أبي بكر القرافي عن السيوطي، وروى البابلي أيضا عن النور علي بن محمد الأجهوري، عن البدر الكرخي وعمر بن الجابي الحنفيين كلاهما عن السيوطي، وروى البصري[1] والنخلي[2] أيضا عن الإمامين المسندين أبي عبد الله محمد بن محمد بن سليمان السوسي وأبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي، وأسانيدهما معروفة. ومن مشاييخ

1- عبد الله بن سالم البصري .

2- أحمد النخلي المكي.

البصري والنخلي والعجيمي الأخوان الأصيلان زين العابدين *441* وعلي ابن الإمام المقام عبد القادر بن محمد الطبري كلاهما عن المعمر عبد الواحد ابن إبراهيم بن أحمد الحصار، عن الشمس القرني، عن الحافظ بن حجر وهو عال. وأخذ الأخوان أيضا عن والدهما المذكور وهو عن جده يحيى بن مكرم المجدي، عن كل من زكرياء والسخاوي والسيوطي، وأخذ العجمي عاليا عن أبي الرجا أحمد بن محمد بن عجيل اليمني، وهو بالعلو عن يحيى بن مكرم الطبري. ومن مشايخي المسند المعمر محمد بن علاء الدين الحنفي الزبيدي، وهو يروي **صحيح** البخاري إجازة عن البرهان بن حسن الكوراني المدني، عن المسند عبد الله بن سعد الله الحنفي المدني، عن القطب محمد بن أحمد بن عبد الله الطاووسي، عن المعمر ثلاثمائة سنة بابا يوسف الهروي، عن محمد ابن شاذبخت الفرغاني، عن يحيى بن عمار بن شاهان الخيلاني، عن محمد بن يوسف الفزري عم أبي عبد الله البخاري، وهذا عال جدا كما ترى. وروى شيخنا أيضا عن والدي، وعن الوجيه عبد الرحمان بن أبي محمد الذهبي، كلاهما عن إبراهيم الكوراني. وروى يحي بن عمر بن عبد القادر الحسيني الأهدل، عن القاضي أحمد بن إسحاق بن محمد بن جمعان بسنده المسلسل بالحصانة[1]. ومن مشاييخي الإمام المسند رضى الدين عبد الخالق بن أبي بكر الزجاجي الحنفي الزبيدي، وهو روى عن مسند اليمن عبد الفتاح بن إسماعيل الخاصر، عن ولده بسنده المسلسل بني الخاصر. وروى أيضا عن الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكي صاحب المسلسلات بسنده عن شيوخه فيها، وعن السيد يحيى بن عمر بن عبد القادر الحسيني عن العجيمي بسنده، وعن القاضي أحمد بن إسحاق بسنده، وعن السيد يوسف بن محمد البطاح عن عمه أبي بكر بن علي عن الوجيه عبد الرحمان بن علي بن الربيع الشيباني صاحب **تمييزالطيب من الخبيث**، وعن مشايخي الشهابان محمد بن عبد الفتاح الملوي وأحمد بن الحسن بن عبد الكريم الخالدي، وشيخ الجماعة عبد الله بن محمد بن عامر الشربري، والسيد المعمر عبد الحي بن الحسن الحسني البهني، ثلاثتهم عن البصري، والنخلي، ومحمد بن عبد الباقي بن

1 – كلمة غير واضحة رسمناها هكذا.

يوسف الزرقاني شارح **المواهب**، ثلاثتهم عن البابلي. وأخذ مشايخنا الثلاثة عن مسند القاهرة أبي العز محمد بن محمد بن العجيمي عن البابلي، ومحمد ابن عمر الشربحي، ومحمد بن أحمد الحمري. ومن مشايخي: القطب نجم الدين أبو المكارم محمد بن سالم *442* بن أحمد الحنفي الشافعي، وهو يروي عن محمد بن عبد الله السجلماسي، وعبيد بن علي بن عساكر النمرسي، وعبد الوهاب بن أحمد الطنتدادي، والشمس محمد بن عبد العزيز الزيادي الحنفي، كلهم – سوى الأخير– عن البصري، والأخير عاليا عن البابلي. ومن مشايخي: المسند نور الدين أبوعلي الحسن بن علي المدابقي الشافعي، وهو يروي عن أبي حامد محمد بن محمد البديري الشهير بابن الميت، وعبيد وعبد الوهاب المذكورين، والشهاب أحمد بن محمد الخليلي، والشيخ منصور المنوفي، وعبد الجواد الميداني الأخير عاليا عن البابلي. وروى ابن الميت عن إبراهيم الكوراني وزين الشرف ابنة عبد القادر الطبري، وعلي بن علي الشبراملسي بأسانيدهم. ومن مشايخي: السيد محمد التليدي الحسني، وهو يروي عن سليم الشبراختي، ومحمد بن عبد الباقي الزرقاني، والشمس محمد ابن قاسم البقري، والشيخ إبراهيم الفيومي. روى البقري عاليا عن عمه موسى بن إسماعيل، عن القطب سيدي عبد الوهاب الشعراني، قدس سره. ومن مشايخي: إمام الحرمين – بالإجماع – الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد ابن الطيب بن محمد الفاسي، نزيل المدينة المنورة، وهو يروي عن والده، والإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي، وسيدي محمد بن المسناوي، وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، وأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي، وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي صاحب **المنح**، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحسني العلمي، وأبي عبد الله محمد بن محمد ميارة، وأبي عبد الله محمد بن محمد الأندلسي الفاسي، والمعمر أحمد بن علي الوخلي، وأبي عبد الله محد طار بن إبراهيم الكوراني، والحسن بن علي العجيمي الأخير مكاتبة بواسطة والده. فالأول يروي عن والده، وعنه محمد بن محمد الفاسي، وأبي الوفا الحسن ابن مسعود اليوسي، ثلاثتهم عن القطب أبي الاحسان ابن ناصر. والثاني

عن إمام الجماعة عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي بسنده . والثالث عن والده العز بن يوسف، وعمه أحمد بن علي . والخامس عن محمد بن عبد القادر، وابن المسناوي، وابن ناصر، وإبراهيم الكوراني، والعجيمي . والسادس عن والده، وعن عمه، وعن جده، وأبي سالم العياشي، ومحمد المرابط، والعجيمي، والكوراني، ومحمد الخرشي، وعبد الباقي الزرقاني . والسابع عن إبراهيم*443* بن محمد الدرعي، عن أبيه، عن البابلي، وعن الثاني عن عبد القادر الفاسي، ومن بطبقته . والتاسع كذلك والعاشر عن ابن المسناوي محمد المرابط وغيرهم . ومن مشايخي آخرون غير من ذكرت ما بين مشارقة ومغاربة منهم: السيد نفيس الدين سليمان بن يحيى بن عمر الحسيني الشافعي الزبيري، والسيد العلامة مشهور بن المستريح الأهدل، والسيد الصوفي سليمان بن أبي بكر الهجام الحسني، والسيد العارف عبد الله ابن أحمد الحسني صاحب التحية، وعبد الغني بن محمد البحراني نزيل مخا، والقطب الكامل عبد الله بن إبراهيم الحسني الشهير بالمرغني، والشهاب أحمد بن عبد الرحمان الأشبولي، وأبو الحسن بن محمد السندي، والأثري، وإسماعيل بن عبد الله المدني الحنفي، والسيد الفقيه علي بن موسى بن شمس الدين الحسني، والعلامة محمد بن يوسف الدمياطي، وعمر بن علي بن يحيى الطحلاوي، وسالم بن أحمد النفراوي، وسليمان بن مصطفى المنصوري، وأبو السعود محمد بن علي الحنفي، وشعيب بن إسماعيل الأدلبي، ومصطفى ابن عبد السلام المنزلي، وعبد الله بن موسى بن عبد الرزاق المحلي، وعلي ابن محمد الشناوي، ومصطفى بن عبد الفتاح النابلسي، وأحمد بن أحمد الموقت المقدسي، هؤلاء مشارقة. ومن المغاربة: علي بن محمد السوسي، ومحمد بن عبد الله بن أيوب التلمساني، والمؤرخ محمد التاودي بن الطالب ابن سودة الفاسي. وممن أجازني بالمراسلة: خاتمة المحققين الشهاب أحمد بن علي بن عمر المنيني الحنفي من دمشق، والمسند المعمر محمد بن علي السليمي الصالحي من دمشق، وأبو المواهب محمد بن صالح الحنفي، والمحقق طه بن محمد بن زين باسميط من شبام بحضر موت، والشيخ يحيى الشطبي من تعز والسيد إبراهيم بن عيسى الحسني إمام كوكبان، والمسند المعمر محمد بن أحمد

ابن سالم الحنفي من نابلس، وأبو عبد الله محمد بن علي بن خليفة الغرياني من تونس، وأحمد بن الحسين بن نعمة الله من ثغر الرشيد وغير هؤلاء من لا أحصي جميعهم الآن . وقد ذكرتهم في معاجمي ومشيخاتي، وبعضهم مذكور في **ألفية السند**. وكلهم موصوفون بالعدالة والصلاح، منتظمون في سلك ذوي الصلاح، تغمدهم الله بعفوه، ورواهم من سلسبيل الجنة بصفوه، وأسانيدهم مشهورة في صحف المسموعات مسطورة، وإجازتي بها في السماعات مذكورة، نفع الله بها ووصل أسباب *444* الخير بسببها، وأوزعنا وإياهم شكر نعمته، وجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمته على بساط أنسه في حضيرة قدسه .

قد أجزت سيدنا المشار إليه ومن سمى معه في هذه المجلة إجازة مطلقة خاصة عامة بَتلَة، وكذا أجزت كل من تأهل بحمل هذا الفن من طلبة العلم الشريف بالزاوية المباركة الناصرية، وأخص منهم: الإمام الفاضل العارف الصالح الناسك العارف سيدنا ومولانا عمدة المدرسين الكرام، شهاب الملة والدين، أحمد بن الحسين بن علي الجزولي، سبط القطب ابن ناصر نفع الله بعلومه وأذاق الطلاب حلاوة فهومه، فقد أجزته أن يروي عني الكتب الستة، وسائر ما يجوز لي وعني بشرطه المحرر عند أهل الأثر، إجازة بَتَّة بَتْلَةً[1]. وأرجو أن لا ينساني مما أنا إليه فقير ومحتاج من بذل صالح دعاء يكون سببا للرواح، نفع الله بهم المسلمين؛ وأرجو منهم صالح الدعوات في الخلوات والجلوات، والله يبقيهم بقاءً جميلا، ويمد عليهم من العناية الصمدية ظلا ظليلا، ويعيد علينا من بركتهم وبركة أسلافهم، ويحفظهم بمعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم، إنه بالإجابة جدير وهو على كل شيء قدير. قاله بفمه ورقمه بقلمه، الفقير إلى مولاه الشاكر على ما أولاه أبو الفيض محمد مرتضى ابن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي العراقي الأصل الزبيدي، نزيل مصر وخادم علم الحديث بها، غفر الله زلله وأصلح خلله وتقبل عمله وبلغه أمله؛ انتهى ليلة الخميس لخمس بقين من شهر ربيع

1- بتل : البَتْل القَطْع بَتَله يَبْتِله ويَبْتُله بَتْلاً وبَتَّله فانْبَتَل وتَبَتَّل أبانَه من غيره ومنه قولهم طلقها بَتَّةً بَتْلَةً. انظر: **لسان العرب** مادة «بتل»، 11/ 42.

الأول سنة سبع وتسعين ومائة وألف، أحسن الله تمامها وأسعد عامها وقدر لي خير ختامها، ومولدي في العشر الأول من محرم سنة خمس وأربعين ومائة وألف، حامدا لله ومصليا ومسلما على نبيه وآله ومحسبلا ومستغفرا [1].
انتهى لفظ ما أجازني به على ما فيه من الطول، والقصد إن شاء الله تعالى أن يكون الكتاب ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فذلك أدعى لنشاط الناظر:

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة　　إلا التنقل من حال إلى حال

ومما أخذت عن صاحب الترجمة الطريقة النقشبندية، مع أني بحمد الله شاذلي الطريقة، لكن القصد الأعظم هو التبرك بها وبأصحابها، وأجازني فيها، وقيد لي بخطه بعد البسملة والحمد لله والصلاة على النبي ﷺ ما نصه: سبحان المتجلي عن عباده بصفتي *445* العطف والإنعام، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد صفوة الأنام، ورسول الملك العلام، وعلى آله الأعلام، وصحابته الكرام، وسلم تسليما وبعد: فهذه نبذة صغيرة أذكر فيها حصول الكمال للسالك وكيفية الوصول له إلى الله تعالى على طريقة السادة النقشبندية - قدس الله أسرارهم- وسميتها: **بالمنح العلوية في الطريقة النقشبندية** والله أسأل العون والتوفيق والهداية إلى سواء الطريق.

فاعلم أنه لا يكون كمال السالك إلا بدوام العبودية، وهي لا تتصور بغير أداء العبادة، وهي عبارة عن دوام الحضور مع الله تعالى، فلا مزاحمة شعور بالغير مع الذهول عن صفة الحضور بوجود الحق سبحانه، ولا يتحصل ذلك إلا بتصرف الخدمة الإلهية، ولا سبب في طريق الخدمة أقوى من صحبة الشيخ الذي سلوكه بطريق الجذبة. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها لا تكون مثمرة، وإن أثمرت فلا لذة لتلك الثمرة؛ وسنة الله جارية على أنه لا بد من السبب .

فأول طريق الوصول إلى الله تعالى في هذه الطريقة محضر الصحبة بالشيخ الكامل والإقتداء بأفعاله الظاهرة وأحواله الباطنة. وليس هذا عندهم

1- ينظر نص الإجازة في م م و م م، رقم 88 ج (ضمن مجموع) ص 125 – 130 .

بالرابطة فإن تيسرت صحبته ورأيت أثره في نفسك ينبغي أن تحفظ ذلك الأثر الذي تشاهده فيك بقدر الإمكان، فإن حصل لك فتور في ذلك المعنى راجع مصاحبته حتى يرجع لك الحال، وهكذا تفعل مرة بعد أخرى حتى تصير تلك الكيفية ملكة لك، وإن لم يظهر لك من صحبته أثر ولكن حصلت به محبة وانجذاب فلتحفظ صورته في الخيال والتوجه بقلب الصنوبري حتى تحصل الغيبة والفنا عن النفس، وإن وقفت في الترقي فاجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن في خيالك، وتعبر من كتفك إلى قلبك أمرا ممتدا، وتأتي به الشيخ مع ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك، فيرجى لك بذلك حصول الغيبة والفنا .

والطريق الثاني للوصول إلى الله تعالى على هذه الطريقة العلية: الذكر وهو «لاإله إلا الله محمد رسول الله ﷺ» وكيفيته أن تجعل اللسان ملتصقا بسقف الفم والشفة بالشفة والأسنان بالأسنان، وتحبس النفس وتشرع في كلمة «لا» مبتدء بها من السرة وتصعد بها إلى جانب الدماغ، فإذا وصلت إلى الدماغ ملت ب«إله» إلى جانب اليمين و ب«إلا الله» إلى جانب اليسار *446* ورمت بها إلى القلب الصنوبري بقوة بحيث يظهر أثرها وحرارتها في سائر الجسد، وتميل بقولك «محمد رسول الله»- ﷺ - من جانب اليسار إلى جانب اليمين، أي تأتي بها في سائر الجسد بينهما، وتقول بعد ذلك بالقلب أيضا: «ﷺ»، إلهي ! أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي. ويكون ذلك كله بحيث لايظهر على ظاهره أثر حركة، ولا يشعر به من كان بقربه. يذكر هكذا مرة أو ثلاثا مراعيا في العدد الوتر، فإذا جاوز العدد إحدى وعشرين ولم يظهر عليك أثر من آثار تصرفات الجذبات الإلهية- والأثر يتفاوت بحسب الإستعداد للذكر- فهذا دليل على عدم قبوله، فليشرع في ابتداء الذكر من أصله. وأثر الذكر هو أنك في زمن النفي ينفى عنك وجود البشرية، وفي زمن الإثبات يظهر عليك أثر من آثار تصرفات الجذبات الألهية، والأثر يتفاوت بحسب الإستعدادات، فبعضهم أول ما يحصل له الغيبة عما سوى الله تعالى، وبعضهم أول ما يحصل له السكر والغيبوبة وبعد ذلك يتحقق له وجود العدم، وبعده يتشرف بالفناء وهو أعلى الدرجات وأتمها، أي لا يبقى السالك خير عما سوى الله تعالى. ويتصور المبتدئ في «لا إله إلا الله» لا معبود،

والمتوسط يلاحظ لا مقصود، والمنتهي لا موجود، وينبغي الاجتهاد في الذكر والمداومة عليه في كل حال .

والطريق الثالث الموصل إلى الله تعالى على هذه الطريقة التوجه والمراقبة، وهو ملاحظة اسم الله - جل جلاله- في خيالك بغير واسطة لسان، وتتوجه به بجميع فؤادك إلى القلب الصنوبري، وتداوم عليه، وتتكلف في ملازمته حتى تذهب الكلفة، ويصير ملكة لك، فإن عسر عليك فتخيله بصورة نور بسيط محيط بجميع الموجودات العلمية والعينية، واجعله في مقابل البصيرة، ومع حفظ ذلك توجه إلى القلب إلى أن تقوى البصيرة، وتذهب الصورة ويظهر المعنى المقصود . وطريقة المراقبة أعلى من طريق النفي والإثبات وأقرب للجذبة الإلهية من غيرها، ومنها يتوصل إلى مقام الإشراف على الخواطر والتربية للمريدين والتسليك ودوام الجمعية والوزارة العظمى والتصرف في الملك والملكوت.

خاتمة في بيان بعض آداب وسند هذه الطريق

فمن الآداب مراعاة وقته وتعميره بأنواع *447* العبادات والملازمة على الوظائف النهارية والليلية، وحفظ ما بين العشاءين عندهم من أهم المهمات، واحترام المشايخ، فإن في سوء الأدب معهم خاصية تقتضي سد الطريق على السالك، وعدم حصول الفيض .

ومن أشهر وظائفهم المرتبة: الختم المعروف بختم « خوجكان»، وقد نظمت، أبيات ليسهل الحفظ : (من الوافر)

إذا رُمْـت ختـمَ الخُوجْكَـانْ فسَبْعـاً إقْـرَأ السَّبْـعَ الْمَثَـانِ
وَصَـلِّ عَقبَيْـهِ أَلفـا تمَامـا عَلى الْهَـادِي الْحَبيـب بلا توَانِ
وَكرِّرْ وألَمْ نَشْـرَحْ بِصِـدْقٍ تعُـدُّهُ وَاحِـدًا بَعْـدَ الثَّمَـانِ
وَقلْ فِي سُـورَةِ الإخْـلاصِ ألفـا وَزِدْهُ وَاحِـدًا عِنْـدَ الْبَيَـانِ
وَعُـدَ الأوَّلِينَ بِصِـدْقِ عَـزم كمَا ذكَر تنَـل كُـلَّ الأمَـانِ
وَسَـلْ بَعْـدَ ذا مَـا شِئْـتَ تُعْـطَ وَتَحْظَـى بالْفتـُوحِ وَبالأمَـانِ

والخُوجْكانْ : لفظة فارسية، ومعناها: المشايخ[1]. والمراد بهم هنا جماعة من كبار هذه الطريقة وهم سبعة أنقاب، نسب إليهم هذا الختم، ويهدى لهم ثواب ذلك، ويستمد منهم حصول السر والفيض، والله أعلم .

وأما سند هذه الطريقة فقد أخذتها عن شيوخ أجلة هم بدور هذه الملة منهم: السيد الفقيه المحدث الصوفي ياسين بن محمد العباسي، وهو عن شيخ إرشاده أبي عبد الله محمد بن يحيى العباسي، عن عمه القطب سيدي محمد بن فضل العباسي، عن شيخ إرشاده القطب أبي عبد الله محمد الحسني الكلفو، عن القطب السيد ناصر الدين عبيد الله بن محمد الحسني السمرقندي الشهير بالأحرار، عن قطب هذه الطريقة وإمامها ورئيسها السيد بهاء الدين محمد

1- خواجْكان مفرد خواجه ويعني كذلك الكبير والوزير والثري. انظر : محمد التونجي، **المعجم الذهبي، فارسي - عربي**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص 243 .

بن محمد الحسني البخاري الشهير بنقشبند، وهو لقبه الذي وسمه به شيخه، ومعناه بالعربية : رابط النقش أي نقش الذكر في قلبه ذلك، لأن مشايخ هذه الطريقة كان جل أسمائهم على الجهر بالذكر، وكانوا يذكرون أيضا بالخفية إلى أن ظهر رئيس هذه الطريقة فأرشد الناس إلى ذكر القلب. وله نسبان: أحدهما بطريق الجهر عن الشيخ سلطان الدين، عن الشيخ أحمد مولانا، عن الشيخ بابا كمال الحيدري، عن القطب أبي الجناب أحمد بن عمر الخوارزمي الشهير بالكرا، عن عمار بن ياسر، عن القطب أبي النجيب عبد *448* القاهر ابن عبد الله السهروردي. وله طرق ثلاثة ذكرها في **عقد الجوهر الثمين**[1].

والثانية بطريق الخفية عن شيخ إرشاده السيد أمير كلال الحسني البخاري، عن شيخ إرشاده محمد بابا اليماني، عن شيخ إرشاده أبي الحسن علي الراحيتي، عن شيخ إرشاده خوجة محمود الفغنوي، عن شيخ إرشاده خوجة محمد عارف الديوكري، عن شيخ إرشاده القطب عبد الخالق بن عبد الجميل الغجدواني، عن شيخ إرشاده القطب أبي يعقوب يوسف الحسني العمراني، عن القطب أبي علي الفارسي الطوسي، عن القطب أبي الحسن الخرقاني، وهو عن روحانية سلطان العارفين القطب أبي زيد البسطامي، وهو عن روحانية الإمام جعفر الصادق .

وله نسبتان: الأولى بطريق الجهر عن أبيه، عن جده، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. والثانية بطريق الخفية عن جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق – أحد الفقهاء السبعة– عن سيدنا سلمان الفارسي، عن أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

ولأبي علي الفارسي نسبة أخرى عن أبي القاسم الكركاني[2]، عن أبي عثمان المغربي[3]، عن علي الكاتب، عن أبي علي الروذباري، عن سيد

1– عنوانه الكامل: **عقد الجوهر الثمين في الذكر وطرق الإلباس والتلقين** .

2 – أبو القاسم، عبد الله بن علي بن عبد الله الطوسي، الطابراني الكركاني، ويعرف بكركان. كان شيخ الصوفية والمشار إليه بالأحوال والمجاهدة. توفي سنة 469 هـ . انظر : **سيرة أعلام النبلاء**، 18/ 405 .

3– أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي.

الطائفة أبي القاسم الجنيد البغدادي، عن خاله السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داود بن نصير الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن علي بن أبي طالب ﷺ، عن النبي ﷺ، والله أعلم.

وكتب مؤلفها أبو الفيض محمد مرتضى الحسني الواسطي خادم السادة، لطف الله به بمنه وكرمه، ثم كتب بخطه تحت هذه الرسالة المباركة بعد الحمدلة: «قد أذنت لسيدنا الإمام العارف أبي الإنعام محمد بن عبد السلام الناصري الشاذلي فتح الله عليه، ونظر بعين العناية إليه، أن يسلك بقدمه في هذه الطريقة على الكيفية المعلومة المذكورة إن وجد فسحة في الزمان، وإعانة في صورة الوقت من الرحمان كمله الله وجمَّله، وأجاز له لطائف المنن من مرتبة جمع الفرق وجمع له وكتب أبو الفيض الحسني - غفر الله له- بمنه حامدا لله ومصليا ومسلما ومستغفرا»[1].

وبالجملة فلو تتبعت مستفاداتي من هذا الرجل لطال الكتاب ولما أردت له.

وقد عزمت على السفر ما بأيدي له من الكتب عارية، وبقي لدي **عوارف المعارف** لأبي النجاء السهروردي و**مسلسلات** *449* ابن عقيلة. أنشدته بالبديهة معرضا بتمليكها لي إذ لم يبق من الزمان ما أستنسخهما فيه ولا وجدتهما بشراء: (من الرجز)

لَمْ يَبْقَ باليَدِ سِوَى	عَوَارِفِ المَعَارِفِ
أبْقَيْتَهَا تفَاؤلاً	جَوْهَرَةً فِي صَدَفِ
وَمَعَهَا سِلْسِلَة	ابْنِ عَقِيلِ الْعَارِفِ
نَزَلْتُ بَحْرًا فائِضًا	بوَابِلٍ وَوَاكِفِ

فقال بمجرد الفراغ من إنشاد الأبيات: أما **المسلسلات** فخذها، وهي وإن لم تكن لي فهي للاطف لي أعوضه بأخرى، وأما **العوارف** فهي عارية عندي لبعض الجنيديين، ونسأل الله تعالى أن يأتيني بغيرها. ثم انصرفت من عنده- قبيل غروب الشمس- راجعا إلى الأزهر، فلما صليت به العشاء، وليت

1- ينظر: م م و م م، رقم 88 ج (ضمن مجموع)، ص 118.

منزلي بالغورية فوجدت به نسخة أخرى من **العوارف**، أبرزها الفيض الالهي، جاءني بها سمسار يبيعها فأخذتها بالثمن، وما هي بأول بركة صاحب الترجمة، ثم لما أصبحت ذهبت إليه فأخبرته بالواقع فكان مما أنشدني : (من الرجز)

مَـنْ لِـــي بِمِثْـلِ سَـيْرِكَ الْمُدللِّ تَمْشِـي رُوَيْداً وَتَجِـيءُ فِي الأَوَّلِ

ولما ودعته في التاسع عشر من ربيع الثاني، ودموع كل منا على ديباجتيه كالغواني، أنشدت لحسان بن ثابت في المديد بروح القدس حتى في هذا الفرد الثابت: (من الطويل)

وَحَيْـثُ اتَّجَهْتُـمْ سَاعَدَتُكُمْ سَلاَمَة وَيَرْعَاكُمْ الرَّحْمَانُ مِنْ كُلِّ جَانِب

وممن لقيته وأخذت عنه، فارس المعقول والمنقول، الجامع بين التفسير والحديث والاصول، المتوج بتاج العرفان، ولا تاخذه بالله لومة لائم من كل إنسان، الشيخ محمد بن محمد الجوهري الخالدي، من ذرية خالد بن الوليد، الشافعي، أطال الله بقاءه، وأدام علاه وارتقاءه؛ اجتمعت به بدرسه في الأشرفية للبخاري، ومنهاج شيخ زكرياء الانصاري؛ فكان والله ذا فهم وتدقيق، محبا للغريب خصوصا المغاربة، خصوصا بني ناصر على التحقيق. دعاني لبيته بالأزبكية ضيفا مرتين، سمرت معه فيها ليلتين، فقام وقعد لي للإكرام، مع ما هو عليه بمصر من مزيد التعظيم والاحترام، فكان من عادته أن لا يرى خارج بيته إلا إن خرج لدرسه، فكان والله من الأكياس، سميره الدفتر والكراس، فنال بذلك مزيد الرفع على الرأس . أخبرني أنه - كوالده رحمه الله تعالى- شاذلي الطريقة أخذها عن سيدي عبد الله الكنكسي، عن السادات الشرفاء الوزانيين، *450* ولما تلاقى والده مع الشيخ أبي العباس بن ناصر جدد العهد عليه.

وكان صاحب الترجمة أشار علي بالجلوس بمصر للتدريس، فقلت: غير ممكن لي ذلك ولو أمكن لكان الأولى به الحرمين الشريفين. وذكرت إذ ذاك قول الجد الشيخ أبي عبد الله ابن ناصر لما رام أن يطلب منه الشيخ أبو الحسن علي الزعتري الأزهري ذلك، قائلا: التحقيق كاد أن يقطع بمصر،

فهلا جاورت به سنة أو سنتين يستفيد منك الناس، فكوشف للشيخ عما أراد أن يطلبه منه . فأجابه قبل أن يطلبه:﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الاية[1] .

ومما جرى بيني وبينه في درسه للبخاري على حديث تزويج النبي ﷺ صفية وجعله عتقها صداقها[2] . قال: إن الشافعية يدعون الخصوصية ولا دليل عندي عليها، والمالكية كالحنفية على عدمها. فقلت: بل المالكية على الخصوصية أيضا ودليلهم: «إذا أعتق الرجل أمة فتزوجها فله أجران»[3] ، إذ لا معنى للتزويج إلا العقد بمهر، وبأنه يجوز له ﷺ التزوج بغير مهر حسب ما في الخصائص النبوية بقوله: «جعل عتقها صداقها»[4] ، حكاية للواقع من الاقتصار على العتق، وبأن الراوي لم يسند ذلك إلى النبي ﷺ، فيحتمل أن يكون ذلك منه فهما وهذا مما يدرك بالرأي . فلم يزد الشيخ على قوله منصفا: نسبوا للمالكية عدم الخصوصية فتبعناهم . قال: وفي معلومكم أن الإنسان دَعِيٌّ في غير مذهبه، فإذا خرج عن مذهبه يقع لرأسه، ولذا ترى الشافعية كثيرا ما يغلطون في نسبة الأقاويل والمشهور منها، أو مابه العمل إلى غير مذهبهم كالمكس، وقد حضرفي الدرس إذ ذاك بعض من غلب عليه الهوى وحظ النفس . فلما افترق الدرس وذهبت وبقي الشيخ في طائفة من أصحابه رام تكذيبي فيما قلت، فزجره الشيخ وقال: الأعراب بالباب، فهاهي دواوين المالكية فاحضروها، فألفوا مقالتي على الصواب.

وأوقفني‍ﷺ على بعض ما قيده من التآليف- وكان يميل فيها كثيرا إلى الاختصار- فمنها : شرحه لمنظومة الجزري في التوحيد، ووهب لي منه نسخة وسماه **اللوامع الإلهية على المنظومة الجزرية**، و منها *451* شرح

---

1 ـ النساء: 74.

2- الحديث في **صحيح البخاري** ، كتاب العلم باب التبكير والغلس بالصبح والصلاة عند الإغارة والحرب ، رقم 905 ، 1/ 322 .

3 ـ الحديث أخرجه البيهقي في **سننه الكبرى** ، باب نكاح العبد بغير اذن مالكه ، رقم 13518 ، 7/ 128 « نص الحديث ، قال رسول الله ﷺ: إذا أعتق الرجل أمته ثم تزوجها بمهر جديد كان له أجران.»

4 ـ عن انس بن مالك أن رسول الله ﷺ أعتق صفية وجعل عتقها صداقها ، الحديث في البخاري ، كتاب النكاح، باب من جعل عتق الامة صداقها. رقم 4798 ، 5/ 1956. وفي **صحيح مسلم**، كتاب النكاح ، باب فضيلة اعتاقه أمة رقم 1365، 2/ 1045.

منقذة العبيد في التوحيد وسمى الشرح **لطائف التوحيد**، وأعطاني منه نسخة، فكان مما قرظ له عليه الشيخ قاسم الأديب المصري: (من كامل)

إنَّ الإمَــامَ الْجَوْهَــرِيَ مُحَمَّــدَا ... وَافــى لأمْــر الدِّيــنِ بالتَّجْدِيـــدِ
في كلِّ تأليـف حَكَــتْ كلِمَاتُــهُ ... زَهْرَ الْحَدَائِقَ أوْ خُــدُودَ الْغيــدِ
مَــوْلَى يُحَدِّثُ عِــزَّهُ عَــنْ خَالِـدٍ ... وَمُحَمَّــدُ لا شَكَّ خَيْـــرُ وَلِيـــدِ
فِي شَــرْحِ مُنقِــذةِ الْعَبيــدِ لأجْلِــهِ ... قَــدْ جَاءَنَا بِألْطَــافِ التَّوْحِيـــدِ

وله شرح لطيف فسماه **بارقة التمهيد في شرح خلاصة العبيد** على منظومته في التوحيد المسماة **بخلاصة التوحيد فيما تجب معرفته على العبيد**.
وله شرح على تأليف منثور في الاستعارة لشيخه أبي زيد العيدروسي رحمه الله تعالى، سمى أصله **البشارة بمعرفة الاستعارة**، وقرظ له على الشرح المذكور المحب محمد بن الصلاح السيوطي المصري أنه من أفضل الشروح وأحواها لتبيين قسمة الاستعارة في شرح أستاذنا الذي أحرز السبق المسمى **شرح امتنان الإشارة**:(من خفيف)

شَرْحُ صَدْرٍ بَلْ شَــرْحُ صَـــدْرٍ ... وَلاَغرَّ فيهِ بِــكُلِّ حُسْنُى بشَـــارَه
نَاطِقٌ بِالْعُلُـــومِ تَنْطِــقُ مِنْــــهُ ... هَالَةَ الْبَدْرِ وَهُوَ لِلشَّمْـــسِ دَارَه
كَيْفَ وَالْجَوْهَــرِيّ أوْدَعَ مِــــنْ ... حُسْنِ نَظْمِ وَحُسْنِ نَثْــرِ بِشَــارَه
حَفِـــظَ اللهُ فِكْــرَهُ فَكَـــمْ ... أتحَفَنَا مِــنْ بَرَاعَــةٍ وَعِبَـــارَه

وفيه يقول الشيخ قاسم الأديب عفا الله عنه: (من خفيف)

لَيْسَ إلا لِلْفَضْلِ مِنْكَ اسْتِعَـــارَه ... وَكَمْ لاَحَ بِالْغَيْـظِ زِدْتَ اسْتِعَارَه
دُمْتَ لِلدِّيــنِ وَالْمَكَــارِمِ شَمْسَـــا ... تَسْتَعِيرُ الْبُــدُورِ مِنْـكَ الإنَــارَه
أنْتَ فِي مِصْرَ كَعْبَــةَ الأمَّةِ تَبْقَى ... لَيْسَ إلاّ بِجَاهِــكَ الاسْتِجَـــارَه
كَــمْ مُرِيــدٍ أطفتَــهُ بِنُـــوَارِ ... كَمْ مُرِيد أطْفَأتَ بِالنُّـــورِ نَـــارَه
وَبِشَرْحٍ شَرَحْتَ يَاصَدْرَ صَـدْرَا ... مِنْهُ فَضْلُ الرَّبِيعَ أهْـدَى نُـوَارَه
زَهْرُ مَعْنَــى ألْفَاظِــهِ نَسَمَـــاتٌ ... قَدْ أذاعَتْ بِعِطْـرِهَـا أسْـــرَارَه

حَبَاهُ في فـترَةِ الْعُلُـوم بفهَـم جَوْهَرِيّ مُحَمّدُ بْنُ الْعِبَارَه
مَا أرَادَ إلاّ الإشَـارَة جَيِّـدَةَ لِهَذا كَـانَ امْتِثَـالُ الإشَـارَه

وكان هذا شرح بإشارة من والده رحمه الله، وله كراسة سماها **إتحاف أولي الألباب فيما ينغلق شيء من الاعراب(؟)** وله أربعون حديثا في خصوص الحث على ترك الظلم، أمرني بشرحها، بل وكتب ذلك على طرف نسخة أعطانيها حرصا على أن لا أنسى . قال على شريطة الإختصار وفقنا لذلك ولما فيه رضى الملك*452* الغفار، ثم امتثلنا أمره فشرحناها على وفق ما أشار علينا به . وأوقفني على ترتيب **الحكم العطائية** وتبويبها للشيخ العلامة الصوفي علي بن حسام الدين الهندي، وقد جعل فيها أبوابا على عدد حكمها وخاتمة في المناجاة . وكان رضي الله تعالى عنه – مع ثقابة ذهنه – كثير الإنصاف يميل إلى الإسعاف، سؤولا عن مسائل العلم، كثيرا ما كان يسألني عن مسائل فقهية ما تقول فيها السادات المالكية، فإذا أجبته بالمشهور، أو بما جرى به العمل عندنا أو نحو ذلك قال: سبحان الله شوش علينا هؤلاء المالكية – الذين يتعاطون مذهب مالك هنا– فكثيرا ما يعترضون علينا في النوازل ونحن وإياهم فيها على طرفي نقيض . فقلت: يا سيدي، المالكية ها هنا قصارى نظرهم ومطالعتهم الشيخ علي الأجهوري وتلامذته على **مختصر خليل**، وقد حشى الناس عليهم، وانتقدوا عليهم الكثير من استظهاراتهم على أنهم – كالمعاصرين من أهل الحرمين ومصر– لا يطالعون كتب الأحكام والنوازل **كالمعيار** ونحوه، ليعرفوا بذلك المشهور أو ما به العمل، فلقد شاهدتهم بالأزهر تأتي إليهم الفتوى فيكتبون فيها من غير مطالعة ولا استحضار.

فكان مما سأل عنه في جوف الليل، ونحن بمنزله بالأزبكية، التلفيق في العبارة هل هو جائز في مذهب مالك؟ فقلت: المذهب عدمُ جوازه، مثاله من وجد ما لا يكفيه من الماء للوضوء فلا يلزمه الجمع بين الوضوء الناقص والتيمم الكامل، بل يقتصر على التيمم، وعندنا قول بالجمع وألغزوا به، وإليه أشار أبو المودة في **مختصره** بقوله: ورابعها يجمعهما ذكر ذلك في فعل المسح على الجبيرة.

وأما التلفيق في الشهادة فقد ذكر صاحبنا في الصوم فيه ترددا قائلا:
وفي تلفيق شاهدا وله الآخر آخره ولزومه بحكم المخالف بشاهد تردد .

وعن دلالة الإنشاءات كأقيموا الصلاة، بل والاختبارات، بل وسائر دلالة ألفاظ القرآن على المعنى القائم بالذات العلية من أي أنواع الدلالات هي؟ فقلت بعد التأمل: مطابقة، إذ هو دلالة اللفظ على ما وافقه، فالواضع - وهو الله تعالى - وضع هذه الألفاظ لتدل على ذلك المعنى القائم بالذات وإن كان المعنى غير مدرك بالحس، فسكت . وانتقل قائلا : وهل تصح أن تكون تلك *453*الدلالة تضمينية؟ فقلت: التضمين فهم الجزء في ضمن الكل، وهذا أما مستحيل أو سوء أدب مع القرآن. فقال: و ما يمنعنا أن نقول القرآن يراد به اللفظ والمعنى القائم، فإن سمع الإنسان كلمة من القرآن وحضر بباله المعنى القائم بالخصوص كان فهم للجزء ضمن الكل؟ فقلت: يلزم عليه أن الشيء الواحد دال على نفسه وعلى غيره، فقال: هذه أمور اعتبارية يغتفر بها ذلك. وقال: بلغنا عن الشيخ القاضي سيدي محمد الصغير الوارزازي أنه كان يقرأ بالأزهر أيام جواره به بعد قفوله من الحرمين الشريفين، أنه ليست بواحدة من الدلالات الثلاث. فقلت: وما يمنعها أن تكون إلتزامية واللزوم بين وإن اكتفى المناطقة بمطلق اللزوم عكس أهل البيان، وذلك أن الإنسان إذا طرق بسمعه لفظة كلمة لزم من تعقل معنى قائم بالتكلم، ثم تفطنت لإبطاله قبل أن يبطله.

والحاصل أن في هذه الدلالة خلافا، فقيل: حرفيته، وقيل: وضعيته على معنى أن الألفاظ دالة على مدلول كلام الله تعالى، ويمكن أن يقال تراكيبه دالة على الصفة القديمة بالوضع، فصفة الأمر دالة على الأمر النفسي القديم وهي موضوعة لمطلق الطلب النفسي بالوضع النوعي وهلم جرا . وقد قيد في المسألة غير واحد من المتأخرين كلا من اليوسي وابن زكري شارح **النصيحة** وغيرهما .

ومما استفدته منه، وقد جرى ذكر تفاسير الشيخ أبي حيان **البحر والنهر** وأنهما بالخزانة الناصرية، قال وله أيضا تفسير سماه **الساقية** قريب

من **تفسير الجلالين**، وهذا من أحباس مسجد الأزبكية، فقام من يأتي به فلم يجد الناظر، قال: قد خرج للريف فلم تتفق لي رؤيته بعد.

وله ﷺ اليد الطولى في الشعر ينحو به نحو الحقائق، وله في ذلك ديوان أملى علي بعضه فمنه: (من الكامل)

لِي إِلَهٌ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ عَدَدْتُهُ ... وَمَالِي سِوَاهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَلْجَإِ
رَضِيتُ بِهِ رَبّاً وَهَادِيًا وَنَاصِرًا ... خَبِيرٌ بِصُنْعٍ فِي انْتِهَاءٍ وَمَبْدإِ

ومنه: (من الطويل)

أَفْنَيْتُ عُمْرِي فِي هَوَاكَ وَلَيْتَنِي ... أَحْظَى بِمَا تَهْوَى النُّفُوسُ وَتَشْتَهِي
يَامُعْرِضًا عَنِّي وَلا لِي حِيلَةٌ ... بالله رِفْقًا بِالْفُؤَادِ الْمُزْدَلِفِ
*454*وَارْحَمْ حُشَاشَةَ مُهْجَةٍ ذَابَتْ أَسًى ... وَلَهِيبُهَا مُتَسَعِّرٌ لا يَنْطَفِي
وَاعْطِفْ عَلَى رَمَقِي وَمَا أَبْغَيْتُهُ ... مِنْ ذُلِّ أَطْمَاعٍ وَطُولِ تَشَرُّفِي
وَدَعِ الْعَذُولَ وابْكِهِ أَنِّي امْرُؤٌ ... لاقَيْتُ مِنْ ذُلِّ الْهَوَى مَالا يَفِي
وَأَطَعْتُ فِيكَ شَبِيبَتِي مَا كَانَ لِي ... خَلَفٌ بِهَا بَلْ جَمْعُ كُلِّ تَخَلُّفِ
فَبَحْرُ مِنْ أَوْلاكِ مَا أَوْلاكِ فِي ... عِزِّ الْهَوَى لا تَسْعَ فِي تَلَفِي

ومنه: (من الكامل)

الْعِيدُ عِيدُ الْوَاصِلِينَ بِرَبِّهِمْ ... وَسِوَاهُمْ عَنْ عِيدِه مَرْغُوبُ[1]
وَمِنِي لِمَنْ هُوَ فِي مِنًى بِشُهُودِهِ ... وَلِسَوَاهُ عَنْ نَيْلِ الْمُنَى مَحْجُوبُ

قال: وقلت حين حجبت، وبالذنوب سُرْبِلْتُ: (من الطويل)

وَقَائِلَةٍ دَعْ عَنْكَ هَمَّكَ وَانْشُدْ ... فقلْتُ دَعِينِي يَابْنَةَ الْخَالِي بِالَّتِي
فَلَمْ أَرَ مِثْلِي بِالذُّنُوبِ مُسَرْبَلاً ... فَوَا أَسَفِي كُلَّ الْوَرَى فَوْقَ رُتْبَتِي
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ التَّلَهِّي لَو يُرَى ... مُرِيحاً وَلَكِنْ لا سَبِيلَ لِرَاحَتِي
حَجَبْتُ بِذَنْبِي بَيْنَ صَحْبِي عَنِ الْعُلا ... فَوَاضَيْعَةَ الأَعْمَارَ عَنْ كُلِّ بُغْيَةِ
خَلِيلَيَّ عُوجَا وَانْعِيَانِي بِنَجْدِهِمْ ... وَقُولا فَتًى مُلْقَى بِأَرْضِ قَطِيعَتِي
فَعَلَى أَحِبَائِي الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ ... يَرِقُوا لِذُلِّي وَافْتِقَارِي وَفَاقَتِي

1- في **المزايا** «محجوب».

فَمَا كَانَ ظَنِّي مِنهُمْ الْهَجْرَ وَالْجفَا   وَحَاشَا وَلَكِنْ خَلِّي فِكْرِي لِحَيْرَتِي
فَإِنَّ هُمُ رثوا لي نِعْمَ عَيْشِيَ يُقَتّرُ   بهمْ وَإِلا فَمَا مِثْلِي بِأَوَّل مَيِّتِ

قال: وقلت حين اعتزلت وفي الناس زهدت : (من الكامل)

وَلقدْ أقولُ لِمَنْ يَرُومُ تفرُّدِي   مُذ قَدْ رُميتُ بلُجَةِ مُفرَدا
إنّي تَرَكْتُ النَّاسَ زُهْداً فيهمْ   وَقطَعْتُ وُداً بَيْنَنَا وَعُهُودَا
وَاخْتَرْتُ حُبَّ الْعَامِريَة مَذهَبًا   وَمِنَ الْمَنَاسِك مَوْقِفاً وَشُهُودَا
وَالْحَجُّ لَثمُ خِيَّامِهَا بِتوَلّحٍ   وَالنَّاسُ ثمَّةَ رُكَّعاً وَسُجُودَا
مُتَذلِّلِينَ بحُبهمْ مُتَحَيِّرِينَ   بشجوهِمْ مُتَحَذرِينَ صُدُودَا
مُتَطَلِّعِينَ لِقربهمْ مُتَرَقِينَ لوَ   صْلِهمْ مُسْتَعْطِفِينَ وُدُودَا
لا أَنْثَنِي عَنْ حُبِّهَا لا وَالْهَوَى   مَادُمْتُ حَيًّا وَالأَنَامُ رُقُودا
فَإذا وَصلْتَ دِيَارَهَا وَلَكَ الْمَنَى   فاقرَأْ السَّلامَ عَنْ سيمَا الْمَعْهُودَا
قلْ يَقْرَأ ذلِكَ مُتَيَّمٌ فِي حُبكُمْ   أَلفُ الشِّهاد وَلَمْ يَزَلْ مَجْهُودا
إنْ جُدْتُمْ جَادَتْ بِهِ نَعْمَاؤُهُ   أَوْ حدْتُمْ لَمْ يَبْغِ بَعْدُ جُحُودَا
455 مُتَمَسكٌ بحِمَاكُمْ مُتَنَسِّكُ   فَهوَاكُمْ قَدْصَارَ فِيكُمْ وُقودَا
فَعلَيْكُمْ مِنِي السَّلامُ تَحيَّةً   الْفِي بهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ عُهُودَا
وَمُبَلِّغاً عَنِي السَّلامَ إلَيْهِمْ   قُلْ قدْ تركْتُ فَتَى الْهَوَى مَفْقودَا
لَمْ يُثْنِنِي عَنْ غَيِّهِ فِيْ حُبِّكُمْ   مُذْقَدْ رَمَى بلُجَّةِ مَفؤُودَا

قال: وقلت عند ممازجة غالب الناس على طريق اقتباس: (من الطويل)

لَمَا رَأَيْتُ النَّاسَ لَيْسَ لَهُمْ وَفِي   كَلا وَلَيْسَ بحُبِهمْ مِنْ مُنْصِفِ
أيْقَنْتُ أَنَّهُمْ هَتفا فَتَرَكْتُهُمْ   وَتَلَوْتُ فِيهمْ مُعْرِضًا لا خَيْرَ فِي[1]

قال: وقلت فيما علمت به نفسي، من تخميني وحدسي: (من الطويل)

وَقَائِلَة لي مَا انْفِرَادُكَ هَاهُنَا   فقلْتُ لَهَا مَهْلاً فَشَانِي لا يدْرِى
لَقدْ عَلِمَتْ نَفْسِي صِغَارِي وَأَنَّنِي   كُلَيْبٌ نَبَّاحٌ لا أُبَاعُ وَلا أُشْرَا

1- في الطرة ح كثير من نجواهم وهو تضمين لمحتوى الاية ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ الاية 113 سورة النساء.

فَمَنْ ذَاكَ لَمْ يَرْضَ سِوَى الْفَقْرِ مَوْطِناً وَغَيْرَ فِرَاقِ النَّاسِ مِنْ حَمْلِهَا سِتْرَا
وَكَمْ غَرِيبٍ سَارَ لِجَهْلٍ مُقرئِي أُنَاسٌ فَظَلُّوا فِي غِوَايَتِهِمْ أَسْرَا

في أبيات ذكرها وقال أيضا : (من الوافر)

وَلَسْتُ أَقُولُ مَا ذَنْبِي وَإِنِّي عَرَفْتُ بِأَنَّنِي كُلِّي ذُنُوبُ
وَلَكِنِّي أَقُولُ بِمَا جَفَا فِعْلِي أَنَّنِي مِنْهُ أَتُوبُ

وقال : (من الوافر)

أَنَا الْمِسْكِينُ فِي الدُّنْيَا وَحَالِي غَرِيبٌ لَيْسَ يُدْرَكُ بِالْمِثَالِ
أَضَعْتُ الْعُمْرَ فِي تَمَنٍّ وَلَهْوٍ وَلَمْ أَظْفَرْ بِحَلٍّ فِي خَيَالِ

وقال في التوسل بالإمام الشافعي مقطعات منها : (من الوافر)

أَتَرْضَى أَنْ أَكُونَ خَلِيَّ قَلْبٍ وَبِالإِمْدَادِ مِنْكَ الْكَوْنُ عَامِرُ
وَحَاشَا بِالتَّمَنِّي الْجُودُ تَرْضَى وَلِي مِنْكَ الْبِشَارَةُ وَالإِشَارُ

وقال متوسلا في سبعة الذين يتصرفون في البرزخ بدون واسطة وكلهم بمصر: (من الرجز)

يَا رَبَّنَا بِالشَّافِعِي الْمُرْتَضَى وَنَفِيسَةِ الْعُبَّادِ وَالزُّهَّادِ
وَالسَّيِّدِ الْبَدْرِي مَنْ فَاتَ الْمَلا وَالْفَرْغَلِ الْكَرَّارِ ذِي الإِمْدَادِ
وَأَبِي السُّعُودِ الْجَارِي وَعربِهِ ثُمَّ الْمَنُوفِي كَعْبَةِ الْقُصَّادِ
وَسَيِّدِ الشَّعْرَانِي حَقِّقْ مَآرِبِي وَأَقبِلْ خُلُوصَ تَوَسُّلِي بِالْهَادِي

وقال : (من الكامل)

قَالُوا سَلَوْتَ وَمَا سَلَوْتُ هَوَاهُمُ كَلا وَهَلْ خَطَرَ السُّلُوُّ بِبَالِي
وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْهَوَى لا أَنْثَنِي عَنْهُ وَلَوْ قُطِّعَتْ بِهِ أَوْصَالِي
*456*يَا نَازِلِينَ بِمُهْجَةٍ تَلِفَتْ هَوَى بِاللَّهِ رِفْقاً بِالْخَيَالِ الْبَالِي
وَدَعُوا التَّوَانِي فِي الْهَوَى عَنْ مُغْرَمٍ بِكُمْ اسْتَحَالَ تَوَهُّمًا كَالآلِ

قال : وقد قلت من ضقت ومن الهوى أنست : (من الطويل)

صِلُونِي فَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي وَصِرْتُ طَرِيحاً فِي مَصَارِعِ غُرْبَتِي
وَلا تَكِلُونِي فِي الْهَوَى لِسِوَاكُمْ فَقَدْ ضَاقَ صَبْرِي وَاسْتَحَالَتْ حِيلَتِي

وَمَا لي سوَى الشَّوْقِ الْمُذيبِ وَسيلَة إلَيْكُمْ وَقَدْأَفْنَيْتُ عُمْرِي بصَبْوَتِي
وَقُلْتُ قليلٌ فِي الْغَرَامِ كَثيرَةٌ فَأَنهمتْهُ عَلي أَفُوزُ بِلَمْحَةٍ
وَلَوْ مَلَكْتُ نفسي السَّوَى لَعَرَفْتُهُ عَلَى يَدِ اشْرَاقِي رَجَاءِ لِوَصْلَتِي
وَلَكِنَّ فقري عَيْنَ عُج وَسُؤْدَد وَذُلي هُوَ الْعِزُّ الْمُشيرُ بِرِفْعَتِي
ومَالي وَحَقِّ الْحُبِّ خَيْرُ حِمَامِ أَلُوذُ بِهِ كَشْفًا لاَعْيَانِ غمَّتِي
وَحَسْبِي في الدّنْيَا أُنْساً لِلْهَوَى وَحَسْبَ أَهالي اللَّوْمِ كُلَّ قَطِيعَتِي
وَحَسْبُ فُؤَادي أنهُ ذابَ صَبْوَةً وَرُوحِي إِنْ تَعَالَى بِنَارِ صَبَاتِي
صِلُوني فَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي وَصِرْتُ طَرِيحًا فِي مَصَارِيعِ غُرْبَتِي

قال، وقلت في الحب وما فيه يطيب: (من الوافر)

دَعِ اللَّوْمَ الْمُسِيئَ وَهِمْ غَرَامَاً وَقُلْ فِي الْحُبِّ حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ
فَإِنَّ اللَّوْمَ دَاعِيَةُ الثَّنَاءِ وَأَنَّ الشُّؤْمَ بُغْيَةُ كُلِّ لاحِ
وَمَنْ هَذا الَّذي قَدْ لامَ جَهْلاً وَرَاغَ مِنَ الْفَسَادِ إلَى الصَّلاحِ
أنَاسٌ مَاتَ قَلْبُهُمْ فَمَاتُوا وَلَمْ يَدْرُوا بِأَوْقَاتِ الصَّبَاحِ
جَلاءٌ عَنْ جَمَالٍ فِي جَبِينٍ وَصُبْحٍ عَنْ صَبَاحٍ فِي صَبَاحِ
أخِلاَّءُ الْفُؤَادُ وَجُلُّ قَصْدِي وَمَنْ فِيهِمْ بِهِمْ رُوحِي وَرَاحِ
دَعَوْا ذاكَ الْخَيَالَ لِكُلِّ لاحِ وَقُولُوا هَلُمَّ سُقْيَاً بِالْقِدَاحِ
فَذاكَ الرُّوحُ تِرْيَاقُ الْمُعَنَّى إذا مَا اللَّيْلُ عَاجَلَ بِالصَّبَاحِ
وَغَايَةُ مَآرِبِي الأَدَارِي وَلا أَدْرِي مُخَادَعَةَ اللَّوَاحِ
وَأَغْنَمْ مِنْ حَدِيثِكُمْ شِفَاءً بِهِ جُلُّ السُّرُورِ مَعَ الرِّيَاحِ
وَأَكْتُمْ مَا تُبْدَى مِنْ جَمَالٍ وَأَتْلُو فِي الصَّبَاحِ وَفِي الرَّوَاحِ
دَعِ اللَّوْمَ الْمُسِيئَ وَهِمْ غَرَامَاً وَقُلْ فِي الْحُبِّ حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ

وقال: (من الطويل)

وَأَصْعَبُ مَا يَلْقَى الْفَتَى فِي زَمَانِه الضَّنْكَ في بَذْرِ الْبُدُورِ وَشَمْسِه
*457*إقَامَتُهُ بِأَرْضٍ مَنْ لا يُرِيدُهُ وَعِشْرَتُهُ مَعَ غَيْرِ أَبْنَاءِ جِنْسِه
وَخَلْفَ طَهَ الْمُصْطَفَى كُلَّ مِنْحَةٍ وَقَدْ ضَبَطْتُ فِي بَيْتِ شِعْرٍ مُكَمَّلِه
سِوَاكَ حَصِيرٌ فَسِيحَةٌ وَوِسَادَةٌ وَسَجَّادَةٌ نَعْلُ رَحَى وَمِكْحَلِه

ورد أن من حمل مخلفاته، ﷺ، معه حُفظ وكانت عليه مهابة عظيمة. ولو تتبعنا شعر هذا الإمام لخرجنا عما نحن بصدده .

وهذا المعنى في شعره من النفحات التي نفحت عليه من شيخه القطب سيدنا أبي محمد عبد الله بن إبراهيم المرغني الطايعي الحسني الشاذلي . تراه لا يلهج كثيرا إلا بذكر هذا الرجل، وكان مع ذلك ذا جذب، فإذا صحا أخذ عنه العلم واشتغل بالتأليف . ولما جرى في التميز بيني وبين صاحب الترجمة مدح الخمول وذم الظهور أنشدني لشيخه هذا في ذلك : (من الكامل)

إنَّ الظُّهُورَ مَعَ الْخَفَاءِ كِلاهُمَا   وَصْفَانِ مُقْتَضِيَانِ لِلإِفْضَاحِ
فَدَعِ الْجَمِيعَ وَكُنْ خَلِيّا مِنْهُمَا   وَمُمَاثِلا لِلنَّاسِ فِي الإِفْصَاحِ

قال: ولما قرأ عليه بالطائف مناظرة ابن عربي الحاتمي مع الكعبة في رسالة له في ذلك أنشدني بنفسه:

بِزُهْدِ فِي الْعُلُومِ وَالْوِلايَةِ   خُرَافَاتٌ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ غَايَةِ

قال : فأردت تتميم البيت ارتجالا أمام الشيخ فقلت : (من الوافر)

فإِنْ أَبْدَيْتَهَا ضَيَّعْتُ وَقتِي   وَإِلاّ كُنْتَ مَفْقُودَ الْهِدَايَةِ

وأخبرني أن شيخه هذا - نفع الله به- نقش على باب داره بالطائف قوله : (من البسيط)

يَا مَنْ يَؤُمُ الأَبْوَابَ مُقفلَة   هَلاّ قَصَدْتَ لِبَابِ غَيْرِ مُقفُولِ
لَوْ كَانَ ثَمَّةَ اِكْرَامٌ لَمَا قفِلَتْ   لَكِنْ كَأَنَّكَ لا تَسْعَى بِمَعْقُولِ

قال صاحب الترجمة: فقلت للشيخ مداعبا: هذا إغراء للناس عليك . فقال متعجبا، على عادة المشارقة في كلامهم: ياه . فأمر بنزعه لحينه وأنشدني له أيضا : (من البسيط)

زَوِّدْ فؤَادَكَ بِالتِّذْكَارِ مُتبعاً   لِسُنَةِ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِعَلِي
هَذا هُوَ الذكْرُ لا أَجْزَاءَ قلْقَلَةِ   بِلَفْظِ حَرْفٍ لَهُ يُغْنِيكَ عَنْ عِلَلِ

وكأنه يشير للرد على المتحلقين للذكر الذين أحدثوا في مجالس ذكرهم ما لا يرضاه الله ورسوله من الرقص وغيره على عادة المشارقة اليوم .
وأنشدني له أيضا في ما ألفه كغيره من التآليف: (من البسيط)

هَذي اَلتَّأْليفُ منْ بَعْضِ اَلْخَطَئَاتِ فَاشْهَدْ عَلَيَّ وَاَشْهِدْ كُلَّ مَنْ يَأْتِي
*458*إِذكُلُّهَاشَقْشَقَاتٌوَاتِّبَاعُ هَوَى وَفَخْفَخَاتٌ وَعُجْبٌ بِالْوَرِيقَاتِ

وأوقفني صاحب الترجمة على تآليف لهذا الشيخ - رحمه الله - جلها في طريق القوم ، منها **معراج السلوك إلى ملك الملوك** وفيه لما تكلم على الهوى: (من الكامل)

نُونُ اَلْهَوَانِ مِنَ اَلْهَوَى مَسْرُوقَةٌ فَأَسِيرُ كُلِّ هَوَى أَسِيرُ هَوَانِ

وفيه لإبن العربي الحاتمي : (من الكامل)

مَا نَالَ مَنْ جَعَلَ الشَّرِيعَةَ جَانِبًا شَيْئاً وَلَوْ بَلَغَ السَّمَاءَ مَنَارُه

قال المؤلف وأتممت ذلك فقلت : (من الكامل)

بَلْ لَمْ يَكُنْ شَيْئَاً إذا لَم يَرْعَهَا حَتَّى وَلَوْ فَاقَ اَلْوُجُودَ فعَالُهُ
أَفلا تَرَى إِبْلِيسَ أَكْثَرَ مِنْ عَبْدٍ لِلَّهِ حَقَّاً قَدْ هَوَتْ أَفْعَالُهُ

ومنها **النفحة العنبرية من المشكاة النبوية في آداب المعية** أنشد فيها لغيره: (مجزوء الكامل)

أَعْطِ اَلْمَعِيَّةَ حَقَّهَا وَأَلْزَمْ لَهُ حُسْنَ اَلأَدَبْ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَبْدٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَهُوَ رَبْ

ومنها: **مجالي الأصول لمراقي الوصول إلى معاني الرسول** وأنشدني فيها لنفسه: (مجزوء الكامل)

بَحْرُ اَلشَّرِيعَةِ مِلْحٌ وَاَلْحُلْوُ بَحْرُ اَلْحَقِيقَةِ
لا شَيْءَ إلا بِمِلْحٍ حُلْوٍ وَهَذا الطَّرِيقَةْ
فَالْمِلْحُ مَبْدَ الْمَلاحَةِ وَالْحُلْوُ أَحْلَى اَلْذِيقَةِ

وفيها أنشد : (من البسيط)

دَهْــرٌ لَنَــا شَأْنُــهُ عَــجِيــبٌ وَنَحْـنُ يَا صَــاحِ مِنْـهُ أَعْجَـبُ
اَلْكُــلُّ قَــدْ صَــارَ فِي اِعْوِجَـاجٍ فَـما لِـذِي اللّبِّ كَيْــفَ يَعْجَــبُ

وأنشد لنفسه فيها أيضا: (من البسيط)

لَوْ كَانَ سَعْدُ اَلْوَرَى بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لَكَانَ إِبْلِيسُ اَحْرَى يَا أَخَا اَلْجَدَلِ
إِنَّ السَّعَادَة فَضْلٌ مِــنْ إِلَهِــكَ لا بِالْمَالِ وَالْحَالِ أَوْ بِالْعِلْـمِ وَالْعَمَلِ
نَائِلْ إِلَى اَللهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِــنْ عَمَـلٍ وَالْجَأْ إِلَى اللهِ فِي اَلأَنْفَاسِ وَابْتَهِلِ

ومنها: وصيته التي سماها **مراقي الوصول إلى أفعال الرسول**، وشرحها . وقد أحببت أن أضمنها هذه الرحلة المباركة عسى أن تنالها ببركة مؤلفها بركة وهي هذه : (من أرجوزة)

اَلْحَمْــدُ لِلَّهِ الْعَظِيــمِ الشَّـــأْنِ وَالشُّكْرُ لِلْمَوْلَى عَـلَى اَلإِحْسَـانِ
ثُمَّ اَلصَّــلاَةُ صَحِبَهَــا اَلسَّــلامُ عَلَـى نَبِــيِّ دِينُـــهُ اَلإِسْـــلامُ
وَبَعْــدَ ذا فَهَـــذِهِ وَصِيَّـــةٌ لَطِيفَـــةٌ ظَرِيفَـــةٌ وَفِيَّـــةٌ
*459*أَوْصى بِهـا اَلْفَقِيـرُ وَالْغَنِيُ ذُو الذنْـبِ عَبْـدُ اَللهِ مرْ غنـــي
سِبْطِ اَلرَّسُولِ اَلْهَاشِمِي اَلأَبْطَحِي صَلى اَللهُ عَلَيْهِ اَلْحَيُّ مَا مَيِّتٌ مُحْي
إِلَهٌ فَــرْدٌ وَاحِــدٌ قَيُّـــومٌ بَــاقٍ قَدِيــمٌ ثَابِــتٌ مَعْلُـــومٌ
حَيٌ سَمِيــعٌ مُبْصِـــرٌ مُرِيـــدٌ مُكَلِّـــمٌ وَقَـــادِرٌ شَهِيــــدٌ
خِـلافُ كَلِّ مَا سِــوَاهُ بِلا امْتِـرَا فَعَّالُ كُــلِّ أَمْــرِهِ بِــلا مِــرَا
أَرْسَلَ خَـيْرَ اَلْخَلْقِ طَهَ اَلْمُصْطَفَى لِكُـلِّ شَـيْءٍ ثُـمَّ نَبِـيِّ الشُّرَفَــا
حَـلاَهُـمْ بِأَكْمَــلِ اَلْكَمَـــالِ وَقَـدَّسَ اَلْكُــلُّ عَــنِ اَلْمُحَـالِ
وَاخْتَـارَ أَصْحَاباً لَــهُ والأَشْرفَــا ثُـمَّ أُولِي عِلْـمٍ وَفَضْــلٍ وَوَفــا
وَاقْـرِنَ اَلإِسْــلاَمَ بِالإِيمَـــانِ فَكُـلُّ مَــا جَــاءَ مِــنَ اَلرَّحْمَـــانِ
وَبَيَّـــنَ اَلْحَــلالَ وَاَلْحَــرَامَا وَكُلُّ فَــرْدٍ قَــدْ أَتَــى حَرَامَــا
وَشَــرَعَ اَلشَّرْعَ اَلْقَدِيمَ اَلْمُرْتَضَــى وَحَقق اَلْحَــقَ اَلْحَقِيــقَ بِالرِّضَــى

وَكِلاَهُمَا شَيْئَانِ وَهُوَ وَاحِدٌ مَا ثَمَ مَثْنَى فَالْمُثَنَّى فاسِدٌ
فَاسْلُكْ قَدِيمَ الشَّرْعِ والطَّرِيقَة تَنَلْ مَعَالِي أَشْرَفِ الْحَقِيقَه
لاَ خَيْرَ إِلاَّ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ مَنْ لَمْ يُتَابِعْهُ فَذَاكَ الْبِدْعِي
فَكُنْ لَهُ تِلْواً عَلَى الدَّوَام تَفُزْ بِقُرْبِ الْمُصْطَفَى الإِمَام
وَتَشْهَدُ الْحَقَّ عَلَى الْحَقِيقَةَ وَتَرْتَقِي مَرَاقِي الطَّرِيقَه
لَكِنْ أَسَاس الأَمْرُ ثُمَ الرَّأْسُ الصِّدْقُ وَالإِخْلاَصُ فِي الأَنْفَاسِ
وَاجْهَدْ وَجَاهِدْ صَاحِبِي فَالْمُجَاهَدَةُ مُثْمِرَةٌ لِلْوَصْلِ وَالْمُشَاهَدَه
وَاحْذَرْ مِنَ الزَّمَانِ وَالإِخْوَانِ وَالْزَمْ أَخِلاَّ مَعْشَرِ الدَّيَانِ
وَكُنْ تَقِيّاً سمحاً سَخِيّاً وَصَافِي السِّرِ وَكُنْ زَكِيّاً
وَانْوِ بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ خَيْراً وَكُفَّ شَرّاً وَأَذَى وَضَيْراً
وَاجْعَلْ مَحَطَ الرَّحمة وَالْمَقَاصِد حَظِيرَةَ الْقُدْسِ وَعَيْنَ الْمَشَاهِد
وَاشْهَدْ إِلاهًا عَمَ الْوُجُودَا وَلاَ تَرَى لِغَيْرِهِ وُجُودَا
وَاشْتق لَهُ يَاصَاحِ فِي الأَنْفَاسِ وَاطْرَحْ أَذَى الأَخْمَاسِ وَالأَسْدَاسِ
وَلاَزِمْ الذكْرَ مَعَ الْمَذكُورِ وَغِبْ عَنْ الْجِنَانِ وَالْقُصُورِ
وَلَمْ تَصِلْ لِهَذِهِ الْمَعَانِي إِلاَّ بِشَيْخٍ كَامِلِ الْمَعَانِي
مُهَذبٍ فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنِ مُودبِ التَّحْرِيكِ وَالسَّوَاكِنِ
460 وَذا فِدْيَاكَ الزَّمَنُ الأَنْوَرُ أَعَزَّ مَنْ طَوِيَّتْ سر أَحْمَر
فَكَيْفَ بِهَذَا الزَّمَانِ الأَغْبَرِ يَنَالُهُ مُخْلِصٌ وَمُفْتَرِ
لَكِنْ جَرَتْ عَادَة رَبٌّ قَادِرِ بِالصِّدْقِ يَحْظَى صَاغِرٌ بِكَابِرِ
بلَى لَنَا فِي كُلِّ وَقْت مُطْلَقَاً مَوْلَى الشُّيُوخِ أَحْمَدَ حَادِي التقَى
فَالْزَمْهُ مَهْمَا رُمْتَ لِلْوُصُولِ فَإِنَّ فِيهِ غَايَةَ الْمَأْمُولِ
وَبَعْدَ هَذا فَاسْتَقِمْ لِلْمَوْتِ وَاحْذَرْ مِنَ التَّفْرِيطِ ثُمَ الْفَوْتَ
وَاسْئَلْ دَوْماً بَرَكَةَ السَّلاَمَهْ مِنَ الْوَبَاءِ وَالْخِزْيِ وَالنَّدَامَهْ
وَقُلْ: إِلَهِي مِسْكُكَ الْخِتَام ثُمَ الصَّلاَةُ بَعْدُ وَالسَّلاَم
عَلَى النَّبِي مُصْطَفى مُحَمّدِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَالْمُهْتَدِي

مَـا لاحَ بَـرْقٌ وَأَسْـرَى نَسِيـمٌ أَوْ غَنَّتِ الْـوُرْقُ وَحَـنَّ رِيـمُ
أَوْ مَا تَوَاصَتْ صَبْرُهُمْ وَالرَّحْمَـه أَوْ مَا عَفَا الْغَفَّارُ كَم مِـنْ مَظْلَمَـه

ويضاهي شيخه هذا أيضا، تلميذه الشيخ الإمام العالم الهمام، ذو السمت الحسن، والهدي المستحسن، الحُلا حل الوقور، أبو علي الحسين ابن عبد الشكور الطائفي أصلا، نزيل طيبة على ساكنها الصلاة والسلام، أواخر عمره بإذن شيخه. وقد توفي قبل دخولنا المدينة المنورة بأيام قلائل، وقفت له على ديوان شعر محتو على قصائد في طريقة القوم، فائقة المعاني، رائقة المباني، يعرفها من اطلعها، وتوجهت همته إليها، نظمها بحسب الفيض الأقدس، وعطايا الإله الأنفس، فمنها في الغرام الأسمى الذي ليس له تناه: (من الطويل)

غَرَامِي غَرِيمِي يَا حَبِيبُ وَإِنْ أَمُتْ فَذَاكَ غَرِيمِـي كَالْتِـزَامِ يَقِينِـي
غَرَامِي وَوَجْدِي وَاَسَامِي وَلَوْعَتِي وَخِدْمَةُ قَلْبِي وَالضَّنَـى وَحَنِينِـي
وَمَدْمَعِي السَّفَاحُ فِي سَفْحِ وَجْنَتِـي وَفَقْدِيَ وَسَهْدِيَ وَالشَّجَا وَأَنِينِـي
بِوَجْهٍ تَجَلَّـى لِلْفُـؤَادِ مُوَاجِهًـا يَفِيضُ مُغْـنٍ بِالشُّجُـونِ مَعِينِـي
أَهِيمُ بِهِ فِـي وَقْفَتِـي وَتَوَجُّهِـي وَأَلْهُو فَأَسْهُو عَـنْ مَشَـاعِ دِينِـي
وَأَلْهُو بِهِ وَشَوْقًا وَمَا آنَ وَصْلُـهُ وَمَا ثَمَّ قَطَعٌ غَيْـرُ وَهْمِ ظُنُونِـي
تَجَلَّى بِكُلِّ الْحُجُبِ عَنِّـي بِنُـورِهِ مُحَجَّبَةً وَاللُّطْـفُ مِنْـهُ يَقِينِـي
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لُطْفٌ خُفِيٌّ لَذُبْتُ مِنْ سَنَا نُـورِ ثَغْـرٍ سَاطِـعٍ وَجَبِينِـي
فَكَيْفَ بِذَاكَ النُّورُ وَهُوَ مُصَافِـي بِكُلِّ سُهُولِي فِي الْهَـوَى وَحُزُونِـي
461 وَيَا حَبَّذَا الْوَجْهُ الْجَمِيلُ وَحَبَّذَا فَنَـادَى بِـهِ فِـي لَوْعَتِـي وَشُجُونِـي

في أبيات كثيرة، وقال أيضا متعجبا من حاله وتشتت باله: (من الكامل)

عَجَبًا لِوَجْدِي فِي الْهَوَى وَتَوَلُّعِي وَشَتَاتَ شَمْلِي وَالَّذِي أَهْـوَى مَـعِ
أَشْتَاقُـهُ وَمَحَلُّـهُ بِجَوَانِحِـي وَأُرِيـدُهُ وَمَقَامُـهُ فِـي أَضْلُـعِ
وَالْقَلْبُ مُشْتَـاقٌ إِلَيْـهِ وَأَنَّـهُ فِيـهِ وَغَيْبٌ مِـنْ سَنَـاهُ بِبُرْقَعِـي

وقال في الفرار من الأغيار واغتنام ما بقي من الأعمار : (من البسيط)

سَافِرْ بِسِرِّكَ عَنْ نَفْسٍ وَعَنْ قَبَسٍ وَعَنْ سِوَاكَ مِنَ الْكَوْنَيْنِ وَاحْتَرِسِ
وَاقطَعْ مِنْ أَجْلِ عُمْرٍ ضَاعَ أَجمَعُهُ فِي اللَّهْوِ وَالْغَيِّ وَالتَفْرِيطِ وَالْهَوَسِ
قَطَّعْتَهُ قطعًا فِي غَيْرِ فائِدَةٍ مَا بَيْنَ مُفْتَرِشٍ فِيهِ وَمُفْتَرِسِ
أَنْفَاسُهُ الَتِي مَرَّتْ غَيْرَ مُكْثِرتٍ بهَا وَبَدَّلتَ مِنْكَ الدِّينِ بِالدَّنَسِ
فَاحْرِصْ عَلَى نَفسٍ لَوْكُنْتَ تُدْرِكُهُ فَبِالكَ الآنَ مَرْجُوَ سِوَى نَفَسِ
فَاجْعَلْهُ عُمْرَكَ وَافعَلْ مَا يَلِيقُ مِنَ التَوَجُّهِ لِلرَّحْمَانِ وَاقتبسِ
وَاجْعَلْهُ قَصْدَكَ فِيمَا كَانَ تَحْظَ بِهِ فِيهِ عَلَى طَورِ الْحِسِ وَاحْتَبِسِ

إلى غير ذلك من القصائد سيما التي سماها **الهدية السنية في الصلاة السنية**، وهي منظومة بديعة في أسرار الصلاة وكيف ينبغي أداؤها، وشرحها في سفر ضخم، وحشى عليه أيضا . قال في الحاشية: واعلم أن هذه الحاشية بحسب الفيض ماشية، لا يكاد الناظر يرى فيها ترتيبا ولا تفصيلا ولا تبويبا، وإن كانت في الغيب مرتبة، وفي الجيب مبوبة، فلا تليق بمن وقف مع علومه وتوقف بفهومه، إذ الوارد بحالة لا يكاد يفهم إلا بها لمن جد في طلبها، وأهل العلوم الظاهرة في حجاب عن الدخول من هذا الباب، فإياك أيها الناظر من الإعتراض فإنه من الأمراض، وخذ ما راق، ودع الشقاق والنفاق . أبدع فيها ما شاء واستوفى فيها طرائق القوم ومقامات الأولياء .

وله ﷺ **التوشيحات الجوهرية في الصلاة المشيشية**، وله منظومة نونية أنشأها وهو في بلاد الروم مستنجزا عن الديار قال في مطلعها : (من البسيط)

حَرِّرْ لِسَمْعِي أَخْبَارَ الْمُحِبِّينَا وَلاَ تَزِدْ أَبَدًا غَيْرَ الْهَوَى دِينَا
وَهَاتِ لِي خَبَرَ الْعُلاَ تُهَذِّبُهُ بِمَغْرِبِ القوَى تَمْكِينًا وَتَلْوِينَا
فهمْ حماةُ مُحَبِهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا وَشُقَّةَ الْبُعْدِ تجذُهُمْ تَلْوِينَا
462 وَهَاتِ عَنْ حَيْرَةِ الْجِزْعِ امُحَادَثَةً تُمِيتُنَا تَارَةً وَتُحْيِينَا
هَلْ عَهدَنَا عَهْدَنَا بِالشِّعْبِ أَمْ نَقَضُوا تِلْكَ الْعُهُودِ وَحَاشَا أَمَانِينَا
هَلْ الرُّجُوعُ عَلَى مَا كُنْتُ أَعْهَدُهَا شَوْقًا إِلَيْنَا نَوَادِيهَا تُنَادِينَا

هَلْ اَلْمَرَاتِعُ بِاَلْغِـزْلاَنِ عَامِـرَةٌ ... لاَعَـاوَدَتْهُـمْ بِتَشَبُّثِ عَوَادِينَـا
هَلْ زَارَهَا مِنْ مِثْلِ اَلْغَيْثِ صَيِّبُهُ ... فَسَأَلِ مِـنْ سَبْيِهِ اَلْمَأْنُوسُ وَادِينَا
وَأَخْصَبَتْ تِلْكُمُ اَلأَنْجَادُ وَابْتَهَجَتْ ... أَفْيَاؤُهَا وَزَهَتْ رَوْضًا أَرَاضِينَـا
وَهَلْ زُهُورُ اَلتُّرْبَا تَزْهُو بِرَوْنَقِهَا ... زَهْـرُ اَلسَّمَـاءِ وَزَانَتَهَا بِوَادِينَـا
وَهَلْ بِوَادِ اَلنَّقَى أَوْ سَرْحِ كَاظِمَـةٍ ... هَلْ اَلْحَيَا صَادِنَا يَرْوِي لِصَادِينَـا
وَهَلْ جَرَى فِي عَقِيقِ اَلسَّفْحِ طَالِبُهُ ... يَسْقِي اَلأَرَاضِي حُبًا فِي مَرَاضِينَا
وَهَلْ رُبَى حَاجِرٍ فَاحَتْ عَوَاطِرُهَا ... شِيحًا خُزَامَى وَأَزْهَارًا وَنِسْرِينَـا
وَهَـلْ رُبُوعُـكَ يَا لَيلاً عَامِـرَةٌ ... كَمَا عَهِـدْتَ وَأَهْـوَاهَـا تُهَادِينَـا
وَهَلْ أُثَيْلاَتِ ذَاكَ اَلْحَـيِّ يَانِعَـةٌ ... وَاَلْبَانُ بَـانَ اَلْجِبَـا مِنْهُ لِرَاعِينَـا
حَدِّثْ فَدَيْتُـكَ وَاذْكُـرْ لِـي مُعَاهِـدَ ... هُمْ نَضْمًا وَنَثْرًا وَفَصْلُهَا كَمَا شِينَا
عَلَي أَرَاهَـا بِأَسْمَـاعِ مُشَاهَـدَةٍ ... وَاَذْكُرْ فَدَيْتَكَ لِـي أَخْبَـارَ شَادِينَـا
وَاذْكُرْ شَاعِرَهُمْ وَاَذْكُرْ شَعَائِرَهُـمْ ... وَاَلرُّكْنُ وَاَلْبَيتُ وَاذْكُرْ وِرْدَ صَافِينَا
وَلِعُلَمَاءِ شَطْنِي وَاذْكُـرْ شُعُوبَهُـمْ ... وَاَلْمُنْحَـى وَمِنَـى مَرْمَـى أَمَانِينَـا
وَاذْكُرْ مَرَاتِـعَ ذَلِكَ اَلْحَيِّ مُجْتَهِـدًا ... وَاَلْخَيْفُ مِنْ ذِكْـرِهِ تَبْـدُو اقْرَافِينَـا
صَرْحَ بِنُعْمَانٍ وَاَلْوَادِي وَبِئْرٍ عُنُقًا ... لِلْكَبِيرِ وَاذْكُرْ كَذَا نَاطِـوَى وَادِينَـا
وَاذْكُرْ لِي اَلطَّائِفَ اَلْمَأْنُوسَ دُمْتَ بِهِ ... مُسْتَأْنِسًا وَاحِـدًا فِي ذِكْـرَاهُ تَمْكِينَـا
وَارْفِقْ فَدَيْتَكَ لِي كَيْ لاَ تُفَارِقَنِـي ... نَفْسِي إِذَا مَا ذَكَرْتُ اَلْحَيَّ وَاَلْحَيِّنَـا
فَفِيهِ وَالِي نَفْسِي بَعْـدَ فُرْقَتِهِـمْ ... ذَابَتْ وَسَالَـتْ دِمَـاءٌ مِنْ مَآقِينَـا

ثم خلص لمدح شيخه المرغني، ثم لمدح البحر بن عباس ثم للطائف في نحو سبعين بيتا .

ولهذا الرجل شيخ آخر وهو الشيخ العارف الحقاني، والمربي الرباني الشيخ شيخ ابن جعفر باعبود – به عرف– ومن شعره حسبما أنشدنيها ابن عبد الشكور في ديوانه قال: وليست من كلامي ولا وصل إليها مقامي: (من الكامل)

فَارِقْ هَـوَاكَ فَمَـاذَاكَ سِـوَى ذَا ... وَأَبْغِي بِلاَدَكَ تَـرَى اَلإِلَهَ مَـلاَذَا

وَإِذَا فَنِيتَ عَنْ اَلْفَنَى عُـذ رَاجِعًـا ... لِلْقَهْقَـرَا فَرَقًـا تكن اسْتَـاذًا
*463*كُنْ بَيْنَ فرْقَانٍ وَبَيْنَ رَقَائِقٍ ... وَحَقَائِـقُ مُسْتَهْلكًـا نَفَّـاذًا
صَاحِ مَعَ اَلْجمْعِ اَلْمُفِيدِ شَرِيعَـةً ... وَطَرِيقَـةً فَلَقَـدْ خُلِقْتَ لِهَـذَا
وَانْظُرْ إِلَى صُوَرِ اَلْحُرُوفِ وَرَسْمِهَا ... تجِـدِ اَلتَخَالُـفَ صُـوَرًا أَخَـاذَا
وَاَلْعَيْـنُ وَاحِـدَةٌ تَكْثُـرُ شَأْنُهَـا ... رُتَبًـا تُرِيـكَ مَجَالِيًـا يَـا هَـذَا
فِي بَحْرِ قُدْرَتِـهِ تُمَـرَّرُ بِأَمْـرِهِ ... طَوْرًا وَطَوْرًا فِي اَلْخَفِـيِ نَتَهَـاذَا
اَللهُ أَكْبَـرُ كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ ... وَهُوَ اَلْجوَادُ وَلَيْسَ ذَاكَ وَلاَذَا
فَسُبْحَـانَ مَـنْ خَلقهُـمْ وأذاقَهُـمْ

رجوع، ونص ما أجازني به صاحب الترجمة وكتبه لي بيده بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ وبعد: فقد طلب مني الفاضل اللبيب والبؤبؤ الألفي الأريب ذو الأخلاق الحميدة والأبحاث المفيدة، السيد الجليل، والسند الماجد النبيل، خلاصة السلالة الناصرية، ويعسوب الأسرار الربانية، من هو أهل أن يجيز لا يجاز، إذ هو السند على الحقيقة لا المجاز، مولانا الفاضل محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن ناصر الدرعي المقدادي المغربي كان الله له حيث كان، وجمعنا وإياه في بحبوحة العرفان، أن أجيزه بجميع مروياتي، وما تضمنته عن الأفاضل إجازاتي، ظنا منه أني من فرسان ذلك الميدان، أو أن مثلي من أهل ذلك الخزان، على أني في ذلك مزجي البضاعة، وأقل الناس في تلك الصناعة، غير أنه قد اشتهر بين الأكابر، رواية الأكابر عن الأصاغر كعكسه الشهير بين ذوي المحابر، فأجبته امتثالا لما طلب، إذ الإمتثال خير من الأدب، وأجزته بكل ما تجوز لي روايته أو تسوغ لي روايته من المعقول والمنقول، والفروع والأصول، لاسيما الكتب الستة وغيرها من كتب الحديث بحق أخذي ذلك عن أشياخ أجلة، وبدور وأساتذة أهلة، من أجلهم وأعلاهم وأرفعهم وأسماهم حظوة أستاذنا الوالد العلامة، وكذلك شقيقه في الإفادة والاستفادة أستاذنا أبو العباس أحمد الملوي المصري الشهير، وكذلك شيخنا الهمام الأوحد إمام الحرمين مولانا الشيخ محمد الشهير بسعيد سند، وكذلك مولانا الشيخ حسن الكردي المدني، كل

منهم عن العلامة الأوحد والفهامة الأمجد، محدث العصر وإمامه وجهبذه وهمامه *464* أميرالمؤمنين في الحديث عبد الله بن سالم البصري المكي، عن أشياخ أجلة من أرفعهم وأعلاهم العلامة البابلي الشهير، عن جماعة من أجلهم وأرفعهم العلامة السنهوري، عن الحافظ المتقي النجم الغيطي، عن شيخ الإسلام الشيخ زكرياء الأنصاري، عن خاتمة الحفاظ ورئيس أهل الصناعة والنقاد الحافظ ابن حجر بأسانيده . ويروي أيضا العلامة البصري، عن شيخه العلامة الأجهوري، عن شيخه النجم الغيطي، عن زكرياء، عن الحافظ. ويروي أيضا عن شيخه العلامة الشبراملسي، عن النور الزيادي عن الشهاب الرملي، عن شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري، عن الحافظ بسنده . ومن أجل شيوخنا أيضا الأستاذ الجعني، عن شيخه العلامة ابن الميت بأسانيده المودعة في ثبته الشهير، وكذلك من أجلهم العلامة أبو العباس أحمد الدمنهوري الشهير، عن أساتذة أجلة من أجلهم العلامة عبد الله القصري الكنكسي، عن الحسن اليوسي بأسانيده، وكذلك منهم العلامة ابن الطيب المغربي الفاسي، نزيل دار الهجرة ودفينها، عن العلامة المسناوي وغيره، عن سيدي عبد القادر الفاسي بأسانيده . وكذلك منهم شيخنا الحجة المفسر السيد المسند مولانا شمس الدين البُلَيْدي، عن أشياخ أجلة من أجلهم العلامة سيدي محمد الصغير الورزازي، وكذلك العلامة مولانا عمر الطحلاوي المصري المالكي، عن شيخه العلامة العماوي بأسانيده، وكذلك منهم شيخنا العلامة أبو العباس أحمد الورزازي ابن أخ سيدي محمد الصغير، وكذلك منهم العلامة الأوحد والفهامة الأمجد أبو العباس أحمد المنوفي الشافعي المصري، عن شيخه العلامة ابن الفقيه، عن شيخه الشبراملسي بأسانيده، وكذلك منهم العلامة سيدي محمد جسوس شارح **الشمائل**. وكذلك أخذت بالإجازة العامة عن الفاضلين المأجورين مولانا الشيخ أحمد العياط ، والشيخ حسن السكندري المغربي كلاهما عن العلامة الأجهوري المالكي الشهير، وغير ذلك مما يطول شرحه ويمل ذكره، وهو مودع في سند العلامة الوالد الواصل إلينا من طريقه وغيره، والله أعلم بحقيقة الحال وإليه المرجع والمآل . ومن جملة أشياخنا العارف بالله تعالى والدال عليه العلامة المعمرالشيخ باعبود العلوي المدني،

ومنهم مولانا *465* السيد الكامل والمحبوب الواصل السيد عبد الله مرغني نزيل الطائف، ومنهم أستاذنا السيد عبد الوهاب العفيفي، ومنهم الشيخ خليل المصري المغربي الأصل، ومنهم الشيخ عطية الجوهري الشافعي، ومنهم الشيخ عيسى البراوي الشافعي، ومنهم الشيخ عطا القاهري نزيل مكة، ومنهم العلامة الشيخ علي السعيد، ومنهم الشيخ يوسف الجعني أخو شيخنا وشيخه المقام. ومنهم الشيخ إبراهيم المصري المالكي، عن شيخه العلامة الخرشي، عن شيخه الأجهوري نفعنا الله بهم. ومن جملة أشياخ شيخنا الوالد مولانا سيدي أحمد بن ناصر، وسيدي وسندي محمد بن عبد الباقي الزرقاني، وسيدي عبد الله القاهري القصري الكنكسي، وسيدي محمد بن زكي، وسيدي محمد بن عبد الله الكبير، والعلامة الشبرختي . وقد أجزت بذلك أيضا إجازة عامة شاملة العلامة أبا العباس أحمد بن الحسن، سبط مولانا الأستاذ ابن ناصر، لما أنه طلب مني ذلك له العلامة سيدي محمد المذكور، والمأمول منهما أن لا ينسياني من صالح دعواتهما في خلواتهما فإني مفتقر إلى ذلك ولأقل مما هنالك، سلك الله بنا مسالك النجاة وجمعنا وإياهما في دار السلام مع الأساتذة الأعلام بمنه آمين . كتبه عجلا خجلا أقل عبيده وأحقرهم وأدناهم وأضعفهم الفقير محمد أبو هادي الجوهري الشافعي الخالدي الأزهري كان الله له حيث كان، ورزقه الإعانة والمعونة في كل مكان وزمان بجاه من قال: «توسلوا بجاهي فإنه عند الله عظيم»[1] ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين، وذلك يوم الخميس سادس عشر ربيع النبوي سنة سبع وتسعين ومائة وألف .

وممن لقيته الشيخ الإمام البركة الزاهد الوارع الصوام القوام سيدي وسندي ومن على الله ثم عليه اعتمادي الشيخ أبو داود سليمان الجمل[2] - به لقب - الشافعي مذهبا الخلوتي طريقة، قد كان هذا الرجل آية الله تعالى في خلقه مع أنه كان أميا لا يحسب ولا يكتب ولا يطالع، ودأبه أن يأتي من يطالع له حصته في سائر ما يريد

1- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث . قال ابن تيمية و الألباني : لا أصل له . انظر : **سلسلة الأحاديث الواهية وصحح حديثك**، 1/ 232 .

2- ترجم له : الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 200 - 201 ، رقم 120 ؛ سركيس، **معجم**. . . ، 710 .

تدريسه من فقه وحديث وتفسير ونحو ولغة ومعان وبيان وغير ذلك من الفنون، فيسرد عليه ويحفظ هو جميع ذلك؛ ولم يتزوج قط. وقد تجلت عليه *466* العزلة عن الخلق، فاتخذ بوكالة بالصنادقيين قرب الأزهر مبيتا يظل بها ويبيت بالليل يتعبد وبالنهار يجتهد في التعليم. وله بالمشهد الحسيني بين العشائين درس كبير يحضره الجم الغفير في التفسير، حضرناه من قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [1] إلى أول سورة يوسف، ولم يفتنا مدة إقامتنا بمصر منه إلا النزر. وله حاشية نفيسة على **تفسير الجلالين**، وهي سائرة مع النصاب، فعادته كل يوم أن يأتي أخ له مع طالب من تلامذته إلى بيته بالوكالة. ولديه تفاسير وحواش وغير ذلك مما يحتاجه المريد من التآليف، فيسردون على الشيخ فيأمرهم بالكتب، وله شرح على **دلائل الخيرات**، وشرح **حزب البحر**[2] للإمام الشاذلي؛ وكان مما قرر ذات يوم في درس التفسير في قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[3] أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد خروجهم من التيه مرشحا له بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[4]، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[5].

فقلت له - بعد انقضاء الدرس - لم يرجعوا إجماعا من أهل السير، حكاه السيوطي في حواشيه على البطار[6] ونحوه لابن عطية كابن جزي، معبرين عنه بالمشهور ونسبوا القول برجوعهم للحسن وضعف. فقال: وكيف يكون تأويل الآيات المؤذنة بالرجوع؟ فقلت: المعنى أورثناها إياهم بكونها في إيالتهم أو تحت نظرهم، أورثناهم نظيرها أو أحسن منها بأرض الشام، فقال الذي في القرطبي ترجيح القول بالرجوع. قلت: لم أر فيه ترجيحا وإنما حكى القول بالرجوع، نعم لم يعترضه.

وفي **حسن المحاضرة**: «اشتهر على ألسنة كثير من الناس في قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ إنها مصر؛ وقد نص ابن الصلاح

1- الأعراف: 142.

2- ينظر في **رحلة** ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، ص 21- 22.

3- الأعراف: 145.

4- الدخان: 27.

5- الشعراء: 59.

6 - في «ح» البيضاوي

وغيره - من الحفاظ - على أن ذلك غلط نشأ من تصحيف؛ وأنما الوارد عن مجاهد وغيره من مفسري السلف في قوله تعالى ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، قال: مصيرهم؛ فصحفت بمصر»[1] ، هـ .

وفي تفسير عماد الدين بن كثير قوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتلف . قال ابن جرير وإنما قال:﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخالطه: سأريكم غدا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد *467* والوعيد لمن عصاه وخالف أمره - ياعجب الفتوى - ثم نقل معنى ذلك من مجاهد والحسن البصري» هذا هو الأولى[2] ، هـ.

وقال صاحب الترجمة أيضا قبله في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾[3] قال الجلال: المنفي هو الطاقة ولو قال: لن أرَى بدل لن تراني لإفادة نفيَ الرؤية من أصلها، وهو غير ظاهر إذ معنى العبارتين واحد فكل منهما تفيد نفي الرؤية من أصلها، فقلت: لا والله يا سيدي نفي الطاقة فقط، لا نفي الرؤية عن خصوص موسى عليه السلام بدليل: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الآية[4] ، إذ لو لم تكن الرؤية جائزة لما تجلى حتى للجَبل. وأما لَن أرى المبني للمجهول، فهو يفيد لو عبر به نفيها من أصلها من موسى وغيره فسكت منصفا.

وحضرت ناديه السعيد ذات يوم ببيته بالوكالة، فجاء مالكي يستفتيه في تزويج بكر صغيرة ذات الأب البعيد الغيبة بتونس، فقال لا سبيل لتزويجها عندنا معشر الشافعية. فأمر كاتبه أن يوجه سؤالا في الحين للعلماء بالأزهر، فكتب المالكي لحينه - وأظنه من غير مراجعة - تزوج إن خيف عليها الفساد، ولم يستظهر على ذلك بنص، والحنفي تزوج ولها الخيار في الفسخ إن بلغت. فقلت: يا عجب من تساهل أهل هذه البلاد في الفتوى والمسألة،

1- **السيوطي، حسن المحاضرة** : 1/ 14 .

2- **تفسير ابن كثير**، دار الفكر، بيروت ، 1401 هـ ،2/ 247 .

3- الأعراف: 143 .

4- الأعراف: 143 .

عندنا في **المعيار**، آخره حلولو، والزرقاني وغيرهما أنها يزوجها الحاكم إن بعدت الغيبة وخيف عليها الفساد والضياع، وقطعت عنها النفقة، من غير مشورة من حضر من أقاربها غير الأب ولا احتياج إلى استئذانها إذ لا عبرة به لصغرها . فقال الشيخ: لا بد أن تكتب هذا، فكتبته اسعافا لغرضه ثم تأمل وقال: هذه الموجبات يصعب إثباتها إلا برشوتها من الحاكم، ولا يتوصل له إلا برشوة عظيمة تضر بالسائل مريد التزويج، وكان هذا السائل من أتباع الشيخ ومن خدمته، فاركب أيها السائل مذهب الحنفي وأحضر الأخ واعقد.

فقلت: النكاح عندنا معشر المالكية مفسوخ إذ الحكم بغير المشهور، أو ما به العمل أو الفتوى به باطل، فما بالك بالانتقال لمذهب الغير عن غير داعية لذلك؛ ومجرد إعطاء الرشوة لا يوجب الانتقال لمذهب الغير إذ اللعنة إنما هي على أخذها، والمعطي له الضرورة معذور. ولما شكوت لصاحب *468* الترجمة ما اقترفته من الخطايا واكتسبته من الرزايا والرياء في الأعمال أنشدني لغيره: (من البسيط)

يَا رَبِّي إِنَّ ذُنُوبِي فِي الْوَرَى كَثُرَتْ ... وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ فِي الْحَشْرِ يُنْجِينِي
وَقَدْ أَتَيْتُكَ بِالتَّوْحِيدِ يَصْحَبُهُ ... حُبّ النَّبِيِّ وَهُوَ الْقَدْرُ يَكْفِينِي

وحدثني أن الإمام النووي رحمه الله تعالى ترك مبيضات من تأليف لم تكمل، فرام التقي السبكي بعد ذهابه من مصر للشام قاضيا إتمامها، فكتب كراسة في بعضها فعرضها علي ولديه البها والتاج فقال: العلم كالعلم والنفس كالنفس . ولما جرى ذكر انعدام المسلك على الحقيقة في زماننا، قال ناقلا عن الإمام السنوسي: يقوم مقام ذلك الصلاة على النبي ﷺ، فإنها توصل إلى الله تعالى من غير واسطة . قلت : وإن الأمر لكذلك . ففي **مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن** لولده سيدي العربي الفاسي رحمهما الله تعالى في أول جواب من أجوبة والده ما نصه: «الصلاة على رسول الله ﷺ كالماء، تقوى النفوس وتذهب وهج الطباع»[1]. ولهذا قال الشيوخ: من لم يجد مسلكا

1- **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن** لمحمد العربي الفاسي، دراسة وتحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، الطبعة الثانية، 1429/ 2008 ص 234 .

شيخا مربيا فليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ. وأنها كذلك لما فيها من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله، ففي الصلاة على رسول الله ﷺ ذكر الله وليس كذلك عكسه، فلهذا يحصل الانحراف بالذكر دون الصلاة والسلام فهو عجيب. ومن الإشارة هو سجود الملائكة لآدم عليه السلام لما ظهروا بالتسبيح والتقديس وثار عليهم نوره ولاح عليهم سره الظاهر من قولهم: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1] ، ردوا بالسجود لآدم عليه السلام إلى حد الاعتدال والمقام الأكمل، فمن ثم لا يصح تشييخ الميت مع وجود الحي وإن كان أفضل لغلبة نورانية الذاكر لا تخمد إلا بمقابلة ظلمانية الإفساد الصقيلة، فبمشاهدة الشيخ الحي تعتدل حقيقته، وتهمد نورانيته لما في ذلك من الاستئناس بالجنس والرجوع للحس. ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ الآية[2] ، مع ما في ذلك من تلمس التأديب والتهذيب والتدريب المفقود من الميت، فالمستند إليه وإن تنورا وجدوا له أثرا لا تجده إلا ناقص تهذيب أو يكاد والله أعلم . ومن الآيات ما يشهد لذلك ويشير لمن يفهم: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[3] ، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[4] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[5] وغيرها من الآيات، فاعتبرها وقف عليها وبالله التوفيق .

رجوع*469* وقال: ترك شيخنا الجعني آخر عمره التلقين، ودل الناس على تلميذه الشيخ محمود الفردي، وكان يقول: ما أرى التلقين في زماننا إلا كلبن أبيض طاهرا لم يشب، جعل في جرة كلب فدنس فاسود وتنجس، وما صح معنا ولا واجد .

1- البقرة: 29.

2- آل عمران: 164 .

3- الأعراف: 53 .

4- الأنعام: 74.

5- الفاتحة : 4 .

قال: ومن كلامه وهو مقتبس من حديث «المرء مرآة أخيه»[1] : (من البسيط)

نَحْنُ الّذِينَ شَرِبْنَــا وِرْدَ مَا فِينَــا وَيَعْلَــمُ اللهُ ظَاهِــرَنَا وَخَافِينَــا
قُولُوا لِقَــومٍ رَأَوْا مَا يَكْرَهُوا فِينَــا ذَا مِنْ صِفَانَا رَأَوا مَا يَكْرَهُوا فِينَا

ولما شكوت له أني ربما رأيت أورادا من أذكار وتهجدا نحوهما فتنقطع ثم أراجعها، فأكلف نفسي أكثر مما رتبته ثم ينقطع . فقال لي: ذاك وارد شيطاني يقول لك أنت قللت، وقصده إيقاعك في الملل لتقطعها رأسا . ثم قال- والحديث شجون- وقع لي نظيرتها مع شيخنا الجعني وذلك أني كنت أصلي به إماما نحو عشرين سنة ورتبت في خلوتي عشرة آلاف من الهيللة فطلبت منه - بعد برهة من الزمان - الزيادة على ذلك، فقال: هذا وارد شيطاني، فدم على ما أنت عليه . قال: وبعث لي ذات يوم قائلا : أردت أن أحتجب معك عن الخلق في هذا اليوم ونقطعه بالتلاوة، ففعلنا نتناوب القراءة، يقرأ الشيخ حزبا وأقرأ ما بعده وهكذا، جريا على عادة المشارقة، وقد كان قال لخادمه قبل أن نشرع: من جاء يطلبني من الناس فقل له عذر مُعلم نشب، ونحن على حالنا من التلاوة أن جاء الخادم قائلا : باب الدار ممتلئ بالناس حتى كادوا أن يمنعوا المارة بالطريق . وفكر الشيخ ساعة، وقال: ظفر منا اللعين بالمراد، هربنا من الشهرة ووقعنا فيها . فلو قضينا حوائجهم فرادى لكان أخف في الشهرة . وأيضا ما حجتنا إن قال لنا نبينا صلى الله عليه وسلم غدا: لم احتجبتم عن أمتي؟ فهلا قضيتم حاجة هذا؟ ونفستم كربة هذا؟ وشفعتم لهذا، أو أرشدتم هذا؟ فما هو إلا أن اللعين أراد أن يوقعنا في ورطة عظيمة، وهي كسر قلوب المؤمنين من أمة نبينا ﷺ. فاخرج بنا ! قال: فخرجنا لحيننا، فقضى حاجة كل واحد.

وقال لي ذات يوم صاحب الترجمة ببيته بالوكالة مداعبا: لم نرك في الحسنين في الموسم النبوي، وقد قامت قيامة أهل مصر لهذا الموسم فاختلط الرجال بالنساء، وصارت مصر كلها بجميع أسواقها وصوامعها ومساجدها

1- الحديث أخرجه البخاري في **الأدب المفرد**، باب المسلم مرآة أخيه، بلفظ : « المؤمن مرآة أخيه». تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1409/ 1989، رقم 238 و 239 ، 1/ 91

وديارها في تلك الليلة مصابيح كأنها شموس نهار. فقلت: منعتني الزحمة واختلاط الرجال بالنساء *470* والوقت وقت نوم واستراحة أو عبادة. فقال مداعبا: يا أخي نحن فقراء شحاذون، يعني جامعون للدنيا بالحيل.

قال: ومن خفة أهل مصر وضعف عقولهم، أن رجلا منهم أدعى الولاية العظمى في زماننا هذا، وانقاد الناس بقضهم وقضيضهم سيما علماء الأزهر إليه، فلا ترى منهم إلا زائرا له متبركا به، يتطلبون منه كتب التمائم. ثم أن الله تعالى قيض له رجلا من الأمراء فقتله، فوجد في بيته كثيرا من الحسرات الموجبة لكفره، منها مصحف جعله تحت فراشه يجلس ويرقد عليه با لفعل.

قال: ومن ذلك ما جرى بهذه السنين الماضية، وهو أن نقيب ضريح السيدة نفيسة العلوية، جاءه أعرابي بأنثى من المعز كان نذرها صدقة للسيدة إن قضيت له حاجة فقضيت، فأتي بها على نمط ما يؤتى به من الصدقة للموتى من الصالحين، فأخذها النقيب الظالم، وأخفاها مدة وهو يعلفها حتى بلغت الغاية في السمن، ثم أظهرها مدعيا أنها خرجت من قبر السيدة، فصدقه الجل من الناس إذ لم يجربوا عليه كذبا، فأمضى به الأمر إلى أن جعل لها قرطا وحليا في أذنها من الذهب، والجهلة يتشفعون بها ويذهبون بها في الدخيل، وصاحبها يسعى بها الدنيا وطال أمرها واشتهر، فافتتن الناس بها . فلما رأى الشيخ الجعني هذه المفسدة العظيمة التي كادت تفضي بالعامة إلى عبادة العنز، كما وقع لبني اسرائيل في عبادة العجل، ندب بعض الأمراء سرا إلى قطع هذه المفسدة، فتلطف الأمير أيده الله تعالى على صاحبها حتى أتاه بها، تختال في حليها وقرطها، ظانا أنه يريد التبرك بها على العادة، مع ما توهمه من العطا على ذلك، فلما تمكن الأمير منها أسرع بقطع رأسها، فحملها على ظهر صاحبها، وبعث أعوانا يطوفون به في الأسواق ودماؤها تتقاطر عليه والعصى موكلا بعطفيه. وكم بمصر- حسبما شاهدنا- من ذلك، وكل ذلك حيل على الدينار والدرهم، نسأل الله السلامة والعافية . قلت: وقديما قال فيهم القاضي عبد الوهاب: (من الطويل)

لَعَنَ اللهُ مِصْـرَ وَسُكَّانَهـا تفتقتْ أَكْبَادُهُـم بِالْحَسَـد
مَتَى يَرْتَجِي مُفْلِـسٌ مِنْهُـم غِنَى وَعَلَى كُلِّ مُفْلِسٍ أَسَد

وقال الآخر : (من الطويل)

لاَ تَعْنِينِي أَخْبَارُ مِصْرَ فَإِنَّمَا أَخْبَارُهَا تُرْوَى عَنِ الْفِنْجَانِ

وقال : (من الكامل)

لا تَرْكَنْ لأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهُـمْ سُحُبُ الْخِيَّانَةِ كُلَّ يَوْمٍ تَهْطِلُ
الْبُغْضُ فِيهِمْ لا يَزُولُ وَحُبُّهُمْ مِثْلُ التَّيَمّمِ بِالتَّوَهُّـمِ يَبْطُلُ

471 وقال : (من الطويل)

وَمَاذا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ وَلَكِنَّـهُ ضَحِـكٌ كَالْبُكَـاءِ![1]

وكان صاحب الترجمة – نفعنا الله به– كثير المحبة لي، تراه يأتيني في بعض الأحيان ليلا إلى منزلي يتعهدني ويخرج معي لزيارة القرافة نحو ضريح الإمام الشافعي ويستعطفه علي . فجزاه الله خيرا من رجل إن لم يكن وليا فليس لله بمصر من ولي، كيف وهو في الغاية من الزهد في الملبس والمأكل، كثير الصيام مستحضرا لحكاية الصالحين متقشفا، حضرته ذات يوم بالمشهد الحسيني، قبيل درس التفسير وبعد صلاة المغرب، وبين يديه وهو صائم خبز يابس ونتفة جبن وماء، فقلت في نفسي: سبحان الله ! عجبا من إقلال هذا الرجل ومن مخالفته في ذلك لأبناء جنسه من سكان بلده، فما أثبت هذا الوارد حتى بادرني بقوله: (من البسيط)

خُبْزٌ وَمَاءٌ وَظِلٌّ هُوَ النَّعِيمُ الأَجَلُّ جَحَدْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنْ قُلْتَ إِنِّي بِهِ مُخِلُّ

ولما جرا في تذاكر زيارة الأولياء وما لها من الآداب، قال: كنت أيام جواري بالمدينة المذكورة – على ساكنها الصلاة والسلام – أقف للزيارة على بعد من الشباك خارج الحجرة، قال: فقفلت ذات يوم فتقربت حتى أخذت بالشباك، فرأيت في النوم وأنا أزورها حربة خارجة من الحجرة مسددة إلي

1- البيت للمتنبي، انظر : **محاضرات الأدباء**، باب جودة الحفظ وذكر الحفاظ، 1/ 12 .

فهالني ذلك، فقصصتها على الوالي الصالح العالم العامل أبي إسحاق إبراهيم الزمزمي فهاله ذلك أيضا، فرأى بعد ذلك في نومه أننا جميعا داخل الحجرة، فقد كشفت لنا الأستار والحجب عن القبور الشريفة وجعلنا نتبرك بترابها وأحجارها فقصها علي قائلا: الحمد لله خير يسرك.

قال مقيد هذه الرحلة سامحه الله تعالى: ولما تحققت جلالة صاحب الترجمة أخذت عنه والحمد لله، وأجازني وأخذت عنه الطريقة الخلوتية على سبيل التبرك لأني شاذلي الطريقة، وأجازني فيها وقص ما أملاه من ذلك على الكاتب، فكتب بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ: الحمد لله الذي أصلح في سماء السعادة بدور الفلاح، وجعل أنوارها مقتبسة من شمس النبوءة فأتم لها في أبراج القرب مزيد النجاح، وقيض العلماء العاملين بحفظ شريعته وضبطها، فاهتموا بها في المساء والصباح، فمن ثم حافظوا على الأسانيد في العلوم ولا سيما الأحاديث الصحاح لما قيل إنها من الدين وإنها للعالمين سلاح، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معدن الأنوار ومنبع الأسرار ووجه *472* الوجوه الملاح وعلى آله وأصحابه الذين لم يكن لهم هم سوى حفظ شريعته والعمل بسنته، وليس لهم عن تلك المقاصد براح، ﷺ، وعليهم ما أذن مؤذن وقال حي على الفلاح، وبعد: فيقول العبد الفقير إلى مولاه القدير سليمان العجيلي[1] الشهيربالجمل الشافعي الخلوتي، خادم نعال الفقراء غفر الله له ولوالديه ولإخوته وأحبابه المسلمين أجمعين آمين، لما كانت معرفة الأسانيد من الدين وعليها العمدة عند أهل التمكين واعتنى بالمحافظة عليها - بحول الله - المتقدمون والمتأخرون، طلب مني المولى الفاضل الفهامة سيدي محمد بن عبد السلام الناصري المقدادي المغربي إجازة في علم الحديث وغيره- وفقنا الله وإياه للصواب- فاستخرت الله تعالى وأجزته بكتب الحديث حسبما وصل إلي من أشياخي، جزاهم الله عنا أحسن الجزاء، آمين. فأجزته بصحيح البخاري وبقية الكتب الستة وغيرها، وكتب الحديث مما وصل إلي رواية، وكذلك

1- الشيخ سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الشافعي الأزهري المصري المعروف بالجمل، عالم ومحدث، ولد بندينة عجيل، وورد مصر ولازم الشيخ الحنفي، وأخذ عنه الطريقة الخلوتية، اشتهر بالزهد والصلاح، توفي حادي عشر ذي القعدة سنة 1204هـ. انظر ترجمته في: **الأعلام** للزركلي: 3/ 131.

أجزته بكتب التفسير مما صح لي تلقينه، وأجزته أيضا بكتب المعقول مما قرأته على الأشياخ، وكذلك بكتب التوحيد وغيرها مما صح لي روايته ودرايته، وأذنت له أن يحدث بذلك كله تدريسا وإملاء وتصنيفا وعلى أي وجه يكون إفادة للطالبين، ونشر العلم والحكمة بين المسلمين، إذنا تاما مطلقا عاما على أن عليه أن يثبت غاية التثبت في العقل والفهم، وأن يخلص لله في نشر العلم، وأن يشركني في دعواته الصالحة وتجارته الرابحة . وقد تلقيت هذه الكتب عن أشياخ أجلة منهم فريد عصره ووحيد دهره، العالم العلامة شيخنا وأستاذنا شمس الدين محمد الحفناوي، ومنهم العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الأشبولي، ومنهم النحرير المدقق الشيخ أحمد الملوي، ومنهم المولى الفاضل الشيخ حسن المدانفي، ومنهم المتقي الشيخ عطية الأجهوري، ومنهم الفهامة الشيخ عمر الطحلاوي، ومنهم واسع الباع والذراع خصوصا في علم الحديث الشيخ أحمد الإسكندري، ومنهم شمس الملة والدين الشيخ محمد الدفري، ومنهم من أهل الحجاز الشيخ أبو الحسن السندي المدني والسيد إبراهيم أسعد المدني، ومنهم الشيخ إبراهيم الرئيس الزمزمي المكي، نفعنا الله بهم أجمعين .

وقد تلقيت العلوم المذكورة عن بعضهم سماعا، وعن بعضهم إجازة خاصة من البعض وعامة *473* من البعض، وأعلاه سندا أستاذنا الشيخ محمد الدفري رضي الله عنه قد أخذ وتلقى عن شيخه الإمام المتقي الحبر الهمام محمد بن محمد بن محمد البديري الدمياطي، وهو قد أخذ عن سيبويه زمانه نور الدين أبو الضياء الشيخ علي الشبراملسي، وهو قد أخذ عن البرهان الكامل الشيخ إبراهيم اللقاني، وهو قد أخذ عن المولى الفاضل الشيخ سالم السنهوري، وهو قد أخذ عن الكوكب المهتدى به الشيخ نجم الدين الغيطي، وهو قد أخذ عن إمام عصره وقدوة أهل دهره العالم الكامل في المعقول والمنقول شيخ الإسلام أبي يحي زكرياء الأنصاري وشهرة طرقه وأسانيده في الحديث وغيره تغني عن ذكرها، وعلى الله استنادي، وعليه تفويضي واعتمادي، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد باب سائر الخلائق إلى المولى الكريم، وأتوسل إليه بفضله العميم وبأحبابه هؤلاء الأسياد المقربين أن يختم لنا بخاتمة السعادة،

ولسائر أهلينا وإخواننا وأحبابنا المسلمين أجمعين آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين .

ثم أملى على الكاتب أيضا بأثر ذلك بعد البسملة: الحمد لله الذي أهبط بحكمته أسرار ذاته من سماء العلى إلى أرض الطبيعة الكل الجلية، وأودعها بقدرته في صدق النطق إظهارا لخواص الأسماء، فأحجبت بالظلمات النفسانية حجابا أنساها ما كانت عليه من الكمالات، فمالت إلى الشهوات، وركنت إلى المحسوسات، وألفت العادات، فلا تذكر أوطانها، ولا خطر ببالها مباديها العلية. ثم أرسل إليها رسلا على صورتها الظاهرة، ورسلا على صورتها الباطنة، وقد وافى ظلماتها مصابيح ملكوتية فأدركت ما هي عليه من الخباثات، وما فيها من الاستعداد إلى الوصول إلى الكمالات والدرجات العلمية، فجدت واجتهدت، وطلبت من مبديها كشف ما سترها من الحجب الظلمانية والنورانية، فتقرب منها لما تقربت منه بهذا الطلب، وجذبها جذبة أنساها طباعها وما كانت عليه من العادات، فوصلت بها إلى الحضرة الأجدية فاستوثقت صفاته في صفاته، إذ لم يبق فيها ما ينازعه في ربوبيته لاتصافها بكمال العبودية، فناداها ببعض أسمائها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ *474* وأمرها بالدخول في عباده تحقيقا للخلافة الآدمية ، فخلعت عليها الخلعة القنوطية والكمالات الأبدية، والصلاة والسلام على سيد الأنام ومصباح الظلام وخيرة البرية، وعلى آله وأصحابه الفائزين ببركة صحبته بالأفضلية ومقام القطبية. وبعد، فإن سلوك طريق الحق من أخلاق النبيين والمرسلين، وخلاصة عباده الصالحين الذين قال في حقهم رب العالمين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1]، ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾وهو أمر ممكن متيسر على من يسره الله عليه، ويقول العبد الفقير خادم نعال الفقراء سليمان العجيلي الشهير بالجمل: قد التمس مني المولى الفاضل الفهامة سيدي محمد بن عبد السلام الناصري المغربي الإجازة بطريق السادات الخلوتية، فاستخرت الله تعالى وأجزته بها استعمالا وتلقينا وإجادة للمحبين والمريدين، حسبما وصلني وتلقيته عن أستاذنا

1- الحجر: 42 .

وشيخنا مربي الأرواح ومؤدب النفوس والأشباح شيخ وقته العارف بالله تعالى الشيخ محمد الحفناوي[1].

ومن جملة أوراد هذه الطريقة من طريق شيخنا المذكور: حزب القطب النووي، وكتاب **دلائل الخيرات** للقطب الجزولي، وأحزاب قطب الأقطاب الإمام الكامل أبي الحسن الشاذلي عمت بركاته، وشيخنا الجعني قد تلقى هذه الطريقة عن شيخه وأستاذه العارف الكامل السيد مصطفى الصديقي الحسني، وهو قد أخذها عن المولى الفاضل الشيخ عبد اللطيف، وهو قد تلقى عن أشياخ مرتبين درجات وطبقات إلى أن وصلت إلى النبي ﷺ.

وقد روى صاحب **بستان الشريعة**: أن عليا كرم الله وجهه جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله دلني إلى أقرب طريق إلى الله، وأفضلها عند الله، وأسهلها على عباد الله، فتوجه النبي ﷺ بقلبه إلى الله تعالى فنزل الوحي بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]، ثم قصد جبريل عليه السلام مترجما كالمعلم فلقن النبي ﷺ ثلاث مرات لا إله إلا الله[3]، ثم أمر جبريل أن يلقن عليا لأنه أول من التمس التلقين. فقال ﷺ: يا علي اغمض عينيك وأنصت حتى أذكر ثلاث مرات وأنت تسمع مني، ثم قل ثلاثا وأنا أسمع منك، فقال ﷺ ثلاث مرات: لا إله إلا الله، نافثا عن يمينه مثبتا عن شماله ورافعا صوته وعلي يسمع *475*، ثم قال سيدنا علي: لا إله إلا الله ثلاث مرات نافثا عن يمينه مثبتا عن شماله مغمضا عينيه ورافعا صوته، والنبي ﷺ يسمع، ثم لقن سيدنا علي بالكوفة هذا الذكر كما تلقنه من النبي ﷺ للإمام الجليل سيد التابعين الحسن البصري، ثم تلقاه عنه الأشياخ قرنا بعد قرن إلى أن وصل إلينا بحمد الله تعالى، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا

1- ينظر الإجازة في م م و م م، رقم 88 ج (ضمن مجموع)، ص120.

2- محمد: 20.

3 - «لا إله إلا الله»: تتكون من شقين إثنين نفي وإثبات ف «لا إله» تفيد النفي العام لجميع الآلهة التي تعتقد أو تعبد في هذا الوجود. و«إلا الله» إثبات لذات الله عز وجل بالوجود واحدا فردا صمدا، لا شريك له في الخلق والأمر، ومعناه أن لا إله ولا معبود يستحق العبادة حقا وعدلا غير الله عز وجل، وهو دحض ونفي لكل ما يعبد من أنداد وأضداد، وعلى هذا الأساس بنيت شريعة الإسلام. قال رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبيئون من قلبي بي لا إله إلا الله».

محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين.

قلت: وكل من تلقينا عنه بمصر هذه الطريقة يراعي هذا المعنى وغيره من الآداب عند التلقين، وكيفية السير فيها، وسندها يأتي بقية الكلام عليه في الترجمة بعد الترجمة إن شاء الله تعالى.

لطيفة : حضرنا مع صاحب الترجمة في دعوة طعام دعا إليه بعض المحبين من المجاورين من المغاربة بمصر فقال صاحب الطعام: بلغنا أنك تتجهز للسفر لبلدك ووالله إنك لتوحشنا، وما نجد صبرا على مفارقتك. فقال الشيخ: وإن غاب ذاتا حضر قلبا، وأنشدني لغيره: (من السريع)

مُذ غِبْتَ أَوْحَشْتَ جَمِيعَ الْوَرَى إلاَّ أَنَا وَاللهِ أَنَسْتَنِي

مَسْكَنُكَ الْقَلْبُ وَلاَ يَنْبَغِي يُقَالُ لِلسَّاكِنِ أَوْحَشْتَنِي

وممن لقيته وأكثرت ملازمته الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن محمد ابن أحمد الدردير العدوي المالكي الخلوتي[1]، كان من الشهرة بمكان بين علماء المذاهب بمصر، وهو مع ذلك ليس بذاك في سنه ينيف على الستين فيما أظن. وكان والله حليما أخذ من حسن الخلق بالحظ الوافر من الصلاح بالنصيب الفاخر، قد حاز رئاسة مصر على الإطلاق، بل وفي ما قاربها من الأقطار والآفاق، خصه الله تعالى بقضاء حوائج عباده، لا يأنف من كل ذي حاجة وقف ببابه، غني النفس ما تستفزه زخارف دنيا بقل وكثر. وله المنزلة الشامخة عند فراعنة مصر من العمال، تراه يوبخهم في وجوههم: يا فجار يا ظلمة يا طغاة، وهم ناكصو رؤوسهم، فسبحان خالق الجميع.

يحكى أن للطائفة المالكية بهذه البلدة مزيد التوقير والإحترام في غابر الأزمان، ثم لابد في كل زمان ممن يقوم منهم من علمائهم بأمور الخلق في قضاء حوائجهم، من شفاعة ونحوها على نحو ما كان عليه هذا الرجل، أطال الله بقاءه، وأدام في العالمين سموه وارتقاءَه.

1- ترجم له : الكتاني، **فهرس**. . .، 1/ 393 - 394 ؛ الجبرتي، **عجائب**. . .، 2/ 147 ؛ مخلوف، **شجرة**. . .، 1/ 516 - 517 رقم 1446 .

ثم لا يشكل هذا مع ما في **طبقات** ابن *476* السبكي في ترجمة قاضي القضاة عبد الوهاب بن الأعز[1] : «أن الحجاز والشام ومصر متى كانت اليد فيها لغير الشافعية خربت، ومتى قدم سلطانها غير الشافعي زالت دولته»[2]، إلى غير ذلك لتخلف هذه العادة وتبديل هذه التجربة، فما كان الحكام اليوم - وفي ما قبله دهورا من لدن تولية العثمانيين - إلا حنفية قضاة وغيرهم، ومع ذلك لم تخرب البلاد ولا زال ملك المتولى عليها، ولله سبحانه أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[3]. على أن في ترجمة ابن خيران[4] منها: «لم يل القضاء بالعراق إلا الحنفية ولم يله بمصر منهم إلا بكار[5]، وإنما كان في مصر للمالكية، وفي الشام الأوزاعية إلى أن ظهر مذهب الشافعي في الإقليمين [فصار][6] فيه «[7].

ولصاحب الترجمة -ﷺ- تآليف عدة ورسائل جمة منها: **شرح مختصر خليل**، وكأنه اختصر فيه الشيخ عبد الباقي الزرقاني، وربما ترك منه ما لا تمس الحاجة إليه، وربما انتقده أو زاد عليه مع ما هو عليه من الفتنة بأمور المسلمين لا يغفل عن التدريس . حضرت درسه بجامع أبي الذهب في **مختصر خليل**، و**كبرى السنوسي** مرارا، وفي بيته بين العشاءين في درس مسلم، و**الجامع الصغير** غالب أيام إقامتي، وكان ذلك بإشارة منه، وأضافنا مرارا جزي خيرا.

كان من عادته الشريفة المنيفة التي لم نر أحدا تطبع بها شرقا وغربا أنه على عادة المشارقة من تقديم العَشاء قبيل المغرب أو بعدها بقليل حتى لا

1- عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي قاضي القضاة، تاج الدين بن بنت الأعز، ولد سنة 604 هـ. ترجم له: السبكي، **طبقات**. . . ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د، ت ، 5/ 133 - 136

2- م . س، 5/ 134.

3- آل عمران: 140 .

4- الحسين بن صالح خيران ، أبو علي ، أحد أركان المذهب ، كان زاهدا ورعا متقشفا من كبار الأئمة ، توفي سنة 320 هـ .

5- في **طبقات** السبكي « أيام بكار بمصر» .

6- ساقطة من ح وج.

7- السبكي، **طبقات**. . . ، 2/ 213 - 214 .

ينامون وقد خفت المعدة من الطعام . إنه إذا صلى المغرب نصبت سفرة ملونة من الطعام بصحن بيته قبالة مسجده، ويجلس للأكل وكل من دخل عالما أو غيره، صغيرا أو كبيرا ولو من الخدمة الفلاحين يجلس، ويقوم لدرسه ويتبرك الباقي . ومن عادته فيه أنه لا يلح على أحد في الأكل ولا يكره أن يجالسه أحد، وكأنه جعل عشاءه صدقة لله يرجو برها ودخرها، وهذه سيرته أيام إقامتنا، قيل: وهذا دأبه أبدا.

ولما جرى في درسه بين العشاءين ذكر متربطة الزمان وما عليه جلهم من نصب المسألة لاعراض الدنيا والخذلان، قال: إذا أردتم أن تعلموا منزلة الرجل علما وصلاحا فانظروا لتلامذته فإن في الشيخ سرا *477* إذ هو رقة القلب. وقد ورد ذات يوم علينا ونحن بدرسه ببيته بين العشاءين رجل يسأل عن معنى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ الآية[1] ، وعن: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[3]، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات التي تعنى بخلق الإنسان في أحسن صورة؟ فأجابه الشيخ بما حضره في الآية فالتفت إلي قائلا: هذا من معانى قول الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[5] . يعني أن خلق هذا العالم لا يمكن أن يكون أحسن من هذه الصفة التي هو مخلوق عليها .

فخضت معه في الآية، وفي مقالة الإمام الغزالي وقلت: إن كان المراد بالإنسان آدم بالخصوص أو هو وحواء عليهما السلام أو هما وسائر الأنبياء والبعض من غيرهم فلا إشكال، وإن أريد الجنس أو العموم فلا شك أن نجد في الآدميين من تكره العين النظر إليه لبشاعة خلقته، ولربما تستحسن

1- التين: 4 .

2- غافر: 64 ؛ التغابن: 3 .

3- الإسراء: 70 .

4- الرحمان :2 .

5 – ينظر القولة في: **فيض القدير شرح الجامع الصغير** لعبد الرؤوف المناوي (ت1031 هـ) ، دار النشر، مكتبة التجارية الكبرى، 2/ 224.

العين بعض الحيوانات كالظباء والمها وبعض الطيور على بعض الآدميين. فأجاب بأن المراد بالإنسان ماهيته . فقلت: الماهية الحيوانية والناطقية وكل منهما معنى لا جسم، والدليل على أن المراد الهيئة الإجتماعية ذكر التقديم ويوضحه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾الآية [1]. فقال: سلمنا. والجواب عن الإيراد الأول أن الذي لا تألفه النفوس وتكره النظر إليه من الناس نادر «والنادر لا حكم له» وإنما الحكم للغالب . قال أويقال: الأمر كما قلت، ولكن تراكيب الآدمي ومفاصله وتناسق أعضائه هي المراد لا خصوص رونق الوجه حتى يرد عليه ما قلت، فقلت: التراكيب والمفاصل منها أيضا ما هو مستهجن . فقال: وإن كانت كذلك في بعضهم بتركيب الحاجب مثلا صدورا على العينين مثلا، وتركيب الأضراس والأسنان والبنان ومفاصلها من أحسن تقويم . قلت: هذا إخبار من الحق سبحانه عن حال الآدمي قبل خروجه من البطن أو بعده، فقال كلامه تعالى قديم . فقلت: هذه عقيدة المسلمين، وهل هناك مرتبة أحسن منها؟ فقال: لا . هذا معنى قول الإمام الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان». فقلت: الآية.

ومقالة الغزالي بحسب: أبرزته القدرة للوجود بالنسبة لما في علم المخلوق لا بالنسبة لعلم الله تعالى، إذ يمكن أن يتعلق بعلمه أحسن مما أبرزه للوجود فيوجده إن شاء الله . فقال: نعم هذا أحد الأجوبة *478* عن مقالة الغزالي، ولمحيي الدين بن العربي عليها أجوبة أخرى . قلت : وقد سبقه لذلك عبد العزيز بن مكي والزمهما الناس خصوصا الطرطوشي وابن العربي وغيرهما إلى هلم جرا لكفر ومذهب الطبائعيين، وكل ذلك محض تعصب حتى قال ابن السبكي في شيخه الذهبي لما تكلم في الغزالي وغيره: «الذهبي متعصب جلد، وهو شيخنا وله علينا حقوق إلا أن حق الله مقدم على حقه، والذي نقوله أنه لا ينبغي أن يسمع كلامه في حنفي ولا في شافعي ولا تؤخذ تراجمهم من كتابه[2] فإنه يتعصب عليهم كثيرا "[3] ، هـ .

---

1 ـ التين: 5.

2 – في **طبقات** السبكي، «كتبه» .

3 – م . **س** : 4/ 191 . (دار المعرفة للطباعة. . .)

وبالجملة فالغزالي حجة الإسلام، وحجة الدين الذي يتوصل به إلى دار السلام، الجامع لأشتات العلوم والمبرز منها في المنطوق والمفهوم، لا يصل إلى معرفة علمه وفضله إلا من بلغ ما بلغ، إذ لا يعرف قدر الشخص في العلم إلا من ساواه في مرتبته، فلا التفات إلى اعتراض المعترضين وتشدق المتشدقين، على أن هذه المقالة وشبهها قيل أنها دست له من بعض الحسدة في كتبه، وقد تقرر أن لحم العلماء مسمومة وعادة الله في منتقصيهم معلومة: (من البسيط)

إنَّ السَّلامَةَ مِنْ سَلْمَى وَجَارَتِهَا ... أنّ لا تمُرَّ علىَ حَالٍ بوَادِيهَا
لا تسْلكَنَّ طَرِيقاً لسْتَ تعْرِفُهَا ... بِلا دَلِيلٍ فَتهْوَى فِي مَهَاوِيهَا

غير مضرة ولا قادحة فلا سبيل إلى اقتفائهم سيما لمن لا كبير علم أو عمل معه، والله الموفق.

وجرى في الدرس ذات يوم ذكر: «أصحابي كالنجوم» الحديث[1]، ساكتا عن علته، فقلت: يعارضه «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» الحديث[2]. فأجاب: هذا في الأصول وذاك في الفروع. فقلت: لو صح الأول كالثاني لتعارضا ويعسر الجواب عن التعارض، وتخصيص أحدهما بالفروع والآخر بالأصول حكم من غير دليل، بل الظاهر أن كلا الحديثين في الفروع يدل عليه لفظ السنة وذكر البدعة فبقي الشيخ متوقفا.

فقلت: صرحوا لي الأول بأنه حديث موضوع نص عليه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتابه **فضل العلم**[3] وغيره، وإذا ثبت وضعه ارتفع

1 ـ الحديث في **مشكاة المصابيح**، في كتاب المناقب، 3/ 1696، ولفظه: «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم». دار النشر المكتب الاسلامي. وفي **آداب الصحبة** لأبي عبد الرحمان السلمي (ت412هـ) رقم 192، 1/ 117 دار الصحافة، بيروت، د، ت.

2 ـ أخرجه ابن ماجة في **سننه**، في كتاب الزهد، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث 1، 42/ 15. إتمام الحديث: الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة؛ ابن حبان في **صحيحه** في كتاب الرقائق، 1/ 180-179. والامام أحمد في مسنده، حديث العرياض بن سارية عن النبي ﷺ رقم17184، 4/ 126.

3- جاء فيه: «حدثنا أحمد بن عمر، قال: حدثنا عبد بن أحمد، قال: حدثنا علي بن عمر، قال: حدثنا القاضي أحمد بن كامل، قال: حدثنا عبد الله بن روح، قال: حدثنا سلام بن سليم، قال: حدثنا الحارث بن غصين، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم». قال أبو عمر: هذا إسناد لا تقوم به حجة؛ لأن الحارث بن غصين مجهول». **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي المعروف لابن عبد البر، دار ابن حزم، 2006، ص 312.

التعارض أولا تعارض بين الصحيح وغيره، وسكت منصفا .

ومن مستفاداتي منه أن الإمام الليث بن سعد[1] - دفين القرافة الكبرى - كان يقول في سجوده: اللهم زد من عمري في عمر مالك بن أنس . وحكى في الدرس أن هارون الرشيد *479* صدر منه يمين مغلظ أنه من أهل الجنة، فأفتاه علماء وقته بالحنث اعتمادا على أن هذا أمر مظنون لا يدرك كنهه إلا بأخبار الصادق المصدوق ﷺ، والوحي قد انقطع . فلم تطب نفس هارون الرشيد بفتياهم، فبعث إلى الليث بن سعد بمصر يستفتيه في ذلك ويأمره بالشخوص إليه، فلما جاءه قال له: وهل تركت معصية ذات يوم خوفا من الله تعالى؟ فقال نعم، خلوت بامرأة ذات حسن وجمال فتمكنت منها ثم لم يرُدّني عن الفعل بها إلا مخافة الله تعالى من شدة عقابه . فقال: إنك من أهل الجنة الداخلين في السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله . فجازاه أن أقطعه بمصر أراضي كثيرة كان يأتيه منها كل سنة خراج عظيم .

قلت: لم يعين البرزلي في **نوازله** الإمام الليث وإنما عبر عنه ببعض العلماء قائلا : أجابه بعدم الحنث وتلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2] . وأفاد أن الإمام الشافعي دفن ببيت محمد بن عبد الحكم هبة منه له .

لطيفة : راودني الشيخ ذات يوم لشرب القهوة على عادتهم وقد أخذ كأسا منها بيده، فقلت: لا أعرفها وليست بأرض قومي فأجدني أعافها، فقال: أمحرمة أو مكروهة؟ فقلت: في معلومكم ما قيل فيها نثرا ونظما . فقال بعض تلامذته وكان فطنا واسمه الشيخ مصطفى مداعبا بل ومناظرا على عادته فيما بيني وبينه، وأما الدخان؟ فقلت: الدخان محرم، هذا الذي اتفق عليه أهل البصائر من أهل الباطن والظاهر، ولم يتكلم فيه بالحلّية إلا أهل الهوى شربا أو شما . فقال: دعوى من غير دليل، فكلما أقمت دليلا للحرمة

1- الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث ، إمام أهل مصر في عصره، حديثا وفقها . أصله من خراسان ، ولد في قلقشندة سنة 94هـ/ 713 م ، وتوفي بالقاهرة سنة 175 هـ/ 791 م. انظر ترجمته في: **الأعلام** للزركلي، الطبعة 12، 5/ 248

2 ـ النازعات: 40-39 .

إلا وبحث فيه. فقلت: لا أقبل البحث فيها مع من يستعملها، لكثرتها بمصر، فقال الشيخ: أنا على التحريم كشيخي الشيخ علي الصغيري . فوفقني الله تعالى ببركة مجلسه السعيد إلى دليل انقطعوا به وسلموا الحرمة، ولم أكن رأيته ولا سمعت به بعد مطالعتي عدة تآليف ممن حرمها أو أباحها أو أوقف فيها . فقلت: الدخان نبات تكون على أصل الطهارة فإن حرقت أوراقها وصارت رمادا أيجوز أكله؟ فقال الشيخ: المحروق لا يجوز أكله . فقلت: الدخان إذا تكيف *480* في السقوف والجدران هل يجوز أكله؟ فقالوا كلهم لا يجوز أكله. فقلت: وهذا النبات الخبيث إذا دخل دخانه للبطن يتجسد فيه والدخان نفسه جسد، فقال الشيخ مصطفى: لا نسلم أنه يتجسد ولا أنه جسد. فقلت: يلزمكم إن لم يكن جسدا أن يكون سبيله سبيل الهوى والريح فلا يفطر به الصائم . فقالوا: بل يفطر به الصائم . فقلت: أقر الخصم فارتفع النزاع فثبتت الحرمة . فقال الشيخ عند ذاك، سمعه كل من في المجلس من الفضلاء مغاربة ومشارقة، إنك لفقيه . فقلت: لا والله يا سيدي ولا تراب نعال الفقهاء وإنما الأمر كما قيل : خلَتِ الدِّيارُ فسُدْتَ غيْرَ مُسَوَّدِ ،البيت[1] .

وجئت ذات يوم للدرس على العادة بين العشاءين، وقد تخلف البعض عن المجيء وذهب للفرجة وكانت أيام المولد النبوي وقع فيها بمصر الموسم الحسني، فقال لي مداعبا: ما لك لم تذهب للأزبكية! موضع يجتمع فيه للفرجة بخيال الظل وغيره، فقلت: لم آتكم للفرجة . فأنشدني لغيره بعد قوله: وهل رأيت خيال الظل: (من الطويل)

رَأَيْتُ خَيَالَ الظِّلِّ أَكْبَرَ عِبْرَةٍ ... لِمَنْ هُوَ فِي عِلْمِ الحَقِيقَةِ رَاقِي
شُخُوصٌ وَأَشْبَاحٍ[2] تَمُرُّ وَتَنْقَضِي ... وَتَفْنَى جَمِيعًا وَالْمُحَرِّكُ بَاقِي

وقد سردت عليه في جماعة من الفضلاء ثبت الشيخ عبد الله بن سالم البصري، تبركا ولقنني الطريقة الخلوتية، وأجازني ونص ما كتب بيده: الحمد لله الذي رفع لأهل العلم الشرعي بين الخافقين أعلاما، وخصهم

1 ـ صدر البيت للحارث بن بدر الغدائي وعجزه : ومن الشقاء تفردي بالسؤدد. البحر: الكامل انظر :الأصفهاني، **الأغاني** ، طبعة دار الكتب، بيروت ،8/ 408 .

2- في خ «أمثال» .

باتصال الأسانيد إليه تفضلا منه وإكراما، والصلاة والسلام على سيدنا المبعوث لكافة العالمين أعلاما، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا لنصرة الدين أعلاما، وعلى أئمة الشرع الشريف الذين أحكموه إحكاما، وبعد: فلما من الله تعالى علينا باجتماع الفاضل الفهامة الألمعي والكامل العلامة اللوذعي، مظهر الفتوح وزكى العقل والروح، سيدي محمد بن عبد السلام الناصري المقدادي المغربي، زاده الله تعالى فتحا وأحاله علما ونفحا، طلب مني إجازة بكتب الحديث المشهورة التي حوتها رسالة الشيخ عبد الله بن سالم البصري وغيرها، وبكتب الفقه المدونة في فقه إمام الأئمة وإمام دار الهجرة مالك ابن أنس الأصبحي *481*وغيرها، ظنا منه لحسن اعتقاده وإن لم أكن أهلا لذلك إني أهلا لما هنالك، فأحسنت ظنه وأجبته لمطلوبه . وكذا طلب مني أن أجيزه بما ذكر شيخه المحب العلامة أوحد عصره نتيجة الصالحين العباس أحمد بن الحسن بن علي سبط العارف بالله الشيخ ابن ناصر، فأجبته لذلك . فأقول: أجزتهما بجميع ما حواه ثبت الإمام المسند عبد الله بن سالم البصري كما أجازني به سيدي الإمام أحمد الصعيدي العدوي، وبطريق ساداتنا العارفين بالله تعالى السادات الخلوتية، وكيفية السير فيها وبيان أورادها، والسند المتصل بها قد ذكرناه في رسالة في بيان طريق القوم الصوفية، وبكل ما ثبت لي روايته من تفاسير وأحاديث وفقه وأوراد، وأطلب منهما أن لا ينسياني من صالح الدعوات في الخلوات والجلوات . قاله وكتبه بيده الفقيرة والحقيرة أحمد بن محمد بن أحمد الدردير العدوي المالكي الخلوتي، غفر الله له ولوالديه ولمحبيه ولسائر المسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قلت: وقد وهبني رضي الله تعالى عنه نسخة من رسالته في طريق القوم تقرب من كراسين من الرباعي سماها: **تحفة الإخوان والخلان في بعض آداب أهل العرفان**، ومحصلها أن طريقة القوم هي تقوى الله تعالى . وقد أمرنا سبحانه بأعمال باطنية تتعلق بالقلب كالإيمان بالله تعالى وبرسله، وبأعمال ظاهرة كشهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وجميع الفروع، ونهانا عن أمور باطنية كالفخر والعجب، وظاهرية كالزنا والشرب .

وطريق القوم آداب بعضها يتعلق بحق الشيخ، وبعضها بحق الإخوان الذين معه في الطريق، وبعضها بحق العامة، وبعضها بالشخص في نفسه، ثم لا بد للمريد من مطالعة كتب القوم الموضوعة في الآداب ليتعلم أخلاق القوم منها فيسير بسيرهم. وحاصل ما هنالك أن طريق القوم سدّاها الأداب وصحتها الذكر فلا يتم إلا بهما. ونذكر آداب لا بد من ملاحظتها: الطهارة والإستقبال إن كان وحده، وإلا تحلق فإن ضاق المكان اصطفوا، واستحضار الشيخ وملاحظته ليكون رفيقه في السير إلى الله تعالى، واستفراغ *482* القلب عما سوى الله تعالى حتى لا يذكر إلا حبا في الله كما قيل: (من الطويل)

حَبَبْتُكَ لا لِي بَلْ لأَنَّـكَ أَهْلُـــهُ وَمَـالِي فِي شَـيْءٍ سِـوَاكَ مَطَامِعُ[1]

وتغميض العين لأنه أسرع في تنوير القلب، وأن يكون المكان مظلما، وأن يذكر بهمة تامة، وتمييل برأسه إلى الجهة اليمنى «بلا» ويرفع «بإله» إلى جهة صدره و«بإلا الله» إلى جهة القلب وهي اليسار، وينطقها من سرته إلى القلب حتى تنزل الجلالة على القلب لتخرق سائر الخواطر الروية، ويحقق الهمزة ويمد الألف مدا طبيعيا أو أكثر ويفتح الهاء من «إله» ويسكن الهاء من «الله». وأما الاسم الثاني وهوالله وكذا بقية الأسماء فينطقها من سرته وينزل بها على قلبه، وأن يصغي حال الذكر إلى قلبه مستحضرا للمعنى حتى كأن قلبه هو الذاكر، ولا يختم حتى يحصل له نوع من الاستغراق بأن يحس من نفسه بحلاوة الذكر، ويحصل له شوق وهيمان. ثم إذا ختم سكت وسكن واستحضر الذكر بإجرائه على قلبه مترقبا لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد في لمحلة فيعمر وجوده ما لم تعمره المجاهدة ثلاثين سنة، وهذا الوارد إما وارد زهد أو ورع أو تحمل أذى أو سخى أو كشف أو محبة أو غير ذلك، فإذا سكت وسكن وكتم نفسه مرارا دار الوارد في جميع عوالمه فيجب عليه التمهل حتى يتسكن وإلا ذهب.

قال الغزالي: ولهذه المسكنة ثلاثة آداب: مراقبة الله، وجمح الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة، وزم النفس مرارا حتى يدور الوارد في جميع عوالمه ويفي على قلبه معنى الله.

1- القائل القطب الجيلي وهو عبد الكريم ابن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، ولد سنة 761/ 1365 وتوفي 832/ 1428. من تصانيفه: **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**. انظر ديوانه

ومن آداب الذكر: تطييب المكان والبدن والفم لأن الملائكة لا يقبلون الروائح الكريهة، فبانقطاعهم عن مجلس الذكر ينقطع المراد. ومن آدابه المذكورة عدم شرب الماء إثر الذكر ولا في أثنائه لأن الذكر حرارة تجلب الأنوار والتجليات والواردات، وشرب الماء يطفيء تلك الحرارة، وأقل ذلك أن يصبر نصف ساعة فلكية، وكلما كثر كان أحسن حتى أن الصادق لا يكاد يشرب إلا على ضرورة قوية، هذا ما يتعلق بطريق القوم على العموم.

وأما ما اختصت به الطريقة الخلوتية من الذكر والأوراد باعتبار الهيئة الاجتماعية، أن يستغفر الله مائة مرة بصيغة: استغفر الله *483* العظيم الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم وأتوب إليه أو غيرها . ثم الصلاة على النبي ﷺ بصيغة : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله، والأحسن أن يكون ذلك في السحر بعد التهجد وقبل قراءة ورد السحر، فإن ضاق الوقت أخر ذلك لأي وقت كان. وحاصل ما بينوه في التهجد أنه إذا انتبه من نومه آخر الليل قرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1] إلخ السورة. وينبغي أن يكون ذلك بعد الاستياك والمضمضة وبعد الوضوء، ثم يصلي ركعتين خفيفتين يقرأ فيهما بعد الفاتحة بالكافرون في الأولى، والإخلاص في الثانية، ثم ركعتين يقرأ فيهما في كل ركعة بعد الفاتحة بقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾[2] إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]، ثم إن اتسع الوقت استغفر الله لنفسه ولوالديه ولمشايخه، ويدعو بتسهيل الطريق والحفظ فيها، بما تيسر له من الدعاء، ثم يصلي ثلاث عشرة ركعة يقرأ في الأولى ب ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾[4]، وفي الثانية بالإخلاص والمعوذتين. وإن شاء قرأ في العشر الأولى[5] بسورة يس يقسمها على العشر ركعات، وإن كان له

1 - آل عمران: 190.

2 - الإسراء: 77 .

3 - نفس السورة : 85.

4 - القدر: 1.

5- في خ «الأول» .

ورد من القرآن كأن يرتب لنفسه كل ليلة جزء من القرآن فقسمه عليها بأن يختم في كل شهر فحسن. ثم يستغفر مائة ويصلي على النبي ﷺ مائة على ما مر، ثم يشرع في ورد السحر، ثم إذا تم شرع في الذكر إلى طلوع الفجر، ثم يقوم لصلاته يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ب ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾[1] وفي الثانية بعدها بالمدثر، ثم يقول بعد أن يسلم منهما: «يا حي ياقيوم لا إله إلا أنت» أربعين مرة، ثم يقرأ الإخلاص إحدى عشرة مرة، ثم يقول: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، استغفر الله». مائة مرة، وكانوا يزيدون هنا من الأذكار ما شاء الله، ثم يصلي الصبح ثم يقول: «استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» ثلاث مرات، «لا إله إلا الله وحده لا شريك، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» عشر مرات، «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصرعبده *484* وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن الجميل، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم». ثم يقول: «اللهم أجرني من النار» سبعا، ولو كانوا جماعة قالوا : «اللهم أجرنا – بنون الجمع – وكذا فيما بعده، ثم اللهم أجرني وأجر والدي من النار، بجاه النبي المختار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار، بمنك وكرمك يا عزيز يا جبار، اللهم إني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن» ثلاثا ، «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» ثلاثا . وتقول الجماعة: «إنا نعوذ– بالنون – بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاثا، «رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا» ثلاثا، «اللهم لامانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولاراد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

1- الشرح: 1 .

2 ـ الفاتحة :1.

إلخ الفاتحة، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى ﴿الرَّحِيمُ﴾[1]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إلى ﴿الْعَظِيمُ﴾[2]، ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾[3] إلى آخر السورة. ويكرر: «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا» ثلاثـــا، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[4] إلى ﴿الْإِسْلَامُ﴾[5]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾[6] الآيتين، اللهم ارزقنا دار الفردوس: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[7]، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[8]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾[9] ألخ السورة، ويكرر: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾[10] إلى آخرها» سبعا. ثم الإخلاص ثلاثا، فالمعوذتين كل مرة، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[11] سبحانه وتعالى، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾[12]. ثم يقول كل واحد على انفراده سرا: سبحان الله ثلاثا وثلاثين إلخ المعقبات، ويختم الآية بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. ويرفع أحدهم بها صوته ثم يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾ إلى ﴿تَسْلِيمًا﴾[13]، فيقولون معا: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله عشرا، ثم يقولون: ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين آمين يالله، فيقول أحدهم *485* : اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على

---

1 ـ البقرة: 162 ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.
2 ـ البقرة :254 (آية الكرسي).
3 ـ البقرة :284.
4 ـ آل عمران: 18.
5 ـ آل عمران :19.
6 ـ آل عمران :26.
7 ـ المائدة: 116.
8 ـ آل عمران: 173 .
9 ـ التوبة: 128.
10 ـ التوبة: 129.
11 ـ الإسراء: 44.
12 ـ الجمعة :1 و التغابن: 1.
13 ـ الأحزاب :56.

دينك يا الله يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا الله يا ربنا يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين، اللهم آمين. فيقولون جميعا: «لا إله إلا الله» ثلاثا، ثم يقول الواحد: لا إله إلا الله محمد رسول الله حقا وصدقا، اللهم استجب دعاءنا واشف مرضانا وارحم موتانا، وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين. ربنا تقبل منا واقبلنا بسر الفاتحة، ثم يقرؤونها سرا، ثم يقول: اللهم برحمتك قنا واكفنا شر ما أهمنا، وعلى الإيمان الكامل والكتب الستة توفنا وأنت راض عنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولإخواننا في الله تعالى أحياء وأمواتا ولكافة المسلمين أجمعين، سبحان ربك رب العزة إلخ . فإذا لم يكن الشخص يحفظ هذه الآيات ألقى سمعه للقارئ فإنه يحصل له من المدد ما يحصل للقارئ، وينبغي أن تكون القراءة مرتلة ليحصل التدبر وتنوير القلب .

واعلم أن في غير صلاة الصبح يقرأ واحد والباقي يسمع بالإصغاء التام، إلا التسبيح والتحميد والتكبير والصلاة والسلام على النبي ﷺ فعلى الوجه المتقدم، وأن أول ابتداء القارئ في غير الصبح من أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلخ [14]، إلا أن القارئ يكرر بعد صلاة المغرب فقط : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ﴾ إلى ﴿الْعَظِيمِ﴾[15] سبعا، فإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الكائن بعد التسبيح، قالوا جميعا، أو وحده إن كان مفردا: «اللهم أجرنا من النار» سبعا، ثم يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾ [16] إلخ ما تقدم، فإذا قال: اللهم استجب دعاءنا إلى قوله: والحمد لله رب العالمين. قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ إلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[17] ثم يسجد، بهذه التلاوة يسجدون لله تعالى يعظمونه ويدعونه بما فتح الله عليهم، ثم يسبحون فيقول القارئ : ربنا تقبل

14 ـ الفاتحة: 1.

15 ـ التوبة: 129.

16 ـ الأحزاب 56.

17 ـ السجدة :15.

منا إلخ . هذا في خصوص المغرب، فإذا تم هذا الورد على الوجه المتقدم، تحلقوا فيقرأ الشيخ أو المأذون له أو من تختاره الجماعة الورد المفيض الأنوار وهم يسمعون، يلقون بالهم جدا للسماع وينزلون روح القارئ كأنها أرواحهم حتى كأن الجميع روح واحدة، ربما يتم اتحادهم ومحبتهم، والقريب منهم يجذب *486* البعيد . هذا هو السر في كون القارئ واحدا، فإذا وقف على اسم من أسماء الله الحسنى قالوا جميعا بهمة: جل جلاله، وعند الثناء على النبي ﷺ يقولون إذا وقف بهمة: ﷺ، وعند ذكر الخلفاء يقولون: رضي الله عنهم، ويزيدون عند ذكر الخليفة الرابع وكرم الله وجهه، وعند ذكر السبطين يقولون: رضي الله عنهما . فإذا قال حمدا كثيرا كثيرا إلى يوم الحشر والقرار، دعوا جميعا سرا بدعاء الإخفاء وهو: اللهم زين ظواهرنا بخدمتك، وبواطننا بمعرفتك، وقلوبنا بمحبتك، وأرواحنا بمعاونتك، وأسرارنا بمشاهدتك، اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، وفوقي نورا، وتحتي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا، برحمتك يا أرحم الراحمين .

ثم يجهر القارئ والجماعة بقولهم: والحمد لله رب العالمين، واستجب دعاءنا، واشف مرضانا، وارحم موتانا، لا إله إلا الله محمد رسول الله، حقا وصدقا، وصل على كل نبي وولي وملك، أستغفر الله من جميع ما كره الله قولا وفعلا وخاطرا وناظرا، وأتوب إليه سبحان الله . ثم يقول كل واحد على حدة سرا: سبحان الله، ثلاثا وثلاثين إلخ المعقبات، ثم يقول القارئ جهرا: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وتعالى الله ملكا جبارا قهارا ستارا سلطانا معبودا قديما، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، واعف عنا يا كريم، واغفر لنا ذنوبنا يا رحمان يا رحيم برحمتك يا أرحم الراحمين . ثم يقرؤون الفاتحة، ثم يقرأ سورة يس إلخ، ثم يذكرون إلى طلوع الشمس، ثم يختم بهم، وصورة الختم في جميع الأوراد وأن يقول: لا إله إلا الله هو بمد «هو» بعد إسكان الهاء من الله محمد رسول الله، وصل على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين. وعليهم السكينة والوقار، ثم يقرؤون الفاتحة ويهبون ثوابها لحضرته عليه السلام،

ثم إلى حضرة سلسلة الطريق، ويسألون الله تعالى بمددهم ويدعون، ثم بما فتح الله، ثم يمسح وجهه ويضع يديه على صدره قائلا سرا: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا نبي الله، الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله، العظمة له تكبيرا، والله أكبرالله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر وله الحمد. *487* ثم يبسط القارئ يديه ويقول جهرا: واعف عنا يا كريم، واغفر لنا برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم يقرؤون الفاتحة يهدون ثوابها لمن ذكروا لوالديهم ومشايخهم، ويدعون الله سرا، ثم يقول الشيخ أو المأذون له: اللهم استجب دعاءنا، واشف مرضانا، وارحم موتانا، وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين . ويضعون أيديهم على أفخاذهم غاضين أبصارهم، طارقين برؤوسهم، ساكتين سكتة على الوجه المتقدم، ينظرون وارد الذكر، ثم يشرعون - إن لم تكن لهم حاجة ينصرفون إليها - في صلاة الإشراق ركعتين ينوي بهما شكر الله تعالى، ثم ركعتين بالمعوذتين بعد الفاتحة، ينوي الاستعاذة بهما من طوارق الليل والنهار، من البلاء في الدين والدنيا، والعقل والبدن والآخرة، ويدعو بعدهما بما ورد في الأحاديث مما فيه معنى ذلك . «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[1]، ونحو: «اللهم أني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[2] ، ونحو: «اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[3] ونحو: الدعاء الذي علمه جبريل للنبي ﷺ ليلة المعراج حين خرج له المارد بشعلة من نار. ثم يصلي ركعتين استخارة يقرأ فيها ب ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[4] في الأولى، وبالإخلاص في الثانية بعد الفاتحة، ثم يدعو بالدعاء الوارد في الصحيحين، فإن كانت له حاجة إلى الله عينها وإلا قال في دعائه: «اللهم ما كنت تعلمه من أمري خيرا في ديني ومعاشي وعاقبة أمري عاجله أو آجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره

1- الحديث أخرجه مسلم في **صحيحه**، و لفظه :عن سَعْدَ بْنَ أَبِى وَقَّاص عن خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيم السُّلَمِيَّةَ أنها سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه -ﷺ- يَقُولُ : «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرُّهُ شَيء حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِه ذَلِكَ ». باب في التعوذ من سوء القضاء، 8/ 76 .

2- الحديث أخرجه مسلم في **صحيحه**، ، باب عرض مقعد البيت من الجنة، 8/ 160 .

3- الحديث أخرجه أبو داود في **سننه** ، كتاب الصلاة باب الاستعاذة رقم1555 ، 2/ 93.

4 ـ الكافرون :1.

لي وما كنت تعلمه من ذلك شرا في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به»[1] . ثم يصلي بالضحى و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2] في كل ركعتين، ويقرأ بعده ورد الضحى كما يقرأ بعد الركعتين الأوليين ورد الإشراق، ثم يشرعون في الذكر - إن أحبوا - أو ينصرفون لحاجة من تحصيل علم وغيره، أو يجلس في خلوته أو مسجد يذكر الله لمن لم تكن له حاجة .

وأما ورد الظهر فهو أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم ثم يقرأ الفاتحة : ﴿تَبَارَكَ﴾[3] ، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[4] ، و﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ *488*إلى ﴿الرَّحِيمُ﴾[5] صدق الله العظيم الستار، وبلغ رسوله الكريم المختار، وصلى الله على سيدنا محمد وآله المصطفين الأخيار، ونحن على ذلك من الشاهدين الذاكرين الأبرار . اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، ونستغفر الله الحي القيوم العزيز الغفار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾ إلى قوله ﴿تَسْلِيمًا﴾[6]، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا، ولوالدينا ولمشايخنا، ولكل المسلمين أجمعين، سبحان ربك رب العزة إلخ . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد في الأولين، وصل وسلم على سيدنا محمد في الآخرين، وصل

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، ولفظه : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أوقال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به . قال ويسمي حاجته ». كتاب الدعوات باب الدعاء عند الاستخارة رقم 6019، 5/ 2345 .

2 ـ الشرح: 1.

3- الملك: 1 . ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

4- الكافرون :1 .

5 ـ الزمر: 50.

6 ـ الأحزاب: 56.

وسلم على سيدنا محمد في كل وقت وحين، وصل وسلم على سيدنا محمد في الملإ الأعلى إلى يوم الدين، وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى ملائكته المقربين، وعلى عباد الله الصالحين من أهل السماوات والأرضين، ورضي الله تبارك وتعالى عن سادتنا ذوي القدر الجلي أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن سائر أصحاب رسول الله أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، احشرنا وارحمنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين اللهم آمين.

ثم يقول الشيخ أو المأذون له: لا إله إلا الله، ثم يتبعونه إلى آخر ما تقدم.

وورد العشاء هو بعينه ورد الظهر، وأما ورد العصر فهو الفاتحة و﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾[1]، و﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ﴾[2]، ثم ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3] صدق الله العظيم أستارا إلخ. ويتأكد على منشد القوم - زيادة على ما تقدم - أن يكون صادق القول والفعل لا يستعمل كلامهم إلا في ما جعله أهل الله له، ولا يطلب بإنشاده الدراهم - كما يقع لأكثر المحرومين - وأن يتخلق بما يقوله وإلا دخل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[4] إلخ. وأن لا ينشد إلا في مجلس شيخه لا يعدوه إلا بإذن، فإن أعطي دراهم قبلها إن كانت حلالا ولم تكن لغرض دنيوي وإلا ردها، وأن يكون سخيا حلو الكلام محبا متواضعا، ينشد بالكلام المهيج على الذكر المقتضى للجمعية.

وينبغي أن يكون النقيب على الجماعة حسن الخلق مديم الذكر، ينزل كل واحد في مرتبته، كثير الوداد جميل الصفح ذا همة ونزاهة، يسأل عن إخوانه إذا غابوا، ويتواضع لهم إذا حضروا، ويجب احترامه وتعظيمه *489* وامتثال أمره ولو كان إخوانه أكبر منه.

1 ـ النبأ: 1.

2 ـ النصر: 1.

3 ـ الحديد: 28.

4- الصف: 2.

ثم من أورادهم : صلاة التسبيح كل ليلة جمعة، وكذا ليلة الإثنين وإحياؤهما بالذكر أكثر من غيرهما خصوصا ليلة الجمعة، وأن يعملوا الورد المخصوص بهما من الصلاة على النبي ﷺ على الوجه المخصوص .

ومن أورادهم : صلاة الرواتب التي قبل الظهر وبعده، وقبل العصر وكذا بعد المغرب، يصلي ركعتين يقرأ فيهما بالكافرون في الأول و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾[1] في الثانية بعد الفاتحة، ثم ست ركعات، ثم يشتغل إما بالذكر أو قرآن أو استغفار أو صلاة على النبي ﷺ، أو عَشاء إلى العشاء، ثم يصلي بعد العشاء أربع ركعات، ثم يشتغل في ورده المتقدم . ولا يشتغل بغير أوراد الطريقة إلا بما قل كحزب النووي صباحا ومساء فإنه يستعمل في جميع الطرق، كصلاة ابن مشيش في الصلاة على النبي ﷺ مطلقا، فإذا من الله عليه بالكمال صار مطلقا من قيوده .

ومن أورادهم : صيام الخميس والإثنين وثلاثة أيام من شهر رجب وشعبان وستة من شوال والأيام البيض وتسع ذي الحجة وعشر الحرم .

ومن أورادهم : إحياء الليالي الفواضل كليلة الجمعة والعيدين وعاشوراء وليلة النصف من شعبان .

هذا حاصل طريق هؤلاء القوم وهي طريق مقدم، فلا عبرة باعتراض المعترضين عليهم، ولا يعاب عليهم الذكر قياما وقعودا، واهتزازهم في الذكر والإنشاد، وليس هذا بخفة كما زعمه المعترض، فإن للذكر حلاوة ومخامرة باطنية يعلمها أربابها، فتقتضي هذه الحالة شدة الذكر والهز كما أشار إليه الغوث أبو مدين[2] بقوله: (من الطويل)

فَيَا حَادِيَّ العُشَّاقِ قُمْ وَاحِدًا قَائِمًا ... وَزَمْزِمْ لَنَا بِاسْمِ الْحَبِيبِ وَرُوحِنَا
وَمَنْ سِرِّنَا فِي سُكْرِنَا عَنْ حَوْبِنَا ... وَإِنْ أَنكَرَتْ عَيْنَاكَ شَيْئًا فَسَامِحْنَا

---

1 ـ النصر: 1.

2 ـ أبو مدين التلمساني : شعيب بن الحسن الاندلسي التلمساني، أبو مدين صوفي ، كثر أتباعه حتى أخاف السلطان يعقوب المنصور، توفي بتلمسان 594/ 1198م. انظر: الزركلي، **الأعلام**. . . ، 3/ 166 .

فإنّا إذا طِبْنَا وَطابَتْ نفوسَنا وَخامرنا خَمرُ الْعَوامُ تهَتكْنا

وكما قال غيره : (من الطويل)

لما اجْتَلاكَ الفكرُ في خَلوة الرِّضا وغَيَّبْتَ قال النّاسُ ضَلَتْ بي الأهْوا

لَعَمْرُكَ ما ضَلَّ المُحِبّ ومَا غَوَى ولكنَّهمْ لما عَمُوا أَخْطَئُوا الفَتْوَى ![1]

وهذه الطريقة أخذتها عن الواصل إلى الله تعالى شمس الدين بن محمد ابن سالم الحفناوي[2]، ولقنني على التدريج الأسماء السبعة، وأجازني وأذن لي في *490* التلقين .

والأسماء: «لا إله إلا الله»، الاسم الثاني «الله» يقوله الشيخ في أذن التلميذ اليسرى ثلاثا، ثم بعد مدة يلقنه الثالث وهو «هو» ويلقنه فماً وهمة في أذنه اليسرى إلى أربع وهو حق كذلك، وهذا أول مقام يضع المريد فيه قدمه في طريق أهل الله. الرابع «حي»، الخامس «قيوم» كذلك، السادس «قدوس»، السابع «قهار» في الأذن اليسرى. وهو يروي عن الشيخ مصطفى البكري[3]، عن عبد اللطيف الخلوتي، عن مصطفى أفندي، عن علي قرا أفندي، عن إسماعيل الجزولي، عن عمر الفوادي، عن محيي الدين القسطموني، عن شعبان القسطموني، عن خير الدين الوقاني، عن سلطان الأقسداوي، عن بهاء الدين الأزدجاني، عن يحي الياكوبي، عن صدر الدين الخياني، عن عز الدين، عن محمد الخلوتي، عن عمر الخلوتي، عن أخ

1- القائل : ابو الحسن الششتري : علي بن عبد الله النصيري الششتري الأندلسي ولد في ششتر جنوب الأندلس سنة 610هـ. توفي في مصر 668/ 1269. انظر: **ديوان** أبي الحسن الششتري، حققه وعلق عليه د. علي سامي النشار، دار نشر الثقافة، 1377/ 1958، ص34.

2- محمد بن سالم الحفناوي المصري، شيخ الشافعية بالأزهر، علامة صوفي على الطرية الخلوتية، من تآليفه : حاشية على الجامع الصغير، وحاشية على شرح همزية ابن حجر، وغيرها . توفي سنة 1181 هـ. انظر ترجمته : القادري، **نشر**. . .، 4/ 182 – 188 ؛ الكتاني، **فهرس**. . .، 1/ 353 – 355 ؛ الجبرتي، **عجائب**. . .، 1/ 289 ؛ الحجوي، **الفكر**. . .، 2/ 355 .

3- مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري الدمشقي الحنفي، صوفي على الطريقة الخلوتية، رحالة، له كثير من المؤلفات ، ولد سنة 1099هـ وتوفي سنة 1162 هـ / 1748م . انظر ترجمته: الكتاني، **فهرس**. . .، 1/ 223 – 224 ؛يوسف النبهان، **جامع كرامات الأولياء**، المكتبة الثقافية، لبنان، سنة 1408/ 1988، 2/ 471– 482

محمد الخلوتي، عن إبراهيم الزاهد، عن جمال الدين التبريزي، عن محمد الشرازي، عن ركن الدين محمد النجاشي، عن قطب الدين الأبهري، عن أبي النجيب السهروردي، عن عمر البكري، عن وحيد الدين القاضي، عن محمد البكري، عن محمود الدينوري، عن مختار الدينوري، عن الجنيد، عن السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داود بن نصير، عن علي ابن أبي طالب وهو عن رسول الله ﷺ.

واعلم أن الأسماء السبعة على عدد النفوس السبعة أي أطوار النفس السبعة، فكل واحد يناسبها من الأسماء ما يقتضي بناءها عن صفاتها المذمومة، وتمزيق حجبها الحائلة بينها وبين مشاهدة الحق.

فأولها: النفس الأمارة بالسوء، وذات الحجب الظلمانية، ومقامها مقام ظلمات الأغيار يوافقها الاسم الأول.

الثانية: النفس اللوامة كثيرة اللوم لصاحبها، ويناسبها الاسم الثاني.

الثالثة: الملهمة التي ألهمت فجورها وتقواها، ومقامها مقام الإسرار صاحبها نشوان يغلب عليه المحبة والهيمان، والحزن والتواضع والإعراض عن الخلق والتعلق بالحق، ويناسبه الاسم الثالث ليخلص من ورطتها، وينبغي له كثرة التعلق بالتسبيح وكثرة الذكر فيه بأن له في هذا المقام دسائس خفية، ربما القته والعياذ بالله.

الرابعة: النفس المطمئنة، ومقامها عبد الكمال متى وضع السالك قدمه فيه عد من أهل الطريق، واستحق لبس خرقتهم لانتقاله من التلوين *491* إلى التمكين، صاحبها سكران، هبت عليه نسمات الوصال، يخاطب الناس وهو منهم ديدان الشدة تعلقه بالحق تعالى، ويناسبه الاسم الرابع. وهذا المقام لا يمكن الوصول إليه عادة لغير السالكين ولو أتى عيادة التلقين لأن غير السالك مقيد بقيود الشهوات، والشرك الخفي لا ينفك عنها إلا بأنفاس المشايخ العارفين مع المجاهدة والتزام الأدب على أيديهم.

الخامسة: النفس الراضية، ومقامها مقام الوصال والفنى والجمع، صاحبها غريق في السكر لا باقيا بنفسه ولا بربه، يخاف من شاغل يشغله

عن حاله لما هو فيه من التلذذ والصفاء والأنس، كثير الرضا بالقضاء والتسليم والشكر وغير ذلك، فإنما هنا حبه الغربة والخلوة غاية العزلة، ولها شروط حلوة عند أهل السلوك، ويناسبها الاسم الخامس تحيى به نفسه.

السادسة : النفس المرضية، مقامها مقام تجليات الأفعال، صاحبها لا يرى صدور الأفعال إلا من الله تعالى، فلا يمكنه أن يعترض على أحد أبدا، حسن الخلق، يتلذذ بالحيرة التي أشار إليها العارف بقوله: (من الطويل)

زِدْني بِفَرْطِ الحُبِّ مِنْكَ حَيْرا   وارْحَمْ حَشًا بِلَظَى هوَاكَ تَسَعَّرَا[1]

ويناسبه الاسم السادس.

السابعة : النفس الكاملة، ومقامها مقام تجليات الأسماء والصفات، يناسبها الاسم السابع ليحصل لها تمام القهر، ويزول ما فيها من بقايا النفس، وحالها البقاء بالله، تسير بالله إلى الله، ترجع من الله إلى الله، ليس لها مأوى سوى الله، دخلت في عباد الله إلى جبة مشاهد الله لما طلع عليها الفجر وليال عشر، فرمت ما بين الشفع والوتر والغنى بالله، فكن كيفما تشاء فعلمك جهل وفعلك لا وزن.

واعلم أن طريق أهل الحق مدارها على الصدق، ورأسها الذل، ونهايتها الفراق، قال: حكم القدوس بأن لا يدخل حضرته أرباب النفوس، كثرة الكلام توجب عدم الاحترام، كثرة مصاحبة الناس توجب الإفلاس كما قيل : (من الوافر)

لقَاءُ النَّاسِ لَيسَ يُفِيدُ شيئًا   سِوَى الهَذَيَان مِنْ قِيلٍ وقَالِ
فأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إلاَّ   لأَخْذِ العِلْمِ أو لِصَلاحِ حَالِ[2]

1 - القائل : عبد اللطيف بن علي فتح الله المعروف بالمفتي فتح الله توفي 1260هـ،أديب من أهل بيروت، انظر **ديوانه** : وفيه :
وإذا رأيت هواك في تكثرا   زدني بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشا بلظى هواك تسعرا .

2- البيتان لابي عبد الله الحميدي (توفي 488هـ) انظر: **الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وأدبائهم** لابن بشكوال، عنى بنشره وصححه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي ،القاهرة، ط1 ، 1374/ 1955،2/ 531.

492 الطريقة معاملات، والحقيقة مكاشفات، المُجاهدة توجب المشاهدة، والمجاهدة الشرعية هي بالأحكام الشرعية، والطريقة تتبع الأخلاق المحمدية، والحقيقة هي الشرب من الكؤوس الأوحدية، من لم يحكم الطريقة لم يشرب من كؤوس الحقيقة . لا يشرب من الكؤوس إلا من زاحم الرؤوس على نفسه، فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب، ولا سهم الشرف في العلم، والكمال في الحلم، لا يتطهر من الرعونات إلا من خالف نفسه في الشهوات، وذكر الله في جميع الحالات، من لم تحرقه البداية لم تشرق له النهاية، من لم يخالف النفس والشيطان لم يتحقق بصفات أهل العرفان، من لم يكن عبد الرحمان فهو عبد للشيطان، فانظر أيهما يستحق العبادة لعلك أن تحظى بالسعادة . وفي هذا ما أردت اختصاره من «**تحفة الإخوان والخلان**» ولمن شاء أن يسمي هذا المختصر «**اقتطاف الأزهار من تحفة الأخيار**» .

ولقد شاعت هذه الطريقة الشريفية بالحرمين والشام ومصر، ولها الآن به شيوخ عدة، ودخلت المغرب وشاعت به أيضا إلا أن بعض العامة ممن ينتمي إليها - بل بعض من تؤخذ عنه - أحدثوا فيها أمورا تأباها الشريعة المطهرة .

وأمثل من تؤخذ عنه بمصر صاحب الترجمة رضي الله عنه، فلقد حضرنا مجلس الذكر معه في جماعة وافرة ليلة الجمعة ببيته وما رأينا -والله- ما يُستنكر شرعا، وكان حضوري بإشارته، فقلت مداعبا بعد قوله إن حضرت نسقيك متاربات من سكر على عادتهم: لا أحضر إلا إن كان الشراب معنويا. فقال: احضر نسقيك إن شاء الله شرابا معنويا وحسب، فكان الأمر كما قال لو طالت إقامتي معه .

ويستحسن أن نشفع **اقتطاف الأنوار بورد السحر والستار** للإمام سيدي مصطفى البكري[1] الحنفي، رحمه الله تعالى ونفع به، لتكمل الفائدة،

1- مصطفى البكري : مصطفى بن كمال الدين بن على البكري الصديقى، الخلوتى طريقة، الحنفي مذهبا، أبو ال**مواهب** ، متصوف، من العلماء، كثير التصانيف والرحلات والنظم . ولد في دمشق سنة 1099 هـ/ 1688، ورحل إلى القدس سنة 1022 هـ، وزار حلب وبغداد ومصر والقسطنطينية والحجاز، ومات بمصر سنة 1162 هـ/ 1749م. ترجم له : الكتاني، **فهرس**. . .، رقم 76، 1/ 223 .

وهو نافع لمن واظب عليه مع التدبر لمعانيه والتفهم لمبانيه، فتح به على مؤلفه أيام زيارته لبيت المقدس، وأضاف له قصيدة ميمية فتح بها عليه سابقا صلواته على النبي ﷺ، وقصيدة سماها **بالمنبهجة في طريق المنبلجة** على وزن **المنفرجة**، وتوسلات بالاستعاذة والبسملة والفاتحة وأول البقرة إلى: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾[1] و﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[2] الآية، وآية الكرسي إلى ﴿خَالِدُونَ﴾[3]، وخواتيم البقرة من قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾[4] إلى آخرها. ويكرر: واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، و﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾[5] إلخ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ الآية[6] *493* بعده، والإخلاص والمعوذتين مرة مرة، ثم يقول: «أستغفر الله العظيم» سبعين مرة، ويقول: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم، بديع السماوات والأرض وما بينهما من جميع جرمي وظلمي، وما جنيت على نفسي، وأتوب إليه، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. ثم يسأل ويقول: إلهي ! أنت المدعو بكل لسان، والمقصود في كل آن. إلهي !أنت قلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[7]، فها نحن متوجهين إليك بكليتنا فلا تردنا واستجب لنا كما وعدتنا. إلهي! أين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان، وكيف البراح عنك وأنت قيدتنا بلطائف الإحسان. إلهي! إني أخاف أن تعذبني بأفضل أعمالي، فكيف لا أخاف من عقابك بأسوأ أحوالي. إلهي! بحق جمالك الذي فتت به أكباد المحبين، وبجلالك الذي تحيرت في عظمته ألباب العارفين. إلهي! بحق حقيقتك التي لا تدركها الحقائق، وبسر سر سرك الذي لا تفي بالإفصاح عن حقيقته الدقائق. إلهي! بروح القدس قدس سرائرنا، وبروح محمد ﷺ خلص معارفنا، وبروح أبناء آدم اجعل

1 ـ البقرة :4.

2 ـ البقرة :162.

3 ـ البقرة: 256.

4 ـ البقرة: 283.

5 ـ التوبة: 128.

6 ـ التوبة: 129.

7 ـ غافر :60.

أرواحنا سابحات في عالم الخيرات، واكشف لهم عن حظائر اللاهوت. إلهي! بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه، افتح لنا فتحا صمديا، وعلما ربانيا رحمانيا، وفيضا إحسانيا. إلهي! تولني بالهداية، والرعاية، والحماية، والكفاية. إلهي! تب علي توبة نصوحا لا ينقضي عهدها أبدا، واحفظني في ذلك لأكون بها من جملة السعداء. إلهي! ثبتني بحمل أسرارك القدسية وقَوّني بإمداد من عندك حتى أسر به إلى حضرتك العلية، وثبت اللهم قدمي على صراطك المستقيم، وطريقك القويم. إلهي! جل لنا هذا الظلام، بحر حالك أستارا وافصح وافسح عن بديع جمالك وبذلك أستارا. إلهي !جملني بالأوصاف الملكية، والأفعال المرضية. إلهي! جد لنا ذكرك في الأسحار، وحسن تخضعنا على أعتابك يا عزيز يا جبار. إلهي! حل بيني وبين من يشغلني عن شغلي بمناجاتك، وأفض علي من الأسرار التي خبأتها في منيع سُرادقاتك. إلهي! حل لنا أزار الأسرار عن علوم الأنوار. إلهي! خطفت عقول العشاق بما أشهدتهم من سر أنوارك مع وجود أستارك، فكيف لو كشفت لهم عن بديع جمالك، ورفيع جلالك. إلهي! خصني بمددك *494* السبوحي ليحيى بذلك لبي وروحي. إلهي! داوني بدواء من عندك كي يشتفي به ألمي القلبي، وأصلح مني يا مولاي ظاهري وقلبي. إلهي! دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني إليك. إلهي! ذابت قلوب العشاق من فرط الغرام، وأقلقهم إليك شديد الوجود والهيام، فتعطف عليهم يا عطوف، يا رؤوف، يا الله، يا رحمان، يا رحيم.

اللهم رقق حجاب بشريتي بلطائف إسعاف من عندك لأشهد ما انطوت عليه من سحائب قدسك. إلهي! ردني برداء من عندك حتى احتجب به عن وصول أيدي الأعداء إلي. إلهي! زين ظاهري بامتثال ما أمرتني به ونهيتني عنه، وزين سري بالأسرار وعن الأغيار فصنه. إلهي! سلمنا من كل الأسواء واكفنا من جميع البلوى، وطهر أسرارنا من الشكوى وألسنتنا من الدعوى. إلهي! شرف مسامعنا في خطابك، وفهمنا أسرار كتابك، وقربنا من أعتابك، وامنحنا من لذيذ شروبك. إلهي! صرفنا في عوالم الملك والملكوت، وهيئنا

لقبول أسرار الجبروت، وأفض علينا من رقائق دقائق اللاهوت . إلهي! ضربت أعناق الطالبين دون الوصول إلى ساحات حضرتك العلية، وتلذذوا بذلك فطلبوا بعيشتهم المرضية . إلهي !طهر سريرتي من كل شيء يبعدني عن حضرتك، ويقطعني عن لذيذ مواصلاتك . إلهي! ظمآنا إلى شرب حمياك لا يخفى، ولهيب قلوبنا إلى مشاهدة جمالك لا يطفئ . إلهي !عرّفني حقائق أسمائك الحسنى، وأطلعني على رقائق دقائق معارفك الحسنى، وأشهدني خفي تجليات صفاتك وكنوز أسرار ذاتك . إلهي! غناك مطلق، غنانا مقيد، فنسألك بغناك المطلق أن تغنينا بك غنى لا فقر بعده إلا إليك، يا حميد، يا مبدي يا معيد، يا رحيم، يا ودود، يا الله، يا رحمان، يا رحيم . اللهم إنك فتحت أقفال أهل الاختصاص وخلصتهم من الأقفاص فخلص سرائرنا من التعلق بملاحظة سواك، وامتنا عن شهود نفوسنا حتى لا نشهد إلا علاك . إلهي! قد جئناك بجمعنا متوسلين إليك في قَبولنا، مستشفعين إليك في غفران ذنوبنا فلا تردنا . إلهي ! كفانا شرفا أنَّا خدام حضرتك، وعبيد العظيم رفيع ذاتك . إلهي! لو أردنا الإعراض عنك ما وجدنا لنا سواك، *495* وكيف بعد ذلك نعرض عنك . إلهي! لذنا بجنابك خاضعين وعلى أعتابك واقفين، فلا تردنا يا عليم يا رحيم. إلهي! محص ذنوبنا بظهور أثار اسمك الغفار، وامح من ديوان الأشقياء شقينا، واكتبه عندك في ديوان الأخيار. إلهي! نحن أسارى فمر قيودنا بإطلاقنا، ونحن العبيد فمن سواك يخلصنا، واعتقنا بسند المستندين، وبرجاء المستأجرين .

إلهنا وإله كل مألوه، ورب كل مربوب، وسيد كل ذي سيادة، وغاية مطلب كل طالب، نسألك بأهل عنايتك الذين اختطفتهم يد جذباتك، وأدهشتهم سنا تجلياتك فتلهوا بعجيب كمالاتك أن تسقينا شربة من صافي شراب أهل مودتك الربانيين، و أهل حضرتك الذين هم في جمالك مهيمون . إلهي! هذه أوقات تجلياتك، ومحل سرياتك، ونحن عبيدك الواقفون على أعتابك، الخاضعون لعزة جنابك، الطامعون في سقي سنى شرابك فلا تردنا على أعقابنا بعد ما قصدناك متذللين يا الله يا رحمان يا رحيم . إلهي ! لا نقصد إلا إياك ولا نتشرف إلا لشرب شرابك، وبديع جمالك .

اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك ولا تقطعنا بالغيار عنك، برحمتك يا أرحم الراحمين، يا الله يا واحد يا ماجد يا أحد يا فرد يا صمد، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث فأغثنا يا مغيث أغثنا، والغوت الغوت الغوت من مقتك وطردك وبعدك، يا مجير أجرنا من خزيك وعقابك ومن شر عبادك أجمعين، يا لطيف ألطف بنا بلطفك يا لطيف و﴿اللَّهُ[1] لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ إلى﴿الْعَزِيزُ﴾[2]. اللهم يا لطيف بخلقه، يا عليم بخلقه، يا خبير بخلقه، ألطف بي يا لطيف يا عليم يا خبير، وفي بهي سنى على لطفك يا كافي المهمات والملمات، اكفنا ما أهمنا والمسلمين والحاضرين والغائبين والمتنقلين من إخواننا هموم الدنيا والآخرة، يا كريم يا الله يا رحمان يا رحيم. اللهم أسكن ودك في قلوبنا، وودنا في قلوب أحبابك المصطفين وأهل جنابك المقربين آمين، يا ودود يا ذا[3] العرش المجيد، يا فعال لما يريد سألتك بحبك السابق في محبتهم، وبحبنا اللاحق فيم يحبونه أن تجعل محبتك العظمى وودك الأسمى شعارنا، ودثارنا يا حبيب المحبين، يا أنيس*496* المنقطعين، يا جليس الذاكرين، ويا من هو عند قلوب المنكسرين أدم لنا شهودك أجمعين، يا غني أنت الغني وأنا الفقير من للفقير سواك، يا عزيز أنت العزيز وأنا الذليل من للذليل سواك، يا قوي أنت القوي وأنا الضعيف من للضعيف سواك، يا قادر أنت القادر وأنا العاجز من للعاجز سواك، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته بكرة وأصيلا، وصل وسلم اللهم عليه وعلى أبيه إبراهيم خليلك، وداود خليفتك، وموسى كليمك، وعيسى روحك، وإسماعيل ذبيحك، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين، هـ. (من الطويل)

إِلَهِي بِأَهْلِ الذِكْـرِ وَالْمَشْهَدِ الأَسْمَـى	بِمَنْ عَرَفُوا فِيـكَ الْمَظَاهِـرَ بِالأَسْمَا
بِنُـورٍ بَدَا فِي غَيَاهِبِ الْوَهْمِ فَانْجَلَـى	الظَّلاَمُ وَذاكَ النُّورُ مَا خَلْفَهُ مَرْمَى
بِسِـرِّ مَقَـامَاتٍ تَجَلَّـى لِعِظَمِهَـا	عَنِ الْوَصْفِ إِذ فِي وَصْفِهَا حَيَّرَ الْفَهْمَا

1- بياض في ح .

2 - الشورى: 17.

3- مطموسة في ح .

بِكُلِّ خَلِيلٍ قَدْ خَلاَ عَنْ شَوَائِبٍ ... وَكُلِّ جَلِيلٍ قَدْ جَلاَ نُورُهُ الظُّلَمَا

بِعَرْشٍ بِفَرْشٍ بِالسَّمَاتِ بِالْعُلَى ... بِمَا قَدْ حَوَى قَلْبُ الْمحقينَ مِنْ رَحْمَا

بِأَسْرَارِكَ الَّتِي سَتَرَتْ جَمَالَهَا ... فَلَمْ يَرَهَا إِلاَّ فَتًى فِي الْهَوَى تَمَا

بِبَدْرٍ أَتَى يَهْدِي الأَنَامَ لِحُبِّكُمْ ... فَكَمْ فَازَ بِالْخَيْرَاتِ مَنْ رَكِبَهُ أَمَّا

بِأَهْلِ الْفَنَى وَالشُّكْرِ وَالْمَحْوِ وَالْبَقَى ... بِكُلِّ مُحِبٍّ فِي مَحَبَّتِكُمْ هَمَا

بِكُلِّ مُرِيدٍ طَالِبٍ لِجَنَابِكُمْ ... فَلَمْ يَعْرِفِ الأَحْزَانَ فِيكُمْ وَلاَ الْهَمَّا

دَعَوْنَاكَ وَالأَحْشَاءُ يَرَوْا زَفِيرَهَا ... وَعَيْنَايَ جَاءَ بِالدُّمُوعِ كَمَا الدَّمَا

وَصَبْرِي تَقَضَّى وَانْقَضَى الْعُمْرُ رَاحِلاً ... وَحُبُّكَ يَا مَوْلاَيَ قِبْلَتِي قَدْ أَصَمَا

إِلَهِي يَاأَهْلَ الانْكِسَارِ وَحَقِّهِمْ ... وَمَنْ بِكَ قَدْ نَالُوا الْمَقَامَ الْمُعَظَّمَا

وَمَنْ أَطْلَقُوا الأَكْوَانَ حُبًّا وَأَطْلَقُوا ... الْمَنَامَ وَلَمْ يَشْكُوا الزَّادَ وَلاَ ظَمَا

وَمَنْ سَرَقُوا اللَّحْدَ فِي تُرْبِ أَرْضِكُمْ ... وَمَنْ بِالْهَوَى لِلسُّقْمِ فِي الْحَالِ اسْتَقَمَا

عَبِيدٌ وَلَكِنَّ الْمُلُوكَ عَبِيدُهُمْ ... وَعَبْدُهُمْ أَضْحَى لَهُ الْكَوْنُ خَادِمَا

إِلَهِي هَمًّا أَدْعُوكَ يَا سَنَدَ الْوَرَى ... مَنْ بِتَجَلِّي الْقُرْبِ يَا حُبٌّ اعْجَمَا

تَقَبَّلْ وَجُدْ وَاعْفُ وَسَامِحْ مُغْرَمٍ ... وَتُبْ وَتَحَنَّنْ يَا إِلَهِي تَكَرُّمَا

بِعَبْدٍ غَدَا فِيهِ بِحُبِّكَ مُصْطَفَى ... خَلِيعٌ عَذَا رَبُّ الْمَحَبَّةِ حِكَمَا

وَأَتْبَاعُهُ وَالسَّالِكِينَ طَرِيقَهُ ... وَكُلُّ الْوَرَى مِنْ فَضْلِ ذَاتِكَ عَمَّمَا

497 وَصَلِّ وَسَلِّمْ سَيِّدَ كُلِّ مَحَبَّةٍ ... عَلَى الْمُصْطَفَى مَنَ بِالْمَعَارِجِ اكْرَمَا

وَنَالَ دُنُوًّا لاَ يُضَاهَى وَرِفْعَةً ... وَبَعْدَ اخْتِرَاقِ لِلْحُجُبِ لِلرَّبِّ كَلَّمَا

وَشَاهَدَ مَوْلاَهُ الْعَظِيمَ جَلاَلُهُ ... وَصَلَّ عَلَيْهِ اللَّهُ مِنَّا وَسَلَّمَا

وَأَرْسَلَهُ يَدْعُو الْبَرَايَا لِقُرْبِهِ ... وَخَصَّصَهُ فِي الْكَوْنِ أَنْ يَتَقَدَّمَا

وَآلٍ وَأَصْحَابٍ لِيُوثٍ ضَوَارِي ... وَلاَ سِيَمَا الصِّدِّيقُ مَنْ فِيهِ هِيَمَا

وَفَارُوقُهُ عُثْمَانٌ ثُمَّ ابْنُ عَمِّهِ ... وَأَوْلاَدُهُ السَّادَاتُ ثُمَّ مَنِ انْتمَا

وَأَتْبَاعُهُ وَالنَّاسِجُونَ سَبِيلَهُ ... مَدَى الدَّهْرِ مَا هَبَّ الصَّفَا وَتَنَسَّمَا

ثم يتبع التالي بهذه الصلوات النبوية بقوله: اللهم صل وسلم وبارك على من شرفت به جميع الأكوان، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي

أظهرت به معالم العرفان، وصل وسلم وبارك على سيدنا الذي أوضح دقائق القرآن، وصل وسلم وبارك على عين الأعيان والسبب في وجود كل إنسان، وصل وسلم وبارك على من شيد أركان الشريعة للعالمين، وأوضح أفعال الطريقة للسائرين، ورمز في علوم الحقيقة للعارفين، فصل وسلم اللهم عليه صلاة تليق بجنابه الشريف ومقامه المنيف، وسلم تسليما دائما يا الله يا رحمان يا رحيم. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي زين مقاصد القلوب، وأظهر سرائر الغيوب، باب كل طالب، ودليل كل محبوب، فصل وسلم اللهم عليه ما طلعت شمس الأكوان على الوجود، وصل وسلم وبارك على من أفاض علينا بإمداد سحائب الجود، يا الله يا رحمان يا رحيم، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلاة تدني بعيدنا إلى الحضرات الربانية، وقرب بقربها إلى ما لا نهاية له من المقامات الإحسانية، وصل وسلم اللهم عليه صلاة تنشرح بها الصدور، وتهون بها الأمور، وتنكشف بها الستور، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ إلى ﴿الْعَالَمِينَ﴾[1]، ثم يقرأ الفاتحة ويهدي ثوابها لمنشد الورد ويشرع[2] في **المنبهجة** وهي: (المتدارك)

قُمْ نَحْوَ حِمَاهُ وَابْتَهِجْ	وَعَلَى ذاكَ الْمَحْيَا فعُجِ
وَدَعِ الأَكْوَانَ وَقُمْ غَسَقًا	وَاصْدَقْ في الشَّوْقِ وَفِي للَّهَجِ
وَالْزَمْ بَابَ الأُسْتَاذ تفُزْ	وَتَكُونُ بِذلكَ خِلَّ نَجِ
498 وَاخْرُجْ عَنْ كُلِّ هَوًى أَبَا	وَدَعْ التَّلْفِيقَ مَعَ الْهَرَجِ
إيَاكَ أَخِي تُرَافِقْ مَنْ	لَمْ يَنْهَكَ عَنْ طُرُقِ الْعَوَجِ
إقْنَعْ وَازْهَدْ وَاذكُرْهُ كَذا	كَ ببَابِ سِوَاهُ لاَ تَلِجِ
وَادْخُلْ لِلْحَانِ خَلِيلٌ وَمِلْ	نَحْوَ الْخَمَارِ أَبِي السُّرُجِ
وَاشْرَبْ وَاطْرِبْ لاَ تَخْشَى سِو ى	إيَّاكَ تَمَلُّ عَنْ ذا النَّهَجِ
كَمْ أَنْتَ كَذا لَمْ تَصِحْ أُفُقَ	وَإِلَى الأَبْوَابِ فَقُمْ وَلُجِ

---

1 - يونس :10.

2- في خ «يسرع».

مَوْلاَيَ أَتَيْتُكَ مُنْكَسِرًا … وَ بغَيْرِكَ شَوْقِي لَمْ يَهِجِ
وَ أَتَيْتُ إِلَيْكَ خَلِيًا مِنْ … صَوْمِي وَ صَلاَتِي مَعَ حُجَجِ
وَكَذا عِلْمِي وَكَذا عَمَلِي … وَكَذاكَ دَلِيلِي مَعَ حُجَجِ
لاَ أَمْلِكُ شَيْئًا غَيْرَ اَلدَّمْعِ … مَخَافَةَ أَنْ يَفشِي وَهَجِ
هَلْ غَيْرَ جَنَابِكَ يُقصَدُ لاَ … وَجَمَالِكَ ذِي اَلْحُسْنِ اَلْبَهِجِ
مَنْ يَقصِدْ غَيْرَكَ فَهُوَ إِذا … بِظَلاَمِ اَلْبُعْدِ تَرَاهُ فَجِي
مَنْ أَنْتَ تُضِلُّ فَذاكَ مِنَ … اَلْهَلاَكِ وَمَنْ تَهْدِي فَنَجِ
وَدُمُوعُ اَلْعَيْنِ تُسَابِقُنِي … مِنْ خَوْفِكَ تَجْرِي كَاللُّجَجِ
يَا عَاذِلَ قَلْبِي وَيْكَ فَدَعْ … عَذلِي وَاقصُرْ عَنْ ذا اَلْحَرَجِ
كَمْ تَعْذِلنِي لَمْ تَعْذِرْنِي … دَعْنِي فِي اَلْبَسْطِ وَ فِي اَلْفَرَجِ
أُذنِي لِحَبِيبِي صَاغِيَةٌ … صُمّتْ عِنْدَ اَلْوامِي اَلسَّمْجِ
يَا صَاحِبَ حَانَ اَلْخَمْرِ أَدِرْ … صِرْفًا وَاتْرُكْ لِلْمُمْتَزِجِ
وَأَدِرْ كَأْسَ اَلأَسْرَارِ وَدَعْ … نِي أَصِرْ بِهِ مِنْ ذِي اَلْهَمَجِ
مَوْلاَيَ بِسِرِّ اَلْجَمْعِ كَذَا … كَ وَجَمْعُ اَلْجَمْعِ وَكُلِّ شَجٍ
بِالذاتِ بِسِرِّ اَلسِّرِ بِمَنْ … أَفْضَالُكَ رَبِّي مِنْكَ رَج
بِحَقِيقَتِكَ اَلْعُظْمَى رَبِّي … وَبِنُورِ اَلنُّورِ اَلْمُنْبَلِجِ
بِعَمَاءٍ كُنْتُ بِهِ أَزَلاَ … بِمُحَمَّدِ مَنْ جَا بِالْبَلَجِ
وَبِسِرِّ اَلْقرْبِ كَذاكَ اَلْحُبِّ … وَأَهْلِ اَلْجَذْبِ لِمُنْعَرَجِ
وَبِمَا أَوْجَدْتُ مِنَ الأَكْوَانِ … بِمَا فِيهِنَّ مِنَ الأَرَجِ
وَبِأَهْلِ اَلْحَيِّ وَبَهْجَتِهِمْ … وَبِبَحْرِ اَلْقُدْرَةِ وَاَلْمَرَجِ
وَبِطِيبِ اَلْوَصْلِ وَلذاتِهِ … بِبِسَاطِ الأُنْسِ اَلْمُنْتَسِجِ
499 وَبِقَلْبِ فِي بَلْوَاكَ غَدَا … وَحَيَاتِكَ لَيْسَ بِمُنْزَعِجِ
بِتَجَلِّي اَللَّيْلِ وَعَالَمِهُ … وَظَلاَمُ اَللَّيلِ كَمَ اَلسبَجِ
بِمَنَازِلِ أَفْلاَكٍ وَ كَذَا … بِمَطَالِعِهَا ثُمَّ اَلْبُرَجِ
بِالآلِ بِصُحْبِ مَنْ بِهِمُ … كُلّ اَلْخَيْرَاتِ إِلَيْنَا تَجِي

يَسِّرْ وَاجْبِرْ كَسْـرِي بِرِضَـا	لِيَكُـونَ بِوَصْلِكَ مُبْتَهَـجِ
وَاخْلَعْ خَلْعَ الرِّضْوَانِ عَلَـى	صَبٍّ فِي حُبِّـكَ حُـبَّ هَـجِ
وَامْنَـحْ قَلْبِي نَفَحَـاتِكَ يَـا	مَـوْلاَيَ وَعَجِّـلْ بِالْفَـرَجِ
وَاحَسْرَةَ قَلْبِي إِنْ لَـمْ تُـمـحَ	خَطَـايَا الذَّنْـبِ مِـنَ الـدَّرَجِ
وَاغْفِـرْ يَـا رَبُّ لِنَاظِمِـهَـا	وَلَـهُ رُقِـيٌّ أَعْلَـى الـدَّرَجِ
وَاسْمَحْ لِلسَّامِـعْ مَا نُشِـدَتْ	قُـمْ نَحْـوَ حِمَاهُ وَابْتَهِـجِ
أَوْ مَـا حَـادَ سِحْـرًا يَحْـدُو	الشِّـدَّةَ أَوْدَتْ بِالْمُهَـجِ
وَصَلاَةُ اللهِ عَلَـى الْهَـادِي	وَسَلاَمٌ يُهْـدَى فِي الْحُجَـجِ
لِمُحَمَّـدِنَا وَلأَحْـمَـدِنَـا	مَا فَـاحَ أَقَـاحٌ فِـي الْمُـرَجِ
وَعَلَى الصِّـدِّيقِ خَلِيفَتِـهُ	وَكَـذَا الْفَـارُوقِ وَكُـلَّ نَـجِ
وَعَلَـى عُثْمَانَ شَهِيـدُ الـدَّارِ	وَفَـى فَسَمَـا أَعْلَـى الـدَّرَجِ
وَأَبِي الْحُـسْنَيْنِ مَـعَ الأَوْلاَد	كَـذَا الأَزْوَاجِ وَكُـلَّ شَـجِ
وَعَلَى الْمُهدى وَعِتْـرَتِـهِ	الْمُشْبَـعَ فِي زَمَـنِ الْـوَأَجِ
وَعَلَى مَـنْ مَهَّدَ لِلأَرَضِـيْنَ	كَمَـا قَـدْ بَرَحَ فِـي الْحُبَـجِ
مَـا مَالَ مُحِبـا نَحْوَهُـمْ	أَوْ سَارَ الرَّكْبُ عَلَى السُّـرُجِ
أَوْ مَا دَاعٍ يَدْعُـو الْمَـوْلَـى	يَرْجُو النَّصْرِ مَـعَ الْفَـرَجِ

ثم يفتتح الذكر بقوله : اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد في الأولين إلخ ما تقدم في **اقتطاف الأنوار** إلى طلوع الفجر.

وأما ورد الستار فهو أن يتعوذ ويسمي ويقول: «اللهم يا ستار يا ستار يا عزيز يا غفار يا جليل يا جبار يا مقلب القلوب والأبصار، ويا مدبر الليل والنهار خلصنا من عذاب القبر والنار، إلهي! استر عيوبنا واغفر ذنوبنا وطهر قلوبنا ونور قبورنا واشرح صدورنا وكفرعنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار، سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا معبود، سبحانك ما عرفناك حق معرفتك يا معروف، سبحانك *500* ما ذكرناك حق ذكرك يا مذكور، سبحانك ما شكرناك حق شكرك يا مشكور. فضلا من الله ورحمة، شكرا

من الله ونعمة، لله الحمد وله المنة، الحمد لله على الطاعة والتوفيق، ونستغفر الله العظيم من كل ذنب عمد وسهو وخطأ ونسيان ونقصان وتقصير، اللهم لك الحمد حمدا يوافي نعمك ويكافي مزيدك، نحمدك بجميع محامدك ما علمنا منها وما لم نعلم، ونشكرك على جميع نعمك ما علمنا منها وما لم نعلم، وعلى كل حال يا محول الحال حول حالنا إلى أحسن الحال. أعددت لكل هول لا إله إلا الله، ولكل نعمة الحمد لله، ولكل رخاء الشكر لله، ولكل أعجوبة سبحان الله، ولكل ذنب استغفر الله، ولكل مصيبة إنا لله، ولكل ضيق حسبي الله، ولكل قضاء وقدر توكلت على الله، ولكل هم وغم ما شاء الله. لن يغلب الله شيء وهو غالب على كل شيء، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعى، لا غاية له في الآخرة والأولى، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت أبدا دائما سرمدا باقيا، بيده الخير وإليه المصير وهو على كل شيء قدير، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] إلى ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[2]، ثم يقول: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾[3] صدق الله العظيم: هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمان، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباريء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم المؤخر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالي، المتعالي، البر، الثواب، المنتقم العفو، الرؤوف،

---

1 ـ طه: 4.

2 ـ طه: 7.

3 ـ الأعراف: 180.

ملك الملك ذو الجلال والإكرام، *501* المقسط ، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور الذي تقدست عن الأشباه ذاته، وتنزهت عن مشابهة الأمثال صفاته، وشهدت بربوبيته آياته، ودلت على وحدانيته مصنوعاته . واحد لا من قلة، وموجود لا من علة، بالوجود معروف، وبالإحسان موصوف، معروف بلا غاية، وموصوف بلا نهاية، أول قديم بلا ابتداء، وآخر كريم مقيم بلا انتهاء، أحاط بكل شيء علما، وغفر ذنوب المذنبين كرما وحلما ولطفا وفضلا الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] ، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[3] ، وحسبنا الله تعالى وحده ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . يفعل الله ما يشاء بقدرته، ويحكم ما يريده بعزته ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[4] ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، إلهاً عادلا جبارا، وملكا قادرا قهارا، للذنوب غفارا وللعيوب ستارا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، وأمينه المقتدى، وحبيبه المرتضى، شمس الضحى بدر الدجى نور الورى، صاحب ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[5] ، ﷺ، رسول الثقلين ونبي الحرمين والقبلتين، وجد السبطين، وشفيع من في الدارين، وزين المشرقين والمغربين، وصاحب الجمعة والعيدين، ﷺ، رسولا مكيا مدنيا، هاشميا قرشيا بطحيا مضريا، روحا روحانيا، تقيا نقيا، نبيا كوكبا ذريا، شمسا مضيئا، قمرا قمريا، نورا نورانيا، بشيرا نذيرا، سراجا منيرا، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأولاده، وخلفائه الراشدين المرشدين المهديين من بعده خصوصا منهم الشيخ الشفيق، قاتل الزنديق، وفي الغار الرفيق، الملقب بالعتيق، الإمام على التحقيق، أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ﷺ.

1 ـ الإخلاص:3- 4.

2 ـ الشورى: 09.

3 ـ البقرة :284.

4 ـ الأعراف: 53.

5- النجم :9 .

ثم السلام من الملك الوهاب إلى الأمير الأواب، مجاور المسجد والمحراب، الناطق بالصدق والصواب، المذكور في الكتاب، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ. ثم السلام من الملك المنان إلى أمير الأمان، حبيب الرحمان، جامع *502* القرآن، صاحب الحياء والإيمان، الشهيد على الفرقان، أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ . ثم السلام من الملك الوهاب إلى الأمير الرّضي ابن عم النبي - ﷺ- أمير المؤمنين علي الرّضي السخي الوفي ﷺ وكرم الله وجهه. ثم السلام على الإمامين الهمامين السعيدين الشهيدين المظلومين المقتولين الشمسين القمرين البدرين الحسنين، بالقضاء الراضين، وعلى البلاء صابرين، أمير المؤمنين أبي محمد الحسن، وأبي عبد الله الحسين رضي الله عنهما، وعلى العمّين الكريمين المكرمين الشجاعين المحترمين : حمزة والعباس، وعلى جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار، والتابعين الأخيار والأبرار رضي الله تعالى عليهم وعلينا أجمعين، وسلم تسليما وعظم تعظيما، وكرم تكريما دائما أبدا كثيرا إلى يوم الحشر». انتهى منقولا من أوراد السيد الشيخ مصطفى البكري نفع الله به.

وطريقتهم هذه كالطريقة الشريفة الشاذلية، إذ هي واقفة مع الكتاب والسنة كهذه، إلا أن الخلوتية فيها مزيد الرياضات لولا ما أحدث فيها بعض متفقرة الزمان، نسأل الله لنا ولهم التوفيق بجاه المختار من مضر وعدنان عليه الصلاة والسلام. ولقد أكثر المؤلفون في الطريقة الخلوتية من التأليف خصوصا أهل العصر بمصر، ولعلنا خرجنا عما نحن بصدده والقصد إن شاء الله أن يكون الكتاب ديوان علم وسمر .

وممن لقيته بمصر، وليس من القاطنين بها ولكنه كثيرا ما يستعمل الرحلة إليها، الشيخ الحافظ الحجة المتقن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد البخاري أصلا، النابلسي الشامي دارا الحنفي الأثري[1]؛ اجتمعت به ببيت نزوله بوكالة الملا قرب الجمالية بباب النصر، فرأيت شابا حسن الخلق والخلق، نشأ في عبادة

1- محمد بن أحمد بن محمد بن خير الله البخاري الأصل والشهرة الحنفي الأثري المحدث نزيل نابلس المولود سنة 1154هـ والمتوفى بنابلس سنة 1200 هـ مطعوناً . ترجم له :الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 214 .

الله تعالى، كثير الصمت إلا عن ذكر الله أو مذاكرة العلم الشريف . وكان أول ما أخذت عنه : حديث الرحمة المسلسل بالأولية ، ثم سردت عليه أوائل الستة، والموطأ، ومسانيد أبي حنيفة والشافعي وأحمد والدارمي، والأدب المفرد للبخاري، ومسند ابن حميد والبزار وابن السني، ومعاجم الطبراني، ومسند أبي يعلى، وغير ذلك مما حواه ثبت الشيخ عبد الله بن سالم البصري، وأجازني. ونص ما أمر به السيد الشريف *503* العلامة أبي محمد عبد القادر بن عبد اللطيف الحسني الحنفي الطرابلسي الشامي المصري دارا، أن يكتبه بعد حضوره للسماع كالشيخ المقرئ سلامة بن محمد الحسني الحنفي بعد البسملة: الحمد لله الذي أطلع في سماء السنة المحمدية شموسا وأقمارا، وجعلهم الوارثين لهذه الملة المصطفوية أخبارا وآثارا، فما عن لأحدهم مقام رفيع في رياض الشريعة إلا وبلغ بسمو همته ذروته ورقاه، فلما تقلدوا عقد الشريعة في جيدهم العاطر دعوا إلى عرفه الزكي الزاهر ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾[1]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل مجيز ومجاز، وأفصح من نطق بالحقيقة والمجاز، وعلى آله الذين تواترت مآثرهم الباهرة، واشتهرت فيوضاتهم المتصلة الزاخرة ، والتابعين وتابع التابعين في الدنيا والآخرة أما بعد : فإن أشرف ما يعتنى به أولو العناية في البداية والنهاية بعد تصحيح المعرفة وتحسين العقيدة بمعرفة السنة السنية والطريق المحمدية، والفحص عن صحيحها وسقيمها ومنتجها وعقيمها. وأن مما اختصت به هذه الشريعة المطهرة والملة المنورة، بقاء سلسلة الإسناد التي شرف الله بها هذه الملة المحمدية من بين سائر العباد، وأن مما من الله تعالى به على هذا العبد الضعيف والعاجز النحيف، ملاقات الفاضل الفقيه، والعالم النبيه الذي أشرقت عليه أنوار السنة ولاحت عليه لوائح أهل الجنة، مولانا الأجل الأوحد سيدي محمد ابن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي المغربي، فحصل لنا بملاقاته ما تبتهج به القلوب والأرواح، وتتعطر من حسن ذكره النفوس والأشباح، وقد قرأ علي أوائل كتب الحديث، ثم أنه طلب مني ظنا منه – لكماله في الكمال حقق الله ظنه – أنني من أهل هذا المقال، فقلت بلسان

1 ـ فصلت: 32.

الحياء والخجل من هذا الإمام الأجل : قد أجزت المذكور بالكتب الستة وغيرها من كتب المسانيد والمعاجم ونحو ذلك منة، كل ما يجوز لي وعني روايته من سائر ما يوافق الكتاب والسنة، بلغني الله وإياه الرضى والرضوان . وكذلك أجزت مولانا وسيدنا شيخ المذكور أبا العباس سيدي أحمد بن الحسن بن علي، حفيد الشيخ ابن ناصر وذلك باستدعاء سيدي محمد المذكور، ضاعف الله لي وله الأجور، وأرجو منهما أن لا ينسياني من الدعاء الصالح بحسن الحال *504* وبلوغ الآمال وحسن الختام في عشر من ربيع الأول سنة 1197 هـ .

وكتب، تحت هذا، الشيخ صاحب الترجمة بخطه صحيح ذلك، كتبه الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن محمد البخاري الحنفي الأثري، عفا الله عنه، وهو يروي عن جماعة من الشيوخ منهم سيدي الشيخ الإمام محمد ابن علاء الدين المزجاجي الحنفي الزبيدي، وهو يروي عن علاء إبراهيم الكوراني المدني بالإجازة العامة . ومنهم سيدي وسندي السيد الجليل السيد الإمام حسن بن عبد الرحمان عديد الحضرمي الشافعي، وهو يروي عن محدث الحجاز الشيخ الإمام عبد الله بن سالم البصري وثبته مشهور. ومنهم سيد السيد الإمام سليمان بن يحيى بن عمر الأهدل اليمني الزبيدي وغيرهم رضي الله عنهم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين، هذا نص ما كتب .

ومن مستفاداتي منه ﷺ ونفعنا به، وقد جرى ذكر أبي حيان التوحيدي[1] أنه منسوب لتوحيد، وهو نوع من أنواع التمر بالبصرة كان يبيعه، وابن الجوزي وقد جرى ذكره نسبة لجوزة كانت بداره، وليس فيما وراء النهر جوز سواها أصلا . قلت : وعرضت هذا على شيخنا المرتضى فسلم الأول، وقال في الثاني: الصحيح أنه منسوب لمحلة يباع فيها الجوز قال، وقال بعضهم: جُوزي بالضم .

1- أبو حيان التوحيدي : علي بن محمد بن العباس المعروف بأبي حيان التوحيدي ، المتكلم ، كان إماما في النحو واللغة والتصوف، فقيها مؤرخا ، له مصنفات كالبصائر، الإمتاع والمؤانسة وغيرها. توفي بعد 400هـ . ترجم له : السبكي في **طبقات الشافعية** ، دار المعرفة، الطبعة الثانية، مجلد 4/ 3 – 4 .

فـائـدة : «أبو حيان هذا كان رجلا متكلما صوفيا، وهل هو شيرازي أونيسبوري أو واسطي خلاف، وكان إماما في النحو واللغة والفقه والتاريخ، له تصانيف، وهو شافعي المذهب، صحيح العقيدة خلافا للذهبي ولقول أبي الفرج بن الجوزي في **تاريخه**: «زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء»[1] . قال : وأشدهم على الإسلام أبو حيان لأنه يلمح ولا يصرح»[2].

قال ابن السبكي: «لم أجد في كلام التوحيدي إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس مزدريا بأهل عصره»[3]. وبها قال الشيخ الإمام، وذلك لا يوجب الوقيعة فيه بما ذكر الذهبي وابن الجوزي .

ومما استفدته أيضا من صاحب الترجمة، وقد جرى ذكر بني إسرائيل، وأن المعول عليه عدم رجوعهم لمصر بعد التيه. فقلت: هذا مسلم، وما أولوا به آية الشعراء والدخان كذلك يبقى النظر في قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[4] ، فقد قيل في التفسير إنها مصر . فقال: بل قال السيوطي في أول **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**: «اشتهر على ألسنة كثير من الناس في قوله *505* تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، أنها مصر . وقد نص ابن الصلاح وغيره من الحفاظ على أن ذلك نشأ من تصحيف؛ وأن الوارد عن مجاهد وغيره من مفسري السلف، في قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، قال: مصيرهم؛ فصحفت بمصر»[5] .

ولما جرى بيننا الكلام في الفارسية، هل تكلم بها النبي ﷺ؟ قال مؤلف المنجد الشيرازي صاحب **القاموس** تأليفا سماه «**سفر السعادة**» قال فيه إنه لا أصل لذلك[6] . قلت: والصواب ثبوت كلامه ﷺ بالفارسية.

---

1 ـ ينظر: الذهبي، **تاريخ الاسلام**، باب وفيات سنة أربعمائة ، 6/ 405.

2- السبكي، **طبقات**. . . ، 4/ 3 – 4 .

3 ـ م . س، 4/ 3 .

4 ـ الأعراف: 145.

5 ـ السيوطي، **حسن المحاضرة**، باب ذكر الآثار التي ورد فيها ذكر 1/ 2.

6 ـ **سفر السعادة** للشيخ مجد الدين ابي طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي المتوفى سنة 817 هـ . م خ ح (ضمن مجموع) رقم 11959، ص160 أ.

وأوقفني على كراريس له في الرد على صاحب **القاموس** أملاها في سفره هذا لما سئل عنها، كما انتقد عليه تضعيفه حديث: «إن في الرمان حبة من رمان الجنة»[1]. قال: الصحيح وقفه على ابن عباس بسند جيد أخرجه البيهقي. فقلت: إن صح عن ابن عباس فهو مما لا يقال بالرأي فحكمه الرفع كما تقرر في المصطلح. فقال: نعم. فقلت: وإذا ثبت، أشكل أمره إذ نعيم الجنة لا يفنى. فأجاب: بأنه وإن كان من الجنة فلما خرج للدنيا كان على حسب طعامها ونعيمها كالنيل ونحو، على أن معنى عدم فناء طعام الجنة أنها إن أخذ منها شيء عاد مكانه غيره. فقلت: يرده حديث الكسوف المخرج في الصحيح: «ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[2]، فقال: فحواه على أن طعام الجنة لو خرج إلى الدنيا لبقي على حاله من عدم الفناء. فقال: لا نسلمه إذ يحتمل أن يكون معنى لأكلتم إلخ على معنى تكثير القليل فيكون من معجزاته صلى الله عليه وسلم، فيخرج عما نحن فيه.

وسألته عن بيان المسانيد التي خرجها الحفاظ من حديث أبي حنيفة ﷺ كم هي؟ وعن بيان أسماء مؤلفيها، وعن نحو ذلك في **مسند** الإمام الشافعي؟ فأجاب وكتب الجواب بخطه ونصه بعد البسملة:

---

1 ـ أخرجه السيوطي في **الدر المنثور** بلفظ: «عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ما من رمانة من رمانكم هذه إلا وهي تلقح بحبة من رمان الجنة». 7/ 717. وباختلاف اللفظ في **الترغيب والترهيب**، كتاب صفة الجنة والنار، رقم 4، 5696/ 293.

وفي **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: «عن علي عن النبي ﷺ قال: ما من رمانة إلا فيها حبة من رمان الجنة فإذا أكل أحدكم رمانة فلا يساقط منها شيئا»، 6/ 408.

2 ـ أخرجه الشافعي في **السنن المأثورة**، في كتاب الضحايا، باب الجهاد، حديث طويل: «قال رسول الله ﷺ: إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لاكلتم منه ما بقيت االدنيا...»، رقم 71، 4/ 140.

فصل في بيان المسانيد التي خرجها الحفاظ من حديث الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه

قال الشيخ يوسف الشامي، تلميذ الحافظ جلال الدين السيوطي رحمهما الله تعالى، والتي تصلنا سبعة عشر مسندا:

المسند الأول: تخريج الحافظ أبي محمد عبد الله بن يعقوب بن الحارث الحارثي، رحمه الله.

المسند الثاني: تخريج الحافظ أبي القاسم طلحة بن محمد بن جعفر الشاهد.

المسند الثالث: تخريج أبي الحسن محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى.

المسند الرابع: تخريج الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصفهاني الشافعي.

المسند الخامس: *506* تخريج القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري.

المسند السادس: تخريج الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني الشافعي.

المسند السابع: تخريج أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن جيش من سماعات الحسن بن زياد اللؤلئي صاحب الإمام أبي حنيفة عنه.

المسند الثامن: تخريج القاضي أبي الحسن عمر بن الحسن الأثناني.

المسند التاسع: تخريج أبي بكر أحمد بن محمد بن خالد بن حُلى - بالحاء المهملة المضمونة - الكَلاعي، بفتح الكاف وبالعين المهملة.

المسند العاشر: تخريج الحافظ أبي عبد الله الحسين بن محمد بن خُسْر- بضم الخاء المعجمة وسكون السين المهملة- البلخي.

المسند الحادي عشر: تخريج بعض المحدثين من حديث أبي يوسف عن الإمام أبي حنيفة.

المسند الثاني عشر: تخريج بعض المحدثين عن سماعات الإمام محمد بن الحسن، وتسمى: نسخة محمد بن الحسن.

المسند الثالث عشر: تخريج بعض المحدثين من سماعات الإمام حماد بن الإمام أبي حنيفة عن أبيه.

المسند الرابع عشر: تخريج الإمام محمد بن الحسن، ويسمى : الآثار.

المسند الخامس عشر: تخريج القاضي أبي القاسم عبد الله بن محمد بن أبي العوام، وهو كتاب كبير من كتب المناقب.

المسند السادس عشر: تخريج الحافظ أبي بكر المقري.

المسند السابع عشر: تخريج الحافظ أبي علي البكري، وهو آخر من خرج مسند الإمام أبي حنيفة فيما علمت، انتهى كلام الشافعي.

قال الفقير محمد بن أحمد بن محمد الأثري البخاري عفا الله عنه: أشهر هذه المسانيد وأكبرها حجما **مسند الحارث**، وهو محدث مشهور إلا أنه كلم فيه الحافظ السمعاني، وأجلها وأكثرها تداولا **الأثار** للإمام محمد بن الحسن، وهو مشتمل على أحاديث نبوية وآثار الصحابة وأقوال التابعين ، وقد خرج رجاله الحافظ ابن حجر سؤال الإمام العلامة قاسم بن قطلوبغا الحنفي وسماه: **«الإيثار بروات الآثار»**[1]. وخرج رجال الآثار أيضا في **تعجيل المنفعة برجال الأئمة الأربعة**[2] ، وكذا رجال **مسند** ابن خسر خاصة من دون سائر مسانيد الإمام فليحفظ .

1- **الإيثار برجال معاني الآثار** للشيخ القاسم بن قطلوبغا الحنفي ، توفي : سنة 879 هـ . انظر : حاجي، **كشف**. . . ، 2/ 1728 .

2- **تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأربعة** لابن حجر . انظر : . **م . س** ، 1/ 418 .

فصل في ذكر مسند الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه

قال الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله في **شرح التقريب** : **مسند** الإمام الشافعي ليس من تصنيفه، وإنما لخصه بعض الحفاظ النيسابوريين من مسموع الأصم من **الأم** *507* وسمعه عليه فإنه كان يسمع **الأم** أو غالبها على الربيع عن الشافعي. وعمرو كان آخر من روى عنه وحصل له صمم فكان في السماع عليه مشقة. أقول: وذكر نحوه الحافظ ابن حجر في **تعجيل المنفعة** و**سنن** الإمام الشافعي غير **المسند** وهي من رواية الإمام أبي جعفر الطحاوي عن خاله المزني عن الشافعي، ذكره العلامة العيني في مقدمة شرح **معاني الآثار** للطحاوي[1] ولفظه: «وقال ابن يونس سمع الطحاوي من خاله المزني، وروى عنه مسند الشافعي» . وقال العيني في موضع آخر من المقدمة المذكورة: «الحافظ محمد بن المظفر بن موسى أبو الحسن البغدادي سمع منه أبو جعفرالطحاوي بمصر سنن الشافعي بروايته عن خالد إسماعيل بن يحي المزني. كذا قال الحافظ بن نقطة، هـ. فأراد بالمسند: السنن كما سمى الإمام البخاري صحيحه بالمسند، وكما اشتهر سنن الدارمي بالمسند، والله أعلم.

ومن مستفاداتي منه أنه لم يتفق لحافظ ما اتفق للإمام البخاري من عدد الثلاثيات وهي اثنتان وعشرون[2] . قال: وأما مسلم فليس له إلا الرباعيات أو أنزل. ويا عجبا وجدنا له هو الأربعين من الرباعيات، يرويها البخاري في الصحيح نازلة. وأما أبو داود فليس له إلا رباعي في حكم الثلاثي وهو أعلى ما عنده وهو حديث أبي بزرة. «قال: دخلت على عبيد الله بن زياد فقال

1- **معاني الآثار** لابي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمه الطحاوي المولود عام 228هـ المتوفى عام 321/ 933 . انظر : حاجي، **كشف**. . . ، 2/ 1728 .

2- المراد به : ما اتصل إلى رسول الله ﷺ من الحديث بثلاثة رواة، و تنحصر الثلاثيات في **صحيح البخاري** في اثنين وعشرين حديثا الغالب عن مكي بن إبراهيم وهو ممن حدثه عن التابعين وهم من الطبقة الأولى من شيوخه مثل : محمد بن عبد الله الأنصاري وأبي عاصم النبيل وأبي نعيم وخلاد بن يحيى وعلي بن عباس . انظر : **كشف الظنون**، 1/ 522 .

فلان فلما رآني عبيد الله قال: إن محمديكم هذا لدحداح إلخ»[1] . وأما الترمذي فليس له إلا ثلاثي واحد وهو: «يأتي على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر»[2] . وأما ابن ماجة فله من الثلاثيات خمسة، وللدارمي ثلاثي واحد وهو أعلى ما عنده وهو حديث: «إن في الجنة سوقا، قالوا وما هي؟ قال : كثبان من مسك يخرجون إليها فيجتمعون فيها»إلخ[3].

ولما جرى في ناديه السعيد ذكر الخلاف في موت الخضر بين أهل الظاهر والباطن داعبني بحكاية قال: جلست هذه الأيام مع بعض علماء مصر من بلادي، وهم يجعلون الكاف مكان القاف، وقد جرى ذكر الخلاف المذكور، فقال: الكلب بدل القلب، يميل إلى مقالة المحدثين من موت الخضر عليه السلام . فأجابه بعض الحاضرين ممن يشار إليه في الزمان بالولاية: نعم الكلب يعتقد موته .

لطيفة : ذكرتني هذه بحكاية من علم من الزّجّاج النحوي[4] يذهب إلى أن الصاد تبدل سينا مع الحروف كلها لقرب مخرجهما، ونازعه في ذلك علي بن عيسى الوزير. ثم *508* إن الزّجّاج ذات يوم احتاج إلى كتب رسالة للعامل فاستنجزها ابن الوزير فكتبها، فلما انتهى إلى ذكره كتب: وإبراهيم بن السري الزّجّاج من أخسِّ إخواني. فقال الزّجّاج : أيها الوزير الله الله في أمري. فقال: إنما أردت أَخَصّ، وهذه لغتك فأنت أبصر فإن رجعت وإلا

---

1 ـ ينظر الحديث في مسند الامام أحمد، ولفظه : «عنْ أَبِي طَالُوتَ الْعَبْدِي قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا بَرْزَةَ وَقد خَرَجَ مِنْ عِنْدِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ وَهُوَ مُغْضَبٌ فَقَالَ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَعِيشُ حَتَّى أُخَلَّفَ فِي قَوْمٍ يُعَيِّرُونِي بِصُحْبَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا إِنَّ مُحَمَّدِيَّكُمْ هَذَا لَدَحْدَاحٌ سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُولُ فِي الْحَوْضِ فَمَنْ كَذَّبَ فَلَا سَقَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ». رقم 19794، 4/ 421 .

2 ـ **سنن الترمذي** ، كتاب الفتن ، رقم2260 ، 4/ 526 .

3 ـ **سنن الدارمي** ، كتاب الرقائق، باب في سوق الجنة، ولفظه : عن أنس عن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة لسوقا قالوا: وما هي؟ قال: كثبان من مسك يخرجون إليها فيجمعون فيها فيبعث الله عليهم ريحا فتدخل بيوتهم فيقول لهم أهلوهم لقد ازددتم بعدنا حسنا ويقولون لأهليهم مثل ذلك » رقم2841 ، 2/ 436 .

4- الزجاج: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ببغداد سنة241 هـ/ 855 م ومات فيها سنة311/ 923.

كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد . وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبا لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج . انظر ترجمته في **الأعلام** للزركلي ، 1/ 40.

أنفذت الكتاب بما فيه، فرجع فأصلح الوزير الحرف وطوى الكتاب بما فيه[1].

تنبيه: ضعف بالمشرق والمغرب الاشتغال بفن الحديث حتى صار أهله كالشعرة البيضاء في الجلد الأسود، وما رأينا اليوم بمصر ولا بالحرمين من يتعاطى حق التعاطي بين المالكية ولا من الشافعية مع أن اصطلاح المتقدمين خصوصا أهل خراسان إذا أطلقوا أصحاب الحديث هم[2] الشافعية، أولا ترى إلى ما حباه الله تعالى منهم بمصر في عصر واحد من العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد[3] أنه شافعي والدمياطي[4]، وتلاهم الذهبي[5] والمزي[6] وابن كثير، وتلاهم ابن حجر والسيوطي والبرزالي بالشام وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين. وأما اليوم فما وقع باب الفريقين إلاعلى من البلد تدريسا وتصنيفا، وما شاهدنا من الشافعية حافظا إلا ما كان فن الشيخ أحمد بن عبيد العطار إمام مسجد دمشق، والمشتغل اليوم به فيما شاهدناه الحنفية.

ولما قضى نهبته صاحب الترجمة ﷺ من إمام حافظ مستحضر لتراجم الرجال وعلل الأحاديث، سافر متوجها نحو الشام على البر مع قافلة من الأعراب مأمونة، بعد أن تقدم لي مرارا في الذهاب لزيارة القدس وغيره من أماكن الزيارة بالشام فلم يمكنني ذلك، وكتبنا معه رسالة لشيخنا أبي العباس

1- انظر الحكاية في **طبقات** . . . ، للسبكي، 3/ 188 .

2- بياض في ح .

3- تقي الدين ابو الفتح محمد بن علي القشيري ، يعرف بابن دقيق العيد ، صاحب المدرسة الكاملية بمصر فقيه ومحدث ، توفي سنة 702هـ . انظر :ابن العماد، **شذرات الذهب**، 6/ 5. .

4- شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن ابي الحسن الدمياطي، حافظ للحديث من أكابر فقهاء الشافعية . ولد بدمياط سنة 613 هـ وتوفي في القاهرة سنة 705هـ انظر : **م س**، 6/ 12؛ الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 406 . السبكي، **طبقات**. . . ، دار صادرن بيروت 1968 ، 4/ 10 .

5- الذهبي : هو إمام الحفاظ ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي الفارقي الأصل الدمشقي الدار، ولد سنة 673، وسمع ببلاد الشام والحجاز ومصر . وحكي عن الحافظ ابن حجر انه قال : « شربت ماء زمزم لأصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ» حلاه السيوطي في « **طبقات** الحفاظ » ب «مؤرخ الإسلام وفرد الدهر والقائم بأعباء هذه الصناعة». وألف المؤلفات العظيمة في سائر فنون الحديث وعلومه. انظر :الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 417 رقم 209 .

6- المزي : يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف القضاعي الكلبي الدمشقي المعروف بالمزي حافظ الدنيا ومسندها . انظر: م . س ، 1/ 154 .

أحمد بن عبيد العطار إمام مسجد دمشق، وقد تقدم ذكره بمكة، وودعناه ولم نقض الغرض من الاستفادة منه لقصر المدة، جمعنا الله تعالى وإياه في مستقر رحمته، وحشرنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وممن لقيته أيضا من علماء مصر- حرسها الله تعالى - الفقيه العلامة الدراكة الفهامة، الجامع لأشتات العلوم حفظا وفهما وتدقيقا.

وكان من العلوم بحيث يقضى   له في كل فن بالجميع

وكان مع ذلك ينتمي للخير والصلاح، الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد الأمير به شهر، أخبرني أن سبب تلقيبه بذلك أن جده الأقرب أحمد ووالده عبد القادر كانا ذوي إمارة وحكم ببلد الصعيد فبقي في أولاده هذا اللقب، قال: وحدثه أسلافه أن أصلهم مغاربة ثم نزلوا مصر على أبي التخصيص عبد *509* الوهاب الوفائي، قال: ورأيت في ذلك وثائق قديمة تنبئ بذلك . وكان ﷺ مالكي المذهب، بل حاز رئاسة المالكية، معروف بالتحقيق والاستحضار، كثير البحث، له المشاركة التامة في سائر العلوم حتى من الهندسة .

اجتمعت به مرارا، وحضرت درسه بالأزهر في **مختصر خليل**، ودعاني لبيته ليلا، فأحسن ضيافتي جزي خيرا، وسمرت معه في مسائل علمية، وأوقفني له على تآليف عدة منها : **حواشيه على المغني** لابن هشام في نحو ثلاثين كراسا، وله شرح مختصر على خليل، وله اختصار المتن، ووهبني من هذا الشرح نسخة تقبل الله منه، والأبيات لحسان الزمان الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد السجاعي رحمه الله تعالى، وقد حضرت جنازته بالأزهر بعد قفولي من الحرمين الشريفين مع صاحب الترجمة، وكان مما جرى بيني وبينه إذ ذاك أنه قال لصاحبنا السيد أحمد الهلالي السوسي رحمه الله : ما منعك أن تذهب لدار الميت - يعني الشيخ أحمد المذكور- على العادة حتى تأتي معه، فأجابه منعني فلان- يعنيني- فقلت: وجه منعي له ما في معلومكم من أن التعزية لا تكون إلا بعد الدفن. فقال: يذهب للأمانة، فقلت: ذاك لو كان الميت غريبا، فقال: الشافعية يشترطون في تحصيل قيراط الصلاة أن يحضر مئونة

التجهيز . فقلت: يرد عليهم الحديث: «إذا صلى عليه وكان معها حتى تدفن»[1]. فقال: لعلهم ظفروا برواية في ذلك لم تبلغنا. ثم أوقفني بعد ذلك على رواية للبزار ساقها صاحب **فتح الباري**[2] ، وفيها الإشارة لذلك. فقلت: غير صريحة في ذلك، ولم يبلغنا أنهم في الصدر الأول كانوا يذهبون إلى دار الميت على عادة أهل مصر يحضرون التجهيز ويجعلون ذلك شرطا في تحصيل قيراط الصلاة، فقال: بل فعل نبينا، ﷺ، فقلت: نعم، لأنه لم تنقل من موضع قبضت فيه روحه. والكلام فيمن ينقل لمقبرة ونحوها، على أن اجتماع الصحابة لمعنى المشورة . وأما تجهيزه، ﷺ، فلم يحضره إلا خمسة حسبما تقرر. فقال في البخاري: «أن بعض بناته ﷺ لما احتضر ابنها أقسمت عليه ليأتينها»[3] . وفي البخاري أيضا اجتماعهم على عمر بعد طعنه في صلاة الصبح[4] . فقلت: الاجتماع فيهما لمعنى *510* العيادة وقد بقيا بقيد الحياة، فليس هذا محل النزاع على أن كلامنا في الدعوة الجفلا لا في خصوص إتيان القريب ليحضر تجهيز قريبه الميت، على أنه ربما يروم من القسم المذكور كراهية الإجتماع من عامة الناس على المحتضر،

---

1 ـ أخرجه البخاري في **صحيحه** في كتاب الجنائز ، باب فضل من انتظر حتى تدفن، ولفطه : «قال رسول الله ﷺ: من شهد الجنازة حتى يصلي فله قيراط ومن شهد حتى تدفن كان له قيرطان، قيل وما القيراطان قال : مثل الجبلين العظيمين». رقم 1261، 1/ 445؛ ومسلم في **صحيحه** ، في كتاب الجنائز ، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها ، رقم 945، 2/ 652.

2 ـ لفظ الحديث : «روى البزار من من طريق عجلان عن أبي هريرة مرفوعا : من أتى جنازة في أهلها فله قيراط فإن تبعها فله قيراط فإن صلى عليها فله قيراط فإن انتظر ها حتى تدفن فله قيراط». فهذا يدل على أن لكل عمل من أعمال الجنازة قيراطا وأن اختلفت مقادير القراريط ولا سيما بالنسبة إلى مشقة ذلك العمل وسهولته ، وعلى هذا فيقال إنما خص قيراطي الصلاة والدفن بالذكر لكونهما المقصودين بخلاف ما بقي أحوال الميت فانها وسائل. انظر ابن حجر، **فتح الباري**، 3/ 194 .

3- **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد باب باب قول الله تبارك وتعالى ﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾ ولفظه : «عن أسامة بن زيد قال : كنا عند النبي ﷺإذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت فقال النبي ﷺ : ارجع فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فمرها فلتصبر ولتحتسب . فأعادت الرسول أنها أقسمت لتأتينها فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل فدفع الصبي إليه ونفسه تقعقع كأنها في شن ففاضت عيناه فقال له سعد: يا رسول الله ما هذا ؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» . رقم 6، 6942/ 2686 .

4 ـ ينظر : **صحيح البخاري** ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر ، رقم 3، 3482/ 1348 .

بل وعلى الميت عند التجهيز. وفي **المتن**: «وَعَدَمُ حُضُورِ غَيْرِ مُعِينٍ»[1] ، فما بقي إلا كراهة التعزية قبل الدفن على أنه لا قصد إلا الشهرة والإفتخار ونحو ذلك من المفاسد . فلم ننشب ونحن في انتظار الجنازة أن صدق الله مقالتي، فجيئ بها بهيلولة عظيمة هائلة، ومنكر عظيم تأباه الشريعة، وذلك أن المنشدين للمرثيات بالأصوات الرخيمة المبكيات يتقدمون أمام الجنازة في صبيان ونساء رافعات أصواتهن بالبكاء، رافعين لرايات من الحرير وبعض أغصان شجر خضر في جماعة من العلماء من غير نكير حتى يدخلون الأزهر بتلك الهيلولة، ولا يخفى ما في ذلك سيما في المسجد.

ومن عادتهم إذا مات عالم أو كبير علموا الناس بصعود المؤذنين للمنارات يؤذنون بذلك، ويعطلون الدرس أياما عليه، ويضربون على قبره قبة من كتان ثلاث جمع، وفي الرابعة يقسم ميراثه . فقلت لصاحب الترجمة: لاشك أن تكثير سواد هؤلاء، وهم على حالتهم هذه من المنكر العظيم، فقال منصفا : هو كما قلت يا أخي . فقال لمن بجنبه من تلامذته : أسكت هؤلاء النساء اللاتي بجانبنا وهن يبكين برفع الصوت في المسجد، فإن أبين فاغلض عليهن، لقول النبي ﷺ لابن رواحة: «أحث في وجوههن التراب»[2]، ففعل المأمور، ثم لم يُجْدِ شيئا، فلا حول ولا قوة إلا بالله. ونحن في زحمة عظيمة فجعلت أبحث عن نعلي ظانا أنه سرق فإذا بالشيخ أشار على بعض تلامذته بأخذه، فأنشدته في ذلك لغيري: (مجزوء البسيط)

جَعَلْتُ نَعْلِي أَمَامِي مُقَدَّمًا كَإِمَامِي
مَخَافَةً مِنْ أُنَاسٍ كَيْ يَحْقِرُونَ ذِمَامِي

قال : وفي معنى ذلك يقول بعض شيوخنا في النعل: يؤمك و يغمك .

ومن مستفاداتي منه في جوف الليل ببيته، وقد سألته أين قبر الشيخ إبراهيم الشبرختي؟ إذ لم أجد من يهديني إليه بالقرافتين، فقال: هلك غريقا

1 ـ خليل، **مختصر**. . . ، 46.

2 ـ وقفت على االحديث في **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق** لشمس الدين محمد بن عثمان الذهبي (ت748هـ) ، تحقيق مصطفى أبو الغيض عبد الحي عجيب، دار الوطن، الرياض 1421/ 2000، 1/ 322،

في بحر النيل، وقُبِر فيما يقال بنواحي الشيخ الدسوقي، ولما بلغ الإمام *511* الخرشي نعيه قال: الله أكبر بحر أخذه بحر. وأنشدني لنفسه: (من الوافر)

دَعِ الدّنْيَا فَلَيْسَ بِهَا سُرُورٌ ... يَتِمُّ وَلاَ مِنَ الأَحْزَانِ يَسْلَمُ
وَنَفْرِضْ أَنَهُ قَدْ تَمَّ فَرْضاً ... فَغَمَّ ذَهَابُهُ[1] أَمْرٌ مُحَتَّمُ
فَكُنْ فِيهَا غَرِيباً ثُمَّ اعْبُرْ ... إِلَى دَارِ اَلْبَقَاءِ حُسْنٌ تَغْنَم
وَإِنْ لاَ بُدَّ مِنْ لَهْوٍ فَلْهُو ... لِشَيْءٍ نَافِعٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ[2]

وأنشدني لنفسه أيضا: (من الخفيف)

أَيُهَا السَّيدُ اَلْمَدَ لّلُ ضَاعَتْ ... فِي اَلْهُدَى ضَيْعَتِي وَأُنْسَيْتُ نُسُكِي
لِي لَكَ الله لاَ تُمِلْ لِسِوَايَ ... وَتَحَكَمْ وَلَوْ بِمَا فِيهِ فَتْكِي
وَانْظُر اَلْحَقَ فِي عُلُوِ عُتَاهُ ... كُلّ شَيْءٍ يَمْحُوهُ غَيْرَ الشِّرك[3]

وأنشدني وقد جرى ذكر ابن هشام وما هو عليه من التحرير في **مغنيه**[4] وتوضيحه لابن قبانة:

(من الطويل)

سَقَى بْنُ هِشَامُ فِي اَلثَّرَا نُور رَحْمَةٍ ... يَجْرِ عَلَى مَثْوَاهُ نُورُ غَمَام
سَارُوا لَهُ مِنْ سَائِرِ اَلْمَدْحِ سِيرَةً ... فَمَا زِلْتُ أَرْوِي سِيرَةَ ابن هِشَام

وأنشدني للبرهاني القيراطي في ابن هشام أيضا في **مغنيه**: (من الطويل)

جَلاَ ابْنُ هِشَام مِنْ أَعَارِيفِهِ لَنَا ... عَرُوساً عَلَيْهَا غَيْرُ الدَّهْرِ لا يَبْنِي
وَأَبْدَا لَنَا مِنْ كَنْزِهِ اَلذَّهَبُ اَلَّذِي ... تَقَرُ لَهُ الشَّمْسُ اَلْمُنِيرَةُ بِالْحُسْنِ
وَأَهْدَى لأَرْبَابِ اَللِّسَانِ مُحِباً ... يُغْدِى بِعَيْنٍ كُلّ مَا جَاءَ فِي اَلأُذُنِ

1- في **حلية البشر** «زواله».

2- الأبيات للشيخ محمد بن محمد بن عبد القادر المالكي الازهري: الامير الكبير، انظر: **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر** عبد الرزاق البيطار، ص2586.

3- م. س، 2884.

4- **مغني اللبيب في كتب الأعاريب**.

وَلَقَبُهُ مُغْنِـنِ اللَّبِيـبِ فأصْبَحُـوا وَمَا مِنْهُمْ إلا فَقِيـرٌ إلَـى الْمُغنِـي

وكان بجوار صاحب الترجمة زاوية تنسب للإمام ابن ناصر، وقد هجرت من الصلوات ومن تدريس العلم، وقد سكن أعلاها بعض الجنيديين فأخذت العهد عليه أن يعمرها بالتدريس بين العشاءين ففعل، وعلى أن يتولى النظر فيها ويعاهدها، وأن يلقن الورد الناصري لمن طلبه بمصر إذ قد انقطع بها.

ونص ما كتب لي في إجازته[1] بعد أن طلب مني نحو ذلك ففعلت: الحمد لله الأول والآخر النافع المقدم المؤخر الجامع، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، شهادة عبد ذليل خاضع متمسك بالسيد السند الشافع صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وكل من صحت نسبته إليه من كل متبوع وتابع آمين.

أما بعد، فيقول الفقير أبو محمد بن محمد الأمير، عامله الله تعالى بلطفه، الفقير بما من الله تعالى به علينا الاجتماع باللوذعي *512* الألمعي الأمجد المشمر للعلم والعمل عن ساعد الجد، سيدي محمد بن عبد السلام بن سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن سيدي مَحمد بن ناصر الدرعي المغربي المقدادي، والتمس من الفقير إجازة عن مشايخنا يشركه فيها الأجل أبو العباس أحمد بن الحسن بن علي، سبط الشيخ أبي عبد الله بن ناصر أطال الله مدحهم وأدام مددهم، ومن لي بصحة أن أجاز فضلا عن أن أجيز لكني خلاف مثل هذا المبارك شاق على عزيز فوجبت له طاعتي، وقلت: كل ما صح لي أو عني فهو لهذيْن الإمامين كذلك. وأما أشياخي فمنهم: السيد الأستاذ والسند الملاذ ذو التآليف العديدة والأنفاس العالية السعيدة، نور الدين أبو الحسن علي ابن أحمد الصعيدي العدوي_المنفيسي [2]، لازمته أكثر من عشرين سنة إلى أن مات رحمه الله تعالى، وقد كتب لي الإجازة خصوصا وعموما. ومنهم

---

1 – نص الإجازة في م م و م م، رقم 88 ج، ص 123.

2– أبو الحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي شيخهم بالأزهر، أحد أعلام الشيوخ ولد سنة 1189 هـ وتوفي سنة 1112 هـ. أول من تولى مشيخة المالكية بالأزهر. ترجم له: الكتاني، **فهرس**...، 2/ 712 – 713 رقم 370؛ مخلوف، **شجرة**...، 1/ 492 – 493 رقم 1364.

ذو التآليف المفيدة في الفنون العديدة، السيد محمد البليدي[1] من مشايخ شيخنا المتقدم، بل ومن مشايخ مشايخه، أخذت عنه **الأربعين النووية** بالمدرسة الأشرفية، وحضرت عليه بتلك المدرسة أيضا في قصة مولده ﷺ، جمع الشيخ الغيطي، وحضرت عليه في **شرح السعد على عقائد النبع** بالجامع الأزهر ومات ولم يكمله، وأجازني رحمه الله تعالى. ومنهم الشيخ نور الدين أبو الحسن سيدي علي بن محمد العربي بن علي العربي السقاط [2]، أخذت عنه جميع **موطأ** الإمام مالك بالمدرسة القدرية، وسمعت عليه من الجنائز من كتاب البخاري إلخ الكتاب، وجملة كثيرة من **صحيح مسلم**، وأجازني رحمه الله تعالى. ومنهم الشيخ حسن بن إبراهيم الجبرتي الحنفي، حضرت عليه مجالس في فقه الحنفية وعنده رحمه الله تعالى كان اشتغالنا بالعلوم الحكمية: كالهندسة والهيئة والميقات والآفاق وغيرذلك، وكتب لي إجازة . ومنهم ذو التآليف المشهورة من منظوم ومنثور سيدي يوسف الحنفي الشافعي رحمه الله تعالى، حضرته في شرح على آداب البحث للعضد[3]، وفي قصيدة بانت سعاد[4] وغير ذلك، وأجازنا رحمه الله تعالى . ومنهم أخوه الأستاذ سيدي محمد الحنفي، حضرته في مجالس من **الجامع الصغير**، والنجم الغيطي في مولده ﷺ، وفي متن **الشمائل** للترمذي، ومات رحمه الله تعالى أثناء قراءتها، وتلقنت *513* عليه الذكر من الطريق الخلوتية، وكتب لي الإجازة رحمه الله تعالى .

1- محمد بم محمد الحسني البليلد ، نزيل مصر الأزهري المالكي، مفسر ومقرئ. ولد سنة 1016 هـ و توفي سنة 1176 هـ . مخلوف، **شجرة**. . . ،1/ 489 رقم 1353 .

2- علي بن محمد العربي السقاط الفاسي، المالكي الرحالة المحدث، ولد بفاس ودرس بها، ثم حج سنة 1114 هـ، وجاور بمكة . توفي بمصر سنة 1183/ 1769 . ترجم له : الكتاني، **فهرس**. . . ، 2/ 10006 – 1008 ؛ مخلوف ، **شجرة**. . . ،1/ 490 رقم 1358 .

3- عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار أبوالفضل عضد الدين الايجى عالم بالأصول والمعانى العربية، من أهل أيج بفارس، ولى القضاء، من تصانيفه: المواقف فى علم الكلام والعقائد العضدية والرسالة العضدية فى علم الوضع وشرح **مختصر** ابن الحاجب فى الأصول وغيرها ، مات مسجونا سنة 756 هـ . ترجم له : الزركلي، **الأعلام**. . . ،2/ 34 .

4- قصيدة بانت سعاد، لكعب بن زهير ابن أبي سلمى المزني الصحابي، قالها بعد قدومه على رسول الله ﷺ المدينة تائبا، فقرأها أمامه وهو متنكر، مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وهي سبعة وخمسين بيتا ، وقد عفا عنه رسول الله ﷺ بعد إنشادها. انظر : **سيرة ابن هشام**، 4/ 116 – 123 .

ومنهم الشيخ أحمد الجوهري الكبير، حضرته في الشيخ عبد السلام على جورة، والده الشيخ إبراهيم اللقاني وسمعنا منه الحديث المسلسل بالأولية، وتلقنت عنه الطريق الشاذلية من سلسلة مولاى عبد الله الشريف، وأجازني رحمه الله تعالى. ومنهم ذو التآليف الكثيرة الشهيرة، الشيخ أحمد الملوي[1] الشافعي، أدركته بعد أن أقعد في بيته عن التدريس فراجعته في مسائل شتى في مجالس عديدة وأجازني . ومنهم الشيخ عطية الأجهوري البصير بقلبه، حضرته في المختصر لسعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح وفي **تفسير الجلالين**، ولشيخنا عليه حاشية جليلة ألفها خلال قراءته لنا. وفي شرح سيدي محمد الزرقاني على البقونية في مصطلح الحديث .

وأما الأسانيد فمن أعلاها عندنا رواية شيخنا السقاط المتقدم عن سيدي محمد الزرقاني شارح **الموطأ** و**المواهب اللدنية**، عن والده الشيخ عبد الباقي الزرقاني، عن الشيخ علي الأجهوري، عن الشيخ محمد بن أحمد الرملي، عن شيخ الإسلام زكرياء بأسانيده عن الحافظ ابن حجر وغيره. ويروي أيضا شيخنا السقاط عن الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي لما جاور شيخنا بالحرم بأسانيده وقد جمعها ولده سيدي سالم بن عبد الله في ثبت سماه : «**الإمداد بمعرفة علو الإسناد**» فكان اسمه تأريخا لعام تأليفه من غير قصد سنة 1136 هجرية .

وروى شيخنا السقاط أيضا عام مجاورته بالحرم سنة أربع عشرة ومائة وألف، عن الشيخ أحمد النخلي المكي بأسانيده في قبته المسماة «بقبة الطالبين» منها رواياته عن الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي بأسانيده، ويروي شيخنا علي الصعيدي عن الشيخ عبد الله البناني والشيخ محمد السلموني كلاهما عن الشيخ عبد الباقي والشيخ الخرشي والشيخ إبراهيم الشبرختي، كلهم عن الشيخ علي الأجهوري عن الشيخ نور الدين علي القرافي عن الحافظ السيوطي. ولنقتصر على هذه العجالة، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

1- أحمد بن عبد الفتاح الملوي المصري الشافعي، علامة توفي سنة 1181 هـ . ترجم له : الكتاني، **فهرس**. . . ، 2/ 559 – 560 .

وممن لقيته واقتبست من أنواره وكان، والله، من الزاهدين ومن الأولياء العارفين، الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد البجيرمي[1] من ذرية الولي الصالح سيدنا جمعة رفيق السيد البدوي، ينسب هذا الشيخ إلى بجيرم قرية من قرى الريف، وكان شافعي المذهب، قد كف في آخر عمره واعتزل عن الدنيا وأهلها حتى عن الأهل، واتخذ خلوة *514* بالجمالية، كنت إذا جئته إليها للأخذ عنه لا أرى ما يرد البصر في خلوته إلا سجادة وبرادة ماء، لا أجده إلا مصليا أو تاليا أو ذاكرا .

قرأت عليه أوائل الكتب الستة، **والموطأ**، ومسانيد الأئمة : أبو حنيفة والشافعي وأحمد، وأجازني فيها، وأخذت عنه الطرق الثلاثة : الشاذلية والخلوتية والنقشبندية، وهو رزقه الله تعالى قوة على خدمتها كلها، وأجازني فيها. وقلت له ذات يوم : عظني ياسيدي . فقال: إن أفردته أفردك وطلبك كل شيء وخدمك وبلغت ما تريد . ولما شكوت له دسائس نفسي وما أنا عليه من التقصير وملاحقة الهوى، فقال : كان الشيخ سالم النفراوي أخو شارح الرسالة ينشدنا وكان واعظا قوله :

(مجزوء الرجز)

أَفْــعَــالُـنَــا أَقْـيِـسَــةٌ   مَــكْــذُوبَــةَ النَّـتَــائِــجِ

ورواه لي منثورا ، فقلت: هو من مجزوء الرجز، فقال : أنتم تفطنتم لوزنه وما كنا نحسبه إلا منثورا. فانجر الكلام لذكر فن العروض، فوجدته مع كبر سنه وانقطاعه إلى الله لازال مستحضرا لقواعده وضوابطه قائلا : قرأت في هذا الفن كتبا عدة من أعظمها **ألفية الشيخ شعبان**، قال : ما رأيت أجمع منها في الفن . قال في أولها بعد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ حسبما أوقفني عليها: (من الرجز)

وَبَعْدُ فاعْلَــمَ أنَّ نَظْــمَ الشِّعْــرِ   مُحَــرَّرٌ فــي وَزْنِــه كالتِّبْــرِ
وَالْوَزْنُ للأشْيَـاءِ بِالقِسْطَــاسِ   يَحْتَاجُ لِلتَّقْدِيــرِ وَالْقِرْطَــاسِ
وَقَارِئَ الْقُرْآنِ أوْ مَـنْ يَــرْوِي   حَدِيثَهُ مُفْتَقِــراً لِلنَّحْــوِ

1- أحمد بن أحمد بن جمعة البجيرمي الشافعي المصري المتوفى سنة 1197/ 1783 . ترجم له: الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 212 - 214.

وَالنَّحْوُ دُونَ شَاهِدٍ لا يُكْمَلُ … وَالشَّاهِدُ الْمَجْهُولُ لَيْسَ يُقْبَلُ
وَبِالْعَرُوضِ تُقْبَلُ الشَّواهِدُ … وَيَنْجَلِي صَحِيحُهَا وَالْفَاسِدُ
وَتَسْتَقِيمُ حُجَّةُ الْوَزْنِ[1] … وَالنَّثْرُ دُونَ نَقْصٍ أَوْ رُجْحَانِ
لَوْلا قِيَّامَ الْوَزْنِ بِالْعَرُوضِ … لَمَا عَرَفْنَا صَنْعَةَ الْقَرِيضِ
وَلِلْقَوَافِي فِي الْقَرِيضِ عِلْمٌ … بِهِ يَتِمّ لِلأَدِيبِ النَّظْمُ
وَقَدْ نَظَمْتُ هَذِهِ عَلَى الرَّجَزِ … لِطَالِبٍ عَنِ الْعَرُوضِ قَدْ عَجَزَ
أَبْيَاتُهَا لِلْمُبْتَدِي مُبَصِّرَةً … وَلِلَّذِي قَدْ انْتَهَى مُذَكِّرَةً
مَا حَازَهَا مُنَاظِرٌ إِلاَّ عَلَى … فَإِنَّهَا كَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى
فَأَعُذْ بِهَا مُسْتَوْثِقًا بِاللَّهِ … وَلاَ تَكُنْ عَنْ حِفْظِهَا بِاللاَّهِي
*515*كَمْ قَائِلٍ بِالطَّبْعِ وَاهِي الطَّبَقَةْ … وَإِن رَأَى بَيْتَ أَدِيبٍ سَرَقَهْ
وَكَمْ رِجَالٍ لِلْقَرِيضِ مُكَسِّرُونَ … وَيَدْعُونَهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ
فَنٌّ بِهِ عِلْمُ الْفَتَى وَجَهْلُهُ … مُحَقَّقٌ مِمَّا يَقُولُ أَهْلُهُ
الشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهُ … يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ
وَالشُّعَرَاءُ فِي الزَّمَانِ أَرْبَعَةْ … فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلا يُجرى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يَخُوضُ وَسْطَ الْمَعْمَعَةْ … وَشَاعِرٌ مَا تَشْتَهِي أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَصْفَعَهْ … يَبْغِي حَرَاماً دَائِماً وَيَرْدَعَهْ
وَالأَدَبُ تَقُولُ عِلْمٌ شُهِرْ … وَخَسِرَهُ الإِنْسَانُ طُولَ الدَّهْرِ
وَقَدْ أَتَيْتُ لِلْفَتَى بِالْقَصْدِ فِي … أَلْفِيَّةٍ وَفَضْلُهَا لا يَخْتَفِي
بَدِيعَةٌ سَمَّيْتُهَا الْوَجْهَ الْجَمِيلْ … لِمَنْ يَرُومُ النَّفْعَ فِي عِلْمِ الْخَلِيلْ
قَائِمَةٌ فِي فَنِّهَا بِالْوَاجِبِ … عَنْ الزَّمَخْشَرِي وَابْنِ الْحَاجِبِ
وَالْخَزْرَجِي وَالْمَغْرِبِي وَالسَّاوِي … وَالْبَدْرِ وَهِيَ عُمْدَةٌ لِلرَّاوِي
إِنْ أَجْمَلُوا شَيْئًا تَرَاهَا فَصَّلَتْ … أَوْ أَهْمَلُوا مَا فِيهِ مَعْنًى فَسَّرَتْ

وأنشدني قصيدة غريبة في العروض لأبي عبد الله محمد بن أبي الجيش الأنصاري الأندلسي، قال في مطلعها : (من الطويل)

1 – في خ «الوزان».

طَوِيـلٌ عَلَـى اللَّيْـلِ أذبْتَ كالِيـًا جنُوحُ الدّجَى وَالنَّجْمُ يَنْقادُ لِلْجُنـَحِ

متغزلا فيها، يجعل الكلمة الأولى من البيت للبحر، والحرف الأخير من الشطر الأول للعروض، والأول من الثاني للضرب، والأخير لتثمين البحر أو تسديسه، فأشار بهذا البيت إلى أن البحر الأول يسمى الطويل، وإلى أن له عروضا واحدة ولا تكون إلا مقبوضة، وإلى أن له ثلاثة أضرب وهو مثمن الدابرة، وهكذا صنع في سائر قصيدته حتى أتى على البحور الستة عشرة بزيادة المتدارك.

قلت: والقصيدة المذكورة نسبها الإمام ابن سعيد المرغتي[1] صاحب **المقنع في التوقيت** حسبما في كناش له للشيخ أبي الحسن البسطي[2] فحرر لمن هي. وأنشدني الشيخ لنفسه قصيدة في العروض مراعيا فيها مصطلح الحديث على نهج : صحيح والرجا فيك معضل[3] المنسوبة لابن فرج ، إلا أن قصيدته هو ليست من بحر واحد بل من كل بحر بيتا على وزنه، ويستحسن أن نأتي بها متبركين وهي : (من الطويل)

*516 دَعَاني بِحَالِي في الْهَوَى مُتوَاقِرُ وَحُسْنكَ مَشهُـورُ وَلَحْظُكَ فاتِـــرُ[4]

مُسْتفِيضٌ فِـي هَوَاكُـمْ غرَامِــــي وَعَـزِيـزٌ فِـي لِقاكُــمْ مَرَامِـــي[5]

أضْحَى الْهَوَى شاهِدًا أنَّ اللِّقا حَسَنُ وَالصَّـبّ عِنْدَكَ مَتْرُوكُ الْمُنَى فتِنَ[6]

غَرَامِــي فِيـكَ مُتَّصِــلُ وَوُجْـــدِ عَلَيْكَ مَسَلْسَـلُ مِــنْ غَيْـرِ فقْـــدِ[7]

1- الإمام العلاّمة المعمر محمد بن سعيد المرغتي، ولد سنة 1007 هـ، وتوفي سنة 1089 هـ . ترجم له: الكتاني، **فهرس**. . . ، 2/ 554 – 556

2- ترجم له : مخلوف، **شجرة**. . . ،1/ 377، رقم 986 .

3- صدر بيت لأبي العباس أحمد بن فرج بن أحمد بن محمد اللخمي الاشبيلي وعجزه:
وحزني ودمعي مرسل ومسلسل .
انظر: **الوافي بالوفيات** لصلاح الدين الصفدي .

4- الطويل.

5- المديد.

6- البسيط.

7- الوفر .

الْقلْبُ مؤْتلفٌ بِحُسْنِ جَمَالِكُمْ ... وَالْعَقلُ مُخْتلَفٌ لِفَقْدِ وِصَالِكُمْ[1]

غَرَامِي فِيكَ مَعْرَوفُ ... وَقلْبِي منْكَ مَشْغُوفُ[2]

أصْبَحْتُ مَخْرُومَ النِّظام في الْوَرَى ... مُصْحَفاً مُحَرَّفًا عِنْدَ الثَّرَى[3]

لي نُزُولٌ وَعُلُوٌّ مُشْكِلُ ... في مسَاواتي وَهُمْ لي يعْذِلوُا[4]

الْحَقتُ وَجْدِي سَابِقَ الأدْمُعِ ... قَدْ حَدَّثتْني مُقلَتي بالشَّجُونِ[5]

أمَلِي علَى الأشْوَاقِ ظبي هَنى ... مُنَاولا للأشْجَانِ وَالْفَنى[6]

أنْباتْني ألْحَاظُهُ بِسِهَامِ ... وَأجَازَتْني بالْهَوَى وَالسَّقَامِ[7]

أحَادِيثُ الْوَجْدِ عنِّي ... تلقَّاهَا أهْلُ فَنِّ[8]

أرْوِي الْحُبَّ عَنْ أهْلِه ... وَاسْقِ الصَّبَّ مِنْ نَهْلِهِ[9]

لِلْعِشْقِ فِينَا رُواتٌ ... رَوَتْهُ عَنَّا ثقَاةٌ[10]

بِمَرْفوُعِ قَدْرُكَ قِفْ يَا حَبِيبِي ... لِمَقطوُعِ وَصْلَ وَمَوْضوُعِ رِيبِ[11]

رِفْقًا يَا مَنْ حُسْنُهُ مُذْهِلُ ... بِضَعِيفٍ لَكُمْ دَمْعُهُ مُرْسَلُ[12]

وإلَيْكَ يُحْرِمُ أبْدَتْ فتَى ... فِي هَوَاكَ يَهِيمُ ولا يَسْئلُ[13]

أحْمَدُ الاسْمِ مُبْدِي الْبُحُورِ ... وَهِيَ بالصَّلاةِ علَى الْمُصْطفَى تُكْمَلُ[14]

1- الكامل.

2- الهزج.

3- الرجز.

4- الرمل.

5- السريع.

6- المنسرح.

7- الخفيف.

8- المضارع.

9- المقتضب.

10- المجتث.

11- المتقارب.

12- المتدارك.

13- المتدارك.

14- المتدارك.

وشرحها تلميذه أبو الحسن على بن عبد البر الحسني الونائي الشافعي، شرحا لطيفا مسبوكا حسبما أوقفني عليه.

ولما جرى بيني وبين صاحب الترجمة ذكر واردات القلوب، حدثني عن شيخه ومعتمده الشيخ أحمد الجوهري الخالدي[1] - والد شيخنا السابق - أنه قال له: كنت مع الشيخ أكرم المحدث بمكة المشرفة، وكان منور الظاهر والباطن، فلم أنشب ذات يوم إلا وهو يجمع أثاث السفر يريد الخروج من مكة في نفر إبان الحج، فقلت: وما سبب هذا يا سيدي؟ فقال: كانت ترد على قلبي أنوار وتجليات والآن انعدمت أو كادت، ولا إخال ذلك إلا من تقصير شخص كان تولى خدمتي. قال: فانظر إلى هذا الرجل فقد عد ذنبا غيره ذنبا له، ملاحظا أنه لولاه لما توصل *517* الخادم لما صنع، فكأنه بذلك سن سنة سيئة فأفهم.

ولما شكوت له اعوجاجي حكى لي حكاية، وهو أن رجلا أراد السفر لبلدة فدفع له شيخه مسمارا أعوج وجرة ولوحا أبيض غير مكتوب، وقال: إن وصلت فادفع ذلك لفلان - سماه له- فلما وصل ودفعها له أخذ المسمار فسقمه وقال: هذا الرجل معوج فسقمناه، ولما تناول الجرة ونظر إليها فقال: الرجل فقير فأغنيناه، ولما أخذ اللوح قال: الرجل يشكو خلو صدره من الأسرار كما خلت اللوحة من الكتابة فقد نقشناه أي كتبناه. ولما رجع الرجل وجد شيخه على أكمل حال لم يألفه عليها فقال له: يا فلان جزيت خيرا في أي وقت وصلت إلى الشيخ؟ فقال: في وقت كذا من يوم كذا، فقال: وفيه وردت علي نفحات إلهية.

ولما شكوت له أني كثيرا ما تعترني الرياء في الأعمال فما الدواء؟ فأجاب قائلا: يا أخي هذا أمر في البرية شامل، فهذا هو معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: «فلولا آيتان من كتاب الله[2] ما حَدثتكم». فحدث به عند موته تأثما.

1- أحمد بن حسن الخالدي الشهير بالجُوهري- بضم الجيم- القاهري، فقيه ومحدث، توفي سنة 1181 هـ. ترجم له: الكتاني، **فهرس**...، 1/ 302 - 303؛ الجبرتي، **عجائب**...، 1/ 309.

2- المراد من الآيتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الآية 159 من=

فقلت: منعه من التحدث الخوف من ولاة السوء لأن ذلك في شأنهم، فلما تحقق الموت وأمن من مكرهم حدث بذلك تحرجا من كتمان العلم . فقال: الذي في علمي أنه إنما امتنع من التحديث أولا مخافة الرياء ونحو ذلك .

وسألته هل لرؤية النبي ﷺ مناما أسباب يكتسبها الإنسان بها؟ فقال: المعول عليه أنها كرامة وخصوصية من الله تعالى لمن شاء من عباده، فقد يراه الفاجر ويجد لها البار . فقلت: سيدي لله عليك هل حصلت لك؟ فقال: مرارا والحمد لله بزيادة رؤية يوسف وموسى وشعيب عليهم الصلاة والسلام . قال: فقلت للنبي ﷺ لما رأيته ذات ليلة: أخاف يا رسول الله من ذنوبي ومن سيئ أفعالي، فقال: لا تخف إن شاء الله. وزاد: أما ترضى أن من آذاك يتعبه الله – بهذا اللفظ – وزاد: ولو كان قطبا فردا . قال: وسبب رؤيتي لسيدنا شعيب عليه السلام أني رأيت والدي في النوم فقال: أتحب أن تعرف الآية التي إذا تلاها الإنسان عند نومه رأى فيه سيدنا شعيب عليه السلام؟ فقلت: نعم . فقال: يقرأ ثلاثا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] . قال صاحب الترجمة: فتلوتها عند النوم بذلك القصد فرأيته عليه السلام ووالدي معه في صورة جميلة وهما في قبة متسعة جدا، ووالدي يكلمه وأنا أسمع، فقال له: أتأذن لابني أحمد – يعني *518* صاحب الترجمة – يتكلم معك، فقال: كلامنا ممزوج بهيبة الربوبية وهو الآن لا يقدر على تلقينه. قال: فانتبهت من نومي .

وسألته هل يحصل الثواب بعدد ما صلى الإنسان، كاللهم صل على سيدنا محمد عدد ما كان وما يكون، مع استحضاره لما أجاب به عن المسألة ابن عرفة وغيره؟ فأجاب: الذي يترجح عندي الحصول وفضل الله أوسع. قال: ودليله ما في **سنن أبي داود**: «وجد رسول الله ﷺ عجوزا تلتقط نوى التمر

=سورة البقرة . ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية 174 من سورة البقرة . والمعنى لولا أن الله ذم الكاتمين للعلم لما حدثتكم أصلا ولكن لما كان الكتمان حراما وجب الإظهار والتبليغ .

1 ـ الحديد : 3.

في قفة، فقال: ما حملك على هذا التعب؟ فقالت: أذكر به الله تعالى . فقال ﷺ: «ألا أدلك على ما هو خير لك، فذكر دعاء جامعا»[1] . وحضني الشيخ على استعماله، نفعنا الله تعالى به وبأمثاله.

ونص ما أمر به تلميذه الشيخ علي الونائي المتقدم أن يكتبه في الإجازة: الحمد لله الذي جعل الإسناد من الدين وجعله قربة يتقرب بها إلى رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإن الولي الصالح والشيخ الناصح مولاي محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر المقدادي الدرعي المغربي قد سمع علي أوائل كتب الحديث، وأجزته بذلك وبجميع ما يجوز لي روايته من مسموع ومقروء إجازة عامة بشرطها المعتبر عند أئمة الأثر، منهم : الشيخ أحمد الجوهري الخالدي، والشيخ أحمد الملوي الشافعيان، والشيخ أحمد الإسكندري المالكي برواياتهم عن حافظ الحجاز الشيخ عبد الله بن سالم البصري والشيخ البابلي الشافعي، وكان يوصف بالحفظ بسنده المعروف. وأسأله أن لا ينساني من دعائه في خلواته وجلواته، نفعه الله تعالى ونفع به، وجعله ملاذا وملجأ لعباده . وكذلك أجزت الشيخ أبا العباس سيدي أحمد بن الحسن بن علي بجميع ما ذكر، نفعه الله ونفع به، وأسأله أن لا ينساني من صالح دعائه. قاله وكتبه عنه بإذن الشيخ أحمد بن عبد الله جمعة البجيرمي الشافعي حرر في صفر سنة 1197 من هجرة النبي الصادق الأمين عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام في كل وقت وحين. وكذا أجزت سيدي محمد المذكور بالطريقة الشاذلية والخلوتية والنقشبندية .

أما الأولى : فإني أرويها عن شيخي سيدي أحمد بن الحسن الجوهري المتقدم الذكر عن سيدي عبد الله الكنكسي القصري المغربي، وأجازني فيها إجازة عامة عن مشاييخ أجلة منهم : العلامة سيدي أحمد عن *519* سيدي عبد القادر الفاسي بأسانيده . ويرويها أيضا الجوهري، عن سيدي عبد الله بن سالم البصري، عن الشيخ عيسى المغربي الثعالبي، عن أبي الصلاح علي

1- لم أقف على هذا الحديث في سنن أبي داود .

ابن عبد الواحد الأنصاري، عن أبي العباس أحمد المغربي، عنه عن سعيد بن أحمد المغربي، عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الجليل التنسي، عن أبيه، عن أبي الفضل محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الحفيد، عن أبي الطيب بن علوان التونسي، عن أبي الحسن محمد بن أحمد البطري، عن أبيه، عن أبي العزائم ماضي بن سلطان خادم الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ.

وأما الثانية: فإني أخذتها عن القطب سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي بسنده، وأجازني فيها.

وأما الثالثة: فإني تلقيتها من الإمام المعمر بدر الدين حسن الخونكي، عن الإمام أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبنا، عن أحمد بن محمد بن عجيل اليمني، عن الشيخ العارف تاج الدين العثماني النقشبندي، عن الخواجة محمد باني بسنده إلى سلمان الفارسي، عن أبي بكر الصديق مرفوعة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وكذا أجزته أيضا بالصلاة المشيشية، أرويها عن والدي، عن الشيخ عيد بن عساكرالنورسي، عن النخلي أحمد بن محمد البابلي، عن السنهوري، عن النجم الغيطي، عن زكرياء الأنصاري، عن عبد الرحيم بن الفرات، عن التاج السبكي، عن والده التقي، عن الشيخ ابن عطاء الله، عن الإمام المرسي، عن أبي الحسن الشاذلي، عن مولانا عبد السلام بن مشيش الحسني المغربي. قال: وزاد بعضهم عقبها، اللهم ببركة المصلى به والمصلى عليه اغنني بك عمن سواك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصرني بك، وألهمني بشهودك، وعرفني الطريق إليك وهونها علي بفضلك، وألبسني التقوى منك وبك إنك على كل شيء قدير. هكذا تلقيت عن والدي عن الشيخ عبيد بن عساكر، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ولما توادعت مع صاحب الترجمة قال: دونك سرين إلهيين، قال: وأجزلك فيهما، أحدهما: أن تكتب لا إله إلا الله محمد رسول الله في سطرين من صك مفصول ما بين الجملتين بياض، فتأخذ من الصك طرفه، ويأخذ بيده

مثلا أخ لم يحج لطارئ حصل له أو لجلوسه ببلده الطرف الآخر، وليحفظ كل منكما على جملته فإنهما لا بد أن يجتمعا في بلدهما بسلامة وعافية .

قلت: وقد جربت ذلك فصح . وذكره أيضا الشيخ أبو سالم في **رحلته الثانية**: أن من أراد أن يطلب دنيا في سفره فليتصدق بما زاد على ورده المعتاد *520* من الذكر على جميع المسلمين، وإن قصد دينا تصدق أيضا بين يدي سفره ولو بما يصدق عليه اسم صدقة، وينوي الثواب لجميع المسلمين، وإن أراد في سفره الأمرين معا من دين ودنيا فليتصدق على المسلمين بالأمرين فإنه ينال مطلوبه لا محال، فضلا من الله تعالى .

وممن لقيته وأخذت عنه وأدرك الولاية العظمى بلا ريب، الشيخ المسن البركة أبا عبد الله محمد بن حسن السَّمنّودي المنيِّر[1] لقبا الشافعي مذهبا الخلوتي طريقة، كان إمام وقته في فن القراءات والتصوف والحديث وفن الأفاق، وله تآليف نظما ونثرا، ولازال يقرض وينشد مع ما هو عليه من الكبر والعمى والإقعاد . أخبرني عن نفسه أنه ولد على رأس القرن ومع ذلك لم يؤثر ذلك في ذهنه، وهو ملازم لبيته يقصده القرّاء وأهل الحديث لبيته، تراه في النهار صائما مدرسا، وبالليل قائما ساجدا، ووِرده كل ليلة فيما حكى لي الثقة عنه : كل ليلة ختمة من القرآن .

وله في الطريقة الخلوتية أتباع كثيرون سيما بالشام يأتون للأخذ عنه بمصر أفواجا، أخذها عن الشيخ مصطفى الصديقي، وتخرج على يد الشيخ الحفناوي وإن كان قرينه في السن . هكذا حدثني عن نفسه، كما حدثني أنه أخذ عن جماعة من المغاربة. قال: وإذا ذكر العلماء فحي على الإمام ابن زكري الفاسي، وذلك أنه أخذ عنه لما حج كابن عبد السلام البناني وسيدي محمد بن عبد الباقي الزرقاني وغيرهم . ذهبت إلى بيته بالمُوسْك - حومة بمصر- فأخذت عنه وحضرت درسه في فن القراءات والحديث والتصوف، يقرأ حصة من كل من **سنن الترمذي** وابن ماجة **والإحياء** للغزالي بدرس

1- محمد بن حسن بن محمد السمنودي الأزهري المعروف بالمنير- بتشديد الياء- فقيه شافعي، كان أول من انتزع مشيخة الأزهر من يد المالكية، ولد سنة 1099هـ/ 1688 م، وتوفي بالقاهرة سنة 1199 هـ/ 1785 م. انظر : الكتاني، **فهرس**. . .، 2/ 572 - 573 .

واحد . وسمعت من لفظه أول ما جلست إليه حديث الرحمة المسلسل بالأولية وأجازني فيه، وهو من عادته أن لا يتساهل كغيره في الإجازة، فمن قرأ عليه كتابا في فن وحصله أجازه أولا « بلا»، ولا يقتصر كغيره على أوائل الكتب، وهو يقتفي ما رواه الربيع بن سليمان عن الإمام الشافعي لأنه لا يرى الإجازة في الحديث .

ومن أبدع ما ألف في الطريقة الخلوتية **تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين** رتبه على عشرة أبواب وخاتمة، وهو كتاب في فنه بديع، اختار من النفائس المعنى الرفيع، يوصل إلى المقام الأسنى من به عمل، وينقذ من اعتبر*521* من سوء فعله وجل، وما هو إلا أنوار تنقذ من الوحلات، وتحلي السالكين بفوائد التجليات .

وقرظ له علماء وقته الشيخ الحفناوي والشيخ المرتضى وغيرهما، وله في اسمه تعالى اللطيف :

(من البسيط)

إِذَا تَعَسَّرَ لَدَيَّ أَوْ بَدَتْ كُرَبٌ ... أَوْ كَانَ هَمّ وَغَمّ لِلفُؤادِ بَدَا
أَوْصَالُهُمْ لَمْ تُطِقْ يَوْماً تَدَافعُهُ ... فَاذكُرْهُمْ بِاسْمِ لَطِيفٍ حَسْبَمَا وَرَدَا
بِشَرْطِهِ وَبِأَعْدَادٍ لِجُمَلِهِ ... في مثله قفْ هَكَذا وَأُضْيَافُ الْمُرَادَا
تَرَى الْكُرُوبَ تلاَشَتْ وَالْهُمومَ إذا ... عِنْدَ التِّلاوَةِ زَالَتْ لَمْ تَرَ نكَدَا
يُغْنيكَ عَنْ كُلِّ اسْمٍ في فَضَائلِهِ ... فَدُمْ عَلَيْهِ وَكَرِّرْ يَا فتىَ أَبَدَا
مَنْ كَرَّرَ الاسْمَ صَارَ الْوَقْتُ يَخْدُمُهُ ... يَصِر قُطْبًا لِقُرْبِ الْوَاحِدِ الأَحَدَا
يَحُفُّهُ اللّطْفُ وَالأَلْطَافُ تَسْتُرُهُ ... يَأتِي غَدًا مِنَ الأَعْدَادِ بِأَمْجَدَا
يَا قارِئَ الاسْمِ اللهِ العَظِيمِ إذا ... ذكرْتَ فاتْلُو ولا تُؤْذِي بِهِ أحَدَا
وَالْعَفْوُ أَلْيَقُ قَالَ الله خَالِقُنَا ... في مُحْكَمِ الذِّكْرِ فافْهَمْهُ تَزِدْ رَشَدَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ لَهُ السِّرَّ الشَّرِيفَ علَى ... كُلِّ الْعُلُومِ فلا ريبًا وَلا فنَدَا
مَنْ لازَمَ الاسْمَ يُعْطَى في تِلاوَتِهِ ... أسْرَارٌ جَمَّتْ وَلا يُحْصِي لَهَا عَدَدَا
يَا خائِضَ الْبَحْرِ تلْقَى الدّرَّ فِي صَدَفٍ ... دَعِ الْبِحَارَ وَكُنْ فِي الاسْمِ مُجْتَهِدَا

وَصَلِّ رَبِّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِ مُسَلِّمًا ثُمَّ آلٍ دَائِمًا أَبَدَا

ثم أخذت عنه هذه اللطيفة وهي: الخارج من ضرب تسعة وعشرين ومائة في نفسها وهي واحد وأربعون وستمائة وستة عشر ألفا في الأمور المهمات . قال: وفي غيرها يقتصر على أصل ذلك وهو تسعة وعشرون ومائة ففيها الكفاية، وأجازني فيها .

وفائدة أخرى على شريطة التقوى وعدم البذل إلا لمن كان أهلا وهي: من كانت له حاجة إلى الله تعالى فليتوضأ ويصلي ركعتين ويصلي على النبي ﷺ بأي صيغة كانت، ثم يتلو الاسم الشريف أربعة آلاف مرة وبعد كل ألف يقول: «يا صاحب اللطف الخفي بك أستعين وأكتفي» مائة وتسعة وعشرين مرة ويخيل في نفسه حاجته، ويختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإنها تقضى بإذن الله تعالى لا محالة.

وهذا الشيخ من الشيوخ الذين أخذ عنهم شيخنا الإمام ابن سودة أطال الله بقاءه في سنة حجه *522* أخذ عنه السند لعلو سنده، وأنشدني لما جرى ذكر ما للشيخ على التلميذ لغيره: (من الطويل)

أُقَدِّمُ أُسْتَاذِي عَلَى فَضْلِ وَالِدِي وَإِنْ نَالَنِي مِنْ وَالِدِي الْعِزُّ وَالشَّرَفْ
فَذَاكَ مُرَبِّي الْقَلْبِ وَالْقَلْبُ جَوْهَرٌ وَهَذَا مُرَبِّي الْجِسْمِ وَالْجِسْمُ مِنْ صَدَفْ

وأنشدنا عما جرى منه ذكر ما للقوم في الحظ على صحبة الأكابر ونبذ الأصاغر : (من الرجز)

مَنْ عَاشَرَ الأَشْرَافَ عَاشَ مُشَرَّفاً مَنْ عَاشَرَ الأَنْذَالَ غَيْرَ مُشَرَّفِ
أَوَمَا تَرَى الْجِلْدَ الْحَقِيرَ مُقَبَّلاً بِالْفَمِ حَتَى صَارَ جِلْدَ الْمُصْحَفِ

وأنشد : (من الطويل)

دَعِ الْكِبْرَ وَانْظُرْ مَنْ مَضَى مِنْ أَكَابِرَ وَكَبِّرْ تَكْبِيرًا لاَ تَكُنْ بِمُكَابِرِ
وَلَوْ قُلْتَ عَلَمَا فَإِنَّمَا عِلْمُ جَارِ .

وأنشد للإمام الشافعي في الإمام أحمد بن حنبل: (من البسيط)

قَالُوا يَزُورُكَ أحمَدُ وَتَزُورُهُ قُلْتُ: الفَضَائِلُ لا تُفَارِقُ مَنْزِلَهُ
إِنْ زَارَنِي فَبِفَضْلِهِ أَوْ زُرْتُهُ فَبِفَضْلِهِ فَالْفَضْلُ فِي الْحَالَيْنِ لَهُ[1]

قال: فأجابه الإمام أحمد بقوله: (من البسيط)

إِنْ زُرْتَنَا فَبِفَضْلٍ مُنْذُ تَمْنَحُنَا وَنَحْنُ زُرْنَا فَبِالْفَضْلِ الَّذِي فِيكَ
فَلاَ عَدِمْنَ كِلاَ الحَالَيْنِ فِيكَ وَلاَ نَالَ الَّذِي يَتَمَنَّى فِيكَ شَانِيكَا

ولما أنشدنا ﷺ قصيدة له في آداب الذكر، داعبته بقولي: أعطني مبيضتك هذه تبركا، فأنشد لغيره بعد قوله مداعبا: لا أسلم ما عندي إلا بتسليم ما عندكم: (من البسيط)

مَا بِعْتُكُم مُهْجَتِي إِلا بِوَصْلِكُمْ وَلا أُسَلِّمُهَا إِلا يَدًا بِيَدِ
فَإِنْ رَضِيتُمْ فَيا عِزّي ويَاشَرَفِي وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَإِنْ الرَّهْنَ تَحْتَ يَدِي[2]

وأنشد لما جرى ذكر نسبة الأفعال كلها إلى الله تعالى حقيقة، كتب في درسه للأحياء: (من الطويل)

أَرَانِي آلَةً وَأَنْتَ مُحَرِّكِي أَنَا قَلَمٌ وَالأَقْدَارُ أَصَابِعُ

وقد أخذت عنه ﷺ الطريقة الخلوتية، وأشهد بالله أنه لما لقنني «لا إله إلا الله» أول يوم، وعين لي عددا كثيرا أقطعه منها، وبعد ذلك ينقلني للاسم الثاني على عادتهم، ذهبت لخلوتي وجلست بعد صلاة العشاء أذكر مستقبلا، فما قطعت ولا عشر ما عِين لي حِتى ذهبت بي عيناي وأنا جالس وأسمع هاتفا يقول: ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[3] فلما أصبحت ذهبت إلى الشيخ- صاحب الترجمة- فبادرني بقوله: وما فعلت رؤياك البارحة فأخبرته بالواقع، فقال: شد يدك على الذكر واعتزل وجُع واصمت إلا عن ذكر الله .

1- **ديوان الشافعي**، جمع وشرح وترتيب محمد عبد الرحيم، ص: 322 .

2 ـ القائل: ابن غلبون عبد المحسن الصوري. انظر: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** لأبي منصور الثعالبي، تحقيق إيليا الحاوي، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، توزيع الشركة الشرعية للنشر والتوزيع، / 481.

3 ـ البقرة: 203.

ولما فاجأني السفر أخذت عنه بقية الأسماء تبركا فلم يتأتى لي مع *523* السفر أخذها على التدريج . وأجازني بيده من غير كتب لضيق الوقت. وأنشدني وقد جرى ذكر غلبة الضعيف بالقوي :(من الخفيف)

لا تُحَارِبْ بِنَاظِرِيكَ فُؤَادِي   فَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيًّا[1]

وأنشدني للمازني : (من الطويل)

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَى الْحِلْمِ أَنَّنِي   إِلَى الجَهْلِ فِي بَعْضِ الأَحَايِينِ أَحْوَجُ
وَلِي فَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْجَمٌ   ولِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالجَهْلِ مُسْرَجٌ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيمِي فَإِنِّي مُقَوَّمٌ   ومَنْ رَامَ تَعْوِيجِي فَإِنِّي مُعَوَّجُ
ألا ربما ضَاقَ الفُؤَادُ بِأَهْلِهِ   وَأَمْكَنَ مِنْ بَيْنِ الأَسِنَّةِ تَخْرُجُ

وممن لقيته وأخذت عنه، وكان ضريرا وهو من العلماء العاملين المعمرين، الشيخ محمد بن إبراهيم المصيلحي الشافعي، أخبرني عن نفسه أنه ولد سنة أربع عشرة، حضرت درسه بالأزهر مدة، وذهبت لبيته بقصد الأخذ مرارا، وأحسن قرانا جزي خيرا . وكان هذا الرجل كثير التدبر في مصنوعات الله تعالى، وهو مع ذلك يعتقد الناس فيه الولاية ولا شك أنه لاحت عليه أنوارها . حدثت عن شيخنا ابن سودة تتلمذ له واستجازه فأجازه، أخذ رضي الله عنه العلم عن جماعة منهم الشيخ الصباغ الإسكندري، والعهد على الشيخ العفيفي، وحدث أن الصباغ قال له ذات يوم : أقدم إلينا يوم الخميس نجتمع بالشيخ يوسف بن محمد بن مَحمد بن ناصر، وكان ذلك سنة اثنين وستين عام قفوله من الحرمين، قال: فاتفق أن جعل الشيخ يدرس بالأزهر **متن خليل** في قوله: «وَمَنْ بَادَرَ أُجْبِرَ لَهُ الآخَرُ»[2] في النكاح، ويرددها مرارا حتى سقط من ذلك مغشيا عليه، فحمل لداره فهلك يوم الخميس الذي وقع الوعد به . قال: فما هو إلا أن بلغني النعي فذهبت نحو داره، فوجدت الشيخ أبا يعقوب قد سبقني، فلم يقع اجتماعي به إلا على جنازة الشيخ رحمه الله. قال: وأوصى أن يتولى الصلاة عليه أبو يعقوب ففعل .

1 ـ القائل : الشاعر صفي الدين الحلي (توفي 75هـ) انظر ديوانه

2 ـ خليل، **مختصر** : وفيه : « وَمَنْ بَادَرَ أُجْبِرَ لَهُ الآخَرُ ، إِنْ بَلَغَ الزَّوْجُ وَأَمْكَنَ وَطْؤُهَا». ص96.

وحدثني صاحب الترجمة عن نفسه أنه رأى في النوم أن شيخه الإسكندري هذا لبس ثوبا ضيقا فهاله ذلك وكان ذلك في قيد حياته . قال: فذهبت إليه فأخبرته فاقشعر من ذلك وخاف أن يكون نقصا في دينه ، ثم أخبرني بعد أيام أنه رأى النبي ﷺ وقال: له الرؤيا التي رآها صاحبك لا بأس بها. وحدثني أيضا عن شيخه الشيخ إبراهيم الفيومي أن الأولياء كانوا يجلسونه صدر مجلسهم *524* فلما تولى شيخوخة الأزهر حولوه لموضع البابوج – يعني النعل في لغتهم– فأجلسوه به .

وحدثني أيضا أن الشيخ إبراهيم هذا لما توفي تولى– يعني صاحب الترجمة – بيته التي كان يسكن بها، قال: فرأيت بها النبي ﷺ إحدى عشرة مرة فعلمت مقام صاحبها، وأن المكان يتشرف بمن يسكنه.

ولما جرى ذكر الطمع ووقوف العلماء على باب أرباب الدنيا من ملوك وغيرهم، قال: يحكى أن رجلا ذهب للمارستان فقال للمجنون: إياك والطمع، أوما رأيت حروفه مجوفة – وجعل يزهده في الدنيا– فقال له المجنون: خذ هذه الدرهم فاشتر به خبزا، فجاءه به وجعل يأكل فقال له : إن بين لهواتي دينارا أدخل أصابعك أخرجه، فأدخلها فقضمها المجنون فقطعها أو جرحها، فتداعيا لحاكم فاحتج المجنون أن المجانين لا يعرفون دينارا ولا درهما، فصدقه الحاكم .

ولما جرى ذكر الحرام وفشوه، حكى أن شاربا جاء بدينار لبائع خمر فدفعه له وقصده أن يشرب بعضه، ويأخذ البقية فلوسا، ثم لما شرب وصحا طلب البقية فصكه البائع على خده، فترافعا لعالم فأدلى كل واحد بدعواه، فقال العالم : سبحان الله أبى الله أن تخرج الدنيا إلا من حيث دخلت . قال: ومصداقه حديث: «من جمع مالا من نهاوش[1] أذهبه الله في نهابر[2]»[3] .

1 ـ النهاوش : بكسر الواو : المظالم، أي نهاوش من غير حلِّه كما تَنْهَشُ الحَيَّةُ من ههنا وههنا. انظر: **لسان العرب**، مادة نهبر، 5/ 239 ؛ **مختار الصحاح** لمحمد بن عبد القادر الرازي (ت 721 هـ) عني بترتيبه محمود خاطربك، الطبعة الأميرية بالقاهرة، 1345/ 1926، ص681. .

2– نهابر: هلاك، والنهابر بوزن المنابر المهالك. ونهابر حرام يقول من اكتسب مالاً من غير حله أنفقه في غير طريق الحق. والنَّهابر المهالك، أي أذهبه الله في مهالك وأمور متبدِّدة . انظر: **لسان العرب**، مادة نهبر ،5/ 239 **مختار الصحاح**، ص681.

3 ـ وقفت على الحديث في : **كنز العمال** ،4/ 7 ؛ **غريب الحديث** لأحمد بن إبراهيم الخطابي توفي 388هـ، دار النشر، جامعة أم القرى ،2/ 561 ؛ وفي **غريب الحديث** لابن الجوزي في كتاب الهاء، باب الهاء مع الواو ، دار الكتب العلمية، 2/ 504.

وقلت لصاحب الترجمة ذات يوم : يا سيدي ما بال الأولياء أخفى من دبيب النمل . فقال: سببه إعراض الناس عن الله تعالى، والأولياء مُقبلون عليه وأي علاقة بين المقبل والمعرض حتى يجتمعان، هما على طرفي نقيض. و حدثني بحديث ما كنت سمعته ولا رأيته وهو: «إذا كثر اللوطيون لا يبالي الله تعالى بالناس في أي واد يهلكهم». ثم وجدته في الجامع الصغير ونسبه للطبراني عن جعفر وهو حديث حسن، ولفظه: «إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو وإذا كثر الزنا كثر السباء وإذا كثر اللوطية رفع الله يده عن الخلق ولا يبالي في أي واد هلكوا»[1].

قلت: ومصداقه حديث أم سلمة: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[2] .

وفي النهي عن اللواط أحاديث منها: «من مات وهو يعمل عمل قوم لوط لم يلبث في قبره إلا ساعة واحدة ثم يرسل الله إليه ملكا يشبه الخطاف فيخطفه برجله ويطرحه في بلاد قوم لوط ،ويكتب على جنبه آيس من رحمة الله»[3] .

ومنها: «يوتى يوم القيامة بأطفال ليس لهم رؤوس فيقول الله *525* تعالى من أنتم؟ فيقولون: نحن المظلومون. فيقول: من ظلمكم؟ فيقولون: آباؤنا، كانوا يأتون الذكران من العالمين فألقونا في الأدبار. فيقول الله تعالى: سوقوهم إلى النار واكتبوا على جباههم آيس من رحمة الله»[4].

ومنها: يمسخ اللوطي في قبره خنزيرا، وتدخل النار في منخره وتخرج من دبره كل يوم سبعين مرة. ويروى أن إبليس لعنه الله سئل أي الأعمال أبغض إلى الله وأحبها إليك؟ فقال: اللواط . وقد صح من حديث ابن عباس وأبي هريرة وجابر مرفوعا: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول». إلى غير ذلك من الآثار.

---

1 - أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، رقم 1752، 2/ 184 .

2 - ينظر الحديث في **فتح الباري**، كتاب الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذابا، رقم 6691، 13/ 60.

3- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث .

4- نفسه .

رجوع، ولما جرا بناديه ذكر الظلمة وإهانتهم للعلماء، أنشدني للشيخ حسن المحلي وكان من أصحابه: (من البسيط)

دَهْـرٌ صَفَـتَ لِلْجَاهِلـينَ عمُـودُهُ ... واخْتصَّ بِالْعَيْشِ اللَّذِيـذ قرُودُهُ
مَـا زَالَ قُدُمـاً بَاغِضَـا أسْيَـادُهُ ... وَيَفُـوزُ بِالاكـرَام مِنْـهُ عَبِيدُهُ
وَالْعَـالِمُ النَّحْرِيرُ مَحْـرُومٌ وَإنْ ... نَالَ الْغَـدَا يَوْمـاً فَهَـذا عِيـدُهُ

ثم استجزته فأجازني، ونص ما أمر كاتبه أن يكتبه بعد البسملة: الحمد لله الذي خص من شاء من عباده بعلو الإسناد والصلاة والسلام على سيدنا محمد الشفيع يوم التناد، أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني محمد بن إبراهيم المصيلحي الشافعي الأزهري، قد طلب مني العالم العلامة اللوذعي المتوقد الفهامة الشيخ محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن ناصر الدرعي المغربي المقدادي، الإجازة العامة في التفسير والحديث وسائر العلوم العقلية والنقلية والطريقة الشاذلية. وقد أخذ عني أوائل الكتب الستة، و**الموطأ** نجم السنة إمام دار الهجرة، ومسند الإمام الشافعي والإمام أحمد، فأجزت له وللشيخ أحمد بن الحسن سبط الشيخ ابن ناصر، إجازة عامة في جميع الفنون النقلية والعقلية؛ وطلب مني تعيين أشياخي وأعلى أساندي في العلوم والطريقة، فأجبته إلى ما طلب فقلت: أما سند خاتمة الحفاظ البخاري، فقد أخذته عن شيخنا العلامة الشيخ محمد الدفري عن سالم بن عبد الله بن سالم البصري عن والده عن البابلي عن السنهوري عن النجم الغيطي عن زكرياء الأنصاري عن ابن حجر العسقلاني عن إبراهيم التنوخي عن أحمد بن أبي طالب الحجازي عن الحسين بن المبارك الزبيدي الحنفي عن أبي الوقت عن الداودي عن السرخسي عن الفربري عن البخاري.

وأما **صحيح مسلم** فبالسند إلى الشيخ زكرياء الأنصاري، عن أبي نعيم رضوان بن محمد، عن أبي الطاهر *526* محمد بن محمد بن عبد اللطيف، عن أبي الفرج الحنبلي، عن أحمد بن عبد الدائم النابلسي، عن محمد بن علي الخراز، عن فقيه الحرم أبي عبد الله محمد بن فضل بن أحمد الفراوي، عن عبد الغافرالفارسي، عن أحمد بن محمد بن عيسى الجُلودي – بضم الجيم –

عن إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مؤلفه. قاله الفقير محمد المصلحي الشافعي محمد بن عبد ربه، ونقل عنه وبإذنه.

ومنهم الشيخ المسن الحسن البركة المولود سنة اثني عشر ومائة وألف الشيخ محمد بن عبد ربه المدعو ابن الست الشلبي، وهو الظريف بلغتهم، المالكي العزيزي نسبة لعزيزة قرية من قرى الريف. كان أولا متصدرا للفتوى في مذهب مالك دهرا طويلا، ثم تخلى عنها وانقطع إلى العبادة والخلوة والأذكار على الطريقة النقشبندية، ذهبت إليه لبيته مرة بقصد الزيارة والأخذ، فرأيت عليه أطمارا مقطعة ببيته وسجادة ووسادة خلقة، وما رأيت ما يسر البصر في بيته غير كتبه، ولا زال مع كونه طعنا في السن، يشتري الكتب ويستنسخها. فمن اعتناءه أن استنسخ حواشي شيخنا أبي عبد الله البناني على الزرقاني، وأراني ما لديه من الدفاتر، منها مما لم أكن رأيته ولا سمعت به: حواشي الشيخ إبراهيم الاسفراني العِصام على **تفسير البيضاوي** في سفر مدموج، خدم بها جناب سلطان وقته، فطلبت من الشيخ إعارتها فامتنع ليمين صدر منه في ذلك من غدر بعض الأجارى له في كتاب. وأراني طررا له على الشيخ عبد الباقي الزرقاني على خليل، اعتمد فيها تقرير شيخه الإمام القاضي سيدي محمد الصغير الورزازي أيام مقامه بمصر بعد قفوله من الحرمين الشريفين. وحاشية له كبيرة في سفرين ضخمين على شرح الزرقاني على العارية، أبدأ فيها وأعاد من الأبحاث الرائقة، والأنقال الفائقة؛ فلما طالعت منها بين يديه مواضيع معهودة بالبحث قلت: سبحان الله هذا النفس مغربي! فقال الشيخ: نعم. والفضل للمغاربة، والعمدة في ذلك على تقريرات الشيخ الورزازي المذكور، والشيخ العربي التلمساني. ولما رأيت منها لديه نسختين أشرت له أن يبيع لي واحدة، فامتنع قائلا: بيع الكتب فقر. وأعجبني مطلعها وهو قوله: الحمد لله ملك مدونات فقه العلوم، ومانح جواهر مقدمات الفنون من منطوق ومفهوم، وطأ بمبسوطه تحقيق المباني كفاية الطالب الرباني بفيضه الرحماني حتى باءو بغاية الأماني، تكميلا وتقييدا، وإرشادا وتمهيدا، وأحمده على تيسير العبد*527* لنوادر البيان والتحصيل. واشكره على نعم أجلها: «**مدارك التبيين لوجيز وثائق التلقين**»، عارضة لكل أخوذ، ومعونة

لكل جهبذ، تقوية وتأييدا وتأسيسا وتشييدا، والصلاة والسلام على خليل ربه وصفيه، ومنحه الوفية ورضيه محمد عمدة السالك لتهذيب معين المسالك، ونور المقالة ببيان مزية الرسالة، تبصرة واعتبارا، ومعتمدا واذخارا، قامعة جبارا عنيدا، ومختالا عتيدا، وعلى آله قبس فهم كل زمان ورواة معلم نور الإنس أو صحبة ديابيج الوقار وقوانين الاستبصار، وصلاة وسلاما دائمين بدوام الأخوين بل القرينين بين غياهب الأسحار، وأضحوان النهار، دواما وتأييدا وأمدا مديدا .

وكان أول ما سمعت منه حديث الأولية، واستجزته فأجازني، ونص ما أمر بكتبه من حضر السماع وهو أخونا العلامة الشيخ علي بن عبد الرؤوف الحسني الزناتي بعد البسملة أما بعد : فقد قرأ الإمام الجليل النبيل بركة الوقت المعمر محمد بن عبد ربه بن علي بن عبد التواب المليكي المالكي الشهير بابن الست حديث الرحمة على الإمام الهمام سيدي محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي، وهو أول حديث سمعه منه وأجازه به، وبما يجوز له عن الإمام تاج الدين محمد القلعي المكي[1]، وهو أول حديث سمعه منه عن الشيخ عبد الله بن سالم البصري بسنده وللشيخ ابن الست الإجازة العامة، والسماع من أئمة منهم الشيخ ابن عساكر النمرسي عن النخلي والبصري بسندهما. ومنهم الشيخ القاضي سيدي محمد الصغير المغربي الورزازي المالكي، ومنهم الشيخ عمر التطاوني المالكي والسيد علي الحنفي العربي والشهابان الملوي والجوهري والدمنهوري وعبد العليم والشيخ سالم النفراوي والعماوي رحمهم الله تعالى، وكان ذلك يوم الأربعاء السابع من ربيع الثاني سنة سبع وتسعين ومائة وألف .

وكتب الشيخ بخطه المبارك تحت هذا ما نصه: الحمد لله أما بعد، فقد أجزت الشيخ محمد الناصري بن عبد السلام الدرعي فيما يجوز لي وعني روايته، كتب الفقيرمحمد بن عبد ربه المالكي الشهير بابن الست.

1- محمد بن عبد المحسن القلعي المكي الطائفي، قاض مكة . ترجم له : الكتاني، **فهرس**. . .، 1/ 97 – 98 .

ومنهم الشيخ حسن الجداوي المالكي[1]، حضرت درسه بالأزهر في **مختصر خليل وجمع الجوامع** في مسجد أبي الذهب، وكان نعم الرجل أعجوبةً في حسن الخُلق - بالضم- لا تراه إلا مبتسما، خافضا جناح الذل لكل من أقبل عليه من المسلمين بين يديه سيما الغرباء، تراه *528* يباسطهم ويلاعبهم في درسه، ويتحمل أذاهم وثقلهم، مقتصرا على المتون وما لا بد منه من الشرح. ما رأينا بمصر بل ولا بالمغرب بعد شيخنا أبي محمد عبد الله السوسي بفاس العليا مثل هذا الرجل في المحافظة على المتن والاعتناء بتقريره؛ والمبتدئون يلازمونه، مع كونه له مشاركة في العلوم، وشاع بمصر أن قراءته مبروكة.

ذهب معي ذات يوم لداره وأكرمني ـ تقبل الله منه ـ وأجازني إجازة عامة، وكتبها بيده ونصها: الحمد لله الذي خص هذه الأمة المحمدية بعلو السند، وجعل منها أئمة أعلاما حفظوا الشريعة ودونوها وأدوها كما ورد، فلم يزالوا يتلقونها خلفا عن سلف على الوجه المتين المشيد، فحباهم بذلك مولاهم جنة الفردوس، فهم فيها إن شاء الله آمنون منعمون مخلدون من أنواع النعيم الذي عليهم في كل وقت يتجدد، والصلاة والسلام على سيد الخلق على الإطلاق في جميع الأحوال، وهو السند المديد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وشيعته، صلاة وسلاما دائمين ما ناح حمام وغرد. أما بعد، فيقول الفقير إلى مولاه حسن بن غالب المالكي الجداوي الأسير لنفسه ومهاويه مع الذنوب والمساوي، وأن من جملة ما من علي المولى الكريم المنفرد بالبقاء والتعظيم أن جعلني من الطلبة المجاورين بالجامع الأزهر المعمور بالعلم الأنور، وادخلني في جملة علمائه المتفقهين، وجعلني خديما لهم ولكتبهم وتآليفهم على الوجه المتين، وسلكني في سلك السادة التابعين لإمام الأئمة الإمام مالك الحافظ لسنة الرسول على الوجه الصحيح السالك. ثم في هذا العصر والأوان ورد علي رجل من ديار المغرب من ذوي الفضل والعرفان وهو عزيزنا محمد بن عبد

1- حسن بن غالب الجداوي، المالكي، الأزهري، المصري، محدث، أصولي، خطيب، ولد بالجدية (قرية قرب رشيد بمصر) سنة 1128/ 1716 وتوفي سنة 1202/ 1788. من آثاره: **شرح اليعقوبية في مصطلح الحديث**، **وديوان خطب**. انظر: كحالة، **معجم المؤلفين**، 3/ 263.

السلام الناصري الدرعي المغربي المقدادي يطلب مني إجازة عامة بما تلقيته عن الأئمة الأعلام، من فقه وحديث وتفسير وآلات حدوثها ذوو الأفهام، لنفسه ولشيخه الولي الصالح سيدي أحمد بن الحسن، سبط ابن ناصر الولي الهمام، ويطلب مني أيضا سند حديث الرحمة، فأجبته إلى ما طلب وإن كنت لست أهلا لما ندب. فأما سند حديث الرحمة المسلسل بالأولية فذكر شيخنا العلامة علي العدوي الصعيدي المالكي أن له طرقا متعددة جمعها بعضهم، وذكرها شيخنا في ثبته الحاوي لجميع مروياته، وقد أجازني بجميعها، فأنا أجزت هذا الشيخ وإخوانه. *529* وأوصيهم بتقوى الله عز وجل، وبالدعاء لي وللمشايخ والإخوان، جمعنا الله معهم جميعا في فراديس الجنان بجاه سيدي ولد عدنان . كتبه الفقير حسن الجداوي المالكي – عفا الله عنه – في نصف ربيع الثاني من سنة سبع وتسعين ومائة وألف.

ومنهم شيخ الأزهر في الوقت الشيخ أحمد بن موسى العَرُوسي – به شهر– الشافعي، حضرت درسه في فقههم بالأزهر، ولما تعرضوا لجواز التفاضل بين لحوم النعم، قلت بعد انقضاء الدرس: ما الدليل على أنها أجناس؟ فقال: الشيخ المجتهد لا يُطلب بالدليل . فقلت: لم أطلبه منه وإنما طلبته من مقلد[1] . فقال: الدليل اختلاف منافعها والقدر الواجب فيها من الزكاة وقدر النصاب. فقلت: أوليس أن في الكتاب والسنة إطلاق اسم النعم على الإبل والبقر والغنم فيلزم منه اتخاذ الجنس فيحرم التفاضل كما يقوله المالكية . وأيضا الجنس ما دل على كثيرين مختلفين في الحقيقة كحيوان وأما النعم فنوع تحته . فقال: الفقهاء غالبا لا يعبرون الجنس والنوع والفضل بمعانيها عند المناطقة لأنها اصطلاحات حادثة . فقلت: نقول بموجبه ولكنها مركوزة في الطباع فلا عبرة محدوثها وذلك يصيرها قديمة موجودة في الصدر الأول .

ولهذا الرجل المشاركة التامة في العلوم سيما العلوم الأدبية، وله قوة وداعية على التدريس، وله مزيد الحفظ والفهم . ولما ذهبت لبيته بقصد الأخذ وتذاكرنا مسائل علمية، سأل لم جعلوا «الواو» نائبة مناب «أمّا» في أما بعد،

1– التقليد هو أخذ القول من غير معرفة دليله. انظر: محمد فاروق النبهان **المدخل للتشريع الإسلامي**، نشر وكالة المطبوعات ودار القلم، ط الثانية 1981 ص 219 .

وأي تناسب بينهما؟ فقلت: لعل «أمّا» لما كانت للتفصيل اشترطت الاستئناف و«الواو» قد تزيله . فقال: ظهر لي وجه أن سُلم كان رقيق الحواشي، وهو أن «الواو» موضوعة لمطلق الجمع، و«أمّا» كذلك يوتى بها للجمع بين الكلامين . فقلت: إنما أتي «بأمّا» للفصل لا للجمع . فقال: نعم، والشيء قد يحمل على نده أي ضده كما يحمل على شكله .

تـنـبـيـه : ذكرتني هذه المسألة مسألة القاضي أبي عاصم العبادي الشافعي صاحب **الطبقات**[1]، وهي: «أن «ثم» عنده «كالواو» في اقتضاء الجمع المطلق»[2] ، وأتى على ذاك مسألة فقهية وهي من قال: «وقفت على أولادي ثم أولاد أولادي، يحملها على الجمع لا على الترتيب»[3] . قال التقي السبكي: «لا خلاف بين النحاة»[4]. و«ثم» للترتيب و«الواو» لمطلق الجمع، فيحمل كلام أبي العاصم على أن «ثم» «كالواو» في خصوص هذه المسألة.

ثم استجزته فأجازني ونص ما كتب *530* بخطه، وكان حسن الخط جدا: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد: فقد أسعدني الله بإسعاده، وأمدني من فيض فضله وإمداده بالاجتماع بالألمعي الفاضل واللوذعي النحرير الكامل مجمع الفضائل واللطائف وجامع العوارف والمعارف، وارث الكمالات كابرا عن كابر ولا بدع، فكم ترك الأول للآخر: (من الطويل)

وَهَـلْ يُنْبِـتُ الخَطِـيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إلاَّ في مَنَابِتِهَـا النَّخْـلُ

وهو سيدنا ومولانا سلامة الصالحين الأخيار، وثمرة دوحة المفلحين الأبرار، سيدي شمس الدين محمد بن مولانا عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر المغربي الدرعي المقدادي الشاذلي، أدام الله توفيقه

1- محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عباد الهروي الإمام الجليل القاضي أبو عاصم العبادي، ولد سنة 375 هـ، وتوفي سنة 458 هـ. من مؤلفاته: **طبقات الفقهاء** . انظر ترجمته في : **طبقات الشافعية الكبرى** 3/ 42 – 49 .

2- م. س: 3/ 45 .

3- ن. م .

4- نفسه .

وإجلاله وبلغه من الخير آماله، وذلك في العشر من ربيع الثاني سنة سبع وتسعين ومائة وألف بعد عوده حفظه الله تعالى من أداء الحج والعمرة ببيت الله الحرام، وفوزه بزيارة مقام المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام . وقد طلب مني أعزه الله إجازة عامة له وسيدي أحمد بن الحسن بن علي، سبط الإمام الكبير والعالم الشهير سيدي مَحمد بن ناصر المتقدم ذكره طيب الله برحماته ثراه، وإجازة له خاصة في الحديث المسلسل بالأولية وهو حديث الرحمة لأنه - أعزه الله - سمعه مني مشافهة أول اجتماعي به، مع أني لست أهلا أن أجَاز فكيف أن أجيز، وهذا إنما حمله عليه حسن ظنه أني من أهل هذا الشأن أو ممن يذكر في حافة هذا الميدان . فأقول : قد تلقيت كتب الأحاديث وغيرها من الفنون، البعض قراءة ودراية، والغالب إجازة ورواية، وكذلك الحديث المسلسل بالأولية عن علماء أعلام، وأئمة كرام، من أجلهم وأعلاهم سندا شيخنا وشيخ أشياخنا القطب الكبير والعالم الشهير إمام عصره بلا نزاع، وعلامة وقته بإتفاق أهل الإجماع، مولانا شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح المُجيري الملوي الشافعي، وكذلك سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام، مفتي فرق الإمام شيخنا وشيخ مشايخنا الإمام العلامة الهمام الفهامة نور الدين عبد الله بن عامر الشعراوي الشافعي، تغمدهما الله برضوانه وأسكنهما أعلى غرف جناته، فإني قرأت على كل منهما جملة صالحة عظيمة من **صحيح** الإمام البخاري وغيره، *531* وأجازني بجميع ما تجوز لهما روايته من منقول ومعقول وفروع وأصول، وهما أخذا عن الإمام الكبير والعالم الظاهر الباهر الشهير شارح **صحيح** الإمام البخاري، ومن نشر عبير فضله في جميع الأقطار، الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي الشافعي، فإن كلاهما قد اجتمع به عام حجه للبيت الحرام، وبلغا من الأخذ عنه غاية الحرام، وهو عن الإمام الحجة المتقي مفتي الفرق العلامة محمد بن علاء الدين البابلي الشافعي نزيل مكة المشرفة، وسنده محرر معروف في ثبته فليراجع .

وأما حديث الرحمة فأرويه عن سائر أشياخنا بالإجازة من طرق شتى بعضها من طريق البابلي وبعضها من طريق غيره، وأرويه بالسماع في أول اللقاء والاجتماع عن شيخنا شمس الدين محمد بن الطيب المغربي المالكي الفاسي

نزيل طيبة رحمه الله تعالى عام قدومه للديار المصرية، وهو عن عبد الله بن سالم البصري، عن البابلي، عن أحمد القلقشندي، عن أحمد بن محمد بن أبي بكر المقدسي، عن محمد بن محمد بن إبراهيم الميدوي، عن عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني، عن الحافظ أبي الفرج بن الجوزي، عن إسماعيل بن أبي صالح النيسابوري، عن أبيه، عن أبي طاهر الزيادي، عن أحمد بن محمد البزار، عن عبد الرحمان بن بشير النيسابوري، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمان – تبارك وتعالى – ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1] . وكل منهم يقول: وهو أول حديث سمعته منه إلى سفيان بن عيينة وانتهت .

فأقول: أجزت ساداتي بجميع مروياتي وبكل ما يجوز لي روايته شرط المعتبر عند أهل الأثر، وأوصيهما أن لا ينسياني من صالح الدعوات في الخلوات والجلوات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد السادات وعلى آله وصحبه وشيعته وحزبه . كتبه تراب الأقدام، وخادم الخدام، فقير رحمة ربه وأسير وصمة ذنبه، أحمد بن موسى العمروسي الشافعي، غفر الله ذنوبه وستر عيوبه آمين .

ومنهم الشيخ المسن البركة أحمد بن محمد بن عبد الوهاب السمنودي بلدا الشافعي مذهبا الأشعري طريقة وعقيدة، حضرت *532* درسه لتفسير البيضاوي بجامع أبي الذهب مرارا، وأفادنا أن التقي السبكي لما كان بالشام ونعيت له نفسه، وكان مستجاب الدعوة، دعا الله تعالى أن لا يقبض روحه حتى يرى ابنه التاج مكانه قاضيا بالشام لتحققه أهليته وعدالته، وحتى يقدم ابنه البها من مكة حاجا . فلما تولى الأول القضاء وحضر الثاني من مغيبه ارتحل هو إلى الديار المصرية فلم يبق بعد وصوله إلا أياما قلائل فقبض، ودفن بخارج باب النصر قرب الإمام المحلى.

---

1 ـ وقفت على الحديث في : **الاربعين العشارية** لعبد الرحيم بن الحسين العراقي (توفي 806 هـ) ، تحقيق بدر عبد الله البدر ، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى 1413، الحديث الثامن عشر، 1/ 125 .

قلت: ومعنى هذا في **الطبقات الكبرى** لابنه التاج حتى قال في قصيدة له: (من البسيط)

هَذَا الَّذِي يَسْمَعُ الرَّحْمَانُ دَعْوَتَهُ إِذَا تَقَارَبَ وَقْتُ الْفَجْرِ أَوْ حَانَا[1]

قال: وكان إذا أراد الدعاء على ظالم يعلق ورقة في شجرة بعد كتبها، فكلما تحركت الورقة تعاقبت الأمراض على الظالم حتى يهلك أو يَتْرَب[2].

قال: ومن عادته أيضا في الدعاء على الظالم أن يبيت خاليا للنجوم، قالعا عن رأسه العمامة، جاعلا في عنقه منديلا. فاتفق أن فعل ذلك في دعاء على ظالم من الولاة فلم يطلع الفجر وهو على حالته تلك إلا وأحد أولاده البها أو التاج داخل عليه مسرورا قائلا: قد قبض الظالم المدعو عليه. فقال الشيخ عند ذلك لا تفرح بذلك، ولا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله تعالى ويبتليك.

وقد استجزت صاحب الترجمة فأجازني ونص ما كتب: أحمد لمن وفق من أراد به خيرا لمعرفة علم الحديث واستنتاج فوائده من كل قديم وحديث، وفتح عليهم باب الدراية والرواية حتى صاروا فيه من الراسخين، وزينهم بطراز السنة المحمدية ففضلوا بها غيرهم من المخلوقات، وحلاهم بلآلي العلوم الشرعية، وطرزهم بمعرفة الفنون العقلية، وصلاة وسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد: فقد حل بمصرنا وعمت بركته كنانتنا اثنا عشر التسعين من القرن الثاني عشر، مولانا الفاضل العلامة الكامل ذو الذهن المتوقد الذي يستخرج به دُرر الفوائد من مبانيها، ويستنتج به الأ قيد الصحيحة من كنوز معانيها، الشمس محمد بن عبد السلام الناصري المغربي الدرعي المقدادي، والتمس من العبد الفقير الذليل الحقير المعترف بالعجز والتقصير، القصير الباع القليل الاطلاع، أحمد بن محمد بن عبد الوهاب السمنودي *533* الشافعي، إجازتي بالكتب التي رويتها وتلقيتها عن شيخنا خاتمة المحققين وبقية المدققين شمس الملة والدين محمد بن علي بن

1 ـ السبكي، **طبقات**...، 6/ 148.

2 ـ يقال أَتْرَبَ الرجلُ فهو مُتْرِبٌ إذا كثر مالهُ فإذا أرادوا الفقْرَ قالوا تَرِبَ يَتْرَبُ ورجل تَرِبٌ فقيرٌ ورجل تَرِبٌ لازقٌ بالتُّراب من الحاجة ليس بينه وبين الأرض شيءٌ. انظر: **لسان العرب**، مادة «ترب»، 1/ 227.

الصالح التقي نصير الدين السحييني بلدا الشافعي مذهبا، فأجبته لذلك وإن كنت لست من أبطال تلك المسالك، فأقول وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق : قد تلقيت الكتب الستة ورويتها سماعا لبعضها وإجازة لباقيها عن شيخنا المذكور، وهو تلقاها عن جماعة مالكية وشافعية منهم شمس الملة والدين محمد الشرنبالي، ومنهم الفقيه المحدث إبراهيم الرماوي الشافعي . الأول يروي عن الحافظ البابلي بأسانيده إلى أرباب الكتب الستة، وقد أجزت بها مولانا وأخانا محمد المتقدم ذكره رواية ودراية لما أعلمه من فضله وعلمه وأمانته وأهليته وقبلها لنفسه ولشيخه سيدي أحمد بن الحسن، أعاد الله علي من بركتهما، وأمدني بإمدادهما وأنا أرجو منهما أن يشركاني في دعواتهما في خلواتهما وجلواتهما، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله وحده .

ومنهم الشيخ سليمان بن عمرالبجيرمي الشافعي[1]، اجتمعت عليه بالأزهر وسمعت منه حديث الأولية، وله الاعتناء بالتدريس لا يفتر عنه إلا في وقت المطالعة أو الذكر مع ما هو عليه من ضعف البصر وبعض الكبر؛ ألسنة الخلق عليه بالثناء الجميل ناطقة وهي والله في ذلك صادقة . ونص ما أمر به الشيخ علي الونائي أن يكتبه لي في الإجازة بعد البسملة : الحمد لله الذي أعلى من أسند أموره إليه وفوضها، وأظهر النور على وجوه أحبابه وجملها، والصلاة والسلام على سيد الأصفياء سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وأهل بيته وجنده وحزبه أما بعد، فقد يسمع الإمام اللوذعي والهمام الألمعي شمس الدين محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي المقدادي، حفظه الله تعالى، من الإمام الأجل والعمدة الأكمل الإسناد الجليل المحقق النبيل مفيد الطالبين ودليل المسترشدين، الشيخ سليمان بن عمر البجيرمي الشافعي زاده الله تعالى من إمداداته، حديث الرحمة بالأولية، وهو أول حديث سمعه منه وأجازه به ولكل ما تجوز له روايته حق أخذه، وإجازته عن الشيخ العشماوي عن

1- سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي ، فقيه مصري . ولد في بجيرم (من قرى الغربية بمصر) سنة 1131هـ/ 1719 م وقدم القاهرة صغيرا، فتعلم في الأزهر، ودرس، وكف بصره. توفي سنة 1221/ 1806 . ترجم له : الزركلي، **الأعلام**، 3/ 133 .

البصري والعز محمد بن الإمام المحدث أحمد العجمي كلاهما عن *534* الإمام البابلي بسنده، ويروي الأولية بشرطها عن الإمام المعمر أحمد بن عمر الديربي الغنيمي، عن منصور بن عبد الرزاق الطوخي، عن الشيخ سلطان المزاحي، عن الشهاب أي الشلبي، عن يوسف بن زكرياء، عن والده شيخ الإسلام، عن الحافظ ابن حجر بسنده، وكل منهم يقول : وهو أول حديث سمعته منه. وكتب عنه بإذنه الفقير سليمان بن عمر البجيرمي الشافعي رضى الله عنهم .

ومنهم الشيخ الإمام البركة الهمام سيدنا أبو زيد عبد الرحمان بن الحاج جاد الله البناني[1] ، من عمل تونس المغربي المالكي، ذهبت إليه إلى بيته بوكالة الصنادقيين التي فيها شيخنا الشيخ سليمان الجمل السابق الذكر، وتعرف بوكالة العلماء وسكناهم بها، متجردين لا تسمع ممن سكن معهم من التجار لغوا ولا لغطا، فرأيت رجلا زاهدا ورعا قد مسه الكبر، قطع التدريس بالأزهر وغيره، وانقطع إلى الله تعالى في العبادة، وله ﷺ اليد الطولى في الفقه وغيره سيما الآلات، وله حاشية نفيسة على المحلي على جمع الجوامع. قرأت عليه أوائل الكتب، فأجازني ونص ما كتب في ذلك بخطه : الحمد لله الذي لا يسند الحمد حقيقة إلا إليه، ولا يصح التعويل في جميع الأمور إلا عليه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي تعلق به كل وصف حميد، وتابعه كل مجد طارف وتليد، وعلى آله مصابيح الهدى وأصحابه نجوم الاهتداء وبعد، فلما كان الإسناد من الدين وعليه الاعتماد عند أولي التمكين اعتنا به أعلام المتقدمين والمتأخرين، وقد التمس مني السيد الأمجد والعلامة الأوحد مربي المريدين ومرشد السالكين، سيدي محمد بن عبد السلام بن محمد ابن مَحمد بن ناصر حفظه الله تعالى، الإجازة في هذا الشأن وظن بنا الكمال والله يجعلنا عند ظنه، وطلب مني إجازة خاصة بالحديث المسلسل بالأولية مقرنا بروايته، وعاما بجميع مروياتي ومسموعاتي ، فأجبته إلى طلباته

1- عبد الرحمان بن جاد الله البناني، فقيه مغربي، قدم مصر وجاور بالأزهر ثم صار شيخا مدرسا به ، إذ تولى مشيخة رواق المغاربة بالأزهر، من أهم مؤلفاته حاشيته على المحلى لشرح جمع الجوامع، في علم أصول الفقه . توفي سنة 1198 هـ / 1784 م .ترجم له: الكتاني، **فهرس**. . . ، 2/ 844 ؛ مخلوف، **شجرة**. . . ، 1/ 494 رقم 1367 .

رجاء دعائه وبركته، لأنه من أهل بيت ارتفع في عقائد مجده الخلاف وجدت على سنن أسلافه الأخلاق ، فأجزته بجميع ما تجوز لي وعني روايته كما أجازني أشياخي على اختلاف أسانيدهم وتعدد طرقهم . وها أنا أذكر روايتي للحديث المذكور من طريق شيخنا قطب زمانه، ووحيد عصره وأوانه، السيد محمد الجعني قدس الله روحه ونور ضريحه، وهو يرويه *535* عن الشيخ العارف بربه محمد البديري الدمياطي الشهير بابن الميت، عن الملا إبراهيم الكردي نزيل المدينة المنورة، عن أحمد القشاشي، عن أبي حفص عمر بن أبي الفتح الكناني، عن محمد بن محمد بن إبراهيم الخطيب، عن أبي الفرج الجوزي بسنده وشرطه وهو حديث حسن .

ورواه أحمد في مسنده عن سفيان بن عينة بهذا الإسناد، ورواه البخاري في بعض تصانيفه عن عبد الرحمان بن بشير بهذا الإسناد ، ورواه أبو داود عن مُسَدَّد[1] وأبو بكر بن أبي شيبة، والترمذي عن محمد بن يحيى ابن أبي عمر ثلاثتهم عن سفيان . وقال الترمذي : فيه حديث حسن صحيح .

وأقول: قد أجزت أخانا المذكور بهذا الحديث، وأجزته إجازة عامة بجميع مروياتي ومسموعاتي معقولا ومنقولا فروعا وأصولا، نفعه الله ونفع به وأدامه منصوبا في سلك أهل قربه، سائلا منه أن لا يخلني من صالح دعواته في خلواته وجلواته خصوصا بالموت على صحيح صريح الإيمان، وأفضل صلاة وسلام على أكمل رسول الله وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار. قال بفمه ورقمه بقلمه، حامدا مصليا مسلما على رسول اللهﷺ، وشرف وكرم ومجد وعظم في حادي عشر ربيع الثاني من سنة سبع وتسعين ومائة وألف، الفقير الحقير المقر بالعجز والتقصير، عبد الرحمان بن الحاج جاد الله البناني عامله الله بلطفه الرباني إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

1- مسدد مولاي عبد الله بن عمرو. انظر: **سنن أبي داود**، كتاب الأدب باب في الرحمة رقم 4941، 4/ 285 .

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الصبان الشافعي[1]، حضرت درسه **لمغني** ابن هشام في الأزهر وله حاشية عليه، وبعد الفراغ جالسته أدراجا فرأيت رجلا محبا لنا، قد نأسف كثيرا على عدم معرفته لنا قبل، والتقصير إنما وقع منا . وكتب بخطه في إجازتنا - وكان حسن الخط - ما نصه : بسم الله الرحمان الرحيم أما بعد ، حمدا لله على ما أولى من كل منه والصلاة والسلام على نبيه الهادي إليه بالكتاب والسنة وآله وصحبه الأخيار والتابعين لهم على الآثار، فإن العالم العامل والمجتهد الفاضل الكامل أخانا في الله تعالى سيدي محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي المغربي، رزقنا الله وإياه خير الدارين، يرغب ليلة عرضه على السفر إلى بلاده في أن أجيزه هو وشيخه الأستاذ النحرير والعلامة *536* الأوحد الشهير سيدي أبو العباس أحمد بن الحسن بن علي، حفيد العارف بالله تعالى الشيخ ابن ناصر نفعنا الله به، وما حمله على ذلك إلا حسن ظنه فيمن هنالك، وما درى أنه استسمن ذا ورم واستصرم فاقد ضرم ، وأن مثلي ليس من أهل هذا الشأن ولا من فرسان ذلك الميدان، لكن لما لزمتني طاعته ولم تسعني مخالفته، مع علمي بأن المُجيز قد يفضله المُجَاز، وأن البليغ يرتكب لغرض كما المَجاز، أجبته فقلت : أجزت الإمامين المذكورين بجميع ما تجوز لي روايته عن أشياخي معقولا ومنقولا ، وأن يروي عني ما تجوز عني روايته مما صنفته مع تقوى الله في ذلك كله والوفاء بأمانة العلم وحقه . وقد أخذت ولله الحمد عن جهابذة عظام وأساتذة فخام، منهم شيخنا الرحالة شيخنا شهاب الدين أحمد الملوي، وشيخنا العلامة حسن المدابغي، وشيخنا المحقق محمد العشماوي، وشيخنا القدوة محمد الحفناوي، وشيخنا الأوحد أحمد الجوهري، وشيخنا المتقي عطية الأجهوري، وشيخنا الفهامة علي الصعيدي، وشيخنا الألمعي حسن الجبرتي رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم أجمعين . وقد فصلت في ثبتي ما أخذته عنهم، ولكن ضيق الوقت داع إلى الاختصار والاقتصار على الإجمال .

1- محمد بن علي الصبان الشافعي ، عالم بالعربية والأدب ، توفي سنة 1206 هـ/ 1792 م. ترجم له: الكتاني، **فهرس**. . . ، 2/ 705 ، رقم 363 ؛ الزركلي، **الأعلام**، 6/ 297 .

ومما رويته عن شيخنا الملوي بقراءة البعض عليه وإجازته في الباقي: الكتب الستة و**الموطأ** للإمام مالك، و**الشفا** للقاضي عياض، و**الأربعون النووية**، و**الجامع الصغير** للجلال السيوطي، والحديث المسلسل بالأولية عن شيخنا الرحلة محدث الحجاز عبد الله بن سالم البصري، عن الشمس محمد بن العلا البابلي بأسانيده المعروفة . و**الشمائل** لأبي عيسى الترمذي عن شيخه البصري، عن عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري، عن النور علي بن محمد الأجهوري، عن الشهاب أحمد الرملي، عن شيخ الإسلام زكرياء بن محمد الأنصاري بسنده المعروف. و**مسند** الإمام الشافعي، و**مسند** الإمام أحمد بن حنبل عن شيخه البصري عن إبراهيم بن حسن الكردي الكوراني، عن صفي الدين بن محمد القُشاشي، عن الشمس محمد بن أحمد الرملي، عن شيخ الإسلام زكرياء بأسانيده المعروفة. والله أسأل أن يغفر لنا السر والعلن *537* ، ويصلح منا ما ظهر وما بطن ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين . كتبه الفقير راجي الغفران محمد بن علي الصبان الشافعي يوم الاثنين لعشر ليال بقين من ربيع الثاني سنة سبع وتسعين ومائة وألف، هـ .

ومنهم الشيخ عبد القادر بن محمد الأندلسي القرطبي المتولد بتونس، يقصده الناس بمصر لأخذ **دلائل الخيرات**، أخبرني عن سنه أنه ينيف على المائة والعشرين، أدرك الإمام الخرشي ومن في طبقته، قال : أخذت عنه قراءة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾[1] سبعا بوضع اليمنى على اليسرى على الصدر بعد صلاة العصر، على أن الذي أخذناه عن أشياخنا المغاربة، وهو طريق أسلافنا، وهو الذي في **أجوبة** الجد الإمام أبي عبد الله بن ناصر، عن الشيخ أبي العباس أحمد بن إبراهيم الأنصاري، قراءتها ثلاثا لا سبعا فانظر ذلك . وأخذ صاحب الترجمة على الإمام سيدي العربي التلمساني الأصل المصري الدار قراءة **دلائل الخيرات** .

لطيفة : كان هذا الإمام الجليل - أعني سيدي العربي المذكور- يرى النبيﷺ عيانا وجهارا. يحكى عنه أنه رأى النبي ﷺ يقظة، وقد خرج له

1 ـ الشرح :1.

من جدار بيته فقرأ عليه **دلائل الخيرات**: بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله، فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم، قل: وصلى الله أي بإثبات «الواو» لا بإسقاطها. ووجه هذا «الواو» بوجهين: أحدهما أنها عاطفة على مجرور «الباء» أي ابدأ بسم الله الرحمان الرحيم، وبصلى الله فيكون من قبيل عطف المفرد . والثاني إنما عاطفة جملة على جملة، وأورد عليه عدم تناسب المسندين والمسند إليهما. وأجيب بأنهما سيقا لغرض واحد، والجملتان إذا كانت كذلك لم يحتج فيهما لتناسب زائد على ذلك كما ذكر الزمخشري[1] في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] .

رجوع، وأخبرني صاحب الترجمة عن نفسه أن ورده من **دلائل الخيرات** كل يوم أيام شبابه أربعين مرة. قال: والآن لا أقدر ولا على ربع هذا العدد في اليوم، فسردت عليه أوائل **دلائل الخيرات**، وأجازني فيه، وفي قراءة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾[3] بعد العصر. ونص ما أمر الشيخ علي الونائي بكتبه بعد البسملة أما بعد: فقد أجزت شيخ الإسلام وعمدة الأنام محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي *538* المقدادي بقراءة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ سبعا عقب صلاة العصر حسبما أخذتها عن الشمس محمد الخرشي، وأجزته أيضا بقراءة **دلائل الخيرات** حسبما أخذته عن ولي الله تعالى الشيخ محمد العربي التلمساني، قال: وهو أخذه من طريق الباطن عن رسول الله ﷺ، وبطريق الظاهر عن الإمام أحمد بن محمد المالكي الشهير بالمجذوب، عن والده، عن جده، عن المؤلف سيدي محمد بن سليمان الجزولي قدس الله سره آمين .

وأجزته أيضا بالطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد العربي المتقدم، عن النخلي بسنده، وكان ذلك ضحى يوم الأربعاء السابع من ربيع الثاني سنة سبع وتسعين ومائة وألف، كتبه عنه بإذنه عبد القادر بن محمد الأندلسي.

قلت: وسألت صاحب الترجمة عن سنه سنة حج أبي العباس ابن ناصر حجه الأخير. فقال: سبحان الله اجتمعت به إذ ذاك وهو نازل بفندق بمصر

1 ـ الزمخشري، **الكشاف**. . .، 3/ 530.

2 ـ الأحزاب :47.

3 ـ الشرح :1.

وأنا شيخ. وهذا الرجل الآن متجرد من الأهل، منقطع عن الدنيا وأهلها بعد أن كان له ما يقرب من الأربعين من الأولاد فمات الجميع وبقي وحده، وأخذه بعض الناس وأنزله في بيت مفروش على باب داره يمونه لوجه الله كل يوم، بل يقري من جاءه للزيارة والأخذ .

وأغرب منه في الطعن في السن ما شاهدته بالقرب من منزله لما جئته للأخذ عنه، وذلك أني رأيت بالسكة في قفة عجوزا منتوفة الشعر، قد بلغت الغاية في النحافة والقصر والهرم، تقتضي العادة أنها أسن من هذا الرجل؛ والقصد بوضعها في القفة التعرض للعطاء . وأعجب من ذلك ما شاهدت بمكة المشرفة في المطاف من عجائز مكة وغيرهن من الأعراب، فسبحان من زاد في عمر من شاء، وأخذ في عمر من شاء، سبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه .

وممن اجتمعت به، وأجازني باللفظ ولم يتأت له الكتب، الشيخ المسن البركة أبو الحسن المغربي الإفريقي التونسي المالكي الأشعري الشاذلي شيخ رواق المغاربة بالأزهر، وحضرت درسه للتفسير بجامع أبي الذهب.

وممن لقيته بضريح الإمام الشافعي ليلة السبت لما بت به على عادة أهل مصر، ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم النمرسي المتقي، وله بعض دراية في الحديث النبوي . قرأت عليه الفاتحة، ودعا لي وأجازني .

وممن لقيته *539* الشيخ عبد الباسط الشافعي، وتذاكرنا مسائل علمية. ومنهم الشيخ عبد القادر بن عبد اللطيف الحسني الحنفي الطرابلسي الشامي المصري الدار، وكان والله فقيها صالحا، قرأ علي دراية **شمائل الترمذي** في مجالس برواق أهل الشام بالأزهر، واستجازني فأجزته إجازة عامة. ومنهم الشيخ علي بن عبد الرؤوف الحسني الونائي الشافعي، أخذ أيضا عني **الشمائل** دراية وقرأ علي أوائل الكتب واستجازني فأجزته . ومنهم الشيخ عبد العليم الضرير المالكي، كان والله آية في الصيام والقيام والأذكار، دعاني ضيفا لبيته مرارا واستجازني فأجزته . ومنهم الشيخ محمد بن يوسف حفيد الشيخ الحنفي، أدخلني بيت الشيخ الحنفي وهو جده لأمه، وزرت محل خلوته وعبادته، ومحل اجتماعه بالفقراء وأضافنا تقبل الله منه .

وممن لقيته الشيخ اللبان، وحضرت درسه بمسجد أبي الذهب واستجزته فأجازني ولم يكتب لضيق الوقت. ومنهم الشيخ محمد السقاط الفاسي الضرير، له رئاسة بعلم الظاهر والباطن يعتقد الناس فيه الولاية، وله أتباع يجتمع معهم على الذكر الخلوتي كل يوم بعد صلاة العصر، وربما أحيوا ليلهم به، حضرتهم يسردون حلية أبي نعيم، وكان والله واعظا. وشكوت إليه ما ابتليت به من مراعاة الميزان الشرعي الذي لا يخلو صاحبه من اعتراض على المنتسبين للطريقة في هذا الزمان، فقال: قال الإمام الشعراني: العلماء في دخولهم على الفقراء على ثلاثة أقسام: قسم ينتفع بدخوله عليهم وهو من دخل بغير ميزان وخرج كذلك. ومنهم من لا ينتفع وهو من دخل به وخرج به. ومنهم لا له ولا عليه وهو من دخل بغير ميزان وخرج به.

ولهذا الرجل حالة عجيبة في الذكر، تراه واقفا مرة جالسا أخرى، تعتريه فيه أحوال حتى يصير كالمجنون يتصبب عرقا، فسبحان من خلقهم واطلع على ضمائرهم وسرائرهم.

خاتمة في ذكر ما تتشوق إليه النفس من المهم من أخبار مصر والقاهرة والنيل والأهرام ونحو ذلك

قال الحافظ السيوطي في **حسن المحاضرة**: «ذكرت مصرِ في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعا[1] – يعني صراحة وتلويحا– نحو: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[2]، ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[3]. ولا يعلم بلد في أقطار الأرض أتى الله تعالى عليه في* 540* القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا تشهد له بالكرم غير مصر. وهذا هو الشام جعله الله تعالى بدوًا بالنسبة إلى مصر، فقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾[4]، فجعل الشام بدوًا؛ وسمى مصرَ مصرًا ومدينة، على أحد التأويلات في الآية.

وذكرت أيضا مصر في آثار كثيرة فيما بين مرفوع وموقوف، فمن المرفوع ما أخرج الطبراني مرفوعا: «إن مصر ستفتح فانجعوا[5] خيرها ولا تتخذوها دارا فإنه يساق إليها أقل الناس أعمارا»[6]. والحديث منكر جدا أورده ابن الجوزي في **الموضوعات**[7]»[8]، هـ.

1- السيوطي، **حسن المحاضرة**: 1/ 10 – 13.

2 الدخان: 26–25.

3 ـ يونس :93.

4 ـ يوسف :100

5- في **الموضوعات** «ستفتح بعدي فانزعوا».

6 ـ أخرجه الديلمي في **الفردوس بمأثور الخطاب** رقم 911، 1/ 237 ؛ وأبو بكر الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في مصر وأهلها، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي القاهرة، بيروت، سنة 1407، 10/ 64.

7- كتاب **الموضوعات** لأبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي(597–510هـ)، ضبط وتقديم وتحقيق عبد الرحمان محمد عثمان، الناشر محمد عبد المحسن، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة1، 1386/ 1966، 2/ 57.

8 ـ السيوطي، **حسن المحاضرة**: 1/ 10 – 13.

قلت: ومحمله على فرض صحته على أن مصر محل ترف ونزهة في الدنيا والدين، فمن دخلها صارت الجمعة عنده يوما، والشهر جمعة، والسنة شهرا، وذلك أنهم إن فرغوا من تجهيز الحاج وخروج المحمل تأهبوا لمجيء الباشا من إسطنبول، ثم منه لفيضان النيل ونحو ذلك من أيام الزينة. فلقد والله مكثنا به زهاء شهرين ونصفا فكأنما مكثنا به جمعة. وفي كلام البكري الآتي: «أن مصر تطول الأعمار»فانظره[1] . أو يقال معنى الحديث المتقدم ما علم من تعاقب الوباء على أهلها فيساق أقصر الناس أعمارا إليها، والله أعلم بغيبه.

ثم قال في **المحاضرة**: «وأخرج الديلمي في **مسند الفردوس** من حديث حذيفة مرفوعا: «يبدأ[2] في أطراف الأرض و مصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة، وخراب مصرمن جفاف النيل»[3] . وأخرج الخلال في **كرامات الأولياء** وابن عساكر في **تاريخه** عن علي مرفوعا قال: «النجباء بمصروالأبدال بالشام». وأخرج شرف الدين الدمياطي مرفوعا: «الجيزة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائن الله في أرضه»[4].

وروى عن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال: [خلقت][5] الدنيا على صورة الطير: فالرأس مكة والمدينة واليمن، والصدر الشام ومصر، والجناح الأيمن العراق، والأيسر السند والهند، والذنب المغرب. وشرما في الطير الذنب.

ويروى أن آدم عليه السلام دعا لمصر بالرحمة والخصب والبركة والرأفة مالم يتكبر ساكنها. وعن ابن عمر موقوفا: «البركة عشر بركات:

1- البكري، **المسالك**. . .، 2/ 59.

2- في **حسن المحاضرة** «يبدو».

3- **الفردوس بمأثور الخطاب**: 1/ 3؛ انظر كذلك: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لعبد الرؤوف المناوي (ت1031هـ)، المكتبة التجارية الكبرى مصر، الطبعة الأولى، 1356 هـ، 3/ 81.

4- قال السعقلاني: حديث موضوع هو كذب موضوع. انظر: **الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع** لأحمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، تحقيق أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1418 هـ، 1/ 97؛انظر كذلك: **كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس**، لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت 1162هـ)، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405 هـ، 1/ 405.

5- الزيادة من **حسن المحاضرة**.

ففي مصر تسع، وفي الأرض كلها واحدة. ولا تزال في مصر بركة أضعاف ما في جميع الأراضين». ويروى أن يوسف عليه السلام لما دخلها، وأقام بها قال: اللهم إني بها غريب فحببها *541* إلي وإلى كل غريب؛ فمضت دعوة يوسف، فليس يدخلها غريب إلا أحب المقام بها.

واعلم أن حدود إيالة مصر من جهة الشمال بحر الروم الذي بساحله الإسكندرية، ودمياط، ورشيد، وما يقابلها لجهة السودان، وهي أعلى النيل حيث تنتهي بلاد الصعيد، ومسافة ذلك ثلاثون مرحلة وهو إيالته طولا، وحده عرضا من مدينة برقة التي على ساحل البحر الرومي لنواحي الجبل الأخضر إلى أيلة التي على ساحل البحر القلزم، ومسافة ذلك عشرون مرحلة أو أكثر.

ومصر كما قيل: إقليم العجائب، ومعدن الغرائب؛ وكانت مدنا متقاربة على الشطين، كأنها مدينة واحدة، والبساتين خلف المدن متصلة كأنها بستان واحد، والمزارع من خلف البساتين، حتى قيل: إن الكتاب كان يصل من إسكندرية إلى أسوان في يوم واحد يتناوله قيم البساتين واحد إلى واحد. وقد دمر الله تلك المعالم، وطمس على تلك الأموال والمعادن.

وحكى أن المأمون لما دخل مصر، قال: قبح الله فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[1]، فلو رأى العراق! فقال له سعيد بن عفير: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[2] فما ظنك بشيء دمره الله هذا بقيته! فقال: ما قصدت يا سعيد. قال سعيد: ثم قلت: يا أمير المؤمنين، لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها، وكانت الأنهار بقناطير وجسور بتقدير؛ حتى إن الماء يجري من تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاؤوا ويرسلونه متى شاؤوا، وكانت البساتين لحافتي النيل من أوله إلى آخره من أسوان إلى الرشيد لا تنقطع؛ ولقد كانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى

1 ـ الزخرف: 50.

2 ـ الأعراف: 137.

خمار لكثرة الشجر ،[ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلئ بما يسقط فيه من الشجر][1] . قال : وأكثر ما يملك مصر الغرباء .

وأول مدينة اختطت بمصر هي مصر المنيف ، ويقال القديم . ولما فتحها عمرو بن العاص أمر المسلمين أن يختطوا[2] حول فسطاطه ، ففعلوا ، واتصلت العمارة بعضها ببعض ، وسمي مجموع ذلك: الفسطاط . ولم يزل مقر الولاية والجند إلى أن وليه أحمد بن طولون[3] ، فضاق بالجند والرعية ، فبنى في شرقيته*542* مدينة ، وسماها القطائع ، وأسكنها الجند . يقال مقدارها ميلا[4] في ميل . ولم تزل عامرة إلى أن هدمها محمد بن سليمان الكاتب في أيام المكتفي ، حنقا على بني طولون سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وأبقى جامع طولون ، الموجود عامرا إلى الآن .

ثم ملك العبيديون مصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، فبنى جوهر القائد مولى المعز مدينة في شرقي مدينة ابن طولون ، وسماها القاهرة ، وبنى فيها القصور لمولاه ، فصارت بعد ذلك دار المملكة ومقر الجند إلى الآن . وكان جوهر لما بنى القاهرة سماها المنصورة ، فلما قدم المعز سماها القاهرة؛ وذلك أن جوهرا لما قصد إقامة السور جمع المنجمين ، وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعا لرمي حجارته ، فجعلوا قوائم من خشب ، بين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس ، وأعلموا البنائين أنه ساعة تحريك الأجراس يرمون ما بأيديهم من الطين والحجارة ، فوقف المنجمون لتحرير هذه الساعة ، وأخذ الطالع ، فاتفق وقوع غراب على خشب من ذلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها ، فألقو ما بأيديهم من الطين والحجارة في الأساس ، فصاح المنجمون «لا لا القاهر في الطالع» ، فمضى ذلك ولم يتم لهم ما قصدوه؛ وكان الغرض أن يختاروا طالعا لا يخرج

1- ليس في **حسن المحاضرة** .

2- في **حسن المحاضرة** «يحيطوا» .

3- أحمد بن طولون والي مصر ، ولد سنة 214 أو 220 هـ ، وتوفي سنة 270هـ . انظر ترجمته في: **حسن المحاضرة** ، 1/ 514 - 516 ؛ **سيرة أحمد بن طولون** لأبي محمد عبد الله بن محمد المدني البلوي ، مطبعة الترقي ، دمشق ، 1358 هـ .

4- في خ «ميل» .

البلد عن نسلهم، فوقع أن المريخ كان في الطالع؛ وهو يسمى عند المنجمين القاهر؛ فعلموا أن الأتراك لا بد لهم أن يهلكوا هذه البلدة . فلما قدم المعز وأخبر بهذه القصة – وكانت له خبرة تامة بعلم التنجيم – وافقهم على ذلك وأن الترك تكون لهم الغلبة على هذه البلدة، فسماها القاهرة، وغير اسمها الأول .

ولما انقضت دولة العبيديين وملك المعز مصر سنة أربع وستين وخمسائة، بنى صلاح الدين يوسف بن أيوب سورا جامعا بين مصر و القاهرة ولم يتم؛ يبدأ من القلعة وينتهي إلى ساحل النيل . وطول هذا السور تسع وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع»[1].

وبالجملة فمصر بلد مبارك نزله من الأنبياء «باتفاق واختلاف، اثنان وثلاثون نبيا»[2] ونظم ذلك السيوطي فقال: «بزيادة أربع من النبوءاة : (من الوافر)

543 قَدْ حَلَّ مِصْرَ عَلَى مَا قَدْ رَوُوا زُمَرٌ مِنَ النَّبِيينَ زَادُوا مِصْرَ تَأْنِيسَا

فَهَاكَ يُوسُفَ وَالأَسْبَاطَ مَعَ أَبِيهِ وَحَافِدًا، وَخَلِيلَ اللهِ إِدْرِيسَا

لُوطًا وَأَيُوبَ ذَا الْقَرْنَيْنِ خِضْرَ سُلَيْمَانَ أَرْمِيَا يُوشُعَا هَارُونَ مَعَ مُوسَى

وَأُمَّهُ سَارَةَ لُقْمَانَ آسِيَةَ وَدَانْيَالَ شُعَيْبًا مَرْيَمَا عِيسَى

شِيتاً وَنُوحًا وَإِسْمَاعِيلَ قَدْ ذُكِرُوا لاَزَالَ مِنْ ذِكْرِهِمْ ذَا الْمِصْرُ مَأْنُوسَا

وبها من الصديقين ماشطة [ابنة][3] فرعون وابنها ومومن آل فرعون»[4] .

ودخله من الصحابة رضوان الله عليهم جم غفير. وقد وقفت بمصر في سنة حجنا، بعد قفولنا من الحرمين الشريفين، على تأليف الإمام محمد بن الربيع الجيزي في مجلد صغير ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا، وأورد فيه أحاديثهم، وما رواه أهل مصر عنهم . وزاد الحافظ السيوطي عليه فبلغ من

1- السيوطي، **حسن المحاضرة** : 1/ 17 – 26 . مع تقديم وتأخير .

2- السيوطي، **حسن المحاضرة** :1/ 55 .

3- الزيادة من م . **س** .

4- **ن** . م، 1/ 55 .

دخلها إلى ثلاثمائة صحابي تزيد قليلا[1] ، وسمى تأليفه **دار السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة**[2]، وأدرجه أيضا في **حسن المحاضرات**[3].

وقال البكري في **المسالك**: «ذكرأن عمر رضي الله عنه لما افتتح[4] البلاد من الشام والعراق ومصر كتب إلى بعض حكماء العصر ليكلمهم عن البلد[5] وتأثير أهويتها وتربتها في ساكنها، فكتب إليه- بعض أهل العلم بها- أما أرض مصر فهواؤها راكد وخيرها[6] مُتَزايد، تطول الأعمار، وتسوّدُ الأبشار، وتبلّد الفِطن، وتُذْكي الإحَن». ثم قال البكري: وذكر أن معاوية سأل عبد الله بن الكواء فقال: أخبرني عن أهل مصر؟ فقال: لقمة لأكل. وروى أن عمرو بن العاص قال: أهل مصر أعقل الناس صغارًا و أحمقهم كبارًا . وقال بعض الحكماء: أهل مصر أهل غفلة ولين وقلب فطن.

ولما أراد عمر ﷺ النهوض إلى العراق سأل كعب الأحبار عنها فقال: يا أمير المؤمنين، لما خلق الله الأشياء لحق كل شيء بشيء، فقال العقل: إني لاحق بالعراق، فقال العلم : وأنا معك. فقال المال: فإني لاحق بالشام، قالت الفتن: وأنا معك . قال الخصب: إني لاحق بمصر، قال الذل: وأنا معك. قال الشقاء: إني لاحق بالبوادي، قالت الصحة: وأنا معك»[7] .

وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى عمرو بن العاص: «إن أرضك أرض واسعة رفيعة وقد أعطى الله أهلها جلدا وقوة في بر وبحر، وعالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عندهم، فأكتب إلي بصفة أرض مصر حتى كأني أنظر *544* إليها . فكتب إليه: ورد كتاب أمير المؤمنين أدام الله تعالى بقاءه يسألني عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قَرْبة غبراء، وشجرة خضراء؛

1 - ن . م 1/ 148 .

2 - ن . م .

3 - ن . م .

4 - في **المسالك**، « استفتح البلاد من العراق والشام»، 2/ 59 .

5- في م . س « يسأله عن البلاد» .

6 في ن . م « وحرها» .

7 - البكري، **المسالك**. . . ، 2/ 61-59.

وطولها شهر، وعرضها عشر[1]؛ يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر؛ يَخُط وسطها نهر مبارك الغذوات، ميمون الرَّوْحات؛ تجري فيه الزيادة والنقصان[2] كجري[3] الشمس والقمر؛ له أوانٌ يدرّ حِلابه، ويكثر فيه ذُبابُه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصْلَخَمّ عجاجُه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخِفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل وُرْقُ الأصائل؛ فإذا تكامل في زيادته، نكص على عَقِبَيْهِ كأول ما بدأ في جِرْيَتِهِ، وطما في دِرَّته؛ فعند ذلك تخرج أهل ذمة مخفورة، وملة محقورة، يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحبَّ، يرجون النَّماء من الربّ؛ لغيرهم ما سَعَواْ من كدّهم، فناله منهم بغير جِدّهم؛ فإذا أحدق [الزرع][4] وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى؛ فبينما مصرُ يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فإذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة زرقاء[5]، فتبارك الله الخالق لما يشاء. والذي يُصلح هذه البلاد وينميها ويُقر قاطنيها فيها، ألا يَقبل قولُ خسيسها في رئيسها، وألا يُسْتأدَى خراجُ ثمرة إلا في أوانها، وأن يُصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها؛ فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع الأموال؛ والله تعالى يوفق أمير المؤمنين في المبدأ والمآل. فلما ورد الكتاب على عمر رضي الله عنه وقرأه، قال: لله درك يا ابن العاص! لقد وصفت لي خبرا كأني أشاهده»[6].

وذكر أن مصر مصورة في كتب الأوائل، وسائر المدن مادة إليها أيديها تستطعمها.

ومصر جعلها الله تعالى متوسطة الدنيا سالمة من الحر والبرد، فطاب هواؤها، وضعف حرها، وخف بردها، وسلم أهلها من مشاتي الجبال،

1- لعله يريد أن الماشي يقطعها طولا في شهر وعرضا في عشرة أيام.

2- في ح «النقص».

3- في خ «كمجاري».

4- ساقطة من ح..

5- في **النجوم الزاهرة** «رقشاء».

6- ينظر الخبر في **النجوم الزاهرة**، باب ما ورد في **نيل مصر**، 1/ 33.

ومصايف عمان، وحر[1] تهامة، ودماميل الجزيرة، وجرب اليمن، وطواعين الشام، وطحال[2] البحرين، وحمى خيبر، وأمنوا من غارات الترك والعرب وغيرهم، وأمنوا قحط الأمطار.

ففي كورها طرائف وعجائب، بصعيدها حجارة حجازية تنبت النخيل والأرك وغيرهما، وأسفلها أرض شامية تنبت ثمار *545* الشام من كرم وتين ولوز وجوز وسائر الفواكه والبقولة والرياحين؛ ويقع بها الثلج.

وكان أبو دلامة دخل مصر فلما رجع إلى العراق لقيه الحسن بن هاني فسأله عن صفة مصر فقال: ثلثها كلاب وثلثها تراب وثلثها دواب . قال وأين الناس؟ فقال : في الثلث الأول . وقال: والحسد في أهل مصر كثير، والجهل غالب عليهم. قيل: وليس في الدنيا بلد يأكل أهله صيد البحرين طريا غير أهل مصر، وليس في الدنيا شجرة إلا وهي بمصر، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها. ويوجد بمصر في كل وقت من المأكول والمأدوم والمشموم، وسائر البقول والخضر صيفا وشتاء لا ينقطع منه شيء ببرد أو حر. ومما خصت به عن سائر البلاد، معدن الزمرد .

وأهل مصر غالبهم ذليل يحمل الضيم، وسبب ذلك على ما قيل أن سعد بن أبي وقاص لما قدم إلى مصر رسولا في خلافة عثمان لقيه أهل مصر خارج الفُسطاط ومنعوه من دخولها، وقال لهم : فلتسمعوا مني ما أقول لكم، فامتنعوا عليه، فدعا عليهم بالذل . وكان سعد ممن عرف بإجابة[3] الدعوة، لأن النبي ﷺ دعا له : «اللهم استجب لسعد دعوته»[4] .

ومصر العتيق اليوم ليس بها إلا عمارة قليلة، وبينها وبين القاهرة ما يزيد على فرسخ لا عمارة به الآن، وبه آثار العمارة القديمة، والعامر اليوم هو

1- في **حسن المحاضرة** «صواعق». 2/ 292

2- في م . س «طلب » .

3- في خ «الإجابة».

4 ـ وقفت على الحديث في **المستدرك على الصحيحين** ، في كتاب المغازي والسراب رقم 4314ن 3/ 28 بخلاف في اللفظ ؛ وفي **المعجم الاوسط** للطبراني ، في كتاب فضائل الصحابة حديث رقم 4069، 4/ 235. ؛ وفي **كنز العمال** رقم 33335، 11/ 316.

القاهرة . وقد سأل عنها بعض الملوك بعض العلماء لما حج فقال له: أقول لك قولا وأختصر: من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس[1]، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيل، ومصر بخلاف ذلك، كلما تخيلت بها فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك . وسئل آخر عنها فقال : كان الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحد يسأل عن أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه .

قال الشيخ أبو سالم: «أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي، قال: من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشي في أزقتها وأسواقها على مهل وسكينة وتؤدة، في كل من تلقاه تراه مشمرا جادا في سيره إن راكبا فراكب وإن ماشيا فكذلك، وسبب ذلك أمران أحدهما : الرغبة والحرص المسكن في القلب، فيحمل الإنسان على أن لا يفوته شيء من أغراضه وهو يظن أنه لو توان في مشيه لفاته غرض، مع كثرة الأغراض وتزاحم *546* الاشتغال. والآخر: كثرة الزحام في الأسواق، فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما، فإذا خرجت فيه لآخر وجدته مثله أو أشد . وقد شاهدنا الناس في بعض الأسواق تارة يقفون هنيهة لا يقدر أحد أن يتحرك يمينا ولا شمالا من شدة الزحام، ربما رفع بعضهم صوته بالتكبير، فيكبرون حتى يظهر فيهم بعض تحرك فيندفعون مثل السيل . فسبحان خالقهم ورازقهم»[2]، هـ.

قلت: ومع كثرة الخلق فلا يفارق مصر في الغالب الوباء، فلقد قمنا بها بعد قفولنا من الحرمين ما ينيف على الشهرين ومع ذلك إن خرجت إلى الأزهر أو خرجت منه أو إلى غيره إما أن ألقى جنازة أو جنازتين أو أكثر، أوألقى حامل نعش يحمل ميتا أو راجعا من دفنه . وقد سألت الثقاة هل هذا وباء بمصر؟ فقال: لا والله ما هذا وباء، بل ولا أحس أحد يموت ولا المائة لليوم من كبر المدينة وكثرة عمارتها . وحدثني الثقة من أهل مصر، لما رأيت الجنازة كثيرة يؤتى بها للصلاة عليها بالأزهر في الأوقات المختلفة، أن سنة الله تعالى جرت بهذه البلدة أن الذي يظهر بالأزهر من الموتى العشر، وفي سائر المدينة تسعة أعشار .

1- ينظر: **الرحلة العياشية**، 1/ 123، نقلا عن ابن خلدون.

2 ـ العياشي، **الرحلة** : 1/ 122- 123.

قال: وجرب ذلك مرارا فصح؛ وسبب العلم بذلك أن الغاسلين والحاملين والحافرين معلومون بها، ولذلك نعلم عدد الألوف من الموتى التي تموت فيما بين اليوم والليلة بالوباء في أيامه، كيف وبها من الملل الثلاث : الحنيفية واليهودية والنصرانية؛ ومن المذاهب الصحيحة السنية : المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي مع ضعفه .

ومن الفاسدة: الزيدية والوهابية[1] والإمامية وغيرها، لكن لاظهور لأحد منها. ومن طرائق الصوفية بل المتصوفة: القادرية والرفاعية والسهروردية والشاذلية والأحمدية والبرهانية والنقشبندية والخلوتية والبكرية والوفائية والجزولية والزروقية والشناوية والعجمية والتشترية والمحمدية والغوشية وغير هذه ممن لا شهرة له كثير .

وفيها من الأجناس: أهل اليمن والحجاز والعراق والشام والهند والصين والسند والفرس والتكرور والإفرنج والروم والقبط والترك والبربر، وأهل المغرب على اختلاف أجناسهم، من عربي وعجمي وصحراوي وسوداني، وغير ذلك من أنواع العمران .

وفيها الممالك *547* بأنواعها الثلاث : الحبش والزنج والإفرنج، فلقد جمعت عددا كثيرا من كل نوع من هذه الأجناس، فكيف لا يكون فيها من الصالحين والأخيار عدد كثير، ولكن لقاهم رزق من الأرزاق، وقد قسم الله تعالى أرزاق العباد .

قال الشيخ أبو سالم نقلا عن ابن خلدون: «لا بد أن تشتمل مصر على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار، والأخرى في غاية الذل والاحتقار. وقد صدقوا مذ كان بها فرعون وملائه، فلم ينته أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[2]، وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض و﴿يُذَبِّحُ

1- أدرج المؤلف الوهابية ضمن المذاهب الفاسدة مما يدل على عدم تأثره بها رغم أنه من العلماء المدافعين على السنة والمحاربين للبدعة. انظر:عبد القادر العافية: «الاتجاه السلفي بالمغرب»، **دعوة الحق** عدد 240 سنة 1984 ص 73 .

2- النازعات: 24 .

﴿أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[1]. ثم لم تزل كذلك وأنها في زماننا، بل قبله في زمان لعلى مثل ذلك الوصف. فباشاواتها وصناجقها وولاتها وحكامها، بل وسائر جندها وعسكرها- فيما يظهر لنا- ليس فيهم إلا من أعماه حب الدنيا، وأصمه وختم على سمعه وقلبه، فلا يرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا، أينما بدأت لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها؛ إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله إما مع رقبته أو بدونها - إن كان في العمر فسحة - وإن كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته. وأما رعيتها وفلاحها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار: تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم، ولا مشتكى لهم إلا الله، ومن تجاسر منهم واشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم »[2] .

قلت: ولأجل هذه الحقيقة يكثر فيهم الطالحون ولأن نفوسهم ميتة قد تربوا على الذل والاحتقار. وقد زالت الرئاسة وحبها من قلوبهم، بل لم تسكنها قط ، فإذا وُفِّقَ أحدُهم لعَمَل الطَّاعة والتفت أدنى الالتفات لإصلاح حاله لم يبق مانعٌ بينه وبين ذلك، لأن أكبرالموانع وأعظم الآفات حب الرئاسة. وأخبار مصر، وظلم الولاة بها، وغش الباعة، وحيل المتسببين، ومكر العاملين أعظم من أن يحصى[3].

و بالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا لا يستغرب ما يحكى عنها من خير أو شر. يقول التاجر : ما رأيت مثل هذه البلدة في التجارة، فأهلها كلهم تجار. و يقول الفقيه مثل ذلك، والفقير مثل ذلك، وذو المجون مثله، وما ذاك إلا لكثرة أجناس الناس فيها، ومن طلب جنسا وجد فوق ما يظن، فيظن أن غالب أهل البلد كذلك. و أهلها لهم عقول راجحة، وذكاء زائد *548* فمن استعملها في الخير فاق فيه غيره، ومن استعملها في الشر فكذلك.

وأما النيل فلم يذكر في القرآن العزيز نهر من الأنهار سواه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ الآية[4]. وفي **الصحيح** عن أبي هريرة مرفوعا:

1 ـ القصص: 3 .

2 ـ العياشي، **الرحلة** : 1/ 121- 123 .

3- ينظر : م . س ، 1/ 122.

4 : القصص: 6.

«النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة»[1] . يحكى عن كعب الأحبار: «النيل نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر فيها، وسيحان نهر الماء، وجيحان نهر اللبن»[2] . ويروى عن عمرو بن العاص أنه قال: «نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المغرب والمشرق، فإذا أراد الله أن يجري نهر مصر أمر كل نهرأن يمده، فأمدته الأنهار بمياهها، ويحرك الله له الأرض عيونًا، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله تعالى، أوحى الله تعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره»[3].

ويروى: «أن النيل أنزله الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة، ويرفع بعد خروج ياجوج وماجوج معه من أنهار الجنة التي في الدنيا كدجلة»[4] على قول. ويروى أن انبعات النيل من جبل القمر وراء خط الإستواء من عين تجري منها عشرة أنهار[5]. ومسافة النيل من منبعه إلى رشيد سبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخا، وقيل إنه يجري في الخراب أربعة أشهر، وفي بلاد السودان شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرا؛ وليس في الأرض نهر يجري حين تنقص الأنهار غيره، وذلك أن زيارته تكون في القيض الشديد، وقال قوم أن زيادته تكون بثلوج يذيبها الصيف وعلى حسبها تكون قلته وكثرته، وذهب آخرون إلى أن زيادته بحسب أمطار كثيرة تكون ببلد الحبشة . قال السيوطي : «هو الظاهر». وذهب آخرون إلى أن زيادته عن اختلاف الريح، وقيل: زيادته من عيون على شاطئه، وقيل : مجراه من جبال الثلج وهي بجبال قاف، وأنه يخرق البحر الأخضر، ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد والمرجان . قالوا : ولولا دخوله في البحر المالح

1 ـ أخرجه مسلم في **صحيحه** في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة ، بلفظ: « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » الحديث 28394/ 2183.

2- ينظر : **فتح الباري**، 7/ 216 .

3 ـ ينظر النص في **تفسير ابن كثير**، سورة الدخان، الآيتان 17- 4، 33/ 142.

4- ينظر النص في **الدر المنثور** للسيوطي، 6/ 95 ؛ وفي **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها** لأبي عمر وعثمان بن سعيد المقرئ الداني (ت 444هـ) ، تحقيق : ضياء الله بن محمد ادريس المباركفوري دار العاصمة، الرياض، الطبعة الاولى، 1416. 6/ 1218 ؛ وفي **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 57 .

5 ـ منبع النيل من بحيرة فكتوريا.

وما يختلط به منه لما استطاع أحد شربه لشدة حلاوته . وقال قوم : لا يعلم ذلك إلا الله . وزيادته ونقصه بتدريج في زمان مخصوص، ومنتهى زيادته التي يحصل بها الري لأرض مصر ستة عشر ذراعا، وبها يستحق السلطان الخراج . والغاية القصوى في الزيادة ثمانية عشر ذراعا، هذا *549* في مقياس مصر، فإذا انتهى فيه إلى ذلك كان في الصعيد الأعلى اثنين وعشرين ذراعا لارتفاع البقاع التي يمر عليها، قالوا: وإذا بلغ ثمانية عشر ذراعا، يحدث بمصر وباء عظيم فإذا بلغ عشرين ذراعا مات ملك مصر.

واتفق العلماء على أن النيل أشرف الأنهار لعموم نفعه، فإنه لا يعلم نهر من الأنهار في جميع الأرض المعمورة يسقي ما يسقيه النيل وللاكتفاء بسقيته، ولأن ماءه أصلح المياه وأعدلها وأعذبها وأفضلها، ولمخالفته لجميع أنهار الأرض في خصال هي منافع فيه مضار في غيره، ولأنه لا يضر في أوان طغيانه بإفساد ما يليه نقص لما يجاوره، ولأن المعهود في سائر الأنهار أن يأتي من جهة المشرق إلى المغرب، وهو يأتي من جهة المغرب إلى الشمال. قال الشاعر : (مجزوء البسيط)

مِصْرَ وَمِصْرَ مَاؤهَا عَجِيبْ وَنَهْرُهَا يَجْرِي بِهِ الجَنُوبْ[1]

قلت: دليل المشاهدة يرده، فمن الأنهار ما يجري من المغرب إلى المشرق وبالعكس، ومنها الجاري من المغرب إلى الجنوب وبالعكس، ومنها غير ذلك؛ فإن عنى أن الكثير من الأنهار تجري من المشرق إلى المغرب والنيل من الأنهار الخارجة عن ذلك فربما يصح ذلك، والله تعالى أعلم بغيبه . ثم قال: ولأنه لا يوقف له على أصل منبع بخلاف غيره من الأنهار؛ ولقد أكثر الشعراء من ضرب الأمثال به واللقاء من الخصبة به. وأول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام، ثم جرت بعده مقاييس كثيرة في أماكن مختلفة، والذي شاهدناه اليوم يعبر إليه من مصر العتيق في جزيرة مقابلة للجيزة .

وأما عجائب النيل ومصر والأهرامات فلا يسعنا التعرض ولا لعشر معشار أخبارها، ولنقتصر على ما لا بد منه من خبر الأهرام . ففي حسن

1- السيوطي، **حسن المحاضرة**، 2/ 317

المحاضرة : «قال الجاحظ وغيره: عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة: عشر منها لسائر البلاد[1]، والباقي لمصر، منها: الهرمان؛ وهما أطول بناء وأعجبه، ليس على الأرض بناء أطول منهما، وإذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان؛ ولذلك قال بعض من رآهما : ليس شيء إلا وأنا أرحمه من الدهر إلا الهرمان، فأنا أرحم الدهر منهما»[2].

«قال ابن عبد الحكم : في زمن شداد بن عاد بنيت الأهرام، وليس في ذلك خبر ثابت. قال الشاعر : (من الكامل)

*550 حَسرَتْ عُقُولُ أُوْلي[3] النّهَى اَلأَهْرَام	وَاسْتَصْغَرَتْ لعَظَيمِهَا اَلأَحْلاَمُ
مَلسَ مَنْبَقةِ الْبنَاَءِ شَوَاهِقَ	قَصُرَتْ لعَاَلِ دُونَهُنَّ سِهَامُ
لَمْ أَدْرِ حِينَ كَبَا التَّفَكُّرُ دُونَهَا	وَاسْتَوْهَمَتْ لعَجيبِهَا الأَوْهَامُ
أَقُبُورُ أَمْلاَك اَلأَعَاجِمِ هُنَّ أَمْ	طَلسَمُ رَمْلِ كُنَّ أَمْ أَعْلاَمُ؟

قال: ولا أحسب الأهرام بنيت إلا قبل الطوفان، لأنها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس. وقيل: بانيها أحد ملوك مصر قبل الطوفان بثلاثمائة سنة؛ وسبب ذلك أنه رأى في منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس هاربون على وجوههم، وكأن الكواكب تساقطت، ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة، فأغمه ذلك وكتمه. ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صور طيور بيض، وكأنها تخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة؛ فانتبه مذعورا، فجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر- وكانوا مائة وثلاثين كاهنا- فأخذوا ارتفاع الكواكب، فأخبروا بأمر الطوفان. قال: أويلحق بلادنا؟ قالوا: نعم، وتخرب وتبقى عدة سنين. فأمر عند ذلك بعمل

1- وهي: مسجد دمشق، وكنيسة الرها، وقنطرة سنجة، وقصر غمدان، وكنيسة رومية، وصنم الزيتون، وإيوان كسرى بالمدائن، وبيت الريح بتدمر، والخورنق بالحيرة، والثلاثة أحجار ببعلبك. انظر: السيوطي، **حسن المحاضرة**، 1/ 62 - 65.

2 - م. س، 1/ 62 ؛ ذكر المقريزي هذه العجائب في **المواعظ**...، مع اختلاف في تفاصيلها، 1/ 48 - 63.

3- في خ «ذوي».

الأهرام، وأمر بأن يعمل لها مساريب يدخل فيها النيل إلى مكان بعينه، ثم يفيض إلى مواضع، وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وخزائن وغير ذلك»[1] . ولما فرغ من بنائها كساها ديباجا ملونا من فوق إلى أسفل، وعمل لها عيدا حضره أهل مملكته ونقش عليها أنه تُمِّمَ بناؤها في ست سنين فليهدمنها من شاء في ستمائة سنة[2] .

ويروى أنه بنى في ألف يوم فليهدمه من شاء في ألف سنة إن قدر، وقد علم أن الهدم أيسر من البناء وأنه كساها الديباج فليلبسها غيره بالحصى إن قدر. وقصده بناء الأهرام الهروب من الطوفان والنجاة بها وهو بعيد، لأنها ليست شبيهة بالمساكن .

«ولما دخل الخليفة المأمون مصر، ورأى الأهرام، أحب أن يعلم ما فيها، فأراد فتحها، فقيل له: إنك لا تقدر على ذلك، فقال: لا بد من فتح شيء منها، ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد وخل يرش وحدادين *551* يحدون الحديد ويحمونه، ومجانيق يرمى بها . وأنفق عليها مالا عظيما حتى انفتحت، فوجد عرض الحائط عشرين ذراعا؛ فلما انتهوا إلى آخر الحائط ، وجدوا خلف النقب مطمرة من زبرجد أخضر، فيها ألف دينار، وزن كل دينار أوقية من أواقينا؛ فتعجبوا من ذلك، ولم يعرفوا معناه . فقال المأمون: ارفعوا إلي حساب ما أنفقتم على فتحها، فرفعوه؛ فإذا هو قدر الذي وجدوه، لا يزيد ولا ينقص.

ووجدوا كتابة مرقومة إذا فيها: سيفتح هذا الهرم من هذا المكان على يد خليفة من خلفاء مصر ويصرف عليه كذا وكذا من المال فإذا دخلتموه فخذوا المقدار الذي صرفتموه لا يزيد ولا ينقص وارجعوا لا تهلكوا . ووجدوا في داخله بئرا مربعة، في تربيعها[أربعة][3] أبواب، يفضي كل باب منها إلى بيت فيه أموات بأكفانهم، ووجدوا في رأس الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر، وفيه صنم كالآدمي من الدهنج - كجعفر- جوهر كالزمرد وفي وسطه إنسان

1- السيوطي، حسن المحاضرة : 1/ 61 .

2- م . س بتصرف .

3- ساقطة من النسخ والزيادة من حسن المحاضرة .

عليه درع من ذهب مرصع بالجواهر، وعلى صدره سيف لا قيمة له، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة له ضوء كضوء النهار، وعليه كتابة بقلم الطير، ولم يعلم أحد في الدنيا ما هي . ولما فتحه المأمون، أقام الناس سنين يدخلونه وينزلون فيه، فمنهم من يسلم، ومنهم من يموت .

وقال صاحب **المرآة** : من عجائب مصر الهرمان، وسمك كل واحد منهما خمسمائة ذراع في الارتفاع مثلها، كلما ارتفع البناء دق رأسهما حتى يصير مثل مفرش حصير، وهما من المرمر، وعليها جميع الأقلام السبعة: اليونانية، والعبرانية، والسريانية، والهندية، والحميرية، والرومية، والفارسية . قال: وحكى جدي عن ابن المناوي أنه قال : حسبوا خراج الدنيا مرارا فلم يف بهدمها . وهو وهم؛ فإن صلاح الدين أمر بأن يؤخذ منها حجارة فبنى بها قنطرة وجسرا، فهدموا منها شيئا كثيرا. قال: وحكى لي من دخل الهرم المفتوح، أنه وجد فيه قبرا، وأن فيه مهالك، وربما خرج الإنسان في سراديب إلى الفيوم . قال: والظاهر أنها قبور الملوك الأوائل، وعليها أسماؤهم وأسرار الفلك والسحر وغير ذلك . قال: واختلفوا فيمن بنى الأهرام، فقيل : إدريس، وقيل : يوسف، وقيل : نمرود، وقيل: دلوكة الملكة، وقيل: القبط قبل الطوفان، وكانوا يرون أنها مأمن، فنقلوا ذخائرهم إليها، فما أغنى عنهم شيئا .

وحكى *552* أن بعض من يعرف لسان اليونان حل بعض الأقلام التي عليها، فإذا هي: بنى هذان الهرمان، والنسرالواقع في السرطان . قال: ومن ذلك الوقت إلى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ستة وثلاثون ألف سنة، ولا يعرفه أحد . قال: ولما ملك أحمد بن طولون مصر، حفر على أبواب الأهرام فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوبا عليها سطورا باليونانية، فأحضر من يعرف ذلك القلم، فإذا هي أبيات شعر، فترجمت فكان فيها : (من الطويل)

أَنَا مَنْ بَنَى الأَهْرَام في مِصْرَ كُلِّهَا ... وَمَالِكهَا قُدُماً بِهَا وَالْمَقْدَمُ
تُرِكَتْ بِهَا آثَارُ عِلْمِيَ وَحِكْمَتِي ... عَلَى الدَّهْرِ لاَتُبْلَى وَلاَ تَنْثَلِمُ

وَفِيهَا كُنُوزٌ جَمَّـــةٌ وَعَجَائِـــبُ | وَالدَّهْـرُ لَيِّنٌ مَـــرَّةً وَتَهَـجُّـمُ
وَفِيهَا عُلُومِي كُلُّهَـا غَيْـرَ أَنَّـــنِي | أَرَى قَبْـلَ هَــذَا أَنْ أَمُـوتَ فَتَعْـمُّ
سَتُفْتَحُ أَقْفَـالِي، وَتَبْـدُو عَـجَائِـبِي | وَفِـي لَيْلَـةٍ فِـي آخِـرِ الدَّهْـرِ تَنْجُـمُ
ثَمَـــانِ وَتِسْـعٍ وَاثْنَتَا وَأَرْبَـــعَ | وَسَبْعُـونَ مِـنْ بَعْـدِ الْمِئِيـنَ فَتَسْلَـمُ
وَمِـنْ بَعْـدِ هَـذا جُزْءُ تِسْعِينَ بُرْهَـةً | وَتُلْقَـى الْبَـرَابِي فِـي صَخْرِهَا وَتُهْدَمُ
تَدَبَّرُ فِعَالِي فِـي صُخُـورٍ قَطَعْتُهَـا | سَتَبْقَـى، وَأَفْتَنِـى قَبْلُهَـا ثُـمَّ تَعْـدَمُ

فجمع ابن طولون الحكماء، وأمرهم بحساب هذه المدة، فلم يقدروا على تحقيق ذلك، فبئس من فتحها.

وهي أهرام كثيرة أعظمها الهرمان اللذان بجيزة مصر وأحدهما هو الذي فتح المأمون، وكل هرم منها مربع القاعدة مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعا، تحيط به أربعة سطوح متساوية الأضلاع؛ كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا، ويرتفع إلى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع في مثلها. ويقال إنه كان عليه حجر شبه المكبة، فدمرته عواصف الرياح[1]، وهو مع هذا العظيم؛ لم يتأثر إلى الآن بالرياح، والأمطار، والزلازل، وليس بين حجارته ملاط إلا ما يتخيل أنه ثوب أبيض فرش بين حجرين، أو رقة، وطول الحجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين. ولما فتحه المأمون، نقر في الزلاقة حفرا يتمسك الصاعد والنازل بتلك الحفر، ويستعين بها على المشي في الزلاقة لئلا يزلق .

ويحكى أن الصائبة تأتي فيحج الواحد - من الهرمين الكبيرين- وتزور الآخر، ولا تبلغ به مبلغ الأول في التعظيم . ودخل جماعة في أيام أحمد بن طولون الهرم الكبير، فوجدوا *553* في أحد بيوته جامًا من زجاج غريب اللون والتكوين، فحين خرجوا فقدوا منهم واحدا، فدخلوا في طلبه فخرج إليهم عريانا وهو يضحك، وقال: لا تتعبوا في طلبي . ورجع هاربا إلى داخل الهرم، فعلموا أن الجن استهوته، فمنع ابن طولون الناس من الدخول وأخذ منهم إلجاما، فملأه ماءً، ووزنه ثم صب ذلك الماء ووزنه؛ فكان وزنه ملآنا كوزنه وهو فارغ .

1- في **حسن المحاضرة** «فرمته الرياح العواصف».

وقيل: إن الروحاني الموكل بالهرم البحري في صفة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، ولها ذوائب إلى الأرض، وقد رآها جماعة وهي تدور حول الهرم وقت القائلة[1]، والموكل بالهرم الثالث في صورة شيخ في يده مبخرة وعليه ثياب الرهبان، وقد رئي يدور ليلا حول الهرم حكى ذلك صاحب **المرآة** . فقال : الهرمان–الكبيران– فرقدًا الأرض، وكل شيء يخشى عليه من الدهر إلا الهرمان؛ فإنه يخشى على الدهر منهما.

قال الشاعر : (من الطويل)

خَلِيلِيَّ مَا تَحْتَ السَّمَاءِ بِنْيَةٌ ... تَمَاثِلُ فِي إِتْقَانِهَا هَرَمِي مِصْرِ
بِنَاءً يَخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ، وَكُلُّ مَا ... عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ
تَنَزَّهَ طَرْفِي فِي بَدِيعِ بِنَائِهَا ... وَلَمْ يَتَنَزَّهْ فِي الْمُرَادِ بِهَا فِكْرِي

وقال الآخر: (من الطويل)

بِعَيْشِكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَحْسَنَ مَنْظَرًا ... عَلَى طُولِ مَا عَايَنْتَ مِنْ هَرَمَيْ مِصْر
أَنَافَا بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا ... عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ عَلَى النَّسِيرِ
وَقَدْ وَافَيَا نَشْزًا مِنَ الأَرْضِ عَالِيًا ... كَأَنَّهُمَا نَهْدَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ[2]

وقال الآخر : (من الكامل)

إِنْ جُزْتَ بِالْهَرَمَيْنِ قُلْ كَمْ فِيهِمَا ... مِنْ عِبْرَةٍ لِلْعَاقِلِ الْمُتَأَمِّلِ
شَبَّهْتُ كُلًّا مِنْهُمَا بِمُسَافِرٍ ... عَرَفَ الْمَحَلَّ فَبَاتَ دُونَ الْمَنْزِلِ
أَوْ عَاشِقَيْنِ وَشَى بِوَصْلِهِمَا أَبُو ... الْهَوْلِ الرَّقِيبُ فَخَلْفَاهُ بِمَعْزِلِ
أَوْ حَائِرَيْنِ اسْتَهْدَيَا نَجْمَ السَّمَا ... فَهَدَاهُمَا بِضِيَائِهِ الْمُتَهَلِّلِ
أَوْ ظَامِئَيْنِ اسْتَسْقَيَا صَوْبَ الْحَيَا ... فَسَقَاهُمَا عَذْبًا رَوَى الْمَنْهَلِ
يُفْنِي الزَّمَانَ وَفِي حَشَاهُ مِنْهُمَا ... غَيْظُ الْحَسُودِ وَضَجْرَةُ الْمُسْتَثْقِلِ»[3]

1– في **حسن المحاضرة** «القيلولة» .

2– الأبيات لأمية بن عبد العزيز الأندلسي أبو الصلت. انظر: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** لأحمد بن أحمد القري، حققه د. إحسان عباس، بيروت، طبعة جديدة، 1997، ج1/ 398.

3– **حسن المحاضرة** : ج1/ 60 – 64 . مع تقديم وتأخير.

قلت: ذهبت إلى الهرمين الكبيرين في جماعة من الحجاج فلم يقدر أحد أن يتجرأ على الدخول في الزلاقة التي فتح المأمون. وأخبرني الثقة أنه صعد على ظهر أحدهما بحيلة حتى علا سطحه وقرأ فيه **دلائل الخيرات** . ومقدار سطحه على ما قال تبلغ أربعة من الجالسين، وذلك أن الهرم واسع من أسفل ضيق من أعلاه على هيئة الخباء الذي له عمود واحد، مع مزيد غرابة البناء وهو مربع *554* أينما تكلف اللبيب من الناهل الصعود إلى أعلاه، صعد متثبتا في الأحجار بيديه ورجليه حتى يخلص إلى أعلاه، ولا يتأتى ذلك إلا في يوم ساكن من الريح، ومع ذلك فهو على حصر في بدنه مما يعتريه من المبيد .

«أما أبو الهول[1] المذكور في الأبيات السالفة فهو صنم بقرب الهرم الكبير في وهدة منخفضة، وعنقه أشبه شيء برأس راهب حبشي، على وجهه صباغ أحمر، لم يحل على طول الأزمان؛ يقال أنه طلسم يمنع الرمل عن المزارع». ذكره في **حسن المحاضرة**[2]. وقد شاهدناه والعامة اليوم يقولون أنها صورة فرعون، وربنا أعلم.

1- هو بلهويد، ويقال: بلهنيت، ويسميه العامة أبا الهول، ويقال : إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على الجيزة. انظر : السيوطي، **حسن المحاضرة**، 1/ 62

2 ـ م . **س** .

فـــصـــل

«اعلم أنه من حين فتحت مصر لم يكن بها مسجد دمره الله تقام فيه الجمعة سوى جامع عمرو بن العاص، إلى أن قدم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس من العراق في طلب مروان الحمار[1] سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فنزل عسكره في شمالي الفسطاط وبنوا هنالك الأبنية، فسمى ذلك الموضع بالعسكر، وأقيمت به[2] الجمعة في مسجد فصارت الجمعة تقام بجامع عمرو وبجامع العسكر إلى أن بنى السلطان أحمد بن طولون جامعه حين بنى القطائع، فأبطلت الجمعة من جامع العسكر، وصارت تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون إلى أن قدم جوهر القائد، واختط القاهرة، وبنى الجامع الأزهر في سنة ستين وثلاثمائة، فصارت الجمعة تقام بثلاثة جوامع .

ثم أن العزيز بالله بنى في ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح مسجدا يعرف اليوم بجامع الحاكم سنة ثمانين وثلاثمائة، وأكمله ابنه الحاكم ، ثم بنى جامع المقس وجامع راشدة، فكانت الجمعة تقام بهذه السنة إلى أن انقضت دولة العبيديين في سنة سبع وستين وخمسمائة، فبطلت الجمعة من الجامع الأزهر، وبقيت فيما عداه.

فلما كانت الدولة التركية أحدثت عدة جوامع، فبني في زمن الظاهر بيبرس[3] جامع بالحسينية في سنة تسع وستين؛ ثم بنى الناصر بن قلاوون الجامع الجديد بمصر في سنة اثنتي عشر وسبعمائة، وبنى أمراؤه وكتابه في

---

1 ـ مروان الحمار، أبو عبد الله بن محمد بن مروان بن الحكم، آخر ملوك بني أمية . كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه، يصبر على مكاره الحروب، ويقال في المثل : فلان أصبر من حمار في الحروب، فلذلك لقب به .انظر : السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان الطبعة الاولى 1408/ 1988، ص205 .

2– في **حسن المحاضرة** «هناك» .

3– الملك الظاهر بيبرس العلائي، قائد شهير، تولى سلطنة مصر والشام سنة 608 هـ . له وقائع مع التتار والإفرنج . توفي بدمشق سنة 676 هـ . انظر ترجمته في السيوطي، **حسن المحاضرة** 2/ 95 ؛ **فوات الوفيات** 1/ 235 .

أيامه نحو ثلاثين جامعا، وكثرت في هذا القرن وما بعده إلى الآن؛ فلعلها الآن؛ في مصر والقاهرة أكثر من مائتي جامع» . قاله في **حسن المحاضرة**[1] .

قلت: والذي شاهدناه نحن من المساجد الجامعة بمصر في وقتنا هذا أكثر من ذلك بأضعاف مضاعفة، ولنقتصر على جامع عمرو وابن طولون والأزهر والمشهد الحسني ومسجد الحاكم والمؤيد وحسن *555* وجامع القلعة والمارستان .

فأما جامع عمرو فهو العتيق يعرف في الصدر الأول بتاج الجوامع، وبني سنة إحدى وعشرين، وكان طوله إذ ذاك خمسين ذراعا في عرض ثلاثين. ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون من الصحابة، منهم الزبير ابن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو ذر وأبو بصرة وعقبة بن عامر وآخرين. ويقال إن قبلته كانت مشرقة جدا، وإن قرة بن شريك لما هدم المسجد وبناه في زمن الوليد تيامنا قليلا، وإن الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة كانا يتيامنان إذا صليا فيه؛ ولم يكن للمسجد الذي بناه عمرو محراب مجوف، وإنما قرة بن شريك هو الذي جعل المحراب المجوف. وأول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ عامل الوليد على المدينة حين هدم المسجد النبوي، وزاد فيه .

وأول من زاد في جامع عمرو، مسلمة بن مخلد، وهو أمير مصر سنة ثلاث وخمسين ، شكا الناس إليه ضيق المسجد، فكتب إلى معاوية، فكتب معاوية إليه يأمره بالزيادة فيه، فزاد فيه من بحرية، وجعل له وجهة من البحر وبيضه وزخرفه، ولم يغير البناء القديم، ولا أحدث في قبلته ولا غير شيئا. وكان عمرو قد اتخذ منبرا، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعزم عليه في كسره: أما بحسبك أن تقوم قائما، والمسلمون جلوس تحت عقبيك ! فكسره .

وذكر أنه زاد من شرقيه حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو بن العاص وفرشه بالحصير، وكان مفروشا بالحصباء . وقيل : إن مسلمة نقض

---

1 ـ السيوطي، **حسن المحاضرة** : 2/ 207 .

جميع ما كان عمرو بن العاص بناه، وزاده فيه من شرقيه، وبنى فيه أربع صوامع في أركانه الأربعة برسم الأذان، ثم هدمه عبد العزيز بن مروان أيام إمارته بمصر في سنة تسع [وسبعين، ثم في تسع][1] وثمانين أمر الوليد نائبه بمصر برفع سقفه وكان مطأطأ، ثم هدمه قرة بن شريك بأمر الوليد سنة اثنتين وتسعين وبناه، ونصب فيه المنبر الجديد، وعمل فيه المحراب المجوف، وعمل للجامع أربعة أبواب، ولم يكن له قبل إلا بابان، وبنى فيه بيت مال المسلمين، ثم زاد فيه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو يومئذ أمير من قبل السفاح، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فأدخل فيه دار الزبير ابن العوام، وأحدث له بابا خامسا.

ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشمي، وهو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد سنة خمس وسبعين *556* ومائة، ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر بن الحسين – وهو أمير مصر من قبل المأمون – سنة اثني عشر ومائتين، فتكامل ذرع الجامع مائتين وتسعين ذراعا بذراع العمل طولا في مائة وخمسين عرضا . ويقال إن ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك سوى الأزقة المحيطة بجوانبه الثلاثة، ونصب عبد الله بن ظاهر اللوح الأخضر، فلما احترق المسجد احترق ذلك اللوح، فجعل أحمد بن محمد العجيفي هذا اللوح مكانه، وهو الباقي إلى اليوم . ولما تولى الحارث بن مسكين القضاء من قبل المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، أمر ببناء هذه الرحبة فتنفع الناس بها، وبلط زيادة بن طاهر، وأصلح السقف .

ثم زاد فيه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع صاحب الخراج في أيام المستعصم في سنة ثمان وخمسين ومائتين . ثم وقع في مؤخر الجامع حريق في ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، فأمر خمارويه ابن أحمد بن طولون بعمارته على يد العجيفي، فأعيد على ما كان، وانفق فيه ستة آلاف وأربعمائة دينار، وزاد فيه أبو حفص العباسي أيام نظره في قضاء مصر الغرفة التي يؤذن فيها المؤذنون في السطح سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخازن رواقا مقداره تسعة أذرع

1- سقط من النسخ والزيادة من **حسن المحاضرة**.

سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، ومات قبل إتمامه فأتمه ابنه علي، ثم بنى فيه يعقوب بن كلس بأمر العزيز بالله الفوارة التي تحت قبة بيت المال، وهو أول من عمل فيه فوارة .

وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة بيض المسجد، ونقشت ألواحه وذهبت، وعمل فيه تنور يوقد كل ليلة جمعة. وفي سنة ثلاث وأربعمائة أنزل إليه من القصر بألف ومائتين وتسعين مصحفاً في ربعات، فيها ما هو مكتوب بالذهب كله، ومُكِن الناس من القراءة فيها، وأنزل إليه تنور من فضة استعمله الحاكم، فيه مائة ألف درهم فضة، فاجتمع الناس، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبة الجامع حتى أدخل فيه . ثم في أيام المستنصر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة زيد في المقصورة في شرقيها وغربيها، وعملت[1] منطقة فضة في صدر المحراب الكبير، وجعل لعمودي المحراب أطواق من فضة، ثم أزاله السلطان صلاح الدين بن أيوب.

وفي سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، عمل مقصورة خشب ومحراب ساج منقوش بعمودي صندل برسم الخليفة، تنصب *557* له في زمن الصيف وتقلع في زمن الشتاء إذا صلى الإمام في المقصورة الكبيرة . وفي سنة أربع وستين وخمسمائة تمكن الفرنج من ديار مصر، وحكموا في القاهرة حكما جائرا، فتشعث المسجد[2]، فلما استبد السلطان صلاح الدين جدده في سنة ثمان وستين وخمسمائة، وعمر المنظرة التي تحت المئذنة، وجعل لها سقاية . ولما تولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء الديار المصرية أصلح ما مال منه، وهدم ما به من الغرف المحدثة، وجمع أرباب الخبرة، واتفق الرأي على إبطال جواز الماء إلى الفسقية، وكان الماء يصل إليها من بحر النيل، فأمر بإبطاله لما كان فيه من الضرر على جدار الجامع . وجليت العمد كلها، وبيض الجامع سنة ست وستين وستمائة، ثم جدد في أيام المنصور قلاوون سنة سبع وثمانين وستمائة، ولما حدثت الزلزلة في سنة اثنتين وسبعمائة تشعث الجامع فجدده سلار نائب السلطنة.

1- في خ «عمل» .

2- في **حسن المحاضرة** «الجامع» .

ثم تشعث في أيام الظاهر برقوق، فعمره الزبير برهان الدين إبراهيم ابن عمر المحلي رئيس التجار، وأزال اللوح الأخضر، وجدد لوحا آخر بدله وهو الموجود الآن، وانتهت عمارته في سنة أربع وثمانمائة.

وقال ابن المتوج: ذرع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذراع البز المصري القديم، وهو بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع.

قلت: وفيه نظر، ويمكن أن يرفع ذرع جميع جوانبه الأربعة يعني دائرة وفيه بعد. ثم قال: «وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا. ولم يصل فيه العيد أصلا حتى كانت سنة ست وثلاثمائة، صلى فيه علي بن أحمد بن عبد الملك الفهمي صلاة الفطر، وخطب من دفتر نظرا، وحفظ عنه أنه قال: «اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مشركون»[1]. فقال بعض الشعراء: (السريع)

وَقَامَ فِي النَّاسِ لَنَا خَطِيبًا ... فَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى الْكُفْرِ

وذكر بعضهم أنه كان يوقد في الجامع العتيق كل ليلة ثمانية عشر ألف فتيلة، ويوقد فيه كل ليلة أحد عشر قنطارا من الزيت.

وروى المقريزي بسنده إلى عبد الرحمان بن الصائغ الحنفي، أنه أدرك بجامع عمرو[2] قبل الوباء الكائن سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه»، قال جامعه السيوطي في **حسن المحاضرة** على بعض اختصار[3].

قلت: دخلته وسبحت به تبركا وهو عديم النظير غالب أساطينه رخام مع مزيد *558* غرابة الصنعة، وعدد صفوفه - على كبرها- ثلاثة وعشرون صفا، وغالبه قد تهدم ليس به إمام ولا مؤذن ولا حصير ولا مصباح، ولا تقام به صلاة إلا ما كان من مؤذن يسكن قربه، يؤذن على باب المسجد؛ والعمارة انتقلت عنه إلا من جانب مصر العتيق فيليه بيوت قلائل يسكنها بعض أطراب

1- تحريف للآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. آل عمران: 120.

2- عمرو بن العاص.

3- السيوطي، **حسن المحاضرة**: 2/ 212 - 214.

الناس، فلا حول ولا قوة إلا بالله . يا أسفا على قبلة الاجماع والمسلمين، ومع ذلك لم يهتد أحد من ملوك زماننا لعمارتها، وجل غالب من يتولى منهم يبني مسجدا ينسب لنفسه، ويوقف عليه أوقافا، بل ربما حبس عليه خزانة كتب، وأوصى أن يدفن به أو بقربه، وما ذلك إلا لغلبة النفس والهوى . هذا مع تيسر بُنيان مسجد عمرو أو ترقيعه، لقربه من النيل ووجود الأنقاض به من رخام وحجر وخشب وآجر، وكأن الله تعالى حبس عنه أيدي الملوك حتى يتولى عمارته المهدي أو عيسى عليه السلام، حسبما ورد بذلك خبر. وعن يمين محراب عمرو هذا في زاوية محوط عليه بعود وباب وقفل، مصحفان عظيمان بخط كوفي أو قريب منه في رق أحدهما ينسب لعثمان والآخر لعلي رضي الله عنهما، يقصدهما الناس للزيارة متبركين بهما، ولا غرابة في ذلك ، ففي الحجرة النبوية مصحف عثمان، وبالإسكندرية مثله، وذلك أنه رضي الله عنه لما جمع المصحف وجه إلى الآفاق مصاحف عديدة، فلا يبعد كل البعد أن يصح هذا .

وذكر العبدري في **رحلته** لما تعرض لذكر مدينة القيروان أنه: «قرأ[1] بها مصحفا كاملا غير منقوص ولا مشكول، وخطه مشرقي بَيِّنٌ جدا، مليح، وطوله شبران ونصف في عرض شبر ونصف، وذكروا أنه بعثه عثمان ﷺ إلى المغرب، وأنه بخط عبد الله بن عمر رضي الله عنهما»[2].

وبالجانب الشرقي من المسجد في الصف الأول قبر عمرو بن العاص على قول، وقيل: بالقرافة الكبرى، وبقربه موضع محوط عليه يعود تاريخ تحويطه اثنان وتسعون وخمسمائة، فقيل أنه كان موضع تدريس الإمام الشافعي وتولاه بعده المزني بعد أن تنازع عليه مع ابن عبد الحكم، وأبي يعقوب البُوَيْطي، وجماعة من تلامذة الشافعي . قيل: وبسبب ذلك انتقل ابن عبد الحكم لمذهب مالك بعد أن كان شافعيا، وقيل بوصية الشافعي.

وبالمسجد أسطوانتان، تزعم العامة – في خرافتها– أن من دخل في مضيق*559* بينهما تغفر ذنوبه، ويتحرون ذلك؛ وبقربهما رخامة محفورة

---

1 ـ في **رحلة العبدري**، «رأيت» .ص 161.

2 ـ العبدري، **رحلة**، 161.

شبه الجب، عرضها اثنا عشر شبرا وطولها يقرب من قامة الإنسان، وكأنها موضوعة هنالك يوضع فيها الماء للشرب لما عُطلت الفوارات، والله أعلم.

وأما مسجد أحمد بن طولون فقال في **حسن المحاضرة**: «هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يَشكر مشهور بإجابة الدعاء، قيل أن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات. وابتدأ بناؤه سنة ثلاث وستين ومائتين. وبلغت النفقة عليه في بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار. وقيل أنه قال: أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي، فقيل: تبنى بالجير والرماد والأجر الأحمر، ولا تجعل فيه أساطين رخام، فإنها لا صبر لها على النار؛ فبنى هذا البناء فلما كمل بناؤه، أمر أن يعمل دائرة منطقه عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين، وأعلم[1] الناس بالصلاة فيه، فلم يجتمع فيه أحد، وظنوا أنه بناه من مال حرام، فخطب فيه، وحلف أنه ما بنى هذا المسجد شيء من ماله، وإنما بناه بكنز ظفر به، وأن العشار الذي نصبه على منارته وجده في الكنز. فصلى الناس فيه، وسألوه أن يوسع قبلته، فذكر أن المهندسين اختلفوا في تحديد قبلته، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول: يا أحمد ابن قبلة هذا الجامع على هذا الموضع؛ وخط له في الأرض صورة ما يعمل. فلما كان الفجر مضى مسرعا إلى ذلك الموضع فوجد صورة القبلة، فبنى المحراب عليه، ولا يسعه أن يوسع فيه لأجل ذلك، فعظم شأن الجامع وسألوه أن يزيد فيه زيادة فزاد فيه.

وقال صاحب **مرآة الزمان**: «قرأت في تاريخ مصر أن ابن طولون كان لا يعبث قط، وأنه أخذ يوما درجا من الكاغد، وجعل يعبث به، وبقي بعضه في يده، فعجب الحاضرون فقال: أصنعوا منارة الجامع على هذا المثال، وهي قائمة اليوم على ذلك. قال: ولما تم الجامع رأى ابن طولون كأن الله تعالى تجلى للقصور التي حول الجامع، ولم يتجل للجامع، فسأل المعبرين، فقالوا: يخرب ما حوله، ويبقى الجامع قائما وحده أخذا من قوله تعالى:﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[2] الآية. وقوله عليه السلام: «إذا تجلى

1- في حسن المحاضرة «وأشعر».

2 ـ الأعراف: 143.

الله تعالى للشيء خضع له»[1] . فكان كما قالوا. ولما أكمله بيضه وحلقه وفرشه بالحصر، وعلق فيه القناديل المحكمة بسلاسل النحاس المفرغة *560* الحسان الطوال، وحمل إليه صناديق المصاحف، وكان في وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها، وهي مذهبة على عشرة أعمدة من رخام سعتها أربعة أقدام، في وسطها فوارة تفور بالماء، وكانت على السطح علامات للزوال، فاحترق كله سنة تسع وسبعين وثلاثمائة. وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، بنى العزيز بالله فوارة عوضا عن المحرقة .

ولما أكمل جامع ابن طولون صلى فيه القاضي بكار، وخطب فيه أبو يعقوب البخلي، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي، ودفع إليه ابن طولون في ذلك اليوم ألف دينار . وعمل الربيع كتاباً فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا في الجنة»[2] . ودس ابن طولون عيونا لسماع ما يقول الناس من العيوب في الجامع، فقال رجل: محرابه صغير، وقال آخر: ما فيه عمد من رخام، وقال آخر: ليس له ميضأة، فجمع الناس وقال: أما المحراب فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لي، وأما العمود فإني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز، وما كنت لأشوبه بغيره، وهذه العمد إما أن تكون من كنيسة أو مسجد، فنزهته عنهما؛ وأما الميضأة، فها أنا أبنيها خلفه. ثم بناها وزاد خزانة شراب فيها جميع الأشربة والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث من الحاضرين للصلاة، وأوقف على الجامع أوقافا ليس فيها سوى الرباع ونحوها، ولم يتعرض لشيء من أراضي مصر .

ثم لما وقع الغلاء في زمن المستنصر خربت القطائع بأسرها، وعدم الساكن هنالك، وصار ما حول الجامع خرابا . وتوالت الأيام على ذلك،

1- أخرجه النسائي في **السنن الكبرى**، كتاب كسوف الشمس رقم 1870 ، 1/ 576 ؛ وابن ماجة في **سننه**، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في صلاة الكسوف ،رقم 1262 ، 1/ 401 .

2 ـ الحديث : أخرجه ابن حبان في **صحيحه** برواية « بيتا في الجنة وليس قصرا» ، رقم 1611، 4/ 491؛ وابن ماجة في **سننه** : كتاب المساجد والجماعات ، باب من بني لله مسجدا . رقم 738 ، 1/ 244.

فتشعث الجامع، وخرب أكثره، وصارت المغاربة تنزل فيه بإبلها ومتاعها عندما تقدم أيام الحج، وتمادى الأمر على ذلك. ثم إن الأمير لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون هرب، فاختفى بمنارة هذا الجامع فنذر إن نجاه الله من هذه الفتنة ليعمرنه، فنجاه الله، وتسلطن، فأمر بتجديده، وعمره ووقف عليه وقفا، ورتب فيه دروس التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات، والطب والميقات حتى جعل من تولى العمل - وهو الأمير علم الدين سنجر الزيني - من جملة ذلك وقفا على الديكة تكون في سطح الجامع في مكان مخصوص بها لأنها *561* تعين المؤقتين وتوقظهم في السحر . فلما قرأ الأمير كتابة الوقف أعجبه كل ما فيه إلا أمر الديكة، فقال: أبطلوا هذا لا تضحكوا الناس علينا، فأبطل. وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة جدد الرواق البحري الملاصق للمئذنة، وزيدت ميضأة بجانب القديمة "[1].

قلت: ذهبت لزيارة هذا المسجد العظيم مرارا، وسجدت بمحرابه تبركا، فحصل لي من الخضوع والخشوع ولذة المناجاة ما لم أكن قط رأيته من نفسي، وما ذاك إلا ببركة الموضع سيما وقد خطه النبي ﷺ كما تقدم .

وهذا المحل من المسجد هو محل مناجاة الحق سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام، إذ قال: إن جبل يشكر هذا الذي عليه هذا المسجد هو من جبل الطور، وهذا المسجد قريب من المدرسة الشيخونية - مكان تدريس الحافظ السيوطي للحديث - وهو قريب من الرميلة والقلعة، وهو جامع عظيم له صحن مربع كبير جدا يذكر داخله بالمسجد الحرام، وصحنه مفروش بالحجارة ولازال الماء فيه، وفيه نخلات، محتو إلى الآن على بنيان فخم، في عرضه ثمانية عشر صفا، وفي طوله عشرون؛ وعرض كل صف ما ينيف على عشرة أذرع بذراع اليد، ومساحة أسطواناته ثلاثة أذرع . وهو الآن عامر تقام فيه الخمس والجمعة، وخطيبه الشيخ محمد الأمير المالكي المتقدم الذكر. وهو مسجدٌ بَهي منور ينشرح الصدر لرؤيته، وعلى بعض جدرانه كتابة آيات قرآنية بخط حسن مشرقي غليظ. وهو الآن في وسط العمارة، ودارت به

1- السيوطي، **حسن المحاضرة**، 2/ 215 - 218 .

- فيما عدا قبلته- أزقة متسعة نظيفة ليس عليها سقف، وكأنها وضعت قصد توسعة المسجد ولتكثير ضوئه، فرحم الله مؤسسه وتقبل منه عمله .

وأما الجامع الأزهر فقال في **حسن المحاضرة**: «هو أول جامع أسس بالقاهرة أنشأه القائد جوهر مولى المعز لدين الله لما اختط القاهرة سنة تسع وخمسين وثلاثمائة[1] ، وكان به طلسم لا يسكنه عصفور ولا حمام ولا يمام[2]، وكذا سائر الطيور . ثم جدده الحاكم بأمر الله، ووقف عليه أوقافا، وجعل فيه تنورين من فضة وسبعة وعشرين قنديلا من فضة، وفي محرابه منطقة فضة، كما كان في محراب جامع عمرو، فقلعت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم، وقلع أيضا المناطق من بقية الجوامع .

ثم إن المستنصر جدد هذا الجامع *562* وجدده الحافظ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة بجوار الباب الغربي الذي به مقدم الجامع الحاكمي، فانتقلت الخطبة إليه، وكان الخليفة يخطب في جامع عمرو جمعة، وفي جامع ابن طولون أخرى، ويستريح جمعة ، فلما بنى الجامع الحاكمي صار الخليفة يخطب فيه . ولم تنقطع الجمعة من الجامع الأزهر بالكلية . فلما ولي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قلد وظيفة القضاء صدر الدين بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة خطبتين في بلد واحد، كما هو مذهب الشافعي رضي الله عنه، فأبطل الجمعة من الجامع الأزهر، وأمرها بالجامع الحاكمي لكونه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من إقامة الخطبة فيه إلى أيام الظاهر[بيبرس][3] ، فتحدث في إعادتها فيه، فامتنع قاضي القضاة ابن بنت الأعز، فولى السلطان قاضيا حنفيا، فأذن في إعادتها فأعيدت» [4].

قلت: وهذا المسجد في زماننا بل وقبله بأزمان وإن جاء في طرف البلد، هو قطب رحاها وهو كما قال الشيخ أبو سالم: «كل الليالي بهذا المسجد كليلة

1- كمل بناؤه سنة 361 هـ . انظر: م س.

2- في ن . م « ولا يمام ولا حمام» .

3- ساقط من النسخ والزيادة من **حسن المحاضرة** .

4- السيوطي، **حسن المحاضرة** : 2/ 219 - 220 .

القدر، لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار[1]، [بل في سائر الأوقات][2] لا تنقطع منه العبادة ليلا ولا نهارا، صيفا ولا شتاء، فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها، حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله تعالى من أعظم المزايا وأرفعها، وإن خص هو بهذه الفضيلة فغير مستنكر وجود مزية في المفضول ليست في الفاضل، إذ الفضل يوجد التفضيل لا بوجود الفضيلة»[3].

قلت: وهو مسجد عظيم جل أساطينه رخام، دارت في الأروقة من كل جانب ما عدا القبلة، وهي التي أحدثت به بعض الضيق، ولذلك زاد في قبلته عبد الرحمان كخى صفوفا. وهذه الأروقة يسكنها الغرباء من الطلبة من سائر الأفاق، كل أفق ورواقه مشهورة باسمه، أعظمها وأشهرها وأكثرها خزائن كتب محبسة: رواق المغاربة؛ وعلى كل رواق أوقاف يؤتى بها إلى ساكنها، من فول وعدس وخبز، يفرق على من بها كل يوم، وعلى كل رواق ناظر، وهي في نهاية الضبط، كل رواق وما يلازمه من عدد الطلبة حتى إن مات أو سافر أحدهم دخل غيره مكانه بعد الرفع للناظر، ويكتب بذلك كتابا ترى الغريب من أهل الشام أو المغاربة أو السودان يأتي *563* إلى الأزهر ويبقى به العشرين سنة مثلا ولا يجد سبيلا إلى الدخول في الرواق، من كثرة الطلبة ومن أسبقية غيره له، فتراهم يكتبون الأول فالأول، ويزدحمون على ذلك.

ومع هذه العمارة والجهاد في التعليم والعبادة في هذا المسجد المبارك، ففيه اليوم أمور منكرة شرعا، منها: ملازمة تعليم الصغار به في صحنه وما دار به، يجتمعون هناك حلقا حلقا رافعين أصواتهم بقراءة القرآن، مع ما جبلوا عليه من عدم التحفظ على النجاسات وإخراج الريح ونحوه، وكل ذلك منكر في المسجد يجب تغييره.

ومنها، دخول باعة الخبز وغيره له، فترى الرجل يدخل حاملا لما يبيعه من خبز وفول وعدس في أوانيها من باب ويخرج من باب آخر. ولقد

1- اقتباس من الآية 30 طه ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ .

2- ليست في الرحلة العياشية.

3- العياشي، الرحلة : 1/ 126.

شاهدت بعض الطلبة، وهو أمام الشيخ في الدروس، وقد مر بهم بائع الخبز والفول فقام إليه واشترى منه وانحاز لأسطوانة حتى تغذى ورجع لمحله.

ومنها، مبيت الغرباء وغيرهم من الجفلاء به، وتراهم إن دخلت إلى المسجد جوف الليل أو في آخره، كل واحد تلوى بحصير المسجد، فجعله فراشا وغطاء، ولقد شاهدت بعض المؤذنين آخر الليل لما قاموا من نومهم يغسل النجاسة من بول ورجيع[1] من حصير المسجد . ويزعم أهل مصر أن من تعرض لمنع من يبيت به من الغرباء تصيبه مصيبة، وقد تقررت هذه العادة عندهم فلا يكاد أحد ينكرها، والمؤذنون داخلون على ذلك يغسلون النجاسة إن وجدوها طيبة أنفسهم بذلك .

ومنها، اجتماع طوائف الفقراء به ليلا يرقصون بالذكر جهرا، ويشوشون على النائمين والذاكرين والمتهجدين والتالين والمطالعين حتى أن من لم يمارس ذلك لا يكاد حتى بالنهار يستفيد من المدرسين، لكثرتهم وارتفاع أصواتهم حتى أن الأسطوانات كل شيخ وما عُلم له منها، فإن شرع في التدريس لازمها، وإن قام رجع إليها بقرب ولازمها بالذكر ونحوه . وتراهم إن مات مالكي ذهب آخر لشيخ الأزهر يطلبها منه فينفذها له، وكذلك الشافعية وغيرهم .

ولقد شاهدت به امرأة يقال أنها لم تتزوج قط، وهي ضريرة تلازم الدروس، وتباحث الشيوخ، حافظة للروايات السبع، لها مخالطة تامة بالفنون، وهي شافعية المذهب، يلازمها طالب يقودها ويهديها لدارها ويطالع لها حصتها، وتحفظ هي سماعا عنه .

وبهذا المسجد محرابان، القديم في وسطه *564* والجديد الذي في مقدمه، زاده عبد الرحمان كخى، والناس يتحرون الصلاة في القديم وما

1- الرَّجيعُ من الكلام المَرْدُودُ إلى صاحبه، والرَّجْعُ والرَّجيعُ النَّجْوُ والرَّوْثُ وذو البَطن لأَنه رَجَع عن حاله التي كان عليها ،وقد أَرْجَعَ الرجل وهذا رَجيعُ السَّبُع ورَجْعُه أَيضاً يعني نَجْوَه، وفي الحديث أَنه نهى أَن يُسْتَنْجَى بِرَجيع أَو عَظْم . الرَّجيعُ يكون الرَّوْثَ والعَذرةَ جَميعاً وإنما سمي رَجِيعاً لأَنه رَجَع عن حاله الأُولى بَعد أَن كان طعاماً أَو علَفاً أَو غير ذلك . انظر : **لسان العرب** مادة «رجع»، 8/ 114 .

قاربه. وتواتر عند أهل الأزهر أن الأولياء لا يفارقون الصلاة في كل وقت بالأزهر، بل والقطب معهم، ولا يبعد ذلك .

لطيفة : جرت عادة الشيوخ بالأزهر أنه إن صدر من فراعنة مصر ظلم، أو تعد خصوصا على بعض الشيوخ، أو على من لاذ بهم، أو على الأوقاف ونحو ذلك، دخل الشيوخ كلهم الأزهر، وأغلقوه عليهم متضرعين في الدعاء على الظالم، وربما أجمعوا على قراءة **الشفا** أو **البخاري** ونحو ذلك، فيقع بمصر كلها بسبب ذلك هرج عظيم وافتتان كبير، لا ترى بائعا في الأسواق، ولا متنزها في الحدائق، لما تقرر عندهم من العادة أن الأزهر إن غلق لذلك القصد، لا بد أن ينزل بالناس أمر عظيم، فيلوون بالأزهر خارجه، والعلماء والطلبة داخله يبكون حتى ينتقم الله تعالى من الظالم أو يأتي تائبا . هكذا حدثني به شيخنا أحمد الدردير المالكي، وقد تقدمت ترجمته، لما طلب ملوك مصر- ونحن بها - من ساكنها، بل ومن بعض الحجاج مالا عريضا تُسد به فتنة من قام عليهم من أهاليهم بالصعيد، على عادتهم في الفتنة، قطع الله دابرهم وأباد كبيرهم وصغيرهم آمين .

وأما المشهد الحسيني فهو قريب من الأزهر، وسبب نقل رأس الحسين ﷺ إلى هذه البلدة هو أنه، ﷺ، لما قتل بكربلاء دفن بدنه هناك - على ما قيل - وحمل رأسه وطيف به في البلدان حتى وصل عسقلان[1] فدفن بها، إلى أن استولى عليها الكفار فافتداه منهم الصالح طلائع، وزير الفاطمين بمال جزيل، فبعثوه إليه، وخرج للقائه من عدة مراحل إجلالا له، وحمله حتى جعله في المشهد المعلوم بمصر الآن، وهو من أجل المزارات عندهم . وأما البدن فمسكوت عنه في أكثر الروايات، غير أن بعض المتأخرين ذكر أنه دفن بكربلاء ثم نقل إلى البقيع، وبعضهم قال دفن بكربلاء ثم نقل إلى مصر، وبعضهم قال أن الرأس بعد ما دفن بمصر نقل إلى البقيع وجمع بينه وبين جسده هناك، ولا دليل على شيء من ذلك. والأول هو الصحيح الذي أطبق عليه الأكابر من أهل الكشف والبصائر.

1- عسقلان : مدينة على ساحل فلسطين بين غزة وبيت جبرين . انظر : الحموي، **معجم البلدان**، 4/ 122 .

وأهل مصر يطلقون لفظ الحسنين مثنى على هذا المشهد استحضارا لأخيه في الزمن، ليقع التعلق بهما معا، وكأنه *565* من باب: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[1].

وقد وقفت بمصر على تأليف الإمام الشعراني في خصوص ذلك وحقق أنه بمصر، بل جسده بها ليجتمع به أهل البصائر، وأنكر ذلك كله ابن تيمية حسبما نقله عنه الحافظ ابن حجر والسخاوي قائلا: «واتفق العلماء كلهم على أن المشهد الذي بقاهرة مصر المسمى «مشهد الحسين» باطل ليس فيه رأسه ولا شيء منه، وإنما حدث بمصر في دولة بني عبيد – المدعين أنهم من أولاد فاطمة، والعلماء يقولون لا نسب لهم بها– في أثناء المائة الخامسة بناه طلائع ابن زريك الرافضي، ونقل من عسقلان زعما أنه كان في مشهد بها وهو باطل، فإن بني أمية – مع ما أظهروه من القتل والعداوة – لا يُتَصَوّرُ أن يبنوا على الرأس مشهدا للزيارة. وحجة العلماء ما ذكره عالم النسب الزبير ابن بكار أن الرأس حمل إلى المدينة ودفن بها، قال ابن دحية: لم يصح سواه» انتهى ملخصا[2].

قلت: وهذا المكان في غاية التعظيم والتشريف عند أهل مصر، فهو يكاد يضاهي الأزهر في مجالس العلم والذكر والتلاوة والعبادة، وأما البنيان فحدث عن البحر ولا حرج.

وأما مسجد الحاكم فقال في **حسن المحاضرة**: «أول من أسسه العزيز بالله بن المعز[3]، وخطب به، وصلى فيه، ثم أكمله ابنه الحاكم، ويقال له الجامع الأنور، وحبس عليه الحاكم عدة قياسر وأملاك بباب الفتوح، وقد

1- الرحمان: 20.

2- ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، تحقيق أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1426 / 2005، 4/ 509 – 510.

3- العزيز بالله بن المعز: أبو منصور نزار تولى بعد أبيه المعز حكم مصر، توفي سنة 386 هـ. انظر: السيوطي، **حسن المحاضرة**: 1/ 520.

هدم في الزلزلة الكائنة في سنة اثنتين وسبعمائة، فجدد[1] ورتب فيه دروسا على المذاهب الأربعة، ودرس حديث ودرس نحو ودرس قراءات»[2] .

قلت: وهو قريب من باب النصر وباب الفتوح، وهو قريب من جامع ابن طولون في صفة البناء، فكأنه بني على شكله، إلا أن هذا أصغر، وليس به من البهاء والرونق ما بجامع ابن طولون، وهذا قد سقط جل سقفه وصار طريق للمارة ببغالهم، ولازال قائم السواري والمنبر، ولا ترى به مصليا إلا إن كان فذا على غير حصير . ومحصل الأمر أنه صار من جملة الأسواق، مع اكتناف العمارة التامة له، كيف وما سنه العزيز العبيدي وابنه؟.

«ومن غرائب الأول أنه[3] استوزر رجلا نصرانياً يقال له عيسى بن نسطورس، وآخر يهوديا اسمه ميشا، فعزّ بسببهما اليهود *566* والنصارى على المسلمين في ذلك الزمان، حتى كتبت إليه امرأة في قصة في حاجة لها تقول : بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك؛ لما كشفت عني ظلامتي ! فعند ذاك أمر بالقبض على هذين، وأخذ من النصارى[4] ثلاثمائة ألف دينار. وأما ابنه فكان شر الخليقة، قال المؤرخون: لم يل مصر بعد فرعون شر منه؛ رام أن يدعي الألوهية كما ادعاها فرعون، فأمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفا إعظاما لذكره، واحتراما لاسمه؛ فكان يفعل ذلك في سائر إيالته حتى بالحرمين الشريفين. وكان أهل مصر على الخصوص إذا قام خروا له سجدا؛ حتى أنه يسجد سجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم. وكان جباراً عنيدا، وشيطانا مريدا، كثير التلون في أقواله وأفعاله، هدم كنائس مصر ثم أعادها. وقد نقل السبكي الاجماع على أنها إن هدمت ولو بغير وجه لا يجوز إعادتها[5] . وبنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء، ثم مثل بهم وخربها،

1- في **حسن المحاضرة** «فجدده بيبرس الجاكشنكير» .

2 - م . س : 2/ 221 .

3- في **حسن المحاضرة** «من غرائبه أن».

4- في م . س «النصراني».

5- ينظر: السبكي، **طبقات**. . . ، 6/ 199 قال: إن الكنائس لا يعاد مهدم منها. . . .

وغلق الأسواق نهارا وفتحها ليلا؛ وكان يأمر عبدا له أن يفعل الفاحشة بمن غش في الأسواق. وبالجملة فله رعونات كثيرة لا تنضبط ، فأبغضه الخلق، وكتبوا له ولإسلافه الأوراق بالشتم في صورة قصص»[1]. فكيف تكون عاقبته وعاقبة أفعاله، وإن كانت في الظاهر خيرا، كهذا المسجد، على أنه كوالده لم يقصدا به إلا انتقال العمارة من الأزهر إليه، فعاملهما الله تعالى بنقيض قصدهما. (من الوافر)

يُرِيدُ الْمَـرْءُ أَنْ يُعْطَى مُنَاهُ وَيَـأْبَـى اللهُ إلاَّ مَـا أَرَادَ

تـنـبـيـه : ملوك العبيديين أربعة عشر رجلا منهم ثلاثة بإفريقية وهم: الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم: المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والأمير والحافظ والظافر والقائم والعاضد وهو آخرهم، وهم يزعمون أنهم فاطميون، كلا بل ينتسبون إلى شخص اسمه عبيد قيل يهودي، وقيل مجوسي دخل المغرب وملكها وبنى المهدية، وتلقب بالمهدي، وكان زنديقا خبيثا، عدوا للإسلام، قتل من الفقهاء والمحدثين جما، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة، فكان آخر خراب بيتهم على يد الإمام محمد بن الموفق الخبوشاني النيسابوري[2] ، حسبما أوضحه*567* ابن السبكي في **الطبقات**[3] ، وغيره ممن تكلم على الملوك .

وأما جامع المؤيد[4] ، فهو عند باب زويلة في القاهرة، مسجد كبير عديم النظير في غرابة الصنعة وفخامة البنيان وارتفاع وكثرة الرخام ووسع الصحن، ولم أر به – وقد دخلته مرارا – مدرسا، وتصلى به الخمس

1- السيوطي، **حسن المحاضرة** : 1/ 521.

2- محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني الفقيه الصوفي أحد الأئمة علما ودينا وورعا وزهدا. وخَبُوشَان بليدة بناحية نيسابور ولد بها في رجب سنة 510 هـ. وتفقه بنيسابور على محمد بن يحيى، وقدم مصر سنة 565 هـ. انظر ترجمته في **طبقات الشافعية الكبرى** للسبكي، 4/ 190.

3 ـ م . س، 3/ 191 .

4 ـ الملك المؤيد شيخ المحمودي .

والجمعة. وفي منارة هذا المسجد وقعت محاورة ابن حجر والعيني، فقال الأول[1]: (من البسيط)

جَامِعُ مَوْلانَا المُؤيَّد رَوْنَقٌ وَصَوْمَعَة[2] بالْحُسْنِ تزْهُو وَبالزَّيْنِ
تقولُ وَقدْ مَالتْ عليْهِمُ[3] ترَفقوا[4] فليْسَ عَلَى جِسْمِي أضَرّ مِنَ العَيْنِي

وقال الثاني: (من البسيط)

مَنارَةٌ كَعَرُوسِ الْحُسْنِ قَدْ جَلِيَتْ وَهَدْمُهَا بقضَاءِ اللهِ والْقَدَرِ
قالُوا أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ قلتُ ذا غلَطٌ مَا أوْجَبَ الْهَدْمُ إلا خِسَّةَ الْحَجَرِ

وأما مسجد السلطان حسن، فهو عند الرميلة على باب القلعة، مسجد لا ثاني له بمصر، ولا في غيرها في البلاد، في ضخامة البناء وباحته، وارتفاعه، وأحكامه، وطول أعمدته الرخامية، وسعة أبوابه، كأنها جبال منحوتة، تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في شواهق الجبال. وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة، يقال أنها من إيوان كسرى، وفيها نقوش عجيبة، يقال إنها على صورتها وضعت أبواب المسجد.

قال المقريزي: «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذه المدرسة في كبر قالبها، وحسن هندستها، وضخامة شكلها». قال: «وذراع إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها. ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع»[5].

قال الشيخ أبو سالم: «ووجدنا ركنا منه قد انهدم، فكأنه طرف جبل قد سقط فملأ ما تساقط منه الشوارع والرحاب التي بإزائه، ووجدناهم مجدين في ترميمه. وقد خبرنا أنهم أعطوا ستين كيسا من الريال على جمع النقض

1 ـ الحافظ شهاب الدين بن حجر. وقد انشد البيتين حين انهدمت منارة جامع المؤيد بمصر وكان الناظر عليه قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني. انظر: السيوطي، **حسن المحاضرة** :1/ 418.

2- في م. **س** « منارته».

3- في ن. م « عن القصد».

4- في ن. م «أمهلوا».

5- المقريزي، **المواعظ** ...، : باب جامع الملك الناصر حسن، 3/ 48.

فما بالك بأجرة البناء!». قال : «ولما رجعنا من الحجاز بعد سنة ونصف، وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهدوم، وبالغوا في إتقان صنعته، ورفع بنائه ليناسب البناء الأول، فكان كما قيل: (من البسيط)

يَـا بَارِقـاً بِأَعَالِي الرَّقْمَتَـيْنِ بَـدَا   لَقَدْ حَكَيْـتَ وَلَكِنْ فَإِنَّـكَ الشَّنَبُ

فرحم الله تعالى أفاضل الملوك الذين دَرَجُوا، والذين من خلفهم على منهاجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الوجيهة[1] ما أوجب خلود الثناء عليهم، ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم. ولم يزل أهل المشرق، إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء *568* المساجد والخانقات، ويبالغون في تعظيمها ويتأنقون في ذلك، ويبادرون إلى إصلاح ما هد منها . وأما أهل مغربنا، فلا تكاد ترى في مدائنه مسجدا عظيما قد أحدث، بل ولا مهدما قد جدد، أو واهيا قد أصلح، بل لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه، إن كان مبنيا برخام، أن يعاد بآجر وجص، وإن كان مجصصا أن يعاد بطين، بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي، من كل لون رقعة، وإلى الله المشتكى . وما أرى ما حصل بمغربنا من الوهن إلا بسبب هذا من عدم تعظيم شعائر الله، ولو بالأمور الظاهرة فضلا عن الباطنة؛ وقد قيل: إذا أراد الله تعالى خلاء بلد بدأ ببيته، ثم يتبعه ما سواه، وإذا أراد عمارته فكذلك»[2].

قلت: مسجد حسن هذا غير متسع، بل صغير جدا، وما فيه أحسن من فخامة بناء القبة التي دفن فيها، عرضه ينيف على الأربعين ذراعا، وبه منارتان، صعدت الصغرى منهما، أتشرف منها على مصر وعمارتها، وعددت في درجها زهاء مائتي درجة، وفي شرقيه القلعة، وهي مدينة صغيرة عصية، كانت ولازالت دار الملكة، وبها ينزل الباشا الذي يأتي كل سنة من اسطنبول، وبها مسجد عظيم الشأن، رفيع المقدار، كثير الرخام، وسقفه من أفضل سقف راسية، وبها قبر سارية وهو من الأولين، وليس هو سارية الجبل، وعليه بناء رائق، ومسجد صغير حسن، تقام به الجمعة، وبه مصاحف نفيسة معدة للقراءة، وبه آلات التوقيت منوعة . وبداخل القلعة

1- في الرحلة «الدينية» .

2- العياشي، **الرحلة** : 2/ 156-155.

بئر، تنسبها العامة ليوسف بن يعقوب عليهم السلام، وليس كما زعمت، وإنما هي لباني القلعة يوسف أحد ملوك مصر، وبعض الناس وخصوصا الحجاج يسمونها بئر الفلق، وهذه البئر من أغرب ما أنت راءٍ من الآبار، وهي كلها منحوتة في صخر من الجبل، والطريق التي يحلق منها إليها منحوتة في جوانبها الأربع كهيئة أدراج الصومعة، إلا أن معها بعض اتساع في غالبها عشرة أشبار، وفي بعضها أكثر، وفي بعضها أقل . وبالممر المذكور طاقات يشرف منها النازل والصاعد على البئر، كطاقات المنار؛ وقسمت البئر نصفين: الطريق المنحوت نافذ إلى نصفها الأول الموالي لأعلى الأرض، ثم لا يتجاوز بعدها، وبهذا النصف - في وسط الأرض - بقر يدور على جوانب البئر الأربعة يجذب الماء منها بقلاليش من فخار، فيجتمع الماء بجانبها *569* في صهريج، وبقر آخر على وجه الأرض من أعلى، يجذب ما اجتمع من هذا الصهريج، أحدهما في الصعود والآخر في النزول، لايشك عاقل أن هذه صنعة هندسية يكاد العقل يجهل ذلك، حتى جزم بعض الناس أنها من صنعة الجن، والله أعلم بغيبه .

وهناك قبر في كهف منحوت يسمى صاحبه عبد الله، يزعمون أنه صاحب يوسف، يزورونه ويستفتحون له؛ وقد شاهدت ذلك، ونزلت البئر نهارا بمصباح بعد عناء وتعب وجهد، فسبحان مبدع الأشياء على مقتضى حكمته. ومن هذا البئر يذهب بالماء لمسجد القلعة الجامع، وللحمام وغير ذلك؛ وعلى باب القلعة من خارج، ضلع كبير مغلق بسلاسل من حديد يقال أنه ضلع حوت، وبداخله - على الباب - آلات حرب قديمة من سيوف ودرق وبيضات، يزعم الناس أنها كانت للصحابة، بقيت هنا لما فتحت مصر في زمن عمرو بن العاص، والله أعلم بغيبه . وقد علقت في أعلى الباب بحيث لا يصلها إلا من اتخذ إليها سلما، والناس يقصدونها للزيارة. وبالقلعة المذكورة مقاعد مزخرفة للملوك بأنواع الرخام والزليج، وقد رأيت به رخاما أسودَ كالمرآة تتراءى منه الوجوه. والرميلة كالأزبكية محالّ للفرجة، وأنواع الشعوذة، واللعب بالحيوانات من حمار وقرد ومعز وغير ذلك من بلاوي ولعب وشطح، خصوصا الرميلة على سائر الأوقات، فترى الشابات الحسان من

فواجر النسوان يشطحن في دوائر الرجال ويغنين، وكل ذلك وسيلة للدرهم والدينار، والعلماء متوافرون في البلد، ولا منهم من رأيناه ينكر هذه المناكر، ولعلهم فقدوا شرط تغيير المنكر .

وأما المارستان فهو لناحية الأشرفية بالقاهرة، يقصد الناس من به من المجانين للزيارة؛ وعليه أوقاف وناظر، وبه مسجد ومياه. ولقد ذهبت إليه زائرا مع أبي فارس المراكشي، وأبي العباس الدمناتي، وبنفس ما دخلنا كلمنا أحدهم داخل بيت مقفول عليه وهو يشرف علينا من شباك حديد وينادي يا أبا فارس – باسمه– قائلا: هات لي ديواني، ولعله أهل الجذب من الأولياء، وقد أخبرنا ناظر المارستان أن الأولياء لا يفارقونه، وكثيرا تظهر من بعضهم المكاشفات، والأخبار بالمغيبات، وكثيرا ما يصاب من تعرض لإذايتهم، نسأل الله السلامة في الدين والدنيا .

وبالجملة فعجائب مصر *570* لا تتناهى، ترى الرجل يُدارس القرآن ابنه وآخر ابنته، وهم مارون مسرعون بالسكة . وأما مزاحمة النساء للرجال بها وقلة حيائهن فأمر خارج عن الشريعة، ولقد والله رأيت امرأة وولدها على ذراعها – وأنا بالجمالية – تبول على سطح المسجد، وما أوجب ذلك إلا كثرة الخلق بها، والرعاع من الناس بها يضاهي الحصى والرمال. فسبحان الكبير المتعال، خلقهم ورزقهم، وقدر آجالهم، وعرف ما أكننته ضمائرهم وسرائرهم، لا إله غيره ولا خير إلا خيره .

وقد جاب العبدري هذه المدينة، وجعلها « مُعيدية المعنى»[1]، وزاد في ذمها، ودم أهلها، وذكر معايبهم[2] . وكان من جملة ما عاب عليهم: الأكل في السوق والطرقات، وشراء القوت من الأسواق، وقلة الحياء، وعدم التنزه عن الخنا[3]، وقلة التستر عند قضاء الحاجة،[4] وغير ذلك مما لم تختص

1- إشارة للمثل : « تسمع بالمُعَيْدِيِّ خير من أن تراه» يضرب لمن خبره خير من مرآه. انظر : الميداني، **مجمع الأمثال**، قدم له وعلق عليه نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1425/ 2004، ص 178 .

2- العبدري، **رحلة**، 274 وما بعدها .

3- الخَنا من قبيح الكلام خَنا في مَنْطقه يَخْنُو خَناً مقصور والخَنا الفُحْش . انظر : **لسان العرب**، مادة «خنا»، 14/ 244 .

4- العبدري، **رحلة**، 282 وما بعدها .

به مصر عن سائر المدن حتى مدائن المغرب . ومن جملة ما أنكر عليهم : اشتغالهم بالمعقول عن المنقول في انكبابهم على علم المنطق ، والبخل والشح ،[1] وغير ذلك مما لم تختص به مصر عن غيرها جريا على عادته – عفا الله تعالى عنه – في ذم البلاد وأهلها . وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها ، فليته مدح من يستحق المدح ، وذم من يستحق الذم ، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان ، وما رأيناه مدح بلدة ولا ساكنها إلا مدينة تونس[2] ، ولو أمكنه أن يقول في الحرمين هجوا لقال ! وما ذاك إلا أن الرجل بربري من سكان الجبال ، لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم ، وإنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء ، ولا يتفطن له عالم ولا ذو مروءة ، حتى إذا صدر عن البلد قال فيه ما شاء .

وكفى في مدح مصر ما قدمناه ، وفي معرفة من بها من الفضلاء ما أسلفنا ، سيما ونحن في حدود الثاني عشر من المئين ، والعبدري قد حج أواخرالقرن السابع ، والعلماء والحفاظ والزهاد متوافرون ، ولو لم يكن إذ ذاك بمصر إلا الحافظ الدمياطي وابن دقيق العيد اللذين اجتمع بهما وأخذ عنهما ، وتلاهم من جاء من بعدهم من الذهبي والمزري والبرزالي وابن كثير والسبكيين لكفى . كيف وبها إذ ذاك من علماء فرق المذاهب الأربعة مالا يكاد يضبطه حصر ، ولم يتقدم مثله في دهر ، وإنما البلدة – كما قدمناه – كبيرة القطر ، وساكنها يضاهي عديد الرمل والقطر[3] ، وشأن ما هو من البلاد *571* على تلك الحال ، أن يحتوي أولي الرعونات ، والرعاع من النساء والرجال ، فينبغي له أن يحكم على كل بما يناسبه ، ويترك حظ النفس وراءه ، ولا يحكم على الفضلاء بما هو من دأب عامة الجفلاء ، ونسأل الله السلامة من كل بلاء .

---

1 ـ م . س : 284 .

2 ـ ينظر ن . م : 108 و488 – 489 .

3- جاء في **رحلة العبدري**، «مدينة كبيرة القطر ، وساكنها يحاكي عدد الرمل والقطر ، وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر» . ص 274 – 275 .

فوائد

جمعتني دعوة طعام بالليل عند بعض المحبين مع الأحَب النجيب السيد محمد البشير بن عرف التازي المغربي المجاور بمصر، وسألني عن قوله تعالى، حكاية عن موسى عليه السلام في جواب فرعون: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[1]، هل الشرط مفهوم؟ وهل اليقين علَى بابه؟ وهل المعنى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بوجود السماوات والأرض؟ فأجبت عن الأول أنه من باب: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[2]، ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ الآية[3]. انظر أيهما التي عطف فيها المفهوم على أنك إن أمعنت النظر وجدت «إن» في الآية للنفي لا للشرط حتى يطلب له مفهوم أو يكون معطلا . وعن الثاني بأن المراد باليقين: العلم والاعتبار المطلقين لا يقيد قصورهما على السماوات والأرض، أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلا، أو إن كان يرجوا منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، ولما لم ينفع، والإيقان العلم الذي يستفاد بالاستدلال، ولذا لا يقال الله موقف. وفي طيه الجواب عن الثالث إذ سلموا وجدانهما لكونهما من قبيل ما يدرك بالحس، بل سلموا كونهما مخلوقين لله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[4]، أو يقال معناه: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأن الله تعالى خلقهما لأن فرعون إدعى

1 ـ الشعراء: 23 .

2 ـ النور: 33.

3 ـ النساء :100.

4 ـ العنكبوت :61.

الربوبية ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[2].

وسأل أيضا عن قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾إلى ﴿تَخْوِيفًا﴾[3]، فالمراد بالمنع، والله تعالى لا يمنعه عن إرادته مانع، إذ هو القادر على ما يشاء سبحانه، وما المراد بالآيات؟ وهل يلزم من تكذيب الأولين تكذيب الأخرين - يعني المخاطبين- وعن تعدية ﴿نُرْسِلَ﴾ بالباء هل هو من باب التضمين، أو حذف فيه المفعول، وعن مناسبة وآتينا إلخ لما قبلها، وعن إسناد الأبصار إليها، وعن تعدية «ظلموا» إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال فظلموها؟ وهل تكرار الآية وأخرى مؤذن بأنها عين الأول لقولهم *572* المعرفة إذا أعيدت بالثانية عين الأولى نحو: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[4] ؟ فأجبت بأن المنع على غير ما يتبادر منه. والمراد بالثانية وما حمّلنا ونحوه من الألفاظ التي لا تدل على المنع والصرف على أن لقائل أن يقول: والحمل أيضا فيه ما منعني ، فنقول: ليس موضوعا أولا وبالذات للمنع، إذ الحمل معناه السبب الباعث. فإن قيل: يلزم عليه الفعل والترك لعلة، قلنا: فرق بين العلة والسبب، على أن التحقيق والمعنى: أن الله تعالى حكم في أزله بعدم إرسال ما اقترحوه من الآيات، وفي الآية بالمنع رعاية لفهم المخاطبين. ومحصله أن المنع مجاز عن الترك مبالغة كأنه قال : وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا تكذيب الأولين، والمعنى : وما تركنا إرسال الآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم، فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن أو يخرج من صلبه مؤمن، وتعيين من اقترحوه من الآيات متوقف على معرفة سبب النزول، إذ هو توقيفي لا يقع فيه الخوض. نعم ورد أنهم طلبوا أن يحول الله تعالى لهم الصفا ذهبا، وتتنحى الجبال عنهم، فنزل جبريل عليه

---

1 ـ النازعات: 24.

2 ـ القصص: 38.

3 ـ الاسراء: 59.

4 ـ الشرح: 6.

السلام وقال : إن شئت كان ما سألوا، ولكنهم إن لم يومنوا أهلكوا، وإن شئت استأنيت بهم . فاختارﷺ الثاني وهو تأخير العذاب عنهم[5] . وبأنه يلزم لزوما عاديا من تكذيب الأولين تكذيب الآخرين، وهو من باب إقامة الحجة عليهم بمعتقدهم إذ: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[6] ، ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[7] ونحو ذلك . فإقامة الدليل عليهم به أبلغ من إقامته باللزم العقلي لما لا يخفى، وبأن﴿نُرْسِلَ﴾ مضمن معنى الاتباع والردف، أي وما تتبع الآيات بعضها ببعض إلا لو كنتم تعتبروا، فتنافوا وترجعوا عن غيكم وضلالكم أو على بابه، فإسقاط المعلوم والمعنى، وما نرسل الرسل، مصحوبا بالآيات إلخ . أو الباء للتعدية لأن ﴿نُرْسِلَ﴾ يتعدا بنفسه وبالباء، وبأن مناسبة وآتينا لما قبلها واضحة لأنهم اقترحوا ثم لم يصدقوا عنادا، فما جرى على الأولين يجري على الآخرين، بأن إسناد الأبصار للناقة مجاز من باب: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [8] ، نهاره صائم وليله قائم . والمعنى أن هذه الآيات يصير الناظر فيها ذا بصيرة واعتبار، أي بينة واضحة الدلالة *573* وبأن ظلموا تضمن معنى جحدوا أو كفروا، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضوعه، ومنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[9] ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[10] ، أو على بابه، والباء للظرفية أوللتعدية على حذف مضاف أي بسببّ جحدها من باب مجاز الحذف منه: ﴿وَاسْأَلِ

5- الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظ : « عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزْدَرِعُوا فَقِيلَ لَهُ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِيَ بِهِمْ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤْتِيَهُمْ الَّذِي سَأَلُوا فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتَ مَنْ قَبْلَهُمْ قَالَ لَا بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾« . رقم2333 ، 1/ 258 .

6 ـ الزخرف: 21.

7 ـ الأنبياء :53.

8- الحاقة: 20.

9- لقمان: 12.

10- الأنعام: 83.

﴿الْقَرْيَةَ﴾[1] ، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[2]، ﴿مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[3]، وبأن المعرفة إذا أعيدت ، فالثانية عين الأولى غالبا ، والآية من غير الغالب أو يراعى في الثانية الجنس وهو أظهر لصيرورتها عن الأولى باعتبار ، والله أعلم . على أن المفسرين اختلفوا في الآيات المذكورة ثانيا في الآية ، والصحيح أن المراد بها المعجزات ، وهي الآيات غير المقترحة وذلك كانشقاق القمر ، وتكلم البعير ونحوه . ومعناها نرسل بها تخويفا للكبار من عذاب الآخرة ليؤمنوا ، وأما الآيات المقترحة فلن نرسل بها ، وقيل المعنى المراد بالآيات المقترحة كي يؤمنوا. وأما الآيات المقترحة فلن نرسل بها ، وقيل المعنى المراد بالآيات المقترحة بالمعنى أنه يرسل بها تخويفا من العذاب العاجل وهو الإهلاك . وقيل المراد بالآيات هنا الزلازل والرعد والكسوف وغير ذلك من المخاوف . وقال الشيخ أبو حيان: «والظاهر أن الآيات الأخيرة غير الآيات الأولى»[4] ، ثم بينه ذكره.

---

1 - يوسف: 82.

2 - البقرة: 92.

3 - طه: 94.

4- أبو حيان ، **تفسير البحر المحيط** :5/ 332 .

ذكر خروجنا من مصر نحو بلادنا ميممين المهمه القفر

وفي ضحى الاثنين الموفى عشرين من ربيع الثاني، ودعت مصر وأهلها وجعلنا المشهد الحسيني والأزهر آخر العهد بها، فخرجت صحبة جماعة من الفضلاء المودعين بعد أن برز الركب السجلماسي، ومن انضاف إليه من الطرابلسيين، والجزائريين، فتوادعت مع طائفة منهم بطرف النيل، وعبرت معنا منهم شرذمة إلى العدوة الأخرى، فانقلبت – إن شاء الله – بما ترجوه من النيل؛ تركنا مخيم الركاب بساحة كرداسة، وقد شرب القلب من النوى، واستقبل أم البراري كأسه، فأنشد لسان حالي ما أخرس عنه مقالي: (من البسيط)

طَرَفْي الشَّجْحِ بِدَمْعٍ صَارَ حَاتِمُ طَيٍّ ... وَقَدْ طَوَانِي هَوْلُكُمْ عَنْ سِوَاكُمْ طَيَّ

جُودُوا بِطِيبٍ وَمَالٍ يَا عَرِيبَ الحِمَى ... عَسَى يَعُودُ القَتِيلُ فِي هَوَاكُمْ حَيَّ

آخر : (من البسيط)

خَلِّي الدِّيَارَ لأَهْلِهَا بِمَا فِيهَا ... وَقُلْ سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

وَالْقِ مِعْصَمَكَ تِلْكَ العَزِيمَةَ فِي ... بَحْرِ التَّوَكُّلِ بِسْمِ اللَّهِ يُجْرِيهَا

574 وَأَقَمْنَا هُنَاكَ أَيَّامًا فِي قَضَاءِ أَوْطَارِ ... مِنْ كُلِّ مَا يُحْتَاجُ فِي الأَسْفَارِ

وفي صبيحة السبت الخامس والعشرين من ربيع الثاني، ارتحلنا في برد شديد وريح عاصف مديد، صحبت دليلنا مفتاح ووالده الحسن الجهميان، نطوي مراحلنا السالفة، نتقدمها تارة ونتأخرها أخرى حتى علونا العقبة، فانحرفنا عن طريقنا لاستغنائنا عن منهل المدار، بما حملناه من الجميمة، وهي أحساء بشاطي البحر، تشوبها بعض ملوحة مع ما هو المكان عليه من كثرة الخشاش، سالكين ذات اليسار عن المدار، نزحوا في كثيرة متصلة بعضها ببعض قد أمسك بعضها ما فيه الكفاية من ماء المطر حتى احتجنا للماء بعد ثلاثة أيام، فرجعنا لطريقنا السالف حتى أشرفنا على منهل التميمي، فأنشدنا الأديب العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان القضوي الدمناتي لنفسه وقد رأى

فتى بارعا في الحسن، راكبا على فرس يسابق خلف جارح يغريه على غزال حتى تمكن منها : (من الطويل)

فَيَا عَجَبًا حَتَّى الْغَزَال رَأَيْتُهُ يَصيدُ غَزَالاً يَقْتَفِيه عَلَى النُّعْتِ
يُحَاكِيهِ فِي مَعْنَى الصِّفَاتِ جَمِيعُهَا فَمَا بَالُه لَم يَحْكِه فِي التَّلَفتِ

وقال في ذلك الدراكة الفهامة قاضي الجماعة بمراكش أبو فارس : (من الخفيف)

بتَمِيم رَأَيْتُ بَدْراً تَلألأَ رَاكِبًا صَافِنًا يُنَادِي الألاَ
قَدْ رَمَى مُهْجَتِي بِسَهْم لَحَاظ لَيْتَهُ قَدْ سَقَانِي عَذْبًا زُلاَلاَ
أَضْرَمَ فِي فُؤَادِي نَارَ هَوَاهُ فَأَعْجِبُوا لِغَزَالٍ صَادَ غَزَالاَ

فراجعتهما على البديهة بقولي مداعبا : (من الطويل)

أَلاَ فَلْيَمُتْ بِالْعِشْقِ مَنْ كَانَ مَيِّتًا وَيَتْرُك أَسْبَابَ الغَزَالِ وَمَا يَحْكِي
وَيَأْتِي رِيَاضَ الذِّكْرِ يَجْنِي أَزَاهِرَا يُسَلِّي فُؤَاداً طَالَمَا صَدُّهُ يَشْكِي

وكان ذلك غدوة وقت الاشتغال بالأذكار.

ثم راجعني أبو العباس المذكور على البديهة بقوله : (من الطويل)

نَغُوصُ عَلَى دُرِّ القَوَافِي بِفِكْرَةٍ وَنَسْبِكُ مِنْهَا التِّبْرَ فِي أَحْسَنِ السَّبْكِ
وَنَتْرُكُ مَا شَانَ الشَّرِيعَةَ فِي الْهَوى فَلَيْسَ عَلَيْنَا فِيهِ يَرْجِعُ بِالدَّرْكِ

ولما أخذ الناس أهبتهم بالتميمي محمل الماء لقطع مفازة السروال، واشتد الخطب في ذلك، ألغزت فيه امتحانا للأذهان بقولي : (من الطويل)

خَلِيلَيَّ مَا سَنَى نَسبْتُ لأَوَّل أَوَاخِرَهُ فَعَادَ عَشْرًا بِأَسْرِه
575 وَثُلثَاهُ مِنْهُ ثَان ثُمْنا ثَالِثًا ثَنَا عَشْرَة يفنيه شَفْعًا وَوتْرَه
وَرَابِعَة ثُلْثٌ لِعُشْرٍ عَشِيرِه وَمِنْ ثَالث سُدُسُ عَدِيًا جِذْرَه
وَفِي صَدْرِه نَصْرٌ وَفِي عَجْزِه أَمِيرُ الْمِطِّ بِلاَ جَيْشٍ يَصُولُ بِقَهْرِه
وَلَا تَعْجَبُوا أَنَّ صَاحِبَ الْكُل مِنْكُمْ شِعَارًا يَصُونُ الْمَرْءَ مِنْ بَذْلِ سِرِّه
وَنَحْنُ جَمَادٌ نَرْتَجِي مِنْ إِلاَهِنَا سَلاَمَتنَا فِي سَهْلِه مَعَ وَعْرِه

فافتكه بعد عناء أبو فارس، ونظمه أبو العباس فقال : (من الطويل)

أَتَانَا لُغْـزٌ مِنْكَ يَا بَارِعًـا غَـدَتْ نُجُـومُ السَّمَاءِ تَرْنُو إِلَيْهِ فِي شِعْرِهِ
فَلَمْ أَسْتَطِـعْ عَنْهُ الْجَـوَابَ نَعَمْ لَـهُ أُشِيرُ بِتَوْفِيقِي إِلَـى بَعْضِ سِـرِّهِ
تَسَرْبَلْ بِسِرْبَالِ التُّقَى وَاتَّـزِرْ لَـهُ وَلَبسَ سَرَاوِيلَ الْمَجْدِ فِـي أَمْـرِهِ
وَسَلْ رَبَّكَ الْمَوْلَـى يُعِنْكَ بِفَضْلِهِ لِتَسْلُكَهُ فَالسَّهْـلُ مِنْـهُ كَـوَعْـرِهِ
وَجِـدَّ فَمَهْمَـا تَسْتَتِـرْ لِسُلُوكِــهِ بِسِرٍّ طَرِيقِ الْقَوْمِ تَحْـظَ وَجَهْرِهِ
هُنَالِـكَ فَاكْـرِمْ مِـنْ مِيَاهِ مَعِينِـهِ فَقَدْ حُزْتَ مِنْ كَيْدِ الطَّرِيقِ وَشَـرِّهِ
فَلاَ تَخْشَى بعد ذَا إِذْ وَصَلْتَ مَـا تَرْجَى وَلِلْمَوْلَى تَعَـرَّفْ بِشُكْـرِهِ
فَهَذَا جَوابَ مَـنْ تَشَمَّـرَ سَالِكًـا عَلَى ذَلِكَ النَّهْـجِ الْقَوِيـمِ بِعُسْـرِهِ

وقلت في الجواب : (من الطويل)

سَتَرْتَ رِيَاضاً وَسْطَهَا الْجَرَايِـحُ وَشَأْنُ رِيَاضِ الْجَـوِّ تُقْطَعُ بِالْجَدِّ
خُذُوا مِنْ صُدُورِ الصَّدَدِ حِلاً لِغَيْرِكُمْ وَمَا لِغَرِيبِ الـدَّارِ الاه مِـنْ بُـدِّ

وقلت أيضا : (من الطويل)

أَلاَ سِرْ إِلَى الْمَوْلَـى وَكُنْ حَفِيًّا بِـهِ وَجُبَّ ظَهْرَهُ وَرِدْ غَدِيرًا بِهِ الْمُنَـى
فَفِي نَفَحَاتِ الْحَـقِّ غُنْيَـةُ طَالِـبٍ وَلا سِيَّمَا مَنْ طَافَ بِالْمَيِّتِ وَالْمَغْنَى

فكان من لطف الحق سبحانه وتعالى أن أغنانا بغدران من الأمطار في سائر مراحل السروال حتى أفرغنا ما حملنا على الإبل من ماء التميمي، وبالسراويل أيضا ألغزت في العمامة مخاطبا أبا العباس فقلت : (من الطويل)

أَلاَعِمْ صَبَاحًـا أَبَا السَّيِدِ الأَسِـرْ وَمَنْ هُوَ تَاجُ الْقَارِضِينَ لَدَى الْمَغْنَى
فَـدَيْتُكَ مَـا سَمَى يَعَـانٌ بِرَفْعِـهِ حَوَى كَلِمًا فَأَعْجَبُ لِمَا بِهِ مِنْ مَبْنَـى
فَفِعْلٌ بِهِ حَفِـظَ وَحَـرْفٌ بِـهِ نَفَى سَمَـى بِـهِ كَفَّ فَانْظُرَنَّ ذَلِكَ الأَدْنَى
وَإِنْ ضَمَّ لِلصَّـدْرِ الَّذِي بَعْدَهُ يَلِي تَحِيَّةً أَوْ عَمَىً فَلاَ بَسَ بِـهِ الدَّجَنَـا
وَأَعْجَبُ مِنْهُ ضَمَّ عَجْزٍ فَحَشْـوُهُ فَيَنْتُجُ مِنْهُمَا لاَ لَقَيْـتَ بِـهِ حَزَنًـا
576 وَفِي كُلِّ بَيْتِ الْجَوَابَ يُنَادِي مَنْ لَهُ فِطْنَةٌ لِبَيْتِكَ يَـا طَالِـبَ الْمَغْنَـى

فأجاب بقوله : (من الطويل)

يَا مَنْ عَلَى الرّؤُوسِ كَالعِمَامَهْ ... أَغْنِي بِهِ عَالمَنَا الْفَهَّامَهْ
مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ السَّلاَمِ ... لاَزَالَ فِي كَلاَءَةِ السَّلاَمِ
وَبَعْدُ فَاللّغْزُ مِنَ الْعَجِيبِ ... وَالسِّرُّ لاَ يُفْشَى مِنَ الخلِّ الحَبِيبِ
فَدُمْ عَلَى الأَيَامِ تَطْلُعُ الشّمُوسُ ... مِنْ سِحْرِ نَظْمِكَ تُذَلِّلُ الشّمُوسُ

ولما جرى ذكر ما اشتهر لديهم أن الكريم ما استوفى قط حقه ألغزت في ذلك فقلت : (من الطويل)

أَحَيْرَةَ قَلْبِي يَا ذَوِي الودِّ هَلْ صَحَّ ... كَرِيمٌ وَمَا اسْتَقْصَرَ أَدَاءُ حُقُوقِ
بِحُكْمِ قَوْلِ الله جَلَّ جَلالُهُ ... نُصُوصٌ لَهُ كَشَمْسِنَا فِي شُرُوقِ
فَإِنْ تَعْجَزْ وَالْعَجْزُ لَيْسَ بِشِيمَةٍ ... لَكُمْ فَادْرُسُوا مَا قَبْلَ نُونِ تَفِيقِ

ولما لم يجدوا جوابا أجبت بقولي : (الطويل)

عَلَيْكُمْ سَلامِي مَا جَرَى قَلَمٌ بِمَا ... يَمُدّهُ فَيْضُ الْفَيْضِ مِنْ زَاخِرِ الْغَيْبِ
عَنيتُ مِنَ الأَمْثَالِ مَا اسْتَوْفَى مُحْسِنٌ ... حُقُوقًا فَهَلْ مِنْ مَاهِرٍ يُبْدِ مِنْ غَرِيبِ
وَمَالِي وَلِلأَقْلامِ وَاللّغْزُ مَانِعٌ ... لَهَا مِنْ دُخُولٍ وَالْمَفَصَلُ فِي جَنْبِ
فَفِي قِصَّةٍ لِلْغَبْطِ أَوْ لِمَقَافِرٍ ... جَوَابٌ إِذَا حُقِّقَتْ يَا مُنْيَةَ الْقَلْبِ

ومرادي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾[1] ، في نظائرها من الآيات . وفي ذلك - قديما - يقول أبو سليمان الخطّابي شارح البخاري: (الطويل)

فَسَامِحْ وَلاَ تَسْتَوفِ حَقّكَ كُلّهُ ... وَأَبْقِ فَلَمْ يَسْتَوفِ قَطُّ كَرِيمُ[2]

وهذه فائدة ساقها الله تعالى في هذا المحل، ويضاهيها الأخذ من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3] ، إن الحبيب لا يعذب حبيبه .

1 - التحريم: 3 .

2- البيت نسب له كذلك في مرآة الجنان، 2/ 328 .

3 - المائدة: 20.

وألغز الشريف الأديب مولانا وسيدنا محمد الصديق، من ذرية مولانا عبد الله بن طاهر في لفظ قربة، وقد شاهد ما الناس عليه من الجد في تعمير القرب من التميمي لقطعه مفازة السروال قائلا: (من الطويل)

مَا اسْمٌ أَتَى عَلَى حُرُوفٍ أَرْبَعِ ... أَوَّلُهُ نِصْفُ ثَانِيهِ فَعِ

وَرُبْعٌ لِرَابِعٍ وَيُقْلَبُ ... وَقَلْبُهُ فِي الْجَوِّ حِيناً يُرْقَبُ

يَرْكَبُ فَوْقَ الدَّهْرِ أَوْ يَرْتَفِعُ ... وَأَنْتَ فِي بَسْطٍ مَتَى مَا يُشْبَعُ

وَإِنْ ضَمَمْتَ الْحَرْفَ مِنْهُ أَوَّلاً ... يَصِيرُ طَاعَةً بِهِ قَدْ أُجْتُلاَ

577 فأجبته بقولي : (من الطويل)

لله حِبْرٌ مَاهِرٌ يَسْبِي الْعُقُولَ ... بِسِحْرِهِ الْعَذْبِ الْبَدِيعِ فِي الْقَوْلِ

عَنى وِعَاءَ زُوِّجَ كُلَّ ذِي نَفْسٍ ... فَسَادُهُ بِالثَّقْبِ إِذْ بِيَدٍ وَالنَّفْسِ

وبالسروال ألغز أخونا الأديب أبو عبد الله محمد الحبيب القندوسي في لفظ حجاز قائلا: (من الرجز)

مَا اسْمٌ عَلَى وَزْنِ فِعَالٍ قَدْ أَتَى ... حَرْفَانِ مُهْمَلاَنِ مِنْهُ يَا فَتَى

دَلَّ عَلَى الْعَقْلِ حَتَّى مَا رَخِمَا ... يَعْظُمُ قَدْرُهُ لَدَى مَنْ سَلِمَا

وَإِن حَذَفْتَ الصَّدْرَ مِنْهُ دَلَّ ... عَلَى الْمُرُورِ بِنِظَامٍ جَلَّ

وَإِنْ قَلَبْتَ مَا سِوَى الصَّدْرِ جَرَى ... عَلَى اسْمِ صَبْغٍ حَالِكٍ بِلاَ مِرَا

أَوْ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ السَّرْوِ وَإِنْ ... أَرَوْتَ قَلْبَهُ فَلَفْظُهُ بَيِّنْ

آثَرَ لُقْمَانَ الْحَكِيمُ بَعْدَ هُوَ ... وَإِنْ تَلَوْتَ لَفْظَ عَنْ فَقَبْلَهُ

وَإِنْ حَذَفْتَ نُقْطَةً مِنْ آخِرِهِ ... دَلَّ عَلَى الْعَدُوِّ فَحَقِّقْ وَانْتَبِهْ

وَإِنْ أُعِيدَ الْقَلْبُ يَا أَخَا الْحِجَا ... نَطَقَ تَصْرِيحاً بِرَاحٍ مَنْ زَجَا

وَإِنْ أَزَلْتَ نُقْطَتَيْهِ يَخْرُجُ ... اسْمُ مُدَامَةٍ كُؤُوسٍ تُمْزَجُ

وَنَقْطُهُ بِقَدْرِ عَدِّ الْخَزَنَه ... يَفُوزُ مَنْ يَطْوِيهِ فِي كُلِّ سَنَه

فأجبته بقولي : (من الرجز)

الْحَمْدُ لله الَّذِي قَدْ أَظْهَرَا ... شَمْسَ النَّهَارِ وَبِهَا قَدْ بَهَرَا

وَصَلَوَاتُه عَلَى سِرِّ الْوُجُودِ ... وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أُولِي الْعُهُودِ

مَـا حَلَّت الأَقفَـالُ لِلأَلْغَـازِ مِـنْ فِطْـنٍ قِـرْمٍ شُجَـاعٍ بَـازِ
وَبَعْدُ فَاللُّغْـزُ أَرَاهُ فِـي حِجَـازِ مَسْقُوطِ صُورُهِ تَرَاهُ وَهُوَ جَـازِ
وَهُـوَ فِـي الْقَرِيـبِ ذُو مَبَـانِ يَعْلَمُهَـا مَـنْ لَـجَّ فِـي الْمَعَـالِ
مِنْهَا الغِنَـى وَدَّعَ أَخِـي الثَّنَـا وَالْحَذفُ شِبْهًا وَأَطْرَحُـهُ صَوْبًا
فَهُـوَّ أَمَـسَّ سَيِّـدِي بِالأَدَبِ مَـعَ كَـلامِ اللهِ بَـابِ الطَّلَـبِ
وَقَبْـلَ ذَا أَلْغَـزْتُ ثُـمَّ لَـمْ يَـرَا مُطَّـرِدًا مُنْعَكِسًـا مُخْبَـرَا
سَهْلُـهُ المِيـزَانُ أَوْ نُـوَارُ لاَ يَقْبَـلُ الحَـكَّ وَلاَ يُـدَارُ
عَلَيْكُـمْ مِنِّـي مَـدَا الـدَّوَام تَحِيَّـةٌ طَيِّبَـةُ الأَنْعَـامِ

ومن مستطرفات أبي العباس الدمناتي ما ألغز به، ونحن في السروال أيضا، في النبات المسمى «يشراك» وهو قوله: (من السريع)

578 أَسَائِلُ مَنْ بِهِ يَجْلُو الْعَرِيصُ وَيَكْشِفُ مَـا تَشَابَـهَ فِي الْخِطَـابِ
فَمَـا شَيْءٌ عَلَى سَاقٍ تَبَرًا وَيُوجَدَ فِي الرِّيَـاضِ وَفِـي الهِضَـابِ
لَهُ فَضْـلٌ يَجْـدِ بِـهِ وَإِنْ لَـمْ يُطَالِبْ فِي النِّعَـالِ وَفِـي الثِّيَابِ
فَإِنْ تَرْشُدَ فَيَشْرَاكَ فِي الْجَـوَابِ وَإِلاَّ فَقَدْ عَدَلْـتَ عَنِ الصَّـوَابِ

فأجبته بقولي: (من السريع)

فَفِي صَدْرِ الأَخِيرِ أَرَاكَ تُبْـدِي غَوَامِضَ حَيَّرَتْ مَـنْ بِالهِضَابِ
فَيَا بُشْـرَى إِنْ أَرْضَيْـتُ رَبِّـي بُعَيْـدَ مَـا وُفِّقْـتُ إِلَـى الْجَوَابِ

ولما بتنا بقرب واد مزرب وسط السروال، وقعت جولة في الركب بسبب ما تخيل عن بعد مما ينيف على سبعين فارسا، فأخذ الناس حذرهم، وركب الجزائري[1] والطربلسي في زهاء مائة فارس، وانضاف إليهم غيرهم من بغالة السجلماسي ورماته، وطافوا بالإبل في مرعاها مجموعها وسط دائرة الركب، وأظهروا من النجدة والقوة ما يحصل به الإرهاب لأولئك، وبات الناس طول ليلهم على الحراسة، فلما صلينا الغداة نادى منادي الركب: أيها الناس خذوا حذركم، فلما ارتحلنا تمايلت خيل أولئك فانقسمت قسما ترى

1- في ح وخ «الجزيري».

الحرب فظنناهم كذلك، فتقدمت طائفة من الحجاج على خيلهم برايتها إليهم، فلما رأوا ما لا يقدروا عليه قالوا: لابأس لابأس إنما نحن أولاد علي ننتهز فرصة من أعدائنا الجهميين، ومن كان في حلفهم، فظنناهم صادقين فافترقنا معهم وتركناهم يجولون في ذلك البساط. فلما تعالى النهار افترق عنا الجزائري آخذا ذات اليمين نحو مرسى ابن غازي، فوقع أولئك الفجرة عليه، فأخذوا له خيلا وقتلوا أنفسا وجردوا شيخ ركبهم، وكان من أولاد سيدي بدر الدين القسمطيني، ثم شد عليهم الجزائري فنال منهم، فأخذ من الأموال أكثر ما أخذوا، وقتل منهم أكثر مما قتلوا. وسرنا نحن مع السجلماسي في كلاءة بارئنا، فلما أشرفنا على رُبى الظاهر، سألني أبو العباس الدمناتي قائلا: ما هذا الموضع؟ فقلت ارتجالا: (من السريع)

هَذا الَّذي يَدَّعِي أَنَّهُ الظَّاهِرُ ... فَأَعْلِه بِالْحَمْدِ تَكُنْ ظَاهِرًا
وَاسْلُكْ سُلُوكًا بَعْده فِيه ... يَمْنَحْكَ الْمَوْلَى جَزِيلَ الْقِرَى
وَالْحَمْدُ لِتَنَعّمِي مَا بِه ... تُحْمَد مَا أَعْمَلْتَهُ مِنْ سُرُر
وَحُمْ عَلَى أَطْلاَلِ مِصْرَاتِه ... وَحَامِدْ وانْدُبْ بِهَا وَاثِرَا
579 وَزُرْ إِمَامًا عَالِمًا مَاهِرًا ... ذَا هِمَّةٍ يَعْلُو بِهَا قَمَرَا
غَوْثٌ هُمَامٌ نَاجِدٌ مَاجِدٌ ... مَا أَمَّهُ الزَّائِرُ الأجِرَا
مَنْ فَيْضُهُ الفَيَّاضُ مَا يُرْتَجَى ... فَعَادَ بَعْدَ عَجْزِهِ قَادِرَا
وَبُثَّ شَكْوَاكَ لَهُ وَلْتَقُلْ ... إذ غَرِيبُ الدَّارِ أَبْغِي الْقِرَى
وَالْبَحْرُ مِفْتَاحٌ فَلاَ تَعُدَّهُ ... فَإِنَّهُ جَبَّارُ مَنْ كَسرَا
وَعَابِرُ السَّلام ذَاكَ الَّذِي ... بِاسْمِي يُدْعَى لَهُمْ فِي الْوَرَا
شَمِّرِ الذَّيْلَ إِلَى بَلْدَة ... بَهِيَّة أَرْجَاؤهَا عَطِرَا
وَأَقصِدَ بِهَا الشِّعَابَ أَنَّ لَهُ ... لِنَهْضَة يُحْكَى بِهَا زَاخِرَا
إيَّاكَ أَنْ تَغْفلَ عَنْ عَابِد ... لِوَاهِب زُرْهُ تَكُنْ ظَافِرَا
وَأَقصِدْ فَرِيداً بَعْدُ لا تَخْشَى ... غَائِلَة النَّائِل مِمَّا جَرَا
وأَمِّنْ إِذا جَلَسْتَ سُكَّانَهُ ... وَصِرْتَ فِي رَوْضِهِمْ نَاظِرَا

وَاعْمَدْ إِلَى قَوْم لَـدَى قابِـس ... وَجِـبْ سِبَاخًا وَامْتَطِـي تُـوزَرَا
وَزُرْ أَبَـا الْفَضْـلَ وَسَائِـر مَـنْ ... بِدَائِـر الرَّبْـعِ بِهَـا قُبِـرَا
وَافْتَـحْ مُرَادًا لَـكَ إِنْ لَـمْ تَجِدْ ... ذَاكَ الْفَتَـى الْجَمَّنِي بِهَـا حَاضِرًا
وَسِـرْ إِلَـى عَقَبَةٍ وَاغْنَـمْ بِـهِ ... زِيَارَةَ يُسَـاوَى بِهَـا خَاطِـرَا
وَإِنْ حَلَلْتُـمْ رَوْضَ بِسَكْـرَةَ ... فَابْـنُ جِبَابِـرَةَ بِهَـا جَابِـرَا
وَخَالُـوا بَعْـدَهُ لاَ تَعُـدَّهُ ... إِلاَّ إِذَا أَتَـيْـتَـهُ زَائِـرَا
وَاحْـذَرْ بِوَادِيـهِ فَـإِنَّ بِـهِ ... بِمَجَـرَّةِ الأَعْـرَابُ فِيهِ تَـرَّا
وَجِـدَّ فِي السَّيْرِ إِلَى بَلْـدَةِ الإِمَام ... إدريس إِمَـامَ الْـوَرَى
وَاعْمَـدْ إِلَى دمنـاتَ وَالْقِ بِهَـا ... عَلَى أَخِـي كُنْتُ بِهَـا سَائِـرَا
هُنَاكَ يُرْخِـي الْعِـزّ ذَلِيـلاً لَـهُ ... عَلَيْـكَ وَأحمد رَبَّـكَ الْقَـادِرَا
وَخَـلِّ تِذْكَـارَ سَـدَادٍ وَقُـمْ ... بِحَـقِّ مَوْلاَكَ وَكُـنْ ذَاكِـرَا

ولما حللنا سلوكا فر جمّال أبو فارس وعباس وجماعتهما بجمال وتركهما في فلاة، فأقمنا أربعة أيام حتى سوقنا الأعراب واسترحنا، واكترى أبو فارس وأصحابه، وكان من أمر هذا الجمّال أنه أخذ منه ضامن ممن صاحب الركب فتبعه حتى وصل أهاليه فانتصف منهم لأبي فارس وأصحابه فلم يضع لهم شيء. *580* وزعم الضامن أن المحارب لما زايل الركب بجماله ليلا، وقع عليه بنو سعد فضربوه ببندقية في ساقه، وأخذوا جماله، وقد قلت في صبيحة هروبه، وإن لم يكن بذلك في أعاريض الشعر وضروبه: (من الرمل)

يَـا رَبِّ يَا عَزِيـزُ يَـا جَبَّـارُ ... وَيَـا شَدِيـدَ الْبَطْـشِ يَـا قَهَّـارُ
عَلَيْـكَ بِالْجَمَّـالِ ذَاكَ الْجَانِـي ... يُدْعَـى بِصَالِـحِ مِـنَ الفَرْجَانِـي
لاَ فَرَّجْـتَ عَلَيْهِ رَبِّـي كَـرْباً ... وَلاَ عَلَـتْ لَـهُ بَعِيـدَ الْبَـتُّ
ذَهَـبَ بِالْجِمَـالِ فِـي فَـلاَة ... أَبْقَـى بِهَـا أَحْمَالَهَـا مُلْقَـاة
بُعَيْدَ مَـا اسْتَوْفَى الكِـرَاءَ حَمْلَهُ ... فَانْسَـلَّ هَارِبًـا فِي حِيـنِ غَفَـلَهْ
تَرَكَنَـا فِـي حَيْرَةٍ لاَ الرَّكْبُ قَامَ ... عَنْ طِيـبِ نَفْسٍ بَاقَـةٌ تُـرَامُ
يَـا رَبِّ مَـا لَنَـا سِـوَاكَ وَزَرُ ... فَخُذْ لَنَـا بِالثَّأْرِ مِنْـهُ نَظْهَـرُ

كَيْفَ يُضَامُ وَفْدُكَ الْمُحْتَرَمُ ... وَيُعْتَدَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَظْلَمِ
لاَ سِيَمَا مَنْ يَنْتَمِي لِلْعِلْمِ ... وَالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ وَأَزْكَى الْفَهْمِ
يَا رَبِّ أَدِرْ عَلَيْهِ دَائِرَةَ ... ذات ثَلاثِ مِنْ شُعُوب هَادِرَة
وَدَمِّرَنَّهُ وَكُلَّ غَادِرِ ... مِنْ حزْبِهِمْ جَمِيعِهِمْ وَفَاجِرِ
حَتَّى يُقَادَ بِسَلاسِلَ الْقَدَرِ ... آخِذَةً مِنْهُ بِأَسْهُمِ الظَّفَرِ
وَاللهِ رَبُّنَا الْعَزِيزُ الْمُقْتَدِرُ ... يَجْعَلُهُ عِبْرَة كُلِّ مُعْتَبِرِ
يُذْهِمُهُ الزَّمَانُ بِالْمَصَائِبِ ... وَيُولِفَه الأَوْصَابَ وَالْمَعَائِبَ
وَيَأْتِيهِ اللهُ بِغَارَاتِ الْعِدَا ... مَعَ ذِلَّةٍ وَقَهْرِهِ طُولَ الْمَدَا
وَيَضْرِبُ اللهُ عَلَيْهِ ذُلَّهُ ... مِنْ بَعْدِ مَا يُبْلَى بِكُلِّ عِلَّةِ
يَا رَبِّ وَاقْصِمْهُ بِسَيْفِ النَّصْرِ ... وَحِزْبَهُ الطُّغَاةَ يَا ذَا الْقَهْرِ
وَانْصُرْ جُيُوشَه عَلَيْهِمْ وَاخْسِرْ ... بِهِ مَوَادَّ ظُلْمِهِمْ وَدَمِّرْ
يَا رَبِّ بِالرَّكْبِ الْجَزِيرِي فَتَكُوا ... وَحُرْمَةَ الأَمِيرِ فِيهِ هَتَكُوا
وَنَهَبُوا غَنَمَ مَنْ بِهِ احْتَرَمْ ... وَمِصْرُ آتِيهِمْ فَلَمْ يَبْقُوا ذِمَمْ
يَا رَبِّ فَرْضُ الْحَجِّ قَدْ تَعَذَّرَا ... أَدَاؤُهُ بِظُلْمِ أَعْرَابٍ جَرَا
لاَ سِيَمَا أَهْلُ الْجَرِيدِ وَالْحِجَازِ ... أُولِي الْمَكَائِدْ بِغَيْرِ مَا مَجَازِ
لاَ الْعِرْضُ يُبْقُونَ وَلاَ الأَمْوَلاَ ... وَلاَ النُّفُوسَ أَوْلَهُمْ إِذْلاَلَ
وَانْصُرْ إِلاَهَنَا وُفُودَكَ عَلَى ... أَهْلِ الْحِرَابَةِ وَبَغِي فِي الْمَلاَ
581 بِحُرْمَةِ النَّبِيِّ وَالأَصْحَابِ ... وَالآلِ وَالأَبْدَالِ وَالأَنْجَابِ
صَلَّى عَلَيْهِمْ رَبُّنَا وَسَلَّمَا ... مَا بَزَغَتْ شَمْسُ نَهَارٍ فَسَمَا

وقد جرت سنة الله تعالى أن من تعرض للركب النبوي بأي إذاية لا يرجع الركب من الحرمين حتى ينفذ فيه الوعيد بما شاء الله تعالى. ومن أغرب ما شاع وذاع عن الحجاج أن الركب الفاسي وأميرهم الفلوسي، لما أغار عليهم أولاد علي ببرقة، وأخذوا لهم جمالا بما عليها، قيض الله تعالى لهم أعداءهم الجهميين، فجاؤوهم بالغارة الشعواء واستأطوهم، فلما رجع الركب الفاسي مرة أخرى جاءه أولاد علي تائبين رادين المظالم، وحدثوهم

أن الجهميين لما أغاروا عليهم رأوا عيانا وسطهم بغالة الركب الفاسي في وقت لا يمر الركب فيه، غيرة من الله تعالى على وفده، ووفد نبيه ﷺ .

ثم أننا لما تعدينا النعيم في بلاد سرت، وقعت علينا زهاء مائة فارس لأولاد سليمان رعية سيف النصر -أميرهم في الوقت- وهم أعداء الجهميين، فأخذنا أهبتنا، فلما رأونا كذلك قالوا: إنما أردنا الفرصة في أعدائنا ونحن لا نتعرض للركب بإذاية، فلم نأمن منهم، ومنعناهم من التسوق وسط الركب، فلما ألحوا علينا بالبيع والشراء معهم، أخذنا منهم رهائن، وباع الناس معهم واشتروا، وباتوا خارج الركب، واستضافوه فأضافهم . وأعراب برقة اليوم لا يعرفون إلا الغارات بعضهم على بعض، فإذايتهم للركب قليلة، وما أخذوا الجزائري المتقدم إلا بدعواهم أن أعداءهم من حلفاء أولاد سليمان معه فأخذوه لذلك .

فصل في ذكر مسائل علمية وقع السؤال عنها فيما بين مصر وطرابلس في رجعتنا هذه

ومنها: من خرج منه مذي بسبب ركوب الدابة وتحركها تحته من غير تقدم لذة ولا إنعاظ[1]، هل هو ناقض للوضوء أولا؟ وهل هو نجس؟ الجواب: إنه خارج بغير معتاد فلا ينتقض به الوضوء إلا بقوله نقض الوضوء بحدث وهو الخارج المعتاد. قال الأجهوري: «ومن تبعه المذي إذا خرج بلذة غير معتادة فينبغي أن يجري على حكم المني الخارج بلا لذة معتادة، فإن لم يوجب الوضوء كفى فيه الحجر، وإن أوجبه تعين فيه الماء»، هـ. وفي الحطاب على قوله: « بِلاَ لَذَّةٍ أَوْ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ – في الكلام على المني– قالوا كمن حك لِجَرَبٍ أو نزل في ماءٍ حار أَوركضَ دَابّتَهُ، وظاهر كلامهم أنه لا غُسل عليه ولو أحس بِمَبَادِئِ اللذة ثم استدام ذلك، *582* وقد قال[2] في الحج : أن ذلك يفسده فَأنظره «[3]، هـ .

قال الزرقاني عن بعضهم : وينبغي تقييده بما إذا لم يحس بِمَبَادِئِ اللذة، وصرح به المصر في المناسك . وبحث الشيخ علي الأجهوري في قياس الماء الحار والحك بجرب على هذإ الدابة، فإن هذئها أقرب لشهوة الجماع منهما فلا يقاس عليها انتهى . وقوله غير قول غيره: هذأ الدابة إن أريد هزها له وعينه أن أريد هزه لها، وعلى الأول ربما يتوهم أن إنزاله من هزها من غير ركضه لا غسل فيه ولو التذ به ودام، والظاهر خلافه. وأما إنزاله بهزها مع ركضه وإدامته إياه فظاهر، لأنه شبيه بحال الجماع ،هـ . وإنما نقلنا أحكام المني لتعلم منها أحكام المذي في مسألتنا، على أن في اللقاني على التوضيح عن الجزولي ما نصه: «واختلف في هذإ الدابة، هل هو لذة غالبة أو نادرة قولان، والمشهور وجوبه أي وجوب الغسل، وظاهره مطلقا أحس بمبادئ

1- نَعَظَ ذَكَرُه نَعْظاً، ويُحَرِّكُ، ونُعوظاً قامَ. والناعُوظُ الذي يُهَيِّجُ النَّعْظَ. وأَنْعَظَ الرجلُ والمرأةُ عَلاهُما الشَّبَقُ. انظر: **القاموس** مادة «نعظ»، 1/ 903 .

2- في **مواهب الجليل** « قالوا » .

3- الحطاب، **مواهب**. . . ، فصل الطهارة الكبرى وهي الغسل ، 2/ 447. مطبعة السعادة .

اللذة أم لا. وقد بحث ابن مرزوق من المصر في قوله: أوغير معتادة، بأن الراجح فيه وجوب الغسل، كما اختاره اللخمي وشهره ابن بشير»، هـ.

ومنها، ما الفرق بين الرضى والرضوان؟ الجواب: إن الرضى قد يقع بعده من الحق سبحانه على عبده سخط، بخلاف الرضوان وهو لايقع إلا في الآخرة. ففي الحديث: «أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[1]، ولأن زيادة المبنى نزل على زيادة المعنى. ومحصل الأمر: أن الرضوان زيادة على نعيم الجنة وهو أعظم من النعيم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2]، وإلى قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾[3]، وهو عبارة عن الفيوض المعنوية الفائضة على الأرواح. ومن أجل هذا كان الرضوان أكبر من الجنان التي هي عبارة عن الفيوض الصورية المتعلقة بالأجسام. قاله الخرشي في **حواشيه الكبرى على تفسير الجلال**. وأشار إليه الشيخ أبو حيان في **البحر**[4].

ومنها، ما الفرق بين آيتي: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[5]، ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[6]، مع أن كلا منهما فعل منفي من أدوات المقاربة، ومع ذلك فآية البقرة صور فيها الفعل عكس آية النور؟ الجواب: إن آية البقرة استدرج فيها الفعل من التعبير بالماضي بخلاف النور، ومن النفي

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجماعة الإمامة باب صفة الجنة والنار، رقم 6183، 5/ 2398؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا. رقم 2829، 4/ 2176. ولفظه: « عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ».

2- التوبة :72.

3- آل عمران: 15.

4- أبو حيان، **تفسير البحر**، 2/ 417.

5- البقرة :70.

6- النور: 39.

بما في حديث البخاري: «ما كدت أصلي العصر»[1] ، في قضية الخندق . واعلم أن الكلام على كاد طويل، وحاصله *583* أن خبرها إذا كانت هي مشبه منفي به المعنى لأنها للمقاربة، فإذا قلت: كاد زيد يفعل، كان معناه: قارب الفعل إلا أنه لم يفعل، فإذا نفيت انتفى خبرها بطريق الأول، لأنه إذا انتفت مقاربة الفعل انتفى هو بالأول، ولهذا كان قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أبلغ من لم يراها . وزعم ابن جني وأبو البقاء وابن عطية أن نفيها إثبات، وإثباتها نفي حتى ألغز بعضهم فيها وغرهم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ لأن الذبح وقع . والجواب عنها من وجهين: أحدهما أنه يحمل على اختلاف زمنين أي ذبحوها في وقت، ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ في وقت آخر، الثاني أنه بمن ينفي مقاربة الفعل عن شدة تعنتهم وحسدهم في الفعل، قاله أبو الحيان[2]، وابن السمين وغيرهما . واختلفوا في آية النور، فقيل المعنى إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها فهو مبالغة في نفي الرؤية كما قاله الزمخشري[3] ، وهو الحق الذي لا يحول عنه، وقيل المعنى رآها بعد عسر وشدة عناء، على أن كاد إذا نفيت تقتضي الإيجاب، وإذا أوجبت تقتضي النفي، وفيه ما علمت والله الموفق . والمسألة تكفل بتحقيقها الرضى وابن هشام في **المغني**[4] .

ومنها، ما معنى التخيير الذي فهمه النبي ﷺ عن آية براءة: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية[5]، مع أن آخر الآية يناقضه؟ الجواب: إن آخر الآية وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ إلخ، لعله تأخر في النزول عما قبله. وكون «أو» ترد للتخيير شائع في كلام العرب، و لو لا أن النبي ﷺ فهم من الآية التخيير لاحتمل أن يقال أن «أو» فيها للإضراب والانتقال،

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب اللباس باب من صلى بالناس بعد ذهاب الوقت ، رقم 571 ، 1/ 214 . ولفظه : « عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللهِ مَا صَلَّيْتُهَا فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ» .

2- أبو حيان، **تفسير البحر**، 1/ 414.

3- الزمخشري، **الكشاف**. . . ، دار الكتب العلمية ط 1415 / 236-235 /19953 .

4- **مغني اللبيب في كتب الأعاريب** لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام.

5- التوبة: 80 .

ولا أقل أن تكون للتسوية، أي الاستغفار لهم وعدمه سواء كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾الآية[1] ، كما فهم فهمه عمر بن الخطاب، جريا على لسان العرب من أن «أو» ليس للتخيير هنا، ومعنى قوله في الحديث: «وسأزيد على السبعين»[2] ، أنه ﷺ فهم أن المراد بالسبعين في الآية الكناية عن العدد الكبير، جريا على عادة العرب إذا أرادوا التكثير من الشيء جاءوا بالسبعين وإن لم يقصدوها بعينها، وعليه فلا إشكال أن يصير المعنى أن تستغفر لهم مرارا كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى:﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ﴾[3]، وتبقى السبعون في الحديث على بابها هذا الذي ارتضاه ابن حجر في هذه الآية بعد أن ساق الإشكال[4] ، والأجوبةعنه وبحث فيها . وقال صاحب **الإنصاف:** مفهوم الآية زلّت *584* فيه الأقدام، حتى أنكر القاضي أبو بكر الباقلاني صحة الحديث وقال: لا يصح أن يقال هذا، ولا يصح أن الرسول قاله . وقال إمام الحرمين في مختصره: هذا الحديث غير مخرج في **الصحيح**، وقال في **البرهان:** لا يصححه أهل الحديث. وقال الغزالي في **المستصفى:** «إلا ظهر أنه هذا الخبر غير صحيح»[5] . وقال الداودي الشارح: هذا الحديث غير محفوظ . وهذا عجيب من هؤلاء الأئمة، كيف باحوا بذلك وطعنوا فيه، مع كثرة طرقه واتفاق **الصحيحين** على تصحيحه، بل وسائر الذين خرجوا في

1- المنافقون : 6 .

2- الحديث : أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب التفسير، باب ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. ولفظه : « عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا قَالَ لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ قَالَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾» رقم 4393 ، 4/ 1715 .

3- التوبة :80 .

4- **فتح الباري** : 8/ 335 – 337 .

5- في **المستصفى:** « إلا ظهر أنه غير صحيح لأنه صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بمعاني الكلام». انظر : **المستصفى من علم الأصول** للغزالي، دار الكتب العلمية، ط2 ، 1983/ 1403 ، 2/ 190 .

الصحيح. وأخرجه النسائي[1] وابن ماجة[2] ، والسبب في إنكارهم صحة ما تقرر عندهم وهو فهم عمر من حمل أو في الآية على التسوية لما يقتضيه سياق القصة، ولأن حكم ما زاد على السبعين حكمها، هـ.

ومنها، ما حكمة قول الإنسان بعد الفراغ من قضاء حاجته: «غفرانك» كما ثبت بذلك الحديث[3]؟ الجواب: إن الطعام لما دخل طيبا وخرج خبيثا عد ذلك كالذنب الذي تجب منه التوبة، فأمر بطلب المغفرة سيما وقد تدخل عليه الداخلة من كون الكسب خبيثا ونحو ذلك من عدم الإستعانة على الطاعة، وترك القيام بالشكر؛ ولأن الإنسان ربما اعترته وسوسة في ذلك المحل بسبب قطع ذكر الله تعالى، فأمر بالاستغفار مما عسى يخطر له، ولأنه محل كشف العورة، وربما تعدا الإنسان الحد في ذلك فأمر بالإستغفار. وأجاب عن ذلك أبو فارس المراكشي بأن الشارع وإن أمرالإنسان بتنحية ذكر الله فيه فهو ذنب باعتبار، فأمر لذلك بالإستغفار، فباحثه بأنه أمر بالترك فامتثل، فكيف يعد ذنبا يستغفر منه ؟ وأجاب عن ذلك الشريف سيدي محمد بن محمد الهاشمي الشهير بالصديق المتقدم الذكر، بأن كفارة المجلس مطلوبة حتى في ختم مجالس الخير وفي عمل الطاعات، فهذا من باب كفارة[4] المجلس[5]، وهو حسن ملائم.

والأوجه أنه جرى منه عليه السلام الاستغفار على عادته من التكثير

1- **السنن الكبرى** كتاب الجنائز وتمني الموت باب الصلاة على المنافقين ، رقم 2093 ، 1/ 638 .

2- **سنن ابن ماجة** كتاب الجنائز باب في الصلاة على أهل القبلة ، رقم 1523 ، 1/ 487 .

3- الحديث أخرجه النسائي في **السنن الكبرى** كتاب عمل اليوم والليلة باب ما يقول إذا خرج من الخلاء ، رقم 9908 ن 6/ 24 ؛ وابن ماجة كتاب الأشربة باب ما يقول إذا خرج من الخلاء ، رقم 300 ، 1/ 110 ؛ وأبو داود كتاب البيوع بابِ ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء ، رقم 30 ، 1/ 8 . ولفظه : « عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْغَائِطِ (أَوْ الْخَلَاءِ) قَالَ غُفْرَانَكَ ».

4- الكفارة : الماحية للخطأ والذنب .

5- لفظ الحديث : «عَنْ نَافِع بن جُبَيْرِ بن مُطْعِم ، عَنْ أَبِيه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ : كَفَّارَةُ الْمَجْلِس أَنْ لا يَقُومَ ، حَتَّى يَقُولَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، تُبْ عَلَيَّ ، وَاغْفِرْ لِي يَقُولُهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ لَغَطٍ، كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ، وَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ ذِكْرٍ، كَانَتْ طَابَعًا عَلَيْهِ». أخرجه الطبري في **المعجم الكبير**، رقم 1587، 2/ 139 والنسائي في **السنن الكبرى** رقم 10261 و 10262 ، 10263 ، 6/ 113 .

منه في سائر تقلباته حتى أنه يعد له في المجلس الواحد مائة مرة [1] ، أو أنه لما كان الخارج من الأخبثين بسبب خطيئة آدم عليه السلام، لما روى أنه وجد من نفسه ريح الغائط فقال: أي ربي ما هذا؟ فقال: هذا ريح خطيئتك . فكان ﷺ يقول: «غفرانك» التفاتا لهذا الأصل، والله أعلم .

ومنها، بم كان يتعبد عيسى عليه السلام من لدن صعوده ورفعه إلى السماء إلى نزوله إلى*585* الأرض، أبشريعته- إذ الأصل الاستصحاب- أو بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم، أم غير مكلف بشريعة وإنما هو متعبد بما يتعبد به الملائكة الذين هو بين ظهرانيهم؟ الجواب: إنه لم يتعبد بعد الرفع بشريعته ولا بشريعة نبينا لأن نبينا صلى الله عليه وسلم ليس مبعوثا إذ ذاك بل ولا بموجود، وبعد بعثته إلى الآن لم يكن عيسى عليه السلام في عالم البشر حتى يخاطب بما يخاطب به البشر وإنما هو في عالم الملائكة، فهو مخاطب بما تخاطب به الملائكة، متعبد بما هم متعبدون به، ويدل لذلك في **تفسير البغوي** وغيره أن الله تعالى لما رفعه إلى السماء «كساه الريش وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار مع الملائكة وهو معهم حول العرش، وكان إنسيا ملكيا سمائيا أرضيا»[2] .

وقال بعضهم لما رفع إلى السماء صار كالملائكة في زوال الشهوة، وهذا كله أن بينا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبعث للملائكة، وأن السماء ليست محلا للتكليف، كما للجمهور خلافا للسيوطي في **الخصائص**[3] . وأما بعد نزوله إلى الأرض فلا شك أنه يتعبد بشريعة نبينا، بل يحكم بها كما ثبت ذلك، وحكى عليه الإجماع. وفي رواية لإبن عباس: «فيصلي الصلوات ويجمع الجمع»[4] ، ومجموع الخمس وصلاة الجمعة لم تكن لغير هذه الملة. فإن قيل: فما

1- لفظ الحديث : «عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم 2702، 4/ 2075 .

2- ينظر: **تفسير البغوي** : 2/ 45 سورة آل عمران الآية55 ؛ **تفسير الطبري** ، ج23/ 94 ؛ **الدر المنثور**، 7/ 118 .

3- **تهذيب الخصائص النبوية الكبرى** للسيوطي .

4- وقفت على الحديث في **كنز العمال** ، كتاب القيامة من قسم الأعمال ، رقم14، 39720/ 260 .

كيفية حكمه، باجتهاده هو أم بمذهب أحد المجتهدين؟ الجواب أنه منزه عن أن يقلد غيره بل هو أولى بالإجتهاد، وأحكام شرعنا يعلمها من القرآن إذ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1] ، وإنما احتجنا نحن إلى غيره لقصورنا. وقد كانت أحكام نبينا صلى الله عليه وسلم كلها مأخوذة من القرآن كما قال الشافعي، فلا يبعد أن عيسى كذلك، أو بروايته السنة عن نبينا ﷺ، بأنه اجتمع به في حياته مرات، ومن تم عد من الصحابة كما في رواية ابن عدي عن أنس وابن عساكر عنه، وقد صرح السبكي أنه يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة، إما بكون يتلقاها من نبينا ﷺ شفاها بعد نزوله من قبره كما في رواية أبي يعلى . وإما بكونه تعالى أوحاها إليه في كتابه وغيره، فإن قيل وهل يوحى إليه بعد نزوله؟ الجواب: نعم كما في حديث مسلم وغيره عن النواس بن سمعان[2] . وفي رواية صحيحة «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إليه يا عيسى[3] إني قد أخرجت عبادا لي لاَ يَدَانِ لأحد بقتالهم فَحَرِّزْ *586* عبادي إلى الطور»[4] ، وذلك الوحي على لسان جبريل لا كما زعمه من لا يعبأ به أنه واحد من هذه الأمة . ومع صحته فلا ينافي بقاءه على نبوته ورسالته . وخبر لا وحي بعده باطل، فحديث عدم نزول جبريل إلى الأرض بعد موت النبي ﷺ، فقد ورد عند الطبراني وغيره أن جبريل يحضر كل مؤمن من هذه الأمة عند الموت . قاله ابن حجر الهيتمي في **أجوبته**[5]، والسيوطي في **الحاوي**[6] .

ومنها، هل ثبت أن الأنبياء أو الأولياء يرون الحفظة من الملائكة؟ وهل الأنبياء يسألون في القبور، ويأتيهم كغيرهم نكير ومنكر؟ وهل توزن أعمالهم ويحاسبون في القيامة؟ الجواب: إن رؤية الأنبياء والأولياء للحفظة جائزة

1- الأنعام :39 .

2- **صحيح مسلم**، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم4، 2937/ 2250 - 2254 .

3- في الحديث «أوحى الله إلى عيسى» .

4 - المرجع السابق، 4/ 2253 .

5- ابن حجر، **الفتاوي الحديثية**، باب مطلب خبر لا وحي بعدي باطل، 1/ 424 .

6- السيوطي، **الحاوي للفتاوي** : 2/ 165 .

واقعة، وقوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة »[1] فيحتمل أنه خبر عن مشاهدة. وعن خبر جبريل عليه السلام وظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ إلى ﴿عَتِيدٌ﴾[2]، عمومه حق في الأنبياء، وعليه ففائدة كتب حسناتهم وإن لم تشب بكبرياء للتنزيه بقدرهم في عالم الملائكة، وفي القيامة. وأما صحيفة السيئات فمعطلة في حق الأنبياء ليس فيها ولا الصغير من الذنوب على الصحيح، لا قبل النبوة ولا بعدها. هذا الذي ينبغي أن يراد الله تعالى به، وما روي في الكتاب والسنة مما ظاهره صدور الذنب منهم نحو: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾[3]، ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[4] في نظائر فمأول، والسيد يقول لعبده ما شاء. وما هي إلا حسنات الأبرار سيئات المقربين، نعم يسأل هل للملائكة حفظة منهم على أعمالهم كالبشر؟ الجواب: إنه يبعد كل البعد ذلك لما يلزم عليه من التسلسل، والحفظة إنما هم في حق البشر من الآدميين، والجن إذ هم شقائق الإنس في الأحكام. وأما سؤال الأنبياء في قبورهم فلا معنى له، إذ السؤال إنما هو عن التوحيد والتصديق بالرسل، وإنما يأتيهم من الملائكة بشير ومبشر في مقابلة نكير ومنكر في حق غيرهم. قال ابن حجر الهيثمي: «ومما يدل على ذلك ما صح به الحديث أن الشهيد لا يسأل، وألحق به من مات مرابطا لحديث أحمد وأبي داود أنه:«يأمن من فتنة القبر»[5]، وألحق به القرطبي شهيد الآخرة فقط،

1- الحديث في **صحيح البخاري** بلفظ :» عن أبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺقال (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم فيقول كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون». كتاب الذبائح والصيد ، باب فضل صلاة العصر ، رقم 530 ، 1/ 203 ؛و **صحيح مسلم** ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، رقم632 ، 1/ 439

2- ق: 16 – 18 .

3- طه: 118 .

4 – التحريم: 1 .

5- الحديث في **مسند الإمام أحمد** بلفظ : « عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْمُو عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ ». 6/ 20.

والصديق لأنه أعلى[1] مرتبة من الشهيد، ومنه يؤخذ انتفاء السؤال في حقه ﷺ وفي حق سائر الأنبياء عليهم السلام»[2] . وأما وزر أعمالهم *587* وحسابهم في القيامة فإنما هو على معنى التنويه بعلو قدرهم لا غير .

ومنها، لم قدمت الشفاعة في آية البقرة تارة وأخرت أخرى في قوله لبني إسرائيل: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾الآية[3] ؟ الجواب: إنه تفنن وأجاب عن ذلك الشيخ زكرياء الأنصاري بأن الإشارة في الآية الأولى إلى من ميله إلى حب نفسه أشد منه إلى حب المال، ومن ثم إلى من هو بعكس ذلك هـ. وأجاب السيوطي في **قطف الأزهار** بالتفنن [4] وبه صدر قال . وقال ابن جماعة: الضمير في «منها» في الآية الأولى راجع إلى النفس الأولى، وفي الآية الآتية راجع إلى النفس الثانية، فكأنه بين في الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل، لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل، فقدمت الشفاعة. وبين في الآية الآتية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له. وقال صاحب **المناجاة** : هذا جرى على عادة العرب في دفع المكاره، فمنهم من يقدم الشفعة على الفداء . ومنهم من يقدم الفداء على الشفاعة لأن في نفسه زيادة الإباء، وسلك في الآية الأولى طريق أولئك، وفي الثانية طريق الآخرين، قال أو يقال: سلك فيها مسلك العكس والتبديل وهو من محسنات الكلام قال وهذا الوجه يطرد في جميع ما وقع فيه تقدم وتأخر، هـ.

ومنها، أمهات المؤمنين غير الصديقية أيأتي فيهن الخلاف المقرر في ذات زوجين فأكثر، من يتزوجها في الجنة؟ الجواب: إنهن خارجات من هذا الخلاف، صيانة للجانب النبوي، ولأنهن في معنى المعتدات بعد وفاته ﷺ، ولأن العصمة لم تنقطع بينهن وبينه ﷺ، إذ هو حي في قبره أو يقال: بجريان

1- في خ « أعلا» .

2- ابن حجر، **الفتاوي الحديثية** ، باب مطلب سؤال الملكين ،1/ 20 .

3- البقرة: 47 و 121 .

4- السيوطي، **قطف الأزهار** : 1/ 240 .

الخلاف على معنى إنما إن قلنا بالتخيير فلا تختار واحدة منهن غيره ﷺ فلا ريب إذ هو سيد الأولين والآخرين، وأحسنهم خَلقا وخُلقا بالإجماع . وإن قلت: أنها للأخير من الأزواج فلا إشكال أيضا لأنه لم تتزوج واحدة بعد وفاته صلى الله *588* عليه وسلم، بل يحرم تزوج منكوحته حتى عد ذلك من خصائصه. وإن قلنا للأول من الأزواج فلا إشكال أيضا أنه يتركها للنبي ﷺ لما يحصل له في ذلك من المزية، على أن التحقيق أن هذا القول غير جار في الزوجات الطاهرات، لأن تحريمهن على غيرهن بعد وفاته ﷺ تأبيدي، وكذا لا يأتي القول بالقرعة هنا، على أن بعض العلماء قال: الخلاف المذكور ما لم تمت في عصمة واحد، وإلا كانت له اتفاقا، والزوجات الطاهرات اللاتي مات عنهن صلى الله عليه وسلم، فإنهن أزواجه في الجنة بلا شك، هذا الذي ندين الله تعالى به .

ومنها، هل يجوز جمع محرمتي الجمع في الجنة من أم وابنتها وامرأة وعمتها أو خالتهما ونحو ذلك؟ الجواب: إن ذلك غير جائز، أما في الأم وابنتها فقد جاء في النص، وأما غير ذلك فالظاهر الجواز، وينظر في وقوعه، وذلك أن العلة التي لأجلها وقع التحريم من الحسد والضرر ونحوها زال في الجنة، ولا يستدل على وقوع الغيرة في الجنة، فقول النبي ﷺ، وقد رأى لعمر في النوم قصرا في الجنة: «فأردت دخوله فتذكرت غيرتك»[5] ، لكونهما إذ ذاك بقيد الحياة، إذ المعنى: لولا دخلت وأخبرتك لأمكنت الغيرة من عمر، جريا على عادته، كيف وقد قال عمر: «أوعليك أغار يا رسول الله»[6].

5- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، ولفظه : «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال النبي ﷺ : رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرُّمَيْصَاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة فقلت من هذا ؟ فقال هذا بلال ورأيت قصرا بفنائه جارية فقلت لمن هذا ؟ فقالوا لعمر فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك. فقال عمر بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار» . رقم3476 ، 3/ 1346 .

6- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ، ولفظه : « عن أبي هريرة ﷺ قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال : بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر قالوا لعمر فذكرت غيرته فوليت مدبرا . فبكى عمر وقال أعليك أغار يا رسول الله ». رقم3477 ، 3/ 1346 .

ومنها، كيف توجه قراءة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ﴾[1] برفع اسم الجلالة ونصب العلماء؟ الجواب: إنها رويت عن عمر ابن عبد العزيز، وأبي حنيفة. قال الشيخ أبو حيان: «ولعل ذلك لا يصح عنهما إذ لم يذكرها من اللف والنشر أحد، وإنما ذكرها الزمخشري وأبو القاسم يوسف بن حيان في كتابه **الكامل**»[2] ، وإنها مخرجة على حد، ولكن ملء عين حسيبها. والمراد أن الخشية من جانبه تعالى تفسر بلازمها الذي هو الرضى ونحوه من الإستعارات التي تقتضي التعظيم، والمعنى إنما يعظمهم ويجلهم كما يجل المهاب المخشى من الناس بين الأنام، ويمكن على بعد أن يقال إنه من باب: كسر الزجاج الحجر، وخرق الثوب المسمار. ومن هذا الباب: «**فَتَلَقَّى آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ** »[3] فرفع كلمات ونصب آدم. ومنه «**وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيمُ رَبَّهُ**»[4] فرفع إبراهيم ونصب ربه .

ومنها، لم أوتي بالواو بدل الفاء في قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[5] ؟ الجواب: إنه لو أتى بالفاء لاقتضت الآية: أن الباطل كان ثابتا، فلما جاء الحق زهق وليس كذلك، إذ الباطل زاهق أولا*589* وبالذات، ولا يلزم من وجدانه ثبوته، فأفهم، ولم أر من المفسرين ولا من المعربين من أشار إليه وهو ظاهر.

ومن مستفاداتي عن أبي فارس عن شيخه أبي العباس أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي[6] رحمه الله تعالى: أنه حضر درس شيخه الإمام سيدي سعيد العميري للتفسير بمكناسة الزيتون، وهو يقرر في هذه الآية فسأله سائل عن ذلك، فأجابه على البديهة مع اختصار بقوله: الباطل جفا[7]، وهو معنى ما أجبنا به لله الحمد على الموافقة.

1- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر 28 .

2- أبو حيان، **تفسير البحر**، 6/ 316 .

3- ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ البقرة :36 .

4- ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ البقرة :123 .

5- الإسراء :81 .

6- أحمد بن عبد الله الدكالي الغربي الرباطي، محقق حافظ ، من أكابر علماء عصره، توفي سنة 1177هـ. ترجم له: الكتاني، **فهرس**. . . ، 1/ 119 – 120 ؛ داود، **تاريخ تطوان**، 3/ 86 – 153.

7- جفا : جَفَا الشيءُ يَجْفُو جَفَاءً وتَجافَى لَمْ يلزم مكانَه كالسَّرْجِ يَجْفُو عن الظَّهْر. انظر: **لسان العرب** مادة «جفا» ،14/ 147 .

ومنها، من حلف بثلث ماله للمسجد الحرام إن سافر لبلاد السودان، ثم بعد مدة حلف أن لا يبيع من فلان سلعة وإن فعل فثلث ماله لمسجد عينه، ثم باعها ثم سافر للسودّان؟ الجواب: إنه يلزمه أولا إعطاء ثلثه لما عينه من المساجد، ثم اعطاء ثلث ما بقي للمسجد الحرام عملا بقول **المتن**: «وَ ثُلُثُهُ حِينَ يَمِينِهِ إلا أنْ يَنْقُصَ فَمَا بَقِيَ إلخ»[1] ، وقال في الهيبة : «وإنْ قَالَ : دَارِي صَدَقَةٌ، بِيَمِينِ إلخ»[2].

ومنها، من استسلف من غيره زرعا وقال وقت طلبه منه: «أن يسلفه هذه مطمورة معمرة فإن فتحتها أديتك منها»، وبعبارة استسلفه على أن يؤديه من معين فهلك المعين أو سرق قبل الأداء، أيلزمه أداء ما تسلف إذ هو في الذمة أو لا يلزمه، لأنه إنما تسلف على أن يؤدى فيما يعلمه من ملك، وقد ذهب بغير اختياره؟ الجواب: إنه يلزمه، وذكر الأداء من المعين محضر توثيق واستنزال .

ومنها، مَن اشترى أَمَة فظهر بها الجذري عنده، أهو عيب قديم يوجب الرد على البائع، إذ الأصل فيه أنه بقية حيض في البطن تغذى به الجنين أم لا؟ لأنه من الأمراض الهائجة على الإنسان كغيره من سائر الطبائع، الجواب بعدم الرد، وأنها مصيبة من المبتاع إلا إن سأل عنه البائع فدلس قائلا : نزل بها الجذري مثلا فبرئت منه ونحو ذلك، أو كان قبل عقد الشراء ولم يطلع عليه المبتاع إلا بعد انعقاد البيع، أو حدث بها بقرب انعقاد البيع كظهوره يوم الشراء، لأن البائع يتهم أنه تفطن له لمقدمات ومخايل، فعند ذلك يكون عيبا يوجب الرد على البائع .

ومن مستفاداتي من أبي فارس أنها[3] نزلت بمكناسة أيام السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى، فأفتى فيها علماء وقته بذلك، وخالفهم في ذلك السيد

1- خليل، **مختصر** : 80 . وفيه : « وثلثه حين يمينه إلا أن ينقص فما بقي بمالي في كسبيل الله وهو الجهاد .»

2- م . **س** : 192 . وفيه : « وإن قال: داري -صدقة. بيمين مطلقا، أو بغيرها ولم يعين لم يقض عليه بخلاف المعين .»

3- في **الإعلام** للمراكشي «أني» . 6/ 215 .

عبد الوهاب الدراق، وكانت له خبرة تامة *590* بالطب، وقال: إنه عيب يوجب الرد محتجا بأن الفقهاء يستندون إلى الأطباء في العيوب، وهم حكموا بأن أصله من غذاء الجنين في البطن بالدم، فصار قديما عيبا لهذا المعنى، وكتب في ذلك رسالة سماها «هزّ السمهري، في الرد بالجذري» . فقلت: إن كان مدار رسالته على هذه الحجة فهي واضحة السقوط كما لا يخفى.

قال أبو فارس: وقعت عيني على نص للمالكية بموافقة ما للدراق . قلت : ولا إخال ذلك، اللهم إن كان فيجب تقييده بما قررناه، وبما جرى عرف الناس، يكرهون شراء مَن لم يصبه الجذري، ويزهدون في شرائه وإن كان فبثمن بخس ونحو ذلك، فعند ذلك يجب على البائع البيان، حسبما تقرر في الفقه المالكي أن الضابط في العيب هو نقصان الثمن. قال ابن رشد، وهو الذي عليه فقهاء الأمصار . وفي **المختصر** : «ووَجَبَ [فيهِ][1] تَبْيين مَا يُكْرَهُ »[2] . قال في **التوضيح**: «وهو عام في بيع المرابحة وغيرها»، هـ .

وعليه فإن بين البائع في النازلة أن الجذري أصابها سيما إن وقع البيع والعبد أو الأمة كبيرين في سن، من لم تصبيه في العادة غالبا، فلا شك أنه عيب يوجب الرد لانخراط النازلة في سلك القانون المذكور . وإن كان صغيرين في سن من تصيبها الجذري فالظاهر عدم الرد، لدخول المشتري على ذلك عادة فأفهم . ويؤصل لما أصلناه ما أشار إليه الفاكهاني، وأوضحه الشيخ أبو علي بن رحال من مسألة الغنم إذا دخلها المرض المفني المسمى عند أهلها بالغش[3]، فإن الشاة وإن كانت صحيحة في ظاهرها فسيدركها الغش وتموت غالبا، وسبب ذلك شربها ماء المطر زمن الخريف، فيتحقق عند أربابها هلاكها بذلك، فيبيعونها وهم مدلسون في ذلك .

1- ساقطة من النسخ المعتمدة والزيادة من **مختصر خليل** .

2- **خليل، خليل** : 145 .

3- الغِشُ : ضدُ النُصح وهو مأخوذ مِن الغَشَش وهو المَشْرب الكَدِر . انظر : **لسان العرب** مادة «**غشش**»، 6/ 323 .

وبعد كتابي هذا وجدت لشيخنا الإمام التاودي في جواب له عن المسألة ما نصه: البادي أما الزعر[1] فإنه يرد به. قال ابن المواز : وإن كان في غير العانة. واختلف أصحابنا في تعليل ذلك، فقال سحنون: لأنه يذهب بلذة الوطء، وهذا يقتضي اختصاصه بالفرج . وقال ابن حبيب: لأنه لا تتقى عاقبته من الداء السوء، يعني الجذام» انتهى من المنتقى. وعلى ما قاله ابن حبيب، فوجه الرد به أنه داء، ويتقى منه ما هو أعظم، فلا ينافي قول الشامل ابن القاسم . ولا رد إن قال أهل الطب به جذام، ويظهر بعد عام، وأنكره محمد أنها منه لأن قولهم ذلك لم يستندوا فيه لموجود *591* بخلاف الزعر، فإنه موجود وهو في نفسه داء، ويتقى منه الداء والسوء، وإذا لم يرد بقول أهل الطب المذكور يرد بالجذري من أجل قولهم أن مادته ما يتغدى به الجنين في بطن أمه من الطمث، ومن ثم كانت الحامل لا تحيض، فإنهم - أعني الفقهاء - إنما اعتبروا في الرد بالعيب قدمَه لا قدمَ مادته، وإلا فكثير من الأمراض يتقدم أسبابها، وإنما هو مرض حدث بعد الشراء، فلا رد به. فإن قلت: لم يأت الرقيق عيب يوجب الرد لأنه لا يترك إنسانا . قلت : لا نسلم ذلك، سلمنا فالرد بما العادة السلامة منه، وأنتم تقولون لا سلامة، هـ.

ومنها، ما معنى قوله عليه السلام: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأينما أدركتم الصلاة فصلوا»[2]؟ الجواب: إن معناه إباحة الصلاة لهذه الأمة المحمدية بكل مكان طاهر بوضوء أو تيمم لفاقده، بخلاف بني إسرائيل، ففي شريعتهم أن لا يوقعوا الصلاة إلا بوضوء في مسجد أو غيره بدليل أن عيسى عليه السلام كان يسيح في الأرض ويصلي أينما أدركته الصلاة، وكذا موسى عليه الصلاة والسلام، وبنو إسرائيل لما ذهبوا للاعتذار من عبادة العجل،

1- الزعر : الزَّعَرُ في شعر الرأس وفي ريش الطائر قلّةٌ ورقّةٌ وتفرُّق وذلك إذا ذهبت أُصول الشعر وبقي شَكِيرُه . والجمع زُعْرٌ وازْعَرَّ قَلَّ وتَفَرَّقَ . انظر: **لسان العرب** مادة «زعر» ، 4/ 323 .

2- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه** ، كتاب أبواب المساجدن باب قول النبي ﷺجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، ولفظه : «عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة » . رقم 427، 1/ 168 .

لأنهم كانوا يسافرون بالخصوصية لهذه الأمة إنما هي بالتيمم لا غير . وقيل الخصوصية هي كون الأرض مجالا لإيقاع الصلاة بجملتها لا لإيقاع السجود فقط . ففي رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا: «وكان من قبلي إنما يصلون في كنائسهم» . وهذا نص في موضع النزاع . فثبتت الخصوصية حتى في هذا، والله أعلم .

ومنها، من ترتب في ذمته كفارة يمين في حضر فأراد أن يطعم في السفر، هل بغالب عيش بلد اليمين أم بلد الإخراج؟ الجواب إنه يلزمه غالب عيش بلد الحنث لترتب حق فقرائه عليه، ولو قيل يجزيه الإخراج في بلد اليمين وإن حنث في غيرها من بعد لترتب سبب ذلك بها، والله أعلم .

ومنها، ما مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾بعد قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية[1]؟ الجواب: إنه يعود على المؤمنات والكافرات، أو على خصوص المؤمنات .

ففي **البحر** لأبي حيان: «والإضافة في ﴿نِسَائِهِنَّ﴾ إلى المؤمنات يقتضي تعميم ما أضيف إليهن من النساء، من مسلمة و كافرة كتابية ومشركة من اللواتي يكن في صحبة المؤمنات، وخدمتهن، وأكثر السلف على أن قوله ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ مخصوص بمن كان على دينهن»[2]، وعلى الثاني اقتصر جمهور المفسرين *592*، وبه صدر ابن كثير في تفسيره قائلا : «وقوله ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾يعني تظهر زينتها أيضا للنساء المسلمات دون نساء الذمة، لئلا يصفن لرجالهن . وهذا وإن وجد[3] في جميع النساء ، ففي الذميات أكثر، إذ لا يمنعهن مانع، وأما المسلمات فإنهن يعلمن حرمته فينزجرن عنه»[4] . ثم قال: «وما رواه ابن أبي حاتم، لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات فهو[5] إن

1- النور: 31 .

2- أبو حيان، **تفسير البحر المحيط** : 6/ 413 .

3- في **تفسير ابن كثير** «محذور» .

4- **تفسير ابن كثير** : 3/ 285 .

5- في م . س «هذا» .

صح محمول على الضرورة أو من باب الامتهان»هـ[1] .

قلت: ويمكن على بعد أن يعود الضمير على ما تقدم ذكره به الآية مما لم يذكرفي جنسه النساء، وعليه فكان مقتضى الظاهر أن يقال: «أونسائهم» بالتذكير، ويجلب بأنه جيء به مؤنثا ليكون الكلام على وتيرة واحدة .

ومنها، ما يعني معنى قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[2] ؟ وما فائدة الجملة الثانية بعد الأولى؟ الجواب: إن المعنى أن الزنى لا يصدر إلا من زان أو مشرك. وما فائدة الجملة الثانية بعد الأول مع زانية أو مشركة، فالنكاح معناه الوطء، والآية سيقت لذم الزناة وتشنيع الزنى، وأنه لا يقع فيه إلا زان أو مشرك، ولا يوافقه عليه من النساء إلا زانية أو مشركة. وبعبارة المراد الزاني لا تطاوعه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك الزانية لا ينكحها إلا زان عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه.

وفائدة الثانية بعد الأول أن إستدعاء الفعل تارة من الرجل، وتارة من المرأة- تلويحا غالبا- فإذا وقع استدعاء من الرجل فلا يوافقه على مراده إلا زانية أو مشركة والعكس بالعكس؛ فإن قيل المكره لا يقال عليه زان ولا مشرك، قلنا الحكم للغالب، أو هو خارج بنص آخر من السنة، أوالآية نزلت على سبب خاص فلا تتناول المكره . وقيل معنى الآية: لا يحل لزان أن يتزوج إلا زانية أو مشركة، ولا يحل لزانية أن يتزوجها إلا زان أو مشرك، وعليه فالنكاح على بابه، وبه قال من الشافعية القاضي علي بن حسين الجوزي في كتابه **الموجز**[3]، ومعناه عنده أن الزاني والزانية لا يصح نكاحهما إلا لمن هو مثلهما، وأن الزنا لو طرأ من أحدهما بعد العقد انفسخ النكاح، ثم نسخ هذا الحكم *593 * وأبيح لهما التزوج بمن شاء، أو الأول هو الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين .

1- ن .م : 3/ 285 - 286 .

2- النور: 3 .

3- **الموجز في الفروع** لأبي الحسن علي بن حسين الجوزي الشافعي . انظر :حاجي، **كشف**. . . ، 2/ 1999 .

ومنها، المفروض ليلة الإسراء، هل هو خمسون ركعة أو خمسون صلاة؟ وعلى الثاني فهل فرضت أربعا أو اثنين ؟ وما معنى ذكر الشطر في الحديث[4] ؟ الجواب: إن المفروض هو الخمسون صلاة كما في الحديث، وأقل ما يصدق عليه اسم الصلاة ركعتان، بدليل النفل والوتر تابع للشفع، وبدليل القصر في السفر، ويحتمل على بعد أن يراد خمسون ركعة. وأما مقدار عدد الركعات في كل صلاة فقد تأخر بيانه لوقت الحاجة. ومعنى الشطر: هو الجزء، بدليل رواية الإسقاط خمسا خمسا أو عشرا عشرا كما في أخرى. وقد اختلف في الصلاة ، فقيل: فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر، وهو مذهب عائشة وطائفة من المحققين . وقيل: فرضت أربعا، فأقرت صلاة الحضر ورخص في صلاة السفر، هو مذهب ابن عباس والجمهور.

ومنها، ما معنى قول بعض الأولياء: خضنا بحرا وقفت الأنبياء بساحله؟ الجواب: إن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم في محل التشريع والإقتداء بهم، بخلاف غيرهم من الأولياء، فلذا يقف الأنبياء مع الظاهر بخلاف الأولياء، ألا ترى المتشابه من الكتاب والسنة قد خاض فيه الخلف دون السلف؛ أو يقال: وقفت الأنبياء هبة وجلالة لا غلبة، ولست على وثوق في الجواب، والله أعلم بالصواب .

وبعد هذا وقفت على جواب المسألة للشيخ أبي المحاسن الفاسي حسبما في **مرآة المحاسن** لولده سيدي العربي ما نصه: «الجواب أن الولي لما فاجأته الحقيقة لم يقدر على حملها ولم يثبت لها فغرق في بحرها، وغاب عن كليته

4 - الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام ،(حديث طويل) : « عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال النبي ﷺ : ففرض الله علي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى أمر بموسى فقال موسى ما الذي فرض على أمتك ؟ قلت فرض عليهم خمسين صلاة قال فراجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فراجعت ربي فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك فذكر مثله فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فراجعت ربي فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي ثم انطلق حتى أتى السدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». رقم3164، 3/ 1217 .

لضعفه، وربما أخل ببعض الشرائع في غيبته. والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوياء ثابتون لا يُقدر على التعبير عما هم فيه، وما حصل في مداركهم، ومع ذلك لم يمنعهم شيء عن التبليغ والتشريع، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[1] ، هـ . وما أجبته من معنى هذا فالحمد لله على الموافقة .

ومنها، ما معنى قول النبيﷺ في علي ﷺ: «لو كشفت له الغطاء ما ازداد يقينا»[2] ؟ وهل هذا ثابت من قول رسول الله ﷺ؟ وهل هو مشكل مع قضية إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الآية[3]؟ الجواب: إن يقين الصحابة لا يوازي يَقيَن الأنبياء ، أو المراد *594* لو كشف لعلي اليقين في شيء خاص على أن المدينة لا تقتضي الأفضلية، والمراد: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[4] أي ليزداد اطمئنانا على الاطمئنان، وذلك راجع إلى ما طلبه من معرفة كيفية تعلق الروح بالبدن لا إلى أن الله تعالى هو الفاعل المختار في ذلك . والحديث لم أقف على من خرجه، ولا عرفت له مرتبة بعد البحث التام، نعم في ابن حجر الهيتمي على قول البصيري: لم يزده كشف الغطاء يقينا أنه من قول علي بن أبي طالب نفسه، قائلا: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا . أي لأنه حصل عنده من البراهين القطعية على حقيقة التوحيد ومتعلقاته، والإيمان وصدق الرسل فيما جاءوا به ما لا يزيد اليقين فيه رؤية ذلك عيانا، واحترز بنفي زيادة اليقين نفسه ثمراته، فإن عاقلا لا يشك أن عين اليقين أقوى من علم اليقين، وأن حق اليقين أقوى من عين اليقين، ودليله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[5] فأثبت لنفسه حقيقة الإيمان ويقينه، وطلب زيادة الطمأنينة برؤية العيان، فلا منافاة فيه لما قاله علي بن أبي طالب ﷺ، خلافا لمن وهم فيه .

1- الفاسي، **مرآة المحاسن. . .**، 267.

2- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث .

3- البقرة: 259 .

4- البقرة: 259 .

5- نفسه .

ومنها، هل في زمان أمهات المؤمنين، بعد وفاة فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، من يفضلهن أو يوازيهن من النساء؟ الجواب: إنه لا يوجد من يساويهن في ذلك بدليل: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾[1]، ولا يرد عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية[2]. لأن الشرف إنما حصل لهن بالنبي ﷺ، فإن فارق إحداهن مثلا لأمر، انحطت بها الفضيلة من غيرها من سائر أمهات المؤمنين، بل ربما كانت أشقى من غيرها من سائر النساء بدليل العائدة منه.

ومنها، ما الحكمة في السبع والعشرين أو الخمس والعشرين، على اختلاف الروايات، فيما تفضل به صلاة الجماعة صلاة الفذ؟ فلم يحضرني إذ ذاك جواب، ثم راجعت فوجدته في **الفتح** لابن حجر، بل ولغيره من شروح الصحيح. قالوا: «أجيب باحتمال أن يكون أصله كون المكتوب خمسا، فأريد المبالغة في تكثيرها فضربت في مثلها فصارت خمسا وعشرين. وأما السبع والعشرين فمن جهة ركعات الفرائض ورواتبها وفيه بعد وإنما الكلام في الفروض دون السنة. وأجاب البلقيني عن رواية سبع وعشرين بأن الجماعة اثنان والإمام والحسنة بعشر فتكون الجملة ثلاثين *595* حسنة طرح الأصل فبقي سبع وعشرون»[3]. قال ابن حجر: «الحكمة في هذا العدد الخاص غير محققة المعنى. ونقل الطيبي عن التوربشتي إن ذلك لا يدرك بالرأي بل مرجعه إلى علم النبوءة التي قصرت علوم الأنبياء عن إدراك حقيقتها الخ»[4].

ومنها، مامعنى النزل في آيتي: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾[5]، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[6]؟ الجواب: إن

1- الأحزاب: 32.

2- التحريم: 5.

3- **فتح الباري**: 2/ 133. بتصرف.

4- م. س: 2/ 132.

5- الكهف: 98.

6- الكهف: 102.

أصل النزل في اللغة هو ما يقرى به الضيف أولا[1] ، وعليه فيكون المعنى أول ما يقدم للمؤمنين بعد حسابهم ومرورهم على الصراط في قراهم : دخول الجنة، وبعده يتنوع لهم في النعيم، ومن أعظمه رضوان الله. وأول ما يقدم للمجرمين: جهنم، ثم ينوع لهم بعد ذلك في العذاب: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا﴾ [2]. والأولى أن يكون المراد بالنزول في الآيتين: محل النزول والإقامة، أو يراد بالنزل: الضيافة، كل بما يناسبه، وعليه فالنزل حقيقة في المؤمن، جاز في غيره للمشاكلة والله أعلم . أو من باب: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [3] ، وكقول الشاعر:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وَجِيعٌ[4] . قاله أبو حيان في **البحر**[5]. ومراده أن ذكر النزل في حق الكافر مراد به التهكم، ويرشحه : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا﴾ الآية[6] ، ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الآية[7] .

ومنها، ما معنى الفرار والرعب في الآية: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [8]، وقلوب الأنبياء دائما مستغرقة في المشاهدة، وبشريتهم ممزوجة بقوة الملائكة، فكيف يفر واحد منهم أو يحصل له رعب من مثل ذلك سيما سيدنا محمد ﷺ الجواب: مراد هذه أحدها، أن الخطاب في الآية له ﷺ والمقصود غيره، والمعنى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ﴾ بل كل من يصح منه الإطلاع من باب: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[9]،

1- النَّزُل والنُّزُل ما هُيِّئَ للضيف إذا نزل عليه ويقال: إن فلاناً لحسن النُّزْل والنُّزُل أي الضيافة. انظر : **لسان العرب**، مادة «نزل» ، 11/ 656.

2- الأنبياء: 56 .

3- آل عمران: 21 ، التوبة :34 ، الأنشقاق: 24 .

4- عجز بيت لعمرو بن معد يكرب وصدره : وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهاَ بِخَيْلٍ . (من الوافر) أي : القائم مقام التحية هو الضرب الوجيع. انظر:أبو حيان، **تفسير البحر** ، 6/ 157 .

5- م . س .

6- فصلت: 30 – 31 .

7- الواقعة: 96 .

8- الكهف: 18 .

9- الزمر 62 .

في نظائرها. الثاني: أن القضية شرطية انتفي فيها الثاني لانتفاء المقدم، فهي على الفرض والتقدير والمحال يفرض النفي فلا يلزم منه الوقوع . الثالث: إن النبي ﷺ قد يعرض ما يعرض للبشر، فيفر من غير المألوف، ويجعل له منه رعب، ومن ذلك أنه ﷺ، لما رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، خر مغشيا عليه - كما في رواية - ورجع ترجف بوادره، وفي رواية فؤاده . فإن قيل: إنما كان هذا في مبدأ البعثة، بخلاف الآية المسؤول عنها ؟ الجواب: *596* إن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، مفطورون - قبل النبوة وبعدها - على تقوية القلوب، ومشاهدة عالم الغيوب، والبعثة وملاقاة الملك يزيدهم تقوية واستغراقا، على أن الإرهاصات تقدمت للنبي ﷺ، ومع ذلك لما رأى غير المألوف حصل له ماحصل، ولم أر من بحث في هذه الآية بهذا البحث، والأجوبة ظاهرة لا غبار عليها .

ومنها، مأمومان رأى أحدهما الآخر لما جلس الإمام للتشهد الأخير قائما فظن أن الإمام أكمل صلاته فقام للقضاء، وبعد أن فعل ركنا رأى ذلك المأموم راجعا للجلوس فرجع هو ظانا أن الإمام لم يسلم، هل تبطل صلاتهما أم لا؟ وعليه فهل عليهما سجود بعدي؟ الجواب: صلاتهما صحيحة، ولا سجود عليهما . أما صحة الصلاة فقد نصوا على أن من ظن سلام إمامه فسلم للتحليل فتهيأ خلافه أنه يرجع بتكبير أو بغيره على خلاف، ومسألتنا من بابها، ولا يقال صلاتهما باطلة عملا بقول **المتن**: «وَبتَعَمّدِ[1] : كَسَجْدَة»[2]، لأن نقول لم يتمحضر له العمد هنا لاستناده لظن جائز ففعل جائزا، ولا يقال معهما ضرب من التفريط لأن المأموم إنما أمر بمتابعة الإمام لا بمتابعة المأموم، لأنا نقول لم يتبعه ولم يقتد به، وإنما استدل بفعل المأموم على أن الإمام سلم من صلاته، وبسبب ذلك قام للقضاء . وأما عدم مخاطبتهما بالسجود فظاهر لأن السجود للسهو ولا سهو هنا، وعلى فرض وجوده فلا سهو على مؤتم حالة القدوة بأن سجدا في النازلة قبليا بطلت صلاتهما .

1- أي : بتعمد زيادة ركن فعلي كسجدة تبطل الصلاة

2- خليل، **مختصر**. . .، : 32 .

ومنها، ما معنى اشتراطهم في بيع الحاضن حيث يقام على المتاع أنه يثبت أن البائع أدخل الثمن في مصالح المحضون؟ وعن اليمين، هل تتوجه في دعوى الضمان؟ الجواب عن الأولى: إن ذلك الشرط منصوص لأبي الحسن ونقله في **التوضيح** مسلما له. ولعل وجهه أن الدعوى إنما تتوجه على من كان الأصل بيده فيرفع ذلك بأن يثبت بالموجبات المقدرة . ومنها أن البائع أدخل الثمن في مصالح المحضون لا في مصالح نفسه، ويبحث فيه بأن هذا الموجب لا يمكن إلا بعد البيع وأخذ البائع للثمن، ويجاب بأن المراد أن المبتاع يثبت أن البائع أخذ الثمن ليدفعه في مصالح اليتيم - فيما زعم - لأن الفرض أن من الموجبات الحاجة وهي ربما تكون ظاهرة يمكنه إثباتها، ولا يريد أنه يثبت أن البائع صرفه بالفعل في مصالح المحضون *597* لأنه متعذر . والمصالح كالإنفاق مثلا يختلف زمانها وقدرها، فيحتاج إلى شراء نفقة فيما بين اليوم والليلة مرارا، أو يقال معناه أن الشارع يُكلف البائع بإثبات ذلك للمشتري ليدفع به الدعوى فيما بيده لأن الحق قد تعلق به .

والجواب عن الثانية أنها دعوى تبرع وهي لا توجب يمينا على القاعدة، خلافا لابن عتاب، وربما يترجح قوله اليوم لما شوهد أن الإنسان يمر بسوق مثلا فيجد شخصين متداعيين في حق مالي أو بدني، والمدعى عليه منكر فيجسر المار الظان به فيقول للمدعى: أنا الضامن لك فيما تدعيه عليه أن أثبته؛ على أن ابن سلمون في باب الضمان قال: وإذا ادعى رجل على رجل أنه تحمل له بدين على آخر وأنكر المدعى عليه، فإن كان ادعى أنه تحمل ذلك في أصل الصفقة فله أن يحلفه، وإن لم يدع أنه تحمل له ذلك في أصل الصفقة فإنه من باب دعوى المعروف، وفيه اختلاف . ورأيت لبعض الشيوخ أن اليمين لا تتعلق إلا أن يثبت أصل الدين، أو يقر به الحميل ، هـ .

ومنها، الكائنات في اللوح المحفوظ حتى القرآن خطت فيه بالعربية أم بغيرها؟ الجواب: إن هذا أمر توقيفي لا يعلم إلا من الشارع، وظاهر قوله

تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1] ، أنه خط في اللوح بالعربية . ويظهر من حديث: «نزل القرآن بلغة قريش» [2] خلافه، والله أعلم .

ومنها، كيف عاد الضمير مفردا مؤنثا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[3]، وكان مقتضى الظاهر أن يقال إليهما؟ الجواب: إن للمفسرين في ذلك أجوبة منها: أن الصحابة رضوان الله عليهم لما كان قصدهم التجارة دون اللهو وهو إنما ذكر في الآية تبعا اقتصر على عود الضمير إليها لأنه المقصود بالذات. ومنها: أن الضمير يعود للرؤية الشاملة للتجارة واللهو، فإن قيل لا معنى لعوده للرؤية، وهي معنى من المعاني، والمعنى لا يقع الانفضاض إليه. فالجواب: أنه عائد إليها على معنى منبها وهو المرء .

ومنها، لم وقع الاقتصار على الأهل في قوله تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾[4] ، بعد قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما شهدنا مهلكهم أو مهلكه وأهله ونحو ذلك؟ فالجواب *598* من وجوه: ومنها أن فيه حذف الواو مع ما عطفت على حد: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [5] والمعنى . ثم ﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾[6] ، أي وهو لدلالة قولهم ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ على ذلك، وكأنهم كرهوا إعادة ذكره إذ لا يكرر ذكره إلا المحبوب، وهم قد كفروا به وبما جاء به .

ومنها، أن البيت إن وقع بأهل الرجل فالغالب وجوده معهم . قد يراد بأهل الإنسان هو وهم كقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾[7] ، ﴿أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[8] والمراد فرعون وقومه .

1- يوسف 2 .

2- ينظر الحديث في كنز العمال ، رقم 4813 ، 2/ 252 ؛ وفي رواية أنه نزل بسبعة أحرف إي بسبع لغات من لغات العرب . انظر : سنن البيهقي الكبرى ، رقم 3805 ، 2/ 385 .

3- الجمعة :11.

4- النمل: 51 .

5- النحل: 81 .

6- النمل: 51 .

7- البقرة : 49 .

8- غافر 46 .

ومنها، أنهم أرادوا التعمية على وليه إذا طلب منهم اليمين ظنوا أن اليمين على وفق نية الحالف، وهذا هو الظاهر ويرشد إليه قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[1].

ومنها، أنهم اقتصروا على ذكر الأهل ثانيا رعاية للفاصلة وفيه بُعد.

ومنها، أنهم قالوا: ﴿مَهْلَكَ أَهْلِهِ﴾خاصة ليكونوا صادقين، فإنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا، وأراد التعريض في كلامهم لئلا يكذبوا، ويدل له أيضا قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. أشار إلى الأول من الأجوبة أبو حيان في **البحر**، ولغيرها ابن جزي وصاحب **الكشاف**، ولم يسلم له أبو حيان: «تخيله في جعل أخبارهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إخبارا بالصدق، وهو يعلم أنهم كذبوا صالحاً، وعقروا الناقة، وعزموا على قتله[2] وأهله»[3]. وانجر به الكلام في ذلك حتى ساق قصيدة له، رائقة في التنبيه على ما في **الكشاف** مما يجب تجنبه، وما فيه من القبائح حتى قال في آخرها: (من الطويل)

لَئِنْ لَمْ تَدَارَكْـهُ مِـنَ اللهِ رَحْمَـةً ... لَسَوْفَ يُـرَى لِلْكَافِـرِينَ مُـرَافِقـا[4]

ومنها، ما معنى قول الإمام البوصيري في **البردة**: (من البسيط)

لَوْ نَاسَبَتْ قَـدْرَهُ آيَاتُـهُ عِظَمـا ... أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ[5]

وما المراد بالآيات؟ وهل تختصر بغير القرآن، وهل هذه الشرطية صحيحة؟ وهل الداعي باسمه هو نفسه ﷺ، أو عام فيه وفي غيره من مؤمني أمته؟ والجواب أن المراد بالآيات المعجزات حتى القرآن، ولا يلزم عليه تفضيل النبي ﷺ على القرآن، ولا أنه لا يناسب قدره لأن لا نعني بالقرآن المعنى القائم بالذات العلية وإنما المراد اللفظ الذي وقع به الإعجاز من الحروف

1- النمل: 51.

2- في **تفسير من** «أقدموا على قتل نبي وأهله».

3- أبو حيان، **تفسير البحر**، 7/ 81.

4- م. س 7/ 82.

5- البردة: **الكواكب الدرية في مدح خير البرية** للإمام البوصيري، دار إحياء العلوم الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ص 7؛ **البوصيري شاعر المديح النبوي**: 48.

والأصوات، ولم يظهر ما في الشرطية كمال التلازم بين مقدمها وتاليها، لأنه يلزم عليها من ذكر اسمه ﷺ على دارس الرمم يحي أنه غاية ما يناسب قدره، وقدره أعظم وأعظم من ذلك عند الله *599* تعالى، وإنما هذا فحسب ما يصله فهم البشر، والداعي عام، ولا تخصص المعجزات بغير القرآن، ولا الداعي به ﷺ، والمعنى لو ناسبت آياته ﷺ قدره لكان إذا دعا باسمه دارس الرمم يحيى بإذن الله، لكنه لا يحيى دارس الرمم عند الدعاء باسمه، فلم تناسب آياته قدره لأنه لا أعظم في منازل الإكرام من أن يحي الميت عند ذكر اسمه، والنبي ﷺ أعظم الخلق عند الله وأكرمه، فتكون منزلته أعظم منازل الإكرام، أو ناسبت آياته قدره، فلما لم يحصل هذه المنزلة من الإحياء باسمه لم تناسب آياته قدره . هذا تقرير كلامه وفيه أبحاث، ولم يزل الناس قديما وحديثا يعترضون على البوصيري، انظر ابن مرزوق في شرحه .

ومنها، سألت بمصراته عن ثمارهم المذبوحة، يعني التي أزيل منها النوى ولا تصلح إلا بذلك، هل الزكاة تخرج من عينها وهي بلح أو بعد ذبحها ويبسها أو من الثمن؟ الجواب: إن الإخراج يكون من عينها بعد تقدير جفافها، هذا الذي في **المعيار** وغيره وعليه المحققون، وما في شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني لا يعول عليه، وفيه ألغز الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي[1] لأهل طرابلس في رحلته للحرمين الشريفين قائلا : (من المتقارب)

أَخـي إِنِّي سَائِـلٌ عَـنْ غَرِيـــب مُحَصَّـلِ فَأَجِبْ بِغَيْـرِ تَــوَانِ
مَا طَعَـامٌ يَصْلُـحُ لِلذَّبْـحِ قَطْعـًا وَهُـوَ لَيْسَ مِـنْ جُمْلَـةِ الحَـيَوَانِ

فأجابه بعض علماء طرابلس بقوله :(من الخفيف)

هُوَ تَمْـرٌ بِأَرْضِ بَلْقَـاءَ غَرْب دُمْـتَ فِي رِفْعَـةٍ وَعِـــزٌ مَكَانَ
هَلْ ذَكَـاهُ بِهِ دِرْهَـــم وَقْــتِ أَمْ ذَكَـاهُ مَـــنْ صَنَّفَهُ يَـا أَمَـانُ

فأجابه الشيخ الهلالي بقوله :(من الخفيف)

هُـوَ مِـنْ صِنْفِـهِ لأجْـلِ جَفَـافِ بَعْـدَ ذَبْحِهِ يَـا فَرِيـــدَ الزَّمَـانِ

1- أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي ، توفي سنة 1175 هـ .

فأجابه الطرابلسي بقوله :(من الخفيف)

إِنَّ هَـذَا الْجَـوَابَ أَثْلَـجَ صَدْرِي   وَهُــوَ فَضْلٌ مُوَافِــقٌ لِلعِيَــانِ

ومنها ما معنى قول الأول ؟ والسائل أبو العباس الدمناتي . (من الوافر)

رَأَيْـتُ قَمَـرَ السَّمَـاءَ فَأَذْكَرَتْنِـي   لَيَـالِي وَصْلِنَــا بِالرَّقمَتَيْــنِ

كِلانَا نَاظِرٌ قَمَرًا وَلَــكِــنْ   رَأَيْـتُ بِعَيْنِهَــا وَرَأَتْ بِعَيْنِــي[1]

فأجبت: قال البلوي في رحلته[2] : وقد وقفت عليها بطرابلس أن المعنى *600* رأيت بعينها التي رأت الحقيقة، ورأت بعيني التي رأت المجاز، وقصد الشاعر أن محبوبته أحق باسم القمر، فهو رآها وهي رأت القمر في السماء، والله أعلم بمراد الشاعر .

ثم وجدت في **نفح الطيب** ما نصه: «ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون نزيل طيبة، على شرفها أفضل الصلاة والسلام[3] ، سأل ابن عبد حكم عن معنى هذين البيتين، ففكر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء، فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة، وأيضا فهو ينظر إلى القمر مجازا، وهو لإفراط استحسانه[4] لها يرى أن قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه، لأنها ناظرة المجاز .

قلت: ومن ههنا تعلم وجه الفاء في قوله: «فاذكرتني» لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة أياها، كان قوله: «رأت قمر السماء فاذكرتني» بمثابة قولك «اذكرتني» ، فتأمله فإن بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ حَقَّ الفهم ينشده «واذكرتني» فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني، لأنها مبنية عليه، وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان» [5] .

1- البيتان في **نفح الطيب** : 5/ 226 .

2- لم أقف عليه في رحلة البلوي، تاج المفرق.

3- في **نفح الطيب** «على تربتها السلام» .

4- في م . س «الاستحسان لها» .

5- المقري، **نفح الطيب** : 5/ 226 –227 .

ذكر وصولنا الثغر الطرابلسيَ أمَّنه الله تعالى

وفي ضحى الأربعاء التاسع عشر من جمادى الثانية، دخلنا طرابلس بعد أن تلقانا الأحبة، فأنزلنا بنو مقيل بساتينهم بالمنشية، فتوارد علينا الفقهاء والأحبة، وبالغوا في الإكرام مدة إقامتنا . ولما اطمأنت بنا الدار، وطاب المسكن والقرار، زرنا من بها من الصالحين، واعتراني بها مرض أشرفت منه على الهلاك، واستمر في نحو اثني عشر يوما . وسعى لي الأحبة خصوصا الكاتب مصطفى خوجة بكل ما رآه نافعا من الأدوية، فلما عزم الركب على الرحيل، لجأت في كشف ضري لباب خالقي وأنا حقير ذليل، فخفت لو يكن الحمد علتي، بعد أن قلت وما هو بأبدع قولتي: (من الكامل)

لُـذ بالنَّبِـي وَآلِـهِ ... وَبِصَحْبِهِ الغُـرِّ الْكِـرَام
وَبِكُـلِّ غَـوْثٍ سَالِـكٍ ... وَبِمَـنْ لَـهُ بِهِـمْ غَـرَامُ
في رَفْـعِ ضُـرٍّ حَـلَّ بِالْمَهْمُـومِ ... مِثْلِـي فِـي الأنَـامِ
نَجْـلُ لِعَابِـدِ وَالسَّـلاَمُ ... الْقَلْـبُ مِنْـهُ فِـي اضْطِـرَامِ
يَـا رَبِّ فَـرِّجْ كُرْبَتِـي ... عَـنْ عَاجِـلٍ مِـنْ ذا السِّقَـامِ

601 وقال في ذلك أخونا العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان القضوي الدمناتي : (من البسيط)

يَا مَـنْ لَهُ تَعْنُو الوُجُـوهُ تَدَارَكْـنَ ... خلاًّ تَلاَشَـا السِّقَامُ عَلَـى وَهَـنِ
رُحْمَـاكَ فِيـهِ عَجِّـلْ شِفَـاءَهُ ... أَنْـتَ الَّذِي عَوَّدْتَنَا مِنْـكَ الْحَسَـنْ
قَـدْ عِيلَ صَـبْرُ مُحَمَّدٍ يَسِّـرْ إِلَـى ... عَبْـدِ السَّـلاَمِ فَسَلِّمَنَّـهُ إِذًا الْمِنَـنْ
وَامْـنُنْ بِعَافِيَةٍ عَلَيْـهِ وَصِحَّـةٍ ... لِلْجِسْـمِ وَالقَلْبِ الْمُحَجَّـبِ بِالْبَدَنِ

فصل من جملة ما استفدته من العلاّمة سيدي العربي الطرابلسي

وقد جرى ذكر تمييز طلبة المشارقة بالعمامة البيضاء - يعني القلة - والشرفاء بالعمامة الخضراء، أن الشهاب الخفاجي في ريحانته قال: يؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾الآية[1].

قلت: في **طبقات** ابن السبكي أن الذي أخذه من الآية أحمد بن عبد الوهاب بن القليوبي قائلا: يؤخذ منه «أن ما يفعله علماء هذا الزمان في ملابسهم من سعة الأكمام وكبر العمامة ولبس الطيالس حسن، وإن لم يفعله السلف لأن فيه تمييزا لهم، يعرفون به ويلتفت إلى فتاويهم وأقوالهم»[2] ، هـ .

وفي كتاب الصلاة من **نوازل البرزلي** عن العز بن عبد السلام أن الفقهاء إذا صار لهم شعار فينبغي أن يلزموه ليسمع لهم، وكذا لابن رشد في زي المرابطين حتى لو كان مخالفا للباس الصلاة، فينبغي لهم التزامه، فيلزم كل صنف ما عرف به . وبهذا يرد على الدكالي في إنكاره على الفقهاء هذا الزي.

وسئلت هل السنة في شعر الرأس الحلق أو التقصير أو التوقير؟ فأجبت: ففعل النبي ﷺ الثلاثة، نعم لم يحلق إلا في النسك . وعن الوعد من الشارع ما باله قد يتخلف ؟ الجواب: إن الوعد شريعة وهي حق، والتخلف ربما جاء من فقد الشرط، إذا انعدم انعدم المشروط . وإليه الإشارة بقول ابن عطاء الله في **الحكم**: « لاَيُشَكِّكَنَّكَ في الوَعْدِ عدمُ وقوع المَوْعُودِ به وإنْ تَعَيَّنَ زَمَانُهُ؛ لئلا يكون ذلك قَدْحًا في بَصِيرَتِكَ، وإخْماداً لنورِ سَرِيرَتِكَ »[3] .

1- الأحزاب: 59 .

2- السبكي، **طبقات**. . .، 5/ 11 .

3- **الحكم العطائية** لابن عطاء الله الاسكندري، قرأها وقدم لها أحمد عبد الرحيم، دار البصائر، مصر، 1425/ 2004، 29 - 30.

ومنه : أمره تعالى لنبينا، ﷺ، بالاستغفار بعد أن وعده، ووعده تحقيق بأنه مغفور له ما تقدم وما تأخر، على أحد التأويلات .

ومنه: «لا تأمن مكري»[1] ، و«إن أمتك»، وحقيقته أن ظاهر الوعد لا تقع على باطل العلم والمشيئة *602*وبذلك تنقطع الآمال إليه تعالى، ولا يُسكن لوعده وإلا وقع الانقطاع عنهُ، وهو سوءُ أدب مع الربوبية، بل حال كمال العبودية عدم الاستغناء عن الربوبية في حال من الأحوال؛ ومن هذا خوف الأكابر بعد تأمينهم لا للشك في الوعد، واعتبر بدعائه ﷺ بالنظر في بعد وإلحاحه على ربه بحر، وعده به وغير ذلك.

ومنه : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾الآية[2] ، وعن الصلاة على النبي ﷺ للجنب ما حكمها؟ وهل يثاب صاحبها؟ وعن سرد الحديث القدسي للجنب؟ والجواب أن الحكم في ذلك الكراهة الشديدة، ولا يبلغ به الحرمة، ويثاب فاعل ذلك من باب الواحد بالشخص له وجهان كالصلاة في الدار المغصوبة .

وعن مسألة نزلت ببلاد الروم، وهي أن المسلمين افتتحوا منها بلدا فسكنوه وأسلم بعض أهلها، ثم أنهم خولفت العادة لهم ذات يوم في الفجر، فطلع فيما بين العشاءَيْن قبل الشفق ، فهل تسقط عنهم العشاء أو لا؟ وعليه ما الحكم؟ والجواب أن هذه البلاد إن كان ديدنها دائما أو غالبا طلوع الفجر بها قبل مغيب الشفق، كان الجواب بالتقدير كأيام الدجال الأعور في آخر الزمان كما ثبت ذلك في الحديث[3]، ومعناه أن الأدراج النورانية الليلية التي بين غروب الشمس وطلوع الفجر يقدر فيها للعشاء قدرها فتصلى إذ لا شفق لهم، ثم إن طلع الفجر صليت الفجر بلا نزاع، وإن كانت عادتهم كعادة غيرهم دائما أو غالبا فتخلفت العادة مرة مثلا فهؤلاء يقدرون أيضا، إلا أنهم يتحرون العشاء بعد طلوع الفجر حتى يغلب على الظن، أو يتحقق أن الليل لو

1- ينظر الحديث في **كنز العمال**، رقم 32341 ، 11/ 227 .

2- الفتح: 27 .

3- حديث طويل أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال وصفته ومن معه ، رقم2937 ، 4/ 2252 .

بقي على عادته لكان الشفق غائبا، إلا أن هذا الوجه ربما تخرج فيه عن وقتها بالطلوع فتصير إذ ذاك قضاءً؛ ويجاب بأنه من باب ما لا يتوصل للواجب إلا به، وبأن الترتيب واجب وإن كان غير شرط . وقد حدثني بهذه البلدة محبنا العلامة الحاج عمورة الجوذع بأنها نزلت باسطنبول فاضطربت فيها فتاوي الحنفية، فأفتى بعضهم بسقوط العشاء وأفتى آخر بالتقدير، والله أعلم .

قلت : والمسألة بعينها منصوصة في **الحاوي للفتاوي** للحافظ السيوطي، وحاصل ما أجاب به: «أن البرهان الفزاري أفتى بوجوب صلاة العشاء والحالة هذه»[1] . قال*603* : «ويؤيده الحديث الوارد في أيام الدجال. وقال الزركشي في الخادم : وعلى هذا يحكم لهم في رمضان أنهم يأكلون إلى وقت طلوع الفجر في أقرب بلاد إليهم، ثم يمسكون ويفطرون بالنهار كذلك قبل غروب الشمس إذا غربت عند غيرهم، كما يصوم المسلمون ويأكلون في أيام الدجال»[2] . ثم قال السيوطي: وأفتى المتأخرون «بأن العشاء لا تجب عليهم لعدم سبب الوجوب في حقهم وهو الوقت»[3] .

وعمن جرح شخصا صانعا يعمل بيده فتعطلت يده لذلك، فهل يلزم الجاني غرم ما فوت عليه من التكسب بعد القصاص في العمد، والدية في الخطأ؟ الجواب: أنه غير لازم في العمد ولا في الخطأ، أما في الأول فالقصاص كاف، ولا تجتمع على الجاني عقوبة المال والقصاص. وأما في الثاني فيؤدي الجاني الدية الواجبة عليه شرعا أو الحكومة أو الأدب حيث لا دية، وذلك أن الدية وما في معناها أنما أديت عن يد صحيحة غير عديمة النفع، وبه الشيخ أبي علي بن رحال على قول **المتن** أواخر الحصاد «وفي أجرة الطبيب قولان»[4]، ما نصه: وتنزل عندنا نازلة كثيرة الوقوع : يجرح الخماس في وقت الحصاد أو وقت الحرث في هذه مثلا، فيمنع من العمل، هل يلزم الجاني أن يعطيه أجرة الخدم في محله، مستدلا عليه بأنه عطله، ولا عنده ما يعيش به غير

1- السيوطي، **الحاوي للفتاوي** : 2/ 319 .

2- م . س .

3- ن . م ، باب المواقيت ، 1/ 31 و 2/ 319 .

4- خليل، **مختصر**. . . : 174 .

ما ذكر؟ و ظهر من كلام اللخمي في الصانع وفي أجرة الطبيب أنه يلزم ذلك الجهد، لأن الظالم أحق أن يحمل عليه لا سيما وهو متعد ظالم للخماس مثلا. ولم أقف فيه على نص بعد البحث عنه، والعلم عند الله سبحانه، وعند رسوله ﷺ، إذ مَنَّ عليه بالعلوم الكثيرة، انتهى فحرره.

وعمن عادته إذا غسل وجهه في الوضوء تضرر بصره أو ازداد ضرره، هل ينتقل للتيمم أو يمسح؟ والجواب: أن فرضه المسح على الوجه، ويتوضأ فيما عداه عملا بقول **المتن**: «أو أَقَلّهُ ولم يضُرَّ غَسْلُهُ وإلا ففَرْضُهُ التيمم. كأَنْ قَلَّ جدا كَيَدٍ، وإن غسلَ أَجْزَأَ »[1]. قوله : ولم يضر راجع للصورتين، إذ المذهب أنه إذا غسل الصحيح بالجريح أوغسل الصحيح ومسح على الجريح كان الجرح أكثر أم لا ، فلو قال المصر إن صح بعض جسده ولم يضر غسله وإلا إلخ لكان أقصر وأوضح قاله الزرقاني، وسلمه من حشى عليه وهو الحق الذي لا شك فيه.

وعمن زوج ابنه الكبير، وأعطاه بسبب ذلك حوائج وحازها الابن في بيت البناء ولم ينص الأب على العارية *604* ولا على الملكية، ولا جرى عرف بواحد منهما، ثم هلك الابن فجرى النزاع بين الموهوب له وبقية الورثة في ذلك؟ والجواب: أن الأصل في العطية أنها على التملك ومن ادعى العارية فعليه إثباتها، فيقع الرد عند ذلك بشرطه ما لم يجر عرف في البلد بأنه على العارية كبلاد سوس المغرب، وإلا فالقول لمدعيها، ويتراجع الورثة فيما بينهم، والله أعلم.

1- خليل، **مختصر**...: 22 .

ذكر خروجنا من طرابلس حفظها الله

وفي ضحى الأربعاء الثالث من رجب، ارتحلنا صحبة المحبين من المودعين علماء وغيرهم من المحبين، ركبانا ومشاة، كبارا وصغارا، وما رجعوا عنا إلا بكركارش في محفل جرت من ملاقي الفريقين دموع، وناهيك بساكن تلك الأطلال والربوع. وقائلة ما ذا التأسف والبكاء، فقلت: أما تسمع قول ذي الحب: (من الطويل)

وكُلُّ مُصِيبَاتِ[1] الزَّمانِ وَجَدْتُهَا سِوَى فُرْقَةِ الأَحْبابِ هَيِّنَةَ الْخَطْبِ [2]

وسرنا في كلأة الله تعالى، فبتنا بالمَدِيَّة[3]، وأحسن قِرانا الأحب في الله تعالى آخذ العهد الناصري الخير الدين السيد محمد بن عبد الخالق جبر الله تعالى حاله وكفاه هم الدارين. ثم منها لأبي عجيلة من بلاد زواغة، فلما ارتحل الركب بعد طلوع الشمس، غارت خيل للظلمة الفجرة النوائل، فسلبت بعض صعاليك الركب ممن تقدم أمامه، فأخذ الناس حذرهم، وهم على الأثر ينتهزون الفرص طول النهار. ثم وقعوا آخره على جماعة تأخرت فسلبوهم من كل ما معهم، فلما لم ينالوا من الركب غاية أمنيتهم، انقلبوا سراقا بالليل مع حراسة الركب، ومع ذلك نالوا منه ما له بال من الأموال والجمال والبغال، فما استرحنا منهم إلا بعد تعد الإيالة الطرابلسية؛ أخزاهم الله تعالى وأذلهم، وأدار عليهم الدوائر حتى يكون كبيرهم وصغيرهم عبرة لأولي البصائر. ولقد جرى الركبان مع الزوارات نحو ذلك في ذهابنا للحرمين، فما رجعنا والحمد لله إلا وحلت بهم الدواهي والرزايا، وذلك أن أمير طرابلس جاءه الخبر على البحر من جربة أن أهل الزوارات أكثروا مراكب منهم يرومون اللحوق بجربة لما بينهم من الألفة في العقائد الفاسدة، فوجه لهم الأمير ولده

1- في **الأغاني** «ملمات».

2- البيت نسبه الأصفهاني لقيس بن ذريح. انظر: **الأغاني**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1412/ 1992، 9/ 220.

3- المدية: من بلاد سرت بين برقة وطرابلس. انظر: الوزان، **وصف إفريقيا**، 2/ 41.

في جيش على البر، فوجدوا - على حين غفلة منهم - المراكب على البحر، وهم مجتهدون في جمع *605* أمتعتهم للرحيل، فحالوا بينهم وبين البحر، فلم يتأت لواحد منهم فرار، فأخذ منهم قناطر من الذهب والفضة، وسائر ما بأيديهم من العروض والدواب. وكانوا ممن قيل: ذوي أموال عريضة، فتركهم ملصقين بالأرض، جزى الله تعالى أمراء الترك خيرا. ولو أجلاهم من بلادهم، بعد أخذ أموالهم، لكان والله من السداد والصلاح في الأرض، فقد كانوا مشهورين بحرابة الركب، مع ما هم عليه من العقائد الفاسدة . ولما وازينا بلدهم، خرجوا في صورة ضعفاء متضعفين، ولا والله ما منهم من طلب الدعاء من الحجاج، ولا ندم على ما جرى بينهم وبينهم في ذهابهم للحرمين، مع علمهم من أين أتتهم المصيبة، وقد خرجوا لتسويق الركب ومكاتل التين على رؤوسهم، ولم نر لتينهم شرقا ولا غربا نظيرا في الحلاوة واللون، فقلت في ذلك ارتجالا ومداعبا لبعض من تنزه عن أكله، لكون المالكين له إباضية، أصحاب عقائد زائغة : (من السريع)

بَـادِرْ إلَى البَاكُـورِ واغْــنِ بِــهِ ... وَلاَ تَحـدْ عَنْهُ مِنْ أَجْــلِ نِفَـاقِ
لاَ سِيَمَـا الـــزُّوْرِيّ إن لَــــــهُ ... حَـلاَوَةَ فِي خُضْرَةٍ بِهَــا فَـاقِ

وأنشدني إذ ذاك أبو فارس لغيره - والحديث شجون- لبعض فقهاء مكناسة الزيتون، وقد واعده صاحب بستان يجتمع معه لأكل الباكور بعيد صلاة الصبح، فجاء الفقيه وتخلف صاحب البستان، فكتب له في ذلك: (من السريع)

بَاكِـرْ إلَى الْبَاكُورِ وَقْـتَ الْغَسَقِ ... وَاجْـنِ جَنَاهُ فِي دِيبَـاجِ الْــوَرَقِ
وَلاَ تَثِـقْ بِالْوَعْـدِ مِـــنْ أَهْلِـــهِ ... فَإِنَّهُـمْ مِـنْ أَجْلِــهِ فِــي قَلَــقِ

وسرنا على طريقنا نتقدم مراحلنا السالفة تارة، ونتأخر عنها أخرى إلى قابس. وسئلت فيما بينه وبين طرابلس عمن وجد ضالة من الإبل وهو عابر سبيل في فيحاء من الأرض بين قبيلتين متعاديتين أيتركهما عملا بالحديث الصحيح : «مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها فدعها حتى يأتيها ربها»[1] ، أم

1- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مساقاة الشرب، باب شرب الناس والدواب من الأنهار، ولفظه : «عن زيد بن خالد ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن اللقطة فقال :=

يأخذها ويعرف بها في المظان؟ الجواب: أنه يجب أخذها والتعريف بها سنة، فإن لم يتأت ذلك، إذ الفرض أن ملتقطها من أبناء السبيل من الحجاج وضعها في بعض البلاد العربية من موضع الالتقاط على يد عدل يعرف بها بعد الرفع للقاضي إن وجد، فإن لم يتأت وضعها بيد أمير، بيعت ووفر الثمن إلى سنة، فإن ظهر ربها أخذه بموجبات الأخذ وإلا تملكه *606* الملتقط إن شاء، ويضمنه لربه إن ظهر بعد ذلك كسائر اللقطات. قال شيخ شيوخنا أبو علي بن رحال: وأما الإبل إذا خيف عليها فالراجح أنها تلتقط أيضا، وعليه فلا مزية لها على غيرها. هذا هو الذي يقتضيه النقل، وهو الذي يقتضيه النظر، ولا أظن أحدا في وقتنا هذا يتوقف في كون الإبل لا فرق بينهما وبين غيرها، لما كثر من النهب في الإبل والسرقة لها، فمن خاف الله تعالى ووجدها فإنه يجب عليه أن يأخذها للتعريف، وإلا أخذها غيره قطعا إن وقف عليها، لأن غالب الناس اليوم ذئاب في ثياب، وربما يكون ذئب الآدمي أشد من الوحش، هـ.

قلت: وهذا ظاهر لأن الحكمة التي لأجلها منع الشارع التقاطها ظاهرة، وهي أنها محفوظة بما خلق الله تعالى لها من القوة والمنعة، وما يسر لها من الأكل والشرب، وهي إن خيف عليها مع ذلك من الآدمي أو السباع تحقيقا أو غلبة ظنا وجب التقاطها، والله أعلم.

وعمن اشترى من طرابلس من شخص معه في الركب دابة من البغال، فلما سافروا من طرابلس بنحو خمس مراحل، قام المبتاع يدعي على البائع أنها لا تعلف علف أمثالها بعد استعمالها في الركوب ونحوه، بعد أن اطلع على العيب، مدعيا أنه إنما سكت ليختبر الدابة، إذ رُبَّ دابة لا تعلف في الحضر إلا قليلا من شبعها وراحتها، فإذا سافرت علفت علف أمثالها، فلما تبين له ذلك قام مدعيا على البائع أتُسْمع دعواه؟ الجواب: إن استعماله بعد اطلاعه على العيب مانع من الرد لإمكان اختبارها من غير استعمال، على

= اعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها. قال فضالة الغنم؟ قال: هي لك أو لأخيك أو للذئب. قال فضالة الإبل؟ قال: ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها». رقم2243، 2/ 836.

أن اختبار علفها يكون في الليلة والليلتين، وهو قد زاد على ذلك، وذلك كله يدل على رضاه بها، فلا رد له . هذا هو المتعين في الجواب، والله أعلم .

ففي **التحفة** : (من الرجز)

وَالْمُشْتَرِي الشَّيْءَ وَبَعْدُ يَطْلُعُ فِيهِ عَلَى عَيْبٍ قِيَامُهُ مَنْعُ
إلاَّ عَلَى الْفَوْرِ وَمَهْمَا اسْتَعْمَلاَ بَعْدَ اطِّلاَعِهِ الْعَيْبَ بَطَلاَ

ومثل الشروح للفور باليوم واليومين خاصة .

ذكر وصولنا مدينة قابس

وفي ضحوة الأربعاء العاشر من رجب، مر جميع الركب بطرف قابس، وذهبت في طائفة من البغالة لزيارة صاحب رسول الله ﷺ، سيدنا أبي لبابة، فتلقانا به سادتنا طلبة الحمارنة، وأجزلوا القِرى، وسأل *607* منهم سيدي محمد البكري عن اشتراط الفقهاء على المشهور في العقار الذي فيه الشفعة أن ينقسم، هل معناه قبول القسمة في الجملة أم في أقل انصباء الورثة؟ الجواب: إنه أنما يشترط ذلك في المجموع لا في كل فرد فرد من أفراد الانصباء.

وعمن هلك عن ابن وزوجات ولم يقع القسم حتى باعت إحدى الزوجات نصيبها من الثمن وهو لا يقبل القسمة، هل نصيبها المبيع يختصر به مشاركها في السهم أم يختصر في العصب أم يشارك غيره بقدر حصته؟ الجواب: إن ظاهر قول **المتن**: «وَقُدِّمَ مُشَارِكُهُ في السّهْم»[1]، الإطلاق قبل نصيبها القسمة أم لا، فعارضني بتقييد الزرقاني له بالقابل للقسم، وإلا اختصر بالشفعة العاصب. فقلت: غير ظاهر، تفتقر دعواه لنص ولا أخاله يجد له مساعدا.

وعمن باع من ذمي سلعة إلى أجل معلوم بمال عظيم، وأخذ على ذلك ضامنا، ثم هلك الذمي مفلسا فلما طلب الضامن من أقر بالكفالة، وأثبت أنها كانت بأجرة أخذها من الذمي وقدرها ثلاثون مثقالا؟ الجواب: إن الضامن فجُعْل[2] فاسد ولا يلزم الضامن من غرم، والمصيبة من رب المال، ولا يقال أن الضامن ورطه فيضمن إذ لا توريط هنا، بل التفريط إنما هو من رب المال، إذ الغالب اليوم، سيما من سلم لذمي في الضمان أن يكون فجُعْل فلو عد ذلك قبل انخرام ذمة المضمون لرد الجُعْل وألزمت الكفالة. والجُعْل في النازلة يرده لورثة المفلس وغرما به، خلافا لمن وهم من أصحابنا من طلبة

1- خليل، **مختصر**...: 176.

2- الجُعْلُ: الرشوة. انظر: **لسان العرب**، مادة «رشا»، 14/ 322؛ **القاموس**، 1/ 1662.

الركب، ففي **المتن**: «و بُطل، إن فَسَدَ مُتَحَمَّلٌ بِهِ، أَوْ فَسَدَتْ: كَبِجُعْلٍ مِنْ غَيْرِ رَبِّهِ لِمَدِينِهِ»[1]. وفي **التحفة** : (من الرجز)

وَهُوَ مِنَ الْمَعْرُوفِ فَالْمَنْعُ اقْتَضَى   مِنْ أَخْذِهِ أَجْرَى بِهِ أَوْ عِوَضَـا

ابن القاسم، فإن نزل وكان بعلم صاحب الحق سقطت الحمالة ورد الجُعْل، وإن لم يكن بعلمه فالحمالة لازمة للحميل، ويرد الجُعْل على كل حال. وقاله أصبغ واللخمي، فإن كان المتحمل عنه موسرا كان من أكل أموال الناس بالباطل، وإلا كان سلفا بزيادة.

رجوع، ثم لما فرغنا من الزيارة وتوابعها، لحقنا الركب في بقية يومنا، ولم نلق بقابس شيخنا أبا بكر القاضي ولا أخاه سيدي عمرو، ولخروجهما للأجنة بأطراف البلد، وقد عجلنا لمرور الركب عنا، ثم تبعناه على الأثر فنزلنا الحامة، وتلقانا الأحب أبو القاسم بن محمد بن عبد الله المجذوب *608* وأدخلنا زاويته وأحسن ضيافتنا، وهش وبش كرفقائه الطلبة سيدي محمد وسيدي حسين وسيدي أبي القاسم بن حسين العدواني إمام الزاوية المذكورة. ولهم كمال المحبة في آل ناصر، كفانا الله تعالى وإياهم هم الدنيا والآخرة.

غـــريـــبـــة : حدثني أبو القاسم المذكور أنه قدم هذه الأيام من مدينة تونس – كلاها الله تعالى – وقد ثبت عند الخاص والعام لديهم أن بلادا كثيرة للروم يقال لها مسيلة خسفت بأهلها وغمرها البحر بعد ذلك على جبل شامخ بإزائها بما يزيد على أربعين قامة، وحُزِرَ ما فيها من الكفرة بما ينيف على مائة ألف، وأن بعض من سافر في البحر من أهل تونس لما وصل تلك البلاد وهو على ظهر البحر، أحس بالسفينة تغوص في البحر، وقد كادت أن تغرق فتلطف وقطع الحبال، فنجت بقدرة الله تعالى، وكان ذلك سنة سبع وتسعين ومائة وألف في مفصل زمن الربيع. ثم لا يشك عاقل أن هذه من الآيات الكبار الدالة على قيام الساعة، لما تقرر أن الخسف والمسخ مرفوعان عن هذه الأمة إلا بقرب قيام الساعة فيقع. وفي **الصحيح** «يغزو جيش الكعبة فيُخْسَفَ بِهِمْ»[2]. نسأل الله تعالى السلامة والموت على الإيمان.

1- خليل، **مختصر**...: 161.

2- أخرجه البخاري، كتاب الحج باب هدم الكعبة، ولفظه: «قالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: يغزو جيش الكعبة فيخسف بهم». 2/ 579.

رجوع ، ثم شددنا السير نحو توزر على طريقنا السالف ، فأصابنا به عطش شديد وسموم حارة ، ووجدنا أولاد يعقوب ومن انضاف إليهم تحزبوا فنهبوا زاوية أبي هلال وأجلوا أهلها . ووجدنا بقية الفجرة منهم بالنخيل الذي بساحة الزاوية، فأخذنا الحذر منهم، ووقعوا مع ذلك على من تأخر من الصعالكة ونهبوا بعض جمال . وبات الركب يحرس منهم تلك الليلة ، وأخلى من البنادق ما ينيف على الخمسمائة إرهابا لأولئك الظلمة . فلما صلينا الصبح ارتحلنا فتعرض لنا الأحب سيدي مهذب ، وأدخلنا وسائر من معنا من الفقهاء وغيرهم زاويته، وأجزل ضيافتنا ، ثم لما صلينا الظهر تبعنا الركب على الأثر فنزلنا توزر .

ذكر وصولنا توزر

وفي الرابع عشر من رجب نزلناها ووجدناها غالية الأسعار، وتعرض لنا الطلبة والأحبة بالترحيب، وهشوا وبشوا للقائنا، وأجزلوا القِرى مدة إقامتنا بها، تقبل الله تعالى منهم. وبها سُئل العلامة الجُمني عن الخِلْو الذي تعرض له الأجهوريون في شروحهم صدر باب العَارية *609* ما معناه؟ فأجبت بأنه هو المراد بالجلسة عند أهل فاس. وقد تعرض لذلك أبو علي بن رحال في شرحه على المختصر، وسيدي أبو القاسم العميري[1] في شرحه للعمليات، وشيخنا أبو عبد الله محمد بن الحسن البناني في حواشيه على الزرقاني. وزادها بيانا الإمام القصار وابن عاشر وأبو زيد الفاسي وسيدي عبد القادر الفاسي، وكلهم يعبرون عن الخِلو بالجلسَة. جرى به العرف لما رأوه من المصلحة فيها فهي عندهم كراء على التبقية. وقد أشار لها في **التوضيح** في باب الشفعة. وقال ناظم **العمل** الفاسي، وهو الشيخ أبو زيد عبد الرحمان بن الشيخ القدوة سيدي عبد القادر الفاسي ما نصه: (من الرجز)

وَهَكَذَا الْجِلْسَةُ وَالْجَزَاءُ مَضَى[2] عَلَى التَّبْقِيَةِ الْقَضَاءُ[3]

وسأل الأنجب الحاج عبد الرحمان بن أبي القطب التوزري عما قدروه في آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[4]، من أن الآية جمعت بين الحقيقة والمجاز ما معنى ذلك؟ الجواب بأن معناه - والله أعلم - أن الصلاة في حق الله تعالى معناها الرحمة التي هي في حقه تعالى مجاز عن زيادة الإنعام، وفي حق الملائكة على بابها من الدعاء والاستغفار. وإطلاق

1- أبو القاسم بن سعيد العميري المكناسي، توفي سنة 1178 هـ.

2- في ح و خ «جرى».

3- الفاسي، **العمل الفاسي**، م خ ح، رقم 5457، ص 4.

4- الأحزاب: 56.

الصلاة على ذلك حقيقة، هكذا قرره الزمخشري[1] وأبو حيان[2] وغيرهما. وزاده بيانا في آية: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾[3]، إذ فيها أيضا الجمع بين الحقيقة والمجاز، ومعنى هذه وعبارة ابن جزي في ذلك وصلاة الله عليهم رحمته لهم، وصلاة الملائكة عليهم يصح، وصلاة الله عليهم دعاؤهم لهم، فاستعمل لفظ يصلي في المعنيين على اختلافهما في الضمير وهو الظاهر.

وسأل عن إعراب: وبحمده، بعد سبحان الله وبحمده؟ والجواب أنه حال، أي أنزه الله تعالى ملتبسا بحمده من أجل توفيقه، وكونه للعطف غير ظاهر وإن قيل به. وعليه فالتقدير سبحان الله تعالى والتبس بحمده؛ وفي ذلك وجوه كثيرة في الإعراب. وصدر الحافظ ابن حجر بالأول وهو كون «الواو للحال»[4]، وذلك يوذن بأرجحيته، والله أعلم.

وسئلت أيضا عمن حلف له ناقل أقاله في حديقة، ثم رام منه شراءها لنفسه بدراهم، أو لِيُحَبِّسْها على مسجد، هل يحنث؟ وعليه فهل إن وهبها مالكها محجور، الحالف يبرأ في يمينه أو يحنث؟ الجواب أنه لا فرق بين المناقلة وبين دفع الثمن، إذ كل منهما بيع فيحنث بشرائها لنفسه *610* وإن حبَّسها بعد ذلك على مسجد، إذ الحنث يقع بأدنى سبب، والتحبيس فرع ثبوت الملكية لقول ابن عرفة: في حده إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازما بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرا، اللهم إن دل البساط على خصوص المناقلة، أو نواها بالخصوص فلا يحنث بشرائها بالثمن، وهبتها لولد الحالف وقبوله وحوزه لولده لا يوقعه هو في الحنث. وعما جرى به عمل الحجاج مع الجمالين، يأتيهم الحاج وهم صعالكة لا يملكون دينارا ولا درهما، فيعقد معهم الكراء على حمل معين بقدر معلوم على أن يسلفه الحاج كذا من الدراهم يشتري بها الإبل التي يحمل عليها، فإذا بتحمل الكراء على الحاج تقاس مع الجمال في السلف؟ الجواب أنه

1- الزمخشري، **الكشاف...**، 3/ 540.
2- أبو حيان، **تفسير البحر**، 7/ 239.
3- الأحزاب: 43.
4- ابن حجر، **فتح الباري**: 13/ 541.

كراء فاسد، لأنه ما سلفه إلا لمنفعة الكراء، والقرض والضمان وفق الجاه يمنع أن ترى لغير الله . وقول بعض أصحابنا : غايته أنه كراء ما في الذمة غير ظاهر، إذ معنى الكراء في الذمة أن يكون الجمال مليا فيكري على البلاغ. وأما إذا كان صعلوكا، واشترط أنه لا يعقد الكراء إلا على شرط السلف، أو جرت العادة بالسلف وإن لم يشترطه الجمال فلا يشك عاقل أنه كراء فاسد. وعمن له على الجمال دين وسكت عن طلبه حتى أخذ الحاج جميع ما بيد الجمال من الإبل والمبتاع في سلف له عليه، ثم قام يطلب المحاصة مع الحاج؟ الجواب أنه لا تكون المحاصة إلا بعد التفليس الخاص أو العام، ولم يقع واحد منهم .

تـتـمـة : أوقفني الشاب الأنجب، بعد إكرامه وإسدائه، أبو عبد الله محمد بن محمد بن منصور التوزري على شرح **مختصر خليل** لوالده في مبيضة في ستة أسفار، مسبوك المتن بالشرح سماه: **نزهة البصر في حل ألفاظ جواهر وشروح المختصر** . وأوقفني الأخ في الله تعالى سيدي خالد ابن إبراهيم على جزء من تفسير الإمام المهدوي الذي ينقل منه ابن عطية وابن عادل وغيرهما، وهو تفسير كبير حسن جامع، وما قط رأيته، لا هو ولا بعضه بالخزانة الناصرية، مع أن بها زهاء الأربعين فيما بين تفسير وحاشية على كتاب الله تعالى من غير تكرار .

ثم ارتحلنا على طريقنا السالف فأصابنا به سموم حارة، وسرنا حتى مررنا بمدينة سيدنا عقبة بن نافع، فدخلنا لزيارته، وبالغ طلبة البلد والأحباء في إكرامنا جزاهم الله خيرا *611*. وكان ممن اجتمعنا به في هذه البلدة المباركة، العالم العلامة المسن البركة سيدي خليفة بن الحسن السِّزْفي نسبة إلى سُزف، قرى صحراوية على خمس مراحل من بسكرة، وكنا سمعنا به ولم نلقه لمغيبه ببلده، وجاء بقصد ملاقاة الركاب النبوية - على عادتهم - وأوقفني على نظم لأبي المودة خليل، وزاد عليه بعض قيود وتنبيهات . وهو نظم سلس لابأس به، غير أن صاحبه غير متمكن في الصناعة العروضية، وإنما النظم عنده سجية، وهو زهاء ثمانية آلاف بيت .

ذكر وصولنا بسكرة النخل

وفي الحادي والعشرين من رجب، نزلناها وفيه التقينا مع الركب الجزائري مشرقا، إذ عادته المرور بها في بعض الأحيان، وفي بعضها يمر بالساحل على قسنطينة على تونس إلى قابس حيث تجتمع الطرق . ورحب بنا الطلبة والمحبون من أهل بسكرة، وأضافونا تقبل الله تعالى منهم .

واعلم أن أكثر بلاد الله تعالى سرقة واختلاسا بلاد الجريد خصوصا بسكرة وماوالاها من بلاد الزاب، فلقد سرق لأناس خباء كبير مضروب على رؤوسهم بالليل، وما أصبحوا إلا في الفضاء، وآخر من الحجاج كسكاس من نحاس على قدره بطعامه نهارا، فنُدل به ندل الثعالب ولم يقدر عليه، إلى غير ذلك مما سرق أو اختلس . ولقد حرس أهل الركب ليلا وهم مجتهدون في إخلاء البنادق، ومع ذلك سرق لأناس أحمال من كتان، حتى أن بعض حجاج سجلماسة حرس سائر الليل فلما قرب الفجر خرج لقضاء حاجة الإنسان طرف الركب فاستيقظ من معه في خبائه من رفقائه، وقد كان يحرس أول الليل، فضربت به عينه فرأى شبحا يظنه سارقا فضربه ببندقية في ساقه، فإذا بالمضروب رفيقه المذكور، فكان من لطف الله تعالى أن أنجاه الكسر، وإنما جرح جرحا خفيفا . وأقمنا بالبلدة أربعة أيام في قضاء أوطار الأسفار، ولم يظهر لكل ما سرق أثر ولا خبر . ووجدنا بها الكلأ خصوصا للبغال مع كثرتهم .

وسئلت بها، والسائل مفتي المالكية بها، عن وثيقة حبس وقع نقل الشهادة فيها من واحد عن جمع، ثم أبطلها الشراء لقصورها عما يتم به النقل، وهو أن ينقل عن كل اثنين ليس أحدهما أصلا. ثم استظهر القائم بالسماع أن الربع المدعى فيه يحرم بحرمة الأحباس، وأنهم لم يزالوا يسمعون من الثقاة وغيرهم أنه حبس على فلان وعقبه، فهل بطلان الشهادة الأولى التي لم يتم *612* فيها النقل تعذر بنية في شهادة السماع ؟ الجواب أن كلا الشهادتين قسم مستقل بنفسه، فإذا توفرت شروط السماع ثبت بها الحبس،

ولا يقال مهما تطرق للشهادة الاحتمال بطلت كما في **المعيار**، إذ يحتمل أن يكون أصل هذا السماع من ذلك المعين الذي لم يتم به النقل، أو ممن نقل هو عنه، لأنا نقول: لا بد من استفسار شهود السماع لبقائهم كما في السؤال بقيد الحياة، فإن ذكروا ما يصح به سماعهم صح وعمل به وإلا فلا . وانظر لو وقع النزاع بعد موتهم، على أن لقائل أن يقول يضم الناقل في شهادة الأصل إلى السماع، فتصير الشهادة قطعية إذ السماع، وإن تعدد صاحبه، فشهادتهم كشهادة رجل واحد، ولذا احتيج في مذهب مالك إلى تقوتها بيمين المستظهر بها، ولذلك لا يستخرج بها من يد الحائز. ولست على وثوق في هذا الجواب إذ لم يحضرني إذ ذاك نص الجواب. ثم وقفت على **نوازل شفشاوني** وفيها سئل ابن عرضون عمن استظهر برسم، ثم أعطى نسخته فأبطلت ثم استظهر بأخرى؟ فأجاب أن الرسم الثاني مستراب لأنه انتقل من دعوى لأخرى، ولو أبيح للخصم الانتقال من دعوى لدعوى لما قطعت حجة المنكرين ولم يعدم تشاجر بين المؤمنين، هـ. والنقل لما لم يتم في نظر الشارع بطل من أصله، فلا يعد شاهدا حتى يقال بصحته للسماع، والله أعلم .

وعمن أكرى لغيره جملا معينا يحمله لبلد معين كراء مضمونا، ثم سرق قبل وصول الغاية المشترطة، هل لرب الجمل المسروق أن يأتي بمثله وزنا ويلزم المكري جمله، أو تنفسخ الإجارة؟ الجواب أن الخيار ثابت للمكتري في الفسخ، والإتيان بمثل المسروق وزنا، ولا كلام للمكري في الفسخ إن أراده، إذ الكراء مضمون في ذمته على البلاغ وهبه في دابة معينة لم تعطب. فالحكم أيضا ما قدرناه، إلا أن يتراضيا عليه؛ خلافا لمن اغتر من أصحابنا، فأجاب عن النازلة بما لا طائل تحته، لقول أبي المودة : وفسخت بتلف ما يستوفي منه لا به، إذ معناه أن الكراء ينفسخ بتلف الدابة المعينة للكراء التي يستوفى منها المنفعة، ولا ينفسخ بتلف ما تستوفى به النفعة كالراكب على الدابة أو الشيء المحمول عليها. وإذا ثبت عدم تحتم الفسخ وطلب رب الدابة *613* البقاء على الكراء، لزم المكتري منه أن يأتي بمثل المحمول وزنا، والله الموفق . هذا إن لم يتعذر عليه الإتيان بمثله وإلا فسخ الكراء . نص عليه غير واحد، قاله أبو علي بن رحال .

وعمن عقد على امرأة وزفت إليه، وبقيت لديه ما يزيد على سنة مختليا بها، مدعيا في مثل ذلك أنها رتقاء، وهي في ذلك تدعي عليه الاعتراض، فنشزت منه ثم ردت إليه، وبعد ذلك بزمان كتب لأهاليها ما نصه : أقدموا لابنتكم واذهبوا بها، ثم لم يفعلوا حتى مرض الزوج فهلك، استحقت الصداق كاملا، وترث زوجها؟ الجواب : لها الصداق كله والميراث . أما الصداق فإنها استحقته بخلوة الالتذاء، وهو مقر بالتلذذ بها بعد العلم بالعيب على دعواه، ولمكثها في بيته سنة كاملة، وكل ذلك يوجب عليه كمال الصداق . وموته وهي في عصمته، يوجب ذلك أيضا؛ وبعثه لأهلها بما ذكر محتمل للطلاق وغيره، والأصل عدمه، فلا تحرم من الصداق ولا من الميراث بهذا الاحتمال .

وعمن حبس متاعه في صحته على أخيه، على أنه إن ولد له هو ولد رجع الحبس لمن يولد له ملكا، وحازه الأخ كما يجب شرعا، ثم تزايد للمحبس ولد ؟ الجواب أن الحبس يرجع للمولود، ففي **المتن:** «وَاتّبِعَ شَرْطُهُ إنْ جَازَ»[1] وفيه : «ولا يُشْتَرَطُ التّنْجِيزُ وَالتَّأْبِيدُ»[2] .

وعما في تفسير الثعالبي المسمى **بالجواهر** على آية : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[3]. قال: «ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات يراد بها الصلوات الخمس، وإلى هذا ذهب عثمان رضي الله عنه في وضوئه على المقاعد، وهو تأويل مالك»[4]. ما معنى المقاعد؟ الجواب: إن عثمان كان يجعل الوضوء والصلاة عقبه نفلا أو فرضا كالكفارة للمجلس، فالمقاعد جمع مقعد وهو اسم لمكان القعود . وعبارة أبي حيان وإليه ذهب عثمان عند وضوئه على المقاعد ،هـ . والمعنى وإليه ذهب عثمان في وضوئه عند الفراغ من كل مجلس . وفي **الصحيحين** أن عثمان توضأ لهم كوضوء رسول

1- خليل، **مختصر**. . . ، 190 .

2- م . س .

3- هود : 114 .

4- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** ، لعبد الرحمان الثعالبي، تحقيق أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416/ 1996، 2/ 141.

الله ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: «من توضأ وضوءه هذا، ثم يصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»[1]. وروى أحمد وابن جرير عن الحارث مولى عثمان قال: «جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن *614* فدعا عثمان بماء في إناء - أظنه قدر مد - فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ وضوءه هذا. ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى الظهر غفر له ما تقدم بينه وبين صلاة الصبح» إلخ الحديث[2] .

وسأل مفتي البلد عما حكاه ابن جزي في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾[3] ، أن المراد بالعرف العادة الجارية بين الناس، وبه احتج المالكية على الحكم بالعوائد، هل هذا التأويل صحيح؟ وهل قال به أحد غيره؟ الجواب: إن المراد عند المحققين بالعُرف المعروف من أعمال البر قولا وفعلا. والآية سيقت للإرشاد إلى مكارم الأخلاق حتى قال جعفر الصادق: ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق منها. وما حكى من أن المراد بالعرف العادة الجارية بين الناس، فغير ظاهر لما لا يخفى أنه ﷺ، إنما كان يحكم بالوحي أو بالاجتهاد في نادر الأحكام، وهو وإن ثبت حكمه ﷺ بالعرف في النادر ، فمستنده الحقيقي هو الوحي . قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ الآية[4]. ولأن هذا التفسير غير ملائم لما قبله ولما بعده، فقد روى أنه ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن معنى الآية، فقال: «اعط من حرمك، وصل من قطعك، واعف عمن ظلمك، واحسن إلى من أساء إليك»[5]. وما احتجاج المالكية بهذه الآية على الحكم

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب المضمضة في الوضوء، رقم162، 1/ 72 ؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم266، 1/ 204 - 205 . ولفظه: « عن حمران مولى عثمان بن عفان أنه رأى عثمان دعا بوضوء فأفرغ على يديه من إنائه فغسلهما ثلاث مرات ثم أدخل يمينه في الوضوء ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاثا ثم مسح برأسه ثم غسل كل رجل ثلاثا ثم قال رأيت النبي صلى الله عليه و سلم يتوضأ نحو وضوئي هذا وقال : من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه»

2- الحديث أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، 1/ 71 .

3- الأعراف: 199 .

4- النجم: 3 .

5- ينظر : **تفسير الصنعاني** لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211) تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد ، الرياض الطبعة الأولى 1410 هـ ، 2/ 246 .

بالعوائد والأعراف، إلا كاحتجاجهم على الصلاة والصوم ونحوهما من كل ما يلزم بالشروع بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1]، واحتجاجهم فيهما واه جدا، على أن ما حكاه ابن جزي لم أجده في **الكشاف**، ومختصريه ومحشيه ولا في القرطبي، مع اعتنائه بمثل ذلك لو صح، ولا في **تفسير** عماد الدين بن كثير بعد البحث فما هو إلا ضعيف جدا أو باطل، والله الموفق.

رجوع، ثم ارتحلنا صبيحة الخامس والعشرين من رجب، فقامت نائرة بين الركب وبين أهل الزاب قرب خلوة الإمام الأخضري، فحُمِدت العاقبة بعد وقوع النهب والجرح من الفريقين. وسرنا حتى خيمنا بقرب سيدنا خالد بن سنان، في السابع والعشرين من رجب، وبه اجتمعنا مع الركبين الفاسي والسجلماسي، ومعهما مولانا اليزيد بن مولانا نصره الله تعالى. ومنذ خرجنا من بلادنا *615* ما طرق آذاننا خبر صحيح ولا كاذب عن أهالينا حتى اجتمعنا بهذين الركبين على ظهور دوابنا، سارت مشرقة وسرت مغربا شتان ما بين مشرق ومغرب، فأخذنا من ابن عمنا الشاب الفاضل أبي عبد الله محمد بن أحمد الحنفي- من ذرية عمنا محمد بن محمد الصغير قاطن زاوية البركة[2]، رزقه الله تعالى حجا مبرورا وذنبا مغفورا- رسائل تخبر عن البلاد وأهلها، وكان مما أخبرت به: موت زوجة لي من ابنة عمي- رحمها الله- وقد كنت تركتها مريضة، وكذا موت ولدي من غيرها أحمد الحبيب، وطائفة من بني عمنا وغيرهم رحمهم الله تعالى.

وكان مما خاطبني به الأديب أبو العباس الدمناتي قوله في ذلك: (من الطويل)

خَليليّ هَـذَا البيْـنُ سدَّد سَمْعَـهُ ... فأَضْنَى فُؤادًا مَا عَلَيْـه لَـهُ ذَنْـبُ
وَأَقْصَى حَبيبًا كان أُنْسِي بِوَحْدَتـي ... أُسَلِّي به سِرِّي إِذَا مَا غَـدَا الخَطْبُ
فَصَبْرًا عَلَى الدَّهرِ الْخَؤُونِ وَشوْبـه ... فَمـنْ دأْبه عَلَـى السَّاعَـات التَّقَلُّبُ
وَلاَ تَجْزَعَنَّ لِلْحَادِثَاتِ وَكُـنْ لَهَـا ... صَبُورًا وَطِبْ نَفْسًا بِمَـا فَعَلَ الرَّبّ

1- محمد: 34.

2- زاوية أسسها الشيخ مَحمد بناصر، وتولي الإشراف عليها ابنه محمد الصغير، خصصت لنزول الوافدين من سوس، تقع وسط مدينة زاكورة. انظر: الناصري، **طلعة**...، 2/ 104.

وَمَا دُمْتَ حَيًّا للزَّمَـانِ عَجَائِبًـا تَرَى تَحْلُـمُ أَنْ أَسَى وَلَـهُ ذَنَـبُ
رَمَاكَ بِسَهْم مِـنْ كِنَانَـةِ غَـدْرِهِ فَكَانَ المُصَابَ مِنْ حَشَاشَتِكَ الْقَلْبُ
كُؤُوسُ الجُبْـنِ فِـي الْبَيْتِ آخِـذَا بُعِيدَكَ مَنْ فِي وَجْهِهِ الْفَرْضُ وَالنَّدْبُ
مُصَابَـانِ فِي آنٍ وَهَاكَ كِلاَهُمَـا لَكَ اللهُ مِنْ خَطْبٍ يُشَقُّ لَـهُ الْجَيْبُ
مَضَتْ وَلَهَا فِي الْخَيْرِ فِعْـلُ أَجِلَّـةٍ كِرَامٍ تَسَامَوا فَاسْتَوَى الْبُعْدُ وَالقُرْبُ
وَبَدْرٌ نَجِيبٌ بِالْعُيُـونِ أُفُولُـهُ وَفِي الصَّدْرِ كَانَ القَبْرُ ثُمَّ لَـهُ غَيْبُ
رَجَوْتُ لَـهُ فِيلَ الْعُلُـومِ تَرَفُّعًـا فَكَانَ إِلَى عِلْمِ الْخَلِيلِ لَـهُ النَّصْـبُ
إِلَى أَشْرَفِ الْجِنَانِ كَـانَ مَصِيرُهُ كَفَالَتُـهُ أَوْلَـى بِهَـا وَبِهَـا يَنْبُ[1]
وَلَيْسَـتْ بِنَافِـعٍ عَلَيْـهِ مَدَامِـعُ وَإِنْ دَامَ مِنْهَا الصَّبُّ وَاتَّصَلَ السَّكْبُ
فَرَحْمَةُ رَبِّي اللهِ تَسْقَـى ضَرِيحُهُمْ تُبَاكِرُهُـمْ كَالْمُزْنِ يَعْقُبُـهُ الْعَـذْبُ
إِذَا مَا أَجَابَ الـتُّرْبَ يَوْمًـا حَبِيبُـهُ فَيَا فَـوْزَهُ إِذْ قَـدْ تَخَيَّرَهُ الـتُّرْبُ
لَئِنْ كُنْتَ تَأْوِيـهِ وَكَـانَ أَنِيسَكُـمْ فَفِي اللهِ مَا يُغْنِـي إِذَا نَـزَلَ الصَّعْبُ
سَتُعْطَى بِفَضْـلِ اللهِ مِنْـهُ خَلِيفَـةً وَإِخْوَتُهُ الْغُـرُّ الْكِرَامُ لَهُ صَحْبُ
إِلَى أَنْ تَجْرَى مِنْهُم عَلَى الدَّهْرِ نَسْلُهُمْ وَالنَّسْلُ أَوْلاَدٌ سِرَابٌ تَرَى نُجْـبُ
فَلاَزِلْتَ يَا فَخْرَ بْنَ نَاصِرِ الرِّضَـى تَسَائِلُكَ الأَيَّـامُ يَانِفُهَـا حَـرْبُ

ثم ارتحلنا نؤم مفازة عبد المجيد القاطعة للبالي والجديد، وأصابنا بها سموم *616* حارة، هلك بها كثير من الإبل. وفي عشية الأربعاء الأول من شعبان، نزلنا ابن الأغواط، وفرحوا بنا غاية، وأكرموا وأسدوا، جزاهم الله خيرا. وفي صبيحته وهو الثاني من شعبان، وجهنا رسولا برسائل لسجلماسة ودرعة وما والاهما من البلاد، يخبر على العادة بما جرى للحجاج. وأنشدنا بالبلد سيدي إسماعيل، وقد جرى ذكر الملاطف وانعدامه في هذا الزمان. (من الطويل)

تَجَنَّبْ صَدِيقاً مِثْلَ مَا واحْذَرِ الّذِي يَكُـونُ كَعُمَرَ بين عُـربٍ وَاعْجَمِ

1- في خ «ينبوا».

ولما جرى التأسف على قلة العلم والاعتناء به، أنشد : (من الطويل)

لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هزا لَهَا الْبَيْتُ بِالبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ

قال : وَلاَ يبنى للفاعل أبدا . فقلت : الرواية بالبناء للفاعل، وحكاها الجوهري ، وصاحب **القاموس**، فرجع منصفا وكأنه اشتبهت عليه مادة عُنى بهزل أو سهى عنها .

ومن مستفاداتي منه أن أصل مادة **القاموس**: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾[1]، إشارة إلى أن اللغة ألقت لمؤلفها العصى والزمان . فقلت: وإن قيل به فغير ظاهر لأن معنى القاموس في اللغة: البحر ، فسمى مؤلفه كتابه بذلك، لجمعه ما لم يجمعه متقدم ولا متأخر ، مع مزيد اختصار وتحرير وتنقير.

وسئلت بالبلد عن بيع الحبُس زمن المسغبة؟ والجواب أنه إن كان على مُعين فلا يجوز بيعه بحال لما فيه من حق الله تعالى، وقطع حق عصبة المحبس بعد انقطاع المحبس عليه لأن المرجع لهم، وكذا إن كان معقبا. وأما إن كان على الفقراء والمساكين ونحو ذلك، ففي المذهب المالكي ما يدل على أنه يُباع ، ويفرق ثمنه عليهم بالإجتهاد . ففي **نوازل** الإمام سيدي عبد القادر الفاسي رحمه الله، سئل القاضي أبو الحسن سيدي علي بن محسود عن أرض المساكين المحبسة عليهم، هل يجوز بيعها في مثل هذه السنة لعيشهم لما نزل من الحاجة والخصاصة بالمساكين أم لا؟ فأجاب: بيع أرض المساكين عليهم في مثل هذه السنة وحياة أنفسهم أفضل عند الله من بقاء الأرض بعد هلاكه. وقد أمرت ببيع كثير منها في مثل هذه السنة، هـ .

فعلى مقتضى هذه الفتوى يجوز رهنها، إذ الرهن أخف لرجاء عوده لحاله. وفيما علقه شيخنا العارف أبو محمد عبد الرحمان بن محمد الفاسي على **مختصر خليل** من باب الحبس ما نصه: «ولا أعرف مستندا لتلك الفتوى، ولعلها اجتهاد في تلك النازلة فلا تتعداها لهما ثلتها نعم مستندها في الجملة اعتبار المصالح المرسلة، وهو أصل مذهب مالك، بل المصلحة في ذلك ضرورية، وهي أولى بالاعتبار من المرسلة، كما تقرر في الأصول ولو لم يسلم *617*

1- الشعراء: 44 .

كون المصلحة ضرورية، فلا أقل من كونها مرسلة، وهي جارية على قاعدة ارتكاب أخف الضررين»، هـ .

وقال شيخنا أبو حفص عمر بن عبد الله الفاسي، رحمه الله تعالى ورضي عنه، في شرحه **للامية الزقاق** على قوله: «من أحدث بدعة ذميم مضللا، ما حاصله؟ أفتى جماعة من فقهاء فاس بجواز بيع الأحباس الموفرة للضرورة، وذلك في المسغبة الفارطة عام خمس ومائة وألف، واستندوا في فتواهم إلى أن ذلك من المصالح المرسلة، وهي من الأصول التي يعتبرها الإمام وإلى فتوى تنقل عن الشيخ أبي الحسن علي بن محسود - رحمه الله - في ذلك وخالف آخرون. وفي نوازل الحبس من **المعيار**، سئل ابن محسود عن أرض المساكين المحبسة عليهم، هل يجوز بيعها في مثل هذه السنة لما نزل بهم من الخصاصة؟ فأجاب بالجواز، هـ .

قال الشيخ أبو حفص أنما يتم ما وجه به أبو زيد الفاسي هذه الفتوى لو سُلم ابن محسود من أهل الاجتهاد. والمطلق على موارد الأدلة العارفين بمقاصد الشريعة، فهؤلاء هم الذين يصح لهم الإستصلاح، كما سبق بيانه، وإلا فمن أين للمقلد أن يجزم أو يدعي غلبة الظن. إن هذه المصلحة فيها تحصيل مقصود الشارع، وأنها لم يرد في الشرع ما يعارضها ولا ما يشهد بإلغائها، مع أنه لا بحث له عن الأدلة ولا نظر له فيها، وهل هذا إلا تجرؤ على الدين وإقدام على حكم شرعي بغير يقين. واحتج لابن محسود بوجوه أخرى منها أن يبيع الأحباس لما ذكر مما يقصد إليه المحبسون، لأنهم لو أطلعوا على الموقوف عليهم، ورأوا ما هم فيه من الخصاص والإشراف على الهلاك رقت أنفسهم لحالهم وطابت باسلام الحبس إليهم لإحياء مهجهم والإبقاء عليهم؛ ففي البيع إذن أعمال لقصد المحبس وإن خالف ظواهر الفاظهم . وأقول أن هذا القصد غير مطرد ولا غالب، لأن الناس لا يعرفون بيع الأحباس للضرورة وإنما يعرفون تأبيده وتخليده، اغتناما للأجر لحديث: «إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث»[1]، فذكر منها الصدقة الجارية . ولقوله ﷺ لعمر حين أصاب

1- الحديث أخرجه ابن حبان في **صحيحه** كتاب الجنائز ، ولفظه : « عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا يدعو إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » . رقم 3046 ، 7/ 286

أرضا بخيبر : «إن شئت حبست أصلها» . وتصدقة بها لا تباع ولا توهب ولا تورث[1] . ونقل ابن حجر عن القرطبي الإجماع على عدم جواز بيع الحبس .

ومنها أن بيع الأحباس لما ذكر مقيس على بيع الدور المحبسة لتوسعة المسجد ونحو ذلك من المسائل التي يجوز فيها بيع الحبس؟ والجواب أن القياس فاسد، لأن المبيع في الأصل المقيس عليه لم تخرج عن الوقفية جملة لرجوعه إلى الوقف *618* بخلاف الفرع المقيس. على أن في النوازل المازونية أن ابن محسود رجع عن فتواه بالبيع . وفي **تبصرة** ابن فرحون ، **ونوازل** ابن سهل: منع البيع في خصوص هذه النازلة . وذكر ناظم **العمل الفاسي** أنه لم يجر عمل بالجواز ، هـ . والمسألة كما علمت سلم الجواز فيها صاحب **المعيار**، وسلمها أيضا ابن عاشر كما في شرح أبي القاسم العميري على العمليات الفاسيات فانظره.

وعمن حبس ملكا على رجلين معيين وحازاه وتصرفا فيه ثم هلك أحدهما وليس في الحبس تعقيب، أيرجع نصيب الهالك لورثته أو لمن معه في الحبس، أو لربه من بعده وعليه، وهل يرجع لهم ملكا أو حبسا ؟ الجواب أنه إذا لم يشترط المحبس شيئا في المرجع رجع له أو لورثته من بعده ملكا، إذ الحبس لا يشترط في صحة التأبيد ولا التنجيز، كما تقرر في **المتن**[2] . وقيل يرجع حبسا وهو المشهور، والقولان في **المدونة**[3] . وقال ابن المواز: إن قال حياته رجع له ملكا وإلا رجعت مرجع الأحباس، وهو غير بين في المعنى إلا أن يقول حبسا صدقة لا يباع ولا يوهب . وأما إن كان على جهة لا تنقطع فلا خلاف أنه يرجع حبسا كعلى مجهول محصور إلا أن يقال حياتهم، هذا هو تحصيل الفقه في المسألة .

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب3، ولفظه : «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أصاب عمر بخيبر أرضا فأتى النبي ﷺ فقال : أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه فكيف تأمرني به ؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها . فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث في الفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقا غير متمول فيه ». رقم 2620، 3/ 1019 .

2- خليل، **مختصر** . . . ، 190 .

3- مالك، **المدونة**. . . ، 15/ 73 .

رجوع، ثم ارتحلنا، وفي ليلة مبيتنا قرب تجْموت سرق لأناس من أهل الركب إبل ومكاحيل وحلي كثيرة. وفي الصبح ذهب أمير الركب في طائفة إلى أهل البلد فما رجع حتى ردوا الإبل دون ما عداها؛ أخلى الله منهم ومن أمثالهم البلاد وأراح منهم العباد . وفي الخامس من شعبان وصلنا عين ماضي فرحب بنا أهلها وأنزلنا الأبر السيد عبد القادر- آخذ العهد الناصري - بحديقة له، وأجزل ضيافتنا كغيره من أهل البلد، تقبل الله منهم .

وورد علي من تجْموت سؤال ونصه : بعد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ، ما جوابكم عن قول القائل جهلا : «يَخلي بيتك يارب» تعمل بالريا أو يعمل بالريا بلفظ الخطاب أو الغيبة، هل هوأمر قائله يعد ردة يستتاب منها وإلا قتل؟ وإن كان امرأة هل تكون ردتها مكملة للثلاث إن صادفتها أم ليس ذلك بكفر، ويارب قائله ويعذر بالجهل؟ الجواب أن الكلام المذكور رأي جرى بين القائل وغيره من بني جنسه من الآدميين كان المعنى ظاهرا لم يتب بشيء رد ذكر يارب دعاء واعتراض بين الكلام السابق واللاحق، وإن كان مراد القائل مخاطبة من لا ثاني له في الذات والصفات*619* والأفعال سبحانه، وأنه مثلا يعطي من شاء ويمنع من شاء، ومراد القائل هلا ساوى في العطاء والمنع ونحو ذلك فهذه ردة، ففي **المتن** : «وسَبِّ اللهَ كَذَلِكَ»[1] . وإن كان القائل امرأة وأقيم الحد عليها فلا إشكال، وإن تعطلت إقامةَ الحدود فلا تعد ردتها طلقة إذ الطلاق في يد الزوج، وهو الذي إذا ارتد وتحته زوجة أو زوجات يعد ذلك طلقة . ففي **المتن**: «لا رِدَّتِهِ فَبَائِنَةٌ، وَلَوْ لِدينِ زَوْجَتِهِ»[2] .

ووقع السؤال من بعض الحجاج، ونحن بعين ماضي، عمن تبع ناقة له وقد ذهب الركب، فبركت وجعل يضربها ليدركه فأبت عليه، فقال عليه الحرام حتى ينحرها، فلما رام نحرها قامت مسرعة؟ الجواب: إما أن عين الحنث يقع بأدنى سبب، حنثناه. والظاهر أنه لا يلزمه شيء إذ المراعى في الإيمان هو المناط أي السبب الحامل له على اليمين، وهو يقتضي عدم الحنث، إذ المراد ينحرها إن بقيت على حالها والركب قد مر عنه، وأما إذا قامت فلحق بالركب فلا يلزمه شيء، وفي القلب من هذا الجواب شيء .

1- خليل، **مختصر**. . .، 213 .

2- خليل، **مختصر**. . .، 93 .

وسئلت من أهل البلد عمن باع شاة للذبح بدراهم إلى أجل فذبحها المشتري، ثم أراد البائع أن يأخذ بدلها شعيرا أو غيره من الطعام؟ فأجبت بأنه اقتضاء طعام من ثمن طعام وهو ربا محرم، إذ الشاة المرادة للذبح سيما إن كانت خصيا في حكم المذبوح من اللحم وهو طعام . وقد جرى النزاع في النازلة بين طلبة البلد، فوافقني شيخهم ابن زيان على فتواي، وربنا أعلم بالصواب .

وعن المناسبة في تعبير الرؤيا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾[1] الآيات؟ وهل هذا التعبير وحي أو اجتهاد؟ فأجبت بأنه وحي ولا يشكل عليه، ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ إلخ[2]، إذ الظن بمعنى اليقين، أوالظان هو يوسف عليه السلام، إن كان تأويله عن اجتهاد فيكون الظن على بابه، والمناسبة في التعبير واضحة سواء قلنا أنه وحي أو اجتهاد. أما الأول صاحب العصير فقد كان يسقي الملك الخمر، ثم تركه فأخبره عليه السلام بعد أن رأى في النوم ما رأى بأنه سيرد إلى عمله الذي كان عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام . وأما الثاني فيترك إلى ثلاثة أيام فيصلب فتأكل الطير من رأسه، وكان الرائي مثلت له نفسه بمأكول، وكان قبل ذلك خبازا للملك وحبسهما لأنه توهم أنهما اللذان تمالأ على سمّه. وروي أنهما قالا ليوسف: والله ما رأينا شيئا، فقال: رأيتما أم لم تريا ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [3] . *620* وهذا له دليل على أن التعبير إنما كان بالوحي لا بالاجتهاد كما قيل به، هذا الذي ذكره المفسرون وأقره المؤلفون.

وعن حكمة التعبير بما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾[4] ، مع أن «مَنْ» هي الموضوعة للعاقل؟ فأجبت بأن البنات نزلن منزلة غير العاقل، فأتى ب «ما» الموضوعة غالبا له، أو لما كان الكفار لا يعدون البنات بالنسبة للبنين شيئا، ولا يبالون بهن، ولا يفرحن

1- يوسف: 36 .

2- يوسف: 42 .

3- يوسف: 41.

4- الزخرف: 16 .

لولادتهن فرحهن بالذكور، جيء بما لهذا المعنى والله أعلم . ولم أر من المفسرين ولا من المعربين من بحث هذا البحث فحرره وحرر الجواب عنه، والله ولي التوفيق .

وعن قوله عليه السلام : «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة حين يبقى ثلث الليل إلى السماء الدنيا» الحديث[1] . وعن قوله ﷺ: «إن الشمس تطلع بين قرني شيطان» إلخ[2] ، هل ذلك أمر متفق زمانه في كل بلدة، وعليه فيشكل مع ما لأهل الهيئة أن الزوال بالمشرق، والطلوع والغروب مختلف مع المغرب، فقد تزول الشمس ببلدة، ولا يتمكن زوالها في أخرى، وتطلع في بلدة، وتتأخر في أخرى، وتغرب كذلك، وذلك يستلزم أن ثلث الليل الأخير مثلا يختلف باختلاف ذلك؟ فأجبت بأن ما لأهل الهيئة صحيح سلمه الفقهاء، وتدل له المشاهدة . ومعنى حديث النزول إن كلام الله تعالى مستمر لا ينقطع، وحدد الزمان بثلث ونحوه تقريبا للفهم، وترغيبا في الدعاء لتقع الاستجابة؛ على أن الروايات قد اختلفت عن أبي هريرة في تعيين وقت التنزل، ففي بعضها إذا مضى الثلث الأول، وفي بعضها إطلاق التنزل بالليل من غير تقييد، قالوا: «والروايات المطلقة محمولة على المقيدة، وأما الروايات التي «بأو» فإن كانت «أو» للشك فالمجزوم به مقدم على المشكوك فيه، وإن كانت للترديد بين حالين فيجمع بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال، لكون أوقات الليل تختلف في الزمان وفي الآفاق باختلاف تقدم دخول الليل عند قوم وتأخره عند قوم . وقال بعضهم: يحتمل أن يكون النزول يقع في الثلث الأول، والقول يقع في النصف وفي الثلث الثاني، وقيل يحمل على أن ذلك يقع في جميع الأوقات التي *621*وردت بها الأخبار، ويحمل على أن النبي ﷺ أعلم بأحد الأمور في

1- الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، ، كتاب الكسوف باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، بلفظه : « عن أبي هريرةؓ أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له ». رقم 1094 ، 1/ 384 .

2- م . س، كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده . ولفظه : « عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ: إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني شيطان». رقم 3099 ، 3/ 1193 .

وقت فأخبربه، ثم أعلم به في وقت آخر فأخبر به، فنقل ذلك الصحابة عنه» . قاله الحافظ ابن حجر[1] .

ولا يلزم على ما قررنا أن الشيطان لا يفارق الشمس دائما إذ الحكم للغالب، فهي وإن طلعت في بلدة انسحب ذلك الحكم على غيرها ممن لم تطلع فيه في ذلك الوقت، ولست على وثوق في هذا الجواب .

رجوع، ثم ارتحلنا نطوي مراحلنا نتقدمها تارة ونتأخر عنها أخرى حتى وصلنا أربَاوَات، فانحرفنا ذات اليمين حتى وصلنا الشلالات، فبتنا بقرب الشرقية منهما، وأقمنا به يومين في طلب أنثى من حسان[2] الخيل لأمير الركب، قد كان يعطي فيها - ذهابا وإيابا - نحو مائتي مثقال، ومعها بغلتان لبعض الحجاج . لما نزل الركب نهارا قيدت بالحديد على العادة، فتركت ترعى حوالي الركب، فذهب بها بنو سعد وبما معها من البغلتين، ثم لم يظهر لها خبر .

وبهذا الموضع افترقنا مع أبي فارس المراكشي، وأبي العباس الدمناتي، ومولانا الصديق في جماعتهم، ومن تبعهم ممن شد من الفاسيين، اكترى لهم جمالا بعض أولاد سيدي الشيخ، فرجعوا ذات اليمين إلى طريق الركب الفاسي، وكانوا في ذهابهم من قلتهم على خطر، وكان من أمرهم أن سلمهم الله تعالى فبلغوا فاس في أقرب مدة، وكانوا والله خير جليس، وما بقي من الركب لم يعزني لفراقهم. وبه سئلت عمن لزمه هدي أو فدية في حجه، فأراد إخراجه في غير مكة؟ الجواب أن الهدي نحرا لا يجزي بغير مكة لتعلق حق فقرائها به، ولقوله ﷺ : «سوق الهدي لغير مكة ضلال»[3]. ففي **المتن**: «والنَّحْرُ بمِنًى إنْ كانَ في حَجٍّ، وَوَقَفَ بِهِ هُوَ أَوْ نَائِبُهُ : كَهُوَ بِأَيَامِهَا، وَإلاَّ فَمَكَّةُ»[4] . ثم قال: «الْمَنْدُوبُ بِمَكَّةَ الْمَرْوَة»[5] . وأما الصوم ففي التنزيل: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا

1- ابن حجر، **فتح الباري** : 3/ 31 .

2- في خ «عتاق» .

3- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث .

4- خليل، **مختصر** . . . ، 70 .

5- م . **س**، 71 .

رَجَعْتُمْ﴾[1]. وأما الفدية، ففي **المتن**: «ولم[2] تختص بزمان أو مكان؛ إلا أن يَنوِي بالذّبح الهَدْيَ فَكَحُكْمِهِ»[3] ، ولا مجزء لغيره .

وعمن لم يجد ماءً وعليه ثوبان نجسان وأحدهما كاف في ستر العورة، بل وسائر البدن من حر أوبرد، وهل ينزع الفاضل عند إرادته الصلاة، وإن لم يفعل أعاد الصلاة أم كيف الحال؟ الجواب: إني لم استحضر فيها نصا، والظاهر أنه لا يجب عليه نزع الفاضل، بل ولا يستحب، ولا إعادة عليه إن لم ينزعه، لأنه لما جاز له أن يصلي بالنجس للضرورة، جاز له أن يزيد على ما تقع به السترة، إذ لا تأثير لزيادة النجس على غيره، أو يقال*622* إن الصلاة به رخصة، وهي لا تتعدا محلها، فلا يناول من النجس إلا ما تدعو الضرورة إليه من ستر العورة المغلظة في الصلاة، وما زاد عليها لحر أو برد، والزائد على ذلك غير معفو عنه، فانظر ذلك واطلب فيه نصا .

وعمن هلك عن بني بنيه الأربعة أحدهم ابن عم للباقين لانفراد أبيه عن باقيهم، كيف يقسم مال الجد على الرؤوس، أم يقسم انصافا فيأخذ من انفرد عنهم النصف وباقيهم النصف الآخر؟ الجواب: إنهم يقسمون على الرؤوس وهم وإن أدلوا للهالك بآبائهم، فليس المال متخلف آبائهم فكل يتقرب للهالك بما تقرب به الآخر، فلا معنى لتشطير المال خلافا لمن وهم . والمسألة حتى في التتائي والزرقاني على خليل، وحولّوا عن ابن يونس. وعن حديث: «تمتدلوا[4] تحابوا» . فقلت: لا أعرفه وإنما المعروف «تهادوا تحابوا» أخرجه أبو يعلى في مسنده[5]. وورد بغير هذا اللفظ عند أحمد وغيره .

وعمن قتل مدينا قبل تفليسه أو بعده، هل يلزمه ما لغرمائه عليه؟ الجواب أنه لا غرم عليه وإنما عليه القصاص في العمد، والخطأ في الدية. وانظره مع «واستحق ولي دم من قتل القاتل أو قطع يد القاطع».

1- البقرة: 195 .

2- في خ «لا».

3- خليل، **مختصر**. . . ، 68 .

4- كذا في النسخ لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث .

5- **مسند** أبي على (ت 307) دار المأمون للتراث ولفظه : «عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تهادوا تحابوا». رقم 6148، 11/ 9 .

رجوع، ثم ارتحلنا وما تعالى النهار حتى اجتمعت بطريقنا السالف المارة على أبي سمغون، فشددنا السيرحتى وصلنا فكيك عشية الخميس السادس عشر من شعبان، وأقمنا به يومين، ووجدنا أهله في فتنة – على عادتهم – ومع ذلك فقد أحسنوا ملاقاتنا وأوسعوا من ضيافتنا، تقبل الله تعالى منهم . ووجدنا البلدة غالية الأسعار، ثم منها للقنادسة، وخيمنا بها ضحوة الثلاثاء الواحد والعشرين من شعبان، وأقمنا بها ثلاثا، وبالغ المرابطون – بنو بن أبي زيان – في ضيافة الركب على عادتهم، وخصنا بالإكرام سيدهم على الإطلاق، سمتا وهديا ودينا، سيدي الحسين بن محمد بن أبي زيان، وبها تحققنا الخبر أن السلطان أمير المؤمنين سيدنا محمد بن عبد الله بن إسماعيل بسجلماسة، نصره الله، بعد أن طرق هذا الخبر آذاننا ونحن بفكيك، وقد اهتز هذا الشرق وما يليه من بلاد الظهرا لأجله، نصره الله تعالى، وأطال بقاءه ومد له في هذه الأمة المحمدية، وأعانه ووفقه لطاعته .

ثم منها لسجلماسة، وفي طريقنا ونحن بالحماد سئلت عمن ترك خادم له جملا قد *623* أعياه الطريق، فجاء بعده من عالجه بحشيش، ومشى به الهوينا حتى راح به العشية، فخيم الركب حيث يكون له الثمن، فنازعه ربه أن خادمه تركه من غير أن يحصل له شيء نحو مما ادعى من التعب والعي؟ الجواب أنه حصل له ذلك أم لا فهو لربه، وعليه للآتي به أجرة مثله بالغة ما بلغت .

وفي ضحى التاسع والعشرين من شعبان، نزلنا بعد أن تراءت لنا سجلماسة عوينات الغربال قريبا من بلاد الغرفة، فخرج أهل سجلماسة لملاقاة الحجاج، وجاؤوا لأقاربهم وأصحابهم بأنواع الأطعمة والفواكه، وبات الناس في بسط ورغد عيش . فلم أنشب بجوف الليل إلا برجل من أعراب بني مَحمد جاءني بخبرأنه قدم من بلادنا درعة، وترك عمنا الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد بن مَحمد بن ناصر مريضا مشرفا على الهلاك، فما أتم خبره حتى جاء آخر يخبر أنه حضر في هذا اليوم بزاوية الشيخ الإمام الغازي، حتى جاءت بينة رسالة من الزاوية الناصرية تخبر بلقائه ربه في

آخر الثلث الأخير من ليلة الجمعة السادس والعشرين من شعبان رحمه الله تعالى ورضي عنه، وأسكنه فسيح الجنان. ولما شاع هذا الخبر في الركب، وسُقِط في أيديهم، انقلب لحينهم فرحهم حزنا، وقام الضجيج والعويل لهذه المصيبة العظمى حينا، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ذكر دخولنا سجلماسة

ولما صلينا الصبح، ارتحلنا فلما وازينا مخيم أمير المؤمنين، ذهب رؤساء الركب نحوه مسلمين عليه، فانقلبت في طائفة نحو زيارة الإمام الغازي. ثم منها في يومنا لجادر فزرت رجاله، ثم نزلت على الأحب الحاج عمر الجديري، وكانت له في محبة قديمة أيام مقامي بفاس سنة السبعين. وحج معنا هذه الحجة في هذه السنة، ولما كنا بالمسجد الحرام ألح علي في النزول لديه بعد قفولنا، فواعدته على ذلك، فأوفيت له بما وعدته، وكان والله خيرا محبا صدوقا، وكفانا مدة إقامتنا بالبلد للإستراحة وقضاء الأوطار والزيارة سائر المؤونة، كفاه الله هموم الدارين.

وسئلت بالبلد عن بينة عادلة أصحابها علماء شهدت بحيازة حبس كما يجب شرعا، فعارضها الخصم بأن أقام بينة عادلة تشهد بأن الملك في تصرف المحبس إلى أن مات؟ الجواب أنهما متعارضتان ونقيض بينة الحيازة لعلمها من الباطن ما لم تعلمه *624* الأخرى، ولأنها مثبتة، ومن أثبت مقدم على من نفى سيما ومعها من المرجحات مزيد العدالة فيقضى بها عملا بقول **المتن**: «وبِمَزِيدِ عَدَالَةٍ»[1]، وبقوله: «وبِيَدٍ إنْ لَمْ تُرَجَّحْ بَيِّنَةُ مُقَابِلِهِ»[2]. إذ معناه أن اليد يعني الحوز من المرجحات فيما لم يعرف أصله عند تساوي البينتين في الشهادة. ويبقى الشيء بيد حائزه مع يمينه هذا إن لم ترجح بينة مقابل اليد، وإلا فيقضى له على الحائز مع يمينه ويسقط حينئذ اعتبار اليد. وفي **نوازل الشفشاوني** لما تكلم على نظائر تعارض البينتين في كتاب الخلع والطلاق ما نصه: «في عدل البينتين، وهل بينة الحواز أو لا؟

وعمن فرضه التيمم وليس عليه إلا الحدث الأصغر فتيمم ودخل المسجد وقد أقيمت الصلاة، فهل يعيد التيمم لها؟ الجواب أنه لا يعيده إن لم يطل ما بين تيممه ودخوله وشروعه في الصلاة، وهذا إن كان تيممه أولا يقصد الصلاة،

1- خليل، **مختصر**...، 203.

2- م. س، 230.

فإن كان لمجرد دخول المسجد، ثم عرضت له الفريضة فالظاهر إعادته لأن ذلك يعد طولا. ففي الحطاب عن **المدونة**: «التيمم لا يجوز أن يتقدم على الصلاة بأمر يطول، وإنما يكون متصلا بها»[1] ، هـ . وفي الجلاب: «ولا يتيمم لصلاة قبل وقتها ولا في أول وقتها، ويؤخر إلى فعلها . ومن شروط التيمم أن يكون متصلا بالصلاة»، هـ . وفي **العمدة**: «من شرط التيمم اتصاله بالصلاة، فلا يجزيء قبل دخول الوقت ولا بعده متراخية عنه»، هـ .

وسئل السيوطي عمن تيمم ثم دخل في الفريضة، ثم حصل له شك في الإحرام وقطع، هل يعيد التيمم؟ فأجاب بأنه لا يلزمه إعادة التيمم، هـ . قال البرزلي: «يريد إذا لم يطل فإن طال بطل تيممه». وهو شاهد لما أصلناه، والله أعلم .

وعمن تيمم للصلاة فحمل قبل شروعه مصحفا فرام الدخول في الصلاة من غير طول، أيعيد التيمم للصلاة عملا بقول **المتن**: «لاَ فَرْضٌ آخَرُ»[2] ؟ الجواب أنه يعيد التيمم للفرض عملا بذلك، وقول **المدونة**، قال مالك: «من تيمم للفريضة فصلى قبلها نافلة فليعد التيمم، لأنه لما صلى النافلة قبل المكتوبة انتقض[3] تيممه للمكتوبة»[4].

وقال فيمن تيمم للصبح ثم صلى الفجر قبلها يعيد التيمم لصلاة الصبح[5]. وفي الحطاب: «قول المصنف إن تأخر شرط في إيقاع النفل بالتيمم الذي يريد أن يصلي به الفرض . وهذا مراد المصنف، ولا يعترض عليه بأن تأخر النفل، وما ذكر ليس شرطا في صحة النفل، فإن النفل صحيح إذا قدمه *625*على الفرض لكن لا يصلي بذلك التيمم الفرض الذي نواه على المشهور، فلو تيمم لفريضة ثم صلى نافلة فقال سند صحيحة، فهل يصلي به الفرض؟ فعندنا وعند الشافعية لا يصلي به الفرض»[6] ، هـ .

1- الحطاب، **مواهب**. . . ، فصل في التيمم ، 1/ 502 .

2- خليل، **مختصر**. . . ، 21 .

3- في **المدونة** «انتقض» .

4- **المدونة** : 1/ 92 .

5- م . س .

6- الحطاب، **مواهب**. . . ، 1/ 349 . (مطبعة السعادة، مصر)

وفي الزرقاني ما نصه: «قوله أن تأخرت شرط في مقدر لا به جاز، أي إذا تيمم لفرض يصح فعله إذا لم يفصل بينه وبين تيممه بشيء من هذه الأمور، وإلا صحت هي دون الفرض، فيعيد التيمم له كمتيمم لفجر فيعيده لصبح وظاهره ولو كان الفاصل مس مصحف وقراءة جنب ولو لآية. وانظر ما حكم إقدامه على فعلها قبل الفرض بتيممه، هل يكره أو يجوز؟»، هـ.

وعن مال أعطاه أمير المؤمنين للطلبة والمؤذنين وأئمة المساجد بسجلماسة، وعين ما يأخذه كل واحد، وفي بلدة منها إمام الخمس غير إمام الجمعة فتنازعا، فهل لكل من الإمامين على الانفراد جميع ما عُين لكل إمام من أئمة البلد، أو إنما لهما حصة إمام واحد لأنهما في حكمه حسبما هو الغالب، وعليه فهل يقسم على رؤوسهما إذ ربما تساوى كلفة الجمعة كلفة الخمس، أو على حسب مرتبهما؟ الجواب: إن أمكن سؤال الإمام- أعني أمير المؤمنين- عن قصده فلا إشكال، وإلا فإنما لهما حصة إمام واحد تقسم بينهما على حسب مرتبهما إن كان لهما مرتب، وإلا فعلى رؤوسهما. ولست على وثوق في هذا الجواب إذ لم يحضرني نص.

وعن معنى قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾[1] ؟ وما معاد الضمير في عليه؟ الجواب: إن المعنى ما أنتم ومعبودكم أيه المشركون من الشياطين بفاتنين أحدا من المؤمنين بعبادة الأصنام إلا من أراد الله به الشقاوة، وكان من سكان الجحيم كأنتم، فيفتن بذلك. وعليه فالضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على ما تعبدون. وقال الزمخشري: «الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على الله تعالى، والمعنى فإنكم ومعبودكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى في فساد عباده وإضلالهم»[2].

وعمن بيَّت على الإفطار في رمضان لعزمه على السفر الذي تقصر فيه الصلاة قبل الفجر، فأفضى به الحال إلى أن طلع عليه الفجر في الحضر فأفطر فيه، ثم سافر بعد الزوال وهو متماد على الأكل ظانا لجهله الجواز. هل عليه

1- الصافات: 161- 163.

2- الزمخشري، الكشاف...، 4/ 62.

الكفارة زيادة على القضاء؟ الجواب: إن ظاهر قول **المتن**: «وَفِطْرٌ بسَفرِ قصْرٍ شَرَعَ فِيهِ قَبْلَ الْفجْرِ» إلى أن قال: «وَلاَ كَفَارَةَ ؛ إلاّ أَنْ يَنْوِي »[1] ، أنه لا كفارة عليه وليس كذلك. ففي الحطاب *626* ما نصه: «إذا بيَّت الفطر في الحضر قبل خروجه، فقد تقدم في كلام أبي الحسن أن الكفارة واجبة عليه بلا خلاف فيتعين إخراجها من كلام المصنف »[2] ، هـ . وقال قبله: «فإن لم يشرع في السفر قبل الفجر فلا يجوز له الفطر ولا أن يبيته ». قال اللخمي: «لم يختلف المذهب أنه لا يجوز له الفطر قبل أن يتلبس بالسفر»، هـ . وقال ابن عرفة: ويبيح تبيت الفطر الإتفاق فيه أبو عمر إتفاقا. وفي النوادر: ومريد السفر في صباح يوم فواجب عليه أن يبيت الصيام . وفي الزرقاني: والأولى في وجوب الكفارة من مفهوم **المتن** إن لم يشرع فيه قبل الفجر مع نيته ليلا حتى مضى وقتها، سواء عزم عليه قبله أو بعده تأول أو لا أفطر بالفعل أم لا . وفي هذه الست صور،هـ. وهو ظاهر، لأن من بيت على السفر قبل الفجر وبقي في الحضر فتعمد ترك النية يعد منتهكا لحرمة رمضان فتجب عليه الكفارة ولا يعذر بالجهل، إذ الجاهل في باب العبادات كالعامد. وفي ابن يونس: تحصيل اختلافهم على أوجه أصبح صائما في السفر فأفطر، ثم بدا له فلم يسافر، ففي كل وجه قولان يكفر وقيل لا يكفر.

رجوع، ثم ارتحلنا نؤم بلادنا في ظهر الأربعاء السابع من رمضان، نقطع مراحلنا السالفة، نتقدم مرة ونتأخر أخرى عنها حتى خيمنا بعد العشاءين على نحو فرسخين من البلد، وقد جاءنا مبشرٌ- كما هو سنة الحاج- وراح علينا ليلا بعض من له قدرة من أهل الزاوية،[بالمحتاج][3] من علف وطعام وتمر، وبات عامة الحجاج طول ليلهم يستخرجون[المخبئات] [4] من نفائس الثياب حريرا وكتانا وملفا وعمائم وسراويل وغير ذلك من حسن الثمينة، فما طلع الفجر حتى صنعوا بملابسهم، جريا على عادة الحجاج من المغاربة

1- خليل، **مختصر**. . . ، 59 .

2- الحطاب، **مواهب**. . . ، باب في أحكام الصيام ،2/ 518. مطبعة القاهرة.

3- بياض في ح .

4- نفسه.

[والمشارقة] [1] في ذلك، ترى الرجل صعلوكا لا يملك دينارا ولا درهما وإنما هو في ذهابه وإيابه عالة على الناس فيُتداين لهذه الملابس حرصا على الشهرة يوم دخوله بلده، وهي عادة [مذمومة] [2] لما خامرها من فساد النيات وخبث الطويات.

أخرج الطبراني عن أم [سلمة] [3] رضي الله عنها مرفوعا: «ما من أحد يلبس ثوبا ليباهي به فينظر الناس إليه [لم ينظر] [4] الله تعالى إليه حتى ينزعه متى ما نزعه» [5]. ولا يقال وردت السنة بالتجمل بلبس [البياض] [6] من الثياب للقاء الوفود حسبما ثبت ذلك عن سيد الوجود، لأنا نقول *627* من شرط القياس المساواة، و لأنه ﷺ حج على رَحْل رَث [7] على قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. وقال: «اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة» على بعض ضعف في الحديث. وإن أخرجه الترمذي في **الشمائل** [8]، ففي سنده يزيد بن أبان الرماشي وهو ضعيف في الحديث. ومع ذلك فيحتج به في الفضائل.

وأشار ﷺ به إلى أن البيت سيحجه الناس على المراكب البهية والمفاخر السنية، فتواضع ﷺ تعليما لأمته وزجرا لهم. ويا ليت الحجاج يدخلون بيوتهم شعثا غبرا في قطائف ثيابهم التي لبسوها في حافلهم تلك، وإن كان ولا بد من غيرها ففي مطلق الجميل من الثياب البيض من غير تكلف ولا تداين. وما ذاك إلا أن اللعين زين لهم ختم أعمالهم في سيد أسفارهم ذلك بمفاخرتهم ومباهاتهم، ويا عجبا بقطع الصعلوك الطريق ذهابا وإيابا على قدميه، فإذا

1- نفسه.

2- نفسه.

3- بياض في ح.

4- نفسه.

5- الطبري، **المعجم الكبير**: 23/ 283.

6- بياض في ح.

7- رحل رث: الرحل، ما يوضع على ظهر البعير للركوب عليه، وهو القتب، وهو للبعير كالسرج للفرس. رث: أي خَلِق بالي عليق.

8- **الشمائل المحمدية**: ولفظه: «عن أنس بن مالك قال: حج رسول الله ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، فقال: اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة». ص: 274 - 275.

حل ساحة بلده فإما تداين لاكتراء مركوب نفيس من فرس أو بغلة، وإما جاءه أهله به بعد تقدمه إليهم في ذلك تصريحا أو تلويحا . والعيد في الحقيقة عيد الواصلين: (من الطويل)

وَمَا الْعِيدُ بِاسْتِعْمَالِ طِيبٍ وَزِينَةٍ وَلا أَنْ يُرَى فيهِ عَلَيْكَ جَدِيدُ
وَلكِنْ رِضَى الرَّحْمَانُ عَنكَ هُوَ الذي يُقَالُ عَلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ عِيدُ

[فالذي ينبغي للحاج أن يكون رث الهيئة، أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة، ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب من المنكرين والمترفين، ويخرج من باب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين . فقد نهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم والرفاهة، وأمر بالشعث والاختفاء . وفي حديث فضالة بن عبيد : «أنما الحاج الشعث التفل» [1]، يقول تعالى: انظروا إلى زوار بيتي جاؤوا شعثا غبرا من كل فج عميق»[2]. وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد : «اخلولقوا واخشوشنوا أي البسوا الخلق أي البالي من الثياب، واستعمال الخشونة في الأشياء». وقد قيل زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والتضعف وسيرة السلف، ولا زالوا على بعض هذا إلى الآن][3].

رجوع، ثم لما صلينا الصبح ارتحلنا فما تجاوزنا مكان نزولنا حتى صب عليه من الأهل والأقارب وغيرهم من أهل البلد وجيرانه أمواجا، وجاؤوا متراسلين أفواجا تمدها أفواج، مظهرين من الفرح والسرور، وإخلاء البنادق ما تقررت به العادة في غابر الدهور، مهنئين متبركين داعين متضرعين، قائلين بلسان الحال ما أخرسوا عنه بلسان المقال . (من المتقارب)

*628*هَنِيئاً لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الهُدَى وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا
فَإِنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ لِمَنْ حَلَّ طِيبَةَ أَوْ زَارَهَا

1- الشعث التفل : الشعث : متفرق الشعر ، والتفل : الذي قد ترك استعمال الطيب . والحديث في **كنز العمال**، 5/ 5 و245 .

2- ينظر : **المغني للعراقي**: رقم 840، 1/ 215 ؛ **كنز العمال** رقم 11833، 5/ 6.

3- ساقط من ح .

[فـــائــــدة : أخرج ابن السني والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إني أحج ، فمشى معه النبي ﷺ فقال : يا غلام زودك الله التقوى ووجهك للخير» . فلما رجع الغلام سلم على النبي ﷺ، فقال: «يا غلام قبل [الله حجك وكفر ذنبك][1] وأخلف نفقتك][2]»[3].

رجوع ، ولم نزل على حالنا من المسير والناس في التهليل والتبشير إلى أن ختمنا حجنا بزيارة القطب أبي محمد عبد الله بن الحسين ومن معه، من كلامه: (من الطويل)

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّت بِهَا النَّوى كَمَا قَــرَّ عَيْنًا بِالإِيَـابِ الْمُسَافِــرُ[4]

فحمدنا الله تعالى على ما أولانا ، وشكرناه على ما أعطانا ، فسبحانه من كريم أعجزت صناعته شكر الشاكرين وبهرت بدائعه فكر المتفكرين. جعل الله تعالى الحج مبرورا والذنب مغفورا، فانعم به أن أطال أعمارنا وبلغنا في الدارين آمالنا. فحمدا وشكرا له بدءا وعودا، وصلى الله على سيدنا محمد أنجز الناس وعدا وعلى آله وصحبه وحزبه وأتباعه إلى يوم الدين ، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتمحى الذنوب والسيئات. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

كملت في التاسع والعشرين [من جمادى الأولى][5] سنة تسع وتسعين ومائة وألف على يد جامعها العبد الفقير المقر بالعجز والتقصير ، المفتقر إلى رحمة مولاه الغني القدير ، محمد بن عبد السلام عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي المقدادي[6] كان الله له ولوالديه ولأشياخه ولكافة المسلمين.

1- بياض في ح . (الصفحة غير واضحة في خ و ج)

2- ساقط من ح .

3- الطبراني، **معجم الأوسط** : 5/ 16 .

4- البيت نسبه الجاحظ ، لمضرس الأسدي ، انظر : **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 3/ 40.

5- بياض في ح .

6- مطموسة في خ .

تم كتاب

الرحلة الناصرية الكبرى

خاتمة النسخة «ح»

*629*الحمد لله وحده، يقول مقيده محمد بن عبد الله الدمناتي القضوي غفر الله ذنبه وستر بمحض فضله حوبه، وفي أواسط رمضان المعظم عام 1200 هـ أوقفني الفقيه النزيه السميدع الوجيه الإمام الكبير والطود الشهير أبو المعالي محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن مَحمد بن ناصر أسدل الله عليه سرابيل رحمته، وخيره بضروب نعمته، على هذه الرحلة المباركة المكتوبة هذا على بعض أدواتي بيض مما اختفت به وأباح لي إزاحة نقاب خدراتها واستطلاعي بدور غدواتها وروحاتها، فتلطفت في كشف ذلك النقاب، وتأدبت جهدي في الوقوف عند معييات الصواب. فلما لاح لي ذلك المجيب الوسيم، وتأرجت الأرجاء فضلها العميم، تاهت ناطقتي في فيح معناها، وعشى على إنسان مقلتي نور محياها، وظهر لي أنها من البلاغة بمكان، واستوجبت أن تدعى نادرة الزمان وأعجوبة العصر والأوان، وما هي في المثل إلا ككتاب المستظرف، أخذ من كل علم بطرف، طالما جنت من الفروع أطيب الأزهار، واقتبست من الكتاب والسنة أنقى الأنوار، مع ما شحنت به من الأخبار المعجبة، والحكايات المستعذبة المطربة، وفي طي ذلك علوم عجيبة، ونكت من اللطائف غريبة، تنفعل لها نفس اللبيب، وتحن للأصاخة إليها جبلة الأريب . أفرغت في قوالب مختلفة من أنواع البيان، وتجلت في حلل حيكت على ألوان، فطورا تفتك بعقبها في عسكرها المعقول، وتارة تجري بفلكها لجج المنقول، وحينا تتعاطى الآداب، وأحيانا تغترف من السنة والكتاب. وفي ضمن ذلك تشهد لمن حررها بأنه حاز قصب السبق وأحرزها، وحين من علي بامتصاص كامن راحها أصبحت نشوان في امتداحها، هـ . (من البسيط)

غَيْدَاءٌ في أُفْقِ هَذَا القُطْرِ قَدْ بَرَزَتْ ... سَكْرَى تَهِيسُ مِنْ الإِقْبَالِ في حُلَلِ
تَجُرّ فَخْرا ذُيُـــول التِّيهِ تعْطُفُهَــا ... رِيحُ الشَّبَابِ فَلَمْ تَعْبَأ بِذِي عَـــذِلِ

لَمَّا رَمَيْتُ بِطَرَفٍ نَحْوَ مَنْظَرِهَا أَبْصَرْتُ مَرْتَبَةً أَرْبَتْ عَلَى الْمَثَلِ
وَقَدْ قَضَتْ مُقْلَتِي مِنْ حُسْنِهَا عَجَباً فَأَوْرَدَتْ مُهْجَتِي أُحْبُولَةَ الْخُلَلِ
آلَتْ وَقَدْ آنسَتْ مِنْ حَالَتِي دَهَشًا إِلَيْكَ تِرْيَاقُ مَا نَشْكُوهُ مِنْ عِلَلِ
630 فَأَنْهَلَتْنِي بِكَأْسٍ مِنْ مَحَاسِنِهَا فَرُحْتُ نَشْوَاهُ مِنْهَا وَانْطَفَتْ غُلَلُ
تَفَرَّسْتُ أَنَّنِي أَصْبُو لِمَبْرَزِهَا فَأَنْشَأَتْ وَعَلَيْهَا رَوْنَقُ الْحَجَلِ
أَنَا ابْنَةُ الْمَاجِدِ الأَسْمَى الَّذِي ارْتَفَقَتْ بِهِ الْمَزَايَا عَنِ الشِّعْرِ وَعَنْ زَجَلِ
مُحَمَّدُ النَّاصِرِيُّ الأَرْضَى وَوَالِدُهُ عَبْدُ السَّلاَمِ فَعَنْ عَلْيَاهُ لاَ تَسَلِ
فَقُلْتُ لِلَّهِ مَا أَبْدَتْ قَرِيحَتُهُ هُوَ الإِمَامُ فَجَانِبْ مَوْرِدَ الْجَدَلِ

وينهي كاتبه إلى حضرتكم أزكى السلام محفوفا بعبير التحيات والإكرام، مستوهبا منكم أن تمهروا هذا البكر العروب دعوة صالحة مسموعة من علام الغيوب، انتهى.

فهارس الكتاب

فهرس الآيات القرآنية

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾	100	842
المائدة ﴿فاغسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾	07	671
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾	20	849
﴿ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾	25	672
﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾	99	503
﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾	116	732
الأنعام ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾.	26	672
﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾	39	862
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾	74	713
﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾	83	844
﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾	166	161
الأعراف ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾	15	53
﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	53	752
﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾	53	713
﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾	59	141
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾	84	423

يونس ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾	10	748
﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾	93	802
هود ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	41	89
﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾	114	899
يوسف ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾	02	878
﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾	04	134
﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾	36	907
﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾	41	907
﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾	42	907
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾	82	136، 610، 845
﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾	99	134
﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾	100	802
الرعد ﴿يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾	16	337
ابراهيم ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾	07	678
﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾	12	672

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	38	678
الحجر ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾	42	719
النحل ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾	51	673
﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾	81	878
﴿إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً﴾	120	141
الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	01	135
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾	16	198
﴿ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾	39	63
﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾	44	732
﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾	59	843
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾	70	723
﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾	77	730
﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾	81	866
﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾	85	730
الكهف ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾	18	875

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾	63	139
فاطر ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا من فَضْلِه ﴾	12	95
﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾	12	365
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	28	866
يس ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾	12	211
الصافات ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾	163-161	915
الزمر ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾	50	537
﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾	62	875
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾	64	89
غافر ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾	34	138
﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾	46	878
﴿أودعوني أستجب لكم﴾	60	743
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾	64	723
فصلت ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلا﴾	31 - 30	875
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾	32	754

الآية	رقمها	الصفحة
التحريم ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾	01	863
﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾	03	646، 849
﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾	05	874
الملك ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾	17	140
الحاقة ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾	20	410، 844
نوح ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ اسْتِكْبَارًا﴾	07	672
الجن ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾	26 - 27	139
المزمل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلًا﴾	04	186
الإنسان ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾	09	137
النبأ ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾	01	737
النازعات ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾	24	811، 843
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾	39 - 40	726

عبس ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾	34 - 36	576
الانشقاق ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾	09	359
﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	24	875
الفجر ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾	30 – 31	719
البلد ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾	01	501
الليل ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾	20	137
الشرح ﴿ألم نشرح﴾	01	731، 735، 799
﴿إنما العسر يسرا﴾	06	843
التين ﴿وَطور سنين﴾	02	613
﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأمين﴾	03	501
﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾	05	724
العلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾	01	563
القدر ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾	01	730

الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾	01	486
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾	2 - 1	486
الكافرون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾	01	735
النصر ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ﴾	01	737
الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾	01	614
﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾	4 – 3	752

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأماكن

فهرس القبائل والطوائف والطرائق

فهرس القوافي

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
يَأْتِي	البسيط	02	52
غَايـةِ	الوافر	02	52
مَعِينُ	المتقارب	02	52
المَعَـارِفِ	الطويل	02	52
العِيُرِ	البسيط	02	74
عقِيقـا	المتقارب	03	102
شَوّف	الطويل	03	103
مَفَـادِ	الوافر	02	115
إِلَيْـهِ	مجزوء البسيط	02	116
الجُمَانِ	الوافر	02	117
حُقُوقَا	الكامل	04	117
مُكْمنـاتُ	الرجز	02	118
القِرَاءةِ	المقتضب	01	119
وَقـعْ	الرجز	01	119
مُبيَّنانُ	البسيط	01	119
تَقَرَّرَا	الطويل	01	119
وصـف	البسيط	01	121
العمل	الرجز	01	124
يُعصَّبْنَهُنـهْ	الرجز	01	125
سَبْتِ	الطويل	02	126
سِمْطَيْنِ	الطويل	02	128
وَفَـاضْ	مجزوء الرجز	07	128
رَطِيبُ	الوافر	04	130
الحَتفِ	الطويل	02	130

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
قَصْدِي	الخفيف	02	130
بَصَرِي	البسيط	02	131
الرَّكْبُ	الرجز	05	131
النَّاضِرِي	البسيط	07	131
أَعْتَرِفُ	البسيط	05	132
ثَوَانِ	البسيط	02	132
مَكَانِ	الخفيف	02	132
الزَّمانِ	الخفيف	02	132
لِلْعِيانِ	الخفيف	02	133
جَلَدِ	البسيط	02	133
الضُّلاَلُ	الرجز	05	133
هِلالُ	الرجز	02	133
حَسْبِي	الوافر	04	143
المَالِ	الرجز	02	147
متضع	البسيط	02	153
أخرى	الرجز	01	155
إِنْكَارُ	الرجز	02	157
فَمَيِّتَةُ	الرجز	01	158
الجُرْبُ	الكامل المرفل	02	162
اقتفى	الرجز	01	165
اسْتُفِيدَا	الرجز	02	168
مُعْدَم	الطويل	02	172
أَفْتَى	الرجز	02	174
لاَحَا	البسيط	05	175
مَوْصُوفُ	البسيط	01	175
خَلَّفُوا	البسيط	01	175
السَّلْبَا	المقتضب	02	175

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
فات	السريع	02	175
جَنَان	الكامل	03	175
مُشْتَغِلُ	الكامل	05	180
بِوِصَالِ	المجتث	04	183
الجَبارِ	السريع	07	188
السَّيْلُ	الطويل	10	189
رُكُوبُهَا	المتقارب	01	194
رُهْبَانُـهَا	المتقارب	01	195
الطَّلَلِ	البسيط	42	214
كـرَاتْ	البسيط	02	217
رِزْقَهُ	الرجز	05	217
طَرْفِهِ	السريع	03	218
يَشْرِبِهِ	السريع	01	218
لَوْ	البسيط	01	218
مُصَابِنا	مخلع البسيط	02	222
الإفَاضَةَ	المتقارب	03	222
الجَمِيل	الرجز	01	226
لحَـرَارَة	مخلع البسيط	02	238
عِذابا	الكامل	07	240
آكِلُهُ	الطويل*	01	244
الغُلام	الوافر	03	244
عَامُهَا	الطويل	01	245
لِحْيَانِ	البسيسط	02	245

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الفَرْج	البسيط	01	248
الْجَلاَ	البسيط	09	249
الأَنْهـارُ	الكامل	19	250
أَرَادَهُ	الرجز	01	252
سَــــرِي	البسيط	02	252
الصَّفَا	الرجز	03	253
خْتِيَارِ	الرجز	01	254
سَهْلتْ	الرجز	04	256
آسِ	الرجز	05	257
الأنْفَاسِ	البسيط	02	257
الأنْفاسِ	البسيط	02	257
أُقَـاسِ	الخفيف	02	257
مسلسل	الطويل	01	258
رَجَاؤُهاَ	البسيط	36	258
الـزوَالِ	الوافر	11	269
حَصِينُ	الوافر	02	273
بَادِي	البسيط	02	275
ثَمَنُ	المنسرح	03	275
عَنْبَـرِ	الكامل	15	276
قَابِسَ	البسيط	02	277
الْمَنَارَا	الرجز	01	278
الرَّدَى	السريع	01	281
الْمُنِيـرُ	الوافر	04	281
مَذَاقَـهُ	الكامل	22	285
قَضَـاهُ	الكامل	02	290
انجلا	الكامل	03	290

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
تربح	الكامل	02	293
مَاتُوا	البسيط	01	293
خِمَارَها	الطويل	05	293
الْقَامُوسُ	الرجز	02	294
الأَحْبابِ	الكامل	25	298
لِقَابِـس	الكامل	08	299
يُتَرْجِـمُ	الطويل	29	299
نَوْعُهَـا	الطويل	06	301
بُلِيـتُ	البسيط	03	313
شَيْنَا	الطويل	03	315
عَيْنَـا	الطويل	03	316
أَيْنَـا	الطويل	02	316
رَيْنـا	الطويل	02	316
كَالسَّلْسَبِيـلِ	الوافر	02	324
انْشِرَاحَـا	الخفيف	38	326
ذَهَـبْ	الطويل	15	328
العَالَم	السريع	01	328
الخَلائِـقِ	الطويل	01	329
فَلَوَاتِهَـا	الطويل	24	331
فَـوج	الطويل	02	334
النَّعَـمِ	البسيط	09	335
مَخافةِ	الطويل	02	340
الصهيـل	الوافر	02	341
الأَكْرَمِيـنَ	الرجز	04	341
وَفُـلِ	المتقارب	02	341

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
النَّبِيـلِ	المجتث	03	341
كُنْتَـهُ	البسيط	02	342
يَعْسُـرُ	الكامل	02	342
الصـادق	الرجز	11	343
الْبَاهِي	البسيط	02	345
طَبَـقْ	الرجز	02	345
بَقِـي	الرجز	03	346
الأَكْـرَمِ	الطويل	07	346
فِيـهِ	الرمل	03	346
الأَسْـوَدِ	الرجز	03	348
تَهْطِـلُ	البسيط	02	349
الْجَزِيـرَةَ	الخفيف	02	349
فَلَك	البسيط	01	350
فَتَكُوا	البسيط	01	350
مُقِيـم	المتقارب	02	351
تَالِـفُ	الطويل	01	353
رَاغِبَا	الطويل	02	354
ظَـلاَّمُـهَـا	الكتقارب	04	354
طوفان	الكامل	01	360
عَفْيُون	البسيط	03	361
بِالْعَسَلِ	البسيط	01	361
أَحْكَامُ	الطويل	01	362
فِعَـالاً	الوافر	02	366
أَخْـرَسُ	السريع	03	366
باسْمِـي	الطويل	02	367
بِالْبِـرِ	الطويل	02	372

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
يَشَـا	الطويل	05	388
عَجَبْ	البسيط المجزوء	06	400
منْهَـا	مجزوء الكامل	03	410
وُلُوهَـا	المتقارب	02	412
فِيـهِ	الرمل	02	412
بَاقِ	الرمل	02	413
الكَعْـبِ	السريع	02	413
الثنـاءِ	الوافر	02	413
وَعَـى	البسيط	01	414
أَحَـاديثُ	السريع	01	414
مُتْعَبَـهْ	الرمل	03	416
قابُ	الكامل	03	416
عِقَابِ	الطويل	02	417
لأَمَـلِ	الكامل	03	418
بِحَرْفَيْنِ	الوافر	02	419
مُخْتَلِفَهْ	مجزوء الوافر	03	421
الأنهار	الخفيف	04	421
النصَبِ	الكامل	04	426
نَابِتَـهْ	الطويل	02	426
المُسَـمى	الخفيف	03	427
مَـا	مجزوء الوجز	05	428
شَجَـرَاتِ	الطويل	01	429
النـزُولْ	مجزوء الكامل	04	430
غَابَتِـهِ	المتقارب	04	430
يُخْتَـزَنْ	الرمل	03	430
المِنَهْ	السريع	02	433

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الْعَبُـوسُ	الوافر	04	433
الدِّيـَارِ	الوافر	01	435
لِلـرَّاءِ	الكامل	03	435
صَدِيـقْ	المتقارب	05	436
القَسَاوَةْ	المتقارب	03	437
مَـدهُ	مجزوء الكامل	02	437
لِلـثَّراءِ	الكامل	02	438
مَـزَجُوهْ	مجزوء الرجز	06	439
عُيُونْ	الرمل	03	440
عِظَامَا	الوافر	03	441
يَـزُولُ	الوافر	01	442
الرَّسُـولِ	المجتث	03	442
الـدَّرَجِ	البسيط	03	443
الأَخْيـارِ	المنسرح	03	446
صَاحِبِـي	الطويل	02	447
بِالْكُفْـرِ	الطويل	02	447
بَـذْرِ	الطويل	04	447
تَنْجَلِي	الطويل	15	450
عار	البسيط	02	452
سَفِيـهِ	الكامل	02	452
الصُّفْرَاءُ	الخفيف	01	453
طِيـب	الخفيف	04	456
لِبَـزَّةَ	الخفيف	02	458
حَبِيسَـا	الطويل	04	458
ابينها	مجزوء الخفيف	04	460
مُمْكِنْ	الخفيف	04	460
نَعَـمُ	الطويل	02	461

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
النّدَا	الطويل	02	462
الرَّدَى	الطويل	02	462
نَعْلِهِ	الرجز	01	466
جَلِيـلُ	الطويل	02	466
طَرِيقُ	الطويل	01	467
الحِمَايَةْ	الخفيف	02	467
رِجَاليـه	مجزوء الرجز	01	468
انْكَسَــرْ	السريع	02	469
منــاص	المجتث	03	470
البان	الطويل	02	471
شفاء	المجتث	02	471
ظمــاء	المجتث	03	471
القـرى	الخفيف	03	471
غزالِ	الخفيف	01	472
المحاطب	مجزوء الرمل	02	472
الكَرَاكِرِ	الطويل	02	473
الديَـارِ	الوافر	01	475
النَـادِي	السريع	05	475
بـال	السريع	02	476
سرفِ	البسيط	04	477
خَفراتِ	الطويل	01	479
هــنَـدَا	الطويل	01	479
سُكّـانُ	الطويل	04	479
نسيمها	الطويل	02	480
كَـدَاءُ	الوافر	01	487
فالبطحـاء	المديد	01	487

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الضيف	الكامل	02	488
الأمصـار	الطويل	113	489
الرجـال	الخفيف	01	501
مشتاقا	البسيط	01	501
عقـول	الخفيف	12	502
سناهـا	المجتث	8	503
جديـد	الخفيف	02	504
تعويض	الطويل	02	504
أَحْدَقُـوا	الكامل	03	504
شَأنِـهِ	الطويل	02	505
الصـد	السريع	02	505
وضمـاء	المنسرح	02	505
مؤمـل	الكامل	02	506
المَزَارُ	الوافر	02	506
شـراب	الكامل	02	507
باليـسر	الطويل	02	507
آميـن	الطويل	02	509
وَطّاهَا	البسيط	02	512
لِلْوَرَى	مجزوء الكامل	02	512
أصف	البسيط	02	519
كَثِيًا	الطويل	01	523
أحاديث	الرجز	01	529
روى	الرجز	01	530
كَئِيـبِ	الطويل	02	545
جمـعُ	المجتث	03	554
بِالسـؤْدَدِ	الكامل	01	566

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
البَـالي	البسيط	02	571
مَسْجُـونُ	الكامل	02	571
مُشْتَغـلُ	البسيط	05	578
رقـّي	الطويل	02	578
مُوَرَّد	الطويل	02	578
بُـرُوجـا	الرمل	02	579
بمَعْنـاهُ	البسيط	04	579
الرســل	الطويل	06	586
سَقـاهـَا	الطويل	01	590
المُـضَـلَّـلُ	الرجز	01	590
المنايا	الوافر	01	599
الرِّجْــسِ	الطويل	01	602
الشَّمْسِ	الطويل	02	603
أَحَــدِ	البسيط	02	603
أبحر	الكامل	05	606
بضَلاَله	البسيط	01	618
الأَغْبَـرَا	السريع	02	622
المُسَافِـرُ	الطويل	01	627
آثــاره	الكامل	04	628
حائـل	الكامل	02	630
العـارض	الكامل	04	631
الأحباب	الكامل	02	632
المَعَاصِي	الوافر	02	632
البَيْنِ	الطويل	02	641
الشكـل	الطويل	02	641
تهتـد	الطويل	02	642

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
رَحَاهُمَا	الكامل	02	642
بِأَوْحَدِ	الطويل	03	642
يذكر	السريع	01	643
بواديها	البسيط	02	644
نجـا	المنسرح	02	646
الصبورِ	الوافر	02	646
كَرِيمُ	الطويل	01	646
عليــه	مجزوء البسيط	02	649
الشموس	الكامل	11	650
القاموس	الكامل	17	651
قاموسا	الكامل	11	651
اللغـات	الرمل	02	652
للمعان	الوافر	02	652
اقتضى	الطويل	02	652
المعنــى	الكامل	04	652
خرصا	المتقارب	02	652
الغــض	الطويل	03	652
ترضــع	الطويل	02	653
الترقيع	الكامل	02	653
تفريقا	الكامل	02	653
يمدرا	الطويل	03	653
رشفا	الطويل	02	653
المدح	الطويل	03	653
النصر	الطويل	04	653
الكامل	الكامل	12	654

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الأيـدي	الطويل	17	655
معهـد	الوافر	10	655
الأَطْيَـبُ	الكامل	01	657
أنفــاس	البسيط	07	661
الكشــف	الطويل	02	661
قسـا	الطويل	02	661
مصـرا	الطويل	03	661
للأشـراف	الوافر	02	662
أعتـرف	المتقارب	04	662
يـدوم	الكامل	02	662
زَيْـدِ	الكامل	04	662
مقلنـا	الكامل	02	662
الإشارات	البسيط	37	663
التام	أرجوزة	109	664
الإصابة	الخفيف	01	670
القاصــــر	أرجوزة	44	673
المثان	الوافر	06	688
المعارف	الرجز	04	690
الأَوَّلِ	الرجز	01	691
جَانِب	الطويل	01	691
بالتجديـد	الكامل	04	693
بشاره	الخفيف	04	693
استعـاره	الخفيف	08	693
ملجإ	الكامل	02	696
تشتفي	الطويل	07	696
مرغـوب	الكامل	02	696

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بالتـي	الطويل	08	696
مفـردا	الكامل	14	697
منصـف	الطويل	02	697
يـدرى	الطويل	04	697
ذنـــوب	الوافر	02	698
بالمثـال	الوافر	02	698
عامـر	الوافر	02	698
الزهـاد	الرجز	04	698
ببالـي	الكامل	04	698
غربتي	الطويل	10	698
الفـلاح	الوافر	12	699
شمســه	الطويل	04	699
للإفضـاح	الكامل	02	700
غايــة	الكامل	01	700
الهدايـة	الوافر	01	700
مقفـول	البسيط	02	700
علي	البسيط	02	700
يأتي	البسيط	02	701
هـوان	الكامل	01	701
مَنارُه	الكامل	01	701
فعالـه	الكامل	02	701
الأدب	مجزوء الكامل	02	701
الحقيقـة	مجزوء الكامل	03	701
أعجـب	البسيط	02	702
الجـدل	البسيط	02	702
الإحسـان	أرجوزة	42	702

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
كالتبـر	الرجز	25	770
للجنـح	الطويل	01	772
فاتـر	الطويل	01	772
مرامي	المديد	01	773
فتن	البسيط	01	773
فقـد	الوافر	01	773
صالكم	الكامل	01	773
مشغوف	الهزج	01	773
الثـرى	الرجز	01	773
يعـذلوا	الرمل	01	773
بالشجـون	السريع	01	773
الفـتى	المنسرح	01	773
السقام	الخفيف	01	773
فـن	المضارع	01	773
نهلـه	المقتضب	01	773
ثقلـت	المجتث	01	773
ريب	المتقارب	01	773
مرسل	المتدارك	01	773
يسئل	المتدارك	01	773
تكمل	المتدارك	01	773
بـدا	البسيط	13	779
الشـرف	الطويل	02	780
مشرف	الرجز	02	780
بمكابـر	الطويل	01	780
مَنْزِلَـهُ	البسيط	02	781
فيـك	البسيط	02	781

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بِيَـدِ	البسيط	02	781
أَصَابِـعُ	الطويل	01	781
قَوِيـًا	الخفيف	01	782
أَحْوَجُ	الطويل	04	782
قروده	البسيط	03	785
النَّخْلُ	الطويل	01	790
حانـا	البسيط	01	793
تأنيسا	الوافر	05	806
الجنـوب	مجزوء البسيط	01	814
الأحـلام	الكامل	04	815
المقـدم	الطويل	08	817
مصـر	الطويل	06	819
المتأمـل	الكامل	06	819
الكفـر	السريع	01	825
أراد	الوافر	01	836
بالزيـن	البسيط	02	837
القـدر	البسيط	02	837
الشَّنَبُ	البسيط	01	838
طي	البسيط	02	846
فيها	البسيط	03	846
النعـت	الطويل	02	847
الألا	الخفيف	03	847
يحكي	الطويل	02	847
السبك	الطويل	02	847
بأسره	الطويل	06	847
شعره	الطويل	08	848

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بالجد	الطويل	02	848
المنى	الطويل	02	848
المغنى	الطويل	06	848
الفهامه	الطويل	04	849
حقوق	الطويل	03	849
الغيب	الطويل	04	849
كريم	الطويل	01	850
فع	الطويل	04	850
القول	الطويل	02	850
فتى	الرجز	10	850
بهرا	الرجز	10	850
الخطاب	السريع	04	851
بالهضاب	السريع	02	851
ظاهرا	السريع	26	852
قهار	الرمل	26	853
مُرَافِقا	الطويل	01	879
الرَّمَم	البسيط	01	879
توان	المتقارب	02	880
مكان	الخفيف	02	880
الزمان	الخفيف	01	880
للعيان	الخفيف	01	881
بالرقمتين	الوافر	02	881
الكرام	مجزوء الكامل	05	882
وهن	البسيط	04	882
الْخَطْبِ	الطويل	01	887
نفاق	السريع	02	888

القافية	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الـورق	السريع	02	888
منــع	الرجز	02	890
عوضـا	الرجز	01	894
القضاء	الرجز	01	901
ذنـب	الطويل	19	902
عجـم	الطويل	01	902
للمفعـول	الطويل	01	903
الجديد	الطويل	02	918
أوزارهـا	الطويل	02	918
المسافر	الطويل	01	919
حلل	البسيط	10	923

فهرس الكتب والمصنفات الواردة في الرحلة

- أ -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- السين -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- ل -

- م -

- ن -

ثبت المصادر والمراجع

1 ـ العربية :

- آبادي (محمد شمس الحق العظيم)، **عون المعبود في شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، [1415/]1995 .
- الأبشيهي (محمد بن أحمد)، **المستطرف في كل فن مستظرف**، طبعة جديدة منقحة بإشراف المكتب العالمي للبحوث، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، 1412/ 1992 .
- ابن إبراهيم (العباس التعارجي السملالي المراكشي)، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الملكية بالرباط 1974- 1983 في 10 أجزاء؛ والطبعة الثانية، الرباط، 2001/ 1422 الجزء 6.
- ابن إبراهيم (الحسني)، **البيان والتعريب في أسباب ورود الحديث الشريف**، تحقيق سعد الدين الكاتب. دار الكتاب العربي، بيروت، 1401/ 1980.
- ابن أبي عبد الله (أبو بكر عبد الله المالكي)، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم**، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، [1370/ 1951].
- ابن الأثير (عز الدين)، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، دار الشعب، سنة 1389 / 1970 .
- **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، د. ت.
- **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، سنة[1384/] 1965م .
- ابن إسحاق (خليل المالكي)، **مختصر العلامة خليل**، اعتنى به وراجعه عبد السلام الشتيوي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1424/ 2003.
- ابن أنس (مالك)، **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- **المدونة الكبرى**، دار صادر، بيروت، د. ت .
- ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القاهرة، [1360/]1942 .
- ابن بشكوال، **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وأدبائهم**، عني بنشره وصححه وراجع أصله السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1374/ 1955.

- ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار**، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1407/ 1987 ؛ ودار التراث، بيروت، 1388/ 1968.

- ابن تغرى(جمال الدين يوسف) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، نسخة وصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، تحقيق أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1426/ 2005 (37 جزء) .

- ابن الجوزي (عبد الرحمان بن علي)، **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية** ، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة الأولى، 1403/ 1982 .

- **غريب الحديث**، تحقيق د عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1405 / 1985 .

- **كتاب الموضوعات**، ضبط وتقديم وتحقيق عبد الرحمان محمد عثمان، الناشر محمد عبد المحسن، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1386/ 1966.

- **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، تحقيق علي حسين البواب، دار الوطن الرياض، 1418/ 1997.

- ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، حقق أصوله وضبط أعلامه ووضع فهاريسه علي محمد البخاري، دار الثقافة العربية للطباعة، 1389 / 1970.

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق محب الدين الخطيب، دارالمعرفة، بيروت د . ت.

- **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، 1412 /1992؛ ودار الكتاب العربي، بيروت 1359/ 1940؛ ودار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، [1404/] 1984؛ ودارصادر، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1325/ 1907 ؛ وطبعة حيدر آباد، 25 -1327/ 07- 1909.

- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، [1385/] 1966م .

- **لسان الميزان**، تحقيق دائرة المعرفة النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، 1406/ 1986 .

- **الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع**، تحقيق أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1418[/ 1997] .

- ابن حبان (محمد)، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية [1413/]1993.

- **المجرحين**، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى سنة 1396[/ 1976].

- ابن الحجاج (الإمام مسلم)، **الجامع الصحيح**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1374/ 1955 .

- ابن حنبل (الإمام أحمد)، **مسند الإمام أحمد**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413 / 1993.

- **المسند**، مؤسسة قرطبة، مصر، د . ت.

- ابن الخطيب (لسان الدين)، **أعمال الإعمال**، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1383/ 1964 .

- ابن خلدون (عبد الرحمان)، **المقدمة** ، دار الجيل، بيروت، لبنان، د . ت.

- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر)، **وفيات الأعيان**، دار الثقافة، بيروت ،د ت.

- ابن رشيد (محمد بن عمر الفهري السبتي)، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة** الجزء الخامس : **الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور**. تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1408/ 1988.

- ابن زيدان (عبد الرحمان بن محمد العلوي المكناسي)، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية بالرباط، 1348 ـ 1352/ 1930 ـ 1933، في 5 أجزاء.

- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1968 .

- ابن سعيد، **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة** ، تحقيق حسين ناصر، القاهرة، 1389/ 1970

- ابن سلام (أبو عبيد القاسم)، **الغريب المصنف**، دار سحنون، تونس، 1417/ 1996.

- ابن سودة (عبد السلام بن عبد القادر)، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، الجزء الأول 1960م، والجزء الثاني [1384/]1965.

- **إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، السنة 1417/ 1997.

- ابن سودة (محمد التاودي)، **الفهرسة الصغرى والكبرى**، دراسة وتحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ/ 2002 م .

- ابن شاكر (محمد الكتبي الحلبي)، **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، [1392/] 1973 .

- ابن شيبة (عبد الله)، **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار النشر مكتبة الرشد الرياض الطبعة الأولى، سنة 1409[/ 1988] .

- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي)، **التمهيد لما في موطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي و محمد عبد الكبير البكري وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة 1387/ 1967 .

- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1412هـ.

- **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**، دار ابن حزم، 1426/ 2006 .

- ابن عبد ربه (أحمد الأندلسي)، **العقد الفريد**، تحقيق د عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (الجزء الأول بتحقيق مفيد محمد قميحة)، الطبعة الأولى سنة 1404/ 1983.

- ابن عبد الرزاق (أبو بكر)، **المصنف**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، د . ت .

- ابن عسكر (محمد بن علي الشفشاوني)، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، طبعة ثانية مصورة بالاوفسيط، الرباط 1397/ 1977.

- ابن عسكر (الحافظ)، **تاريخ دمشق**، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1419/ 1998 .

- ابن عطاء الله (السكندري)، **الحكم العطائية**، قرأها وقدم لها أحمد عبد الرحيم، دار البصائر، مصر، 1425/ 2004.

- ابن العماد (عبد الحي الحنبلي)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، طبعة دار السلام، بيروت سنة 1384/ 1965؛ و دار الكتاب العربية، بيروت .

- ابن فرحون (إبراهيم بن علي المدني المكي)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دار الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، السنة 1417 / 1996 .

- **إرشاد السالك إلى أفعال المناسك**، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيت الحكمة، تونس سنة 1409/ 1989.

- ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي)، **جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1393/ 1974. في جزءين.

- **درّة الحجال بأسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث، القاهرة – مطبعة دار النصر، القاهرة، 1390/ 1970 في 3 أجزاء.

- ابن قنفذ، **الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، منشورات المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت[1403/] 1983.

- ابن كثير، **البداية والنهاية**، مطبعة السعادة، مصر الطبعة الأولى 1351/ 1932؛ و مكتبة المعارف، بيروت الطبعة الثانية 1977م؛ و دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، 1415/ 1994.

- **التفسير**، دار الفكر، سنة 1401[/ 1980] .

- ابن ماجة، **السنن كتاب الطلاق باب لا طلاق قبل النكاح** تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر، بيروت.

- ابن المثنى (أحمد بن علي التميمي)، **مسند أبي يعلى**، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث دمشق الطبعة الأولى 1404/ 1984.

- ابن محلي، **تقييد في التعريف بسجلماسة**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 264 .

- ابن مغيزل (عبد القادر بن الحسين)، **الكواكب الزاهرة**، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 1321 ك .

- ابن منظور (محمد بن مكرم) **لسان العرب المحيط**، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

- ابن هبة (علي بن الحسن)، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، [1384/]1965م.

- ابن هشام (عبد الملك)، **السيرة النبوية**، تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1419/ 1998، في 4 أجزاء.

- ابن همام (أبو بكر عبد الرزاق)، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق حبيب الرحمان الأعظمي، المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية 1403/ 1982 .

- أبو حيان (محمد بن يوسف) **تفسير البحر المحيط** ، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه : زكرياء عبد المجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422/ 2001.

- أبو عبد الله (محمد)، **تاريخ طرابلس الغرب**، تحقيق الطاهر أحمد، القاهرة، [1368/ 1949] .

- أبو الفرج (عبد الرحمان بن علي)، **صفوة الصفوة**، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعتجي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية 1399/ 1979 .

- أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الحافظ)، **حلية الأولياء و طبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405هـ ؛ و مطبعة السعادة، الطبعة الأولى سنة1417/ 1997 .

- الأخضر (محمد)، **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075- 1311/ 1964- 1694)**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1397/ 1977 .

- الأخيلية (ليلى)، **ديوان**، تحقيق خليل العطية وجليل العطية، بغداد 1407/ 1987.

- الإدريسي (الشريف محمد بن إدريس)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر، سنة 1414/ 1994 .

- الأدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي)، **الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد** ، المطبعة الجمالية ، مصر 1332/ 1914 .

- الأزرقي (أبو الوليد)، **أخبار مكة**، تحقيق رشيد الصالح ملس، دار الأندلس للنشر، بيروت 1996/ 1416.

- الأصفهاني (أبو الفرج)، الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر، تونس، 1403/ 1938 ؛ و دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1412/ 1992(24 جزء).

- الأصفهاني (العماد، ت 597هـ)، **خريدة القصر و جريدة العصر**، تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، مصر بدون تاريخ. وطبعة الدار التونسية للنشر تونس، د . ت.

- الأسنوي، **طبقات الشافعية**، تحقيق عبد الله الجبوري، وزارة الأوقاف، بغداد، [1395/] 1976م .

- الافراني (محمد) : **نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي**، الطبعة الثانية ، مكتبة الطالب، الرباط، د.ت.

- الأنصاري (حسان بن ثابت)، **ديوان**، تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1419/ 1998؛ و تحقيق عبد الرحمان البرقوقي، القاهرة، [1347/] 1929.

- إلكيا (سيرويه بن شهردار)، **الفردوس بمأثور الخطاب**، دار الكتب العلمية، بيروت، د . ت.

- الباجي، **التعديل والتجريح لمن خرج عند البخاري في الجامع الصحيح**، دراسة وتحقيق أحمد البزار، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الجزء الأول .

- البخاري (محمد بن إسماعيل)، **الجامع الصحيح**، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، الطبعة الثالثة 1987/ 1407.

- **التاريخ الكبير**، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **الأدب المفرد**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1409/ 1989.

- البرهان (علي المتقي)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1414/ 1998، .

- بروفنصال (ليفي)، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397/ 1977.

- البزار (أحمد بن عمرو)، **مسند البزار البحر الزخار**، تحقيق د محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، 1409/ 1988 .

- البغدادي (أحمد بن علي الخطيب)، **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- البغدادي (إسماعيل باشا بن محمد)، **هدية العارفين وأسماء المؤلفين و آثار المصنفين**، مطبعة وكالة المعارف، إسطنبول، 1995 في جزءين .

- البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن)، **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1373 / 1954 ؛ و تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى سنة 1412 / 1961 .

- البكري (أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز)، **المسالك والممالك**، حققه ووضع فهارسه جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424/ 2003 .

- **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة 1403/ 1982 .

- **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة، بيروت، 1390/ 1971 .

- **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، مطبعة إفريقيا والشرق، باريس، 1384/ 1965.

- البلوي (أحمد بن علي الوادي آشي ت 938/ 1532)، **ثبت**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1403/ 1983 .

- البلوي (خالد)، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، د. ت.

- البلوي (عبد الله بن محمد المدني)، **سيرة أحمد بن طولون**، مطبعة الترقي، دمشق، 1358[/1939].

- بنبين (أحمد شوقي)، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، ترجمة مصطفى طوبي، منشورات الخزانة الحسنية، 1423/ 2003.

- بنحادة (عبد الرحيم)، **العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1429/ 2008.

- البوزيدي (أحمد)، **التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن17م ومطلع القرن20م)**، مطبعة آفاق، 1413/ 1994.

- بوسلهام (محمد)، «موجز مشروع قراءة في تطور علاقة بعض الزوايا بالسلطة المركزية» **مجلة تاريخ المغرب** عدد 2، السنة 1412/ 1991، الصفحات 83- 94.

- البوصري (شرف الدين محمد)، **البردة الكواكب الدرية في مدح خير البرية**، دار إحياء العلوم الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.

- **متن الهمزية في مدح خير البرية**، طبع ونشر وتوزيع، دار الكتاب، الدار البيضاء.

- التازي (عبد الهادي)، **رحلة الرحلات مكة المكرمة في مئة رحلة مغربية ورحلة**، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، سنة 1425/ 2004.

- التبريزي (محمد)، **مشكاة المصابيح**، دار النشر المكتب الاسلامي.

- التجاني (عبد الله)، **رحلة التجاني**، تونس - طرابلس، قدم لها حسين حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، 1426/ 2005م.

- التجاني (محمد العربي الشرقي)، **بغية المستفيد لشرح منية المريد**، مطبعة جريدة الإسكندرية.

- الترمذي، **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**، حققه وعلق عليه سيد بن عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الثانية 1414/ 1993.

- التفتازاني (أبو الوفا الغنيمي)، **مدخل في التصوف الإسلامي**، دارالثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، [1393/] 1974.

- تمام (محمد الرازي)، **الفوائد**، تحقيق محمود عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشاد، الرياض، الطبعة الأولى، 1412/ 1991.

- التنبكتي (أحمد بابا)، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، مطبعة فضالة، المغرب، السنة 1420/ 2000 .

- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1410/ 1989.

- التونجي (محمد)، **المعجم الذهبي، فارسي - عربي**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1980 .

- الثعالبي (عبد الرحمان)، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1416/ 1996. (3 أجزاء)

- الثعالبي (عبد الملك النيسابوري)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1403 / 1983؛ وتحقيق إليا الحاوي، الطبعة الأولى، د . ت.

- الجاحظ ، **كتاب الحيوان**، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت بدون تاريخ.

- الجاسر (حمد)، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية** منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1397/ 1987.

- **ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي**، دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الثانية 1403/ 1983.

- الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، سنة[1384/ 1965] .

- الجرجاني (عبد الله بن عدي)، **الكامل في ضعاف الرجال**، تحقيق يحيى مختار غزواني، دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة، 1409/ 1988 (7 أجزاء) .

- الجرجاني (علي بن محمد)، **التعريفات**، تحقيق وتقديم إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.

- الجزري (أبو السعادات المبارك بن محمد)، **النهاية في غريب الأثر** ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، سنة 1399[/ 79- 1980] .

- الجزنائي (علي)، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط ، سنة[1212/] 1991 .

- الجوهري (علي بن جعد)، **مسند ابن الجعد**، تحقيق عامر أحمد، مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولي 1990/ 1410.

- حاجي (خليفة مصطفى بن عبد الله التركي)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1413- 1992؛ و دار الفكر، بيروت، 1402/ 1982 .

- **الحبة السوداء** ، تأليف لجنة من الأطباء، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس، بيروت، الطبعة الثانية، 1428/ 2008.

- الحاكم (محمد بن عبد الله)، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادرعقا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1411 / 1990.

- حجي (محمد بن عبد الله الجزار السلاوي) ، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية، الرباط، 1384 / 1964.

- «المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر» ، **مجلة المناهل** عدد 18 يوليوز 1980 ، الصفحات 112- 128 .

- «المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني» ، **مجلة البحث العلمي**، عدد 7 ، 85- 1386/ 1966، الصفحات 34- 40 .

- الحجوي (محمد بن الحسين الثعالبي)، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، نشر المكتبة العلمية بالمدينة، الطبعة الاولى، 1189 / 1976، في جزءين.

- الحربي (أبو إسحاق) ، **المناسك وأماكن طرق الحج**، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض 1388/ 1969م.

- حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ** ، البيضاء، 1398/ 1978 .

- **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1408/ 1987.

- حزين (رجاء مصطفى)، **الحكيم الترمذي ومنهجه الحديثي في نوادر الأصول**، دار الآفاق العلمية، 1419/ 1998 .

- الحطاب (أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان المغربي)، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، تحقيق أحمد جاد، القاهرة، الطبعة الأولى، 1429/ 2008 ؛ و دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء؛ ومطبعة السعادة، مصر ، الطبعة الأولى ،[1328/ 1910] .

- الحكيم (سعد)، **المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة**، دار ندرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1401/ 1981.

- الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1404/ 1984 .

- الحموي (ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي) **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1413/ 1993.

- **معجم البلدان**، دار الفكر، بيروت د ت.

- الحوات (سليمان بن محمد العلمي)، **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**، دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني، الطبعة الأولى، سنة 1414/ 1994 م، في جزءين.

- **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية**، تحقيق وتقديم، عبد الرحمان كضيمي، 1412/ 1992 (رسالة مرقونة بمكتبة الآداب بالرباط).

- **ثمرة أنسي في التعريف بنفسي** مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 689 ك .

- **حوليات كلية الآداب** ، جامعة الكويت ، الرسالة 33 ، الحولية 7 سنة 1406/ 1986 .

- الخطابي (أحمد بن إبراهيم)، **غريب الحديث**، دار النشر، جامعة أم القرى.

- الخليفتي (محمد بن عبد الله)، **الدرة الجليلة في مناقب الخليفة**، تحقيق أحمد عمالك، رسالة مرقونة بكلية الآداب، الرباط، 1406/ 1986.

- **دائرة المعارف الإسلامية**، نقلها إلى اللغة العربية محمد ثابت وآخرون، في 15 مجلدا.

- الدار قطني (علي أبو الحسن)، **سنن الدار قطني**، كتاب الحج، باب وضوء رسول الله ﷺ، تحقيق عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، 1966/ 1386.

- داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، مطبعة المهدية، تطوان 1384/ 1964 .

- د. أ. ي ونسنك **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** للاتحاد الأممي للجامعة العلمية، نشر، مكتبة بريل، ليدن، 1936.

- الدسوقي (محمد بن عرفة المالكي)، **حاشية الدسوقي على شرح الكبير** ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417/ 1996.

- الديار بكري(حسين بن محمد)، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، القاهرة سنة، 1302هـ.

- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق محمد علي البجاوي، طبعة عيسى الحلبي ، القاهرة سنة [1382/]1963 .

- **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1992/ 1413 .

- **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق**، تحقيق مصطفى أبو الغيض عبد الحي عجيب، دار الوطن ، الرياض 1421/ 2000.

- الذهبي (نفيسة)، منسقة، **الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب**، دراسات تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1417/ 1997م .

- الرازي (محمد بن عبد القادر)، **مختار الصحاح**، عني بترتيبه محمود خاطربك، الطبعة الأميرية بالقاهرة، 1345/ 1926. وتحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة جديدة 1415/ 1995.

- **كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى**، للعلامة أبي الفضل عياض اليحصبي، اعتنى به وراجعه هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1422/ 2001.

- الرازي (عبد الرحمان بن محمد بن إدريس)، **تفسير ابن أبي حاتم** ، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة المصرية ، صيدا .

- الرصاع (محمد بن قاسم)، **فهرسة** ، تحقيق محمد عنابي ، تونس سنة 1386/ 1967.

- الزبادي (عبد المجيد المنالي)، **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام** ، تقديم وتحقيق اليونسي رشيد، رسالة مرقونة بمكتبة كلية الآداب الرباط 1415/ 1995.

- الزبيدي (محمد مرتضى)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة لكويت، 1384 / 1965 . في 40 جزءا.

- الزرعي (محمد بن سعيد)، **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1985/ 1405.

- الزركلي (خير الدين) **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب ، والمستعربيين والمستشرقين**، بيروت، الطبعة الثالثة، 1389/ 1969 (10 أجزاء)، ودار العلم للملايين، الطبعة السادسة، 1404/ 1984 .

- زروق الفاسي، **قواعد التصوف**، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، السنة 1998 .

- الزمخشري(محمد بن عمر)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، 1406/ 1986 .

- الزياني (أبو القاسم بن أحمد)، **الترجمانة الكبرى في أنحاء المعمور برا وبحرا**، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، 1387 / 1967.
- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب)، **طبقات الشافعية الكبرى**، المطبعة الحسنية بمصر، الطبعة الأولى، 1324/ 1906 في 6 أجزاء؛ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د، ت.
- السجستاني (أبو داوود سليمان بن الأشعث)، **المراسيل**، تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، 1408/ 1987 .
- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن الشافعي)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، القاهرة، 1353/ 34- 1935 في 12 جزءا.
- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة، 1376/ 1957.
- سركيس (يوسف بن إليان المصري)، **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، مطبعة سركيس، القاهرة، 1346 / 1928، في جزءين.
- المودن (عبد الرحمن)، **البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1415/ 1995.
- المودن (عبد الرحمن) وبنحادة (عبد الرحيم)، منسقان، **السفر في العلم العربي والإسلامي، التواصل والحداثة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1423/ 2003
- السلمي (أبو عبد الرحمان)، **آداب الصحبة**، دار الصحافة، بيروت.
- السمهودي (علي بن عبد الله)، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى، 1422/ 2001.
- السنهوري (يس إبراهيم الأنوار)، **القدسية في مناقب السادة النقشبندية**، مطبعة الساعدة، مصر، سنة 1344[/ 25- 1926] .
- السهيلي (عبد الرحمان)، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام** علق عليه ووضع حواشيه مجدي به منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، د ت، 4 أجزاء.
- السوسي (محمد المختار)، **المعسول**، مطبعة النجاح، البيضاء، 1379/ 1960 .
- **سوس العالمة**، مؤسسة بنشر للطباعة والنشر، البيضاء، الطبعة الثانية، سنة 1984م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر الطبعة الثانية، القاهرة سنة 1979 م والأولى سنة1384/ 1965 .

- **قطف الأزهار في كشف الأسرار** ، تحقيق ودراسة د أحمد محمد الحمادي، إدارة الشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، 1414/ 1994.

- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1997م .

- **تاريخ الخلفاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1408/ 1988.

- **الدر المنثور** ، دار الفكر، بيروت، 1427/ 1993.

- **طبقات الحفاظ** ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى سنة 1403/ 1982

- **تفسير الجلالين** (جلال الدين السيوطي و جلال الدين محمد أحمد المحلي)، دار القرآن الكريم بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1427/ 2007 .

- الشافعي (محمد بن إدريس)، **الأم**. دار النشر دار المعرفة بيروت ، الطبعة الثانية 1393 .

-**السنن المأثورة**، تحقيق د عبد المعطي أمين قلعتي، دارالمعرفة، بيروت، 1406 هـ .

- **ديوان الإمام الشافعي**، تقديم وتعليق د إسماعيل عقباوي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428/ 2007.

وجمع وترتيب محمد عبد الرحيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1420/ 2000 .

- الشعراني (عبد الوهاب الشعراني)، **الطبقات الكبرى** مطبعة مصر ، د .ت .

- الششتري (أبو الحسن)، **ديوان** ، حققه وعلق عليه د علي سامي النشار الطبعة الأولى دار نشر الثقافة، 1377/ 1958.

- الشنقطي(محمد غالي)، **الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين**، عني بطبعه ومراجعته عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، دار إحياء التراث الإسلامي ، مصر .

- الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1395/ 1992.

- الشوكاني (محمد بن علي)، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى سنة 1348 / 1930 في جزأين .

- **نيل الأوطار**، دار الجيل، بيروت، 1392/ 1973.

- الشيرازي (أبو إسحاق)، **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت سنة1389/ 1970.

- الصنعاني (عبد الرزاق بن همام، ت 211)، **تفسير الصنعاني** تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض الطبعة الأولى 1410 / 1989.

- الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم)، **مسند الشاميين**، تحقيق حمد ين عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1405/ 1984.

- **المعجم الكبير**، المحقق، حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر، مكتبة الزهراء، الموصل، سنة النشر، الطبعة الثانية، 1404/ 1983،.

- **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسني دار الحرمين، القاهرة، 1415/ 1994.

- الطبري (أحمد بن عبد الله)، **الرياض النضرة**، تحقيق عيسى عبد الله محمد صانع الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417/ 1996.

- الطبري (محمد بن جرير)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (تفسير الطبري)، دار الفكر، بيروت، 1984/ 1405.

- **تاريخ الأمم والملوك**، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت.

- العافية (عبد القادر)، **رحلة الحج ولقاء الشيوخ، التجيبي نموذجا**، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، سنة 1428/ 2006.

- العافية (عبد القادر)، »الاتجاه السلفي بالمغرب»، **دعوة الحق**، عدد 240 سنة 1984، الصفحات 72- 74.

- العبدري (أبو عبد الله محمد)، **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999/ 1404.

- العجلوني (إسماعيل بن محمد)، **كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى 1406 هـ. وتحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة 1405/ 1984.

- العجم (رفيق)، **موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1404/ 1999.

- العراقي (أبو الفضل)، **المغني عن حمل الأسفار**، تحقيق أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرباط، الطبعة الأولى، 1415/ 1994.

- العراقي (عبد الرحيم بن الحسين ت 806/ 1404)، **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، المطبعة الجديدة، فاس، 1354/ 1935، في 3 أجزاء.

- **الأربعين العشارية**، تحقيق بدر عبد الله البدر، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى 1413.

- عطية الله (أحمد)، **القاموس الإسلامي، موسوعة للتعريف بمصطلحات الفكر الإسلامي ومعالم الحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1383 / 1963 .

- عزة (كثير)، **ديوان** ، تحقيق د إحسان عباس، بيروت، 1390/ 1971.

- العزفي (أحمد)، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتابة، 1409/ 1989.

- العقيلي (محمد بن عمر بن موسى)، **ضعاف العقيلي**، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1404/ 1999.

- عمالك (أحمد)، **جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 1427/ 2006، في 3 أجزاء.

- «إسهام الزاوية الناصرية في ربط الصلات بين بلدان الشمال الإفريقي خلال القرنين 11 و 12/ 17 و 18»، **مجلة دار النيابة** عدد 22، السنة 1409/ 1989. الصفحات 18- 27 .

- العمراني (أحمد الأمين)، **الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي**، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1417/ 1996 .

- العمري (فضل الله)، **مسالك الأبصار**، تحقيق أحمد زكي، القاهرة[1958/1377] .

- عنان (محمد بن عبد الله) وآخرون، **فهارس الخزانة الحسنية**، إشراف ومراجعة أحمد شوقي بنبين، المطبعة الملكية، الرباط، 1421/ 2000.

- العياشي (أبو سالم عبد الله بن محمد)، **اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر**، تحقيق ودراسة نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، الطبعة الأولى سنة1417/ 1996 .

- **الرحلة العياشية** (ماء الموائد)، نشرها محمد حجي (مصورة بالأوفسيط) دار المغرب، الرباط 1977، في جزءين.

- **ماء الموائد، ليبيا وطرابلس وبرقة**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ومحمد عبد الهادي شعيرة ومحمود حسن عطية السعران و نبيل حسن محمد، منشأة المعارف بالإسكندرية 1996م.

- **إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء** ، تقديم وتحقيق محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1420/ 1999.

- عياض (القاضي)، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة وهي ،الموطأ، البخاري، ومسلم** ، المكتبة العتيقة، ودار التراث.

- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، طبعة وزارة الأوقاف، المغرب، ودار مكتبة الحياة، بيروت، 1384/ 1965 .

- الغالي (المهدي): «الشيخ مَحمد بن ناصر وظروف تأسيس الزاوية الناصرية»، **منجزات جمعية علماء سوس** ، منشورات جمعية سوس، الدار البيضاء، 1428/ 2007، الصفحات59– 88 .

- غربال (محمد شفيق)، **الموسوعة العربية الميسرة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصور عن طبعة مصر.

- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الطوسي)، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د . ت .

- **المستصفى من علم الأصول**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1983/ 1403.

- الفاسي (أحمد بن محمد بن عبد القادر) **الرحلة** ، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 88 ج.

- الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد الحسني قاضي المالكية بمكة)، **شفاء الغرام** ، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 1911 .

- الفاسي (عبد الرحمان)، **منتخبات من نوادر المخطوطات**، الخزانة الملكية، الرباط، 1398/ 1978

- الفاسي (عبد الرحمان بن عبد القادر)، **نظم العمل الفاسي**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 5475.

- الفاسي (محمد بن أحمد)، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق فؤاد سيد ورفاقه، بيروت، 1406/ 1986.

- الفاسي (محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف)، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، دراسة وتحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، 1429/ 2008.

- الفاسي (محمد المهدي)، **تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية**، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 2990 ك .

- **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع**، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى سنة 1414/ 1994 .

- الفاكهي، **أخبار مكة**، تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، 1414/ 1994 .

- الفسوى (أبو يوسف بن سفيان)، **المعرفة و التاريخ**، تحقيق خليل المنصوري، دار الكتب العلمية، . بيروت، 1419 / 1999 .

- الفكيكي (حسن)، **سبتة المغربية صفحات من الجهاد الوطني**، سلسلة المعرفة للجميع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.

- فهيم (حسين محمد)، **أدب الرحلات**، عالم المعرفة عدد138، [شوال1409/] يونيو 1989 .

- فوري (محمد عبد الرحمان المبارك)، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، دار الكتب العلمية، بيروت. د . ت .

- الفيروز آبادي(محمد بن يعقوب)، **القاموس المحيط** ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- القادري (محمد بن الطيب الحسني)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول 1978م، والجزء الثاني، [1402/] 1982.

- **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم العلوي رسالة مرقونة بكلية الآداب، الرباط في 3 أجزاء.

- القاضي (صاعد الأندلسي)، **طبقات الأمم**، تحقيق حياة بوعلوان، بيروت، [1402/] 1985 .

- القالي (إسماعيل بن القاسم، ت356 هـ)، كتاب **الأمالي**، منشورات دار الآفاق، بيروت .

- القبلي (محمد)، «مساهمة في تاريخ تمهيد ظهور الدولة السعدية»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط عدد 3 – 4 مزدوج سنة 1398/ 1978 . الصفحات 7– 59.

- القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري)، **جامع أحكام القرآن**، تحقيق جماعة من الباحثين، بيروت، 1385/ 1965 – 1966.

- القدوري (عبد المجيد)، «صورعن أوربا من خلال ثلاث رحلات مغربية وبعض المراسلات الرسمية»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، عدد 15 سنة 1410/ 1990. الصفحات 45– 66.

- **ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت**، منشورات عكاظ ، الرباط، سنة1411/ 1991.

- القشيري(عبد الكريم) **الرسالة القشيرية في علم التصوف**، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الثانية .

- القنوجي (أبو الطيب سيد صديق)، **الحطة في ذكر الصحاح الستة**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1405/ 1985.

- القيرواني (الحسن بن رشيق الأزدي)، **العمدة في مجلس الشعر وآدابه**، تحقيق محمد قرقزان، رسالة مرقونة بكلية الآداب الرباط سنة 1983 ، في 3 أجزاء .

- القيطوني (إدريس)، **معجم المطبوعات المغربية**، تقديم عبد الله كنون، مطابع سلا، 1408/ 1988.

- الكتاني (عبد الحي بن محمد الحسني الفاسي)، ، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء إحسان عباس. دار الغرب الاسلامي بيروت، الطبعة الثانية، 1402 / 1982.

- **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب**، تحقيق أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود، منشورات الخزانة الحسنية، 2004م .

- الكتاني (محمد بن جعفر)، **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة**، تحقيق محمد المنتصر ومحمد الزمزمي الكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1406 / 1986.

- الكتبي (محمد بن شاكر)، **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1392/ 1973.

- كحالة (عمر رضا الدمشقي)، **معجم المؤلفين**، بيروت، الطبعة الأولى 1993؛ و دار إحياء التراث العربي، بيروت. د. ت.

- **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، طبعة دمشق سنة 1359/ 1940 .

- الكوهن (أبو علي الحسين بن محمد بن قاسم)، **جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية**، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة 1422/ 2001.

- **لامية الزقاق** ، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 3050 ورقم 4255 (المخطوط غير مرقم).

- المازني (جمال الدين أبي الحجاج يوسف)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، إشراف د سهيل زكار، دار الفكر، بيروت سنة 1413/ 1993 .

- ماك (كول)، **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة**، ترجمة محمد الحمداوي، دار الثقافة البيضاء، 1396/ 1975 .

- المحبي (محمد أمين بن فضل الله الدمشقي)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، طبعة مصر، 1284/ 1867.

- محمد فؤاد (عبد الباقي)، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1401/ 1980.

- محمود (إسماعيل)، **الخوارج في بلاد المغرب**، دار الثقافة، 1395/ 1976 .

- محفوظ (محمد)، **تراجم المؤلفين التونسيين**، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية، سنة 1414/ 1994 ، 5 أجزاء.

- مخلوق (محمد بن محمد بن قاسم)، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424/ 2003، في مجلدين .

- مزين (محمد)، **فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 - 1637** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، سنة 1406/ 1986 .

- المسعودي، **التنبيه والإشراف**، مكتبة خياط، بيروت، 1384/ 1965 (طبعة مصورة عن الطبعة الأوربية).

- **المعجم العربي الأساسي**، تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، 1991.

- **معلمة المغرب**، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ،نشر مطابع سلا، 1421/ 2000.

- المقدسي (أبو شامة)، **ذيل الروضتين** تحقيق عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، سنة 1393/ 1974.

- المقرئ (عثمان بن سعيد الداني)، **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها**، تحقيق، ضياء الله بن محمد إدريس المبارك فوري دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى، 1416.

- المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، حققه د إحسان عباس، بيروت، طبعة جديدة، 1417/ 1997 .

- المقريزي (أحمد بن علي)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار من تواريخ مصر**، دار صادر، بيروت، د . ت.

- مكامان (محمد)، **الرحلات المغربية في القرنين 17 و18م**، رسالة مرقونة بكلية الآداب الرباط، 1406/ 1986.

- المناوي (عبد الرؤوف)، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الأولى سنة 1356 [/ 1937].

- **التعاريف**، تحقيق د محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت ، دمشق سنة 1410/ 1989

- المنذري (عبد العظيم بن عبد القوى)، **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف** تحقيق إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417/ 1996.

- المنوني (محمد بن عبد الهادي المكناسي)، **دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتامكروت**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1405 / 1985.

- **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، مطبعة فضالة، المغرب، سنة 1410 / 1989 .

- **دور الكتب في الماضي والحاضر**، منشورات الخزانة الحسنية، 1425/ 2005 .

- «حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار»، **دعوة الحق**، عدد 2، السنة 1393/ 1973م، الصفحات 130- 152 . وعدد 3 نفس السنة، الصفحات 153- 163 .

- **من حديث الركب المغربي** ،معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن ، تطوان، [1372/ 1953].

- **موسوعة أعلام المغرب** ، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1417 / 1996.

- **الموسوعة العربية الميسرة**، بإشراف محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصور عن طبعة مصر سنة 1384/ 1965 .

- الميداني، (أبو الفضل أحمد بن محمد)، **مجمع الأمثال للميداني** ، قدم له وعلق عليه نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1425/ 2004 . و تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار الجيل، بيروت. الطبعة الثانية، 1407/ 1987.

- الناصري (أحمد بن خالد السلوي)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1375/ 1956، في 9 أجزاء.

- **طلعة المشتري في النسب الجعفري**، نشر المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم سلا، مطبعة سيرار، الدار البيضاء، د. ت .

- الناصري (سليمان بن يوسف)، **إتحاف الخل المعاصر، بأسانيد أبي المحاسن يوسف بن محمد الكبير بن ناصر**، تحقيق صالح أيت بابا، د. د. العليا المعمقة، كلية ابن مسيك، البيضاء، 2007 م، ص 341- 343 .

- الناصري (محمد بن عبد السلام)، **الرحلة الناصرية الكبرى** مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 5658 و رقم 6904 . ومخطوط الخزانة الوطنية للمملكة المغربية تحت رقم 2327 د، و رقم 2651 د، ونسخة خاصة قدمت ضمن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات دورة 2009 .

- **المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا**، دراسة وتحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1424/ 2002.

- **الرحلة الصغرى**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 121 .

- **تقييده بشيوخه المغاربة والشارقة**، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 950 ق ، ضمن مجموع.

- **شرح أربعين حديثا** ، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 137 ق ، ضمن مجموع.

- الناصري (الشيخ مَحمد بناصر)، **الأجوبة الناصرية في بعض مسائل**، جمعها تلميذه محمد أبو القاسم الصنهاجي، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم 1111د ، ومخطوط الخزانة الحسنية، رقم 646 و1018 .

- النبهان (محمد فاروق)، **المدخل للتشريع الإسلامي**، دار القلم، الطبعة الثانية، 1981 .

- النبهان (يوسف بن إسماعيل)، **جامع كرامات الأولياء** ، المكتبة الثقافية، لبنان، سنة 1408/ 1988.

- النسائي، **السنن الكبرى كتاب الحج باب فضل العمرة**، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1991/ 1411.

- **السنن الصغرى (المجتبى)**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية 1986/ 1406.

- النميري (أبو زيد عمر بن شبية البصري)، **أخبار المدينة** تحقيق علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417 / 1996.

- النووي (يحي بن شرف بن مري)، **شرح النووي على صحيح مسلم** ، كتاب البيوع ، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى 1392/ 1972. والطبعة الثانية، 1392 هـ.

- **تهذيب الأسماء واللغات**، مكتب البحوث والدراسات، دارالفكر، بيروت، 1417/ 1996.

- **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة 1421/ 2000.

- الهروي (علي بن سلطان)، **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى)**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1390/ 1970 .

- الهيثمي (أبو بكر)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي القاهرة، بيروت سنة 1407 / 1986.

- الوادي آشي (محمد بن جابر)، **برنامج الوادي آشي**، تحقيق محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1400/ 1980.

- الوزان (الحسن بن محمد)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1403/ 1983.

- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب**، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي و أحمد الشرقاوي و إقبال ومحمد العرائشي، نشر وزارة الأوقاف المغربية، طبعة دار الغرب الإسلامي سنة 1401/ 1981 . 13 جزء.

- اليافعي (عبد الله بن أسعد)، **مرآة الجنان وعد اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417/ 1997.

- ياقوت (علي محمد البجاوي)، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، وهو مختصر معجم البلدان الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، 1373 / 1954.

- اليوسي (الحسن بن مسعود)، **المحاضرات**، أعدها للطبع محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396 / 1976.

2 - الأجنبية :

-Binebine (Ahmed Chouqui) : *Histoire des bibliothéques au Maroc* . fac des letters et sc humaines de Rabat 1992 .

-Benjelloun (Latifa) : *Les bibliothéques au Maroc* , Edition G-P ,Maisonneuve et Larose , 1990.

-.Berque (Jacques) . *Al- Youssi , Problèmes de la culture marocaine au 17éme siecles* ,Mouton et c. o / La Haye, Paris, 1958.

- Bodin (M): « La Zaouia de Tamegrout et les Naciriyines » , *in Archives Berberes*, vol 3, FASC . 1 . Année- 1918

- Cattenoz (H.G) : *Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne* , 2e edition , les éditions techniques nord- africaines , Rabat 1954.

-Chevalier (j)et Gheebrant : *Dictionnaire des Symboles-mythes reves coutumes – gestes – formes – couleurs – nombres – Seghers* 7e édition 1974 (4 T). Puit - eau.

-Conetti (E) :*Masse et puissance*, Paris Gallimard 1960.

- Drague (G) : *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, confréries et Zaouias*, Paris , 1951.

- Meunié(Jacques) : *Le Maroc saharien des origines a 1670*, Paris,1982, en 2T.

- Spillmann (G) : *les Ait Atta du sahara et la pacification du haut Draà*, Rabat,1936 .

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

تصنف **الرحلــة الناصرية الكبرى** لمحمد بن عبد الســلام النــاصري (ت 1239 /1823) ضمن كتب الرحلات الحجازية، وهي من أهم ما وضعه المغاربة في هذا الفن الذي برزوا فيه، دون فيها الناصري حصيلة عام ونصف، هي المدة التي قضاها في رحلته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1196/ 1782 ثم العودة إلى بلده.

تزخر الرحلة بالمعلومات والاستطرادات الكثيرة والمفيدة حول المناطق والمجتمعات التي مر بها الناصري، فهي - كما وصفها صاحبها - ديوان علم وسمر، أخذ من كل علم بطرف، اعتمد في تدوينها، بالإضافة إلى مصادر كثيرة ومتنوعة، على تجربته الشخصية ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار والاتصال بالعلماء مباشرة. والقصد الوقوف على الحقيقة ، كما قال. وتبقى نصوص الإجازات التي استوعبتها الرحلة الأكثر تعبيرا عن التواصل بين المغرب والمشرق الإسلاميين.

